التنبيه

شرح الحكم العطائية

تأليف
الإمام ابن عباد

شرف بخدمته
أنس الشرفاوي

دار التقوى
دمشق الشام

التنبيه

شرح الحكم العطائية

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّنْبِيهُ

شَرْحُ الحِكَمِ العَطَائِيَّةِ

المُشْتَهِرُ بـ «غَيْثِ المَوَاهِبِ العَلِيَّةِ»

تَأْلِيفُ

إِمَامِ المُحَقِّقِينَ وَسَيِّدِ العَارِفِينَ

أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبَّادٍ النَّفْزِيِّ

الحِمْيَرِيِّ الرُّنْدِيِّ المَالِكِيِّ

(٧٣٣ - ٧٩٢هـ)

حُقِّقَ عَلَى سِتِّ نُسَخٍ خَطِّيَّةٍ مُنْتَخَبَةٍ نَفِيسَةٍ

شَرُفَ بِخِدْمَتِهِ

أَنَس مُحَمَّد عَدْنَان الشَّرْفَاوِي

دَارُ التَّقْوَى

دمشق الشام

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: التنبيه شرح الحكم العطائية

المؤلف: مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبَّادٍ النَّفْزِيُّ الرُّنْدِيُّ

الطبعة الأولى: ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

الرقم الدولي: 978-9933-610-17-3

9789933610173

لايسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه، وبأي شكل من الأشكال، أو نسخه، أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه، وكذلك ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار التقوى
دمشق الشام

هاتف: ٢٢١٥٤٦٤ ١١ ٩٦٣+ / ص . ب: ٣٠٧٢١
جوال: ٩٣٣٢٠٦٠٠٧ ٩٦٣+ / ٩٤١٩٤٤٣٨٧ ٩٦٣+
daraltaqwa.pu@gmail.com

قالوا في «التنبيه»:

خزانة علم، وعيبة فهم، وبساط حكم.

العلامة زروق

بستان الفن، وخزانة أحكامه، وجامع لبه، لا يكفي غيره عنه، ويكفي هو عن غيره.

عبد المجيد الزبادي

أبى الله أن يقبل إلا «شرحه» عليها.

نقله الحافظ محمد بن جعفر الكتاني

قالوا في الإمام ابن عباد :

ابن عبّاد أُمّةٌ وحده .

شيخه الإمام أحمد بن عاشر

واحد عصره بالمغرب .

تلميذه ابن السّكاك

له في التصوّف قلم انفرد به ، وسُلّم له بسببه .

عصريّه ابن قنفذ

ما أنا في كلّ ما أكتبه إلّا خلف ركابه ،
وسائل ممدود اليد خلف أبوابه .

العلّامة زرّوق

بين يدي الكتاب

نحمدُكَ اللهمَّ علىٰ ما هديتَنا واستنقذتَنا برحمتِكَ المرسلة للعالمين ؛ سيِّدِنا ومولانا عبدِكَ الإنسان الكاملِ محمدِ بن عبد الله صفوتِكَ من خلقك ؛ زِدْهُ يا بارئَنا من خاصِّ صلواتك وجميلِ تسليماتك ما تُبهِجُ به فؤادَهُ ، وتطيِّبُ خاطرَهُ في أُمَّتِهِ ، وتلحقُنا به عندك راضياً عنَّا ، غيرَ خزايا ولا ندامىٰ ، واجزِ آلَهُ وصحبَهُ عنَّا خيرَ ما جزيتَ آلَ نبيٍّ وصحبَهُ عن أمَّته ، إنك رؤوفٌ رحيم

وبعـدُ :

فقد قال الحبيب الأعظمُ صلى الله عليه وسلم « إنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ ، وخيرَ الهُدَىٰ هُدَىٰ محمدٍ ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ »(١) ، **ولله درُّهُ من حديثٍ مبارك صانَ الأمَّةَ وأغناها عن عنتٍ كثير** ، إلىٰ أن ظهرَتْ معطِّلةُ النصوص والعقول ، ومشبِّهةُ الأسماء والصفات ؛ فحجَّروا من الدين ما كان واسعاً ، ومنعوا الفهْمَ وحَجَروهُ علىٰ أنفسهم ، ونعتوا مخالفيهم بالبدعةِ ، وكانوا هم أحقَّ بها وأهلَها ، حتىٰ كاد هٰذا الأثرُ لكثرةِ ما يردِّدونه علىٰ ألسنتهم ويتبجَّحون به . . يصير عَلَماً عليهم ، وقد قال في صفتِهم نبيُّنا عليه الصلاة والسلام : « سفهاءُ الأحلامِ ، يقولونَ مِنْ خيرِ قولِ البريَّةِ »(٢) ؛ يعني : الكتابَ والسنة

أوليسَ قد قال ربُّنا ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣]

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

(٢) رواه البخاري (٣٦١١) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه

وقال : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢] ؟!

أوَلم يقل نبيُّهُ ومصطفاه : « لا حسدَ إلا في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فسُلِّطَ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلِّمُها »[1]

ويقل : « الحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ »[2]

ويقل « إذا رأيتمُ الرجلَ قد أُعطيَ زهداً في الدنيا ، وقلَّةَ منطقٍ . . فاقتربوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلَقَّى الحكمةَ » ؟![3]

أوَما دعا لسيدنا ابن عباس فقال : « اللهمَّ ؛ علِّمْهُ الحكمةَ » ؟![4]

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الحديثَ المبارك إنما يُفهمُ بمعيَّة هـٰذه النصوص الظواهر

وبعد هـٰذا يأتيكَ أدعياءُ الاتِّباع فيقولون : ما كان أغنانا عن هـٰذه « الحِكَمِ » التي أقبلَ عليها الناسُ متعلِّمين عاملين ، تاركين لسنَّةِ سيد المرسلين ؟! أوَليسَ في كتاب الله وسنة رسوله غَناءٌ عنها ؟!

أمَا واللهِ إنَّ في كلام الله وهدْيِ مصطفاه لغَناءً عمَّا سواهما ، ولا يغني شيءٌ عنهما ، وفي كلامهما ما سمعت وأبصرت

فمَنْ منَّا يهجرُ العمل بوصايا الكتاب والسنة : رجلٌ استبصرَ وآتاه الله علماً وفهماً ، فبصَّرَ عبادَ الله بما فتحَ الله عليه وفهَّمه منهما ؟! أم آخرُ جعلَ العلم حِفْظاً

---

(١) رواه البخاري (٧٣) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٣٤٩٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠١) من حديث سيدنا أبي خلاد رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري (٣٧٥٦) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد فسَّر البخاري الحكمة فقال معقِّباً : (الحكمة : الإصابة في غير النبوة) .

للكتاب والآثار ، ثم هو يرتجُ بابَ الفهم والتدبُّر ، ويمنعُ من إظهار دُرَرِ ويواقيتِ الكتاب والسنة ؟ ![1]

وأمَّا دعوىٰ أنَّ المقبلينَ على « الحكم العطائية » يتركون السنة . . ففريةٌ مفضوحة ، بل هي يدٌ حانية تدفعُ الناس وتسوقُهم إلى التمسُّك بالسنة والتحلِّي بآدابها ، ولَلفتةُ ناظرٍ فيها تنبئ بهـٰذا ، ومَنْ منَّا يخفىٰ عليه أنَّ الصوفيةَ هم ساداتُ المسلمين ؟!

فما تحت أديمِ السماء قومٌ أُشربوا في قلوبهم السنَّةَ وأشرقَتْ علىٰ جوارحهم كهـٰؤلاء القومِ الذين لا يشقىٰ بهم جليس .

فاللهمَّ ؛ إنَّا نشهدُكَ بأنَّنا بعد حبِّكَ وحبِّ نبيِّكَ عليه الصلاة والسلام نحبُّهم ، ونحبُّ مَنْ يحبُّهم ، ونتقرَّبُ بمحبَّتهم إليك ، ولهـٰذه المحبَّةُ أوثقُ أعمالنا ، وأرجاها بعد رأفتِكَ وشفاعة نبيِّك عندنا ، فلا تحرمنا محبَّتَهم والسيرَ علىٰ طريقِهم ما أحييتَنا مولانا

ولعلَّ « حِكَمَ » الفقيهِ المالكي الإمامِ ابن عطاء الله الإسكندري رحمه الله تعالىٰ . . من أبرز الكتب التربوية في المكتبة الأخلاقية وأعلاها كعباً ؛ تعاهدتها أيدي العلماء ، وحفظَها ودرَّسها المحدِّثون والفقهاء ، وأقبلوا عليها شرحاً وتحشيةً ونظماً حتىٰ قاربت شروحُها المئة ، وشرَّقَتْ وغرَّبَتْ في ركاب القبول ، وما زالَتْ ترحلُ عبرَ الحقب والقرون ، يستهدي بهديها المحبُّون ، ويستبصرُ بحفظها والعملِ بما فيها السالكون

وقد كان لـ « دار التقوىٰ » العامرة بدمشق الشام . . صبرٌ وأناةٌ في إخراج هـٰذه الطبعة الرائقةِ لأعظمِ وأوَّلِ شرحٍ لـ « الحكم العطائية » ، فجمعَتْ له أنفسَ نُسخِهِ

---

(١) ولمَّا مثَّل الإمام عزُّ الدين بن عبد السلام في « قواعد الأحكام » (٢/٣٣٨) للبدع المندوبة . . قال : (ومنها : الكلام في دقائق التصوف) .

الخطية ، ولم تبخلْ بكتابٍ في سبيل تحصيلِ الجودة في مسيرته العلمية ، فكسَتْهُ من سندسِ الجمال وإستبرقِ الكمال ما هو له أهلٌ ، **فأتىٰ كما تراه دُرَّةً يُرصَّعُ بها إكليلُ المكتبة الإسلامية** ، والفضلُ والتوفيق من قبلُ ومن بعدُ له سبحانه ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون

ترجمة
الإمام ابن عطاء الله الإسكندري

الإمامُ الفقيه الراسخ ، علَمُ الصدِّيقين ، ومربِّي العارفين ؛ تاجُ الدين أبو الفضل[1] أحمدُ بن أبي بكرٍ محمدِ بن أبي محمدٍ عبدِ الكريم **بن عطاءِ الله** بن عبد الرحمـٰن بن القاسم الجُذاميُّ نسباً[2] ، المالكيُّ مذهباً ، الشاذليُّ مشرباً ، الإسكندريُّ ثم القاهريُّ داراً[3] ، القرافيُّ مزاراً

نشأته العلمية ، ووصلته الصوفية

ويظهرُ أن الإمام كان من أسرة علمٍ ومجد ، فجدُّهُ فقيهٌ كبير من فقهاء المالكية[4] ، وقد ورث الإمامُ هـٰذا المنصب عنه بعد سلوكه في طريق القوم

كما يظهرُ هـٰذا الأثر العلميُّ في أخي الإمام ابن عطاء ؛ وهو العلامة المفتي أبو البركات محمدُ بن محمدِ بن عبد الكريم بن عطاء الله ، وقد ذكر الحافظ الإمام

---

(١) وبأبي العباس كنَّاه العلامة ابن فرحون اليَعْمَري في « الديباج المذهب » (١/ ٢٤٢) ، والحافظ الزبيدي في « تاج العروس » (ش د ل) ، ولعل كنيته بأبي العباس سرت إليه أو غلبت عليه من شيخه المرسي ، إلا أنه بأبي الفضل أشهر وأعرف في عموم كتب الترجمات .

(٢) **الجُذامي** : نسبة إلىٰ قبيلة يمنية ، هي ولخم نزلتا الشام . انظر « الأنساب » (٣/ ٢٢٤) .

(٣) قال الإمام ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٢٣) : (واستوطن الشيخ تاج الدين القاهرة يعظ الناس ويرشدهم) .

(٤) قال الإمام السيوطي في « حسن المحاضرة » (١/ ٤٥٦) في صفة جده العلامة عبد الكريم بن عطاء الله : (كان إماماً في الفقه والأصول والعربية ، تفقه علىٰ أبي الحسن الأبياري) ، وفي « لطائف المنن » (ص ١٠٣) بشارة من العارف بالله أبي العباس بأنه سيخلف جدَّهُ في العلم الظاهر مع زيادة ؛ حيث قال فيه : (والله ؛ ما أرضىٰ له بجلسة جده ، ولـٰكن بزيادة التصوف)

ابنُ الملقِّنِ أنه اجتمع به ، وتبرَّك به بلبس الخرقة المعهودة عند القوم ؛ حيث قال : (وألبسنيها بثغرِ الإسكندرية في رحلتي الأولىٰ إليها ؛ في يوم الأربعاء في الحادي والعشرين من شعبان سنة خمس وخمسين وسبع مئة . . الإمامُ العلامة مفتي الإسلام شرف الدين أبو البركات محمدُ بن الإمام فخر الدين أبي بكر محمد بن العلامة أبي محمد عبد الكريم بن عطاء الله بن عبد الرحمـٰن بن القاسم الجُذاميُّ المالكي ، **أخو الشيخ تاج الدين بن عطاء الله** ، ومولده ثالث عشرين صفر سنة ثلاث وسبعين وست مئة ، قال ألبسني الإمام القدوة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان الفامي المالكي ، ومات سنة ثلاث وثمانين وست مئة ، قال وكان لباسي أنا وأخي تاج الدين أحمد ، وكذا لأخي عبد الكريم بن الشيخ أبي عبد الله بن النعمان . . علىٰ وجه الصحبة والتبرك خاصة ، لا علىٰ وجه الاقتداء ؛ إذ أنا شاذلي خاصة ، قال وكنت أتردَّدُ مع **أخي الشيخ تاج الدين في صغري علىٰ سيدي الشيخ أبي العباس المرسي** ، قال وشاهدت جنازته في سنة ستٍّ وثمانين وست مئة بالإسكندرية)[1]

كما يظهر هـٰذا في الألقاب الفخيمة لهـٰذه الأسرة الكريمة ؛ فأخو الإمام هنا لُقِّب بمفتي الإسلام ، وجملة من أجداده نعتوا بالإمامة والعلم ، فلا غروَ أن يكون الإمام تاج الدين أحد الأعلام المبرِّزين

وليس بين أيدينا طويلُ حديث عن أيام الطلب والتلقي ، إلا أن الحافظ ابن حجر نقل أن الإمام ابن عطاء الله شاركَ في الفقه والأدب ، وسمع من أبي المعالي أحمد بن إسحاق الأَبَرْقُوهي ؛ وهو يومَها مسندُ الديار المصرية ، بل صرَّح بالتحديث عنه في بعض الروايات المسندة في « لطائف المنن » ، وقرأ النحو علىٰ محيي الدين المازوني ؛ وهو شيخُ النحاة في تلك الديار[2]

---

(١) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٥٠٠)

(٢) انظر « الدرر الكامنة » (١/ ٢٧٤) ، وانظر الحديث عن شيوخه (ص ١٥) .

والإمام ابنُ عطاء لم يكن من الذين وصلوا إلىٰ رتبة الإحسان بمحضِ السماع والتقليد ، أو فُطروا عليه جذباً من غير عناء مجاهدة ومرابطة ، **بل نشأ نشأةً أبَتْ نفسُهُ فيها أن تُستتبعَ** ، فهو الفقيهُ المالكي ، والأثري الأديب ، وكان قد سمع أن الصوفيةَ الذين ضمَّتهم الزوايا أصحابُ دعاوىٰ عريضة ؛ إذ ليس وراءَ ما ظهر من العلم مرامٌ يقصد ، أو سبيل يُسلك ، وأن ما يحدِّثون به مَنْ حولهم ما هو إلا حديث خرافة ؛ لا رصيدَ له من اليقين ، ولا كسوةَ رضاً عليه من ربِّ العالمين

ولنترك الشيخَ الإمام ابنَ عطاء يحدِّثنا عن وُصلتِهِ بطريق القوم المصطفَينَ الأخيار ، وكيف انقلبَتْ به الحال من منكرٍ عنيد عتيد ، إلىٰ صدِّيقٍ مؤتمنٍ علىٰ طريق القوم ، وهو حديثٌ ذاع واشتَهر ، حتىٰ صار عبرة من العِبَر ؛ قال رحمه الله تعالىٰ :

(وكنت أنا لأمره ـ يعني : الإمام أبا العباس المرسي ـ من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لا لشيءٍ سمعتُهُ منه ، ولا لشيءٍ صحَّ نقلُهُ عنه ، حتىٰ جرت بيني وبين بعض أصحابه مقاولةٌ ، وذلك قبل صحبتي إيَّاه ، وقلت لذلك الرجل : **ليس إلا أهلُ العلم الظاهر ، وهـٰؤلاء القومُ يَدَّعُونَ أموراً عظاماً ، وظاهر الشرع يأباها !**

فقال ذلك الرجلُ بعد أن صحبتُ الشيخَ تدري ما قال لي الشيخ يوم تخاصمنا ؟ قلت لا ، قال : دخلتُ عليه ، فأوَّل ما قال لي هـٰؤلاء كالحجر ، ما أخطأكَ منه . . خيرٌ ممَّا أصابك ؛ فعلمت أن الشيخَ كُوشف بأمرنا

ولعمري ؛ لقد صحبتُ الشيخَ اثني عشر عاماً ، **فما سمعتُ منه شيئاً ينكرُهُ ظاهرُ العلم من الذي كان ينقلُهُ عنه مَنْ يقصدُ الأذىٰ**

وكان سببَ اجتماعي به أن قلتُ في نفسي بعد أن جرت المخاصمةُ بيني وبين ذلك الرجل : دعني أذهبْ فأرىٰ هـٰذا الرجل ؛ **فصاحبُ الحقِّ له أماراتٌ لا يخفىٰ شأنه** .

فأتيت إلىٰ مجلسه ، فوجدته يتكلَّم في الأنفاس التي أمر الشارع بها ، **فقال** :

الأول إسلام ، والثاني إيمان ، والثالث إحسان ، **وإن شئت قلت** : الأول : عبادة ، والثاني : عبودية ، والثالث : عبودة ، **وإن شئت قلت** : **الأول** : شريعة ، والثاني : حقيقة ، والثالث : تحقُّقٌ

أو نحو هـٰذا ، فما زال يقول « وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت » إلىٰ أن أبهرَ عقلي ، وعلمت أن الرجل إنما يغترفُ من فيض بحرٍ إلـٰهي ومددٍ رباني ؛ فأذهب الله ما كان عندي[1]

ثم أتيت تلك الليلةَ إلى المنزل ؛ فلم أجدْ فيَّ شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل علىٰ عادتي ، **ووجدتُ معنىً غريباً لا أدري ما هو** ؛ فانفردت في مكان أنظرُ إلى السماء وإلىٰ كواكبها ، وما خلقَ الله فيها من عجائب قدرته ، فحملني ذلك على العودة إليه مرةً أخرىٰ ، فأتيت إليه ، فاستؤذن لي ، فلمَّا دخلت عليه قام قائماً ، وتلقَّاني ببشاشة وإقبال ، حتىٰ دهشتُ خَجِلاً ، واستصغرتُ نفسي أن أكون أهلاً لذلك .

فكان أوَّل ما قلت له يا سيدي ، أنا واللهِ أحبُّكَ ، فقال أحبَّكَ الله كما أحببتَني

ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان ؛ فقال **أحوالُ العبد أربعةٌ لا خامسَ لها** : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية

فإن كنتَ **بالنعمة** فمقتضى الحقِّ منك **الشكر**

وإن كنتَ بالبلية فمقتضى الحقِّ منك **الصبر**

وإن كنتَ **بالطاعة** فمقتضى الحقِّ منك **شهود المنة**

وإن كنتَ **بالمعصية** فمقتضى الحقِّ منك **وجود الاستغفار** .

فقمتُ من عنده وكأنَّما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته

ثم سألني بعد ذلك بمدة : كيف حالك ؟ فقلت : أفتِّش على الهمِّ فلا أجده ،

---

(١) وذلك لوجود الصدق ؛ فالصدق سيف الله تعالىٰ ، ما وضع علىٰ شيء إلا قطعه .

فقال رضي الله عنه[1] [من مجزوء الكامل]

ليلـــي بـــوجهِـــكَ مشـــرقٌ وظـلامُـهُ فـي النـاسِ سـارِي
والنـــاسُ فـــي سَـــدَفِ الظـــلا مِ ونحـــنُ فـــي ضـــوءِ النهـــارِ

الزمْ ، فوالله ؛ لئنْ لزمتَ لتكونَنَّ مفتياً في المذهبينِ .

يريد : مذهبَ أهل الشريعة أهلِ العلم الظاهر ، ومذهبَ أهل الحقيقة أهلِ العلم الباطن)[2]

وقد دارت عجلةُ الزمن لتكشف النقاب عمَّا خبأَتْ للإمام تاج الدين أقدارُ الله التي لا تعاند ، وقالت الأيام : صدقت بشارتُك الملهمةُ أبا العباس ؛ إذ كنت تنظرُ بنور الله سبحانه

شيوخه

وقد اشتهر للإمام ابن عطاء الله جملةٌ من الشيوخ أخذَ عنهم ؛ منهم :

ـ **أبو العباس أحمدُ بن عمر بن محمد الأنصاري المرسيُّ**

يعدُّ شيخُ الشيوخ الإمام أبو العباس المرسيُّ الشيخَ الرئيس في حياة الإمام ابن عطاء الله ، ولا داعيَ لنقلِ كلامِ المؤرِّخين في أخذه عنه بعدما ستقرأ قريباً ، وقد رأيتَ قبلُ أثرَهُ في نفسه ، وكيف قُلبت حاله بعد اجتماعه به ، وأنه كان الإكسير في صيرورته ذهباً إبريزاً[3]

---

(١) البيتان في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٧٠) من غير نسبة .

(٢) انظر (ص ٢١ ، ١٦٩) ، و« لطائف المنن » (ص ١٠٥) ، وقد اختصر هـٰذه الرواية المنورة المؤرخ الإمام اليافعي في « مرآة الجنان » (٤/ ١٨٥) بقوله (كان فقيهاً عالماً ينكر على الصوفية ، ثم جذبته العناية إلى اتباع طريقتهم الرضية ، فصحب شيخ الشيوخ أبا العباس المرسي وانتفع به وفتح له علىٰ يديه ، بعد أن كان من المنكرين عليه) .

(٣) انظر (ص ٥٠) .

وللإمام الإسكندريِّ مذهبٌ معتبر في وجوب اتخاذ شيخٍ مربٍّ دالٍّ على الله تعالىٰ ؛ حيث قال رحمه الله تعالىٰ : (وكلُّ مَنْ لم يكن له أستاذٌ يصلُهُ بسلسلة الأتباع ، ويكشفُ له عن قلبِهِ القناع . . **فهو في هـٰذا الشأنِ لقيطٌ لا أبَ له ، دعِيٌّ لا نسبَ له** ، فإن يكن له نورٌ فالغالبُ غلبةُ الحال عليه ، والغالبُ عليه وقوفُهُ مع ما يردُ من الله إليه ، لم تَرُضْهُ سياسةُ التأديب والتهذيب ، ولم يقدْهُ زمامُ التربية والتدريب)[١]

ثم قال مبيِّناً شيخه الذي وصله بسلسلة الأتباع الصادقين : (**وشيخنا وإمامنا وقدوتنا في هـٰذا الشأن** : أوحدُ وقته ، وعلامة زمنه ، علم العارفين ، قطبُ المُهْدين ، مظهر سناء الحقيقة ، ومبيِّن معالم الطريقة ، العالم بالأسماء والحروف والدوائر ، الجامع لعلم الظواهر والسرائر ، سيدنا ومولانا ؛ **شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسي الشاذلي** قدَّسَ الله روحه ، ونوَّرَ ضريحه ، هو الذي اقتبسنا من أنواره ، وسلكنا علىٰ نهج آثاره

وهو الذي أسرعَ بأسرارنا حتىٰ لحقت ، وفتق ألسنتَنا حتىٰ نطقت ، غرس غِراسَ المعرفة في قلوبنا فأينعت ثمراتُها ، وفاحت زهراتُها ، وهو الذي بفضل الله وعدنا ، وبالكلام في العلمينِ أشارَ لنا ، **لا ننتسبُ إلا إليه ، ولا نعتمدُ في هـٰذا الشأن إلا عليه**[٢] ، فمَنْ نسبنا إلىٰ غيره فهو بأمرنا جاهل ، أو عارف متجاهل ، ومن نسب

---

(١) انظر « لطائف المنن » (ص ٢٠٤)

(٢) **وكأني بعَجِلٍ يقول** : وأين الاعتماد على الله ؟! ولك أن تقول : وهل مثلُ هـٰذا الإمام الجبل تغيبُ عنه هـٰذه البدهية العقدية التي لا يجهلها مؤمن عامي ؟! ولـٰكنه أراد : أنه كما في علوم ظاهر الشريعة إمام معتمد يعوَّل عليه ، فلا يفتىٰ إلا بقوله ؛ فتقول : والعملُ في هـٰذه المسألة بقول الإمام فلانٍ مثلاً . . فكذا في علوم الحقيقة ما هو كذلك ، فليس العارفون بالله تعالىٰ علىٰ رتبة واحدة .
ثم هـٰذه سبيلٌ من لم تكن له بحبوحةٌ في فهم عبائر القوم . . فستنالُ منه أذىً كثيراً ، فصُمَّ أذنيك عنه ، وسلْ مولاك له الهداية والرشاد ؛ فما كلُّ ما يُعلم يقال ، ولا كلُّ ما يقال يفهم ، والله ولي التوفيق وحده .

تلميذاً إلىٰ غير أستاذه فهو كمن نسبَ ولداً إلىٰ غير أبيه ، وهـٰذه الأبوَّة أحقُّ أن يُرعىٰ نسبها ، وأجدرُ أن يحفظ سببُها ؛ إذ تلك الأبوَّةُ تفتقر إلىٰ هـٰذه ، وهـٰذه لا تفتقرُ إلىٰ تلك)[١]

وقد نظم الإمام ابن عطاء الله أكثرَ من قصيدة في الثناء علىٰ شيخه المرسي ، وقد ذاع بيتٌ كان يستعيدُهُ منه ؛ وهو قوله[٢] : (من الكامل)

كم مِنْ قلوبٍ قد أُميتَتْ بالهوىٰ أحيـا بهـا مِـنْ بعـدِمـا أحيـاهـا

ولولا خوفُ الإطالة لمُلئت الصفحاتُ بالحديث عنه وعن فضله ، وحسبُكَ بكتاب « لطائف المنن » لتلميذه الإمام ابن عطاء الله غِنىً ومغنىً[٣]

توفي الإمام أبو العباس المرسي سنة (٦٨٦ هـ) في الإسكندرية[٤]

ـ محيي الدين محمدُ بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر التلمساني الزَّناتي الكملاني المازوني[٥]

وهو أحد شيوخ النحو الذين عليهم المعول في عصره ، شاركه فيه ابن النحاس

---

(١) انظر « لطائف المنن » (ص ٢٠٤) .

(٢) انظر « لطائف المنن » (ص ١٨٧) ، و« مرآة الجنان » (٤/ ١٨٥)

(٣) وكان من جملة من حمل العلم والحال عن الإمام أبي العباس المرسي جماعة ؛ منهم : الشيخ ياقوت العرشي ، والإمام الأبوصيري ناظم « البردة » ، وأبو العزائم ماضي بن سلطان ، وغيرهم ، وكان للإمام المرسي مجلسٌ عظيم في الحقائق والمعارف والرقائق ، وكان تدريسه « التهذيب » و« رسالة ابن أبي زيد » في الفقه ، و« الإرشاد » لإمام الحرمين في أصول الدين ، و« المصابيح » للبغوي في الحديث ، و« المحرر الوجيز » لابن عطية في التفسير ، و« الإحياء » للغزالي ، و« قوت القلوب » لأبي طالب المكي ، و« نوادر الأصول » للحكيم الترمذي في الأخلاق والسلوك والمعرفة ، وناهيك بها

(٤) انظر « حسن المحاضرة » (١/ ٥٢٣)

(٥) **الزناتي** : نسبة إلىٰ زنات ؛ ناحية من سرقسطة ، **والمازوني** : نسبة إلىٰ حاضرة مازونة العلمية في الجزائر ، **والكملاني** : نسبة إلىٰ كُملان من بطون قبيلة هوارة من قبائل البربر

الحلبي في مصر[١] ، وابن مالك صاحب « الخلاصة » في دمشق[٢] ، وكان جامعاً للقراءات ، وأديباً لغوياً أيضاً

توفي العلامة محيي الدين المازوني سنة (٦٩٣ هـ)

ـ أبو المعالي أحمدُ بن إسحاق الأَبَرْقُوهي

ذكر الحافظ ابنُ حجر أنه سمع منه[٣] ، وهو يومها مسندُ الديار المصرية ، بل صرَّح بالتحديث عنه الإمامُ نفسُهُ في بعض الروايات المسندة في كتابه « لطائف المنن »

توفي الحافظ الأَبَرْقوهيُّ سنة (٧٠١ هـ) بمكة حاجّا وله سبع وثمانون سنة[٤]

تلامذته

وأمَّا بشأن من تلمذ للإمام ابن عطاء الله : فعامَّةُ كتب الترجمات تذكرُ أنه قد انتفع به خلقٌ كثير ، وتخرَّج في مدرسته نفوسٌ زكية رضية ، ومن جملة الأعلام الذين حفظتهم لنا ذاكرةُ التاريخ

ـ العلامة الفقيه النحوي البياني داودُ بن عمر بن إبراهيم الشاذلي الإسكندري المشهور بابن ماخلا :

قال الإمام السيوطي (قرأت بخطِّ الشيخ كمال الدين والدِ شيخنا الشمني : من الأئمة الراسخين ، تفقَّه على مذهب مالك ، له فنون عديدة ، وتصانيف مفيدة .

صحب الشيخ تاجَ الدين بن عطاء الله ، وأخذ عنه طريقَ التصوف ، وكان يتكلَّمُ على طريق القوم

---

(١) انظر « بغية الوعاة » (١/ ١٤)

(٢) انظر « الوافي بالوفيات » (٣/ ٢٩٠) .

(٣) انظر « الدرر الكامنة » (١/ ٢٧٤)

(٤) انظر « حسن المحاضرة » (١/ ٣٨٦)

صنف « مختصر التلقين » للقاضي عبد الوهاب في الفقه ، « مختصر الجمل » للزجاجي ، بديع ، وله كتاب في المعاني والبيان وغير ذلك ، مات بالإسكندرية سنة ثلاث وثلاثين وسبع مئة)(١)

وقال العلامة محمد مخلوف : (الشيخ داود الكبير بن ماخلا الشاذلي : العالم الشهير الإمام الفاضل ، العارف بالله الولي الواصل ، **أخذ عن ابن عطاء الله وانتفع** به ، وعنه الشيخ محمد وفا مؤلِّفُ « عيون الحقائق »)(٢)

ـ علمُ أهل السنة وإمامُ الأصوليين تقيُّ الدين عليُّ بن عبد الكافي السبكي :

قال الإمام ابنُ السبكي حينما عرض لترجمة الإمام ابن عطاء الله (كان أستاذَ الشيخ الإمام الوالد في التصوف)(٣)

ـ الإمامُ الأصولي شهاب الدين أحمد بن عبد الواحد اللخمي الإسكندري المعروف بابن الميلق

وكان قد صحبَ أيضاً العارفَ بالله تعالىٰ ياقوت العرشي ، كذا ذكر العلامة ابن مغيزيل الشاذلي(٤)

مؤلفاته

تراوحُ مؤلفات الإمام ابن عطاء الله بين كتبٍ قُطعت نسبتها إليه ، وأخرىٰ هي محلُّ شكٍّ وظنٍّ ، أو دعيّاتٌ لا تصحُّ نسبتُها إليه .

فأما الكتبُ التي لا شكَّ في نسبتها إليه فهي

ـ « **تاج العروس الحاوي علىٰ تهذيب النفوس** » وهو كتاب من المرقِّقات التي

---

(١) انظر « بغية الوعاة » (١/ ٥٦٢) .

(٢) انظر « شجرة النور الزكية » (١/ ٢٩٣) .

(٣) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٢٣) .

(٤) انظر « الكواكب الزاهرة » (ص ٢٦٧) ، والميلق : محلُّ الذهب .

لها كبير الأثر في تليينِ ما قسا من القلوب ، وتنبيهِ من طالت به الغفلةُ عن الله تعالىٰ

ـ « **التنوير في إسقاط التدبير** » وتأليفه تأخَّر عن « الحكم » ، وهو من أبدع ما وُضع في طرح ما يشغلُ عن الله تعالىٰ ، ضمن ضوابط شرعية دقيقة ، لا يستغني عنه طالب معرفة وتزكية

ـ « **الحكم** » ومعها : « **المكاتبات** » و« **المناجاة** » الملحقة بها ، وسيأتي لها حديث مفرد

ـ « **لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس والشيخ أبي الحسن** » وليس هـٰذا الكتاب مجرَّدَ سيرة ذاتية لهـٰذين العَلَمينِ المبجَّلين ، بل هو عرض لمنهج عرفان رفيع الشأن ، طافت ضمن أوراقه دقيقاتُ مسائلِ الاعتقاد الخفيات ، وقد مكَّن في هـٰذا الكتاب لمنهج السادة الصوفية بلغة جامعة بين الشريعة والحقيقة

وما هو من الطائفة الثانية الدائرة بين الشكِّ وعدم صحَّة النسبة :

ـ « **مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الملك الفتاح** » : وقد نقل العلامة ابن مغيزيل أنه لجدِّهِ عبد الكريم(١) ، ونقل العياشي في رحلته المسمَّاة بـ« ماء الموائد » والمعروفة بـ « الرحلة العياشية » عن شيخه عبد الرحمـٰن الفاسي أن هـٰذا الكتاب للشيخ شمس الدين البرشيني(٢) ، علىٰ أن العلامة زروقاً قد نسبه إلى الإمام ابن عطاء الله ، **وجعله مع الكتب الأربعة الأُوَل مما يُقطع بنسبته إليه**(٣) ، وكذلك العلامة المحقق ابن عجيبة(٤) ، والعلامة العطار من المتأخرين(٥) ، وهـٰذا الكتاب علىٰ أيِّ

---

(١) انظر « الكواكب الزاهرة » (ص ٢٧٧) .

(٢) الرحلة العياشية (١/٥٢١)

(٣) انظر « الشرح الحادي عشر على الحكم العطائية » (ص ٢٣)

(٤) انظر « إيقاظ الهمم » (ص ٢٤) ، مع كونه جزم أن مقطوع النسبة إليه من التآليف هو خمسة .

(٥) انظر « حاشية العطار على البدر الطالع » (٢/٤٥٩) .

حال هو أقربُ الكتب التي وقع في نسبتِها مقالٌ للإمام ابن عطاء الله .

ـ« القول المجرَّد في الاسم المفرد » : نسبَهُ إليه جازماً العلامة المحقق ابن عجيبة[١] .

ـ « المرقىٰ إلى القدس الأبقىٰ » : وقد ذكره المقريزي في « المقفى الكبير »[٢]

ـ « عنوان التوفيق في آداب الطريق » : وهو شرح قصيدةٍ للعارف بالله أبي مدين الغوث ، مطلعُها (من البسيط)

ما لذَّةُ العيشِ إلا صحبةُ الفقرا   همُ السلاطينُ والساداتُ والأُمَرا

وممَّا نُسبَ إليه أيضاً من التآليف

ـ « مختصر تهذيب المدونة » للإمام البرادعي

ـ « الطريق الجادة في نيل السعادة »

ـ « أصول مقدمات الوصول »

ـ « حزب الرجاء والابتهال والالتجاء »

ـ « ترتيب السلوك » .

ـ « تحرير التنزيه وتحرير التشبيه »

وغيرها من العناوين التي نكاد نجزم بخطأ نسبتها إليه ، والله أعلم[٣]

أقوال العلماء فيه

قال له شيخُهُ الإمام أبو العباس المرسي يوماً : (والله ؛ ليكونَنَّ لك شأن عظيم)[٤]

---

(١) انظر « إيقاظ الهمم » (ص ٢٤) .

(٢) المقفى الكبير (١/ ٣٦٥) .

(٣) انظر « معجم التراث الإسلامي » (١/ ٤٦٥) .

(٤) انظر « لطائف المنن » (ص ١٠٣) ، وتقدمت (ص ١٥) كلمته في بشارته بإمامته في العلمينِ

وقال فيه وقد ذُكر عنده : (لن يموت هـٰذا الشابُّ حتىٰ يكون داعياً إلى الله)[1]

وقال فيه أيضاً (واللهِ ؛ لأجعلنه عيناً من عيون الله يقتدىٰ به في العلم الظاهر والباطن)[2]

قال فيه الإمام المؤرخ اليافعي (الشيخُ الكبير ، العارف بالله الخبير ، إمام الفريقين ، وموضِحُ الطريقين ، ودليلُ الطريقة ، ولسان الحقيقة ، ركنُ الشريعة المطهرة الرفيعة)[3]

وقال فيه الأديب العلامة الصفدي (كان رجلاً صالحاً له ذوق ، وفي كلامه ترويح للنفس وسوق إلى الشوق ، يتكلم علىٰ كرسي في الجوامع ، ويقيد المارقين بأغلال وجوامع)[4]

وقال الإمام الذهبي (كانت له جلالة عجيبة ، ووقع في النفوس ، ومشاركة في الفضائل)[5]

---

(١) انظر « لطائف المنن » (ص ١٠٤)

(٢) انظر « لطائف المنن » (ص ١٠٣)

(٣) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ١٨٥)

(٤) انظر « أعيان العصر » (١/ ٣٤٥)

(٥) مع أن الإمام الذهبي لم يترجم للإمام تاج الدين الإسكندري في كل من « تاريخ الإسلام » و« سير أعلام النبلاء » ، إلا أن الحافظ ابن حجر في « الدرر الكامنة » (١/ ٢٧٤) نقل عنه ما يفيد إجلاله له كما ترىٰ ؛ وسياقه فيه : (قال الذهبي : كانت له جلالة عجيبة ، ووقع في النفوس ، ومشاركة في الفضائل ، ورأيت الشيخ تاج الدين الفارقي لما رجع من مصر معظماً لوعظه وإشارته ، **وكان يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفوس ، ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم** ، فكثر أتباعه ، وكانت عليه سيما الخير
ويقال : إن ثلاثة قصدوا مجلسه ؛ فقال أحدهم : لو سلمت من العائلة لتجردت ، وقال الآخر أنا أصلي وأصوم ولا أجد من الصلاح ذرة ، فقال الثالث : إن صلاتي ما ترضيني ، فكيف ترضي ربي ؟! فلما حضروا مجلسه قال في أثناء كلامه **ومن الناس من يقول. . .** ، **فأعاد كلامهم بعينه**)

=

وقال الإمام ابن السبكي : (كان إماماً عارفاً ، صاحب إشاراتٍ وكرامات ، وقدمٍ راسخ في التصوف)[1]

وقال عنه العلامة محمد مخلوف : (الإمام المتكلم ، الجامع لأنواع العلوم ؛ من تفسير وأصول وفقه وغير ذلك ، الولي الواصل ، الشيخ الفاضل ، العالم العامل)[2]

وقال العلامة ابن فرحون اليَعْمَري (كان أعجوبةَ زمانه في كلام التصوف)[3]

وقال أيضاً (كان جامعاً لأنواع العلوم ؛ من تفسير ، وحديث ، ونحو ، وأصول ، وفقه ، وغير ذلك)[4]

طرف من أدبياته

غلبت على السادة الصوفية المتحقِّقين النزعةُ الأدبية ، فترىٰ لهم في النظم والنثر والخُطب بل والجدل . . نصيباً وافراً ؛ ذاك أن جمال اللغة نظماً ونثراً في صدقها ، **ولا تغرَّنَّك العبارة الشائعة قديماً وحديثاً بأن أعذب الشعر أكذبه** ؛ فهي إن صدقت فمحمولة علىٰ خفيٍّ الاستعارات ولطيف المجازات ، وإلا فما هزَّ فؤادَكَ من كلمات

= وقد قال الإمام المؤرخ اليافعي في « مرآة الجنان » (٤/ ١٨٥) عند ترجمته للإمام ابن عطاء الله : (ولم أقتصر علىٰ قول الذهبي في ترجمته [في « العبر » (٤/ ٢١)] ، الخافضِ من رفيع مرتبته ؛ أعني قوله : « وفيها مات بمصر الشيخ العارف المذكِّر تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله الإسكندري ، صاحب أبي العباس المرسي » انتهىٰ كلامه ! وقد قدمت في ترجمة أبي الحسن الشاذلي ما فيه كفاية من التنويه بمرتبته العلية ، والرد علىٰ من غضَّ من جلالة قدره من الطائفة الحشوية ؛ لسوء اعتقادهم بمشايخ الصوفية)

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٢٤) .

(٢) انظر « شجرة النور الزكية » (١/ ٢٩٢) .

(٣) انظر « الديباج المذهب » (١/ ٢٤٣) .

(٤) انظر « الديباج المذهب » (١/ ٢٤٢) .

البشر بعد الحكمة النبوية وشُعَبِها . . كبيتٍ أو كلمةٍ نبعت من فيض وجدان سرىٰ في حال قائله

إلا أن بعضهم في نثره أبلغُ وأبْيَنُ من نظمه ، وإمامنا ابن عطاء الله لعله من هٰذا الصنف ، فنثرُهُ في حِكَمِهِ ـ وحسبك بها مثالاً للنثر عنده ـ خلَّدَ ذكرَهُ ، وليس هٰذا حالَ نظمِهِ .

فمن نظمه ما أنشده لنفسه في « التنوير » ، واختار إنشاده له المؤرخ الصفدي[1] (من الوافر)

مـرادي منـكَ نسيـانُ المـرادِ إذا رمـتَ السبيـلَ إلـى الرشـادِ
وأنْ تـدعَ الـوجـودَ فـلا تـراهُ وتصبـحَ مـاسكـاً حبـلَ اعتمـادِ
إلـىٰ كـم غفلـةٍ عنـي وإنِّـي علـىٰ حفـظِ الـرعـايـةِ والـودادِ
إلـىٰ كـم أنـتَ تنظرُ مبـدعـاتـي وتصبـحُ هـائمـاً فـي كـلِّ وادي
وتـتـركُ أنْ تميـلَ إلـىٰ جنـابـي لعَمْرُكَ قد عدلْتَ عنِ السدادِ
ووِدِّي فيـكَ لـو تـدري قـديـمٌ ويومَ (ألستُ) يشهدُ بانفرادي
فهـل ربٌّ سـوايَ فتـرتجيـهِ غـداً ينجيـكَ مِـنْ كُـرَبٍ شِـدادِ
فوصفُ العجزِ عمَّ الكونَ طُرّاً فمفتقـرٌ بمفتقـرٍ ينـادي
فبـي قـد قـامَـتِ الأكـوانُ طُـرّاً وأظهرتُ المظاهرَ مِنْ مرادي[2]

(١) التنوير في إسقاط التدبير (ص ١٥٦)

(٢) أورد هٰذه الأبيات الأديب المؤرخ الصفدي في « الوافي بالوفيات » (٣٩/٨) ثم قال : (شعر نازل) ، وقد صدق ؛ يعني من حيث الصنعة الأدبية ، وقد غلب هٰذا النمط على الفقهاء والعلماء إلا من شاء ربك وقليل ما هم ، وللشعر شيطانٌ لا يقوىٰ علىٰ صحبة القوم ، ورحم الله أبا اليُمن الكندي النحوي ؛ حينما قرأ شعراً لحافظ الدنيا الإمام ابن عساكر . . قال : (هٰذا شعرٌ أضاع فيه صاحبه شيطانه) ، وانظر « معجم الأدباء » (١٧٠٣/٤)

وليتَ الصفديَّ انتخبَ له نحوَ قوله[1] : (من الرمل)

بــرزَتْ سَلْمــىٰ بــأثنــاءِ الخيــمْ فــأرتنــا البــدرَ مــن تحــت اللِّمَــمْ
وحــدا الحــادون لمَّــا أبصــروا وجهَها في الليلِ صبحاً قد ألمّ
كلَّمــا رمــتُ لعينــي هجعــةً قــالَ لــي القلــبُ رويــداً لا تنــمْ
تــدَّعــي العشــقَ وتــأتــي ضــدَّهُ إنَّمــا العشــقُ سُهــادٌ وسقــمْ

ولعله لو وقف عليها لأوردَها ، ولاستملحَها وأثنىٰ علىٰ رقَّتها

وفاتــه

دعوةٌ واسعة الرحاب هي تلك التي حملَها علىٰ كاهله الإمامُ ابن عطاء الله في مسيرة حياته بعد وفاةِ شيخه أبي العباس ، لتصدقَ فيه كلمتُهُ : (لن يموت هٰذا الشابُّ حتىٰ يكون داعياً إلى الله)[2] ، ويأتي قدرُ الله الحتمُ الذي كُتب علىٰ كلِّ نفس ، ليلقى الإمامُ ابن عطاء الله ربَّهُ محبّاً راضياً عنه ، وقد توفي بالمدرسة المنصورية في القاهرة[3] ، في ثالث عشر جُمادى الآخرة سنة تسع وسبع مئة ، ودفن بالقرافة المباركة[4] ، رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه ، وترك وراءه مدرسةً تربوية عريقة ، كان قد أرسىٰ دعائمها بـ « الحكم » التي شاع ذكرُها

* * *

---

(١) أنشدها في « لطائف المنن » (ص ١٨٥) .
(٢) انظر « لطائف المنن » (ص ١٠٤) .
(٣) قال العلامة العطار في « حاشيته على البدر الطالع » (٢/٥٢٨) : (وهو المشهور الآن بالمارستان ، ولم يمت الشيخ بقاعة المرضى المهيأة الآن لهم ، وإنما كان يسكن ببعض محلات المسجد علىٰ طريقة العلماء سابقاً ؛ فإن غالب سكناهم كانت بالمدارس ، ولهم فيها بيوت وحجرات لطلبتهم موجودٌ بعضها الآن)
(٤) انظر « المقفى الكبير » (١/٣٦٥) .

ترجمة
الإمام ابن عباد النفزي الرندي

سيدُ العارفين في أوانه ، وعمدةُ المحقِّقين في طريق القوم في إبَّانه ، الإمام الفقيه ، العارفُ بالله الصِّدِّيق ؛ الخطيبُ الصوفي الواعظ ؛ أبو عبد الله محمدُ بنُ الشيخ الخطيب أبي إسحاق إبراهيمَ بنِ أبي بكرٍ عبدِ الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عَبَّادٍ النَّفْزِيُّ الحِمْيَرِيُّ الرُّنْدِيُّ الأشعريُّ المالكيُّ الشاذليُّ ، الشهير بـ (ابن عَبَّاد)

والنَّفْزي : نسبةٌ إلىٰ نَفْزَةَ ؛ علَمٌ علىٰ قبيلة من قبائل البرابرة ، **والحِمْيَري** : نسبة إلىٰ حِمْيَر بن سبأ بن يَشجُبَ بن يَعْرُبَ بن قحطان ؛ أبو قبيلة عربية يمانية مشهورة ، والبرابرةُ يرجعُ نسبُهم إليها[١] ، وعلىٰ هـٰذا مشى العلامة المقَّري ؛ حيث قال (النَّفْزي نسباً ، الرُّنْدي بلداً)[٢] ، والعلامة الكتاني ؛ حيث قال (النَّفْزِيُّ الحِمْيَرِيُّ نسباً)[٣] ، **وبهـٰذا تعلم** أن لقبه (النَّفْزي) ليس نسباً إلىٰ نَفْزَةَ المدينة المعروفة في المغرب ، ولا إلىٰ نَفْزاوةَ المدينة المعروفة بتونس

وقد قال الحافظ الزبيدي بعد حديثه عن هـٰذه القبيلة البربرية (ومن المنسوبين إلىٰ هـٰذه الإمام أبو عبد الله محمد بن عبَّاد النَّفْزي ، خطيب جامع القزويني ، الذي دفن بباب الفتوح من مدينة فاس ، وله كرامات شهيرة)[٤] ، والله أعلم

---

(١) وكثيرون قد لا يسلِّمون بهـٰذا ، **والمراد هنا** : أن من عرَّف بالإمام مشىٰ علىٰ ذلك .

(٢) انظر « مفتاح الفضائل والنعم » (ص ٦١) ، و« نفح الطيب » (٥/ ٣٤٣)

(٣) انظر « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٤٩)

(٤) انظر « تاج العروس » (ن ف ز)

والرُّنْدي : نسبة إلىٰ رُنْدَةَ ؛ قال المؤرخ الأديب ياقوت الحَمَوي (بضمٍّ أوَّله وسكون ثانيه ؛ معقلٌ حصين بالأندلس من أعمال تاكُرُنَّىٰ[1] ؛ وهي مدينة قديمة علىٰ نهر جارٍ ، وبها زرع واسع وضرع سابغ)[2]

وأما اسمُهُ (**محمد**) : فقد نصَّ العلامة الكتاني أنه **بفتح الميم الأولىٰ تمييزاً له عن مضمومها** ؛ حيث قال (محمد فتحاً)[3] ، مع بقاء التشديد والفتح في الميم الثانية ، وهي عادةٌ عند المغاربة في إشاعةِ اسم الحبيب الأعظم عليه الصلاة والسلام ؛ فإذا كان عند أحدهم ولدٌ اسمه محمد فسمَّى الثاني به . . ميَّزه عنه بفتح الميم الأولىٰ ؛ فقال مَحَمَّد ، **وبه تعلمُ** : أنه لا ضيرَ بعد ذلك بذكره بالشَّكْلِ الأصلي الموضوع لهـٰذا العَلَم المبجَّل

مولدُه ونشأته

وُلدَ الإمام ابن عبَّاد في مدينة رُنْدَةَ سنةَ (٧٣٣ هـ)[4] ، ونشأَ في ربوعها علىٰ أكمل طهارة وعفافٍ وصيانة[5] ، وجمع القرآنَ علىٰ والده الشيخ الخطيب **أبي إسحاق إبراهيمَ النَّفْزي**[6] ، وكان عمره آنذاك سبعَ سنين[7] ، وكان والده من

---

(١) اختلف في ضبط اسم هـٰذه المدينة ؛ ففي « تاج العروس » (ت ك ر ن) بضم الكاف والراء وتشديد النون كما هنا ، وقال المؤرخ الأديب ياقوت الحموي في « معجم البلدان » (٢/ ٦) (بفتح الكاف وسكون الراء ، وضبطه السمعاني بضم الكاف والراء وتشديد النون ، وهو الصحيح)

(٢) انظر « معجم البلدان » (٣/ ٧٣)

(٣) انظر « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٤٩)

(٤) انظر « مفتاح الفضائل والنعم » (ص ٦١) ، و« سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٣) .

(٥) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤١)

(٦) انظر ترجمته في « السلسل العذب » (ص٦٧)

(٧) انظر « مفتاح الفضائل والنعم » (ص ٦١)

الخطباء الفصحاء النجباء[1] ، وأخذ عن الشيخ الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن أبي الحسن الزُّنْدي حرفَ نافعٍ ، وعرض عليه « الرسالة » ، وقرأ علىٰ خالِهِ بعض علوم العربية[2]

مكانته العلمية ، وذكر أعيان شيوخه

رحل الإمام ابن عبَّاد إلىٰ حاضرة فاسَ وتِلِمْسانَ ، فقرأَ فيهما الأصول والفقه والعربية ؛ فأخذ عن الإمام العلامة المحقق أبي عبد الله التلمساني الحسني ، فقرأ « جُمل الخونجي » في المنطق ، وأخذ عن الفقيه القاضي العالم أبي عبد المقري كثيراً من « المختصر الفقهي » لابن الحاجب ، و« الفصيح » لثعلب ، وبعض « صحيح مسلم » ؛ كلها تفقُّهاً

وأخذ عن الشيخ الفقيه العالم أبي محمد عبد النور العمراني « الموطأ » والعربية ، وعن الإمام العالم أبي عبد الله الآبلي « الإرشاد » لأبي المعالي ، وجميعَ كتاب « المختصر الأصولي » لابن الحاجب ، و« عقيدة ابن الحاجب » تفقُّهاً ، وعن الفقيه الحافظ أبي الحسن الصرصري بعض « التهذيب » للإمام البرادعي تفقُّهاً ، وعن الشيخ الأستاذ المقرئ أحمد بن عبد الرحمـٰن المجاصي شُهِرَ بالمكناسي كثيراً من « جمل الزجاج » و« التسهيل » لابن مالك ، وعن الفقيه الصالح أبي مهدي عيسى المصمودي جميع كتاب ابن الحاجب له أيضاً تفقُّهاً

وتفقَّهَ على الفقيه العالم أبي محمد الوانغيلي في كتاب ابن الحاجب ، وأخذ عنه حرف نافع ، وعلى الشيخ الفقيه الصالح المدرس بالحلفاويين أبي محمد عبد الله الفشتالي كثيراً من « التهذيب » ، وعن قاضي الجماعة وخطيب الحضرة أبي عبد الله

---

(١) انظر « أنس الفقير » (ص ٧٩)

(٢) قاله صاحبه العلامة السراج ، وانظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤١) .

محمد بن أحمد الفشتالي كثيراً من « التهذيب » أيضاً ، وكذا عن غيرهم

ثم رحل إلىٰ طنجةَ ، فلقي بها الشيخَ الصوفي أبا مروان عبد الملك[1] ، وانتقل بعد وفاة الإمام ابن عاشر إلىٰ حاضرة فاسَ ، ليصير خطيباً بجامع القرويين ، وبقي بها خمس عشرة سنة خطيباً[2]

ومن شيوخه أيضاً الفقيه أبو عمران العبدوسي ؛ قال العلامة ابن قنفذ (وكان يحضر معنا مجلس شيخنا أبي عمران العبدوسي رحمه الله)[3]

والعلامة المقَّري المذكور في سياقِ العلامة السراج هو بحرُ العلوم محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني الشهير بالمَقَّري ، قال حفيده العلامة المقَّري وهو يتحدَّث عن تلاميذ جدِّه (ولا كالشيخ الولي الشهير الكبير العارف بالله ؛ سيدي محمد بن عبَّاد الرُّنْدي شارح « حكم ابن عطاء الله » ؛ فإنه ممن يفتخر مولاي الجدُّ رحمه الله تعالىٰ بكون مثله تلميذاً له) .

الإمام ابن عباد والعارف بالله أحمد بن عاشر

كان للإمام الولي الكبير العارف بالله تعالىٰ أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي في حياة الإمام ابن عبَّاد . . أكبرُ الأثر ؛ وابن عاشرٍ علمٌ من أعلام الولاية والهداية ؛ قال فيه العلامة ابن صعد : (كان أحدَ الأولياء الأبدال ، معدوداً في كبار العلماء ، مشهوراً بإجابة الدعاء ، معروفاً بالكرامات ، مقدَّماً في صدر الزهاد ، منقطعاً عن الدنيا وأهلها ولو كانوا من صالحي العباد ، ملازماً للقبور في الخلاء

---

(١) في « سلوة الأنفاس » (٢/١٥٥) : (عبد المالك) بدل (عبد الملك) ، ولـٰكن من هو أبو مروان هـٰذا ؟ قال العلامة الكتاني (قال في « جهد المقلّ القاصر » ولعله المراد بالرجل العامي الذي قال بعضهم : إنه لم يُفتح لابن عبَّاد إلا علىٰ يديه)

(٢) انظر « نفح الطيب » (٥/٣٤٥) .

(٣) انظر « أنس الفقير » (ص ٧٩) ، و« نيل الابتهاج » (ص ٦٠٥) .

المتصل ببحر مدينة سلا ، منفرداً عن الخلق ، لا يفكر في أمر الرزق ، له أخبار جليلة وكرامات عجيبة مشهورة)[1]

وقال الشيخ ابن الخطيب القسنطيني في « رحلته » : (وكان ابن عاشر رحمه الله فريداً في الورع ، ميسَّراً عليه في ذلك أتمَّ تيسير ، محفوظاً من كلِّ ما فيه شبهة ، كثيرَ النفور من الناس وخصوصاً أصحابَ الولاية في الأعمال

وخرجَتْ علىٰ يده تلاميذ نجباء أخيار ، **وطريقُهُ** : أنه جعل « إحياء علوم الدين » بين عينيه ، واتَّبع ما فيه بجدٍّ واجتهاد ، وصدق وانقياد ، وكان الحجة في ذلك الطريق) ، وقال : (ولم تزل حالتُهُ وبركته في زيادة إلىٰ أن توفي سنة خمس وستين وسبع مئة)[2]

وقد كان للإمام ابن عبَّاد طينةٌ نورانية خُلق منها تهفو لرقيِّ معارج القدس ، والتخلُّص من أسر الهوىٰ والنفس ، وكان قد وجد طَلِبَتَهُ بمدينة سلا ؛ حيث لقي الشيخَ الورع العارف بالله تعالىٰ أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر ، وأقام معه ومع أصحابه سنينَ عديدة ، وقال (**قصدتُهم لوجدان السلامة معهم**)[3] ، وانتفع به ،

---

(١) نقله العلامة التنبكتي في « نيل الابتهاج » (ص ٩٦)

(٢) نقله العلامة التنبكتي في « نيل الابتهاج » (ص ٩٧)

وأنتهزُ الفرصة هنا لكشف غاشية : ففي « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٨) أن العلامة السراجَ سألَ الإمامَ ابن عبَّاد عن حجة الإسلام الغزالي ؛ فقال له : (هو فوق الفقهاء ، وأقلُّ من الصوفية) ، والنصُّ الذي بين يديك يدلُّكَ علىٰ أن طريقة شيخه الإمام ابن عاشر كانت قائمة على العمل بمراسم « الإحياء » ، والناظرُ في ثنايا الشرح الذي بين أيدينا سيرى الكمَّ الكبير الذي اعتمده ونقله عن كتب الإمام الغزالي ، **وسيعلم أن هـٰذا الجواب مؤسسٌ علىٰ نظرة خاصة** ؛ وما أحسبها إلا الموازنة بين حجة الإسلام وأعلامِ التصوف من أمثال بشرِ الحافي وسهلِ التُّسْتَري وأبي يزيد البسطامي وأضرابهم ، ولا أراك تختلف مع الإمام ابن عبَّاد في كون الغزالي فيما ظهرَ لنا أنه دون القوم ، وأما أنه فوق الفقهاء فحاشا أنه أراد الجامعين بين الفقه والتصوف ؛ كالأئمة الأربعة مثلاً ، بل أراد الفقهاء الذين جفَّتْ معاني العبودية بين ضلوعهم ، وغلبت عليهم الغفلةُ عن الله تعالىٰ ، فهم مشتغلون بالنفل عن الفرض .

(٣) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤١) ، ونقل عن بعضهم (٥/ ٣٤٣) في صفة الإمام ابن عبَّاد : (وهو =

وظهرت عليه بركته ، وعنه أخذ طريقة الشاذلية ، ولازمه إلىٰ أن مات[1]

وقال عصريُّهُ العلامة ابن قنفذ في صفته : (وهو من كبارِ أصحاب ابن عاشرِ رحمه الله ، ومن خيارِ تلامذته)[2]

وقال العلامة أبو عبد الله الحضرمي (وله مأثورُ صحبة مع الشيخ أبي العباس بن عاشر ، ومرافقته مع الزهري ـ أراد قاضي سلا أحمد الزهري ـ المتقدم الذكر[3] ، وأخيه أبي يحيى بن عبَّاد ، وكان الشيخ يمهِّدُ له كرامةً ، ويلحظُهُ بعين عناية ، ويقرِّرُ نجابته عند الخاصِّ والعامِّ ، ويشهدُ له أصحابه بيُمنِ النَّقِيبة ، وسلامة الجيب ، وكرم الفطرة)[4]

وفي « نفح الطيب » : (وكان شيخه الحجَّةُ الورع أحمدُ بن عاشر يُشِيدُ بذكره ، ويقدِّمُهُ علىٰ سائر أصحابه ، ويأمرهم بالأخذ عنه ، والانتفاع به ، والتسليم له ، ويقول : ابنُ عبَّاد أمَّةٌ وحدَهُ ، ولا شكَّ أنه كذلك كان ؛ أعني غريباً ؛ فإن العارف غريب الهمة ، بعيد القصد ، لا يجد مساعداً علىٰ قصده)[5]

ومن أخباره مع شيخه العارف ابن عاشر ما حكاه في « رسائله » إذ قال (كنت قِدْماً خرجت يومَ مولده صلى الله عليه وسلم صائماً إلىٰ ساحل البحر ، فوجدتُ هناك السيد الحاجَّ ابنَ عاشر رحمه الله وجماعةً من أصحابه معهم طعام يأكلونه ، فأرادوا مني الأكلَ ، فقلت إني صائمٌ ، فنظرَ إلي السيد الحاجُّ نظرةً منكرة ! وقال لي : هٰذا يومُ فرحٍ وسرور ، يستقبحُ في مثله الصومُ كالعيد ، فتأمَّلت

= من أكابر أصحاب ابن عاشر ومن خيار تلامذته وأخذ عنه)

(١) انظر « طبقات الشاذلية » (ص ٩١) ، وفي « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٨) نقلاً عن « المقصد » : أنه كان شاذلي الطريق ؛ قال : (صرَّح بذلك تلميذه الشيخ أبو عبد الله بن السكاك)

(٢) انظر « أنس الفقير » (ص ٧٩)

(٣) انظر « السلسل العذب » (ص ٦٥) .

(٤) انظر « السلسل العذب » (ص ٧٨)

(٥) نفح الطيب (٥/ ٣٤٧)

مقالته ، فوجدته حقّاً ، وكأنه أيقظني من النوم)[١]

وبهـٰذا السياق الطويل الذي حكىٰ لنا شيوخ الإمام ابن عبَّاد وسيرته العلمية معهم . . نتبيَّن ما كان له من المكانة العلمية المرموقة ، كما يدلُّك علىٰ ذلك اختياره للكتب التي كان يحفظُها أو جُلَّها وكان يُدرِّسها ؛ كـ « مسند الشهاب » للقضاعي ، و« الرسالة » ، و« مختصر ابن الحاجب » الأصولي والفقهي ، و« التسهيل » لابن مالك ، و« المقامات » للحريري ، و« الفصيح » لثعلب ، و« قوت القلوب » لأبي طالب المكي[٢]

حِليت وصفاته

وصفَهُ ابن السكاك فقال (وكان آيةً في التحقق بالعبودية ، والبراءةِ من الحول والقوة ، وعدم المبالاة بالمدح والذمِّ ، بل له مقاصد نفيسة في الإعراض عن الخلق وعدم المبالاة بهم

وأعظمُ أخلاقه التي لا يصبرُ عنها ، ويضطرب لها غاية الاضطراب أن يحضرَ حيث يُنسى الحقُّ ، لا سيما إن كان نسيانُ الحق بالنسبة إليه ، فهو الذي يقلقُهُ ويضيِّقُ صدره على اتساعه ووفور انشراحه عن ذلك .

ولقد ذكر بعضُ من كان من أخصِّ الناس به ومنقطعاً إليه . . أحوالَ رجال « الرسالة القشيرية » و« الحلية » ، وما مُنحوا من المواهب ، قال : فلمَّا مات الشيخ ، واستبصرتُ ما أشاهدُهُ منه من أفعال تدلُّ على القطع بصدِّيقيَّتِهِ . . لاحَ لي أن تلك الصفات التي تُذكرُ مشخَّصةٌ فيه نشاهدها عياناً ، ولو لم أرَ الشيخ لقلت : إنني لم أرَ كمالاً

(١) نقله العلامة التنبكتي في « نيل الابتهاج » (ص ٩٨)
(٢) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٢) .

وعلى الجملة : فهو واحدُ عصره بالمغرب ، ذُكِرَ لي عن قطب المعقول بالمغرب والمشرق الآبليِّ أنه كان يشيرُ إليه في حال قراءته عليه ـ أعني : الشيخ ابن عبَّاد ـ ويقول : إن هناك علماً جمّاً ، لا يوجدُ عند مشاهير أهل ذلك الوقت ، إلا أنه كان لا يتكلَّم رضي الله عنه ، وشهدَ له المقطوعُ بولايتهم بالتقدُّمِ ، وأقرُّوا له بالشيخوخة ، وتبرَّكوا به ؛ كسيدي سليمان اليازغي ، وسيدي محمد المصمودي ، وسيدي سليمان بن يوسف ابن عمر الأنفاسي وأمثالهم)[١]

وقال فيه أيضاً تلميذه وصاحبه العلامة أبو زكريا السراج : (كان حسَنَ السمت ، طويل الصمت ، كثيرَ الوقار والحياء ، جميلَ اللقاء ، حسنَ الخَلْق والخُلُق ، عليَّ الهمَّة ، متواضعاً معظَّماً عند الخاصَّة والعامَّة)[٢]

وقال العلامة أبو بكر الحضرمي : (له همَّةٌ متشوِّفة إلى الاطِّلاع على غرائب العلوم ، وأكثرُ تعبُّده القراءة ؛ فأوقاتُهُ مستغرقة في مطالعة الكتب ، والتمتُّعِ بفنون العلم ، مؤثرٌ للصمت ؛ وقد قيل : إن الصمت مقام من مقامات الأولياء ، وصفةٌ جليلة من صفات الحكماء ، وبه يرتفع الأذىٰ)[٣]

وقال الإمام السراج في صفته أيضاً : (وأكثرُ تمتُّعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير[٤] ، ويتولَّىٰ أمر خدمته بنفسه[٥] ، ولم يتزوجْ ولم يملك أمة[٦] ، ولباسُهُ في

---

(١) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٦) ، و« سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٥) .

(٢) نقله عنه العلامة المقَّري في « نفح الطيب » (٥/ ٣٤١) .

(٣) انظر « السلسل العذب » (ص ٧٨) .

(٤) حكى العلامة زروق أن السلطان أراد أن يضاهيه ؛ فقال : (حاولت بكل ممكن ؛ فلم أقدر علىٰ ذلك) . انظر « مفتاح الفضائل والنعم » (ص ٦٣) .

(٥) وكان يخدمه رجل يقال له : أحمد بن مالك خدمةَ مريد سالك ، وانظر « مفتاح الفضائل والنعم » (ص ٦٢) ، و« سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥١) .

(٦) وذلك كان اقتداء بشيخه ابن عاشر ، قال العلامة زروق في « مفتاح الفضائل والنعم » (ص ٦٢) : (وله حكاية في العذر عن ذلك يطول ذكرها ، وقال لنا بعض الإخوان : أبلغَهُ ممن له عناية بأخبار الشيخ رحمه الله أنه عقد على امرأة أواخر عمره) .

داره مرقعةٌ ، فإذا خرج سترَها بثوب أخضرَ أو أبيض)[1]

وقال العلامة زروق (ومن ظَرْفه وحسن سيرته رضي الله عنه أن السلطان أعطاه كسوة ، ولبعض الصالحين كان في وقته كسوة ، كل بما يليق به ، فقبلها الشيخ ، ورجعها الآخر ، فقيل لبعض أهل البصائر في وقته : من على الصواب ؟ قال الورع مندوب ، وجبر قلب الملك واجب بإجماع العقلاء بل وغيرهم ، وأنتم ترون من أولىٰ بالصواب : الآخذ بالمندوب ، أم القائم بالواجب ؟!

ثم قال أريتم لو أن الملك دخل في ذلك الوقت مكروباً ، فدبَّر أمراً للمسلمين وخرج علىٰ غير الصواب . . في ذمة من يكون ؟!

وبالجملة فقد كان رحمه الله من الأئمة المهتدين ، ومن أهل الظرافة في الدنيا والدين)[2]

تواضعه وحياؤه

قال ابن السكاك (وكان الغالبُ عليه الحياءَ من الله تعالىٰ ، والتنزُّلَ بين يدي عظمته ، وتنزيلَهُ نفسَهُ منزلةَ أقلِّ الحشرات ، لا يرىٰ لنفسه مزيَّةً علىٰ مخلوق ؛ لما غلب عليه من هيبة الجلال وعظمة المالك وشهود المنَّة ، نظاراً إلىٰ جميع عباد الله تعالىٰ بعين الرحمةِ والشفقةِ والنصيحة العامة ، مع توفية المراتبِ حقَّها ، والوقوفِ مع الحدود الشرعية ، واعتبارهم من حيث مراد الله تعالىٰ بهم ، هـٰذا دأبه مع الطائع والعاصي ، ما لم يظهرْ له من أحدٍ مخايلُ حبِّ التعظيم والمدح ، والتجبُّرِ على المساكين ، ورؤية الحقِّ ؛ إذ هي دعوىٰ لا تليقُ بالعبد ، ومن كانت هـٰذه صفته فقد وصل حدَّ الخذلان ، بل هي علامة تقارب القطع علىٰ أنه شقيٌّ مسلَّمٌ إلىٰ غضب الله تعالىٰ ومقتِهِ ، أعاذنا الله تعالىٰ منه

(١) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٤) .

(٢) انظر « مفتاح الفضائل والنعم » (ص ٦٣) .

وكان من حال هـٰذا السيد تألُّف قلوبِ الأولاد الصغار ، فهم يحبُّونه محبةً تفوق محبَّتَهم لآبائهم وأمهاتهم ، فينتظرون خروجَهُ للصلاة ، وهم عدد كثير ، يأتون من كلِّ أوبٍ ومن المكاتب البعيدة ؛ فإذا رأوهُ ازدحموا علىٰ تقبيلِ يده ، وكذا كان ملوكُ زمانه يزدحمون عليه ، ويتذلَّلون بين يديه ، فلا يحفلُ بذلك)[1]

وقد أنشدوا في تستُّرِه وتواضعه[2] (من الطويل)

وِمِنْ علمِهِ أنْ ليسَ يُدعىٰ بعالمٍ ... ومِنْ فقرِهِ ألا يُرىٰ يشتكي الفقرا

ومِنْ حالِهِ أن غابَ شاهدُ حالِهِ ... فلا يَدَّعي وصلاً ولا يشتكي هجرا

وقال العلامة زروق : (قال لي بعض الفقراء : ما رأيت أحداً ممن تكلم في هـٰذا الفن بريئاً من الرضا عن نفسه بكلِّ وجهٍ . . إلا ابن عبَّاد)[3]

وقال عصريُّهُ وصاحبه الإمام السراج (وكان يحضرُ السماع ليلةَ المولد عند السلطان وهو لا يريدُ ذلك ، وما رأيتُهُ قطُّ في غير مجلس جالساً مع أحد ، وإنما حظُّ من يراه الوقوفُ معه خاصَّة ، وكنتُ إذا طلبته بالدعاء احمرَّ وجهُهُ واستحيا كثيراً ، ثم يدعو لي)[4]

ومن عبارته الدالة علىٰ جميم تواضعه رحمه الله تعالىٰ قولُهُ في الكتاب الذي بين أيدينا (وتبّاً لأمثالنا الذين عميَتْ بصائرهم ، وأظلمت سرائرُهم ، فحُجبت عنها شموسُ المعارف ، ووقعنا في أودية المهالكِ والمتالف ، واغتررنا بهـٰذه الدار الغرَّارة ، الفتَّانة السحَّارة ، فتشبثت بمخالبنا شباكُها ، وارتبكنا في مصايدها وأشراكِها ، من غير شعور منا بحالها ، وتزوير مُحالها ، فكنَّا في قصدنا إليها ،

---

(١) انظر « نيل الابتهاج » (ص ٤٧٥)

(٢) انظر « مفتاح الفضائل والنعم » (ص ٦٢) ، و« نفح الطيب » (٥/ ٣٤٥) .

(٣) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥١)

(٤) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٤)

وتعويلنا عليها . . بمنزلة الظمآن لاحَ له سراب حسبه ماءً ، فلما جاءه لم يجد فيه هناءً ولا غَناءً

ثم مع هٰذا كلِّهِ ننتسب إلى الدين ، وندعي كمالَ المعرفة واليقين ، والدخولَ في غمار أولياء الله المتقين ، مع أن أحدنا لو خيِّرَ بين حلول الحَين ، والبقاء في الدنيا معلَّقاً بأشفار العين . . لاختارَ البقاء فيها على هٰذه الحال ، مع كونه لا يحدِّثُ نفسه في طاعة بازدياد ، ولا عن معصية بانتقال .

وهٰذه كلها أخلاق يهودية ، لا تليق بمن ينتسب إلى الملة المحمدية)[١]

وقال مرَّة عن نفسه وحاشاه ممَّا قال : (وإني لأعلم أني متكلِّفٌ وسيِّئ الأدب ، وآخذٌ فيما لا يعنيني ، ولٰكني أستغفر الله تعالىٰ ، وأسألُهُ التجاوز والعفو)[٢]

وأخبارُهُ رحمه الله تعالىٰ في انقباضه عن الخلق ، وميلِهِ إلى الخلوة ومناجاة الحقِّ . . تذكِّرُ قولَ الإمام بشرٍ الحافي (حبُّك لمعرفة الناس لك رأسُ محبة الدنيا)[٣]

تلامذته

قال عصريُّهُ العلامة السراج : (له تلامذةٌ كلُّهم أخيار مباركون ، وبلغني عن بعضِهم أنه تصدَّقَ حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهباً ، وهو الآن إمامُ جامع القرويين بفاسَ وخطيبُهُ)[٤]

غير أن ميلَهُ إلى الخلوة ، وهجره للجلوة ، وانقباضه عن العِباد ، وتطبُّعه بطباع الزهَّاد والعُبَّاد . . جعلته مؤلِّفاً أكثر منه مربِّياً ومسلِّكاً ، وشبِّهْهُ في ذلك إن شئت

---

(١) انظر (ص ٥٨٤) .

(٢) انظر « الرسائل الصغرىٰ » (ص ١٠٠) .

(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٤٦)

(٤) نقله العلامة المقري في « نفح الطيب » (٥/ ٣٤١)

بحجَّةِ الإسلام إمامنا الغزالي ؛ إذ قد ملأ اسمُهُ رحابَ المعمورة ، وأكثرُ تلاميذه لم تكن أسماؤهم مشهورة ، وما كان ذاك ليُقلِّلَ من شأنه .

وفي النقول ما يُفهم أن ابن قنفذ كان من تلاميذه ، ولا يخفى انتفاعُ العلامة السراج به .

مؤلفاته ، ومخلّفه العلمي

بعضُ كتب الإمام ابن عبَّاد كانت قد شرَّقت وغرَّبت ، ونزلت موضعَ القبول عند علماء عصره ، وتناقلتها أيدي القرون معتدَّةً بها ؛ وذاك لما سترىٰ لها من نفع ، وأسلوبٍ رصين في حسْنِ وضع

وقال ابن السكَّاك : (وذكرَ لي بعضُ تلامذته أن أقواله تشبهُ أفعاله ؛ لما منحه الله تعالىٰ من فنون الاستقامة ، مع ما في كلامِهِ من النور والحلاوة التي استفزَّتْ ألبابَ المشارقة ؛ بحيث صارَ لهم بحثٌ عريض علىٰ تواليفه)[1]

وقال العلامة زروق (وكتبُهُ شاهدة بكماله علماً وعقلاً ، فهي كافية في تعريفه)[2]

وقال تلميذه وصاحبه العلامة السراج : (وألَّفَ في التصوف تواليفَ عجيبة ، وتصانيفَ بديعة غريبة)[3]

وقال عصريُّهُ العلامة ابن قنفذ : (وله كلامٌ عجيب في التصوف ، وصنَّفَ فيه ما هو الآنَ يُقرأ على الناس مع كتب التذكير ، وله في ذلك قلمٌ انفرد به وسُلِّمَ له فيه بسببه)[4]

---

(١) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٧) .

(٢) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٤) .

(٣) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤١) .

(٤) انظر « أنس الفقير » (ص ٧٩) .

والمؤلفات التي وُقفَ عليها له رحمه الله تعالىٰ

- « **شرحُ الحكم** » المسمَّىٰ بـ « **التنبيه** » : وسيأتي له حديثٌ مفرد[1]

- « **نظمُ الحكم** » وجاء اسمه في بعض مخطوطاته : « **بغية المريد** » قال العلامة زروق (« **ترجيزُ الحكم** » في ثمانِ مئة بيت وبيت ، نبَّه فيه علىٰ بعض معانيه باختصار ، وهو مفيدٌ في بابه)[2]

وقال العلامة المقَّري (وشرحَ « الحكم » ، ونظمها في ثمان مئة بيت من الرجز)[3]

- « **الرسائلُ الكبرىٰ** » المسمَّىٰ بـ « **نزهة الناظر المتأمِّل وقيد السائل المستعجل** » وهو من رفيع تآليفه ؛ وهو عبارةٌ عن مجموعة مراسلات وقعت بينه وبين عصريِّهِ العلامة الجليل يحيى بن أحمد بن محمد النَّفْزي الرندي الحميري السراج ؛ وذلك حينما كان الإمام ابن عبَّاد مقيماً بمدينة سلا

وقال العلامة زروق (وقد كتب مسائلَ معروفةً أكثرُها لسيدي يحيى السرَّاج)[4]

قال عصريُّهُ العلامة أبو زكريا السراج : (لازمته كثيراً ، وقرأتُ عليه ، وسمعت منه ، وأنشدني من شعره وشعرِ غيره ، وتردَّدَتْ بيني وبينه مسائلُ في إقامته بسلا ، وانتفعت به عظيماً في التصوف وغيره ، وأجازني إجازة عامة)[5]

---

(١) انظر (ص ٥٧) ، وما ذكره مؤرخ العلوم العلامة حاجي خليفة في « كشف الظنون » (١/ ٦٧٥) من وجود شرحين لـ« الحكم » ؛ أحدهما « التنبيه » ، والآخر يقال له « غيث المواهب العلية » . . وهم لا التفات إليه ، وحسبك الخطأ الذي وقع في اسمه في هـٰذا الموضع ، وعدم التنبُّه لاشتراك « غيث المواهب » و« التنبيه » بمقدمة واحدة

(٢) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٢) .

(٣) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٧) ، وسيأتي مزيد تفصيل عنها (ص ٥٩)

(٤) نقله العلامة المقَّري في « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٥)

(٥) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٢)

وقال العلامة التنبكتي في « نيل الابتهاج » في ترجمة العلامة السراج : (كان بينه وبين ابن عبَّاد مراسلات وإشارات ، وله فهرست وسماع صحيح ، انتهت إليه رياسةُ الحديث في وقته ، ودفن مع ابن عبَّاد)[1]

وقال العلامة زروق يصف « الرسائل الكبرىٰ » (وفيها من الفوائد ما لا يحصىٰ ، مع وفور أنوارها ، وعظيم أسرارها ؛ ذُكر لي بمصر أنها لما بلغت سيدي أبا عبد الله البلالي صاحب اختصار « الإحياء » وغيره .. جعلها علىٰ رأسه وصار يقول : أنا عبدٌ لابن عبَّاد !)[2]

وقال أيضاً وهو يتحدث عن شهود المنة باستصحاب الشكر (وتحريرها في كتب ابن عطاء الله ، وزبدتُها في « رسائل ابن عباد » و« شرحه » ، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك)[3]

ـ « **الرسائلُ الصغرىٰ** » نعتها العلامة زروق بقوله (وهي أوفر علماً وأوضح ، وإن كانت « الكبرىٰ » أعظم نوراً وإفادة)[4]

وقال أيضاً وهو يتحدث عن طريق الهمَّة : (وعليه مدار كلام الشيخ ابن عبَّاد ، وهو طريقُ الأذكياء والظرفاء من أهل الحاضرة والأتقياء ، وقد ذكر تفصيله في « رسائله الصغرىٰ »)[5]

ـ « **ديوانُ خُطبٍ** » قال العلامة المقَّري (وللشيخ ابن عباد خطبٌ مدوَّنة بالمغرب مشهورة بأيدي الناس ، ويقرؤون منها ما يتعلَّقُ بالمولد النبوي الشريف بين يدي السلطان تبركاً بها ، وكذا يقرؤونها في المجتمعات في المواسم ؛ كأول رجب

---

(١) نيل الابتهاج (ص ٦٣٤) .

(٢) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٢) .

(٣) انظر « عدة المريد الصادق » (ص ١٨١)

(٤) انظر « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٢)

(٥) انظر « عدة المريد الصادق » (ص ١٩٨) .

وشعبان ، ونصفِهما ، والسابع والعشرين منهما كرمضان)[1]

وقال العلامة زروق : (« الخطب » المعلومةُ في المواسم ، والقصد بها : تنبيهُ الغَفَلة ، وإفادة العوام ؛ اتِّباعاً لأبي طالب وأبي حامد رحمهما الله ، وإلا ففي « الرسائل » ما يدلُّ علىٰ نقيض ذلك)[2]

وقال العلامة عبد المجيد المَنالي الشهير بالزبادي في « إفادة المرتاد » : (وقول الشيخ زروق : « الثالث : الخطب المعلومة في المواسم » ؛ ظاهِرُهُ : أنه لم يقف علىٰ غيرها ، وقد وقفت علىٰ هـٰذه الخطب مجموعةً في جزء ؛ وهي نحو الخمس عشرة خطبةً ، كلٌّ واحدة منها تأليف في موضوعه لا مزيدَ عليه .

ووقفت علىٰ خطبِهِ العامة المشتملة على الوعظ والتذكير ، والإغراء والتحذير ، والإنذار والتبشير ، والترغيب والترهيب ، والتنبيه على العوارض الوقتية التي لا تنضبط لزمام ، رأيت من ذلك مجلداً كبيراً ضخماً)[3]

وقال العلامة زروق يصف الإمام ابن عبَّاد : (وقد كان خطيباً بالقصبة إذ كانت عامرة ، وله خُطَبٌ عظيمة الفصاحة ، حسنة الموقع)[4]

ـ « تحقيقُ العلامة في أحكام الإمامة » : قال العلامة زروق : (رأيته بخطِّهِ ، سفرٌ ضخم ، جمع فيه ما يحتاجه الإمام ، فذكرته لشيخنا القوري ؛ فقال : أظنُّه لأبيه)[5]

وقال العلامة زروق : (ورأيت كتاباً في الإمامة سمَّاه : « تحقيق العلامة في أحكام الإمامة » ، فذكرته لشيخنا القوري رحمه الله تعالىٰ وكان معتنياً بكتبه ، معوِّلاً

---

(١) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٥٠) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ٩١) .

(٢) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٢) .

(٣) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٢) .

(٤) نقله العلامة المقَّري في « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٥) .

(٥) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٢) .

عليها في حاله ، فقال : أظنُّهُ لوالده سيدي إبراهيم)[1]

- « فتحُ التحفة وإضاءة السُّدفة » : قال العلامة الزبادي في « إفادة المرتاد » في صفته : (كتاب جيد جداً ، أكيدٌ على المتديِّنِ في هـٰذا الزمان المظلم ، نسألُ الله تعالىٰ أن يوفِّقنا للعمل بمقتضاه)[2] ، وقد طبع .

- « الأدعية المرتبة على الأسماء الحسنىٰ » قال العلامة زروق : (وأظنُّها والله أعلم رسالةً من « الرسائل الصغرىٰ » ، إذ رأيتها ملحقة بها في بعض النسخ)[3]

طرفٌ من شعره

للأدبِ العربي في جنبات الصوفية حصَّةٌ كبيرة ؛ لأنه اللغة الأرقُّ والأقرب والأمثل في التعبير عن لواعج الفؤاد ، وقد نثرَ الإمام ابنُ عبَّاد في طوايا « شرحه » الذي بين أيدينا كمّاً من منظومه فضلاً عن منثوره ، وقد حَكَوا عنه أن له شيئاً من الشعر .

فقد قال العلامة المقَّري (وذكر الشيخ الفقيه الخطيب القاضي الحاجُّ الرِّحِّيلُ أبو سعيد ابن أبي سعيد السلوي أنه رأىٰ في حائط جامع القرويين أبياتاً مكتوبة بفحمٍ بخطِّ الشيخ أبي عبد الله بن عبَّاد ؛ وهي : (من السريع)

أيَّتُهـا النفـسُ إليـهِ اذهبـي فحبُّـهُ المشهـورُ مـن مـذهبـي
مفضَّـضُ الثغـرِ لـه نقطـةٌ مـن عنبرٍ فـي خـدِّهِ المُـذْهَـبِ
أيئسَنـي التـوبـةَ مـن حبِّـهِ طلـوعُـهُ شمسـاً مـن المغـربِ

---

(١) نقله العلامة المقَّري في « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٥)

(٢) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٣)، والسُّدفة : الظلام ، وتصحَّفت في مطبوع « السلوة » إلى (الشرفة) ، وتصحف عنوان هـٰذا الكتاب في « الأعلام » (٥/ ٢٩٩) إلىٰ « فتح الطرفة » .

(٣) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٢) ، وذكر له الزركلي في « الأعلام » (٥/ ٢٩٩) أيضاً : « كفاية المحتاج » ، وأجوبة كثيرة في مسائل من العلوم ، وقال : (قال ابن عيشون : جمعت منها نحو مجلدين) .

قال الشيخ أبو سعيد فاستشكلتُ هٰذه الأبياتَ ؛ لما اشتملت عليه من التغزُّلِ وذكر الخال والخدِّ والثغر ، ومقامُ الشيخ ابن عبَّادٍ يجلُّ عن الاشتغال بمثل هٰذا ، فلقيت يوماً أبا القاسم الصيرفي ، فذاكرته بالقصة ووجهِ الإشكال فيها ، فقال لي : مقامُكَ عندي أعلىٰ من أن تستشكلَ مثلَ هٰذا ! هٰذه أوصافُ ولي الله القائمِ بأمر الله المهديِّ ، فشكرتُهُ علىٰ ذلك)[1]

بل زيادة علىٰ ذلك : هبْ أن الشيخ قالها عفْوَ الخاطر في حالٍ وجدٍ باهر ؛ فما الضيرُ في ذلك وللقوم ما هو فوق ذلك ؟!

وإليك هٰذا الخبر اللطيف ، والعفيفُ يعرفه العفيف فقد قال الإمام القشيري (ويُحكىٰ عن فاطمةَ أخت أبي عليٍّ الروذباري أنها قالت : لمَّا قرُبَ أجلُ أخي أبي عليٍّ الروذْباريِّ وكان رأسُهُ في حجري . . فتحَ عينيه وقال : هٰذه أبوابُ السماء قد فُتحَتْ ، وهٰذه الجنان قد زُيِّنَتْ ، وهٰذا قائلٌ يقول لي : يا أبا عليٍّ ؛ قد بلَّغناك الرتبة القصوىٰ وإن لم تردْها ، ثم أنشأَ يقول [من الوافر]

وحقِّكَ لا نظرتُ إلىٰ سواكا   بعينِ مودَّةٍ حتىٰ أراكا
أراكَ معذِّبي بفتورِ لحظٍ   وبالخدِّ المورَّدِ من جناكا

ثم قال يا فاطمةُ ؛ الأول ظاهر ، والثاني إشكالٌ)[2]

وقد علَّق علىٰ هٰذا الخبر الإمام ابن السبكي فقال : (وما أحسنَ إشكالَهُ ! وليس هو عند التحقيق بمشكلٍ ؛ ولٰكنه والله أعلم استقصرَ عقولَ النساء عن دَرَكِهِ ، وخشيَ عليهنَّ غائلة أن يفهمْنَ أن الأمر علىٰ ظاهره)[3] ، فكُنْ إن سمعت مثلَ هٰذه

---

(١) انظر « نفح الطيب » (٥/٣٤٨) ، وقال بعد هٰذا : (قلت رأيت بخط الونشريسي إثر هٰذه الحكاية ما نصه قلت في صحة هٰذه الحكاية عن الشيخ نظر لما احتوت عليه من تعبير الحسن ، وقدر الشيخ وورعه أعلىٰ من هٰذا ، فهٰذان إشكالان ، والله أعلم)

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٦٢٩)

(٣) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٥٠)

الدندنات من القوم فَحْلاً ، وأنزلها مُنْزلاً مباركاً ، ولا تتزهَّدْ زُهدَ الأجلاف ، فأين أنت من كَعْبٍ وسُعادِهِ ؟!

وقال العلامة المقَّري[١] ومما نُقلَ من خطِّهِ رحمه الله تعالىٰ ولا يُدرىٰ هل هي له أم لا [من الكامل]

الحزمُ قبلَ العزمِ فاحزمْ واعزمِ ... وإذا استبانَ لكَ الصوابُ فصمِّمِ
واستعملِ الرفقَ الذي هو مكسِبٌ ... ذكرَ القلوبِ وجُدْ وأجملْ واحلُمِ
واحرسْ وسِرْ واشجعْ وصُلْ وامنُنْ وصِلْ ... واعدلْ وأنصفْ وارْعَ واحفظْ وارحَمِ
وإذا وعدْتَ فعِدْ بما تقوىٰ علىٰ ... إنجازِهِ وإذا اصطنعْتَ فتمِّمِ

وقال العلامة زروق (وقد رأيتُ علىٰ نسخة منه ـ أراد « شرح الحكم » ـ بخط اللُّبَابي غفر الله له ما نصُّه [من الوافر]

جزى اللهُ الرجالَ جزاءَ خيرٍ ... علىٰ ما أظهروهُ لنا وأبدَوا
لقد عظُمَتْ فضائلُهم علينا ... بما للمؤمنينَ هَدَوا وأَهْدَوا

وأظنُّهما له)[٢]

كرامة من كراماته

قال العلامة المقَّري (وحدَّثَ الشيخ أبو مسعود الهرَّاس قال : كنتُ أقرأُ في صحن جامع القرويينَ والمؤذِّنون يؤذِّنون بالليل ، فإذا أبو عبد الله بنُ عبَّادٍ قد خرج من باب داره ، وجاء يطيرُ في الصحن كأنه جالس متربِّعٌ حتىٰ دخل في البلاط الذي حولَ الصومعة ! ثم مشيتُ فوجدتُهُ يصلِّي حول المحراب)[٣]

---

(١) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٨)
(٢) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٢)
(٣) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٧)

وفاتـه

من يقرأ صفةَ موتِ الإمام ابن عبَّاد ولقائه لمولاه سبحانه.. يسمع لسان حاله تلك الساعة وهو يقول وا شوقاهْ للحبيب الذي لا يزالُ لنا بطاعته مُكرِماً ، وبفتْقِ أكمامِ نُوَّارِ معرفته في قلوبنا منعِّماً

حُكيَ أنه لمَّا احتُضرَ جعل رأسَهُ في حجر أبي القاسم الصيرفي ، وأخذ في قراءة آية (الكرسي) إلىٰ قوله ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ، ثم يقول يا أَللهُ ، يا حيُّ ، يا قيُّوم ، فيلقنُهُ من حضر ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، فيمتنعُ الشيخ من قراءتها ويقول : يا أَللهُ ، يا حيُّ ، يا قيُّوم ، فلما قرُبَتْ وفاته.. سمع منه هـٰذا البيتَ ، وكان آخر ما تكلَّمَ به : (من البسيط)

مـا عـوَّدونـي أحبـابـي مقـاطعـةً   بل عوَّدوني إذا قاطعتُهم وصلوا[1]

إلىٰ أن فاضت روحه الطاهرة الزكيَّة ، بحاضرة فاسَ المحميَّة ، بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ، رابع رجب سنة (٧٩٢ هـ) ، ليدفن بكدية البراطل من داخل باب الفتوح[2]

والتربة التي دُفن فيها هي لابن السكاك وأهله ، وهو الذي دفنَهُ فيها تبركاً هو وأهله بجواره[3]

قال العلامة الونشريسيُّ : (ولمَّا توفي الشيخ ابن عبَّاد رضي الله عنه في التاريخ المتقدم.. حضر جنازتَهُ السلطانُ أمير المسلمين أبو العباس أحمدُ بن السلطان أبي سالم وأهل البلدتين)[4]

---

(١) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٩) .

(٢) انظر « مفتاح الفضائل والنعم » (ص ٦١) ، و« سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٣ـ ١٥٤) .

(٣) انظر « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٧) .

(٤) نقله المقَّري في « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٩) ، وأراد بالبلدتين : فاس القديمة والجديدة .

قال العلامة المقَّريُّ : (وقد زرتُ قبره مراراً بفاسَ ، ودعوت الله تعالىٰ عنده ، وهو عند أهل فاسَ بمثابة الشافعيِّ عند أهل مصر)[1]

وقال تلميذُهُ وصاحبه السراج في « فهرسته » في صفة جنازته (وكان يوماً مشهوداً ، حضر الناسُ حتى الأميرُ نصره الله على الحق ، وازدحمَ الناس علىٰ قبره ، وهمَّت العامَّةُ بكسر نعشه وأخذه تبرُّكاً به ، فمنعَهم من ذلك الأمير ، وقد حضرتُ جنائزَ العلماء والصلحاء ، فلم أرَ جنازة أحفلَ ولا أكبر خلقاً من جنازته ؛ كلُّهم يثنون علىٰ فضله ، ويبكون لفقده ، ورثاه شعراءُ زماننا وأدباؤُهُ بقصائد كثيرة)[2]

وقال العلامة زروق : (وتوفي بفاسَ ، وقبرُهُ بها مشهور ، ومَزِيَّتُهُ معروفة شرقاً وغرباً)[3]

قال العلامة الكتاني في « السلوة » (وذكر غير واحد أنه أوصىٰ بربعة كانت محفوظة عند رأسه أن يخرج ما فيها بعد موته ، ويشترىٰ به ربع يكون حبساً علىٰ مسجد القرويين ، ففعل ذلك ، فحُسبَ ما فيها ، فإذا هو ثمان مئة عشر مثقالاً من الذهب ، وذلك جملة ما قبضه في أجرته مدة خطابته وإمامته بالقرويين ، وحكي أن المشترىٰ هو حمام القلعة الذي بعدوة فاس القرويين ، بالقطانين منها)[4]

* * *

---

(١) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٤) ، وقال : (ومن مِنَنِ الله سبحانه عليَّ : أني سكنتُ محلَّهُ لمَّا توليتُ الخطابة والإمامة بجامع القرويين من فاسَ المحروسة مضافين إلى الفتوىٰ ، والدارُ المعلومة للخطيب بالجامع المذكور إلى الآن تُعرفُ بدار الشيخ ابن عبَّاد ، وأقمت علىٰ ذلك خمسَ سنين وأشهراً ، ثم قوَّضتُ الرحال للمشرق ، وهـٰأنا إلى الآن فيها ، والله ييسرُ الخير حيث كان) .

(٢) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٦)

(٣) نقله العلامة المقَّري في « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٥) .

(٤) انظر « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٨) ، وهـٰذا منه رحمه الله تعالىٰ خُلُق صدِّيقي ؛ فقد روى ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٣/ ١٩٣) أنه قال لما حضرته الوفاة (إن عمر لم يدعني حتىٰ أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم ، وإن حائطي الذي بمكان كذا وكذا فيها) .

سطوع شمس « الحكم العطائية » في سماء العرفان

لا تخفى المكانةُ العظيمة التي تبوَّأتها « حكمُ ابن عطاء الله » في المكتبة الإسلامية والأخلاقية عموماً ؛ حيث إنك لو تتبَّعت شروحها لوجدتها قد نافت على المئة ، ولو تأثَّرتَها وتقفَّيتَها لرأيتها قد بُثَّتْ في بطون كتب العلماء الذين جاؤوا بعد مؤلفها ، فأكثروا من الاستشهاد بها ، وزيَّنوا كلامهم باقتباسها

وللحكمة أيّاً كان مصدرها ذيوعٌ لا تقوىٰ سلطةٌ على الحدِّ منه ؛ ولذلك قال المعلِّمُ الأول صلى الله عليه وسلم : « الكلمةُ الحكمةُ ضالَّةُ المؤمن ، فحيث وجدَها فهو أحقُّ بها »(1)

وها هو ذا أميةُ بن أبي الصلت المتنبِّئ ، قد ضمَّ الحكمةَ إلىٰ شعره ، حتىٰ قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « آمنَ شعرُهُ ، وكفرَ قلبُهُ »(2)

وإنما كرامةُ الأمم في العمل بالحِكَم ، ولا حِكَمَ فوق حِكَمِ الكتاب الحكيم وسنة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، حتىٰ سُمِّيت سنتهُ الشريفة بالحكمة في قوله سبحانه : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب ٣٤]

وقد كان لورثته عليه الصلاة والسلام من آل بيته الفخام والصحابة الكرام. . نصيبٌ من صوغ الحكمة عظيم ، حتىٰ صارت كلماتٌ لبعضهم مما تتناقله كتبُ الحكمة والوعظ والأدب

وليس المقصودُ هنا من حديثنا عن الحكمة الحديثَ عن الحكمة العملية أو

---

(1) رواه الترمذي (٢٦٨٧) ، وابن ماجه (٤١٦٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(2) رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (١٩٧٣) .

النظرية ؛ وهي إصابةُ الحق بالعلم والعقل ؛ وعليه : **فالحكمةُ من الله تعالىٰ** : **معرفةُ** الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام ، **ومن الإنسان** : **معرفةُ** الموجودات وفعل الخيرات ؛ وهـٰذا النوع هو الذي وُصفَ به سيدنا لقمان في قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢][1] ، **بل عن كلامٍ يُنعتُ بأنه دالٌّ علىٰ هـٰذه المعاني المنيفة** .

فالحكمةُ : كلامٌ صيغَ بعبارة رشيقة محبَّبة ، ضُمِّنَ معنىً لطيفاً يبعثُ على الفهم والعمل .

وهـٰذا ما بيَّنَهُ العلامة الحافظ المناوي بقوله (**الحكمةُ** : مثالُ الأمرِ الذي عَسُرَ . . بسببٍ فيه يُسْرٌ ، فينال الحكيم بحكمته لاطِّلاعه على أقصىٰ مجعول الأسباب بعضها لبعض ، ممَّا بين أسباب عاجلِ الدنيا ومسبَّبات آجلِ الآخرة . . ما لا يصلُ إليه جهدُ العاقل الكادح

وللناس في تعريف **الحكمة** أقوالٌ كثيرة ؛ منها الإصابةُ في القول وإتقانُ العمل ، **وأصلُها** : الإحكام ؛ وهو وضعُ الشيء في محله بحيث يمتنعُ فساده ، ومن اتَّصفَ بذلك فأعماله منقَّحة ، وأفعالُهُ محكمة ؛ فإنه يرى الأشياءَ كما هي ؛ فإنه ينظرُ بنور الله ، ومن كان هـٰذا وصفَهُ أصابَ في منطقه)[2]

هـٰذا النوعُ من الحكمة ـ ومنه حكمُ الإمام ابن عطاء ـ **هو الكلامُ الهادي لمكارم الأخلاق** ، **وإلىٰ ما ينفع العبادَ في الدنيا ويوم التلاق** ، وله عندنا ـ معاشرَ المتديِّنين ـ علامةٌ لازمة لا تفارقه ؛ **وهي انطواؤه تحت دائرة التشريع** ؛ إذ ليس بحكيم من ألقىٰ كلاماً يجانبُ فيه أنوار النبوة ؛ ولهـٰذا قال العلامة القاري (**الحكمةُ** : الموعظةُ المطابقة للكتاب والسنة ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ

(١) انظر « مفردات الراغب » (ص ١٢٧) .
(٢) انظر « فيض القدير » (١/٣٥٨) .

﴿الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة : ٢٦٩])[١]

بل قد قال الحبيبُ الأعظم صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتمُ الرجلَ قد أُعطيَ زهداً في الدنيا ، وقلَّةَ منطقٍ . . فاقتربوا منه ؛ فإنه يُلقَّى الحكمة »[٢]

فمَنْ أتقنَ العلم والعمل ، ونهى النفس عن الهوىٰ وجانب الزلل ، ورُزق من الله تعالى الصدق والتوفيق والعناية . . فقد تأهَّل لأن يكونَ حكيماً من حكماء زمانه ، وقد أمرت السنة بالدنوِّ والاقتراب منه ومن مثله كما ترىٰ

وبهٰذا تعلمُ شأنَ علوم الكتاب والسنة عند القوم ، بل قال العارفُ الحاتمي شارحاً لمعنى الفتح المعهود في كلامهم (**معنى الفتح عندهم** : كشفُ حجاب النفس أو القلب أو الروح أو السِّرِّ . . لما في الكتاب والسُّنَّة)[٣]

« حِكم ابن عطاء الله »

إن القيمة العلمية لأيِّ مأثورٍ رفيعِ القدر تكمنُ في حفظه بقوالبِ العبارات ، **فالحفظُ المسطور لا تقلُّ أهمِّيته عن إرث الأحوال** ؛ إذ واسطةُ الحروف والكلمات قامت بحفظ الكتب المنزَّلات

وقد أشارَ إلىٰ هٰذه الحقيقة الإمامُ ابن عطاء الله حيث قال (اعلم ـ فتح الله بصيرتك لشهود أنواره ، ووالىٰ عليك ورود معارفه وأسراره ـ : أنَّ من أجَلِّ مواهبِ الله لأوليائه وجودَ العبارة)[٤]

وكلُّنا يعلمُ ما للكلماتِ الجوامع من أثرٍ بالغ في النفوس الشريفة ، **ثم ما للحِكَمِ منها خصوصاً من ذيوع وانتشارٍ علىٰ ألسنة الخاصة والعامة** ، حتىٰ جاوزَتْ هٰذه

---

(١) انظر « مرقاة المفاتيح » (٨/ ٣٢٧٣) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠١) من حديث سيدنا أبي خلاد رضي الله عنه

(٣) انظر « شذرات الذهب » (٧/ ٣٤٣)

(٤) انظر « لطائف المنن » (ص ٦٣)

الحكمُ أسوارَ زمنها ، لتطوفَ في طيَّات القرون ، وتصلَ إلىٰ دهاليز الأمكنة المترامية الأطراف ؛ بما طُوي فيها من معانٍ رائقة سامية ، تتركُ أثراً طيباً في نفوس المستمعينَ لها والمُمْعنينَ فيها ، وتحفظها الأذهانُ وتعيها ، وتُجمَّل بالنطق بها الألسنة ، وتُختصرُ بها المواعظ ، وتستلينُ بسماعها القلوب .

أما العارفُ بالله تعالىٰ أبو الحسن الشاذليُّ رحمه الله تعالىٰ فلم يحبِّرْ قرطاساً تأليفاً ، بل نُقلَ عنه أنه قيل له : يا سيدي ؛ لم لا تضعُ الكتبَ في الدَّلالة على الله تعالىٰ وعلومِ القوم ؟ فقال : كتبي أصحابي[1]

وقد ورثَ هٰذا الخُلُقَ عنه تلميذه وخليفتُهُ العارف بالله تعالىٰ أبو العباس المرسي ؛ فلم يضع كتاباً ؛ قال الإمام ابن عطاء الله الإسكندري معلِّلاً ذلك : (والسبب في ذلك أن علومَ هٰذه الطائفة علومُ تحقيق ، وهي لا تتحملُها عقول الخلائق) ، وقد سمع شيخه أبا العباس يقول : (جميعُ ما في كتب القوم عبراتُ دموعٍ من سواحلَ من بحر التحقيق)[2]

إلا أن للإمام ابن عطاء موهبةً ربانية أزلية سبقت في علم الله وإرادته ، وبشارةً مباركة بُسطت علىٰ لسان شيخه أبي العباس ؛ إذ بشَّره بإمامةٍ جامعة بين علم الشريعة والحقيقة ؛ حينما قال وهو يحدِّث عن شيخه المرسي (وهو الذي أسرعَ بأسرارنا حتىٰ لحقت ، وفتقَ ألسنتنا حتىٰ نطقت ، غرس غراسَ المعرفة في قلوبنا فأينعت ثمراتُها ، وفاحت زهراتُها ، وهو الذي بفضل الله وعدنا ، وبالكلام في العلمينِ أشارَ لنا)[3]

وقال له يوماً وقد دخل عليه : (إذا عوفي الفقيه ناصر الدين يجلسُكَ في مكانه

---

(١) انظر « لطائف المنن » (ص ٢٣)
(٢) انظر « لطائف المنن » (ص ٢٤) .
(٣) انظر « لطائف المنن » (ص ٢٠٤) ، وتقدم (ص ١٥) قوله له : (الزمْ ، فوالله ؛ لئن لزمتَ لتكوننَّ مفتياً في المذهبين)

في موضع جدِّك ، ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية ، **وتتكلَّمُ إن شاء الله في العلمينِ**) ، قال الإمام : (فكان ما أخبر به رضي الله عنه)[1]

وقد ذاعت حكايةٌ بعضُ ما فيها : أن الإمام ابن عطاء قد سأل شيخه المرسيَّ أن يدعوَ الله له بأن يكون جامعاً بين الحقيقة والشريعة ، فأجابه إلىٰ ذلك ، وكان له فضلاً من الله سبحانه ما سأل ، وسواءٌ صحَّت القصة أم لم تصحَّ فما قرأته للإمام هنا يؤكِّد ثمرتَها التي عليها المعوَّل

وبقي ابنُ عطاء الله مرابطاً في ثغور العلم ، ومجاهداً في ميادين العمل ، إلىٰ أن أصبح يوماً وريثاً لشيخه أبي العباس ، ومظهراً لبشارته به ، وتحقَّق الرجاء الذي لوَّحَ به اللوح المحفوظ

وهكذا بعدما صار الإمامُ ابنُ عطاء الله ابناً لعطاء الله . . تُوِّج رأسُهُ بتاج « الحكم » ، التي كادت أن تكون وحياً ، بل هي إلهامٌ رباني ؛ وأمةُ الحبيب الأعظم فيها الملهمون من غير نبوة كما جاء في صحيح السنة[2]

مكانة « الحكم العطائية » بين كتب الصوفية

تحدَّثَ العلامة المحقق زروق عن مراتب كتب التصوف ومَثَّل لذلك فقال (**علمُ التصوف والأحوال** : وفائدته تحقيق العبودية ، والنظر في وجه تعظيم الربوبية ؛ بإقامة الحقوق ، والإعراض بالحق عن كلِّ مخلوق

وأقلُّ ما يجزئُ فيه : « بداية الهداية » للغزالي ، **وأوسطه** : « منهاجه » أو بعض كتب المحاسبي ، **وأعلاه** : كتبُ ابن عطاء الله ومن نحا نحوها)[3]

---

(١) انظر « لطائف المنن » (ص ١٠٣)

(٢) روى البخاري (٣٦٨٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « لقد كان فيما قبلَكم من الأمم محدَّثون ، فإن يكُ في أمتي أحدٌ فإنه عمرُ » ، ولا يخفىٰ أن المراد تعظيمُ شأن سيدنا عمر رضي الله عنه ، لا نفي الإلهام عن غيره .

(٣) انظر « عدة المريد الصادق » (ص ١٨٥) .

وهي كلمةٌ عظيمة بشأن « **الحكم العطائية** » وعامةِ كُتُبِ الإمام ، وجديرةٌ بالاهتمام

وقال أيضاً وهو يتحدَّثُ عن شهود المنة باستصحاب الشكر : (ويجري ذلك في الجلب والدفع ديناً ودنيا ، وعلماً وعملاً وحالاً ، وعليه مدارُ طريق الشاذلية ، وتحريرُها في كتب ابن عطاء الله ، وزبدتُها في « رسائل ابن عباد » و« شرحه » ، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك)[١]

وقال **الإمام الشارحُ الأول لـ « الحكم العطائية » ابنُ عبَّاد** : (طلبوا الفقه في غير « الرسالة » فأَضَلُّوه ، وطلبوا التصوفَ في غير « الحكم » فأَضَلُّوه)[٢]

وقال في الكتاب الذي بين أيدينا معظِّماً لـ « حكم ابن عطاء الله » ومؤلفها (ومن مارس كلامه في هٰذا الكتاب وفي غيره حصلَ له منه التأثير المحمود)[٣]

وقال العلامة المحقق ابن عجيبة يصف « حكم ابن عطاء الله » (هو جامعٌ لما في كتب الصوفية المطوَّلة والمختصرة ، مع زيادة البيان واختصار الألفاظ ، والمسلكُ الذي سلك فيه مسلكٌ توحيدي لا يسعُ أحداً إنكاره ولا الطعن فيه ، ولا يدعُ للمعتني به صفةً حميدة إلا كساه إيَّاها ، ولا صفةً ذميمة إلا أزالَها عنه بإذن الله)[٤]

وقال العلامة إبراهيم بن محمود الأقصرائي في « الحكم العطائية » : (وهي وإن صغر حجمُها كثيرٌ علمُها ؛ بحيث قيل : إنه لمَّا صنَّفَها وكمَّلها ، وبين يدي شيخه سيدي أبي العباس المرسي تمثَّل بها ليتأمَّلها . . تأمَّلَها ورأىٰ ما اشتملَتْ عليه من

---

(١) انظر « عدة المريد الصادق » (ص ١٨١)

(٢) نقله العلامة زروق في خاتمة « شرح رسالة أبي زيد القيرواني » ، والضمير في قوله : (فأضلوه) راجع للفقه والتصوف .

(٣) انظر (ص ٦٩٧)

(٤) انظر « إيقاظ الهمم » (ص ٢٤) .

كمال الإفادة ، وقال له لقد أتيت يا بنيَّ في هٰذه الكراسة بمقاصدِ « الإحياء » وزيادة

ولذلك تعشَّقَتها أرواحُ أرباب الأذواق الواجدين للحقِّ ؛ لما رقَّ لهم من معانيها وراقَ ، وبسطوا القولَ فيها ؛ لما يظهر لهم من بواطنها علىٰ ظواهرها من العبارة التي من فيها مع بروق شَنَبِ أنوار نبراسها ، ونفاسة طيب أنفاسها ، المسكرة للعقول الصاحية بالنقول المكْلِمةِ للقلوب بلحاظها)[١]

وقال العلامة ابن عجيبة في وصف هٰذه « الحكم » (أعظمُ ما صُنِّفَ فيه ـ يعني التصوف ـ « الحكمُ العطائية » ، التي هي مواهبُ لدنية ، وأسرارٌ ربانية ، نطقت بها أفكارٌ قدوسية ، وأسرارٌ جبروتية .

ولقد سمعت شيخَ شيخِنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول سمعت الفقيهَ البنَّانيَّ يقول : كادت حكمُ ابنِ عطاء الله أن تكون وحياً ، ولو كانت الصلاة تجوزُ بغير القرآن . . لجازت بكلام « الحكم »)[٢]

وكلُّنا سمع ضوضاءَ زحمةِ الجهل في فهم هٰذه العبارة الأدبية البديعة في صياغةِ المكانة الرفيعة لهٰذه « الحكم » ، وما عساك أن تقول ؟! أساءت أحوالُ أمَّتنا بجهلها بلغتها العربية إلىٰ حدٍّ لم تعد تميِّزُ فيه أصولَ معاني الحروف ؛ فغاب عنها أن (لو) تدخل علىٰ شرطٍ قد امتنعَ ؟! لا ، بل هو سوءُ الظنِّ بالقوم ، ذاك هو الذي يدفعُ الغضوبَ الحانق لأَنْ ينبشَ عن مقدار ونيمِ ذبابةٍ يعترض فيها عليهم ! ثم كلامُهُ بعد ذلك كصرير باب ، أو طنينِ ذباب ، وأين هو من كلامٍ حفظته ذاكرةُ التاريخ ، وحلَّ قِمَمَ الشماريخ ؟![٣]

---

(١) انظر « إحكام الحكم » (ص ١٦)

(٢) انظر « إيقاظ الهمم » (ص ١٥)

(٣) **الشماريخ** : رؤوس الجبال .

وقد عدَّ العلامة ابنُ مغيزيل « حكم ابن عطاء الله » من الكتب العرفانية التي ليس فيها أدنىٰ خدش لظاهر الشريعة ، وصفَّها مع « الرسالة القشيرية » و« الإحياء » و« عوارف المعارف »[1] ، ولـٰكن قد بيَّن الإمام الشارح ابن عبَّاد **أن الاستفادةَ من كتب التصوف موقوفةٌ على الاعتقاد بمؤلفيها**[2] ، فهـٰذه محطَّةٌ لا بدَّ منها في العلم الظاهر وعلم القلوب ؛ إذ من لم يطمئنَّ عند تعلُّمه لما يلقيه عليه أستاذُهُ من العلوم ، ولا سيما في البدايات . . لا يمكنُهُ أن ينتفع به ، ولهـٰذا اختار العلماءُ إيكالَ تدريس المبتدئين من طلبة العلم للمحقِّقين من أهل العلم

« حكم ابن عطاء الله » وعلم التوحيد

ليس خافياً علىٰ أحدٍ ما لعلمِ التوحيد من وثيقِ صلةٍ بعلم التصوف ، بل إن شئت قلت : التصوفُ التوحيدُ ؛ إذ هو الغايةُ الكبرى التي يسعىٰ كلُّ مؤمن علَتْ همَّته لتقريرها في حياته اعتقاداً وسلوكاً ؛ **فالتوحيدُ اعتقاداً** : هو المعبَّرُ عنه بعلمِ التوحيد وأصولِ الدين والفقهِ الأكبر ، **والتوحيدُ سلوكاً** هو المعبَّرُ عنه بالتزكية قرآناً ، والإحسان سنَّةً ، والتصوف اصطلاحاً

وقد نبَّه حجة الإسلام الغزالي علىٰ عدم التحقيق عند بعض المُحْدَثين الذين جاؤوا بعد سلفنا الصالح ؛ حين ظنُّوا أن التوحيد هو علمُ الكلام ، **فلم يميِّزوا بين العلم الذي يجب أن يستقرَّ في صدر المؤمن ، وبين مناهجِ عَرْضه وطرائقِ صيانته** ؛ فالأول هو المعبَّرُ عنه بالعقيدة ، والثاني هو علمُ حماية العقيدة وتقريرِ أدلَّتها ، وهو المعبَّرُ عنه بعلم الكلام

وقد قال إمامُنا الغزالي وهو يتحدَّث عمَّا بُدِّل من ألفاظ العلوم **(الثالث**

---

(١) انظر « الكواكب الزاهرة » (ص ٢٨١) .

(٢) انظر « الرسائل الصغرىٰ » (ص ٩٢)

التوحيد وقد جعل الآن عبارةً عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والإحاطة بطُرُقِ مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدُّق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات ، وتأليف الإلزامات ، حتىٰ لقَّبَ طوائفُ منهم أنفسَهم بأهل العدل والتوحيد(١) ، وسُمِّيَ المتكلمون العلماءَ بالتوحيد ، مع أن جميع ما هو خاصيَّةُ هـٰذه الصناعة لم يكن يُعرفُ منها شيءٌ في العصر الأول ، بل كان يشتدُّ النكير منهم علىٰ من يفتح باباً من الجدل والمماراة)(٢)

وقد نشأَ اليوم لغطٌ مزعج في فهم أمثال هـٰذه العبارات ؛ **حتىٰ إن بعضَ العمائم استغلَّت هـٰذه النصوصَ في إنشاء شرخٍ بين علماء الكلام والصوفية !** وهـٰذا أمرٌ شنيع للغاية ؛ إذ كان الحريُّ بها ألا تُقصيَ بين المؤتلفات لسوء فهمها وضيق أُفقها ، وأن تعلم أن الغزالي وأمثاله هم من أساطين علم الكلام وسادات الفقهاء الأعلام ، **وهم إلىٰ ذلك أعيانُ عيونِ الصوفية ونجومُ سمائها** ، ولا يُصار إلى النَّسْخ والتخصيص والتقييد إلا عند مُحال الجمع والتأليف(٣) **ثم انتقادُ الصوفية لهـٰذا التحويلِ لا يعني تنقيصَ علم الكلام من حيث الوظيفة** ، بل من حيث الاعتمادُ عليه وعدم الترقِّي(٤) ، والاكتفاءُ بالنظر عن العمل ، وبلقلقةِ اللسان عن التحلِّي بمراقي رُتَبِ مقام الإحسان ، والاكتفاءُ بالقشر عن اللُّبِّ ، **والغَيبةُ عن تنزيل كليّات هـٰذا العلم الرصين**

---

(١) أراد : المعتزلة ، وهي محاولة منهم لحجر التوحيد عليهم ، وما زادوا علىٰ قلب الأعيان .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (١/ ١٢٥) .

(٣) وليس خافياً علىٰ متأمِّل في كتب الحجة الغزالي أنها كتب متناغمة متوافقة ، يعرف كلُّ كتاب منها دوره ومحلَّهُ ، وكان الحجةُ إلىٰ آخر لحظة من عمره يحيل علىٰ كتبه المنطقية والكلامية إحالةَ خبير بصير .

(٤) أو ما يمكن أن نعبِّرَ عنه بتطوير علم الكلام ؛ بالجمع بينه كمنظومة علمية وبين سائر العلوم الشرعية والتطبيقية ، وإخراجه من قمقم الجدل والمراء إلىٰ ميدان التطبيق اعتقاداً وحالاً وممارسة ، وهـٰذه النصيحة الغزالية أدركها علماء الكلام بعده ؛ وحسبك أن أعلام المتكلِّمين من أمثال الإمام الرازي والقاضي البيضاوي والعلامة العضد الإيجي وتلميذه العلامة السعد التفتازاني وتلميذه الشريف الجرجاني . . هم أنفسُهم أقلامٌ كتبت عن التصوف والعرفان بعمقٍ وتحرير

علىٰ جزئيَّات الخواطر والأعمال والأحوال ، وهـٰذه الغيبةُ هي بحقٍّ أكثرُ ما يقلقُ المخلصين المنتقدين لعلم الكلام[1] .

وبهـٰذا تعلمُ : أن المقلِّلينَ من شأن علم الكلام يتحدَّثون عن خطأ تعميمِهِ في المعرفة الإلـٰهية ، وإلا فهـٰؤلاء المنتقدون عندما يشتعلُ أُوارُ الشُّبَهِ وترتفعُ ألسنتها . . هم من يبادر إلى التدرُّع بعلم الكلام ، ورَشْقِ الخصومِ بنَبْله ورماحه ، وهم أنفسُهم من يدرك خطرَ تنقيصِ علم الكلام في أعين طلاب العلم المبتدئين ، وخطرَ الارتقاء إلىٰ عبارات التصوف العميقة أيضاً قبل استحكامِ معالمِ هـٰذا العلم والتمكُّن منه ، ولهـٰذا ترى الغزالي في « إحيائه » يحدِّثُك بالنصِّ الذي نقلته لك في كتاب (العلم) منه ، فإذا صار إلىٰ كتاب (السماع) مثلاً حذَّرَ من خطورة فهْمِ عبارات العارفين واستشهاداتهم إلا لمن تمكَّن من هـٰذا العلم ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ .

ولعلَّ المنهج الجمعيَّ الذي مزج بأسلوبه بين علم الكلام والتصوف . . هو المنهج الأليقُ الذي يجب أن يُختار لعرض مسائل الاعتقاد بين صفوف المؤمنين ، بل مع غير المسلمين أيضاً ؛ فما زلنا نسمع الأثرَ الكبير الذي خلَّفته الكتب العرفانية التي تتحدث عن المعرفة الإلـٰهية في بلادٍ لم يترعرع فيها الإيمان ، ونرىٰ بالمقابل الأثر الخافت للكتب والمناهج التي اختارت فصلَ علم التوحيد عن التصوف ؛ وإنك لترىٰ أن أصولَ الدعوة التي سادَتْ علىٰ ألسنة الأنبياء والأولياء ترجعُ للكلامِ الحكيم الجامعِ لما يرضي القلبَ والعقلَ معاً ؛ وسَمِّ هـٰذا الكلام إن أردتَ بالحكمة ، وسبحانَ من يؤتي الحكمة من يشاء !

وهـٰذا هو منهجُ أهل التوفيق والتسديد ، تراه في كتب الغزالي والسنوسي مثلاً ، وهو حريٌّ اليومَ بالإنعاش ، وبعثِهِ إلى الصفوف الأولىٰ بدلَ الاستحياء منه علىٰ أنه

---

(١) ورحم الله قائلهم : (من مخلع البسيط)

ربٌّ وعبدٌ ونفيُ ضدٍّ قلتُ لهُ ليسَ ذاكَ عندي
فقال ما عندَكم فقلنا وجودُ فقدٍ وفقدُ وجدِ

لغة صوفية ! وقد قال حجة الإسلام الغزالي (فإن كان منتهى العلمِ بالله ما اعتقدَهُ المقلدُ أو المتكلِّمُ المتعلمُ لتحرير الدليل . . فما عندي أن ذلك يعجِزُ عنه عمرُ وعليٌّ وكافَّةُ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حتى كان يفضلُهم به أبو بكر رضي الله عنه

وبهٰذا يستبينُ للمنصف أن طريقَ الصوفية وإن كان يرى مائلاً عن أكثر الظواهر . . فمشهودٌ له من الشرع بشواهدَ قوية ، فلا ينبغي أن يعاديَهُ الجاهل لجهله وقصوره عنه)[1]

وبعد هٰذه الكلمةِ الخاطفة : تدرك لِمَ اختار الإمامُ ابن عبَّاد « حكم ابن عطاء الله » ليشرحها ؛ فإنه أراد أن يعرض لأصول الاعتقاد السلوكية باسطاً القول فيها ؛ حتى قال في طالعة « شرحه » الذي بين أيدينا وهو يتحدَّث عن هٰذه « الحكم » : (**من أفضل ما صُنِّفَ في علم التوحيد ، وأجلِّ ما اعتمده بالتفهُّم والتحفُّظ كلُّ سالكٍ ومريد**)[2]

وقال العلامة المحقق ابن عجيبة في صفة « الحكم » (**والمسلكُ الذي سلك فيه مسلكٌ توحيديٌّ لا يسعُ أحداً إنكارُهُ ولا الطعن فيه** ، ولا يدعُ للمعتني به صفةً حميدة إلا كساه إيَّاها ، ولا صفةً ذميمة إلا أزالَها عنه بإذن الله)[3]

نفعنا الله بالأصل والشرح نفعاً عميماً ، وجزى مؤلفيهما فضلاً عظيماً

* * *

---

(١) انظر « ميزان العمل » (ص ٢٣٩)

(٢) انظر (ص ١٥٤) .

(٣) انظر « إيقاظ الهمم » (ص ٢٤) .

كلمة عن كتاب « التنبيه »

يعدُّ كتاب « التنبيه » للإمام ابن عبَّاد ضمن الصفِّ الأول لكتب التصوفِ من عصر تأليفه إلىٰ زماننا هـٰذا ، وقد راقَ للعلماء تدريسُهُ والنظر فيه ، والنقلُ عنه والإحالة عليه ؛ وعدُّوه من حيث العمل من كتب الفقه الجامعة بين أحكام الظاهر والباطن

وهو فاتحةُ شروح « الحكم » ، فما من شرحٍ جاء بعده إلا وعوَّل عليه ؛ مباشرةً أو بواسطة ، فما جَرُؤَ أحدٌ علىٰ شرحها قبلَهُ ، وكأنَّها قد خُبئت له ، ولنتحدَّث بإيجاز عن هـٰذا الشرح المبارك النفيس

نظرةٌ في عنوان الكتاب :

سمَّى الإمام ابن عبَّاد شرحه هـٰذا بـ« التنبيه » ، منبِّهاً علىٰ أن « حكم ابن عطاء » أعظمُ وأجلُّ من أن تكون معانيها ومقاصدها محصورة فيما كتبه وأومأ إليه ، ولذلك قال في صفتها : (من أفضل ما صُنِّفَ في علم التوحيد ، وأجلِّ ما اعتمده بالتفهُّم والتحفُّظ كلُّ سالكٍ ومريد)(١)

وقال أيضاً : (أخذنا في وضعِ « تنبيهٍ » يكونُ كالشرحِ لبعضِ معانيهِ الظاهرةِ ، وكالكشفِ للمعةٍ يسيرةٍ مِنْ أنوارِهِ الباهرةِ)(٢)

وكان كلَّما أحال علىٰ كلامٍ ذكره أشار إلى اسم كتاب بـ« التنبيه » ، وما زالت الحال علىٰ هـٰذا حتىٰ قال في خاتمته : (وقد تقدَّمَ في أوَّلِ هـٰذا « التنبيهِ ». . .)(٣) ،

---

(١) انظر (ص ١٥٤) .

(٢) انظر (ص ١٥٤) .

(٣) انظر (ص ١٠٢٩) .

فلا غروَ أن العنوان الرئيس لهـٰذا الكتاب هو « التنبيه » ، وأن عنونته بـ « شرح الحكم العطائية » إنما هي لبيان مادَّته المشروحة فيه ، لا أنها عَلَمٌ على الشرح أصالة

وإذا صرَّحَ العلامة زروق بالنقل عن « التنبيه » في عموم كتبه[١] . . فالمرادُ كتابنا هـٰذا ، وهـٰكذا بقي العلماءُ ينقلون عنه ؛ تارة باسمه الأصيل « التنبيه » ، وتارة باسمه الدارج « شرح الحكم » ، ولا أدري من أين سرىٰ له اسمُ « غيث المواهب العلية »[٢] ! إذ هو علىٰ جماله لم يدوَّنْ علىٰ أوراق النسخ الخطية التي اعتُمد عليها في إخراجه ، ولعلَّ من أظهره بهـٰذا العنوان اللطيف قد وجد هـٰذه العنونة علىٰ ظهور بعض ما وقف عليه من المخطوطات ، ومع هـٰذا كنْ علىٰ جزمٍ أن عنوان الكتاب الأصيلَ لا صلةَ له بهـٰذه العنونة

المكانة العلمية لـ « التنبيه »

سبق لك أنه الشرحُ الأول زماناً ومكانةً عند أهل العلم ، وقد أشار إلىٰ هـٰذا العلامة زروق حفيد ابن عبَّاد في العلم[٣] ؛ حيث قال وهو يتحدَّثُ عن شهود المنة باستصحاب الشكر (ويجري ذلك في الجلب والدفع ديناً ودنيا ، علماً وعملاً وحالاً ، وعليه مدار طريق الشاذلية ، وتحريرُها في كتب ابن عطاء الله ، وزبدتُها في « رسائل ابن عباد » و« شرحه »[٤] ، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك)[٥]

وقال أيضاً وهو يتحدَّث عن « الحكم » (لقد سام هـٰذا الكتاب بالشرح جماعةٌ ، وتكلَّموا عليه بقدْرِ ما لهم من البضاعة ، فكان أحقَّهم به ، وأولاهم

---

(١) انظر « عدة المريد الصادق » مثلاً (ص ١٨٢)

(٢) ومن أقدم من ذكرها العلامة حاجي خليفة المتوفىٰ سنة (١٠٦٧هـ) في « كشف الظنون » (١/ ٦٧٥)

(٣) إذ هو تلميذ العلامة القوري ، والقوري تلميذ ابن عبَّاد .

(٤) يعني : شرحه لـ « الحكم العطائية »

(٥) انظر « عدة المريد الصادق » (ص ١٨١)

وأقربَهم لتحصيل مقاصده وأدناهم . . سيدُ العارفين في زمانه ، ونخبةُ عصره في ذلك وإبّانه ، نسيجُ وحده ، وعمدةُ الصديقين من بعده ؛ الشيخ الصالح الفقيه ، والخطيب البليغ النبيه ؛ سيدي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم . . .)[١]

وقال العلامة ابن قنفذ وهو عصريُّ المؤلف : ومن تصانيفه العجيبة : كتاب « شرح الحكم » لابن عطاء الله في سفرٍ ، رأيتُهُ وعلىٰ ظهر نسخةٍ منه مكتوب [من البسيط]

لا يبلـغُ المـرءُ فـي أوطـانِـهِ شـرفـاً حتىٰ يكيلَ ترابَ الأرضِ بالقَدَمِ[٢]

وممَّا قيل عن شروح « الحكم » (أبى الله عز وجل أن يقبلَ إلا شرحَهُ عليها)[٣]

وقال ابن السكاك (أما شيخي وبركتي أبو عبد الله بن عبَّاد رضي الله عنه فإنه شرح « الحكم » ، وعقد درر منثورها في نظم بديع ، وجمعتُ من إنشائه مسائلَ مدارُها على الإرشاد إلى البراءة من الحول والقوة ، فيها نبذٌ كأنفاس الأكابر ، مع حسن التصرف في طريق الشاذلي ، وجودة تنزيله على الصور الجزئية ، وبسط التعبير مع إنهاء البيان إلىٰ أقصىٰ غاياته ، والتفنُّن في تقريب الغامض إلى الأذهان بالأمثلة الوضعية ، **فقرَّبَ بها حقائق الشاذلية تقريباً لم يسبق إليه** ؛ كما قرب الإمام ابن رشد مذهبَ مالك تقريباً لم يسبق إليه)[٤]

وبالجملة : معارفُ القوم وإشاراتُهم لو ادَّعيتَ أنها طُويت في هـٰذا الرقْمِ . . لما أبعدتَ النُّجْعة ، فهي كما سترىٰ قد أتت علىٰ أصول التوحيد فسكبَتْهُ في قوالب السلوك والعمل ، وصدق فيه قول من قال : (من نعم الله على العباد « شرح ابن عبَّاد »)

(١) انظر « إفادة المرتاد » (ص ٣٣) .
(٢) انظر « أنس الفقير » (ص ٧٩) ، ومعنى البيت لا ينال المرء الرُّتب الرفيعة في المجد والشرف . . حتىٰ يَذْرعَ الأرض بأقدامه ؛ هجرةً عن أوطانه في طلب العلم .
(٣) نقله العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٤)
(٤) انظر « نيل الابتهاج » (ص ٤٧٥) ، و« نفح الطيب » (٥/ ٣٤٥ـ٣٤٦) .

داعيةُ التأليف :

أشار العلامة الأديب المقَّري إلىٰ أن تأليف الكتاب كان بطلبٍ من عالمين جليلين ، ولم يكن ابتداءً بمحض اختيار مؤلفه ؛ فقال : (وكان الذي طلبَهُ في وضع الشرح على « الحكم » سيدي أبو زكريا السرَّاج ؛ الذي أكثرُ رسائلِهِ له ، وسيدي أبو الربيع سليمان بن عمر)(١)

والذي نطالعه في مقدمة هـٰذا « التنبيه » أنه إنما اختار شرحها لكونها أفضل ما كُتِبَ في أصول التوحيد ، ولاختصارها في هـٰذا الباب ، وعلىٰ أيِّ حال لا يمنع هـٰذا الكلامُ من وجود دوافع خارجية أكَّدت ضرورة تدوين هـٰذا الشرح

مصادرُ « التنبيه » وملامحُهُ العامة :

نصحَ الإمام الشارحُ بجملةٍ من كتب التصوف التي يجب الاعتناء بها في « الرسائل الصغرىٰ » ، ووصف من اعتنىٰ بها بأنه يكون من المهتدين(٢) ، وكثير من هـٰذه الكتب كان مرجعاً له في « شرح الحكم » ، وخلال النظر فيه نرىٰ أنه استقىٰ مصرحاً في كثير من الأحايين من عيون كتب التصوف والتزكية وأُمَّاتها ؛ فمن ذلك :

- « النصائحُ » للإمام الحارث المحاسبي ، واشتَهر هـٰذا الكتاب بـ« الوصايا » .
- « الرعايةُ » للإمام المحاسبي أيضاً ، وغيره من كتب هـٰذا الإمام
- « النصائحُ » للإمام أبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التُّجيبي الطليطلي المالكي .
- « المواقفُ والمخاطباتُ » للعارف بالله تعالىٰ محمد بن عبد الجبار النِّفَّري .
- « قوتُ القلوب » للإمام أبي طالب المكي ، وقد اعتدَّ به كثيراً في « الرسائل الصغرىٰ »
- « حليةُ الأولياء » للحافظ الكبير أبي نعيم الأصبهاني

---

(١) انظر « نفح الطيب » (٥/ ٣٤٥) ، و« سلوة الأنفاس » (٢/ ١٥٤) .

(٢) الرسائل الصغرىٰ (ص ٩٧ـ ٩٨) .

ـ « لطائفُ الإشارات » للإمام عبد الكريم القشيري

ـ « شرحُ أسماء الله الحسنىٰ » للإمام القشيري أيضاً

ـ « الرسالة القشيرية » للإمام القشيري أيضاً ؛ إلا أن نقله عن الكتابين المتقدمين أكثر .

ـ « إحياءُ علوم الدين » لحجة الإسلام الغزالي .

ـ « ميزانُ العمل » للإمام الغزالي أيضاً

ـ « عوارفُ المعارف » للإمام السُّهْرَوردي .

ـ « التنويرُ في إسقاط التدبير » للإمام ابن عطاء الله صاحب « الحكم »

ـ « لطائفُ المنن » للإمام ابن عطاء الله أيضاً ، ونقلُهُ عن هٰذا الكتاب والذي قبله اعتبره بمثابة شرحٍ لـ « حكم ابن عطاء الله » بلسان صاحبها

وقد أكثرَ المؤلف من النقل عن الإمام العارف بالله تعالىٰ عبد العزيز المهدوي ، وللعارف الحاتمي رسالة مشهورة في خطبة « الفتوحات » خطَّها له .

وجاء تقسيمُ الكتاب متناغماً مع أصله ؛ إذ أصل كتاب « الحكم » منقسم إلى الحكم ، والمكاتبات ، والمناجاة ، وزاد الشارح خاتمة لـ « التنبيه » بيَّنَ فيها منهجه ومقاصده .

كما نلحظ أنه راعى انقسامَ « الحكم » إلىٰ فصول ، فلعلَّك تراه إذا قرَّر مسألة قال : (فاعرف قدر هٰذا الفصل)(١) ، أو قال : (فلو لم يكن في هٰذا الكتاب إلا هٰذا الفصل لكان كافياً شافياً)(٢) ، وهو ما أبرزَهُ العلامة زروق حينما عنون لهٰذه الفصول .

* * *

---

(١) انظر (ص ٨٧٣)

(٢) انظر (ص ٢٢٧) .

منهج العمل في تحقيق الكتاب

لم تعد خافيةً عليك مكانةُ الكتاب العلمية ؛ إذ هو اليومَ مرجع رئيسٌ من مراجع التصوف عموماً ، ومن مراجع شروح « الحكم العطائية » خصوصاً ، وكان قد لقيَ بعضَ حقِّهِ في سابق طبعاته ، ونضيفُ إليه ضمنَ سَعْيٍ خَجِلٍ بعضاً آخر ؛ لعلَّهُ يكون ممَّا تقرُّ به عينا الإمامين صاحب « الحكم » وصاحب « التنبيه » عليه

وقد تلمَّحتُ خلالَ النظر في منهج الإمام الشارح أنه اعتنىٰ بأمورٍ جعلت خادمَهُ اليوم يسعىٰ في إتمامها واستكمالها ؛ فمن ذلك أمورٌ

الأول : أنه حرصَ على التنبيه علىٰ أصول الحكمة المشروحة ؛ فتجدُ له نحو قوله (والأصل الذي ينبني عليه هـٰذا المعنىٰ)[١] ، **وهـٰذا ما حملَ علىٰ تأصيل جميع « الحكم » تأصيلاً عقدياً يُرجع إليه** ؛ وذلك بذكر الأصول العقدية العامة وبعضِ تفاريعها وصورها التي تستند إليها الحكمة اعتقاداً ، فلا يجرُؤُ بعد ذلك أحدٌ على الاعتراضِ عليها بدعوىٰ مخالفتها لاعتقاد أهل السنة والجماعة ، وقد تنبَّهتَ قبل يسيرِ صفحات لوشائج القربىٰ بين « الحكم » وعلم التوحيد[٢]

الثاني أنك ستجدُ كلاً من صاحب « الحكم » وشارحها يستشهدانِ للحكمة بالكتاب والسنة ؛ فتجد ذلك في نحو قول الشارح (والإشارة إلىٰ هـٰذا المعنىٰ . . .)[٣] ، وقوله : (وفي قوله عز وجل ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ . . . ﴾)[٤] ،

---

(١) انظر (ص ٢٩٤) .

(٢) انظر (ص ٥٣)

(٣) انظر (ص ٣٤٠)

(٤) انظر (ص ٨٤٨) .

غير أن هـٰذا المنهج لم يعمَّ أكثر « الحكم » ؛ ولعلَّ ذلك يرجعُ إلىٰ وضوح تأصيلها في زمنهم بالنصوص النقلية ، وعدم وجود المعترض الملبِّس المزيِّن لكلامه من قول خير البرية ، وهـٰذا ما حملَ على الشهادة لكلِّ حكمةٍ بآية أو أكثر وبحديث أو أكثر ، وهو عمل تطمئن إليه القلوب النافرة ، وتأنس به القلوب العامرة

واعلم أن ما أُورد من الآيات والأحاديث جُهدَ ألا يكون من الآيات والأحاديث التي يستشهد بهما الإمام الشارح ؛ فلا تستغرب لترك هـٰذه الآية مع وضوحها والعدول إلىٰ أخرىٰ مع غموضها ؛ فإنما هو النأي عن التكرار ، وتكثير الشواهد وتوسيع المشاهِد .

وستجدُ هـٰذينِ العَمَلينِ بصحبتك مع فاتحة كلِّ حكمة ؛ ليكون ذلك مدعاة لك لفهمها ، وربطها بأصول التوحيد والكتاب والسنة

ولم أسرح الطرفَ في أيٍّ من شروح « الحكم » ساعةَ العمل ؛ لأحفظَ لهـٰذا الشرح الأصيل حرمتَهُ فلا يستتبع بغيره ، اللهمَّ إلا كتاب « الطرر والحواشي » الذي أفدتُ منه فصول الكتاب وعناوينها ، وربما قطفت العينُ تعليقاتٍ يسيرةً علىٰ غفلة وغلبة ، لا أراها تجاوز عدَّ الأصابع ، ولم أرَ البخلَ بها

وكان من منهج الإمام الشارح أنه ربما جمع أكثر من حكمةٍ في حكمة واحدة أو نسق واحد ، وما أدري : أرآها كذلك ، أو أنه تعمَّدَ جمعها لكونها تنطوي تحت معنىً جامع يليقُ بشرحه ؟ اللهُ أعلم ، وعلىٰ أيِّ حال فما كنت لأغيِّر صورةَ ما اختاره ؛ فبقيت « الحكم » معتبرة العدِّ المشتهر لها .

وقد خُرِّجت الأحاديث والآثار والأخبار من دواوين السنة وكتب التاريخ والترجمات ، وأُحيلت نصوصُهُ المنقولة إلىٰ مصادرها الرئيسة ، وعُلِّق علىٰ قلَّة علىٰ بعض عباراته التي قد تشكل أو تحتاج إلىٰ إثراء يناسب زماننا ، وشكل الكتاب شكلاً إعرابياً كاملاً ، وشُرِحَ غريب كلماته ، وأُعدَّت له المقدمات العلمية التي نرجو نفعها لمطالعه ومدرِّسِهِ

وبعدُ :

فإن كان للطامع رَجْوةٌ فهي القبولُ والرضا ، وتحريكُ ستائر عالم الغيب لعلَّ نسماتٍ عبقةً من رياح الرضوان ترجعُ إلينا ببركات أنفاس هٰؤلاء السادة الزكيّة نفوسُهم ، وأن تقرَّ أعينُهم بما يمُنُّ المولىٰ ويفتح ، ويعطي ويلهمُ ويمنح ، وإنما هي آثارُ أنظارهم ، وهباتُ دعواتهم ، رضي الله عنهم ورضوا عنه .

حرر في دمشق الشام

ضحى الأحد (٢٤) رمضان المعظّم (١٤٤١هـ) مضت بنا بخير وسلامة

الموافق (١٧) أيار مايو (٢٠٢٠م)

وكتبه

الفقير لعفو مولاه الغني

أنس محمّد عدنان الشرفاوي الحسني

وصف النسخ الخطية لكتاب «الحكم العطائية»

نسيجُ كتاب « الحكم العطائية » المفردِ برأسه قبل الشرح الذي بين أيدينا . . إنما هو من صنعة النسخ الأصيلة لكتابنا « التنبيه » ؛ إذ تمَّ استلالُهُ من الشرح الذي لا نشكُّ بوقوف الشارح العلامة ابن عبَّاد علىٰ أنفس نسخه ؛ وذلك لقرب عهده بالإمام ابن عطاء الله الإسكندري ، مع المحافظة على الضبط الذي تمَّ اعتماده

وقصداً لزيادة الطمأنينة : عورضت هـٰذه النسخةُ المستلَّة بخمسِ نسخٍ خطية منتخبة من عددٍ كبير من نسخ كتاب « الحكم » التي فشَتْ في رحاب المكتبات العالمية ، فقوبلت مقابلة تامة على النسختين (أ ، ب) ، ونُظرَ في سائر النسخ نظرةَ بحث وتوثيق .

وقد وقع في أربعٍ من عموم النسخ زيادةٌ بعدَ المكاتبات التي تمثِّل الجزء الثاني من الكتاب ، وهي على الأرجح ليست من كلام الإمام ابن عطاء الله في هـٰذا الكتاب ، وإن كانت لا تخلو من نفحات عرفانية عبقة ، ولذلك تمَّ إثباتها في موضعها بالهامش ؛ كيما يتبيَّن القارئُ أنها زائدة ، وهـٰذه النسخ المعتمدة هي

النسخة الأولىٰ

نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة ، ذات الرقم العام (٩٧٤٨٥) والخاص (١٩٣٩) ، وتاريخ نسخها : سنة (٨٢٥هـ) ، علىٰ يد كاتبها أحمد الإمام ، وهي مجموع يحتوي علىٰ نسختين من نسخ كتابنا « الحكم » ، وإنما اعتمد على النسخة الثانية منه ؛ من الورقة (٢٠) إلى الورقة (٣٦) ، واعتني بإثبات أبرز فروق ومغايرات هـٰذه النسخة

النسخة الثانية

نسخة **مكتبة الإسكوريال** بإسبانيا ، ذات الرقم (٧٨٦) ، **وتاريخ نسخها** : سنة (٩٤٧ هـ) ، علىٰ يد كاتبها أحمد بن علي العمادي ، وهـٰذه النسخة لم تحوِ على الزيادة الملحقة بمكاتبات المؤلف ، بل وافقت الأصل الذي اتفقت عليه عامة المخطوطات وشروح الكتاب ، كما حوت على العبارة الفاصلة بين أبواب « الحكم » ، وهي : (وقال رضي الله عنه) ، والتي اعتمدها العلامة زروق في تبويب الكتاب

النسخة الثالثة

نسخة **المكتبة الأزهرية** بالقاهرة ، ذات الرقم العام (٨٣٣٢٥) **والخاص** (١٧٠٠) ، **وتاريخ نسخها** سنة (٩٦٣هـ) ، وهي مجموع أيضاً ، وكتابنا فيه وقع من الورقة (٢٠) إلى الورقة (٣٦)

النسخة الرابعة

نسخة **مكتبة كوبريلي** مجموعة محمد عاصم بتركيا ، ذات الرقم (٧٢٨) ، **وتاريخ نسخها** : سنة (٩٨١هـ) ، وهي مجموع ، وقع كتابنا في صدره

النسخة الخامسة

نسخة **المكتبة الأزهرية** بالقاهرة ، ذات الرقم العام (٩١٩٥٧) والخاص (٢٥٢٤) ، **وتاريخ نسخها** : سنة (١٠٧٦هـ) ، وهي مجموع أيضاً ، وكتابنا فيه وقع في صدره أيضاً

* * *

وصف النسخ الخطية لكتاب « التنبيه »

تمَّ بفضل الله وحمده اعتماد ستِّ نسخٍ خطية منتخبة من خيرة النسخِ المتناثرة لهٰذا الكتاب القيِّم ، والتي تدلُّ على اعتناء أهلِ العلم به وبتزويقه ، وهٰذه النسخ هي

النسخة الأولىٰ

نسخة المكتبة **الظاهرية** دمشق ، ذات الرقم (١٤٢٩) ، وهي نسخة تامَّة ، كُتبت بخطٍّ نسخي حسن ، ووقعت (١٦٧) ورقة ، وكُتبت سنة (٨٥٦ هـ) ، **وناسخها** : هو إبراهيم بن منصور الشافعي ، وتغير خط النسخ بعد الورقة (٣٨) ، وقد ميَّز بين الحكمة وشرحها بلونين متغايرين

وجاء عنوان الكتاب على الورقة الأولىٰ منها « شرح حكم ابن عطاء الله الإسكندري » للنَّفْزي ، وفي هامشها بعضُ المطالب العلمية غير المعنونة ، وقد قوبلت كما جاء ببعض المواضع علىٰ هامشها بأصل صحيح معتمد ، وأثبت علىٰ ندرةٍ بعض فروق النسخ ، وشرحت بعض الكلمات الغريبة

ورمز لها بـ (أ) .

النسخة الثانية

نسخة مكتبة رشيد أفندي الوطنية قيصري تركيا ، ذات الرقم (٧ ، ٢٩٧/١١١٤) ، وهي نسخة تامَّة ، كُتبت بخط نسخي جلي ، وحظيت بعناية من

ناسخها الذي لم يذكر اسمه ؛ إذ كتب « الحكم » باللون الأحمر ، و« شرحها » باللون الأسود ، وكتبت سنة (٨٦٨ هـ) ، ووقعت في (١٦٢) ورقة

جاء على ورقة العنوان منها (كتاب « شرح حكم العارف بالله الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري » ، للعلامة محمد بن إبراهيم بن عبَّاد النَّفْزي ، رحمهما الله تعالى ، ونفعنا ببركتهما ، آمين)

ثم كتب أسفلَ العنوان بخط فارسي على لُصاقة ورقية (هـٰذا تأليف جليل لا يوجد مثله في الماضي والحال ، حفظ الله صاحبه من جميع الكدرات في المضارع والحال ، وأناله الله ببركة هـٰذا الكتاب الشريف ما في قلبه مراداً دنيوياً وأخروياً في المقاصد العلية الربانية ، والمعارف الروحانية الإلـٰهية ، وشرَّفه وأكرمه ولطف له بما لطف لأوليائه العاشقين العارفين ، بحرمة سيد المرسلين ، آمين)

ورمز لها بـ (ب)

النسخة الثالثة

نسخة مكتبة حكيم أوغلو إستنبول ، ذات الرقم (٤٦٥) ، وهي نسخة تامَّةٌ ، كُتبت بخط فارسي جميل ، وبترتيب لطيف ؛ حيث كتبت « الحكم » باللون الأحمر ومشكولة على الأغلب باللون الأسود ، وكتب « الشرح » باللون الأسود ، وبعناية مميزة ، ووقعت في (٢٣٢) ورقة ، كُتبت سنة (٨٧٦ هـ) ، وناسخها : هو محمد بن نجم الدين الصالحي

وجاء عنوان الكتاب على الورقة الأولى منها : « شرح الحكم » النَّفْزي ، وانتثرَ على هامشها بعضُ المطالب العلمية المعنونة ، وضبطت بعض المفردات ، كما أُثبتت عليه بعض المغايرات على ندرة تنبئ عن مقابلتها على غيرها بعد نسخها

وتعدُّ هـٰذه النسخة من أنفس نسخ هـٰذا الشرح المبارك ، والنصُّ الذي بين يديك

هو من نسجها ، إلا في مواضع يسيرة ، هٰذا مع تطابقها في كثير من الأحايين بالأصول المنقول عنها ؛ ممَّا يزيد القارئ طمأنينة ، ويدفع عنه ريبة .

ورمز لها بـ (ج)

النسخة الرابعة

نسخة **المكتبة الأزهرية** القاهرة ، ذات الرقم العام (١٣١١٤٩) والخاص (٣١٩٨) ، وهي نسخة تامَّةٌ ، كُتبت بخط نسخي معتاد ، **سنة** (٩٧٠ هـ) ، وهي كأخواتها كتبت بلونين متغايرين ، **وناسخها** هو نور الدين علي بن محمد بن عبد الله المنوفي

وجاء عنوان الكتاب على الورقة الأولىٰ منها « شرح الحكم » لابن عبَّاد ،

وتعدُّ هٰذه النسخة من النسخ المقدَّمة لهٰذا « الشرح » ، وهي شبهُ متطابقةٍ مع النسخة (ج) ، وهي كما سبق لك نسخة نفيسة

ورمز لها بـ (د)

النسخة الخامسة

نسخة المكتبة الأزهرية القاهرة ، ذات الرقم العام (٩٣٩٢٣) والخاص (٢٥٤٦) ، وهي نسخة تامَّةٌ ، كُتبت سنة (١١٠٤ هـ) ، **وناسخها** : هو عليُّ بن حسن المالكي الأزهري

وجاء عنوان الكتاب على الورقة الأولىٰ منها : (كتاب « شرح الحكم » للشيخ الإمام العالم العلامة الفهامة ، وحيد دهره ، وفريد عصره ، المعتمد في غفران ذنبه على الله تعالىٰ ؛ محمد بن إبراهيم بن عبَّاد النَّفْزي الرُّنْدي ، قدَّس الله روحه ، ونوَّر ضريحه) .

وهـٰذه النسخة كثيرة المغايرات للنسخ الأخرىٰ ، ولعلَّ قلم التحسين قد عمل بها ؛ إذ قد نرىٰ عبارة صحيحة ، ونراها في هـٰذه النسخة ما هو أوضح منها ؛ إما بتغير كلمة ، أو بزيادة كلمة أو عبارة أحياناً ، ومع هـٰذا فقد صحَّحَتْ بعض الأخطاء النادرة الوجود في النسخ الأخرىٰ

ورمز لها بـ (هـ)

النسخة السادسة

نسخة **المكتبة الأزهرية** القاهرة ، ذات الرقم العام (١٥٧٧٨) والخاص (٤٥٤) ، وهي نسخة تامَّةٌ ، كُتبت بخط نسخي حسن ، **سنة (٩٩٦ هـ)** ، **وناسخها** هو محمد بن علي الصيداوي ، ولقيت من عناية النسخ ما لأخواتها أيضاً

وجاء عنوان الكتاب على الورقة الأولىٰ منها (« شرح ابن عبَّاد على الحكم » ، نفعنا الله بمؤلفهما) ، وهي نسخة مقابلة ومصححة ، إلا أنها لا ترقىٰ إلى النسخ الأصول المعتمد عليها ، ومع هـٰذا أفيد منها بعض التعليقات المتناثرة علىٰ هامشها هي من الأهمية بمكان

ورمز لها بـ (و)

* * *

صور من المخطوطات المستعان بها

صور من المخطوطات المستعان بها لكتاب «الحِكَم العطائية»

راموز ورقة العنوان من النسخة (أ)

راموز الورقة الأولى من النسخة (أ)

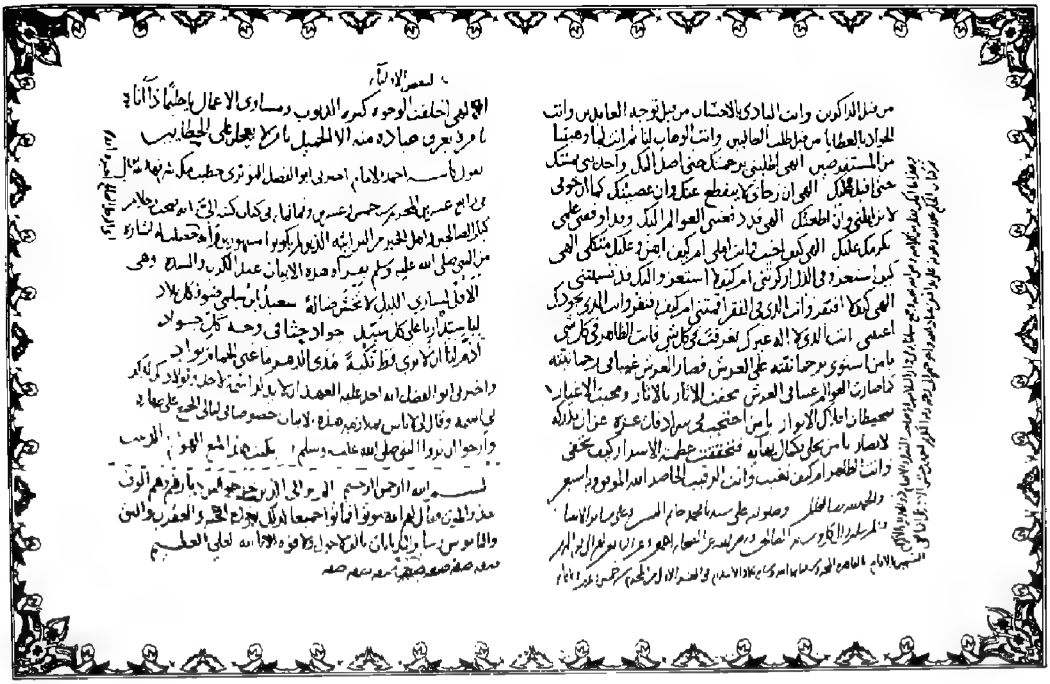

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (أ)

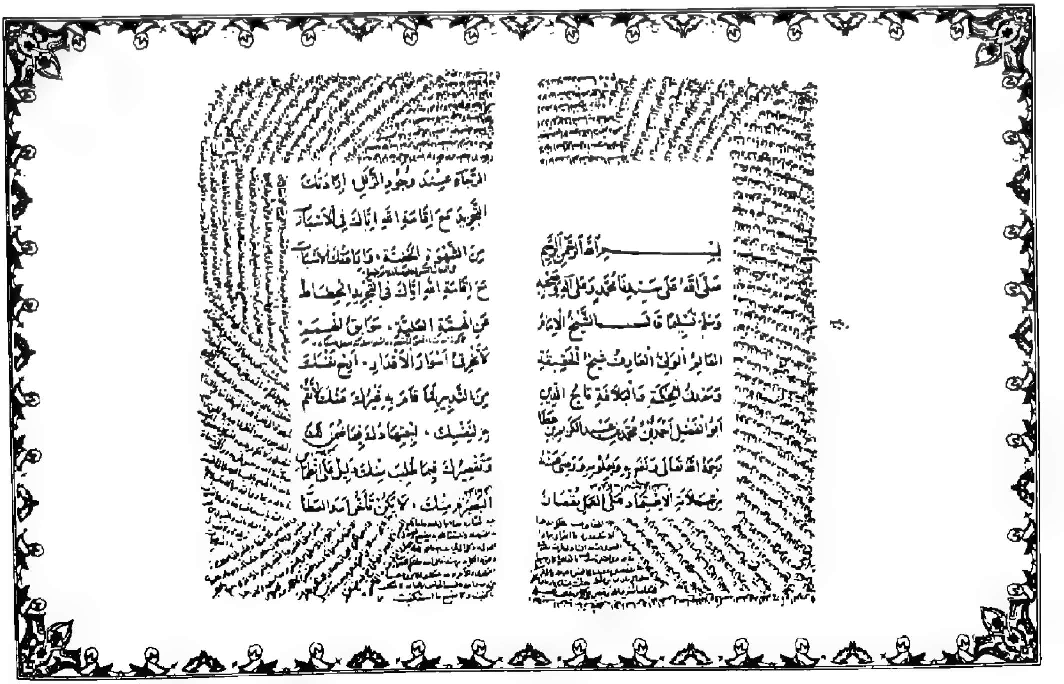

راموز الورقة الأولى من النسخة (ب)

مظنة الأسرار. كيف تخفى وأنت الظاهر
أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر
والله الموفق وبه أستعين وهو حسبنا
ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم
وصلى الله على محمد
وآله أجمعين

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ب)

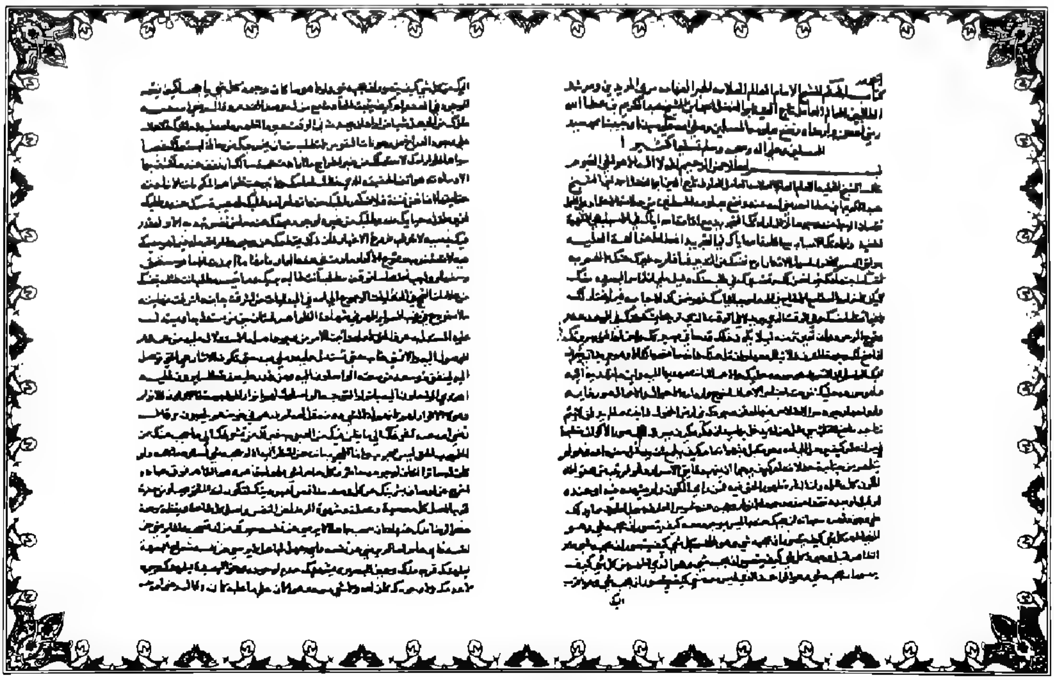

راموز الورقة الأولى من النسخة (ج)

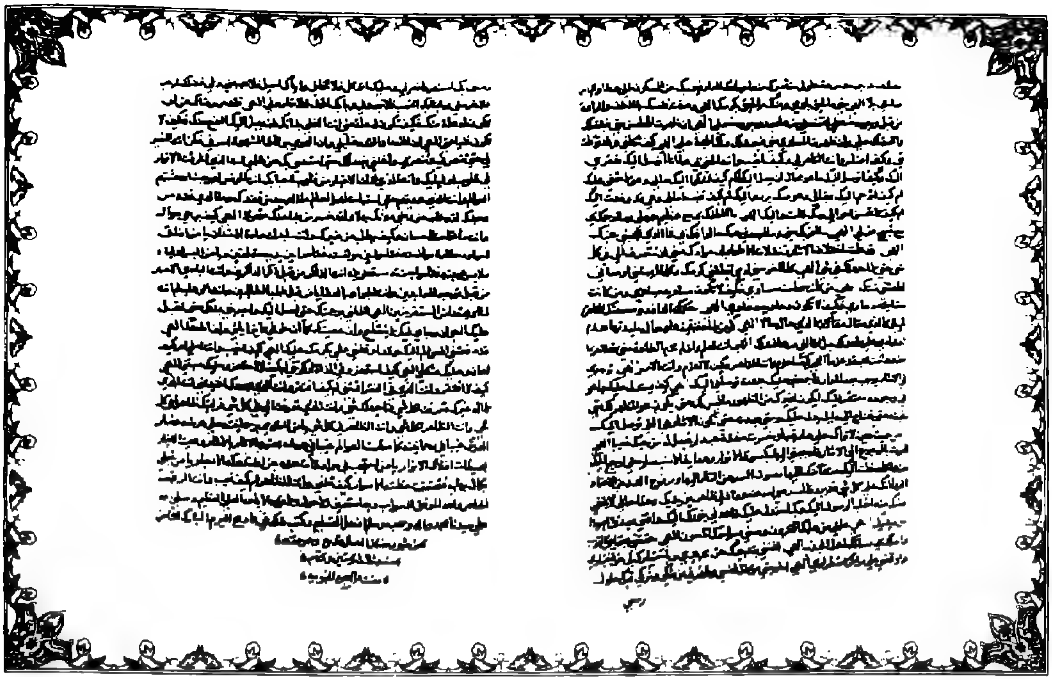

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ج)

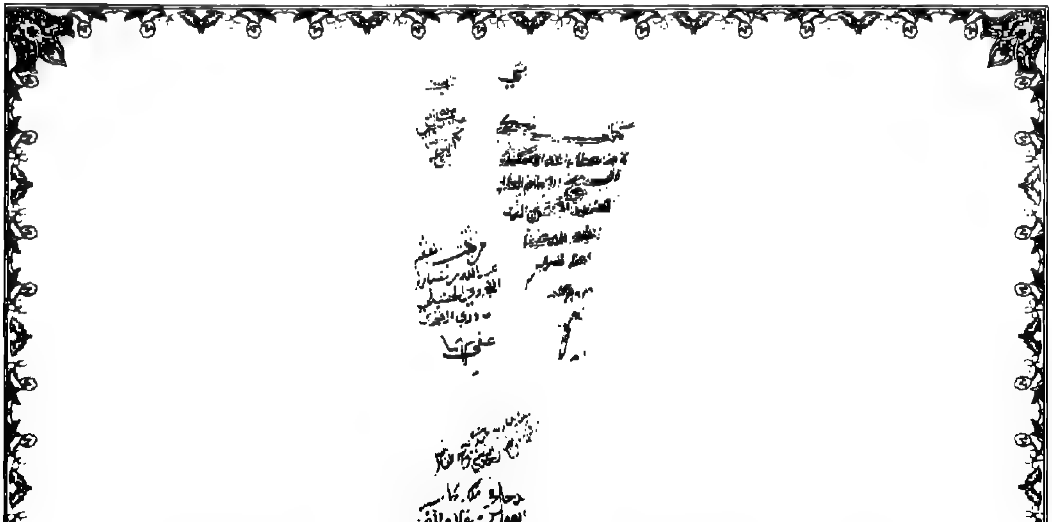

راموز ورقة العنوان من النسخة (د)

راموز الورقة الأولى من النسخة (د)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (د)

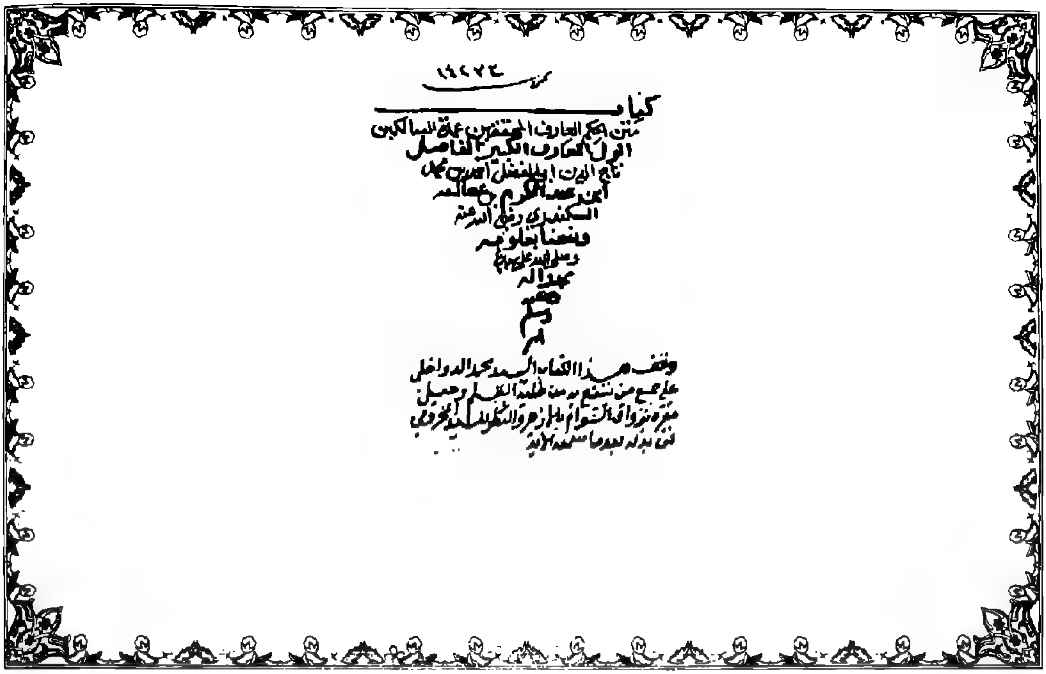

راموز ورقة العنوان من النسخة (هـ)

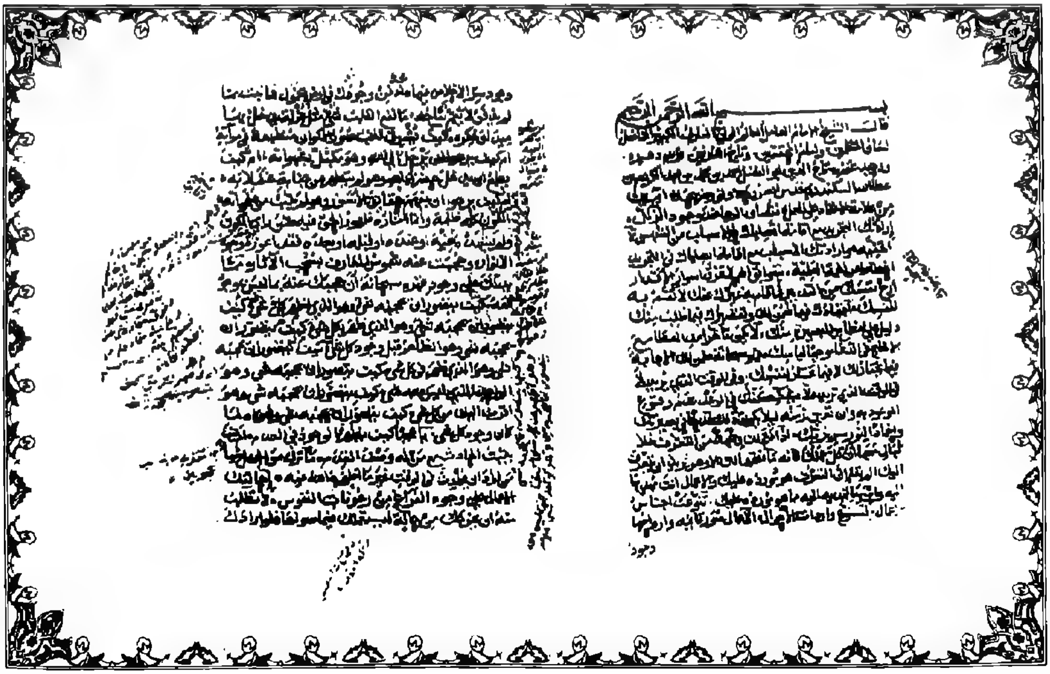

راموز الورقة الأولى من النسخة (هـ)

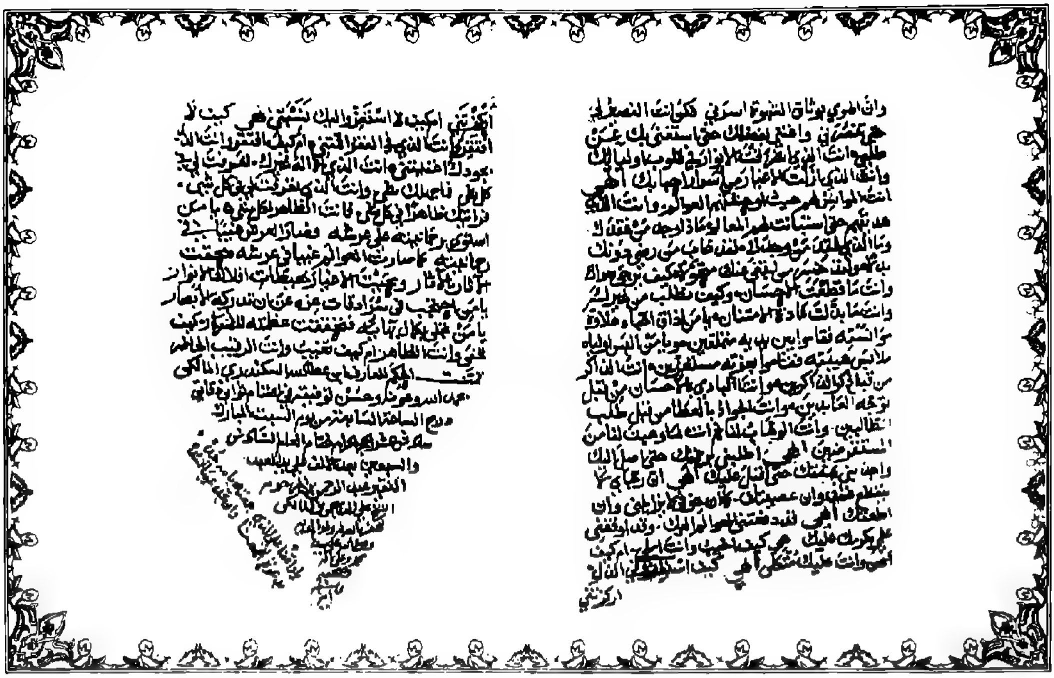

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (هـ)

صور من المخطوطات المستعان بها لكتاب «التنبيه»

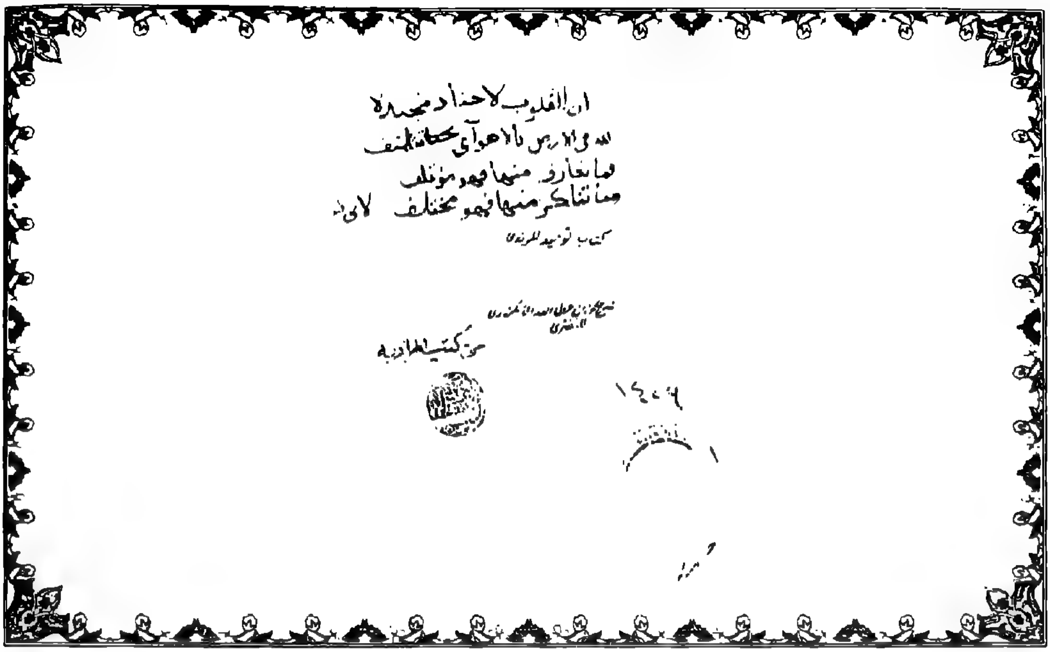

راموز ورقة العنوان من النسخة (أ)

راموز الورقة الأولى من النسخة (أ)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (أ)

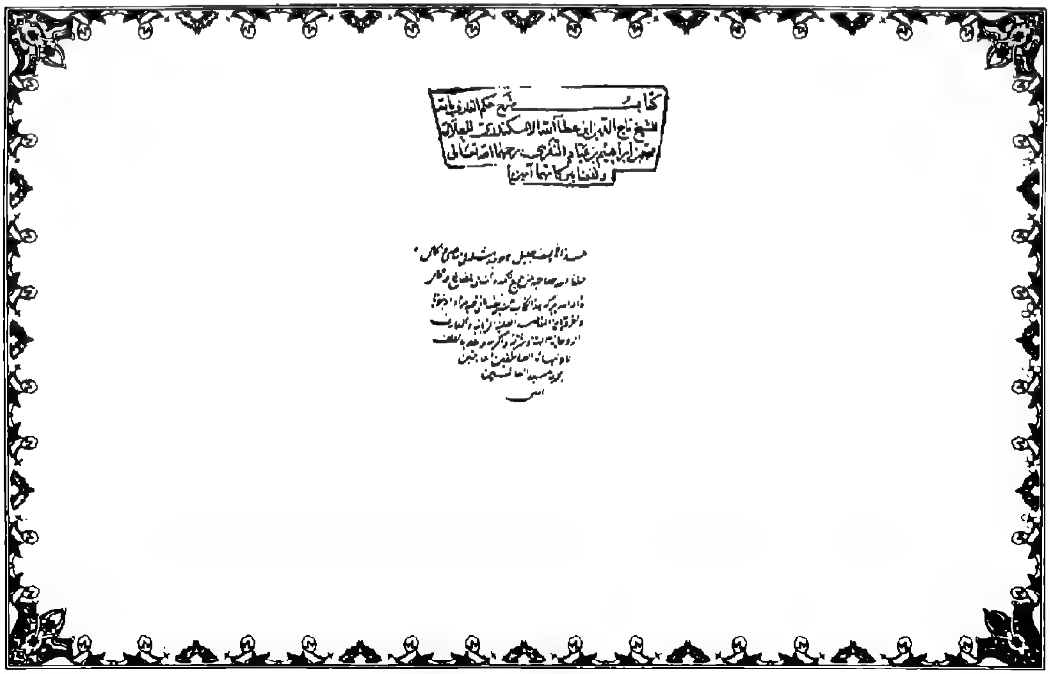

راموز ورقة العنوان من النسخة (ب)

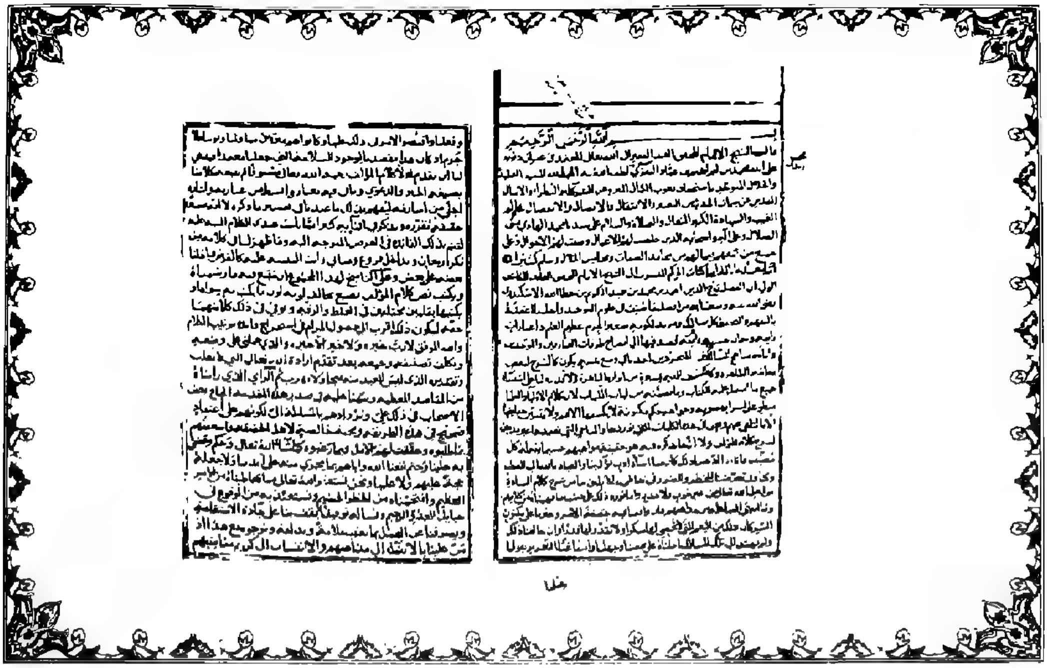

راموز الورقة الأولى من النسخة (ب)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ب)

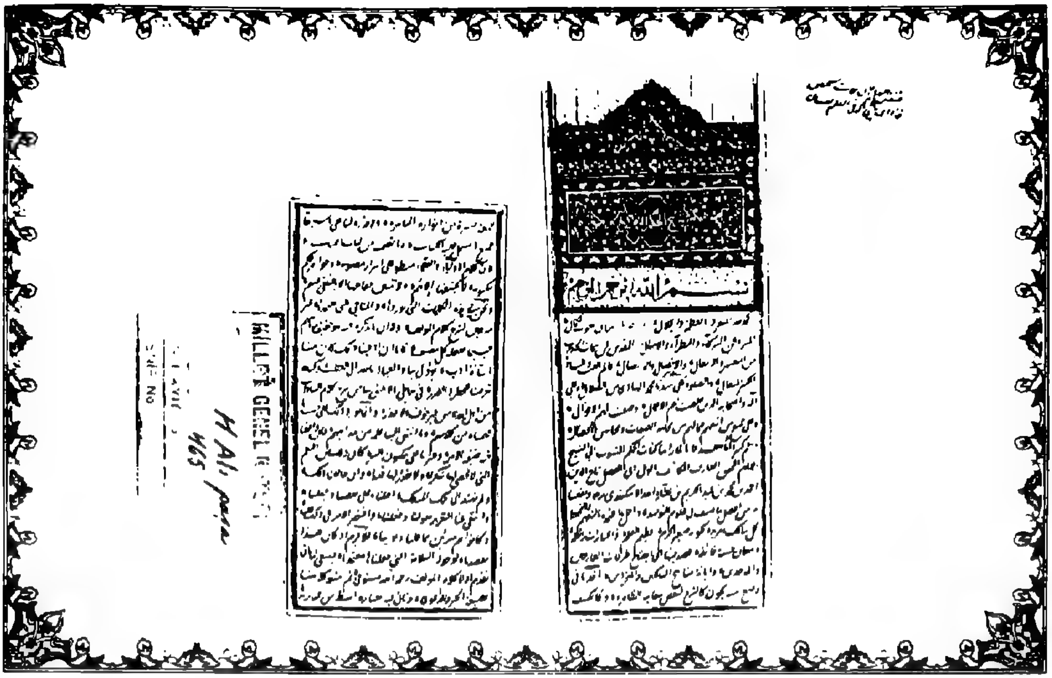

راموز الورقة الأولى من النسخة (ج)

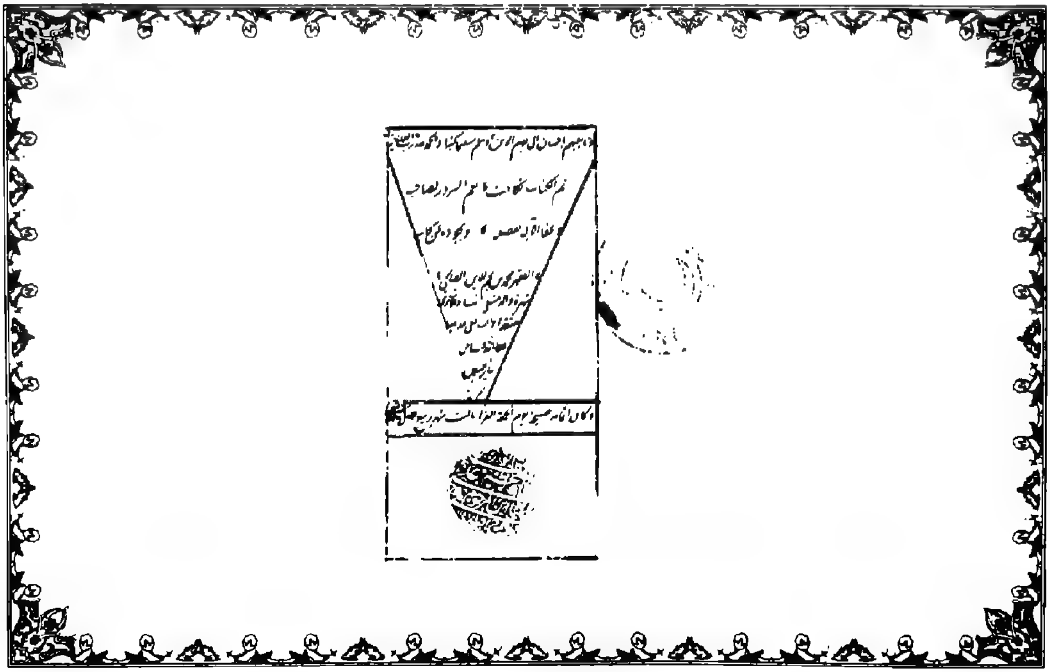

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ج)

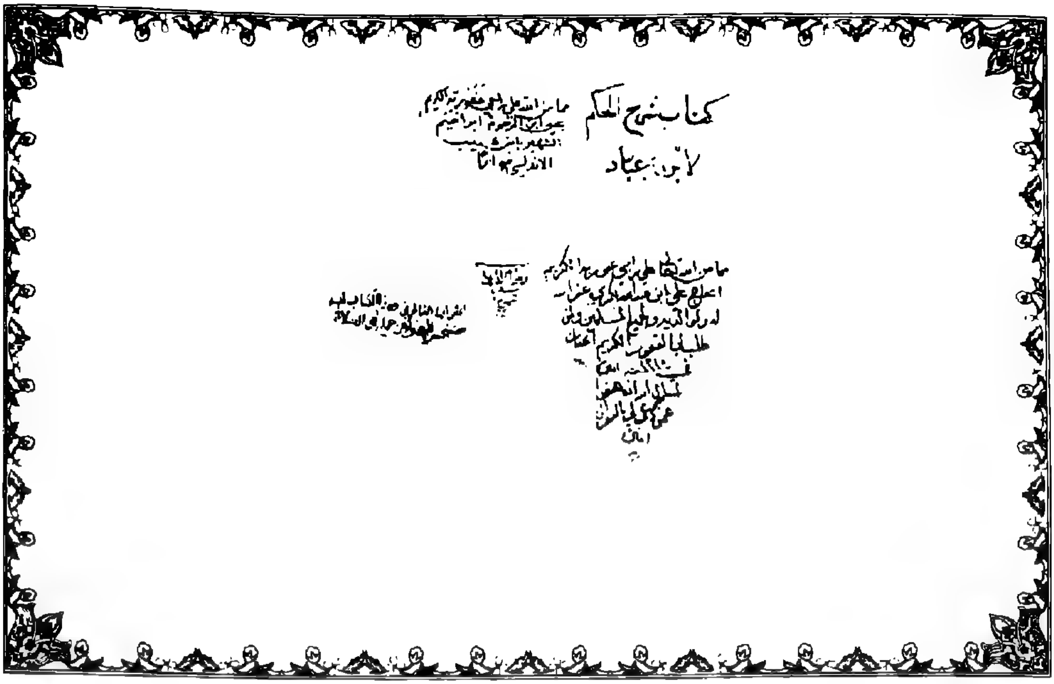

راموز ورقة العنوان من النسخة (د)

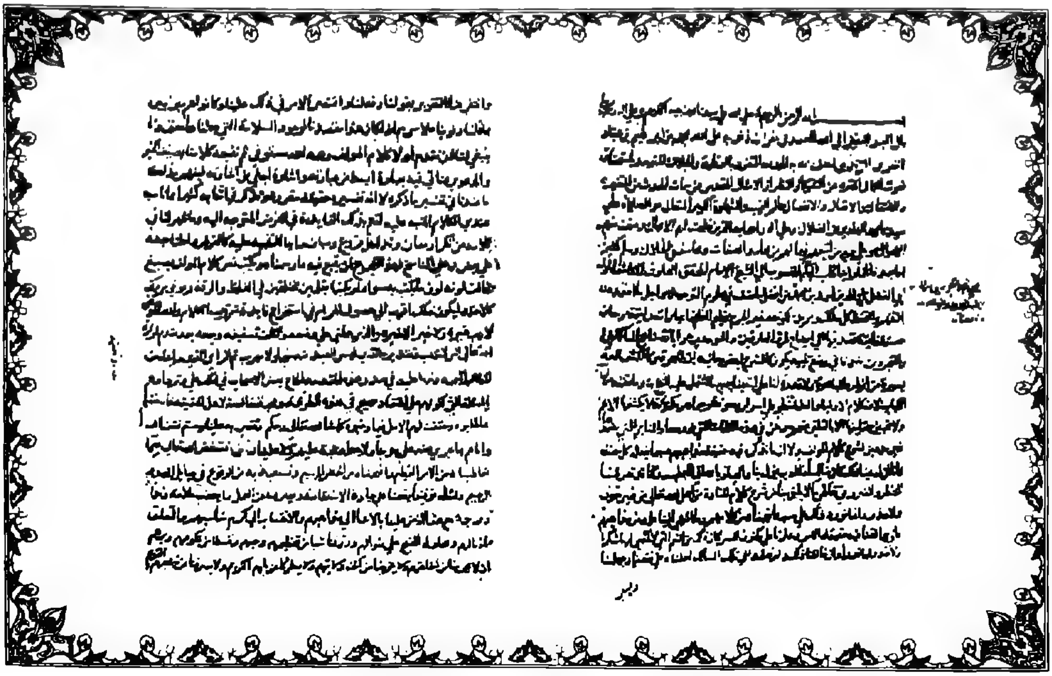

راموز الورقة الأولى من النسخة (د)

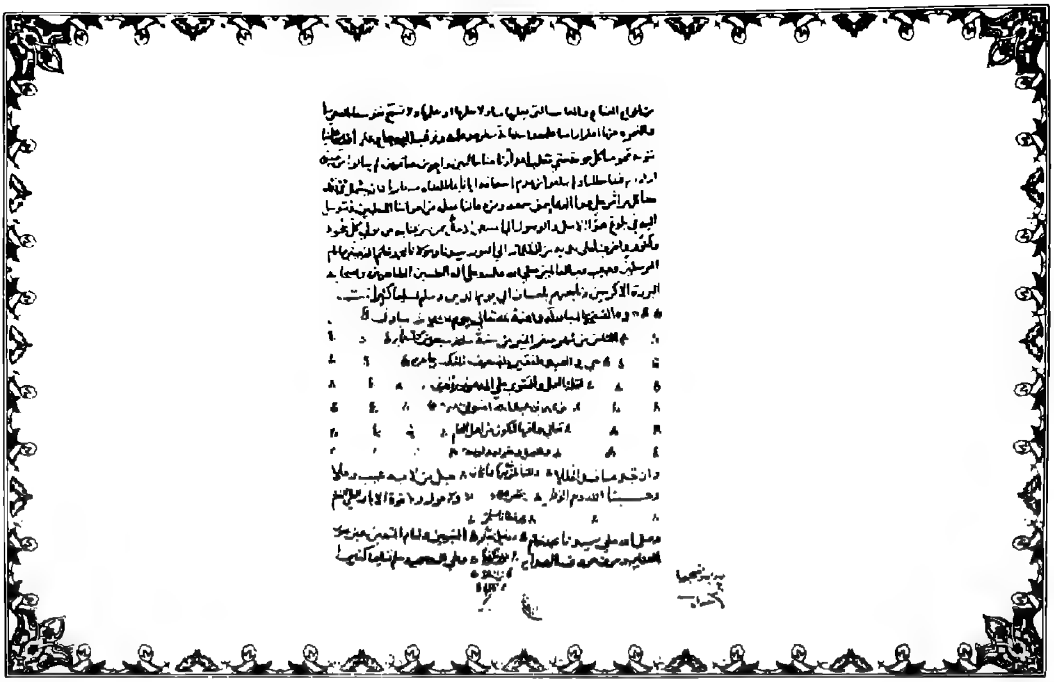

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (د)

راموز ورقة العنوان من النسخة (هـ)

راموز الورقة الأولى من النسخة (هـ)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (هـ)

راموز ورقة العنوان من النسخة (و)

راموز الورقة الأولى من النسخة (و)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (و)

راموز الورقة الأولى من النسخة (ز)

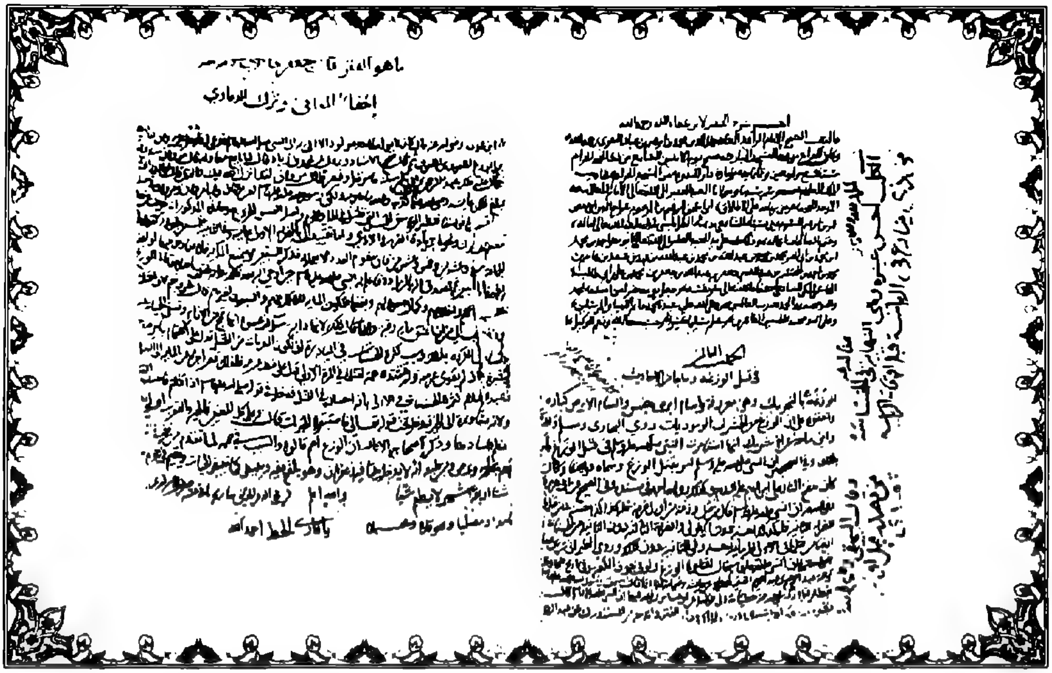

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ز)

الحكم العطائية

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت

قال الشيخ الإمام العامل العالم ، الولي العارف الكبير الفاضل ، إمام الطريقة ، ومعدن الحقيقة ؛ تاج الدين أبو الفضل أحمد ابن الشيخ الإمام العالم العامل فخر الدين أبي بكر محمد بن الشيخ الإمام العالم فخر الفقهاء والعلماء رشيد الدين أبي محمد عبد الكريم بن عطاء الله رضي الله عنه ، ورحم أسلافه ، وأعاد على المسلمين من بركته ، آمين

الباب الأول

من علامة الاعتماد

١ـ مِنْ عَلامَةِ ٱلِاعْتِمَادِ عَلَى ٱلْعَمَلِ ، نُقْصَانُ ٱلرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ ٱلزَّلَلِ

٢ـ إِرَادَتُكَ ٱلتَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ ٱللهِ إِيَّاكَ فِي ٱلأَسْبَابِ . . مِنَ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْخَفِيَّةِ ، وَإِرَادَتُكَ ٱلأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ ٱللهِ إِيَّاكَ فِي ٱلتَّجْرِيدِ . . ٱنْحِطَاطٌ عَنِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْعَلِيَّةِ

٣ـ سَوَابِقُ ٱلْهِمَمِ لا تَخْرِقُ أَسْوَارَ ٱلأَقْدَارِ

٤ـ أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ ٱلتَّدْبِيرِ ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ

٥ـ ٱجْتِهَادُكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ ، وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طَلَبَ مِنْكَ . . دَلِيلٌ عَلَى ٱنْطِمَاسِ ٱلْبَصِيرَةِ مِنكَ

٦ـ لا يَكُنْ تَأْخِيرُ أَمَدِ ٱلْعَطَاءِ مَعَ ٱلإِلْحَاحِ فِي ٱلدُّعَاءِ مُوجِباً لِيَأْسِكَ(١) ، فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ ٱلإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ ، لا فِيمَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ ، وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يُرِيدُ ، لا فِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي تُرِيدُ

٧ـ لا يُشَكِّكَنَّكَ فِي ٱلْوَعْدِ عَدَمُ وُقُوعِ ٱلْمَوْعُودِ وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ(٢) ؛ لِئَلا يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحاً فِي بَصِيرَتِكَ ، وَإِخْمَاداً لِنُورِ سَرِيرَتِكَ

٨ ـ إِذَا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ ٱلتَّعَرُّفِ فَلا تُبَالِ مَعَهَا أَنْ قَلَّ عَمَلُكَ ؛ فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ إِلا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱلتَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، وَٱلأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ ؟! وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ؟!

٩ـ تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ ٱلأَعْمَالِ ؛ لِتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ ٱلأَحْوَالِ

١٠ـ ٱلأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ ، وَأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ ٱلإِخْلاصِ فِيهَا

١١ـ ٱدْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ ٱلْخُمُولِ ، فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نِتَاجُهُ

١٢ـ مَا نَفَعَ ٱلْقَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ ، يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ

١٣ـ كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ ٱلأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآتِهِ ؟! أَمْ كَيْفَ

---

(١) في (أ ، ب) : (تأخُّر) بدل (تأخير)

(٢) في (أ) : (الموعود به) بدل (الموعود)

يَرْحَلُ إِلَى ٱللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ ٱللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلاتِهِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ ٱلأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ ؟!

١٤ـ ٱلْكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ ٱلْحَقِّ فِيهِ ، فَمَنْ رَأَى ٱلْكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْهُ فِيهِ ، أَوْ عِنْدَهُ ، أَوْ قَبْلَهُ ، أَوْ بَعْدَهُ . . فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ ٱلأَنْوَارِ ، وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ ٱلْمَعَارِفِ بِسُحُبِ ٱلآثَارِ .

١٥ـ مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَىٰ وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ : أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ

١٦ـ كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَلَوْلاهُ لَمَا كَانَ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ ؟! يَا عَجَبًا ! كَيْفَ يَظْهَرُ ٱلْوُجُودُ فِي ٱلْعَدَمِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ ٱلْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ ٱلْقِدَمِ ؟!

الباب الثاني
في إرادة غير المراد

وقال رضي الله عنه :

١٧ـ مَا تَرَكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ شَيْئاً مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ فِي ٱلْوَقْتِ غَيْرَ مَا أَظْهَرَهُ ٱللهُ فِيهِ[١]

١٨ـ إِحَالَتُكَ ٱلأَعْمَالَ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْفَرَاغِ . . مِنْ رُعُونَاتِ ٱلنَّفْسِ

١٩ـ لا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيمَا سِوَاهَا ، فَلَوْ أَرَادَكَ لاسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ[٢]

٢٠ـ مَا أَرَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا إِلا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ ٱلْحَقِيقَةِ : ٱلَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ ، وَلا تَبَرَّجَتْ ظَوَاهِرُ ٱلْمُكَوَّنَاتِ إِلا نَادَتْهُ حَقَائِقُهَا[٣] : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .

٢١ـ طَلَبُكَ مِنْهُ ٱتِّهَامٌ لَهُ ، وَطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ ، وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقِلَّةِ حَيَائِكَ مِنْهُ ، وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لِوُجُودِ بُعْدِكَ عَنْهُ .

٢٢ـ مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ ، إِلا وَلَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيهِ .

٢٣ـ لا تَتَرَقَّبْ فُرُوغَ ٱلأَغْيَارِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ ٱلْمُرَاقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمُكَ فِيهِ .

---

(١) في (أ) : (يظهر) بدل (يحدث) .

(٢) في (أ) : (أرادك لها) بدل (أرادك) .

(٣) في (أ ، ب) : (نادتك) بدل (نادته) .

٢٤ـ لا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ ٱلأَكْدَارِ ، مَا دُمْتَ فِي هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ ؛ فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ إِلا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصْفِهَا ، وَوَاجِبُ نَعْتِهَا

٢٥ـ مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ ، وَلا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ .

٢٦ـ مِنْ عَلامَاتِ ٱلنُّجْحِ فِي ٱلنِّهَايَاتِ[1] : ٱلرُّجُوعُ إِلَى ٱللهِ فِي ٱلْبِدَايَاتِ .

٢٧ـ مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُهُ . . أَشْرَقَتْ نِهَايَتُهُ .

٢٨ـ مَا ٱسْتُودِعَ فِي غَيْبِ ٱلسَّرَائِرِ . . ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ ٱلظَّوَاهِرِ .

٢٩ـ شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ ، أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ؛ ٱلْمُسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ ٱلْحَقَّ لِأَهْلِهِ ، وَأَثْبَتَ ٱلأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ ، وَٱلِاسْتِدْلالُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَإِلا فَمَتَىٰ غَابَ حَتَّىٰ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ ؟! وَمَتَىٰ بَعُدَ حَتَّىٰ تَكُونَ ٱلآثَارُ هِيَ ٱلَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ ؟!

٣٠ـ ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ٱلْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ ، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ ٱلسَّائِرُونَ إِلَيْهِ .

٣١ـ ٱهْتَدَى ٱلرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ ٱلتَّوَجُّهِ ، وَٱلْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ ٱلْمُوَاجَهَةِ ؛ فَٱلأَوَّلُونَ لِلأَنْوَارِ ، وَهَـٰؤُلاءِ ٱلأَنْوَارُ لَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ للهِ ، لا لِشَيْءٍ دُونَهُ ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

---

(١) في (أ ، ب) : (علامة) بدل (علامات) .

الباب الثالث
في النقصان والازدياد

وقال رضي الله عنه :

٣٢ـ تَشَوُّفُكَ إِلَىٰ مَا بَطَنَ فِيكَ مِنَ ٱلْعُيُوبِ . . خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَىٰ مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ ٱلْغُيُوبِ(١)

٣٣ـ ٱلْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ ، وَإِنَّمَا ٱلْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرٌ ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾

٣٤ـ ٱخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ ، عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ(٢) ؛ لِتَكُونَ لِنِدَاءِ ٱلْحَقِّ مُجِيباً ، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً

٣٥ـ أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ . . ٱلرِّضَا عَنِ ٱلنَّفْسِ ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ . . عَدَمُ ٱلرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا ، وَلَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لَا يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ . . خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِماً يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ، فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؟! وَأَيُّ جَهْلٍ لِجَاهِلٍ لَا يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؟!

٣٦ـ شُعَاعُ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ ، وَعَيْنُ ٱلْبَصِيرَةِ تُشْهِدُكَ

---

(١) في (أ) : (خير لك) بدل (خير) .

(٢) في (أ) : (وعن) بدل (عن)

عَدَمَكَ بِوُجُودِهِ ، وَحَقُّ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَهُ ، لا عَدَمَكَ وَلا وُجُودَكَ ، « كَانَ ٱللهُ وَلا شَيْءَ مَعَهُ » ، وَهُوَ ٱلآنَ عَلَىٰ مَا عَلَيهِ كَانَ .

الباب الرابع
في التوجه للحق والعباد

وقال رضي الله عنه :

٣٧ـ لا تَتَعَدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَٱلْكَرِيمُ لا تَتَخَطَّاهُ ٱلآمَالُ

٣٨ـ لا تَرْفَعَنَّ إِلَىٰ غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعاً ؟! مَنْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ(١) . . فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعاً ؟!

٣٩ـ إِنْ لَمْ تُحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِأَجْلِ حُسْنِ وَصْفِهِ(٢) . . حَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِوُجُودِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ ؛ فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلا حَسَناً ، وَهَلْ أَسْدَىٰ إِلَيْكَ إِلا مِنَناً ؟!

٤٠ـ ٱلْعَجَبُ كُلُّ ٱلْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لا ٱنْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ(٣) ، وَيَطْلُبُ مَا لا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ ! ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾

---

(١) في (أ) : (أن يكون رافعاً) بدل (أن يرفع) .
(٢) في (أ) : (لأجل وصفه) دون قوله : (حسن) .
(٣) في (أ ، ب) : (ممَّا) بدل (ممَّن)

٤١ـ لا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَىٰ كَوْنٍ فتَكُونَ كَحِمَارِ ٱلرَّحَا ؛ يَسِيرُ وَٱلَّذِي ٱرْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ ٱلَّذِي ٱرْتَحَلَ مِنْهُ ، وَلَـٰكِنِ ٱرْحَلْ مِنَ ٱلأَكْوَانِ إِلَى ٱلْمُكَوِّنِ[1] ، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ ، وَٱنْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ . . فَهِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ ٱمْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا . . فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »[2]، فَٱفْهَمْ قَوْلَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ : « فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » وَتَأَمَّلْ هَـٰذَا ٱلأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ ، وَٱلسَّلامُ

الباب الخامس
في الصحبة وما يستفاد منها

وقال رضي الله عنه :

٤٢ـ لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حَالُهُ ، وَلا يَدُلُّكَ عَلَى ٱللهِ مَقَالُهُ

٤٣ـ رُبَمَا كُنْتَ مُسِيئاً ، فَأَرَاكَ ٱلإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً مِنْكَ

٤٤ـ مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ ، وَلا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ

---

(١) في (أ) : (المكوَّن) بدل (الأكوان) .

(٢) رواه البخاري (١ ، ٥٤) ، ومسلم (١٩٠٧) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

٤٥ـ حُسْنُ ٱلأَعْمَالِ مِنْ نَتَائِجِ حُسْنِ ٱلأَحْوَالِ(١) ، وَحُسْنُ ٱلأَحْوَالِ مِنَ ٱلتَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ ٱلإِنْزَالِ .

٤٦ـ لا تَتْرُكِ ٱلذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ ٱللهِ فِيهِ ؛ لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ(٢) ، فَعَسَىٰ أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى ٱلْمَذْكُورِ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ بِعَزِيزٍ

الباب السادس
في أحكام القلوب

وقال رضي الله عنه :

٤٧ـ مِنْ عَلاَمَةِ مَوْتِ ٱلْقَلْبِ عَدَمُ ٱلْحُزْنِ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنَ ٱلْمُوَافِقَاتِ ، وَتَرْكُ ٱلنَّدَمِ عَلَىٰ مَا فَعَلْتَهُ مِنْ وُجُودِ ٱلزَّلَّاتِ .

٤٨ـ لا يَعْظُمِ ٱلذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ ٱلظَّنِّ بِٱللهِ تَعَالَىٰ ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ . . ٱسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ

٤٩ـ لا صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ ، وَلا كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ .

---

(١) في (أ ، ب) : (نتائجُ) بدل (من نتائج) .
(٢) في (أ) : (أشد من وجود غفلتك في ذكره) بدل (أشد من غفلتك في وجود ذكره) .

٥٠ـ لا عَمَلَ أَرْجَىٰ لِلقَبُولِ مِنْ عَمَلٍ يُغَيَّبُ عَنْكَ شُهُودُهُ ، وَيُحْتَقَرُ عِنْدَكَ وُجُودُهُ[١]

٥١ـ إِنَّمَا أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِداً

٥٢ـ أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِيَتَسَلَّمَكَ مِنْ يَدِ ٱلأَغْيَارِ ، وَلِيُحَرِّرَكَ مِنْ رِقِّ ٱلآثَارِ .

٥٣ـ أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ ، إِلَىٰ فَضَاءِ شُهُودِكَ

٥٤ـ ٱلأَنْوَارُ مَطَايَا ٱلْقُلُوبِ وَٱلأَسْرَارِ

٥٥ـ ٱلنُّورُ جُنْدُ ٱلْقَلْبِ ، كَمَا أَنَّ ٱلظُّلْمَةَ جُنْدُ ٱلنَّفْسِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ ٱلأَنْوَارِ ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ ٱلظُّلَمِ وَٱلأَغْيَارِ .

٥٦ـ ٱلنُّورُ لَهُ ٱلْكَشْفُ ، وَٱلْبَصِيرَةُ لَهَا ٱلْحُكْمُ ، وَٱلْقَلْبُ لَهُ ٱلإِقْبَالُ وَٱلإِدْبَارُ

٥٧ـ لا تُفْرِحْكَ ٱلطَّاعَةُ لأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ ، وَٱفْرَحْ بِهَا لأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنَ ٱللهِ إِلَيْكَ ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

٥٨ـ قَطَعَ ٱلسَّائِرِينَ لَهُ وَٱلْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ ؛ أَمَّا ٱلسَّائِرُونَ فَلأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا ٱلصِّدْقَ مَعَ ٱللهِ فِيهَا ، وَأَمَّا ٱلْوَاصِلُونَ فَلأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا

---

(١) في (أ ، ب) : (ويتحقَّر) بدل (ويحتقر) .

الباب السابع
في الطمع غير المحبوب

وقال رضي الله عنه :

٥٩ـ مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إلا عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ .

٦٠ـ مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ ٱلْوَهْمِ

٦١ـ أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ مِنْهُ آيِسٌ ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ فِيهِ طَامِعٌ

٦٢ـ مَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلَى ٱللهِ بِمُلاطَفَاتِ ٱلإِحْسَانِ . قِيدَ إِلَيْهِ بِسَلاسِلِ ٱلِامْتِحَانِ

٦٣ـ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلنِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا ، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا

٦٤ـ خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ . . أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ٱسْتِدْرَاجاً لَكَ ؛ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٦٥ـ مِنْ جَهْلِ ٱلْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ ٱلأَدَبَ ، فَتُؤَخَّرَ ٱلْعُقُوبَةُ عَنْهُ ، فَيَقُولَ : لَوْ كَانَ هَـٰذَا سُوءَ أَدَبٍ لَقُطِعَ ٱلإِمْدَادُ ، وَلأُوجِبَ ٱلإِبْعَادُ[1] ؛ فَقَدْ يُقْطَعُ ٱلْمَدَدُ عَنْهُ وَهُوَ لا يَشْعُرُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلا مَنْعُ ٱلْمَزِيدِ ، وَقَدْ يُقَامُ مُقَامَ ٱلْبُعْدِ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلا أَنْ يُخَلِّيَكَ وَمَا تُرِيدُ[2]

---

(١) في (أ) : (وأوجب البعاد) ، وفي (ب) : (وأوجب الإبعاد

(٢) في (أ ، ب) : (تقام ، تدري) بدل (يقام ، يدري)

٦٦ـ إِذَا رَأَيتَ عَبْداً أَقَامَهُ ٱللهُ بِوُجُودِ ٱلأَوْرَادِ ، وَأَدَامَهُ ٱللهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ ٱلإِمْدَادِ[1] . . فَلا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلاهُ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا ٱلْعَارِفِينَ ، وَلا بَهْجَةَ ٱلْمُحِبِّينَ ، فَلَوْلا وَارِدٌ مَا كَانَ وِرْدٌ .

٦٧ـ قَوْمٌ أَقَامَهُمُ ٱلْحَقُّ لِخِدْمَتِهِ ، وَقَوْمٌ ٱخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ، ﴿كلاً نمد هـٰؤلاء وهـٰؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾

الباب الثامن
في الواردات

وقال رضي الله عنه :

٦٨ـ قَلَّمَا تكُونُ ٱلْوَارِدَاتُ ٱلإِلَهِيَّةُ إِلا بَغْتَةً ؛ صِيَانَةً لَهَا أَنْ يَدَّعِيَهَا ٱلْعُبَّادُ بِوُجُودِ ٱلِاسْتِعْدَادِ .

٦٩ـ مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيباً عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ ، وَمُعَبِّراً لِكُلِّ مَا شَهِدَ[2] ، وَذَاكِراً كُلَّ مَا عَلِمَ . . فَٱسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَىٰ وُجُودِ جَهْلِهِ .

٧٠ـ إِنَّمَا جَعَلَ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ مَحَلاًّ لِجَزَاءِ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلدَّارَ لا تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ، وَلِأَنَّ ٱللهَ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لا بَقَاءَ لَهَا

---

(١) في (أ ، ب) : (وأدامه عليها) بدل (وأدامه الله عليها) .

(٢) في (ب) : (ومعبراً عن كل ما شهد) ، وقد جاءت قبل (فاستدل بذلك) .

٧١ـ مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً . . فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْقَبُولِ آجِلاً[١]

٧٢ـ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ . . فَٱنْظُرْ فِيمَاذَا يُقِيمُكَ .

٧٣ـ مَتَىٰ رَزَقَكَ ٱلطَّاعَةَ وَٱلْغِنَىٰ بِهِ عَنْهَا . . فَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَسْبَغَ نِعَمَهُ عَلَيْكَ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .

الباب التاسع
في المطالب والتوجهات

وقال رضي الله عنه :

٧٤ـ خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ . . مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ

٧٥ـ ٱلْحُزْنُ عَلَىٰ فُقْدَانِ ٱلطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ ٱلنُّهُوضِ إِلَيْهَا . . مِنْ عَلامَةِ ٱلِاغْتِرَارِ

٧٦ـ مَا ٱلْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ ٱلْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ ، بَلِ ٱلْعَارِفُ مَنْ لا إِشَارَةَ لَهُ ؛ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ ، وَٱنْطِوَائِهِ فِي شُهُودِهِ .

٧٧ـ الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ ، وَإِلا فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ .

٧٨ـ مَطْلَبُ ٱلْعَارِفِينَ مِنَ ٱللهِ ٱلصِّدْقُ فِي ٱلْعُبُودِيَّةِ ، وَٱلْقِيَامُ بِحُقُوقِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ .

---

(١) (آجلاً) ليست في (أ ، ب) .

٧٩ـ بَسْطَكَ كَيْ لا يُبْقِيَكَ مَعَ ٱلْقَبْضِ ، وَقَبَضَكَ كَيْ لا يَتْرُكَكَ مَعَ ٱلْبَسْطِ ، وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا حَتَّىٰ لا تَكُونَ لِشَيْءٍ دُونَهُ

٨٠ ـ الْعَارِفُونَ إِذَا بُسِطُوا أَخْوَفُ مِنْهُمْ إِذَا قُبِضُوا ، وَلا يَقِفُ عَلَىٰ حُدُودِ ٱلأَدَبِ فِي ٱلْبَسْطِ إِلا قَلِيلٌ

٨١ ـ الْبَسْطُ تَأْخُذُ ٱلنَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ ٱلْفَرَحِ ، وَٱلْقَبْضُ لا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ .

٨٢ ـ رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ

٨٣ ـ مَتَىٰ فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْفَهْمِ فِي ٱلْمَنْعِ . عَادَ ٱلْمَنْعُ هُوَ عَيْنَ ٱلْعَطَاءِ

٨٤ ـ الأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ ، وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ ؛ فَٱلنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَىٰ ظَاهِرِ غِرَّتِهَا ، وَٱلْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَاطِنِ عِبْرَتِهَا

٨٥ ـ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لا يَفْنَىٰ . . فَلا تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفْنَىٰ .

٨٦ ـ الطَّيُّ ٱلْحَقِيقِيُّ : أَنْ تُطْوَىٰ مَسَافَةُ ٱلدُّنْيَا عَنْكَ حَتَّىٰ تَرَى ٱلآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْكَ .

٨٧ ـ الْعَطَاءُ مِنَ ٱلْخَلْقِ حِرْمَانٌ ، وَٱلْمَنْعُ مِنَ ٱللهِ إِحْسَانٌ .

[الباب العاشر

في جزاء العمل

وقال رضي الله عنه :

٨٨ ـ جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ ٱلْعَبْدُ نَقْداً فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً .

٨٩ ـ كَفَىٰ مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى ٱلطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ أَهْلاً لَهَا(١)

٩٠ ـ كَفَى ٱلْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِهِ

٩١ ـ مَنْ عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وُرُودَ ٱلْعُقُوبَةِ عَنْهُ . . فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ .

٩٢ ـ مَتَىٰ أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ ، وَمَتَىٰ مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ

٩٣ ـ إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ ٱلْمَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ ٱللهِ فِيهِ

٩٤ ـ رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْقَبُولِ ، وَقَضَىٰ عَلَيْكَ بِٱلذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبَ ٱلْوُصُولِ

٩٥ ـ مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلّاً وَٱفْتِقَاراً . . خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزّاً وَٱسْتِكْبَاراً

---

(١) في (أ) : (أن جعلك لها أهلاً) .

٩٦ـ نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا ، وَلا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُمَا : نِعْمَةُ ٱلإِيجَادِ ، وَنِعْمَةُ الإِمْدَادِ .

٩٧ـ أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوَّلاً بِٱلإِيجَادِ ، وَثَانِياً بِتَوَالِي ٱلإِمْدَادِ .

٩٨ـ فَاقَتُكَ لَكَ ذَاتِيَّةٌ ، وَوُرُودُ ٱلأَسْبَابِ مُذَكِّرَاتٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا ، وَٱلْفَاقَةُ ٱلذَّاتِيَّةُ لا تَرْفَعُهَا ٱلْعَوَارِضُ(١)

٩٩ـ خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتٌ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فَاقَتِكَ ، وَتُرَدُّ إِلَىٰ وُجُودِ ذِلَّتِكَ(٢)

١٠٠ـ مَتَىٰ أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ ٱلأُنْسِ بِهِ

١٠١ـ مَتَىٰ أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِٱلطَّلَبِ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ

١٠٢ـ الْعَارِفُ لا يَزُولُ ٱضْطِرَارُهُ ، وَلا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ ٱللهِ قَرَارُهُ

١٠٣ـ أَنَارَ ٱلظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ ، وَأَنَارَ ٱلسَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ ؛ لِأَجْلِ ذَٰلِكَ أَفَلَتْ أَنْوَارُ ٱلظَّوَاهِرِ ، وَلَمْ تَأْفُلْ أَنْوَارُ ٱلْقُلُوبِ وَٱلسَّرَائِرِ ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ : [من الخفيف]

إِنَّ شَمْسَ ٱلنَّهَارِ تَغْرُبُ بِٱللَّيْـ ـلِ وَشَمْسُ ٱلْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

(١) في (أ) : (لا يدفعها ورود العوارض) ، وفي (ب) : (لا تدفعها العوارض) بدل (لا ترفعها العوارض) .

(٢) في (أ ، ب) : (وتردُّ فيه) بدل (وتردُّ) .

[الباب الحادي عشر
في أحكام البلايا والعلل]

وقال رضي الله عنه :

١٠٤ـ لِيُخَفِّفْ أَلَمَ ٱلْبَلاءِ عَلَيْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْمُبْلِي لَكَ ، فَٱلَّذِي وَاجَهَتْكَ مِنْهُ ٱلأَقْدَارُ.. هُوَ ٱلَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ ٱلِاخْتِيَارِ

١٠٥ـ مَنْ ظَنَّ ٱنْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ.. فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ

١٠٦ـ لا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ ٱلطُّرُقُ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ ٱلْهَوَىٰ عَلَيْكَ .

١٠٧ـ سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ ٱلْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ ٱلْعُبُودِيَّةِ .

١٠٨ـ لا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ[1] ، وَلَـٰكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ .

١٠٩ـ مَتَىٰ جَعَلَكَ فِي ٱلظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ ، وَرَزَقَكَ فِي ٱلْبَاطِنِ ٱلِاسْتِسْلامَ لِقَهْرِهِ.. فَقَدْ أَعْظَمَ ٱلْمِنَّةَ عَلَيْكَ

١١٠ـ لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ

---

(١) في (أ ، ب) : (طلبك) .

الباب الثاني عشر
في الأوراد

وقال رضي الله عنه :

١١١ـ لا يَسْتَحْقِرُ ٱلْوِرْدَ إلا جَهُولٌ .

١١٢ـ ٱلْوَارِدُ يُوجَدُ فِي ٱلدَّارِ ٱلآخِرَةِ ، وَٱلْوِرْدُ يَنْطَوِي بِٱنْطِوَاءِ هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ ، وَأَوْلَىٰ مَا يُعْتَنَىٰ بِهِ مَا لا يُخْلَفُ وُجُودُهُ

١١٣ـ ٱلْوِرْدُ هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ ، وَٱلْوَارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ(١) ، وَأَيْنَ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا أَنْتَ طَالِبُهُ مِنْهُ ؟!(٢)

١١٤ـ وُرُودُ ٱلإِمْدَادِ بِحَسَبِ ٱلِاسْتِعْدَادِ(٣) ، وَشُرُوقُ ٱلأَنْوَارِ عَلَىٰ حَسَبِ صَفَاءِ ٱلأَسْرَارِ(٤)

١١٥ـ ٱلْغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ نَظَرَ مَاذَا يَفْعَلُ ، وَٱلْعَاقِلُ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ ٱللهُ بِهِ

١١٦ـ إِنَّمَا ٱسْتَوْحَشَ ٱلْعُبَّادُ وَٱلزُّهَّادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ ٱللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ

---

(١) في (أ) : (طالبه) بدل (تطلبه)

(٢) في (أ ، ب) : (مما هو مطلبك) .

(٣) في (أ) : (على حسب) بدل (بحسب)

(٤) في (أ) : (شروق) على أنها حكمة مستقلة عما قبلها

١١٧ـ أَمَرَكَ فِي هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ بِٱلنَّظَرِ فِي مُكَوَّنَاتِهِ ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ ٱلدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ .

١١٨ـ عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لا تَصْبِرُ عَنْهُ ، فَأَشْهَدَكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ .

١١٩ـ لَمَّا عَلِمَ ٱلْحَقُّ مِنكَ وُجُودَ ٱلْمَلَلِ لَوَّنَ لَكَ ٱلطَّاعَاتِ ، وَعَلِمَ مَا فِيكَ مِنْ وُجُودِ ٱلشَّرَهِ فَحَجَّرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ ٱلأَوْقَاتِ

١٢٠ـ لِيَكُنْ هَمُّكَ إِقَامَةَ ٱلصَّلاةِ ، لا وُجُودَ ٱلصَّلاةِ ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ .

١٢١ـ ٱلصَّلاةُ طُهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ ، مِنْ أَدْنَاسِ ٱلذُّنُوبِ(١) ، وَٱسْتِفْتَاحٌ لِبَابِ ٱلْغُيُوبِ .

١٢٢ـ ٱلصَّلاةُ مَحَلُّ ٱلْمُنَاجَاةِ ، وَمَعْدِنُ ٱلْمُصَافَاةِ ، تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ ٱلأَسْرَارِ ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ ٱلأَنْوَارِ .

١٢٣ـ عَلِمَ وُجُودَ ٱلضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا ، وَعَلِمَ ٱحْتِيَاجَكَ إِلَىٰ فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا

١٢٤ـ مَتَىٰ طَلَبْتَ عِوَضاً عَلَىٰ عَمَلٍ طُولِبْتَ بِوُجُودِ ٱلصِّدْقِ فِيهِ ، وَيَكْفِي ٱلْمُرِيبَ وِجْدَانُ ٱلسَّلامَةِ .

١٢٥ـ لا تَطْلُبْ عِوَضاً عَلَىٰ عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً ، يَكْفِي مِنَ ٱلْجَزَاءِ لَكَ عَلَى ٱلْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً

١٢٦ـ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ . . خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ .

---

(١) (من أدناس الذنوب) ليست في (أ ، ب) .

١٢٧ـ لا نِهَايَةَ لِمَذَامِّكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ ، وَلا تَفْرُغُ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ

الباب الثالث عشر
في المقاصد والمراد

وقال رضي الله عنه :

١٢٨ـ كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقاً ، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقاً

١٢٩ـ مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ؟!

١٣٠ـ كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ ٱلْعَوَائِدُ وَأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ ٱلْعَوَائِدَ ؟!

١٣١ـ مَا ٱلشَّأْنُ وُجُودَ ٱلطَّلَبِ ، إِنَّمَا ٱلشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ ٱلأَدَبِ

١٣٢ـ مَا طُلِبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ ٱلِاضْطِرَارِ ، وَلا أَسْرَعَ بِٱلْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ ٱلذِّلَّةِ وَٱلِافْتِقَارِ .

١٣٣ـ لَوْ أَنَّكَ لا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلا بَعْدَ فَنَاءِ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ . . لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَداً ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ غَطَّى وَصْفَكَ

بِوَصْفِهِ وَنَعْتَكَ بِنَعْتِهِ[1] ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، لا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ .

الباب الرابع عشر
في أحكام العلل في الأعمال

وقال رضي الله عنه :

١٣٤ـ لَوْلا جَمِيلُ سَتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلاً لِلْقَبُولِ

١٣٥ـ أَنْتَ إِلَىٰ حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ . . أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَىٰ حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ .

١٣٦ـ ٱلسَّتْرُ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ سَتْرٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ ، وَسَتْرٌ فِيهَا ، وَٱلْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ ٱلسَّتْرَ مِنَ ٱللهِ فِيهَا[2] ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ ٱلْخَلْقِ ، وَٱلْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ ٱلسَّتْرَ عَنْهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ

١٣٧ـ مَنْ أَكْرَمَكَ فَإِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ ، فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ ، لَيْسَ ٱلْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ

١٣٨ـ مَا صَحِبَكَ إِلا مَنْ صَحِبَكَ وَهُوَ بِعَيْبِكَ عَلِيمٌ ، وَلَيْسَ ذَٰلِكَ إِلا مَوْلاكَ ٱلْكَرِيمَ .

---

(١) في (أ ، ب) : (ستر وصفك بوصفه ، وغطَّىٰ نعتك بنعته) بدل (غطَّىٰ وصفك . . .) .
(٢) في (أ ، ب) : (فالعامة) بدل (والعامة) .

١٣٩ـ خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ : مَنْ يَطْلُبُكَ لا لِشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ .

١٤٠ـ لَوْ أَشْرَقَ نُورُ ٱلْيَقِينِ لَرَأَيْتَ ٱلآخِرَةَ أَقْرَبَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا ، وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ ٱلدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ ٱلْفَنَاءِ عَلَيْهَا

١٤١ـ مَا حَجَبَكَ عَنِ ٱللهِ وُجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ ؛ إِذْ لا شَيْءَ مَعَهُ ، وَلَـٰكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمُ وُجُودِ مَعَهُ(١)

١٤٢ـ لَوْلا ظُهُورُهُ فِي ٱلْمُكَوَّنَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ إِبْصَارٍ .

١٤٣ـ لَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ لاضْمَحَلَّتْ مُكَوَّنَاتُهُ(٢)

١٤٤ـ أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ ٱلْبَاطِنُ ، وَطَوَىٰ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ ٱلظَّاهِرُ .

١٤٥ـ أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي ٱلْمُكَوَّنَاتِ ، وَمَا أَذِنَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَاتِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ ؛ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلِ : (ٱنْظُرُوا ٱلسَّمَاوَاتِ) ، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [يونس : ١٠١] فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلإِفْهَامِ ، وَلَمْ يَقُلِ : (ٱنْظُرُوا ٱلسَّمَاوَاتِ) لِئَلا يَدُلَّكَ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلأَجْرَامِ .

١٤٦ـ ٱلأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ ، وَمَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ

---

(١) في (أ ، ب) : (وإنما) بدل (ولـٰكن)

(٢) في (أ ، ب) : (اضمحلت) بدل (لاضمحلت)

الباب الخامس عشر
في المدح والذم على الأحوال

وقال رضي الله عنه :

١٤٧ـ ٱلنَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ ، فَكُنْ أَنْتَ ذَامّاً لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُ مِنْهَا[١]

١٤٨ـ ٱلْمُؤْمِنُ إِذَا مُدِحَ ٱسْتَحْيَا مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ

١٤٩ـ أَجْهَلُ ٱلنَّاسِ : مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِظَنٍّ مَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ

١٥٠ـ إِذَا أَطْلَقَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ . . فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ

١٥١ـ ٱلزُّهَّادُ إِذَا مُدِحُوا ٱنْقَبَضُوا ؛ لِشُهُودِهِمُ ٱلثَّنَاءَ مِنَ ٱلْخَلْقِ ، وَٱلْعَارِفُونَ إِذَا مُدِحُوا ٱنْبَسَطُوا ؛ لِشُهُودِهِمْ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ

١٥٢ـ مَتَىٰ كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطَكَ ٱلْعَطَاءُ ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ ٱلْمَنْعُ . . فَٱسْتَدِلَّ بِذَٰلِكَ عَلَىٰ ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِكَ ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ

---

(١) في (أ ، ب) : (لما تعلمه منها) .

الباب السادس عشر
في أسباب التنصل من الذنوب

وقال رضي الله عنه :

١٥٣ـ إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلا يَكُنْ سَبَباً يُؤْيِسُكَ مِنْ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ ؛ فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ

١٥٤ـ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بَابُ ٱلرَّجَاءِ . . فَٱشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بَابُ ٱلْحُزْنِ . . فَٱشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ[(١)]

١٥٥ـ رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ ٱلْقَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ ٱلْبَسْطِ ، ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾

١٥٦ـ مَطَالِعُ ٱلأَنْوَارِ : ٱلْقُلُوبُ وَٱلأَسْرَارُ .

١٥٧ـ نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي ٱلْقُلُوبِ ، مَدَدُهُ ٱلنُّورُ ٱلْوَارِدُ مِنْ خَزَائِنِ ٱلْغُيُوبِ

١٥٨ـ نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ .

١٥٩ـ رُبَّمَا وَقَفَتِ ٱلْقُلُوبُ مَعَ ٱلأَنْوَارِ ، كَمَا حُجِبَتِ ٱلنُّفُوسُ بِكَثَائِفِ ٱلأَغْيَارِ .

---

(١) في (أ) : (إذا أردت أن ينفتح لك باب الحزن فاشهد ما منك إليه ، وإذا أردت أن يفتح لك باب الفرح فاشهد ما منه إليك) .

١٦٠- سَتَرَ أَنْوَارَ ٱلسَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ ٱلظَّوَاهِرِ ؛ إِجْلالاً لَهَا أَنْ تُبْتَذَلَ بِوُجُودِ ٱلإِظْهَارِ ، وَأَنْ يُنَادَىٰ عَلَيْهَا بِلِسَانِ ٱلِاشْتِهَارِ .

الباب السابع عشر
في أحكام الولاية والعناية

وقال رضي الله عنه :

١٦١- سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱلدَّلِيلَ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ إِلا مِنْ حَيْثُ ٱلدَّلِيلُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ .

١٦٢- رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَىٰ غَيْبِ مَلَكُوتِهِ ، وَحَجَبَ عَنْكَ ٱلِاسْتِشْرَافَ عَلَىٰ أَسْرَارِ ٱلْعِبَادِ .

١٦٣- مَنِ ٱطَّلَعَ عَلَىٰ أَسْرَارِ ٱلْعِبَادِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِٱلرَّحْمَةِ ٱلإِلَهِيَّةِ . . كَانَ ٱطِّلاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ ، وَسَبَباً لِجَرِّ ٱلْوَبَالِ إِلَيْهِ .

١٦٤- حَظُّ ٱلنَّفْسِ فِي ٱلْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ ، وَحَظُّهَا فِي ٱلطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ ، وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَىٰ صَعْبٌ عِلاجُهُ

١٦٥- رُبَّمَا دَخَلَ ٱلرِّيَاءُ عَلَيْكَ ، حَيْثُ لا يَنْظُرُ ٱلْخَلْقُ إِلَيْكَ .

١٦٦- ٱسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ ٱلْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ . . دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ

١٦٧ـ غَيِّبْ نَظَرَ ٱلْخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ ٱللهِ إِلَيْكَ ، وَغِبْ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ .

١٦٨ـ مَنْ عَرَفَ ٱلْحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فلا يستوحشُ مِنْ شيءٍ ، ويستأنسُ بهِ كلُّ شيءٍ ، كما تقدَّمَ مِنْ نعتِ العارفينَ ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فلا يكونُ منهُ على الأشياءِ اعتمادٌ ، ولا لهُ إليها استنادٌ ، وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئاً

١٦٩ـ إِنَّمَا حَجَبَ ٱلْحَقَّ عَنْكَ ، شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ .

١٧٠ـ إِنَّمَا ٱحْتَجَبَ بِشِدَّةِ ظُهُورِهِ ، وَخَفِيَ عَنِ ٱلأَبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ

الباب الثامن عشر
في وجه الطلب للمطلوب

وقال رضي الله عنه :

١٧١ـ لا يَكُنْ طَلَبُكَ سَبَباً إِلَى ٱلْعَطَاءِ مِنْهُ ، فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ ، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لإِظْهَارِ ٱلْعُبُودِيَّةِ ، وَقِيَاماً بِحُقُوقِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ

١٧٢ـ كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ ٱللاحِقُ ، سَبَباً فِي عَطَائِهِ ٱلسَّابِقِ ؟!

١٧٣ـ جَلَّ حُكْمُ ٱلأَزَلِ ، أَنْ يَنْضَافَ إِلَى ٱلْعِلَلِ(١)

---

(١) في (أ) : (يضاف) .

١٧٤ـ عِنَايَتُهُ فِيكَ لا لِشَيْءٍ مِنْكَ ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ ، وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ ؟!

١٧٥ـ لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلاصُ أَعْمَالٍ وَلا وُجُودُ أَحْوَالٍ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلا مَحْضُ ٱلإِفْضَالِ وَعَظِيمُ ٱلنَّوَالِ .

١٧٦ـ عَلِمَ أَنَّ ٱلْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَىٰ ظُهُورِ سِرِّ ٱلْعِنَايَةِ ؛ فَقَالَ : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا ٱلْعَمَلَ ٱعْتِمَاداً عَلَى ٱلأَزَلِ ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

١٧٧ـ إِلَى ٱلْمَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلا تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَىٰ شَيْءٍ[1]

الباب التاسع عشر
في ترك الطلب

وقال رضي الله عنه :

١٧٨ـ رُبَّمَا دَلَّهُمُ ٱلأَدَبُ عَلَىٰ تَرْكِ ٱلطَّلَبِ ؛ ٱعْتِمَاداً عَلَىٰ قِسْمَتِهِ ، وَٱشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ .

١٧٩ـ إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلإِغْفَالُ ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ ٱلإِهْمَالُ

---

(١) في (أ) : (وليس) ، وفي (ب) : (وليست) بدل (ولا) .

١٨٠ـ وُرُودُ ٱلْفَاقَاتِ أَعْيَادُ ٱلْمُرِيدِينَ .

١٨١ـ رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ ٱلْمَزِيدِ فِي ٱلْفَاقَاتِ ، مَا لا تَجِدُهُ فِي ٱلصَّوْمِ وَٱلصَّلاةِ .

١٨٢ـ ٱلْفَاقَاتُ بُسُطُ ٱلْمَوَاهِبِ

١٨٣ـ إِنْ أَرَدْتَ وُرُودَ ٱلْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ .. صَحِّحِ ٱلْفَقْرَ وَٱلْفَاقَةَ لَدَيْكَ ؛ ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ﴾

١٨٤ـ تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمِدَّكَ بِأَوْصَافِهِ ؛ تَحَقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِدَّكَ بِعِزِّهِ ، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدَّكَ بِقُدْرَتِهِ ، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدَّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ

الباب العشرون
فيما يتعلق بالكرامة من الأدب

وقال رضي الله عنه :

١٨٥ـ رُبَّمَا رُزِقَ ٱلْكَرَامَةَ ، مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ ٱلِاسْتِقَامَةُ

١٨٦ـ مِنْ عَلامَةِ إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ لَكَ فِي ٱلشَّيْءِ .. إِدَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ ٱلنَّتَائِجِ

١٨٧ـ مَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِهِ أَصْمَتَتْهُ ٱلإِسَاءَةُ ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِ ٱللهِ إِلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ

١٨٨ـ تَسْبِقُ أَنْوَارُ ٱلْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ ، فَحَيْثُ صَارَ ٱلتَّنْوِيرُ وَصَلَ ٱلتَّعْبِيرُ[١]

١٨٩ـ كُلُّ كَلامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ ٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي مِنْهُ بَرَزَ

١٩٠ـ مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي ٱلتَّعْبِيرِ فُهِمَتْ فِي مَسَامِعِ ٱلْخَلْقِ عِبَارَتُهُ ، وَجُلِّيَتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ .

١٩١ـ رُبَّمَا بَرَزَتِ ٱلْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةَ ٱلأَنْوَارِ ، إِذَا لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِيهَا بِٱلإِظْهَارِ .

١٩٢ـ عِبَارَتُهُمْ إِمَّا لِفَيَضَانِ وَجْدٍ[٢] ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ ؛ فَٱلأَوَّلُ حَالُ ٱلسَّالِكِينَ ، وَٱلثَّانِي حَالُ أَرْبَابِ ٱلْمُكْنَةِ وَٱلْمُتَحَقِّقِينَ

١٩٣ـ ٱلْعِبَارَةُ قُوتٌ لِعَائِلَةِ ٱلْمُسْتَمِعِينَ ، وَلَيْسَ لَكَ إِلا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ

١٩٤ـ رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ ٱلْمَقَامِ مَنِ ٱسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ مُلْتَبِسٌ إِلا عَلَىٰ صَاحِبِ بَصِيرَةٍ

١٩٥ـ لا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ وَارِدَاتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ ، وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ ٱلصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ .

١٩٦ـ لا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى ٱلأَخْذِ مِنَ ٱلْخَلائِقِ إِلا أَنْ تَرَىٰ أَنَّ ٱلْمُعْطِيَ فِيهِمْ مَوْلاكَ ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَكَ ٱلْعِلْمُ[٣]

---

(١) في (أ) : (سبق) بدل (صار)

(٢) في (ب) : (عباراتهم) بدل (عبارتهم) .

(٣) في (أ) : (وافق) بدل (وافقك) .

١٩٧ـ رُبَّمَا ٱسْتَحْيَا ٱلْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَىٰ مَوْلاهُ ٱكْتِفَاءً بِمَشِيئَتِهِ ، فَكَيْفَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَىٰ خَلِيقَتِهِ ؟!

الباب الحادي والعشرون
في أحكام الالتباس

وقال رضي الله عنه :

١٩٨ـ إِذَا ٱلْتَبَسَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ فَٱنْظُرْ أَثْقَلَهُمَا عَلَى ٱلنَّفْسِ فَٱتْبَعْهُ ؛ فَإِنَّهُ لا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلا مَا كَانَ حَقّاً

١٩٩ـ مِنْ عَلامَةِ ٱتِّبَاعِ ٱلْهَوَىٰ ٱلْمُسَارَعَةُ إِلَىٰ نَوَافِلِ ٱلْخَيْرَاتِ ، وَٱلتَّكَاسُلُ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِٱلْوَاجِبَاتِ

٢٠٠ـ قَيَّدَ ٱلطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ ٱلأَوْقَاتِ كَيْ لا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ ٱلتَّسْوِيفِ ، وَوَسَّعَ عَلَيْكَ ٱلْوَقْتَ كَيْ تَبْقَىٰ لَكَ حِصَّةُ ٱلِاخْتِيَارِ(١)

٢٠١ـ عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ ٱلْعِبَادِ إِلَىٰ مُعَامَلَتِهِ ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلاسِلِ ٱلإِيجَابِ ، « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ بِٱلسَّلاسِلِ »

٢٠٢ـ أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلا دُخُولَ جَنَّتِهِ

---

(١) في (أ ، ب) : (حصةٌ في الاختيار) بدل (حصةُ الاختيار)

٢٠٣ـ مَنِ ٱسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ ٱللهُ مِنْ شَهْوَتِهِ ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ . . فَقَدِ ٱسْتَعْجَزَ ٱلْقُدْرَةَ ٱلإِلَـٰهِيَّةَ(١) ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

٢٠٤ـ رُبَّمَا وَرَدَتِ ٱلظُّلَمُ عَلَيْكَ ، لِيُعَرِّفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ .

٢٠٥ـ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ ٱلنِّعَمِ بِوُجْدَانِهَا . . عَرَفَهَا بِوُجُودِ فُقْدَانِهَا .

٢٠٦ـ لا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ ٱلنِّعَمِ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ

٢٠٧ـ تَمَكُّنُ حَلاوَةِ ٱلْهَوَىٰ مِنَ ٱلْقَلْبِ هُوَ ٱلدَّاءُ ٱلْعُضَالُ

٢٠٨ـ لا يُخْرِجُ ٱلشَّهْوَةَ مِنَ ٱلْقَلْبِ إِلا خَوْفٌ مُزْعِجٌ ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ .

٢٠٩ـ كَمَا لا يُحِبُّ ٱلْعَمَلَ ٱلْمُشْتَرَكَ ، كَذَلِكَ لا يُحِبُّ ٱلْقَلْبَ ٱلْمُشْتَرَكَ ، ٱلْعَمَلُ ٱلْمُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُهُ ، وَٱلْقَلْبُ ٱلْمُشْتَرَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْهِ

---

(١) في (أ) : (قدرة إلـٰهيته) ، وفي (ب) : (قدرة الإلـٰهية) بدل (القدرة الإلـٰهية) .

الباب الثاني والعشرون
في أحكام الأنوار والأنفاس

وقال رضي الله عنه :

٢١٠ـ أَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي ٱلْوُصُولِ ، وَأَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي ٱلدُّخُولِ

٢١١ـ رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ ٱلأَنْوَارُ ، فَوَجَدَتِ ٱلْقَلْبَ مَحْشُوّاً بِصُوَرِ ٱلآثَارِ ، فَٱرْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ

٢١٢ـ فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ ٱلأَغْيَارِ . . يَمْلأْهُ بِٱلْمَعَارِفِ وَٱلأَسْرَارِ .

٢١٣ـ لا تَسْتَبْطِئْ مِنْهُ ٱلنَّوَالَ ، وَلَـٰكِنِ ٱسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ ٱلإِقْبَالِ .

٢١٤ـ حُقُوقٌ فِي ٱلأَوْقَاتِ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ، وَحُقُوقُ ٱلأَوْقَاتِ لا يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ؛ إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلا وَلِلَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ ، وَأَمْرٌ أَكِيدٌ ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ ٱللهِ فِيهِ ؟!

٢١٥ـ مَا فَاتَ مِنْ عُمُرِكَ لا عِوَضَ لَهُ ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لا قِيمَةَ لَهُ .

٢١٦ـ مَا أَحْبَبْتَ شَيْئاً إِلا كُنْتَ لَهُ عَبْداً ، وَهُوَ لا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً

٢١٧ـ لا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ ، وَلا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ؛ فَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَـٰذِهِ(١) ، وَنَهَاكَ عَنْ هَـٰذِهِ ؛ لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ(٢)

---

(١) في (ب) : (وإنما) بدل (فإنما) .

(٢) في (أ ، ب) : (إليك) بدل (عليك) .

٢١٨ـ لا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ ، وَلا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ .

الباب الثالث والعشرون
في الحقائق والأسرار

وقال رضي الله عنه :

٢١٩ـ وُصُولُكَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ وُصُولُكَ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِهِ ، وَإِلا فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ

٢٢٠ـ قُرْبُكَ مِنْهُ : أَنْ تَكُونَ شَاهِداً لِقُرْبِهِ ، وَإِلا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودُ قُرْبِهِ ؟!

٢٢١ـ ٱلْحَقَائِقُ تَرِدُ فِي حَالِ ٱلتَّجَلِّي مُجْمَلَةً ، وَبَعْدَ ٱلْوَعْيِ يَكُونُ ٱلْبَيَانُ ؛ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾

٢٢٢ـ مَتَىٰ وَرَدَتِ ٱلْوَارِدَاتُ ٱلإِلَهِيَّةُ إِلَيْكَ .. هَدَمَتِ ٱلْعَوَائِدَ عَلَيْكَ ، ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾

٢٢٣ـ ٱلْوَارِدُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ لا يُصَادِمُهُ شَيْءٌ إِلا دَمَغَهُ ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾(١)

---

(١) في (أ ، ب) : زيادة : (﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾)

٢٢٤ـ كَيْفَ يَحْتَجِبُ ٱلْحَقُّ بِشَيْءٍ وَٱلَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ ، وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ ؟!

٢٢٥ـ لا تَيْئَسَنَّ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَمْ تَجِدْ فِيهِ وُجُودَ ٱلْحُضُورِ ؛ فَرُبَّمَا قَبِلَ مِنَ ٱلْعَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ عَاجِلاً

٢٢٦ـ لا تُزَكِّيَنَّ وَارِداً لا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ ، فَلَيْسَ ٱلْمُرَادُ مِنَ ٱلسَّحَابَةِ ٱلإِمْطَارَ ، وَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ مِنْهَا وُجُودُ ٱلإِثْمَارِ

٢٢٧ـ لا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ ٱلْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطَتْ أَنْوَارَهَا وَأَوْدَعَتْ أَسْرَارَهَا ؛ فَلَكَ فِي ٱللهِ غِنىً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ

٢٢٨ـ تَطَلُّعُكَ إِلَىٰ بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ وُجْدَانِكَ لَهُ ، وَٱسْتِيحَاشُكَ لِفُقْدَانِ مَا سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ وُصْلَتِكَ بِهِ(١)

الباب الرابع والعشرون
في المنافع والمضارّ

وقال رضي الله عنه :

٢٢٩ـ ٱلنَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَٱقْتِرَابِهِ ، وَٱلْعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ لِوُجُودِ حِجَابِهِ ، فَسَبَبُ ٱلْعَذَابِ وُجُودُ ٱلْحِجَابِ ، وَإِتْمَامُ ٱلنَّعِيمِ بِٱلنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ ٱللهِ ٱلْكَرِيمِ

---

(١) في (أ ، ب) : (استيحاشك) بدل (واستيحاشك) على أنها حكمة مستقلة .

٢٣٠ـ مَا تَجِدُ ٱلْقُلُوبُ مِنَ ٱلْهُمُومِ وَٱلأَحْزَانِ[١] ، فَلِأَجْلِ مَا مُنِعَتْ مِنْ وُجُودِ ٱلْعِيَانِ .

٢٣١ـ مِنْ تَمَامِ ٱلنِّعْمَةِ عَلَيْكَ : أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ ، وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ .

٢٣٢ـ لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ

٢٣٣ـ إِنْ أَرَدْتَ أَلا تُعْزَلَ . . فَلا تَتَوَلَّ وِلايَةً لا تَدُومُ لَكَ .

٢٣٤ـ إِنْ رَغَّبَتْكَ ٱلْبِدَايَاتُ زَهَّدَتْكَ ٱلنِّهَايَاتُ .

٢٣٥ـ إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ .

٢٣٦ـ إِنَّمَا جَعَلَ هَـٰذِهِ ٱلدَّارَ مَحَلاً لِلأَغْيَارِ ، وَمَعْدِناً لِوُجُودِ ٱلأَكْدَارِ ؛ تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا

٢٣٧ـ عَلِمَ أَنَّكَ لا تَقْبَلُ ٱلنُّصْحَ ٱلْمُجَرَّدَ ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وُجُودَ فِرَاقِهَا

٢٣٨ـ ٱلْعِلْمُ ٱلنَّافِعُ : هُوَ ٱلَّذِي يَنْبَسِطُ فِي ٱلصَّدْرِ شُعَاعُهُ ، وَيُكْشَفُ بِهِ عَنِ ٱلْقَلْبِ قِنَاعُهُ .

٢٣٩ـ خَيْرُ عِلْمٍ مَا كَانَتِ ٱلْخَشْيَةُ مَعَهُ

٢٤٠ـ ٱلْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ ٱلْخَشْيَةُ فَلَكَ ، وَإِلا فَعَلَيْكَ .

٢٤١ـ مَتَىٰ آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ ٱلنَّاسِ عَلَيْكَ ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِٱلذَّمِّ إِلَيْكَ . . فَٱرْجِعْ إِلَىٰ عِلْمِ ٱللهِ فِيكَ ، فَإِنْ كَانَ لا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ فَمُصِيبَتُكَ

---

(١) في (أ ، ب) : (تجده) بدل (تجد) .

بِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ ٱلأَذَىٰ مِنْهُمْ .

٢٤٢ـ إِنَّمَا أَجْرَى ٱلأَذَىٰ عَلَيْكَ مِنْهُمْ كَيْ لا تَكُونَ سَاكِناً إِلَيْهِمْ .

٢٤٣ـ أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ لا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ .

٢٤٤ـ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ لا يَغْفُلُ عَنْكَ . . فَلا تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتُكَ بِيَدِهِ

٢٤٥ـ جَعَلَهُ لَكَ عَدُوّاً لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ ، وَحَرَّكَ عَلَيْكَ ٱلنَّفْسَ لِيُدِيمَ إِقْبَالَكَ عَلَيْهِ

الباب الخامس والعشرون
في رفع الهمة والاستكبار

وقال رضي الله عنه :

٢٤٦ـ مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعاً فَهُوَ ٱلْمُتَكَبِّرُ حَقّاً ؛ إِذْ لَيْسَ ٱلتَّوَاضُعُ إِلا عَنْ رِفْعَةٍ ، فَمَتَىٰ أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَوَاضُعاً فَأَنْتَ ٱلْمُتَكَبِّرُ .

٢٤٧ـ لَيْسَ ٱلْمُتَوَاضِعُ ٱلَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَىٰ أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ ، وَلَـٰكِنِ ٱلْمُتَوَاضِعُ ٱلَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَىٰ أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ

٢٤٨ـ ٱلتَّوَاضُعُ ٱلْحَقِيقِيُّ : هُوَ مَا كَانَ نَاشِئاً عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ ، وَتَجَلِّي صِفَتِهِ .

٢٤٩ـ لا يُخْرِجُكَ عَنِ ٱلْوَصْفِ إِلا شُهُودُ ٱلْوَصْفِ .

٢٥٠ـ ٱلْمُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ ٱلثَّنَاءُ عَلَى ٱللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِراً ، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ ٱللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِراً

٢٥١ـ لَيْسَ ٱلْمُحِبُّ ٱلَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضاً ، وَيَطْلُبُ مِنْهُ غَرَضاً ؛ فَإِنَّ ٱلْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ ، لَيْسَ ٱلْمُحِبُّ مَنْ يُبْذَلُ لَهُ .

٢٥٢ـ لَوْلا مَيَادِينُ ٱلنُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ ٱلسَّائِرِينَ

٢٥٣ـ لا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىٰ تَطْوِيَهَا رِحْلَتُكَ ، وَلا قَطِيعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىٰ تَمْحُوَهَا وُصْلَتُكَ

٢٥٤ـ جَعَلَكَ فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ(١) ؛ لِيُعْلِمَكَ جَلالَةَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوَّنَاتِهِ .

٢٥٥ـ وَسِعَكَ ٱلْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جُثْمَانِيَّتُكَ(٢) ، وَلَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحَانِيَّتِكَ .

٢٥٦ـ ٱلْكَائِنُ فِي ٱلْكَوْنِ وَلَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ ٱلْغُيُوبِ . . مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ ، وَمَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ .

٢٥٧ـ أَنْتَ مَعَ ٱلأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدِ ٱلْمُكَوِّنَ ، فَإِذَا شَهِدْتَهُ كَانَتِ ٱلأَكْوَانُ مَعَكَ

٢٥٨ـ لا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ ٱلْخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ ٱلْبَشَرِيَّةِ .

---

(١) في (أ) : (الأوسط) بدل (المتوسط) .

(٢) في (أ ، ب) : (جسمانيتك) .

٢٥٩ـ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْخُصُوصِيَّةِ كَإِشْرَاقِ شَمْسِ ٱلنَّهَارِ ، ظَهَرَتْ فِي ٱلأُفُقِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ

٢٦٠ـ تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَىٰ لَيْلِ وُجُودِكَ ، وَتَارَةً يَقْبِضُ ذَٰلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَىٰ حُدُودِكَ ، فَٱلنَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ ، وَلَٰكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ

٢٦١ـ دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَىٰ وُجُودِ أَسْمَائِهِ ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَىٰ ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ وَبِوُجُودِ أَوْصَافِهِ عَلَىٰ وُجُودِ ذَاتِهِ ؛ إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ ٱلْوَصْفُ بِنَفْسِهِ ، فَأَرْبَابُ ٱلْجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَىٰ شُهُودِ صِفَاتِهِ ، ثُمَّ يُرْجِعُهُمْ إِلَى ٱلتَّعَلُّقِ بِأَسْمَائِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَىٰ شُهُودِ آثَارِهِ ، وَٱلسَّالِكُونَ عَلَىٰ عَكْسِ هَٰذَا ، فَنِهَايَةُ ٱلسَّالِكِينَ بِدَايَةُ ٱلْمَجْذُوبِينَ ، وَبِدَايَةُ ٱلسَّالِكِينَ نِهَايَةُ ٱلْمَجْذُوبِينَ ، لَٰكِنْ لا بِمَعْنىً وَاحِدٍ ، فَرُبَّمَا ٱلْتَقَيَا فِي ٱلطَّرِيقِ ؛ هَٰذَا فِي تَرَقِّيهِ ، وَهَٰذَا فِي تَدَلِّيهِ

٢٦٢ـ لا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلأَسْرَارِ إِلا فِي غَيْبِ ٱلْمَلَكُوتِ ، كَمَا لا تَظْهَرُ أَنْوَارُ ٱلسَّمَاءِ إِلا فِي شَهَادَةِ ٱلْمُلْكِ

٢٦٣ـ وُجْدَانُ ثَمَرَاتِ ٱلطَّاعَاتِ عَاجِلاً ، بَشَائِرُ ٱلْعَامِلِينَ بِوُجُودِ ٱلْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلاً

٢٦٤ـ كَيْفَ تَطْلُبُ ٱلْعِوَضَ عَلَىٰ عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ ٱلْجَزَاءَ عَلَىٰ صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ ؟!

٢٦٥ـ قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارَهُمْ ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارَهُمْ .

٢٦٦ـ ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ قَلْبُهُ ، وَذَاكِرٌ ٱسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِراً

٢٦٧ـ مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ ، إِلا عَنْ بَاطِنِ شُهُودٍ وَفِكْرٍ .

٢٦٨ـ أَشْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنِ ٱسْتَشْهَدَكَ ، فَنَطَقَتْ بِإِلَـٰهِيَّتِهِ ٱلظَّوَاهِرُ ، وَتَحَقَّقَتْ بِأَحَدِيَّتِهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلسَّرَائِرُ

٢٦٩ـ أَكْرَمَكَ كَرَامَاتٍ ثَلاثاً ؛ جَعَلَكَ ذَاكِراً لَهُ ، وَلَوْلا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ ؛ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ ، فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

٢٧٠ـ رُبَّ عُمُرٍ ٱتَّسَعَتْ آمَادُهُ ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ ، وَرُبَّ عُمُرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ ، كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ .

٢٧١ـ مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمُرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ ٱلْعُمُرِ مِنْ مِنَنِ ٱللهِ تَعَالَىٰ مَا لا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ ٱلْعِبَارَةِ ، وَلا تَلْحَقُهُ ٱلإِشَارَةُ

٢٧٢ـ ٱلْخِذْلانُ كُلُّ ٱلْخِذْلانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ ٱلشَّوَاغِلِ ثُمَّ لا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، أَوْ تَقِلَّ عَوَائِقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إِلَيْهِ .

٢٧٣ـ ٱلْفِكْرَةُ سَيْرُ ٱلْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ ٱلأَغْيَارِ

٢٧٤ـ ٱلْفِكْرَةُ سِرَاجُ ٱلْقَلْبِ ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلا إِضَاءَةَ لَهُ(١)

٢٧٥ـ ٱلْفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ : فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ ، وَفِكْرَةُ شُهُودٍ وَعِيَانٍ ؛ فَٱلأُولَىٰ لِأَرْبَابِ ٱلِاعْتِبَارِ ، وَٱلثَّانِيَةُ لِأَرْبَابِ ٱلشُّهُودِ وَٱلِاسْتِبْصَارِ .

* *

---

(١) في (أ) : (فإذا هبت أهواء النفوس) بدل (فإذا ذهبت) .

المكاتبة الأولى
في صفة السلوك إلى ملك الملوك

وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ ٱلْبِدَايَاتِ مَجلاةُ ٱلنِّهَايَاتِ ، وَإِنَّ مَنْ كَانَتْ بِٱللهِ بِدَايَتُهُ كَانَتْ إِلَيْهِ نِهَايَتُهُ

وَٱلْمُشْتَغَلُ بِهِ : هُوَ ٱلَّذِي أَحْبَبْتَهُ وَسَارَعْتَ إِلَيْهِ ، وَٱلْمُشْتَغَلُ عَنْهُ : هُوَ ٱلْمُؤْثَرُ عَلَيْهِ

وَإِنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ ٱللهَ يَطْلُبُهُ صَدَقَ ٱلطَّلَبَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ ٱلأُمُورَ بِيَدِ ٱللهِ ٱنْجَمَعَ بِٱلتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لا بُدَّ لِبِنَاءِ هَـٰذَا ٱلْوُجُودِ أَنْ تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ ، وَأَنْ تُسْلَبَ كَرَائِمُهُ

فَٱلْعَاقِلُ مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَىٰ أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَفْنَىٰ ، قَدْ أَشْرَقَ نُورُهُ ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ ، فَصَدَفَ عَنْ هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ مُغْضِياً ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُوَلِّياً ، فَلَمْ يَتَّخِذْهَا وَطَناً ، وَلا جَعَلَهَا سَكَناً ، بَلْ أَنْهَضَ ٱلْهِمَّةَ فِيهَا إِلَى ٱللهِ ، وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِيناً بِهِ فِي ٱلْقُدُومِ عَلَيْهِ(١)

فَمَا زَالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لا يَقَرُّ قَرَارُهَا ، دَائِماً تَسْيَارُهَا ، إِلَىٰ أَنْ أَنَاخَتْ بِحَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ ، وَبِسَاطِ ٱلأُنْسِ ؛ مَحَلِّ ٱلْمُفَاتَحَةِ وَٱلْمُوَاجَهَةِ ، وَٱلْمُجَالَسَةِ وَٱلْمُحَادَثَةِ ، وَٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْمُطَالَعَةِ ،

---

(١) في (أ) : (وسار منها مستعيناً به) ، وفي (ب) : (وصار به مستعيناً) بدل (وصار فيها مستعيناً به) .

فَصَارَتِ ٱلْحَضْرَةُ مُعَشَّشَ قُلُوبِهِمْ ، إِلَيْهَا يَأْوُونَ ، وَفِيهَا يَسْكُنُونَ

فَإِذَا نَزَلُوا إِلَىٰ سَمَاءِ ٱلْحُقُوقِ أَوْ أَرْضِ ٱلْحُظُوظِ .. فَبِٱلإِذْنِ وَٱلتَّمْكِينِ ، وَٱلرُّسُوخِ فِي ٱلْيَقِينِ ، فَلَمْ يَنْزِلُوا إِلَى ٱلْحُقُوقِ بِسُوءِ ٱلأَدَبِ وَٱلْغَفْلَةِ ، وَلا إِلَى ٱلْحُظُوظِ بِٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمُتْعَةِ ، بَلْ دَخَلُوا فِي ذَلِكَ بِٱللهِ وَلِلَّهِ وَمِنَ ٱللهِ وَإِلَى ٱللهِ[1]

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : ٨٠] لِيَكُونَ نَظَرِي إِلَىٰ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ إِذَا أَدْخَلْتَنِي ، وَٱسْتِسْلامِي وَٱنْقِيَادِي إِلَيْكَ إِذَا أَخْرَجْتَنِي ، ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء ٨٠] ، يَنْصُرُنِي ، وَيَنْصُرُ بِي ، وَلا يَنْصُرُ عَلَيَّ ؛ يَنْصُرُنِي عَلَىٰ شُهُودِ نَفْسِي ، وَيُفْنِينِي عَنْ دَائِرَةِ حِسِّي

المكاتبة الثانية

في إجلاء الحقيقة والشريعة في مقام الشكر

وقال رضي الله عنه مما كتب به إلى بعض إخوانه :

إِنْ كَانَتْ عَيْنُ ٱلْقَلْبِ تَنْظُرُ إِلَىٰ أَنَّ ٱللهَ وَاحِدٌ فِي مِنَّتِهِ .. فَٱلشَّرِيعَةُ تَقْتَضِي أَنْ لا بُدَّ مِنْ شُكْرِ خَلِيقَتِهِ

وَإِنَّ ٱلنَّاسَ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ :

---

(١) في (أ) : زيادة (وفي الله) بعد قوله : (بالله) .

غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ فِي غَفْلَتِهِ ، قَوِيَتْ دَائِرَةُ حِسِّهِ ، وَٱنْطَمَسَتْ حَضْرَةُ قُدْسِهِ ، فَنَظَرَ ٱلإِحْسَانَ مِنَ ٱلْمَخْلُوقِينَ ، وَلَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ؛ إِمَّا ٱعْتِقَاداً فَشِرْكُهُ جَلِيٌّ ، وَإِمَّا ٱسْتِنَاداً فَشِرْكُهُ خَفِيٌّ .

وَصَاحِبُ حَقِيقَةٍ غَابَ عَنِ ٱلْخَلْقِ بِشُهُودِ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ ، وَفَنِيَ عَنِ ٱلأَسْبَابِ بِشُهُودِ مُسَبِّبِ ٱلأَسْبَابِ ، فَهُوَ عَبْدٌ مُوَاجَهٌ بِٱلْحَقِيقَةِ ، ظَاهِرٌ عَلَيْهِ سَنَاهَا ، سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ ، قَدِ ٱسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ مَدَاهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ غَرِيقُ ٱلأَنْوَارِ ، مَطْمُوسُ ٱلآثَارِ ، قَدْ غَلَبَ سُكْرُهُ عَلَىٰ صَحْوِهِ ، وَجَمْعُهُ عَلَىٰ فَرْقِهِ ، وَفَنَاؤُهُ عَلَىٰ بَقَائِهِ ، وَغَيْبَتُهُ عَلَىٰ حُضُورِهِ .

وَأَكْمَلُ مِنْهُ عَبْدٌ شَرِبَ فَٱزْدَادَ صَحْواً ، وَغَابَ فَٱزْدَادَ حُضُوراً ، فَلا جَمْعُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ ، وَلا فَرْقُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ جَمْعِهِ ، وَلا فَنَاؤُهُ يَصُدُّهُ عَنْ بَقَائِهِ ، وَلا بَقَاؤُهُ يَصُدُّهُ عَنْ فَنَائِهِ ، يُعْطِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ ، وَيُوَفِّي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ

وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا ـ لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا مِنَ ٱلإِفْكِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : يَا عَائِشَةُ ؛ ٱشْكُرِي رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : وَٱللهِ ؛ لا أَشْكُرُ إِلا ٱللهَ (١) .

---

(١) رواه البخاري (٤٧٥٧) من حديث الصديقة عائشة رضي الله عنها ، ولفظه : (فقال لي أبواي : قومي إليه ، فقلت : لا والله لا أقوم إليه ، ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي) ، وأكثر الروايات أن القائل لها هي أمها السيدة أم رومان بنت عامر الكنانية رضي الله عنها ، وشكره عليه الصلاة والسلام هو حقُّ البشير ، إلا أن معنى التوحيد كان قد ملأ قلبها رضي الله تعالىٰ عنها كما سيأتي .

دلَّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَلَى ٱلْمَقَامِ ٱلأَكْمَلِ ؛ مَقَامِ ٱلْبَقَاءِ ٱلْمُقْتَضِي لإِثْبَاتِ ٱلآثَارِ ، وَقَدْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] ، وَقَالَ صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ : « لا يَشْكُرُ ٱللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ ٱلنَّاسَ »(١) ، وَكَانَتْ هِيَ فِي ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ مُصْطَلَمَةً عَنْ شَاهِدِهَا ، غَائِبَةً عَنِ ٱلآثَارِ ، فَلَمْ تَشْهَدْ إِلا ٱلْوَاحِدَ ٱلْقَهَّارَ .

المكاتبة الثالثة
في بيان معنى قوله عليه الصلاة والسلام :
« وجعلت قرة عيني في الصلاة »

وقال رضي الله عنه لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلاةِ »(٢) : هَلْ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِ ، أَمْ لِغَيْرِهِ مِنْهُ شِرْبٌ وَنَصِيبٌ ؟

فَأَجَابَ : إِنَّ قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ بِٱلشُّهُودِ عَلَىٰ قَدْرِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِٱلْمَشْهُودِ ، فَٱلرَّسُولُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ لَيْسَ مَعْرِفَةٌ كَمَعْرِفَتِهِ ، فَلَيْسَ قُرَّةُ عَيْنٍ كَقُرَّتِهِ .

وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي صَلاتِهِ بِشُهُودِهِ جَلالَ مَشْهُودِهِ ؛ لِأَنَّهُ

---

(١) رواه أبو داود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) رواه النسائي (٧/ ٦١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

قَدْ أَشَارَ إِلَىٰ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (فِي ٱلصَّلاةِ) ، وَلَمْ يَقُلْ : (بِٱلصَّلاةِ) إِذْ هُوَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ لا تَقَرُّ عَيْنُهُ بِغَيْرِ رَبِّهِ ، وَكَيْفَ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَقَامِ وَيَأْمُرُ بِهِ مَنْ سِوَاهُ ؟![١] لِقَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ٱعْبُدِ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ »[٢] ، وَمُحَالٌ أَنْ يَرَاهُ وَيَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : قَدْ تَكُونُ قُرَّةُ ٱلْعَيْنِ بِٱلصَّلاةِ ؛ لِأَنَّهَا فَضْلٌ مِنَ ٱللهِ ، وَبَارِزَةٌ مِنْ مِنَّةِ ٱللهِ ، فَكَيْفَ لا يُفْرَحُ بِهَا ؟! وَكَيْفَ لا تَكُونُ قُرَّةُ ٱلْعَيْنِ بِهَا وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : ٥٨] ؟![٣]

فَٱعْلَمْ : أَنَّ ٱلآيَةَ قَدْ أَوْمَأَتْ بِٱلْجَوَابِ ، لِمَنْ تَدَبَّرَ سِرَّ ٱلْخِطَابِ ؛ إِذْ قَالَ : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ ، وما قَالَ : (فَبِذَلِكَ فَٱفْرَحْ يَا مُحَمَّدُ) ، قُلْ لَهُمْ : فَلْيَفْرَحُوا بِٱلإِحْسَانِ وَٱلتَّفَضُّلِ ، وَلْيَكُنْ فَرَحُكَ أَنْتَ بِٱلْمُتَفَضِّلِ ؛ كَمَا قَالَ فِي ٱلآيَةِ ٱلأُخْرَىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

---

(١) في (أ) : (وكيف يترك هـٰذا المقام ويأمر به من سواه ؟!) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ١٧٥) من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠٢) من حديث سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه ، وأيضاً (٦/ ١١٥) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وأصله في « الصحيحين » لـٰكن لا بلفظ الأمر .

(٣) في (أ) : (ولا تقر عينه بها) بدل (وكيف لا تكون قرة العين بها) .

المكاتبة الرابعة

في بيان أحوال الناس عند ورود النعم

وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

ٱلنَّاسُ فِي وُرُودِ ٱلْمِنَنِ عَليهِم عَلَىٰ ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ :

فَرِحٌ بِٱلْمِنَنِ لا مِنْ حَيْثُ مُبْدِيهَا وَمُنْشِيهَا[١] ، وَلَـٰكِنْ لِوُجُودِ مُتْعَتِهِ فِيهَا ، فَهَـٰذَا مِنَ الْغَافِلِينَ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

وَفَرِحٌ بِٱلْمِنَنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَهِدَهَا مِنَّةً مِمَّنْ أَرْسَلَهَا ، وَنِعْمَةً مِمَّنْ وَصَلَهَا ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] .

وَفَرِحٌ بِٱللهِ ، مَا شَغَلَهُ مِنَ ٱلْمِنَنِ ظَاهِرُ مُتْعَتِهَا ، وَلا بَاطِنُ مِنَّتِهَا ، بَلْ شَغَلَهُ ٱلنَّظَرُ إِلَى ٱللهِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَٱلْجَمْعُ عَلَيْهِ فَلا يَشْهَدُ إِلا إِيَّاهُ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

وَقَدْ أَوْحَى ٱللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ : يَا دَاوُدُ ؛ قُلْ لِلصِّدِّيقِينَ : بِي فَلْيَفْرَحُوا ، وَبِذِكْرِي فَلْيَتَنَعَّمُوا[٢]

---

(١) في (أ ، ب) : (مهديها) بدل (مبديها)

(٢) في (أ) : (قل للصديقين : برحمتي فليفرحوا ، وبذكري فليتنعموا ، وأما أنت فبي فافرح) .

فَٱللَّهُ تَعَالَىٰ يَجْعَلُ فَرَحَنَا وَإِيَّاكَ بِهِ ، وَبِٱلرِّضَا مِنْهُ ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ ٱلْفَهْمِ عَنْهُ ، وَأَلَا يَجْعَلَنَا مِنَ ٱلْغَافِلِينَ ، وَأَنْ يَسْلُكَ بِنَا مَسْلَكَ ٱلْمُتَّقِينَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ(١)

* * *

(١) وقع في أربع نسخ من النسخ الخطية المعتمدة في « متن الحكم العطائية » زيادةُ حِكَمٍ ودعواتٍ هنا لم تلفَ في غيرها من النسخ ، ولم يتعرَّض شُرَّاح « الحكم » لها ، ولعلها مما تناثر من كلام المؤلف رحمه الله تعالىٰ ، وحرصاً علىٰ تمام العمل نضعها بين يدي القارئ ؛ فهي وإن لم تكن للمصنف فلا تخلو من فائدة ؛ وهي هـٰذه :

وقال رضي الله عنه :

يعرف العاقلُ بثلاث ؛ بملكته لنفسه عند الشهوة ، وبملكته لها عند الغضب ، وبتركه ما لا يعنيه عند القدرة على الدخول فيه

تفرُّقُ الوجه عليك لا يمنعني من النظر بلطفي إليك

إذا كان لك عنايةٌ مني فكم من متفرِّغ شغلته عني ، وكم من مشتغل جمعته عليَّ

قبَّح الله وجهَ التفريط ؛ لو كان وقتاً لكان ليلاً ، ولو كان صوتاً لكان ويلاً

كلُّ مقدور عليه مزهود فيه ، وكلُّ ممنوع عنه مرغوب فيه .

الحمدُ لله الذي أطعمنا مع العجز ، ونصرنا مع وجود أسباب الخذلان

الحمدُ لله الذي لم يقطع عنا عوائد الإحسان بوجود العصيان

الحمدُ لله الذي لم يحبس عنا عوائد رفده ، مع نقضنا لعهده .

الحمدُ لله علىٰ كل نعمة ، وأستغفر الله من كل ذنب ، ونعوذ بالله من كل محنة ، ونسأل الله من كل خير ومنة

لا تواضعَ مع دعوىٰ ، ولا كبرَ مع تقوىٰ .

يا أيها الطالب من الخلق كل ما يريد ؛ أنت لم تجد من نفسك كل ما تريد ، فكيف تجد من الخلق كل ما تريد ؟!

من لم يوفِّ ربه فكيف يطلب منه أن يوفيه

مخالفةُ الهوىٰ مرٌّ على النفوس ، إذا لم تتحسَّ هـٰذه المرارةَ فلا سبيلَ إلى الشفاء أبداً

شهد للدنيا بالتعظيم من كان عليها مقبلاً

غمسةٌ في الذنوب توجب جمعَكَ عليه . . خيرٌ لك من دوام طاعة توجب تكبُّرَكَ عليه .

حقيقةُ بلائي ميلُ قلبك إلىٰ سوائي =

= فتحَ باب عطائي شكرُكَ لنعمائي

إقبالُكَ على غيري إفرادُكَ له بالعبادة ، وكيف أرضى لك أن تعبد غيري ؟!

طلبَ من العبد أن يكون عبداً ، فأبى أن يكون إلا ضداً .

طلب غيرَ الله عمداً ، فمنع اللهُ عنه رفداً .

مَنْ وجدني لم يشهد معي غيري ، فمن شهدَ معي غيري فما وجدني .

لو أثبتَّ معي غيري وأتيت إلي . . لم أقبل عليك ، فكيف إذا أثبتَّ معي غيري وأقبلت عليه ؟!

إن الله حكم بحكم قبل أن يخلق السماوات والأرض ألا يطيعه أحدٌ إلا أعزَّهُ ، وألا يعصيه أحدٌ إلا أذلَّهُ ، فربط مع الطاعة العز ، ومع المعصية الذل ؛ كما ربط مع النار الإحراق ، فمن لا طاعةَ له لا عزَّ له

لا تنسبَنَّ نفسك لعفاف ، ولا لتقلُّل وكفاف ، ولكن اشهدْ فضلي عليك .

ما نظرَ إلى قيامه في الطاعة وغفل عن إقامةِ الله إياه فيها . . إلا عبدٌ جهول .

اشهدْ فضلي عليك ، ولا تشهد عملَكَ معي ؛ فإنك إن شهدت عملك معي ادَّعيت بين يدي ، وإن شهدتَ فضلي أرجعتَ ذلك إلي

مَنِ اكتفى بالله لم تطرقْهُ النكبات

تحقيرُكَ للأشياء وأنت مقبل عليها . . زورٌ وبهتان ، وتعظيمُكَ للشيء مع وجود إعراضك عنه . . من أمارات الخذلان .

كيف ترجو أن يكونَ لك قدْرٌ عنده وقد استعبدك مَنْ لا قدر له عنده

لو اشتغلتَ بالباقيات عني ما كان ذلك عذراً عندي ، هـٰذا إذا اشتغلت بباقٍ يبقى ، فكيف إذا اشتغلت بفانٍ يفنى ؟!

ليس للكون مِنَ القيمة ما يستحقُّ أن يؤثر عليَّ ، ولا للعوارض من القَدْرِ ما يعوِّقُ من أراد التوجُّهَ إليَّ .

يا عبدَنا ؛ لِمَ تطلبُ منَّا النوال ، ولا تطالبُ نفسَكَ بالإقبال ؟!

الحقُّ تعالى له الكرمُ وله الحقُّ ؛ فاطلب منه من حيث كرمه ، وطالب نفسك من حيث حقوقه عليك

ليس الوجهُ الذي تلقى به الغريم ، كالوجه الذي تجلس به مع النديم .

متى ضعفَتِ الأعمالُ أردفها الحقُّ بالمحن . =

= ليس المستغفر مَنِ استغفرَ باللسان ، وأقام على أفعال الهوان ، إنما المستغفرُ من ترك العصيان .

مَنِ اعتمد على المعلومات والمدَّخرات . . فقد عبد غير الله وهو لا يشعر .

أقربُهم إلى الله وأفهمُهم عنه : أشدُّهم استسلاماً .

مَنْ لم يأتِ إلى الله بعواطف الامتنان . . سيق إليه بسلاسل الامتحان .

رضاكَ عنِّي في الفاقة ساعةً واحدة . . خيرٌ من عبادة سبعين سنة

إذا تقرَّبَ الناسُ إلي بكثرة الأعمال . . تقرَّبْ أنت إلي بالرضا عني في الأفعال ، واعلم أن من جلس معنا على بساط فاقة راضٍ بنا . . رفعنا مرتبته عندنا

ليس أهلُ العفو عن الجناية ، كأهل التخصيص والعناية .

جلَّ ربُّنا أن يُعصىٰ عناداً ، أو يُطاعَ استبداداً

من أخلاق الأولياء ثلاثةٌ : سلامةُ الصدر ، وسخاوةُ النفس ، وحسنُ الظنِّ في عباد الله .

لا يصحُّ من راغبٍ إخلاصٌ ، ولا يمكن من زاهدٍ رياءٌ .

إذا أردت أن تعرف قدْرَ العمل الذي أنت فيه . . فانظر من يشاركُكَ فيه .

الدنيا : عبارةٌ عما شغل عن الله .

النفسُ : عبارة عن كلِّ خلق مذموم

مَنْ وُكِلَ إلىٰ نفسه لم تفتْهُ معصيةٌ وإن لم يكن لها فاعلاً ، ومن بصرته العنايةُ لم تفتْهُ طاعةٌ وإن لم يكن لها فاعلاً

الأحمقُ : مَنْ يطالبُ الناس لنفسه ، ولا يطالب نفسَهُ للناس .

أوَّلُ الدواء : الحميةُ ، فمن عجز عن الحمية كان عن الدواء أعجز ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحميةُ رأسُ الدواءِ » .

لا معنىٰ لدعوى النفوس للأعمال قبل كشف الحجاب ؛ فإن العللَ تلزمُها ، ولا معنىٰ لدعواها بعد كشف الحجاب ؛ فإن الشهودَ يهدمُها .

لولا الحُجُبُ والأستار . . ما ثبتت رتبةُ الآثار .

حرامٌ علىٰ مَنِ استكثر من الشهوات أن تفتحَ له أبوابُ الغيوب .

لا عبادةَ مع نهمة ، ولا غفلةَ مع ثقة

مَنْ أعطىٰ نفسَهُ نهمتها من الحلال . . وقع في الحرام .

كيف يرجو أن تنصلحَ الأشياءُ له مَنْ أعرض عن مصلحها ؟! =

= مَنْ نزلت به فاقه فلم ترجعْهُ إلى الله . . فمصيبتُهُ بالغفلة عن الله أعظمُ من مصيبته بالفاقة .
أقبلْ على الله على حسَبِ حاجتك إليه ، واذكرْهُ ما علمت أنه لك ذاكراً ، ولا تستبدلْ منه إلا من هو أرأفُ بك منه ، ولن تجدَ ذلك أبداً
لو يعلم المحدِّثُ لمَنْ يحدِّثُ . . ما كذبَ في حديثه .
ومما كتب به لبعض إخوانه :
وبعدُ ، فلا أرى شيئاً أنفعَ لك من أمور أربعة الاستسلامُ إلى الله ، والتضرعُ إليه ، وحسنُ الظن به ، وتجديدُ التوبة ولو عدت إلى الذنب في اليوم سبعين مرةً .
ففي الاستسلام إليه : الراحةُ من التدبير معه عاجلاً ، والظفرُ بالمنَّة العظمى آجلاً ، والسلامةُ من الشرك بالمنازعة ، ومن أين لك أن تنازعَهُ فيما لا تملكُهُ معه ، وألقِ نفسَكَ في مملكته ؛ فإنك قليلٌ في كثيرِها ، وصغيرٌ في كبيرِها ، يدبرك كما دبَّرَها ، ولا تخرج عما هو لك من وصف العبودية إلى ما ليس لك من ادِّعاء وصف الربوبية ؛ فإن التدبير والاختيار من كبائر القلوب والأسرار ؛ وتجد ذلك في كتاب الله ؛ قال الله سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص : ٦٨] .
وأما التضرع إلى الله : ففيه نزولُ الزوائد ، ورفعُ الشدائد ، والانطواءُ في أردية المنن ، والسلامةُ من المحن ، فتعوَّض خيراً من ذلك : أن يتولى مولاك الدفع عن نفسك في المضارِّ ، والجلب لها في المسارِّ ؛ وهو الباب الأعظم ، والسبيل الأقوم ، يؤثر حتى مع الكفران ، فكيف لا يؤثر مع الإيمان ؟! ألم تسمع قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] ؛ أي : فأجابكم ، وهو الباب الذي جعله الله بينه وبين عباده ؛ تردُ وارداتُ الألطاف على من توجَّه إليه ، وتتوالى المِنَنُ على من وقف به ، ويصل إلى حقيقة العناية من دخل منه ، ومتى فتحَ لك به فتحَ عليك من كلِّ خيراته ، وأوسع هباته ، وتجدُ ذلك في كتاب الله ؛ قال الله سبحانه : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ [الأنعام : ٤٣] .
وأما حسنُ الظنِّ بالله : فبخٍ بخٍ لمن منَّ عليه بها ، فمن وجدها لم يفقدْ من الخير شيئاً ، ومن فقدها لم يجدْ منه شيئاً ، لا تجدُ عذيراً عند الله أنفعَ لك منها ولا أجدى ، ولا تجد الآن أدلَّ على الله منها ولا أهدى ، يعلمك عن الله بما يريد أن يصنعَهُ معك ، ويبشِّرك عنه ببشائر لا تقرأ مسطورَها العينان ، ولا يترجم عنها لسان ، وتجدُ ذلك في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله : « أنا عندَ حُسْنِ ظنِّ عبدي بي » =

المناجاة

وقال رضي الله عنه :

إلٰهي ؛ أَنَا ٱلْفَقِيرُ فِي غِنَايَ ، فَكَيْفَ لا أَكُونُ فَقِيراً فِي فَقْرِي ؟!

إلٰهي ؛ أَنَا ٱلْجَاهِلُ فِي عِلْمِي ، فَكَيْفَ لا أَكُونُ جَهُولاً فِي جَهْلِي ؟!

إلٰهي ؛ إِنَّ ٱخْتِلافَ تَدْبِيرِكَ ، وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ .. مَنَعَا عِبَادَكَ ٱلْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ ٱلسُّكُونِ إِلَىٰ عَطَاءٍ ، وَٱلْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلاءٍ

= وأما تجديدُ التوبةِ إليه : فهي عن كلِّ رتبة ومقام أولهُ وآخره ، وظاهرهُ وباطنه ، لا مزيةَ لمَنْ فقدها ، ولا فَقْدَ لمن وجدها ، مفتاح كل خير ظاهر وباطن ، روح المقامات وسبب الولايات ، ولو استوَتْ توبةُ القطب والصالح لاستوىٰ مقاماهما ، لم يرتفع عنه رفيع المقام لرفعة شأنه ولا لعظيم إيقانه ، لم يجعل الله سبحانه رتبةً دونها إلا الظلم ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وهي مطلوبةٌ من كل رسول ونبي وصديق وشهيد وولي وبارٍّ وتقي وفاجر غوي وكافر شقي ، وتجدُ ذلك في كتاب الله سبحانه ؛ قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء : ١] ، فتقواه بالتوبة إليه ، والدوام بالخضوع بين يديه ، فأهل السرور : توبتُهم بالخروج عن سرورهم ، وأهل الحبور : توبتُهم بعدم الوقوف مع حبورهم ، كانت ورداً أو وارداً ، كلاهما في المطالبة بعدم الوقوف معهما واحد ؛ ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج : ٧٨] ، وإن من ملَّتِهِ عدمَ الوقوف مع الفانيات ، والانقطاعَ عن نظر الكائنات ؛ قال الله سبحانه مخبراً عنه : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] .

وبالجملةِ : من لم ينفعه القليلُ لم ينفعه الكثير ، ومن لم تنفعه الإشارةُ لا تنفع فيه العبارة ، وإذا أفهمَكَ الله لم ينقطع سماعك .

أفهمنا الله وإياك عنه ، وأسمعنا وإياك منه ، وقطعنا عن كلِّ شيء سواه ، وأدخلنا في كنفِهِ وحماه ، وجعلنا ممن نصرَهُ وهداه ، ولسبيل المرسلين أراه ، ولا شتَّتَ قلوبنا ، وجمع عليه همومنا ، وأزال بالوصول كروبنا ، آمين .

إِلٰهِي ؛ مِنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي ، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ

إِلٰهِي ؛ وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِٱللُّطْفِ وَٱلرَّأْفَةِ بِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي ، أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي ؟!

إِلٰهِي ؛ إِنْ ظَهَرَتِ ٱلْمَحَاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ ٱلْمِنَّةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ ظَهَرَتِ ٱلْمَسَاوِي مِنِّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ ٱلْحُجَّةُ عَلَيَّ

إِلٰهِي ؛ كَيْفَ تَكِلُنِي وَقَدْ تَوَكَّلْتَ لِي ؟! وَكَيْفَ أُضَامُ وَأَنْتَ ٱلنَّاصِرُ لِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ ٱلْحَفِيُّ بِي ؟! هَـٰأَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ لَكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ تَخِيبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ لا تَحْسُنُ أَحْوَالِي وَبِكَ قَامَتْ إِلَيْكَ ؟!

إِلٰهِي ؛ مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي ! وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي !

إِلٰهِي ؛ مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي ! وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ ! وَمَا أَرْأَفَكَ بِي ! فَمَا ٱلَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ ؟!

إِلٰهِي ؛ قَدْ عَلِمْتُ بِٱخْتِلافِ ٱلآثَارِ ، وَتَنَقُّلاتِ ٱلأَطْوَارِ . . أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ لا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ

إِلٰهِي ؛ كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ ، وَكُلَّمَا آيَسَتْنِي أَوْصَافِي أَطْمَعَتْنِي مِنَنُكَ .

إلهي ؛ مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِيَ فَكَيْفَ لا تَكُونُ مَسَاوِيهِ مَسَاوِيَ ؟! وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِيَ فَكَيْفَ لا تَكُونُ دَعَاوِيهِ دَعَاوِيَ ؟!

إلهي ؛ حُكْمُكَ ٱلنَّافِذُ وَمَشِيئَتُكَ ٱلْقَاهِرَةُ . . لَمْ يَتْرُكَا لِذِي مَقَالٍ مَقَالاً ، وَلا لِذِي حَالٍ حَالاً

إلهي ؛ كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا وَحَالَةٍ شَيَّدْتُهَا . . هَدَمَ ٱعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ ، بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ

إلهي ؛ إِنَّكَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدُمِ ٱلطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلاً جَزْماً . . فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةً وَعَزْماً

إلهي ؛ كَيْفَ أَعْزِمُ وَأَنْتَ ٱلْقَاهِرُ ؟! وَكَيْفَ لا أَعْزِمُ وَأَنْتَ ٱلآمِرُ ؟!

إلهي ؛ تَرَدُّدِي فِي ٱلآثَارِ يُوجِبُ بُعْدَ ٱلْمَزَارِ ، فَٱجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُنِي إِلَيْكَ

إلهي ؛ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ؟! أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ ٱلظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ ٱلْمُظْهِرَ لَكَ ؟! مَتَىٰ غِبْتَ حَتَّىٰ تَحْتَاجَ إِلَىٰ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟! وَمَتَىٰ بَعُدْتَ حَتَّىٰ تَكُونَ ٱلآثَارُ هِيَ ٱلَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ .

إلهي ؛ عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيباً ، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً

إلٰهي ؛ أَمَرْتَ بِٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلآثَارِ ، فَٱرْجِعْنِي إِلَيْكَ بِكُسْوَةِ ٱلأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ ٱلِاسْتِبْصَارِ[1] ؛ حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا ؛ مَصُونَ ٱلسِّرِّ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهَا ، وَمَرْفُوعَ ٱلْهِمَّةِ عَنِ ٱلِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا ؛ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

وقال رضي الله عنه :

إلٰهي ؛ هَـٰذَا ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَهَـٰذَا حَالِي لا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ ، مِنْكَ أَطْلُبُ ٱلْوُصُولَ إِلَيْكَ ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ ، فَٱهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ ، وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ ٱلْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ

إلٰهي ؛ عَلِّمْنِي مِنْ عِلْمِكَ ٱلْمَخْزُونِ ، وَصُنِّي بِسِرِّكَ ٱلْمَصُونِ

إلٰهي ؛ حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ ٱلْقُرْبِ ، وَٱسْلُكْ بِي مَسَالِكَ أَهْلِ ٱلْجَذْبِ .

إلٰهي ؛ أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي ، وَٱخْتِيَارِكَ لِي عَنِ ٱخْتِيَارِي ، وَأَوْقِفْنِي عَلَىٰ مَرَاكِزِ ٱضْطِرَارِي

إلٰهي ؛ أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي ، وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشِرْكِي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي ، بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَٱنْصُرْنِي ، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلا تَكِلْنِي ، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلا تُخَيِّبْنِي ، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلا تَحْرِمْنِي ، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ فَلا تُبْعِدْنِي ، وَبِبَابِكَ أَقِفُ فَلا تَطْرُدْنِي .

---

(١) في (أ ، ب) : (إليها) بدل (إليك)

إِلٰهِي ؛ تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي ؟!

أَنْتَ ٱلْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ ٱلنَّفْعُ مِنْكَ ، فَكَيْفَ لا تَكُونُ غَنِيّاً عَنِّي ؟!

إِلٰهِي ؛ إِنَّ ٱلْقَضَاءَ وَٱلْقَدَرَ غَلَبَنِي(١) ، وَإِنَّ ٱلْهَوَىٰ بِوِثَاقِ ٱلشَّهْوَةِ أَسَرَنِي ، فَكُنْ أَنْتَ ٱلنَّصِيرَ لِي حَتَّىٰ تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّىٰ أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلَبِي

أَنْتَ ٱلَّذِي أَشْرَقْتَ ٱلأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ ، وَأَنْتَ ٱلَّذِي أَزَلْتَ ٱلأَغْيَارَ مِنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ(٢) ، أَنْتَ ٱلْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ ٱلْعَوَالِمُ ، وَأَنْتَ ٱلَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى ٱسْتَبَانَتْ لَهُمُ ٱلْمَعَالِمُ

مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟! وَمَا ٱلَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟! لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَىٰ عَنْكَ مُتَحَوَّلاً

كَيْفَ يُرْجَىٰ سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ ٱلإِحْسَانَ ؟! وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ ٱلِامْتِنَانِ ؟!

يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلاوَةَ مُؤَانَسَتِهِ ، فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ ، وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلابِسَ هَيْبَتِهِ ، فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ

أَنْتَ ٱلذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ ٱلذَّاكِرِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْبَادِئُ بِٱلإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ

---

(١) في (أ) : (غلباني) بدل (غلبني) .

(٢) في (أ) زيادة : (إلـٰهي)

تَوَجُّهِ ٱلْعَابِدِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْجَوَادُ بِٱلْعَطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلَبِ ٱلطَّالِبِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْوَهَّابُ ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ ٱلْمُسْتَقْرِضِينَ

إِلٰهِي ؛ ٱطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّىٰ أَصِلَ إِلَيْكَ ، وَٱجْذُبْنِي بِمِنَّتِكَ حَتَّىٰ أُقْبِلَ عَلَيْكَ

إِلٰهِي ؛ إِنَّ رَجَائِي لا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ ، كَمَا أَنَّ خَوْفِي لا يُزَايِلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ .

إِلٰهِي ؛ قَدْ دَفَعَتْنِي ٱلْعَوَالِمُ إِلَيْكَ ، وَقَدْ أَوْقَفَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ

إِلٰهِي ؛ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي ؟! أَمْ كَيْفَ أُهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلِي ؟!

إِلٰهِي ؛ كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَفِي ٱلذِّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ لا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي ؟!

إِلٰهِي ؛ كَيْفَ لا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ ٱلَّذِي فِي ٱلْفَقْرِ أَقَمْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ ٱلَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي ؟!

أَنْتَ ٱلَّذِي لا إِلٰهَ غَيْرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ ٱلَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَرَأَيْتُكَ ظَاهِراً فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ

يَا مَنِ ٱسْتَوَىٰ بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ ، فَصَارَ ٱلْعَرْشُ غَيْباً فِي رَحْمَانِيَّتِهِ كَمَا صَارَتِ ٱلْعَوَالِمُ غَيْباً فِي عَرْشِهِ

مَحَقْتَ ٱلآثَارَ بِٱلآثَارِ ، وَمَحَوْتَ ٱلأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلاكِ ٱلأَنْوَارِ .

يَا مَنِ ٱحْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ ٱلأَبْصَارُ .

يَا مَنْ تَجَلَّىٰ بِكَمَالِ بَهَائِهِ ، فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتَهُ ٱلأَسْرَارُ .

كَيْفَ تَخْفَىٰ وَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ ؟! أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ ٱلرَّقِيبُ ٱلْحَاضِرُ ؟!

والله الموفق، وبه أستعين

*

خواتيم النسخ الخطية لمتن الحكم العطائية

خاتمة النسخة (أ)

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وآل كل وسائر الصالحين ، ورضي الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين لهم إلى يوم الدين

وهاذا ما أمكن نقله من كلامه رضي الله عنه ، وجمع شملنا به في دار السلام ؛ إنه صاحب الفضل والإنعام ، ذو الجلال والإكرام

تم كتاب « الحكم » بحمد الله وعونه ؛ على يد أفقر عباد الله وأحوجهم إلى رحمة ربه الكريم ؛ أحمد بن حسن الأذرعي الشافعي الشهير بالإمام ، بالقاهرة المحروسة صانها الله وسائر بلاد الإسلام ، في العشر الأول من المحرم سنة خمس وعشرين وثمان مئة

خاتمة النسخة (ب)

وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على محمد وآله أجمعين ، تم

وقع تحرير هاذه الرسالة وتحشيتها بمكة المشرفة ؛ على يد العبد الضعيف الواثق بالملك الهادي ؛ أحمد بن علي العمادي ، بتاريخ سنة سبع وأربعين وتسع مئة ، والحمد لله أولاً وآخراً ، باطناً وظاهراً

خاتمة النسخة (ج)

والله الموفق للصواب ، وبه أستعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أفضل التسليم ، وكتب ذلك في تاريخ اليوم المبارك ، الثامن من شهر رمضان المعظم قدره وحرمته ، سنة ثلاث وستين وتسع مئة مضت من الهجرة النبوية .

خاتمة النسخة (د)

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وسلم ، في أول يوم شهر ذي الحجة سنة (٩٨١ هـ)

خاتمة النسخة (هـ)

تمت « الحكم » للعارف ابن عطاء الله السكندري المالكي بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، في أقسام ثواني دقائق درج الساعة السابعة من يوم السبت المبارك ، سادس عشر الحجة الحرام ، ختام العام السادس والسبعين بعد الألف ، علىٰ يد العبد الفقير ؛ عبد الرحمـٰن بن المرحوم الشيخ علي (. . .) المالكي ، غفر الله له ولوالديه ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم ، آمين .

يـا واقفـاً علـى الـذي ... جمعتـه بـالله جُـدْ

بـدعـوةٍ تجمعنـا ... وإن تَجِـدْ عيبـاً فسُـدْ

* * *

التنبيه

شرح الحكم العطائية

المشتهر بـ «غيث المواهب العلية»

تأليف

إمام المحققين وسيد العارفين

أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن عباد النفزي

الحميري الرندي المالكي

(٧٣٣ - ٧٩٢ هـ)

حقق على ست نسخ خطية منتخبة نفيسة

شرف بخدمته

أنس محمد عدنان الشرقاوي

دار التقوى

دمشق الشام

ديباجة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قالَ الفقيرُ إلى اللهِ تعالى ، المعتمدُ في غفرانِ ذنوبِهِ على اللهِ تعالى ، الشيخُ الإمامُ العالمُ ، العارفُ باللهِ تعالى الصالحُ الزاهدُ ؛ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ عبَّادٍ النَّفْزِيُّ الرُّنْدِيُّ(١) ، لطفَ اللهُ بهِ(٢)

الحمدُ للهِ المنفردِ بالعظمةِ والجلالِ ، المتوحِّدِ باستحقاقِ نعوتِ الكمالِ ، المنزَّهِ عنِ الشركاءِ والنظراءِ والأمثالِ ، المقدَّسِ عن سماتِ الحَدَثِ مِنَ التغييرِ والانتقالِ ، والاتصالِ والانفصالِ ، عالِمِ الغيبِ والشهادةِ الكبيرِ المتعالِ

والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِنا محمدٍ الهادي مِنَ الضلالِ ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ خَلَصَتْ لهمُ الأعمالُ ، وصفَتْ لهمُ الأحوالُ ، وعلى جميعِ مَنِ اتَّبَعَهم فيما لهم مِنْ محامدِ الصفاتِ ومحاسنِ الخلالِ ، وسلَّمْ تسليماً كثيراً

أما بعد :

فإنَّا لمَّا رأينا كتابَ « الحكمِ » المنسوبَ(٣) إلى الشيخِ الإمامِ المحقِّقِ العارفِ المكاشَفِ الوليِّ ؛ أبي الفضلِ تاجِ الدينِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ عبدِ الكريمِ ابنِ

---

(١) قوله : (محمد) هو بفتح الميم كما نبَّهَ عليه العلامة الكتاني في « سلوة الأنفاس » (٢/ ١٤٩) تمييزاً له عن مضموم الميم ، مع بقاء التشديد والفتح في الميم الثانية ، وانظر (ص ٢٧) .

(٢) وقع التدبيج في (ب) : (قال الشيخ الإمام المحقق ، العبد الفقير إلى الله تعالى ، المعتمد في غفران ذنوبه على الله ، محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي ، لطف الله به) .

(٣) حيث يقال : « حكم ابن عطاء الله » أو : « الحكم العطائية » ، ولم يرد التشكيك في نسبته إليه .

عطاءِ اللهِ الإسكندريِّ[١] ـ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ونفعَنا بهِ ـ **مِنْ أفضلِ ما صُنِّفَ في علمِ التوحيدِ ، وأجلِّ ما اعتمدَهُ بالتفهُّمِ والتحفُّظِ كلُّ سالكٍ ومريدٍ** ؛ لكونِهِ صغيرَ الجِرْمِ ، عظيمَ العلمِ ، ذا عباراتٍ رائقةٍ ، ومعانٍ حسنةٍ فائقةٍ ، قصدَ فيها إلىٰ إيضاحِ طُرُقاتِ العارفينَ والموحِّدينَ ، وإبانةِ مناهجِ السالكينَ والمتجرِّدينَ . . **أخذْنا في وضعِ تنبيهٍ يكونُ كالشرحِ لبعضِ معانيهِ الظاهرةِ**[٢] ، وكالكشفِ للُمْعةٍ يسيرةٍ مِنْ أنوارِهِ الباهرةِ ، ولا قدرةَ لنا على استيفاءِ جميعِ ما اشتملَ عليهِ الكتابُ ، وما تضمَّنَهُ مِنْ لبِّ اللُّبابِ ؛ لأنَّ كلامَ الأولياءِ والعلماءِ منطوٍ علىٰ أسرارٍ مصونةٍ ، وجواهرِ حِكمٍ مكنونةٍ ، لا يكشفُها إلا هم ، ولا تتبيَّنُ حقائقُها إلا بالتلقِّي عنهم

ونحنُ في هـٰذهِ الكلماتِ التي نوردُها ، والمناحي التي نعتمدُها . . **غيرُ مدَّعينَ لشرحِ كلامِ المؤلِّفِ** ، ولا أنَّ ما نذكرُهُ فيهِ هو حقيقةُ مواهِبِهم حسَبَ ما يفعلُهُ كلُّ مصنِّفٍ[٣] ؛ فإنَّا إنِ ادَّعينا ذلكَ كانَ منَّا إساءةَ أدبٍ ، يؤولُ بنا والعياذُ باللهِ إلى العطبِ ، وكنَّا قد تعرَّضْنا للخطرِ والضررِ ، في تعاطي ما لا يليقُ بنا مِنْ شرحِ كلامِ السادةِ مِنْ أهلِ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ خوفٍ ولا حذرٍ

وإنَّما نوردُ ذلكَ علىٰ حسَبِ ما فهمناهُ مِنْ كلامِهم ، وما انتهىٰ إلينا علمُهُ مِنْ مذاهِبِهم ، فإنْ وافقْنا فيهِ حقيقةَ الأمرِ ، وعثرنا علىٰ مكنونِ السرِّ . . كانَ ذلكَ مِنَ النعمِ التي لا نُحصي لها شكراً ، ولا نقدرُ لها قدراً ، وإنْ خالفنا ذلكَ ، ولم نهتدِ إلىٰ تلكَ المسالكِ . . أحلناهُ علىٰ نقصانِنا وجهلِنا ، وانتفىٰ عنَّا التغريرُ بقولِنا وفعلِنا ، واقتصرَ الأمرُ في ذلكَ علينا ، وكانوا هم مبرَّئينَ ممَّا قلنا ونوينا

فلا جرمَ أنْ كانَ هـٰذا مقصدَنا ؛ لوجودِ السلامةِ التي جعلناها معتمدَنا . . فينبغي لنا أنْ نقدِّمَ أوَّلاً كلامَ المؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ مستوفىً ، ثم نتبعَهُ كلامَنا بصيغةِ الخبرِ

(١) كذا النسبة في جميع النسخ المعتمدة ، وقولهم : (السكندري) لحن شائع

(٢) حتىٰ عُرف الكتاب باسم « التنبيه » ، وانظر الحديث عن ذلك (ص ٥٧) .

(٣) في (أ) : (مذاهبهم) بدل (مواهبهم)

والدعوىٰ ، ونأتيَ فيهِ بعبارةٍ أبسطَ مِنْ عبارتِهِ ، وإشارةٍ أجلىٰ مِنْ إشارتِهِ ؛ ليُفهمَ بذلكَ ما عندَنا مِنْ تفسيرِ ما ذكرَهُ ، لا أنَّهُ تفسيرُهُ حقيقةً مقررةً ، ونذكرَ في أثنائِهِ كثيراً ممَّا ناسبَ عندي الكلامَ المنبَّهَ عليهِ[1] ؛ لتتمَّ بذلكَ الفائدةُ في الغرضِ المتوجَّهِ إليهِ ، وما ظهرَ لنا في كلامِهِ ؛ مِنْ تكرارِ معانٍ ، وتداخلِ فروعٍ ومبانٍ . . رأينا التنبيهَ عليهِ كالفرضِ ، وأحلنا بعضَهُ علىٰ بعضٍ .

وعلى الناسخِ لهـٰذا المجموعِ أنْ يَتْبعَ فيهِ ما رسمناهُ ، ويكتبَ نصَّ كلامِ المصنِّفِ بصِبْغٍ يخالفُ لونُهُ لونَ ما يُكتبُ بهِ سواهُ ، أو يكتبَهُما بقلمينِ مختلفينِ في الغِلَظِ والرِّقةِ ، ويوفِّيَ بذلكَ كلّاً منهما حقَّهُ ؛ ليكونَ ذلكَ أقربَ إلىٰ حصولِ المرامِ ، في استخراجِ فائدةِ ترتيبِ الكلامِ[2] ، واللهُ الموفِّقُ لا ربَّ غيرُهُ ، ولا خيرَ إلا خيرُهُ .

داعية تأليف الكتاب

والذي حملَني علىٰ وضعِهِ ، وتكلُّفِ تصنيفِهِ وجمعِهِ ، بعدَ تقدُّمِ إرادةِ اللهِ تعالى التي لا تُغلبُ ، وتقديرِهِ الذي ليسَ للعبدِ منهُ مَنْجىً ولا مهربٌ ، ثم الرأيِ الذي رأيناهُ مِنَ المطالبِ المعظَّمة ، ونبَّهنا عليهِ في صدْرِ هـٰذهِ المقدمةِ[3] . . إلحاحُ بعضِ الأصحابِ في ذلكَ عليَّ ، وتردادُهم بالمسألةِ إليَّ ؛ لكونِهم على اعتقادٍ صحيحٍ في هـٰذهِ الطريقةِ ، ومحبةٍ خالصةٍ لأهلِ الحقيقةِ ، فأسعفتُهم بما طلبوهُ ، وحقَّقْتُ لهمُ

---

(١) في (أ) : (مما يناسب عندي من الكلام المنبه عليه) .

(٢) وزيادة علىٰ ذلك جُعل كلام صاحب « الحكم » كما سترىٰ ضمن إطار مستقل

(٣) أراد بالرأي قوله قبلُ (ص ١٥٣) : (فإنا لمَّا رأينا كتاب « الحكم » . . .) إلىٰ قوله : (أخذنا في وضع تنبيه يكون كالشرح) ، فكأنه يقول : سبب تصنيفي لهـٰذا الكتاب أمورٌ : فالأول سبق الإرادة الأزلية بذلك ، والثاني : عظمةُ قدر كتاب « الحكم » واحتياجُهُ إلىٰ تنبيه كالشرح يُوصِل إلىٰ نفائسه ودرره ، والثالث : إلحاحُ الأصحاب بوضع شرح عليه ، فقوله : (ثم الرأي) معطوف علىٰ قوله : (تقدم إرادة الله تعالىٰ) ، وقوله الآتي : (إلحاح) هو خبر لقوله قبلُ : (والذي) .

الأملَ فيما رغبوهُ ، كما شاءَ اللهُ تعالىٰ وحكمَ ، وقضىٰ بهِ علينا وحتَمَ ، نفعَنا اللهُ وإيَّاهم بما يجري منهُ علىٰ يَدَيْنا ، ولا جعلَهُ حجَّةً عليهم ولا علينا

ونحنُ نستغفرُ اللهَ ممَّا تعاطيناهُ مِنَ الأمرِ العظيمِ ، واقتحمناهُ مِنَ الخطرِ الجسيمِ ، ونستعيذُ بهِ مِنَ الوقوعِ في حبائلِ العدوِّ الرجيمِ(١) ، ونسألُهُ توفيقاً يوقفُنا علىٰ جادَّةِ الاستقامةِ ، ويصرفُنا عنِ العملِ بما يعقبُ ملامةً وندامةً ، ونرجوهُ معَ هـٰذا إذْ مَنَّ علينا بالانتماءِ إلىٰ مذاهبِهم(٢) ، والانتسابِ إلىٰ كريمِ مناسِبِهم(٣) ، والتعلُّقِ بأذيالِهم ، ومحاولةِ النسْجِ علىٰ منوالِهم ، ورزقَنا شيئاً مِنْ تعظيمِهم وحبِّهم ، وقِسْطاً مِنْ تكريمِهم وبرِّهم . . ألا يحرِمَنا مِنْ شفاعتِهم ، ولا يخرجَنا مِنْ كَنَفِ ولايتِهم ، ولا يطردَنا عن بابِهمُ الكريمِ ، ولا يصرفَنا عن منهجِهمُ القويمِ ؛ فهمُ القومُ لا يشقىٰ بهم جليسُهم(٤)

لِـي سَـادَةٌ مِـنْ عِـزِّهِـمْ ... أَقْـدَامُهُـمْ فَـوْقَ ٱلْجِبَـاهْ
إِنْ لَـمْ أَكُـنْ مِنْهُـمْ فَلِـي ... فِـي ذِكْـرِهِـمْ عِـزٌّ وَجَـاهْ(٥)

---

(١) الحبائل : جمع حِبالة ؛ وهي المصيدة ، من حبلٍ كانت أو غيره

(٢) الإشارة في قوله : (مع هـٰذا) راجعة إلىٰ ما تقدم الاستغفار منه ؛ وهو تعاطي الأمر العظيم ، واقتحام الخطر الجسيم ؛ فكأنه قال : ونرجوه مع خوفنا منه سبحانه ؛ حيث منَّ علينا بالانتماء للقوم ، إلىٰ آخر ما سيذكر ، ومفعول (نرجوه) هو المصدر المؤول من قوله الآتي : (ألا يحرمنا) وما عُطف عليه .

(٣) قوله : (مَناسِبهم) الظاهر : أنه بفتح الميم ؛ جمع مَنْسب ؛ وفي « لسان العرب » (ق ص ر) حكىٰ قول زغبة الباهلي يصف فرسه : (من الوافر)

وذات مَنَـاسِـبٍ جـرداء بكـرٍ ... كـأن سـراتَهـا كـرٌّ مَشِيـقُ

ثم قال : (وذات مناسب : يريد : فرساً منسوبةً من قبل الأب والأم) .

أو هو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، فهو بضم الميم ، والمعنىٰ : إلىٰ مُناسبهم الكريم .

(٤) إشارة إلىٰ خاتمة ما رواه البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ؛ وهو قوله عليه الصلاة والسلام يحكي عن المولىٰ تبارك وتعالىٰ : « هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسُهم » .

(٥) البيتان من مجزوء الرجز ، كان ينشدهما الإمام العارف بالله تعالىٰ أبو العباس المرسي إذا ذكر شيخَهُ=

اللهمَّ ؛ إنَّا نتوسَّلُ إليكَ بحبِّهم ؛ فإنَّهم أحبوكَ ، ولم يحبُّوكَ حتىٰ أحببتَهم ، فبحبِّكَ إيَّاهم وصلوا إلىٰ حبِّكَ ، ونحنُ لم نصلْ إلىٰ حبِّهم فيكَ إلا بحظِّنا منكَ ، فتمِّمْ لنا ذلكَ حتىٰ نلقاكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا ومولانا محمدٍ خاتمِ النبيِّينَ ، وعلىٰ آلِهِ الطيِّبينَ الطاهرينَ ، وتابعيهم بإحسانٍ إلىٰ يومِ الدينِ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً

وهـٰذا حينُ أبتدئُ وباللهِ التوفيقُ[1] ، والهدايةُ إلىٰ سواءِ الطريقِ

* *

= الإمام العارف بالله تعالىٰ أبا الحسن الشاذلي ، كذا في « لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن » (ص ١٢٠) ، وإليه الإشارة بعدُ بـ« لطائف المنن » .

(١) قوله : (حينُ) هو خبر (هـٰذا) ، وإنما أعرب هنا لإضافته إلى فعل معرب.

الباب الأول
من علامة الاعتماد

الحكمة الأولى (*)

قال المصنف رضي الله عنه[1] :

مِنْ عَلامَةِ ٱلِاعْتِمَادِ عَلَى ٱلْعَمَلِ ، نُقْصَانُ ٱلرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ ٱلزَّلَلِ .

أقولُ : الاعتمادُ على اللهِ تعالىٰ نعتُ العارفينَ الموحِّدينَ ، والاعتمادُ علىٰ غيرِهِ وصْفُ الجاهلينَ الغافلينَ ، كائناً ما كانَ ذلكَ الغيرُ ؛ حتىٰ علومِهم وأعمالِهم وأحوالِهم[2] .

أمَّا العارفونَ الموحِّدونَ : فإنَّهم علىٰ بساطِ القُرْبِ والمشاهدةِ ناظرونَ إلىٰ ربِّهم ، فانونَ عن أنفسِهم ، فإذا وقعوا في زلَّةٍ ، أو أصابَتْهم غفلةٌ . . شهدوا تصريفَ الحقِّ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الأسباب العادية لا تأثير لها ، وإنما هي جعلية لحكمة إلـٰهية ، وإلىٰ أن مُعتقِد تأثيرها من دونه سبحانَهُ مختلف فيه بين كفر وابتداع .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « قال الله تبارك وتعالىٰ : يا بنَ آدمَ ؛ إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كانَ فيكَ ولا أبالي » ، رواه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(١) قال العلامة زروق معللاً الابتداء بهـٰذه الحكمة دون غيرها في « الطرر والحواشي » (ص ٢٥) : (لأن الاعتماد على الشيء في حصول قصده يوجب طلبَهُ ، واستشعارَ فوات المقصود بوجود ضده ، وهـٰذه أول المقاصد التي تتوجه للعبد عند إرادة الحق ؛ إذ لا تنبعث النفس إلا لسبب تعتمده فيما تريده) .

(٢) أراد بمعنىٰ ما بعد (حتى) الجارة : المعتمدين علىٰ علومهم أو أعمالهم أو أحوالهم ، قال العلامة زروق في « الشرح الحادي عشر » (ص ٢٥) : (الاعتماد : حصرُ القوة في الشيء ، وهو أول الحركات النفسانية) .

تعالىٰ لهم ، وجريانَ قضائِهِ عليهم ، كما أنَّهم إذا صدرَتْ منهم طاعةٌ ، أو لاحَ عليهم لائحٌ مِنْ يقظةٍ . . لم يشهدوا في ذلكَ أنفسَهم ، ولم يرَوْا فيها حَوْلَهم ولا قوَّتَهم ؛ لأنَّ السابقَ إلىٰ قلوبِهم ذكْرُ ربِّهم ، فأنفسُهم مطمئنةٌ تحتَ جريانِ أقدارِهِ ، وقلوبُهم ساكنةٌ بما لاحَ لها مِنْ أنوارِهِ ، ولا فرقَ عندَهم بينَ الحالينِ ؛ لأنَّهم غرقىٰ في بحارِ التوحيدِ ، قدِ استوىٰ خوفُهم ورجاؤُهم ، فلا ينقُصُ مِنْ خوفِهم ما يجتنبونَهُ مِنَ العصيانِ ، ولا يزيدُ في رجائِهم ما يأتونَ بهِ مِنَ الإحسانِ .

قالَ شارحُ « المجالسِ »[1] : (العارفونَ قائمونَ باللهِ ، قد تولَّى اللهُ أمرَهم ، فإذا ظهرَتْ منهم طاعةٌ لم يرجوا عليها ثواباً ؛ لأنَّهم لم يرَوْا أنفسَهم عُمَّالاً لها ، وإنْ ظهرَتْ منهم زلَّةٌ فالدِّيَةُ على القاتلِ[2] ، لم يشاهدوا غيرَهُ في الشدةِ والرخاءِ ، قيامُهم باللهِ ، ونظرُهم إليهِ ، وخوفُهم هيبتُهم لهُ ، ورجاؤُهمُ الأُنْسُ بهِ) انتهىٰ

وأمَّا غيرُهم : فبقُوا معَ أنفسِهم في نسبةِ الأفعالِ إليها ، وطلبِ الحظوظِ لها وعليها[3] ، فاعتمدوا علىٰ أعمالِهم ، وسكنوا إلىٰ أحوالِهم ، فإذا وقعوا في زَلَّةٍ نقصَ بذلكَ رجاؤُهم ، كما أنَّهم إذا عملوا طاعةً جعلوها مِنْ أعظمِ عُدَدِهم ، وأقوىٰ معتمدِهم ، فتعلَّقوا بالأسبابِ ، وحُجِبوا بتفرُّقِهم بها عن ربِّ الأربابِ

---

(١) قوله : (« المجالس ») هو كتاب « محاسن المجالس » للإمام ابن العريف الصنهاجي ، المتوفىٰ سنة (٥٢٦هـ) ، وشارحه : هو الإمام ابن دهاق المالكي ، المتوفىٰ سنة (٦١١هـ)

(٢) في (أ) وحدها : (العاقلة) بدل (القاتل) ، ولعل المثبت أولىٰ وإن كان للعاقلة مدخلٌ في الدية ؛ إذ المراد هنا : توحيد الأفعال المعبَّر عنه بوحدة الشهود ، ولا يخفىٰ أن الفعل من حيث الإيجاد لله وحده ، وليس للعبد فيه غير الكسب ، وبه تعلم جهل المشركين حينما قالوا ـ فيما رواه الطبري في « تفسيره » (١٣٨١٣) ـ للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الشاة إذا ماتت : من قتلها ؟ فقال : « اللهُ قتلَها » ، قالوا : فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال ، وما قتله الله حرام ؟!

والرد عليهم : أن ما ذُبِحَ هو مما قتل الله تعالىٰ أيضاً ، ولـٰكنه تعالىٰ له أن يجعل ما شاء علامة علىٰ حلٍّ أو حرمة ، وانظر « تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول » (ص١٢) .

(٣) سقطت الواو من قوله : (وعليها) في (ج) ، وهي مقحمة في (ب) ، ولا يخفىٰ توجيه ذلك .

فمَنْ وجدَ هـٰذهِ العلامةَ في نفسِهِ فليعرفْ منزلتَهُ وقدرَهُ ، ولا يتعدَّ طورَهُ ، فيدَّعيَ مقاماتِ الخاصَّةِ مِنَ المقرَّبينَ ، وإنَّما هو مِنْ عامَّةِ أصحابِ اليمينِ ، وسيأتي إشاراتٌ إلىٰ هـٰذا المعنىٰ في مواضعَ مِنْ كلامِ المؤلِّفِ .

وقد ذكرَ الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السلميُّ والحافظُ أبو نُعَيمٍ الأصبهانيُّ : عن يوسفَ بنِ الحسينِ الرازيِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : عارضَني بعضُ الناسِ في كلامٍ وقالَ لي (لا تستدركُ مرادَكَ مِنْ عملِكَ إلا أنْ تتوبَ ، فقلتُ مجيباً : لو أنَّ التوبةَ تطرقُ بابي ما أذنتُ لها علىٰ أنِّي أنجو بها مِنْ ربِّي ، ولو أنَّ الصدقَ والإخلاصَ كانا عبدينِ لي لبعتُهما ؛ زهداً منِّي فيهما ؛ لأنِّي إنْ كنتُ عندَ اللهِ في علمِ الغيبِ سعيداً مقبولاً . . لم أتخلَّفْ باقترافي الذنوبَ والمآثمَ[1] ، وإنْ كنتُ عندَهُ شقيّاً مخذولاً . . لم تسعدْني توبتي وإخلاصي وصدقي ، وأنَّ اللهَ خلقَني إنساناً بلا عملٍ ولا شفيعٍ كانَ لي إليه[2] ، وهداني لدينِهِ الذي ارتضاهُ لنفسِهِ فقالَ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، **فاعتمادي علىٰ فضْلِهِ وكرمِهِ أَولىٰ بي** ـ إنْ كنتُ حرّاً عاقلاً ـ مِنِ اعتمادي علىٰ أفعالي المدخولةِ **وصفاتي المعلولةِ** ؛ لأنَّ مقابلةَ فضلِهِ وكرمِهِ بأفعالِنا مِنْ قلَّةِ المعرفةِ بالكريمِ المتفضِّلِ)[3]

قلتُ : وهـٰذه الحكايةُ وأمثالُها ربَّما تقرعُ سمْعَ مَنْ لا حقيقةَ عندَهُ مِنْ طريقِ القومِ فينكرُ معناها ولا يعتقدُهُ ، أو يسلِّمُهُ ويدعيهِ مقاماً لنفسِهِ ، وكلتا الحالتينِ مؤدِّيةٌ بصاحبِها إلىٰ ضررٍ وخطرٍ ، **فليتَّقِ اللهَ تعالىٰ عبدٌ ليسَ لهُ بصرٌ في هـٰذهِ الطريقةِ أنْ ينكرَ ما ذكرناهُ** ، فيقعَ في الاعتراضِ على السادةِ والأولياءِ ، وفي ذلكَ بُعْدُهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، أو يدَّعيَهُ مقاماً لنفسِهِ مِنْ غيرِ أنْ يَستظهِرَ عليها ويتوثَّقَ منها ، ويَزِنَها بالمعيارِ

---

(١) في (ب ، ج) : (باقترافِ الذنوبِ والآثام) بدل (باقترافي الذنوبَ والآثام) .

(٢) قوله : (وأن الله . . .) معطوف علىٰ قوله قبلُ : (لأني) .

(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٨٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٣٩)

الذي نبَّهنا عليهِ[١] ، ومحالٌ وجودُ ذلكَ ممَّنْ لم يصحِّحْ مقامَ الفناءِ عنِ النفسِ ، فيرتكبَ حينَئذٍ مساخطَ اللهِ تعالىٰ ، ويتعدَّىٰ حدودَهُ ، ويجعلَ ذلكَ حجَّةً لنفسِهِ ؛ غلطاً وجهلاً ، وهـٰذا بابٌ مِنَ أبوابِ الزندقةِ والعياذُ باللهِ تعالىٰ[٢]

* * *

(١) في صفة العارفين المتحققين ، وقوله : (يستظهر) أراد : يقيم عليها حجةً وبرهاناً

(٢) وعند الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٣٦١) مما يخصُّ معنىٰ هـٰذه الحكمة الفذَّة . . قول الإمام يحيى بن معاذ الرازي : (يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال ؛ لأني أجدُني أعتمد في الأعمال على الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ؟! وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ؟!) .

الحكمة الثانية (*)

إِرَادَتُكَ ٱلتَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ ٱللهِ إِيَّاكَ فِي ٱلْأَسْبَابِ . . مِنَ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْخَفِيَّةِ ، وَإِرَادَتُكَ ٱلْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ ٱللهِ إِيَّاكَ فِي ٱلتَّجْرِيدِ . . ٱنْحِطَاطٌ عَنِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْعَلِيَّةِ .

الأسبابُ ها هنا : عبارةٌ عمَّا يُتوصَّلُ بهِ إلىٰ غرضٍ ما يُنالُ في الدنيا

والتجريدُ : عبارةٌ عن عدمِ تشاغلِهِ بتلكَ الأسبابِ لأجلِ ذلكَ .

فمَنْ أقامَهُ الحقُّ تعالىٰ في الأسبابِ ، وأرادَ هو الخروجَ منها . . فذلكَ مِنْ شهوتِهِ الخفيَّةِ ، وإنَّما كانَتْ مِنَ الشهوةِ ؛ لعدمِ وقوفِهِ معَ مرادِ اللهِ تعالىٰ بهِ ، وإرادتِهِ هو خلافَ ذلكَ ، وإنَّما كانَتْ خفيَّةً ؛ لأنَّهُ لم يقصدْ بذلكَ نيلَ حظٍّ عاجلٍ ، وإنَّما قصدَ بذلكَ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ بكونِهِ علىٰ حالٍ هي أعلىٰ بزعمِهِ ، لـٰكنْ فاتَهُ الأدبُ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تحقيق معنى الكسب ، وشهود الإرادة الحادثة بسبق الإرادة القديمة ، وإثبات صفة الحكمة في الأفعال التي قال بها الماتريدية ، وأنه لا يجب على الله فعل شيء أو تركه ، وأن الله تعالىٰ يجعل ما شاء من الأعمال علامة على الطاعة أو العصيان .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « اللهمَّ ؛ إني أستخيرُكَ بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألكَ من فضلِك العظيم » ، رواه البخاري (٦٣٨٢) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .
وفي هامش (ج) : (إطلاق الأسباب علىٰ أنواع الاكتساب من باب المجاز لا الحقيقة ؛ لأن اعتقاد أن الكسب سبب لما يناله من الدنيا وغيرها . . زندقة ، وفي كفر معتقد ذلك قولان كما هو المنقول ، وأما من ظن أنها بنفسها جالبة للرزق أو سبب له . . فالإجماع علىٰ كفره كما نقله العلامة العارف بالله السيد السنوسي ، فاعلمه . انتهىٰ) ، وانظر « شرح المقدمات » (ص ١٨٨) .

بعدمِ وقوفِهِ معَ مرادِ اللهِ تعالىٰ مِنْ إقامتِهِ إيَّاهُ فيما أقامَهُ فيهِ ، وتطلُّعِهِ إلىٰ مقامٍ رفيعٍ لا يليقُ بهِ في الوقتِ[1]

وعلامةُ إقامتِهِ إيَّاهُ في الأسبابِ أنْ يدومَ لهُ ذلكَ ، وأنْ تحصلَ لهُ ثمرتُهُ ونتيجتُهُ ؛ وذلكَ بأنْ يجدَ عندَ تشاغلِهِ بالأسبابِ سلامةً في دينِهِ ، وقطعاً لطمعِهِ عن غيرِهِ ، وحسنَ نيَّةٍ في صلةِ رحمٍ ، أو إعانةِ فقيرٍ مُعدِمٍ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ فوائدِ المالِ المتعلِّقةِ بالدينِ

ومَنْ أقامَهُ الحقُّ تعالىٰ في التجريدِ ، وأرادَ الخروجَ منهُ إلى الأسبابِ . . فذلكَ مِنِ انحطاطِ همَّتِهِ وسوءِ أدبِهِ ، وكانَ واقفاً معَ شهوتِهِ الجليَّةِ ؛ لأنَّ التجريدَ مقامٌ رفيعٌ أقامَ الحقُّ تعالىٰ فيهِ خواصَّ عبادِهِ مِنَ الموحِّدينَ والعارفينَ ، فإذا أقامَهُ الحقُّ تعالىٰ في مقامِ الخواصِّ ، فلِمَ ينحطُّ عن رتبتِهِم إلىٰ منازلِ أهلِ الانتقاصِ ؟!

قالَ الشيخُ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ رضيَ اللهُ عنهُ (مَنْ لم يأنفْ مِنْ مشاركةِ الأضدادِ في الأسبابِ . . فهو خسيسُ الهمَّةِ)

وعلامةُ إقامتِهِ إيَّاهُ في التجريدِ ما ذكرناهُ مِنَ الدَّوامِ ووجدانِ الثمرةِ ، **ومِنْ ثمراتِ ذلكَ** : طيبُ وقتِ المتجرِّدِ ، وصفاءُ قلبِهِ ، ووجدانُ راحتِهِ مِنْ ملابسةِ الخلْقِ ومخالطتِهِم

والهمَّةُ : حالةٌ للقلبِ ؛ وهي قوَّةُ إرادةٍ وغلبةُ انبعاثٍ إلىٰ نيلِ مقصودٍ ما ، وتكونُ **عاليةً** إنْ تعلَّقَتْ بمعالي الأمورِ ، **وسافلةً** إنْ تعلَّقَتْ بأدانيها

قالَ الشاعرُ[2] [من المتقارب]

---

(١) انظر استئناساً خبر من دعا فقال : (يا رب ؛ لو أعطيتني كل يوم رغيفين من غير تعب . . لكنت أكتفي بهما) الآتي (ص ٢٣٧) ، قال حجة الإسلام في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٢٩٥) : (قد دبَّر الله تعالى الملك والملكوت تدبيراً كافياً لأهل الملك والملكوت ، فمن شاهد هـٰذا التدبير وثق بالمدبِّر ، واشتغل به وآمن ، ونظر إلىٰ مدبِّر الأسباب ، لا إلى الأسباب)

(٢) هو الصاحب بن عبَّاد . انظر « ديوانه » (ص ١٩٠) ، وفيه : (عَرَتْكَ) بدل (علتك) ، =

وَقَـائِلَـةٍ لِـمْ عَلَتْـكَ ٱلْهُمُـومُ وَأَمْـرُكَ مُمْتَثَـلٌ فِـي ٱلأُمَـمْ
فَقُلْـتُ ذَرِينِـي عَلَـىٰ حَـالَتِـي فَـإِنَّ ٱلْهُمُـومَ بِقَـدْرِ ٱلْهِمَـمْ

وقالَ آخرُ[1] [من المتقارب]

إِذَا أَعْطَشَتْـكَ أَكُـفُّ ٱللِّئَـامِ كَفَتْـكَ ٱلْقَنَـاعَـةُ شِبْعـاً وَرِيَّـا
فَكُـنْ رَجُـلاً رِجْلُـهُ فِـي ٱلثَّـرَىٰ وَهَـامَـةُ هِمَّتِـهِ فِـي ٱلثُّـرَيَّـا
فَـإِنَّ إِرَاقَـةَ مَـاءِ ٱلْحَيَـا ةِ دُونَ إِرَاقَـةِ مَـاءِ ٱلْمُحَيَّـا

وما ذكرتُهُ مِنْ معاني الإقامةِ في نوعيِ الأسبابِ والتجريدِ : هو شيءٌ فهمتُهُ ممَّا يقولُهُ بعدَ هـٰذا : (مِنْ علامةِ إقامةِ الحقِّ لكَ في الشيءِ . . إدامتُهُ إيَّاكَ فيهِ معَ حصولِ النتائجِ)[2] ، واللهُ أعلمُ

وقد ذكرَ في « التنويرِ » هـٰذهِ المسألةَ بنصِّها حاكياً عن هـٰذا الكتابِ[3] ، وقالَ بإثرِهِ : (**وافهمْ رحمَكَ اللهُ** : أنَّ مِنْ شأنِ العدوِّ أنْ يأتيَكَ فيما أنتَ فيهِ ممَّا أقامَكَ اللهُ فيهِ ، فيحقرَهُ عندَكَ لتطلبَ غيرَ ما أقامَكَ اللهُ فيهِ ، فيُشوِّشَ عليكَ قلبَكَ[4] ، ويتكدَّرَ وقتُكَ .

وذلكَ أنَّهُ يأتي المتسبِّبينَ فيقولُ : لو تركتُمُ الأسبابَ وتجرَّدْتُم لأشرقَتْ لكمُ الأنوارُ ، ولَصَفَتْ منكمُ القلوبُ والأسرارُ ، قائلاً : وكذلكَ صنعَ فلانٌ وفلانٌ ، ويكونُ هـٰذا العبدُ ليسَ مقصوداً بالتجريدِ ، ولا طاقةَ لهُ بهِ ، إنَّما صلاحُهُ في

= و(غُصَّتي) بدل (حالتي) ، ورواهما له السلمي في « الفتوة » (ص ٧٠)

(١) هو الأستاذ المتكلم أبو الحسن علي بن أحمد النعيمي ، رواها له الحافظ البغدادي في « تاريخ بغداد » (١١/ ٣٣١) ، والحافظ ابن عساكر في « تبيين كذب المفتري » (٢٨٠) .

(٢) انظر (ص ٦٨٨) .

(٣) ذاك قوله في « التنوير » (ص ٢٥٩) : (وفي كلام كتبناه في غير هـٰذا الكتاب : طلبك التجريد مع إقامة الله . . .)

(٤) في « التنوير » (ص ٢٥٩) : (فيتشوش) ، والمثبت اتفقت عليه النسخ المعتمدة

الأسبابِ ، فيتركُها ، فيتزلزلُ إيمانُهُ ، ويذهبُ إيقانُهُ ، ويتوجَّهُ إلى الطلبِ مِنَ الخلْقِ ، وإلى الاهتمامِ بأمرِ الرزقِ ، فيُرمىٰ في بحرِ القطيعةِ ، وذلكَ قصْدُ العدوِّ منهُ ؛ لأنَّهُ إنَّما يأتيكَ في صورةِ ناصحٍ كما أتىٰ أبويكَ فيما أخبرَ اللهُ عنهُ : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠-٢١] كما تقدَّمَ بيانُهُ(١)

وكذلكَ يأتي المتجرِّدينَ ويقولُ لهم : إلىٰ متىٰ تتركونَ الأسبابَ ؟! ألم تعلموا أنَّ تركَ الأسبابِ تتطلَّعُ معَهُ القلوبُ إلىٰ ما في أيدي الناسِ ، ويَفتحُ بابَ الطمعِ ، ولا يمكنُكَ الإسعافُ والإيثارُ ولا القيامُ بالحقوقِ ؟! وعوضَ ما تكونُ منتظراً ما يُفتحُ بهِ عليكَ مِنَ الخلْقِ . . فلو دخلْتَ في الأسبابِ بقيَ غيرُكَ منتظراً ما يُفتحُ عليهِ منكَ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ

ويكونُ هـٰذا العبدُ قد طابَ وقتُهُ ، وانبسطَ نورُهُ ، ووجدَ الراحةَ بالانقطاعِ عنِ الخلْقِ ، فلا يزالُ بهِ حتىٰ يعودَ إلى الأسبابِ ، فتصيبَهُ كُدْرتُها ، وتغشاهُ ظُلْمتُها ، ويعودُ الدائمُ في سببِهِ أحسنَ حالاً منهُ ؛ لأنَّ ذلكَ ما سلكَ طريقاً ثم رجعَ عنها ، ولا قصدَ مقصداً ثم انعطفَ عنهُ ، فافهمْ واعتصمْ باللهِ منهُ ، ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] .

وإنَّما قصدُ الشيطانِ بذلكَ أنْ يمنعَ العبادَ الرضا عنِ اللهِ تعالىٰ فيما هم فيهِ ، وأنْ يخرجَهم عن مختارِ اللهِ لهم إلىٰ مختارِهم لأنفسِهم ، وما أدخلَكَ اللهُ فيهِ تولَّىٰ إعانتَكَ عليهِ ، وما دخلتَ فيهِ بنفسِكَ وَكَلَكَ اللهُ إليهِ ، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى

---

(١) وذاك قوله في « التنوير » (ص ١٠٩) : (فكَّرَ آدم عليه السلام في نفسه ، فعلم أن الخلود في جوار الحبيب هو المطلوب الأسنىٰ ، وانتقاله من الآدمية إلىٰ وصف المَلَكية : إما أن يكون لأن وصف الملكية أفضل ، أو ظنَّ آدم عليه السلام أن ذلك أفضل ، فلمَّا دبَّر في نفسه هـٰذا التدبير . . أكل من الشجرة ، فما أُتي إلا من وجود التدبير ، وكان مراد الحق منه ذلك ؛ ليتنزله إلى الأرض ، ويستخلفه فيها ، فكان هبوطاً في الصورة ، وترقِّياً في المعنىٰ) .

مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] ، **فالمدخلُ الصِّدْقُ : أنْ تدخلَ فيهِ لا بنفسِكَ**[1] **، والمخرجُ الصدقُ أيضاً كذلكَ ، فافهمْ .**

والذي يقتضيهِ الحقُّ منكَ : أنْ تمكثَ حيثُ أقامَكَ حتىٰ يكونَ الحقُّ سبحانَهُ هو الذي يتولَّىٰ إخراجَكَ كما تولَّىٰ إدخالَكَ ، وليسَ الشأنُ أنْ تتركَ السببَ ، بلِ الشأنُ أنْ يتركَكَ السببُ .

قالَ بعضُهم[2] : تركتُ السببَ كذا كذا مرةً فعدتُ إليهِ ، ثم تركَني السببُ فلم أعدْ إليهِ[3] .

ودخلتُ على الشيخِ رضيَ اللهُ عنهُ وفي نفسي العزمُ على التجريدِ[4] ، قائلاً في نفسي : إنَّ الوصولَ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ بعيدٌ معَ الاشتغالِ بالعلمِ الظاهرِ ووجودِ المخالطةِ للناسِ ، فقالَ لي مِنْ غيرِ أنْ أسألَهُ : صحبَني إنسانٌ مشتغلٌ بالعلومِ الظاهرةِ ومتصدِّرٌ فيها ، فذاقَ مِنْ هـٰذهِ الطريقِ شيئاً ، فجاءَ إليَّ فقالَ : يا سيدي ؛ أخرجُ عمَّا أنا فيهِ وأتفرَّغُ لصحبتِكَ ؟ فقلتُ لهُ : ليسَ الشأنُ ذا ، ولـٰكنِ امكثْ فيما أنتَ فيهِ ، وما قسمَ اللهُ لكَ علىٰ أيدينا فهو إليكَ واصلٌ ، ثم قالَ الشيخُ ونظرَ إليَّ وهـٰكذا شأنُ الصدِّيقينَ ؛ لا يخرجونَ مِنْ شيءٍ حتىٰ يكونَ الحقُّ سبحانَهُ هو الذي يتولَّىٰ إخراجَهم .

فخرجتُ مِنْ عندِهِ وقد غسلَ اللهُ تلكَ الخواطرَ مِنْ قلبي ، ووجدتُ الراحةَ بالتسليمِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولـٰكنَّهم كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هُمُ

---

(١) كذا في جميع النسخ المعتمدة ، والضمير في (فيه) عائد على الأمر المدخول فيه ، وهو كذلك في بعض نسخ « التنوير » ، وفيها : (به) بدل (فيه) فيعود على الله تعالىٰ .

(٢) هو أبو حفص الحداد رحمه الله تعالىٰ كما في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٩٨) .

(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١١٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٣٠) وفيهما : (العمل) بدل (السبب) ، ومعنىٰ (تركني السبب) : نفرت نفسي عنه .

(٤) لا يزال الكلام لابن عطاء الله ، وشيخه هنا : هو العارف بالله أبو العباس المرسي .

ٱلْقَوْمُ لا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ ») انتهىٰ كلامُهُ في « التنويرِ » في هـٰذا المعنىٰ[1] ، وهو كلامٌ حسنٌ ، وإنَّما أثبتناهُ ها هنا علىٰ طولِهِ لأنَّهُ تولَّىٰ فيهِ بيانَ مسألتِهِ التي ذكرَها في هـٰذا الكتابِ بنفسِهِ بياناً شافياً ، فنقلناهُ بلفظِهِ ، ووددْنا لو أنَّ جميعَ مسائلِهِ تكونُ هـٰكذا

* *

(١) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٥٩) ، وتقدم الحديث المرفوع تعليقاً (ص ١٥٦) .

الحكمة الثالثة (*)

سَوَابِقُ ٱلْهِمَمِ لا تَخْرِقُ أَسْوَارَ ٱلْأَقْدَارِ

الهِمَمُ السوابقُ : هي قوى النفسِ التي تنفعلُ عنها بعضُ الموجوداتِ بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، وتسمِّيها الصوفيةُ : همةً ، فيقولونَ أحالَ فلانٌ هِمَّتَهُ علىٰ أمرٍ ما فانفعلَ لهُ ذلكَ[1]

وهٰذهِ الهمَّةُ السابقةُ لا تنفعلُ الأشياءُ عنها إلا بالقضاءِ والقدرِ ، وهو معنىٰ قولِنا : (بإذنِ اللهِ تعالىٰ) ، فهي علىٰ حالِ سبقيَّتِها ونفوذِها لا تخرقُ أسوارَ الأقدارِ ولا تنفذُها[2]

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات صفة الإرادة القديمة ، واعتقاد وحدتها ، واستحالة تخلُّف أثرها ، وعموم تعلُّقها ، والإيمان بالقضاء والقدر ، وأن العملَ والاختيار من جملة مقدورات الحق سبحانَهُ ، وأن أفعال العباد بخلقه سبحانَهُ ، فلا مؤثِّر في فعلٍ سواه تعالىٰ .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة : ٥٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « كلُّ شيءٍ بقدرٍ ، حتى العجزُ والكيسُ » ، رواه مسلم (٢٦٥٥) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(١) كذا العبارة في « مواقع النجوم » (ص ١٢٥) للعارف الحاتمي ، وعن هٰذه الهمة تنشأ كرامات الأولياء بإذن الله تعالىٰ وسابق حكمه

(٢) وبهٰذا القيد يُفهم ما قاله حجة الإسلام الغزالي عن تصرُّفات النفس في العوالم ؛ حيث قال : (وقد تقوى النفس ، ويصفو القلب حتىٰ يؤثر في العوالم ؛ فإن للنفس قوة تأثيرية موجدة) إلىٰ أن قال : (وقد تزيد قوتُها بصفائها واستعدادها ، فتعتقد إنزال الغيث ، وإنبات النبات ، ونحو ذلك من معجزات خارقات للعادات ، فإذا نطقت به كان علىٰ نحوه ، وهٰذه نفوس الأنبياء ، وهي الآيات التي تأيدت بها أحوالهم) ، وهو نصٌّ عزيز ، لم يدون مثله حجة الإسلام الغزالي في كتبه =

وهـٰذهِ الهِمَمُ قد تكونُ للأولياءِ كراماتٍ ، وقد تكونُ لغيرِهمُ استدراجاً ومكراً ؛ كما تكونُ للعائنِ والساحرِ ، وقد ثبتَ أنَّ العينَ حقٌّ[1] ، والسحرَ حقٌّ[2] ، ومعناهُ ما ذكرناهُ[3]

وحاصلُ ذلكَ أنَّهُ يجبُ أنْ يعتقدَ أنَّها أسبابٌ لا تأثيرَ لها ولا فاعليَّةَ ، وأنَّ الفاعلَ هو اللهُ تعالىٰ وحدَهُ ، عندَها لا بها[4]

*

وكأنَّ المؤلِّفَ رحمَهُ اللهُ إنَّما أوردَ هـٰذهِ المسألةَ بينَ يدي كلامِهِ في التدبيرِ ليعرِّفَكَ بذلكَ أنَّ وجودَ التدبيرِ لا جدوىٰ لهُ ولا فائدةَ ؛ لأنَّ الهمَّةَ الفعَّالةَ إذا لم تُفِدْ في خرقِ أسوارِ الأقدارِ شيئاً . . كيفَ يفيدُ في ذلكَ التدبيرُ ؟! وما لا فائدةَ فيهِ فضولٌ لا ينبغي أنْ يتشاغلَ بهِ ويتعبَ فيهِ ذوو العقولِ ، ولذلكَ قالَ :

= المبثوثة ، بل أسمعه تلميذَهُ القاضي أبا بكر بن العربي ، فدوَّنه معترضاً عليه في « العواصم من القواصم » (ص ٢٥) ، والعجيب أنه رحمه الله تعالىٰ حمل القلب والنفس في سياق الحجة على القطعة اللحمية الصنوبرية ، وعلى الدم الجاري في العروق ! وغاب عنه تحذيرُ الحجةِ في « الإحياء » و« الكيمياء » وغيرهما . . الناسَ أن يفهموا ذلك من معانيهما .

(١) رواه البخاري (٥٧٤٠) ، ومسلم (٢١٨٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والعائن : المصيب بالعين ، ويقال للمصاب : معيون ومَعِين .

(٢) لقوله تعالىٰ : ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] ، قال العلامة القرافي في « الفروق » (٤/ ١٢٩٧) : (وما لا حقيقة له لا يُعلم) .

(٣) من كونهما لا تأثير لهما في ذاتهما كسائر الأسباب العادية ، وكلٌّ منهما لا يكونان من النفوس الشريفة كما نبَّهَ الإمام الرازي ، وانظر « الفروق » للقرافي (٤/ ١٢٩٦) .

(٤) فمن شهد انفعالاً عند سببٍ ما لا به فقال : (لا إلـٰه إلا الله) . . صار معنىٰ كلمة التوحيد في هـٰذا المشهد : لا خالقَ إلا الله ، ولا مؤثِّرَ في الوجود إلا الله ، فلا مستحقَّ للعبادة إلا الله ، فلا معبودَ بحقٍّ إلا الله .

الحكمة الرابعة (*)

أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ ٱلتَّدْبِيرِ ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ .

تدبيرُ الخلْقِ لأمورِ دنياهم على الوجْهِ الذي يقولُهُ . . مذمومٌ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ قد تكفَّلَ لهم بذلكَ وقامَ بهِ عنهم ، وطلبَ منهم أنْ يُفرِّغوا قلوبَهم منهُ ، ويقوموا بحقِّ عبوديَّتِهِ ووظائفِ تكليفاتِهِ فقطْ

[بيانُ التدبيرِ المذمومِ ، والتمثيلُ لهُ]

وهو أنْ يقدِّرَ العبدُ لنفسِهِ شؤوناً يكونُ عليها مِنْ أمرِ دنياهُ علىٰ ما تقتضيهِ شهوتُهُ وهواهُ ، ويدبِّرَ لها ما يليقُ بها مِنْ أحوالٍ وأعمالٍ ، ويستعدَّ لذلكَ ويهتمَّ لأجلِهِ

وهـٰذا تعبٌ عظيمٌ استعجلَهُ لنفسِهِ ، ولعلَّ أكثرَ ما يقدِّرُهُ لا يقعُ[1] ، فيخيبُ ظنُّهُ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ نفي تأثير الأسباب العادية ، وأن الله خلق العباد لعبادته ، وأن الإرادة الحادثة مقدورة للقدرة القديمة ، وأن الله تعالىٰ تكفَّل بتدبير شؤون عباده فضلاً منه وكرماً ، وأنه فعلَ لهم ما يصلحهم في باب الهداية لا علىٰ سبيل الوجوب عليه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لو أنكم كنتم توكَّلونَ على الله حقَّ توكلِهِ . . لرزقَكم كما يرزقُ الطيرَ ؛ تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » ، رواه الترمذي (٢٣٤٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

(١) وقد التهمَ التدبيرُ المذموم الأعمارَ ، وذهبت النفس سُدىً آناء الليل وأطراف النهار ، وأمثلته العامة لا تخفىٰ ، وأذكر لك مثالاً في التدبير المذموم في العلم ؛ وهو ما حكاهُ حجة الإسلام إمامنا =

ويبطلُ سعيُهُ ، ثم فيهِ مِنْ تركِ العبوديَّةِ ، ومضادةِ أحكامِ الربوبيَّةِ ، ومنازعةِ القَدَرِ ، وإضاعةِ العُمُرِ . . ما يحملُ العاقلَ على تركِهِ واجتنابِهِ ، وقطعِ موادِّهِ وأسبابِهِ .

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ذروا التدبيرَ والاختيارَ ؛ فإنَّهما يكدِّرانِ على الناسِ عيشَهم)[1]

وقالَ سيدي أبو الحسنِ الشاذليُّ رضيَ اللهُ عنهُ (إنْ كانَ ولا بدَّ مِنَ التدبيرِ فدبِّروا ألا تدبِّروا)[2]

وهٰذهِ المسألةُ أساسُ طريقِ القومِ ، بل هي جملتُهُ وكليَّتُهُ ، والكلامُ فيها طويلٌ وعريضٌ ، وإنَّما اقتصرنا فيها على هٰذا القدْرِ اليسيرِ مِنَ التنبيهِ ؛ لأنَّ المؤلِّفَ رحمَهُ اللهُ أفردَ في هٰذا المعنى كتاباً سمَّاهُ : « التنويرَ في إسقاطِ التدبيرِ » ، أحسنَ فيهِ غايةَ الإحسانِ ، وقرَّبَ الأمرَ فيهِ بحيثُ يُستغنى بهِ عمَّا صُنِّفَ في هٰذهِ الطريقةِ مِنْ ديوانٍ ، فتحصيلُهُ متعيِّنٌ على كلِّ مريدٍ نجيبٍ

* * *

= الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ٢٨٦) حيث قال : (وأما علماء الدنيا : فإنهم يتَّبعون غرائب التفريعات في الحكومات والأقضية ، ويتعبون في وضع صور تنقضي الدهور ولا تقع أبداً ، وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم ، وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة ، ويتركون ما يلازمهم ويتكرَّر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم

وما أبعد عن السعادة من باع مهمَّ نفسه اللازمَ بمهمِّ غيره النادر ؛ إيثاراً للقبول والتقرُّب من الخلق على القرب من الله تعالى ، وشرهاً في أن يسمِّيَهُ البطَّالون من أبناء الدنيا : فاضلاً محقِّقاً عالماً بالدقائق ! وجزاؤه من الله : ألا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق ، بل يتكدَّر عليه صفوه بنوائب الزمان ، ثم يردُ القيامة مفلساً متحسِّراً على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين ، وذلك هو الخسران المبين) .

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٠٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٠١)

(٢) نقله الإمام ابن عطاء الله في « التنوير » (ص ٦٧)

الحكمة الخامسة (*)

أَجْتِهَادُكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ ، وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طَلَبَ مِنْكَ . . دَلِيلٌ عَلَى أنْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ مِنْكَ .

الشيءُ المضمونُ للعبدِ هو رزقُهُ الذي يحصُلُ لهُ بهِ قوامُ وجودِهِ في دنياهُ ، ومعنىٰ كونهِ مضموناً أنَّ اللهَ تعالىٰ تكفَّلَ بذلكَ ، وفرّغَ العبادَ عنهُ ، ولم يطلبْ منهمُ الاجتهادَ في السعْيِ فيهِ ولا الاهتمامَ لهُ[1]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات صفة العلم القديم المحيط بكل معلوم ، وأن أفعاله تعالىٰ هي عين الحكمة لا بها ، ونفوذ الوعد الحق القديم واستحالة تخلُّفه ، وأن ما دلَّ عليه الكلام النفسي لا يتخلَّف ، وأن الكمال المطلق من وصف القديم ، وما سواه يُنسبُ للعبدِ أدباً وإن علم أنه تعالى المنفرد بإيجاده .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « من يكفلُ لي ألا يسألَ الناسَ شيئاً وأتكفَّلُ له بالجنةِ ؟ » ، رواه أبو داود (١٦٤٣) من حديث سيدنا ثوبان رضي الله عنه .

(١) وإلىٰ هـٰذا المضمون أشار الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٢٩٥) بقوله : (لـٰكن دبَّره تدبيراً يصل إلىٰ كل مشتغل بعبادة الله تعالىٰ في كل أسبوع قرصُ شعير أو حشيشٌ يتناوله لا محالة ، والغالب أنه يصل أكثر منه ، بل يصل ما يزيد علىٰ قدر الحاجة والكفاية ، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التنعُّم على الدوام ، ولبس الثياب الناعمة ، وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة) .

وقال في موضع آخر (٨/ ٢٩٦) : (إن اشتغلت بالتقوىٰ والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ـ٣] إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة ، فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته ، وهـٰذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأنَّ إلىٰ ضمانه) .

والشيءُ المطلوبُ مِنَ العبدِ هو العملُ الذي يتوصَّلُ بهِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ، والقُرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ مِنْ عباداتٍ وطاعاتٍ ، ومعنىٰ كونِهِ مطلوباً : أنَّهُ موكولٌ إلى اكتسابِ العبدِ لهُ واجتهادِهِ فيهِ ، ومراعاةِ شروطِهِ وأسبابِهِ وأوقاتِهِ ، بهٰذا جَرَتْ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ في عبادِهِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ في المعنى الأولِ الذي ضَمِنَهُ للعبدِ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾ [العنكبوت : ٦٠] ، وقالَ تعالىٰ في المعنى الثاني الذي طلبَهُ منهُ : ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] .

وقد رُوِيَ في بعضِ الآثارِ عنِ اللهِ تعالىٰ (عبدي ؛ أطعْني فيما أمرتُكَ ، ولا تعلمْني بما يصلحُكَ)(١)

وذُكِرَ في الخبرِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُشَرِّفُونَ ٱلْمُتْرَفِينَ ، وَيَسْتَخِفُّونَ بِٱلْعَابِدِينَ ، وَيَعْمَلُونَ بِٱلْقُرْآنِ مَا وَافَقَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَا خَالَفَ أَهْوَاءَهُمْ تَرَكُوهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، يَسْعَوْنَ فِيمَا يُدْرَكُ بِغَيْرِ سَعْيٍ ؛ مِنَ ٱلْقَدَرِ ٱلْمَقْدُورِ ، وَٱلأَجَلِ ٱلْمَكْتُوبِ ، وَٱلرِّزْقِ ٱلْمَقْسُومِ ، وَلا يَسْعَوْنَ فِيمَا لا يُدْرَكُ إِلا بِٱلسَّعْيِ ؛ مِنَ ٱلْجَزَاءِ ٱلْمَوْفُورِ ، وَٱلسَّعْيِ ٱلْمَشْكُورِ ، وَٱلتِّجَارَةِ ٱلَّتِي لا تَبُورُ ؟! »(٢)

وقالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ (العلمُ كلُّهُ في كلمتينِ لا تتكلَّفْ ما كُفيتَ ، ولا تضيِّعْ ما ٱستُكفيتَ)(٣)

---

(١) رواه الدينوري المالكي في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٨٦) عن يونس بن حبيب رحمه الله تعالىٰ ، قال : (قرأت في بعض كُتُب الله عز وجل : يا بن آدم ؛ أطعني فيما أمرتك ، ولا تعلمني بما يصلحك ، وامدد يديك لبابٍ من العمل . . أفتح لك باباً من الرزق) ، ورواه بلفظ مقارب أحمدُ في « الزهد » (٤٣٣) عن الوليد بن عمرو رحمه الله تعالىٰ

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/١٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١٠٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١١٥٠) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٨٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/٨) ، =

فمَنْ قامَ بهـٰذا الأمرِ علىٰ ما ينبغي لهُ على الوجْهِ الذي ذكرناهُ ؛ مِنَ الاجتهادِ في الأمرِ المطلوبِ منهُ ، وتفريغِ القلبِ مِنَ الأمرِ المضمونِ لهُ .. فقدِ انفتحَتْ لهُ بصيرتُهُ ، وأشرقَ نورُ الحقِّ في قلبِهِ ، وحصلَ علىٰ غايةِ المقصودِ ، ومَنْ عكسَ هـٰذا الأمرَ فهو مطموسُ البصيرةِ ، أعمى القلبِ ، وفعلُهُ دليلٌ علىٰ ذلكَ .

والبصيرةُ : ناظرُ القلبِ[١] ، كما أنَّ البصرَ ناظرُ العينِ ، وناظرُ القلبِ إنَّما ينظرُ إلى العاقبةِ ، والعاقبةُ للمتقينَ ، فالتقوىٰ هي التي يجبُ على العبدِ أنْ يجتهدَ فيها ولا يتوانىٰ ، ويُقْصِرَ عمَّا يمنعُ منها[٢]

وتعبيرُ المؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ بالاجتهادِ : إشعارٌ بأنَّ طلبَ الرزقِ مِنْ غيرِ اجتهادٍ فيهِ غيرُ مقصودٍ بالكلامِ ، وهو كذلكَ ؛ لأنَّهُ مباحٌ ومأذونٌ فيهِ ، فلا يدلُّ ذلكَ على انطماسِ بصيرةِ صاحبِهِ إلا إنِ اقترنَ بهِ تقصيرٌ فيما أُمِرَ بهِ

قالَ في « التنويرِ » في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه : ١٣٢] : (أي : قُمْ بخدمتِنا[٣] ، ونحنُ نقومُ لكَ بقسمتِنا

وهما شيئانِ : شيءٌ ضمنَهُ اللهُ لكَ فلا تتهمْهُ ، وشيءٌ طلبَهُ منكَ فلا تهملْهُ ؛ فمَنِ

= وإنما استُكفي العبدُ العبادةَ ؛ لأنه فعلٌ لا تليق نسبتُهُ إلا بالعبد وصفاً ، بخلاف جميع أفعاله التي هي وصفاً وإيجاداً لا تليق إلا بسيده ومولاه ، وهـٰذا اعتقاد مبني علىٰ أن خالق الفعل لا يوصف به ؛ فخالق الأكل والشرب لا يقال فيه : آكل وشارب ، بل يوصف بتعلقه فقط .

(١) وهي عند المتكلمين قوةُ القلب المدركة ، والبصر الباطن ، قال السيد السند الجرجاني في « التعريفات » (ص ٤٢) : (البصيرة : قوة القلب المنوَّر بنور القدس ، يرىٰ بها حقائق الأشياء وبواطنها ، بمثابة البصر للنفس ، يرىٰ به صور الأشياء وظواهرها ، وهي التي يسميها الحكماء : العاقلة النظرية ، والقوة القدسية)

(٢) يقال : أقصر عن الأمر وقَصَرَ عنه يَقْصُرُ أيضاً ؛ أي : انتهىٰ عنه ، وفي (ب ، ج) العبارة : (فالتقوىٰ هي التي يجب على العبد أن يجتهد فيها لا غير) فقط .

(٣) فيه جواز إطلاق لفظ الخدمة في حق الله سبحانَهُ ، في مراعاة معنى الحضرة الإلـٰهية ؛ إذ اسمه تعالى (الملك) يطلب ذلك لا عن احتياج ، وقد ورد هـٰذا اللفظ في آثار ضعيفة يستأنس بها ، ومعنى الخدمة في حقه سبحانَهُ : الانصياع لأوامره ونواهيه ، فالله السيد والعبدُ قِنُّهُ .

اشتغلَ بما ضُمِنَ لهُ عمَّا طُلِبَ منهُ . . فقد عظُمَ جهلُهُ ، واتَّسعَتْ غفلتُهُ ، وقلَّما ينتبهُ لمَنْ يوقظُهُ ، بل حقيقٌ على العبدِ أنْ يشتغلَ بما طُلِبَ منهُ عمَّا ضُمِنَ لهُ ؛ إذا كانَ سبحانَهُ قد رزقَ أهلَ الجحودِ . . فكيفَ لا يرزقُ أهلَ الشهودِ ؟! وإذا كانَ سبحانَهُ قد أجرىٰ رزقَهُ علىٰ أهلِ الكفرانِ . . فكيفَ لا يُجري رزقَهُ علىٰ أهلِ الإيمانِ ؟!

فقد علمتَ أيُّها العبدُ أنَّ الدنيا مضمونةٌ لكَ ؛ أي : مضمونٌ لكَ منها ما يقومُ بأوَدِكَ[1] ، والآخرةَ مطلوبةٌ منكَ ؛ أي العملُ لها ؛ لقولِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ١٩٧] ، فكيفَ يثبتُ لكَ عقلٌ أو بصيرةٌ واهتمامُكَ فيما ضمنَ لكَ اقتطعَكَ عنِ اهتمامِكَ فيما طلبَ منكَ مِنْ أمرِ الآخرةِ ؟!

حتىٰ قالَ بعضُهم : إنَّ اللهَ ضمنَ لنا الدنيا ، وطلبَ منَّا الآخرةَ ، فليتَهُ ضمِنَ لنا الآخرةَ ، وطلبَ منَّا الدنيا)[2]

* *

(١) انظر ما تقدم في بيان المضمون للعبد تعليقاً (ص ١٧٥)

(٢) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٣٣) ، وفي هامش (ب) : (بلغ مقابلة علىٰ أصل يصح)

الحكمة السادسة (*)

لا يَكُنْ تَأْخِيرُ أَمَدِ ٱلْعَطَاءِ مَعَ ٱلإِلْحَاحِ فِي ٱلدُّعَاءِ مُوجِباً لِيَأْسِكَ ، فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ ٱلإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ ، لا فِيمَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ ، وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يُرِيدُ ، لا فِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي تُرِيدُ

حكمُ العبدِ : ألا يتخيَّرَ شيئاً على مولاهُ ، ولا يجزم بصلاحيةِ حالٍ مِنَ الأحوالِ لهُ ؛ لأنَّهُ جاهلٌ مِنْ كلِّ وجهٍ[1] ، وقد يكرهُ الشيءَ وهو خيرٌ لهُ ، ويحبُّ الشَّيءَ وهوَ شرٌّ لهُ .

قالَ سيدي أبو الحسنِ الشاذليُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تخترْ مِنْ أمرِكَ شيئاً ، واخترْ ألا تختارَ ، وفِرَّ مِنْ ذلكَ المختارِ ، ومِنْ فرارِكَ ومِنْ كلِّ شيءٍ . . إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨])[2]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الدعاء ينفع والأصل فيه العبادة ، وأن نفعه مقضيٌّ ومقدَّر في الأزل ، وأن الحق سبحانَهُ يؤثِّر ولا يتأثَّر ، ويغيِّر ولا يتغيَّر ، وأن الأعمال علامات لا أسباب ، وأنه سبحانَهُ فعَّال لما يريد ، وأن الإجابة فضل ، والردَّ عدل ، وأن الوعد القديم حقٌّ لا يتخلَّف عند الوفاء بالشرط

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [النور : ٥٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يستجابُ لأحدِكم ما لم يعجلْ ؛ يقولُ : دعوتُ فلم يستجبْ لي » ، رواه البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) عبَّر عن هـٰذا المعنى الإمام العارف بالله أبو الحسن الشاذلي في « حزبه الكبير » بقوله : (اللهمَّ ؛ إنَّا قد عجزنا عن دفع الضرِّ عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم ؟!) .

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير » (ص ٦٧) .

ودخلَ رجلٌ على سيدي أبي العباسِ المرسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ وهو لما بهِ[1] ، فقالَ ذلكَ الرجلُ عافاكَ اللهُ يا سيدي ، فسكتَ ولم يجاوبْهُ ، ثم سكتَ ذلكَ الرجلُ ساعةً وقالَ اللهُ يعافيكَ يا سيدي .

فقالَ الشيخُ أبو العباسِ : وأنا ما سألتُ اللهَ العافيةَ ؟! قد سألتُهُ العافيةَ ، والذي أنا فيهِ هو العافيةُ ؛ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قد سألَ اللهَ العافيةَ وقد قالَ : « مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي ، فَالآنَ قَدْ قَطَعَتْ أَبْهَرِي »[2] ، أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ سألَ اللهَ العافيةَ وبعدَ ذلكَ ماتَ مسموماً ، عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ سألَ اللهَ العافيةَ وبعدَ ذلكَ ماتَ مطعوناً ، عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ سألَ اللهَ العافيةَ وبعدَ ذلكَ ماتَ مذبوحاً ، عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ سألَ اللهَ العافيةَ وبعدَ ذلكَ ماتَ مقتولاً ، فإذا سألتَ اللهَ العافيةَ فاسألْهُ العافيةَ مِنْ حيثُ يعلمُها لكَ أنَّها عافيةٌ) انتهى[3]

فعلى العبدِ أنْ يسلمَ نفسَهُ إلى مولاهُ ، ويعتقدَ أنَّ الخيرةَ لهُ في جميعِ ما بهِ يتولاهُ ، وإنْ خالفَ ذلكَ مرادَهُ وهواهُ ، فإذا دعا وطلبَ مِنْ مولاهُ شيئاً يرى أنَّ لهُ فيهِ مصلحةً . أيقنَ بالإجابةِ لا محالةَ ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] ، وقالَ تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦][4] .

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهما قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) قوله : (وهو لما به) أي في الاحتضار ومرض الموت ، كناية مشهورة ، وعند الطبراني في « المعجم الأوسط » (٣١٧٢) في خبر مقتل الفاروق رضي الله عنه : (فقال : أسندوني ، فأسندوه وهو لما به) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٨٠٠٧) بلفظ : « تعادُّني » ، وهي بمعنى : (تعاودني) ، وأبو نعيم في « الطب النبوي » (٨٣) .

(٣) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١١٨) .

(٤) في جميع النسخ بإثبات الياء رسماً في قوله : (الداعي) بدل (الداع) ، وبإثباتها أيضاً في بعض النسخ في (دعاني) بدل (دعان) ، وقراءتهما بإثبات الياء وصلاً هي قراءة إسماعيل وورش عن نافع وأبي عمرو ، انظر « حجة القرءات » لابن زنجلة (ص١٢٦) .

وسلَّمَ يقولُ : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو بِدُعَاءٍ إِلا آتَاهُ ٱللهُ مَا سَأَلَ ، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ ٱلسُّوءِ مِثْلَهُ ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ »(١)

وعن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو إِلا ٱسْتَجَابَ ٱللهُ دَعْوَتَهُ ، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِثْلَهَا سُوءاً ، أَوْ حَطَّ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِهَا ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ »(٢)

فإذاً ؛ الإجابةُ المطلقةُ حاصلةٌ لكلِّ داعٍ بحقٍّ حسَبَ ما وردَ الوعدُ الصدْقُ ، إلا أنَّ الإجابةَ أمرُها إلى اللهِ تعالىٰ ، يجعلُها متىٰ شاءَ ، وقد يكونُ المنعُ وتأخيرُ العطاءِ إجابةً وعطاءً لِمَنْ فهمَ عنِ اللهِ تعالىٰ في ذلكَ ، فلم ييئسِ العبدُ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ إذا رأىٰ منعاً أو تأخيراً وإنْ ألحَّ في دعائِهِ وسؤالِهِ (٣) .

وقد يكونُ تأخيرُ ذلكَ إلى الآخرةِ خيراً لهُ ؛ فقد جاءَ في بعضِ الأخبارِ : يُبعثُ عبدٌ ، فيقولُ اللهُ لهُ : ألم آمرْكَ برفعِ حوائجِكَ إليَّ ؟ فيقولُ نعم ، قد رفعتُها إليكَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ ما سألتَ شيئاً إلا أجبتُكَ فيهِ ، ولـٰكنْ نجَّزْتُ البعضَ في الدنيا ، وما لم أنجِّزْهُ في الدنيا فهو مدَّخرٌ لكَ ، فخذْهُ الآنَ ، حتىٰ يقولُ ذلكَ العبدُ : ليتَهُ لم يقضِ لي حاجةً في الدنيا(٤)

وقد وردَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معنى النهْيِ عنِ الاستعجالِ في إجابةِ الدعاءِ في قولِهِ : « يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولَ : قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي »(٥)

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨١) ، قال العلامة الطيبي في « شرح المشكاة » (٥/ ١٧١١) : (إن قلت : كيف مثَّل جلبَ النفع بدفع الضرر ؟ وما وجه التشبيه ؟ قلت : الوجه : ما هو السائل مفتقر إليه ، وما ليس مستغنياً عنه) .

(٢) رواه معمر بن راشد في « جامعه » (١٩٦٥٠) الملحق بـ « مصنف عبد الرزاق » .

(٣) ولك أن تقرأها : (فلِمَ ييئسُ العبدُ . . .) على الاستفهام الإنكاري، لا الاستئناف.

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٩٣) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ونقل الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » عن المظهري قوله : (من كان له ملالة من الدعاء لا يقبل=

وقد دعا موسىٰ وهارونُ عليهما السلامُ علىٰ فرعونَ فيما أخبرَ اللهُ تعالىٰ بهِ عنهما ؛ حيثُ قالا : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] ، ثم أخبرَ أنَّهُ أجابَ دعاءَهما في قولِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس ٨٩] ، قالوا : وكانَ بينَ قولِ اللهِ لهما : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ وهلاكِ فرعونَ . . أربعونَ سنة[1].

وقالَ سيدي أبو الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ في قولِهِ تعالىٰ ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ أي علىٰ عدمِ استعجالِ ما طلبتُما ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ همُ الذينَ يستعجلونَ الإجابةَ[2].

وناهيكَ شرفاً وحظّاً ما يتحصَّلُ لهُ بسببِ مداومةِ الدعاءِ مِنَ الظفرِ بمحبَّةِ اللهِ تعالىٰ وموافقةِ رضاهُ ؛ فقد رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « إنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُلِحِّينَ فِي ٱلدُّعَاءِ »[3].

وقد جاءَ في الحديثِ قالَ جبريلُ عليهِ السلامُ يا ربِّ ؛ عبدُكَ فلانٌ ، اقضِ

= دعاؤه ؛ لأن الدعاء عبادة ، حصلت الإجابة أو لم تحصل ، فلا ينبغي للمؤمن أن يملَّ من العبادة) ، ثم قال : (وتأخير الإجابة : إما لأنه لم يأتِ وقتُها ؛ فإن لكل شيء وقتاً ، وإما لأنه لم يُقدَّرْ في الأزل قبولُ دعائه في الدنيا ؛ ليُعطىٰ عوضه في الآخرة ، وإما أن يُؤخِّر القبول ليلحَّ ويبالغ في ذلك ؛ فإن الله تعالىٰ يحب الإلحاح في الدعاء ، مع ما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار ، ومن يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له ، ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له) .

(١) روىٰ ذلك الطبري في « تفسيره » (١٧٨٥٦) عن ابن جريج ، وفي « الدر المنثور » (٤/ ٣٨٥) قال : (وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هـٰذه الدعوة أربعين سنة) ، وأخرج ذلك عن مجاهد أيضاً ، وكذا في « تنبيه الغافلين » للسمرقندي (ص ٣٩٢) .

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير » (ص ٢٦٦)

(٣) رواه الطبراني في « الدعاء » (٢٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٧٣) من حديث الصديقة عائشة رضي الله عنها ، والإلحاح في الدعاء : من وصفه صلى الله عليه وسلم ، فعند البخاري (٢٩١٥) من كلام سيدنا الصديق رضي الله عنه : (حسبُك يا رسول الله ، فقد ألححتَ علىٰ ربك) .

لهُ حاجتَهُ ، فيقولُ : دعوا عبدي ؛ فإنّي أحبُّ أنْ أسمعَ صوتَهُ ، رواهُ أنسُ بنُ مالكٍ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، ومقتضىٰ هـٰذا : أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُعجِّلُ اللهُ لهُ نوالَ حاجتِهِ ؛ لكراهيتِهِ صوتَهُ ، وقد رُوِيَ هـٰذا المعنىٰ أيضاً منصوصاً[2] ، فليكنِ العبدُ خائفاً مِنْ ذلكَ عندَ تعجيلِ إجابةِ دعائِهِ .

قالَ أبو محمدٍ عبدُ العزيزِ المهدويُّ رضيَ اللهُ عنهُ[3] : (كلُّ مَنْ لم يكنْ في دعائِهِ تاركاً لاختيارِهِ ، وراضياً باختيارِ الحقِّ . . فهو مستدرجٌ ، وهو ممَّنْ قيلَ لهُ : اقضوا حاجتَهُ ؛ فإنِّي أكرهُ أنْ أسمعَ صوتَهُ ، فإذا كانَ في دعائِهِ معَ اختيارِ الحقِّ تعالىٰ ، لا معَ اختيارِ نفسِهِ . . كانَ مجاباً وإنْ لم يعطَ ، والأعمالُ بخواتيمِها) انتهىٰ .

وقد تكونُ الإجابةُ مرتَّبةً علىٰ شروطٍ لا علمَ للداعينَ بها ، فتتأخَّرُ الإجابةُ لعدمِ وقوعِ ذلكَ أو بعضِهِ ، وذلكَ مثلُ وجودِ الاضطرارِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : ٦٢] ، فرتَّبَ الإجابةَ على الاضطرارِ .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إذا أرادَ اللهُ أنْ يستجيبَ دعاءَ عبدٍ . . رزقَهُ الاضطرارَ في الدعاءِ) .

والاضطرارُ لا يتحقَّقُهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ في جميعِ حالاتِهِ ، قالَ بعضُهم : (المضطرُّ : الذي إذا رفعَ إلى اللهِ يديهِ لم يرَ لنفسِهِ عملاً) ، وهـٰذا حالٌ شريفٌ ، ومقامٌ منيفٌ ، يعزُّ علىٰ أكثرِ الناسِ الوصولُ إليهِ ، فكيفَ يتحقَّقُ ما ينبني عليهِ ؟! وفي المسألةِ التي تأتي بإثرِ هـٰذا تنبيهٌ علىٰ هـٰذا المعنىٰ .

* * *

---

(١) رواه الكلاباذي في « بحر الفوائد » (١/ ٢٣) .

(٢) حيث روى الطبراني في « الدعاء » (٨٧) ، و« المعجم الأوسط » (٨٤٤٢) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه مرفوعاً : « وإنَّ العبد ليدعو الله وهو يبغضه ، فيقول الله عز وجل : يا جبريل ؛ اقضِ لعبدي هـٰذا حاجته وعجِّلها ؛ فإني أكرهُ أن أسمع صوته »

(٣) من أعيان المئة السابعة الهجرية . انظر « شجرة النور الزكية » (١/ ٢٤٣) .

الحكمة السابعة (*)

لا يُشَكِّكَنَّكَ فِي ٱلْوَعْدِ عَدَمُ وُقُوعِ ٱلْمَوْعُودِ وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ؛ لِئَلا يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحاً فِي بَصِيرَتِكَ ، وَإِخْمَاداً لِنُورِ سَرِيرَتِكَ .

الحقُّ سبحانَهُ لا يخلفُ الميعادَ ، فمَنْ وعدَهُ مولاهُ شيئاً وإنْ كانَ متعيِّنَ الزمانِ ، ثم لم يقعْ ذلكَ الموعودُ . فلا ينبغي أنْ يشكِّكَهُ ذلكَ في صدْقِ وعدِ ربِّهِ ، ويجوزُ أنْ يكونَ وقوعُ ذلكَ الوعدِ معلَّقاً علىٰ أسبابٍ وشروطٍ استأثرَ الحقُّ تعالىٰ بعلمِها دونَ العبدِ[1]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تحقُّق نفوذ الوعد القديم ، وشمول العلم القديم ، وأنه تعالىٰ فعَّال لما يريد ، وإثبات صفة الحكمة على القول بها ، واستحالة وقوع الكذب في الكلام النفسي ، وإظهار ماهية العبد بخطاب التكليف .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « سألت الله مسألة وددتُ أني لم أكنْ سألتُهُ » ، رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٢٦) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

(١) ومثل هـٰذا لا سبيل إلىٰ معرفته ، وبعضها لم يحط علماً بها إلا الصفوة من العارفين ، روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥) أن أهل البصرة اجتمعوا في أسواقهم علىٰ إبراهيم بن أدهم ، فقالوا : يا أبا إسحاق ؛ إن الله تعالىٰ يقول : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا ! فقال : يا أهل البصرة ؛ ماتت قلوبكم في عشرة أشياء : أولها : عرفتم الله ولم تؤدُّوا حقه ، والثاني : قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به ، والثالث ادَّعيتم حب رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وتركتم سنته ، والرابع ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ، والخامس : قلتم : نحب الجنة ، ولم تعملوا لها ، والسادس : قلتم نخاف النار ، ورهنتم أنفسكم بها ، والسابع قلتم : إن الموت حق ، ولم تستعدوا له ، والثامن : اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم ، والتاسع أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ، والعاشر : دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .

فعلى العبدِ : أنْ يعرفَ قدرَهُ ، ويتأدَّبَ معَ ربِّهِ ، ويسكنَ إليهِ فيما وعدَهُ بهِ ، ويطمئنَّ إليهِ ، ولا يتشكَّكَ في ذلكَ ولا يتزلزلَ اعتقادُهُ فيهِ ، فمَنْ كانَ علىٰ هـٰذا الوصفِ فهو عارفٌ باللهِ تعالىٰ ، سالمُ البصيرةِ ، منوَّرُ السريرةِ ، وإلا فعلى العكسِ .

* * *

الحكمة الثامنة (*)

إِذَا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ ٱلتَّعَرُّفِ فَلا تُبَالِ مَعَهَا أَنْ قَلَّ عَمَلُكَ ؛ فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ إِلا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱلتَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، وٱلأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ ، وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ؟!

معرفةُ اللهِ تعالىٰ هي غايةُ المطالبِ ، ونهايةُ الآمالِ والمآربِ ، فإذا واجهَ اللهُ تعالىٰ عبدَهُ ببعضِ أسبابِها ، وفتحَ لهُ بابَ التعرُّفِ لهُ منها ، وأوجدَهُ سكينةً وطمأنينةً فيها . . فذلكَ مِنَ النِّعَمِ الجزيلةِ عليهِ ، فينبغي ألا يكترثَ بما يفوتُهُ بسببِ ذلكَ مِنْ أعمالِ البرِّ ، وما يترتَّبُ عليها مِنْ جزيلِ الأجرِ

وليعلمْ : أنَّهُ سلكَ بهِ مسلكَ الخاصَّةِ المقرَّبينَ ، المؤدِّيَ إلىٰ حقائقِ التوحيدِ واليقينِ ، مِنْ غيرِ اكتسابٍ مِنَ العبدِ ولا تعمُّلٍ ، والأعمالُ التي مِنْ شأنِهِ أنْ يتلبَّسَ بها هي باكتسابِهِ وتعمُّلِهِ ، فلا تسلمُ مِنْ دخولِ الآفاتِ عليها ، والمطالبةِ بوجودِ الإخلاصِ فيها ، وقد لا يحصلُ لهُ ما أمَلَهُ مِنَ الثوابِ عندَ مناقشةِ الحسابِ ، وأينَ أحدُهما مِنَ الآخرِ ؟! ومثالُهُ : ما يصابُ بهِ الإنسانُ مِنَ البلايا والشدائدِ التي تنغِّصُ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الأعمال علامات الثواب والعقاب ، وأن لله تعالىٰ أن يجعل ما شاء علامة علىٰ ما شاء ، وأنه سبحانه لا يجب عليه فعل شيء ، وأن العبد أحقر من أن يحيط بشيء من علم الله القديم الذي لا نهاية له ولا حدَّ ، وإلى الإيمان بالقضاء والقدر وأحكام الأزل .
ويطلبُ معناها : في أبواب الرضا ، والصبر ، والمعرفة ، وعجائب القلب ، واليقين ، والحياء ، والخوف ، والرجاء من كتب الرقائق .

عليهِ لذاتِ الدنيا ، وتمنعُهُ مِنْ تكثيرِ أعمالِ البرِّ

فإنَّ مرادَهُ : أنْ يستمرَّ بقاؤُهُ في دنياهُ طيِّبَ العيشِ ناعمَ البالِ ، ويكونَ حالُهُ في طلبِ سعادةِ الآخرةِ حالَ المترفِّهينَ المتودِّعينَ ، فلا تسخو نفسُهُ إلا بالأعمالِ الظاهرةِ التي لا كبيرَ مؤنةٍ عليهِ فيها ولا مشقةٍ ، ولا تقطعُ عليهِ لذَّةً ولا تفوِّتُهُ شهوةً ، **ومرادَ اللهِ منهُ** : أنْ يطهِّرَهُ مِنْ أخلاقِهِ اللئيمةِ ، ويحولَ بينَهُ وبينَ صفاتِهِ الذميمةِ ، ويخرجَهُ مِنْ أسرِ وجودِهِ ، إلىٰ متَّسعِ شهودِهِ

ولا سبيلَ لهُ إلى الوصولِ إلىٰ هـٰذا المقامِ ، علىٰ غايةِ الكمالِ والتمامِ . . **إلا بما يضادُّ مرادَهُ ، ويشوِّشُ عليهِ معتادَهُ**[1] ، ويكونُ حالُهُ حينَئذٍ المعاملةَ بالباطِنِ ، ولا مناسبةَ بينَها وبينَ الأعمالِ الظاهرةِ .

فإذا فهمَ هـٰذا علمَ أنَّ اختيارَ اللهِ تعالىٰ لهُ ومرادَهُ منهُ خيرٌ لهُ مِنِ اختيارِهِ لنفسِهِ ومرادِهِ لها[2]

وقد رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ أنزلتُ بعبدي بلاءً ،

---

(١) ويشعر بقدرة المولىٰ وقهره ، كما نبَّهَ عليه العلامة زروق في « الطرر والحواشي » (ص ٣٥) ، وبه تعلم أن وجهة التعرف على الله تعالىٰ لا تنحصر في الأعمال الظاهرة ، فالمراد يخطو بصدْق الباطنةِ منها أشواطاً ومراحل بل وآفاقاً لا يقطعها بالظاهرة ، وقُلْ مثلَ هـٰذا في الانحطاط إلى الدركات ، وقد مثَّل لذلك العارف الحاتمي في « شطرنج العارفين » ، إلا أن الكلام هنا مخصوص بترقي المعرفة

(٢) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٩٣) : أن عابداً في بني إسرائيل يتعبَّد ، فأُتِيَ في منامه : أن فلانةَ زوجتُك في الجنة ، قال : فلانة ! وما عملها ؟! فجاءها فقال : إني أحببت أن أضيفك ثلاثة أيام ولياليهن ، فقالت : بالرحب والسعة ، قال : فضافها في مكان تعبُّدها تلك الثلاث ؛ يبيت قائماً وتبيت نائمة ، ويصبح صائماً وتصبح مفطرة ، فلمَّا انقضت قال : ما لكِ عملٌ غيرَ هـٰذا ؟ ما أوثقُ عملِكِ عندك ؟ فقالت : يا أخي ؛ ما هو إلا ما رأيت ، إلا خُصيلة واحدة ، قال : ما تلك الخُصيلة ؟ قالت : إني إن كنت في شدة لم أتمنَّ أني كنت في رخاء ، وإن كنت جائعة لم أتمنَّ أني كنت شبعانة ، وإن كنت في شمس لم أتمنَّ أني كنت في فَيْء ، وإن كنت في مرض لم أتمنَّ أني في صحة ، فقال : وأيُّ خصيلة هـٰذه ؟! هـٰذه والله خصيلةٌ تعجِزُ دونها العبَّاد

فدعاني ، فماطلتُهُ بالإجابةِ ، فشكاني ، فقلتُ : عبدي ؛ كيفَ أرحمُكَ مِنْ شيءٍ بهِ أرحمُكَ ؟ !(١)

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « قَالَ ٱللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : إِذَا ٱبْتَلَيْتُ عَبْدِيَ ٱلْمُؤْمِنَ ، فَلَمْ يَشْكُنِي إِلَىٰ عُوَّادِهِ . . أَنْشَطْتُهُ مِنْ عِقَالِي ، وَبَدَّلْتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ ، وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ ، وَيَسْتَأْنِفُ ٱلْعَمَلَ »(٢)

ورُوِيَ عن سعيدٍ المَقْبُرِيِّ قالَ : سمعتُ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ قَالَ ٱللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَبْتَلِي عَبْدِيَ ٱلْمُؤْمِنَ ، فَإِذَا لَمْ يَشْكُ إِلَىٰ عُوَّادِهِ حَلَلْتُ عَنْهُ عُقَدِي ، وَبَدَّلْتُ لَهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ ، وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : ٱسْتَأْنِفِ ٱلْعَمَلَ »(٣)

قالَ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ولقد مرضتُ في سالفِ أيَّامي مرضةً ، فلمَّا شفاني اللهُ تعالىٰ منها مثَّلْتُ في نفسي [بينَ] ما دبَّرَ اللهُ تعالىٰ لي مِنْ هـٰذهِ العلَّةِ في مقدارِ هـٰذهِ المدَّةِ وبينَ عبادةِ الثقلينِ في قدْرِ أيَّامِ علَّتي ؛ فقلتُ : لو خُيِّرْتُ بينَ هـٰذهِ العلَّةِ وبينَ أنْ يكونَ لي عبادةُ الثقلينِ في مقدارِ مدَّتِها . . إلىٰ أيِّهما أميلُ اختياراً ؟ فصحَّ عزمي ودامَ يقيني ووقعَتْ بصيرتي أنَّ مختارَ اللهِ تعالىٰ لي أكثرُ شرفاً ، وأعظمُ خطراً ، وأنفعُ عاقبةً ؛ وهي العلَّةُ التي دبَّرَها لي ، ولا شوبَ فيهِ ؛ إذْ كانَ فعلَهُ ، فشتَّانَ ما بينَ فعلِهِ بكَ لتنجوَ بهِ ، وبينَ فعلِكَ لتنجوَ بهِ .

فلمَّا رأيتُ هـٰذا دقَّ في عيني عبادةُ الثقلينِ مقدارَ تلكَ المدَّةِ في جنبِ ما آتاني ، فصارَتِ العلَّةُ عندي نعمةً ، وصارَتِ النعمةُ مِنَّةً ، وصارَتِ المنَّةُ أملاً ، وصارَ الأملُ

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤٤٥) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٤٩) ، ورواه عن عطاء بن يسار رحمه الله تعالىٰ مرسلاً مالكٌ في « الموطأ » (٢/ ٩٤٠) بنحوه .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣٧٥) ، وكذا مطلعه : (أبتلي) .

عطفاً ، فقلتُ في نفسي : بهٰذا كانوا يستمِرُّونَ في البلاءِ علىٰ طيبِ النفسِ معَ الحقِّ ،

وبهٰذا الذي انكشفَ كانوا يفرحونَ بالبلاءِ) انتهىٰ[١]

فهٰذهِ هي وجهةُ التعرُّفِ التي فتحَها اللهُ تعالىٰ لهُ ، وحصلَتْ لهُ الغِبطةُ بها ، وآثرَها علىٰ عبادةِ الثقلينِ ، واللهُ أعلمُ .

فإذا أوردَ اللهُ تعالىٰ على العبدِ شيئاً مِنَ البلايا . . فليستشعرْ ما ذكرناهُ ، وليجعلْهُ نُصْبَ عينيهِ ، وليجدِّدْ تَذْكارَهُ علىٰ نفسِهِ ؛ حتىٰ يحصلَ لهُ مِنَ السكونِ والطمأنينةِ ما يحملُ عنهُ أثقالَ ذلكَ ، ويزيلُ عنهُ مرارتَهُ ، ويوجدُهُ حلاوتَهُ ، وعندَ ذلكَ يكونُ حالُهُ في بلائِهِ حالَ الشاكرينَ مِنَ الفرحِ والاغتباطِ بهِ ، فيرىٰ مِنْ حقِّ شكرِهِ أنْ يأتيَ بما يمكنُهُ مِنْ أعمالِ برِّهِ[٢]

---

(١) حكىٰ ذلك في « نوادر الأصول » (٤/ ٤١١) ، ثم أسند بعد ذلك خبراً (١٠٢١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أنه وضع يده علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه حمّى ، فوجدها من فوق اللحاف ، فقال : يا رسول الله ؛ ما أشدَّها عليك ! فقال : « إنَّا كذلكَ يشتدُّ علينا البلاءُ ، ويضاعفُ لنا الأجرُ » ، فقلت : يا رسول الله ؛ أي الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال : « الأنبياء » ، قلت : ثم مَنْ ؟ قال : « ثم الصالحونَ ؛ إنْ كانَ الرجلُ ليُبتلىٰ بالفقرِ حتىٰ ما يجدُ إلا العباءَةَ يجوبُها ، وإنْ كانَ الرجلُ ليبتلىٰ بالقملِ حتىٰ يقتلَهُ ، وإنْ كانَ أحدُهم ليفرحُ بالبلاءِ كما يفرحُ أحدُكم بالرَّخاءِ »

(٢) ولٰكن شتَّان بين العمل الواقع قبل هٰذه الموهبة وبين العمل بعدها ، ومن وُجُهات التعرُّف الإلٰهية : ما نزل بحجة الإسلام الغزالي من انعقاد اللسان ، فصُرف عن التدريس ونفع الخلْقِ في الظاهر أشهراً ستةً ، تلا ذلك عزلةٌ مدَّتها إحدىٰ عشرة سنة ، خرج من بغداد بأحوال وردت علىٰ قلبه لم يقوَ علىٰ دفعها ، وكان الظاهر للعيان أن الإمام أصيب بعينٍ أو نحو ذلك ، وأن الخير قد فات ، إلا أنه رجع إلىٰ كلِّ عبادته الظاهرة ، ولٰكن بأنفاس طاهرة ، قال رضي الله عنه في « المنقذ » (ص١١٩) :

(وأنا أعلم أني وإن رجعت إلىٰ نشر العلم فما رجعت ؛ فإن الرجوع عودٌ إلىٰ ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي ، أما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ، هٰذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني ، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري : =

واعتبرْ جميعَ ما قلناهُ في هـٰذهِ المسألةِ بالحكايةِ التي ذكرَها أبو العباسِ بنُ العريفِ رحمَهُ اللهُ في كتابِهِ « مفتاحِ السعادةِ ، ومنهاجِ سلوكِ طريقِ الإرادةِ » ، قالَ فيهِ (كانَ بالمغربِ ـ عمرَهُ اللهُ بالإسلامِ ـ رجلٌ يُدعىٰ أبا الخيارِ ، رحمَهُ اللهُ ونفعَنا بذكرِهِ ، أصلُهُ مِنْ صِقِلِّيَةَ ، وموطنُهُ بغدادُ ، وجاوزَ سِنُّهُ التسعينَ وهو في الرقِّ ، لم يعتقْهُ مولاهُ ، وذلكَ منهُ عن قصدٍ واختيارٍ ، وعمَّ جسدَهُ الجذامُ ، ورائحةُ المسْكِ تُوجدُ منهُ علىٰ مسافةٍ بعيدةٍ ، قالَ الذي حدَّثني رأيتُهُ يصلِّي على الماءِ

ثم لقيتُ بعدَهُ محمداً الإِسْتِجيَّ فإذا هو أبرصُ ، فقلتُ لهُ : يا سيدي ؛ كأنَّ اللهَ تعالىٰ لم يجدْ للبلاءِ محلاًّ مِنْ أعدائِهِ حتىٰ أنزلَهُ بكم وأنتم خاصَّةُ أوليائِهِ تعالىٰ ! قالَ : فقالَ لي : اسكتْ ، لا تقلْ كذلكَ ، إنَّهُ لمَّا أشرفنا علىٰ خزائنِ العطاءِ لم نجدْ عندَ اللهِ شيئاً أشرفَ ولا أقربَ إليهِ مِنَ البلاءِ ، فسألناهُ إيَّاهُ[1] ، وكيفَ بكَ لو رأيتَ سيِّدَ الزهَّادِ وقطبَ العبادِ وإمامَ الأولياءِ والأوتادِ في غارٍ بأرضِ طَرَسُوسَ وجبالِها ؛ لحمُهُ يتناثرُ ، وجسدُهُ يسيلُ قيحاً وصديداً ، وقد أحاطَ بهِ الذبابُ و ؟! فإذا كانَ الليلُ لم يقنعْ بذكرِ اللهِ وشكرِهِ علىٰ ما أعطاهُ مِنَ الرَّحمةِ وأسكنَ جسدَهُ مِنَ

= أأصل مرادي ، أم أُخترم دون غرضي ؟ ولـٰكني أومن إيمان يقين ومشاهدة : أنه لا حول لي ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأني لم أتحرك ، ولـٰكنه حركني ، وأني لم أعمل ، لـٰكنه استعملني ، فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي)

(١) سؤالُهُ رحمه الله تعالىٰ نشأ عن مكاشفة ، فمن صحَّ له مثل ذلك سأل هـٰذا ، وإلا فنسأل الله تعالى العافية مع الصدق ؛ فقد روى البخاري في « الأدب المفرد » (٧٢٤) من حديث سيدنا الصديق رضي الله عنه مرفوعاً : « عليكم بالصدْقِ ؛ فإنَّهُ مع البرِّ ، وهما في الجنة ، وإياكم والكذب ؛ فإنه مع الفجور ، وهما في النار ، وسلوا الله المعافاة ؛ فإنَّهُ لم يُؤْتَ بعدَ اليقينِ خيرٌ مِنَ المعافاةِ » ، وروى الترمذي (٣٥٩٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً « الدعاءُ لا يُردُّ بينَ الآذانِ والإقامةِ » ، قالوا فماذا نقول يا رسول الله ؟ قال : « سلوا اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ » ، ولـٰكن نسأله تعالى العافية من حيث يعلم أنها لنا عافية ؛ كما سبق في خبر العارف بالله تعالىٰ أبي العباس المرسي رحمه الله تعالىٰ (ص ١٨٠)

العافيةِ حتىٰ يشدَّ نفسَهُ بالحديدِ ، ويستقبلَ القبلةَ عامَّةَ ليلِهِ حتىٰ يطلعَ الفجرُ) انتهىٰ[1]

وسيأتي شيءٌ مِنْ كلامِ المؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ في هـٰذا المعنىٰ والتنبيهِ عليهِ ، واللهُ وليُّ التوفيقِ

* * *

(١) مفتاح السعادة (ص ١٩٢) ، وذكر محققه أنه لم يهتد لاسم أبي الخيار ، وأن الإستجي هو محمد بن أحمد الحميدي القرطبي الإستجي ، وكان قارئاً مجوداً ، وولي الخطابة بجامع مالقة ، وتوفي سنة (٥٧٧هـ) ، وقد طبع الكتاب باسم : « مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة »

الحكمة التاسعة (*)

تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ ٱلْأَعْمَالِ ؛ لِتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ ٱلْأَحْوَالِ .

وارداتُ الأحوالِ : هي ما يردُ على القلوبِ مِنَ المعارفِ الربانيَّةِ والأسرارِ الروحانيَّةِ ، وهي التي تُوجبُ لها أحوالاً حميدةً ؛ فمنها واردٌ يوجبُ هيبةً ، ومنها : واردٌ يُوجبُ أُنْساً ، ومنها واردٌ يُوجبُ قَبْضاً ، ومنها واردٌ يقتضي بَسْطاً ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ مختلفاتِ الأحوالِ .

ولمَّا كانَتْ هـٰذهِ الوارداتُ متنوعةً . . كانَتْ أجناسُ الأعمالِ التي تقتضيها هـٰذهِ الوارداتُ أيضاً متنوعةً ، والأعمالُ الظاهرةُ أبداً تبعٌ لأحوالِ القلبِ الباطنةِ[1] ؛ كما سيقولُهُ المؤلِّفُ بعدَ هـٰذا في قولِهِ : (حسْنُ الأعمالِ نتائجُ حسْنِ الأحوالِ)[2] .

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى القول بخلق الدواعي والأحوال والخواطر ، وأنها من متعلَّقات الإرادة والقدرة القديمتين ، وأن أخصَّ أوصاف الفعل على التحقيق متعلق بالقدرة القديمة ، ولا مدخل للقدرة الحادثة إليه إلا عند القاضي والأستاذ .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٨٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اعملوا ؛ فكلٌّ ميسَّرٌ لما خلقَ له » ، رواه البخاري (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .

(١) قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/٣٦٦) : (كلٌّ يترشَّح بمودع باطنه ، فالأسرَّة تدلُّ على السريرة ، وما تكنُّهُ الضمائر يلوح على السرائر ؛ فمن صفا من الكدورة جوهره لا يفوح إلا نشر مناقبه ، ومن طُبِعَتْ على الكدورة طينته فلا يَشَمُّ من يحوم حوله إلا ريح مثالبه) ، إلا أن الكلام هنا خُصَّ بالأعمال الصالحة لما جاوره من الحكم .

(٢) انظر (ص ٣١٩) .

الحكمة العاشرة (*)

ٱلأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ ، وَأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ ٱلإِخْلاصِ فِيهَا .

إخلاصُ كلِّ عبدٍ في أعمالِهِ ، علىٰ حسَبِ رتبتِهِ ومقامِهِ .

فأمَّا مَنْ كانَ منهم مِنَ الأبرارِ : فمنتهىٰ درجةِ إخلاصِهِ أنْ تكونَ أعمالُهُ سالمةً مِنَ الرياءِ الجليِّ والخفيِّ ، وقصْدِ موافقةِ الهوى النفسيِّ ؛ طلباً لما وعدَ اللهُ تعالىٰ بهِ المخلصينَ مِنْ جزيلِ الثوابِ وحسنِ المآبِ ، وهرباً عمَّا أوعدَ بهِ المخلِّطينَ مِنْ أليمِ العذابِ وسوءِ الحسابِ .

وهٰذا مِنَ التحقُّقِ بمعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة ٥] أي : لا نعبدُ إلا إيَّاكَ ، ولا نشركُ في عبادتِنا غيرَكَ ، وحاصلُ أمرِهِ : إخراجُ الخلْقِ عن نظرِهِ في أعمالِ برِّهِ ، معَ بقاءِ رؤيتِهِ لنفسِهِ في النسبةِ إليها والاعتمادِ عليها

وأمَّا مَنْ كانَ منهم مِنَ المقرَّبينَ : فقد جاوزَ هٰذا إلىٰ عدمِ رؤيتِهِ لنفسِهِ في

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : أن لا فعَّال سوى الله تعالىٰ ، وأن الأعمال ونيَّاتِها ، وخواطرها ودوافعها . . في قبضة الإرادة الأزلية التي لا تتخلَّف ، فلا معنىٰ لدعوى الشِّرْكةِ في وجود عملٍ منجٍ ، وأن للعبد كسباً ، فقدرته الحادثة تتعلق بالفعل لا علىٰ سبيل التأثير والإيجاد ، فلا حجة لعبدٍ في وجود عملٍ مهلك ، وأنه تعالىٰ إذا تقبَّل عملاً فبفضله ؛ إذ لا يجب عليه فعل ممكن ما أو تركه .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا إلٰهَ إلا اللهُ مخلصينَ له الدينَ ولو كره الكافرون » ، رواه مسلم (٥٩٤) من حديث سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما
وسرُّ الإخلاص : هو سرُّ القدر عند العارف الحاتمي ، وهو الصدق عند الغزالي ؛ إذ كل صدِّيق مخلص ، وليس كل مخلص صديقاً ، وليس وراء الصديقية إلا النبوة .

عملِهِ ، فإخلاصُهُ إنَّما هو في شهودِ انفرادِ الحقِّ تعالىٰ بتحريكهِ وتسكينِهِ مِنْ غيرِ أنْ يرىٰ لنفسِهِ في ذلكَ حولاً ولا قوَّةً

ويُعبَّرُ عن هٰذا المقامِ بالصدْقِ الذي بهِ يصحُّ مقامُ الإخلاصِ ، وصاحبُ هٰذا مسلوكٌ بهِ سبيلُ التوحيدِ واليقينِ .

وهو مِنَ التحقُّقِ بمعنىٰ قولِهِ تعالىٰ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة ٥] أي : لا نستعينُ إلا بكَ ، لا بأنفسِنا وحولِنا وقوَّتِنا

فعملُ الأوَّلِ هو العملُ للهِ ، **وعملُ الثاني** : هو العملُ باللهِ ؛ فالعملُ للهِ يوجبُ المثوبةَ ، والعملُ باللهِ يوجبُ القُربةَ ، والعملُ للهِ يوجبُ تحقيقَ العبادةِ ، والعملُ باللهِ يوجبُ تصحيحَ الإرادةِ ، والعملُ للهِ نعتُ كلِّ عابدٍ ، والعملُ باللهِ نعتُ كلِّ قاصدٍ ، والعملُ للهِ قيامٌ بأحكامِ الظواهرِ ، والعملُ باللهِ قيامٌ بالضمائرِ

وهٰذهِ العباراتُ للإمامِ أبي القاسمِ القشيريِّ رضيَ اللهُ عنهُ[1] ، وبها يتبيَّنُ الفرقُ بينَ المقامينِ ، وتباينُهما في الشرفِ والجلالةِ

فإخلاصُ كلِّ عبدٍ هو روحُ أعمالِهِ ، فبوجودِ ذلكَ يكونُ حياتُها وصلاحيتُها للتقرُّبِ بها ، وتكونُ فيها أهليَّةُ وجودِ القبولِ لها ، وبعدمِ ذلكَ يكونُ موتُها وسقوطُها عن درجةِ الاعتبارِ ، وتكونُ إذْ ذاكَ أشباحاً بلا أرواحٍ ، وصوراً بلا معنىً .

قالَ بعضُ المشايخِ (صحِّحْ عملَكَ بالإخلاصِ ، وصحِّحْ إخلاصَكَ بالتبرِّي مِنَ الحولِ والقوَّةِ)

* * *

ثم ذكرَ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ الحالةَ التي إذا كانَ عليها العبدُ كانَ مخلصاً فقالَ :

---

(١) حيث قال في « لطائف الإشارات » (١٥٣/١) (من شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب المثوبة ، والصوم بالله يوجب القربة ، الصوم لله تحقيق العبادة ، والصوم بالله تصحيح الإرادة ، الصوم لله صفة كل عابد ، والصوم بالله نعت كل قاصد ، الصوم لله قيام بالظواهر ، والصوم بالله قيام بالضمائر) .

الحكمة الحادية عشرة (*)

ٱدْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ ٱلْخُمُولِ ، فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نِتَاجُهُ

لا شيءَ أضرُّ على المريدِ ، مِنَ الشهرةِ وانتشارِ الصيتِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ أعظمِ حظوظِهِ التي هو مأمورٌ بتركِها ، ومجاهدةِ النفسِ فيها ، وقد تسمحُ نفسُ المريدِ بتركِ ما سوىٰ هـٰذا مِنَ الحظوظِ ، **ومحبَّةُ الجاهِ وإيثارُ الاشتهارِ مناقضٌ للعبوديَّةِ التي هو مطالَبٌ بها**

قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما صدقَ اللهَ مَنْ أحبَّ الشهرةَ)[1]

وقالَ بعضُهم : (طريقُنا هـٰذا لا يصلحُ إلا لأقوامٍ كُنِسَتْ بأرواحِهمُ المزابلُ)[2]

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ توحيد الصفات والأفعال ، وأن لا مؤثِّرَ مع الله ذي الجلال ، وإلىٰ إثبات صفة الغيرة على المعنى اللائق به تعالىٰ عند من يقول بها ، وأن لله تعالىٰ سنناً في خلقه لا تقبل التغيير والتبديل دون وجوب عليه .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣]، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ » ، رواه مسلم (٢٩٦٥) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

والنِّتاج : بكسر النون ، وهو في الأصل وضع البهائم من الغنم ونحوها ، وهنا استعمله على المجاز ، **وأصل معنىٰ هـٰذه الحكمة** : من قول سيدنا علي رضي الله عنه فيما رواه عنه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٤) : (تبذَّلْ ، لا تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتُذكر وتُعلم ، وأكثر الصمت تسلم ؛ تسرُّ الأبرار ، وتغيظ الفجّار)

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣١) .

(٢) أورده الإمام السهروردي في « عوارف المعارف » (١/ ١٣٢) ، وفسَّره فقال : (إشارة منه إلىٰ =

وقالَ أيوبُ السختيانيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (واللهِ ؛ ما صدقَ اللهَ عبدٌ إلا سرَّهُ ألا يُشعَرَ بمكانِهِ)[1]

وقالَ رجلٌ لبشرِ بنِ الحارثِ رضيَ اللهُ عنهُ : أوصني ، فقالَ أخمِلْ ذكرَكَ ، وأطبْ مطعمَكَ[2]

وقالَ بشرٌ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أعرفُ رجلاً أحبَّ أنْ يُعرفَ إلا ذهبَ دينُهُ وافْتَضَحَ)[3]

وقالَ أيضاً : (لا يجدُ حلاوةَ الآخرةِ رجلٌ يحبُّ أنْ يعرفَهُ الناسُ)[4]

وقالَ الفضيلُ رضيَ اللهُ عنهُ : بلغَني أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ في بعضِ ما يمُنُّ بهِ على عبدِهِ : ألم أنعمْ عليكَ ؟! ألم أسترْكَ ؟! ألم أخمِلْ ذكرَكَ ؟![5]

ثم ذكرَ أنَّ محبةَ الاشتهارِ ممَّا يقدحُ في إخلاصِ العبدِ على اختلافِ مراتبِهِ[6] ؛ لأنَّهُ إمَّا سقوطُ الناسِ عنِ النظرِ إليهم ، أو سقوطُ النفسِ عنِ النظرِ إليها ، ولا يثبتُ للمريدِ جميعُ ذلكَ إلا بالخمولِ ، أو سقوطُ المنزلةِ عندَ نفسِهِ وعندَ الناسِ ؛ لأنَّهُ إنْ لم يكنْ بهـٰذهِ المثابةِ لا ينفكَّ عنِ الأغراضِ التي تبعثُهُ على استمالةِ قلوبِ الخلقِ[7] ؛

= غاية التواضع ، وألا يرى نفسه تتميز عن أحد من المسلمين ؛ لحقارته عند نفسه ، وعند هـٰذا ينسدُّ باب الغلِّ والغش) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٥)

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) مع الخبر السابق بالسند نفسه

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٧) ، وفيه : (أحمد) بدل (أخمل) ، وعنه أنه قال (إن قدرت ألا تُعرف فافعل ، وما عليك ألا تعرف ؟! وما عليك ألا يُثنىٰ عليك ؟! وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله عز وجل ؟!) .

(٦) يعني : على اختلاف مراتب الإخلاص ، والضمير في (لأنه) الآتي عائدٌ إلى الإخلاص .

(٧) قوله : (على اختلاف مراتبه. . .) إلى قوله : (الأغراض) مثبت من (ب ، هـ) من النسخ المعتمدة ، وفي سائرها : (لأنه لا ينفك عن الأغراض) بدل ذلك الكلام الطويل كله ، فليتنبَّه ، وقوله : (ينفكَّ) مجزوم بجواب (إن) ، ويجوز رفعه على أنه خبر (أنه) .

لما يرىٰ لنفسِهِ عليهم مِنَ الحقِّ[1] ، فتدعوهُ نفسُهُ إلىٰ ذلكَ دعاءً خفياً ، فينصبغُ عملُهُ بالرياءِ انصباغاً لا يتفطَّنُ لهُ ، كما سيأتي عندَ قولِهِ : (ربَّما دخلَ الرياءُ عليكَ ، حيثُ لا ينظرُ الخلْقُ إليكَ)[2]

وبقدْرِ تحقُّقِهِ بوصْفِ الخمولِ يتحقَّقُ لهُ مقامُ الإخلاصِ ، حتىٰ يتخلَّصَ بذلكَ مِنْ رؤيةِ إخلاصهِ .

وبهـٰذا يتبيَّنُ لكَ إفلاسُ جميعِ الناسِ إلا مَنْ رحمَ اللهُ تعالىٰ[3] ، وأنَّ الإخلاصَ في غايةِ الصعوبةِ على النفسِ ، وأنَّهُ أعزُّ الأشياءِ في الوجودِ

قيلَ لسهلِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ : أيُّ شيءٍ أشدُّ على النفسِ ؟ قالَ : الإخلاصُ ؛ لأنَّها ليسَ لها فيهِ نصيبٌ[4]

وقالَ يوسفُ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ : (أعزُّ شيءٍ في الدنيا الإخلاصُ ، وكم أجتهدُ في إسقاطِ الرياءِ عن قلبي ! فكأنَّهُ ينبتُ فيهِ علىٰ لونٍ آخرَ)[5]

وقالَ الشيخُ أبو طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (والإخلاصُ عندَ المخلصينَ إخراجُ الخلْقِ مِنْ معاملةِ الخالقِ ، وأوَّلُ الخلْقِ النفسُ ، والإخلاصُ عندَ المحبِّينَ ألا يعملَ عملاً لأجلِ النفسِ ، وإلا دخلَ عليهِ مطالعةُ العوضِ ، أو تشوُّفٌ إلىٰ حظِّ طبعٍ ، والإخلاصُ عندَ الموحِّدينَ خروجُ الخلْقِ مِنَ النظرِ إليهم في الأفعالِ ، وتركُ السكونِ والاستراحةِ بهم في الأحوالِ) انتهىٰ[6]

---

(١) قوله : (لما يرىٰ لنفسه عليهم من الحق) مثبت من (هـ) وحدها

(٢) انظر (ص ٦٣٥) .

(٣) يعني إفلاسهم من الإخلاص ، وروى القشيري في « رسالته » (ص ٣١٦) عن الشبلي وقد سئل : ما علامة الإفلاس ؟ فقال : من علامات الإفلاس : الاستئناس بالناس .

(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤٨٠) .

(٥) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤٨٠) .

(٦) قاله في « قوت القلوب » (٢/ ١١٤٢) ، وزاد : (والإخلاص في الصدق عند الصديقين : سؤالُ الحَجْبَةِ في قلوب الناس ؛ كما قال بشرٌ وقد سئل : بأي شيء بلغت هـٰذه المنزلة ؟ فقال : كنت =

فإذا أخملَ العبدُ نفسَهُ ، وألزمَها التواضعَ والمذلَّةَ ، واستمرَّ علىٰ ذلكَ حتىٰ صارَ لهُ خُلُقاً وجِبلَّةً ؛ بحيثُ لا يجدُ لضَعَتِهِ ألماً ، ولا لمذلَّتِهِ طعماً . . فحينَئذٍ تتزكَّىٰ نفسُهُ ، ويستنيرُ بنورِ الإخلاصِ قلبُهُ ، وينالُ مِنْ ربِّهِ أعلىٰ درجاتِ الخصوصيَّةِ ، ويحصلُ علىٰ أوفرِ نصيبٍ مِنَ المحبَّةِ الحقيقيَّةِ

قال الشيخُ أبو طالبٍ : (ومتىٰ ذلَّ في نفسِهِ ، واتَّضعَ عندَ نفسِهِ ، فلم يجدْ لذِلَّتِهِ طعماً ، ولا لضَعَتِهِ حسّاً . . فقد صارَ الذلُّ والتواضعُ كونَهُ[١] ، **وهـٰذا لا يكرهُ الذمَّ مِنَ الخلْقِ** ؛ لوجودِ النقصِ في نفسِهِ ، **ولا يحبُّ المدحَ منهم** ؛ لفقْدِ القدْرِ والمنزلةِ في نفسِهِ ، فصارَتِ الذِّلَّةُ والضَّعَةُ صفةً لهُ لا تفارقُهُ ، لازمةً لزومَ الزُّبالةِ للزبَّالِ ، والكُساحةِ للكسَّاحِ ، وهما صنعتانِ كسائرِ الصنائعِ[٢] ، وربَّما فَخَرُوا بهما ، لعدمِ النظرِ إلىٰ نقصِهما ، فهـٰذهِ ولايةٌ عظيمةٌ لهُ مِنْ ربِّهِ قد ولَّاهُ علىٰ نفسِهِ ، وملَّكَهُ عليها فقهرَها بعزِّهِ ، وهـٰذا مقامٌ محبوبٌ[٣] ، وبعدَهُ المكاشفاتُ بسرائرِ الغيوبِ)[٤]

ثم قالَ : (ومَنْ كانَ حالُهُ معَ اللهِ تعالى الذلَّ . . طلبَهُ واستحلاهُ كما يطلبُ المتكبِّرُ العزَّ ويستحليهِ إذا وجدَهُ ، فإنْ فارقَ ذلكَ الذلَّ ساعةً تغيَّرَ قلبُهُ ؛ لفراقِ حالِهِ ، كما أنَّ المتعزِّزَ إنْ فارقَ العزَّ ساعةً تكدَّرَ عليهِ عيشُهُ ؛ لأنَّ ذلكَ عيشُ نفسِهِ) انتهىٰ[٥]

فإذاً ؛ لا بدَّ للمريدِ مِنْ إسقاطِ جاهِهِ ، وإخمالِ ذكرِهِ ، وفرارِهِ عن مواضعِ اشتهارِهِ ، وتعاطيهِ أموراً مباحةً تسقطُهُ مِنْ أعينِ الناسِ[٦] ، كقصَّةِ السائحِ الذي سمعَ

= أكاتم الله تعالىٰ حالي ، معناه : أسأله أن يكتم علي ويُخفي أمري)

(١) في هامش (ج) : (نسخة عونه) ، والمثبت موافق لما في « القوت »

(٢) كذا في (هـ) ، وفي سائر النسخ : (وهما صنعتان له كسائر الصنائع)

(٣) أو تقرأ : (مقامُ محبوبٍ) وفي (ج) : (مقام محمود)

(٤) انظر « قوت القلوب » (٢/ ١١٤٤)

(٥) انظر « قوت القلوب » (٢/ ١١٤٤)

(٦) وهـٰذا علىٰ طريقة المَلامِيَّة ـ ويقال : المَلامَتيَّة علىٰ غير القياس ـ الذين يباشرون أعمالاً تسقط =

بِهِ ملكُ زمانِهِ ، فجاءَ إليهِ ، فلمَّا علمَ بذلكَ السائحُ استدعىٰ بَقْلاً وجعلَ يأكلُهُ أكلاً عَنِيفاً بمرأىً مِنَ الملكِ ، فلمَّا رآهُ الملكُ علىٰ تلكَ الحالةِ استحقرَهُ واستصغرَهُ ، وانصرفَ عنهُ ذامّاً لهُ[١] ، وسيأتي نصُّ هـٰذهِ القصَّةِ بعدَ هـٰذا عندَ قولِهِ : (ربَّما دخلَ الرياءُ عليكَ ، حيثُ لا ينظرُ الخلْقُ إليكَ)[٢]

وقد بالغَ بعضُهم[٣] في مداواةِ علَّةِ الجاهِ التي تتعلَّقُ بالقلوبِ ، حتى استعملوا في ذلكَ أشياءَ منكرةً في ظاهرِ الشرعِ ، ورأَوا ذلكَ جائزاً لهم أنْ يفعلوهُ ويأمروا بهِ ؛ وذلكَ مثلُ قصَّةِ الرجلِ الذي دخلَ الحمَّامَ ، ولبسَ مِنْ فاخرِ ثيابِ الناسِ تحتَ ثيابِهِ بحيثُ تظهرُ ، ومشىٰ بذلكَ متمهِّلاً بحيثُ يُرىٰ ويُظَنُّ بهِ السرقةُ ، فلمَّا رآهُ الناسُ أخذوهُ وصفعوهُ ، ونزعوا الثيابَ عنهُ ، واشتهرَ عندَهم بالسرقةِ ، حتىٰ كانَ يُعرفُ بلصِّ الحمَّامِ ، فحينَئذٍ وجدَ قلبَهُ[٤]

ومثلُ ما يُروىٰ عن أبي يزيدَ رضيَ اللهُ عنهُ في قصَّةِ الشاهدِ الذي أمرَهُ بحلْقِ رأسِهِ ولحيتِهِ ، وتعليقِ مخلاةِ الجَوْزِ في عنقِهِ ، وإعطائِهِ مِنْ ذلكَ لِمَنْ يصفعُهُ مِنَ الصبيانِ ، وطوافِهِ علىٰ تلكَ الحالةِ في المحافلِ والمحاضرِ[٥] ، والحكايتانِ

= رتبتهم من أعين الناس ، ويسمَّىٰ مقامهم بمقام القربة ، ويسمَّون هم بالمحزونين وبالأمناء ، وآيتهم في القرآن ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾[الرحمن : ٧٢] ، وهم سادات الأولياء عند العارف الحاتمي ، بلغوا من الولاية أقصاها ، وقد عقد لهم الإمام عبد الملك الخركوشي باباً لطيفاً في كتابه « تهذيب الأسرار » (ص ٣٩) وينعته بمذهب التخريب المقتضي للإنكار ، يعدُّ من أقدم ما كتب عنهم ، ومن أعلامهم : عبد الله بن منازل ، وحمدون القصار ، وإبراهيم الخواص

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٤٨)

(٢) انظر (ص ٦٣٥) .

(٣) كذا في (أ ، د) وفي سائر النسخ : (بعض أئمة الصوفية) بدل (بعضهم)

(٤) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١١٤٥) ، ونقله الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٣٠٤) ، وفي « نشر المحاسن الغالية » (ص ٣٠٣) أنه إبراهيم الخواص رحمه الله تعالىٰ ، ووجَّهَ هـٰذا الفعل وأمثاله ، وحكىٰ جوازه عن الفقهاء

(٥) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١١٤٦) ، وأولها : (وكان شاهدٌ من شهود بسطام عظيم القدر فيهم لا يفارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوماً : يا أبا يزيد ؛ أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر ، =

مشهورتانِ ، ذكرَهما الإمامُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ[1]

قالَ بعضُ المصنِّفينَ : (وإذا جازَ لمَنْ غُصَّ بلقمةٍ مِنْ طعامٍ حلالٍ أنْ يسيغَها بجَرْعةٍ مِنَ الخمرِ إذا لم يجدْ غيرَهُ ، معَ أنَّ تحريمَهُ مقطوعٌ بهِ ، ولا يفوتُهُ إلا حياةٌ فانيةٌ . فلأَنْ يجوزَ مثلُ هـٰذا إذا تعيَّنَ أَولىٰ ؛ إذْ يفوتُهُ بذلكَ الحياةُ الباقيةُ ، والقربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ)[2]

فإذا التزمَ العبدُ هـٰذهِ الطُّرُقَ مِنَ الرياضاتِ . . ماتَتْ نفسُهُ ، وحَيِيَ قلبُهُ ، وقَرُبَ مِنْ حضرةِ ربِّهِ ، واجتنىٰ مِنْ ثمرةِ غرسِهِ علىٰ غايةِ الكمالِ والتمامِ ، وتلكَ الثمرةُ أخلاقُ الإيمانِ التي تكيَّفَتْ بها نفسُهُ ، وصارَتْ كصفاتٍ ذاتيَّةٍ لهُ ، وهي نتيجةُ الحكمةِ التي أنبتَها اللهُ تعالىٰ في قلوبِ عبادِهِ المتواضعينَ ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

قالَ سيِّدُنا عيسىٰ عليهِ السلامُ لأصحابِهِ : أينَ تنبتُ الحبَّةُ ؟ قالوا : في الأرضِ ، فقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : كذلكَ الحكمةُ لا تنبتُ إلا في قلبٍ مثلِ الأرضِ[3]

قلتُ : وقد وردَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مدحِ الخمولِ وذمِّ الشهرةِ أحاديثُ كثيرةٌ ؛ منها :

ما روىٰ أبو أمامةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يَقُولُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ ٱلْحَاذِ ، ذُو حَظٍّ مِنَ ٱلصَّلَاةِ ،

= وأقوم الليل لا أنام ، ولا أجد في قلبي شيئاً من هـٰذا العلم الذي تذكر ، وأنا أصدِّقُ به وأحبُّهُ) .

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٦/ ٣٠٤) ، (٨/ ٥٧٧-٥٧٩) .

(٢) انظر « نشر المحاسن الغالية » (ص ٣٠٣) ، قال إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٣٠٤) : (ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون خمر ؛ حتىٰ يُظَنَّ به أنه يشرب الخمر ، فيسقط من الأعين ، وهـٰذا في جوازه نظر من حيث الفقه ، إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي الفقيه مهما رأَوا صلاح قلوبهم فيه ، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير) ثم ذكر خبر لصِّ الحمام المتقدم .

(٣) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١١٤٤) ، و« إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٧٧) .

أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ ، وَأَطَاعَهُ فِي ٱلسِّرِّ وٱلْعَلانِيَةِ ، وَكَانَ غَامِضاً فِي ٱلنَّاسِ ، لا يُشَارُ إِلَيْهِ بِٱلأَصَابِعِ ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافاً ، فَصَبَرَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ » ، ثُمَّ قبضَ يدَهُ فقالَ « عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ ، قَلَّتْ بَوَاكِيهِ ، قَلَّ تُرَاثُهُ »(١)

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ ، تَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ ٱلنَّاسِ . لَوْ أَقْسَمَ عَلَى ٱللهِ لأَبَرَّهُ »(٢) .

وروىٰ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إِنَّ يَسِيراً مِنَ ٱلرِّيَاءِ شِرْكٌ ، وَإِنَّ مَنْ عَادَىٰ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ فَقَدْ بَادَى ٱللهَ بِٱلْمُحَارَبَةِ ، وَإِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلأَخْفِيَاءَ ٱلأَتْقِيَاءَ ٱلَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا وَلَمْ يُعْرَفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ ٱلْهُدَىٰ ، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ »(٣)

[بعضُ أخبارِ أويسٍ القرْنيِّ]

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ في حديثِهِ الذي نوَّهَ فيهِ باسمِ أويسٍ القرْنيِّ وأشادَ بذكرِهِ ، ونبَّهَ علىٰ عظيمِ أمرِهِ رضيَ اللهُ عنهُ ـ أنَّهُ قالَ : بينَما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حلقةٍ مِنْ أصحابِهِ إذْ قالَ : « لَيُصَلِّيَنَّ مَعَكُمْ غَداً رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ » ، قالَ أبو هريرةَ : فطمعتُ أنْ أكونَ ذلكَ الرجلَ ، فغدوتُ فصلَّيْتُ خلفَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأقمتُ في المسجدِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٧) ، وخفيف الحاذ ـ بتخفيف الذال المعجمة ـ : قال العلامة القاري في « المرقاة » (٣٢٤٨/٨) : (خفيف الحال ، الذي يكون قليلَ المال ، وخفيف الظهر من العيال ، فيتمكن من السير في طريق الخالق بين الخلائق ، ولا يمنعه شيء من العلائق والعوائق) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٨) ، وأصله في « الصحيحين » من حديث أنس رضي الله عنه ، والطِّمْر : الثوب الخَلَق البالي ، ولا يؤبه له : لا يحتفل به لهوانه

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤) ، قال العلامة الطيبي في « شرح المشكاة » (١١/ ٣٣٧٦) : (وقوله : « يخرجون من كل غبراء مظلمة » كناية عن حقارة مساكنهم ، وأنها مظلمة مغبرّة ؛ لفقدان أداة ما يتنور به ويتنظف به) ، وفي « المرقاة » (٨/ ٣٣٣٩) : (أي : من عُهدة كل مسألة مشكلة ، أو بلية معضلة)

حتى انصرفَ الناسُ ، وبقيتُ أنا وهو ، فبينَما نحنُ كذلكَ إذْ أقبلَ رجلٌ أسودُ متَّزرٌ بخرقةٍ مرتدٍ برقعةٍ ، فجاءَ حتىٰ وضعَ يدَهُ في يدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثم قالَ يا نبيَّ اللهِ ؛ ادعُ لي بالشهادةِ ، فدعا النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لهُ بالشهادةِ وإنَّا لنجدُ منهُ ريحَ المسْكِ الأذْفَرِ

فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أهو هو ؟ قالَ : « نَعَمْ ، إِنَّهُ لَمَمْلُوكُ بَنِي فُلانٍ » ، قلتُ أفلا تشتريهِ فتُعتقَهُ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « وَأَنَّىٰ لِي بِذَلِكَ إِنْ كَانَ ٱللهُ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ مُلُوكِ ٱلْجَنَّةِ وَسَادَاتِهِمْ ؟! يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؛ إِنَّ لِأَهْلِ ٱلْجَنَّةِ مُلُوكاً وَسَادَةً ، وَإِنَّ هَـٰذَا ٱلأَسْوَدَ أَصْبَحَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْجَنَّةِ وَسَادَاتِهِمْ ، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؛ إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ مِنْ خَلْقِهِ ٱلأَصْفِيَاءَ ٱلأَخْفِيَاءَ ٱلأَبْرِيَاءَ ، ٱلشَّعِثَةَ رُؤُوسُهُمْ ، ٱلْمُغْبَرَّةَ وُجُوهُهُمْ ، ٱلْخَمِصَةَ بُطُونُهُمْ مِنْ كَسْبِ ٱلْحَلالِ ، ٱلَّذِينَ إِذَا ٱسْتَأْذَنُوا عَلَى ٱلأُمَرَاءِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ ، وَإِنْ خَطَبُوا ٱلْمُتَنَعِّمَاتِ لَمْ يُنْكَحُوا ، وَإِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا ، وَإِنْ طَلَعُوا لَمْ يُفْرَحْ بِطَلْعَتِهِمْ ، وَإِنْ مَرِضُوا لَمْ يُعَادُوا ، وَإِنْ مَاتُوا لَمْ يُشْهَدُوا »

قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ لنا برجلٍ منهم ؟ قالَ « ذَلِكَ أُوَيْسٌ ٱلْقَرَنِيُّ » ، قالوا وما أويسٌ القرنيُّ ؟ قالَ « أَشْهَلُ ذُو صُهُوبَةٍ ، بَعِيدُ مَا بَيْنَ ٱلْمَنْكِبَيْنِ ، مُعْتَدِلُ ٱلْقَامَةِ ، آدَمُ شَدِيدُ ٱلأُدْمَةِ ، ضَارِبٌ بِذَقَنِهِ إِلَىٰ صَدْرِهِ ، رَامٍ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ مَوْضِعِ سُجُودِهِ ، وَاضِعٌ يَمِينَهُ عَلَىٰ شِمَالِهِ ، يَتْلُو ٱلْقُرْآنَ يَبْكِي عَلَىٰ نَفْسِهِ ، ذُو طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ ، مُتَّزِرٌ إِزَارَ صُوفٍ وَرِدَاءَ صُوفٍ ، مَجْهُولٌ فِي أَهْلِ ٱلأَرْضِ ، مَعْرُوفٌ فِي أَهْلِ ٱلسَّمَاءِ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى ٱللهِ لأَبَرَّ قَسَمَهُ ، أَلا وَإِنَّ تَحْتَ مَنْكِبِهِ ٱلأَيْسَرِ لُمْعَةً بَيْضَاءَ ، أَلا وَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ قِيلَ لِلْعِبَادِ : ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ ، وَقِيلَ لِأُوَيْسٍ قِفْ فَٱشْفَعْ ، فَيُشَفِّعُهُ ٱللهُ فِي مِثْلِ عَدَدِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ ، يَا عُمَرُ وَيَا عَلِيُّ ؛ إِذَا أَنْتُمَا لَقِيتُمَاهُ فَٱطْلُبَا إِلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكُمَا يَغْفِرِ ٱللهُ لَكُمَا » ، وذكرَ باقيَ الحديثِ(١)

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/ ٤٢٣)

وفي حديثٍ آخرَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يَكُونُ فِي أُمَّتِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : أُوَيْسٌ ٱلْقَرَنِيُّ ، يَدْخُلُ فِي شَفَاعَتِهِ عَدَدُ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى ٱللهِ لأَبَرَّهُ ، فَمَنْ لَقِيَهُ بَعْدِي فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي ٱلسَّلامَ » ، ثم سُئِلَ عن علامتِهِ ، فقالَ : « هُوَ رَجُلٌ أَصْهَبُ أَشْهَلُ ، ذُو طِمْرَيْنِ ، أَبْيَضُ ، لَهُ أُمٌّ ، وَقَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدَعَا ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَذْهَبَهُ عَنْهُ إلا مِقْدَارَ ٱلدِّينَارِ أَوِ ٱلدِّرْهَمِ ، لا يُؤْبَهُ لَهُ ، مَجْهُولٌ فِي ٱلأَرْضِ ، مَعْرُوفٌ فِي ٱلسَّمَاءِ »(١)

وكانَ قد بلغَ مِنْ شدَّةِ خمولِهِ ونهايةِ ضَعَتِهِ : أنَّ الناسَ كانوا يسخرونَ منهُ ، ويستهزئونَ بهِ ، ويؤذونَهُ ، ويرونَ فيهِ أهليَّةَ الخداعِ والتلصُّصِ ، وينسبونَهُ إلىٰ ذلكَ ؛ فقد رُوِيَ أنَّهُ دفعَ إليهِ بعضُ فقهاءِ الكوفةِ ثوبينِ وكانَ يجالسُهُ ، فانقطعَ عنِ المجلسِ لأجلِ العُرْيِ ، فردَّهما عليهِ بعدَ أنْ أخذَهما منهُ وقالَ : إنَّ الناسَ يقولونَ : مِنْ أينَ لهُ هـٰذانِ الثوبانِ ؟! ترىٰ مَنْ خدعَ عليهما ؟!(٢)

وكانَ في ذلكَ الوقتِ يجالسُ الفقهاءَ ويظهرُ للناسِ ، وذلكَ قبلَ أن يُعْرَفَ برفعةِ القَدْرِ وجلالةِ الخطرِ ، وتنويهِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ بهِ على المنبرِ ، فلمَّا رأىٰ أنَّ الناسَ عرفوا حالَهُ هربَ عنهم ، واستخفىٰ منهم ، ولبَّسَ أمرَهُ عليهم برعايةِ الإبلِ وغيرِ ذلكَ(٣)

وقيلَ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا سألَ عنهُ قومَهُ : ما فينا أخملُ منهُ ذكراً ، فلمَّا لقيَهُ هو وعليٌّ رضيَ اللهُ عنهما وسألاهُ مَنْ هو . . قالَ : راعي غنمٍ وأجيرُ قومٍ ، وسترَ ذكرَ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٢) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه بنحوه ، وما فات منه عنده فقد تقدم في الحديث قبله .

(٢) الذي كساه هو أُسَيْرُ بن جابر ، والخبر عند مسلم (٢٥٤٢) وفيه ذكر بردة واحدة ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٢٣) .

(٣) انظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٢٥) ، وذكر رعايته للإبل عند أبي نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٠) ذيل خبر طويل .

أويسٍ ، فلمَّا سألاهُ عنِ اسمِهِ قالَ عبدُ اللهِ ، فلمَّا سألاهُ عنِ اسمِهِ الذي سمَّتْهُ بهِ أمُّهُ . . امتنعَ أنْ يجيبَهما على ذلكَ ، فلمَّا أخبراهُ بصفةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لهُ ، وأنَّهما عرفاهُ بذلكَ . . قالَ لهما : عساهُ أنْ يكونَ غيري ، فلمَّا قالا لهُ : أخبرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ تحتَ منكبِكَ الأيسرِ لُمعةً بيضاءَ ، وطلبا منهُ أنْ يوضحَها لهما . . لم يجدْ بُدّاً مِنْ أنْ يوضحَها ، وذلكَ واللهُ أعلمُ ليريَهُما رؤيةَ عينٍ صحَّةَ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصدْقَهُ في إخبارِهِ بالغيبِ ، وذلكَ أمرٌ واجبٌ عليهِ ، وإلا فلعلَّهُ كانَ يتعلَّلُ لهما كما فعلَهُ في كلِّ ما سُئِلَ عنهُ

ثم بعدَ ذلكَ لمَّا سألَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يلتقيَ معَهُ ويجعلَ ذلكَ الموضعَ ميعاداً بينَهُ وبينَهُ . . قالَ لهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لا ميعادَ بيني وبينَكَ ، ولا أعرفُكَ ولا تعرفُني بعدَ اليومِ ، ثم دفعَ الإبلَ التي كانَ يرعاها إلى أصحابِها ، وخلا عنِ الرعايةِ[1]

وكذلكَ فعلَ معَ هَرِمِ بنِ حيَّانَ رضيَ اللهُ عنهما لمَّا لقيَهُ بشاطئِ الفراتِ ، ووقعَ بينَهما التعرُّفُ ؛ قالَ لهُ : حدِّثْني بحديثٍ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحفظْهُ عنكَ ، فقالَ لهُ : لا أحبُّ أنْ أفتحَ هٰذا البابَ على نفسي ؛ لا أحبُّ أنْ أكونَ محدِّثاً ولا مفتياً ولا قاضياً[2] ، فلمَّا فرغا مِنَ الكلامِ الذي كانا بصددِهِ[3] ، وسألَهُ مداومةَ الاجتماعِ بهِ ، فأبى وامتنعَ ، وقالَ لهُ : لا أراكَ بعدَ اليومِ تطلبُني ولا تسألُ عنِّي ، انطلقْ أنتَ ها هنا حتى أنطلقَ أنا ها هنا ، ثم بعدَ ذلكَ اجتهدَ في طلبِهِ والبحثِ عنهُ ، فلم يقعْ لهُ على خبرٍ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٠) خاتمة هٰذه الحكاية بنحو ما هنا

(٢) في (ج) : (ولا قاضّاً) بدل (ولا قاضياً) .

(٣) وكان من جملة هٰذا الكلام كما في رواية الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٠٦) ، وأبي نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٤) : فسلمتُ عليه ، ومددت يدي لأصافحه ، فأبى أن يصافحني ، فخنقتني العبرة لما رأيت من حاله ، فقلت السلام عليك يا أويس ، كيف أنت يا أخي ؟ قال : وأنت فحيَّاك الله يا هرم بن حيَّان ، مَنْ دلَّكَ علي ؟ قلت : الله عز وجل ، قال : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء ١٠٨] قلت يرحمك الله ؛ من أين عرفت اسمي واسم أبي ؟ فوالله ؛ ما رأيتك قط ولا رأيتني ! قال : عرفت روحي روحك حيث كلَّمَتْ نفسي . . . الخبر .

ومِنْ عجيبِ أمرِهِ : أنْ حقَّقَ اللهُ تعالىٰ لهُ هـٰذا الحالَ مِنَ التخفِّي والتستُّرِ وأتمَّهُ لهُ بعدَ موتِهِ ، معَ ما أظهرَهُ بسببِهِ مِنَ الآياتِ والعبرِ حينَئذٍ ؛ قالَ عبدُ اللهِ بنُ سلمةَ غزونا أذربيجانَ زمنَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ ومعَنا أويسٌ القرنيُّ ، فلمَّا رجعنا مرضَ فماتَ ، فنزلنا فإذا قبرٌ محفورٌ ، وماءٌ مسكوبٌ ، وكفنٌ وحَنُوطٌ ، فغسَّلناهُ وكفَّنَّاهُ ، وصلَّينا عليهِ ودفنَّاهُ ، فقالَ بعضُنا لبعضٍ : لو رجعنا فعلَّمنا قبرَهُ ، فرجعنا فإذا لا قبرٌ ولا أثرٌ[1]

قلتُ : والحكاياتُ والآثارُ في مدحِ الخمولِ وذمِّ الاشتهارِ ، أكثرُ مِنْ أنْ يأتيَ عليها انحصارٌ ، وقد أوردَ كثيراً منها الأئمَّةُ المصنِّفونَ في هـٰذا العلمِ[2] ، فليطالعْ ذلكَ المريدُ ، مستمدّاً مِنَ اللهِ تعالىٰ حسْنَ التوفيقِ والتأييدِ .

وتعبيرُ المؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ ها هنا بالدَّفْنِ والأرضِ والنباتِ والنِّتاجِ . . مِنْ مليحِ الاستعاراتِ .

* *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٣) .

(٢) كالإمام الحافظ ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » ، والحافظ الخطابي في « العزلة » ، وحجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٢٦٥) ، وهـٰذا بعد تصحيح العقد ، وإحكام العلم المصحِّح للعبادات الواجبة عليه بالذات .

الحكمة الثانية عشرة (*)

مَا نَفَعَ ٱلْقَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ ، يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ

مداواةُ أمراضِ القلبِ واجبةٌ على المريدِ ، وأمراضُهُ إنَّما تكونُ مِنْ غلبةِ أحكامِ الطبعِ عليهِ ؛ مِنْ صحبةِ الأضدادِ ، ووقوفِهِ معَ المعتادِ ، وانقيادِهِ إلىٰ هوى النفسِ ، وأُنْسِهِ بعالَمِ الحسِّ

ومداواةُ هٰذا المرضِ يتأتَّىٰ مِنْ وجوهٍ كثيرةٍ ، وأبلغُها في ذلكَ وأنفعُها العزلةُ عنِ الناسِ المصحوبةُ بالفكرةِ ؛ فبالعزلةِ يتقيَّدُ الظاهرُ عن مخالطةِ مَنْ لا تصلُحُ مخالطتُهُ ، ومَنْ لا يأمَنُ مِنْ دخولِ الآفاتِ عليهِ بصحبتِهِ ، فيتخلَّصُ بذلكَ المعتزلُ مِنَ المعاصي التي يتعرَّضُ لها بالمخالطةِ ؛ مثلُ الغِيبةِ ، والمداهنةِ ، والرياءِ ، والتصنُّعِ(١) ، ويتحصَّلُ لهُ بذلكَ السلامةُ مِنْ مسارقةِ الطباعِ الرديَّةِ ، والأخلاقِ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ وجوبِ وندْبِ ما حسَّنه الشارعُ مع نفي اعتقاد تأثيره ، وأن من عوائد الله تعالىٰ أنْ جعل السكينة في هدأةِ الليل والخلوات ، وأن العبد مأمور بمباشرة أسباب صلاحه وإن كان لا فاعلَ إلا الله تعالىٰ ، وأن الفكرة والخطرة وما قبلهما وما ينجم عنهما . . كلُّ ذلك من آثار القدرة القديمة وتعلقاتها الحادثة .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق ١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف ١٤٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أو رجلاً في غنيمةٍ لهُ في رأسِ شَعَفَةٍ مِنْ هٰذهِ الشِّعافِ ، أو بطنِ وادٍ مِنْ هٰذهِ الأوديةِ ، يقيمُ الصلاةَ ، ويؤتي الزكاةَ ، ويعبدُ ربَّهُ حتىٰ يأتيَهُ اليقينُ ، ليسَ مِنَ الناسِ إلا في خيرٍ » ، رواه مسلم (١٨٨٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) وهٰذه الأربعة تكون بين اثنين فصاعداً ، فإن قيل : قد تطرق القلب في الخلوة ؛ كما قالوا في غيبة العارفين . . فالجواب : ما تمَّت الخلوة ، وما صحَّت الفكرة

الدنيّةِ ، ويستفيدُ أيضاً بذلكَ صيانةَ دينِهِ ونفسِهِ عنِ التعرُّضِ للخصوماتِ وأنواعِ الشرورِ والفتنِ ؛ فإنَّ للنفسِ تولُّعاً وتسارعاً إلى الخوضِ في مثلِ هـٰذا

فواجبٌ على المعتزلِ : أنْ يكفَّ لسانَهُ عنِ السؤالِ عن أخبارِ الناسِ وما هم مشغولونَ بهِ ومنهمكونَ فيهِ ومكبُّونَ عليهِ ، ويصونَ سمعَهُ عنِ الإصغاءِ إلىٰ أراجيفِ البلدِ[1] ، وما اشتملَتْ عليهِ مِنَ الأحوالِ التي ذكرناها

وليحرصْ علىٰ ألا يغشاهُ في خلوتِهِ وعزلتِهِ مَنْ شأنُهُ التطلُّعُ لذلكَ والبحثُ عنهُ ، وليجتنبْ صحبةَ مَنْ لا يتورَّعُ في منطقِهِ ولا يضبطُ لسانَهُ عنِ الاسترسالِ في دقائقِ الغِيبةِ والوقيعةِ ، والتعريضِ بالطعنِ على الناسِ والقدحِ فيهم ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يكدِّرُ صفاءَ القلبِ ، ويؤدِّي إلى ارتكابِ مساخطِ الربِّ ، فليهجرْهُ المعتزلُ وليفرَّ منهُ فرارَهُ مِنَ الأسدِ ، ولا يجتمعْ معَهُ في مكانٍ ألبتةَ[2]

وليتنكَّرْ إلىٰ كلِّ مَنْ تعرَّفَ لهُ ممَّنْ هـٰذا شأنُهُ مِنَ المنسوبينَ إلى الدينِ فضلاً عن غيرِهم ، كما قالَ بعضُهم : (أنكِرْ مَنْ تعرفُ ، ولا تتعرَّفْ إلىٰ مَنْ لا تعرفُ)[3]

وفي الخبرِ « مَثَلُ ٱلْجَلِيسِ ٱلسُّوءِ كَمَثَلِ ٱلْقَيْنِ ، إِنْ لَمْ يُحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ »[4]

وفي الأخبارِ السالفةِ : (أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا بنَ

---

(١) الأراجيف : جمع إرجاف ؛ وهو الخوض في الأخبار السيئة وذكر الفتن ، ويغلب فيه التخويف والرعب .

(٢) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٣٩٩) : (دُعيَ إبراهيم بن أدهم إلىٰ دعوة ، فحضر ، فذكروا رجلاً لم يأتهم وقالوا : إنه ثقيل ، فقال إبراهيم : إنما فعل بي هـٰذا نفسي ؛ حيث حضرت موضعاً يُغتاب فيه الناس ، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام) .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٤٧) .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٥٧٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وأصله في « الصحيحين » ، والقين : الحدَّاد ، وفي (أ) : (الكير) بدل (القين) ، وهي نسخة في هوامش باقي النسخ المعتمدة .

عمرانَ ؛ كنْ يقظاناً ، وارتدْ لنفسِكَ إخواناً ، وكلُّ أخٍ أو صاحبٍ لا يؤازرُكَ على مسرَّتي فهو لكَ عدوٌّ)[1]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داودَ عليهِ السلامُ يا داودُ ؛ ما لي أراكَ منتبَذاً وحدانياً ؟ فقالَ : إلـٰهي ؛ قليتُ الخلْقَ مِنْ أجلِكَ ، فقالَ يا داودُ ؛ كُنْ يقظاناً ، وارتدْ لنفسِكَ إخواناً ، وكلُّ خِدْنٍ لا يوافقُكَ علىٰ مسرَّتي فلا تصحبْهُ ؛ فإنَّهُ لكَ عدوٌّ يقسِّي قلبَكَ ، ويباعدُكَ منِّي[2]

وما أحسنَ قولَ أبي إسحاقَ إبراهيمَ بنِ مسعودٍ الألبيريِّ في هـٰذا المعنىٰ[3] : [من الوافر]

فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وٱخْشَ مِنْهُمْ ... كَمَا تَخْشَى ٱلضَّرَاغِمَ وٱلسَّبَنْتَىٰ
وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُمْ حِذَاراً ... وَكُنْ كَٱلسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا

وبالعزلةِ أيضاً : يجتمعُ همُّهُ ، ويقوىٰ في ذاتِ اللهِ عزمُهُ ، بخلافِ الخِلْطةِ ؛ فإنَّها تفرِّقُ الهمَّةَ ، وتضعِفُ العزيمةَ ، فقد قيلَ إنَّ العبدَ ليعقدُ في خلوتِهِ علىٰ خصالٍ مِنَ الخيرِ يعملُها ، فإذا خرجَ إلى الناسِ حَلُّوا عليهِ ذلكَ عقدةً عقدةً ، حتىٰ يرجعَ إلىٰ بيتِهِ وقدِ انحلَّتِ العُقَدُ كلُّها[4]

ورُوِيَ عن عيسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ لا تجالسوا الموتىٰ فتموتَ قلوبُكم ، قيلَ : ومَنِ الموتىٰ ؟ قالَ : المحبُّونَ للدنيا ، الراغبونَ فيها[5]

وفي الخبرِ المرويِّ عن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٤٣٧) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٦١٦) عن محمد بن النضر الحارثي ، وصرفت كلمة (يقظان) على لغة بني أسد الذين يقولون في مؤنثه : يقظانة

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٤٩)

(٣) انظر « ديوانه » (ص ٣٤) ، والسبنتىٰ : النمر ، وفي البيت الثاني إشارة لا تخفىٰ لقوله تعالىٰ في حق السامري ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ [طه : ٩٧] علىٰ سبيل الاستعارة التمثيلية .

(٤) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٢٨٥) عن بعض التابعين

(٥) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٢٨٤) .

أُمَّتِي : ضعْفُ ٱلْيَقِينِ »[1] ، وضعفُ اليقينِ إنَّما يكونُ مِنْ رؤيةِ أَهْلِ الغفلةِ ، ومخالطةِ أربابِ البطالةِ والقسوةِ .

قالَ أبو طالبٍ المكيُّ : (وأضرُّ ما ابتُلِيَ بهِ العبدُ ، وأدخلُهُ وأعملُهُ في هلاكِهِ ، وأشدُّهُ لحجبِهِ وإبعادِهِ . . ضعْفُ يقينِهِ لما وُعِدَ مِنَ الغيبِ ، وتُوُعِّدَ عليهِ بالشهادةِ ، وقوَّةُ اليقينِ أصلُ كلِّ عملٍ صالحٍ)[2]

وقالَ بعضُ أهلِ هـٰذهِ الطائفةِ : قلتُ لبعضِ الأبدالِ المنقطعينَ إلى اللهِ تعالىٰ : كيفَ الطريقُ إلى التحقيقِ ، والوصولُ إلى الحقِّ ؟ قال : لا تنظرْ إلى الخلقِ ؛ فإنَّ النظرَ إليهم ظلمةٌ .

قلتُ : لا بدَّ لي منهم ، قالَ : فلا تسمعْ كلامَهم ؛ فإنَّ كلامَهم قسوةٌ .

قلتُ لا بدَّ لي منهم ، قالَ : فلا تعاملْهم ؛ فإنَّ معاملتَهم خسرانٌ وحسرةٌ ووَحشةٌ .

قلتُ : أنا بينَ أظهرِهم ، ولا بدَّ لي مِنْ معاملتِهم ، قالَ : فلا تسكنْ إليهم ؛ فإنَّ السكونَ إليهم هَلَكَةٌ

قلتُ : هـٰذا لعلَّهُ يكونُ[3] ، قالَ : يا هـٰذا ؛ أتنظرُ إلى اللاعبينَ ، وتسمعُ كلامَ الجاهلينَ ، وتعاملُ البطَّالينَ ، وتسكنُ إلى الهالكينَ ، وتريدُ أنْ تجدَ حلاوةَ الطاعةِ وقلبُكَ معَ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟! هيهاتَ ، هـٰذا ما لا يكونُ أبداً ![4]

وبالعزلةِ أيضاً : ينكفُّ بصرُهُ عنِ النظرِ إلىٰ زينةِ الدنيا وزهرتِها ، وينصرفُ خاطرُهُ عنِ الاستحسانِ لما ذمَّهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ زخرفِها ، فتمتنعُ بذلكَ النفسُ عنِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « اليقين » (٩) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٨٦٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) كذا في « قوت القلوب » (١/ ٢٨٥) .

(٣) قوله : (يكون) زيادة من (أ) وحدها ، وفي مطبوع « القوت » : (العلَّة) بدل (لعلَّه) .

(٤) كذا في « قوت القلوب » (١/ ٢٨٦) ، و« إحياء علوم الدين » (٥/ ٢٧٦) .

التطلُّعِ إليها ، والاستشرافِ لها ، ومنافسةِ أهلِها فيها ، قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ . . . ﴾ الآيةَ [طه ١٣١]

ولا ينبغي لأحدٍ أنْ يستحقرَ هـٰذا ؛ فإنَّهُ يؤدِّي إلىٰ أمراضٍ عظيمةٍ في القلبِ ، ومَنِ اعتزلَ الناسَ سَلِمَ بإذنِ اللهِ تعالىٰ منها

قالَ أبو القاسمِ القشيريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (فأربابُ المجاهداتِ إذا أرادوا صونَ قلوبِهم مِنَ الخواطرِ الرديَّةِ لم ينظروا إلى المستحسناتِ ، وهـٰذا أصلٌ كبيرٌ لهم في المجاهداتِ في أحوالِ الرياضةِ) انتهىٰ .

وقالَ محمدُ بنُ سيرينَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إيَّاكَ وفضولَ النظرِ ؛ فإنَّها تؤدِّي إلىٰ فضولِ الشهوةِ)[1]

وقالَ بعضُ الأدباءِ : (مَنْ كثُرَتْ لحظاتُهُ دامَتْ حسراتُهُ)[2]

وقالَ : (إنَّ العينَ سببُ الحَيْنِ ، ومَنْ أرسلَ طرفَهُ اقتنصَ حتفَهُ ، وإنَّ النظرَ إلى الأشياءِ بالبصرِ يوجبُ تفرقةَ القلبِ)[3]

وقد أنشدوا في هـٰذا المعنىٰ[4] [من الطويل]

وَإِنَّكَ إِنْ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ ٱلْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ ٱلَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

وبذلكَ ينقطعُ طمعُهُ عنِ الناسِ ، ويحصلُ لهُ منهمُ الإياسُ ، وذلكَ مِنْ أعظمِ فوائدِ العزلةِ عندَ العقلاءِ الأكياسِ

ولا يتمُّ لهُ منفعةُ العزلةِ إلا باشتغالِ القلبِ بالفكرةِ ، وهي المقصودةُ ها هنا ،

---

(١) كذا في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٤)
(٢) كذا في « قوت القلوب » (١/ ٢٧٩) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٠٩) .
(٣) العبارات أوردها الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/ ٦٠٦) ، والحَيْنُ : الموت .
(٤) البيتان في « عيون الأخبار » (٤/ ٢٣) ضمن خبر

وكأنَّ العزلةَ مقدمةٌ لها ، ومعينةٌ عليها ، وذلكَ بعدَ تقديمِ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ علومِ الشرعِ الظاهرةِ ، والقيامِ بمراعاةِ آدابِ باطنةِ ، وقد ذكرَ منها أبو حامدٍ الغزاليُّ جملةً شافيةً في كتابِ (العزلةِ) مِنَ « الإحياءِ » ، فلتنظرْ هناكَ[1]

وقد جاءَ في الخبرِ (تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ سبعينَ سنةً)[2] ، كذا هو واللهُ أعلمُ

وكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ يقولُ : (طوبىٰ لمَنْ كانَ قِيلُهُ ذِكراً ، وصمتُهُ تفكُّراً ، ونظرُهُ عبرةً ، إنَّ أكيسَ الناسِ مَنْ دانَ نفسَهُ ، وعملَ لما بعدَ الموتِ)[3]

وقالَ كعبٌ : (مَنْ أرادَ شرفَ الآخرةِ فليكثرِ التفكُّرَ)[4]

وقيلَ لأمِّ الدرداءِ : ما كانَ أفضلُ عملِ أبي الدرداءِ ؟ قالَتِ : التفكُّرَ[5]

وذلكَ لأنَّهُ يصلُ بها إلىٰ معرفةِ حقائقِ الأشياءِ[6] ، ويتبيَّنُ الحقَّ مِنَ الباطلِ ، والنافعَ مِنَ الضارِّ ، ويطَّلعُ بها أيضاً علىٰ خفيَّاتِ آفاتِ النفسِ ، ومكايدِ العدوِّ ، وغرورِ الدنيا ، ويتعرَّفُ بها وجوهَ الحيلِ في التحرُّزِ عنها والطهارةِ منها

قالَ الحسنُ البصريُّ : (الفكرةُ مرآةٌ تريكَ حَسَنَكَ مِنْ سيِّئِكَ)[7]

ويطَّلعُ أيضاً بها علىٰ عظمةِ اللهِ تعالىٰ وجلالِهِ إذا تفكرَ في آياتِهِ ومصنوعاتِهِ ،

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٦٤)

(٢) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١/ ٢٩٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : (ستين) بدل (سبعين) ، وفي « الحلية » (١/ ٢٠٨) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه : (تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة) .

(٣) رواه بنحوه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٣٩) ، وانظر « إحياء علوم الدين » (٩/ ٢٣٣) ، وفي (هـ) وحدها : (فكراً) بدل (تفكراً) .

(٤) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١/ ٣١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٣) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٨٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٠٠)

(٦) الضمير في قوله : (بها) راجع للعزلة المتحدَّث عنها ، أو لعبادة التفكُّر المقدرة بالفكرة .

(٧) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٩)

ويطَّلعُ بها أيضاً علىٰ آلائِهِ ونعمائِهِ الجليّةِ والخفيّةِ ، فيستفيدُ بذلكَ أحوالاً سنيّةً ، يزولُ بها مرضُ قلبِهِ ، ويستقيمُ بسببِها علىٰ طاعةِ ربِّهِ .

قلتُ : والعزلةُ التي ذكرها المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ تتضمَّنُ وجودَ الخلوةِ ؛ وهي أجودُ الأركانِ الأربعةِ التي هي أساسُ المريدينَ ، ويلزمُ عنها مِنَ الثلاثةِ الباقيةِ **الصمتُ** ؛ إذْ لا يتأتَّىٰ مِنْ أكثرِ الناسِ إلا بالخلوةِ والعزلةِ ، فإنْ أضافَ إليهما المريدُ الركنينِ الباقيينِ ـ وهما **الجوعُ والسهرُ** ـ فقد حصلَ علىٰ كليّةِ الدواءِ ، والتحقَ بزمرةِ الأولياءِ والبُدلاءِ

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ : (اجتمعَ الخيرُ كلُّهُ في هٰذهِ الأربعِ خصالٍ ، وبها صارَ الأبدالُ أبدالاً إخماصُ البطونِ ، والصمتُ ، والخلوةُ ، والسهرُ)[1]

وقالَ الشاعرُ وجمعَها في نظمِهِ[2] [من الكامل]

يَا مَنْ يُرِيدُ مَنَازِلَ ٱلأَبْدَالِ ... مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهُ لِلأَعْمَالِ
لا تَطْمَعَنَّ بِهَا فَلَسْتَ مِنَ ٱهْلِهَا ... إِنْ لَمْ تُزَاحِمْهُمْ عَلَى ٱلأَحْوَالِ
بَيْتُ ٱلْوِلايَةِ قَسَّمَتْ أَرْكَانَهُ ... سَادَاتُنَا فِيهِ مِنَ ٱلأَبْدَالِ
مَا بَيْنَ صَمْتٍ وَٱعْتِزَالٍ دَائِمٍ ... وَٱلْجُوعِ وَٱلسَّهَرِ ٱلنَّزِيهِ ٱلْعَالِي

* * *

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٢٧٤ ، ٢٨٠) ، والإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٢٦٨) وفصل القول في هٰذه الأربعة .

(٢) هو العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (٢/ ١٨٢) (الباب الثامن والتسعون في معرفة مقام السهر) ، وقال : (وقد أفردنا لمعرفة هٰذه الأربعة جزءاً عملناه بالطائف ، سميناه : « حلية الأبدال ») ، وزاد بعد البيتين الأولين في خاتمة « حلية الأبدال » قوله :

واصمتْ بقلبِكَ واعتزلْ عن كلِّ ما ... يدنيكَ مِنْ غيرِ الحبيبِ الوالي
وإذا سهرتَ وجعتَ نلتَ مقامَهم ... وصحبتَهم في الحلِّ والترحالِ

وقوله : (العالي) هو بالعين المهملة في النسخ والأصل المنقول عنه أيضاً .

الحكمة الثالثة عشرة (*)

كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ ٱلْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآتِهِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى ٱللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ ٱللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ ٱلْأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ ؟!

الجمعُ بينَ الضدينِ محالٌ ؛ كاجتماعِ الحركةِ والسكونِ ، والنورِ والظلمةِ ، وهـٰذهِ الأشياءُ التي ذكرَها المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ أضدادٌ لا تجتمعُ ؛ فإنَّ إشراقَ القلبِ بنورِ الإيمانِ واليقينِ مضادٌّ للظلمةِ التي استولَتْ عليهِ مِنْ ركونِهِ إلى الأغيارِ والأكوانِ واعتمادِهِ عليها ، والمسيرَ إلى اللهِ تعالىٰ بقطْعِ عقباتِ النفسِ مضادٌّ للاعتقالِ في حبسِ الهوىٰ والشهواتِ ، ودخولَ حضرةِ اللهِ المقدَّسةِ المقتضيةِ لطهارةِ الداخلِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله سبحانه له سننٌ لا تتبدَّلُ بحُكْم إرادته الأزلية التي لا تتخلَّف ، وهـٰذه السُّنن الاعتمادُ عليها شركٌ لحدوثها ، وتركُ الأخذِ بها تعطيلٌ للحكمة لأمْرِ الشارع بها ، وإلىٰ إثبات الجوهر المجرَّد على القول به ، وأن الضدين لا يجتمعان في محلٍّ وزمان واحد .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره » ، رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٧) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ونزاهتِهِ مضادٌّ لما هو عليهِ مِنْ جنايةِ غفلاتِهِ التي مقتضاها الإقصاءُ والإبعادُ ، وفهْمَ دقائقِ الأسرارِ المستفادَ مِنَ التقوىٰ مضادٌّ للإصرارِ على المعاصي والهفواتِ

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وممَّا رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ ٱللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »(١)

قالَ يحيى بنُ معاذٍ رحمَهُ اللهُ تعالى التقىٰ أحمدُ بنُ حنبلٍ وأحمدُ بنُ أبي الحواريِّ ، فقالَ ابنُ حنبلٍ لابنِ أبي الحواريِّ يا أحمدُ ؛ حدِّثْنا بحكايةٍ سمعتَها مِنْ أستاذِكَ أبي سليمانَ

فقال : يا أحمدُ ؛ قُلْ (سبحانَ اللهِ) بلا عجبٍ ، فقالَ أحمدُ بنُ حنبلٍ : (سبحانَ اللهِ) وطوَّلَها بلا عجبٍ

فقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ سمعتُ أبا سليمانَ يقولُ إذا اعتقدَتِ النفوسُ علىٰ تركِ الآثامِ جالَتْ في الملكوتِ(٢) ، وعادَتْ إلىٰ ذلكَ العبدِ بطرائفِ الحِكَمِ مِنْ غيرِ أنْ يؤدِّيَ إليها عالِمٌ علماً

قالَ فقامَ أحمدُ بنُ حنبلٍ ثلاثاً وجلسَ ثلاثاً ، وقالَ ما سمعتُ في الإسلامِ بحكايةٍ أعجبَ إليَّ مِنْ هٰذهِ

ثم ذكرَ الحديثَ الذي ذكرناهُ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ ٱللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٤) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ضمن هٰذا الخبر ، قال الإمام السيوطي في « الدرر المنتثرة » (٤١٥) : (وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً « من تعلم علماً فعمل به كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يعلمَهُ ما لم يكنْ يعلمُ » ، وفي كتاب « رواية الكبار عن الصغار » لأبي يعقوب البغدادي عن سفيان : « من عمل بما يعلم وُفِّق لما لا يعلم ») .

(٢) قوله : (اعتقدت) هو بمعنىٰ (عزمت) وبمعنىٰ (ثبتت) ، وهي كذلك في جميع النسخ وفي الأصل المنقول عنه أيضاً

ثم قالَ لأحمدَ بنِ أبي الحواريِّ : صدقتَ يا أحمدُ وصدقَ شيخُكَ[١]

ولأجلِ كونِ هـٰذهِ الأشياءِ أضداداً عَجِبَ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ ممَّنْ يعتقدُ صحَّةَ اجتماعِها ، وممَّنْ طمعَ في نيلِ مراتبِ الرجالِ ، معَ كونِهِ علىٰ أقبحِ الخلالِ[٢]

* *

(١) روى الحكاية متضمنة للخبر المرفوع أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٤)

(٢) وبه تعلم : أن محبة القوم وطريقهم من غير تطهير القلب . . لا تفي بهـٰذه الطرائف ؛ لاستحالة قلب الأعيان ، ولو وقعت لدلَّ وقوعها على اجتباءٍ قضىٰ بالتطهير من غير إنابة ، ولا يعوَّل على ذلك إلا بطَّال .

الحكمة الرابعة عشرة (*)

ٱلْكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ ٱلْحَقِّ فِيهِ ، فَمَنْ رَأَى ٱلْكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْهُ فِيهِ ، أَوْ عِنْدَهُ ، أَوْ قَبْلَهُ ، أَوْ بَعْدَهُ . . فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ ٱلْأَنْوَارِ ، وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ ٱلْمَعَارِفِ بِسُحُبِ ٱلْآثَارِ .

العدمُ ظلمةٌ ، والوجودُ نورٌ ؛ فالكونُ بالنظرِ إلىٰ ذاتِهِ عدمٌ مظلمٌ ، وباعتبارِ تجلِّي نورِ الحقِّ عليهِ وظهورِهِ فيهِ . . وجودٌ مستنيرٌ[1] .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت الوجود الحق الذاتي ، وإثبات صفة القيومية على القول بها ، والقول بحدوث ما سواه تعالىٰ ، وأن العرض لا يبقىٰ زمانين ، وإلىٰ ثبوت الصفات التنزيهية (السلبية) ، وإلىٰ إثبات صفة النورية ـ أثبتها العارف النابلسي ـ على القول بها .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه : ١١١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعرُ كلمةُ لبيدٍ : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ » ، رواه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) انظر تفصيل هٰذا في « مشكاة الأنوار » لحجة الإسلام الغزالي ، وقال الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٩) : (قوله : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] أي : يخرجهم من ظلمات الكفر إلىٰ نور الإيمان ، ومن ظلمات البدعة إلىٰ نور السنة ، ومن ظلمات الغفلة إلىٰ نور اليقظة ، ومن ظلمات الحظوظ إلىٰ نور الحقوق ، ومن ظلمات طلب الدنيا إلىٰ نور طلب الآخرة ، ومن ظلمات المعصية إلىٰ نور الطاعة ، ومن ظلمات الكثائف إلىٰ نور اللطائف ، ومن ظلمات الهوىٰ إلىٰ نور التقوىٰ ، ومن ظلمات الدعوىٰ إلىٰ إشراق نور التبري من الحول والقوىٰ ، ومن ظلمات الكون إلىٰ شهود المكوِّن ، ومن ظلمات التدبير إلىٰ إشراق نور التفويض) .

ثم اختلفَتْ أحوالُ الناسِ ها هنا :

فمنهم : مَنْ لم يشاهدْ إلا الأكوانَ ، وحُجِبَ بذلكَ عن رؤيةِ المكوِّنِ ؛ فهـٰذا تائهٌ في الظلماتِ ، محجوبٌ بسُحُبِ آثارِ الكائناتِ .

ومنهم : مَنْ لم يُحجبْ بالأكوانِ عنِ المكوِّنِ ، ثم هم في مشاهدتِهم إيَّاهُ فرقٌ :

فمنهم : مَنْ شاهدَ المكوِّنَ قبلَ الأكوانِ ؛ وهـٰؤلاءِ همُ الذينَ يستدلُّونَ بالمؤثِّرِ على الآثارِ .

ومنهم : مَنْ شاهدَهُ بعدَ الأكوانِ ؛ وهـٰؤلاءِ همُ الذينَ يستدلُّونَ بالآثارِ على المؤثِّرِ(١)

ومنهم : مَنْ شاهدَهُ معَ الأكوانِ ، والمعيَّةُ ها هنا : إمَّا معيَّةُ اتصالٍ ؛ وهو شهودُهُ في الأكوانِ ، وإمَّا معيَّةُ انفصالٍ ؛ وهو شهودُهُ عندَ الأكوانِ ، وهـٰذهِ الظروفُ المذكورةُ ليسَتْ بزمانيَّةٍ ولا مكانيَّةٍ ؛ لأنَّ الزمانَ والمكانَ مِنْ جملةِ الأكوانِ ، والاتصالُ والانفصالُ المذكورانِ ليسا على ما يُفهمُ مِنْ معانيهما ؛ فإنَّهما أيضاً مِنْ جملةِ الأكوانِ .

ومعرفةُ تفصيلِ هـٰذهِ الأمورِ ، والتفرقةُ بينَ هـٰذهِ الحقائقِ على ما هي عليهِ . . موكولٌ إلى أربابِهِ ، فلنقتصرْ على ما ذكرناهُ(٢) ، فها هنا زلَّتْ أقدامُ كثيرٍ مِنَ الناسِ ، فتكلَّموا بكلماتٍ موهمةٍ ، وعبَّروا بعباراتٍ منكرةٍ في الشرعِ ، فكُفِّروا بذلكَ

---

(١) قال الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٥٢) : (ومن أعجب العجب : أن تكون الكائنات موصلة إليه ! فليت شعري ؛ هل لها وجود معه حتى توصل إليه ؟! أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له ؟!) ، وقال : (وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذي أظهرها ؟! أو معرِّفة له وهو الذي عرَّفها ؟!) .

(٢) واكتفِ بقول ابن المعتز : (من البسيط)

فكانَ ما كانَ ممَّا لستُ أذكرُهُ فظُنَّ خيراً ولا تسألْ عنِ الخبرِ

وبُدِّعوا[1] ، فاعتقدْ كمالَ التنزيهِ وبطلانَ التشبيهِ ، وتمسَّكْ بقولِهِ تعالىٰ ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ ١١] .

* * *

---

(١) قال الإمام الغزالي في « المنقذ من الضلال » (ص ١٠٠) : (ثم يترقَّى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلىٰ درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبِّر أن يعبِّر عنها إلا اشتمل لفظه علىٰ خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه ، وعلى الجملة ينتهي الأمر إلىٰ قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلولَ ، وطائفة الاتحادَ ، وطائفة الوصولَ ، وكل ذلك خطأ)

الحكمة الخامسة عشرة (*)

مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَىٰ وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ : أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ

اتَّفقَتْ مقالاتُ العارفينَ والمحقِّقينَ وإشاراتُهم ومواجيدُهم على ما ذكرناهُ قبلَ هـٰذا ؛ مِنْ أنَّ ما سوى اللهِ تعالىٰ عدمٌ محضٌ مِنْ حيثُ ذاتُهُ ، لا يُوصفُ بوجودٍ معَ اللهِ سبحانَهُ ؛ إذْ لو وُصِفَ بهِ لكانَ ذلكَ شِرْكةً واثنينيَّةً ، وهو مناقضٌ لإخلاصِ التوحيدِ(1) ، قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص 88] ، وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلشُّعَرَاءُ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا ٱللهَ بَاطِلٌ »(2)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه العدمية ، وأن أفعاله تعالىٰ من تعلقات قدرته القديمة ، فيُوصف بها من حيث التأثير ، ويُوصف بها ما سواه من حيث الأثر ، فخالق الحركة ليس بمتحرك ولـٰكنه المحرِّك ، وإلىٰ ثبوت الوجود الذاتي أيضاً ، وأن ما سواه سبحانه ممكنات ترفل في أثواب الوجود العرضي ، وأنه تعالىٰ لم تتجدَّد له صفة بعد خلق الخلق .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 88] ، **وقوله تعالىٰ حكاية** : ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ [غافر 74] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « كانَ اللهُ ولم يكنْ شيءٌ غيرُهُ » ، رواه البخاري (3191) من حديث سيدنا عمران بن الحصين رضي الله عنهما

(1) قوله : (إذ لو وصف . . .) زيادة انفردت بها النسخة (هـ) .

(2) رواه البخاري (3841) ، ومسلم (2256) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي (ج ، هـ) تتمة البيت : (وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ) ، وهو ليس من الرواية ، وقوله (باطلٌ) قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (6/178) (كذا بالتنوين) يريد أن هـٰذا يخرجه عن الشعر

قالَ بعضُ العارفينَ (أبى المحقِّقونَ أنْ يشهدوا غيرَ اللهِ ؛ لما حقَّقَهم بهِ مِنْ شهودِ القيُّوميَّةِ ، وإحاطةِ الديموميَّةِ)

وقالَ سيدي أبو الحسنِ الشاذليُّ (إنَّا لننظرُ إلى اللهِ ببصرِ الإيمانِ والإيقانِ ، فأغنانا ذلكَ عنِ الدليلِ والبرهانِ ، ونستدلُّ بهِ على الخلْقِ ، هل في الوجودِ شيءٌ سوى الواحدِ الحقِّ ؟! فلا نراهُ ، وإنْ كانَ ولا بدَّ فنراهم كالهباءِ في الهواءِ ، إنْ فتَّشتَهم لم تجدْهم شيئاً)[1]

وقالَ أيضاً رضيَ اللهُ عنهُ : (قويَ عليَّ الشهودُ مرَّةً ، فسألتُهُ أنْ يسترَ ذلكَ عنِّي ، فقيلَ لي لو سألتَهُ بما سألَهُ موسىٰ كليمُهُ ، وعيسىٰ روحُهُ ، ومحمدٌ صفيُّهُ ، صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ . . لم يفعلْ ، ولـٰكنْ سلْهُ أنْ يقوِّيَكَ ، فسألتُهُ ، فقوَّاني)[2]

قالَ ابنُ عطاءٍ في « التنويرِ » : (فما سوى اللهِ تعالىٰ عندَ أهلِ المعرفةِ لا يُوصفُ بوجدٍ ولا فقدٍ ؛ إذْ لا يوجدُ معَهُ غيرُهُ لثبوتِ أحديَّتِهِ ، ولا فقدَ لغيرِهِ لأنَّهُ لا يُفقدُ إلا ما وُجِدَ ، ولوِ انهتكَ حجابُ الوهمِ لوقعَ العِيانُ على فقدِ الأعيانِ ، ولأشرقَ نورُ الإيقانِ فغطىٰ وجودَ الأكوانِ)[3] ، وهـٰذا الكلامُ هو بسْطُ ما ذكرَهُ في هـٰذا الكتابِ

وقالَ بعضُهم : (لو كُلِّفْتُ أنْ أرىٰ غيرَهُ لم أستطعْ ؛ فإنَّهُ لا غيرَ معَهُ حتىٰ أشهدَهُ معَهُ)[4]

---

(١) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٥١) .

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ٢٧٦)

(٣) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٣٠٦) .

(٤) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ٢٧٦) ، وقال : (وهـٰذا حالُ أقوام تولتهم الرعاية ، واكتنفتهم العناية)

وقالَ الشاعرُ : [من الخفيف]

مُذْ عَرَفْتُ ٱلإِلَـهَ لَمْ أَرَ غَيْرَهْ   وَكَـذَا ٱلْغَيْـرُ عِنْـدَنَـا مَمْنُـوعُ
مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ ٱفْتِرَاقاً   وَأَنَـا ٱلْيَـوْمَ وَاصِـلٌ مَجْمُـوعُ

وقالَ غيرُهُ[1] : [من الكامل]

اللهَ قُلْ وَذَرِ ٱلْوُجُودَ وَمَا حَوَىٰ   إِنْ كُنْـتَ مُـرْتَـاداً بُلُـوغَ كَمَـالِ
فَـٱلْكُـلُّ دُونَ ٱللهِ إِنْ حَقَّقْتَـهُ   عَـدَمٌ عَلَى ٱلتَّفْصِيلِ وَٱلإِجْمَالِ
وَٱعْلَـمْ بِـأَنَّـكَ وَٱلْعَـوَالِـمَ كُلَّهَـا   لَوْلاهُ فِي مَحْوٍ وَفِي ٱضْمِحْلالِ
مَـنْ لا وُجُـودَ لِـذَاتِـهِ مِـنْ ذَاتِـهِ   فَـوُجُـودُهُ لَـوْلاهُ عَيْـنُ مُحَـالِ
فَـٱلْعَـارِفُـونَ فَنُـوا وَلَمَّـا يَشْهَـدُوا   شَيْئـاً سِـوَى ٱلْمُتَكَبِّـرِ ٱلْمُتَعَـالِ
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ هَالِكاً   فِي ٱلْحَالِ وَٱلْمَاضِي وَٱلِاسْتِقْبَالِ

وقد صنَّفوا في بيانِ هـٰذا الأمرِ تصانيفَ[2] ، وتفنَّنوا في الكلامِ في هـٰذا المعنىٰ نظماً ونثراً ، وكلٌّ عبَّرَ علىٰ حسَبِ شربِهِ وذوقِهِ ، جزاهمُ اللهُ عنَّا خيراً

فإذا تقرَّرَ هـٰذا ، ووجدنا أكثرَ الناسِ قد حُجِبوا عنِ اللهِ تعالىٰ بشهواتِهِمُ الدنيويَّةِ ، ودرجاتِهِمُ الأخرويَّةِ ، ومقاماتِهِمُ العلويَّةِ ، فكلُّ ذلكَ مِنَ الأغيارِ العدميَّةِ ، والوجوداتِ الوهميَّةِ . . علمنا بذلكَ وجودَ قهرِهِ ؛ إذْ مِنْ أسمائِهِ تعالى القهَّارُ ، ولو ارتفعَ الحجابُ عنهم لفنُوا عن أنفسِهم وإراداتِهم ، وبقُوا بربِّهم ، وكانوا عبادَ اللهِ حقّاً

وقد سُئِلَ أبو سعيدِ بنُ الأعرابيِّ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ الفناءِ ، فقالَ : الفناءُ : أنْ تبدوَ العظمةُ والإجلالُ على العبدِ ، فتنسيَهُ الدنيا والآخرةَ ، والأحوالَ والدرجاتِ ،

---

(١) الأبيات للعارف بالله تعالى الإمام أبي مدين شعيب المغربي التلمساني . انظر « ديوانه » (ص ٣٠) .
(٢) من جملتها : « مشكاة الأنوار » للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .

والمقاماتِ والأذكارَ[1] ، وتفنيَهُ عن كلِّ شيءٍ ، وعن عقلِهِ وعن نفسِهِ وعن فنائِهِ عنِ الأشياءِ ، وعن فنائِهِ عنِ الفناءِ ؛ لأنَّهُ يغرقُ في التعظيمِ عقلُهُ . انتهىٰ

قالوا والفناءُ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ فناءٌ في الأفعالِ ؛ ومنه قولُهم لا فاعلَ إلا اللهُ ، وفناءٌ في الصفاتِ ؛ لا حيَّ ولا عالمَ ولا قادرَ ولا مريدَ ولا سميعَ ولا بصيرَ ولا متكلِّمَ على الحقيقةِ إلا اللهُ ، وفناءٌ في الذاتِ ؛ لا موجودَ على الإطلاقِ إلا اللهُ[2]

وأنشدوا في ذلكَ [من الوافر]

فَيَفْنَىٰ ثُمَّ يَفْنَىٰ ثُمَّ يَفْنَىٰ فَكَانَ فَنَاؤُهُ عَيْنَ ٱلْبَقَاءِ[3]

وقالَ الشيخُ محيي الدينِ : (مَنْ شهدَ الخلْقَ لا فعلَ لهم فقد فازَ ، ومَنْ شهدَهم لا حياةَ لهم فقد جازَ ، ومَنْ شهدَهم عينَ العدمِ فقد وصلَ)

وأنشدوا في هٰذا المعنىٰ [من مخلع البسيط]

مَنْ أَبْصَرَ ٱلْخَلْقَ كَٱلسَّرَابِ فَقَدْ تَرَقَّىٰ عَنِ ٱلْحِجَابِ
إِلَىٰ وُجُودٍ يَرَاهُ رَتْقاً بِلا ٱبْتِعَادٍ وَلا ٱقْتِرَابِ
وَلَمْ يُشَاهِدْ بِهِ سِوَاهُ هُنَاكَ يُهْدَىٰ إِلَى ٱلصَّوَابِ
فَلا خِطَابٌ بِهِ إِلَيْهِ وَلا مُشِيرٌ إِلَى ٱلْخِطَابِ

* *

---

(١) في (ج) : (والمدركات) بدل (والأذكار)
(٢) في (هـ) وحدها : (وفناء في الذات ؛ أي : لا موجود . . .)
(٣) أورده شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في « إحكام الدلالة » (٣/٢) ، قال العلامة العروسي : (فقوله : « يفنىٰ » أولاً فهو عن الفعل ؛ بذوق ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقوله : « ثم يفنىٰ » ثانياً فهو عن الوصف ؛ بذوق ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ، وقوله : « ثم يفنىٰ » ثالثاً ؛ أي عن الذات ؛ بذوق « كان اللهُ ولا شيء معه ») .

الحكمة السادسة عشرة (*)

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؟!

بما أشرقَ عليهِ مِنْ نورِ الوجودِ ، وقد كانَ في ظلمةِ العدمِ ، كما تقدَّمَ(١)

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ ؟!

حتى استدلَّ عليهِ المستدلُّونَ بالأشياءِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : ٥٣] (٢) .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن القديم تعالىٰ لا يُطلب بالحسِّ والخيال ، فلا تحكم عليه سبحانه أحكامُهما ، وإلىٰ إثبات صفتي الظهور والبطون على القول بهما ، وإلىٰ ثبوت الصفات التنزيهية (السلبية) ، وإلىٰ تحقيق معنىٰ صفة الوحدانية ، وإلىٰ إثبات التعلقات التنجيزية القديمة والحادثة لصفاته المتعلقة عز وجلَّ ، وإلىٰ جواز رؤية الموجود القديم تعالىٰ عقلاً ووجوبها للمؤمنين شرعاً
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد : ٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الأنعام : ٩١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام مناجياً المولىٰ تعالى : « اللهمَّ ؛ أنتَ الأوَّلُ فليسَ قبلَكَ شيءٌ ، وأنتَ الآخرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ ، وأنتَ الباطنُ فليسَ دونَكَ شيءٌ » ، رواه مسلم (٢٧١٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) انظر (ص ٢١٦)

(٢) قوله : (وفي أنفسهم) قال حجة الإسلام الغزالي في « ميزان العمل » (ص ٧٠) : (ما أراد به ظاهر الجسد ؛ فإن ذلك تبصره البهائم فضلاً عن الناس ، وعلى الجملة : من جهل نفسه فهو بغيره=

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟!

إذْ هو المتجلِّي فيها بمحاسنِ صفاتِهِ وأسمائِهِ[1]

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ ؟!

في طورِ ذلكَ الشيءِ ، ولذلكَ كانَ ساجداً لهُ ومسبِّحاً بحمدِهِ ، ولـٰكنَّا لا نفقهُ ذلكَ .

= أجهل ، ومن رحمة الله تعالىٰ علىٰ عباده : أن جمع في شخص الإنسان علىٰ صغر حجمه من العجائب ما يكاد يوازي عجائب كل العالم ، حتىٰ كأنه نسخة مختصرة من هيئة العالم ؛ ليتوصل الإنسان بالفكر فيها إلى العلم بالله تعالىٰ) .

(١) عبَّر عن هـٰذا العارف بالله تعالىٰ عمر اليافي بقوله كما في « ديوانه » (ص٢٠٣) :

(موشح من مجزوء الرمل)

بـــاطـــنٌ أنـــت وظـــاهـــرْ	فـــي ظهـــورٍ وبطـــونِ
أوّلٌ أنـــــــت وآخـــــــرْ	فـــي عُـــلا دورِ الشـــؤونِ
ظهـــرَتْ فيـــكَ المظـــاهـــرْ	تتـــــــراءىٰ للعيـــــــونِ
لـــكَ منـــكَ الكـــلُّ صـــاروا	مثـــلاً فـــي الكـــونِ ســـائـــرْ
حسنُـــكَ الـــواحـــد شمـــسٌ	لاح فـــي جمـــعٍ تعـــدَّدْ
لسنـــــاهُ نحـــــن كـــــأسٌ	نجتلـــي معنـــىً تـــوحَّـــدْ
ولنـــا بـــالفـــرقِ أُنـــسٌ	ولجمـــعِ الغيـــبِ نشهـــدْ
وانجلـــىٰ عنّـــا الستـــارُ	فـــانجلَـــتْ عنّـــا المظـــاهـــرْ
فلـــذا همنـــا بسلمـــىٰ	وبليلـــــىٰ وبهنـــــدِ
وربـــابٍ وبـــأسمـــا	وبحسنـــا وبـــدعـــدِ
كلُّهـــا معنـــىً لأسمـــا	بصفـــات الحســـن تبـــدي
هـــي للـــوجـــه خمـــارٌ	وعلـــى الســـرِّ ستـــائـــرْ

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ؟!

لتحقُّقِ هـٰذا الاسمِ لهُ أزلاً وأبداً[1]

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

لأنَّ الوجودَ أظهرُ مِنَ العدمِ علىٰ كلِّ حالٍ[2]

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ؟!

---

(١) أراد اسمه تعالى (الظاهر) ، وكذا تحقق اسمه تعالى (الباطن) ، قال الإمام الرازي في قطعة عرفانية له في « مفاتيح الغيب » (٢٩/ ٤٤٩) : (اعلم : أنه قد ثبت أن كل ما عدا الواجب الحق فهو ممكن ، وكل ممكن فوجوده من الواجب ؛ فإذاً وصول الماهية الممكنة إلىٰ وجودها بواسطة إفادة الواجب الحق ذلك الوجود لتلك الماهية ، فالحق سبحانه هو المتوسط بين كل ماهية وبين وجودها ، فهو إلىٰ كل ماهية أقرب من وجود تلك الماهية ، ومن هـٰذا السر قال المحققون : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ، وقال المتوسطون : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه ، وقال الظاهريون : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده) .

(٢) فما سواه تعالىٰ له عدمٌ أصليٌّ ووجودٌ عرضي ، فأنَّىٰ لابن العدم أن يظاهرَ ثابتَ القِدَم ؟! بل أنَّىٰ للمعدومِ في كل حين ، وصاحبِ الأعراض التي لا تبقىٰ زمانين . . أن يساوي في وجوده من لا وجود له إلا به ؟! ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .

إذْ كلُّ ما سواهُ عدمٌ لا وجودَ لهُ على التحقيقِ[١]

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

لثبوتِ إحاطتِهِ بكَ ، ووجودِ قيُّوميَّتِهِ عليكَ[٢]

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَلَوْلاهُ لَمَا كَانَ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

حتى استدلَّ بهِ الشاهدونَ على الأشياءِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣][٣]

يَا عَجَبَا ! كَيْفَ يَظْهَرُ ٱلْوُجُودُ فِي ٱلْعَدَمِ ؟!

لأنَّ العدمَ ظلمةٌ، والوجودَ نورٌ، وهما ضدَّانِ لا يجتمعانِ[٤].

---

(١) قال حجة الإسلام الغزالي في « مشكاة الأنوار » (ص ٥٦) : (لكل شيء وجهان : وجه إلىٰ نفسه ، ووجه إلىٰ ربه ؛ فهو باعتبار وجه نفسه عدمٌ ، وباعتبار وجه الله تعالىٰ موجود ؛ فإذاً لا موجود إلا الله تعالىٰ ووجهه ، فإذاً كل شيء هالك إلا وجهه أزلاً وأبداً)

(٢) قال إمامنا الغزالي في (قواعد العقائد) من كتاب « إحياء علوم الدين » (١/ ٣٣٣) : (وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد ، وهو علىٰ كل شيء شهيد ؛ إذ لا يماثل قربُهُ قربَ الأجسام ، كما لا تماثلُ ذاته ذات الأجسام)

(٣) وهـٰذه طريقة المحققين التي أشار إليها الإمام الرازي كما تقدم تعليقاً (ص ٢٢٥) ، وإليها أشار العارف بالله تعالىٰ أبو مدين التلمساني في أبياته العرفانية التي أوردها الإمام الشارح (ص ٢٢١)

(٤) كما تقدم (ص ٢١٦) ، وقوله : (يا عجبا) كذا بغير تنوين ؛ لأن ألفه منقلبة عن الياء في المنادى=

أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ ٱلْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ ٱلْقِدَمِ ؟!

لأنَّ الباطلَ لا يثبتُ معَ ظهورِ الحقِّ ؛ كما قالَ تعالىٰ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ، وقولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

قلتُ : وهٰذا الفصلُ مِنْ قولِهِ : (الكونُ كلُّهُ ظلمةٌ) إلىٰ هنا[١] . . أبدعَ فيهِ المؤلِّفُ غايةَ الإبداعِ ، وأتىٰ فيهِ بما تَقَرُّ بهِ الأعينُ وتلذُّ بهِ الأسماعُ ؛ فإنَّهُ رضيَ اللهُ عنهُ ذكرَ جميعَ متعلَّقاتِ الظهورِ ، وأبطلَ حجابيَّةَ كلِّ ظلامٍ ونورٍ[٢] ، وأراكَ فيهِ الحقَّ رؤيةَ عِيانٍ وبرهانٍ ، ورفعَكَ مِنْ مقامِ الإيمانِ إلىٰ أعالي مراتبِ الإحسانِ ، كلُّ ذلكَ في أوجزِ لفظٍ وأفصحِ عبارةٍ ، وأتمِّ تصريحٍ وألطفِ إشارةٍ ، فلو لم يكنْ في هٰذا الكتابِ إلا هٰذا الفصلُ لكانَ كافياً شافياً ، فجزاهُ اللهُ عن ذلكَ خيراً[٣] .

* * *

= المضاف ، والأصل : يا عجبي

(١) يعني : من الحكمة الرابعة عشرة إلىٰ هنا .

(٢) كما بيَّن الإمام الغزالي في « مشكاة الأنوار » ، وعند مسلم (١٧٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « حجابُهُ النورُ ، لو كشفَهُ لأحرقت سبحاتُ وجهِهِ ما انتهىٰ إليهِ بصرُهُ مِنْ خلقِهِ » .

(٣) وبهٰذا ينتهي الباب الأول ، وعلامة كل باب في النسخة (د) : ابتداؤها بعبارة : (قال رضي الله عنه) ، قال العلامة زروق في « الطرر والحواشي » (ص ٤٥) : (**واعلمْ** : أن هٰذا الفصل هو نخبة الكتاب ، ولُباب الألباب ، غيرَ أنه معدنُ غرور الجهَّال ، ومزلة أقدام الرجال ، فمن منكرٍ بالباطل ، ومتعصب لما هو به جاهل ، فاعتقد كمال التنزيه ونفي التشبيه ، وتمسَّك بقوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، وتجنَّب أباطيل من تفلسف مع ادعائه التصوف)

الباب الثاني

في إرادة غير المراد

الحكمة السابعة عشرة (*)

وقال رضي الله عنه :

مَا تَرَكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ شَيْئاً مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ فِي ٱلْوَقْتِ غَيْرَ مَا أَظْهَرَهُ ٱللهُ فِيهِ

إذا أقامَ اللهُ تعالى العبدَ في حالٍ مِنَ الأحوالِ التي لا يذمُّها الشرعُ . . فليلزمْ حسْنَ الأدبِ في اختيارِ بقائِهِ عليها ورضاهُ بها ، وليراقبِ اللهَ تعالىٰ في مراعاةِ آدابِها ، وليوافقْ مرادَ اللهِ تعالىٰ في ذلكَ حتىٰ يكونَ هو الذي ينقلُهُ عنها

قالَ أبو عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ : (منذُ أربعينَ سنةً ما أقامَني اللهُ في حالٍ فكرهتُهُ ، ولا نقلَني إلىٰ غيرِهِ فسخطتُهُ)(١)

وقد تقدَّمَتْ حكايةُ المؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ معَ شيخِهِ أبي العباسِ ؛ حينَ عزمَ على

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تحقيق معنى الإسلام ؛ وهو الاستسلام والخضوع لله تعالىٰ ولأحكامه ، وإلى الإيمان بالقضاء والقدر ، وأن أقداره تعالىٰ لا تغالب ، وإلىٰ إثبات صفة الحكمة على القول بها ، وتحقيق أن العلم القديم لا ينقلب جهلاً
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء ٦٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام مناجياً مولاه تعالىٰ « تعلمُ ولا أعلمُ ، وأنت علامُ الغيوب. . . » إلىٰ تمام دعاء الاستخارة الذي رواه البخاري (٦٣٨٢) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٤٤) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٥٨) .

التجريدِ ، وترْكِ ما كانَ عليهِ مِنَ الاشتغالِ بالعلمِ الظاهرِ ، وما أجابَهُ بهِ الشيخُ[1] ، وهـٰذا مِنْ نتائجِ العلمِ باللهِ تعالىٰ ومعرفةِ ربوبيّتِهِ ؛ فإنَّ مَنْ سخطَ تلكَ الحالَ ، وتشوَّفَ إلى الانتقالِ عنها بنفسِهِ ، وأرادَ أنْ يُحدثَ غيرَ ما أظهرَهُ اللهُ تعالىٰ . . فقد بلغَ غايةَ الجهلِ بربِّهِ ، وأساءَ الأدبَ في حضرةِ مولاهُ عزَّ وجلَّ ، وهـٰذا مِنْ معارضةِ حُكْمِ الوقتِ الذي تشيرُ إليهِ الصوفيّةُ ، وهو عندَهم مِنْ أعظمِ ذنوبِ الخاصّةِ

فالواجبُ على العبدِ الاستسلامُ لحكْمِ اللهِ تعالىٰ في ذلكَ الوقتِ ؛ فهو أدبُ العبوديّةِ ومقتضى العلمِ باللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا هو أحدُ معاني لفظِ (الوقتِ) في اصطلاحِهم

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ رضيَ اللهُ عنهُ (وقد يريدونَ بالوقتِ : ما يصادفُهم مِنْ تصريفِ الحقِّ لهم دونَ ما يختارونَ لأنفسِهم ، ويقولونَ فلانٌ بحكْمِ الوقتِ ؛ أي إنَّهُ مستسلمٌ لما يبدو مِنَ الغيبِ مِنْ غيرِ اختيارٍ ، وهـٰذا فيما ليسَ للهِ عزَّ وجلَّ عليهم فيهِ أمرٌ أوِ اقتضاءٌ بحقٍّ شرعٍ ؛ إذِ التضييعُ لما أُمرتَ بهِ ، وإحالةُ الأمرِ فيهِ على التقديرِ ، وتركُ المبالاةِ بما يحصلُ منكَ مِنَ التقصيرِ . . خروجٌ عنِ الدينِ

ومِنْ كلامِهِمْ : الوقتُ سيفٌ[2] ؛ أي : كما أنَّ السيفَ قاطعٌ . . فالوقتُ بما يقتضيهِ الحقُّ ويجريهِ غالبٌ .

وقيلَ : السيفُ ليِّنٌ مسُّهُ ، قاطعٌ حدُّهُ ؛ فمَنْ لاينَهُ سلمَ ، ومَنْ خاشنَهُ اصطُلِمَ ؛

---

(١) انظر (ص ١٦٩)

(٢) هو من كلام الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ ؛ فقد روى البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/٢٠٨) عنه أنه قال : (صحبت الصوفية عشر سنين ، ما استفدت منهم إلا هـٰذين الحرفين : الوقت سيف ، ومن العصمة ألا تقدر) ، وفي هـٰذه العبارة إشكال ، ولذا عقَّبها الحافظ البيهقي بقوله : (وبلغني أنه رأىٰ من بعض من تسمَّىٰ باسم الصوفية ما كرهَ ، فخرج قوله في ذمِّ أمثاله) ثم حكىٰ خبر هـٰذا المتصوف الجاهل

وكذلكَ الوقتُ ؛ مَنِ استسلمَ لحكمِهِ نجا ، ومَنْ عارضَهُ بتركِ الرضا انتكسَ وتردَّىٰ ، وأنشدوا(١) : [من الطويل]

وَكَالسَّيْفِ إِنْ لايَنْتَهُ لانَ مَسُّهُ وَحَدَّاهُ إِنْ خَاشَنْتَهُ خَشِنَانِ

ومَنْ ساعدَهُ الوقتُ فالوقتُ لهُ وقتٌ ، ومَنْ ناكدَهُ الوقتُ فالوقتُ عليهِ مقتٌ)(٢) ، هـٰذا كلامُ الإمامِ أبي القاسمِ ، وهو موافقٌ لما ذكرَهُ صاحبُ الكتابِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) نسبه الثعالبي في « الإعجاز والإيجاز » (ص ١٥٧) لأبي الشيص ، وقال : (لم يسبق إليه) .
(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٣٣) .

الحكمة الثامنة عشرة (*)

إِحَالَتُكَ ٱلْأَعْمَالَ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْفَرَاغِ . . مِنْ رُعُونَاتِ ٱلنَّفْسِ

إذا كانَ العبدُ متلبِّساً بحالٍ مِنْ أحوالِ دنياهُ ، وكانَ لهُ فيها شغلٌ يمنعُهُ مِنَ العملِ بالأعمالِ الصالحةِ ، وأحالَ ذلكَ العملَ علىٰ فراغِهِ مِنْ تلكَ الأشغالِ ، وقالَ إذا تفرَّغْتُ عملتُ . . فذلكَ مِنْ رعونةِ نفسِهِ

والرعونةُ : ضربٌ مِنَ الحماقةِ ، وحماقتُهُ مِنْ وجوهٍ

الأوَّلُ إيثارُهُ الدنيا على الآخرةِ ، وليسَ هٰذا شأنَ عقلاءِ المؤمنينَ ، وهٰذا خلافُ ما طُلِبَ منهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ ١٦ـ١٧]

والثاني تسويفُهُ بالعملِ إلىٰ أوانِ فراغِهِ(١) ، وقد لا يجدُ مهلةً ، بل يخطَفُهُ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات الكسب ، والتحسين والتقبيح الشرعيين ، وإلىٰ أن العجز والكيس وإن كانا من القدر فليس للعبد أن يحتجَّ به ، وأن لله تعالىٰ حقاً علىٰ عباده في كل وقت .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح ٧ـ٨] ، وقوله تعالىٰ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام مناجياً ومعلِّماً لأمته « اللهمَّ ؛ إني أعوذ بك من العجز والكسل » ، رواه البخاري (٢٨٢٣) ، ومسلم (٢٧٠٦) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، وقوله عليه الصلاة والسلام « أحببْ مَنْ أحببْتَ فإنَّكَ مفارقُهُ » ، رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٤) من حديث سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه

(١) قال الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٩/ ٣٤٢) : (وأكثر أهل النار صياحهم من « سوف » ، يقولون وا حزناهْ من « سوف » ، والمسوِّف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليومَ هو معه غداً ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً)

الموتُ قبلَ ذلكَ ، أو يزدادُ شغلُهُ ؛ لأنَّ أشغالَ الدنيا يتداعىٰ بعضُها إلىٰ بعضٍ ؛ كما قيلَ[1] [من البسيط]

فَمَا قَضَىٰ أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَلا ٱنْتَهَىٰ أَرَبٌ إلا إِلَىٰ أَرَبِ

والثالثُ : إنْ تفرَّغَ منها ما الذي يؤمِّنُهُ مِنْ تبدُّلِ عزمِهِ وضعفِ نيَّتِهِ ؟!

ثم فيهِ مِنْ دعوى الاستقلالِ ، ورؤيةِ الحولِ والقوَّةِ في جميعِ الأحوالِ . . ما يُستحقرُ في جنبِهِ جميعُ هٰذا

بلِ الواجبُ عليهِ : أنْ يبادرَ إلى الأعمالِ علىٰ أيِّ حالةٍ ، وأنْ ينتهزَ فرصةَ الإمكانِ قبلَ مفاجأةِ الموتِ وحلولِ الفوتِ ، وأنْ يتوكَّلَ على اللهِ في تيسُّرِها عليهِ ، وصرفِ الموانعِ الحائلةِ بينَهُ وبينَها

وما أحسنَ قولَ ابنِ الفارضِ رحمةُ اللهِ عليهِ في هٰذا المعنىٰ[2] [من الطويل]

وَعُدْ مِنْ قَرِيبٍ وٱسْتَجِبْ وٱجْتَنِبْ غَداً ... وَشَمِّرْ عَنِ ٱلسَّاقِ ٱجْتِهَاداً بِنَهْضَةِ
وَكُنْ صَارِماً كَٱلْوَقْتِ فَٱلْمَقْتُ فِي (عَسَىٰ) ... وَإِيَّاكَ (عَلَّي) فَهْيَ أَخْطَرُ عِلَّةِ
وَسِرْ زَمِناً وٱنْهَضْ كَسِيراً فَحَظُّكَ ٱلْـ ... ـبَطَالَةُ مَا أَخَّرْتَ عَزْماً لِصِحَّةِ
وَجُذَّ بِسَيْفِ ٱلْعَزْمِ (سَوْفَ) فَإِنْ تَجُدْ ... تَجِدْ نَفَساً فَٱلنَّفْسُ إِنْ جُدْتَ جَدَّتِ

* *

---

(١) البيت للمتنبي ضمن قصيدة له . انظر « ديوانه » (ص ٤٣٦) ، واللبانة : الحاجة ، والأرب كذلك

(٢) انظر « ديوانه » (ص ٦٣)

الحكمة التاسعة عشرة (*)

لا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيمَا سِوَاهَا ، فَلَوْ أَرَادَكَ لاسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ .

كما أنَّهُ إذا كانَ المرءُ على حالةٍ لا توافقُ غرضَهُ ـ كانَتْ متعلِّقةً بالدينِ أو بالدنيا ـ لا ينبغي لهُ أنْ يرومَ الخروجَ منها بنفسِهِ ، ويعارضَ حكْمَ وقتِهِ ، فيحدثَ فيهِ غيرَ ما أظهرَهُ اللهُ ، كما تقدَّم في قولِهِ (ما تركَ مِنَ الجهلِ شيئاً مَنْ أرادَ أنْ يُحدِثَ في الوقتِ غيرَ ما أظهرَهُ اللهُ فيهِ) معَ الشرطِ المتقدِّمِ[1] ؛ وهو ألا يكونَ في ذلكَ مخالفةُ أمرٍ أوِ ارتكابُ نهْيٍ . . فينبغي لهُ أيضاً ألا يعارضَ حكْمَ الوقتِ ، ويطلبَ مِنْ مولاهُ أنْ يخرجَهُ منها ويستعملَهُ فيما سواها ؛ لأنَّ هٰذا مِنَ التخيُّرِ على اللهِ تعالىٰ ، ولا خيرَ لهُ في ذلكَ ، بل ينبغي لهُ حسْنُ الأدبِ معَهُ ، وإيثارُ مرادِهِ على اختيارِهِ هو ، وحينَئذٍ يتحقَّقُ بحالٍ يتعرَّفُ فيها محبةَ اللهِ تعالىٰ وإرادتَهُ لهُ ، فيستعملُهُ استعمالاً

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى التحقُّق بمعنى الإسلام ؛ وأنه الإذعان المطلق لله تعالىٰ ، وأن أفعال الله تعالىٰ لا تعلل ، وأنها عين الحكمة ، وأثرها راجع إلى العبد ، وأن الدعاء ينفع بمشيئة الله تعالىٰ ، وأن السكون والخضوع مع موافقة الشرع أنفع من الدعاء وأكمل أحياناً

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة : ٥٩] يعني : لكان خيراً لهم ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، وقوله تعالىٰ ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر ٤٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يقولُ الربُّ عزَّ وجلَّ : مَنْ شغلَهُ القرآنُ عن ذكري ومسألتي . . أعطيتُهُ أفضلَ ما أعطي السائلينَ » ، رواه الترمذي (٢٩٢٦) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٢٣١)

محبوباً عندَهُ معَ بقائِهِ على حالتِهِ التي هو عليها ، فيكونُ إذْ ذاكَ بمرادِ اللهِ تعالى لهُ ، لا بمرادِهِ لنفسِهِ ، وهو خيرٌ ممَّا اختارَهُ[١].

قالَ في « التنويرِ » (يُحكى عن بعضِهم أنَّهُ كانَ يقولُ ودِدتُ لو أنّي تركتُ الأسبابَ وأُعطيتُ كلَّ يومٍ رغيفينِ ؛ يريدُ بذلكَ أنْ يستريحَ مِنْ تعبِ الأسبابِ ، قال : فسُجنتُ ، ثم كنتُ في السجنِ يُؤتى إليَّ كلَّ يومٍ برغيفينِ ، فطالَ عليَّ ذلكَ حتى ضجرتُ ، ففكَّرْتُ يوماً في أمري ، فقيلَ لي : إنَّكَ طلبتَ منَّا كلَّ يومٍ رغيفينِ ، ولم تطلبْ منَّا العافيةَ ، فأعطيناكَ ما طلبتَ ، فاستغفرتُ مِنْ ذلكَ ، ورجعتُ إلى اللهِ تعالى ، فإذا ببابِ السجنِ يُقرعُ ، فتخلَّصْتُ وخرجتُ)[٢]

قالَ فيهِ : (فتأدَّبْ بهٰذا أيُّها المؤمنُ ، ولا تطلبْ أنْ يخرجَكَ مِنْ أمرٍ ويدخلَكَ فيما سواهُ إذا كانَ ما أنتَ فيهِ ممَّا يوافقُ لسانَ العلمِ ، فإنَّ ذلكَ مِنْ سوءِ الأدبِ معَ اللهِ تعالى ، فاصبرْ لئلا تطلبَ الخروجَ بنفسِكَ ، فتُعْطى ما طلبتَ وتُمنعَ الراحةَ فيهِ ، فربَّ تاركٍ شيئاً أو داخلٍ في غيرِهِ ليجدَ الثروةَ والراحةَ ، فتَعِبَ وقُوبلَ بوجودِ التعسُّرِ ؛ عقوبةً لوجودِ الاختيارِ) انتهى كلامُهُ في « التنويرِ »[٣] ، وهو كالتفسيرِ لما ذكرَهُ ها هنا ، فلذلكَ أوردتُهُ

*

---

(١) ونقل الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٥٦٠) عن الواسطي : (اختيارُ ما جرىٰ لك في الأزل خير لك من معارضة الوقت) .

(٢) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٥٨) ، وكان هـٰذا الرجل يعمل حمَّالاً ، وخبره في « الرسالة القشيرية » (ص ٧٦٣) .

(٣) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٥٩) .

الحكمة العشرون (*)

مَا أَرَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا إِلا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ ، وَلا تَبَرَّجَتْ ظَوَاهِرُ ٱلْمُكَوَّنَاتِ إِلا نَادَتْهُ حَقَائِقُهَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

السائرُ إلى اللهِ تعالىٰ تتجلَّىٰ لهُ في أثناءِ سلوكهِ أنوارٌ ، وتبدو لهُ أسرارٌ ؛ فإنْ أرادَتْ همتُهُ أنْ تقفَ عندَ ما كُشِفَ لها مِنْ ذلكَ ؛ لاعتقادِهِ أنَّهُ وصلَ إلى الغايةِ والنهايةِ مِنَ المعرفةِ . . نادتْهُ هواتفُ الحقيقةِ : المطلوبُ الذي تطلبُ أمامَكَ ، فجُدَّ في السيرِ ولا تقفْ ، وإنْ تبرَّجَتْ لهُ ظواهرُ المكوَّناتِ بزينتِها ، فمالَ إلىٰ حُسْنِها وجمالِها . . نادتْهُ حقائقُها الباطنةُ : إنَّما نحنُ فتنةٌ فلا تكفرْ ، وغمِّضْ عينيكَ عن ذلكَ ، ولا تلتفتْ إليهِ ، ودُمْ علىٰ سلوكِكَ وسيرِكَ(١)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الهداية والضلال من أفعال الله تعالىٰ ، وأنه سبحانه لا يجب عليه فعل شيء أو تركه ، وأن مقدورات الله تعالىٰ لا نهاية لها من حيث سعة القدرة ، وأن معرفة الله تعالىٰ لا حدَّ لها ولا نهاية ، وفوق كل ذي علم عليم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحىٰ ٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « مَنْ كانَ اعتكفَ معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم . . فليرجعْ ؛ فإني أُريتُ ليلةَ القدرِ ، وإني نُسِّيتُها ، وإنَّها في العشرِ الأواخرِ في وترٍ » ، وكان صلى الله عليه وسلم قد اعتكف العشر الأُول والأواسط ، فجاءَه جبريل فقال له : « إنَّ الذي تطلبُ أمامَكَ » ، رواه البخاري (٨١٣) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

(١) قال العارف بالله تعالىٰ أحمد الرفاعي في « البرهان المؤيد » (ص ٧٧) : (قلت لسيدي =

واعلمْ : أنَّهُ ما دامَتْ لكَ همَّةٌ وإرادةٌ فأنتَ بعدُ في الطريقِ لم تصلْ ، فلو فنيتَ عنهما لوصلْتَ

وما أحسنَ قولَ الشيخِ أبي الحسنِ الشُّشْتَرِيِّ في هـٰذا المعنىٰ[1] [من الطويل]

فَلا تَلْتَفِتْ فِي ٱلسَّيْرِ غَيْراً فَكُلُّ مَا ... سِوَى ٱللهِ غَيْرٌ فَٱتَّخِذْ ذِكْرَهُ حِصْنَا
وَكُــلُّ مَقَــامٍ لا تَقُــمْ فِيــهِ إِنَّــهُ ... حِجَابٌ فَجُدَّ ٱلسَّيْرَ وَٱسْتَنْجِدِ ٱلْعَوْنَا
وَمَهْمَا تَرَىٰ كُلَّ ٱلْمَرَاتِبِ تَنْجَلِي ... عَلَيْكَ فَحُلْ عَنْهَا فَعَنْ مِثْلِهَا حُلْنَا
وَقُلْ لَيْسَ لِي فِي غَيْرِ ذَاتِكَ مَطْلَبٌ ... فَلا صُورَةٌ تُجْلَىٰ وَلا طَرْفَةٌ تُجْنَىٰ

وقد رأيتُ لسيدي أبي الحسنِ الشاذليِّ رضيَ اللهُ عنهُ كلاماً حسناً مناسباً لما ذكرَهُ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ها هنا ؛ مِنَ الترقِّي في الأحوالِ ، وظهورِ النقصِ في رؤيةِ الكمالِ[2] ، فرأيتُ أنْ أذكرَهُ ها هنا بنصِّهِ ؛ لما فيهِ مِنْ سنيِّ الفوائدِ ، وشريفِ المقاصدِ ، قالَ رضيَ اللهُ عنهُ

(اعلمْ : أنَّكَ إذا أردتَ أنْ يكونَ لكَ نصيبٌ ممَّا لأولياءِ اللهِ تعالىٰ . . **فعليكَ برفضِ الناسِ جملةً** ، إلا مَنْ يدلُّكَ على اللهِ تعالىٰ بإشارةٍ صادقةٍ وأعمالٍ ثابتةٍ ، لا ينقضُها كتابٌ ولا سنةٌ ، **وأعرضْ عنِ الدنيا بالكليَّةِ** ، ولا تكنْ ممَّنْ يعرضُ عنها ليُعطىٰ شيئاً علىٰ ذلكَ ، بل كُنْ في ذلكَ عبداً للهِ أمرَكَ أنْ ترفضَ عدوَّهُ ، فإنْ أتيتَ بهاتينِ الخصلتينِ الإعراضِ عنِ الناسِ ، والزهدِ في الدنيا . . فأقمْ معَ اللهِ بالمراقبةِ ، والتزامِ التوبةِ بالرعايةِ ، والاستغفارِ بالإنابةِ ، والخضوعِ للأحكامِ بالاستقامةِ .

= عبد الملك الخرنوتي قدس الله سرَّهُ : أوصني ، قال لي : « يا أحمدُ ؛ ملتفت لا يصل ، ومشكك لا يفلح ، ومن لم يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان » ، فبقيت سنة أردِّد وصية الشيخ ، وما يخطر لي خاطر إلا أذكرها ، فيزول عني)

(١) من قصيدته النونية المشهورة . انظر « ديوانه » (ص ٧٢) ، وفي (ج) : (تجتلى) بدل (تنجلي)

(٢) في (أ) : (وطروء) بدل (وظهور)

وتفسيرُ هـٰذهِ الوجوهِ الأربعةِ : أنْ تقومَ عبداً للهِ فيما تأتي وما تذرُ ، وتراقبَ قلبَكَ ألا ترىٰ في المملكةِ شيئاً لغيرِهِ

فإنْ أتيتَ بهـٰذا نادتْكَ هواتفُ الحقِّ مِنْ أنوارِ العزِّ : إنَّكَ قد عميتَ عن طريقِ الرشدِ ، مِنْ أينَ لكَ القيامُ معَ اللهِ بالمراقبةِ وأنتَ تسمعُ قولَهُ تعالىٰ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] ؟!

فهنالكَ يدركُكَ مِنَ الحياءِ ما يحملُكَ على التوبةِ ممَّا ظننتَ أنَّهُ قربةٌ ، فالتزمِ التوبةَ بالرعايةِ لقلبِكَ ألا يشهدَ ذلكَ منكَ بحالٍ ، فتعودَ إلىٰ ما خرجتَ عنهُ .

فإنْ صحَّتْ هـٰذهِ منكَ نادتْكَ الهواتفُ أيضاً مِنْ قِبَلِ الحقِّ التوبةُ منهُ بدأَتْ ، والإنابةُ منهُ تتبعُها ، واشتغالُكَ بما هو وصفٌ لكَ حجابٌ عن مرادِكَ .

فهنالكَ تظهرُ أوصافُكَ ، فتستعيذُ باللهِ منها ، وتأخذُ في الاستغفارِ والإنابةِ ، والاستغفارُ : طلبُ السترِ مِنْ أوصافِكَ بالرجوعِ إلىٰ أوصافِهِ

فإنْ كنتَ بهـٰذهِ الصفةِ ؛ أعني الاستغفارَ والإنابةَ . . ناداكَ مِنْ قريبٍ : اخضعْ لأحكامي ، ودَعْ عنكَ منازعتي ، واستقمْ معَ إرادتي برفضِ إرادتِكَ ، وإنَّما هي ربوبيَّةٌ تولَّتْ عبوديَّةً ، وكُنْ عبداً مملوكاً لا يقدرُ علىٰ شيءٍ(١) ، فمتىٰ رأيتُ منكَ قدرةً وكلتُكَ إليها وأنا بكلِّ شيءٍ عليمٌ ، فإنْ صحَّ لكَ هـٰذا البابُ ولزمتَ . . أشرفتَ مِنْ هنالكَ علىٰ أسرارٍ لا تكادُ تُسمعُ مِنْ أحدٍ مِنَ العالمينَ)(٢)

* * *

---

(١) إشارة إلىٰ خلق أفعال العباد من قوله سبحانه : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٧٥]

(٢) ونقله ابن عباد في « المفاخر العلية » (ص ٧١) في فصل (المراقبة) .

الحكمة الحادية والعشرون (*)

طَلَبُكَ مِنْهُ ٱتِّهَامٌ لَهُ ، وَطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ مِنكَ عَنْهُ ، وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقِلَّةِ حَيَائِكَ مِنْهُ ، وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لِوُجُودِ بُعْدِكَ عَنْهُ

الطلبُ الذي يُتصوَّرُ مِنَ العبدِ على أربعةِ أوجهٍ ، كلُّها مدخولةٌ معلولةٌ : طلبُهُ مِنَ اللهِ ، وطلبُهُ لهُ ، وطلبُهُ لغيرِهِ ، وطلبُهُ مِنْ غيرِهِ

فطلبُهُ مِنَ اللهِ تُهَمَةٌ لَهُ ؛ إذْ لو وَثِقَ بهِ في إيصالِ منافعِهِ إليهِ مِنْ غيرِ سؤالٍ . . لَمَا طلبَ منهُ شيئاً ، وطلبُهُ لهُ غَيبةٌ عنهُ ؛ إذِ الحاضرُ لا يُطلبُ ، وطلبُهُ لغيرِهِ قلَّةُ حياءٍ منهُ ؛ إذْ لوِ استحيا منهُ انقبضَ عمَّا يكرهُهُ لهُ مِنْ طلبِهِ لغيرِهِ ، ومِنْ حقِّ الحياءِ منهُ ألا يذكرَ معَهُ غيرَهُ ، ولا يُؤْثِرَ عليهِ سواهُ ، وطلبُهُ مِنْ غيرِهِ لوجودِ بُعدِهِ عنهُ ؛ إذْ لو كانَ قريباً منهُ لكانَ غيرُهُ بعيداً عنهُ ، فلا يطلبُ منهُ

فالطلبُ كلُّهُ عندَ الموحِّدينَ العارفينَ معلولٌ ؛ كانَ الطلبُ متعلِّقاً بالحقِّ أو

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ وجوب المعرفة علىٰ كل مكلف ، وأنه تعالىٰ لا فعَّال سواه ، وأن الدعاء نافع ولا يغيِّر من أحكام الأزل شيئاً ، وأنه سبحانه عمَّ المؤمنين برحمته عند دخول الجنة فضلاً دون مقابلة ، وأن الخلق في معرفة الحق علىٰ رُتبٍ لا تكاد تُحصىٰ ، وأنه عز وجل سميع بصير ، أحاط علمه وعمَّت حكمته كل شيء ، وأنه الظاهر الباطن ، وأن الدعاء محض عبادة
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود : ٤٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام مناجياً المولىٰ تعالىٰ في الإهلال : « لبيكَ وسعديكَ ، والخيرُ في يديكَ » ، رواه مسلم (١١٨٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

بالخلْقِ ، إلا ما كان مِنَ الطلبِ على وجْهِ التعبُّدِ والتأدُّبِ واتِّباعِ الأمرِ ، وإظهارِ الفاقةِ والفقرِ ، فحينَئذٍ تزولُ عنهُ العلَّةُ[1]

* *

---

(١) وبه تعلم الفرق بين الطلب المذموم والدعاء المحمود المطلوب شرعاً ؛ فقد روى الترمذي (٣٣٧١) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « الدعاء مخُّ العبادةِ » ؛ إذ سؤاله تعالىٰ متضمِّن لحقائق اعتقادية ؛ أنه لا مؤثِّرَ على الحقيقة إلا الله ، والمؤثِّر الحق الفرد قديم لا يفنىٰ ، وسؤاله دليل حضوره في قلب الداعي ، فيحصل ذكر الله تعالىٰ حقاً

الحكمة الثانية والعشرون (*)

مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ ، إلا وَلَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيهِ

الأنفاسُ أزمنةٌ دقيقةٌ تتعاقبُ على العبدِ ما دامَ حيّاً ، فكلُّ نفَسٍ يبدو منهُ . . ظرفٌ لقدَرٍ مِنْ أقدارِ الحقِّ تعالىٰ يُنْفذُ فيهِ كائناً ما كانَ

فإذا كانَتْ جزئيّاتُ العبدِ ودقائقُهُ قدِ استغرقَتْها أحكامُ اللهِ تعالىٰ وأقدارُهُ ، وكانَ جميعُ ذلكَ يقتضي منهُ حقوقاً لازمةً مِنْ حقوقِ اللهِ تعالىٰ يقومُ بها ، وهو مطالبٌ بذلكَ ومسؤولٌ عنهُ وعن أنفاسِهِ التي هي أمانةٌ للحقِّ عندَهُ . . لم يبقَ لهُ إذْ ذاكَ مجالٌ لتدبيرِ أمورِ دنياهُ ، ولا محلٌّ لمتابعةِ شهوتِهِ وهواهُ

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى الإيمان بالقضاء والقدر ، وأن الأفعال اضطراراً واختياراً بإرادة الله تخصيصاً وقدرته إيجاداً ، وأنْ ليس للعبد إلا الكسب ، وهو مَجلىً لتجليات الحق فيما سبق به علمه ، وإلى القول بالجوهر الفرد في الزمان .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : ٦١] ، وقوله تعالىٰ ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مِنْ شأنِهِ أن يغفرَ ذنباً ، ويفرِّجَ كرباً ، ويرفعَ قوماً ، ويضعَ آخرينَ » ، رواه ابن ماجه (٢٠٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٨٩) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه

الحكمة الثالثة والعشرون (*)

لا تَتَرَقَّبْ فُرُوغَ ٱلْأَغْيَارِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ ٱلْمُرَاقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمُكَ فِيهِ

إذا أقامَ اللهُ تعالىٰ عبداً في سببٍ مِنَ الأسبابِ . . فالواجبُ عليهِ : أنْ يُوفِّيَهُ حقَّهُ ، ويلتزمَ فيهِ الأدبَ ، ولا يترقَّبَ وقتاً ثانياً يكونُ فيهِ فارغاً منهُ ؛ فإنَّ تأميلَهُ للوقتِ الثاني يمنعُهُ مِنَ القيامِ بحقِّ الوقتِ الأوَّلِ فيما أُقيمَ فيهِ ، وتوفيتِهِ ما يجبُ لهُ ، وهو خلافُ الأمرِ المطلوبِ منهُ ، فليجتنبْ ذلكَ المريدُ

قالَ أبو حفصٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الفقيرُ الصادقُ الذي يكونُ في كلِّ وقتٍ بحكمِهِ ، فإذا وردَ عليهِ واردٌ يشغلُهُ عن حكمِ وقتِهِ . . يستوحشُ منهُ وينفيهِ)[1]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ (إذا جَنَّكَ الليلُ فلا تَأْمَلِ النهارَ حتىٰ تسلمَ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن حقائق الأشياء ثابتة ؛ فالأغيار ثابتة ، وأن لله تعالىٰ على العباد حقوقاً وجبت شرعاً لا عقلاً ، وأنه سبحانه أجرىٰ سنته بألا ينفكَّ العبد عمَّا يشغله عن مولاه ؛ ليتحقق التكليف في كل لحظة ، وأنه تعالىٰ من أسمائه الرقيب ؛ وهو الذي يراعي الأشياء فلا يغفُلُ عنها ؛ لكونه عليماً حفيظاً

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد ٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء ١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل » ، وكان ابن عمر يقول : (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك) ، رواه البخاري (٦٤١٦) .

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١١٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٣٠)

ليلتُـكَ تلـكَ ، وتـؤدِّيَ حـقَّ اللهِ فيهـا ، وتنصـحَ فيهـا لنفسِـكَ ، وإذا أصبحـتَ فكذلكَ)[1]

وسُئِلَ سهلٌ رضيَ اللهُ عنهُ : متىٰ يستريحُ الفقيرُ ؟ فقالَ إذا لم يرَ وقتاً غيرَ الوقتِ الذي هو فيهِ[2]

* *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٩٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٩٥) ، وفيه (لك) بدل (تلك) ، وفي (هـ) وحدها زيادة شبه أجنبية ؛ وهي : (قال البغوي في « تفسيره » عند قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] : الشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنىٰ والفقر ، وقيل بما تحبون وما تكرهون ؛ لننظر شكركم فيما تحبون ، وصبركم فيما تكرهون) .

الحكمة الرابعة والعشرون (*)

لَا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ ٱلْأَكْدَارِ ، مَا دُمْتَ فِي هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ ؛ فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ إِلا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصْفِهَا ، وَوَاجِبُ نَعْتِهَا

جعلَ اللهُ تعالى الدنيا دارَ فتنةٍ وابتلاءٍ ؛ ليعملَ كلُّ أحدٍ فيها على مقتضى ما سبقَ لهُ ، ويُوفَّى جزاءَهُ في الدارِ الآخرةِ ، قالَ اللهُ تعالى ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

وعملُ كلِّ أحدٍ فيها إنَّما هو مخالفةُ شهواتِ نفسِهِ أو موافقتُها ، وذلكَ ـ لا محالةَ ـ يستدعي وجودَ محبوبٍ أو مكروهٍ بفعلٍ أو بتركٍ ، فمِنْ ضروريَّاتِ الدنيا وجدانُ المكارهِ والمشاقِّ فيها ، فتقعُ الأكدارُ بسببِ ذلكَ

وأيضاً : فحاصلُ الدنيا أمورٌ وهميَّةٌ انقادَتْ طباعُ الناسِ إليها ، وهي لا تفي بجميعِ مطالبِهم ؛ لضيقِها وقلَّتِها ، وسرعةِ تقضِّيها ونُقلتِها ، فتجاذبوها بينَهم ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى أن الممكنات في ذاتها متساوية النسبة لقدرة القديم سبحانه ، إلا أن إرادته الأزلية خصَّصت بعضها بوصف دون وصف ، فكان من حكمه تعالى أن الدنيا دار ابتلاء وافتتان ؛ لتظهر حقائق معادن الإنسان للإنسان ، فما أوجدَنا فيها إلا ليظهِرَ لنا ما سبق من علمه القديم ، ولا سبيل إلى تغيير ما قضى الحكيم سبحانه

ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد : ٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « تعوَّذوا باللهِ من جهدِ البلاءِ ، ودركِ الشقاءِ ، وسوءِ القضاءِ ، وشماتةِ الأعداءِ » ، رواه البخاري (٦٦١٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فتكدَّرَ عيشُهم ، ولم يحصِّلوا علىٰ كليَّةِ أغراضِهم ، كما قيلَ[١] [من الطويل]

أَرَىٰ أَشْقِيَاءَ ٱلنَّاسِ لا يَسْأَمُونَها عَلَىٰ أَنَّهُمْ فِيهَا عُرَاةٌ وَجُوَّعُ
أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ قَلِيلاً كَأَنَّهَا سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ

فلا تستغربْ وقوعَ أمثالِ هـٰذا ؛ فإنَّهُ ما ظهرَ منها إلا ما هو مستحَقُّ وصفِها وواجبُ نعتِها ؛ مِنْ وجدانِ المكارهِ التي هي ذاتيَّةٌ لها

قالَ بعضُ الحكماءِ (لولا أنَّ الدنيا مبنيَّةٌ على المكارهِ . . لجُعلَتْ منفعةُ الإِهْليلَجِ في اللوزينجِ)[٢] ، وسيأتي التنبيهُ على الحكمةِ في هـٰذا عندَ قولِهِ (إنَّما جعلَها محلّاً للأغيارِ ، ومعدناً لوجودِ الأكدارِ . . تزهيداً لكَ فيها)[٣]

وفي بعضِ الحكاياتِ المنقولةِ عن جعفرٍ الصادقِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ مَنْ طلبَ ما لم يُخلَقْ . . أتعبَ نفسَهُ ولم يُرزقْ ، قيلَ لهُ : وما ذاكَ ؟ قالَ الراحةُ في الدنيا[٤]

وفي معناهُ أنشدوا[٥] [من الرمل]

تَطْلُبُ ٱلرَّاحَةَ فِي دَارِ ٱلْفَنَا خَابَ مَنْ يَطْلُبُ شَيْئاً لا يَكُونُ

وقالَ بعضُ البلغاءِ : (ملتمسُ السلامةِ في دارِ المتالفِ والمعاطبِ . . كالمتمرِّغِ علىٰ مزاحفِ الحيَّاتِ ومدابِّ العقاربِ)

---

(١) البيتان لعمران بن حطان السدوسي الخارجي ، رواهما له الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣/ ٤٩٧) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٢١٦)

(٢) كذا في « تاريخ دمشق » (٦٦/ ٧٠) عن الشبلي ، وأورده التوحيدي في « البصائر والذخائر » (٨/ ١٧١) عن أبي مرحوم الصوفي ، والإهليلج : ثمر نبتٍ يحفظ العقل ويزيل الصداع ويسكِّن المعدة ، إلا أنه كريهٌ مرٌّ بشعُ الطعم علىٰ ما فيه من فوائد ، واللوزينج : نوع من الحلواء هو شبه القطائف ، يؤدم بدهن اللوز

(٣) انظر (ص ٨٢٨) .

(٤) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٣٧)

(٥) البيت في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٧٧) من غير نسبة ، وفي (ب) : (العنا) بدل (الفنا)

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الدنيا كلُّها غمومٌ ، فما كانَ منها مِنْ سرورٍ فهو ربحٌ)[١]

وقالَ الجنيدُ رحمَهُ اللهُ : (ليسَ أتبشَّعُ ما يردُ عليَّ مِنَ العالَمِ ؛ لأنّي قد أصَّلْتُ أصلاً ؛ وهو أنَّ الدارَ دارُ هَمٍّ وغمٍّ وبلاءٍ وفتنةٍ ، وأنَّ العالمَ كلَّهُ شرٌّ ، ومِنْ حكمِهِ أن يتلقَّاني بكلِّ ما أكرهُ؛ فإنْ تلقَّاني بكلِّ ما أحبُّ فهو فضلٌ ، وإلا فالأصلُ هو الأوَّلُ)[٢] .

وقال أبو ترابٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (يا أيُّها الناسُ ؛ أنتم تحبُّونَ ثلاثةَ أشياءَ وليسَ هي لكم : تحبُّونَ النفسَ وهي للهِ ، وتحبُّونَ الروحَ وهي للهِ ، وتحبُّونَ المالَ والمالُ للورثةِ ، وتطلبونَ اثنتينِ ولا تجدونَهما : الراحةُ والفرحُ ، وهما في الجنَّةِ)[٣]

فالواجبُ على العبدِ : ألا يوطِّنَ على الراحةِ في الدنيا نفساً ، ولا يركنَ فيها إلىٰ ما يقتضي فرحاً وأُنساً ، ويعملَ علىٰ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما روىٰ عنهُ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : « ٱلدُّنْيَا سِجْنُ ٱلْمُؤْمِنِ »[٤] ، فتوطُّنُ المؤمنِ على المحنِ في دنياهُ يهوِّنُ عليهِ ما يلقاهُ، ويجدُ السُّلوانَ عندَ فِقْدانِ ما يهواهُ ، كما قيلَ[٥] : [من المتقارب]

يُمَثِّلُ ذُو ٱللُّبِّ فِي نَفْسِهِ ... شَدَائِدَهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرُعْهُ ... لِمَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَّلا
رَأَى ٱلْأَمْرَ يُفْضِي إِلَىٰ آخِرٍ ... فَصَيَّرَ آخِرَهُ أَوَّلا
وَذُو ٱلْجَهْلِ يَأْمَنُ أَيَّامَهُ ... وَيَنْسَىٰ مَصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلا
فَإِنْ دَهَمَتْهُ صُرُوفُ ٱلزَّمَانِ ... بِبَعْضِ مَصَائِبِهِ أَعْوَلا
وَلَوْ قَدَّمَ ٱلْحَزْمَ فِي نَفْسِهِ ... لَعَلَّمَهُ ٱلصَّبْرَ عِنْدَ ٱلْبَلا

---

(١) رواه الدينوري المالكي في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٣٩٦)
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٧٠)
(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٥٠) .
(٤) رواه مسلم (٢٩٥٦) ، وزاد : « وجنةُ الكافرِ » .
(٥) الأبيات لمحمود الوراق . انظر « عيون الأخبار » (٣/ ٥٣) .

فليتلقَّ المريدُ ما يردُ عليهِ مِنْ ذلكَ بالصبرِ والرضا والاستسلامِ عندَ جريانِ القضاءِ ، فعن قريبٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ينجلي الأمرُ ، ويستوجبُ مِنَ اللهِ تعالىٰ جزيلَ الأجرِ(١) ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التوفيقِ .

قالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ لي أبو سليمانَ الدارانيُّ : (جوعٌ قليلٌ ، وعُرْيٌ قليلٌ ، وذلٌّ قليلٌ ، وصبرٌ قليلٌ ، وقدِ انقضَتْ عنكَ أيَّامُ الدنيا) .

واعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ مِنَ الصبرِ هو جماعُ كلِّ فضيلةٍ ، وملاكُ كلِّ فائدةٍ جزيلةٍ ومكرمةٍ نبيلةٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ [السجدة : ٢٤]، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠].

وفي وصيَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : « إِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ للهِ بِٱلرِّضَا فِي ٱلْيَقِينِ فَٱفْعَلْ ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَٱصْبِرْ ؛ فَإِنَّ فِي ٱلصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً ، وَٱعْلَمْ : أَنَّ ٱلنَّصْرَ مَعَ ٱلصَّبْرِ ، وَٱلْفَرَجَ مَعَ ٱلْكَرْبِ ، وَٱلْيُسْرَ مَعَ ٱلْعُسْرِ »(٢)

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ لرجلٍ : (إنْ صبرتَ مضىٰ أمرُ اللهِ وكنتَ مأجوراً ، وإنْ جزعتَ مضىٰ أمرُ اللهِ وكنتَ مأزوراً)(٣)

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الصبرُ مطيَّةٌ لا تكبو ، وسيفٌ لا ينبو)(٤)

---

(١) روى الترمذي (٢٣٥٠) من حديث سيدنا عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنهما قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ والله إني لأحبك ، فقال له : « انظرْ ماذا تقولُ » ، قال : والله ؛ إني لأحبك ، ثلاث مرات ، فقال : « إنْ كنتَ تحبُّني فأعدَّ للفقرِ تِجْفافاً ؛ فإنَّ الفقرَ أسرعُ إلىٰ مَنْ يحبُّني مِنَ السيلِ إلىٰ منتهاهُ » ، والتِّجْفاف : آلةُ الحرب من حديد وغيره .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٢٨) .

(٣) هو في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٤) من كلام سيدنا علي كرم الله وجهه للأشعث بن قيس .

(٤) أورده الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦١) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٤١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (أفضلُ العدَّةِ ، الصبرُ عندَ الشدَّةِ)[1]

وفي بعضِ الأخبارِ : « ٱنتِظَارُ ٱلْفَرَجِ بِٱلصَّبْرِ عِبَادَةٌ »[2]

وقد قالَ الشاعرُ[3] : [من البسيط]

إِنَّ ٱلأُمُورَ إِذَا ٱنْسَدَّتْ مَسَالِكُهَا ... فَٱلصَّبْرُ يَفْتَحُ مِنْهَا كُلَّ مَا ٱرْتَتَجَا
لا تَيْئَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ ... إِذَا ٱسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَىٰ فَرَجَا
أَخْلِقْ بِذِي ٱلصَّبْرِ أَنْ يَحْظَىٰ بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنِ ٱلْقَرْعِ لِلأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا

فمَنْ جعلَ الصبرَ معتمدَهُ في نوازلِهِ ، واعتدَّهُ مِنْ أعظمِ عُدَدِهِ ووسائلِهِ . . فهو مصيبٌ في رأيِهِ ، مُنْجِحٌ في سعيِهِ ، ومَنْ جزعَ مِنَ المصائبِ ، واضطربَ عندَ وقوعِ النوائبِ . . كانَ عاملاً فيما يزيدُهُ ضُرّاً ، ويكسبُهُ وِزْراً ، ويفوِّتُهُ أجراً ، وناهيكَ بهِ خُسْراً ، كما قيلَ[4] : [من الكامل]

وَإِذَا تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ فَٱصْبِرْ لَهَا ... عَظُمَتْ مُصِيبَةُ مُبْتَلىً لا يَصْبِرُ

وكما قيلَ أيضاً[5] : [من الطويل]

وَعُوِّضْتَ أَجْراً مِنْ فَقِيدٍ فَلا يَكُنْ ... فَقِيدُكَ لا يَأْتِي وَأَجْرُكَ يَذْهَبُ

* *

---

(١) أورده الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٢)

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٣١) بلفظه هنا من حديث سيدنا علي رضي الله عنه ، وبنحوه عند الترمذي (٣٥٧١) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه

(٣) الأبيات لمحمد بن بشير كما في « الفرج بعد الشدة » (٥/ ٦٩) ، و« أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٧) .

(٤) هو لسليمان بن عبد الملك كما رواه له الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٣٩١) ، وأنشده شبيب بن شيبة للمهدي كما في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٦٤) ، و(إذا) في البيت أُعطيت حكم (متىٰ) ، وانظر « مغني اللبيب » (٢/ ٨٧٩) .

(٥) هو بيتٌ عزَّىٰ به الحسنُ عمرَ بن عبد العزيز بوفاة ولده عبد الملك كما في « العقد الفريد » (٣/ ٢٥٥) ، والفاء في قوله : (فلا يكن) استئنافية

الحكمة الخامسة والعشرون (*)

مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طالِبُهُ بِرَبِّكَ ، وَلا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ .

مَنْ أنزلَ حوائجَهُ باللهِ تعالىٰ والتجأَ إليهِ ، وتوكَّلَ في أمرِهِ كلِّهِ عليهِ . . كفاهُ كلَّ مؤنةٍ ، وقرَّبَ عليهِ كلَّ بعيدٍ ، ويسَّرَ عليهِ كلَّ عسيرٍ ، ومَنْ سكنَ إلىٰ علمِهِ وعقلِهِ ، واعتمدَ علىٰ قوَّتِهِ وحولِهِ . . وكلَهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ نفسِهِ وخذلَهُ ، وحرمَهُ توفيقَهُ وأهملَهُ ؛ فلم تُنْجحْ مطالبُهُ ، ولم تتيسَّرْ مآربُهُ ، وهـٰذا معلومٌ على القطعِ مِنْ نصوصِ الشريعةِ وأنواعِ التجارِبِ

* *

قلتُ وكلامُ المؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في هـٰذهِ المسألةِ عامٌّ ، يتناولُ كلَّ مطلبٍ مِنَ المطالبِ الدينيَّةِ والدنيويَّةِ التي مآلُ أمرِها إلى الدينِ ، وأشرفُ تلكَ المطالبِ ، وأكثرُها قواطعَ ومعاطبَ . . أخْذُ المريدِ في سلوكِ سبيلِ التوحيدِ ؛ ففيهِ التعلُّقُ باللهِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن أفعال العباد مخلوقةٌ لله تعالىٰ ، وأن كسْبَ العبد لا أثرَ له في الإيجاد ، وأن من عوائدِ المولى الكريم إنجاز أمرِ من عوَّل عليه ، وخِذْلان من اعتمد علىٰ نفسه ولم يتوكَّل علىٰ ربِّهِ وإن نجز أمره ، كما أن متروك التسمية أبتر وإن تمَّ صورةً
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق ٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ [التوبة : ٥٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لو أنَّكم توكلتُم على اللهِ حقَّ توكلِهِ . . لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ ؛ تغدو خِماصاً ، وتروحُ بِطاناً » ، رواه الترمذي (٢٣٤٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه

تعالىٰ أحقُّ وأصوبُ ، وفي جميعِ جزئيَّاتِهِ الرجوعُ إلى اللهِ تعالىٰ أَولىٰ وأوجبُ ، فلا جرمَ كانَ مِنَ الرأْيِ السديدِ ، والأمرِ الأكيدِ . أنْ يخصِّصَهُ مِنْ ذلكَ العامِّ ، وأنْ يفردَهُ عقيبَ هـٰذهِ المسألةِ بمزيدٍ مِنَ الكلامِ ؛ فلذلكَ قالَ

الحكمة السادسة والعشرون (*)

مِنْ عَلامَاتِ ٱلنُّجْحِ فِي ٱلنِّهَايَاتِ ٱلرُّجُوعُ إِلَى ٱللهِ فِي ٱلْبِدَايَاتِ

للمريدِ بدايةٌ ونهايةٌ ؛ فبدايتُهُ : حالَ سلوكِهِ ، **ونهايتُهُ** : حالَ وصولِهِ ، فمَنْ صحَّحَ بدايتَهُ بالرجوعِ إلى اللهِ تعالىٰ والتوكُّلِ عليهِ والاستعانةِ بهِ كما ذكرناهُ . . أفلحَ وأنجحَ في نهايتِهِ ، وكانَ وصولُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأُمِنَ عليهِ مِنَ الرجوعِ والانقطاعِ .

قالَ بعضُ المشايخِ[1] : (ما رجعَ مَنْ رجعَ إلا مِنَ الطريقِ ، ولو وصلوا ما رجعوا)

ومَنْ لم يصحِّحْ ذلكَ بما ذكرنا ؛ مِنْ تعلُّقِهِ بالحقِّ ، وفرارِهِ إليهِ مِنْ نفسِهِ والخلْقِ . . انقطعَ ، ورجعَ مِنْ حيثُ جاءَ ، قالَ بعضُ العلماءِ : (مَنْ ظنَّ أنَّهُ يصلُ إلى اللهِ بغيرِ اللهِ . . قُطِعَ بهِ ، ومَنِ استعانَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ بنفسِهِ . . وُكِلَ إلىٰ نفسِهِ)[2]

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ سنَّةِ الله تعالىٰ في جعل بعض الأعمال علامة على التوفيق ، وجعل بعضها علامة على الخذلان ، وإلىٰ تحقيق الوعد القديم وعدم تخلفه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأُ فيهِ بحمدِ اللهِ أقطعُ » ، رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٢٥٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) هو العارف بالله تعالىٰ أبو سليمان الداراني . انظر « حلية الأولياء » (١٠/ ٩١) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٥٤) .

فعلى العبدِ السالكِ : أنْ يجعلَ معتمدَ أمرِهِ الاستعانةَ باللهِ علىٰ ما هو بسبيلِهِ ، ولا يرىٰ حولَ نفسِهِ ولا قوَّتَها في كثيرِ عملِهِ ولا قليلِهِ ؛ فهٰذا هو أساسُ السلوكِ الذي تنبني عليهِ قواعدُهُ

* * *

الحكمة السابعة والعشرون (*)

مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُهُ . . أَشْرَقَتْ نِهَايَتُهُ .

هـٰذهِ عبارةٌ أخرىٰ موافقةٌ لمعنىٰ ما تقدَّمَ .

فإشراقُ بدايةِ المريدِ[1] برجوعِهِ إلى اللهِ تعالىٰ في مهمَّاتِهِ ، وثقتِهِ بهِ في ملمَّاتِهِ .

وإشراقُ نهايتِهِ : الوصولُ إلىٰ قُرْبتِهِ ، والحصولُ في حضرتِهِ

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « قد أفلحَ مَنْ أسلمَ » ، رواه مسلم (١٠٥٤) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « وشابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ » ، رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) البداية هنا عند تصحيح صدق الإرادة ، فقد تكون لأبناء التسعين والمئة ، وفي الصحابة الكرام من شبَّ مؤمناً ، وبعضُ من آمن كهلاً خيرٌ منه بالنصِّ

الحكمة الثامنة والعشرون (*)

مَا ٱسْتُودِعَ فِي غَيْبِ ٱلسَّرَائِرِ . . ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ ٱلظَّوَاهِرِ .

هـٰذا بيانُ علامةٍ يُعرفُ بها حالُ المريدِ السالكِ ، وما تعمَّرَ بهِ باطنُهُ مِنَ المزيدِ المتداركِ ؛ لأنَّ الظاهرَ مرآةُ الباطنِ ، كما قيلَ الأسرَّةُ تدلُّ على السريرةِ ، وما خامرَ القلوبَ فعلى الوجوهِ يلوحُ أثرُهُ ، فما استودعَهُ اللهُ تعالى القلوبَ والأسرارَ ، مِنَ المعارفِ والأنوارِ . . لا بدَّ وأنْ تظهرَ آثارُ ذلكَ على الجوارحِ ؛ بالكَلِمِ الطَّيِّبِ والعملِ الصالحِ ، فيَسْتدِلُّ بشاهدِ العبدِ على غائبِهِ ، مَنْ أرادَ صحبتَهُ والوصلةَ بهِ ، وما أشبهَ هـٰذا مِنَ الأغراضِ والمقاصدِ

قالَ أبو حفصٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (حسْنُ أدبِ الظاهرِ عنوانُ حسْنِ أدبِ الباطنِ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَـٰذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ »)(1)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن العبرة في العقائد علىٰ عقد القلب ؛ فالإيمان محله القلب ، إلا أن الله تعالىٰ أجرىٰ عادته بأن جعل أعمال الظواهر علامات علىٰ مكنونات الضمائر ، حتى المنافق له فلتاتُ أقوال وأفعال تدل علىٰ ذلك ، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢] .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أفلحَتِ الوجوهُ » ، رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٣٤) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، قاله عليه الصلاة والسلام للقوم الذين قتلوا كعب بن الأشرف .

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٢٢) ، والأثر المرفوع رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٨٢٤ ، ١٣٠٥ ، ١٦٢٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٨٥٤) من كلام سعيد بن المسيب رحمه الله تعالىٰ .

وقيلَ : لما وردَ أبو حفصٍ العراقَ جاءَ إليهِ الجنيدُ ، فرأىٰ أصحابَ أبي حفصٍ وقوفاً علىٰ رأسِهِ يأتمرونَ بأمرِهِ ، لا يخطئُ أحدٌ منهم ، فقال : يا أبا حفصٍ ؛ أدَّبْتَ أصحابَكَ أدبَ الملوكِ ، فقالَ : لا يا أبا القاسمِ ، ولـٰكنْ حسنُ الأدبِ في الظاهرِ عنوانُ أدبِ الباطنِ(١)

قلتُ : وآكدُ مِنْ ذلكَ : أنْ يعرفَ المريدُ نفسَهُ ، ويكونَ مِنْ أمرِها علىٰ بصيرةٍ ، ولا ينخدعَ بما يتوهَّمُ مِنْ صلاحِ سريرتِهِ دونَ علانيتِهِ ، فمَنِ ادعىٰ بقلبِهِ معرفةَ اللهِ تعالىٰ ومحبَّتَهُ ، ولم يظهرْ علىٰ ظاهرِهِ ثمراتُ ذلكَ وآثارُهُ ؛ مِنَ اللَّهَجِ بذكرِهِ ، والمسارعةِ إلى اتِّباعِ أمرِهِ ، والاغتباطِ بوجودِهِ ، والاستبشارِ عندَ يقينِ شهودِهِ ، والفرارِ مِنَ القواطعِ الشاغلةِ عنهُ ، والإضرابِ عنِ الوسائطِ المبعدةِ منهُ . . فهو كذَّابٌ في دعواهُ ، متَّخِذٌ إلـٰهَهُ هواهُ ، فإنْ كانَ موصوفاً بأضدادِ هـٰذهِ الخصالِ ، منحرفاً بظاهرِهِ عن جادَّةِ الاعتدالِ . . فهو في دعواهُ أكذبُ ، وحالُهُ للنفاقِ والشِّرْكِ أقربُ

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ : (وقد جعلَ اللهُ تعالىٰ وصفَ الكافرينَ أنَّهم إذا ذُكِرَ اللهُ وحدَهُ في شيءٍ انقبضَتْ قلوبُهم ، وإذا ذُكِرَ غيرُهُ في شيءٍ فرحوا ، وجعلَ مِنْ نعتِهم أنَّهم إذا ذُكِرَ اللهُ تعالىٰ بتوحيدِهِ وإفرادِهِ بشيءٍ غطَّوْا ذلكَ وكرهوهُ ، وإذا أُشرِكَ غيرُهُ في ذلكَ صدَّقوا بهِ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر : ٤٥]، وقالَ أيضاً : ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ ، والكفرُ التغطيةُ ، ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ ، والشركُ الخلطُ ؛ أي : يُخلطُ بذكرِهِ ذكرُ سواهُ ، ثم قالَ : ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر : ١٢] يعني لا يَشْرَكُهُ خلقٌ في حكمِهِ ؛ لأنَّهُ العليُّ في عظمتِهِ ، الكبيرُ في سلطانِهِ ، لا شريكَ لهُ في ملكِهِ وعطائِهِ ، ولا نظيرَ لهُ مِنْ عبادِهِ

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٢٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٥٩٦) .

ففي دليلِ هـٰذا الكلامِ وفهمِهِ مِنَ الخطابِ أنَّ المؤمنينَ إذا ذُكِرَ اللهُ بالتوحيدِ والإفرادِ في شيءٍ انشرحَتْ صدورُهم ، واتَّسعَتْ قلوبُهم ، واستبشروا بذكرِهِ وتوحيدِهِ ، وإذا ذُكِرَتِ الأواسطُ والأسبابُ التي دونَهُ كرهوا ذلكَ ، واشمأزَّتْ قلوبُهم ، وهـٰذهِ علامةٌ صحيحةٌ ، فاعرفْها مِنْ قلبِكَ ومِنْ قلبِ غيرِكَ ؛ لتستدلَّ بها علىٰ حقيقةِ التوحيدِ في القلبِ ، أو وجودِ خفيِّ الشركِ في السرِّ إنْ كنتَ عارفاً) انتهىٰ[1]

قلتُ وهـٰذهِ المسألةُ التي تضمَّنَها كلامُ الشيخِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ . . مِنْ أعظمِ المسائلِ ، وعلىٰ صدْقِ الصادقِ وكذبِ الكاذبِ . . مِنْ أوضحِ الدلائلِ

ولمَّا كان قصدُنا في هـٰذا « التنبيهِ »[2] استغنامَ ذكْرِ الفوائدِ العجيبةِ ، والحرصَ علىٰ رسمِ المقاصدِ الغريبةِ ؛ لغربةِ الدينِ في هـٰذا الزمانِ الرَّذْلِ ، واستيلاءِ الغِرَّةِ والجهلِ على المنسوبينَ إلى العلمِ والفضلِ . . حَسُنَ منَّا إيرادُ هـٰذهِ الكلماتِ علىٰ جهةِ ضرْبِ المثلِ[3] ، والاكتفاءِ بالنَّهَلِ عنِ العَلَلِ[4] ؛ ليعملَ بمقتضىٰ ذلكَ مريدٌ سالكٌ ، ولينتهجَ مِنْ مناصحةِ ربِّهِ في دينِهِ وقلبِهِ أوضحَ المسالكِ ، واحملْ علىٰ هـٰذا الأسلوبِ كلَّ كلامٍ لم تظهرْ لكَ مطابقتُهُ ، ولم تتمَّ في نظرِكَ مناسبتُهُ ؛ لتسلمَ بذلكَ مِنَ الاعتراضِ ، وتعلوَ همَّتُكَ عمَّا تولَّعَ بهِ أصحابُ القلوبِ المِراضِ ، عافانا اللهُ مِنْ ذلكَ بمنِّهِ وكرمِهِ

* * *

---

(١) كذا في « قوت القلوب » (٣/ ١٢٣٧)

(٢) أراد : كتابه الذي بين يديك ، وانظر (ص ٥٧) ، وفي (أ) : (الكتاب) بدل (التنبيه)

(٣) في (ج) : (هنا) بدل (منّا) .

(٤) النهل الشرب الأول ، والعلل : الشرب بعد الشرب تباعاً

الحكمة التاسعة والعشرون (*)

شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ ، أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ[1] ؛ اَلْمُسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ اَلْحَقَّ لِأَهْلِهِ ، وَأَثْبَتَ اَلأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ ، وَالِاسْتِدْلالُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ اَلْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَإِلا فَمَتَىٰ غَابَ حَتَّىٰ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ ؟! وَمَتَىٰ بَعُدَ حَتَّىٰ تَكُونَ اَلآثَارُ هِيَ اَلَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ ؟!

بنو آدمَ في أوّلِ نشأتِهم ، ومبدأِ خِلْقتِهم ، وخروجِهم مِنْ بطونِ أمهاتِهم . . موسومونَ بالجهْلِ وعدمِ العلمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل ٧٨]

ثم إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا اختصَّ بعضَهم بخصوصيَّةِ عنايتِهِ ، واختارَ منهم مَنْ أهَّلَهُ

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ تحقيق معنى الوجود الذاتي ، وأنه واجب لا يقبل العدم أزلاً وأبداً ، وأن الوجود العرضي أهشُّ من أن يكون دليلاً على الوجود الذاتي القديم ؛ لأن العرضي كاسمه لا يبقىٰ زمانين ، وما كان كذلك فهو كالعدم ، والعدم لا يصلح دليلاً ؛ وإلىٰ أن الله تعالىٰ رضي من عباده نوعاً من المعرفة لتكون علامة نجاة بفضله ، وأنه تعالىٰ ثبتت له صفات التنزيه ، فاستحالت مشابهته للحوادث ، فلا زمان ولا مكان له .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر ٤١] ، **وقوله تعالىٰ** ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « كانَ اللهُ ولم يكنْ شيءٌ غيرُهُ » ، رواه البخاري (٣١٩١) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

(١) قوله (شتان بين) يجوز الرفع في كلمة (بين) علىٰ أنها فاعل (شتان) التي بمعنىٰ (بَعُدَ) ، ويجوز نصبها ويضمر (ما) ، والتقدير شتان ما بين من يستدل به ويستدل عليه ، فـ (أو) في سياق المصنف بمعنى الواو ، وانظر « تاج العروس » (ش ت ت)

لولايتِهِ ، وما ذاكَ إلا بحصولِ العلمِ الذي يتضمَّنُهُ قولُهُ تعالىٰ ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ ، الذي يحقِّقُ لهمُ النسبةَ ، ويوجبُ لهمُ الزلفىٰ والقربةَ ، المشارُ إلىٰ ذلكَ بقولِهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] . . **جعلَهم قسمينِ** : مرادينَ ، ومُريدينَ ، وإنْ شئتَ قلتَ مجذوبينَ ، وسالكينَ ، وكلاهما مرادٌ ومجذوبٌ على التحقيقِ(١) ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورىٰ : ١٣] .

فالمريدونَ السالكونَ إلى اللهِ تعالىٰ في حالِ سلوكِهم محجوبونَ عن ربِّهم برؤيةِ الأغيارِ ، فالآثارُ والأكوانُ ظاهرةٌ لهم وموجودةٌ لديهم ، والحقُّ تعالىٰ غَيْبٌ عنهم(٢) ، فهم يستدلُّونَ بها عليهِ في حالِ ترقِّيهم

والمرادونَ المجذوبونَ واجهَهمُ الحقُّ تعالىٰ بوجهِهِ الأكرمِ(٣) ، وتعرَّفَ إليهم فعرفوهُ بِهِ ، فلمَّا عرفوهُ علىٰ هٰذا الوجهِ انحجبَتِ الأغيارُ عنهم فلم يروها ، فهم يستدلُّونَ بِهِ عليها في حالِ تدلِّيهم

---

(١) إذ لولا سبق العناية الأزلية لما سلك سالكٌ ، فكل سالك في الظاهر مجذوب في الباطن ، أو قل : مختار ظاهراً ، مجبور باطناً .

(٢) في (ب) وحدها زيادة : (فلم يروه) ، وما يُحدِّث عنه العلامة الشارح مقامٌ الإيمانُ فيه بالشهادة خيرٌ من الإيمان بالغيب ، وفي كلٍّ خيرٌ .

(٣) وذاك بتجليه سبحانه في مرآة قلب المؤمن ، فعلم أن الأشياء قامت به ، وتعالىٰ عن أن يقوم بها ؛ إذ له وحده القيام بالنفس ، وصاحب هٰذا المقام من أهل الجمع بلا ريب ، وعبَّر عن هٰذه المواجهة المشار إليها العارف بالله تعالىٰ عمر اليافي بقوله كما في « ديوانه » (ص١٧٧) : (موشح)

تبدىٰ حسنُ ذاتِ الشؤون ... ولم يزلْ مكنونْ
فأمسىٰ كل جسمي عيون ... كقيسها المجنونْ

وأضحىٰ جمع فرق الوجود ... في غيبه مشهودْ
جمالٌ مطلق في قيود ... لم يبدُ للمسجونْ

هي شمسٌ بدت في ظلالْ ... جلَّت عن التمثالْ
تلاشىٰ منذ رآها الهلالْ ... وصار كالعرجونْ

فهٰذا هو حالُ الفريقينِ ، وشتَّانَ ما بينَهما ؛ أي بَعُدَ ما بينهما ؛ وذلكَ أنَّ المستدلَّ بهِ علىٰ غيرِهِ عرفَ الحقَّ الذي هو الوجودُ الواجبُ . . لأهلِهِ ؛ وهو المختصُّ بوصْفِ القِدَمِ ، وأثبتَ الأمرَ المُشارَ بهِ إلى الآثارِ العدميَّةِ مِنْ وجودِ أصلِهِ المشارِ بهِ . . إلى المؤثِّرِ المتحقِّقِ وجودُهُ

والمستدلُّ بغيرِهِ عليهِ علىٰ عكسِ ما ذكرناهُ ؛ لأنَّهُ استدلَّ بالمجهولِ على المعلومِ ، وبالمعدومِ على الموجودِ ، وبالأمرِ الخفيِّ على الظاهرِ الجليِّ(١) ؛ وذلكَ لوجودِ الحجابِ ، ووقوفِهِ معَ الأسبابِ ، وعدمِ احتظائِهِ بالوصولِ والاقترابِ ، وإلا فمتىٰ غابَ حتىٰ يُستدلَّ عليهِ بالأشياءِ الحاضرةِ ؟! ومتىٰ بَعُدَ حتىٰ تكونَ الآثارُ القريبةُ هي التي توصلُ إليهِ ، أو فُقِدَ حتىٰ تكونَ الآثارُ الموجودةُ هي التي تدلُّ عليهِ ؟!

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي عَلَيْكَ شَهَادَةً وَأَنْتَ ٱلَّذِي أَشْهَدْتَهُ كُلَّ شَاهِدِ(٢)

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (واعلمْ أنَّ الأدلَّةَ إنَّما نُصبَتْ لمَنْ يطلبُ الحقَّ ، لا لمَنْ يشهدُهُ ؛ لأنَّ الشاهدَ غنيٌّ بوضوحِ المشهودِ عن أنْ يحتاجَ إلىٰ دليلٍ ، فتكونُ المعرفةُ باعتبارِ توصيلِ الوسائلِ إليها كسبيَّةً ، ثم تعودُ إلىٰ نهايتِها ضروريةً

وإذا كانَ مِنَ الكائناتِ ما هو غنيٌّ بوجودِهِ لوضوحِهِ عن إقامةِ دليلٍ . . فالمكوِّنُ أَولىٰ بغناهُ عنِ الدليلِ منها)(٣)

ثم قالَ (ومِنْ أعجبِ العجبِ أنْ تكونَ الكائناتُ موصلةً إليهِ ! فليتَ شعري ؛ هل لها وجودٌ معَهُ حتىٰ تُوصِلَ إليهِ ؟! أو هل لها مِنَ الوضوحِ ما ليسَ لهُ حتىٰ تكونَ هي المظهرةَ لهُ ؟!

---

(١) وهو كقول أبي العتاهية كما في « ديوانه » (ص ١٠٤) (من المتقارب)

وللهِ في كلِّ تحريكةٍ وتسكينةٍ أبداً شاهدُ
وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تدلُّ علىٰ أنَّهُ واحدُ

(٢) البيت من الطويل ، والظاهر أنه للعلامة الشارح

(٣) لطائف المنن (ص ٥١)

وإنْ كانَتِ الكائناتُ موصلةً إليهِ فليسَ لها ذلكَ مِنْ حيثُ ذاتُها ، لـٰكنْ هو الذي ولّاها رتبةَ التوصيلِ فوصَّلَتْ ، فما وصَّلَ إليهِ غيرُ إلـٰهيَّتِهِ ، ولـٰكنَّ الحكيمَ هو واضعُ الأسبابِ ، وهي ـ لمَنْ وقفَ عندَها ولم ينفذْ إلىٰ قدرتِهِ ـ عينُ الحجابِ)[1]

* *

(١) لطائف المنن (ص ٥٢) ، ثم قال : (فلا بدَّ من الأسباب وجوداً ، ولا بدَّ من الغيبة عنها شهوداً) .

الحكمة الثلاثون (*)

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ٱلْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ ، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ ٱلسَّائِرُونَ إِلَيْهِ

هـٰذِهِ إشارةٌ مليحةٌ إلىٰ حالِ الفريقينِ

فالواصلونَ إلى اللهِ تعالىٰ لمَّا خرجوا مِنْ سجنِ رؤيةِ الأغيارِ ، إلىٰ فضاءِ التوحيدِ وكمالِ الاستبصارِ . اتَّسعَتْ مسافةُ نظرِهم ، فأنفقوا مِنْ سَعَتِهم ، وتصرَّفوا في عوالمِهم كيفَ شاؤوا

والسالكونَ إليهِ : مقدورٌ عليهم في أرزاقِ العلومِ والفهومِ[1] ، محبوسونَ في مضيقِ الخيالاتِ والرسومِ ، فينفقونَ ممَّا آتاهمُ اللهُ مِنَ الرزقِ المعلومِ المقدَّرِ المضيَّقِ

*

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أن الله تعالىٰ لا يجب عليه فعل شيء أو تركه ، وأنه تعالىٰ ما قسم ما قسم إلا علىٰ حسب ما علم ، وعلىٰ ما اقتضته حكمته العليّة .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة ١٠ـ ١١] مع ما أشار إليه العلامة الشارح ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ذلكَ فضلُ الله يؤتيهِ مَنْ يشاءُ » ، رواه مسلم (٥٩٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، في خبر المتصدقين الذاكرين

(١) مقدورٌ : مضيّق ؛ من قوله تعالىٰ : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

الحكمة الحادية والثلاثون (*)

ٱهْتَدَى ٱلرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ ٱلتَّوَجُّهِ ، وَٱلْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ ٱلْمُوَاجَهَةِ ؛ فَٱلأَوَّلُونَ لِلأَنْوَارِ ، وَهَـٰؤُلاءِ ٱلأَنْوَارُ لَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ للهِ ، لا لِشَيْءٍ دُونَهُ ، ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

أنوارُ التوجُّهِ : هو ما منهم إلى اللهِ تعالىٰ ؛ مِنْ عباداتٍ ومعاملاتٍ ، ومجاهداتٍ ومكابداتٍ

وأنوارُ المواجهةِ : ما مِنَ اللهِ لهم ؛ مِنْ تعرُّفٍ وتقرُّبٍ ، وتودُّدٍ وتحبُّبٍ .

فالأوَّلونَ عبيدُ الأنوارِ ؛ لوجودِ حاجتِهم إليها في الوصولِ إلىٰ مقصودِهم ، والآخرونَ الأنوارُ لهم ؛ لوجودِ غناهم عنها بربِّهم ، فهم للهِ لا لشيءٍ دونَهُ ، وسيأتي هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (أنتَ معَ الأكوانِ ما لم تشهدِ المكوِّنَ ، فإذا شهدتَهُ كانَتِ الأكوانُ معَكَ)(١)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الهداية بدرجاتها بخلْق الله تعالىٰ ، وأن الجزاء الحسن على الصالحات فضلُهُ ، وأنه قسمه علىٰ ما اقتضت حكمته وسبق علمه ، وأنه تعالىٰ له الظهور المطلق والبطون المطلق ؛ لأن له تعالى الوجودَ المطلق .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة : ٤٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يا أبا بكرٍ ؛ ما أبقيتَ لأهلكَ ؟ » ، فقال : أبقيتُ لهم الله ورسولَهُ ، رواه أبو داود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث الفاروق رضي الله عنه .

والآيةُ خاتمةَ الحكمة مثبتة من (ب) وحدها

(١) انظر (ص ٩٢٠) .

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] إفرادُ التوحيدِ بعدمِ ملاحظةِ الأغيارِ هو حقُّ اليقينِ ، ورؤيةُ ما سوى اللهِ تعالىٰ خوضٌ ولعبٌ ؛ وهما مِنْ صفاتِ الكافرينَ والمنافقينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنهم : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ [المدثر : ٤٥] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان : ٩] (١)

* * *

(١) وقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة : ٦٥] .

الباب الثالث

في النقصان والازدياد

الحكمة الثانية والثلاثون (*)

وقال رضي الله عنه :

تَشَوُّفُكَ إِلَىٰ مَا بَطَنَ فِيكَ مِنَ ٱلْعُيُوبِ .. خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَىٰ مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ ٱلْغُيُوبِ .

حكمُ المريدِ : أنْ يتشوَّفَ إلىٰ معرفةِ ما غابَ عنهُ مِنْ معايبِ نفسِهِ ، ويتطلَّبَها ويبحثَ عنها ؛ فإنَّ ذلكَ هو حقُّ الحقِّ تعالىٰ منهُ ، فينبغي لهُ أنْ يحرصَ عليهِ ، ويصرفَ عِنانَ اعتنائِهِ إليهِ ، ليحصلَ لهُ صفاءُ أعمالِهِ مِنَ الآفاتِ ، ونقاءُ أحوالِهِ مِنَ الكدوراتِ ، وينتفيَ عنهُ الجهلُ والغرورُ ، وتنقطعَ مِنْ باطنِهِ موادُّ الشرورِ .

وقد ذكرَ الشيخُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ في كتابِ (رياضةِ النفسِ) فصلاً في الطريقِ الذي بهِ يتعرَّفُ الإنسانُ عيوبَ نفسِهِ ، فلينظرْ فيهِ المريدُ[1] ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الشارع تعالىٰ قدَّم الشرط فجعله سبيلاً لصحة العمل ، فضلاً عن وجود ثمرة العمل ، وإلىٰ أن معرفة الله محلُّها القلب ، ولا تكمل إلا بصفائه ، فعلىٰ قدر صفاء القلب يسلمُ الاعتقاد ، ويصير القلب سليماً ، وأن علامة السعادة في تحقيق الإيمان ، لا في مطالعة ما غاب ؛ إذ ذاك يكون لمؤمنٍ ولمفتَّنٍ .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه : ٧٥ـ٧٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام مناجياً : « وجهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين » ، رواه مسلم (٧٧١) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٥/ ٢٢٧) ، وكتاب (رياضة النفس) هو الكتاب الثاني والعشرون منه .

وقد جعلَ حاصلَهُ أربعةَ أوجهٍ

أحدُها أنْ يجلسَ بينَ يدي شيخٍ بصيرٍ بالعيوبِ والآفاتِ فيحكِّمَهُ على نفسِهِ ، ويتَّبعَ إشارتَهُ فيما يشيرُ بهِ عليهِ

والثاني : مصاحبةُ صديقٍ صدوقٍ يجعلُهُ رقيباً على أحوالِهِ وأعمالِهِ ؛ لينبِّهَهُ على ما يخفى عليهِ مِنْ مذامِّ خِلالِهِ

والثالثُ أنْ يستفيدَ معرفةَ عيوبِهِ مِنْ أعدائِهِ ؛ إذْ لا بدَّ مِنْ جريانِ ذلكَ على ألسنتِهم عندَ ثلبِهم وغيبتِهم

والرابعُ : أنْ يستفيدَ ذلكَ مِنْ مخالطةِ الناسِ ؛ إذْ يطَّلعُ بذلكَ على مساويهم ؛ فإذا اطَّلعَ عليها منهم علمَ أنَّهُ لا ينفكُّ هو عن شيءٍ منها ؛ لأنَّ الطباعَ البشريَّةَ في ذلكَ متقاربةٌ ، وقد يظهرُ لهُ في نفسِهِ ما هو أعظمُ ممَّا يراهُ في غيرِها ، فيطالبُ نفسَهُ حينئذٍ بالتطهُّرِ منها والتنزُّهِ عنها

هذا تلخيصُ ما ذكرَهُ[1] ، ثم قالَ (وهذهِ كلُّها حِيَلُ مَنْ فقدَ شيخاً عارفاً زكيّاً ، بصيراً بعيوبِ النفسِ ، مشفقاً ناصحاً في الدينِ ، فارغاً مِنْ تهذيبِ نفسِهِ ، مشغولاً بتهذيبِ عبادِ اللهِ ، ناصحاً في الدينِ لهم ، فمَنْ وجدَ الطبيبَ فليلازمْهُ ؛ فهو الذي يخلِّصُهُ مِنْ مرضِهِ ، وينجيهِ مِنَ الهلاكِ الذي هو بصددِهِ) انتهى[2]

وأمَّا طلبُهُ للغيوبِ المحجوبةِ عنهُ ؛ مِنْ خفايا القدرِ ، ولطائفِ العِبَرِ . . فإنَّهُ حظُّ نفسِهِ ، ولا حقَّ عليهِ فيهِ للحقِّ تعالى ، فليطبْ عنها نفساً ، ولا يشغلْ بها عقلاً ولا حسّاً ، وما أظهرَ اللهُ لهُ منها لا يسكنْ إليهِ ، ولا يعوِّلْ عليهِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنَ المعايبِ القادحةِ في عبوديتِهِ ، **ولهذا قالوا** كُنْ طالباً الاستقامةَ ، ولا تكن طالباً الكرامةَ ؛ فإنَّ نفسَكَ تتحرَّكُ وتطلبُ الكرامةَ ، ومولاكَ يطالبُكَ بالاستقامةِ ، ولأنْ

---

(١) كذا في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٢٢٧ـ٢٣٠)

(٢) كذا في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٢٣٠)

تكونَ بحقِّ مولاكَ أَولىٰ بكَ مِنْ أنَ تكونَ بحظِّ نفسِكَ .

ومِنَ الحكاياتِ في هٰذا المعنى الذي ذكرناهُ : ما رُوِيَ في الإسرائيلياتِ عن وهبِ بنِ منبهٍ أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ صامَ سبعينَ سنةً ، يفطرُ كلَّ سنةٍ ستةَ أيامٍ ، فسألَ اللهَ تباركَ وتعالىٰ أنْ يريَهُ كيفَ تغوي الشياطينُ الناسَ ، فلمَّا طالَ ذلكَ عليهِ ولم يُجَبْ قالَ : لوِ اطَّلعتُ علىٰ خطيئتي وذنبي بيني وبينَ ربِّي . . لكانَ خيراً لي مِنْ هٰذا الأمرِ الذي طلبتُهُ .

فأرسلَ اللهُ إليهِ مَلَكاً ، فقالَ لهُ إنَّ اللهَ تعالىٰ أرسلَني إليكَ ، وهو يقولُ لكَ إنَّ كلامَكَ هٰذا الذي تكلَّمْتَ بهِ أحبُّ إليَّ ممَّا مضىٰ مِنْ عبادتِكَ ، وقد فتحَ اللهُ بصرَكَ فانظرْ ؛ فنظرَ فإذا جنودُ إبليسَ قد أحاطَتْ بالأرضِ ، وإذا ليسَ أحدٌ مِنَ الناسِ إلا والشياطينُ حولَهُ كالذبابِ ، فقالَ أيْ ربِّ ؛ مَنْ ينجو مِنْ هٰذا ؟ قالَ الوَرِعُ اللَّينُ[1]

وسيأتي بيانُ أنَّ الكراماتِ غيرُ مطلوبةِ التحصيلِ ، ولا مغتبَطٌ بوجودِها لدىٰ كلِّ عالمٍ نبيلٍ . . عندَ قولِهِ : (ليسَ كلُّ مَنْ ثبتَ تخصيصُهُ كَمُلَ تخليصُهُ)[2]

* *

---

(١) رواها أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٢)

(٢) انظر (ص ٥٠٨)

الحكمة الثالثة والثلاثون (*)

ٱلْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ ، وَإِنَّمَا ٱلْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرٌ ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾

الحجابُ على الحقِّ محالٌ ، واستدلَّ المؤلِّفُ على ذلكَ بما ذكرَهُ هنا ؛ وهو بيِّنٌ لا إشْكالَ فيهِ ، والحجابُ على العبدِ واجبٌ مِنْ حيثُ ذاتُهُ ؛ إذْ هو عدمٌ كما تقدَّمَ ، ولا نسبةَ بينَ العدمِ وبينَ الوجودِ ؛ فإنْ أرادَ اللهُ رفعَ هـٰذا الحجابِ عمَّنْ شاءَ كيفَ شاءَ متىٰ شاءَ . . رأىٰ مَنْ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ ، وهـٰذا ممَّا يجبُ اعتقادُهُ[1]

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه (السلبية) ، وإفراد القِدَم عن الحدَث ، وإلىٰ أن الحجاب مضروب علىٰ ما سواه ؛ إذ هو يتعالىٰ عن أن يتأثَّر بغيره ، أو أن يكتسب وصفاً ليس له في الأزل .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين ١٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « حجابُهُ النورُ » ، رواه مسلم (١٧٩) ، والنور هنا : شدة الظهور ، أو إن شئت قلت : الوجود الذاتي الحق .

(١) والإشارة في اسم الإشارة يحتمل عودها علىٰ أنه تعالىٰ لا يحجب ، وإلىٰ أنه ليس كمثله شيء ، وإلىٰ جواز رؤيته تعالىٰ ، وثلاثتها مما يجب اعتقاده .

الحكمة الرابعة والثلاثون (*)

ٱخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ ، عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ ؛ لِتَكُونَ لِنِدَاءِ ٱلْحَقِّ مُجِيباً ، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً

أوصافُ البشريَّةِ المتعلِّقةُ بأمرِ الدينِ نوعانِ :

أحدُهما : ما يتعلَّقُ بظاهرِ العبدِ وجوارحِهِ ؛ وهي الأعمالُ

والثاني : ما يتعلَّقُ بباطنِهِ وقلبِهِ ؛ وهي العقودُ .

فأمَّا ما يتعلَّقُ بظاهرِهِ وجوارحِهِ فينقسمُ إلىٰ قسمينِ :

أحدُهما[1] : ما وافقَ الأمرَ ، ويسمَّىٰ طاعةً .

والثاني : ما خالفَهُ ، ويسمَّىٰ معصيةً

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تحقيق حدوث ما سواه تعالىٰ ، واستناد كل حادث إلىٰ أسماء وصفات الحق سبحانه تجلِّياً وظهوراً ، وإلىٰ تعلقات صفات المعاني ، وإلىٰ أنه تعالىٰ متكلم بكلام قديم ترجع إليه أحكامه وخطاباته وتعرُّفاتُهُ

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وقوله تعالىٰ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وقوله تعالىٰ حكاية ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « اللهم ؛ أنت ربي لا إلـٰه إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، رواه البخاري (٦٣٠٦) من حديث سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه .

(١) قوله : (أحدهما) مثبت من (هـ) وحدها

وأمَّا ما يتعلَّقُ بباطنِهِ وقلبِهِ فينقسمُ أيضاً إلىٰ قسمينِ

أحدُهما : ما وافقَ الحقيقةَ ، ويسمَّىٰ إيماناً وعلماً

والثاني : ما خالفَها ، ويسمَّىٰ نفاقاً وجهلاً

والنظرُ فيما يتعلَّقُ بظاهرِ العبدِ يسمَّىٰ في الاصطلاحِ : **تفقُّهاً** ، والنظرُ فيما يتعلَّقُ بباطنِهِ يسمَّىٰ في الاصطلاح : **تصوُّفاً**(١)

فهـٰذانِ الأمرانِ هما كليَّةُ العبدِ ، وظاهرُهُ تبعٌ لباطنِهِ بالضرورةِ ؛ لأنَّ القلبَ هو المَلِكُ ، والجوارحَ جنودُهُ ورعيَّتُهُ ، ومِنْ شأنِ الرعيَّةِ طاعةُ الملكِ فيما يأمرُ بهِ وينهىٰ عنهُ ، وقد نبَّهَ علىٰ هـٰذا المعنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « **إِنَّ فِي ٱلْجَسَدِ مُضْغَةً ؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ ٱلْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ ٱلْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ ٱلْقَلْبُ** »(٢)

وصلاحُ القلبِ إنَّما يكونُ بطهارتِهِ عنِ الصفاتِ المذمومةِ كلِّها ، دقيقِها وجليلِها ، وهـٰذهِ هي الصفاتُ المناقضةُ للعبوديَّةِ مِنْ أوصافِ البشريَّةِ التي أشارَ إليها المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وهي التي تَسِمُ صاحبَها بسِمَةِ النفاقِ والفسوقِ ، وهي كثيرةٌ ؛ مثلُ : الكبرِ ، والعجبِ ، والرياءِ ، والسمعةِ ، والحقدِ ، والحسدِ ، وحبِّ الجاهِ والمالِ

ويتفرَّعُ عن هـٰذهِ الأصولِ فروعٌ خبيثةٌ ؛ مِنَ العداوةِ والبغضاءِ ، والتذلُّلِ للأغنياءِ ، واستحقارِ الفقراءِ ، وتركِ الثقةِ بمجيءِ الرزقِ ، وخوفِ سقوطِ المنزلةِ مِنْ قلوبِ الخلْقِ ، والشحِّ والبخلِ ، وطولِ الأملِ ، والأشرِ والبطرِ ، والغلِّ ، والغشِّ ، والمباهاةِ والتصنُّعِ ، والمداهنةِ ، والقسوةِ ، والفظاظةِ ، والغلظةِ ،

---

(١) واعتقاداً ؛ إذ أعمال الباطن إما أن ترجع إلىٰ معارف خالصة وهي اعتقادات ، أو إلىٰ نيّات خالصة ، وهي عند التأمل ترجع إلى الاعتقادات أيضاً

(٢) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) من حديث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما

والغفلةِ ، والجفاءِ ، والطيشِ ، والعجلةِ ، والحدَّةِ ، والحميَّةِ ، وضيقِ الصدرِ ، وقلَّةِ الرحمةِ ، وقلةِ الحياءِ ، وتركِ القناعةِ ، وحبِّ الرئاسةِ ، وطلبِ العلوِّ ، والانتصارِ للنفسِ إذا نالَها الذلُّ ، وذهابِ مَلْكِ النفسِ إذا رُدَّ عليهِ قولُهُ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ النعوتِ الذميمةِ والأخلاقِ اللئيمةِ

وأصلُ فروعِها وعنصرُ ينابيعِها إنَّما هو رؤيةُ النفسِ ، والرضا عنها ، وتعظيمُ قدرِها ، وترفيعُ أمرِها

فبهٰذهِ الأمورِ كفرَ مَنْ كفرَ ، ونافقَ مَنْ نافقَ ، وعصىٰ مَنْ عصىٰ ، وبها خلعَ مِنْ عنقِهِ ربقةَ العبوديَّةِ لربِّه عزَّ وجلَّ مَنْ خلعَ ، حسَبَ ما يقولُهُ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ بإثرِ هٰذا(١)

وشأنُ الصوفيِّ إنَّما هو النظرُ فيما يطهِّرُها ويزكِّيها ؛ مِنْ أنواعِ الرياضاتِ والمجاهداتِ ، وقد بيَّنوا طُرُقَ ذلكَ في كُتُبِهم

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ : (ولا يكونُ المريدُ بَدَلاً حتىٰ يُبدِّلَ بمعاني صفاتِ الربوبيَّةِ صفاتِ العبوديةِ ، وبأخلاقِ الشياطينِ أوصافَ المؤمنينَ ، وبطبائعِ البهائمِ أوصافَ الروحانيينَ ؛ مِنَ الأذكارِ والعلومِ ، فعندَها يكونُ بَدَلاً مقرَّباً)(٢)

قالَ : (**والطريقُ إلىٰ هٰذا** : بأنْ يُمَلِّكَ نفسَهُ فيملكَها ، فتُسخَّرَ لهُ ويُسلَّطَ عليها ، فإنْ أردتَ أنْ تملكَ نفسَكَ فلا تملِّكْها ، وضيِّقْ عليها ، ولا توسِّعْ لها ، فإنْ ملَّكْتَها ملكَتْكَ ، وإنْ لم تضيِّقْ عليها اتَّسعَتْ عليكَ ، وإذا أردتَ الظفرَ بها فلا تعرضْها لهواها ، واحبسْها عن معتادِ ملائمِها ، فإن لم تمسكْها انطلقَتْ بكَ ، وإن أردتَ أنْ تقوىٰ عليها فأضعفْها بقطعِ أسبابِها وحبسِ موادِّها ، وإلا قويَتْ عليكَ فصرعَتْكَ) انتهىٰ(٣)

---

(١) يعني : في الحكمة الآتية عقب هٰذه الحكمة (ص ٢٧٩)

(٢) كذا في « قوت القلوب » (١/ ٢٥٢) .

(٣) كذا في « قوت القلوب » (١/ ٢٥٢)

فإذا قامَ بذلكَ المريدُ على الوجْهِ الذي رسموهُ لهُ ، والتزمَ الوظائفَ التي أُمِرَ بها . . طهرَ قلبُهُ ، وتزكَّتْ نفسُهُ ، واتَّصفَتْ بمحاسنِ الصفاتِ التي تزيِّنُهُ بينَ العبادِ ، وينالُ بها مِنْ قربِ ربِّهِ غايةَ المرادِ ، فتظهرُ حينَئذٍ عليهِ آثارٌ حميدةٌ ؛ مِنَ التواضعِ للهِ ، والخشوعِ بينَ يديهِ ، والتعظيمِ لأمرِهِ ، والحفظِ لحدودِهِ ، والهيبةِ لهُ ، والخوفِ منهُ ، والتذلُّلِ لربوبيَّتِهِ ، والإخلاصِ في عبوديَّتِهِ ، والرضا بقضائِهِ ، ورؤيةِ المِنَّةِ لهُ عليهِ في منعِهِ وعطائِهِ

ويتَّصفُ فيما بينَ خلقِهِ بالرأفةِ والرحمةِ واللينِ والرفْقِ ، وسعةِ الصدرِ والحلمِ والاحتمالِ ، والصيانةِ والنزاهةِ ، والأمانةِ والثقةِ ، والعطفِ والتأنِّي والوقارِ ، والسخاءِ والجودِ ، والحياءِ والبشاشةِ ، والنصيحةِ وسلامةِ الصدرِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ أخلاقِ الإيمانِ التي بها ينالُ العبدُ غايةَ السعادةِ ، والحسنىٰ والزيادةَ .

قلتُ : وهـٰذانِ المعنيانِ هما اللذانِ يعبِّرُ عنهما أئمَّةُ الصوفيَّةِ : بالتخلِّي والتحلِّي ؛ أيِ : التخلِّي مِنَ الصفاتِ المذمومةِ ، والتحلِّي بالصفاتِ المحمودةِ ، ويعبِّرونَ عنهما أيضاً : بالتزكيةِ والتحليةِ ، وهما حقيقةُ السلوكِ الذي يعبِّرونَ عنهُ أيضاً ، وستأتي الإشارةُ إلىٰ كيفيةِ ذلكَ عندَ قولِهِ : (لولا ميادينُ النفوسِ ما تحقَّقَ سيرُ السائرينَ)[1]

فإذا صحَّ للمريدِ هـٰذا السفرُ ، وانقلبَ منهُ إلىٰ أفضلِ مستقرٍّ . . تحقَّقَتْ عبوديَّتُهُ لربِّهِ عزَّ وجلَّ ، فلم يملكْهُ غيرُهُ ، ولم يسترقَّهُ سواهُ ، وارتقىٰ في القربِ مِنْ ربِّهِ إلىٰ أشرفِ محلٍّ ، فيكونُ هناكَ منزلُهُ ومثواهُ ، فيكونُ حينَئذٍ كما قالَ المؤلِّفُ : (لنداءِ الحقِّ مجيباً) لأنَّهُ إذْ ذاكَ يناديهِ باسمِ العبدِ ، فيقولُ لهُ : يا عبدي ؛ فيجيبُ حينَئذٍ مولاهُ باسمِ الربِّ ، فيقولُ لهُ : لبيكَ يا ربِّ ، فيكونُ صادقاً في إجابتِهِ ، متحقِّقاً في نسبتِهِ ، ويكونُ أيضاً مِنْ حضرتِهِ قريباً ؛ لوجودِ بُعدِهِ عن نفسِهِ التي مِنْ شأنِها النفورُ عنها والفرارُ منها

---

(١) انظر (ص ٨٩٦) .

فإذا أقامَهُ الحقُّ تعالىٰ مُقامَ العبوديَّةِ ، وحازَ مرتبةَ القُرْبِ مِنْ حضرةِ الربوبيَّةِ . .
كانَ محفوظاً مِنِ اقتحامِ الأوزارِ ، ميسرةً عليهِ أعمالُ الأخيارِ ، متحلِّياً في الظاهرِ والباطنِ بأشرفِ الحُلَىٰ ، محتظياً بفضيلةِ التشبُّهِ بالملأِ الأعلىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ـ٢٠] ، وقد قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف ٢٠٦] ، وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم ٦] ، فمرتبةُ العنديَّةِ أنالَتْهم هـٰذهِ الخصوصيَّةَ[1] ، وكذلكَ مَنْ تشبَّهَ بهم في محاسنِ صفاتِهم مِنَ الصفوةِ الصوفيَّةِ ، إلا أنَّ هـٰؤلاءِ محفوظونَ لا معصومونَ ، علىٰ ما اصطلحوا عليهِ مِنَ الفرقِ بينَ الحفظِ والعصمةِ

والفرقُ بينَهما ما قالَهُ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ إنَّ المعصومَ لا يلمُّ بذنبٍ ألبتةَ ، والمحفوظَ قد يحصلُ منهُ هَمَّاتٌ ، وقد يكونُ لهُ في الندرةِ زلاتٌ ، ولـٰكنْ لا يكونُ لهُ إصرارٌ[2] ، أولـٰئكَ الذينَ يتوبونَ إلى اللهِ مِنْ قريبٍ

وقد وصفَ اللهُ تعالىٰ عبادَ التخصيصِ ، أولي التطهيرِ والتمحيصِ . في آياتٍ كريمةٍ ، بصفاتٍ جليلةٍ عظيمةٍ ، وأعدَّ لهم علىٰ ذلكَ خيراتٍ جسيمةً ؛ فقالَ تعالىٰ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان ٦٣ ـ ٧٦] ، وإليكَ النظرُ فيما قالَهُ أهلُ التفسيرِ ، وما استنبطَهُ منها أربابُ الإشاراتِ والتذكيرِ[3]

---

(١) في (أ ، هـ) : (العبودية) بدل (العندية) ، وفي هامش (هـ) نسخة : (العندية) ، والمراد بالعندية المشار إليها بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ . . هو ما عبَّر عنه العلامة الشارح بقوله : (ومن حضرته قريباً)

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٧٠٤) ، والنقل بتصرف ، وهمَّات : جمع هَمَّة

(٣) قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/٦٤٩) وهو يصف حال عباد الرحمـٰن المتواضعين : (ويقال : شرط التواضع وحدُّه : ألا يستحسن شيئاً من أحواله ، حتىٰ قالوا إذا نظر إلىٰ رجله لا يستحسن شسع نعله ، وعلىٰ هـٰذا القياس ، لا يساكن أعماله ، ولا يلاحظ =

وأمَّا مَنْ عدا هـٰؤلاءِ فهم عبيدُ نفوسِهِمُ الشهوانيَّةِ ، ومسترَقُّو حظوظِهِمُ الدنياويَّةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية ٢٣] ، وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رُوِيَ عنهُ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّرْهَمِ . . . » الحديثَ(١) ، وهـٰؤلاءِ هم مِنْ عبيدِ العَدَدِ المعنيينَ بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٣ ـ ٩٥]

*

واعلمْ : أنَّهُ لا يتهيَّأُ هـٰذا السلوكُ ، إلىٰ حضرةِ ملكِ الملوكِ . . إلا لمَنْ وفَّقَهُ اللهُ تعالىٰ لمعرفةِ نفسِهِ وما رُكِّبَتْ عليهِ مِنْ مذامِّ الصفاتِ ، ومَنْ عرفَ ذلكَ مِنْ نفسِهِ لا يزالُ متَّهِماً لها ، مسيئاً ظنَّهُ بها ، آخذاً حذرَهُ منها ، وإلا وقعَ في المعاصي والذنوبِ مِنْ حيثُ لا يشعرُ

وقد نبَّهَ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ علىٰ هـٰذا بقولِهِ

= أحواله ، ويقال : إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم ، الطاعنون فيهم ، العائبون لهم . . قابلوا ذلك بالرفق ، وحسن الخلق ، والقول الحسن والكلام الطيب)

(١) رواه البخاري (٢٨٨٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، قال الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٢٥٢) : (فهو متعوس منكوس بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وذكر الحديث ثم قال ـ : فهـٰؤلاء عبيد العَدَد الذين قال مولاهم) وذكر الآيتين الآتيتين

الحكمة الخامسة والثلاثون (*)

أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ . . اَلرِّضَا عَنِ ٱلنَّفْسِ ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ . . عَدَمُ ٱلرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا

الرضا عنِ النفسِ أصلُ جميعِ الصفاتِ المذمومةِ ، وعدمُ الرضا عنها أصلُ الصفاتِ المحمودةِ ، وقدِ اتفقَ علىٰ هـٰذا جميعُ العارفينَ وأربابِ القلوبِ ؛ وذلكَ لأنَّ الرضا عنِ النفسِ يوجبُ تغطيةَ عيوبِها ومساويها ، ويُصيِّرُ قبيحَها حسناً ؛ كما قيلَ[(1)] [من الطويل]

وَعَيْنُ ٱلرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن حسن الظنِّ لا يكون إلا بالله تعالىٰ وبمن زكَّاه وجعله أسوة وقدوة ، وأن للحادث من النقائص ما لله تعالىٰ من الكمالات بالمقابلة المنطقية ، وأن الله تعالىٰ أجرىٰ عادته بخلْقِ المعصية عند الرضا عن النفس ، وبخلق الطاعة عند عدم الرضا عنها ، ولله في خلقه شؤون وحِكَم ، وإلىٰ أن الطباع يسرق بعضها من بعض بإرادة الله سبحانه
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۞ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات : ٥٦ـ٥٧] وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أذنبَ وهو يضحكُ دخلَ النارَ وهو يبكي » ، رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩٦/٤) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

(1) صدر بيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر كما في « عيون الأخبار » (٧٦/٣) .

وعدمُ الرضا عنِ النفسِ علىٰ عكسِ هـٰذا ؛ لأنَّ العبدَ إذْ ذاكَ يتَّهمُ نفسَهُ ، ويتطلَّبُ عيوبَها ، ولا يغترُّ بما تُظهِرُ مِنَ الطاعةِ والانقيادِ ، كما قيلَ في الشطرِ الآخرِ :

وَلَـٰكِنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِي ٱلْمَسَاوِيَا

فمَنْ رضيَ عن نفسِهِ استحسنَ حالَها وسكنَ إليها ، ومَنِ استحسنَ حالَ نفسِهِ وسكنَ إليها . . استولَتْ عليهِ الغفلةُ ، وبالغفلةِ ينصرفُ قلبُهُ عنِ التفقُّدِ والمراعاةِ لخواطرِهِ ، فتثورُ حينَئذٍ دواعي الشهوةِ على العبدِ ، وليسَ عندَهُ مِنَ المراقبةِ والتذكُّرِ ما يدفعُها بهِ ويقهرُها ، فتصيرُ الشهوةُ غالبةً لهُ بسببِ ذلكَ ، ومَنْ غلبَتْهُ شهوتُهُ وقعَ في المعاصي لا محالةَ ، وأصلُ ذلكَ كلِّهِ رضاهُ عن نفسِهِ

ومَنْ لم يرضَ عن نفسِهِ لم يستحسنْ حالَها ولم يسكنْ إليها ، ومَنْ كانَ بهـٰذا الوصفِ كانَ متيقِّظاً متنبِّهاً للطوارقِ والعوارضِ ، وباليقظةِ والتنبُّهِ يتمكَّنُ مِنْ تفقُّدِ خواطرِهِ ومراعاتِها ، وعندَ ذلكَ تخمدُ نيرانُ الشهوةِ ، فلا يكونُ لها عليهِ غلبةٌ ولا قوَّةٌ ، فيتَّصفُ العبدُ حينَئذٍ بصفةِ العفَّةِ ، فإذا صارَ عفيفاً كانَ مجتنباً لكلِّ ما نهى اللهُ عنهُ ، محافظاً علىٰ جميعِ ما أمرَهُ بهِ ، وهـٰذا هو معنى الطاعةِ للهِ عزَّ وجلَّ ، وأصلُ هـٰذا كلِّهِ عدمُ رضاهُ عن نفسِهِ .

فإذاً ؛ لا شيءَ أوجبُ على العبدِ مِنَ المعرفةِ بنفسِهِ ، ويلزمُ مِنْ ذلكَ عدمُ الرضا عنها ، وبقدْرِ تحقُّقِ العبدِ في معرفةِ نفسِهِ يصحُّ لهُ حالُهُ ، ويعلو مقامُهُ

وقد وردَ عنِ الكبارِ والأئمَّةِ الأخيارِ مِنَ الكلماتِ المتضمِّنةِ لعيبِهِم لنفوسِهم والتُّهَمَةِ منهم لها ، وعدمِ رضاهم عنها . . أكثرُ مِنْ أنْ يُحصىٰ ، ولذلكَ قالَ أبو حفصٍ (مَنْ لم يتَّهمْ نفسَهُ علىٰ دوامِ الأوقاتِ ، ولم يخالفْها في جميعِ الأحوالِ ، ولم يجُرَّها إلىٰ مكروهِها في سائرِ أيامِهِ . . كانَ مغروراً ، ومَنْ نظرَ إليها باستحسانِ شيءٍ منها فقد أهلكَها ، وكيفَ يصحُّ لعاقلٍ الرضا عن نفسِهِ والكريمُ ابنُ

الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يقولُ : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] ؟!)[١]

وقالَ أيضاً أبو حفصٍ : (منذُ أربعينَ سنةً اعتقادي في نفسي أنَّ اللهَ ينظرُ إليَّ نظرَ السخطِ ، وأعمالي تدلُّ علىٰ ذلكَ)[٢]

وقالَ الجنيدُ : (لا تسكنْ إلىٰ نفسِكَ ، وإنْ دامَتْ طاعتُها لكَ في طاعةِ ربِّكَ)[٣]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (ما رضيتُ عن نفسي طرفةَ عينٍ)[٤]

ويُحكىٰ عن سريٍّ السقطيِّ أنَّهُ قالَ : (إنِّي لأنظرُ إلىٰ أنفي في اليومِ كذا كذا مرةً مخافةَ أنْ يكونَ قدِ اسودَّ ؛ لما أخافُهُ مِنَ العقوبةِ)[٥]

وقالَ أيضاً : (مِنَ الناسِ ناسٌ لو ماتَ نصفُ أحدِهم ما انزجرَ النصفُ الآخرُ ، ولا أحسبُني إلا منهم)[٦]

إلىٰ غيرِ هـٰذا مِنَ العباراتِ الصادرةِ عنِ المشايخِ رضيَ اللهُ عنهم في هـٰذا المعنىٰ

[مِنْ مهمَّاتِ الدينِ مطالعةُ كتبِ التصوُّفِ]

وقد ألَّفَ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السلميُّ جزءاً صغيرَ الجِرْمِ عظيمَ الفوائدِ في عيوبِ النفسِ وكيفيَّةِ مداواتِها ، فلينظرْ فيهِ المريدُ .

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٩٠)

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٣٥٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦٩) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ١٣١)

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١١٦)

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٢٦)

وكذلكَ أَلَّفَ قبلَهُ الإمامُ أبو عبدِ اللهِ الحارثُ المحاسبيُّ كتاباً سمَّاهُ « النصائحَ » ، جمعَ فيهِ مِنْ معايبِ النفسِ وخِدَعِها وغرورِها وشرورِها جملةً شافيةً كافيةً ، ونبَّهَ فيهِ علىٰ سننٍ دارسةٍ عافيةٍ ، ممَّا كانَ عليهِ سلفُنا الصالحُ ؛ مِنَ التفتيشِ والتفقُّدِ ، والنظرِ فيما تصلحُ بهِ أعمالُهم وأحوالُهم وتفسدُ ، والمحافظةِ علىٰ تطهيرِ الأسرارِ والقلوبِ ، والمبالغةِ في الحذرِ مِنْ محقَّراتِ الذنوبِ ، وقد نقلَ الإمامُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمةُ اللهِ عليهِ منهُ فصلاً في كتابِهِ ، واعتمدَ فيهِ ذكرَهُ بلفظِهِ ونصِّ خطابِهِ ، بعدَ أنْ أثنىٰ علىٰ مؤلِّفِهِ بما هو أهلُهُ ، فبانَ للجاهلِ بهِ علمُهُ وفضلُهُ ، فقالَ في حقِّهِ : (والمحاسبيُّ حبرُ الأمَّةِ في علمِ المعاملةِ ، ولهُ السَّبْقُ علىٰ جميعِ الباحثينَ عن عيوبِ النفسِ وآفاتِ الأعمالِ وأغوارِ العباداتِ ، وكلامُهُ جديرٌ بأنْ يُحكىٰ علىٰ وجهِهِ)[1] ، ثم ذكرَهُ

وقد كانَ أوحدُ زمانِهِ علماً وعبادةً ، ونخبةُ أوانِهِ ورعاً وزهادةً ؛ سيدي الحاجُّ أبو العباسِ بنُ عاشرٍ رحمةُ اللهِ عليهِ[2] . . يكثرُ مِنَ التحريضِ علىٰ مطالعةِ ذلكَ الكتابِ[3] ، والعملِ بما تضمَّنَهُ مِنْ حقٍّ وصوابٍ ، وأظنُّني سمعتُهُ ذاتَ يومٍ يقولُ : (لا يعملُ بما فيهِ إلا وليٌّ) أو كلاماً هـٰذا معناهُ ، فليتخذِ المريدُ مطالعتَهُ وِرداً ،

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٦/٢٢٣)

(٢) شيخ العلامة الشارح ؛ العارف الولي الزاهد أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي السلاوي ، وانظر الحديث عنه (ص ٢٩)

(٣) الظاهر أنه أراد كتاب « النصائح » ـ المطبوع باسم « الوصايا » ـ للإمام المحاسبي ، وقد نقل هـٰذا العلامة زروق في « الطرر والحواشي » (ص ٦٧) حيث قال وهو ينقل عن الإمام العلامة الشارح ابن عباد : (وقال عن شيخه أوحد زمانه علماً وعبادة ، ونخبة أوانه ورعاً وزهادة ؛ الحاج أحمد بن عاشر رحمه الله : إنه كان يحضُّ علىٰ كتاب « النصائح » للمحاسبي ، ويحرِّض علىٰ قراءته والعمل به) ثم نقل كلامه هنا
وقد يُراد علىٰ بُعدٍ كتاب « إحياء علوم الدين » ؛ فقد نقل العلام التُّنْبُكْتي في « نيل الابتهاج » (ص ٩٧) عن الشيخ ابن الخطيب القسنطيني في « رحلته » : (وطريقه ـ يعني الإمام ابن عاشر ـ : أنه جعل « إحياء علوم الدين » بين عينيه ، واتبع ما فيه بجدٍّ واجتهاد ، وصدق وانقياد ، وكان الحجة في ذلك الطريق) .

وليحرصْ على العملِ بما تضمَّنَهُ مستعيناً باللهِ تعالىٰ وسائلاً منهُ توفيقاً ورشداً ؛ لينصحَ لمولاهُ في مراعاةِ إصلاحِ باطنِهِ ، والقيامِ علىٰ قَدَمِ الصدقِ في مواطنِهِ

وليجعلْ هِجِّيراهُ مطالعةَ كُتُبِ التصوُّفِ[1] ، وموالاةَ أهلِهِ بالتألُّفِ والتعرُّفِ ، فبذلكَ يتقوَّىٰ أنوارُ إيمانِهِ ويقينِهِ ، وينتفي عنهُ الغِرَّةُ في عملِهِ بوظائفِ دينِهِ ، ولا يُقْدِمْ علىٰ ذلكَ إلا بعدَ فرضِ العينِ ، وما تسمحُ بهِ نفسُهُ مِنْ مكابدةِ التعبِ والأينِ[2] ، ولا يشغلْ نفسَهُ بعلمٍ يغبِّرُ في وجهِ مقصودِهِ ، ويوجبُ لهُ انتكاثَ مواثيقِهِ وعهودِهِ ؛ وهو ما أكبَّ الناسُ عليهِ اليومَ ، وحادوا بهِ عن سَنَنِ القومِ ، حتىٰ تطرَّقَ لهم بسببِ ذلكَ مِنْ رذائلِ الصفاتِ وعظائمِ الآفاتِ ما أصارَهم إلى الهلاكِ والشقاءِ ، وأعقبَهمُ النفاقَ في قلوبِهم إلىٰ يومِ اللقاءِ ، وسجَّلَ عليهم بالكذبِ في دعواهم ، أنَّهم قاصدونَ بعلمِهم رضا مولاهم ، فإيَّاكَ وإيَّاهم

لَقَـدْ أَسْمَعْـتَ لَـوْ نَـادَيْـتَ حَيّـاً ... وَلَـٰكِـنْ لا حَيَـاةَ لِمَـنْ تُنَـادِي[3]

وَلَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لا يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ . . خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِماً يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ، فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؟! وَأَيُّ جَهْلٍ لِجَاهِلٍ لا يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؟!

فائدةُ الصحبةِ إنَّما هي الزيادةُ في الحالِ وعدمُ النقصانِ فيها ، حسَبَ ما يأتي الكلامُ عليهِ عندَ قولِهِ (لا تصحبْ مَنْ لا ينهضُكَ حالُهُ ، ولا يدلُّكَ على اللهِ مقالُهُ)[4]

---

(١) يقال : **ما زال ذلك هجِّيراه** ؛ أي : عادته ودأبه

(٢) **الأين** : الإعياء

(٣) البيت من الوافر ، وهو ضمن قطعة شعرية لعمرو بن معدي كرب كما في « ديوانه » (ص ١١٢)

(٤) انظر (ص ٣٠٧) .

فصحبةُ مَنْ رضيَ عن نفسِهِ وإنْ كانَ عالماً . . شرٌّ محضٌ ، ولا فائدةَ فيها ؛ لأنَّ علمَهُ غيرُ نافعٍ ، وجهلَهُ الذي أوجبَ رضاهُ عن نفسِهِ ضارٌّ غايةَ الضررِ ، وكأنَّهُ إِذْ فاتَهُ هـٰذا العلمُ الذي يريهِ عيبَهُ حتىٰ لا يرضىٰ عن نفسِهِ . . لا علمَ عندَهُ

وصحبةُ مَنْ لم يرضَ عن نفسِهِ وإنْ كانَ جاهلاً . . خيرٌ محضٌ ، وفيهِ كلُّ الفائدةِ ؛ لأنَّ جهلَهُ غيرُ ضارٍّ ، وعلمَهُ الذي أوجبَ لهُ عدمَ رضاهُ عن نفسِهِ نافعٌ غايةَ النفعِ ، وكأنَّهُ إذا حصلَ لهُ هـٰذا العلمُ . . لا جهلَ عندَهُ

* * *

الحكمة السادسة والثلاثون (*)

شُعَاعُ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ ، وَعَيْنُ ٱلْبَصِيرَةِ تُشْهِدُكَ عَدَمَكَ بِوُجُودِهِ[1] ، وَحَقُّ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَهُ ، لا عَدَمَكَ وَلا وُجُودَكَ .

شعاعُ البصيرةِ نورُ العقلِ ، **وعينُ البصيرةِ** : نورُ العلمِ ، **وحقُّ البصيرةِ** : نورُ الحقِّ

فالعقلاءُ بنورِ عقلِهم شهدوا أنفسَهم ، وشاهدوا ربَّهم قريباً منهم ؛ أي بالعلمِ والإحاطةِ ، **والعلماءُ بنورِ علمِهم** شهدوا أنفسَهم عدماً في وجودِ ربِّهم ، **والمتحقِّقونَ بنورِ الحقِّ** شاهدوا الحقَّ ، ولم يشاهدوا معَهُ سواهُ[2]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تفاوت شهود الحق سبحانه ؛ كما أن معرفته متفاوتة أيضاً ، وإلىٰ أن هداية العقل لا تغني عن هداية النقل ، ولهداية النقل مهيع فسيح ، ووراء ذلك عناية أزلية لمن اختصَّه المولىٰ وقرَّبه نجيّاً ، فالأول : إيمان نظر وبحث ، والثاني : إيمان تحقيق واستدلال ، والثالث : إيمان تحقُّق وكشف

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٣-٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يا أيُّها الناس ؛ اربعوا علىٰ أنفسكم ؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ؛ إنه معكم ؛ إنه سميع قريب ، تبارك اسمه وتعالىٰ جدُّهُ » ، رواه البخاري (٢٩٩٢) ، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

(١) في (ج) : (لوجوده) بدل (بوجوده) .

(٢) قد يعبَّرُ عن هـٰذه الرُّتب أيضاً : بعلم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، ويعبَّر عنها أيضاً : بالفناء في الأفعال ، ثم بالصفات ، ثم بالذات ، وإليهما أشار العلامة زروق في « الطرر

الأزمنةُ ها هنا أمورٌ وهميَّةٌ لا وجودَ لها على التحقيقِ ، **والمقصودُ** : أنَّ اللهَ لا شيءَ معَهُ ؛ لثبوتِ أحديَّتِهِ

فَلَمْ يَبْقَ إِلا ٱلْحَقُّ لَمْ يَبْقَ كَائِنُ فَمَا ثَمَّ مَوْصُولٌ وَمَا ثَمَّ بَائِنُ
بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ ٱلْعِيَانِ فَمَا أَرَىٰ بِعَيْنَـيَّ إِلا عَيْنَـهُ إِذْ أُعَـايِـنُ(1)

وسيأتي مِنْ كلامِ المؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ : (الأكوانُ ثابتةٌ بإثباتِهِ ، ممحوَّةٌ بأحديَّةِ ذاتِهِ)

* * *

= والحواشي » (ص ٦٦) ، وقد يعبر عنها أيضاً : بالهداية العامة ، والهداية الخاصة ، والهداية المشرقة من عالم النبوة ، وإلى الأولى الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] ، والعقل مناط التكليف ، وإلى الثانية الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : ١٧] ، وإلى الثالثة الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة ١٢٠] ، ولا هداية فوق هداية الله تعالىٰ ، وانظر « إحياء علوم الدين » (٧/ ٣٥٧)

(١) البيتان من الطويل ، وهما للعارف الحاتمي في « فصوص الحكم » (١/ ٩٣) .

الباب الرابع

في التوجّه للحقّ والعباد

الحكمة السابعة والثلاثون (*)

وقال رضي الله عنه :

لا تَتَعَدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَالْكَرِيمُ لا تَتَخَطَّاهُ الآمَالُ

الهِمَّةُ العليَّةُ تأنفُ مِنْ رفعِ حوائجِها إلىٰ غيرِ كريمٍ ، ولا كريمَ على الحقيقةِ سوى اللهِ تعالىٰ

قالَ الجنيدُ : (الكريمُ : الذي لا يحوجُكَ إلىٰ مسألتِهِ)[1]

وقالَ الحارثُ المحاسبيُّ : (الكريمُ : الذي لا يبالي مَنْ أعطىٰ)[2]

وقيلَ : (الكريمُ : الذي لا يخيِّبُ رجاءَ المؤمِّلينَ)[3]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تحقيق معنى التوحيد ، وأن لا فعَّال إلا الواحد القديم ، وأن من اعتقد تأثير غيره فقد أشرك معه ، وأن الوعد القديم ناجز لا محالة ، وأن كل ما دلَّ ظاهره علىٰ خلاف هـٰذا المعنىٰ فهو مؤول بالأخذ بالأسباب بأمرِ مسبِّبها سبحانه ، وإلىٰ إثبات صفة الكرم على القول بها .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] ، وقوله تعالىٰ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [قٓ : ٣٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا سألْتَ فاسألِ اللهَ ، وإذا استعنت فاستعن باللهِ » ، رواه الترمذي (٢٥١٦) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

(١) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١٦٢) .
(٢) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١٦٢) بنحوه .
(٣) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١٦٣) .

وأجمعُ العباراتِ في معنى الكرمِ : ما قيلَ : (الكريمُ : الذي إذا قدرَ عفا ، وإذا وعدَ وفىٰ ، وإذا أعطىٰ زادَ علىٰ منتهى الرجا ، ولا يبالي كم أعطىٰ ، ولا لمَنْ أعطىٰ ، وإنْ رُفعَتْ حاجةٌ إلىٰ غيرِهِ لا يرضىٰ ، وإذا جُفِيَ عاتبَ وما استقصىٰ ، ولا يُضيِّعُ مَنْ لاذَ بهِ والتجا ، ويغنيهِ عنِ الوسائلِ والشفعا)[1]

فإذا كانَتْ هـٰذهِ الصفاتُ لا يستحقُّها أحدٌ سوى اللهِ تعالىٰ . . فينبغي إذاً ألا تتخطَّاهُ آمالُ المؤمِّلينَ إلىٰ غيرِهِ ، كما قالَ بعضُهم[2] : [من الطويل]

حَـرَامٌ عَلَـىٰ مَـنْ وَحَّـدَ ٱللهَ رَبَّـهُ ... وَأَفْـرَدَهُ أَنْ يَجْتَـدِي أَحَـداً رِفْـدَا
وَيَا صَاحِبِي قِفْ بِي مَعَ ٱلْحَقِّ وَقْفَةً ... أَمُوتُ بِهَا وَجْداً وَأَحْيَا بِهَا وَجْدَا
وَقُلْ لِمُلُوكِ ٱلأَرْضِ تَجْهَدُ جَهْدَهَا ... فَذَا ٱلْمُلْكُ مُلْكٌ لا يُبَاعُ وَلا يُهْدَىٰ

* * *

(١) هـٰذا البيانُ للكريم هو لحجة الإسلام الغزالي في « المقصد الأسنىٰ » (ص ٢٢٧)

(٢) أورد هـٰذه الأبيات الإمام ابن عطاء الله في « التنوير » (ص ٢٩٠) .

الحكمة الثامنة والثلاثون (*)

لا تَرْفَعَنَّ إِلَىٰ غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعاً ؟! مَنْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ . فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعاً ؟!

إذا أوردَ اللهُ عليكَ حاجةً ، وأنزلَ بكَ نازلةً . . فاعلمْ أنَّهُ لا رافعَ لها سواهُ ؛ إذْ يستحيلُ أنْ يرفعَ غيرُهُ ما كانَ هو لهُ واضعاً ؛ لثبوتِ توحيدِهِ في أنَّهُ لا فاعلَ سواهُ ، وإذْ هو غالبٌ على أمرِهِ ، لا يغالبُهُ أحدٌ ، ويستحيلُ أيضاً أنْ يرفعَها عنكَ مَنْ لا يستطيعُ أنْ يرفعَها عن نفسِهِ لو نزلَتْ بهِ ؛ لثبوتِ عجزِهِ وضعفِهِ ، ومِنَ المحالِ تعلُّقُكَ في حاجتِكَ بمَنْ هو محتاجٌ مثلُكَ .

قالَ بعضُهم : (مَنِ اعتمدَ على غيرِ اللهِ فهو في غرورٍ ؛ لأنَّ الغرورَ ما لا يدومُ ، ولا يدومُ شيءٌ سواهُ ، وهو الدائمُ القديمُ الذي لم يزلْ ولا يزالُ ، وعطاؤُهُ وفضلُهُ دائمانِ ، فلا تعتمدْ إلا على مَنْ يدومُ عليكَ منهُ الفضلُ والعطاءُ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن لا فاعلَ إلا الله سبحانه ، وإلىٰ أن لله تعالىٰ حِكَماً في أفعاله يحسنُ بالعبد التعرف عليها ، وأنه تعالىٰ لا يجب عليه مراعاة صلاحٍ ولا أصلح ، وأنه سبحانه مستبدٌّ بجميع الأفعال ، وأن الدعاء عبادة ، ينفع بما سبق به علم الله .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ [التوبة : ١١٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك » ، رواه البخاري (٢٤٧) ومسلم (٢٧١٠) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

في كلِّ نَفَسٍ وحينٍ ، وأوانٍ وزمانٍ)[١]

قالَ عطاءٌ الخراسانيُّ لقيتُ وهبَ بنَ منبهٍ في الطريقِ ، فقلتُ حدِّثْني حديثاً أحفظُهُ عنكَ في مقامي وأوجزْ ، قالَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داودَ عليهِ السلامُ : يا داودُ ؛ أمَا وعزَّتي وعظمتي ؛ لا ينتصرُ بي عبدٌ مِنْ عبادي دونَ خلقي ، أعلمُ ذلكَ مِنْ نيَّتِهِ ، فتكيدُهُ السماواتُ السبعُ ومَنْ فيهنَّ والأرضونَ السبعُ ومَنْ فيهنَّ . . إلا جعلتُ لهُ منهنَّ فرجاً ومخرجاً ، أمَا وعزَّتي وعظمتي ؛ لا يعتصمُ عبدٌ مِنْ عبادي بمخلوقٍ دوني ، أعلمُ ذلكَ مِنْ نيَّتِهِ . . إلا قطعتُ أسبابَ السماواتِ مِنْ يدِهِ ، وأسختُ الأرضَ مِنْ تحتِهِ ، ولا أبالي في أيِّ وادٍ هلكَ[٢]

وقالَ بعضُهم : كنتُ في مجلسِ يزيدَ بنِ هارونَ ، وكانَ إلىٰ جانبي رجلٌ ، فسألتُهُ عن قصَّتِهِ وخبرِهِ ، فقالَ فقدتُ نفقتي ، فقلتُ ومَنْ تؤمِّلُ لما قد نزلَ بكَ ؟ فقال يزيد ، فقلت إذاً لا يسعفُكَ بحاجتِكَ ولا يُنْجِحُ طلبُكَ[٣] ، ولا يبلِّغُكَ أملَكَ ، فقالَ : وما علمُكَ يرحمُكَ اللهُ ؟

قلتُ إنِّي قرأتُ في بعضِ الكتبِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : وعزتي وجلالي ، وجودي وكرمي ، وارتفاعي فوقَ عرشي في علوِّ مكاني[٤] ؛ لأقطعَنَّ أملَ كلِّ مؤمِّلٍ لغيري بالإياسِ ، ولأكسونَّهُ ثوبَ المذلَّةِ عندَ الناسِ ، ولأنحينَّهُ مِنْ قربي ، ولأقطعَنَّهُ

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٣٤)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٥) ، وفي (ج) : (ينتصر) بدل (يعتصم)

(٣) في (ج) : (طَلِبَتُكَ) بدل (طلبُكَ)

(٤) في قلوب العارفين ، فهو علوُّ رتبة ، قال حجة الإسلام في « المقصد الأسنىٰ » (ص ٢٠٨) : (فكلُّ من له الفوقية في المكان فله العلو المكاني ، وكل من له الفوقية في الرتبة فله العلو في الرتبة) ، ثم قال : (والعجب من الحشوي الذي لا يفهم من الفوق إلا المكان ! ومع ذلك إذا سئل عن شخصين من الأكابر وقيل له : كيف يجلسانِ في الصدور والمحافل ؟ فيقول : هـٰذا يجلس فوق ذاك ، وهو يعلم أنه ليس يجلس إلا بجنبه ، وإنما يكون جالسا فوقه لو جلس علىٰ رأسه ، أو في مكان مبني فوق رأسه)

مِنْ وصلي ، أيؤمِّلُ غيري في النوائبِ والشدائدُ بيدي ؟! أنا أنجي ويرجِّي غيري ؟! وتطرقُ الفكرةُ أبوابَ غيري وبيدي مفاتيحُ الأبوابِ ، وهي مغلقةٌ وبابي مفتوحٌ لِمَنْ دعاني ؟!

مَنْ ذا الذي أمَّلَني لنائبةٍ فقطعتُ بهِ دونَها ؟! ومَنْ ذا الذي رجاني لعظيمِ جُرمِهِ فقطعتُ رجاءَهُ منِّي ؟! أم مَنْ ذا الذي قرعَ بابي فلم أفتحْهُ لهُ ؟!

جعلتُ آمالَ خلقي بيني وبينَهم متَّصلةً ، فقُطِعَتْ بغيري ، وجعلتُ رجاءَهم مدَّخراً لهم عندي ، فلم يرضَوْا بحفظي ، وملأتُ سماواتي ممَّنْ لا يملُّونَ تسبيحي مِنْ ملائكتي ، وأمرتُهم ألا يغلقوا الأبوابَ بيني وبينَ خلقي ، فلم يثقوا بقولي

ألم يعلمْ مَنْ طرقَتْهُ نائبةٌ مِنْ نوائبي أنَّهُ لا يملكُ كشفَها أحدٌ غيري ؟! فما لي أراهُ بآمالِهِ معرضاً عنِّي ؟! وما لي أراهُ لاهياً إلىٰ سواي ؟!

أعطيتُهُ بجودي ما لم يسأَلْني ، ثم انتزعتُهُ منهُ فلم يسأَلْني ردَّهُ ، وسألَهُ غيري ، أفتُراني أبدأُ بالعطيَّةِ قبلَ المسألةِ ، ثم أُسألُ فلا أجيبُ سائلي ؟! أبخيلٌ أنا فيبخِّلَني عبدي ؟! أليسَ الدنيا والآخرةُ لي ؟! أوَليسَ الرحمةُ والفضلُ بيدي ؟! أوَليسَ الجودُ والكرمُ لي ؟! أوَليسَ أنا محلَّ الآمالِ ؟![1] فمَنْ ذا الذي يقطعُها دوني ؟! وما عسىٰ أنْ يؤمِّلَ المؤمِّلونَ ؟!

لو قلتُ لأهلِ سماواتي وأهلِ أرضي : أمِّلوني ، ثم أعطيتُ كلَّ واحدٍ منهم مِنَ الفِكَرِ مثلَ ما أعطيتُ الجميعَ . . ما انتقصَ ذلكَ مِنْ ملكي عُضْوَ ذرَّةٍ[2] ، كيفَ ينقصُ ملكٌ كاملٌ أنا قيِّمُهُ ؟! فيا بؤسَ القانطينَ مِنْ رحمتي ، ويا بؤسَ مَنْ عصاني ولم يراقبْني ، وتوثَّبَ علىٰ محارمي ولم يستحْيِ منِّي .

---

(١) في العبارة فصل الضمير الواجب اتصاله ، ويمكن جعل (ليس) شأنية ، وعليه فيجب رفع كلمة (محل) على الخبرية .

(٢) الذرة : النملة الدقيقة .

قالَ رحمَكَ اللهُ ، أمْلِ هـٰذا الحديثَ عليَّ ، فكتبَهُ ثم قالَ والله ؛ لا أكتبُ حديثاً بعدَهُ[1]

* * *

قلتُ والأصلُ الذي ينبني عليهِ هـٰذا المعنىٰ هو تحقُّقُ العبدِ في مقامِ حسْنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ ، وقد أخذَ المؤلِّفُ رحمَهُ الله في ذكرِهِ بأثرِهِ فقالَ :

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٨٧) .

الحكمة التاسعة والثلاثون (*)

إِنْ لَمْ تُحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِأَجْلِ حُسْنِ وَصْفِهِ . . حَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِوُجُودِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ ؛ فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلا حَسَناً ، وَهَلْ أَسْدَىٰ إِلَيْكَ إِلا مِنَناً ؟!

حسنُ الظنِّ باللهِ تعالىٰ أحدُ مقاماتِ اليقينِ ، والناسُ فيهِ علىٰ قسمينِ : خاصَّةٌ ، وعامَّةٌ

فالخاصَّةُ : حسَّنوا الظنَّ بهِ لما هو عليهِ مِنَ النعوتِ السنيَّةِ ، والصفاتِ العليَّةِ

والعامَّةُ : حسَّنوا الظنَّ بهِ لما هم فيهِ مِنْ سبوغِ النِّعَمِ ، وشمولِ الفضلِ والكرمِ .

والتفاوتُ بينَ المقامينِ ظاهرٌ ، ولذلكَ لا يُخافُ مِنَ الانقلابِ والتغيُّرِ في أحدِهما ما يُخافُ في الآخرِ ؛ لأنَّ أربابَ المقامِ الأوَّلِ لمَّا تحقَّقوا في المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، واحتظَوْا بأنوارِ اليقينِ بهِ . . اطمأنَّتْ قلوبُهم ، وسكنَتْ نفوسُهم ، فلم يبقَ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن أفعال الله تعالىٰ من حيث نسبتها إليه لا توصف إلا بالحُسْن ، ومن حيث ظهورها على الحوادث توصف بالحسن والقبح ، والخير والشر ، ومع هـٰذا فالأصل هو الحسن والخير ، والقبح والشر طارئان ، وأنه تعالىٰ تحبَّب إلىٰ خلقه بإحسانه ، وشاكَلَ إحسانه إليهم بإحسانهم إليه ؛ وذاك هو طاعته والتملُّق إليه وحده

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أحبُّوا اللهَ لما يغذوكم من نعمِهِ » ، رواه الترمذي (٣٧٨٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

فيهم متَّسعٌ لوجودِ تُهَمَةٍ ، ولا مجالٌ لسوءِ ظنٍّ ، وأربابُ المقامِ الثاني لم يرتقوا عن نظرِهم إلى الأفعالِ ، وهي متلوِّنةٌ عليهم في كلِّ حالٍ ، وعندَ وقوعِ بعضِ ما لا يلائمُهم منها بهم ، ربَّما تضعفُ عن تحمُّلِ مكارهِها قُوىٰ قلوبِهم ، فلا تحصلُ لهمُ البراءةُ مِنْ خواطرِ سوءِ الظنِّ وتحدُّثِ النفسِ بما يقتضي وجودَ هلعٍ وجزعٍ ، فليكنِ العبدُ عندَ ذلكَ مشاهداً معنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة : ٢١٦] وما أشبهَهُ ، وليقسِ النادرَ على الغالبِ .

قالَ أبو محمدٍ عبدُ العزيزِ المهدويُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (حُسْنُ الظنِّ عبارةٌ عن قطعِ الوهمِ أنْ يكونَ أو لا يكونَ ؛ لأنَّ الوهمَ قاتلٌ وهو لوقتٍ ثانٍ ، فمتىٰ أعطيتَ أذنَكَ للوهمِ هلكْتَ وحِدْتَ ، وكذلكَ الإصغاءُ بالأذنِ إلى الشيطانِ والنفسِ جنسٌ واحدٌ) انتهىٰ .

قلتُ : وحسْنُ الظنِّ يُطلبُ مِنَ العبدِ في أمرِ دنياهُ وأمرِ آخرتِهِ .

أمَّا أمرُ دنياهُ : فأنْ يكونَ واثقاً باللهِ تعالىٰ في إيصالِ المنافعِ والمرافقِ إليهِ مِنْ غيرِ كدٍّ ولا سعْيٍ فيها ، أو بسعْيٍ خفيفٍ مأذونٍ فيهِ ومأجورٍ عليهِ ، وبحيثُ لا يُفوِّتُهُ ذلكَ شيئاً مِنْ نفلٍ ولا فرضٍ ، فيوجبَ لهُ ذلكَ سكوناً وراحةً في قلبِهِ وبدنِهِ ، فلا يستفزُّهُ طلبٌ ، ولا يزعجُهُ سببٌ .

وأمَّا أمرُ آخرتِهِ : فأنْ يكونَ قويَّ الرجاءِ في قبولِ أعمالِهِ الصالحةِ ، وتوفيةِ أجورِهِ عليها في دارِ الثوابِ والجزاءِ ، فيوجبَ لهُ ذلكَ المبادرةَ لامتثالِ الأوامرِ ، والتكثُّرَ مِنْ أعمالِ البرِّ بوجدانِ حلاوةٍ واغتباطٍ ، ولذاذةٍ وانتشاطٍ(١)

وقد قالَ يحيى بنُ معاذٍ : (أوثقُ الرجاءِ رجاءُ العبدِ ربَّهُ ، وأصدقُ الظنونِ حُسْنُ الظنِّ باللهِ تعالىٰ)(٢)

---

(١) يقال : تنشَّط لأمر كذا ؛ إذا طابت نفسه للعمل .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٥٨) .

ومِنْ مواطنِ حسْنِ الظنِّ باللهِ تعالى التي ينبغي للعبدِ ألا يفارقَهُ فيها أوقاتُ الشدائدِ والمحنِ ، وحلولِ المصائبِ في الأهلِ والمالِ والبدنِ ؛ لئلا يقعَ بسببِ عدمِ ذلكَ في الجزعِ والسخطِ ، وسيأتي هٰذا المعنىٰ في كلامِ المؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ ؛ وهو قولُهُ : (مَنْ ظنَّ انفكاكَ لطفِهِ عن قدرِهِ فذلكَ لقصورِ نظرِهِ)[١]

ومِنْ أعظم مواضعِ حسْنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ : حالةُ الموتِ ، وقد جاءَ في الخبرِ : « لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ ٱلظَّنَّ بِٱللهِ تَعَالَىٰ »[٢]

وفي حديثِ جابرٍ : « مَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَلا يَمُوتَ إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ ٱلظَّنَّ بِٱللهِ تَعَالَىٰ . فَلْيَفْعَلْ » ، ثم تلا هٰذهِ الآيةَ : « ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ » [فصلت : ٢٣][٣]

ولأنَّهُ تعالىٰ قالَ فيما يُروىٰ عنهُ : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ »[٤]

قالَ أبو طالبٍ : (وكانَ ابنُ مسعودٍ يحلفُ باللهِ تعالىٰ ؛ ما أحسنَ عبدٌ ظنَّهُ باللهِ تعالىٰ إلا أعطاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ذلكَ ؛ لأنَّ الخيرَ كلَّهُ بيدِهِ ، فإذا أعطاهُ حسْنَ الظنِّ بهِ فقد أعطاهُ ما يظنُّهُ ؛ لأنَّ الذي حسَّنَ ظنَّهُ بهِ هو الذي أرادَ أنْ يحقِّقَهُ لهُ) انتهىٰ[٥]

وقد رُوِيَ عن أبي النضرِ حيَّانَ قالَ[٦] : خرجتُ عائداً ليزيدَ بنِ الأسودِ ، فلقيتُ واثلةَ بنَ الأسقعِ وهو يريدُ عيادتَهُ ، فدخلنا عليهِ وهو في فراشِهِ ، فلمَّا رأىٰ واثلةَ بسطَ يدَهُ وجعلَ يشيرُ إليهِ ، فأقبلَ واثلةُ حتىٰ جلسَ على الفراشِ ، وأخذَ يزيدُ بنُ

---

(١) انظر (ص ٤٨٨) .

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٩٠)

(٤) رواه الدارمي في « سننه » (٢٧٧٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٣) من حديث سيدنا واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، وأصله في « الصحيحين » .

(٥) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ٥٩١)

(٦) هو حيان الأسدي الجرشي الشامي البلاطي ، وانظر « تاريخ دمشق » (١٥/ ٣٧٣)

الأسودِ بكفِّ واثلةَ حتىٰ جعلَها علىٰ وجهِهِ ، فقالَ لهُ واثلةُ أسألُكَ عن شيءٍ تخبرُنيهِ ؟ قالَ لا تسألُني عن شيءٍ أعلمُهُ إلا أخبرتُكَ بهِ ، قالَ لهُ واثلةُ كيفَ ظنُّكَ باللهِ عزَّ وجلَّ ؟ قالَ : ظنِّي باللهِ واللهِ حسنٌ ، قالَ : فأبشرْ ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ « قَالَ ٱللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، إِنْ ظَنَّ خَيْراً ، وَإِنْ ظَنَّ شَرّاً »(1)

ورُوِيَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ : عادَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مريضاً ، فقالَ لهُ : « كَيْفَ ظَنُّكَ بِرَبِّكَ ؟ » ، قالَ يا رسولَ اللهِ ؛ حَسَنُ الظنِّ ، قالَ : « فَظُنَّ بِهِ مَا شِئْتَ ، فَإِنَّ ٱللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عِنْدَ ظَنِّ ٱلْمُؤْمِنِ بِهِ »(2)

وروىٰ أبو هريرةَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إِنَّ حُسْنَ ٱلظَّنِّ بِٱللهِ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ ٱللهِ »(3)

قلتُ والأخبارُ والآثارُ في الرجاءِ وحسْنِ الظنِّ باللهِ وسَعَةِ رحمتِهِ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ، ومطالعتُها ممَّا يزيدُ المريدَ قوَّةً في هٰذا المقامِ ، فمَنْ أرادَ الشفاءَ في ذلكَ فعليهِ بمطالعةِ كتابِ (الرجاءِ) مِنْ « قوتِ القلوبِ » وكتابِ « الإحياءِ »(4)

قالَ بعضُهم(5) : [من الطويل]

وَمَا زِلْتُ أَرْجُو ٱللهَ حَتَّىٰ كَأَنَّنِي أَرَىٰ بِجَمِيلِ ٱلظَّنِّ مَا هُوَ صَانِعُ

* * *

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله تعالىٰ » (٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٤١) .

(2) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٥٣) .

(3) رواه الترمذي (٥/ ٣٦٠٤) طبعة دار الغرب الإسلامي .

(4) انظر « قوت القلوب » (٢/ ٥٨٦) ، و« إحياء علوم الدين » (٧/ ٤٦٩) .

(5) هو أحمد بن العباس النمري ، رواه عنه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله تعالىٰ » (٩٧) ، ونسب البيت التنوخيُّ في « الفرج بعد الشدة » (٥/ ١٢) لمسكين الدارمي ، والبيت مثبت من (هـ) وحدها .

ثم بيَّنَ رحمَهُ اللهُ تعالى الحالَ التي بمُنازلتِها يتحقَّقُ العبدُ في مقامِ حسْنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ ؛ وهو عكوفُ العبدِ ببابِ اللهِ تعالىٰ ، وتعلُّقُ قلبِهِ بوحدانيَّتِهِ ، وأشارَ إلىٰ أنَّ ذلكَ هو غايةُ النعيمِ ومنتهى الأمانيِّ ، لا ما تتوهَّمُهُ النفسُ وتطلبُهُ مِنَ النعيمِ المعقولِ ، والأمنيَّاتِ التي تفنىٰ وتزولُ ، وحكمَ بأنَّ خلافَ هٰذا مِنْ عمى القلبِ ، وممَّا يستحقُّ أنْ يتعجَّبَ منهُ كلُّ ذي لُبٍّ ؛ فقالَ :

الحكمة الأربعون (*)

ٱلْعَجَبُ كُلُّ ٱلْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لا ٱنْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ ، وَيَطْلُبُ مَا لا بَقاءَ لَهُ مَعَهُ ! ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾

هربُ العبدِ مِنْ مولاهُ : بإقبالِهِ علىٰ شهواتِهِ ومتابعةِ هواهُ ، وذلكَ نتيجةُ عمىٰ قلبِهِ ، ووجودِ جهلِهِ بربِّهِ ؛ لأنَّهُ استبدلَ الذي هو أدنىٰ بالذي هو خيرٌ ، وآثرَ الفانيَ الذي لا بقاءَ لهُ على الباقي الذي لا انفكاكَ لهُ عنهُ ، ولو كانَتْ لهُ بصيرةٌ لآثرَ الباقيَ على الفاني ، ولفعلَ ما فعلَهُ سحرةُ فرعونَ لمَّا آمنوا بربِّهم ؛ إذْ لم يَحفِلوا بما توعَّدَهم بهِ فرعونُ مِنَ الإحسانِ والإنعامِ ، والتقريبِ والإكرامِ ، ولم يكترثوا بما توعَّدَهم بهِ مِنَ العذابِ والقتلِ ، والصلبِ علىٰ جذوعِ النخلِ ، بل قالوا : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه : ٧٢] ، ثم قالوا ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه ٧٣] ، فهٰؤلاءِ استنارَتْ قلوبُهم ، وشهدوا محبوبَهم ، فكانَ منهم ما كانَ .

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه لله تعالىٰ ، وأنه جلَّ شأنُهُ أقربُ إلى العبد من نفسه ، وأنه تعالىٰ محيطٌ بكل شيءٍ إحاطة علم وقدرة وقهر ، وأنْ ليسَ في الوجود إلا الله وأفعاله ، فكيف يُتصوَّر الفرارُ منه سبحانه ؟!
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، وقوله تعالىٰ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك » ، رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

الحكمة الحادية والأربعون (*)

لا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَىٰ كَوْنٍ فَتَكُونَ كَحِمَارِ ٱلرَّحَا ؛ يَسِيرُ وٱلَّذِي ٱرْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ ٱلَّذِي ٱرْتَحَلَ مِنْهُ ، وَلَـٰكِنِ ٱرْحَلْ مِنَ ٱلأَكْوَانِ إِلَى ٱلْمُكَوِّنِ ، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾

العملُ علىٰ طلبِ الجزاءِ والدرجاتِ ، أو لنيلِ الرُّتَبِ العليَّةِ والمقاماتِ . . نقصانٌ في الحالِ ، وشوبٌ في إخلاصِ الأعمالِ[1] ، وهو معنى الرحيلِ مِنْ كونٍ إلىٰ كونٍ ، وسببُ ذلكَ بقاءُ اعتبارِ النفسِ في أنْ يحصلَ لها رتبةٌ ، أو تنالَ بسعيِها موهبةً ، وهـٰذهِ كلُّها مِنَ الأكوانِ ، والأكوانُ كلُّها متساويةٌ في كونِها أغياراً ، وإنْ كانَ بعضُها أنواراً

وتمثيلُهُ بحمارِ الرحا مبالغةٌ في تقبيحِ حالِ العاملينَ علىٰ رؤيةِ الأغيارِ ، وتلطُّفٌ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الآثار كلَّها مشتركةٌ بصفة الحدوث والإمكان ، فلا فضل لبعضها علىٰ بعض أصالةً ، وأن المعوَّل علىٰ ما استندت وتستندُ إليه إيجاداً وإبقاءً ، ومن تأثَّرَ الآثارَ وتتبَّعها انتهىٰ إلى القديم تعالى الذي هو سبحانه كالعلة السببية لها
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « سمعَ اللهُ داعياً إذا دعا ، ما وراءَ اللهِ مرمىً لمَنْ رمىٰ » ، رواه البزار في « مسنده » (١٠٥٣) من حديث سيدنا عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه

(١) نقل العلامة الدسوقي في « حاشيته علىٰ شرح العقيدة الصغرىٰ » (ص٢٦٧) عن بعضهم قوله : (من قصد بالذكر أن يكون ولياً . . كانت عبدةُ الأوثان أحسن منه من هـٰذه الحيثية ؛ لأن عبدة الأوثان يقصدون بعبادتهم التقرُّب إلى الله وطلب رضاه ، وهـٰذا الشخص إنما يقصد بعبادته منفعة نفسه ، لا امتثال أمر مولاه ورضاه) .

في دعائِهم إلىٰ حسْنِ الأدبِ بينَ يدي الواحدِ القهّارِ ؛ حتىٰ يتحقّقوا بمعنىٰ قولِهِ تعالىٰ ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم ٤٢] ، فيكونَ انتهاءُ سيرِهم إليهِ ، وعكوفُ قلوبِهم عليهِ ، وتكونَ أعمالُهم إذْ ذاكَ وفاءً بمقتضى العبوديّةِ ، وقياماً بحقِّ الربوبيّةِ فقطْ مِنْ غيرِ التفاتٍ إلى النفسِ علىٰ أيِّ حالةٍ تكونُ

فهٰذا هو تحقيقُ الإخلاصِ ، الكائنِ عن مشاهدةِ التوحيدِ الخاصِّ ، جعلَنا اللهُ مِنْ أهلِهِ ، بمنِّهِ وفضلِهِ

وَٱنْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ . . فَهِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ ٱمْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا . . فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »(١) ، فَٱفْهَمْ قَوْلَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » وَتَأَمَّلْ هَـٰذَا ٱلْأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ ، وَٱلسَّلَامُ

في هـٰذا الحديثِ النبويِّ تنبيهٌ على المعنى الذي ذكرَهُ ، وموضعُ الاعتبارِ والتأمُّلِ واللهُ أعلمُ : قولُهُ في القسمِ الثاني : (فهجرتُهُ إلىٰ ما هاجرَ إليهِ) ؛ أي : ولا نصيبَ لهُ مِنَ الوصولِ والقُربِ الذي حَظِيَ بهِ مَنْ هاجرَ إلى اللهِ ورسولِهِ ؛ وهو قولُهُ : (فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ) ، وهـٰذا مِنْ بابِ حصرِ المبتدأِ في الخبرِ ؛ كما تقولُ : زيدٌ صديقي ؛ أي : لا صديقَ لهُ غيري

وكأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبَّهَ في القسمِ الثاني بالدنيا التي يريدُ أنْ يصيبَها ، والمرأةِ التي يريدُ أن يتزوَّجَها . . علىٰ حظوظِ النفسِ والوقوفِ معَها والعملِ عليها كائنةً ما كانَتْ ، وإنْ كانَ ظاهرُها طلبَ الحظِّ العاجلِ .

---

(١) رواه البخاري (١ ، ٥٤) ، ومسلم (١٩٠٧) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه

فقولُهُ : (فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ) هو معنى الارتحالِ مِنَ الأكوانِ إلى المكوِّنِ ، وهو المطلوبُ مِنَ العبدِ ، وهو مصرَّحٌ بهِ غايةَ التصريحِ

وقولُهُ : (فهجرتُهُ إلىٰ ما هاجرَ إليهِ) هو البقاءُ معَ الأكوانِ والتنقُّلُ فيها ، وهو الذي نُهِيَ عنهُ ، وهو مشارٌ بهِ غيرُ مصرَّحٍ ، فليكنِ المريدُ عاليَ الهمَّةِ والنيَّةِ ، حتىٰ لا يكونَ لهُ التفاتٌ إلىٰ غيرٍ ولا كونٍ ألبتةَ[1]

ولقد أحسنَ الشاعرُ في قولِهِ[2] [من مجزوء الرجز]

وَكُــلُّ مَــا قَــدْ خَلَــقَ ... ٱللهُ وَمَــا لَــمْ يَخْلُــقِ

مُحْتَقَــرٌ فِــي هِمَّتِــي ... كَشَعْــرَةٍ فِــي مَفْــرِقِــي

قالَ رجلٌ لأبي يزيدَ أوصني ، فقالَ لهُ : إنْ أعطاكَ مِنَ العرشِ إلى الفرشِ . . قُلْ لهُ : لا ، أنتَ أريدُ[3]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ (لو خُيِّرتُ بينَ ركعتينِ ودخولِ الفردوسِ . . لاخترتُ الركعتينِ ؛ لأنَّني في الفردوسِ بحظِّي ، وفي الركعتينِ بربِّي)[4]

وقالَ الشبليُّ (احذرْ مكرَهُ ، ولو في قولِهِ ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾) ، يريدُ لا تستغرقْ في الحظِّ ، ولتكنْ في كلِّ شيءٍ بهِ لا بنفسِكَ ؛ فقولُهُ تعالىٰ ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ وإنْ كانَ ظاهرُهُ إكراماً وإنعاماً . . فإنَّ في باطنِهِ ابتلاءً واختباراً ؛ حتىٰ ينظرَ مَنْ هو معَهُ ، ومَنْ هو معَ الحظِّ

* * *

---

(١) في (ز) وحدها : (إلىٰ غيرِ المكوِّن) بدل (إلىٰ غيرٍ) .

(٢) البيتان للمتنبي . انظر « ديوانه » (ص ٤٠)

(٣) في العبارة جعل ضمير الرفع مكان ضمير النصب ، ولعله أراد علمية الضمير هنا .

(٤) أورده بنحوه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٢٧٤) عن ابن سيرين رحمه الله تعالىٰ .

الباب الخامس

في الصُّحبة وما يُستفاد منها

الحكمة الثانية والأربعون (*)

وقال رضي الله عنه :

لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حَالُهُ ، وَلا يَدُلُّكَ عَلَى ٱللهِ مَقَالُهُ .

تكلَّمَ ها هنا في الصحبةِ ، وهي أصلٌ كبيرٌ مِنْ أصولِ القومِ ، وفيها منافعُ وفوائدُ ؛ ولذلكَ استمرَّ عليها شأنُهم قديماً وحديثاً .

وقد نبَّهَ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ على فائدتِها في قولِهِ : (لا تصحبْ مَنْ لا ينهضُكَ حالُهُ ، ولا يدلُّكَ على اللهِ مقالُهُ) ، فإنهاضُ الحالِ ودلالةُ المقالِ على اللهِ تعالىٰ هو فائدةُ الصحبةِ .

ومعنى الحالِ المنهضةِ ها هنا هو أنْ تكونَ همَّتُهُ متعلِّقةً باللهِ تعالىٰ ، مرتفعةً عنِ المخلوقينَ ، لا يلجأُ في حوائجِهِ إلا إلى اللهِ ، ولا يتوكَّلُ في أمورِهِ إلا على اللهِ ، قد سقطَ الناسُ مِنْ عينِهِ ، فلا يرىٰ منهم ضرّاً ولا نفعاً ، وسقطَتْ نفسُهُ مِنْ عينِهِ ، فلا

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن من عوائده سبحانه خلْقَ الأثر عند وجود أسبابه العادية ، وقد جعل الصحبة سبباً عادياً في سريان الأخلاق للمصاحب ، وجعل الطبع للطبع يسرق .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مثلُ الجليسِ الصالحِ والجليسِ السوءِ كمثلِ صاحبِ المسكِ وكيرِ الحدادِ ، لا يعدمُكَ من صاحبِ المسكِ إمَّا تشتريهِ ، أو تجدُ ريحَهُ ، وكيرُ الحدادِ يُحرقُ بدنَكَ أو ثوبَكَ ، أو تجدُ منهُ ريحاً خبيثةً » ، رواه البخاري (٢١٠١) ، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

يشاهدُ لها فعلاً ، ولا يقتضي لها حظّاً ، ويكونُ في أعمالِهِ كلِّها جارياً على مقتضى الشرعِ مِنْ غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ ، وهـٰذهِ صفةُ العارفينَ الموحِّدينَ

فصحبةُ مَنْ هـٰذهِ حالُهُ وإنْ قلَّتْ عباداتُهُ ونوافلُهُ . . مأمونةُ الغائلةِ ، محمودةُ العاقبةِ ، جالبةٌ لكلِّ فائدةٍ دينيَّةٍ ودنيويةٍ ؛ لأنَّ الطبعَ يسرقُ مِنَ الطبعِ ، والنفسَ مجبولةٌ على حبِّ الاقتداءِ بمَنْ تَستحسنُ حالَهُ

ولا يُشترطُ في المصحوبِ اتصافُهُ بتلكَ الصفاتِ على غايةِ الكمالِ والتمامِ ؛ فإنَّ ذلكَ متعذِّرٌ ، وإنَّما يُشترطُ فيهِ أنْ يتصفَ منها بما يفوقُ صاحبَهُ بهِ فقطْ[1] ؛ بحيثُ يكونُ أعلى منهُ حالاً ، وأصوبَ منهُ مقالاً

ومَنْ لم يكنْ على هـٰذا الوصفِ ، وكانَ شأنُهُ المعاملةَ بالظاهرِ لا غيرُ . . فليسَ لهُ فائدةٌ في صحبتِهِ ، بل ربَّما زادَتْهُ شرّاً ؛ لأنَّ خلطتَهُ تدعوهُ إلى التصنُّعِ لهُ والتزيُّنِ ، ويؤدِّيهِ ذلكَ إلى كبائرِ معاصي القلوبِ ، وهي أشدُّ عليهِ مِنْ معاصي الجوارحِ بكثيرٍ

قالَ يوسفُ بنُ الحسينِ الرازيُّ (لَأنْ ألقى اللهَ بجميعِ المعاصي أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ ألقاهُ بذرَّةٍ مِنَ التصنُّعِ)[2] ، فيدخلُ بذلكَ عليهِ النقصُ في حالِهِ مِنْ حيثُ رجاءُ الزيادةِ فيها

قالَ بعضُ الصوفيَّةِ : (لا تعاشرْ مِنَ الناسِ إلا مَنْ لا تزيدُ عندَهُ ببرٍّ ، ولا تنقصُ عندَهُ بإثمٍ ، يكونُ ذلكَ لكَ وعليكَ ، وأنتَ عندَهُ سواءٌ)[3]

وقالَ بعضُهم (كُنْ معَ أبناءِ الدنيا بالأدبِ ، ومعَ أبناءِ الآخرةِ بالعلمِ ، ومعَ العارفينَ كيفَ شئتَ)[4]

---

(١) العبارة في (أ) : (وإنما يشترط أن يقوم منها بما يفوق به صاحبه فقط)

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ١٧٣)

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/١٥٧٦) ، والإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/١٣٣) وقال : (وإنما قال هـٰذا لأن به يتخلَّص عن التكلُّف والتحفظ ، وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده)

(٤) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/١٣٣)

وقيلَ لبعضِ العارفينَ إنَّ فلاناً يحبُّكَ ويكثرُ ذكرَكَ ، فقالَ : إنَّه لحبيبٌ إليَّ ، وأُجِلُّهُ وأعرفُ قدرَهُ ، ولـٰكنْ يهونُ عليَّ أنْ ألقى الشيطانَ مئةَ مرَّةٍ ولا ألقاهُ مرَّةً واحدةً ، قيلَ لهُ : كيفَ ذلكَ ؟! قالَ : أخشىٰ أنْ أتزيَّنَ لهُ ويتزيَّنَ لي[1]

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ : (وكانَتْ هـٰذهِ الطائفةُ مِنَ الصوفيَّةِ لا يصطحبونَ إلا على استواءِ أربعةِ معانٍ ؛ لا يترجَّحُ بعضُها علىٰ بعضٍ ، ولا يكونُ منها اعتراضٌ مِنْ بعضٍ علىٰ بعضٍ ؛ إنْ أكلَ صاحبُهمُ النهارَ[2] كلَّهُ لم يقلْ لهُ صاحبُهُ : صُمْ ، وإنْ صامَ الدهرَ كلَّهُ لم يقلْ لهُ صاحبُهُ : أفطِرْ ، وإنْ نامَ ليلَهُ كلَّهُ لم يقلْ لهُ صاحبُهُ : قُمْ فصَلِّ ، وإنْ صلَّى الليلَ كلَّهُ لم يقلْ لهُ صاحبُهُ : نَمْ بعضَهُ ، وتستوي أحوالُهُ عندَهُ ، فلا مزيدَ لأجلِ صيامِهِ وقيامِهِ ، ولا نقصانَ لأجلِ إفطارِهِ ونومِهِ .

قالوا : وإذا كانَ يزيدُ عندَهُ بالعملِ ، وينقصُ بتركِ العملِ . . فالفُرقةُ أسلمُ للدينِ ، وأبعدُ مِنَ المراءاةِ ؛ مِنْ قِبَلِ أنَّ النفسَ مجبولةٌ علىٰ حبِّ المدحِ وكراهةِ الذمِّ ، ومبتلاةٌ بأنْ تَرُبَّ حالَها التي عُرفَتْ بهِ[3] ، وأنْ تظهرَ أحسنَ ما يحسنُ عندَ الناسِ منها ؛ وأنْ تجتلبَ ما يوجبُ المدحَ منهم ، وتجتنبَ ما يوقعُ الذمَّ عندَهم ، فإذا صحبَ مَنْ يعملُ معَهُ هـٰذا فليسَ ذلكَ طريقَ الصادقينَ ، ولا بغيةَ المخلصينَ ، فمجانبةُ هـٰؤلاءِ الناسِ أصلحُ للقلوبِ وأسلمُ للدينِ ، وفي معاشرةِ أمثالِهم فسادُ القلبِ ونقصانُ الإيمانِ وضعفُ اليقينِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ أسبابُ الرياءِ ، وفي الرياءِ حبطُ الأعمالِ ، وخسرانُ رأسِ المالِ ، والسقوطُ مِنْ عينِ ذي الجلالِ

وكانَ الثوريُّ يقولُ : مَنْ عاشرَ الناسَ داراهم ، ومَنْ داراهم راءاهم ، ومَنْ

---

(١) قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في « إحكام الدلالة » (٢/ ١٤٤) : (أي : لأن الشيطان عرفتُ عداوته ، فيشتدُّ حذري منه ، والأخ الصالح النفسُ مطمئنة ساكنة إليه) .

(٢) في (أ) : (الدهر) ، والمثبت موافق للأصل المنقول عنه ولسائر النسخ .

(٣) **تَرُبَّ حالها** : تنمِّيه وتتمُّهُ وتصلحه ، والعبارة هـٰكذا في (د ،و) والأصل المنقول عنه ، وفي سائرها : (يُرىٰ) بدل (تَرُبَّ) .

راءاهم وقعَ فيما وقعوا ، فهلكَ كما هلكوا

وكانَ بعضُ الحكماءِ يقولُ : لا تؤاخِ مِنَ الناسِ مَنْ يتغيَّرُ عليكَ في أربعٍ عندَ غضبِهِ ورضاهُ ، وعندَ طمعِهِ وهواهُ ؛ لأنَّ هـٰذهِ المعانيَ تتغيَّرُ لها الطباعُ ؛ لدخولِ الضررِ منها على النفسِ وفقدِ الانتفاعِ)[1]

وقالَ في موضعٍ آخرَ (ومَنْ كانَ ناظراً في أخوَّةِ أخيهِ أو في صحبتِهِ لكثرةِ أعمالِهِ ، أو واقفاً معَ أكملِ أحوالِهِ . . دلَّ علىٰ جهلِهِ بهـٰذهِ الطريقِ ، التي تنفذُ إلى التحقيقِ ؛ لأنَّها تَحُولُ[2] ، وإنَّما العملُ علىٰ حقائقِ القلوبِ[3] ؛ لأنَّها ثابتةٌ في الأصولِ ؛ فإنِ اقترنَ إلىٰ جهلِهِ نقصُ معرفةِ الأخوةِ[4] . . دخلَ عليهِ التزيُّنُ لهُ والتصنُّعُ عندَهُ ؛ لتعلوَ منزلتُهُ ويحسنَ عندَهُ أثرُهُ ، فيدخلُهُ ذلكَ في الشركِ ، ويخرجُهُ الشركُ عن حقيقةِ التوحيدِ ، فتزلُّ قدمٌ بعدَ ثبوتِها ، ويسقطُ مِنْ عينِ مولاهُ فلا يتولَّاهُ ؛ لأنَّ النفسَ مبتلاةٌ بحبِّ الثناءِ والمدحِ ، وإثباتِ المنزلةِ بإظهارِ الوصفِ ، فيكونُ هـٰذا الصاحبُ حينَئذٍ مِنْ أشأمِ الناسِ عليهِ وأضرِّهم لهُ ، ويصيرُ أحدُهما بلاءً علىٰ صاحبِهِ ، فليفارقْهُ حينَئذٍ ؛ لأنَّهُ جاهلٌ ، فلا يصحبْهُ ؛ لأنَّهُ يجدُ النقصانَ بصحبتِهِ ؛ وتدخلُ عليهِ الآفاتُ بمقارنتِهِ ، ولينفردْ بنفسِهِ ، ويصدقْ في حالِهِ ؛ عاليةً كانَتْ أو دنيَّةً ، وضيعةً كانَتْ أو رفيعةً ، مِنْ غيرِ مقارنةِ أحدٍ ولا مباينةٍ ، فهو خيرٌ لهُ وأحمدُ عاقبةً) انتهىٰ[5]

ويدلُّ علىٰ إرادةِ صاحبِ الكتابِ لهـٰذا المعنى الذي ذكرناهُ في « التنبيهِ » علىٰ قولِهِ : (لا تصحبْ مَنْ لا ينهضُكَ حالُهُ) ما عقَّبَهُ بِهِ مِنْ قولِهِ (ولا يدلُّكَ على اللهِ

---

(١) انظر « قوت القلوب » (٣/ ١٥٧٧) .

(٢) تَحُولُ : تتغيَّر وتتبدَّل .

(٣) كذا في النسخ المعتمدة ، وفي الأصل المنقول عنه : (المعوَّل) بدل (العمل) ولكل توجيه .

(٤) في الأصل المنقول عنه : (الآخر)

(٥) انظر « قوت القلوب » (٣/ ١٥٩١) .

مقالُهُ)[1] ، فيكونُ الحالُ والمقالُ متناسبينِ في كونِ كلِّ واحدٍ منهما متعلِّقاً باللهِ تعالىٰ عبوديَّةً ودلالةً

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ (احذرْ صحبةَ ثلاثةِ أصنافٍ مِنَ الناسِ الجبابرةِ الغافلينَ ، والقرَّاءِ المداهنينَ ، والمتصوِّفةِ الجاهلينَ)[2]

وقالَ يوسفُ بنُ الحسينِ الرازيُّ قلتُ لذي النونِ المصريِّ مَنْ أصحبُ ؟ قالَ : مَنْ لا تكتمُهُ شيئاً يعلمُهُ اللهُ منكَ[3]

وقالَ حمدونُ القصَّارُ : (اصحبِ الصوفيةَ ؛ فإنَّ للقبيحِ عندَهم وجوهاً مِنَ المعاذيرِ ، وليسَ للحسنِ عندَهم كبيرُ موقعٍ يعظِّمونَكَ بهِ)[4] ، إشارةً إلىٰ أنَّ العُجْبَ بالعملِ منفيٌّ في صحبتِهم

وقالَ الجنيدُ : (إذا أرادَ اللهُ بالمريدِ خيراً أوقعَهُ إلى الصوفيةِ ، ومنعَهُ صحبةَ القرَّاءِ)[5]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ (شرُّ الأصدقاءِ مَنْ أحوجَكَ إلى المداراةِ ، وألجأَكَ إلى الاعتذارِ)[6]

وقالَ مرَّةً : (شرُّ الأصدقاءِ مَنْ تتكلَّفُ لهُ)[7]

---

(١) انظر (ص ٣٠٧) .

(٢) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/ ٦٤) ، ورواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١١٣) عن يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالىٰ

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٤٢) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٦١٤) .

(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٥٨٧) .

(٥) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤٦٨) ، والمراد بالقرَّاء هنا وفيما يشبهه من المواطن من لا حظَّ له من الفقه في الدين ، بل شُغْلُه قراءةُ العلوم دون العناية بفهمها

(٦) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٧٣) .

(٧) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٧٣) .

وأنشدوا ليوسفَ بنِ الحسينِ الرازيِّ[١] : [من الطويل]

أُحِبُّ مِنَ ٱلإِخْوَانِ كُلَّ مُوَاتِي ... وَفِيٍّ غَضِيضِ ٱلطَّرْفِ عَنْ عَثَرَاتِي

يُـوَافِقُنِـي فِـي كُـلِّ أَمْـرٍ أُحِبُّـهُ ... وَيَحْفَظُنِـي حَيّـاً وَبَعْـدَ وفـاتِـي

فَمَنْ لِي بِهَـٰذَا لَيْتَنِي قَدْ وَجَدْتُهُ ... فَقَاسَمْتُهُ مَا لِي مِنَ ٱلْحَسَنَاتِ

تَصَفَّحْتُ إِخْوَانِي فَكَانَ أَقَلَّهُمْ ... عَلَىٰ كَثْرَةِ ٱلإِخْوَانِ أَهْلُ ثِقَاتِي

والحاصلُ مِنْ هـٰذا : أنَّ صحبةَ الصوفيَّةِ هي التي يحصلُ بها كمالُ الانتفاعِ للصاحبِ ، دونَ مَنْ عداهم مِنَ المنسوبينَ إلى الدينِ والعلمِ ؛ لأنَّهم خُصُّوا مِنْ حقائقِ التوحيدِ والمعرفةِ بخصائصَ لم يساهِمْهم فيها أحدٌ ، وسريانُ ذلكَ إلى الصاحبِ مِنَ المصحوبِ . . هو غايةُ الأملِ والمطلوبِ ؛ فقد قيلَ : مَنْ تحقَّقَ بحالةٍ . . لم يخلُ حاضروهُ منها[٢] ؛ فمَنْ جلسَ علىٰ دكَّانِ العطَّارِ لم يفقدِ الرائحةَ الطيبةَ ، هـٰذا في الحضورِ والمجالسةِ ، فما ظنُّكَ في الصحبةِ والمؤانسةِ ؟!

وقد وصفَهم بعضُ العلماءِ فقالَ : (الصوفيُّ : مَنْ لا يعرفُ في الدارينِ أحداً غيرَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يشهدُ معَ اللهِ سوى اللهِ ، قد سُخِّرَ لهُ كلُّ شيءٍ ، ولم يُسخَّرْ هو لشيءٍ ، وسُلِّطَ علىٰ كلِّ شيءٍ ، ولم يُسلَّطْ عليهِ شيءٌ ، يأخذُ النصيبَ مِنْ كلِّ شيءٍ ، ولا يأخذُ النصيبَ منهُ شيءٌ ، يصفو بهِ كدرُ كلِّ شيءٍ ، ولا يكدِّرُ صفوَهُ شيءٌ ، قد شغلَهُ واحدٌ عن كلِّ شيءٍ ، وكفاهُ واحدٌ مِنْ كلِّ شيءٍ)

فانظرْ رحمَكَ اللهُ هـٰذهِ الصفاتِ ما أعظمَها وأجلَّها ! وما أشرفَ حالَ مَنِ اتَّصفَ بها ! وما أعزَّهُ في هـٰذا الوجودِ ! نفعَنا اللهُ بهم ، ورزقَنا مِنْ بركاتِهم .

---

(١) الأبيات رواها الحافظ البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٧٩) ، وذكر أن الإمام الشافعي قالها للمزني وهو آخذ بيده ، والبيت الأخير زيادة من هامش (أ) مصححاً .

(٢) قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (١/ ٣٧٥) : (من كان بوصف ما متحققاً شاركه حاضروه فيه ؛ فجليس مَنْ هو في أُنسٍ مستأنسٌ ، وجليسُ من هو في وحشةٍ مستوحشٌ)

وفي صحبةِ أمثالِ هـٰؤلاءِ يحصلُ للمريدِ مِنَ المزيدِ ما لا يحصلُ لهُ بغيرِها مِنْ فنونِ المجاهداتِ وأنواعِ المكابداتِ ، حتىٰ يبلغوا مِنْ ذلكَ إلىٰ ما لا يسعُهُ عقلُ عاقلٍ ، ولا يحيطُ بهِ علمُ عالمٍ ناقلٍ .

قالَ سيدي أبو العباسِ المرسيُّ : (ماذا أصنعُ بالكيمياءِ ؟! واللهِ ؛ لقد صحبتُ أقواماً يعبرُ أحدُهم على الشجرةِ اليابسةِ فيشيرُ إليها فتثمرُ رمَّاناً في الوقتِ ! فمَنْ صحبَ مثلَ هـٰؤلاءِ الرجالِ ماذا يصنعُ بالكيمياءِ ؟!)[1]

وقالَ أيضاً (واللهِ ؛ ما سارَ الأولياءُ والأبدالُ مِنْ قافٍ إلىٰ قافٍ إلا حتىٰ يلقَوْا واحداً مثلَنا ، فإذا لقوهُ كانَ بغيتَهم)[2]

وقالَ أيضاً : (الوليُّ إذا أرادَ أغنىٰ)[3]

وقالَ أيضاً : (واللهِ ؛ ما بيني وبينَ الرجلِ إلا أنْ أنظرَ إليهِ نظرةً وقد أغنيْتُهُ)[4]

وقالَ فيهِ شيخُهُ أبو الحسنِ الشاذليُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أبو العباسِ هو الرجلُ

---

(١) نقله الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٩٤)

(٢) نقله الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٩١) ، وفي (أ) وحدها (من كاف إلىٰ قاف) بدل (من قافٍ إلىٰ قافٍ) ، وجاء في هامشها عند كلمة (كاف) : (أي : من قوله : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧]) ، وعند كلمة (قاف) : (أي : مِنْ : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : ٢٤]) ، وفي « قوت القلوب » (٢/ ١١٣٣) : (قيل لأبي يزيد البسطامي : بلغت جبل قاف ؟ فقال : جبل قاف أمره قريب الشأن من جبل كاف وجبل عين وجبل صاد ، قيل : وما هـٰذا ؟ قال : هـٰذه جبال محيطة بالأرضين السفلىٰ ، حول كل أرض ثانية وثالثة جبلٌ بمنزلة جبل قاف ، محيط بهـٰذه الأرض الدنيا ، وهو أصغرها ، وهـٰذه أصغر الأرضين ، وهو جبل من زمردة خضراء ، فيقال : إن سماء الدنيا متقبِّبة عليه) ، فجبل قاف : جبل محيط بالأرض كما قالوا ، فالمراد من كلام الإمام المرسي : التعميم .

(٣) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٩٢) .

(٤) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٩٢) ، يعني : إن كان قد سبق له في علمه تعالى السعادةُ .

الكاملُ ، واللهِ ؛ إنَّهُ ليأتيهِ البدويُّ يبولُ على ساقيهِ ، فلا يمسي عليهِ المساءُ إلا أوصلَهُ إلى اللهِ تعالى)[1]

وسيأتي طرفٌ مِنْ ذكرِ حالِ المؤلِّفِ في صحبتِهِ ، وما أوصلَهُ إليهِ بركةُ رؤيتِهِ . . عندَ قولِهِ : (كلُّ كلامٍ يبرزُ وعليهِ كسوةُ القلبِ الذي منهُ برزَ)[2]

*

(١) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٩١)
(٢) انظر (ص ٦٩٤) .

الحكمة الثالثة والأربعون (*)

رُبَمَا كُنْتَ مُسِيئاً ، فَأَرَاكَ ٱلإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً مِنْكَ

هٰذهِ أعظمُ آفةٍ تدخلُ علىٰ مَنْ خالفَ ما ذكرَهُ ، وَصحبَ مَنْ هو دونَهُ في الحالِ ؛ وهو استحسانُهُ لما هو عليهِ ، فيؤدِّيهِ ذلكَ إلىٰ رضاهُ عن نفسِهِ ، ورؤيتِهِ لإحسانِها ، وهو أصلُ كلِّ شرٍّ كما تقدَّمَ[1]

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ عدم الأمن من مكر الله تعالىٰ ، وأنه سبحانه له أن يستدرج من العباد من شاء ، ومن أفعاله : خلقُ حسن الظنِّ بالنفسِ لسيِّئ الخُلُق عند نظره إلىٰ من هو أسوأ منه ومصاحبته له

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف : ١٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تصحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » ، رواه ابن حبان في « صحيحه » (٥٥٥) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٢٧٩) .

الحكمة الرابعة والأربعون (*)

مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ ، وَلا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ

مقاديرُ الأعمالِ على حسَبِ قلوبِ العُمَّالِ ؛ فما صدرَ عنِ الزاهدينَ في الدنيا مِنْ عملِ طاعةٍ وإنْ كانَ قليلاً في الحسِّ . . فهو كثيرٌ على التحقيقِ ، وما صدرَ عنِ الراغبينَ فيها مِنْ عملِ بِرٍّ وإنْ كانَ كثيراً في الحسِّ . . فهو قليلٌ على التحقيقِ

وذلكَ لأنَّ الزاهدينَ سَلِمُوا مِنَ الآفاتِ التي تقدحُ في إخلاصِ أعمالِهم ؛ مِنْ مراءاةِ الناسِ والتصنُّعِ لهم ، وطلبِ الأعواضِ الدنيويَّةِ عليها منهم ؛ لأنَّهم زهدوا فيها ، فيتحصَّلُ لهم قبولُ أعمالِهم ، فيتوفَّرُ قليلُها بحسَبِ ذلكَ ويكثرُ

والراغبونَ تعتريهمُ الآفاتُ المبطلةُ لأعمالِهمُ ، القادحةُ في إخلاصِهم ؛ بسببِ رغبتِهم في الدنيا ، فلا يُقبلُ منهم ، فيقلُّ الكثيرُ مِنْ أعمالِهم ؛ لوجودِ النقصانِ فيها

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن ثواب الأعمال كثرةً وقلَّةً لله تعالىٰ فضلاً ومنَّةً ، وأنه تعالىٰ أجرىٰ عوائده أن يكون الثواب باعتبار حال القلب عند العمل ، لا بعين هـٰذا العمل

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ * لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور : ٣٧ ـ ٣٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٣ ـ ٨٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « هـٰذا خيرٌ من ملءِ الأرض من هـٰذا » ، رواه البخاري (٥٠٩١) من حديث سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه ، وقوله عليه الصلاة والسلام « فهما في الأجرِ سواءٌ » ، رواه ابن ماجه (٤٢٢٨) من حديث سيدنا أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه .

وقد قالَ أميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ (كونوا لقبولِ العملِ أشدَّ اهتماماً منكم للعملِ ؛ فإنَّهُ لا يقلُّ عملٌ معَ التقوىٰ ، وكيفَ يقلُّ عملٌ يُتقبَّلُ ؟!)(1)

وقد وصفَ اللهُ تعالىٰ ذكرَ المؤمنينَ بالكثرةِ ؛ لما تضمَّنَهُ مِنْ وجودِ الإخلاصِ ، وعدمِ رياءِ الناسِ ، فقيلَ في قولِهِ تعالىٰ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤١] قيلَ يعني خالصاً ، فسمَّى الخالصَ كثيراً ؛ وهو ما خلصَتْ فيهِ النيَّةُ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ ، ووصفَ ذكرَ المنافقينَ بالقلَّةِ ؛ لما اشتملَ عليهِ مِنْ عدمِ الإخلاصِ ، ووجودِ رياءِ الناسِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء ١٤٢] يعني : غيرَ خالصٍ(2)

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ (ركعتانِ مِنْ زاهدٍ عالمٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ المتعبِّدينَ المجتهدينَ إلىٰ آخرِ الدهرِ أبداً سرمداً)(3)

وقالَ بعضُ الصحابةِ لصدرِ التابعينَ : أنتم أكثرُ أعمالاً واجتهاداً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهم كانوا خيراً منكم ، قيلَ : ولِمَ ذلكَ ؟ قالَ كانوا أزهدَ منكم في الدنيا(4)

وعن بعضِ الصحابةِ قالَ : (تابعنا الأعمالَ كلَّها ، فلم نَرَ في أمرِ الآخرةِ أبلغَ مِنَ الزهدِ في الدنيا)(5)

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : سألتُ معروفاً الكرخيَّ عنِ الطائعينَ للهِ تعالىٰ بأيِّ

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخلاص والنية » (١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٥)
(2) كذا في « قوت القلوب » (٣/ ١٣٤٩)
(3) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٨١٧) .
(4) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٥٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٥) ، والقائل : هو سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه
(5) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٨٩) عن أبي واقد الليثي

شيءٍ قدروا على الطاعةِ ؟ قالَ بإخراجِ الدنيا مِنَ القلوبِ ، ولو كانَ شيءٌ منها في قلوبِهم ما صحَّتْ لهم سجدةٌ[1]

وقالَ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ : شكا بعضُهم لرجلٍ مِنَ الصالحينَ : أنَّهُ يعملُ أعمالَ البرِّ ولا يجدُ حلاوةً في قلبِهِ ، فقالَ لأنَّ عندَكَ بنتَ إبليسَ ؛ وهي الدنيا ، ولا بدَّ للأبِ أنْ يزورَ ابنتَهُ في بيتِها ؛ وهو قلبُكَ ، ولا يؤثِّرُ دخولُهُ إلا فساداً

وكانَ أبو محمدٍ سهلٌ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ يقولُ : (يُعطى الزاهدُ ثوابَ العلماءِ والعُبَّادِ ، ثم يُقسَّمُ على المؤمنينَ ثوابُ أعمالِهِ ، قالَ فلا يُرىٰ في القيامةِ أحدٌ أفضلَ مِن ذي زهدٍ عالمٍ ورعٍ)[2]

* * *

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٨٩) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٨١٧) ، وإذا كانت الرؤية بصرية رُفع قوله : (أفضل)

الحكمة الخامسة والأربعون (*)

حُسْنُ ٱلْأَعْمَالِ مِنْ نَتَائِجِ حُسْنِ ٱلْأَحْوَالِ ، وَحُسْنُ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلتَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ ٱلْإِنْزَالِ

حسنُ الأعمالِ توفيتُها بما يجبُ لها مِنْ شروطٍ وآدابٍ وعبوديَّةٍ للهِ تعالىٰ ، لا لطلبِ حظٍّ عاجلٍ ، ولا ثوابٍ آجلٍ ، وحُسْنُ الأحوالِ : أنْ تكونَ سالمةً مِنَ العللِ والدعاوىٰ ، موسومةً بسِمَةِ الصدقِ ، والتحقُّقُ في مقاماتِ الإنزالِ : هو ارتواءُ القلبِ بما ينزلُهُ الحقُّ تعالىٰ فيهِ مِنْ مقاماتِ العلومِ والمعارفِ(١) ؛ بحيثُ ينتفي عنهُ كلُّ شكٍّ وريبٍ

وهٰذهِ الثلاثةُ المذكورةُ مرتَّبٌ بعضُها علىٰ بعضٍ ، وهو معنىٰ ما يقولُهُ أبو حامدٍ لا بدَّ في كلِّ مقامٍ مِنْ مقاماتِ اليقينِ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، فالعلمُ ينتجُ الحالَ ، والحالُ ينتجُ العملَ(٢)

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله تعالىٰ أجرىٰ عادته في خلقه بجعل بعض خَلْقِهِ سبباً لبعض بمحض اختياره ، ولو شاء أن يخلق المسبَّب بغير سببه العادي والشرعي . . لفعل ، ولٰكن اقتضت صفة الحكمة على القول بها بقاء سنَّة الأسباب ، ولن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً ، ومن ذلك : أنه جعل حسنَ العمل مسبَّباً عن حسن الحال ، وحسنَ الحال مسبباً عن التشبُّع بالعلم والمعرفة القاضيين بذلك ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ » ، رواه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) في (ج) : (ارتقاء) بدل (ارتواء) .

(٢) يذكر هٰذا الإمام الغزالي كثيراً في « إحياء علوم الدين » ؛ من ذلك (٨/ ٩٨) ما قاله في الزهد : =

وهـٰذا الكلامُ الذي ذكرَهُ المؤلِّفُ نوعُ استدلالٍ علىٰ ما قالَهُ في الزاهدِ والراغبِ .

* * *

= (اعلم : أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، وينتظم هـٰذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ؛ لأن أبواب الإيمان كلَّها كما قال السلف ترجع إلىٰ عقد وقول وعمل ، وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال ؛ إذ به يظهر الحال الباطن ، وإلا فليس القول مراداً لعينه ، وإن لم يكن صادراً عن حال سمي إسلاماً ولم يسمَّ إيماناً ، والعلم هو السبب في الحال ، يجري مجرى المثمر ، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة) .

الحكمة السادسة والأربعون (*)

لا تَتْرُكِ ٱلذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ ٱللهِ فِيهِ ؛ لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ ، فَعَسَىٰ أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى ٱلْمَذْكُورِ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ بِعَزِيزٍ .

الذكرُ أقربُ الطُّرُقِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وهو عَلَمٌ علىٰ وجودِ ولايتِهِ ، كما قيلَ : (الذكرُ منشورُ الولايةِ ؛ فمَنْ وُفِّقَ للذكرِ فقد أُعطيَ المنشورَ ، ومَنْ سُلِبَ الذكرَ فقد عُزِلَ)(1)

قالَ الشاعرُ : [من البسيط]

اَلذِّكْرُ أَعْظَمُ بَابٍ أَنْتَ دَاخِلُهُ ... للهِ فَٱجْعَلْ لَهُ ٱلْأَنْفَاسَ حُرَّاسَا

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تحقيق جلال الله تعالىٰ في القلب ، وأنه سبحانه يقبل ما شاء من الأعمال ولو ظنَّ العبدُ خلاف ذلك ، وأنه تعالىٰ أجرىٰ عادته بترقية عبده إليه إن علم منه الصدق ، والله تعالىٰ يفعل ما يشاء ، والممكنات كلُّها بالنسبة إلىٰ إرادته وقدرته في رتبة واحدة
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ [المائدة : ٥٢] ، وقوله تعالىٰ ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ٢٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أكثروا ذكرَ الله علىٰ كلِّ حالٍ » ، رواه البيهقي في « الشعب » (٥١٧) من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(1) رواه الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٤٩٩) عن شيخه الأستاذ أبي علي الدقاق ، وأصل المنشور : ما يكتب لمن يُولَّىٰ ناحية أو ولاية ؛ ليعلم أهل تلك الناحية أنه تحققت ولايته .

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ (الذكرُ عنوانُ الولايةِ ، ومنارُ الوصلةِ ، وتحقيقُ الإرادةِ ، وعلامةُ صحَّةِ البدايةِ ، ودَلالةُ صفاءِ النهايةِ ، فليسَ وراءَ الذكرِ شيءٌ ، وجميعُ الخصالِ المحمودةِ راجعةٌ إلى الذكرِ ، ومنشؤُها عنِ الذكرِ)[1]

وفضائلُ الذكرِ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ، ولو لم يَرِدْ فيهِ إلا قولُهُ تعالىٰ في كتابهِ العزيز : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ فيما يرويهِ عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي ؛ إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »[2] .. لكانَ في ذلكَ الشفاءُ والغُنْيةُ ، وهاذا الحديثُ متَّفقٌ علىٰ صحَّتِهِ

قالوا ومِنْ خصائصِهِ أنَّهُ غيرُ موقَّتٍ بوقتٍ[3] ، فما مِنْ وقتٍ إلا والعبدُ مطلوبٌ بهِ ؛ إمَّا وجوباً ، وإمَّا ندباً ، بخلافِ غيرِهِ مِنَ الطاعاتِ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما (لم يفرضِ اللهُ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ فريضةً إلا جعلَ لها حدّاً معلوماً ، ثم عذرَ أهلَها في حالِ العذرِ ، غيرَ الذكرِ ؛ فإنَّهُ لم يجعلْ لهُ حدّاً ينتهي إليهِ ، ولم يعذرْ أحداً في تركِهِ إلا مغلوباً علىٰ عقلِهِ ، وأمرَهم بذكرِهِ في الأحوالِ كلِّها ؛ فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ ﴾ [النساء : ١٠٣] ، وقالَ تعالىٰ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤١] أي بالليلِ والنهارِ ، وفي البرِّ والبحرِ ، والسفرِ والحضرِ ، والغنىٰ والفقرِ ، وفي الصحَّةِ والسقمِ ، والسرِّ والعلانيةِ ، وعلىٰ كلِّ حالٍ)[4]

---

(١) انظر « لطائف الإشارات » (١/ ٣٠٥)

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) **موقَّت** : مبيَّن الحدِّ ؛ تقول : وقَّت الشيء يوقِّتُهُ ؛ إذا بيَّن حدَّه .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (١٠٣٨٠) .

وقالَ مجاهدٌ : (الذكرُ الكثيرُ : ألا تنساهُ أبداً)[1]

ورُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَكْثِرُوا ذِكْرَ ٱللهِ حَتَّىٰ يَقُولُوا : مَجْنُونٌ »[2]

فينبغي للعبدِ : أنْ يستكثرَ منهُ في جميعِ حالاتِهِ ، ويستغرقَ فيهِ جميعَ أوقاتِهِ ، ولا يغفُلَ عنهُ ، وليسَ لهُ أنْ يتركَهُ لوجودِ غفلتِهِ فيهِ ؛ فإنَّ تركَهُ لهُ وغفلتَهُ عنهُ أشدُّ مِنْ غفلتِهِ فيهِ ، فعليهِ أنْ يذكرَ اللهَ تعالىٰ بلسانِهِ وإنْ كانَ غافلاً فيهِ ، فلعلَّ ذكرَهُ معَ وجودِ الغفلةِ يرفعُهُ إلى الذكرِ معَ وجودِ اليقظةِ ، **وهٰذا نعتُ العقلاءِ** ، ولعلَّ ذكرَهُ معَ وجودِ اليقظةِ يرفعُهُ إلى الذكرِ معَ وجودِ الحضورِ ، **وهٰذهِ صفةُ العلماءِ** ، ولعلَّ ذكرَهُ معَ وجودِ الحضورِ يرفعُهُ إلى الذكرِ معَ وجودِ الغَيبةِ عمَّا سوى المذكورِ ، **وهي مرتبةُ العارفينَ المحقِّقينَ مِنَ الأولياءِ** ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : ٢٤] أي : إذا نسيتَ ما دونَ اللهِ . . عندَ ذلكَ تكونُ ذاكراً للهِ[3] ، وفي هٰذا المقامِ ينقطعُ ذكرُ اللسانِ ، ويكونُ العبدُ محْواً في وجودِ العِيانِ ، وفي هٰذا المعنىٰ أنشدوا[4] [من البسيط]

مَـا إِنْ ذَكَـرْتُـكَ إِلا هَـمَّ يَلْعَنُنِـي ... سِرِّي وَقَلْبِي وَرُوحِي عِنْدَ ذِكْرَاكَا
حَتَّىٰ كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ يَهْتِفُ بِي ... إِيَّـاكَ وَيْحَـكَ وَٱلتَّـذْكَـارَ إِيَّـاكَـا
أَمَا تَرَى ٱلْحَقَّ قَدْ لاحَتْ شَوَاهِدُهُ ... وَوَاصَلَ ٱلْكُلَّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْنَاكَا

---

(١) انظر « زاد المسير » (٣/ ٤٧٠) .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٨١٧) ، والطبراني في « الدعاء » (١٨٥٩) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) في (ب) ونسخة هامش (ز) : (إذا نسيت ما دون الله عند الله . . عند ذلك تكون ذاكراً لله) ، وزيادة (عند الله) شطب عليها في (أ) .

(٤) البيتان الأوَّلان أنشدهما الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٥٠٢) عن أبي علي الدقاق لبعضهم ، ورواهما ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٦/ ٦٦) عن الشبلي .

وقالَ الواسطيُّ يشيرُ إلىٰ هـٰذا المقامِ : (الذاكرونَ في ذكرِهِ أكثرُ غفلةً مِنَ الناسينَ لذكرِهِ ؛ لأنَّ ذكرَهُ سواهُ)[1]

قالَ أبو العباسِ بنُ البنَّا في كلامٍ ذكرَهُ علىٰ مقدمةِ كتابِ أبي العزِّ تقيِّ الدينِ المظفَّرِ الشافعيِّ ؛ وهو كتابُ « الأسرارِ العقليَّةِ في الكلماتِ النبويَّةِ »[2] ، ورأيتُ هـٰذا الكلامَ بخطِّهِ رحمَهُ اللهُ : (ومِنْ أحسنِ الذكرِ ما هاجَ عن خاطرٍ واردٍ مِنَ المذكورِ جلَّ ذكرُهُ ، وهـٰذا هو الذكرُ الخفيُّ عندَ المتصوِّفةِ على الاستهتارِ[3] ، والتمكُّنِ في الأسرارِ ، وأمَّا قولُهم « حتىٰ يتمكَّنَ الذاكرُ إلىٰ حالةٍ تستغرقُ بهِ عنِ الذكرِ » : فليسَ ذلكَ تمكُّنَ حلولٍ ولا اتحادٍ ، بل حكمةٌ وقدرةٌ مِنْ عزيزٍ حكيمٍ .

وبيانُ غورِ ذلكَ : أنْ يكونَ القلبُ عندَ الذكرِ في الذكرِ فارغاً مِنَ الكلِّ ، فلا يبقىٰ فيهِ غيرُ اللهِ جلَّ ذكرُهُ ، فيصيرَ القلبُ بيتَ الحقِّ ، ويمتلئَ منهُ ، فيخرجَ الذكرُ مِنْ غيرِ قصدٍ ولا تدبُّرٍ ، وحينَئذٍ يكونُ الحقُّ المبينُ لسانَهُ الذي ينطقُ بهِ ؛ فإنْ بطشَ هـٰذا الذاكرُ كانَ يدَهُ التي يبطشُ بها ، وإنْ سمعَ كانَ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ ، قدِ استولى

---

(1) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٠٥) ، ومن طريقه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٤٩) .

(2) وقد طُبع ، وأبو العز المذكور هو المشهور بالمقترح ، المتوفىٰ سنة (٦١٢ هـ) ، وأما ابن البنا فأغلب الظن أنه قريب عهد بالعلامة الشارح ؛ وأنه هو نفسه صاحب كتاب « المباحث الأصلية » ؛ إذ قال شارحه العلامة ابن عجيبة في « الفتوحات الإلـٰهية » (ص ٢) : (صاحب الكتاب هو الشيخ الفقيه الصالح ، الولي الناصح ؛ أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي ، المعروف بابن البنا السرقسطي بضم القاف ؛ نسبة إلىٰ سرقسط ؛ بلدة بتخوم الجزيرة ، كان أصل نسبه منها ، ثم تقرَّر بفاسَ وبها توفي

قال الشيخ زروق رحمه الله : لم أقف علىٰ تاريخ وفاته ، غير أن الظنَّ أنه قريب العهد) ، ثم قال العلامة ابن عجيبة : (وكم من عارف كبير بقي تحت أستار الخمول حتىٰ لقي الله تعالىٰ ، بل كلما عظُمَ قدر العارف عند الله خفيَ أمره على الناس ؛ لأن الكنوز لا تكون إلا مدفونة ، فإذا ظهرت نهبت ، وتشتت أمرها وذهب سرُّها ، وابن البنا هـٰذا غير صاحب الحساب ؛ فإنه ابن البنا الصوفي ، توفي بمراكش سنة إحدىٰ وعشرين من القرن الثامن)

(3) الاستهتار : الولوع بالشيء ؛ يقال : استُهْتِر بكذا ـ بالبناء للمفعول ـ ؛ إذا فُتِنَ به وذهب عقله فيه .

المذكورُ العليُّ على الفؤادِ فامتلكَهُ ، وعلى الجوارحِ فصرفَها فيما يرضيهِ ، وعلى الصفاتِ مِنْ هـٰذا العبدِ فقلَّبها كيفَ شاءَ في مرضاتِهِ ؛ فلذلكَ يخرجُ الذكرُ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ[1] ، وتنبعثُ الأعمالُ بالطاعاتِ نشاطاً ولذَّةً مِنْ غيرِ كلالٍ ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨]

وقد وصفَ اللهُ تعالىٰ قلبَ أمِّ موسىٰ عليهِ السلامُ بمعنىٰ ذلكَ في قولِهِ الحقِّ : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ [القصص : ١٠] أي فارغاً مِنْ كلِّ شيءٍ إلا مِنْ ذكرِ موسىٰ ، فكادَتْ أنْ تبديَ بهِ مِنْ غيرِ قصدٍ منها لذكرِهِ ولا تدبيرٍ ، بل كانَ تركُها للتصريحِ بذكرِهِ صبراً بما ربطَ اللهُ علىٰ قلبِها ؛ لتكونَ مِنَ المؤمنينَ بما أُوحيَ إليها مِنْ قبلُ في شأنِ موسىٰ وبأنَّهُ مِنَ المرسلينَ[2]

وبذلكَ يندفعُ الإشكالُ الذي ذكرَهُ أبو العزِّ ووصفَهُ بالعظمِ ؛ وهو اجتماعُ الضدَّينِ في باديْ الرأيِ ؛ وهما : الذكرُ ، والغفلةُ عنِ الذكرِ[3]

وهـٰذهِ المعالمُ والمراقي لا يعرفُ حقائقَها إلا السالكونَ وجداناً ، والعلماءُ إيماناً وتصديقاً ؛ فإيَّاكَ والتكذيبَ بآياتِ اللهِ فتكونَ مِنَ الصُّمِّ البُكْمِ في الظلماتِ .

ولمَّا كانَ المذكورُ لا يجوزُ عليهِ وصْفُ البُعْدِ والعدمِ[4] ، ولا يمنعُهُ حجابٌ ، ولا يحويهِ مكانٌ ، ولا يشتملُ عليهِ زمانٌ ، فلا يجوزُ عليهِ الغَيبةُ بوجْهٍ ، ولا يتَّصفُ

---

(١) كذا في (هـ) ، وفي سائر النسخ : (تكليف) بدل (تكلُّف) .

(٢) ما ساقه العلامة ابن البنا هنا مفادٌ من « تفسير ابن برَّجان » (١/ ٤١٣)

(٣) أراد عبارة العلامة أبي العز المقترح في « الأسرار العقلية » (ص ٣٤) : (وفي هـٰذا إشكال عظيم لَسْنا لبيان غوره) ، وقد أفاد الأستاذ المحقق للكتاب (ص ٢٣) نقلاً عن العلامة المقَّري في « إتحاف الغرام » : أنه ألَّف هـٰذا الكتاب وهو ابن خمس وعشرين سنة ، قال : (وبعد ذلك شرح « الإرشاد » فرجع عن كثير مما في « الأسرار ») .

(٤) في (أ) : (الفقد) بدل (البعد) .

بحوادثِ المحدَثينَ ، ولا تجري عليهِ صفاتُ المخلوقينَ[(١)] . . **فهو حاضرٌ عيناً ومعنىً ، وشاهدٌ سرّاً ونجوىٰ** ؛ إذْ هو القريبُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، وأقربُ إلى الذاكرِ لهُ مِنْ نفسِهِ ؛ مِنْ حيثُ الإيجادُ لهُ ، والعلمُ بهِ ، والمشيئةُ فيهِ ، والقدرةُ والتدبيرُ لهُ ، والقيامُ عليهِ ، خلقَ الخليقةَ فلا تلحقُهُ أوصافُها ، وأوجدَ الأعدادَ فلا تحصرُهُ معانيها ، سبحانَهُ وهو العليُّ الكبيرُ) انتهىٰ كلامُ الشيخِ أبي العباسِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في معنى المقامِ الثالثِ مِنْ مقاماتِ الذكرِ ، وهو في غايةِ الحسنِ والتحقيقِ ، مشيراً إلىٰ توحيدِ الخواصِّ مِنْ أهلِ هٰذا الطريقِ ، فلا ينبغي للعبدِ أنْ ييئسَ مِنَ الوصولِ إلىٰ هٰذا المقامِ الكريمِ ، فليسَ ذلكَ بعزيزٍ على الفتّاحِ العليمِ ، فعلى العبدِ القيامُ بحُسْنِ الأسبابِ ، ومِنَ اللهِ تعالىٰ رفعُ الحجابِ

* * *

(١) في (ج) : (أحكام) بدل (صفات) .

الباب السادس
في أحكام القلوب

الحكمة السابعة والأربعون (*)

وقال رضي الله عنه :

مِنْ عَلامَةِ مَوْتِ ٱلْقَلْبِ : عَدَمُ ٱلْحُزْنِ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنَ ٱلْمُوَافَقَاتِ ، وَتَرْكُ ٱلنَّدَمِ عَلَىٰ مَا فَعَلْتَهُ مِنْ وُجُودِ ٱلزَّلَّاتِ

القلبُ إذا كانَ حياً بالإيمانِ : حزنَ على ما فاتَهُ مِنَ الطاعاتِ ، وندمَ علىٰ ما فعلَهُ مِنَ الزلَّاتِ ، ومقتضىٰ هٰذا وجودُ الفرحِ بما يُستعملُ فيهِ مِنَ الطاعاتِ ، ويُوفَّقُ لهُ مِنِ اجتنابِ المعاصي والسيئاتِ

وقد جاءَ في الخبرِ : « مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ . . فَهُوَ مُؤْمِنٌ »(١)

فإنْ لم يكنِ العبدُ بهٰذهِ الصفةِ ، وعدمَ الحزنِ علىٰ ما فاتَهُ ، والندمَ علىٰ ما أتاهُ . . فهو ميِّتُ القلبِ ، وإنَّما كانَ ذلكَ مِنْ قِبَلِ أنَّ أعمالَ العبدِ الحسنةَ والسيئةَ علامتانِ علىٰ وجودِ رضا اللهِ تعالىٰ على العبدِ وسخطِهِ عليهِ ، فإذا وفَّقَ اللهُ عبدَهُ

(*) **ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ لطفِ الله بخلق علاماتٍ دالة للعبد علىٰ بعده عن ربِّهِ ، وإلىٰ أن أعمال القلوب عند الله تعالىٰ حُسناً وقبحاً عليها المعوَّل حساباً وجزاءً

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء 89] ، **وقوله سبحانه** : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** « إن الله تعالىٰ يحبُّ كلَّ قلبٍ حزينٍ » ، رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٦٥) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « الندمُ توبةٌ » ، رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه

(١) رواه الترمذي (٢١٦٥) وقال : (حديث حسن صحيح غريب من هٰذا الوجه) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٧٧) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

للصالحاتِ . . سرَّهُ ذلكَ ؛ لأنَّهُ علامةٌ على رضاهُ عنهُ ، وغلبَ حينَئذٍ رجاؤُهُ ، وإذا خذلَهُ ولم يعصمْهُ ، فعملَ بالمعاصي . . ساءَهُ ذلكَ وأحزنَهُ ؛ لأنَّهُ علامةٌ على سخطِهِ عليهِ[1] ، وغلبَ حينَئذٍ خوفُهُ

والرجاءُ يبعثُ على الاجتهادِ في الطاعاتِ ، وليسَ مِنْ مقتضاهُ تركُها ، وعدمُ الحزنِ على ما فاتَهُ منها أمناً واغتراراً

والخوفُ يبعثُ على المبالغةِ في اجتنابِ المعاصي والسيئاتِ ، وليسَ مِنْ مقتضاهُ فعلُها ، وتركُ الندمِ عليها إياساً وقنوطاً

وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : بينَما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ أتاهُ آتٍ ، فلمَّا حاذانا ورأى جماعتَنا أناخَ راحلتَهُ ، ثم مشى إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوضَعْتُ راحلتي مِنْ مسيرةِ تسعٍ[2] ، فسيَّرتُها إليكَ ستّاً ، وأسهرتُ ليلي ، وأظمأتُ نهاري ، وأنضيتُ راحلتي . . لأسألَكَ عنِ اثنتينِ أسهرَتاني ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » ، قالَ : زيدُ الخيلِ ، قالَ : « بَلْ أَنْتَ زَيْدُ ٱلْخَيْرِ ، سَلْ ، فَرُبَّ مُعْضِلَةٍ قَدْ سُئِلَ عَنْهَا » ، قالَ : جئتُ لأسألَكَ عن علامةِ اللهِ فيمَنْ يريدُ ، وعلامتِهِ فيمَنْ لا يريدُ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بَخٍ بَخٍ ! كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا زَيْدُ ؟ » ، قالَ : أصبحتُ أحبُّ الخيرَ وأهلَهُ ، وأحبُّ أنْ يُعملَ بهِ ، وإذا فاتَني حننتُ إليهِ ، وإذا عملتُ عملاً قلَّ أو كثُرَ أيقنتُ بثوابِهِ ، قالَ : « هِيَ هِيَ بِعَيْنِهَا يَا زَيْدُ ، وَلَوْ أَرَادَكَ ٱللهُ لِلأُخْرَىٰ هَيَّأَكَ لَهَا ، ثُمَّ لا يُبَالِي فِي أَيِّ وَادٍ هَلَكْتَ » ، فقالَ زيدٌ : حسبي حسبي ، ثم ارتحلَ ولم يقفْ[3]

* * *

---

(١) في هامش (ب) : كما قيل : (من الكامل)

فعلامةُ المرضيِّ طاعةُ ربِّهِ وعلامةُ المغضوبِ في العصيانِ

(٢) أوضعتُ : حملتها على العَدْوِ ، والمصدر : الإيضاعُ .

(٣) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٤١٥) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٤/ ١٠٩) .

الحكمة الثامنة والأربعون (*)

لا يَعْظُمِ ٱلذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ ٱلظَّنِّ بِٱللهِ تَعَالَىٰ ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ . . ٱسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ

عِظَمُ الذنبِ عندَ مرتكبِهِ على وجهينِ :

أحدُهما : أنْ يعظمَ عندَهُ عظمةً تحملُهُ على التوبةِ منهُ ، والإقلاعِ عنهُ ، وصدْقِ العزمِ على ألا يعودَ إلى مثلِهِ ، فهٰذهِ عظمةٌ محمودةٌ ، وهي مِنْ علامةِ إيمانِ العبدِ كما قلنا[1]

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (إنَّ المؤمنَ يرىٰ ذنوبَهُ كأنَّهُ في

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ سعة قدرة الله تعالى المُقِلَّة لكلِّ ممكن ، وأن الأعمال علامات ، لا أسبابٌ موجبات ، وأن معرفة الله تعالىٰ إنما تحصل علىٰ حسب الطاقة البشرية ، وأن العبد لا يزال يتعرَّف ربَّه إلىٰ غير ما نهاية .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الأنعام : ٩١] ، وقوله سبحانه : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق ٣] ، وقوله تعالىٰ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أذنب عبدٌ ذنباً ، فقال : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالىٰ : أذنب عبدي ذنباً ، فعلم أنَّ له ربّاً يغفرُ الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أيْ ربِّ ؛ اغفرْ لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالىٰ : عبدي أذنب ذنباً ، فعلم أنَّ له ربّاً يغفرُ الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أيْ ربِّ ؛ اغفرْ لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالىٰ : أذنب عبدي ذنباً ، فعلم أنَّ له ربّاً يغفرُ الذنب ويأخذ بالذنب ، اعملْ ما شئتَ ، فقد غفرتُ لك » ، رواه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٣٢٩) .

أصلِ جبلٍ يخافُ أنْ يقعَ عليهِ ، وإنَّ الفاجرَ يرىٰ ذنوبَهُ كذبابٍ وقعَ علىٰ أنفِهِ ، قالَ بهِ هٰكذا فأطارَهُ)[١]

ويُقالُ : (إنَّ الطاعةَ كلَّما استُصغرَتْ كَبُرَتْ عندَ اللهِ ، وإنَّ المعصيةَ كلَّما استُعظمَتْ صغُرَتْ عندَ اللهِ تعالىٰ)[٢]

والثاني : أنْ يعظمَ عندَهُ عظمةً توقعُهُ في اليأسِ والقنوطِ ، وتؤدِّي إلىٰ سوءِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ ، فهٰذهِ عظمةٌ مذمومةٌ ، قادحةٌ في الإيمانِ ، وهي شرٌّ عليهِ مِنْ ذنوبِهِ ، وسببُ ذلكَ : جهلُهُ بصفاتِ مولاهُ المحسنِ الجوادِ الكريمِ ، ووقوفُهُ معَ نفسِهِ ، وقياسُهُ بعقلِهِ وحَدْسِهِ ، ولو كانَ عارفاً باللهِ تعالىٰ حقَّ المعرفةِ لاستحقرَ ذنوبَهُ في جنبِ كرمِهِ وفضلِهِ ، فأيُّ قدْرٍ للعبدِ أو أيُّ قيمةٍ حتىٰ يقعَ في ذنبٍ لا يسعُهُ عفوُ ربِّهِ ، ويكبرَ عليهِ أنْ يغفرَهُ ؟!

قالَ في « التنويرِ » : (واعلمْ : أنَّهُ لا بدَّ في مملكتِهِ مِنْ عبادٍ هم نصيبُ الحِلْمِ ، ومحلُّ ظهورِ الرحمةِ والمغفرةِ ووقوعِ الشفاعةِ ، وافهمْ ما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ ٱللهُ بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ حَتَّىٰ يَسْتَغْفِرُونَ ٱللهَ تَعَالَىٰ فَيَغْفِرُ لَهُمْ »[٣] ، وقولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شَفَاعَتِي لِأَهْلِ ٱلْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي »[٤]

وجاءَ رجلٌ إلى الأستاذِ أبي الحسنِ قدَّسَ اللهُ سرَّهُ العزيزَ ، فقالَ : يا سيدي ؛ كانَ البارحةَ بجوارِنا مِنَ المنكراتِ كيتَ وكيتَ ، وظهرَ مِنْ ذلكَ الرجلِ استغرابُ أنْ يكونَ هٰذا ، فقالَ : يا هٰذا ؛ كأنَّكَ تريدُ ألا يُعصى اللهُ تعالىٰ في مملكتِهِ ؟! مَنْ أحبَّ ألا يُعصى اللهُ تعالىٰ في مملكتِهِ . فقد أحبَّ ألا تظهرَ مغفرتُهُ ، وألا تكونَ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، وله طريق بالرفع

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٢٣٨)

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقوله : (حتىٰ يستغفرون) كذا في جميع النسخ ، وفي الأصل المنقول عنه : (فيستغفرون)

(٤) رواه أبو داود (٤٧٣٩) ، والترمذي (٢٤٣٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

شفاعةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١)

وكم مِنْ مذنبٍ كثرةُ إساءتِهِ وذلَّةُ مخالفتِهِ أوجبَتْ لهُ الرحمةَ مِنْ ربِّهِ ، فكُنْ لهُ راحماً بقدْرِ إيمانِهِ وإنْ عصى عالماً) انتهى(٢)

فلا ينبغي للعبدِ أنْ يستعظمَ ذنبَهُ استعظاماً يؤدِّيهِ إلى أنْ يلقيَ بيدِهِ إياساً مِنْ رَوْحِهِ ، وقنوطاً مِنْ رحمتِهِ ، وسوءَ ظنٍّ بهِ ، بل عليهِ أنْ يتوبَ إلى ربِّهِ منهُ ، ويرجعَ إليهِ عنهُ ، ويعلمَ حكمةَ اللهِ تعالى في تسليطِهِ عليهِ ، وتخليتِهِ بينَهُ وبينَهُ

وفي الخبرِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْلا أَنَّ ٱلذَّنْبَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ ٱلْعُجْبِ . . مَا خَلَّى ٱللهُ تَعَالَىٰ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَبَيْنَ ذَنْبٍ أَبَداً »(٣) ، فنبَّهَكَ بهـٰذا على أنَّ الذنبَ مانعٌ مِنْ وجودِ العُجْبِ الذي هو أعظمُ حجابٍ بينَ العبدِ وبينَ مولاهُ ؛ لأنَّ صاحبَهُ ناظرٌ إلى نفسِهِ لا إلى ربِّهِ ، مستعظمٌ لطاعتِهِ وعبادتِهِ ، ملاحظٌ لذلكَ ومساكنٌ لهُ ، بخلافِ ذلكَ الذنبِ ؛ لأنَّهُ يوجبُ لهُ الخوفَ والحذرَ ، واللَّجأَ إلى اللهِ تعالى والفرارَ إليهِ مِنْ نفسِهِ

والعجبُ يصرفُ العبدَ عنِ اللهِ تعالى ، والذنبُ يصرفُهُ إليهِ ، والعجبُ يقبِلُ بهِ على نفسِهِ ، والذنبُ يقبِلُ بهِ على ربِّهِ ، والعجبُ يؤدِّيهِ إلى الاستغناءِ ، والذنبُ يؤدِّيهِ إلى الافتقارِ ، وأحبُّ أوصافِ العبدِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ الافتقارُ إليهِ ، وأشرفُ أحوالِ المؤمنِ ما يردُّهُ إليهِ ، ويقبِلُ بهِ عليهِ(٤)

* * *

(١) في « التنوير » : (انتهى كلام الشيخ)

(٢) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٧٢) .

(٣) رواه أبو الشيخ في « الثواب » كما في « الحاوي للفتاوي » (١/٤٣٦) ، وهو أيضاً عند الديلمي في « الفردوس » (٤٤٧١) من حديث سيدنا كليب الجهني رضي الله عنه ، وعند الديلمي أيضاً في « الفردوس » (٥٠٦٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) وحسبُكَ مثلاً للفرق بين العُجْب والذنب من حيث الثمرة : ما وقع لأبينا سيدنا آدم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ مع إبليس ، فكان لأبينا آدم التقريب والاجتباء ، ولإبليس اللعن والطرد ، وقد =

الحكمة التاسعة والأربعون (*)

لا صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ ، وَلا كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ

إذا ظهرَتِ الصفاتُ العليَّةُ بطلَتْ أعمالُ العاملينَ ؛ فإذا ظهرَتْ صفةُ العدلِ علىٰ مَنْ أبغضَهُ ومقتَهُ بطلَتْ حسناتُهُ ، وعادَتْ صغائرُهُ كبائرَ ، وإذا ظهرَ وصفُ الكرمِ والفضْلِ لمَنْ أحبَّهُ اضمحلَّتْ سيئاتُهُ ، ورجعَتْ كبائرُهُ صغائرَ

قالَ يحيى بنُ معاذٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنْ وضعَ عليهم عدلَهُ لم تبقَ لهم حسنةٌ ، وإذا نالَهم فضلُهُ لم تبقَ لهم سيئةٌ)(١)

نقل الإمام ابن عطاء الله في « التنوير » (ص ١١٠) عن الإمام الشاذلي قولَهُ : (واللهِ ؛ ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه ، وإنما أنزله إلى الأرض ليكمله ، فلم يزل آدم عليه السلام راقياً إلى الله تعالىٰ تارة علىٰ معراج التقريب والتخصيص ، وتارة علىٰ معراج الذلة والمسكنة ، وهو في التحقيق أتمُّ) ، ثم قال الإمام ابن عطاء : (ويجب علىٰ كل مؤمن أن يعتقد أن النبي والرسول لا ينتقلان من حالة إلا إلىٰ حالة أكمل منها ، وافهم ها هنا قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٤] ، قال ابن عطية : وللحالة الثانية خير لك من الأولىٰ)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن مخالفات الحق تعالىٰ كلَّها في رتبة واحدة في الأصل ، إلا أنه سبحانه قضىٰ بكون بعضها كبيراً أو صغيراً لواسع حكمته ، وإلىٰ أن الله تعالىٰ يقضي ولا يُقضىٰ عليه ، وما عُوفي عبد إلا برحمته ، وما هلك وأُخذ إلا بعدله وحكمته .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] ، وقوله تعالىٰ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة : ١٠٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » ، رواه البخاري (٤٦٢١) ، ومسلم (٢٣٥٩) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « قال ربُّكم عزَّ وجلَّ : عبدي ؛ ما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئاً . . غفرت لك علىٰ ما كان فيك » ، رواه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٥١)

ومِنْ دعائِهِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إلـٰهي ؛ إنْ أحببتَني غفرتَ سيّئاتي ، وإنْ مقتَّني لم تقبلْ حسناتي)[1]

وما أحسنَ قولَ سيدي أبي الحسنِ الشاذليِّ رضيَ اللهُ عنهُ في دعائِهِ ومناجاتِهِ : (واجعلْ سيئاتِنا سيئاتِ مَنْ أحببتَ ، ولا تجعلْ حسناتِنا حسناتِ مَنْ أبغضتَ ؛ فالإحسانُ لا ينفعُ معَ البغضِ منكَ ، والإساءةُ لا تضرُّ معَ الحبِّ منكَ)[2]

وسيأتي في مناجاةِ المؤلِّفِ في مثلِ هـٰذا المعنىٰ قولُهُ : (إلـٰهي ؛ كم مِنْ طاعةٍ بنيتُها ، وحالةٍ شيَّدتُها . . هدمَ اعتمادي عليها عدلُكَ ، بل أقالَني منها فضلُكَ)[3]

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٥٦)

(٢) قطعة من حزبه المعروف بـ (حزب البر) و(الحزب الكبير)، وانظر « المفاخر العلية » (ص١٩٨).

(٣) انظر (ص ٩٩٨) .

الحكمة الخمسون (*)

لا عَمَلَ أَرْجَىٰ لِلقَبُولِ[1] مِنْ عَمَلٍ يُغَيَّبُ عَنْكَ شُهُودُهُ ، وَيُحْتَقَرُ عِنْدَكَ وُجُودُهُ

في النسخِ الموجودةِ بأيدينا (لا عملَ أرجىٰ للقلوبِ) ، ومعناهُ علىٰ هـٰذا الوجهِ : أنَّ العملَ الموصوفَ بهـٰذهِ الصفةِ لا يلتفتُ إليهِ القلبُ ولا يعتبرُهُ ، وفي عدمِ التفاتِهِ واعتبارِهِ صلاحُهُ وتحرُّرُهُ مِنْ رقِّ رؤيتِهِ ، فيبقىٰ حينَئذٍ معَ ربِّهِ لا معَ عملِهِ ، ويكونُ ذلكَ علىٰ حذفِ مضافٍ ، تقديرُهُ : لا عملَ أرجىٰ لصلاحِ القلوبِ ، أو ما في معناهُ ، وسيأتي مِنْ كلامِ المؤلِّفِ ما يناسبُ هـٰذا المعنىٰ ؛ وهو قولُهُ : (قطعَ السائرينَ لهُ والواصلينَ إليهِ عن رؤيةِ أعمالِهم وشهودِ أحوالِهم . . .) إلىٰ آخرِهِ[2]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالى المنفرد بخلق الأفعال ، لا يشاركه في ذلك إيجاداً أحدٌ من خلقه ، ويدخل في ذلك الخواطر والبواعث والنيات ، وإنما العبد مجلىً لما سبق في علم الله تعالى القديم وأراده وقدَّره ، وأخرجه إلىٰ حيِّز الوجود العياني ، وأن لا تقاصَّ بين العبد وربه إذا عملَ عملاً صالحاً كما تقوله المعتزلة

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٥٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ رجلاً رأىٰ كلباً يأكلُ الثرىٰ من العطش ، فأخذَ الرجلُ خفَّهُ ، فجعل يغرفُ له به حتىٰ أرواهُ ، فشكرَ اللهُ له ، فأدخلَهُ الجنةَ » ، رواه البخاري (١٧٣) ، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) كذا في (أ ، ب) ، وفي سائر النسخ : (للقلوب) بدل (للقبول) .

(٢) انظر (ص ٣٤٧)

والغالبُ على الظنِّ : أنَّ الذي قصدَهُ المؤلِّفُ وذكرَهُ إنَّما هو لفظُ (القبولِ) ، فغلطَ الناسخُ فقلبَ حروفَهُ ، ولا يُحتاجُ في هـٰذا إلىٰ حذفٍ ، **وتقديرُهُ علىٰ هـٰذا الوجهِ أنْ يقولَ** : سلامةُ العملِ مِنَ الآفاتِ شرطٌ في قبولِهِ ؛ لأنَّ صاحبَهُ متَّقٍ للهِ تعالىٰ ، وقد قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧]

وإنَّما يسلمُ العملُ مِنَ الآفاتِ : باتهامِ النفسِ في القيامِ بحقِّهِ ، ورؤيةِ تقصيرِهِ فيهِ ، فيغيبُ عنهُ إذْ ذاكَ شهودُهُ ، ويُتحقَّرُ عندَهُ وجودُهُ[1] ، فلا يساكنُهُ ولا يعتمدُ عليهِ ، وإنْ لم يكنْ علىٰ هـٰذا الوصفِ ، بل كانَ ناظراً إليهِ ، ومستعظماً لهُ ، وغافلاً عن شهودِ مِنَّةِ اللهِ تعالىٰ عليهِ في توفيقِهِ لهُ . . أوقعَهُ ذلكَ في العُجْبِ ، فحبطَ لذلكَ عملُهُ ، وخابَ سعيُهُ

قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (ما استحسنتُ مِنْ نفسي عملاً فاحتسبتُهُ)[2]

وقالَ عليُّ بنُ الحسينِ (كلُّ شيءٍ مِنْ أفعالِكَ إذا اتَّصلَتْ بهِ رؤيتُكَ . . فذلكَ دليلٌ علىٰ عدمِ القبولِ ؛ لأنَّ القبولَ مرفوعٌ مغيَّبٌ عنكَ ، وما انقطعَتْ عنهُ رؤيتُكَ فذلكَ دليلٌ على القبولِ)

وقد سُئِلَ بعضُ العارفينَ : ما علامةُ قبولِ العملِ ؟ قالَ : نسيانُكَ إيَّاهُ ، وانقطاعُ نظرِكَ عنهُ بالكليَّةِ ؛ بدلالةِ قولِهِ تعالىٰ ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر ١٠] ، قالَ : فعلامةُ رفعِ الحقِّ تعالىٰ ذلكَ العملَ أنَّهُ لا يبقىٰ عندَكَ

---

(١) من حيث عدمُ الاعتماد عليه في تحصيل الأجر ، لا احتقاره من حيث أداؤُهُ ، **فأداءُ العمل الصالح فرض أو مندوب إليه** ، **وبهـٰذا تعلم** : أنه لا يحتجُّ على المصنف بقوله عليه الصلاة والسلام الذي رواه مسلم (٢٦٢٦) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه : « لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقىٰ أخاكَ بوجهٍ طلقٍ » أي لا يحملنَّكَ استصغارُ فعل المعروف الذي لا عناءَ بفعله . . علىٰ تركه والإعراض عنه ، وإنما الكلام في الحكمة عن أثره الذي هو الأجر ، والمثبت من جميع النسخ ، وفي (ز) وحدها : (ينحقر) بدل (يُتحقَّر)

(٢) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٣١٢)

منهُ شيءٌ ، فإنَّهُ إذا بقيَ عندَكَ في نظرِكَ منهُ شيءٌ لم يُرفعْ إليهِ ؛ لبينونةِ بينَ عنديَّتِكَ وعنديَّتِهِ .

فينبغي للعبدِ إذا عملَ عملاً أنْ يكونَ عندَهُ نسياً منسيّاً ؛ بما ذكرناهُ مِنِ اتهامِ النفسِ ، ورؤيةِ التقصيرِ ، حتى يتحصَّلَ لهُ قبولُهُ

* * *

الحكمة الحادية والخمسون (*)

إِنَّمَا أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِداً

الواردُ : عبارةٌ عمَّا يردُ على القلبِ ؛ مِنَ المعارفِ الربَّانيَّةِ ، واللطائفِ الروحانيَّةِ[1] ؛ ليطهِّرَهُ بذلكَ ويزكِّيَهُ ، حتىٰ يصلحَ بذلكَ للورودِ عليهِ ، والدخولِ إلىٰ حضرتِهِ ؛ لأنَّ الحضرةَ منزَّهةٌ عن كلِّ قلبٍ متكدِّرٍ بالآثارِ ، متلوِّثٍ بأقذارِ الأغيارِ .

فإذاً ؛ إنَّما أوردَهُ عليكَ لتكونَ بهِ عليهِ وارداً

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه عزَّ شأنه خلق دواعيَ معرفته تفضُّلاً وتكرُّماً ؛ فمنها الظاهر المدرك للعبد بحواسِّهِ ، ومنها الباطن الذي ينصبغ بها فؤاده ؛ من المعاني المتقلبة الدالة علىٰ وجود مقلِّب للقلوب ، وهـٰذا من لطفه تعالىٰ به عند من يجعله صفة للقديم سبحانه ، أو اللطفُ أثر قدرته عند من يجعله فعلاً له تعالىٰ .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لما خلقَ اللهُ آدمَ عطسَ ، فألهمه ربُّهُ أن قال : الحمدُ للهِ ، فقال له ربُّهُ : يرحمُكَ اللهُ » ، رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦١٦٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٨٧)

الحكمة الثانية والخمسون (*)

أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِيَتَسَلَّمَكَ مِنْ يَدِ ٱلأَغْيَارِ ، وَلِيُحَرِّرَكَ مِنْ رِقِّ ٱلآثَارِ

الآثارُ والأغيارُ غاصبةٌ ومُسترِقَّةٌ لكَ ؛ وذلكَ لوجودِ حبِّكَ لها ، وسكونِكَ إليها ، واعتمادِكَ عليها ، فإذاً ؛ أوردَ عليكَ الواردَ ليستملكَكَ مِنْ يدِ مَنْ غصبَكَ ، وليحرِّرَكَ عن ملكيَّةِ مَنِ استرقَّكَ

والإشارةُ إلىٰ هـٰذا المعنىٰ : بما ضربَ اللهُ تعالىٰ مِنَ المثلِ للكفَّارِ في قولِهِ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَٰلِمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾[الزمر : ٢٩] (١) ، فمَنْ تُسُلِّمَ مِنْ يدِ الأغيارِ ، وحُرِّرَ مِنْ رقِّ الآثارِ ، لا يكونُ لمخلوقٍ فيهِ نصيبٌ ولا شِرْكةٌ . . كانَ سالماً للهِ عزَّ وجلَّ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن حقائق الأشياء ثابتةٌ ؛ وهي ما سواه سبحانه ؛ مما خلق تعالى العلم به في أذهان البشر ، إلا أن وجودها ليس كوجود الله تعالى الذاتي القديم ، فمن ساوىٰ بين الوجودين فقد ضلَّ ، وإلىٰ أن رحمة الله تعالىٰ ـ سواء كانت صفة قديمة أو فعلاً حادثاً ـ قد سبقت غضبه ، فخلق في قلوب عباده ما يتنبَّهون به إلىٰ هـٰذه الحقيقة ، فمن وعاها فقد نجا ، ومن أعرض عنها ونأىٰ بجانبه فقد هلك

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر : ٥] ، وقوله تعالىٰ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس : ٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ الأمانةَ نزلت في جذرِ قلوبِ الرجالِ ، ثم نزلَ القرآنُ ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنةِ » ، رواه البخاري (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

(١) قوله (سالماً) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، والباقون بفتح اللام من غير ألف ، وانظر « التيسير » لأبي عمرو الداني (ص ١٨٩)

الحكمة الثالثة والخمسون (*)

أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ ، إِلَىٰ فَضَاءِ شُهُودِكَ

سجنُ وجودِهِ : هو شهودُهُ لنفسِهِ ، ومراعاتُهُ لحظِّهِ .

وفضاءُ شهودِهِ أنْ يغيبَ عن ذلكَ بشهودِ عظمةِ اللهِ تعالىٰ وجلالِهِ ، ورؤيةِ قيامِ حركاتِهِ وسكناتِهِ بهِ

قال أبو القاسمِ النصراباذيُّ : (سجنُكَ نفسُكَ ، إذا خرجتَ منها وقعتَ في راحةِ الأبدِ)[1]

وسيأتي مِنْ كلامِ المؤلِّفِ في معنىٰ قولِهِ : (سجنِ وجودِكَ) : (الكائنُ في الكونِ ولم يُفتحْ لهُ ميادينُ الغيوبِ . . مسجونٌ بمحيطاتِهِ ، ومحصورٌ في هيكلِ ذاتِهِ)[2]

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ سعة فضل الله تعالى الذي لا يعادله فضل ، بل لا فضل إلا فضله ؛ إذ الفضل القديم وصفه ، والحادث فعله .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يسٓ : ٦١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام مناجياً : « لا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عينٍ » ، رواه أبو داود (٥٠٩٠) من حديث سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣١١)

(٢) انظر (ص ٩١٨) .

الحكمة الرابعة والخمسون (*)

ٱلأَنْوَارُ مَطَايَا ٱلْقُلُوبِ وٱلأَسْرَارِ .

أنوارُ الإيمانِ واليقينِ مطايا حاملةٌ للأسرارِ والقلوبِ ، إلىٰ حضرةِ علامِ الغيوبِ ، وتلكَ هي الوارداتُ المذكوراتُ

*

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله تعالىٰ يتجلَّىٰ على الدوام علىٰ عباده بصفة الكرم على القول بها ، وأن من عوائده سبحانه أن العبد كلَّما جدَّ زِيد في عطائه ، والكل من عند الله خلقاً وإيجاداً .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم : ٧٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « عبدٌ نوَّرَ اللهُ الإيمانَ في قلبِهِ » ، رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٠٦) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

الحكمة الخامسة والخمسون (*)

ٱلنُّورُ جُنْدُ ٱلْقَلْبِ ، كَمَا أَنَّ ٱلظُّلْمَةَ جُنْدُ ٱلنَّفْسِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ ٱلأَنْوَارِ ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ ٱلظُّلَمِ وَٱلأَغْيَارِ .

نورُ التوحيدِ واليقينِ ، وظلمةُ الشركِ والشكِّ .. جندانِ للقلبِ والنفسِ ، والحربُ بينَهما سِجالٌ ؛ فإذا أرادَ اللهُ نصرةَ عبدِهِ أمدَّ قلبَهُ بجنودِهِ(١) ، وقطعَ عن نفسِهِ مددَ جنودِها ، وإذا أرادَ خذلانَ عبدِهِ فعلى العكسِ .

فإذا مالَ القلبُ إلى العملِ بأمرٍ محمودٍ مؤلمٍ في الحالِ ، ملتذٍّ به في المآلِ ،

(*) ترجع هذه الحكمة اعتقاداً : إلى القول بالتوفيق والخذلان ، وأنهما من أفعال الله تعالى ، وليس للعبد من حيث الإيجاد مدخلٌ فيهما ، وإنما له الكسب ، والتوفيق : خلق أسباب الطاعة والداعية إليها ، والخذلان : خلق أسباب المعصية والداعية إليها ، وهما المعبر عنهما بجند القلب وجند النفس ، إلا أن الأدب مع حضرة الحق تعالى أن يُنسب التوفيق إليه سبحانه ، والخذلان إلى النفس والشيطان .

ويطلب معنى هذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « كلُّ شيءٍ بقدرٍ ، حتى العجزُ والكيسُ » ، رواه مسلم (٢٦٥٥) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث الفتن : « حتى تصيرَ على قلبين ؛ على أبيضَ مثلِ الصفا ، فلا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامَتِ السماواتُ والأرضُ ، والآخرُ أسودُ مُرباداً ، كالكوزِ مُجَخِّياً ، لا يعرفُ معروفاً ، ولا ينكرُ منكراً ، إلا ما أُشرِبَ مِنْ هواهُ » ، رواه مسلم (١٤٤) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

(١) انظر الحديث بتفصيل عن جند القلب في « إحياء علوم الدين » (٥ / ٢١)

ومالَتِ النفسُ إلى العملِ بأمرٍ مذمومٍ مُلتذٍّ بهِ في الحالِ ، مؤلمٍ في المآلِ ، وتنازعا وتقاتلا . . سارعَ النورُ الذي هو مِنْ أمرِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِهِ إلىٰ نصرةِ القلبِ ، وبادرَتِ الظلمةُ التي هي مِنْ وسواسِ الشيطانِ ولمَّتِهِ إلىٰ نصرةِ النفسِ ، وقامَ صفُّ القتالِ بينَهما

فإنْ سبقَتْ للعبدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ سابقةُ السعادةِ . . اهتدى القلبُ بنورِ اللهِ تعالىٰ ، واستهانَ بالعاجلةِ ، ورغبَ في الآجلةِ ، وعملَ القلبُ بما مالَ إليهِ وإنْ آلمَهُ في الحالِ ؛ لما يرجوهُ مِنَ التنعُّمِ بهِ في المآلِ

وإنْ سبقَتْ لهُ مِنَ اللهِ تعالى الشقاوةُ والعياذُ باللهِ تعالىٰ . . ذَهَلَ القلبُ عنِ النورِ(١) ، وأعمتْهُ الظلمةُ عن منفعةِ الآجلِ ، واغترَّ بلذَّةِ العاجلِ ، وعملَ بما مالَتْ إليهِ نفسُهُ وإنْ آلمَهُ في المآلِ ؛ لما تَحصَّلَ فيها مِنْ لذَّةِ الحالِ(٢)

وعندَ التقاءِ الصفَّينِ ، والتحامِ القتالِ بينَ الجندينِ . . لا سبيلَ للعبدِ إلا فزعُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولياذُهُ بهِ ، وكثرةُ ذكرِهِ لهُ ، وصدْقُ توكُّلِهِ عليهِ ، واستعاذتُهُ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ

وهـٰذهِ العباراتُ الخمسةُ ؛ مِنْ قولِهِ (إنَّما أوردَ عليكَ الواردَ لتكونَ بهِ عليهِ وارداً) إلىٰ هنا . . تفنَّنَ فيها صاحبُ الكتابِ ، وكرَّرها بألفاظٍ مختلفةٍ ، والمعاني فيها متقاربةٌ ، وهـٰذهِ عادتُهُ في مواضعَ كثيرةٍ مِنْ هـٰذا الكتابِ

* * *

---

(١) في (ج) : (خَلِيَ) بدل (ذهل) .

(٢) قال تعالىٰ في صفة الحالين : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

الحكمة السادسة والخمسون (*)

ٱلنُّورُ لَهُ ٱلْكَشْفُ ، وٱلْبَصِيرَةُ لَهَا ٱلْحُكْمُ ، وٱلْقَلْبُ لَهُ ٱلإِقْبَالُ وٱلإِدْبَارُ .

هـٰذهِ ألفاظٌ مختلفةٌ لمعانٍ متغايرةٍ .

فالنورُ يفيدُ كشفَ المعاني المغيباتِ حتىٰ تتضحَ وتُشاهَدَ

والبصيرةُ التي هي ناظرُ القلبِ تفيدُ الحكمَ ؛ وهو صحَّةُ ما شاهدَتْهُ

والقلبُ لهُ الإقبالُ عملاً بمقتضىٰ ما شاهدَتْهُ البصيرةُ ، ولهُ أيضاً الإدبارُ تركاً للعملِ بمقتضىٰ ما شاهدَتْهُ البصيرةُ .

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه جلَّ شأنه سبَّبَ أسباباً اقتضتها حكمته ، لا عن احتياج أو افتقار ؛ فجعل للنور الكشف ، وللبصيرة الحكم ، وللقلب الاختيار في الإقبال على الفعل أو الإدبار عنه ، علىٰ سبيل الكسب لا الإيجاد ، فهدىٰ سبحانه بنور الأدلة ، وبصَّرَ بخلق العلم الضروري في عين القلب ، فكان للعبد بعد ذلك أثر الكسب ، ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « استفتِ نفسَكَ ، استفتِ قلبك يا وابصة ـ ثلاثاً ـ ، البرُّ ما اطمأنَّت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردَّد في الصدر ، وإن أفتوك وأفتوك » ، رواه الدارمي في « سننه » (٢٥٧٥) من حديث سيدنا وابصة بن معبد رضي الله عنه .

الحكمة السابعة والخمسون (*)

لا تُفرِحكَ ٱلطَّاعةُ لِأَنَّها بَرزَتْ مِنكَ ، وٱفْرحْ بِهَا لِأَنَّها بَرزَتْ مِنَ ٱللهِ إِلَيْكَ ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

الفرحُ بالطاعاتِ على وجهينِ

فرحٌ بها مِنْ حيثُ شهودُها مِنَ اللهِ تعالىٰ نعمةً منهُ وفضلاً فهـٰذا هو الفرحُ المحمودُ ؛ وهو الذي طُلِبَ مِنَ العبدِ ؛ وذلكَ مقتضىٰ شكرِها

وفرحٌ بها مِنْ حيثُ ظهورُها مِنَ العبدِ باختيارِهِ وإرادتِهِ وحولِهِ وقوَّتِهِ : فهـٰذا فرحٌ مذمومٌ منهيٌّ عنهُ ؛ وهو كفرانُ النعمةِ ، وهو العُجْبُ المحبطُ للعملِ ، فالفرحُ بها علىٰ هـٰذا الوجهِ فرحٌ بلا شيءٍ

وسيأتي في آخرِ الكتابِ أنواعُ الفرحِ بالنعمِ وما يُحمدُ منها وما يُذمُّ تامَّةً مستوفاةً[1]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه خالق لجميع أفعال العباد ، التي منها الطاعة ودواعيها ، والعبدَ مأمور بإرجاع الحق لأهله ؛ إذ لا تأثير له في فعله ، بخلاف المعصية التي الأدبُ فيها التعويلُ علىٰ كسبه

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس ٥٨] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور ٢٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات ١٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام للذي قال : الحمد لله الذي هداني إلى الإسلام ، وجعلني من أمة محمد : « شكرتَ عظيماً » ، رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٤١٩) من حديث منصور بن صقير رحمه الله تعالىٰ مرسلاً

(١) انظر (ص ٩٧٦)

الحكمة الثامنة والخمسون (*)

قَطَعَ ٱلسَّائِرِينَ لَهُ وٱلْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ ؛ أَمَّا ٱلسَّائِرُونَ فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا ٱلصِّدْقَ مَعَ ٱللهِ فِيهَا ، وَأَمَّا ٱلْوَاصِلُونَ فَلِأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا

لقد أسبغَ اللهُ تعالىٰ نعمتَهُ على الفريقينِ حيثُ فعلَ معَهم ذلكَ ؛ لأنَّهُ أبقاهم معَهُ ، ولم يدعْهم لسواهُ ، فالواصلونَ فعلَ ذلكَ بهم طوعاً منهم ، والسالكونَ فعلَ ذلكَ بهم كرهاً ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد : ١٥]

فالواصلونَ قطعَهم عن ذلكَ لشهودِهم لهُ في حضرةِ قربِهِ ، ومَنْ شاهدَهُ لم يشهدْ معَهُ غيرَهُ ؛ إذْ محالٌ أنْ يراهُ ويشهدَ معَهُ سواهُ

والسالكونَ قطعَهم عن ذلكَ عدمُ تحقُّقِهم بالصدْقِ والبراءةِ مِنَ الدعوىٰ ، فهم أبداً متَّهِمونَ لأنفسِهم في توفيةِ أعمالِهم وتصفيةِ أحوالِهم .

قالَ النهرجوريُّ (مِنْ علامةِ مَنْ تولَّاهُ اللهُ في أحوالِهِ : أنْ يشهدَ التقصيرَ في إخلاصِهِ ، والغفلةَ في أذكارِهِ ، والنقصانَ في صدقِهِ ، والفتورَ في مجاهداتِهِ ، وقلَّةَ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالى المستبدُّ بخلق أفعال العباد ، وأنه يزيد في هدىٰ من شاء ما شاء ، وأنه تعالىٰ عامل عباده بفضله علىٰ حسب ما سبق في علمه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « إن الله يصنع كلَّ صانعٍ وصنعتَهُ » ، رواه البزار في « مسنده » (٢٨٣٧) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (٩٥) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

المراعاةِ في فقرِهِ ، فتكونُ جميعُ أحوالِهِ عندَهُ غيرَ مرضيَّةٍ ، ويزدادُ فقراً إلى اللهِ تعالىٰ في قصدِهِ وسيرِهِ ، حتىٰ يفنىٰ عن كلِّ ما دونَهُ)[1]

وقالَ أبو عمرٍو إسماعيلُ بنُ نُجَيدٍ : (لا تصفو لأحدٍ قدمٌ في العبوديَّةِ حتىٰ تكونَ أفعالُهُ عندَهُ كلُّها رياءً ، وأحوالُهُ كلُّها عندَهُ دعاوىٰ)[2]

وقال أبو يزيدَ : (لو صفَتْ لي تهليلةٌ واحدةٌ ما باليتُ بعدَها بشيءٍ)[3]

وإلىٰ هـٰذينِ المقامينِ تشيرُ الحكايةُ التي تُروىٰ عنِ الواسطيِّ ؛ وذلكَ أنَّهُ لمَّا دخلَ نيسابورَ سألَ أصحابَ أبي عثمانَ : بماذا يأمرُكم شيخُكم ؟ فقالوا : كانَ يأمرُنا بالتزامِ الطاعاتِ ورؤيةِ التقصيرِ فيها ، فقالَ أمرَكم بالمجوسيَّةِ المحضةِ ، هلا أمرَكم بالغَيبةِ عنها بشهودِ مُجْريها ومنشئِها ؟ ![4]

قالَ الأستاذُ أبو القاسمِ القشيريُّ : (وإنَّما أرادَ الواسطيُّ بهـٰذا صيانتَهم عن محلِّ الإعجابِ ، لا تعريجاً في أوطانِ التقصيرِ ، أو تجويزاً للإخلالِ بأدبٍ مِنَ الآدابِ)[5]

---

(١) رواه السلمي في « الفتوة » (ص ٤٣) .

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٤٥٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٦١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٠) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٦)

(٥) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٣٦) .

الباب السابع

في الطمع غير المحبوب

الحكمة التاسعة والخمسون (*)

وقال رضي الله عنه :

مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إلا عَلَىٰ بَذْرِ طَمَعٍ

البُسوقُ الطولُ ؛ يُقالُ : بسقَتِ النخلةُ بسوقاً ؛ إذا طالَتْ ، قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَـٰتٍ ﴾ [ق : ١٠] ، **والأغصانُ** جمعُ غُصْنٍ ؛ وهو ما تشعَّبَ عن سُوقِ الشجرِ ، ويُجمعُ أيضاً علىٰ غُصونٍ ، **والبَذْرُ** الحبُّ الذي يُزرعُ ، وهـٰذهِ كلُّها استعاراتٌ مليحةٌ

والطمعُ مِنْ أعظمِ آفاتِ النفوسِ وعيوبِها القادحةِ في عبوديَّتِها ، بل هو أصلُ جميعِ الآفاتِ ؛ لأنَّهُ محضُ تعلُّقٍ بالناسِ والتجاءٍ إليهم واعتمادٍ عليهم وعبوديَّةٍ لهم ، وفي ذلكَ مِنَ المذلَّةِ والمهانةِ ما لا مزيدَ عليهِ ، ولا يحلُّ لمؤمنٍ أنْ يُذِلَّ نفسَهُ

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ تحقيق التوحيد ؛ إذ لا ربَّ إلا الله تعالىٰ ، وأنه تعالىٰ أجرىٰ عادته بخلق الذلِّ في العبد إن هو مال إلىٰ غيره وطمع فيما سواه سبحانه ، وبخلق العزِّ والكرامة إن هو وحَّده ولم يلتفت إلىٰ غيره ، بل خضع وتذلل له .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة : ٢٠] ، **وقوله تعالىٰ** : ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « عليك بالإياسِ ممَّا في أيدي الناس ، وإيَّاكَ والطمعَ ؛ فإنَّهُ الفقرُ الحاضرُ » ، رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٢٦) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « لا ينبغي للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ » ، رواه الترمذي (٢٢٥٤) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه

والطمعُ مضادٌّ لحقيقةِ الإيمانِ الذي يقتضي وجودَ العزَّةِ ، والعزَّةُ التي اتَّصفَ بها المؤمنونَ إنَّما تكونُ برفعِ هممِهم إلىٰ مولاهم ، وطمأنينةِ قلوبِهم إليهِ وثقتِهم بهِ دونَ مَنْ سواهُ ، فهٰذهِ هي العزَّةُ التي منحَها اللهُ عبدَهُ المؤمنَ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ، وكما أنَّ العزَّةَ مِنْ صفاتِ المؤمنِ ؛ كذلكَ الذلَّةُ مِنْ أخلاقِ الكافرينَ والمنافقينَ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة : ٢٠]

وقالَ أبو بكرٍ الورَّاقُ الحكيمُ : (لو قيلَ للطمعِ : مَنْ أبوكَ ؟ قالَ : الشكُّ في المقدورِ ، ولو قيلَ لهُ : ما حرفتُكَ ؟ قالَ : اكتسابُ الذلِّ ، ولو قيلَ لهُ : ما غايتُكَ ؟ قالَ : الحرمانُ)[1]

وقالَ أبو الحسنِ الورَّاقُ النيسابوريُّ : مَنْ أُشعرَ في نفسِهِ محبةَ شيءٍ مِنَ الدنيا فقد قتلَها بسيفِ الطمعِ ، ومَنْ طمعَ في شيءٍ ذلَّ ، وبذلِّهِ هلكَ ، وقديماً قيلَ : [من الطويل]

أَتَطْمَعُ فِي لَيْلَىٰ وَتَعْلَمُ أَنَّمَا ... يُقَطِّعُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ ٱلْمَطَامِعُ[2]

فالطامعُ ـ لا محالةَ ـ فاسدُ الدينِ ، مفلسٌ مِنْ أنوارِ اليقينِ ، قالَ في « التنويرِ » : (وتفقَّدْ وجودَ الورعِ مِنْ نفسِكَ أكثرَ ممَّا تتفقَّدُ ما سواهُ ، وتطهَّرْ مِنَ الطمعِ في الخلْقِ ؛ فلو تطهَّرَ الطامعُ فيهم بسبعةِ أبحرٍ ما طهَّرَهُ إلا اليأسُ منهم ، ورفعُ الهمَّةِ عنهم

قالَ : وقد قدمَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ البصرةَ ، فدخلَ جامعَها ، فوجدَ القصَّاصَ يقصُّونَ ، فأقامَهم ، حتىٰ جاءَ إلى الحسنِ البصريِّ ، فقالَ : يا فتىٰ ؛ إنِّي سائلُكَ عن أمرٍ ، فإنْ أجبتَني عنهُ أبقيتُكَ ، وإلا أقمتُكَ كما أقمتُ أصحابَكَ ، وكانَ قد رأىٰ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (١١٣) ، والقشيري في « رسالته » (ص ١٧٥) .

(٢) القول بتمامه مع الشعر رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٠١) وفيه : (أبو الحسين الوراق) بدل (أبو الحسن الوراق) الذي اتفقت عليه النسخ .

عليهِ سَمْتاً وهَدْياً ، فقالَ الحسنُ : سلْ عمَّا شئتَ ، فقالَ : ما ملاكُ الدينِ ؟ قالَ : الورعُ ، قالَ : فما فسادُ الدينِ ؟ قالَ الطمعُ ، قالَ : اجلسْ ، فمثلُكَ يتكلَّمُ على الناسِ[١])

قالَ : وسمعتُ شيخَنا يقولُ : كنتُ في ابتداءِ أمري بثغرِ الإسكندريَّةِ ، جئتُ إلىٰ بعضِ مَنْ يعرفُني ، فاشتريتُ منهُ حاجةً بنصفِ درهمٍ ، ثم قلتُ في نفسي لعلَّهُ لا يأخذُ منِّي ، فهتفَ بي هاتفٌ : السلامةُ في الدينِ . . بتركِ الطمعِ في المخلوقينَ

قالَ وسمعتُهُ يقولُ : صاحبُ الطمعِ لا يشبعُ أبداً ، ألا ترىٰ أنَّ حروفَهُ كلَّها مجوَّفةٌ ؛ الطاءُ ، والميمُ ، والعينُ)

ثم قالَ بعدَ هٰذا (فعليكَ أيُّها المريدُ برفعِ همَّتِكَ عنِ الخلْقِ ، ولا تَذِلَّ لهم[٢] ؛ فقد سبقَتْ قسمتُهُ وجودَكَ ، وتقدَّمَ ثبوتُهُ ظهورَكَ ، واسمعْ ما قالَ بعضُ المشايخِ : أيُّها الرجلُ ؛ ما قُدِّرَ لماضغيكَ أنْ يمضغاهُ فلا بدَّ أنْ يمضغاهُ ، فكُلْهُ ويحَكَ بعزٍّ ، ولا تأكلْهُ بذُلٍّ)[٣]

قلتُ : تقدَّمَ الآنَ مِنْ كلامِهِ في « التنويرِ » ذكْرُ الورعِ في مقابلةِ الطمعِ ، وكذلكَ في جوابِ الحسنِ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهما لمَّا سألَهُ مختبراً لهُ عن صلاحِ الدينِ وفسادِهِ ، في الكلامِ الذي حكاهُ عنهما ، ولا شكَّ أنَّ الورعَ الظاهرَ لعامَّةِ الناسِ ـ وهو ترْكُ الشبهاتِ ، والتحرُّجُ مِنِ اقتحامِ المشكلاتِ ـ لا يقابلُ الطمعَ كلَّ المقابلةِ ، وقد ذكرنا الطمعَ ما هو[٤] ، وإنَّما يقابلُهُ ورعُ الخاصَّةِ ؛ وهو عندَهم صحَّةُ اليقينِ ،

---

(١) في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٢٩) : (دخل الحسن البصري مكة ، فرأىٰ غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظُ الناس ، فوقف عليه الحسنُ وقال : ما ملاكُ الدين ؟ فقال : الورع ، فقال : ما آفته ؟ فقال : الطمع ، فتعجَّب الحسن منه) .

(٢) في « التنوير » زيادة : (في شأن الرزق) .

(٣) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٩٦) .

(٤) يعني : في صدر شرح الحكمة (ص ٣٥١)

وكمالُ التعلُّقِ بربِّ العالمينَ ، ووجودُ السكونِ إليهِ ، وعكوفُ الهِمَمِ عليهِ ، وطمأنينةُ القلبِ بهِ ، ولا يكونَ لهُ ركونٌ إلىٰ غيرِهِ ، ولا انتسابٌ إلىٰ خلْقٍ ولا كونٍ ، فهـٰذا هو الورعُ الذي يقابلُ الطمعَ المفسِدَ ، وبهِ يصلحُ كلُّ عملٍ مقرِّبٍ وحالٍ مسعِدٍ ، كما نبَّهَ عليهِ الحسنُ في جوابِهِ المذكورِ

قالَ يحيى بنُ معاذٍ (الورعُ علىٰ وجهينِ ورعٌ في الظاهرِ ؛ ألا تتحرَّكَ إلا للهِ ، وورعٌ في الباطنِ ؛ وهو ألا يدخلَ قلبَكَ إلا اللهُ)[١]

ذُكِرَ أنَّ بعضَهم كانَ حريصاً علىٰ أنْ يرىٰ أحداً ممَّنْ هـٰذهِ صفتُهُ ، فجعلَ يجتهدُ في طلبِهِ ، ويحتالُ على التوصُّلِ إليهِ ؛ بأنْ يأخذَ الشيءَ بعدَ الشيءِ مِنْ مالِهِ ، ويقصدَ بهِ الفقراءَ والمساكينَ ، ويقولَ لِمَنْ يعطيهِ منهم حينَ المناولةِ خُذْ لا لكَ ، فكانوا يأخذونَ ولا يسمعُ مِنْ أحدٍ منهم جواباً مطابقاً لما أرادَهُ بكلامِهِ ، إلىٰ أنْ ظَفِرَ ذاتَ يومٍ ببغيتِهِ ، وحصلَ علىٰ مقصودِهِ ومُنيتِهِ ؛ وذلكَ أنَّهُ قالَ لأحدِهم خُذْ لا لكَ ، فقالَ : آخذُ لا منكَ

فإنْ كانَ للعبدِ استشرافٌ إلىٰ خلْقٍ ، أو سبقيَّةُ نظرٍ إليهم قبلَ مجيءِ الرزقِ أو بعدَهُ . فمقتضىٰ هـٰذا الورعِ ، والواجبُ في حقِّ الأدبِ ألا يفيدَ نفسَهُ شيئاً ممَّا يأتيهِ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ ؛ عقوبةً لنفسِهِ في نظرِهِ إلىٰ أبناءِ جنسِهِ ؛ كقصَّةِ أيوبَ الحمَّالِ معَ أحمدَ بنِ حنبلٍ رحمَهُ اللهُ ، وهي معروفةٌ[٢] .

وكما رُوِيَ عنِ الشيخِ أبي مدينَ أنَّهُ أتاهُ حمَّالٌ بقمحٍ ، فنازعَتْهُ نفسُهُ وقالَتْ لهُ : يا ترىٰ ! مِنْ أينَ هـٰذا ؟ فقالَ لها أنا أعرفُ مِنْ أينَ هو يا عدوَّةَ اللهِ ، وأمرَ بعضَ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٨٥٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٢٧) .

(٢) ستأتي بتمامها (ص ٧٢٢)، وقد أوردها الإمام السهروردي في « عوارف المعارف » (١/ ٢٢٩) وروى الدارمي في « سننه » (٦٠٤) عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه قال لكعب : من أرباب العلم ؟ قال : الذين يعملون بما يعلمون ، قال فما أخرج العلم من قلوب العلماء ؟ قال : الطمع .

أصحابِهِ أنْ يدفعَهُ لبعضِ الفقراءِ عقوبةً لها ؛ لكونِها رأَتِ الخلْقَ قبلَ رؤيةِ الحقِّ تعالىٰ.

وقد قيلَ (أحلُّ الحلالِ ما لم يخطرْ لكَ علىٰ بالٍ ، ولا سألتَ فيهِ أحداً مِنَ النساءِ والرجالِ)[1]

وقد صرَّحَ بهٰذا المعنى الذي ذكرناهُ ، وأوضحَ الغرضَ الذي قصدناهُ . . شيخُ الطريقةِ وإمامُ أهلِ الحقيقةِ مِنَ المتأخِّرينَ ؛ أبو محمدٍ عبدُ العزيزِ المهدويُّ ؛ فإنَّهُ قالَ : (اعلمْ : أنَّ الورعَ ألا يكونَ بينَكَ وبينَ الخلْقِ نسبةٌ في أخذٍ أو عطاءٍ ، أو قبولٍ أو ردٍّ ، وأنْ يكونَ السبقُ للهِ تعالىٰ ؛ وهو أنْ تأتيَ إليهِ طاهراً مِنْ جميعِ الأشياءِ والعلمِ والعملِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٤]

وقالَ أيضاً : (الورعُ ألا يخطرَ لكَ الرزقُ ببالٍ ، ولا يكونَ بينَكَ وبينَهُ نسبةٌ لا في التحصيلِ ولا عندَ المباشرةِ ؛ لأنَّهُ لا يدري أيأكلُهُ أم لا)

وقالَ أيضاً : (الورعُ ألا يتحرَّكَ ولا يسكنَ إلا ويرى اللهَ في الحركةِ والسكونِ ، فإذا رأى اللهَ ذهبَتِ الحركةُ والسكونُ ، وبقيَ معَ اللهِ ، فالحركةُ ظرفٌ لما فيها ، كما قالَ بعضُهم ما رأيتُ شيئاً إلا رأيتُ اللهَ فيهِ ، فإذا رأى اللهَ ذهبَتِ الأشياءُ)

وقالَ أيضاً (أجمعَ العلماءُ أنَّ الحلالَ المطلقَ ما أُخِذَ مِنْ يدِ اللهِ بسقوطِ الوسائطِ ، وهٰذا مقامُ التوكُّلِ ، ولهٰذا قالَ بعضُهمْ : الحلالُ هو الذي لا يُنسى اللهُ فيهِ) ، إلىٰ غيرِ هٰذا مِنَ العباراتِ التي عبَّرَ بها في هٰذا المعنىٰ.

وقالَ بعضُ أهلِ هٰذهِ الطائفةِ (العبيدُ كلُّهم يأكلونَ أرزاقَهم ، ثم يفترقونَ في المشاهداتِ ؛ فمنهم مَنْ يأكلُ رزقَهُ بذُلٍّ ، ومنهم مَنْ يأكلُ رزقَهُ بامتهانٍ ، ومنهم مَنْ يأكلُ رزقَهُ بانتظارٍ ، ومنهم مَنْ يأكلُ رزقَهُ بعزٍّ بلا مهنةٍ ولا انتظارٍ ولا ذلٍّ .

---

(١) كلمة مناميّةٌ سمعها الإمام الشاذلي كما في « لطائف المنن » (ص ٨٠) .

فأمَّا الذينَ يأكلونَ أرزاقَهم بذُلٍّ : فالسُّؤَّالُ ؛ يشهدونَ أيديَ الخلقِ ، فيذلُّونَ لهم .

وأمَّا الذينَ يأكلونَ أرزاقَهم بامتهانٍ : فالصُّنَّاعُ ؛ يأكلُ أحدُهم رزقَهُ بمهنةٍ وكدٍّ .

وأمَّا الذينَ يأكلونَ أرزاقَهم بانتظارٍ : فالتُّجَّارُ ؛ ينتظرُ أحدُهم نَفاقَ سلعتِهِ ، فهو متعذِّبُ القلبِ معذَّبٌ بانتظارِهِ

وأمَّا الذينَ يأكلونَ أرزاقَهم بعزٍّ مِنْ غيرِ مهنةٍ ولا انتظارٍ ولا ذُلٍّ فالصوفيَّةُ ؛ يشهدونَ العزيزَ ، فيأخذونَ قسمتَهم مِنْ يدِهِ بعزَّةٍ)[1]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ (ليسَ معَ الإيمانِ أسبابٌ ، إنَّما الأسبابُ في الإسلامِ)[2]

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ : (معناهُ : ليسَ في حقيقةِ الإيمانِ رؤيةُ الأسبابِ والسكونُ إليها ، إنَّما رؤيتُها والطمعُ في الخلقِ يوجدُ في مقامِ الإسلامِ)[3]

وقد عقدَ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ في « لطائفِ المننِ » فصلاً في هـٰذا المعنىٰ ، وجعلَهُ لجميعِ وظائفِ الآدابِ الدينيَّةِ أصلاً ومبنىً ، فرأينا نقلَهُ في هـٰذا الموضعِ مِنْ صوابِ العملِ ، المتكفِّلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ بنجاحِ الأملِ ، قالَ رضيَ اللهُ عنهُ :

(واعلمْ رحمَكَ اللهُ : أنَّ ورعَ الخصوصِ لا يفهمُهُ إلا قليلٌ ؛ فإنَّ مِنْ جملةِ ورعِهم : تورُّعَهم عن أنْ يسكنوا لغيرِهِ ، أو يميلوا بالحبِّ لغيرِهِ ، أو تمتدَّ أطماعُهم بالطمعِ في غيرِ فضلِهِ وخيرِهِ ، ومِنْ ورعِهم : ورعُهم عنِ الوقوفِ معَ الوسائطِ والأسبابِ ، وخلعُ الأندادِ والأربابِ ، ومِنْ ورعِهم ورعُهم عنِ الوقوفِ معَ العاداتِ ، والاعتمادِ على الطاعاتِ ، والسكونِ إلىٰ أنوارِ التجلِّياتِ ، ومِنْ

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٨٦١)

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٨٦٣)

(٣) انظر « قوت القلوب » (٢/ ٨٦٣)

ورِعهم : ورعُهم أنْ تفتنَهمُ الدنيا ، أو توقفَهمُ الآخرةُ ، تورَّعوا عنِ الدنيا وفاءً ، وعنِ الوقوفِ معَ الآخرةِ صفاءً

قالَ الشيخُ عثمانُ بنُ عاشوراءَ : خرجتُ مِنْ بغدادَ أريدُ الموصلَ ، فبينا أنا أسيرُ وإذا بالدنيا قد عُرِضَتْ عليَّ بعزِّها وجاهِها ورفعتِها ومراكبِها وملابسِها ومزيَّناتِها وشهواتِها ، فأعرضتُ عنها ، فعُرِضَتِ عليَّ الجنَّةُ بحورِها وقصورِها وأنهارِها وثمارِها ، فلم أشتغلْ بها ، فقيلَ لي : يا عثمانُ ؛ لو وقفتَ معَ الأولىٰ لحجبناكَ عنِ الثانيةِ ، ولو وقفْتَ معَ الثانيةِ لحجبناكَ عنَّا ، فها نحنُ لكَ ، وقسطُكَ مِنَ الدارينِ يأتيكَ .

وقالَ الشيخُ عبدُ الرحمـٰنِ المغربيُّ وكانَ مقيماً بشرقيِّ الإسكندريَّةِ حججتُ سنةً مِنَ السنينَ ، فلمَّا قضيتُ الحجَّ عزمتُ على الرجوعِ إلى الإسكندريةِ ، فإذا عليَّ يُقالُ لي[1] : إنَّكَ العامَ القابلَ عندَنا ، فقلتُ في نفسي : إذا كنتُ في العامِ القابلِ ها هنا فلا أعودُ إلى الإسكندريةِ ، فخطرَ ليَ الذهابُ إلى اليمنِ ، فأتيتُ إلىٰ عَدَنَ ، فبينا أنا يوماً علىٰ ساحلِها وإذا بالتُّجَّارِ قد أخرجوا بضائعَهم ومتاجرَهم ، ثم نظرتُ فإذا رجلٌ فرشَ سجَّادتَهُ على البحرِ ومشىٰ على الماءِ ، فقلتُ في نفسي : لم أصلحْ للدنيا ولا للآخرةِ ! فإذا عليَّ يُقالُ لي : مَنْ لا يصلحُ للدنيا ولا للآخرةِ يصلحُ لنا

وقالَ الشيخُ أبو الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ : « الورعُ نعمَ الطريقُ لِمَنْ عُجِّلَ ميراثُهُ ، وأُجِّلَ ثوابُهُ ، فقدِ انتهىٰ بهمُ الورعُ إلى الأخذِ مِنَ اللهِ ، وعنِ اللهِ ، والقولِ باللهِ ، والعملِ للهِ وباللهِ ، على البينةِ الواضحةِ والبصيرةِ الفائقةِ ، فهم في عمومِ أوقاتِهم وسائرِ أحوالِهم لا يدبِّرونَ ولا يختارونَ ولا يريدونَ ولا يتفكَّرونَ ولا ينظرونَ ولا يبطشـونَ ولا يمشـونَ ولا يتحـرَّكـونَ ولا ينطقـونَ . . إلا بـاللهِ وللهِ مِـنْ حيـثُ يعلمونَ ، هجمَ بهمُ العلمُ علىٰ حقيقةِ الأمرِ ، فهم مجموعونَ في عينِ الجمعِ ،

---

(١) كذا في جميع النسخ ؛ أي : فإذا النداء عليَّ يقال لي ، وفي « لطائف المنن » : (فإذا قائل يقول لي) ، وكذا فيما سيأتي .

لا يتفرَّقون فيما هو أعلىٰ ولا فيما هو أدنىٰ ، وأما أدنى الأدنىٰ فاللهُ يُورِّعُهم عنهُ ثواباً لورعِهم ، معَ الحفظِ لمنازلاتِ الشرعِ عليهم

ومَنْ لم يكنْ لعلمِهِ وعملِهِ ميراثٌ فهو محجوبٌ بدنيا ، أو مصروفٌ بدعوىٰ ، وميراثُهُ : التقذُّرُ لخلقِهِ ، والاستكبارُ علىٰ مثلِهِ ، والدَّالَّةُ على اللهِ بعملِهِ ، فهـٰذا هو الخسرانُ المبينُ ، والعياذُ باللهِ مِنْ ذلكَ

والأكياسُ يتورَّعونَ عن هـٰذا الورعِ ، ويستعيذونَ باللهِ منهُ ، ومَنْ لم يزددْ بعملِهِ وعلمِهِ احتقاراً لنفسِهِ ، وافتقاراً لربِّهِ ، وتواضعاً لخلقِهِ . . فهو هالكٌ .

فسبحانَ مَنْ قطعَ كثيراً مِنَ الصالحينَ بصلاحِهِم عن مُصْلِحِهِم ، كما قطعَ كثيراً مِنَ المفسدينَ بفسادِهِم عن مُوجِدِهِم ! فاستعذْ باللهِ ؛ إنَّهُ هو السميعُ العليمُ »

قالَ : فانظرْ ـ فهَّمَكَ اللهُ سبيلَ أوليائِهِ ، ومَنَّ عليكَ بمتابعةِ أحبَّائِهِ ـ هـٰذا الورعَ الذي ذكرَهُ الشيخُ رضيَ اللهُ عنهُ : هل كانَ يصلُ فهمُكَ إلىٰ مثلِ هـٰذا النوعِ مِنَ الورعِ ؟! ألا ترىٰ قولَهُ : « قدِ انتهىٰ بهمُ الورعُ إلى الأخذِ مِنَ اللهِ ، وعنِ اللهِ ، والقولِ باللهِ ، والعملِ للهِ وباللهِ ، على البينةِ الواضحةِ والبصيرةِ الفائقةِ » ؟! فهـٰذا هو ورعُ الأبدالِ والصدِّيقينَ ، لا ورعُ المتنطِّعينَ الذي ينشأُ عن سوءِ الظنِّ وغلبةِ الوهمِ) انتهىٰ[1]

وإنَّما أوردنا هـٰذهِ المعانيَ ها هنا تتمَّةً للفائدةِ المتعلِّقةِ بكلامِ صاحبِ كتابِ « التنويرِ » مِنْ كونِ الورعِ مقابلاً للطمعِ[2] ، وسيأتي مزيدُ بيانٍ فيها في موضعٍ أنسبَ مِنْ هـٰذا عندَ قولِهِ (لا تمدَّنَّ يدَكَ إلى الأخذِ مِنَ الخلائقِ . . .) إلىٰ آخرِهِ ، فانظرْ فيهِ[3]

* * *

---

(١) لطائف المنن (ص ١٠٩)

(٢) كما تقدم ذلك (ص ٣٥٢) .

(٣) انظر (ص ٧١٧) .

الحكمة الستون (*)

مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ ٱلْوَهْمِ

الوهمُ : أمرٌ عدميٌّ ؛ وهو ضدُّ الحقيقةِ الوجوديَّةِ ، والنفسُ الناقصةُ انقيادُها إلى الأمورِ الوهميَّةِ الباطلةِ أشدُّ مِنِ انقيادِها إلى الحقائقِ الثابتةِ ؛ لوجودِ المناسبةِ بينَهما ، والطمعُ في الناسِ انقيادٌ إلى الأوهامِ الباطلةِ ؛ لأنَّ الطمعَ تصديقُ الظنِّ الكاذبِ ، والطمعُ فيهم طمعٌ في غيرِ مطمعٍ

وأربابُ الحقائقِ بمعزلٍ عن هـٰذا ، فلا تتعلَّقُ همَّتُهم إلا باللهِ ، ولا يتوكَّلونَ إلا عليهِ ، ولا يثقونَ إلا بهِ ، قد سقطَ اعتبارُ الوهمِ والخيالاتِ ـ التي هي متعلِّقةٌ بالأغيارِ ـ عن قلوبِهم ، فزالَ عنهمُ الطمعُ ، واتَّصفوا بصفاتِ القناعةِ والورعِ ، فكانَتْ لهمُ الحياةُ الطيبةُ ، والعيشةُ الراضيةُ

والقناعةُ مقامٌ عظيمٌ مِنْ مقاماتِ اليقينِ ؛ وهي مِنْ بداياتِ أحوالِ الراضينَ

وقالَ بعضُ العارفينَ (لا يكونُ العبدُ قانعاً حتىٰ لو جاءَ إلىٰ بابِ منزلِهِ جميعُ

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلى التنبيه على الغفلة عن الحقيقة الوجودية ؛ في تصوُّرِ الموجودات العرضية أن لها الوجود الذاتي ، مع أن العقل والشرع متفقان أن لا وجود على التحقيق إلا للقديم ، وأن وجود ما سواه وجود ظلِّيٌّ لا ثبات له لولا ثبات مُمِدِّهِ ، وإلىٰ غلبة الوهميات على الذهن ؛ لقربها من الحسِّ وأحكامه ، ولكونها من المألوفات

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « وكُنْ قانعاً تكن أغنى الناسِ » ، رواه ابن ماجه (٤٢١٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ما يرغبُ فيهِ أهلُ الدنيا مِنَ الاتّساعِ والنعمةِ ، فعُرِضَ عليهِ . . لم ينظرْ إلىٰ ذلكَ ، ولم يفتحْ لهُ بابَهُ ؛ قناعةً منهُ بحالِهِ)[1]

وقد رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] قالَ : « هِيَ ٱلْقَنَاعَةُ »[2]

* * *

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٣٩) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٥٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٨٦٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه .

الحكمة الحادية والستون (*)

أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ مِنْهُ آيِسٌ ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ فِيهِ طَامِعٌ[(١)] .

الطمعُ في الشيءِ دليلٌ على الحبِّ لهُ ، وفرطِ الاحتياجِ إلىٰ نيلِهِ ، وذلكَ عبوديَّةٌ لهُ ، كما أنَّ اليأسَ مِنَ الشيءِ دليلٌ علىٰ فراغِ القلبِ منهُ وغناهُ عنهُ ، وذلكَ حريةٌ منهُ ، فالطامعُ عبدٌ ، واليائسُ حرٌّ ، ولهـٰذا قيلَ[(٢)] : [من مجزوء الرجز]

اَلْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنِعْ   وَٱلْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمِعْ

وقيلَ : (لولا الأطماعُ الكاذبةُ لما استُعبدَ الأحرارُ بكلِّ شيءٍ لا خطرَ لهُ)[(٣)]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن ما سواه تعالىٰ لا أثرَ له ولا حكم ، محصورٌ في رتبة الحدوث والإمكان ، وإلىٰ الملازمة بين اعتقاد التأثير والميل إلىٰ هـٰذا المؤثر ، فمن علم الفاعل الحقيقي القديم لم يشتغل قلبُهُ إلا به ، ومن ظن فاعليةً لغيره استعبدَهُ سوء اعتقاده له ، ثم لا يكون إلا ما أراد الحق ، وإلىٰ أنه سبحانه هو المعزُّ وهو المذلُّ .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس : ٤٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ [الشورىٰ : ٢٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف ١١٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّما يكفي أحدَكم ما قنعت بهِ نفسُهُ » ، رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » (١١٨) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) في (أ) : (أنت حرٌّ ممَّا أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت له طامع)

(٢) وذكر هـٰذا البيت شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في « شرح البهجة الوردية » (٥/ ١٧٠) وبعده :

فـاقنـع ولا تطمـع فمـا   شـيء يشيـن سـوى الطمـع

وإن صح ذلك فالبيت من مجزوء الكامل .

(٣) قاله الإمام القشيري في « التحبير في التذكير » (ص ٥٧)

وقيلَ إنَّ العُقابَ يطيرُ في فضاءِ عزِّهِ ، بحيثُ لا يرتقي طَرْفٌ إلىٰ مطارِهِ ، ولا تسمو همَّةٌ إلى الوصولِ إليهِ ، فيرىٰ قطعةَ لحمٍ معلَّقةً علىٰ شبكةٍ ، فينزِلُهُ الطمعُ مِنْ مطارِهِ ، فيعلقُ بالشبكةِ جناحُهُ ، فيصيدُهُ صبيٌّ يلعبُ بهِ(١)

وقيلَ إنَّ فتحاً الموصليَّ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ قاعداً ، فسُئِلَ عمَّنْ تابعَ الشهواتِ : كيفَ صفتُهُ ؟ وكانَ بقربِهِ صبيَّانِ معَ أحدِهما خبزٌ بلا إدامٍ ، ومعَ الآخرِ خبزٌ معَ كامَخٍ ، فقالَ الذي لم يكنْ معَهُ كامَخٌ لصاحبِهِ أطعمْني مِنَ الكامَخِ ، فقالَ : بشرطِ أنْ تكونَ كلبي ، فقالَ صاحبُهُ نعم ، فجعلَ خيطاً في فيهِ ، وجعلَ يجرُّهُ كما يُقادُ الكلبُ ، فقالَ فتحٌ للسائلِ أمَا لو أنَّهُ قنعَ بخبزِهِ ، ولم يطمعْ في كامخِهِ . لم يصرْ كلباً لصاحبِهِ(٢)

وحُكِيَ عن بعضِهم أنَّهُ دخلَ علىٰ تلميذٍ لهُ ، فقدَّمَ التلميذُ إليهِ خبزاً قَفاراً ، ولم يكنْ لهُ إدامٌ ، فأخذَ يتمنَّىٰ بقلبِهِ أنْ ليتَهُ لو كانَ إدامٌ يقدِّمُهُ إلىٰ أستاذِهِ ، فقامَ الأستاذُ وقالَ لهُ تعالَ معي ، فحملَهُ إلىٰ بابِ الحبسِ ، فرأى الناسَ ؛ يُضربُ واحدٌ ، ويُقطعُ آخرُ ، ويُعذَّبُ كلُّ واحدٍ بأنواعِ العذابِ ، فقالَ الأستاذُ للتلميذِ : ترىٰ ! هـٰؤلاءِ الذينَ لم يصبروا على الخبزِ القَفارِ(٣)

وقيلَ : إنَّ رجلاً أُخرجَ مِنَ السجنِ في رِجْلِهِ قيدٌ وهو يسألُ الناسَ ، فقالَ لإنسانٍ : أعطني كِسْرةً ، فقالَ لهُ : لو قنعتَ بالكِسْرةِ لَمَا وُضِعَ القيدُ في رِجْلِكَ(٤)

ورأىٰ رجلٌ رجلاً مِنَ الحكماءِ يأكلُ ما تساقطَ مِنَ البقلِ علىٰ رأسِ الماءِ ، فقالَ لهُ :

---

(١) حكاه الإمام القشيري في « التحبير في التذكير » (ص ٥٧)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٩٣) ، والكامَخ ـ بفتح الميم وتكسر ـ : الإدامُ ، أو المشهِّيات كالمخلَّلات

(٣) حكاه الإمام القشيري عن بعضهم في « التحبير في التذكير » (ص ٥٧) .

(٤) أورده القرطبي في « الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٢١٩) .

لو خدمتَ السلطانَ لم تحتجْ إلىٰ أكلِ هـٰذا ، فقالَ الحكيمُ : وأنتَ لو قنعتَ بهـٰذا لم تحتجْ إلىٰ خدمةِ السلطانِ[1]

وقد أردتُ أنْ أذكرَ ها هنا حكايةً مناسبةً لما نحنُ فيهِ ؛ ليُتعرَّفَ بها كيفَ تكونُ الهمَّةُ السنيَّةُ والآدابُ المرضيَّةُ في أخذِ البلاغِ مِنَ الدنيا ، والقناعةِ باليسيرِ مِنَ الأشياءِ ، ورؤيةِ مِنَّةِ اللهِ تعالىٰ في تيسيرِ القليلِ ، والشكرِ لهُ علىٰ ذلكَ ؛ قالَ بعضُهم

خرجنا مِنَ المدينةِ حُجَّاجاً ، فلمَّا كُنَّا بالزاويةِ نزلنا ، فوقفَ بنا رجلٌ عليهِ ثيابٌ رثَّةٌ ولهُ منظرٌ وهيئةٌ ومروءةٌ ، فقالَ مَنْ يبغي خادماً ؟ مَنْ يبغي ساقياً ؟ فقلتُ دونَكَ هـٰذهِ القِرْبةَ ، فأخذَها فانطلقَ ، فلم يلبثْ إلا يسيراً حتىٰ أقبلَ وقدِ امتلأَتْ أثوابُهُ طيناً ، وأثَّرَتِ القِرْبةُ في كتفِهِ ، فوضعَها وهو كالمسرورِ الضاحكِ ، ثم قالَ ألكم غيرُها ؟ قلنا لا ، وأطعمناهُ قرصاً بارداً ، فأخذَهُ وحمدَ اللهَ تعالىٰ وشكرَهُ كثيراً

ثم اعتزلَ وقعدَ يأكلُ أكلَ جائعٍ ، فأدركَتْني عليهِ الشفقةُ ، فقمتُ إليهِ بطعامٍ طيِّبٍ كانَ معَنا وأكثرتُ لهُ منهُ ، فقلتُ قد علمتُ أنَّهُ لم يقعْ منكَ القرصُ بموقعٍ ، فدونَكَ هـٰذا الطعامَ ، فنظر في وجهي وتبسَّمَ وقالَ يا عبدَ اللهِ ؛ إنَّما هي فورةُ جوعٍ ، فما أبالي بأيِّ شيءٍ رددتُها عنِّي .

فرجعتُ عنهُ ، فقالَ لي رجلٌ إلىٰ جنبي أتعرفُهُ ؟ فقلتُ لا ، قالَ إنَّه رجلٌ مِنْ بني هاشمٍ مِنْ ولدِ العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ ، هـٰذا مِنْ ولدِ سليمانَ بنِ أبي جعفرٍ المنصورِ ، كانَ يسكنُ البصرةَ ، فتابَ فخرجَ منها ، ففُقِدَ ، فما عُرِفَ لهُ أثرٌ ، فأعجبَني قولُهُ .

ثم اجتمعْتُ بهِ فآنستُهُ ، وقلتُ لهُ : يا فتىٰ ؛ أنا رجلٌ مِنْ إخوانِكَ ، وقد بلغني

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤٠٦)

موضعُكَ ، وأحببتُ الاتصالَ بكَ ، فهل لكَ أنْ تعادلَني ؛ فإنَّ معي فضلاً مِنْ راحلتي ، فجزاني خيراً وقالَ : لو أردتُ هـٰذا لكانَ لي مُعَدّاً

ثم أَنِسَ إليَّ ، وجعلَ يحدِّثُني ؛ فقالَ أنا رجلٌ مِنْ ولدِ العباسِ ، كنتُ أسكنُ البصرةَ ، وكنتُ ذا كِبْرٍ شديدٍ وتجبُّرٍ وبذخٍ ، وإنِّي أمرتُ خادماً لي أنْ تحشوَ لي فراشاً مِنْ حريرٍ ، ومخدَّةً بوردٍ نثيرٍ ، فبينَما أنا نائمٌ إذا بقِمْعِ وردٍ قد أغفلَتْها الخادمُ ، فقمتُ إليها فأوجعتُها ضرباً ، ثم عدتُ إلىٰ مضجعي بعدَ إخراجِ القِمْعِ مِنَ المخدَّةِ ، فأتاني آتٍ في منامي في صورةٍ فظيعةٍ ، فهزَّني وقالَ أفقْ مِنْ غشيتِكَ ، وأبصرْ مِنْ حيرتِكَ ، ثم أنشأَ يقولُ [من الكامل]

يَـا خَـدُّ إِنَّـكَ إِنْ تُـوَسَّـدْ لَيِّنـاً ... وُسِّدْتَ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ صُمَّ ٱلْجَنْدَلِ
فَامْهَدْ لِنَفْسِكَ صَالِحاً تَسْعَدْ بِهِ ... فَلَتَنْـدَمَـنَّ غَـداً إِذَا لَـمْ تَفْعَـلِ

فانتبهتُ فزعاً ، فخرجتُ مِنْ ساعتي إلىٰ ربِّي هارباً ، فهـٰذا خبري

قالَ الراوي : فلمَّا قضىٰ حديثَهُ هـٰذا انخنسَ عنِّي ومضىٰ[1]

(1) الخبر بطوله أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٣/ ١٣١) .

الحكمة الثانية والستون (*)

مَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلَى ٱللهِ بِمُلاطَفَاتِ ٱلإِحْسَانِ . . قِيدَ إِلَيْهِ بِسَلاسِلِ ٱلِامْتِحَانِ

النفوسُ الكريمةُ تقبِلُ على اللهِ تعالىٰ بملاطفاتِ إحسانِهِ ، وموالاةِ فضلِهِ وامتنانِهِ ، والنفوسُ اللئيمةُ لا تنقادُ إلا بسلاسلِ الامتحانِ ، ووقوعِ المصائبِ في الأموالِ والأبدانِ ، والقَوْدُ بالسلاسلِ استعارةٌ حسنةٌ[1]

قال سيدي أبو مدينَ (سنَّتُهُ عزَّ وجلَّ استدعاءُ العبادِ لعبادتِهِ بسعةِ الأرزاقِ ، ودوامِ المعافاةِ ؛ ليرجعوا إليهِ بنعمتِهِ ، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسرَّاءِ والضرَّاءِ لعلهم يرجعونَ ؛ لأنَّ مرادَهُ عزَّ وجلَّ رجوعُ العبدِ إليهِ طوعاً أو كرهاً)

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله تعالىٰ حكيم ، وأفعاله عين الحكمة لا بها ، وأنه تعالىٰ أقام الحجة علىٰ جميع خلقه ، وأن من سُننه فيهم التحبُّبَ إليهم بالعافية ، وامتحانهم بالبلاء ؛ ليميز الخبيث من الطيب

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : ٥١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر : ١٥ـ١٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما مِنْ مصيبةٍ تصيبُ المسلمَ إلا كفَّرَ اللهُ بها عنهُ » ، رواه البخاري (٥٦٤٠) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

(١) سيأتي ذكرها (ص ٧٥٢)

الحكمة الثالثة والستون (*)

مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلنِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا ، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا

شكرُ النِّعَمِ موجِبٌ لبقائِها والزيادةِ منها ، وكفرانُها وعدمُ شكرِها موجِبٌ لزوالِها وانفصالِها ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٨] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] أي : إذا غيَّروا ما بهم مِنَ الطاعاتِ وهي شكرُ النعمِ . . غيَّرَ اللهُ تعالىٰ ما منهُ مِنَ الإحسانِ والكرمِ .

واجتمعَتْ حكماءُ العربِ والعجمِ علىٰ هٰذهِ اللفظةِ ؛ فقالوا : (الشكرُ قيدُ النعمِ)(١) ، وقالوا : (الشكرُ قيدُ الموجودِ ، وصيدُ المفقودِ)(٢) .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن شكر المنعم سبحانه وتعالىٰ واجب شرعاً ، وإلىٰ صدق الوعد الحق بقوله سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، وأن من سنته تعالىٰ سلب النعم عن ناسي شكرها ، أو استدراجَه بها والعياذ بالله .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ـ١٢٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٥ـ٢٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟! » ، رواه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) من حديث سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه

(١) أورده الإمام الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص٣٣١)

(٢) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٤٢٧) ، قال الإمام الطرطوشي في « سراج الملوك » (ص٣٧٢) : (واعلم أرشدك الله : أنه ليس الشكر حافظاً للنعم فقط ، بل هو مع حفظها زعيم بزيادة النعم ، وأمان من حلول النقم) .

وكانَ يُقالُ : (النعمُ إذا رُوعيَتْ بالشكرِ فهي أطواقٌ ، وإذا رُوعيَتْ بالكفرِ فهي أغلالٌ)

والشكرُ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ شكرٌ بالقلبِ ، وشكرٌ باللسانِ ، وشكرٌ بسائرِ الجوارحِ

فشكرُ القلبِ : أنْ يعلمَ أنَّ النعمَ كلَّها مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣]

وشكرُ اللسانِ الثناءُ على اللهِ تعالىٰ ، وكثرةُ الحمدِ والمدحِ لهُ ، ويدخلُ فيهِ التحدُّثُ بالنعمِ ، وإظهارُها ونشرُها ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ ١١]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ : (تذاكروا النعمَ ؛ فإنَّ ذكرَها شكرٌ)(١)

ومِنْ شكرِ اللسانِ أيضاً شكرُ الوسائطِ ؛ بالثناءِ عليهم ، والدعاءِ لهم ، وفي حديثِ النعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ ٱلْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلنَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ ٱللهَ »(٢)

وعن أسامةَ بنِ زيدٍ رضيَ اللهُ عنهما قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « أَشْكَرُ ٱلنَّاسِ للهِ أَشْكَرُهُمْ لِلنَّاسِ »(٣) ، وسيأتي الكلامُ علىٰ هـٰذا المعنىٰ في آخرِ الكتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ عندَ كلامِ المؤلفِ عليهِ(٤)

وشكرُ سائرِ الجوارحِ أنْ يعملَ بها العملَ الصالحَ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣] ، فجعلَ العملَ شكراً

---

(١) رواه الدينوري المالكي في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٣٦٣)
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/٢٧٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٦٩٨)
(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/١٧١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٦٩٧)
(٤) انظر (ص ٩٧٧) .

ورُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قامَ حتى تورَّمَتْ قدماهُ ، فقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ تفعلُ هٰذا وقد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟! قالَ : « أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟! »(1)

وسألَ رجلٌ أبا حازمٍ فقالَ لهُ : ما شكرُ العينينِ ؟ قالَ : إذا رأيتَ بهما خيراً أعلنتَهُ ، وإذا رأيتَ بهما شرّاً سترتَهُ

قالَ : فما شكرُ الأذنينِ ؟ قالَ : إذا سمعتَ بهما خيراً وعيتَهُ ، وإذا سمعتَ بهما شرّاً دفنتَهُ

قالَ : فما شكرُ اليدينِ ؟ قال : لا تأخذُ بهما ما ليسَ لكَ ، ولا تمنعُ حقّاً هو للهِ فيهما

قالَ : فما شكرُ البطنِ ؟ قالَ : أنْ يكونَ أسفلُهُ صبراً ، وأعلاهُ علماً

قالَ : فما شكرُ الفرجِ ؟ قالَ : كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون : ٦ـ٧] .

قالَ : فما شكرُ الرِّجْلينِ ؟ قالَ : إنْ رأيتَ شيئاً غبطتَهُ استعملتَهُما فيهِ ، وإنْ رأيتَ شيئاً مقتَّهُ كففتَهُما عن عملِهِ وأنتَ شاكرٌ للهِ تعالىٰ

فأمَّا مَنْ شكرَ بلسانِهِ ، ولم يشكرْ بجميعِ أعضائِهِ . . فمثلُهُ كمثلِ رجلٍ لهُ كساءٌ ، فأخذَهُ بطرفِهِ ولم يلبسْهُ ، فلم ينفعْهُ ذلكَ مِنَ الحرِّ والبردِ والثلجِ والمطرِ(2)

وأجمعُ العباراتِ للشكرِ قولُ مَنْ قالَ : (الشكرُ : معرفةٌ بالجَنانِ ، وذكرٌ باللسانِ ، وعملٌ بالأركانِ)(3)

---

(1) رواه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) من حديث سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(2) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٢٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٢٤٤) .

(3) كأنه أراد الشكر الواجب في معرفة الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً ؛ إذ المشهور أن هٰذا التعريف للإيمان .

والقدرُ اللازمُ مِنْ شكرِ النعمِ قولُ الجنيدِ حينَ سألَهُ السريُّ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ قالَ الجنيدُ : كنتُ بينَ يديِ السريِّ وأنا ابنُ سبعِ سنينَ ، وبينَ يديهِ جماعةٌ يتكلَّمونَ في الشكرِ ، فقالَ لي : يا غلامُ ؛ ما الشكرُ ؟ فقلتُ : ألا يُعصى اللهُ بنِعَمِهِ ، فقالَ : يوشكُ أنْ يكونَ حظُّكَ مِنَ اللهِ لسانَكَ ، فلا أزالُ أبكي على هٰذهِ الكلمةِ[1]

* *

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٤٢٦) ، وقوله : (ألا يُعصى الله بنعمه) معناه : ألا يُعصىٰ مطلقاً ؛ إذ العبدُ مجموعُ نعمٍ من الله تعالىٰ ، ففيه إلماحٌ للشكر الواجب .

الحكمة الرابعة والستون (*)

خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ . . أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ٱسْتِدْرَاجاً لَكَ ؛ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

الخوفُ مِنَ الاستدراجِ بالنعمِ مِنْ صفاتِ المؤمنينَ ، **وعدمُ الخوفِ منهُ معَ الدوامِ على الإساءةِ** : مِنْ صفاتِ الكافرينَ

يُقالُ : **مِنْ أماراتِ الاستدراجِ** ركوبُ السيئاتِ ، والاغترارُ بزمنِ المهلةِ ، وحملُ تأخيرِ العقوبةِ على استحقاقِ الوصلةِ(1)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن ابتلاءات الله تعالىٰ وامتحاناته لعباده كما تكون بالمصائب والرزايا تكون بالنِّعَم والعطايا ، وإلىٰ أنه تعالىٰ يفعل ما يريد ، فلا يجب عليه فعل شيء أو تركه ، وأن الخوف منه فرضٌ علىٰ عباده ، وأن الأعمال بالخواتيم ، وأنه تعالىٰ ما أمهل عن عجز سبحانه ، ولا بدَّ من المصير إلى الجزاء الحتم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام : ١٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا رأيتَ اللهَ يعطي العبدَ ما يحبُّ وهو مقيمٌ علىٰ معاصيهِ . . فإنَّما ذلكَ لهُ منهُ استدراجٌ » ، رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/ ٣٣٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٢٢٠) من حديث سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه

(١) ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت : ٥٠] ، وقوله جلَّ شأنه حكاية : ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف : ٣٦] .

وهـٰذا مِنَ المكرِ الخفيِّ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٢] أي لا يشعرونَ بذلكَ ؛ وهو أنْ يلقيَ في أوهامِهم أنَّهم علىٰ شيءٍ وليسوا كذلكَ ، يستدرجُهم في ذلكَ شيئاً شيئاً حتىٰ يأخذَهم بغتةً ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ إشارةً إلىٰ مخالفتِهم وعصيانِهم . . ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي : فتحنا عليهم أسبابَ العوافي وأبوابَ الرفاهيةِ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ مِنَ الحظوظِ الدنيويَّةِ ، ولم يشكروا عليها برجوعِهم منها إلينا . . ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أي : فجأةً ؛ ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام ٤٤] أي : آيسونَ قانطونَ مِنَ الرحمةِ .

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ قولُهُ ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ نمدُّهم بالنعمِ ، وننسيهمُ الشكرَ عليها ، فإذا ركنوا إلى النعمةِ ، وحُجبوا عنِ المنعمِ . . أُخذوا[١]

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (كلَّما أحدثوا خطيئةً جدَّدنا لهم نعمةً ، وأنسيناهمُ الاستغفارَ مِنْ تلكَ الخطيئةِ)[٢]

* * *

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٥١) .

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٥٩) عن بعضهم

الحكمة الخامسة والستون (*)

مِنْ جَهْلِ ٱلْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ ٱلأَدَبَ ، فَتُؤَخَّرَ ٱلْعُقُوبَةُ عَنْهُ ، فَيَقُولَ لَوْ كَانَ هَـٰذَا سُوءَ أَدَبٍ لَقُطِعَ ٱلإِمْدَادُ ، وَلأُوجِبَ ٱلإِبْعَادُ ؛ فَقَدْ يُقْطَعُ ٱلْمَدَدُ عَنْهُ وَهُوَ لا يَشْعُرُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلا مَنْعُ ٱلْمَزِيدِ(١) ، وَقَدْ يُقَامُ مُقَامَ ٱلْبُعْدِ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلا أَنْ يُخَلِّيَكَ وَمَا تُرِيدُ

هـٰذهِ الأنواعُ مِنَ الاستدراجِ الذي تقدَّمَ ذكرُهُ ، وسوءُ أدبِ المريدِ موجبٌ لعقوبتِهِ ، ولـٰكنَّ العقوباتِ مختلفةٌ ؛ فمنها معجَّلةٌ ، ومنها مؤجَّلةٌ ، ومنها جليَّةٌ ، ومنها خفيَّةٌ

فالعقوبةُ الجليَّةُ : العقوبةُ بالعذابِ ، **والعقوبةُ الخفيَّةُ** : العقوبةُ بوجودِ الحجابِ ، فالعقوبةُ بالعذابِ لأهلِ الخطايا والذنوبِ ، والعقوبةُ بالحجابِ لأهلِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما سبق من الحديث عن الاستدراج ، وإلىٰ تفاوت رُتَب الطائعين ، وإلىٰ أن مراعاة خواطر القلب من أهمِّ المهمَّات ؛ لأنه سبحانه نظرُهُ إلىٰ قلب عبده ، ومعوَّل الثواب والعقاب عليه
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ [المائدة : ٧١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء ١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام المتقدم : « إذا رأيتَ اللهَ يعطي العبدَ ما يحبُّ وهو مقيمٌ علىٰ معاصيهِ . . فإنَّما ذلكَ لهُ منهُ استدراجٌ » ، رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/ ٣٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٢٢٠) من حديث سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(١) يعني : لكان قطعاً ؛ لأن من لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، كذا في « الطرر والحواشي » (ص٩٥) ، وبنحو ما هنا يقدَّر للجملة الآتية أيضاً

إساءةِ الأدبِ بينَ يدي علامِ الغيوبِ ، وقد تكونُ العقوبةُ الخفيَّةُ المؤجَّلةُ أشدَّ على المريدِ مِنَ العقوبةِ الجليَّةِ المعجَّلةِ .

ومثالُ العقوبةِ الخفيَّةِ ما ذكرَهُ مِنْ قطعِ المددِ عنهُ ، وإقامتِهِ مُقامَ البُعدِ منهُ ، وهـٰذا هو مبدأُ وقوعِ الحجابِ الذي ذكرناهُ ، فإذا ابتُلِيَ بهِ المريدُ ، ولم تدركْهُ رحمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ في الحالِ العتيدِ . . كانَ ذلكَ موجِباً لسقوطِهِ مِنْ عينِ اللهِ تعالىٰ ، ووقوعِ الحجابِ علىٰ قلبِهِ ، وتبدُّلِ الأُنْسِ بالوحشةِ ، وانتساخِ الضياءِ بالظلمةِ ، ولم يمكنْهُ بعدَ ذلكَ معاودةُ الحالِ الأولىٰ ؛ لأنَّهُ إذْ ذاكَ تنقطعُ عنهُ الإمداداتُ المتصلةُ[1] ، والوارداتُ المتحصلةُ ، فتنكشفُ عنهُ حينئذٍ شمسُ العرفانِ ، وتستترُ عنهُ الكشوفاتُ والبيانُ ، وهـٰذهِ جنودُ اللهِ تعالىٰ في قلبِ العبدِ[2]

فإذا فقدَ النصرةَ مِنَ اللهِ تعالىٰ بذلكَ . . وقعَ في الخذلانِ ، واستحوذَ عليهِ الشيطانُ ، وأنساهُ الذكرَ ، وحاقَ بهِ سيِّئُ المكرِ ، ورجعَ إلىٰ متابعةِ هوىٰ نفسِهِ الأمَّارةِ ، وخرجَ مِنْ دائرةِ الصفوةِ المختارةِ ، ونعوذُ باللهِ مِنْ سوءِ المقدورِ ، وعدمِ التوفيقِ إلىٰ مراعاةِ أوائلِ الأمورِ

وما احتجَّ بهِ المريدُ لنفسِهِ مِنَ الكلامِ الذي ذكرَهُ المؤلِّفُ . . يقتضي توجُّهَ هـٰذهِ العقوبةِ إليهِ ضربةَ لازبٍ[3] ؛ لأنَّ قوله (لو كانَ هـٰذا سوءَ أدبٍ . . .) إلىٰ آخرِهِ دليلٌ علىٰ رضاهُ بحالِهِ ، واستحسانِهِ لأعمالِهِ ، وهـٰذا هو الموجِبُ لهُ عدمَ المزيدِ الذي اقتضاهُ قطعُ المددِ عنهُ ، ولو كانَ المددُ متواصلاً إليهِ لازدادَ عندَما يقعُ منهُ سوءُ الأدبِ تواضعاً لربِّهِ ، وافتقاراً إليهِ ، وخوفاً مِنْ مكرِهِ ، ولم يستحسنْ حالَ نفسِهِ ولم يَرْضَها

---

(١) في (ب) : (الأمداد) بدل (الإمدادات) ، والأمداد : جمع مدد .

(٢) المتقدم ذكرها (ص ٣٤٣) ، وروى القشيري في « رسالته » (ص٥٩٥) عن الأستاذ أبي علي الدقاق قوله : (من صاحب الملوك بغير أدب . . أسلمه الجهل إلى القتل)

(٣) ضربةَ لازب ؛ أي : لازماً شديداً ثابتاً

قالَ سيدي أبو العباسِ : (كلُّ سوءِ أدبٍ يثمرُ لكَ أدباً معَ اللهِ . فهو أدبٌ)[1]

وهو الذي أوجبَ لهُ أيضاً التخليةَ بينَهُ وبينَ ما يريدُ ، الذي اقتضىٰ لهُ إقامتَهُ مُقامَ البعدِ ؛ إذْ لو كانَ مُقاماً في القربِ لبعُدَ عن رؤيةِ نفسِهِ ، وكان متَّهِماً لها في إرادتِها ، وكانَ واقفاً معَ مرادِ اللهِ تعالىٰ بهِ ، فإنْ أقدمَ علىٰ أمرٍ بإرادتِهِ وشهوتِهِ . . تداركَهُ اللهُ تعالىٰ بالعصمةِ ، وعوَّقَ عليهِ ما أرادَهُ ، وسدَّ عليهِ مسالكَهُ ، ولم يخلِّهِ وما أرادَ مِنْ ذلكَ[2]

ويُقالُ : (مِنْ علامةِ التوفيقِ ثلاثٌ : دخولُ أعمالِ البرِّ عليكَ مِنْ غيرِ قصدٍ منكَ إليها ، وصرْفُ المعاصي عنكَ معَ السعْيِ فيها ، وفتحُ بابِ اللجأِ والافتقارِ إلى اللهِ تعالىٰ في كلِّ الأحوالِ ، ومِنْ علامةِ الخذلانِ ثلاثٌ : تعسُّرُ الطاعةِ عليكَ معَ السعْيِ فيها ، ودخولُ المعاصي عليكَ معَ الهربِ منها ، وغلْقُ بابِ اللجأِ إلى اللهِ تعالىٰ وتركُ الدعاءِ في الأحوالِ)[3]

والأدبُ لهُ موقعٌ عظيمٌ في التصوُّفِ ، ولذلكَ قالَ أبو حفصٍ (التصوُّفُ كلُّهُ أدبٌ ، لكلِّ وقتٍ أدبٌ ، ولكلِّ حالٍ أدبٌ ، ولكلِّ مقامٍ أدبٌ ، فمَنْ لزمَ آدابَ الأوقاتِ بلغَ مبلغَ الرجالِ ، ومَنْ ضيَّعَ الآدابَ فهو بعيدٌ مِنْ حيثُ يظنُّ القربَ ، ومردودٌ مِنْ حيثُ يظنُّ القبولَ)[4]

وقالَ أبو عبدِ اللهِ بنُ خفيفٍ قالَ لي رويمٌ : (يا بنيَّ ؛ اجعلْ عملَكَ مِلْحاً ، وأدبَكَ دقيقاً)[5]

وقالَ بعضُهمْ : (الزمِ الأدبَ ظاهراً وباطناً ؛ فما أساءَ أحدٌ الأدبَ باطناً إلا

---

(١) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص١٦٧) .

(٢) إذ العدم عصمة ، كما تقدم من كلام الإمام الشافعي (ص ٢٣٢)

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ١٩٢)

(٤) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص١١٩)

(٥) أورده الإمام القرافي في « الفروق » (٢/ ٨٤٧) من قول رويم يخاطب ابنه

عُوقبَ باطناً ، ولا أساءَ الأدبَ ظاهراً إلا عُوقبَ ظاهراً)[١]

وقالَ ذو النونِ المصريُّ (إذا خرجَ المريدُ عن حدِّ الأدبِ فإنَّهُ يرجعُ مِنْ حيثُ جاءَ)[٢]

وقالَ النوريُّ : (مَنْ لم يتأدَّبْ للوقتِ فوقتُهُ مقتٌ)[٣]

وقالَ ابنُ المباركِ : (نحنُ إلىٰ قليلٍ مِنَ الأدبِ أحوجُ منَّا إلىٰ كثيرٍ مِنَ العلمِ)[٤]

وقيلَ لبعضِهم يا سيِّئَ الأدبِ ؛ فقالَ لستُ بسيِّئِ الأدبِ ، فقيلَ لهُ مَنْ أدَّبَكَ ؟ قالَ : الصوفيَّةُ[٥]

والآدابُ اللازمةُ للمريدِ عامَّةٌ في ظاهرِهِ وباطنِهِ ، وآدابُ الظاهرِ تبعٌ لآدابِ الباطنِ ، وآدابُ الباطنِ هي التحلِّي بمحاسنِ الأخلاقِ كلِّها ؛ في الحديثِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي ، ثُمَّ أَمَرَنِي بِمَكَارِمِ ٱلْأَخْلَاقِ ؛ فَقَالَ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] »[٦] ، ولا يحصلُ ذلكَ بعدَ توفيقِ اللهِ وتأييدِهِ إلا بالرياضةِ والمجاهدةِ

قالَ ابنُ عطاءٍ (النفسُ مجبولةٌ علىٰ سوءِ الأدبِ ، والعبدُ مأمورٌ بملازمةِ الأدبِ ؛ فالنفسُ تجري بطبعِها في ميدانِ المخالفةِ ، والعبدُ يردُّها بجهدِهِ عن سوءِ المطالبةِ ، فمَنْ أطلقَ عِنانَها فهو شريكُها في فسادِها)[٧]

---

(١) رواه السلمي في « النسوة المتعبدات » (ص٨٥) عن عائشة بنت أبي عثمان الحيري

(٢) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٥٩٩)

(٣) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٥٩٩)

(٤) أورده الطوسي في « اللمع » (ص١٩٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص٥٩٦) .

(٥) رواه الإمام القشيري في « رسالته » (ص٥٩٧) .

(٦) رواه السمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » (ص١) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وانظر « المقاصد الحسنة » (٤٥)

(٧) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٣٨٩) ، وابن عطاء : هو أبو العباس ، أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدَمي . انظر ترجمته في « الرسالة القشيرية » (ص١٨٢)

ويختلفُ ما ذكرناهُ مِنَ المجاهدةِ والرياضةِ باختلافِ الأشخاصِ ؛ فربَّ شخصٍ زكيِّ الفطرةِ ، كريمِ السجيَّةِ ، سهلِ المقادةِ ، لا يحتاجُ في ذلكَ إلىٰ كثيرِ معاناةٍ ولا تعبٍ ، وربَّ شخصٍ يكونُ حالُهُ علىٰ عكسِ هـٰذا ، فلا جرمَ يحتاجُ إلىٰ زيادةِ تعبٍ وقوَّةِ ممارسةٍ وشدَّةِ مجاهدةٍ ؛ لرداءةِ فطرتِهِ ، ونقصانِ غريزتِهِ ، وبينَ هـٰذينِ درجاتٌ لا تُحصىٰ

[وجوبُ صحبةِ الشيخِ الكاملِ]

ولهـٰذا كلِّهِ يحتاجُ المريدُ إلىٰ صحبةِ المشايخِ ، والتأدُّبِ بآدابِهم ، واتباعِ أوامرِهم ونواهيهم ؛ لأنَّهُ إنْ لم تجرِ أفعالُهُ علىٰ مرادِ غيرِهِ . لا يصحَّ لهُ الانتقالُ عنِ الهوىٰ ولو بلغَ في الرياضةِ والمجاهدةِ كلَّ مبلغٍ ؛ وذلكَ لكثافةِ حجابِ نفسِهِ .

وقد سُئِلَ الدقَّاقُ : بماذا يقوِّمُ الرجلُ اعوجاجَهُ ؟ فقالَ : بالتأدُّبِ بإمامٍ ، فمَنْ لم يتأدَّبْ بإمامٍ بقيَ بطَّالاً(١)

فإذا دامَ العبدُ علىٰ ذلكَ تزكَّتْ نفسُهُ ، وطهرَ قلبُهُ ، وتهذَّبَتْ أخلاقُهُ ، وظهرَ علىٰ ظاهرِهِ أنوارُ ذلكَ ، فتكونُ حركاتُ ظاهرِهِ وباطنِهِ مزمومةً بزمامِ الأدبِ ، حتىٰ ينتهيَ بهِ إلى المحافظةِ علىٰ تجنُّبِ أمورٍ غيرِ مستنكرةٍ في ظاهرِ العلمِ ، ويكونَ تركُ محافظتِهِ عليها ذنباً مِنْ مثلِهِ ، وقد يُعاتَبُ عليهِ ، وقد يُعاقَبُ مِنْ أجلِهِ

قالَ سريٌّ : صليتُ وردي ليلةً مِنَ الليالي ، ومددتُ رجلي في القبلةِ ، فنُوديتُ : يا سريُّ ؛ هـٰكذا تُجالَسُ الملوكُ ؟! فضممتُ رجلي ، ثم قلتُ : وعزَّتِكَ ؛ لا مددتُ رجلي أبداً(٢)

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/١٢٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٢٠) ، وروى القشيري في « رسالته » (ص٥٩٥) عن الجريري أنه قال : (منذ عشرين سنة ما مددت رجلي وقت جلوسي في الخلوة ؛ فإن حسن الأدب مع الله تعالىٰ أولىٰ) =

قالَ الجنيدُ رضيَ اللهُ عنهُ : فبقيَ ستينَ سنةً ما مدَّ رجلَهُ ليلاً ولا نهاراً[1]

وقالَ أبو القاسمِ القشيريُّ : (كانَ الأستاذُ أبو عليٍّ الدقاقُ لا يستندُ إلىٰ شيءٍ ، فكانَ يوماً في مجمعٍ ، فأردتُ أنْ أضعَ وسادةً خلفَ ظهرِهِ ؛ لأنِّي رأيتُهُ غيرَ مستندٍ ، فتنحَّىٰ عنِ الوسادةِ قليلاً ، فتوهَّمْتُ أنَّهُ توقَّى الوسادةَ لأنَّهُ لم يكنْ عليها خرقةٌ ولا سجادةٌ ، فقالَ : لا أريدُ الاستنادَ ، فتأمَّلْتُ بعدَ ذلكَ ، فعلمتُ أنَّهُ لا يستندُ إلىٰ شيءٍ أبداً)[2]

وقالَ أبو القاسمِ الجنيدُ : كنتُ جالساً في مسجدِ الشونيزيَّةِ أنتظرُ جنازةً أصلِّي عليها ، وأهلُ بغدادَ علىٰ طبقاتِهم جلوسٌ ينتظرونَ الجنازةَ ، فرأيتُ فقيراً عليهِ أثرُ النُّسُكِ يسألُ الناسَ ، فقلتُ في نفسي : لو عملَ هـٰذا عملاً يصونُ بهِ نفسَهُ كانَ أجملَ بهِ .

فلمَّا انصرفتُ إلىٰ منزلي ، وكانَ لي شيءٌ مِنَ الوردِ بالليلِ حتى البكاءِ والصلاةِ وغيرِ ذلكَ ، فثقُلَ عليَّ جميعُ أورادي ، فسهرتُ وأنا قاعدٌ ، فغلبَتْني عيني ، فرأيتُ ذلكَ الفقيرَ جاؤوا بهِ علىٰ خوانٍ ممدودٍ ، وقالوا لي كُلْ لحمَهُ ؛ فقدِ اغتبْتَهُ ، وكُشِفَ لي عنِ الحالِ ، فقلتُ ما اغتبتُهُ ، إنَّما قلتُ في نفسي شيئاً ، فقيلَ لي ما أنتَ ممَّنْ يُرضىٰ منكَ بمثلِهِ ، اذهبْ فاستحلَّهُ .

فأصبحتُ ، ولم أزلْ أتردَّدُ حتىٰ رأيتُهُ في موضعٍ يلتقطُ مِنَ الماءِ عندَ ترادِّ الماءِ أوراقاً مِنَ البقلِ ممَّا تساقطَ مِنْ غسلِ البقلِ ، فسلمتُ عليهِ ، فقالَ : تعودُ يا أبا

= وهـٰذا خلق نبوي شريف ؛ إذ لم يكن عليه الصلاة والسلام يُرىٰ ماداً رجليه بين أصحابه ، كما في « الشفا » (ص١٦٥) ، و« شرح المواهب اللدنية » (٦/ ٤٤) ، بل ذاك أدب مع الحضرة النبوية ؛ ففي « إمتاع الأسماع » (١/ ٢٤٠) أن سيدنا أسيد بن حضير رضي الله عنه رأىٰ عيينة بن حصن ماداً رجليه في حضرته عليه الصلاة والسلام ، فقال له : يا عين الهِجْرِس ؛ اقبض رجليك ، أتمدُّ رجليك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠/ ١٨٠) .

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص٥٩٤) .

القاسمِ ؟! فقلتُ : لا ، فقالَ غفرَ اللهُ لنا ولكَ[1] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ آدابِهم رضيَ اللهُ عنهم

والظاهرُ أنَّ مرادَ المؤلِّفِ بإساءةِ الأدبِ : ما كانَ فيهِ نوعٌ مِنَ الرعونةِ وإظهارِ الدعوىٰ ، واتصافِ العبدِ بصفاتِ المولىٰ ، وانبساطِهِ وإدلالِهِ في موقفِ الهيبةِ والحياءِ ، وما أشبهَ هـٰذا ؛ ممَّا يُخافُ علىٰ صاحبِهِ وقوعُ الاستدراجِ والمكرِ بهِ ، ولـٰكنْ ينبغي للمريدِ ألا يتهاونَ بشيءٍ مِنَ الآدابِ ولا يستحقرَها ؛ فإنَّ التهاونَ بذلكَ والاستحقارَ لهُ مِنْ مخامرةِ الجهلِ ، وعدمِ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا أقبحُ أنواعِ سوءِ الأدبِ

فإنْ وقعَتْ منهُ إساءةُ أدبٍ : فليكنْ خائفاً مِنْ ذلكَ ، مستعظماً للأمرِ فيهِ ، وليبادرْ إلى التوبةِ والاعتذارِ والتنصُّلِ منها ؛ خشيةَ أنْ تُوَجَّهَ إليهِ العقوبةُ مِنْ حيثُ لا يشعرُ .

وآكدُ ما ينبغي أنْ يجتنبَهُ المريدُ مِنْ مُقتضَياتِ هـٰذهِ الجملةِ التي ظهرَ لنا أنَّها مرادُ المؤلفِ مِنْ أنواعِ سوءِ الأدبِ أنْ يوطِّنَ خاطرَهُ علىٰ شيءٍ مِنَ الاعتراضِ على اللهِ تعالىٰ ، وتعاطي التدبيرِ معَهُ ، والتبرُّمِ بأحكامِهِ المؤلمةِ في نفسِهِ أو غيرِهِ ، وأنْ يسرِّحَ لسانَهُ بالشكوىٰ إلى الخَلْقِ والعيبِ لما يوافقُ هواهُ ، أو نقصٍ في نظرِهِ ممَّا ذرأَهُ الحقُّ ، فإنْ خطرَ ببالِهِ أو جرىٰ علىٰ لسانِهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ . . فليبادرْ إلى الاستغفارِ منهُ ، والتفصِّي عنهُ ، وليعلمْ أنَّ تشاغلَهُ بذلكَ مِنْ أعظمِ الحسناتِ ، وأفضلِ القرباتِ ؛ وذلكَ يدخِلُهُ في مقاماتِ الرضا ، ويوصلُهُ إلىٰ غايةِ النعيمِ والعطا ، كما أنَّ توطينَهُ عليهِ وتهاونَهُ بهِ مِنْ أعظمِ خطاياهُ وأكبرِ ذنوبِهِ ، ويؤدِّيهِ ذلكَ إلىٰ تسخُّطِ الأقدارِ ، والوقوعِ في دركاتِ النارِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ .

ضاعَ لبعضِ الصوفيَّةِ ولدٌ صغيرٌ ، فلم يُعرفْ لهُ خبرٌ ثلاثةَ أيامٍ ، فقيلَ لهُ : لو

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٤٠١) .

سألتَ اللهَ تعالىٰ أنْ يردَّهُ عليكَ ، فقالَ : اعتراضي عليهِ فيما قضىٰ أشدُّ مِنْ ذهابِ ولدي[1]

وقالَ بعضُ السادةِ : أذنبتُ ذنباً ، فأنا أبكي عليهِ منذُ ستينَ سنةً ، وكانَ قدِ اجتهدَ في العبادةِ لأجلِ التوبةِ مِنْ ذلكَ الذنبِ ، فقيلَ لهُ : وما هو ؟ قالَ : قلتُ مرَّةً لشيءٍ : ليتَهُ كانَ[2]

وقالَ بعضُ السلفِ : (لو قُرِضَ جسمي بالمقاريضِ كانَ أحبَّ إليَّ مِنْ أنْ أقولَ لشيءٍ قضاهُ اللهُ : ليتَهُ لم يقضِهِ)[3]

وقالَ بعضُهم : مرضَ الجنيدُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ : اللهمَّ ؛ عافِني ، فسمعَ هاتفاً يقولُ : ما لكَ والدخولَ بيني وبينَ ملكي ؟!

ومِنْ مقتضياتِها أيضاً : أنْ يعلقَ بقلبِهِ شيءٌ مِنَ الاعتراضِ على المشايخِ والأولياءِ ، وأنْ يتركَ تعظيمَهم واحترامَهم ، وألا يقبلَ إشارتَهم فيما يشيرونَ بهِ عليهِ ؛ فقد قالوا : (عقوقُ الأستاذِينَ لا توبةَ لها)[4] ، وقالوا أيضاً : (مَنْ قالَ لأستاذِهِ : لِمَ ؟ . . لا يفلحُ)[5]

---

(١) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١٠١٩) ، و« إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٤٧)

(٢) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١٠١٩) ، و« إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٤٧) وفيهما : (ليته لم يكن)

(٣) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١٠١٩) ، و« إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٤٨) .

(٤) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص٦٧١) ، وروى الإمام ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ١٧١) عن الأستاذ أبي سهل الصعلوكي : (عقوق الوالدين يمحوها الاستغفار ، وعقوق الأستاذين لا يمحوها شيء) ، ويحمل هـٰذا على الاستبعاد عادة .

(٥) القول للأستاذ أبي علي الدقاق ، حكاه عنه تلميذه الإمام القشيري في « رسالته » (ص٦٧٢) ، وقد قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٧/ ٥٨٦) : (سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمةُ الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه ، وألا يكون في قلبه إنكار لكلِّ ما يقوله ، ولا في لسانه مجادلة عليه ، فقال : حكيتُ لشيخي أبي القاسم الكركاني مناماً لي ، وقلت : رأيتك قلت لي كذا ، فقلت : لِمَ ذاكَ ؟ قال : فهجرني شهراً ولم يكلمني ، وقال : لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك . . لما جرىٰ ذلك علىٰ لسانك في المنام)

وقالَ أبو القاسمِ القشيريُّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (مَنْ صحبَ شيخاً مِنَ الشيوخِ ، ثم اعترضَ عليهِ بقلبِهِ . . فقد نقضَ عهدَ الصحبةِ ، ووجبَتْ عليهِ التوبةُ)[1]

(وإنْ بقيَ مِنْ أهلِ السلوكِ قاصدٌ لم يصلْ إلىٰ مقصودِهِ . . فليعلمْ أنَّ موجِبَ حجبِهِ اعتراضٌ خامرَ قلبَهُ علىٰ بعضِ شيوخِهِ في بعضِ أوقاتِهِ ؛ فإنَّ الشيوخَ بمنزلةِ السفراءِ للمريدينَ ، قالَ : وفي الخبرِ : « أنَّ ٱلشَّيْخَ فِي أَهْلِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ »)[2]

وكذلكَ مِنْ سوءِ أدبِهِ : تصدُّرُهُ للتعليمِ والهدايةِ ، وتصدِّيهِ للإمرةِ والولايةِ ، ومحبَّتُهُ للاستتباعِ والرئاسةِ ، وتربيتُهُ للجاهِ والحشمةِ والقبولِ بينَ الناسِ ، واستدعاؤُهُ بسرِّهِ أنْ يُكرمَ ويعظَّمَ ويُتبرَّكَ بهِ ، وتقبَّلَ يدُهُ ويُسارعَ في قضاءِ حوائجِهِ ، وذلكَ مِنْ أضرِّ الأشياءِ عليهِ ، وهو نتيجةُ استحسانِهِ لما هو عليهِ ، وعدمِ تفقُّدِهِ لعيوبِهِ واتهامِ نفسِهِ في كلِّ حالٍ مِنْ أحوالِهِ ، وذلكَ مذمومٌ منهُ

قالَ أبو عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا يرىٰ أحدٌ عيبَ نفسِهِ وهو يستحسنُ مِنْ نفسِهِ شيئاً ، وإنَّما يرىٰ عيوبَ نفسِهِ مَنْ يتَّهمُها في جميعِ الأحوالِ)[3]

وقالَ أبو عبدِ اللهِ السجزيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ استحسنَ شيئاً مِنْ أحوالِهِ في حالِ إرادتِهِ . . فسدَتْ إرادتُهُ ، إلا أنْ يرجعَ إلى ابتدائِهِ ، ويروضَ نفسَهُ ثانياً)[4]

وقالَ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السلميُّ رضيَ اللهُ عنهُ : سمعتُ جدِّي يقولُ : (آفةُ العبدِ رضاهُ عن نفسِهِ بما هو فيهِ)[5]

---

(١) قاله في « الرسالة القشيرية » (ص٦٧١) .

(٢) قاله في « لطائف الإشارات » (٣/٣٠٤) ، وانظر في الكلام على الأثر « المقاصد الحسنة » (٦٠٩) .

(٣) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٣١١) ، وأبو عثمان : هو الحيري .

(٤) أورده الإمام السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/٢٧٣) .

(٥) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٣٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص٢١٧) ، وجدُّه : هو أبو عمرو إسماعيل بن نجيد رحمه الله تعالىٰ .

فإنِ استشعرَ المريدُ مِنْ نفسِهِ شيئاً ممَّا ذكرناهُ.. فليبادرْ إلىٰ قطعِ موادِّ ذلكَ واستئصالِ عروقِهِ، مِنْ قبلِ أنْ يستحكمَ ذلكَ منهُ ويترسَّخَ، فبداياتُ الأمورِ هي التي ينبغي أنْ تُراعىٰ كثيراً

[أقوالُهم في سوءِ أدبِ المريدِ]

ومِنْ أنواعِ سوءِ أدبِ المريدِ المفضي إلىٰ عطبِهِ: نزولُهُ عن مُقتضَياتِ الحقيقةِ إلىٰ رُخَصِ الشريعةِ، فقد عدُّوا هـٰذا مِنَ الجناياتِ العظيمةِ الموجبةِ للانحطاطِ عنِ الرتبةِ، والبعدِ عن محلِّ القربةِ، ولهـٰذا قالوا: (إذا رأيتَ المريدَ انحطَّ عن رتبةِ الحقيقةِ إلىٰ رُخَصِ الشريعةِ.. فاعلمْ أنَّهُ نقضَ عهدَهُ معَ اللهِ، وفسخَ عقدَهُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ)[1]

وقالَ ابنُ خفيفٍ رضيَ اللهُ عنهُ: (الإرادةُ: استدامةُ الكدِّ، وتركُ الراحةِ؛ وليسَ شيءٌ أضرَّ على المريدينَ مِنْ مسامحةِ النفسِ في قبولِ الرخصِ والتأويلاتِ)[2]

وقالَ يوسفُ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ: (إذا رأيتَ المريدَ يشتغلُ بالرخصِ فاعلمْ أنَّهُ لا يجيءُ منهُ شيءٌ)[3]

وقالَ أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ شيبانَ: (مَنْ أرادَ أنْ يتعطَّلَ ويتبطَّلَ فليلزمِ الرخصَ)[4]، ويعني بالرخصِ ها هنا: ما كانَ مضادّاً لحالِ المريدِ؛ مِنْ تناولِ الشهواتِ واللذَّاتِ، والميلِ إلى المألوفاتِ والمعتاداتِ، والركونِ إلى الدَّعَةِ والراحاتِ، وارتكابِ الشبهاتِ والتأويلاتِ؛ فإنَّ حالَ المريدِ يقتضي مباينتَهُ لهـٰذا

---

(١) قاله الإمام القشيري في «لطائف الإشارات» (١/ ٧٢)

(٢) رواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص٤٦٥)، وأورده القشيري في «رسالته» (ص٢١٩)

(٣) رواه القشيري في «رسالته» (ص٤٦٩).

(٤) رواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص٤٠٣)، والقشيري في «رسالته» (ص٢٠٩).

كلِّهِ وإنْ كانَ بعضُ ذلكَ مباحاً في رخصةِ الشرعِ لعامَّةِ الناسِ

كانَ إبراهيمُ الخوَّاصُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ (ألا إنَّ هـٰذهِ الشهواتِ التي أظلمَتْ قلوبَ المتعبدينَ بعدَ صفاءِ نورِها ، وفتَّرَتْ أبدانَهم بعدَ اجتهادِها ، وحجبَتْ قلوبَهم بعدَ قُربِها ، وأطالَتْ آمالَهم بعدَ قصرِها ، وأَنِسُوا بالمخلوقينَ بعدَ الهربِ منهم ، وتوطَّؤُوا الفُرُشَ بعدَ التركِ لها ، فسقَتْهمُ الدنيا بكأسِ سُمِّها ، فنظروا إلىٰ ظاهرِها بعدَ باطنِها ، فناموا بعدَ السهرِ ، وشبعوا بعدَ الجوعِ ، واكتسَوْا بعدَ العُرْيِ)

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داودَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : أنِّي إنَّما خلقْتُ الشهواتِ لضَعَفَةِ خلقي ، فإيَّاكَ أنْ تعلِّقَ قلبَكَ منها بشيءٍ ، فأيسرُ ما أعاقبُكَ بهِ أنْ أنسخَ حلاوةَ حبِّي مِنْ قلبِكَ)[1]

وفي أخبارِ داودَ عليهِ السلامُ (يا داودُ ؛ تمسَّكْ بكلامي ، وخُذْ مِنْ نفسِكَ لنفسِكَ ، لا تُؤْتَيَنَّ منها فأحجبَ محبَّتي عنكَ ، اقطعْ شهوتَكَ لي ؛ فإنِّي إنَّما أبحتُ الشهواتِ لضَعَفَةِ خلقي ، ما بالُ الأقوياءِ أنْ ينالوا الشهواتِ ؟! فإنَّها تنقصُ حلاوةَ مناجاتي ؛ فإنِّي لم أرضَ الدنيا لحبيبي ونزَّهْتُهُ عنها

يا داودُ ؛ لا تجعلْ بيني وبينَكَ عالماً سكرانَ بحبِّها ، يحجبُكَ بسُكْرِهِ عن محبَّتي ، أولـٰئكَ قُطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي المريدينَ ، استعنْ علىٰ تركِ الشهواتِ بإدمانِ الصومِ

يا داودُ ؛ تحبَّبْ إليَّ بعداوةِ نفسِكَ ؛ امنعْها الشهواتِ . . أنظرْ إليكَ ، وترى الحُجُبَ بيني وبينَكَ مرفوعةً)[2]

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رضيَ اللهُ عنهُ : (لنْ ينالَ الرجلُ درجةَ الصالحينَ حتىٰ يجوزَ ستَّ عقباتٍ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٠) .
(٢) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٤٦٧)

أولُها : يغلقُ بابَ العزِّ ، ويفتحُ بابَ الذلِّ

والثاني يغلقُ بابَ النعمةِ ، ويفتحُ بابَ الشدَّةِ

والثالثُ : يغلقُ بابَ الراحةِ ، ويفتحُ بابَ الجهدِ .

والرابعُ : يغلقُ بابَ النومِ ، ويفتحُ بابَ السهرِ

والخامسُ : يغلقُ بابَ الغنىٰ ، ويفتحُ بابَ الفقرِ

والسادسُ يغلقُ بابَ الأملِ ، ويفتحُ بابَ الاستعدادِ للموتِ)[١]

وقالَ إبراهيمُ الخواصُ رضيَ اللهُ عنهُ : كنتُ في جبلِ اللُّكامِ ، فرأيتُ رُمَّاناً فاشتهيتُهُ ، فدنوتُ منهُ فأخذتُ منهُ واحدةً ، فشققتُها فوجدتُها حامضةً ، فمضيتُ وتركتُ الرمَّانَ ، فرأيتُ رجلاً مطروحاً قدِ اجتمعَ عليهِ الزنابيرُ ، فقلتُ السلامُ عليكَ ، فقالَ وعليكَ السلامُ يا إبراهيمُ ، فقلتُ : كيفَ عرفتَني ؟ فقالَ مَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ لم يخفَ عليهِ شيءٌ ، فقلتُ أرىٰ لكَ حالاً معَ اللهِ ، فلو سألتَهُ أنْ يحميَكَ ويقيَكَ مِنْ هـٰذهِ الزنابيرِ ، فقالَ : وأرىٰ لكَ حالاً معَ اللهِ تعالىٰ ، فلو سألتَهُ أنْ يحميَكَ ويقيَكَ مِنْ شهوةِ الرمَّانِ ؛ فإنَّ لذعَ الرمَّانِ يجدُ الإنسانُ ألمَهُ في الآخرةِ ، ولذعَ الزنابيرِ يجدُ ألمَهُ في الدنيا[٢]

وقالَ السريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ نفسي تطالبُني منذُ ثلاثينَ سنةً أو أربعينَ سنةً أنْ أغمسَ جزرةً في دِبْسٍ ، فما أطعمتُها)[٣]

فلمَّا كانَ تركُ الشهواتِ والتنعُّماتِ مِنْ شأنِ المريدِ ومِنْ مقتضىٰ حالِهِ . . لزمَهُ الوفاءُ بهِ ، وكانَ العملُ علىٰ خلافِهِ نقضاً وفسخاً كما تقدَّمَ[٤]

---

(١) رواه الإمام القشيري في « رسالته » (ص١٠٢) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٥٣٥٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٩١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١١٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤١٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٩٢) .

(٤) انظر (ص ٣٨١) .

قالَ جعفرُ بنُ نُصيرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دفعَ إليَّ الجنيدُ درهماً وقالَ : اشترِ بهِ التينَ الوزيريَّ ، فاشتريتُهُ ، فلمَّا أفطرَ أخذَ واحدةً ووضعَها في فيهِ ، ثم ألقاها وبكىٰ ، وقالَ : احملْهُ ، فقلتُ لهُ في ذلكَ ! فقالَ : هتفَ في قلبي هاتفٌ : أما تستحيي ؟! شهوةً تركتَها مِنْ أجلي ثم تعودُ إليها ؟![1]

وعن شقيقِ بنِ إبراهيمَ قالَ : لقيتُ إبراهيمَ بنَ أدهمَ رضيَ اللهُ عنهُ بمكةَ في سوقِ الليلِ عندَ مولدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهو جالسٌ ناحيةً مِنَ الطريقِ يبكي ، فعدلتُ إليهِ وجلسْتُ عندَهُ ، وقلتُ : أيُّ شيءٍ هٰذا البكاءُ يا أبا إسحاقَ ؟ فقالَ : خيرٌ وعافيةٌ ، فعاودتُهُ مرَّةً واثنتينِ وثلاثاً ، فلمَّا أكثرتُ عليهِ قالَ : يا شقيقُ ؛ استرْ عليَّ ، فقلتُ : يا أخي ؛ قُلْ ما شئتَ .

قالَ لي : اشتهَتْ نفسي سِكْباجاً[2] ، فمنعتُها جهدي ، فلمَّا كانَ البارحةُ كنتُ جالساً وقد غلبَني النعاسُ ، فإذا أنا بفتىً شابٍّ بيدِهِ قدحٌ أخضرُ يعلو منهُ بخارٌ ورائحةُ سِكْباجٍ ، قالَ : فاجتمعتُ بهمَّتي عليهِ[3] ، فقرُبَ منِّي وقالَ : يا إبراهيمُ ؛ كُلْ ، قلتُ : ما آكلُ شيئاً تركتُهُ للهِ تعالىٰ ، فقالَ لي : فإذا أطعمَكَ اللهُ تأكلُ ؟ فما كانَ لي جوابٌ إلا أنْ بكيتُ ، فقالَ لي : يرحمُكَ اللهُ ، كُلْ .

قالَ إبراهيمُ : فقلتُ لهُ : قد أُمرنا ألا نطرحَ في وعائِنا إلا مِنْ حيثُ نعلمُ ، فقالَ لي : كُلْ يرحمُكَ اللهُ ؛ فإنَّما أُعطيتُهُ وقيلَ لي : يا خضرُ ؛ اذهبْ بهٰذا وأطعمْ نفسَ إبراهيمَ بنِ أدهمَ ، فقد رحمَها اللهُ مِنْ طولِ صبرِها علىٰ ما يحملُها مِنْ منعِها ، اعلمْ يا إبراهيمُ : أنِّي سمعتُ الملائكةَ يقولونَ : مَنْ أُعْطِيَ فلم يأخذْ طلبَ فلم يُعْطَ ، فقلتُ : فإنْ كانَ كذلكَ فهـٰأنا بينَ يديكَ ، لا أحلُّ العقدَ معَ اللهِ تعالىٰ ، ثم التفتُّ

---

(١) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٣٩٤) .

(٢) السِّكْباج : لحمٌ يطبخ بخلٍّ .

(٣) كذا في النسخ المعتمدة ، وفي الأصول المنقول عنها : (فجمعتُ نَهْمتي عنه) .

فإذا أنا بفتىً آخرَ ناولَهُ شيئاً وقالَ لهُ : يا خضرُ ؛ لقِّمْهُ أنتَ ، فلم يزلْ يلقِّمُني حتىٰ شبعتُ ، فانتبهتُ وحلاوتُهُ في فمي

قالَ شقيقٌ رضيَ اللهُ عنهُ : فقلتُ أرني كفَّكَ ، فأخذتُ كفَّهُ بكفِّي فقبَّلتُها وقلتُ يا مَنْ يطعمُ الجياعَ الشهواتِ إذا صحَّحوا المنعَ ، يا مَنْ يقدحُ في الضميرِ اليقينَ ، يا مَنْ سقىٰ قلوبَهم مِنْ محبَّتِهِ ؛ أترىٰ لشقيقٍ عندَكَ حالاً ؟ ثم رفعتُ يدَ إبراهيمَ إلى السماءِ فقلتُ إلٰهي ؛ بقدْرِ هٰذهِ الكفِّ وبقدْرِ صاحبِها ، وبالجودِ الذي وُجِدَ منكَ ؛ جُدْ علىٰ عبدِكَ الفقيرِ بفضلِكَ وإحسانِكَ ورحمتِكَ وإنْ لم يستحقَّ ذلكَ ، قالَ : فقامَ إبراهيمُ رضيَ اللهُ عنهُ ومشىٰ حتىٰ دخلَ المسجدَ الحرامَ(١)

وقالَ عتبةُ الغلامُ لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ رضيَ اللهُ عنهُما إنَّ فلاناً يصفُ مِنْ قلبِهِ منزلةً ما أعرفُها ، قالَ لأنَّكَ تأكلُ معَ خبزِكَ تمرةً ، وهو لا يزيدُ على الخبزِ شيئاً ، فقالَ : إنْ تركتُ أكْلَ التمرِ عرفتُ تلكَ المنزلةَ ؟ قالَ : نعم وغيرَها ، فأخذَ يبكي ، فقالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ لا أبكى اللهُ عينيكَ ، أعلى التمرِ تبكي ؟! فقالَ عبدُ الواحدِ دعْهُ ؛ فإنَّ نفسَهُ قد عرفَتْ صِدْقَ عزمِهِ في التركِ ، هو إذا تركَ شيئاً لم يعاودْ فيهِ أبداً(٢)

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ اشتهىٰ أبو سليمانَ الدارانيُّ رغيفاً حارّاً بملحٍ ، فجئتُ بهِ إليهِ ، فعضَّ منهُ عضَّةً ، ثم طرحَ الرغيفَ وقالَ : عُجِّلَتْ إليَّ شهوتي ، بعدَ إطالةِ جهدي وشقوتي ، قد عزمتُ على التوبةِ فأقلْني ، قالَ أحمدُ فما رأيتُهُ أكلَ الملحَ حتىٰ لقيَ اللهَ تعالىٰ(٣)

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٣٢٧) ، وأورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٣٣٤) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٣٩٥)

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ١٣٠) ، وأورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٣٣٤) .

وقالَ أبو بكرِ بنُ الجَلّا : أعرفُ إنساناً تقولُ لهُ نفسُهُ : أنا أصبرُ لكَ علىٰ طيِّ عشرةِ أيامٍ وأطعمْني بعدَ ذلكَ شهوةً أشتهيها ، فيقولُ لها : لا أريدُ أنْ أطويَ عشرةَ أيامٍ ، ولـٰكنِ اتركي هـٰذهِ الشهوةَ[1]

وقالَ أبو سليمانَ : (تركُ شهوةٍ مِنْ شهواتِ النفسِ أنفعُ للقلبِ مِنْ صيامِ سنةٍ وقيامِها)[2]

وقالَ أبو حامدٍ الغزاليُّ : (وقدِ اشتدَّ خوفُ السلفِ مِنْ تناولِ لذيذِ الأطعمةِ ، وتمرينِ النفسِ عليها ، ورأَوا أنَّ ذلكَ علامةُ الشقاوةِ ، ورأَوا أنَّ منعَ اللهِ منهُ غايةُ السعادةِ ، حتىٰ رُوِيَ عن وهبِ بنِ منبهٍ قالَ : التقىٰ ملكانِ في السماءِ الرابعةِ ، فقالَ أحدُهما للآخرِ : مِنْ أينَ ؟ قالَ : أُمرتُ أنْ أسوقَ حوتاً مِنَ البحرِ اشتهاهُ فلانٌ اليهوديُّ ، وقالَ الآخرُ : أُمرتُ بإهراقِ زيتٍ اشتراهُ فلانٌ العابدُ ، قالَ : وهـٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ تيسيرَ الشهواتِ ليسَ مِنْ علاماتِ الخيرِ)[3]

قال الشيخُ أبو حامدٍ : (**والأصلُ المهمُّ في المجاهدةِ** : الوفاءُ بالعزمِ ، فإذا عزمَ علىٰ تركِ شهوةٍ فقد تتيسَّرُ أسبابُ ذلكَ ، ويكونُ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالى ابتلاءً واختباراً ، فينبغي أنْ يصبرَ ويستمرَّ ؛ فإنَّهُ إنْ عوَّدَ نفسَهُ كسْرَ العزمِ ألفَتْ ذلكَ وفسدَتْ ، وإذا اتفقَ كسرُ عزمٍ فينبغي أنْ يلزمَ نفسَهُ عقوبةً عليهِ كما ذكرناهُ في معاقبةِ النفسِ مِنْ كتابِ « المراقبةِ »[4] ، فإذا لم يخوِّفِ النفسَ بعقوبةٍ .. غلبَتْهُ ، وحسَّنَتْ عندَهُ تناولَ الشهوةِ ، وتفسدُ بهِ الرياضةُ عليهِ بالكليَّةِ)[5] ، هـٰذا كلامُ الإمامِ أبي حامدٍ الغزاليِّ ، وهو حسنٌ ، ومعناهُ صحيحٌ مجرَّبٌ ، فلتعملْ عليهِ أيُّها المريدُ .

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٣٩٤) .
(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٣٩٤) .
(٣) قاله في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٣٣٠)
(٤) انظر « إحياء علوم الدين » (٩/ ١٦٦) .
(٥) قاله في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٢٢١) .

وقد يعجِّلُ اللهُ تعالىٰ لبعضِ هـٰؤلاءِ العقوبةَ رحمةً لهُ ومِنَّةً عليهِ .

قالَ أبو ترابٍ النخشبيُّ : ما تمنَّتْ نفسي شهوةً مِنَ الشهواتِ إلا مرَّةً واحدةً ؛ تمنيتُ خبزاً وبيضاً وأنا في سفرٍ ، فعدلتُ إلىٰ قريةٍ ، فقامَ واحدٌ وتعلَّقَ بي وقالَ : هـٰذا كانَ معَ اللصوصِ ، فضربوني سبعينَ دِرَّةً ، ثم عرفَني رجلٌ منهم فقالَ : هـٰذا أبو ترابٍ النخشبيُّ ، فاعتذروا إليَّ ، فحملَني رجلٌ منهم إلىٰ منزلِهِ وقدَّمَ إليَّ خبزاً وبيضاً ، فقلتُ لنفسي : كُلي بعدَ سبعينَ دِرَّةً[1]

وقالَ بعضُهم : اشتهى أبو الخيرِ العسقلانيُّ السمكَ سنينَ ، ثم ظهرَ لهُ ذلكَ مِنْ موضعٍ حلالٍ ، فلمَّا مدَّ يدَهُ إليهِ ليأكلَ أخذَتْ شوكةٌ مِنْ عظامِهِ إصبعَهُ ، فذهبَتْ في ذلكَ يدُهُ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ هـٰذا لمَنْ مدَّ يدَهُ بشهوةٍ إلىٰ حلالٍ ، فكيفَ بمَنْ مدَّ يدَهُ بشهوةٍ إلىٰ حرامٍ ؟![2]

وقالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ : كنتُ جائعاً في الطريقِ ، فوافيت الرَّيَّ ، فخطرَ ببالي أنَّ لي بها معارفَ ، فإذا دخلتُها أضافوني وأطعموني ، فلمَّا دخلتُ البلدَ رأيتُ فيهِ منكراً احتجتُ أنْ آمرَ فيهِ بالمعروفِ ، فأخذوني وضربوني ، فقلتُ في نفسي : مِنْ أينَ أصابَني هـٰذا الضربُ علىٰ جوعي ؟ فنوديتُ في سرِّي : إنَّما أصابَكَ ذلكَ لأنَّكَ سكنتَ إلىٰ معارفِكَ بقلبِكَ ، وقلتَ : إنَّهم يطعموني إذا دخلتُ البلدَ[3]

وحُكِيَ عن إبراهيمَ بنِ شيبانَ أنَّهُ قالَ : كنتُ بحلبَ ، واشتهيتُ شُبْعةً مِنَ الخبزِ والعدسِ ، فاتفقَ ذلكَ ، فأكلتُ حتىٰ شبعتُ ، فرأيتُ علىٰ بابِ المسجدِ قواريرَ معلَّقةً شبهَ نموذجاتٍ ، فتوهَّمْتُها خلاً ، فقالَ لي قائلٌ : أمَا تنظرُ إليها ؟! إنَّها خمرٌ ، فقلتُ : لزمَني فرضٌ ، فدخلتُ الحانوتَ ، فلم أزلْ أصبُّ دنّاً دنّاً حتىٰ أتيتُ على الجميعِ ، فأخذوني وضربوني مئتي خشبةٍ ، وطرحوني في السجنِ أربعةَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٧) ، والقشيري في « رسالته » (ص١٤٦)

(٢) رواه الإمام القشيري في « رسالته » (ص٣٧٥) .

(٣) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١١٩) .

أشهرٍ ، حتىٰ دخلَ أستاذي أبو عبدِ اللهِ المغربيُّ البلدَ ، فسمعَ بحالي ، فتشفَّعَ إليَّ ، فلمَّا وقعَ بصرُهُ عليَّ قالَ : ما شأنُكَ ؟ قلتُ : شُبْعةُ خبزٍ وعدسٍ ، وضرْبُ مئتي خشبةٍ ، وسجْنُ أربعةِ أشهرٍ ، فقالَ لي : نجوتَ مجَّاناً[1] ؛ أي : وردَتْ عقوبةُ هـٰذهِ الأكلةِ علىٰ ظاهرِكَ ، ولم تقدحْ فيما كنتَ فيهِ مِنْ سرائرِكَ ، فكانَ ذلكَ رِفْقاً مِنَ اللهِ بكَ .

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ : (وما أصدقَ ما قالَ ! فإنَّ مَنْ أُدِّبَ في دنياهُ فيما يتعاطاهُ مِنْ متابعةِ هواهُ . . فقد خُفِّفَ عنهُ في عقباهُ ، بل ظهرَ بالتأدُّبِ جوهرُهُ ومعناهُ)[2]

وحكايةُ خيرٍ النسَّاجِ المشهورةُ مِنْ معنىٰ ما ذكرناهُ ، فانظرْها ففيها عبرةٌ للمعتبِرينَ :

قالَ الحافظُ أبو نعيمٍ : (حدَّثني جعفرُ بنُ محمدِ بنِ نصرٍ في كتابِهِ قالَ : سألتُ خيراً النسَّاجَ : أكانَ النسجُ حرفتَكَ ؟ قالَ : لا ، قلتُ : فمِنْ أينَ سُمِّيتَ بهِ ؟ قالَ : عاهدتُ اللهَ تعالىٰ واعتقدتُ ألا آكلَ الرُّطَبَ أبداً ، فغلبَتْني نفسي يوماً ، فأخذتُ نصفَ رطلٍ ، فلما أكلتُ واحدةً إذا رجلٌ نظرَ إليَّ وقالَ : يا خيرُ ؛ أينَ هربتَ منِّي ؟! وكانَ لهُ عبدٌ اسمُهُ خيرٌ ، فوقعَ عليَّ شبهُهُ وصورتُهُ ، فخنقَني ، فاجتمعَ الناسُ فقالوا : هـٰذا واللهِ غلامُكَ خيرٌ ، فبقيتُ متحيِّراً وعلمتُ بماذا أُخذتُ ، وعرفتُ جنايتي .

وحملَني إلىٰ حانوتِهِ الذي كانَ فيهِ ينسجُ غلمانُهُ ، وقالوا : يا عبدَ السوءِ ؛ أتهربُ مِنْ مولاكَ ؟! ادخلْ واعملْ عملَكَ الذي كنتَ تعملُ ، وأمرَني بعملِ الكرباسِ ، فدلَّيتُ رجلي علىٰ أنْ أعملَ ، فأخذتُ بيدي آلتَهُ ، فكأنِّي كنتُ أعملُ

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٧١) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص٣٩١) ، والشُّبعة ـ بضم الشين ـ : قدر ما يشبع مرَّةً .

(٢) قاله في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص٤٤) .

سنينَ ، فبقيتُ معَهُ أشهراً أنسجُ لهُ ، فقمتُ ليلةً وتمسَّحْتُ ، وقمتُ إلىٰ صلاةِ الغداةِ ، فسجدتُ وقلتُ في سجودي : إلـٰهي ؛ لا أعودُ إلىٰ ما فعلتُ ، فأصبحتُ فإذا الشَّبَهُ قد ذهبَ عنِّي ، وعدتُ إلىٰ صورتي التي كنتُ عليها ، فأُطلقتُ ، فثبتَ عليَّ هـٰذا الاسمُ ، فكانَ سببَ النسجِ اتباعي شهوةً عاهدتُ اللهَ تعالىٰ ألا آكلَها ، فعاقبَني بما سمعتَ)[1]

وفي بعضِ الأخبارِ عنِ اللهِ تعالىٰ : (إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعالمِ إذا آثرَ شهوتَهُ علىٰ محبَّتي . . أنْ أحرمَهُ لذيذَ مناجاتي)[2]

وسيأتي إنْ شاءَ اللهُ كيفيةُ مجاهدةِ النفسِ عندَ قولِهِ : (لولا ميادينُ النفوسِ ما تحقَّقَ سيرُ السائرينَ)[3]

ولهـٰذا المعنىٰ كرهوا لهُ التزوُّجَ مِنْ غيرِ ضرورةٍ محقَّقةٍ ؛ لأنَّهُ إنَّما يقصدُ بذلكَ قضاءَ شهوتِهِ وبلوغَ نهمتِهِ ، وذلكَ في الضررِ بهِ بمنزلةِ السمِّ القاتلِ ، وقد قالوا : (مَنْ وافقَ شهوتَهُ عُدِمَ صفوتَهُ)[4]

وقالَ بعضُهم : (مَنْ هَمَّ بشيءٍ ممَّا أباحَهُ العلمُ تلذُّذاً . . عُوقبَ بتضييعِ العمرِ ، وقسوةِ القلبِ ، وتعبِ الهمِّ بالدنيا)[5]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (ثلاثٌ مَنْ طلبَهُنَّ فقد ركنَ إلى الدنيا : مَنْ طلبَ معاشاً ، أو تزوَّجَ امرأةً ، أو كتبَ الحديثَ)[6]

---

(١) رواه في « حلية الأولياء » (١٠/ ٣٠٧) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٩٦) .

(٣) انظر (ص ٨٩٦) .

(٤) قاله القشيري في « رسالته » (ص٧٨٧) .

(٥) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٩٧) .

(٦) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٤٣٤) ، والمراد بالركون إلى الدنيا بكتابة الحديث : كتابته محبةً لاجتماع الناس إليه ، ولشهوة التحديث أمامهم ، ومن حدَّث وهو يقصد شيئاً من هـٰذا . . فقد خلط سيئاً بصالح ، فكيف بمن تمحَّضت نيته لذينِكَ الأمرينِ ؟! وخسرَ امرؤٌ =

وقالَ : (ما رأيتُ أحداً مِنْ أصحابِنا تزوَّجَ فثبتَ علىٰ مرتبتِهِ)[1]

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ يقولُ : (مَنْ تعوَّدَ أفخاذَ النساءِ لا يفلحُ)[2]

وقيلَ لبعضِهم لمَ لا تتزوجُ ؟ فقالَ المرأةُ لا تصلحُ إلا للرجالِ ، وأنا ما بلغتُ مبلغَ الرجالِ[3]

ثم فيهِ مِنْ مكابدةِ أمرِ غيرِهِ ، ومراعاةِ توفيرِ حقوقِهِ ، ومعاناةِ أخلاقِهِ ، واتباعِ مرضاتِهِ . . ما يشوِّشُ على المريدِ حالَهُ ، ويكدِّرُ عليهِ وقتَهُ ، وقد كانَ لهُ في معاناةِ أمرِ نفسِهِ أعظمُ شاغلٍ عنْ أنْ ينضافَ إلىٰ نفسِهِ نفسٌ أخرىٰ ، معَ ما يتسلَّطُ علىٰ باطنِهِ مِنْ خوفِ الفقرِ ، ومحبةِ الجمعِ والمنعِ ، وما يرتكبُهُ بسببِ ذلكَ مِنَ التأويلاتِ

= ظنَّ بالصوفية كتمانَ العلم حين سماعه لأمثال هـٰذه الأقوال ، دون أن يعنِّيَ نفسه بالاستفسار والسؤال ، ولم يعلم أن ترك التحديث قد يكون لأغراض شرعية شريفة ؛ منها ما ذُكر ، وتركُهُ هنا واجبٌ شرعاً ، اللهم إلا أن يكون تعيَّنَ عليه ، وهـٰذا ما لا يكاد يوجد في هـٰذه الأزمنة ؛ كما قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه فيما رواه عنه البخاري (١١٨) : (ولولا آيتان في كتاب الله ما حدَّثت حديثاً) ثم تلا قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩]

أما عند صفاء النية وخلوصها : فاذكر ما رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٥٥) عن شيخ الطائفة الإمام الجنيد أنه قال : (من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث . . لا يقتدىٰ به في هـٰذا الأمر) ، **ولا يخفاك أن أعلام المحدثين من أعلام الصوفية** ، وفي « تهذيب الكمال » (١١/ ٣٦٦) : (جاء سهل بن عبد الله التستري إلىٰ أبي داود السجستاني رحمهما الله ، فقيل : يا أبا داود ؛ هـٰذا سهل بن عبد الله جاءك زائراً ، فرحَّب به وأجلسه ، فقال له سهل : يا أبا داود ؛ لي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قال : حتىٰ تقول : قد قضيتها مع الإمكان ، قال : نعم ، قال : أخرج إليَّ لسانك الذي تحدِّث به أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أقبِّلَهُ ، قال : فأخرج إليه لسانه فقبَّله)

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٦٢٤)

(٢) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٦٣) ، وقال أول الباب : (المستحبُّ لطالب العلم أن يكون عزباً ما أمكنه ذلك ؛ لئلا يقتطعه الاشتغال بحقوق الزوجة ، والاهتمام بالمعيشة عن الطلب)

(٣) أورده الإمام السهروردي في « عوارف المعارف » (١/ ٢٣١)

والرخصِ ، وذلكَ كلُّهُ مضادٌّ لحالِ المريدِ ، وقد قالوا (إذا تزوَّجَ الصوفيُّ فقد ركبَ السفينةَ ، فإذا وُلِدَ لهُ فقد غرقَتِ السفينةُ)[1]

وكانَ بشرٌ الحافي يقولُ (لو كنتُ أعولُ دجاجةً خفتُ أنْ أكونَ جِلْوازاً على الجسرِ)[2]

وفي الخبرِ في فتنِ آخرِ الزمانِ قالَ : « وَفِي ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ حَلَّتِ ٱلْعُزْبَةُ » ، فقيلَ وكيفَ ؟ قالَ : « يُعَيِّرُونَهُ بِٱلْفَقْرِ ، فَيَتَكَلَّفُ مَا لا يُطِيقُ ، فَيُورِدُهُ مَوَارِدَ ٱلْهَلَكَةِ »[3]

وفي الخبرِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَيْرُكُمْ بَعْدَ ٱلْمِئَتَيْنِ رَجُلٌ خَفِيفُ ٱلْحَاذِ » ، قيلَ يا رسولَ اللهِ ؛ وما خفيفُ الحاذِ ؟ قالَ « ٱلَّذِي لا أَهْلَ لَهُ وَلا وَلَدَ »[4]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (إيَّاكم والاستماعَ إلى النساءِ والميلَ إليهنَّ[5] ؛ فإنَّ النساءَ مُبعِداتٌ مِنَ الحكمةِ ، قريباتٌ مِنَ الشيطانِ ، وهنَّ مصايدُهُ وحظُّهُ مِنْ بني آدمَ ، فمَنْ عطفَ إليها بكليَّتِهِ فقدِ انقادَ إلى حظِّ الشيطانِ ، ومَنْ حادَ عنها يئسَ

---

(١) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٦٧) عن إبراهيم بن أدهم بنحوه .

(٢) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٦٢) بنحوه ، **والجلواز** : الشرطي ، أراد أنه سيضطر لكسب المال الحرام ، أو أنه سيكون ظالماً

(٣) رواه الخطابي في « العزلة » (ص١٠) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤٣٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(٤) رواه الخطابي في « العزلة » (ص٣٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٨٦٧) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه ، قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٣/ ٤٩٧) : (ضربه مثلاً لقلة ماله وعياله ، ومن زعم نسخه لم يصب ؛ لأن النسخ خاصٌّ بالطلب ، ولا يدخل للخبر ، ولا منافاة بينه وبين خبر : « تناكحوا تناسلوا » لأن الأمر بالنكاح عام لكل أحد بشروط ، وهـٰذا الخبر فيمن لم تتوفر فيه الشروط ، وخاف من النكاح التورط فيما يخاف منه على دينه ؛ بسبب طلب المعيشة ، وبذلك حصل الجمع بين الحديثين) ، **والحاذ** : الحال أو الظهر ، والمراد : قلة اللحم .

(٥) في (ج ، و) : (إياكم والاستمتاع بالنساء)

منهُ ، وما مالَ الشيطانُ إلىٰ أحدٍ كميلِهِ إلىٰ مَنِ استُرِقَّ بالنساءِ ، وإنَّ الشرَّ معَهنَّ حيثُ كُنَّ ، فإذا رأيتم في وقتِكم مَنْ قد ركنَ إليهنَّ فايئسوا منهُ ، فقيلَ لهُ : فحديثُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاثٌ »[1] ، فذكرَ النساءَ ! فقالَ : النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معصومٌ ، وقد بلغَكم ما كانَ فيهِ معَهنَّ ، هي عدوَّةُ الرجلِ ظاهراً وباطناً[2] ؛ إنْ أظهرَتْ لهُ المحبةَ أهلكَتْهُ ، وإنْ أضمرَتْها لهُ أغوتْهُ ، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَهنَّ فتنةً ، فنعوذُ باللهِ مِنْ فتنتهنَّ) انتهىٰ .

وقالَ حذيفةُ المرعشيُّ : (كانَ ينبغي للرجلِ لو خُيِّرَ بينَ أنْ تُضربَ عنقُهُ وبينَ أنْ يتزوَّجَ امرأةً في الفتنةِ . . لاختارَ ضربَ العنقِ علىٰ تزويجِ امرأةٍ في الفتنةِ)[3] ، وإنَّما قالَ ذلكَ لما يؤولُ أمرُ المتزوِّجِ إليهِ مِنِ اكتسابِ الحرامِ وارتكابِ الآثامِ في زمانِ الفتنةِ ، وضربُ العنقِ أحسنُ حالاً وأحمدُ عاقبةً مِنَ التعرُّضِ لارتكابِ شيءٍ مِنْ معاصي اللهِ تعالىٰ . فإنْ قارفَ شيئاً مِنْ ذلكَ المريدُ فهو داءٌ عضالٌ في حقِّهِ ؛ فقد قالوا : (زلَّةٌ بعدَ الإرادةِ أقبحُ مِنْ سبعينَ زلَّةً قبلَ الإرادةِ)[4]

وفي المثلِ : (مَنْ عُرِفَ بالخيانةِ لا يُعتمدُ عليهِ بالأمانةِ)[5]

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٦١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، ولفظه : « حُبِّبَ إليَّ مِنَ الدنيا : النساءُ والطيبُ ، وجُعِلَ قرةُ عيني في الصلاةِ » ، قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٣/ ٣٧٠) : (ومن زاد ـ كالزمخشري والقاضي ـ لفظ « ثلاث » . . فقد وهم ، قال الحافظ العراقي في « أماليه » : لفظ « ثلاث » ليست في شيء من كتب الحديث ، وهي تفسد المعنىٰ) .

(٢) روى البخاري (٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما : « ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ مِنَ النساءِ » ، وهو معنىٰ قوله بعدُ : (وإن الله عز وجل جعلهن فتنة) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٦٩) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٠٤) عن يحيى بن معاذ رحمه الله تعالىٰ ، وفيه (التوبة) بدل (الإرادة) ، وقال في « لطائف الإشارات » (١/ ١٧٢) : (الزلة الواحدة بعد كشف البرهان أقبح من كثير منها قبل ذلك) .

(٥) قاله الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (١/ ١٧٢) .

وقالَ بعضُ الأنبياءِ في مناجاتِهِ لربِّهِ : لو عفوتَ عن فلانٍ ذنوبَهُ بعدَ عظيمِ نِعَمِكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : ليسَ الذنبُ في القربِ كالذنبِ في البعدِ[1]

وسُئِلَ بعضُهم : هل يجدُ العاصي حلاوةَ الطاعةِ ؟ فقالَ : لا ، ولا مَنْ همَّ بمعصيةٍ[2]

ومِنْ عظيمِ سوءِ أدبِ المريدِ : أنْ يميلَ إلىٰ أهلِ الدنيا ، وأنْ يتقرَّبَ منهم ، وأنْ يصاحبَهم .

قالَ الإمامُ القشيريُّ (ومِنْ شأنِ المريدِ التباعدُ عن أبناءِ الدنيا ؛ فإنَّ صحبتَهم سمٌّ مجرَّبٌ ؛ لأنَّهم ينتفعونَ بهِ ، وهو ينتقصُ بهم ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف : ٢٨])[3]

وقد تقدَّمَ مِنْ كلامِ المؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ : (لا تصحبْ مَنْ لا ينهضُكَ حالُهُ)[4]

ومِنْ ذلكَ : معاشرةُ الأحداثِ والشبَّانِ ، وقبولُ إرفاقِ النِّسْوانِ[5] ؛ فإنْ تعرَّضَ لاستجلابِ ذلكَ منهنَّ فهو أشدُّ .

قالَ يوسفُ بنُ الحسينِ الرازيُّ : (رأيتُ آفاتِ الصوفيَّةِ في صحبةِ الأحداثِ ، ومعاشرةِ الأضدادِ ، ورفقِ النسوانِ)[6]

وقالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ (ومِنْ أصعبِ الآفاتِ في هٰذهِ الطريقةِ

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب : ٣٠] .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٨٣٣) عن وهيب بن الورد رحمه الله تعالىٰ .

(٣) هي آخر وصية في « رسالته » (ص٧٨٩) ، وقال بعد ما هنا : (وإن الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقرُّباً إلى الله تعالىٰ ، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققاً بالله عز وجل)

(٤) انظر (ص ٣٠٧) .

(٥) الإرفاق : العطاء والإحسان ، وبفتح الهمزة : جمع رِفْق ، ونقل الإمام القشيري في « رسالته » (ص٢٠٦) عن مظفر القرميسيني قوله : (أخسُّ الإرفاق : إرفاق النسوان علىٰ أي وجه كان)

(٦) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٤٠) .

صحبةُ الأحداثِ ، ومَنِ ابتلاهُ اللهُ بشيءٍ مِنْ ذلكَ فبإجماعٍ مِنَ الشيوخِ أنَّ ذلك عبدٌ أهانَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وخذلَهُ ، بل عن نفسِهِ شغلَهُ ، ولو بألفِ ألفِ كرامةٍ أهَّلَهُ)[1]

ثم قالَ بعدَ كلامٍ كثيرٍ (فليحذرِ المريدُ مِنْ مجالسةِ الأحداثِ ومخالطتِهم ؛ فإنَّ اليسيرَ منهُ فَتْحُ بابِ الخِذْلانِ ، وبدوُّ حالِ الهجرانِ ، ونعوذُ باللهِ مِنْ قضاءِ السوءِ)[2]

وآدابُ المريدِ كثيرةٌ ، وإنَّما نبَّهنا ها هنا على بعضِ ما يعظمُ فيهِ الخطرُ والغررُ ، ممَّا حذَّرَ منهُ أئمتُنا رضيَ اللهُ عنهم ، وبالغوا في التوصيةِ والنهْيِ عنهُ ، وجميعُ ذلكَ محتملٌ لأنْ يكونَ مراداً للمؤلِّفِ رحمَهُ اللهُ في قولِهِ : (مِنْ جهلِ المريدِ أنْ يسيءَ الأدبَ . . .) ، فرأينا ألا يخلوَ هٰذا الموضعُ مِنْ هٰذا التنبيهِ ؛ لأنَّ ذلكَ يقعُ للمريدينَ كثيراً ، واللهُ وليُّ التوفيقِ .

* * *

---

(١) قاله في « الرسالة القشيرية » (ص٧٨١)

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص٧٨٢) .

الحكمة السادسة والستون (*)

إِذَا رَأَيْتَ عَبْداً أَقَامَهُ ٱللهُ بِوُجُودِ ٱلأَوْرَادِ ، وَأَدَامَهُ ٱللهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ ٱلإِمْدَادِ . . فَلا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلاهُ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا ٱلْعَارِفِينَ ، وَلا بَهْجَةَ ٱلْمُحِبِّينَ ، فَلَوْلا وَارِدٌ مَا كَانَ وِرْدٌ .

عبادُ اللهِ المخصوصونَ ينقسمونَ إلىٰ قسمينِ : مقرَّبينَ ، وأبرارٍ .

فالمقرَّبونَ : همُ الذينَ أُخِذوا عن حظوظِهم وإراداتِهم ، واستُعملوا في القيامِ بحقوقِ ربِّهم ؛ عبوديةً لهُ ، وطلباً لمرضاتِهِ ، وهـٰؤلاءِ همُ **العارفونَ والمحبُّونَ** .

والأبرارُ : همُ الذينَ بقُوا معَ حظوظِهم وإراداتِهم ، وأُقيموا في الأعمالِ والطاعاتِ ؛ ليجزَوْنَ عليها برفيعِ الدرجاتِ في الجنانِ ، وهـٰؤلاءِ همُ **الزاهدونَ والعابدونَ** .

وكلٌّ واحدٍ منهم مُمَدٌّ في مقامِهِ الذي هو فيهِ بمددٍ إلـٰهيٍّ اقتضىٰ منهمُ القيامَ بحقوقِ مقاماتِهم على اختلافِها ، فإذا رأيتَ عبداً أقامَهُ اللهُ تعالىٰ في أعمالِ البرِّ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن لله تعالىٰ رحماتٍ وعطفاتٍ خبأها فيما شاء من أفعاله ، وأن من الأسباب الجعلية الشرعية جَعْلَ ملازمةِ الورد علامةً علىٰ هباتِ الواردات العرفانية ، وأن لله عباداً جمع لهم بين حظَّي الدنيا والآخرة ، والله يفعل ما يشاء .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تلعنوهُ ؛ فواللهِ ما علمتُ أنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ » ، رواه البخاري (٦٧٨٠) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، قاله عليه الصلاة والسلام في حقِّ من جيء به غير مرة فجُلد من شرب الخمر

الظاهرةِ ، ومواصلةِ الأورادِ المتواترةِ ، وأمدَّهُ في ذلكَ بالمعونةِ والتيسيرِ . . فذلكَ مِنِ اختيارِ اللهِ تعالىٰ لهُ ؛ فلا تستحقِرَنَّ ذلكَ لأجلِ أنَّكَ لم ترَ عليهِ سيما العارفينَ ؛ مِنْ تركِ الاختيارِ ، والبراءةِ مِنَ الحظوظِ والإراداتِ بينَ يدي المريدِ المختارِ ، ولا بهجةَ المحبِّينَ ؛ مِنَ الشغفِ بمرضاةِ محبوبِهم ، والانبساطِ والإدلالِ بينَ يدي حبيبِهم ؛ فلولا الواردُ الإلـٰهيُّ الذي أوردَهُ اللهُ تعالىٰ عليهِ . . ما استقامَ علىٰ عملِهِ وورِدِهِ ، فهو لم يخرجْ عن دائرةِ عنايتِهِ وحيطةِ رعايتِهِ ، فلِمَ تستحقرُ خطيرَ ما مُنِحَهُ ، وتستقلُّ كثيرَ ما ربحَهُ ؟! وهل ذلكَ إلا مِنْ وجودِ جهلِكَ ، ونقصانِ عقلِكَ ؟!

وسيأتي مِنْ كلامِ المؤلِّفِ : (لا يستحقرُ الوِرْدَ إلا جهولٌ)[1]

* *

(١) انظر (ص ٥١٧) ، ونقل الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ٢٧٢) عن الإمام العارف بالله تعالىٰ أبي الحسن الشاذلي قوله : (أكرِمِ المؤمنين وإن كانوا عصاة فاسقين ، وأْمُرْهم بالمعروف وانههم عن المنكر ، واهجرهم رحمة بهم ، لا تعزُّزاً عليهم) ، وقال : (لو كُشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض ، فما ظنُّك بنور المؤمن المطيع ؟!) .

الحكمة السابعة والستون (*)

قَوْمٌ أَقَامَهُمُ ٱلْحَقُّ لِخِدْمَتِهِ ، وَقَوْمٌ ٱخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

الحقُّ تعالىٰ لهُ الاختيارُ التامُّ والمشيئةُ النافذةُ ، ولا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهم يُسألونَ .

فطائفةٌ أقامَهمُ الحقُّ تعالىٰ لخدمتِهِ ، حتىٰ صَلَحُوا لجنَّتِهِ : وهمُ الزاهدونَ والعابدونَ كما تقدَّمَ .

وطائفةٌ اختصَّهم بمحبَّتِهِ ، حتىٰ صَلَحُوا لقربِهِ ، والدخولِ إلىٰ حضرتِهِ : وهمُ العارفونَ والعلماءُ

قالَ يحيى بنُ معاذٍ : (الزاهدُ : صيدُ الحقِّ مِنَ الدنيا ، والعارفُ صيدُ الحقِّ مِنَ الجنَّةِ)[1]

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إطلاق المشيئة الأزلية ، ونفي الطبع والعلة عن الذات العلية ، وإلىٰ أنه تعالىٰ له حكمة في كل اختيار .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ... ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٠ـ١٠٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تسبُّوا أصحابي ؛ فلو أنَّ أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ . ما بلغ مدَّ أحدِهم ولا نصيفَهُ » ، رواه البخاري (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤١) وكان قد قاله لسيدنا خالدٍ لأنه سبَّ سيدنا عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنهما .

(١) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص٣٨) .

فإذا شهدَ العبدُ انفرادَ اللهِ تعالىٰ بهـٰذهِ الإقامةِ والتخصيصِ . . منعَهُ ذلكَ ممَّا ذكرنا مِنَ الاستحقارِ ، وسلَّمَ الأمرَ لمَنْ بيدِهِ التدبيرُ والاختيارُ .

قالَ أبو يزيدَ : (اطَّلعَ اللهُ تعالىٰ علىٰ قلوبِ أوليائِهِ ، فمنهم مَنْ لم يكن يصلحُ لحملِ المعرفةِ صِرْفاً ، فشغلَهم بالعبادةِ)[1]

وذكرَ الحافظُ أبو نعيمٍ في كتابِهِ « حليةِ الأولياءِ » عن سهلِ بنِ عبدِ اللهِ أنَّهُ قالَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ يطَّلعُ علىٰ أهلِ قريةٍ أو بلدةٍ ، فيريدُ أنْ يقسمَ لهم مِنْ نفسِهِ قَسْماً ، فلا يجدُ في قلوبِ العبادِ ولا قلوبِ الزهَّادِ موضعاً لتلكَ القسمةِ مِنْ نفسِهِ ، فيَمُنُّ عليهم أنْ يشغلَهم بالتعبُّدِ عن نفسِهِ)[2]

وقالَ أبو العباسِ الدينوريُّ (إنَّ للهِ عباداً لم يستصلحْهم لمعرفتِهِ ، فشغلَهم بخدمتِهِ ، ولهُ عبادٌ لم يستصلحْهم لخدمتِهِ ، فأهَّلَهم لمعرفتِهِ)[3]

والإشارةُ بالآيةِ الكريمةِ التي ذكرَها المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ . . بيِّنةٌ في هـٰذا المعنىٰ .

* * *

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٨) .

(2) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٠٥) .

(3) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٨٣) .

الباب الثامن
في الواردات

الحكمة الثامنة والستون (*)

وقال رضي الله عنه :

قَلَّمَا تَكُونُ ٱلْوَارِدَاتُ ٱلإِلَـٰهِيَّةُ إِلا بَغْتَةً ؛ صِيَانَةً لَهَا أَنْ يَدَّعِيَهَا ٱلْعُبَّادُ بِوُجُودِ ٱلِاسْتِعْدَادِ

الوارداتُ الإلـٰهيَّةُ هدايا مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وتُحَفٌ وكراماتٌ يكرمُ بها عبادَهُ ، فلا تكونُ في الغالبِ إلا بغتةً ؛ أي فجأةً ؛ لئلا يدَّعُوها ، ويرَوْا أنفسَهم أهلاً لها بوجودِ استعدادِهم وتهيُّئِهم ، وتُحَفُ اللهِ وهداياهُ مقدَّسةٌ عن أنْ تعلَّلَ بأمرٍ ، ومنزَّهةٌ عن أنْ تقابلَ بأعمالِ برٍّ ، بل هي محضُ كرمٍ وفضلٍ مِنَ الكريمِ المُفْضِلِ (١)

❊

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إسقاط الأسباب الجعلية ؛ شرعية كانت أو عادية ، وإلىٰ سعة الجود الإلـٰهي ، ورعاية الأصلح فضلاً منه تعالىٰ لا وجوباً

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام في قصة المخطئ من شدة الفرح : « فأتىٰ شجرةً ، فاضطجعَ في ظلِّها ، قد أيسَ مِنْ راحلتِهِ ، فبينا هو كذلكَ إذا هو بها قائمةً عندَهُ » ، رواه مسلم (٢٧٤٧) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(١) المُفْضِل : المتفضِّل ، وكذا هي في (ج) ، ومن ذلك قول سيدنا حسان رضي الله عنه (من الكامل)

أولادُ جفنـةَ حـولَ قبـرِ أبيهـمُ ... قبـرِ ابـن ماريـةَ الكريـمِ المُفْضِـلِ

الحكمة التاسعة والستون (*)

مَنْ رَأَيْتَهُ مُجيباً عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ ، وَمُعَبِّراً لِكُلِّ مَا شَهِدَ ، وَذَاكِراً كُلَّ مَا عَلِمَ . فَٱسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَىٰ وُجُودِ جَهْلِهِ .

الإجابةُ عن كلِّ سؤالٍ ، والتعبيرُ بكلِّ مشهودٍ ، والذكرُ لكلِّ معلومٍ . . أماراتٌ علىٰ وجودِ جهلِ مَنِ اتَّصفَ بها كما قالَ

أمّا الإجابةُ عن كلِّ سؤالٍ : فلاقتضائِها منهُ الإحاطةَ بجميعِ المعلوماتِ ، وذلكَ محالٌ في حقِّهِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] ، فكيفَ يُتصوَّرُ منهُ معَ هٰذا الإجابةُ عن كلِّ سؤالٍ لولا وجودُ جهلِهِ ؟!

وأيضاً فإنَّهُ يجبُ عليهِ أنْ يراعيَ حالَ السائلِ ؛ مِنْ وجودِ الأهليّةِ لما سَأَلَ عنهُ ، فيمتنعَ عن إجابةِ مَنْ لا أهليةَ فيهِ لذلكَ ، ويفعلَ ما فعلَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رُوِيَ عنهُ معَ السائلِ الذي جاءَ يسألُهُ أنْ يعلِّمَهُ مِنْ غرائبِ العلمِ ؛ فإنَّهُ استفسرَهُ وقالَ لهُ : « مَا فَعَلْتَ فِي رَأْسِ ٱلْعِلْمِ ، وَفِي كَذَا وَفِي كَذَا ؟ » ، فأجابَهُ السائلُ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هُنَالِكَ ،

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الكمال المطلق لله تعالىٰ وحده ، وكلُّ وصفِ كمالٍ حادث هو فعله ومنفرد بإيجاده ، وإلىٰ أن الأدب مع الله الرجوع إليه ، والتوكل عليه
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة : ١٠٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ٣٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « احفظْ عليك لسانَكَ ، وليسعْكَ بيتُكَ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ » ، رواه الترمذي (٢٤٠٦) من حديث سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

ثُمَّ تَعَالَ حَتَّىٰ أُعَلِّمَكَ مِنْ غَرَائِبِ ٱلْعِلْمِ »[١]

وكما أخذَ اللهُ تعالىٰ على العلماءِ ألا يكتموا العلمَ أهلَهُ ؛ كذلكَ أخذَ عليهم أنْ يصونوهُ عن غيرِ أهلِهِ ، فمَنْ لم يسلكْ هـٰذا المسلكَ فهو جاهلٌ

وأمَّا التعبيرُ لكلِّ مشهودٍ فلأنَّ فيهِ نوعاً مِنْ إفشاءِ السرِّ الذي يجبُ كتمُهُ ، وقد قالوا : (قلوبُ الأحرارِ قبورُ الأسرارِ)[٢] ، والسرُّ أمانةُ اللهِ تعالىٰ عندَ العبدِ ، فإشهارُهُ بالتعبيرِ عنهُ خيانةٌ ، واللهُ تعالىٰ لا يحبُّ الخائنينَ[٣]

وأيضاً فإنَّ الأمورَ المشهودةَ لا يُستعملُ فيها إلا الإشارةُ والإيماءُ ، واستعمالُ العباراتِ فيها إفصاحٌ بها وإشهارٌ لها ، وفي ذلكَ ابتذالُها وإذاعتُها ، ثم إنَّ العبارة عنها لا تزيدُها إلا غموضاً وانغلاقاً ؛ لأنَّ الأمورَ الذوقيّةَ يستحيلُ إدراكُ حقائقِها بالعباراتِ النطقيّةِ[٤] ، فيؤدِّي ذلكَ إلى الإنكارِ والقدحِ في علومِ السادةِ الأخيارِ

---

(١) رواه الجوهري في « مسند الموطأ » (١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٢٢) من حديث عبد الله بن المسور رحمه الله تعالىٰ مرسلاً

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٧٧) عن ذي النون المصري رحمه الله تعالىٰ .

(٣) قال إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٢٧٧) وهو يتحدث عما ينكشف للمريد في خلواته : (وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك . . فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصحاً ، ويتصدىٰ للتذكير ، فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة ، فتدعوه تلك اللذة إلىٰ أن يتفكر في كيفية إيراد المعاني ، وتحسين الألفاظ المعبر عنها ، وترتيب ذكرها ، وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار ، وتحسين صيغة الكلام ؛ لتميل إليه القلوب والأسماع
والشيطان ربما يخيل إليه أن هـٰذا إحياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالىٰ ، وإنما أنت واسطة بين يدي الله وبين الخلق ؛ تدعو عباده إليه ، وما لك فيه نصيب ، ولا لنفسك فيه لذة)

(٤) قال حجة الإسلام الغزالي في « أيها الولد » (ص ٥٢) : (واعلم : أن بعض مسائلك التي سألتني عنها لا يستقيم جوابه بالكتابة والقول ، بل إن تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي ، وإلا فعلمها من المستحيلات ؛ لأنها ذوقية ، وكل ما يكون ذوقياً لا يستقيم وصفه بالقول ؛ كحلاوة الحلو ومرارة المر ، لا تعرف إلا بالذوق ؛ كما حُكِيَ أن عنيناً كتب إلىٰ صاحب له : عرِّفني لذة المجامعة كيف تكون ؟ فكتب في جوابه : يا فلان ؛ إني كنت إلى الآن حسبتك عنيناً فقط ، والآن عرفت أنك عنين وأحمق ؛ لأن هـٰذه اللذة ذوقية ، إن تصل تعرف ، وإلا لا يستقيم وصفها بالقول والكتابة)

قالَ أبو عليٍّ الروذْباريُّ : (علمُنا هـٰذا إشارةٌ ، فإذا صارَ عبارةً خَفِيَ)

وأمَّا الذكرُ لكلِّ معلومٍ : فلعدمِ تفريقِهِ بينَ المعلوماتِ ، وقد يكونُ لهُ علمٌ يختصُّ بهِ ، فإذا ذكرَهُ لغيرِهِ استغربَهُ وإنْ كانَ ينتفعُ بهِ هو ، فعدمُ تفريقِهِ بينَ المعلوماتِ في ذكرِها . . مِنْ وجودِ جهلِهِ(١)

*

(١) وروى الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧٠) عن محمد بن كعب القرظي : (إن عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه قام في بني إسرائيل فقال : يا بني إسرائيل ؛ لا تتكلموا بالحكمة عند الجاهل فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم)

الحكمة السبعون (*)

إِنَّمَا جَعَلَ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ مَحَلّاً لِجَزَاءِ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلدَّارَ لا تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ، وَلِأَنَّ ٱللهَ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لا بَقَاءَ لَهَا

إنَّما جُعِلَ ثوابُ المؤمنينَ في الدارِ الآخرةِ فيما ظهرَ لنا لوجهينِ

أحدُهُما : أنَّ الدنيا لا تسعُ ما يريدُ أنْ يعطيَهم مِنْ أنواعِ النعيمِ حسّاً ولا معنىً

أمّا الحسُّ فلأنَّ الدنيا متدانيةُ المسافاتِ ، ضيقةُ الأقطارِ ، ويعطي اللهُ لآحادِ المؤمنينَ في الدارِ الآخرةِ في مُلْكِ واحدٍ منهم ـ كما وردَ في الخبرِ ـ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ(1) ، فما ظنُّكَ بخواصِّهم ؟! فتضيقُ ـ لا محالةَ ـ مسافةُ الدنيا عن كليَّةِ جزائِهم

وأمّا المعنى فلأنَّ الدنيا موسومةٌ بالدناءةِ والنقصِ والخساسةِ والحقارةِ ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى الإيمان باليوم الآخر ، والجزاء والحساب ، وإلى سعة القدرة الأزلية الأبدية ، وأنه تعالى خلق قلب المؤمن على هيئة لا تشبع نهمته الدنيا بأسرها ، وأن الجنة هي دار المؤمنين الباقية بمدد منه سبحانه .
ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد : ٢٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام فيما حكاه عن المولى سبحانه : « وما ترددتُ عن شيءٍ أنا فاعلُهُ ترددي عن نفسِ المؤمنِ ، يكرهُ الموتَ وأنا أكرهُ مساءتَهُ » ، رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومن حقائق كرهه تعالى مساءته : أنه لو لم يمت لم يصل لما خبأه تعالى له من النعيم المقيم .

(1) روى الترمذي (٢٥٥٣) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: « إنَّ أدنى أهلِ الجنةِ لَمَنْ ينظرُ إلى جنانِهِ وأزواجِهِ ونعيمِهِ وخدمِهِ وسُرُرِهِ مسيرةَ ألفِ سنةٍ »، وفي (ج) : (سبع) بدل (خمس) .

والأشياءُ التي يتنعَّمُ بها أهلُ الجنةِ أمورٌ شريفةٌ رفيعةٌ ؛ كما جاءَ في الأخبارِ : « إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي ٱلْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »[1] ، و« إِنَّ نُورَ سِوَارِ حَوْرَاءَ يَطْمِسُ نُورَ ٱلشَّمْسِ »[2] ، وما أشبهَ هـٰذا ، ويكفي في ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] ، يقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما يرويهِ عن ربِّهِ : « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ ٱلصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ »[3]

والثاني : أنَّ اللهَ تعالىٰ أجَلَّ أقدارَ عبادِهِ المؤمنينَ ، فلم يجعلْ لهمُ الجزاءَ علىٰ طاعاتِهِم في دارٍ فانيةٍ منقضيةٍ متصرِّمةٍ ؛ لأنَّ كلَّ ما يفنىٰ وإنْ طالَتْ مدَّتُهُ كلا شيءٍ ، بل أعطاهمُ الخلودَ في النعيمِ ، والبقاءَ الدائمَ في الملكِ المقيمِ ، وناهيكَ بهِ شرفاً تسميتُهُ إيَّاهم باسمِهِ الكريمِ ؛ وهو : (الحيُّ الذي لا يموتُ) ، جاءَ في التفسيرِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢٠] : أنَّهُ يرسلُ اللهُ تعالى المَلَكَ إلىٰ وليِّهِ ، ويقولُ لهُ : استأذنْ علىٰ عبدي ، فإنْ أذنَ لكَ فادخلْ ، وإلا فارجعْ ، فيستأذنُ عليهِ مِنْ سبعينَ حجاباً ، ثم يدخلُ عليهِ ومعَهُ كتابٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ مكتوبٌ علىٰ عنوانِهِ (مِنَ الحيِّ الذي لا يموتُ إلى الحيِّ الذي لا يموتُ) ، فإذا فتحَ الكتابَ وجدَ مكتوباً فيهِ : عبدي ؛ اشتقتُ إليكَ فزرْني ، فيقولُ : هل جئتَ بالبراقِ ؟ فيقولُ : نعم ، فيركبُ البراقَ ، فيغلبُ الشوقُ علىٰ قلبِهِ ، فيحملُهُ شوقُهُ ويبقى البراقُ إلىٰ أنْ يصلَ إلىٰ بساطِ اللقاءِ[4]

* *

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٢) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه

(٢) روىٰ أحمد في « المسند » (١٦٩/١) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعاً : « ولو أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الجنةِ اطَّلَعَ فبدا سوارُهُ . . لطمسَ ضوءُهُ ضوءَ الشمسِ كما تطمسُ الشمسُ ضوءَ النجومِ » .

(٣) رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١٢٥) ، والقرطبي في « تفسيره » (١٤٥/١٩) .

الحكمة الحادية والسبعون (*)

مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً . . فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْقَبُولِ آجِلاً[١]

ثمرةُ العملِ وجدانُ الحلاوةِ فيهِ والنعيمِ بهِ ، ويُتصوَّرُ ذلكَ في أكثرِ الأعمالِ بالمواظبةِ عليهِ على حالِ تكرُّهٍ واستثقالٍ لهُ ، هـٰذا هو غالبُ الأمرِ

قالَ بعضُ العارفينَ : (ليسَ شيءٌ مِنَ البِرِّ إلا ودونَهُ عقبةٌ يُحتاجُ إلى الصبرِ فيها ، فمَنْ صبرَ على شدَّتِها أفضىٰ إلى الراحةِ والسهولةِ ، وإنَّما هي مجاهدةُ النفسِ ، ثم مخالفةُ الهوىٰ ، ثم مكابدةٌ في تركِ الدنيا ، ثم اللذَّةُ والتنعُّمُ)[٢]

وقالَ عتبةُ الغلامُ : (كابدْتُ الليلَ عشرينَ سنةً ، ثم تنعَّمْتُ بهِ عشرينَ سنةً)[٣] .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ لا يجب عليه شيء ، وأن القبولَ للطاعات محض فضل منه سبحانه ، وأنه تعالىٰ جعل من علامات القبول خلقَهُ لحلاوة الطاعة في قلب المؤمن
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدومُها وإنْ قلَّ » ، رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٢) من حديث الصديقة عائشة رضي الله عنها

(١) قوله : (آجلاً) زيادة من بعض نسخ الاستئناس ، وسقط من سائر النسخ ، ولعل ما في النسخ أولىٰ ؛ لأنه سيأتي في حكمةٍ أخرى الحديث عن الجزاء الآجل

(٢) روىٰ معناه باختصار أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٧١) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ١١٠)

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : (كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنةً ، ثم تنعَّمْتُ بهِ عشرينَ سنةً)[1]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (كنتُ أقرأُ القرآنَ فلا أجدُ لهُ حلاوةً ، حتىٰ تلوتُهُ كأنِّي أسمعُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتلوهُ علىٰ أصحابِهِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهم ، ثم رُفِعْتُ إلىٰ مقامٍ فوقَهُ ؛ وكنتُ أتلوهُ كأنِّي أسمعُهُ مِنْ جبريلَ عليهِ السلامُ يلقيهِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثم جاءَ اللهُ بمنزلةٍ أخرىٰ ؛ فأنا الآنَ كأنِّي أسمعُهُ مِنَ المتكلِّمِ ، فعندَها وجدتُ لهُ لذَّةً ونعيماً لا أصبرُ عنهُ)[2]

وما ذكرناهُ مِنَ الحلاوةِ والنعيمِ إنَّما تثمرُهُ الأعمالُ الصحيحةُ المستقيمةُ السالمةُ مِنَ الرياءِ والدعوىٰ ؛ قالَ أبو ترابٍ : (إذا صدقَ العبدُ في العملِ وجدَ حلاوتَهُ قبلَ أنْ يعملَهُ ، فإذا أخلصَ فيهِ وجدَ حلاوتَهُ وقتَ مباشرتِهِ العملَ)[3]

والأعمالُ الموصوفةُ بهٰذهِ الصفاتِ مقبولةٌ بفضْلِ اللهِ تعالىٰ ؛ وردَ في الخبرِ : « لا يَقْبَلُ ٱللهُ مِنْ مُسَمِّعٍ وَلا مُرَاءٍ »[4] ، دليلُ خطابِهِ : أنَّ العملَ السالمَ مِنَ الرياءِ والسمعةِ مقبولٌ ؛ مِنْ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧]

وقبولُ اللهِ تعالىٰ لعملِ العبدِ ورضاهُ بهِ هو ثوابُهُ المعجَّلُ كما يقولُهُ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ بعدَ هٰذا ، وذلكَ علامةٌ علىٰ وجودِ الجزاءِ عليهِ في الدارِ الآخرةِ حسَبَ ما يأتي في قولِهِ (وجدانُ ثمراتِ الطاعاتِ عاجلاً بشائرُ العاملينَ بوجودِ الجزاءِ عليها آجلاً)[5]

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ١٥٢) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ١٥٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٥٠) ، وفيه بيان فضل الصدق على الإخلاص .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٨) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه البخاري في « الأدب المفرد » (٦٠٦) موقوفاً عليه .

(٥) انظر (ص ٩٣٠) .

وقالَ أبو سليمانَ الداراني : (كلُّ عملٍ ليسَ لهُ ثوابٌ في الدنيا ليسَ لهُ جزاءٌ في الآخرةِ)[1]

فحصلَ مِنْ هـٰذا : أنَّ وُجدانَ الحلاوةِ علامةٌ علىٰ وجودِ القبولِ المقتضي لوجودِ الرضا والجزاءِ ، ولذلكَ قالَ الحسنُ : (تفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثٍ ، فإنْ وجدتموها فأبشروا وامضوا لقصدِكم ، فإنْ لم تجدوها فاعلموا أنَّ البابَ مغلقٌ : عندَ تلاوةِ القرآنِ ، وعندَ الذكرِ ، وعندَ السجودِ)[2] ، وزادَ غيرُهُ : (وعندَ الصدقةِ ، وبالأسحارِ)[3]

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] قالَ : (جنةٌ معجَّلةٌ ؛ وهي حلاوةُ الطاعاتِ ، ولذاذةُ المناجاةِ ، والاستئناسُ بفنونِ المكاشفاتِ ، وجنةٌ مؤجَّلةٌ ؛ هي فنونُ المثوباتِ ، وعلوُّ الدرجاتِ)[4]

قلتُ : وهـٰذهِ الحلاوةُ المذكورةُ لا تكونُ إلا في مقامِ المعرفةِ الخاصَّةِ[5] ، وهي التي تنافيها المعصيةُ .

قيلَ لبعضِهم : هل تعرفُ اللهَ ؟ فغضبَ على القائلِ وقالَ : تراني أعبدُ مَنْ لا أعرفُهُ ؟! فقالَ : أوَتعصي مَنْ تعرفُهُ ؟![6]

وقيلَ لبعضِهم : بِمَ تعرفُ أنَّكَ عرفتَهُ ؟ فقالَ لم أقصدْ مخالفتَهُ إلا وردَ علىٰ قلبي استحياءٌ منهُ[7]

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص٧٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٧١) بنحوه ، وبلفظه هنا هو عند الإمام أبي طالب في « قوت القلوب » (١/ ١٨٨) .
(٣) كذا في « قوت القلوب » (١/ ١٨٨) .
(٤) قاله الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص٦٩) .
(٥) كذا في (هـ) ، وفي سائر النسخ : (الخاصية) .
(٦) قاله الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص٨٨) .
(٧) قاله الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص٨٨) .

وقالَ إسماعيلُ بنُ نُجيدٍ : (التهاونُ بالأمرِ مِنْ قلَّةِ المعرفةِ بالآمرِ)[1]

فإذاً ؛ العصيانُ في حالِ العرفانِ بعيدٌ ، فإنْ وقعَتْ منهُ زلةٌ أو هفوةٌ بحكمٍ وكانَ أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً . . وجدَ ـ لا محالةَ ـ لذلكَ مرارةً وألماً في قلبِهِ ، فوجدانُ هٰذهِ المرارةِ والألمِ في المعصيةِ علامةُ صحَّةِ ما وجدَ مِنَ الحلاوةِ والنعيمِ في الطاعةِ

فهٰذهِ هي الحلاوةُ التي هي الميزانُ للأعمالِ المقبولةِ وغيرِ المقبولةِ كما ذكرناهُ .

وأمَّا الحلاوةُ التي يجدُها مَنْ دونَ أهلِ هٰذا المقامِ في بعضِ العباداتِ : فمدخولةٌ معلولةٌ ، إلا ما فيها مِنْ تنشيطِ العبادِ للمواظبةِ على العبادةِ[2] .

والحلاوةُ على الإطلاقِ إذا وجدَها العاملُ في العملِ لا ينبغي لهُ أنْ يقفَ معَها ، ولا أنْ يفرحَ بها ، ولا يسكنَ إليها ، وكذلكَ أيضاً لا ينبغي لهُ أنْ يقصدَ بعملِهِ إلىٰ نيلِها ؛ لما لهُ فيها مِنَ اللذةِ والحظِّ ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يقدحُ في إخلاصِ عبادتِهِ وصدقِ إرادتِهِ ، وليكنِ اعتناؤُهُ بحصولِها لتكونَ ميزاناً لأعمالِهِ ومِحَكّاً لأحوالِهِ فقطْ

قالَ الواسطيُّ : (استحلاءُ الطاعاتِ سمومٌ قاتلةٌ)[3]

قالَ في « لطائفِ المننِ » (وصدقَ الواسطيُّ رحمَهُ اللهُ ، **وأقلُّ ما في ذلكَ** : أنَّهُ إذا فتحَ لكَ بابَ حلاوةِ الطاعةِ تصيرُ قائماً فيها ، متطلباً لحلاوتِها ، فيفوتُكَ صدْقُ الإخلاصِ في نهوضِكَ لها ، وتحبُّ دوامَها لا قياماً بالوفاءِ ، ولٰكنْ لما وجدتَ مِنَ الحلاوةِ والمتعةِ ، فتكونُ في الظاهرِ قائماً للهِ ، وفي الباطنِ إنَّما قمتَ لحظِّ نفسِكَ ، ويُخشىٰ عليكَ أنْ تكونَ حلاوةُ الطاعةِ جزاءً تعجلتَهُ في الدنيا ، فتأتيَ يومَ القيامةِ ولا جزاءَ لكَ)[4]

* * *

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص٤٥٦)

(٢) في (ج) : (المعتاد) بدل (العباد) ، وكلاهما مناسب .

(٣) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٤٥٥) .

(٤) لطائف المنن (ص١٦٨)

الحكمة الثانية والسبعون (*)

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ فَٱنْظُرْ فِيمَاذَا يُقِيمُكَ

هـٰذا ميزانٌ صحيحٌ ، وقد رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ ٱللهِ . . فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ ٱللهِ تَعَالَىٰ مِنْ قَلْبِهِ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ يُنْزِلُ ٱلْعَبْدَ عِنْدَهُ بِحَيْثُ أَنْزَلَهُ ٱلْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ »(١) ، وهـٰذا الإنزالُ المذكورُ المنسوبُ إلى العبدِ هو معنى الإقامةِ المذكورةِ ؛ **إذِ العبدُ لا فعلَ لهُ على التحقيقِ** .

قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (إنَّما يطيعُ العبدُ ربَّهُ على قدرِ منزلتِهِ منهُ)(٢)

وقالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ (فإذا كانَ العبدُ لنظرِ مولاهُ مُكرِماً ، ولحرماتِهِ معظِّماً ، وإلى محبوبِهِ ومرضاتِهِ مسارعاً . . كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في آخرتِهِ لوجهِهِ مُكرِماً ، ولشأنِهِ معظِّماً ، وإلى مسرَّتِهِ مِنَ النعيمِ المقيمِ مسارعاً ، وإذا كانَ العبدُ

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلى سعة فضل الله تعالى بخلقِهِ علاماتٍ يتعرَّف العبد بها مكانته عند مولاه الغني ؛ أعلاها كلمة التوحيد ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق لله تعالى ، والعكس بالعكس

ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء ٧] ، **وقوله تعالى** ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] ، **وقوله تعالى** : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام في حق الذاكرين لله تعالى** : « وذكرَهم اللهُ فيمَنْ عندَهُ » ، رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٧٦٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٢٥) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٠٦)

بحقِّ مولاهُ متهاوناً ، وبأوامرِهِ مستخِفّاً ، ولشعائرِهِ مستصغراً . . كانَ اللهُ تعالىٰ لهُ مهيناً ، وبشأنِهِ متهاوناً ، وإلىٰ ما يكرهُ مِنَ العذابِ الأليمِ مسارعاً ، والعياذُ باللهِ مِنْ ذلكَ)[1]

قالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ يا بنَ آدمَ ؛ أطعْني فيما أمرتُكَ ولا تعلمْني بما يصلحُكَ ؛ إنّي عالمٌ بخلقِي ، إنَّما أكرمُ مَنْ أكرمَني ، وأهينُ مَنْ هانَ عليهِ أمري ، لستُ بناظرٍ في حقِّ عبدي حتىٰ ينظرَ عبدي في حقِّي)[2]

* *

---

(١) قاله في « قوت القلوب » (١٠٢/١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧/٤) .

الحكمة الثالثة والسبعون (*)

مَتَىٰ رَزَقَكَ ٱلطَّاعَةَ وَٱلْغِنَىٰ بِهِ عَنْهَا . . فَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَسْبَغَ نِعَمَهُ عَلَيْكَ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

المطلوبُ مِنَ العبدِ شيئانِ : إقامةُ الأمرِ في الظاهرِ ، والتعلُّقُ باللهِ في الباطنِ ؛ وهو الاستغناءُ بهِ عن غيرِهِ ، فإذا رزقَ اللهُ العبدَ هـٰذينِ الأمرينِ فقد أسبغَ نعمَهُ عليهِ ظاهرةً وباطنةً ، وأوصلَهُ إلىٰ غايةِ الأملِ في الدنيا والآخرةِ سبحانَهُ جلَّ وعلا

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تحقيق التوحيد ، وأنه سبحانه الغني المطلق ، وأن له فعلَ ما يريد ، وإلى القول بالتوفيق والتقريب من غير تعليل ، وأن الطاعة من الأسباب الجعلية الشرعية .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « النعمةُ الظاهرةُ : ما حسَّنَ مِنْ خلقِهِ ، والباطنةُ : ما هداهُ للإسلامِ » ، رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤١٨٦) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

الباب التاسع
في المطالب والتوجهات

الحكمة الرابعة والسبعون (*)

وقال رضي الله عنه :

خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ . . مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ

إنْ كانَ لا بدَّ مِنَ الطلبِ منهُ . . فاطلبْ ما هو طالبُهُ منكَ ؛ مِنَ الاستقامةِ على سبيلِ العبوديةِ لهُ ، فذلكَ خيرٌ لكَ مِنْ طلبِكَ لحظوظِكَ ومراداتِكَ ؛ لأنَّكَ حينَئذٍ تكونُ بهِ ولهُ ، ويسعفُكَ بمطلوبِكَ عاجلاً مِنْ غيرِ تأخيرٍ ، أمَّا إنْ طلبْتَ منهُ حظَّ نفسِكَ ونيلَ مرادِكَ . . فقد يحصلُ في ذلكَ تأخيرٌ ومنعٌ ، معَ ما يفوتُكَ حينَئذٍ مِنْ حسنِ الأدبِ في الطلبِ .

يُحكىٰ عن أبي الحسينِ الديلميِّ قالَ : وُصِفَ لي بأنطاكيةَ إنسانٌ أسودُ يتكلَّمُ على القلوبِ ، قالَ فقصدتُهُ ، فلمَّا رأيتُهُ رأيتُ معَهُ شيئاً مِنَ المباحاتِ يريدُ أنْ يبيعَهُ[1] ، فساومتُهُ وقلتُ لهُ : بكم تبيعُ هٰذا ؟ فنظرَ إليَّ ثم قالَ : اقعدْ ؛ فإنَّكَ جائعٌ منذُ يومينِ ، حتىٰ إذا بعنا هٰذا نعطيكَ مِنْ ثمنِهِ شيئاً

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات صفتي العلم والحكمة له سبحانه ، وإلىٰ أنه تعالىٰ مَنَّ علىٰ عبده بأوامره ونواهيه ، وأن أفعاله وأحكامه تعالىٰ لا تعلل .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليهِ » ، رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) والعبارة في « الرسالة القشيرية » : (وكنت جائعاً منذ يومين لم آكل شيئاً ، فقلت : بكم هٰذا ؟ وأوهمتُ أني أشتري ما بين يديه) .

قالَ : فمضيتُ إلىٰ غيرِهِ وتغافلتُ كأنِّي لم أسمعْ ما قالَ ، وساومتُ غيرَهُ ما كانَ بينَ يديهِ ، ثم رجعتُ إليهِ وقلتُ لهُ : بكم تبيعُ هـٰذا ؟ فنظرَ إليَّ وقالَ : اقعدْ ؛ فإنَّكَ جائعٌ منذُ يومينِ ، حتىٰ إذا بعنا هـٰذا نعطيكَ مِنْ ثمنِهِ شيئاً

قالَ فوقعَ في قلبي منهُ هيبةٌ ، فلمَّا باعَ ذلكَ أعطاني شيئاً ومضىٰ ، قالَ : فمضيتُ خلفَهُ لعلِّي أستفيدُ منهُ شيئاً ، قالَ فالتفتَ إليَّ وقالَ : إذا عرضَتْ لكَ حاجةٌ فأنزلْها باللهِ إلا أنْ يكونَ لكَ فيها حظٌّ فتُحجبَ بها عنِ اللهِ تعالىٰ[1]

ومِنْ دعاءِ أبي القاسمِ الجنيدِ (اللهمَّ ؛ وكلُّ سؤالٍ سألتُكَ فعن أمرِكَ لي بالسؤالِ ، فاجعلْ سؤالي إليكَ سؤالَ محابِّكَ ، ولا تجعلْني ممَّنْ يتعمَّدُ بسؤالِهِ مواضعَ الحظوظِ ، بل يسألُ القيامَ بواجبِ حقِّكَ)[2]

ومِنْ دعائِهِ أيضاً : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ منكَ ما هو لكَ ، وأستعيذُكَ مِنْ كلِّ أمرٍ يُسخِطُكَ .

اللهمَّ ؛ ولا تشغلْني شغلَ مَنْ شغلَهُ عنكَ ما أرادَهُ منكَ إلا أنْ يكونَ لكَ

اللهمَّ ؛ اجعلْني ممَّنْ يذكرُكَ ذكرَ مَنْ لا يريدُ بذكرِهِ منكَ إلا ما هو لكَ

اللهمَّ ؛ اجعلْ غايةَ مقصدي إليكَ ما هو لكَ ، ولا تجعلْ قصدي إليكَ ما أطلبُهُ منكَ)[3]

* *

---

(١) أوردها الإمام القشيري في « رسالته » (ص٥١٥)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٨٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٨٢)

الحكمة الخامسة والسبعون (*)

ٱلْحُزْنُ عَلَىٰ فُقْدَانِ ٱلطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ ٱلنُّهُوضِ إِلَيْهَا . . مِنْ عَلامَةِ ٱلِاغْتِرَارِ .

هٰذا هو الحزنُ الكاذبُ الذي يكونُ عنهُ بكاءُ الكذابينَ ، كما قالوا (كم مِنْ عينٍ جاريةٍ وقلبٍ قاسٍ) ، وهو مِنْ مكرِ اللهِ تعالى الخفيِّ ؛ حيثُ منعَهُ ما ينفعُهُ ، وأعطاهُ ما يغترُّ بهِ مِنَ الحزنِ والبكاءِ .

سمعَتْ رابعةُ العدويَّةُ رجلاً يقولُ وا حزناهْ ، فقالَتْ : قُلْ وا قلَّةَ حزناهْ ، ولو كنتَ محزوناً لم يتهيَّأْ لكَ أنْ تتنفَّسَ[1]

وأمَّا الحزنُ الصادقُ فيخالفُ هٰذا ، وهو مقامٌ مِنْ مقاماتِ السالكينَ ، وهو يبعثُ على الانكماشِ في الأعمالِ ، والنهوضِ إلى الطاعاتِ على كلِّ حالٍ

قالَ الشيخُ أبو عليٍّ الدقاقُ : (صاحبُ الحزنِ يقطعُ مِنَ السيرِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في شهرٍ ما لا يقطعُهُ مَنْ فقدَ حزنَهُ في سنينَ)[2]

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى القول بالخِذْلان ، وأن الحزن مع العمل من التوفيق ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد : ١٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام معلماً : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ العجزِ والكسلِ » ، رواه البخاري (٢٨٢٣) ، ومسلم (٢٧٠٦) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٥٦) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص٣٦٩) .

(٢) رواه الإمام القشيري في « رسالته » (ص٣٦٨)

وفي الخبرِ : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِينٍ »[1]

وفي التوراةِ : (إذا أحبَّ اللهُ عبداً نصبَ في قلبِهِ نائحةً ، وإذا أبغضَ عبداً نصبَ في قلبِهِ مزماراً)[2]

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ متواصلَ الأحزانِ ، دائمَ الفكرةِ[3]

وقيلَ : (الحزنُ إذا فُقِدَ مِنَ القلبِ خَرِبَ)[4] ، ومَنْ لم يذقْ طعمَ الحزنِ لم يذقْ لذةَ العبادةِ .

فإذاً ؛ الحزنُ الذي يجدُهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ إنْ لم يبعثْهُ على النهوضِ والانكماشِ والاجتهادِ . فذلكَ مِنْ علاماتِ الاغترارِ ، وليسَ بمقامِ السالكينَ الأبرارِ .

* * *

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٦٦) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٣٦٨) .

(٣) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٣١) من حديث سيدنا هند بن أبي هالة رضي الله عنه .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٧٠) عن مالك بن أنس رحمه الله تعالىٰ ، وتمامه : (كما أن البيت إذا لم يُسكن خرب) .

الحكمة السادسة والسبعون (*)

مَا ٱلْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ ٱلْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ ، بَلِ ٱلْعَارِفُ مَنْ لا إِشَارَةَ لَهُ ؛ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ ، وَٱنْطِوَائِهِ فِي شُهُودِهِ .

الإشارةُ ألطفُ مِنَ العبارةِ ، وهي كنايةٌ وتلويحٌ ، وإيماءٌ لا تصريحٌ ، وهي التي يستعملُها أهلُ هـٰذهِ الطريقةِ فيما بينَهم عندَ ذكرِهم لأسرارِ التوحيدِ ؛ كما تقدَّمَ عندَ قولِهِ : (مَنْ رأيتَهُ مجيباً عن كلِّ ما سُئِلَ ، ومعبِّراً لكلِّ ما شهدَ . . .)[1]

فالمشيرُ إلى اللهِ تعالى الملاحظُ لإشارتِهِ ، وإنْ وجدَ اللهَ أقربَ إليهِ مِنْ إشارتِهِ . . غيرُ عارفٍ على التحقيقِ ؛ لأنَّهُ بوصفِ التفرقةِ بشهودِهِ للأغيارِ ، بلِ العارفُ : الفاني في وجودِهِ ، المنطوي في شهودِهِ ، الذي غابَ عنِ الإشارةِ والمشيرِ والمشارِ بهِ .

سُئِلَ الدقَّاقُ عنِ المريدِ ، فقالَ : حقيقةُ المريدِ أنْ يشيرَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه الجلالية ، ومنها المخالفة للحوادث ، وإلىٰ تباين الوجود الذاتي والوجود العرضي في الماهية .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [قٓ : ١٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يا أيُّها الناسُ ؛ اربعوا علىٰ أنفسِكم ، فإنَّكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائباً ، إنَّهُ معكم ، إنَّهُ سميعٌ قريبٌ ، تباركَ اسمُهُ ، وتعالىٰ جدُّهُ » ، رواه البخاري (٢٩٩٢) ، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٤٠٢) .

فيجدَ اللهَ معَ نفسِ الإشارةِ ، قيلَ لهُ : فالذي يستوعبُ حالَهُ ؟ قالَ هو الذي يجدُ اللهَ بإسقاطِ الإشارةِ[1]

وسُئِلَ أبو عليٍّ الروذْباريُّ عنِ الإشارةِ ، فقالَ (الإشارةُ : الإبانةُ عمَّا يتضمَّنُهُ الوجدُ مِنَ المشارِ إليهِ لا غيرُ ، وفي الحقيقةِ أنَّ الإشارةَ تصحبُها العللُ ، والعللُ بعيدةٌ عن عينِ الحقائقِ)[2]

وقالَ الشبليُّ : (كلُّ إشارةٍ أشارَ بها الخلْقُ إلى الحقِّ فهي مردودةٌ عليهم ، حتىٰ يشيروا إلى الحقِّ بالحقِّ ، وليسَ لهم إلىٰ ذلكَ طريقٌ)[3]

وقالَ أبو يزيدَ : (أبعدُهم مِنَ اللهِ أكثرُهم إشارةً إليهِ)[4]

* * *

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/٣٥٦) ، وانظر « اللمع » للطوسي (ص٢٩٤) وقال : (وهلذه مسألة تعرف للجنيد رحمه الله تعالىٰ)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٥٧) .

(٣) أورده الطوسي في « اللمع » (ص٢٩٤)

(٤) أورده الطوسي في « اللمع » (ص٢٩٥) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٣٥٣) عن ذي النون المصري رحمه الله تعالىٰ بنحوه .

الحكمة السابعة والسبعون (*)

ٱلرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ ، وَإِلا فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ

الرجاءُ : مقامٌ شريفٌ مِنْ مقاماتِ اليقينِ ، وهو يبعثُ على الاجتهادِ في الأعمالِ كما ذكرناهُ في الحزنِ(١) ؛ لأنَّ مَنْ رجا شيئاً طلبَهُ ، ومَنْ خافَ مِنْ شيءٍ هربَ منهُ .

وأمَّا الرجاءُ الكاذبُ الذي يفتِّرُ صاحبَهُ عنِ العملِ ، ويجرِّئُهُ على المعاصي والذنوبِ . . فليسَ هـٰذا برجاءٍ عندَ العلماءِ ، ولـٰكنَّهُ أُمنيَّةٌ واغترارٌ باللهِ تعالىٰ ، وقد ذمَّ اللهُ قوماً ظنُّوا مثلَ هـٰذا ، وأصرُّوا علىٰ حبِّ الدنيا والرضا بها ، وتمنَّوُا المغفرةَ علىٰ ذلكَ فسمَّاهم خَلْفاً ، والخَلْفُ الرديءُ مِنَ الناسِ ؛ فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف : ١٦٩]

قالَ معروفٌ الكرخيُّ : (طلبُ الجنَّةِ بلا عملٍ ذنبٌ مِنَ الذنوبِ ، وارتجاءُ الشفاعةِ بلا سببٍ نوعٌ مِنَ الغرورِ ، وارتجاءُ رحمةِ مَنْ لا يُطاعُ جهلٌ وحمقٌ)(٢)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن من علامة معرفة الحق تعالى الواجبة على العباد : تعلُّقَ القلب برجائِهِ ، ومن علامات هـٰذا الرجاء الإيماني الصادق : ليونة البدن عنده لطاعة الله تعالىٰ ، وإلىٰ أن الرجاء والعمل سببان جعليان خلقهما الحق تعالىٰ علامتين علىٰ توفيقه ، وإلا كان العبد مخذولاً .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ ﴾ [النساء : ١٢٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام معلماً : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ العجزِ والكسلِ » المتقدم (ص ٢٣٤) تعليقاً

(١) انظر (ص ٣٢٩ـ ٣٣٠) .

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص٨٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٦٧) .

وقد قالوا : (مَنْ زعمَ أنَّ الرجاءَ معَ الإصرارِ صحيحٌ . . فكذلكَ فليزعمْ أنَّ طلبَ الربحِ في الفقرِ ، وقدحَ النارِ مِنَ البحرِ . . صحيحٌ)

وفي الحديثِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ٱلْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ، وٱلْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّىٰ عَلَى ٱللهِ »[1]

وقالَ الحسنُ : (إنَّ قوماً ألهتْهم أمانيُّ المغفرةِ حتىٰ خرجوا مِنَ الدنيا وليسَتْ لهم حسنةٌ ؛ يقولُ أحدُهم : أُحسنُ الظنَّ بربِّي ، كذبَ ؛ لو أحسنَ الظنَّ بربِّهِ لأحسنَ العملَ ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت : ٢٣])[2]

وكانَ يقولُ : (عبادَ اللهِ ؛ اتقوا هٰذهِ الأمانيَّ ؛ فإنَّها أوديةُ النَّوْكىٰ يحلُّونَ فيها ، واللهِ ؛ ما آتى اللهُ عبداً بأمانيِّهِ خيراً في الدنيا ولا في الآخرةِ)[3]

وكتبَ أبو عميرٍ [الصوريُّ][4] إلىٰ بعضِ إخوانِهِ : (أمَّا بعدُ : فإنَّكَ قد أصبحتَ تأملُ بطولِ عمرِكَ ، وتتمنَّىٰ على اللهِ الأمانيَّ بسوءِ فعلِكَ ، وإنَّما تَضْرِبُ حديداً بارداً)[5]

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنهما .

(٢) أورده القرطبي في « تفسيره » (١٥/ ٣٥٣) ، والحسن : هو البصري .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٢٨٨) ، والنوكىٰ : الحمقىٰ .

(٤) في جميع النسخ المعتمدة : (المنصوري) ، وإنما هو (الصوري) نسبة إلىٰ صور ، واسمه : أبان بن سليم .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٩٨) ، والضرب في حديد بارد لا يطبع .

الحكمة الثامنة والسبعون (*)

مَطْلَبُ ٱلْعَارِفِينَ مِنَ ٱللهِ ٱلصِّدْقُ فِي ٱلْعُبُودِيَّةِ ، وَٱلْقِيَامُ بِحُقُوقِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ .

مطلبُ العارفينَ مِنْ ربِّهم أعلىٰ مِنْ مطالبِ غيرِهم ، سواءٌ كانوا عُبَّاداً أو زهَّاداً أو علماءَ ؛ لأنَّ مطلبَ العارفينَ إنَّما هو الصدقُ في العبوديةِ ، والقيامُ بحقوقِ الربوبيَّةِ فقطْ ، مِنْ غيرِ مراعاةِ حظٍّ ، ولا بقاءٍ معَ نفسٍ ، وكلُّ مَنْ عداهم لم يفارقوا الحظوظَ والأعواضَ في مطالبِهم ، وقد تقدَّمَ مِنْ كلامِ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ : (خيرُ ما تطلبُهُ منهُ ما هو طالبُهُ منكَ)[1]

قالَ سيدي أبو مدينَ : (شتَّانَ بينَ مَنْ همُّهُ الحورُ والقصورُ ، وبينَ مَنْ همُّهُ رفعُ الستورِ ودوامُ الحضورِ)

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ أوجب لحكمةٍ علىٰ عباده معرفتَهُ ، وعبَّدهم سبحانه له فافترض عليهم فرائضَ تنجيهم ، وسنناً وآداباً تكمِّلهم ، وفاوت بينهم ، وجعل أقدارهم علىٰ قدر صدقهم في أعمالهم ، وتحققهم بأوصافهم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء : ١٧٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ ؛ فإنَّما أنا عبدٌ » ، رواه البزار في « مسنده » (٥٧٥٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(١) انظر (ص ٤١٧) .

الحكمة التاسعة والسبعون (*)

بَسَطَكَ كَيْ لا يُبْقِيَكَ مَعَ ٱلْقَبْضِ ، وَقَبَضَكَ كَيْ لا يَتْرُكَكَ مَعَ ٱلْبَسْطِ ، وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا حَتَّىٰ لا تَكُونَ لِشَيْءٍ دُونَهُ .

القبضُ والبسطُ مِنَ الحالاتِ التي يتلوَّنُ بها العارفونَ ، وهما بمنزلةِ الخوفِ والرجاءِ للمريدينَ والمبتدئينَ(١) ، وبينَهُما الوارداتُ التي تردُ علىٰ باطنِ العبدِ ، وقوَّتُهُما وضعفُهُما بحسَبِ قوَّةِ الوارداتِ وضعفِها

والمقصودُ ها هنا أنَّهما وصفانِ ناقصانِ بالنسبةِ إلىٰ ما فوقَهُما ؛ فإنَّهما

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلى اسمه تعالى (الرب) ، وإلىٰ أنه تعالىٰ هو المتولي لتدبير جميع أمور عباده بمطلق إرادته ، ولهـٰذه الإرادة تعلقات خاصة تُسمَّىٰ بالرحمة والعناية واليدين ، يتجلىٰ بها سبحانه علىٰ خواصِّ خلقه ، ومن ذلك أحوال قلوبهم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، **وقوله تعالىٰ** ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « فاطمةُ بَضعةٌ منِّي ؛ يقبضُني ما قبضَها ، ويَبْسُطُني ما بسطَها » ، رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٣٢٣) من حديث سيدنا المسور بن مخرمة رضي الله عنه ، وعند الترمذي (٢٩٥٣) من حديث سيدنا عدي بن حاتم رضي الله عنه لما أسلم بين يديه عليه الصلاة والسلام ، قال : « فرأيتُ وجهَهُ تبسَّط فرحاً » .

(١) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص٢٤٠) : (ومن الفصل بين القبض والخوف والبسط والرجاء : أن الخوف من شيء في المستقبل ؛ إما خوفُ فوتِ محبوب ، أو هجومِ محذور ، وكذلك الرجاء ؛ إنما يكون بتأميل محبوب في المستقبل ، أو بتطلع زوال محذور وكفايةِ مكروه في المستأنف ، وأما القبض فلمعنىً حاصل في الوقت ، وكذلك البسط ، فصاحب الخوف والرجاء تعلَّق قلبه في حالتيه بآجله ، وصاحب القبض والبسط أُخِذَ وقته بوارد غلبَ عليه في عاجله) ، ثم الخوف والرجاء لا ينعدمان من قلب مؤمن ، بخلاف القبض والبسط .

يقتضيانِ بقاءَ العبدِ ووجودَهُ ، فمِنْ لطْفِ اللهِ بعبدِهِ تلوينُهُ فيهما ، ثم إخراجُهُ عنهُما ؛ بفنائِهِ عن نفسِهِ ، وبقائِهِ بربِّهِ

قالَ فارسٌ (القبضُ أولاً ، ثم البسطُ ، ثم لا قبضَ ولا بسطَ ؛ لأنَّ القبضَ والبسطَ يقعانِ في الوجودِ ، وأمَّا معَ الفناءِ والبقاءِ فلا)[1]

وكانَ الجنيدُ يقولُ : (الخوفُ يقبضُني ، والرجاءُ يَبْسُطُني ، والحقيقةُ تجمعُني ، والحقُّ يفرِّقُني ؛ إذا قبضَني بالخوفِ أفناني عنِّي ، وإذا بسطَني بالرجاءِ ردَّني عليَّ ، وإذا جمعَني بالحقيقةِ أحضرَني ، وإذا فرَّقني بالحقِّ أشهدَني غيري فغطَّاني عنهُ ، فهو في ذلكَ كلِّهِ محرِّكي غيرُ مسكِّني ، وموحشي غيرُ مؤنسي ، فحضوري لذوْقِ طعمِ وجودي ، فليتَهُ أفناني عنِّي فمتَّعَني ، أو غيَّبَني عنِّي فروَّحَني)[2]

وقد تكلَّمَ صاحبُ « عوارفِ المعارفِ » في القبضِ والبسطِ بكلامٍ بديعٍ طويلٍ ، تركتُ نقلَهُ ها هنا اختصاراً ؛ فمَنْ أرادَهُ فلينظرْهُ هناكَ[3]

* * *

---

(١) أورده الإمام السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/ ٣١١) ، وفارس : هو الدينوري .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٤٢) ، وفيها : (بحضوري أذوق) بدل (فحضوري لذوق) .

(٣) انظر « عوارف المعارف » (٢/ ٣٠٩)

الحكمة الثمانون (*)

ٱلْعَارِفُونَ إِذَا بُسِطُوا أَخْوَفُ مِنْهُمْ إِذَا قُبِضُوا ، وَلا يَقِفُ عَلَىٰ حُدُودِ ٱلأَدَبِ فِي ٱلْبَسْطِ إِلا قَلِيلٌ

إنَّما اشتدَّ خوفُ العارفينَ في البسطِ ما لم يشتدَّ في القبضِ. . مِنْ قِبَلِ ملاءمتِهِ لهوىٰ أنفسِهم ، بخلافِ القبضِ ، كما سيقولُهُ المؤلِّفُ الآنَ[1] ، فيخافونَ حينَئذٍ مِنْ رجوعِهم إليهِ[2] ، وذوقِهم لطعمِ نفوسِهم ، وفي ذلكَ الطردُ والبعدُ .

وقد كتبَ يوسفُ بنُ الحسينِ الرازيُّ إلى الجنيدِ : (لا أذاقَكَ اللهُ طعمَ نفسِكَ ؛ فإنَّكَ إنْ ذقتَها لا تذوقُ بعدَها خيراً أبداً)[3]

ومِنْ ثَمَّ يتأكَّدُ عليهم في ذلكَ ملازمةُ الأدبِ ، ودوامُ الانقباضِ والانكسارِ ، وذلكَ أمرٌ عسيرٌ في هـٰذا الحالِ ، ولذلكَ لا يقفُ علىٰ حدودِ الأدبِ في البسطِ إلا قليلٌ كما قالَ المؤلِّفُ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أن كمالات الحق لا نهاية لها ، فلا مطمع للعبد بتحقيق ما يجب عليه للجناب العلي ، وخير مطية لذلك الأدبُ
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ أنجزْ لي ما وعدتَني ، اللهمَّ ؛ آتِ ما وعدتَني ، اللهمَّ ؛ إن تُهْلِكْ هـٰذهِ العصابةَ من أهل الإسلام لا تعبدْ في الأرض » ، رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

(١) يعني : الحكمة الآتية (ص ٤٣١)

(٢) يعني : البسط ، وفي (ج) : (إليهم) ومعناها ظاهر .

(٣) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص١٧٣) .

وقد قيلَ : (قِفْ على البساطِ ، وإيَّاكَ والانبساطَ)[1]

وقالَ رجلٌ لأبي محمدٍ الجريريِّ كنتُ على بساطِ الأُنْسِ ، وفُتِحَ عليَّ طريقُ البسطِ ، فزللتُ زلَّةً ، فحُجِبتُ عن مقامي ، فكيفَ السبيلُ إليهِ ؟ دُلَّني على الوصولِ إلىٰ ما كنتُ عليهِ ، فبكىٰ أبو محمدٍ وقالَ : يا أخي ؛ الكلُّ في قهرِ هـٰذهِ الخُطَّةِ ، لـٰكنِّي أُنْشِدُكَ أبياتاً لبعضِهم : [من الكامل]

قِفْ بِٱلدِّيَارِ فَهَـٰذِهِ آثَارُهُمْ ... تَبْكِي ٱلأَحِبَّةَ حَسْرَةً وَتَشَوُّقَا
كَمْ قَدْ وَقَفْتُ بِرَبْعِهَا مُسْتَخْبِراً ... عَنْ أَهْلِهَا أَوْ سَائِلاً أَوْ مُشْفِقَا
فَأَجَابَنِي دَاعِي ٱلْهَوَىٰ فِي رَسْمِهَا ... فَارَقْتَ مَنْ تَهْوَىٰ فَعَزَّ ٱلْمُلْتَقَىٰ[2]

وسُئِلَ بعضُ المشايخِ عن تلكَ الزلَّةِ ، فقالَ : انبساطٌ معَ الحقِّ بغيرِ أدبٍ ، قالَ الأستاذُ أبو القاسمِ القشيريُّ : (ومِنْ هـٰذا خَشِيَ الأكابرُ والسادةُ)[3]

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (البسطُ مزلَّةُ أقدامِ الرجالِ ، فهو موجبٌ لمزيدِ حذرِهم ، وكثرةِ لَجْئِهم ، والقبضُ أقربُ إلىٰ وجودِ السلامةِ ؛ لأنَّهُ وطنُ العبدِ ؛ إذْ هو في أسرِ قبضةِ اللهِ ، وإحاطةُ الحقِّ محيطةٌ بهِ ، ومِنْ أينَ يكونُ للعبدِ البسطُ وهـٰذا شأنُهُ ؟! والبسطُ خروجٌ عن حكمِ وقتِهِ ، والقبضُ هو اللائقُ بهـٰذهِ الدارِ ؛ إذْ هي وطنُ التكليفِ ، وإبهامِ الخاتمةِ ، وعدمِ العلمِ بالسابقةِ ، والمطالبةِ بحقوقِ اللهِ تعالىٰ)[4]

قالَ : (وأخبرَني بعضُ الصوفيَّةِ قالَ : رأىٰ شيخُنا شيخَهُ في المنامِ بعدَ موتِهِ

---

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص٢٤٢) .
(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص٢٦٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٤٨) .
(٣) كذا في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١٢٣) مع القصة ، وأوردها التادلي في « التشوف » (ص٣٢٤) .
(٤) لطائف المنن (ص١٥٩) .

مقبوضاً ، فقلتُ لهُ : يا أستاذُ ؛ ما لكَ مقبوضاً ؟ فقالَ لهُ : يا بنيَّ ؛ القبضُ والبسطُ مقامانِ مَنْ لم يُوَفِّهِما في الدنيا وفَّاهُما في الآخرةِ ، قالَ : وكانَ هـٰذا الشيخُ الغالبُ في حياتِهِ البسطُ) انتهى[1]

* * *

---

(١) لطائف المنن (ص١٥٩)

الحكمة الحادية والثمانون (*)

ٱلْبَسْطُ تَأْخُذُ ٱلنَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ ٱلْفَرَحِ ، وٱلْقَبْضُ لا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ

في هـٰذا إشارةٌ لما تقدَّمَ مِنْ أنَّ مراعاةَ الأدبِ في البسطِ أمرٌ عسيرٌ ؛ وذلكَ أنَّ في البسطِ وجودَ حظٍّ للنفسِ ، فيستولي عليها الفرحُ بذلكَ ، فلا يتمالكُ حتىٰ يقعَ في سوءِ الأدبِ ، والقبضُ ليسَ فيهِ حظٌّ للنفسِ ، فلذلكَ كانَ أسلمَ

وكانَ الأستاذُ أبو عليٍّ الدقاقُ يقولُ : (القبضُ حقُّ الحقِّ منكَ ، والبسطُ حظُّ العبدِ منهُ ، ولَأنْ تكونَ لحقِّهِ منكَ أتمُّ مِنْ أنْ تكونَ بحظِّكَ منهُ)[1]

وأمَّا آدابُ القبضِ والبسطِ فلا أعلمُ مَنِ استوفى الكلامَ فيهما مِنْ علماءِ الصوفيَّةِ ومصنِّفيهم ، وإنَّما وجدنا لهم مِنْ ذلكَ إشاراتٍ جُمْليَّةً ؛ كقولِ الإمامِ أبي القاسمِ القشيريِّ بعدَ أنْ تكلَّمَ علىٰ لفظتَي القبضِ والبسطِ وتبيينِ معانيهما ، إلىٰ أنْ قالَ (وقد يكونُ قبضٌ يُشكِلُ علىٰ صاحبِهِ سببُهُ ؛ يجدُ في قلبِهِ قبضاً لا يدري ما موجبُهُ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمتان السابقتان ، وأن لا حقَّ للعبد على الله أصلاً ، وما ورد شرعاً فهو من باب الفضل وعين الجود .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ [محمد : ٢٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام لسيدنا زيد بن حارثة : « أنتَ أخونا ومولانا » ، فحجلَ ، وقال لسيدنا جعفر : « أنتَ أشبهُهم بي خلْقاً وخلُقاً » ، فحجل وراء حجل زيد ، وقال لسيدنا علي : « أنتَ منِّي وأنا منكَ » ، فحجل وراء حجل جعفر ، رواه البزار في « المسند » (٧٤٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ٦) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه

(١) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١٢٣)

وما سببُهُ ، وسبيلُ صاحبِ هـٰذا القبضِ : التسليمُ حتىٰ يمضيَ ذلكَ الوقتُ ؛ لأنَّهُ لو تكلَّفَ نفيَهُ ، أوِ استقبلَ الوقتَ قبلَ هجومِهِ عليهِ باختيارِهِ . . زادَ في قبضِهِ ، ولعلَّهُ يُعتدُّ ذلكَ منهُ سوءَ أدبٍ ، وإذا استسلمَ لحكمِ الوقتِ فعن قريبٍ يزولُ القبضُ ؛ فإنَّ الحقَّ سبحانَهُ قالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

وقد يكونُ بسطٌ يردُ بغتةً ، ويصادفُ صاحبَهُ فلتةً ، لا يعرفُ لهُ سبباً ، يهزُّ صاحبَهُ ويستفزُّهُ ، فسبيلُ صاحبِهِ : السكونُ ومراعاةُ الأدبِ ؛ فإنَّ في هـٰذا الوقتِ لهُ خطراً عظيماً ، فليحذرْ صاحبُهُ مكراً خفيّاً ؛ كما قالَ بعضُهم (فُتِحَ عليَّ بابٌ مِنَ البسطِ ، فزللتُ زلَّةً ، فحُجبتُ عن مقامي) انتهىٰ كلامُ أبي القاسمِ[(١)]

وقد رأيتُ كلاماً مبسوطاً مستوفىً في آدابِ القبضِ والبسطِ لسيدي أبي الحسنِ الشاذليِّ ، فأحببتُ أنْ أذكرَهُ ها هنا لتتمَّ بهِ الفائدةُ التي تعرَّضَ لها المؤلِّفُ ، وإنْ كانَ كلامُ الشيخِ أبي الحسنِ في ذلكَ أعمَّ ممَّا هو عندَ غيرِهِ مِنْ أئمَّةِ الصوفيَّةِ ، قالَ رحمَهُ اللهُ :

(القبضُ والبسطُ قلَّما يخلو العبدُ منهما ، وهما يتعاقبانِ كتعاقبِ الليلِ والنهارِ ، والحقُّ سبحانَهُ يقتضي منكَ العبوديةَ فيهما ، فمَنْ كانَ وقتُهُ القبضَ : فلا يخلو مِنْ أنْ يعلمَ سببَهُ أو لا يعلمَ .

وأسبابُ القبضِ ثلاثةٌ : ذنبٌ أحدثتَهُ ، أو دنيا ذهبَتْ عنكَ أو نقصَتْ لكَ ، أو ظالمٌ يؤذيكَ في نفسِكَ أو في عرضِكَ أو ينسبُكَ لغيرِ دينٍ أو غيرِ ذلكَ .

فإذا وردَ عليكَ القبضُ مِنْ أحدِ هـٰذهِ الأسبابِ : فالعبوديَّةُ تقتضي أنْ ترجعَ إلى العلمِ مستعمِلاً لهُ كما أمرَكَ[(٢)] ، أمَّا في الذنبِ : فبالتوبةِ والإنابةِ وطلبِ الإقالةِ ، وأمَّا فيما ذهبَ عنكَ مِنَ الدنيا أو نقصَ : فبالتسليمِ والرضا والاحتسابِ ، وأمَّا فيما يؤذيكَ بهِ ظالمٌ : فبالصبرِ والاحتمالِ .

---

(١) قاله في « الرسالة القشيرية » (ص٢٤١) ، ويعتدُّ : يعدُّ .

(٢) قوله : (تقتضي) ليست في (ج ، د ، هـ) .

واحذرْ أنْ تظلمَ نفسَكَ ، فيجتمعَ عليكَ ظلمانِ ؛ ظلمُ غيرِكَ لكَ ، وظلمُكَ لنفسِكَ ، فإنْ فعلتَ ما التزمتَ بهِ مِنَ الصبرِ والاحتمالِ . . أثابَكَ سعةَ الصدرِ حتىٰ تعفوَ وتصفحَ ، وربَّما أثابَكَ مِنْ بردِ الرضا ما ترحمُ بهِ مَنْ ظلمَكَ ، فتدعو لهُ فتُجابُ فيهِ دعوتُكَ ، وما أحسنَ ذلكَ إذا رحمَ اللهُ بكَ مَنْ ظلمَكَ ! فتلكَ درجةُ الصديقينَ الرحماءِ ، وتوكَّلْ على اللهِ ، إنَّ اللهَ يحبُّ المتوكلينَ

وأمَّا إذا وردَ عليكَ القبضُ ولم تعلمْ لهُ سبباً : فالوقتُ وقتانِ ؛ ليلٌ ونهارٌ ، فالقبضُ أشبهُ شيءٍ بالليلِ ، والبسطُ أشبهُ شيءٍ بالنهارِ ، فإذا وردَ القبضُ بغيرِ سببٍ تعلمُهُ : فالواجبُ عليكَ السكونُ ، والسكونُ عن ثلاثةِ أشياءَ عنِ الأقوالِ ، والحركاتِ ، والإراداتِ ، فإنْ فعلتَ ذلكَ فعن قريبٍ يذهبُ عنكَ الليلُ بطلوعِ شمسِ النهارِ(١) ، أو يبدوَ نجمٌ تهتدي بهِ ، أو قمرٌ تستضيءُ بهِ(٢) ، والنجومُ نجومُ العلمِ ، والقمرُ قمرُ التوحيدِ ، والشمسُ شمسُ المعرفةِ ، وإنْ تحرَّكْتَ في ظلمةِ الليلِ فقلَّما تسلمُ مِنَ الهلاكِ ، واعتبرْ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : ٧٣] ، فهٰذا حكمُ العبوديةِ في القبضينِ جميعاً

وأمَّا مَنْ كانَ وقتُهُ البسطَ فلا يخلو مِنْ أنْ يعلمَ لهُ سبباً أو لا ، والأسبابُ ثلاثةٌ :

السببُ الأوَّلُ : زيادةٌ في الطاعةِ ، أو نوالٌ مِنَ المطاعِ ؛ كالعلمِ والمعرفةِ

والسببُ الثاني : زيادةٌ مِنْ دنيا بكسبٍ ، أو كرامةٍ ، أو هبةٍ ، أو صلةٍ

والسببُ الثالثُ : بالمدحِ والثناءِ مِنَ الناسِ ، وإقبالِهم عليكَ ، وطلبِ الدعاءِ منكَ ، وتقبيلِ يدِكَ .

---

(١) في (و) وحدها : (نهارك) بدل (النهار) .
(٢) في (ج) زيادة : (أو شمس تبصر بها) ، وذكرت الشمس قبلُ .

فإذا وردَ عليكَ البسطُ مِنْ أحدِ هـٰذهِ الأسبابِ فالعبوديَّةُ تقتضي أنْ ترىٰ أثرَ النعمةِ والمنَّةِ مِنَ اللهِ عليكَ ، واحذرْ أنْ ترىٰ شيئاً مِنْ ذلكَ لنفسِكَ ، وحصِّنْها أنْ يلازمَها الخوفُ ؛ خوفُ السلبِ ممَّا بهِ أنعمَ عليكَ فتكونَ ممقوتاً ، هـٰذا في جانبِ الطاعةِ والنوالِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وأمَّا الزيادةُ مِنَ الدنيا : فهي نعمةٌ أيضاً كالأولىٰ ، فخَفْ ممَّا بطنَ مِنْ آفاتِها

وأمَّا مدحُ الناسِ لكَ وثناؤُهم عليكَ : فالعبوديَّةُ تقتضي شكرَ النعمةِ بما سترَهُ عليكَ ، وخَفْ مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ يظهِرَ ذرَّةً ممَّا بطنَ منكَ فيمقتَكَ أقربُ الناسِ إليكَ

وأمَّا البسطُ الذي لا تعلمُ لهُ سبباً فحقُّ العبوديَّةِ فيهِ تركُ السؤالِ والإدلالِ ، والصولةِ على النساءِ والرجالِ ، اللهمَّ إلا أنْ تقولَ : « سلِّمْ سلِّمْ » إلى المماتِ .

فهـٰذهِ آدابُ القبضِ والبسطِ في العبوديةِ جميعاً إنْ عقلتَ ، والسلامُ) انتهىٰ ما ذكرَهُ الشيخُ أبو الحسنِ ، وكلامُهُ في ذلكَ حسنٌ ، والحمدُ للهِ الذي بيدِهِ سوابغُ المننِ[1]

* *

(١) في (ج) : (لطائف) بدل (سوابغ) ، وفي (هـ) : (والحمد لله الذي بيده سوابغ النعم والمنن) ، وانظر « المفاخر العلية » (ص ٧٢) .

الحكمة الثانية والثمانون (*)

رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ

منعُ اللهِ تعالىٰ عبدَهُ مِنْ نيلِ شهواتِهِ ولذَّاتِهِ ، والكونِ معَ شيءٍ مِنْ عاداتِهِ . . عطاءٌ جزيلٌ منهُ ؛ لأنَّهُ أبقاهُ معَهُ ، واقتطعَهُ عن حظوظِهِ وأغراضِهِ وحرَّرَهُ منها ، وعكسُ هـٰذا هو المنعُ على التحقيقِ ، وإنْ كانَ عطاءً في الظاهرِ .

قالَ الشيخُ محيي الدينِ بنُ عربيٍّ : (إذا مُنِعتَ فذاكَ عطاؤُهُ ، وإذا أُعطيتَ فذاكَ منعُهُ ، فاخترِ التركَ على الأخذِ)[1] ، فالواجبُ على العبدِ أنْ يتركَ التدبيرَ والاختيارَ لمَنْ بيدِهِ ذلكَ ، فلن يَعدَمَ منهُ خيراً .

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تعلقات الإرادة الأزلية ، وتجليات بعض الأسماء العرفانية ، فالنافع والضارُّ على الحقيقة هو الله تعالىٰ ، إلا أنه سبحانه قد يتجلّىٰ بعطائه في صورة المنع وبالعكس ، وله في ذلك حكم عليّة .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « عجباً لأمرِ المؤمنِ ! إنَّ أمرَهُ كلَّهُ خيرٌ ؛ وليسَ ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ ؛ إنْ أصابتْهُ سرَّاءُ شكرَ فكانَ خيراً لهُ ، وإنْ أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكانَ خيراً لهُ » ، رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث سيدنا صهيب رضي الله عنه .

(١) قاله في كتاب « التراجم » (باب ترجمة القهر) . انظر « رسائل ابن عربي » (ص٢١٧) .

الحكمة الثالثة والثمانون (*)

مَتَىٰ فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْفَهْمِ فِي ٱلْمَنْعِ.. عَادَ ٱلْمَنْعُ هُوَ عَيْنَ ٱلْعَطَاءِ

سيأتي بيانُ هٰذا مِنْ كلامِ المؤلِّفِ في قولِهِ (متىٰ أعطاكَ أشهدَكَ برَّهُ ، ومتىٰ منعَكَ أشهدَكَ قهرَهُ. . .) إلىٰ آخرِهِ[١]

*

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه قد يخصُّ من شاء من عبيده بمزيد عناية ورعاية ، ويفتح له من الفهم ما لا يفتح لغيره ، وإلىٰ أنه سبحانه كما يمنع ابتلاءً وفتنة قد يمنع رأفة ورحمة .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ حكاية : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ [الفتح : ١] وقد ظن المسلمون يومها أن الأمر علىٰ خلاف ذلك ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أما ترضونَ أن يذهبَ الناسُ بالأموالِ ، وترجعوا إلىٰ رحالِكم برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟! فواللهِ ؛ ما تنقلبونَ بهِ خيرٌ مما ينقلبونَ بهِ » ، رواه البخاري (٣١٤٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه

(١) انظر (ص ٤٥٦)

الحكمة الرابعة والثمانون (*)

ٱلْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ ، وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ ؛ فَٱلنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَىٰ ظَاهِرِ غِرَّتِهَا ، وَٱلْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَاطِنِ عِبْرَتِهَا

الأكوانُ ها هنا : كلُّ ما يمكنُ أنْ يكونَ للنفسِ فيهِ حظٌّ مِنْ متاعِ الدنيا وزهرتِها ؛ وهي رائقةُ الظاهرِ ، قبيحةُ الباطنِ ، كما قيلَ(1) [من الطويل]

عَلَىٰ وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاحَةٍ ... وَتَحْتَ ٱلثِّيَابِ ٱلْعَارُ لَوْ كَانَ بَادِيَا

فهي مِنْ حيثُ ظاهرُها حلوةٌ خَضِرَةٌ ، وبالنظرِ إلىٰ باطنِها جيفةٌ قذرةٌ ، فالنفسُ تنظرُ إلىٰ زينتِها الظاهرةِ فتغترُّ بها فتُهلِكُ صاحبَها ، والقلبُ ينظرُ إلىٰ قبائحِها الباطنةِ فيعتبرُ بها فيسلمُ مِنْ شرِّها .

وقد رُوِيَ في الكتبِ السالفةِ أنَّ الحواريينَ قالوا لعيسىٰ عليهِ السلامُ : يا روحَ اللهِ ؛ صِفْ لنا أولياءَ اللهِ تعالى الذينَ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنونَ ، فقالَ عليهِ السلامُ : همُ الذينَ بهم نطقَ الكتابُ وبهِ نطقوا ، وبهم عُلِمَ الكتابُ وبهِ عُلموا ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات عالمي الملك والملكوت ؛ فعالم الملك مدرك بالحواس الخمس ، وعالم الملكوت مدرك بعين البصيرة التي هي عين القلب ، وقد أعطىٰ ربُّنا كلاً من العالمين قدره ، وأمر بالاعتبار والاستبصار .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الروم : ٧] ، وقوله تعالىٰ ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر : ٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ الدنيا حلوةٌ خضرةٌ » رواه مسلم (٢٧٤٢) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

(١) البيت لذي الرُّمَّة . انظره ضمن خبر في « وفيات الأعيان » (٤/ ١٢) .

وبهم قامَ الكتابُ وبهِ قاموا ، نظروا إلىٰ باطنِ الدنيا حينَ نظرَ الناسُ إلىٰ ظاهرِها ، وعاينوا آجلَ الدنيا حينَ عاينَ الناسُ عاجلَها ، فأماتوا منها ما خَشُوا أنْ يميتَهم ، وتركوا منها ما علموا أنْ سيتركُهم ، فصارَ دَرَكُهم فيها فواتاً ، وفرحُهم فيها حزناً ، ما عارضَهم منها رفضوهُ ، وما أشرفَ لهم بغيرِ الحقِّ وضعوهُ .

خَلُقَتِ الدنيا عندَهم فلم يجدِّدُوها ، وخَرِبَتْ فيما بينَهم فلم يَعمُروها ، وماتَتْ في صدورِهم فلم يحيوها ، هدموها وبنَوْا بها آخرتَهم ، أحيَوْا ذكرَ الموتِ وأماتوا ذكرَ الحياةِ ، يحبُّونَ اللهَ ويحبُّونَ ذكرَهُ ، ويستضيئونَ بنورِهِ ويضيئونَ بهِ ، لهمُ الخبرُ العجيبُ ، وعندَهمُ الخبرُ العجيبُ[(١)]

وكانَ بعضُ العلماءِ يقولُ : (ما سطعَ لي زينةٌ مِنْ زخرفِ الدنيا إلا كُشِفَ لي باطنُهُ ، فظهرَ لي عزوفٌ عنها)[(٢)]

قالَ أبو طالبِ المكيُّ : (فهٰذهِ عنايةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ لمَنْ وَلِيَهُ مِنْ أوليائِهِ المقرَّبينَ منهُ ، فمَنْ شهدَ الدنيا بأوَّلِ وصفِها لم يغترَّ بآخرِهِ ، ومَنْ عرفَها بباطنِ حقيقتِها لم يُعجبْ بظاهرِها ، ومَنْ كُوشفَ بعاقبتِها لم يستهوِهِ زخرفُها ، وكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ يقولُ : ويلَكم علماءَ السوءِ ، مثلُكم مثلُ قناةِ حُشٍّ ؛ ظاهرُها جصٌّ ، وباطنُها نَتْنٌ)[(٣)]

*

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (١٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٠) ، وأورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣١٩)

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٧٣٩)

(٣) قاله في « قوت القلوب » (٢/ ٧٣٩) ، والحشُّ : المخرج والمتوَضَّأُ ، وما يُقصد لقضاء الحاجة .

الحكمة الخامسة والثمانون (*)

إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لا يَفْنَىٰ . . فَلا تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفْنَىٰ

العزُّ الذي لا يفنىٰ هو الغنىٰ عنِ الأسبابِ كلِّها بوجودِ مسبِّبِها ؛ لأنَّهُ باقٍ لا يفنىٰ ، فالتعلُّقُ بهِ عزٌّ لا يفنىٰ ، والعزُّ الذي يفنىٰ : هو الغنىٰ بالأسبابِ معَ الغَيبةِ عن مسبِّبِها ؛ لأنَّها فانيةٌ ، فالتعلُّقُ بها عزٌّ فانٍ لا يبقىٰ ، والتعلُّقُ باللهِ عزٌّ لا يفنىٰ ، وليسَ لكَ إلا أحدُهما ؛ لأنَّهما ضدانِ لا يجتمعانِ ، فإنْ اخترتَ العزَّ الباقيَ باللهِ لم يقدرْ أحدٌ أنْ يُذلَّكَ

يُحكىٰ : أنَّ رجلاً أمرَ بالمعروفِ لهارونَ الرشيدِ ، فحَرِدَ عليهِ هارونُ ، وكانَتْ لهُ بغلةٌ سيئةُ الخُلُقِ ، فقالَ : اربطوهُ معَها تقتلْهُ برَمْحِها ، ففعلوا ذلكَ ، فلم تضرَّهُ ، فقالَ اطرحوهُ في بيتٍ وطيِّنوا عليهِ البابَ ، ففعلوا ذلكَ ، فرُئِيَ في بستانٍ وبابُ البيتِ مسدودٌ ، فأُخبرَ هارونُ بذلكَ ، فأُتِيَ بالرجلِ ، فقالَ مَنْ أخرجَكَ مِنَ البيتِ ؟! فقالَ الذي أدخلَني البستانَ ، فقالَ ومَنْ أدخلَكَ البستانَ ؟! فقالَ : الذي أخرجَني مِنَ البيتِ ، فقالَ أركبوهُ دابّةً وطوفوا بهِ البلدَ ، وليقلْ قائلٌ ألا إنَّ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن لا عزيزَ إلا الله ، ثم لمَن نسبَهُ سبحانه وقبل نسبته إلىٰ جنابه ، وإلىٰ أن ما سواه تعالىٰ فانٍ في الحال والمضي والاستقبال ، وإنما بقي بإبقاء الله تعالىٰ له .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنِ اعتزَّ بالعبيدِ أذلَّهُ اللهُ » ، رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٩٨١) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

هارونَ قد أرادَ أنْ يُذِلَّ عبداً أعزَّهُ اللهُ تعالىٰ فلم يقدرْ[1]

وإنْ اخترتَ العزَّ بالأسبابِ خذلَتْكَ وأسلمَتْكَ أحوجَ ما تكونُ إليها ، وكنتَ في غايةِ الذلِّ والهوانِ .

حُكِيَ عن بعضِهم أنَّهُ قالَ : رأيتُ رجلاً في الطوافِ وبينَ يديهِ شاكريةٌ يطردونَ الناسَ[2] ، فبعدَ ذلكَ بمدَّةٍ رأيتُ إنساناً يتكفَّفُ الناسَ على الجسرِ ويسألُ شيئاً ، قالَ : وكنتُ أنظرُ إليهِ وشبَّهتُهُ بذلكَ الرجلِ ، فقالَ : أيْشٍ تنظرُ ؟ فقلتُ : أشبِّهُكَ برجلٍ رأيتُهُ في الطوافِ مِنْ شأنِهِ كذا وكذا ، فقالَ : أنا ذلكَ ؛ تكبَّرْتُ في موضعٍ يتواضعُ فيهِ الناسُ ، فوضعَني في موضعٍ يترفَّعُ فيهِ الناسُ[3]

قالَ في « التنويرِ » : (فإنِ اعتززْتَ باللهِ دامَ عزُّكَ ، وإنِ اعتززْتَ بغيرِهِ فلا بقاءَ لعزِّكَ ؛ إذْ لا بقاءَ لمَنْ أنتَ بهِ معتزٌّ ، وأنشدَنا بعضُ الفضلاءِ لنفسِهِ : [من مجزوء الكامل]

لِيَكُنْ بِرَبِّكَ كُلُّ عِزِّ ... كَ يَسْتَقِرُّ وَيَثْبُتُ

فَإِنِ ٱعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُو ... تُ فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

قالَ : ودخلَ إنسانٌ علىٰ بعضِ العارفينَ وهو يبكي ، فقالَ : ما شأنُكَ ؟ قالَ : ماتَ أستاذي ، فقالَ لهُ ذلكَ العارفُ : ولِمَ جعلتَ أستاذَكَ مَنْ يموتُ ؟!

ويُقالُ لكَ إذا اعتززْتَ بغيرِ اللهِ ففقدتَهُ ، أوِ استندتَ إلىٰ غيرِهِ فعدمتَهُ : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه : ٩٧-٩٨])[4]

* * *

---

(١) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص٨٩) .

(٢) الشاكرية : جمع شاكري ؛ وهو الأجير والمستخدم ، معرب (جاكر) .

(٣) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٣٨٥) .

(٤) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٩١)

الحكمة السادسة والثمانون (*)

ٱلطَّيُّ ٱلْحَقِيقِيُّ أَنْ تُطْوَىٰ مَسَافَةُ ٱلدُّنْيَا عَنْكَ حَتَّىٰ تَرَى ٱلْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْكَ .

طيُّ مسافةِ الدنيا إنَّما يُتصوَّرُ مِنَ العبدِ إذا أشرقَ نورُ اليقينِ في قلبِهِ ، فحينئذٍ تنعدمُ الدنيا في نظرِهِ ، وتنطوي في اعتبارِهِ ، ويرى الآخرةَ حاضرةً لديهِ موجودةً عندَهُ ، بل يراها أقربَ إليهِ منهُ ؛ إذْ ذاتُهُ فانيةٌ منطويةٌ بهـٰذا الاعتبارِ .

فمَنْ كانَتْ هـٰذهِ مشاهدتَهُ لا يُتصوَّرُ منهُ حبُّ الغائبِ الفاني وهي الدنيا ، واستبدالُهُ بالحاضرِ الباقي وهي الآخرةُ ، ولذلكَ كانَ أصلُ الرغبةِ في الدنيا وإيثارِها على الآخرةِ ضعفَ اليقينِ ، فمَنْ لم يشرقْ في قلبِهِ نورُ اليقينِ لم يشاهدِ الملكَ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات عالم الملكوت ؛ وهو عالم لا يداخله الزمان ولا المكان ، وإلىٰ أن خوارق العادات قد لا تكون كرامة ، بل استدراجاً ومكراً .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن : ٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ [الأعراف : ٤٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « عليكم بالدُّلْجةِ ؛ فإنَّ الأرضَ تُطوىٰ بالليلِ » ، رواه أبو داود (٢٥٧١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، وروى الترمذي (٣٦٤٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : (ما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنَّما الأرضُ تُطوىٰ لهُ) ، ولما قال سيدنا حارثة رضي الله عنه : كأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار كيف يتعادون فيها . . قال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « عبدٌ نوَّرَ اللهُ الإيمانَ في قلبِهِ » كما تقدم تعليقاً (ص٣٤٢) .

الكبيرَ ، ومَنْ لم يشاهدْهُ أحبَّ الدنيا ؛ وهي لا شيءٌ ، فلم تكنْ قيمتُهُ عندَ اللهِ تعالىٰ شيئاً .

فهٰذا هو الطيُّ الحقيقيُّ لمسافةِ الدنيا الذي يكرمُ الحقُّ بهِ أولياءَهُ ، وبهِ تتحقَّقُ عبوديتُهم لربِّهم عزَّ وجلَّ ، لا طيُّ مسافةِ الأرضِ الذي ربَّما يكونُ استدراجاً ومكراً ، ولا طيُّ الليالي والأيامِ بالوصالِ للصيامِ وتركِ الشرابِ والطعامِ إذا لم تتمحَّضْ طاعةً وبراً .

وسيأتي مِنْ كلامِ المؤلِّفِ رحمَهُ الله : (لو أشرقَ نورُ اليقينِ لرأيتَ الآخرةَ أقربَ مِنْ أنْ ترحلَ إليها ، ولرأيتَ محاسنَ الدنيا قد ظهرَتْ كِسْفةُ الفناءِ عليها)[1]

* * *

---

(١) انظر (ص ٥٨٠) .

الحكمة السابعة والثمانون (*)

ٱلْعَطَاءُ مِنَ ٱلْخَلْقِ حِرْمَانٌ ، وَٱلْمَنْعُ مِنَ ٱللهِ إِحْسَانٌ

عطيةُ الخلْقِ لكَ حرمانٌ على التحقيقِ ؛ لما فيهِ مِنْ رؤيتِكَ لغيرِ اللهِ ، ووقوفِكَ معَ حظوظِكَ وشهواتِكَ ، ومنعُ اللهِ لكَ إحسانٌ ؛ لأنَّهُ ألزمَكَ الوقوفَ ببابِهِ ، وعافاكَ مِنْ وجودِ حجابِهِ

وإنْ شئتَ قلتَ : العطاءُ مِنَ الخلقِ حرمانٌ ؛ لما فيهِ مِنْ وجودِ محبَّتِكَ لهم على ذلكَ ، وتقلُّدِ منَّتِهم في أخْذِ عطيَّتِهم ، والمنعُ مِنَ اللهِ إحسانٌ ؛ فإنَّهُ حبيبُكَ ، وكلُّ ما يفعلُ المحبوبُ محبوبٌ

وللهِ درُّ مَنْ قالَ [من الطويل]

وَلا أَلْبَسُ ٱلنُّعْمَا وَغَيْرُكَ مُلْبِسِي وَلا أَقْبَلُ ٱلدُّنْيَا وَغَيْرُكَ وَاهِبِي

وفي وصيَّةِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تجعلْ بينَكَ وبينَ اللهِ مُنْعِماً ، واعدُدْ نعمةَ غيرِهِ عليكَ مغرماً)(١)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن المعطي والمانع على الحقيقة هو الله تعالىٰ ، وإلىٰ أن ما يظهر علىٰ أيدي الأغيار من فعله تعالىٰ يأخذ حكمهم

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۞ كَلَّا ﴾ [الفجر : ١٦ـ١٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً حماهُ الدنيا كما يظلُّ أحدُكم يحمي سقيمَهُ الماءَ » ، رواه الترمذي (٢٠٣٦) من حديث سيدنا قتادة بن النعمان رضي الله عنه

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٢٣٦)

وقالَ بعضُ الحكماءِ (حمْلُ المِنَنِ أثقلُ مِنَ الصبرِ على العدمِ)[١]

وقالَ آخرُ : (عزُّ النزاهةِ أشرفُ مِنْ سرورِ الفائدةِ)[٢]

❊ ❊

---

(١) رواه القالي في « أماليه » (٢/ ١٨٧) .

(٢) رواه القالي في « أماليه » (٢/ ١٨٧) .

الباب العاشر

في جزاء العمل

الحكمة الثامنة والثمانون (*)

وقال رضي الله عنه :

جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ ٱلْعَبْدُ نَقْداً فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً

جزاءُ المعاملةِ لا يختصُّ بالدارِ الآخرةِ ، بل ربَّما أظهرَ الحقُّ تعالىٰ منهُ لبعضِ أوليائِهِ في الدنيا أُنْموذَجاً يحملُهم على الاجتهادِ في الأعمالِ ، ويتحقَّقونَ بهِ وجودَ قبولِها في كلِّ الأحوالِ ؛ وذلكَ لعظيمِ كرمِهِ وعميمِ فضلِهِ جلَّ وعلا

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالى الغني بإطلاق ، وأن له حكمة في كل فعل ، وأنه تعالىٰ كريم منعم متفضل ، من سننه في خلقه أن يعاملهم بالحسنىٰ إن هم أحسنوا ، وأن يجازيهم بالخير في الدنيا قبل الآخرة

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ١٨ـ٢٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما مِنْ يومٍ يصبحُ العبادُ فيهِ إلا مَلَكانِ ينزلانِ ، فيقولُ أحدُهما : اللهمَّ ؛ أعطِ منفقاً خلفاً ، ويقولُ الآخرُ : اللهمَّ ؛ أعطِ ممسكاً تلفاً » ، رواه البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

الحكمة التاسعة والثمانون (*)

كَفَىٰ مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى ٱلطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ أَهْلاً لَهَا

هٰذا بيانُ جزائِهمُ المعجَّلِ ؛ وهو أنَّهُ عرَّفَهُم مِنْ عظمتِهِ وجلالِهِ وكبريائِهِ ما استحقروا معَهُ أنفسَهم أنْ يكونوا أهلاً لِأَنْ يكلِّفَهمُ القيامَ بطاعتِهِ ، ويمدَّهم فيها بتيسيرِهِ ومعونتِهِ ، فسباهم حينَئذٍ حبُّهُ ، واستولىٰ عليهم قربُهُ ، فانخنسَتْ إذْ ذاكَ نفوسُهم ، واضمحلَّ وجودُهم ، وذهبَ بهمُ الحياءُ كلَّ مذهبٍ .

وهٰذا هو غايةُ الجزاءِ ونهايةُ العطاءِ عندَ العلماءِ العارفينَ ، الذينَ يمنعُهم وجدانُهُ عنِ التطلُّعِ إلىٰ غيرِهِ مِنَ الحظوظِ الآجلةِ .

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه لا يجب على الله تعالىٰ عقلاً الجزاءُ على العمل ، طاعةً كان أو عصياناً ، فجزاؤه بالقبول فضلٌ ، وجزاؤه بالردِّ عدلٌ ، وهو بهما حكيم عليم ، وإنما وجب ذٰلِكَ شرعاً ، وإلىٰ أن تكليف العباد ليس بواجبٍ عليه تعالىٰ كما تقوله المعتزلة .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف : ٣٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف : ١٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام عندما ضحّىٰ بكبش : « اللهمَّ ؛ تقبَّلْ مِنْ محمدٍ وآلِ محمدٍ ، ومِنْ أمَّةِ محمدٍ » ، رواه مسلم (١٩٦٧) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

الحكمة التسعون (*)

كَفَى ٱلْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِهِ .

هـٰذا بيانٌ آخرُ لما يكرمُهم بهِ مِنَ الجزاءِ المعجَّلِ ؛ وهو أنَّ العاملينَ لربِّهم يفتحُ لهم مِنَ المعارفِ ، ويوردُ علىٰ قلوبِهم مِنْ أنواعِ اللطائفِ . . ما يتنسَّمونَ فيهِ رَوْحَ الأُنْسِ ، ويتنعَّمونَ بهِ في حضرةِ القُدسِ ، وهـٰذا مِنْ علاماتِ وجودِ الرضوانِ الأكبرِ ، الذي يتلاشىٰ دونَهُ كلُّ جزاءٍ ويُستحقرُ

كانَ بعضُهم يقولُ : (التملُّقُ للحبيبِ ، والمناجاةُ للقريبِ في الدنيا . . ليسَ مِنَ الدنيا ، هو مِنَ الجنَّةِ أُظْهِرَ لأهلِ اللهِ تعالىٰ في الدنيا ، لا يعرفُهُ إلا هم ، ولا يجدُهُ سواهم ؛ رَوْحاً لقلوبِهم)(١)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أسمائه سبحانه الجمالية ؛ كالفتاح والوهَّاب والبرّ ، وإلىٰ أن الأُنس بذاته سبحانه مستحيل ، وإنما يكون الأُنس بما يوجِدُهُ سبحانه ويخلقه في قلوب العارفين ؛ فهو راجع لفعله ، وإلىٰ أن الجزاء منه ما يكون من عالم الملك ، ومنه ـ وهو الأعظم والأفخم ـ ما يكون من عالم الملكوت .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم ﴾ [آل عمران ١٢٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم : ١١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [الحجرات : ١٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يا بلالُ ؛ أقمِ الصلاةَ أرحْنا بها » ، رواه أبو داود (٤٩٨٥) عن صحابي من خزاعة لم يسمِّهِ .

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١ / ١١٠) ، والتملُّق : التحبُّب .

وقالَ بعضُ العلماءِ (ليسَ في الدنيا وقتٌ يشبهُ نعيمَ أهلِ الجنَّةِ إلا ما يجدُهُ أهلُ التملُّقِ في قلوبِهم بالليلِ مِنْ حلاوةِ المناجاةِ)[١]

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ دخلتُ علىٰ أبي سليمانَ الدارانيِّ يوماً وهو يبكي ، فقلتُ لهُ : وما يبكيكَ ؟ فقالَ يا أحمدُ ؛ ولِمَ لا أبكي ؟! إنَّهُ إذا جنَّ الظلامُ ، ونامَتِ العيونُ ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ ، وافترشَ أهلُ المحبَّةِ أقدامَهم ، وجرَتْ دموعُهم علىٰ خدودِهم ، وتقطَّرَتْ في محاريبِهم . أشرفَ الجليلُ سبحانَهُ فنادىٰ : يا جبريلُ ؛ بعيني مَنْ تلذَّذَ بكلامي ، واستراحَ إلىٰ ذكري ، وإنِّي لمطَّلعٌ عليهم في خلواتِهم ، أسمعُ أنينَهم ، وأرىٰ بكاءَهم ، فلِمَ لا تنادي فيهم يا جبريلُ : ما هـٰذا البكاءُ ؟! هل رأيتُم حبيباً يعذِّبُ أحبابَهُ ؟! أم كيفَ يجملُ بي أنْ آخذَ قوماً إذا جنَّهُمُ الليلُ تملَّقوا إليَّ ؟! فبي حلفتُ ؛ إذا وردوا عليَّ القيامةَ لأكشفَنَّ لهم عن وجهي الكريمِ حتىٰ ينظروا إليَّ وأنظرَ إليهم[٢]

* * *

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ١١٠) ، وروى الترمذي (٢٥٦٨) ، والنسائي (٣/ ٢٠٧) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : « ثلاثةٌ يحبُّهم اللهُ عزَّ وجلَّ : رجلٌ أتىٰ قوماً فسألَهم باللهِ ولم يسألْهم بقرابةٍ بينَهُ وبينَهم ، فمنعوهُ ، فتخلَّفَهم رجلٌ بأعقابِهم فأعطاهُ سرّاً ، لا يعلم بعطيَّتِهِ إلا اللهُ عزَّ وجلَّ والذي أعطاهُ ، وقومٌ ساروا ليلتَهم حتىٰ إذا كانَ النومُ أحبَّ إليهم ممَّا يُعدلُ به . . نزلوا فوضعوا رؤوسَهم ، فقامَ يتملَّقُني ويتلو آياتي ، ورجلٌ كانَ في سريةٍ ، فلقوا العدوَّ ، فانهزموا ، فأقبلَ بصدرِهِ حتىٰ يقتلَ أو يفتحَ لهُ »

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص١٣٤)

الحكمة الحادية والتسعون (*)

مَنْ عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وُرُودَ ٱلْعُقُوبَةِ عَنْهُ . . فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ

عملُ العاملينَ لأجلِ حصولِ الجزاءِ ، أو فراراً مِنْ عقوبةِ المولىٰ . . مدخولٌ معلولٌ ، ليسَ مِنْ شأنِ العارفينَ المحقِّقينَ ؛ لأنَّ قيامَ العبدِ بحقِّ أوصافِ مولاهُ يقتضي ألا يعملَ لأجلِ حظِّهِ ؛ مِنْ جلبِ ثوابٍ أو دفعِ عقابٍ ؛ لأنَّهُ عبدٌ يستحقُّ عليهِ مولاهُ كلَّ شيءٍ ، ولا يستحقُّ هو عليهِ شيئاً ، وهـٰذا مِنْ أعلامِ المحبَّةِ للهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ المحبَّ مُجتمِعُ الهمِّ بأمرِ محبوبِهِ ، لا مرادَ لهُ إلا ما أرادَ

فعلى العبدِ أنْ يعملَ لربِّهِ عزَّ وجلَّ لأجلِ جلالـِهِ وعظمتِهِ ، وما هو عليهِ مِنْ محامدِ صفاتِهِ التي لا يُشارَكُ فيها ، فإنْ خالفَ هـٰذا ، وعملَ علىٰ طلبِ حظِّهِ . . لم يقمْ بحقِّ صفاتِ مولاهُ ، وكانَ ذلكَ نتيجةَ جهلِهِ وغفلتِهِ ، وعدمِ حبِّهِ لربِّهِ ومعرفتِهِ .

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (ما طلعَتْ شمسٌ ولا غربَتْ علىٰ أحدٍ علىٰ وجهِ الأرضِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ مستحقٌّ للعبادة من حيث ذاته ؛ لاتصافه بكل كمال ، وأنه سبحانه قَبِلَ من عباده فضلاً عباداتِهم المعلولةَ بطلب ثواب أو دفع عقاب ، وأنزل المقرَّبين منهم منزلَ صدقٍ عند مليك مقتدر ؛ بما مَنَّ عليهم من معرفة نعوته العلية الجليلة
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان ٩] ، وقوله تعالىٰ حكاية ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه ٨٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً ابتلاهُ » ، رواه ابن أبي الدنيا في « الصبر والثواب عليه » (١٨١) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

إلا وهم جهَّالٌ باللهِ تعالىٰ ، إلا مَنْ يؤثِرُ اللهَ علىٰ نفسِهِ وروحِهِ ، ودنياهُ وآخرتِهِ)[1]

وفي أخبارِ داودَ عليهِ السلامُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ أنَّ أودَّ الأَوِدَّاءِ إليَّ مَنْ عبدَني لغيرِ نوالٍ ، لـٰكنْ ليعطيَ الربوبيةَ حقَّها[2]

وفيما نقلَ وهبُ بنُ منبهٍ مِنَ الزبورِ : (ومَنْ أظلمُ ممَّنْ عبدَني لجنَّةٍ أو لنارٍ ، لو لم أخلقْ جنةً ولا ناراً . ألم أكنْ أهلاً لِأنْ أُطاعَ ؟!) أو كما قالَ عزَّ وجلَّ[3]

وفي أخبارِ عيسىٰ عليهِ السلامُ (إذا رأيتَ التقيَّ مشغوفاً في طلبِ الربِّ فقد ألهاهُ ذلكَ عمَّا سواهُ)[4]

ومرَّ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ علىٰ طائفةٍ مِنَ العُبَّادِ قدِ احترقوا مِنَ العبادةِ كأنَّهمُ الشِّنانُ الباليةُ[5] ، فقالَ ما أنتم ؟ فقالوا نحنُ عُبَّادٌ ، قالَ : ولأيِّ شيءٍ تعبَّدتُم ؟ قالوا : خوَّفَنا اللهُ مِنْ نارِهِ فخفْنا منها ، فقالَ : حقٌّ على اللهِ أنْ يؤمِّنَكم ممَّا خفتم منهُ

ثم جاوزَهم فمرَّ بآخرينَ أشدَّ عبادةً منهم ، فقالَ لأيِّ شيءٍ تعبَّدتُم ؟ قالوا : شوَّقَنا اللهُ إلى الجنانِ وما أعدَّ فيها لأوليائِهِ ، فنحنُ نرجوها ، فقالَ حقٌّ على اللهِ أنْ يعطيَكم ما رجوتُم .

ثم جاوزَهم ومرَّ بآخرينَ يتعبَّدونَ ، فقالَ : ما أنتم ؟ قالوا المحبُّونَ للهِ عزَّ وجلَّ ، لم نعبدْهُ خوفاً مِنْ نارِهِ ، ولا شوقاً إلىٰ جنَّتِهِ ، ولـٰكنْ حبّاً لهُ وتعظيماً

---

(1) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص٢٠٧) ، قال الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٦١) : (واعلم : أن الله غني كريم ، إنما خلق أولياءه كرماً ، وعرَّفهم نفسه تفضلاً ، فأهل خاصته إنما خلقهم لكرامته والنعيم في الدنيا والآخرة ، فإذا صاروا في حدِّ القوة والتمكُّن أذاقهم طعم محبته ، فكانوا بها ناعمين كأنهم في الجنة) .

(2) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٦٤) .

(3) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٦٤) .

(4) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٦٤) .

(5) الشِّنان : جمع شنٍّ ؛ وهي القِرْبة الخَلَق الصغيرة ، شبههم بها لنحولهم ورقَّتهم .

لجلالِهِ ، فقالَ : أنتم أولياءُ اللهِ حقّاً ، معَكم أُمرتُ أنْ أقيمَ ، فأقامَ بينَ أظهرِهم

وفي لفظٍ آخرَ أنَّهُ قالَ للأوّلينَ مخلوقاً خفتُم ، ومخلوقاً أحببتُم ، وقالَ للآخرينَ : أنتمُ المقرَّبونَ[(١)]

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ (وممَّنْ رُوِيَ عنهُ هـٰذا القولُ ، وأُقيمَ في هـٰذا المقامِ . . جماعةٌ مِنَ التابعينَ بإحسانٍ ؛ منهم أبو حازمٍ المدنيُّ ، كانَ يقولُ : إنِّي لأستحيي مِنْ ربِّي أنْ أعبدَهُ خوفاً مِنَ العذابِ فأكونَ مثلَ عبدِ السوءِ ؛ إنْ لم يخفْ لم يعملْ ، وأستحيي أنْ أعبدَهُ لأجلِ الثوابِ فأكونَ كالأجيرِ السوءِ ؛ إنْ لم يُعطَ أجرَ عملِهِ لم يعملْ ، ولـٰكنْ أعبدُهُ محبَّةً لهُ)[(٢)]

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ (وقد روينا معنىٰ هـٰذا الكلامِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يَكُونُ أَحَدُكُمْ كَٱلْعَبْدِ ٱلسُّوءِ ؛ إِنْ خَافَ عَمِلَ ، وَلا كَٱلأَجِيرِ ٱلسُّوءِ ؛ إِنْ لَمْ يُعْطَ ٱلأَجْرَ لَمْ يَعْمَلْ »[(٣)]

وقالَ بعضُ إخوانِ معروفٍ لهُ : أخبِرْني عنكَ يا أبا محفوظٍ ؛ أيُّ شيءٍ أهاجَكَ على العبادةِ والانقطاعِ عنِ الخلْقِ ؟ فسكتَ ، فقلتُ : ذكرُ الموتِ ؟ فقالَ : وأيُّ شيءٍ الموتُ ؟! قلتُ : فذكرُ القبرِ ؟ قالَ : وأيُّ شيءٍ القبرُ ؟! فقلتُ : خوفُ النارِ ورجاءُ الجنَّةِ ؟ فقالَ : وأيُّ شيءٍ هـٰذانِ ؟! إنَّ مَلِكاً هـٰذا كلُّهُ بيدِهِ ؛ إنْ أحببتَهُ أنساكَ جميعَ هـٰذا ، وإنْ كانَ بينَكَ وبينَهُ معرفةٌ كفاكَ جميعَ هـٰذا)[(٤)]

وقالَ أبو طالبٍ : (وحدَّثونا عن عليِّ بنِ الموفَّقِ قالَ : رأيتُ في النومِ كأنِّي أُدخلْتُ الجنةَ ، فرأيتُ رجلاً قاعداً علىٰ مائدةٍ ومَلَكانِ عن يمينِهِ وشمالِهِ يلقمانِهِ مِنْ جميعِ الطيِّباتِ وهو يأكلُ ، ورأيتُ رجلاً قائماً علىٰ بابِ الجنَّةِ يتصفَّحُ وجوهَ قومٍ ،

---

(١) أورده بلفظيه الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٦٤)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٤٢) .

(٣) وقد نصَّ الإمام أبو طالب أنه حذف بعض أسانيد مروياته لكيلا يطول الكتاب .

(٤) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٦٥) .

فيُدخِلُ بعضَهمُ الجنةَ ويردُّ آخرينَ ، قالَ : ثم جاوزتُهما إلىٰ حظيرةِ القُدسِ ، فرأيتُ في سرادقِ العرشِ رجلاً قد شخصَ ببصرِهِ ينظرُ إلى اللهِ تعالىٰ لا يَطرِفُ ، فقلتُ لرضوانَ مَنْ هـٰذا ؟ قالَ هـٰذا معروفٌ الكرخيُّ ، عبدَ اللهَ تعالىٰ لا خوفاً مِنْ نارِهِ ، ولا شوقاً إلىٰ جنَّتِهِ ، بل حبّاً لهُ ، فقد أباحَهُ النظرَ إليهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وذكرَ أنَّ الآخرينِ بشرُ بنُ الحارثِ ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ ، رضيَ اللهُ عنهما)[1]

وقالَ أبو طالبٍ (وروينا عن رابعةَ العدويَّةِ رضيَ اللهُ عنها ، وكانَتْ إحدى المحبِّينَ ، وكانَ الثوريُّ يجلسُ بينَ يديها ، فيقولُ : علِّمينا ممَّا آتاكِ اللهُ مِنْ طرائفِ الحكمةِ ، وكانَتْ تقولُ لهُ : نعمَ الرجلُ أنتَ لولا أنَّكَ تحبُّ الدنيا ، وكانَ يعترفُ لها ويسلِّمُ قولَها ، وكانَ عالماً زاهداً ، إلا أنَّهُ كانَ يؤثِرُ كُتُبَ الحديثِ والإقبالَ على الناسِ ؛ وهي أبوابُ الدنيا[2]

وقالَ لها الثوريُّ يوماً لكلِّ عبدٍ شريطةٌ ، ولكلِّ إيمانٍ حقيقةٌ ، فما حقيقةُ إيمانِكِ ؟ فقالَتْ ما عبدتُ اللهَ خوفاً مِنَ النارِ فأكونَ كالعبدِ السوءِ ؛ إنْ خافَ عملَ ، ولا حبّاً للجنةِ فأكونَ كالأجيرِ السوءِ ؛ إنْ أُعطيَ عملَ ، ولـٰكنْ عبدتُهُ حبّاً لهُ وشوقاً إليهِ)[3]

والآثارُ والحكاياتُ في هـٰذا المعنىٰ كثيرةٌ لا تنحصرُ

فإذا عملَ المريدُ علىٰ ما ذكرناهُ كانَ عبدَ اللهِ حقّاً ، فإنْ طلبَ منهُ الثوابَ ، أوِ استعاذَ بهِ مِنَ العقابِ . فإنَّما يطلبُهُ أو يستعيذُهُ بهِ انتجازاً لموعودِ ربِّهِ ، وفراراً مِنْ دعوىٰ رؤيةِ عدمِ حظِّهِ ، واتِّباعاً لما أَحبَّهُ منهُ وأذنَ لهُ فيهِ مِنْ طلبِهِ لفضلِهِ وإحسانِهِ ، وكرمِهِ وامتنانِهِ .

---

(١) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٦٥)

(٢) انظر ما تقدم حول هـٰذا (ص ٣٨٩) تعليقاً

(٣) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٦٧) .

وهٰذا وما أشبهَهُ هو المعنيُّ بالحديثِ المرويِّ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « مَا تَقُولُ فِي ٱلصَّلاةِ ؟ » ، قالَ أتشهَّدُ ثم أقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الجنةَ ، وأعوذُ بكَ مِنَ النارِ ، أمَا واللهِ ما أحسنُ دندنتَكَ ولا دندنةَ معاذٍ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ »[1] ، لا أنْ يكونَ رجاؤُهُ لحصولِ ذلكَ وخوفُهُ مِنْ فقدِهِ باعثاً لهُ على القيامِ بطاعتِهِ وملازمةِ عبادتِهِ ، فيكونَ عملُهُ إذْ ذاكَ مدخولاً معلولاً ، هٰذا هو مذهبُ العارفينَ والمحقِّقينَ ، وعليه تُبنىٰ قواعدُ التصوُّفِ كلُّها

* *

(١) رواه أبو داود (٧٩٢) عن بعض الأصحاب ، ورواه ابن ماجه (٩١٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

الحكمة الثانية والتسعون (*)

مَتىٰ أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ ، وَمَتىٰ مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ .

المطلوبُ مِنَ العبادِ : أنْ يعرفوا مولاهم بما هو عليهِ مِنَ الصفاتِ العليَّةِ والأسماءِ الحسنىٰ ، ولا سبيلَ لهم إلىٰ معرفتِهِ إلا بتعرُّفِهِ لهم ، وتعرُّفُهُ لهم إنَّما يكونُ بما ينزلُهُ بهم مِنَ النوازلِ ، ويوردُهُ عليهم مِنَ الأحكامِ .

ثم هي علىٰ قسمينِ : ما وافقَ الهوىٰ والطبعَ ويسمَّىٰ ذلكَ عطاءً ، أو ما خالفَهما ويسمَّىٰ منعاً ؛ فبوجودِ العطاءِ تشهدُ صفاتِهِ العليَّةَ ؛ مِنَ الجودِ والعطفِ والكرمِ والإحسانِ واللطفِ وغيرِ ذلكَ ، وبوجودِ المنعِ تشهدُ صفاتِهِ القهريَّةَ ؛ مِنَ الجبروتِ والكبرياءِ ، والعزَّةِ والاستغناءِ .

فينبغي لكَ أيُّها العبدُ : ألا تفرِّقَ بينَهما إنْ أردتَ معرفةَ ربِّكَ ، ولم يسترقَّكَ حبُّ حظِّكَ ، إذاً فمنعُهُ لكَ عطاءٌ على التحقيقِ ، فهو في كلتا الحالتينِ منعِمٌ عليكَ ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن تعلقات قدرته سبحانه تتجلَّىٰ في الحادثات بين جمال وجلال ، أو برٍّ وقهرٍ ، فالفعل دالٌّ على الاسم ، والاسم دالٌّ على الوصف ، والوصف لا يقوم بنفسه ، فدلَّ على الذات المقدسة القديمة .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام : ٦١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل : ٨٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « تعرَّفْ إلى اللهِ في الرخاءِ يعرفْكَ في الشِّدةِ » ، رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٤١) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

ومقبِلٌ بوجودِ لطفِهِ إليكَ ، وهـٰذا هو بيانُ ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ : (متىٰ فتحَ لكَ بابَ الفهمِ في المنعِ . عادَ المنعُ هو عينَ العطاءِ) واللهُ أعلمُ[1]

قالَ سفيانُ الثوريُّ : أتيتُ أبا حبيبٍ البدويَّ أُسلِّمُ عليهِ ولم أكنْ رأيتُهُ ، فقالَ لي : أنتَ سفيانُ الثوريُّ الذي يُقالُ ؟ فقلتُ : نعم ، أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ بركةَ ما يُقالُ ، قالَ : فقالَ لي : يا سفيانُ ؛ ما رأينا خيراً قطُّ إلا مِنْ ربِّنا ، قلتُ : أجلْ ، قالَ : فما لنا نكرهُ لقاءَ مَنْ لم نرَ خيراً قطُّ إلا منهُ ؟!

ثم قالَ : يا سفيانُ ؛ منعُ اللهِ إيَّاكَ عطاءٌ منهُ لكَ ؛ وذلكَ أنَّهُ لم يمنعْكَ مِنْ بخلٍ ولا عُدْمٍ ، وإنَّما منْعُهُ نظرٌ منهُ واختبارٌ[2] ، يا سفيانُ ؛ إنَّ فيكَ لأُنْساً ، ومعَكَ شغلاً ، قالَ : ثم أقبلَ علىٰ غُنيمتِهِ وتركَني[3]

* *

---

(١) انظر (ص ٤٣٦) .

(٢) كذا في (هـ) ، وفي أكثر النسخ : (واختيار) ، ولكل توجيه وجيه .

(٣) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٩٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٨٧) ، وهو خبر فرد في التعريف بأبي حبيب البدوي رحمه الله تعالىٰ .

الحكمة الثالثة والتسعون (*)

إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ ٱلْمَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ ٱللهِ فِيهِ

إذا كانَ منعُ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وعطاؤُهُ نعمتينِ عظيمتينِ كما ذكرناهُ الآنَ.. فينبغي أنْ يكونَ في كلتيهما قرَّةُ عينِ المريدِ ، فإنْ تألَّمَ بالمنعِ ولذَّ لهُ العطاءُ.. فذلكَ لعدمِ فهمِهِ ، وقصورِ علمِهِ ، بلِ الأكملُ والأفضلُ لهُ أنْ يألمَ بالعطاءِ ويلذَّ بالمنعِ ؛ كما قالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ : (لا يصحُّ الفقرُ لفقيرٍ حتىٰ يكونَ فيهِ خصلتانِ : إحداهما : الثقةُ باللهِ ، والأخرى : الشكرُ للهِ فيما زوىٰ عنهُ ممَّا ابتلىٰ بهِ غيرَهُ مِنَ الدنيا)[1]

ولا يكملُ الفقيرُ حتىٰ يرىٰ نظرَ اللهِ لهُ في المنعِ أفضلَ مِنْ نظرِهِ لهُ في العطاءِ[2]

وعلامةُ صدقِهِ في ذلكَ : أنْ يجدَ للمنعِ مِنَ الحلاوةِ ما لا يجدُ للعطاءِ ، لا يعرفُهُ غيرُ باريهِ ، الذي خصَّهُ بمعرفتِهِ وأياديهِ ، فهو لا يرىٰ سوىٰ مليكِهِ ، ولا يملكُ إلا ما كانَ مِنْ تمليكِهِ ، وكلُّ شيءٍ لهُ تابعٌ ، وكلُّ شيءٍ لهُ خاضعٌ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه ، وأن أفعال الله لا تعلل ، وإلىٰ إثبات صفة الحكمة على القول بها ، وإلى اسمه تعالى الغني واسمه المانع ، وأن لله تدابيرَ تكلُّ عن فهم أسرارها العقول الثواقب .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر : ٢١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما أحدٌ أصبرَ علىٰ أذىً سمعَهُ مِنَ اللهِ ، يدَّعونَ لهُ الولدَ ، ثم يعافيهم ويرزقُهم » ، رواه البخاري (٧٣٧٨) ، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٢٦) .

(٢) في (أ) : (ولا يصحُّ الفقر لفقير حتىٰ يرىٰ . . .) .

الحكمة الرابعة والتسعون (*)

رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْقَبُولِ ، وَقَضَىٰ عَلَيْكَ بِٱلذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبَ ٱلْوُصُولِ

ينبغي ألا ينظرَ العبدُ إلىٰ صورِ الأشياءِ ، ولينظرْ إلىٰ حقائقِها ، فصورُ الطاعاتِ لا تقتضي وجودَ القبولِ لها ؛ لما قد تضمَّنَتْهُ مِنَ الآفاتِ القادحةِ في الإخلاصِ فيها ، وذلكَ مانعٌ مِنْ وجودِ القبولِ لها ، ووجودُ صورةِ الذنبِ لا يقتضي الإبعادَ والطردَ ، بل ربَّما يكونُ ذلكَ سبباً في وصولِهِ إلىٰ ربِّهِ ، وحصولِهِ في حضرةِ قربِهِ ؛ كما قيلَ (رُبَّ ذنبٍ أدخلَ صاحبَهُ الجنَّةَ)

وقد جاءَ في الحديثِ الصحيحِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ ٱللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ ٱللهَ ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ »(١)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وأنه تعالىٰ قد يهب الطاعة من غير قبول ليميز الخبيث من الطيب ، ويقضي علىٰ عبدٍ بالذنب ليتجلىٰ باسمه الغفار ويظهر المعدن الطيب

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف ١٧٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أصابَ مِنْ هـٰذهِ القاذوراتِ شيئاً فليستترْ بسترِ اللهِ » ، رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٨٢٥) عن زيد بن أسلم رحمه الله تعالىٰ مرسلاً

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وذلكَ أنَّهُ يصحبُهُ عندَ عملِهِ بالطاعةِ أنْ يُعْجَبَ بها ، ويعتمدَ عليها ، ويتكبَّرَ بفعلِها ، ويستصغرَ مَنْ لم يفعلْها ، ويصحبُهُ عندَ وقوعِهِ في الذنبِ اللَّجَأُ إلى اللهِ تعالىٰ فيهِ ، والاعتذارُ إليهِ منهُ ، واستصغارُ نفسِهِ ، وتعظيمُ مَنْ لم يفعلْهُ .

قالَ أبو حازمٍ : (إنَّ العبدَ ليعملُ الحسنةَ تسرُّهُ حينَ يعملُها وما خلقَ اللهُ مِنْ سيئةٍ أضرَّ لهُ منها ، وإنَّ العبدَ ليعملُ السيئةَ تسوءُهُ حينَ يعملُها وما خلقَ اللهُ مِنْ حسنةٍ أنفعَ لهُ منها ؛ وذلكَ أنَّ العبدَ حينَ يعملُ الحسنةَ تسرُّهُ ، فيتبجَّحُ بها[1] ، ويرىٰ أنَّ لهُ بها فضلاً علىٰ غيرِهِ ، ولعلَّ اللهَ أنْ يحبطَها ويحبطَ معَها عملاً كثيراً ، وإنَّ العبدَ ليعملُ السيئةَ تسوءُهُ حينَ يعملُها ، ولعلَّ اللهَ أنْ يحدثَ لهُ بها وَجَلاً حتىٰ يلقى اللهَ تعالىٰ وإنَّ خوفَها في جوفِهِ لباقٍ)[2]

ثم بيَّنَ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ هـٰذا المعنىٰ بقولِهِ

---

(١) كذا في (ج) ، وفي (أ) : (فيتسمىٰ فيها) ، وفي (ب) : (فيتمنَّىٰ فيها) ، وفي (د ، هـ) : (فينتخي فيها) ، وفي « الحلية » : (فيتجبَّرُ فيها) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٤٢) .

الحكمة الخامسة والتسعون (*)

مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلّاً وٱفْتِقَاراً[1] . . خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزّاً وٱسْتِكْبَاراً

الذلُّ والافتقارُ مِنْ أوصافِ العبوديَّةِ ، والعزُّ والاستكبارُ مناقضانِ لها ؛ لأنَّهما مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ ، ولا خيرَ في الطاعاتِ إذا لزمَ عنها شيءٌ ممَّا يناقضُ صفاتِ العبوديَّةِ ؛ لأنَّها تحبطُها وتبطلُها ، كما لا مبالاةَ بالمعصيةِ إذا لازمَتْها صفاتُ العبوديَّةِ ؛ لأنَّها أيضاً تمحوها وتزيلُها

قالَ سيدي أبو مدينَ قدَّسَ اللهُ سرَّهُ : (انكسارُ العاصي خيرٌ مِنْ صولةِ المطيعِ)[2] .

وكانَ سيدي أبو العباسِ المرسيُّ كثيرَ الرجاءِ لعبادِ اللهِ ، الغالبُ عليهِ شهودُ وُسْعِ الرحمةِ ، وكانَ يكرمُ الناسَ علىٰ نحوِ رُتَبِهم عندَ اللهِ تعالىٰ ، حتىٰ إنَّهُ ربَّما دخلَ عليهِ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الكبرياء والعظمة والعزَّ والجبروت من صفات الحق التنزيهية الجلالية ، فهو سبحانه لا ينازع في شيء من هٰذه الصفات ، وإنما التخلُّق بأخلاق الحق يكون أصالة بالصفات الكمالية ، وإلىٰ أنه تعالىٰ قد خبأ رحماتٍ لعباده العاصين في معاصيهم ، ومكر بالطائعين لحكمةٍ في طاعاتهم .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الندمُ توبةٌ » ، رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(١) في (ج) : (وانكساراً) بدل (وافتقاراً) .

(٢) حكاه المقَّري في « نفح الطيب » (٧/ ١٤٣) .

المطيعُ فلا يهتبلُ بهِ[1] ، وربما دخلَ عليهِ عاصٍ فأكرمَهُ ؛ لأنَّ ذلكَ الطائعَ أتىٰ وهو متكبِّرٌ بعملِهِ، ناظرٌ لفعلِهِ، وذلكَ العاصي دخلَ عليهِ بكثرةِ معاصيهِ ، وذلَّةِ مخالفتِهِ[2] .

وقد تقدَّمَ مثلُ هـٰذا عندَ قولِهِ (لا يعظمِ الذنبُ عندَكَ عظمةً تصدُّكَ عن حسنِ الظنِّ باللهِ)[3]

فمِنْ هـٰذا المعنىٰ[4] : ما رُوِيَ عن أبانِ بنِ أبي عياشٍ أنَّهُ قالَ : خرجتُ يوماً مِنْ عندِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ بالبصرةِ ، فرأيتُ جنازةً يحملُها أربعةٌ مِنَ الزَّنْجِ ، ولم يكنْ معَهم رجلٌ آخرُ ، فقلتُ : سبحانَ اللهِ ! بسوقِ البصرةِ وجنازةُ مسلمٍ لا يشيِّعُها أحدٌ ؟! فلأكونَنَّ خامسَهم ، فمضيتُ معَهم ، فلمَّا وضعوها بالمصلَّىٰ قالوا تقدَّمْ ، فقلتُ أنتم أولىٰ بهِ ، فقالوا كلُّنا سواءٌ ، فتقدَّمْتُ فصلَّيْتُ ، وقلتُ لهم : ما القصَّةُ ؟ فقالوا : اكترَتْنا تلكَ المرأةُ

قالَ فقعدتُ ، فدفنوهُ ، فلمَّا كانَ بعدَ ساعةٍ انصرفَتْ تلكَ المرأةُ وهي تضحكُ ، فدخلَ قلبي شيءٌ ، فقلتُ لا ينجِّيكِ إلا الصدقُ ، أخبريني أيْشٍ القصَّةُ ؟ فقالَتْ : إنَّ هـٰذا ابني ما تركَ شيئاً مِنَ المعاصي إلا فعلَهُ ، فمرضَ منذُ ثلاثةِ أيامٍ ، فقالَ يا أمَّاهُ ، إذا متُّ فلا تُعلِمي بوفاتي جيراني ؛ فإنَّهم لا يحضرونَ جنازتي ويشمتونَ بموتي ، واكتبي علىٰ خاتمي هـٰذا (لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، محمدٌ رسولُ اللهِ) واجعليهِ في كفني ، فلعلَّ اللهَ يرحمُني بهِ ، وضعي رِجْلَكِ علىٰ خدِّي وقولي هـٰذا جزاءُ مَنْ عصى اللهَ ، فإذا دفنتِيني فارفعي يديكِ إلى اللهِ تعالىٰ وقولي إنِّي رضيتُ عنهُ فارضَ عنهُ ، فلمَّا ماتَ عملتُ جميعَ ما أوصىٰ بهِ ، فلمَّا رفعتُ يديَّ إلى السماءِ سمعْتُ صوتَهُ بلسانٍ فصيحٍ انصرفي يا أمَّاهُ ، فقد قدمتُ

---

(1) يهتبل : يهتمُّ ويحرص .
(2) كذا قال الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص١٢٣)
(3) انظر (ص ٣٣١)
(4) وهو التذلُّل والانكسار لله جلَّ جلاله

علىٰ ربٍّ كريمٍ رحيمٍ غيرِ غضبانَ عليَّ ؛ فإنَّما ضحكتُ مِنْ هـٰذا[1]

ومِنْ هـٰذا المعنى الآخرِ[2] : ما رُوِيَ أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ أتىٰ عابداً مِنْ بني إسرائيلَ ، فوطئَ علىٰ رقبتِهِ وهو ساجدٌ ، فقالَ لهُ العابدُ : ارفعْ ، فواللهِ ؛ لا يغفرُ اللهُ لكَ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ : أيُّها المتألِّي عليَّ ، بل أنتَ لا يغفرُ اللهُ لكَ[3]

قالَ الحارثُ المحاسبيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنَّهُ إنَّما تألَّىٰ على اللهِ عزَّ وجلَّ ألا يغفرَ لهُ ؛ لعظمِ قدْرِ نفسِهِ عندَهُ ، وأنَّ الإساءةَ إليهِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ عظيمةٌ لا يغفرُها اللهُ تعالىٰ لعبادتِهِ وسجودِهِ ؛ لأنَّهُ عندَ نفسِهِ عظيمُ القدرِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فجمعَ عُجْباً وكبراً واغتراراً باللهِ عزَّ وجلَّ)[4]

ومِنَ المعنيينِ جميعاً : ما رُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ خرجَ ومعَهُ صالحٌ مِنَ صالحي بني إسرائيلَ ، فتبعَهُما رجلٌ خاطئٌ مشهورٌ بالفسقِ فيهم ، فقعدَ منتبذاً عنهما منكسراً ، فدعا اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ وقالَ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ، ودعا هـٰذا الصالحُ وقالَ : اللهمَّ ؛ لا تجمعْ بيني وبينَ ذلكَ العاصي ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : إنِّي قدِ استجبتُ دعاءَهما جميعاً ، رددتُ ذلكَ الصالحَ ، وغفرتُ لذلكَ المجرمِ[5]

ورُوِيَ عنِ الشعبيِّ أيضاً ، عنِ الجَلْدِ بنِ أيوبَ أنَّ رجلاً كانَ في بني إسرائيلَ

---

(١) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١٦٤) ، ورواه في « الرسالة القشيرية » (ص٣٦٦) عن أبي عمرو البيكندي بنحوه ، ورواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٣٩) عن عبَّاد المِنْقري .

(٢) وهو التعزُّز والاعتداد بالطاعة .

(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٣٨٨) ، وأصله عند مسلم (٢٦٢١) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

(٤) قاله في « الرعاية » (ص٣٨٨)

(٥) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٣٥٦) .

يُقالُ لهُ : خليعُ بني إسرائيلَ ؛ لكثرةِ فسادِهِ ، مرَّ برجلٍ آخرَ مِنْ بني إسرائيلَ يُقالُ لهُ : عابدُ بني إسرائيلَ ، وعلىٰ رأسِ العابدِ غمامةٌ تظلُّهُ ، فقالَ الخليعُ في نفسِهِ : أنا خليعُ بني إسرائيلَ ، وهٰذا عابدُ بني إسرائيلَ ، فلو جلستُ إليهِ لعلَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يرحمَني بهِ ، فجلسَ إليهِ ، فقالَ العابدُ في نفسِهِ أنا عابدُ بني إسرائيلَ ، وهٰذا خليعُ بني إسرائيلَ يجلسُ إليَّ ! فأَنِفَ منهُ وقالَ : قُمْ عنِّي ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ نبيِّ ذلكَ الزمانِ مُرْهُما فليستأنفا العملَ ؛ فقد غفرتُ للخليعِ ، وأحبطتُ عملَ العابدِ ، وفي حديثٍ آخرَ : فتحوَّلَتِ الغمامةُ علىٰ رأسِ الخليعِ(١)

قالَ الحارثُ المحاسبيُّ (وإنَّما أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ عبادِهِ قلوبَهم ، فتكونُ جوارحُهم تبعاً لقلوبِهم ، فإذا تكبَّرَ العالمُ أوِ العابدُ وأَنِفَ ، وتواضعَ الجاهلُ أوِ العاصي ، وذلَّ هيبةً للهِ عزَّ وجلَّ وفَرَقاً منهُ . . فهو أطوعُ للهِ عزَّ وجلَّ مِنَ العابدِ والعالمِ بقلبِهِ)(٢)

* * *

---

(١) أورده الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص٣٨٨) ، ورواه أبو نعيم مختصراً في « الحلية » (٢/٢٢٦) .

(٢) قاله في « الرعاية » (ص٣٨٨) .

الحكمة السادسة والتسعون (*)

نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا ، وَلا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُمَا نِعْمَةُ ٱلإِيجَادِ ، وَنِعْمَةُ الإِمْدَادِ .

نعمةُ الإيجادِ ونعمةُ الإمدادِ : نعمتانِ لازمتانِ لكلِّ مُكوَّنٍ موجودٍ باقٍ ؛ لأنَّهُ في ذاتِهِ معدومٌ مُتَلاشٍ .

فنعمةُ الإيجادِ : إزالةُ العدمِ السابقِ ، ولولا ذلكَ لم يزلْ معدوماً

ونعمةُ الإمدادِ : إزالةُ العدمِ اللاحقِ ، ولولا ذلكَ لتلاشىٰ وفَنِيَ

قالَ سيدي أبو مدينَ (الحقُّ تعالىٰ مستبدٌّ ، والوجودُ مستمدٌّ ، والمادَّةُ مِنْ عينِ الجودِ ، فلوِ انقطعَتِ المادَّةُ انهدَّ الوجودُ) .

وهـٰذا توطئةٌ لما يريدُ بيانَهُ مِنَ الفقرِ الذاتيِّ للعبدِ .

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن ما سوى الله تعالىٰ في رتبتي الإمكان والحدوث ، لا يخرج عنهما حادث موجود ، وأنه تعالىٰ وحده المنفرد بإيجاد جميع الحادثات ؛ مُلْكيَّةً كانت أو ملكوتيَّةً ، وإلىٰ أن بقاءَها موقوف علىٰ تعلُّق القدرة الأزلية بها ، فإذا انقطعت عنها أمدادُ القدرة . . انطفأت وتلاشت ، وإلى اسميه تعالى الخالق والقيوم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد : ١٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام مناجياً : « اللهمَّ ؛ لكَ الحمدُ أنتَ نورُ السماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ قيُّومُ السماواتِ والأرضِ » ، رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٦٥٦) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

الحكمة السابعة والتسعون (*)

أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوَّلاً بِٱلإِيجَادِ ، وَثَانِياً بِتَوَالِي ٱلإِمْدَادِ

هٰذا أحدُ جزئيَّاتِ الكليَّةِ المتقدِّمةِ ؛ وهو وجودُكَ ودوامُ وجودِكَ

وممَّا لا ينبغي أنْ يُتغافلَ عنهُ مِنْ أنواعِ هٰذا الجنسِ : نعمةُ إيجادِ الإيمانِ ومحبةِ الطاعةِ في قلبِكَ وإمدادِهما ، وكذلكَ كراهيةُ الكفرِ والمعصيةِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنَ النعمِ العظيمةِ التي لا مدخلَ للعبدِ فيها ولا لهُ وسيلةٌ إليها ، ولولا تولِّي اللهِ تعالىٰ لهُ بتَيْنِكَ النعمتينِ في القسمينِ . . لتاهَ في ظلماتِ الضلالةِ ، وغرقَ في بحارِ الجهالةِ .

وقد نبَّهَ اللهُ سبحانَهُ علىٰ هٰذا المعنىٰ في كتابِهِ الكريمِ ، فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات : ٧ـ٨]

قالَ القشيريُّ : (إنَّ مَنْ أفكرَ في صنوفِ الضلالِ ، وكثرةِ طُرُقِ المحالِ ، وشدَّةِ أغاليطِ الناسِ في البِدَعِ والأهواءِ ، وما يتشعَّبُ بكلِّ قومٍ مِنْ مختلفي النِّحَلِ والآراءِ ، ثم أفكرَ في ضعفِهِ ونقصانِ عقلِهِ ، وكثرةِ تحيُّرِهِ في الأمورِ وشدَّةِ جهلِهِ ، وتناقضِ تدبيرِهِ في أحوالِهِ ، وشدَّةِ حاجتِهِ إلى الاستعانةِ بأشكالِهِ في أعمالِهِ ، ثم رأىٰ خالصَ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم ٦٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام مناجياً المولىٰ سبحانه : « لولا أنتَ ما اهتدينا » ، رواه البخاري (٢٨٣٦) ، ومسلم (١٨٠٣) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

يقينِهِ ، وقوَّةَ استبصارِهِ في دينِهِ ، ونقاءَ وجهِ توحيدِهِ عن غبرةِ الشرْكِ ، وصفاءَ عينِ عرفانِهِ عن وَهَجِ الشكِّ[1] . . علمَ أنَّ ذلكَ ليسَ مِنْ طاقتِهِ ولا بجهدِهِ وكدِّهِ ، بل بفضْلِ ربِّهِ وسابغِ طولِهِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ ذكرُهُ : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان ٢٠] ، فهو الظاهرُ بنعمائِهِ ، وآثارُ نِعَمِهِ عليكَ متظاهرةٌ ، والباطنُ بآلائِهِ ، وزوائدُ كرمِهِ لديكَ متواترةٌ) انتهىٰ[2]

فعلى العبدِ أنْ يعرفَ قدْرَ هـٰذهِ النعمةِ ، ويتوكَّلَ علىٰ مولاهُ في بقائِها وحفظِها عليهِ ، ولا يعتمدَ في ذلكَ علىٰ عقلِهِ وعلمِهِ

قالَ بعضُ العارفينَ : (مَنْ نظرَ في توحيدِهِ إلىٰ عقلِهِ لم ينجِهِ توحيدُهُ مِنَ النارِ)[3]

وعن ذي النونِ المصريِّ ما هو قريبٌ مِنْ هـٰذا المعنىٰ (مَنْ كانَ في توحيدِهِ ناظراً إلىٰ نفسِهِ لم ينجِهِ توحيدُهُ مِنَ النارِ حتىٰ يكونَ نظرُهُ إليهِ في توحيدِهِ إيَّاهُ عزَّ وجلَّ)[4] ، فهـٰذا هو شكرُ هـٰذهِ النعمةِ العظيمةِ

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ بعدَ أنْ ذكرَ ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ قولِهِ « أَحِبُّوا ٱللهَ تَعَالَىٰ لِمَا أَسْدَىٰ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِهِ ، وَلِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ أَيْضاً »[5] (فمِنْ أفضلِ ما غذانا بهِ نعمةُ الإيمانِ بهِ والمعرفةِ لهُ ، وغذاؤُهُ لنا منهُ : دوامُ ذلكَ ومددُهُ بروحٍ منهُ ، وتثبيتُنا عليهِ في تصريفِ الأحوالِ ؛ إذْ هو أصلُ الأعمالِ ، التي هي مكانُ النوالِ ، فلو قلبَ قلوبَنا عنِ التوحيدِ كما يقلبُ جوارحَنا

---

(١) في (أ) : (رهج) ، وفي (ج): (وهم) بدل (وهج) ، والوهج حرُّ النار واتّقادها ، والرهج : الغبار ، والمراد على المعنيين : رذاذ الشك وقلّته

(٢) قاله في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص٢٢٨)

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٥٤) عن بعض العارفين

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٤٣٧)

(٥) رواه الترمذي (٣٧٨٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

في الذنوبِ ، ولو قلبَ قلوبَنا في الشكِّ والضلالِ كما يقلبُ نيَّاتِنا في الأعمالِ . . أيَّ شيءٍ كُنَّا نصنعُ ؟! وعلىٰ أيِّ شيءٍ كنَّا نعوِّلُ ؟! وبأيِّ شيءٍ كنَّا نطمئنُّ ونرجو ؟! فهٰذا مِنْ كبائرِ النِّعَمِ ، ومعرفتُهُ هو شكرُ نعمةِ الإيمانِ ، والجهلُ بهٰذا غفلةٌ عن نعمةِ الإيمانِ توجبُ العقوبةَ ، وادِّعاءُ الإيمانِ أنَّهُ عن كسبٍ معقولٍ أوِ استطاعةٍ بقوَّةٍ وحولٍ . . هو كفرُ نعمةِ الإيمانِ[1] ، وأخافُ علىٰ مَنْ توهَّمَ ذلكَ أنْ يُسلبَ الإيمانَ ؛ **لأنَّهُ بدَّلَ شكرَ نعمةِ اللهِ كفراً**) انتهىٰ كلامُ الشيخِ أبي طالبٍ[2] ، وهو حسنٌ في هٰذا المعنىٰ ، فأردتُ ألا يخلوَ هذا الموضعُ مِنْ هذا التنبيهِ

*　　*

---

(١) فالتوفيق من الله تعالىٰ ، وإنما العقل شرط النظر ومحلُّهُ .

(٢) انظر « قوت القلوب » (٢/ ٥٨٣) .

الحكمة الثامنة والتسعون (*)

فَاقَتُكَ لَكَ ذَاتِيَّةٌ ، وَوُرُودُ ٱلْأَسْبَابِ مُذَكِّرَاتٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا ، وَٱلْفَاقَةُ ٱلذَّاتِيَّةُ لا تَرْفَعُهَا ٱلْعَوَارِضُ .

إذا ثبتَ أنَّ نعمتَي الإيجادِ والإمدادِ لازمتانِ لكَ ، وأنَّكَ في ذاتِكَ عدمٌ لولاهما . . فالفاقةُ إذاً ذاتيَّةٌ لكَ ، والاضطرارُ لازمٌ لوجودِكَ وإنْ كنتَ غنياً بوجودِ النعمتينِ المذكورتينِ ؛ فإنَّ ذلكَ أمرٌ عرضيٌّ ، والأمورُ الذاتيَّةُ لا تزيلُها الأمورُ العرضيَّةُ(١)

وإنَّما أوردَ عليكَ الأسبابَ التي تضادُّ وجودَكَ وبقاءَ وجودِكَ . . ليذكِّرَكَ بذلكَ ما خفيَ عليكَ مِنْ وجودِ الفاقةِ الذاتيَّةِ لكَ ، والاضطرارِ اللازمِ لوجودِكَ ، فتلازمَ مركزَكَ ، وتقومَ بحقِّ عبوديَّتِكَ ، ولا تجاوزَ حدَّكَ وطورَكَ

قالَ بعضُهم (إنَّما حملَ فرعونَ لأنْ قالَ « أنا ربُّكمُ الأعلىٰ » . . طولُ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الوجود الذاتي الحقَّ لله تعالىٰ وحده ، وما سواه من الموجودات وجوده عرضي ؛ لأنه لا ينفكُّ عن الإمكان المستند في ظهور جزئياته إلىٰ واجب الوجود ، وإلىٰ أن الممكنات يستحيل عقلاً وشرعاً أن ترقىٰ منصة الوجوب الذاتي والوجود الحق .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [النساء ٧٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ أنتَ أحقُّ مَنْ ذُكرَ » ، رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ٢٦٤) من حديث سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

(١) وهو المعبَّر عنه باستحالة انقلاب الأعيان .

العوافي والغنىٰ ؛ لبثَ أربعَ مئةِ سنةٍ لم يتصدَّعْ رأسُهُ ، ولم يُحَمَّ جسدُهُ ، ولم يضرِبْ عليهِ عرقٌ ، فادَّعى الربوبيَّةَ ، ولو أخذَتْهُ الشقيقةُ ساعةً واحدةً أو المَلِيلَةُ كلَّ يومٍ(١) . . لشغلَهُ ذلكَ عن دعوى الربوبيَّةِ)(٢)

قالَ المؤلِّفُ في « لطائفِ المِنَنِ » (الاضطرارُ تعطيهِ حقيقةُ العبدِ(٣) ؛ إذْ هو ممكنٌ ، وكلُّ ممكنٍ مضطرٌّ إلىٰ ممدٍّ يمدُّهُ ، وكما أنَّ الحقَّ سبحانَهُ هو الغنيُّ أبداً فالعبدُ مضطرٌّ إليهِ أبداً ، ولا يزايلُ العبدَ هـٰذا الاضطرارُ في الدنيا ولا في الآخرةِ ولو دخلَ الجنةَ ، فهو محتاجٌ إلى اللهِ تعالىٰ فيها ، غيرَ أنَّهُ غُمِسَ اضطرارُهُ في المِنَّةِ التي أُفرِغَتْ عليهِ ملابسُها ، وهـٰذا هو حكمُ الحقائقِ ؛ إذْ لا يختلفُ حكمُها لا في الغيبِ ولا في الشهادةِ ، ولا في الدنيا ولا في الآخرةِ ؛ فالعلمُ صفتُهُ الكشفُ ، أيَّ علمٍ كانَ وفي أيِّ وقتٍ كانَ ، والإرادةُ صفتُها التخصيصُ ، أيَّ إرادةٍ كانَتْ وفي أيِّ وقتٍ كانَتْ ، ومَنِ اتَّسعَتْ أنوارُهُ لم يتوقَّفِ اضطرارُهُ(٤))

وقد عتَّبَ اللهُ أقواماً اضطروا إليهِ عندَ وجودِ أسبابٍ ألجأَتْهم إلى الاضطرارِ(٥) ، فلمَّا زالَتْ زالَ اضطرارُهم ؛ قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ . . . ﴾ الآيةَ(٦) ، وقالَ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ . . . ﴾ الآيةَ(٧) ، وقالَ : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ . . . ﴾ الآيتينِ(٨) ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ الواردةِ في هـٰذا المعنىٰ .

---

(١) **الشقيقة** : صداع يأخذ بنصف الرأس ، **والمليلة** : حُمَّىٰ تصل للعظم .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٩٥٢)

(٣) في (ج) : (تقتضيه) بدل (تعطيه) ، والمثبت موافق لما في « لطائف المنن » .

(٤) في (ج) : (يتوقَّتْ) بدل (يتوقف) ، والمثبت موافق لما في « لطائف المنن »

(٥) في الأصل المنقول عنه : (عاتب) بدل (عتَّب) ، وهي كذلك في جميع النسخ .

(٦) والآية بتمامها : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧]

(٧) والآية بتمامها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٢] .

(٨) والآيتان بتمامهما : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ=

ولمَّا لم تصلْ عقولُ العمومِ إلىٰ ما تعطيهِ حقائقُ وجوداتِهم . . سلَّطَ الحقُّ عليهمُ الأسبابَ المثيرةَ للاضطرارِ ؛ ليعرفوا قهرَ ربوبيَّتِهِ ، وعظَمَةِ إلـٰهيَّتِهِ) انتهى [1] .

* * *

= ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ٦٣ـ٦٤] .

(١) لطائف المنن (ص١٢٨) .

الحكمة التاسعة والتسعون (*)

خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتٌ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فَاقَتِكَ ، وَتُرَدُّ إِلَىٰ وُجُودِ ذِلَّتِكَ .

إنَّما كانَ هـٰذا خيرَ الأوقاتِ لكَ ؛ لوجودِ حضورِكَ فيها معَ ربِّكَ ، وانقطاعِ نظرِكَ عنِ الوسائطِ والأسبابِ الموجبةِ لبعدِكَ وحجبِكَ ، فهي ـ لا محالةَ ـ خيرُ أوقاتِكَ ، وهي مواسمُكَ وأعيادُكَ حسَبَ ما يقولُهُ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ بعدَ هـٰذا

يُحكىٰ عن عطاءٍ السلميِّ أنَّهُ بقيَ سبعةَ أيامٍ لم يذقْ شيئاً مِنَ الطعامِ ، ولم يقدرْ علىٰ شيءٍ ، فسُرَّ قلبُهُ بذلكَ غايةَ السرورِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ إنْ لم تطعمْني ثلاثةَ أيامٍ أُخَرَ لأصلِّيَنَّ لكَ ألفَ ركعةٍ(١)

وقيلَ إنَّ فتحاً الموصليَّ رجعَ ليلةً إلىٰ بيتِهِ ، فلم يجدْ عَشاءً ولا سراجاً ولا حَطَباً ، فأخذَ يحمدُ اللهَ تعالىٰ ويتضرَّعُ إليهِ ويقولُ : إلـٰهي ؛ لأيِّ سببٍ وبأيِّ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الوجود الإمكاني باسطٌ كفَّيه يسألُ مددَ بقائه من الوجود الواجب الذاتي ؛ لافتقاره المطلق ذاتاً وعرضاً إليه ؛ إذ لولاه ما كان فضلاً عن أن يبقىٰ ، وما خرج لحظة عن الرعاية الأزلية .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، وقوله تعالىٰ ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ [النساء : ١٣٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا ملجأ ولا منجىٰ منكَ إلا إليكَ » ، رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما

(١) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١٥٧) .

وسيلةٍ واستحقاقٍ عاملتَني بما تعاملُ بهِ أولياءَكَ ؟ ![(1)]

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ الحافي : بلغَني أنَّ بِنْتاً لفتحِ الموصليِّ عريَتْ ، فقيلَ لهُ ألا تطلبُ مَنْ يكسوها ؟ فقالَ : لا ، أدعُها حتىٰ يرى اللهُ عريَها وصبري عليها[(2)]

قالَ : فكانَ إذا كانَ ليالي الشتاءِ جمعَ عيالَهُ ومالَ بكسائِهِ عليهم ، ثم قالَ : اللهمَّ ؛ أفقرتَني وأفقرْتَ عيالي ، وجوَّعْتَني وجوَّعْتَ عيالي ، وأعريْتَني وأعريْتَ عيالي ، بأيِّ وسيلةٍ توسَّلْتُ إليكَ وإنَّما تفعلُ هـٰذا بأوليائِكَ وأحبابِكَ ؟! فهل أنا منهم حتىٰ أفرحَ ؟[(3)]

وقيلَ إنَّ الفضيلَ بنَ عياضٍ بكىٰ في ليلةٍ قَرَّةٍ ، ثم قالَ : إلـٰهي ؛ أجعْتَني وأجعْتَ عيالي ، وأعريْتَني وأعريْتَ عيالي ، وأقعدْتَني وأقعدْتَ عيالي في بيتٍ ليسَ فيهِ مصباحٌ ، وقِدْماً تفعلُ هـٰذا بأوليائِكَ وأهلِ طاعتِكَ ، إلـٰهي ؛ بأيِّ عملٍ أستحقُّ هـٰذا منكَ حتىٰ أدومَ لكَ عليهِ ؟[(4)]

وقيلَ للربيعِ بنِ خُثَيْمٍ قد غلا السعرُ ، فقالَ : نحنُ أَهْوَنُ على اللهِ مِنْ أنْ يجيعَنا ، إنَّما يجيعُ أولياءَهُ[(5)]

*

---

(1) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص١٥٧) .

(2) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٩٢) .

(3) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٩٢) ، وروىٰ أنه صُدِعَ مرة فعرج ، فقال : يا ربِّ ؛ ابتليتني ببلاءِ الأنبياءِ ، فشكرُ هـٰذا أنْ أصلي الليلةَ أربع مئة ركعة .

(4) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٢٩٥) .

(5) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص٥٧٤) .

الحكمة المئة (*)

مَتَىٰ أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْأُنْسِ بِهِ .

فتحُ بابِ الأنسِ باللهِ هو الاستيحاشُ مِنَ الناسِ ، ولذلكَ قيلَ (الاستئناسُ بالناسِ مِنْ علاماتِ الإفلاسِ)(١) ، فإذا فتحَ لكَ هـٰذا البابَ استوحشْتَ مِنَ الأغيارِ كلِّها ، وتحققْتَ في أُنْسِكَ بربِّكَ

ومعنى **الوحشةِ منها** : أنْ تشمئزَّ منها بقلبِكَ ، وتنقبضَ عنها بسرِّكَ ، ولا يكونَ للأشياءِ وَقْعٌ عندَكَ ، ولا تجدَ فيها مَقْنَعاً لكَ ، كما جاءَ عن أبي يزيدَ حينَ اطَّلعَ علىٰ أنواعٍ مِنَ العجائبِ ، ووُوجِهَ بسنيِّ الرغائبِ ، وكُشفَ لهُ عنِ الملكوتِ

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ أن نظرَ الحقِّ تعالىٰ هو الحقيق بأن يراعىٰ ؛ إذ لا عبرة للأعراض مع وجود الذات ، وإلىٰ أن الأنس بالله معناه : الأنسُ بمعرفة حكيم أفعاله وعظيم أوصافه وتجليات أسمائه ، وإلا فتتعالىٰ ذات القديم عن ذرة إحاطة وإدراك

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦] ، **وقوله تعالىٰ حكاية** : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤٨] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « إنّي أبيتُ يطعمُني ربي ويسقينِ » ، رواه البخاري (١٩٦٥) ، ومسلم (١١٠٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣١٦) عن الشبلي .

الأعلىٰ ، فقيلَ لهُ : هلِ استحسنْتَ منها شيئاً ؟ فقالَ : لم أَرَ شيئاً أستحسنُهُ ، فقيلَ لهُ : أنتَ عبدُ اللهِ حقّاً[1]

فإذا كانَ العبدُ علىٰ هٰذا الوصفِ كانَ ذلكَ علامةً علىٰ تحقُّقِهِ بمقامِ الأُنْسِ ، ونزولِهِ في حضرةِ القُدسِ

وسيأتي هٰذا المعنىٰ في قولِهِ في مناجاتِهِ (أنتَ المؤنسُ لهم حيثُ أوحشَتْهمُ العوالمُ)[2]

*

(١) أورده في « قوت القلوب » (٢/ ١١٣٥)

(٢) انظر (ص ١٠١٤) ، قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ١٥٢) (المرضي عند العقلاء : أن تقدِّر نفسك في العالم وحدك مع الله ، وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار ، وتأمَّل فيما يعنيك مما بين يديك ، ودعْ عنك ما سواه ، والسلام) .

الحكمة الحادية بعد المئة (*)

مَتَىٰ أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ

إطلاقُ اللسانِ بالطلبِ هو أنْ يحلَّ عنهُ عقدةَ الصمتِ الذي أوجبَهُ الاستغناءُ بالأغيارِ ، وعدمُ رؤيةِ الفاقةِ والافتقارِ ، فإذا حلَّ عنهُ هٰذهِ العقدةَ لشهودِ فقرِهِ وفاقتِهِ ، وانطلقَ لسانُهُ بالطلبِ . . كانَ إذْ ذاكَ داعياً بلسانِ الاضطرارِ ، وكانَ مجابَ الدعوةِ ؛ لصدْقِ الوعدِ بإجابةِ دعوةِ المضطرِّ ، واللهُ لا يخلفُ الميعادَ .

وأنشدوا(١) [من البسيط]

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ مِنْ فَيْضِ جُودِكَ مَا عَلَّمْتَنِي ٱلطَّلَبَا

وفي الحديثِ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ « مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي ٱلدُّعَاءِ مِنكُمْ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ ٱلرَّحْمَةِ ، وَمَا سُئِلَ ٱللهُ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنَّ لله تعالىٰ سنناً في خلقه لا تتخلف وإن كانت جعلية ؛ وذلك لصدق الوعد الحق ، وأن من علامات العطاء والجود الإلٰهي تحريكَ اللسان باللهج والضراعة والسؤال له سبحانه ، فإذا نادى العبد من أعماق قلبه جاش بحر العطاء .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران : ٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يستجابُ لأحدِكم ما لم يعجلْ ؛ يقولُ : دعوتُ فلم يستجبْ لي » ، رواه البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) أورده الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (١/ ١٥٥)

شَيْئاً قَطُّ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ ٱلْعَفْوَ وٱلْعَافِيَةَ فِي ٱلدُّنْيَا وٱلآخِرَةِ »[1]

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ أُعْطِيَ ٱلدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ ٱلإِجَابَةَ »[2]

قالَ الشيخُ أبو بكرٍ الخفافُ : وكيفَ لا يجيبُهُ وهو يحبُّ صوتَهُ ، ولولا ذلكَ ما فتحَ لهُ الدعاءَ ؟ ![3]

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا أَحَبَّ ٱللهُ عَبْداً صَبَّ عَلَيْهِ ٱلْبَلاءَ صَبّاً ، وَسَحَّهُ عَلَيْهِ سَحّاً ، فَإِذَا دَعَا قَالَتِ ٱلْمَلائِكَةُ : صَوْتٌ مَعْرُوفٌ ، وَقَالَ جِبْرِيلُ يَا رَبِّ ؛ عَبْدُكَ فُلانٌ ، ٱقْضِ حَاجَتَهُ ، فَيَقُولُ دَعُوا عَبْدِي ؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ ، فَإِذَا قَالَ يَا رَبِّ . . قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدَيْكَ ، لا تَدْعُونِي بِشَيْءٍ إِلا ٱسْتَجَبْتُ لَكَ ، وَلا تَسْأَلُنِي شَيْئاً إِلا أَعْطَيْتُكَ ؛ إِمَّا أَنْ أُعَجِّلَ لَكَ مَا سَأَلْتَ ، وَإِمَّا أَنْ أَدَّخِرَ لَكَ عِنْدِي أَفْضَلَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ أَدْفَعَ عَنْكَ بِهِ مِنَ ٱلْبَلاءِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ »[4]

---

(١) رواه الكلاباذي في « بحر الفوائد » (١/١٢٦) بلفظه هنا ، ورواه بنحوه الترمذي (٣٥٤٨)

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٢١٠) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) كذا في « بحر الفوائد » (١/١٢٧) دون نسبة .

(٤) رواه الكلاباذي في « بحر الفوائد » (١/١٢٧) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٢٠) .

الحكمة الثانية بعد المئة (*)

ٱلْعَارِفُ لا يَزُولُ ٱضْطِرَارُهُ ، وَلا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ ٱللهِ قَرَارُهُ

معرفةُ العارفينَ هي معرفتِهم بأنفسِهم ، وبما هي عليهِ مِنَ الفاقةِ والافتقارِ إلى العزيزِ الجبَّارِ ، وبقدْرِ ما يتحقَّقونَهُ بذلكَ مِنْ أنفسِهم تكونُ معرفتُهم باللهِ عزَّ وجلَّ ؛ كما جاءَ في الخبرِ « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ »(١) ، فلذلكَ كانَ العارفُ لا يفارقُهُ الاضطرارُ .

قالَ سيدي أبو العباسِ المرسيُّ في قولِهِ عزَّ وجلَّ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل ٦٢] (الوليُّ لا يزالُ مضطرّاً)(٢) ، قالَ ابنُ عطاءٍ رحمَهُ اللهُ : (معنى كلامِ الشيخِ هٰذا أنَّ العامةَ اضطرارُهم بمثيراتِ الأسبابِ ، فإذا زالَتْ زالَ اضطرارُهم ، وذلكَ لغلبةِ دائرةِ الحسِّ على مشهدِهم ، فلو شهدوا قبضةَ اللهِ الشاملةَ المحيطةَ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى أن الحادث لا يستغني عن القديم جوهراً زمانياً فرداً ، وأنه في فناء دائم متواصل ، وإن ظنَّ قراره في الوجود لتوالي أمداد الحق تعالى له ، ولا تكشف هٰذه الحقيقة ذوقاً إلا لعارف مكاشَفٍ .
ويطلب معنى هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : ٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح ١١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام مناجياً : « لا تكلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ » ، رواه أبو داود (٥٠٩٠) من حديث سيدنا أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه .

(١) قاله يحيى بن معاذ الرازي ، وانظر « القول الأشبه في حديث : من عرف نفسه فقد عرف ربه » للإمام السيوطي ضمن « الحاوي للفتاوي » (٢/ ٢٨٨)

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص١٢٨)

لعلموا أنَّ اضطرارَهم إلى اللهِ تعالىٰ دائمٌ)[1]

وإنَّما لم يكنْ لهُ معَ غيرِ اللهِ قرارٌ ؛ لوجودِ وحشتِهِ مِنَ الأشياءِ ، ونفورِهِ بقلبِهِ عنها كما تقدَّمَ[2] ، وكأنَّهُ رحمَهُ اللهُ قصدَ بهٰذا أنْ يعلمَكَ أنَّ ما تقدَّمَ لهُ مِنَ الاستيحاشِ مِنَ الخلْقِ ، وانطلاقِ اللسانِ بالطلبِ مِنَ الحقِّ . . نعتانِ مِنْ نعوتِ العارفينَ

* * *

---

(١) قاله في « لطائف المنن » (ص١٢٨) .

(٢) انظر (ص ٤٧٤) .

الحكمة الثالثة بعد المئة (*)

أَنَارَ ٱلظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ ، وَأَنَارَ ٱلسَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَفَلَتْ أَنْوَارُ ٱلظَّوَاهِرِ ، وَلَمْ تَأْفُلْ أَنْوَارُ ٱلْقُلُوبِ وَٱلسَّرَائِرِ ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ(١) : [من الخفيف]

إِنَّ شَمْـسَ ٱلنَّهَـارِ تَغْـرُبُ بِـاللَّيْـ
ـلِ وَشَمْـسُ ٱلْقُلُـوبِ لَيْسَـتْ تَغِيـبُ

أنوارُ الظواهرِ التي بها أنارَها الحقُّ تعالىٰ هي الإدراكاتُ والإحساساتُ ، والحركاتُ التي اتَّصفَ بها ظاهرُ العبدِ .

وأنوارُ السرائرِ التي بها أنارَها الحقُّ تعالىٰ هي المعارفُ والعلومُ ، ولطائفُ الإدراكاتِ والفهومِ ، التي اشتملَ عليها باطنُهُ وسرُّهُ .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه ربُّ العالمين ؛ عالَمِ الملك والملكوت والجبروت ، ولكل عالم خلق الله سبيل تعريف وهداية له ؛ فلعالم الملك الحواس ، ولعالم الملكوت بصيرة الفؤاد ، ولعالم الجبروت الخيال .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٢٢] وقوله عليه الصلاة والسلام : « واللهِ ؛ لولا اللهُ ما اهتدينا » ، رواه البخاري (٦٦٢٠) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

(١) وأنشده الإمام ابن عطاء أيضاً في « لطائف المنن » (ص٥٣) ، وأنشده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٠٥) للنصراباذي ، والإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/ ٦٤٨) ، وقال : (أما شمس القلوب فهي التوحيد ، وشمس السماء تغرب ، ولٰكن شمس القلوب لا تغيب وتغرب) .

فأنوارُ الظواهرِ متعلقةٌ بأنوارِ الآثارِ والحادثاتِ ، وأنوارُها : معانيها ولطائفُها المستكنَّةُ فيها ، وأنوارُ السرائرِ متعلقةٌ بأنوارِ الصفاتِ الأزليَّاتِ

ولأجلِ اختلافِ المتعلَّقينِ في الحدوثِ والقدمِ ، والفناءِ والبقاءِ . . كانَ ما ذكرَهُ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ مِنْ أفولِ أنوارِ ما تعلَّقَ بالحادثِ الفاني ، وعدمِ أفولِ أنوارِ ما تعلَّقَ بالقديمِ الباقي ، ثم أنشدَ المؤلِّفُ البيتَ المذكورَ مستشهداً بهِ علىٰ ما ذكرَهُ ، ومعناهُ بيِّنٌ ، وقبلَهُ[1] : [من الخفيف]

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أُحِبُّ بِلَيْلٍ ... فَٱسْتَضَاءَتْ فَمَا لَهَا مِنْ غُرُوبِ

وفي هٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ الأمورَ الباقيةَ هي التي ينبغي أنْ يُغتبطَ بها ، ويُفرحَ بحصولِها ، ويُعتنىٰ بتربيتِها ومراعاةِ حالِها ، بخلافِ الأمورِ الفانيةِ الآفلةِ ، وحينَئذٍ يكونُ العبدُ علىٰ ملَّةِ إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ؛ حيثُ قالَ : ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام : ٧٦] .

ويُروىٰ أنَّ رجلاً سألَ سهلَ بنَ عبدِ اللهِ عنِ القوتِ ، فقالَ : هو الحيُّ الذي لا يموتُ[2] ، فقالَ : إنَّما سألتُكَ عنِ القوامِ ، فقالَ : القوامُ هو العلمُ ، فقالَ سألتُكَ عنِ الغذاءِ ، فقالَ : الغذاءُ هو الذكرُ ، فقالَ : إنَّما سألتُكَ عن طُعْمِ الجسدِ ، فقالَ : ما لكَ وللجسدِ ، دعْ مَنْ تولَّاهُ أولاً يتولَّاهُ آخراً ، إذا دخلَتْ عليهِ علَّةٌ فردَّهُ إلىٰ صانعِهِ ، أمَا رأيتَ الصنعةَ إذا عِيبَتْ ردُّوها إلىٰ صانعِها حتىٰ يصلحَها ؟!

---

(١) في هامش (أ) : (قلتُ : لا يصلح أن يكون قبله ولا بعده ؛ لأن البيت الذي استشهد فيه المصنف مضمومٌ ، وهنا مكسور الباء) ، ولذا وقع في « نفح الطيب » (٢/ ٦٤٤) البيت الذي أنشده صاحب « الحكم » :

إنَّ شمسَ النهارِ تغربُ بالليـ ... ـلِ وشمسُ القلوبِ دونَ غروبِ

(٢) وأنشدوا : (من الطويل)

إذا كنتَ قوتَ النفسِ ثم هجرتَها ... فكم تلبثُ النفسُ التي أنتَ قوتُها

ستبقىٰ بقاءَ الضبِّ في الماءِ أو كما ... يعيشُ ببيداءِ المهامهِ حوتُها

وفي معناهُ أنشدوا[١] : [من الكامل]

كَمِّلْ حَقِيقَتَكَ ٱلَّتِي لَمْ تَكْمُلِ ... وٱلْجِسْمَ دَعْهُ فِي ٱلْحَضِيضِ ٱلأَسْفَلِ
أَتُكَمِّلُ ٱلْفَانِي وَتَتْرُكُ بَاقِياً ... هَمَلاً وَأَنْتَ بِأَمْرِهِ لَمْ تَحْفُلِ
فَٱلْجِسْمُ لِلنَّفْسِ ٱلنَّفِيسَةِ آلَةٌ ... مَا لَمْ تُحَصِّلْهُ بِهَا لَمْ تَحْصُلِ
يَفْنَى وَتَبْقَى دَائِماً فِي غِبْطَةٍ ... أَوْ شِقْوَةٍ وَنَدَامَةٍ لا تَنْجَلِي
أُعْطِيتَ جِسْمَكَ خَادِماً فَخَدَمْتَهُ ... أَتُمَلِّكُ ٱلْمَفْضُولَ رِقَّ ٱلأَفْضَلِ
شَرَكٌ كَثِيفٌ أَنْتَ فِي حُبُلاتِهِ ... مَا دَامَ يُمْكِنُكَ ٱلْخَلاصُ فَعَجِّلِ
مَنْ يَسْتَطِيعُ بُلُوغَ أَعْلَى مَنْزِلٍ ... مَا بَالُهُ يَرْضَى بِأَدْنَى مَنْزِلِ

وقيلَ في معناهُ أيضاً[٢] : [من البسيط]

يَا خَادِمَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَشْقَى لِخِدْمَتِهِ ... وَتَطْلُبُ ٱلرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ
عَلَيْكَ بِٱلنَّفْسِ فَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِٱلنَّفْسِ لا بِٱلْجِسْمِ إِنْسَانُ

* *

---

(١) الأبيات من قصيدة لعزِّ الدين الأربيلي الضرير ، أوردها الحافظ اليونيني في « ذيل مرآة الزمان » (٣٨/٢) .

(٢) البيتان لأبي الفتح البستي . انظر « ديوانه » (ص١٨٣) .

الباب الحادي عشر
في أحكام البلايا والعلل

الحكمة الرابعة بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

لِيُخَفِّفْ أَلَمَ ٱلْبَلاءِ عَلَيْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْمُبْلِي لَكَ ، فَالَّذِي وَاجَهَتْكَ مِنْهُ ٱلأَقْدارُ . . هُوَ ٱلَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ ٱلِاخْتِيارِ .

إذا علمَ العبدُ أنَّ اللهَ تعالىٰ رحيمٌ بهِ ، ومتعطِّفٌ عليهِ ، وناظرٌ إليهِ . . فكلُّ ما يوردُهُ عليهِ مِنْ أنواعِ البلايا والرزايا ينبغي ألا يكترثَ بذلكَ ولا يباليَهُ ؛ فإنَّهُ لم يتعوَّدْ منهُ إلا خيراً ، فليحسنْ بهِ ظنَّهُ ، وليعتقدْ أنَّ ذلكَ اختبارٌ لهُ ، وأنَّ لهُ في ذلكَ مصالحَ خفيةً لا يعلمُها إلا هو ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

قالَ أبو طالبٍ المكيُّ في هـٰذهِ الآيةِ : (فالعبدُ يكرهُ العَيْلةَ والفقرَ ، والخمولَ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله تعالىٰ هو الضار والنافع ، وله في تجليات هـٰذين الاسمين حِكَمٌ ثرَّة ، وإلىٰ أنه تعالىٰ قد سبقت رحمته غضبه ، فتعلقات الإحسان أضعاف تعلقات الابتلاء والامتحان .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الحمدُ للهِ الذي منَّ علينا وهدانا ، والذي أشبعنا وأروانا ، وكلَّ الإحسانِ آتانا » ، رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٤٦٦) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

والضرَّ ، وهو خيرٌ لهُ في الآخرةِ ، وقد يحبُّ الغنىٰ والعوافيَ والشهرةَ ، وهو شرٌّ لهُ عندَ اللهِ تعالىٰ وأسوأُ عاقبةً)[١]

وفي معنىٰ قولِهِ تعالىٰ ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان : ٢٠] ، قيلَ : ظاهرُهُ العوافي ، وباطنُهُ البلايا ؛ لأنَّها نعمةٌ في الآخرةِ[٢]

فإذاً ؛ كلُّ ما يصيبُ المؤمنَ فهو نعمةٌ كائناً ما كانَ ، فلهُ الحمدُ علىٰ نعمِهِ

قالَ في « التنويرِ » : (إنَّما يقويهم علىٰ حمْلِ أقدارِهِ ، شهودُ حسنِ اختيارِهِ)[٣] .

وأنشدَ فيهِ لنفسِهِ[٤] : [من الطويل]

وَخَفَّفَ عَنِّي مَا أُلاقِي مِنَ ٱلْعَنَا ... بِأَنَّكَ أَنْتَ ٱلْمُبْتَلِي وَٱلْمُقَدِّرُ
وَمَا لِامْرِئٍ عَمَّا قَضَى ٱللهُ مَعْدِلٌ ... وَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ ٱلَّذِي يَتَخَيَّرُ

وكانَ الأستاذُ أبو عليٍّ الدقاقُ يقولُ جَرِبْتُ مرَّةً ، وكنتُ في صورةٍ وَحشةٍ مِنْ ذلكَ ، فدخلتُ الحمَّامَ ، ففُتحَ علىٰ قلبي بشيءٍ مِنَ الرضا ، فكنتُ ألثمُ كلَّ واحدةٍ مِنَ القروحِ ، فخرجتُ ولم يبقَ منها أثرٌ

وقالَ الأستاذُ أبو القاسمِ القشيريُّ (سمعتُ الأستاذَ أبا عليٍّ الدقاقَ يقولُ في آخرِ عمرِهِ وقدِ اشتدَّتْ بهِ علَّةٌ ، فقالَ مِنْ أماراتِ التأييدِ حفظُ التوحيدِ في أوقاتِ الحُكْمِ ، ثم قالَ كالمفسِّرِ لقولِهِ مشيراً إلىٰ ما كانَ فيهِ مِنْ حالِهِ هو أنْ يقرضَكَ بمقاريضِ القدرةِ في إمضاءِ الأحكامِ قطعةً قطعةً وأنتَ ساكنٌ خامدٌ)[٥]

وقالَ الجنيدُ كنتُ نائماً عندَ سريٍّ السقطيِّ ، فأنبهَني وقالَ لي : يا جنيدُ ؛

---

(١) قاله في « قوت القلوب » (٢/ ٩٥٦) .
(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٩٥٥) .
(٣) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٧١) .
(٤) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٧٣) .
(٥) قاله في « الرسالة القشيرية » (ص٦٢٣) ، وفي نسخة من « الرسالة » (شاكر حامد) بدل (ساكن خامد)

رأيتُ كأنِّي وقفتُ بينَ يديهِ ، فقالَ لي يا سريُّ ؛ خلقتُ الخلْقَ فكلُّهمُ ادَّعَوا محبَّتي ، وخلقتُ الدنيا فهربَ منِّي تسعةُ أعشارِهم ، وبقيَ معي العشرُ ، وخلقتُ الجنةَ فهربَ منِّي تسعةُ أعشارِ العشرِ ، وبقيَ عشرُ العشرِ ، وخلقتُ النارَ فهربَ منِّي تسعةُ أعشارِ عشرِ العشرِ ، فسلَّطْتُ عليهم ذرَّةً مِنَ البلاءِ فهربَ منِّي تسعةُ أعشارِ عشرِ عشرِ العشرِ ، فقلتُ للباقينَ معي : لا الدنيا أردتُم ، ولا الجنةَ أخذتُم ، ولا مِنَ النارِ هربتُم ، ولا مِنَ البلاءِ فررتُم ، فماذا تريدونَ ؟ قالوا إنَّكَ لتعلمُ ما نريدُ ، فقلتُ لهم إنِّي مسلِّطٌ عليكم مِنَ البلاءِ بعددِ أنفاسِكم ما لا تقومُ بهِ الجبالُ الرواسي ، أتصبرونَ ؟ قالوا : إذا كنتَ أنتَ المبتليَ فافعلْ ما شئتَ ، فهٰؤلاءِ عبادي حقّاً(1)

* *

(1) رواه الخطيب البغدادي كما في « المنتخب من كتاب الزهد والرقائق » (٨٠) .

الحكمة الخامسة بعد المئة (*)

مَنْ ظَنَّ ٱنْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ . . فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ .

قصورُ النظرِ في عدمِ رؤيةِ اللطفِ في القدرِ . . مِنْ ضعفِ اليقينِ ، وقلَّةِ حسْنِ الظنِّ بالمقدِّرِ الحكيمِ ، ولو كَمُلَ نظرُ العبدِ وقويَ بصرُهُ لرأىٰ في ذلكَ مِنَ الفوائدِ والمصالحِ ما لا يُحصىٰ ، وما غابَ عنهُ أكثرُ ، ولكانَ كما رُوِيَ عن بعضِ الصالحينَ العارفينَ أَنَّهُ قالَ : (لقد مرضتُ مرضةً ، فأحببتُ ألا تزولَ)(١)

وكانَ عمرانُ بنُ الحصينِ رضيَ اللهُ عنهما قدِ استسقىٰ بطنُهُ(٢) ، فلبثَ ملقىً علىٰ ظهرِهِ سطيحاً ثلاثينَ سنةً لا يقومُ ولا يقعدُ ، قد نُقِبَ لهُ علىٰ سريرٍ مِنْ جريدٍ ، وكانَ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى القول باللطف علىٰ طريقة أهل السنة ، لا بمعنىٰ وجوبه عليه سبحانَهُ كما قالت المعتزلة ، واللطف من الصفات الجوامع ؛ إذ يرجع للعلم والقدرة معاً ، وإلى القول بالحكمة الرشيدة ، التي تكون عاقبتها حميدة ، مع تنزيهه سبحانَهُ عن الأغراض في أفعاله ، وإنما النفع حاصل لعباده ، وإلى القول بإثبات النظر شرعاً وعقلاً وعادةً .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورىٰ : ١٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلىٰ : ٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ـ٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في جسده وأهله وماله حتىٰ يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ وما عليهِ خطيئةٌ » ، رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٤٩٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) كذا في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ٧٥) ، وتمامه : (لما ورد عليَّ فيها من إمداد الله تعالىٰ ، وانكشف فيها من وجود غيبه) .

(٢) استسقىٰ : مرضَ باجتماع ماء أصفر في بطنه ، والبرءُ منه عسير .

تحتَهُ نَقْبٌ لغائطِهِ وبولِهِ[1] ، فدخلَ عليهِ مطرفٌ أو أخوهُ العلاءُ ابنُ الشخيرِ[2] ، فجعلَ يبكي لما رأىٰ مِنْ حالِهِ ، فقالَ : لِمَ تبكي ؟ قالَ : لأنِّي أراكَ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ العظيمةِ ، قالَ لا تبكِ ؛ فإنَّ أحبَّهُ إليَّ أحبُّهُ إلى اللهِ تعالىٰ[3] ، ثم قالَ : أحدِّثُكَ بشيءٍ لعلَّ اللهَ تعالىٰ أنْ ينفعَكَ بهِ ، واكتمْ عليَّ حتىٰ أموتَ : إنَّ الملائكةَ تزورُني فآنسُ بها ، وتسلِّمُ عليَّ فأسمعُ تسليمَها[4]

وقالَ بعضُهم : دخلنا علىٰ سويدِ بنِ مثعبةَ نعودُهُ ، فعاينَّا ثوباً ملقىً ، فما ظنَنَّا أنَّ تحتَهُ شيئاً حتىٰ كُشِفَ ، فقالَتْ لهُ امرأتُهُ : أهلي فداؤُكَ ، ما نطعمُكَ ؟ وما نسقيكَ ؟ فقالَ : طالَتِ الضجعةُ ، ودَبِرَتِ الحراقيفُ[5] ، وأصبحتُ نِضواً[6] ، ما أطعمُ طعاماً ولا أسيغُ شراباً منذ كذا ، فذكرَ أياماً ، ثم قالَ : ما يسرُّني أنِّي نُقِصْتُ مِن هـٰذا قلامةَ ظفرٍ[7]

فهـٰؤلاءِ شاهدوا في بلاياهُ عطاياهُ ، وفي مِحَنِهِ مِنَنَهُ ، وفي عنفِهِ لطفَهُ ، فأوجبَ لهم ذلكَ مِنَ الرضا بما هم فيهِ والتنعُّمِ بهِ والتلذُّذِ . . ما حملَهم علىٰ ألا يحبُّوا زوالَ ذلكَ عنهم ولا نقصانَهُ

---

(١) النقب : الثقب في أي شيء كان .

(٢) كذا العبارة في « قوت القلوب » (٢/١٠١٨) ، وقد تبعه العلامة المصنف ، وإنما الصواب : (أو أبو العلاء بن الشخير) ، وأبو العلاء هو يزيد بن عبد الله بن الشخير العامري ، أخو مطرف ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٤/٤٩٣) .

(٣) رواه إلىٰ هنا ابنُ سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٤/ ٢٩٠) .

(٤) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/١٠١٨) وقال : (أراد عمران رحمه الله بذلك : أن يعلم أن هـٰذا البلاء ليس بعقوبة ؛ لأن مثل هـٰذه الآية إنَّما هي درجة ورحمة ، وبلاء العقوبات لا يكون معه الآيات ، ولا يوجد عنده الحلاوات ، ولا مزيد القلوب من نسيم ريحان الغيوب)

(٥) دبرت : حفيَتْ أو تقرَّحت ، والحراقيف : جمع حَرْقَفة ؛ رأس الوَرِك .

(٦) النِّضو : المهزول من سقم أو غيره .

(٧) كذا في « قوت القلوب » (٢/١٠١٨) ، ورواه ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٦/ ١٦٠) .

[وجوهٌ مِنَ الألطافِ
والمِنَنِ في البلايا والمِحَنِ]

ووجوهُ الألطافِ والمِنَنِ في البلايا لا تُحصىٰ ، ولـٰكنَّا نذكرُ منها ها هنا ما يزدادُ المريدُ بهِ قوَّةً وحُسْنَ ظنٍّ بربِّهِ عزَّ وجلَّ ، ويحملُهُ ذلكَ على القيامِ بواجبِها ، فنقولُ

البلايا التي يبتلي اللهُ تعالىٰ بها عبادَهُ مناقضةٌ لإراداتِهم ، ومنغِّصةٌ لشهواتِهم ، وكلُّ ما أزعجَ النفسَ ونغَّصَها وآلمَها فهو محمودُ العاقبةِ[١] ؛ مِنْ قِبَلِ أنَّ ذلكَ رادٌّ لهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وملازمةِ بابِهِ بصدْقِ اللَّجَأِ والافتقارِ ، وهـٰذا هو أعظمُ فوائدِ البلايا ، ويجدُ ذلكَ مِنْ نفسِهِ كلُّ مَنْ نزلَتْ بهِ بليَّةٌ أو أصابَتْهُ رزيَّةٌ .

وفيها أيضاً[٢] ضعْفُ النفسِ وذهابُ قوَّتِها وبطلانُ صفاتِها ؛ إذْ بوجودِ ذلكَ يقعُ العبدُ في الذنوبِ والمعاصي ، وتتأكَّدُ منهُ الرغبةُ في الدنيا ، والحرصُ على اتِّباعِ الهوىٰ .

وقد قيلَ : لا يخلو المؤمنُ مِنْ علَّةٍ أو عَيْلَةٍ ، أو قلَّةٍ أو ذِلَّةٍ[٣]

---

(١) روى ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٢٨) عن مسروق قال : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظهم للصلاة ، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم ، والكلب يحرسهم ، قال : فجاء ثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا لذهاب الديك ، وكان الرجل صالحاً ، فقال : عسىٰ أن يكون خيراً ، ثم مكثوا ما شاء الله ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله ، فحزنوا لذهاب الحمار ، فقال الرجل الصالح : عسىٰ أن يكون خيراً ، ثم مكثوا ما شاء الله ، ثم أصيب الكلب ، فقال الرجل الصالح : عسىٰ أن يكون خيراً ، ثم مكثوا ما شاء الله بعد ذاك ، فأصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سُبيَ من حولهم وبقوا هم ، وإنما أخذوا أولـٰئك لما كان عندهم من الصوت والجلبة ، ولم يكن عند أولـٰئك شيء يجلُبُ ؛ قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم .

(٢) الضمير في قوله : (فيها) راجع إلى (البلايا) ، وكذا فيما سيأتي .

(٣) انظر « قوت القلوب » (٩٥١/٢) ، وأورد عن سهل التستري قوله : (أمراض الجسم للصديقين ، وأمراض القلوب للمنافقين)

وفي الخبرِ عنِ اللهِ تعالى : (الفقرُ سجني ، والمرضُ قيدي ، أحبسُ بذلكَ مَنْ أحببتُ مِنْ عبادي)[١]

وفيها أيضاً : تحصلُ لهُ طاعاتُ القلوبِ وأعمالُها ، وذرَّةٌ منها خيرٌ مِنْ أمثالِ الجبالِ مِنْ أعمالِ الجوارحِ ؛ وذلكَ مثلُ الصبرِ والرضا والزهدِ والتوكُّلِ وحبِّ لقاءِ اللهِ تعالىٰ

قيلَ لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : ها هنا رجلٌ قد تعبَّدَ خمسينَ سنةً ، فقصدَهُ ، فقالَ حبيبي ؛ أخبرْني عنكَ ؛ هل قنعتَ بهِ ؟ قالَ لا ، فقالَ هل أنستَ بهِ ؟ قالَ لا ، قالَ هل رضيتَ عنهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإنَّما مزيدُكَ منهُ الصلاةُ والصيامُ ؟ قالَ نعم ، قالَ لولا أنِّي أستحيي منكَ لأخبرتُكَ أنَّ معاملتَكَ لهُ خمسينَ سنةً مدخولةٌ[٢]

قالَ أبو طالبٍ المكيُّ (أرادَ بذلكَ أنَّهُ لم يرفعْكَ بأعمالِكَ إلىٰ مقاماتِ المقرَّبينَ ، فيوجدَكَ مواجدَ العارفينَ ، فيكونَ مزيدُكَ منهُ أعمالَ القلوبِ التي يستعملُ بها كلَّ محبوبٍ مطلوبٍ ؛ لأنَّ القناعةَ بهِ حالُ الموقنِ ، والأُنْسَ بهِ مقامُ المحبِّ ، والرضا وصفُ المتوكِّلِ ؛ أي : إنَّما أنتَ عندَهُ في طبقةِ أصحابِ اليمينِ ، فمزيدُكَ منهُ مزيدُ العمومِ مِنْ أعمالِ الجوارحِ)[٣]

وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ ما قلناهُ مِنْ أفضليَّةِ أعمالِ القلوبِ التي تحصلُ بسببِ البلايا . . علىٰ أعمالِ الجوارحِ ، فمَنْ وفَّقَهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ منازلةِ هـٰذهِ المقاماتِ وتوفيةِ حقوقِها في البلايا النازلةِ بهِ . . فقد حصلَ علىٰ كنوزِ البرِّ

ذكرَ أبو إبراهيمَ إسحاقُ بنُ إبراهيمَ التُّجِيبيُّ القرطبيُّ المالكيُّ رحمَهُ اللهُ في

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٩٥٢) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٢٠) .

(٣) قاله في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٢٠) ، وانظر « إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٤٨)

كتابِ « النصائحِ » لهُ : أنَّ عروةَ بنَ الزبيرِ ابتُليَ بقرحةٍ في ساقِهِ ، فبلغَتْ بهِ إلىٰ نشرِ عظمِ ساقِهِ في الموضعِ الصحيحِ منها ، فقالَ لهُ الأطباءُ : ألا نسقيكَ مُرْقِداً فلا تحِسُّ بما يُصنعُ بكَ ؟ فقالَ : لا ، ولـٰكنْ شأنَكم بها ، فنشروا الساقَ ، ثم حسموها بالنارِ ، فما حرَّكَ عضواً ، ولا أنكروا منهُ حتىٰ مسَّتْهُ النارُ ، فما زادَ علىٰ أنْ قالَ : حَسِّ[1]

وأُصيبَ حينَئذٍ بابنِهِ محمدٍ[2] ، وكانَ مِنْ أحبِّ ولدِهِ إليهِ ، فلمَّا رأى القدمَ بيدِ بعضِهم قالَ : أمَا إنَّ اللهَ تعالىٰ يعلمُ أنِّي لم أمشِ بها إلىٰ معصيةٍ قطُّ ، ثم قالَ : يا غلامُ ؛ اغسلْها وكفِّنْها وادفنْها في مقبرةِ المسلمينَ ، ثم قالَ : لئنْ أخذتَ لقد أبقيتَ ، ولئنِ ابتليتَ لقد عافيتَ ، ولئنْ أخذتَ لطالما أعطيتَ[3]

وذكرَ ابنُ قتيبةَ في « عيونِ الأخبارِ » لهُ عنِ المدائنيِّ قالَ : قدمَ رجلٌ مِنْ عَبْسٍ ضريرٌ محطومُ الوجهِ . . على الوليدِ ، فسألَهُ عن سببِ ضررِهِ ، فقالَ : بتُّ ليلةً في بطنِ وادٍ ولا أعلمُ علىٰ وجهِ الأرضِ عبسيّاً يزيدُ مالُهُ علىٰ مالي ، فطرقَنا سيلٌ أذهبَ ما كانَ لي مِنْ مالٍ وأهلٍ وولدٍ إلا صبيّاً رضيعاً وبعيراً صعباً ، فندَّ البعيرُ والصبيُّ معي ، فوضعتُهُ واتبعتُ البعيرَ لأحبسَهُ ، فما جاوزتُ إلا ورأسُ الولدِ في بطنِ الذئبِ قد أكلَهُ ، فتركتُهُ واتبعتُ البعيرَ ، فاستدارَ فرمحَني رَمْحَةً حطمَ بها وجهي وأذهبَ عيني ، فأصبحتُ لا ذا مالٍ ، ولا ذا أهلٍ ، ولا ذا ولدٍ ، ولا ذا بدنٍ ، فقالَ الوليدُ اذهبوا بهِ إلىٰ عروةَ ليعلمَ أنَّ في الناسِ مَنْ هم أعظمُ بلاءً منهُ[4]

ورُوِيَ عن عبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ أنَّهُ خرجَ معَ بعضِ إخوانِهِ إلىٰ ناحيةٍ مِنْ نواحي البصرةِ ، فآواهمُ السيرُ إلىٰ كهفِ جبلٍ ، فإذا فيهِ عبدٌ مقطعٌ بالجذامِ يسيلُ جسدُهُ قيحاً وصديداً ، فقالوا لهُ : يا هـٰذا ؛ لو دخلتَ البصرةَ فتعالجْتَ مِنْ هـٰذا الذي

---

(١) حَسِّ ـ بفتح الحاء وكسر السين المهملة مع ترك التنوين ـ : كلمة تقال عند الألم .

(٢) انظر « عيون الأخبار » (٣/ ٦٤)

(٣) ورواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٤١)

(٤) عيون الأخبار (٣/ ٦٤) .

بكَ ! فرفعَ طرفَهُ إلى السماءِ وقالَ : سيدي ؛ بأيِّ ذنبٍ سلَّطتَ عليَّ هـٰؤلاءِ يسخطوني عليكَ ويُكرِّهونَكَ إليَّ ؟ سيدي ؛ لكَ العتبىٰ مِنْ ذلكَ الذنبِ ، وأستغفرُ منهُ ، ولا أعودُ فيهِ أبداً ، ثم أعرضَ عنَّا بوجهِهِ ، فانصرفنا وتركناهُ[1]

ورُوِيَ عن بشرِ بنِ الحارثِ الحافي أنَّهُ قالَ : رأيتُ بعبَّادانَ رجلاً قد قطعَهُ البلاءُ ، وقد سالَتْ حدقتاهُ علىٰ خديهِ[2] ، وهو في ذلكَ كثيرُ الذكرِ ، عظيمُ الشكرِ للهِ تعالىٰ ، قالَ وإذا هو قد صُرِعَ مِنْ جِنَّةٍ بهِ ، قالَ : فوضعتُ رأسَهُ في حجري ، وجعلتُ أسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يكشفَ ما بهِ وأدعو ، فأفاقَ فسمعَ دعائي ، فقالَ : مَنْ هـٰذا الفضوليُّ الذي يدخلُ بيني وبينَ ربِّي ويعترضُ عليهِ في نعمتِهِ عليَّ ؟! ونحَّىٰ رأسَهُ مِنْ حجري ، قالَ بشرٌ : فاعتقدتُ ألا أعترضَ علىٰ عبدٍ في نعمةٍ أراها عليهِ مِنَ البلاءِ[3]

وقد رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ : أنَّ يونسَ وجبريلَ عليهما السلامُ التقيا ، فقالَ يونسُ لجبريلَ دُلَّني علىٰ أَعْبَدِ أهلِ الأرضِ ، فأتىٰ بهِ علىٰ رجلٍ قد قطعَ الجذامُ يديهِ ورجليهِ ، قالَ : وإذا هو يقولُ : متَّعتَني بهما حيثُ شئتَ ، وسلبتَهُما حيثُ شئتَ ، وأبقيتَ لي فيكَ الأملَ ، يا برُّ يا وصولُ

فقالَ يونسُ عليهِ السلامُ : يا جبريلُ ؛ إنَّما سألتُكَ أنْ تريَني صوَّاماً قوَّاماً ! قالَ : إنَّ هـٰذا كانَ قبلَ البلاءِ هـٰكذا ، وقد أُمرتُ أنْ أسلبَهُ بصرَهُ ، فأشارَ إلىٰ عينيهِ فسالتا ، فقالَ متَّعتَني بهما حيثُ شئتَ ، وسلبتَنيهما حيثُ شئتَ ، وأبقيتَ لي فيكَ الأملَ ، يا برُّ يا وصولُ .

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٩٥٥) ، وفيه : (ثم قال : اصرفهم عني ، اردُدهم عني ، قال : وكنَّا جماعة ، فما ملكنا رؤوس دوابِّنا ، ولا قدرنا علىٰ ضبطها حتىٰ ردَّتنا إلى البصرة) .

(٢) في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٤٢) : (مجنون قد صُرع ، والنمل يأكل لحمه)

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠١٩) .

فقالَ جبريلُ هلمَّ تدعو وندعو معَكَ أنْ يردَّ اللهُ عليكَ يديكَ ورجليكَ وبصرَكَ ، فتعودَ إلى العبادةِ التي كنتَ فيها ، فقالَ : ما أحبُّ ذلكَ ، فسُئِلَ : ولِمَ ؟ قالَ : إذا كانَتْ محبَّتُهُ في هـٰذا فمحبَّتُهُ أحبُّ إليَّ مِنْ ذلكَ ، قالَ يونسُ : يا جبريلُ ؛ واللهِ ما رأيتُ أحداً أعبدَ مِنْ هـٰذا ، قالَ جبريلُ يا يونسُ ؛ إنَّ هـٰذا طريقٌ ليسَ يُوصَلُ إلىٰ رضاهُ بشيءٍ أفضلَ منهُ[١]

وفي الخبرِ « إِذَا أَحَبَّ ٱللهُ عَبْداً ٱبْتَلاهُ ؛ فَإِنْ صَبَرَ ٱجْتَبَاهُ ، وَإِنْ رَضِيَ ٱصْطَفَاهُ »[٢]

وفيها أيضاً يحصلُ لهُ كفَّارةُ الذنوبِ والخطايا ، ويستوجبُ مِنَ اللهِ جزيلَ الهباتِ والعطايا ، ولا سبيلَ لهُ إلىٰ ذلكَ إلا بما يردُ عليهِ مِنْ أنواعِ البلايا ؛ لأنَّ العبدَ قد يعجزُ عنِ القيامِ بوظائفِ الطاعاتِ ، ويتكاسلُ عنِ المواظبةِ علىٰ نوافلِ الخيراتِ ، فيكونُ حينَئذٍ محروماً مِنْ ثوابِها ، غيرَ حاصلٍ لهُ تكفيرُ سيئاتِهِ بها ، وإنْ قدرَ عليها ولم يتكاسلْ عنها مَنْ لهُ بتخليصِها مِنَ الشوائبِ ، وتسليمِها مِنَ الآفاتِ والمعايبِ ؟! وحينَئذٍ يبطلُ عملُهُ ، ويخيبُ مِنِ انتفاعِهِ بهِ أملُهُ

فليحسنِ العبدُ ظنَّهُ بمولاهُ ، وليعلمْ أنَّ ما اختارَهُ لهُ خيرٌ لهُ ممَّا يختارُهُ لنفسِهِ بشهوتِهِ وهواهُ ؛ فقد رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ للرجلِ الذي قالَ لهُ : أوصني ، قالَ : « لا تَتَّهِمِ ٱللهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ »[٣]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٢٥) ، والعبارة في خاتمته : (إن هـٰذا الطريق لا يوصلُ إلىٰ رضا الله بشيء أفضلَ منه) ، وزاد في هامش (أ) : (قال : أوحى الله إلىٰ داود : أسرعُ الناس مروراً على الصراط الذين يرضون بحكمي ، وألسنتُهم رطبةٌ من ذكري) .

(٢) كذا في « قوت القلوب » (٢/٩٥٦) ، وقال في صدره : (وقد روينا حديثاً من طريق أهل البيت . . .) ثم ذكره ، وهو في « الفردوس » (٩٧١) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٥) عن محمد بن مسلم بلاغاً ، ورواه بنحوه الحكيمُ الترمذي في « نوادر الأصول » (٦٩٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٢٦٣) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً ؛ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه =

وذكرَ مسلمٌ رحمَهُ اللهُ مِنْ حديثِ صهيبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عَجَباً لِأَمْرِ ٱلْمُؤْمِنِ ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ »(١)

وذكرَ البخاريُّ ومسلمٌ في « صحيحيهما » مِنْ حديثِ أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهما أنَّهما سمعا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَا يُصِيبُ ٱلْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلا نَصَبٍ وَلا سَقَمٍ وَلا حَزَنٍ ، حَتَّى ٱلْهَمِّ يُهَمُّهُ . . إِلا كَفَّرَ اللهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ »(٢)

وذكرا أيضاً حديثَ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذىً مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ . . إِلا حَطَّ [اللهُ] عَنْهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ ٱلشَّجَرَةُ وَرَقَهَا »(٣)

وذكرَ البخاريُّ ومسلمٌ أيضاً مِنْ حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ بِشَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلا كُتِبَتْ لَهُ دَرَجَةٌ ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ »(٤)

= وسلم يسأله رجل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمانٌ باللهِ ، وجهادٌ في سبيلِهِ » ، قال : يا رسول الله ؛ أريد أيسر من ذلك ، قال : « السماحةُ والصبرُ » ، قال : يا رسول الله ؛ أريد أيسر من ذلك ، قال : « لا تتهمِ اللهَ في شيءٍ قضىٰ بهِ لكَ » .

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) .

(٢) صحيح البخاري (٥٦٤١) ، صحيح مسلم (٢٥٧٣) ، والوصب : الوجع اللازم ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات : ٩] ؛ أي : لازم ، والنصب : التعب ، والسقم والحزن يجوز فيهما فتح الفاء والعين ، وضم الفاء وسكون العين ، وانظر « شرح النووي علىٰ مسلم » (١٦/ ١٣٠) .

(٣) رواه البخاري (٥٦٤٨) ، ومسلم (٢٥٧١) ، وقوله : (حطَّ عنه) كذا في جميع النسخ ، ولا يخفىٰ أن المعنىٰ : حطَّ الله عنه ، أو يبنى الفعل للمفعول .

(٤) رواه البخاري (٥٦٤٠) بلفظ مغاير ، ومسلم (٢٥٧٢) واللفظ له .

وذكرَ البخاريُّ أيضاً عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يُرِدِ ٱللهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ »(١)

وفي حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَثَلُ ٱلْمَرِيضِ إِذَا بَرِئَ وَصَحَّ مِنْ مَرَضِهِ كَمَثَلِ ٱلْبَرَدَةِ تَقَعُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِي صَفَائِهَا وَلَوْنِهَا »(٢)

ورُوِيَ عن عيسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : (لا يكونُ عالماً مَنْ لم يفرحْ بدخولِ المصائبِ والأمراضِ علىٰ جسدِهِ ومالِهِ ؛ لما يرجو بذلكَ مِنْ كفَّارةِ خطاياهُ)(٣)

ورُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أخبارٌ كثيرةٌ في الحمَّىٰ والعمىٰ وغيرِ ذلكَ ؛ ذكرَ البزارُ مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّهُ دخلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فوضعَ يدَهُ عليهِ وعليهِ حمَّىٰ ، فوجدَ حرَّها مِنْ فوقِ اللِّحافِ ، فقالَ : ما أشدَّها عليكَ يا رسولَ اللهِ ! فقالَ : « إِنَّا كَذَلِكَ يُشَدَّدُ عَلَيْنَا ٱلْبَلَاءُ لِيُضَاعَفَ لَنَا ٱلْأَجْرُ » ، قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً ؟ قالَ : « ٱلْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ ٱلصَّالِحُونَ ؛ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِٱلْفَقْرِ حَتَّىٰ مَا يَجِدُ إِلا عَبَاءَةً يَجُوبُهَا ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِٱلْقَمْلِ حَتَّىٰ يَقْتُلَهُ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِٱلْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِٱلرَّخَاءِ »(٤)

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤٥) ، وقوله : (يُصِبْ) معناه : يبتلِهِ بالمصائب ، وقال العلامة الطيبي في « شرح المشكاة » (٤/١٣٣٨) : (ضبطوا بفتح الصاد وكسرها ، أقول : الفتح أحسن ؛ للأدب ؛ كما قال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء ٨٠]) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٢) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٩٢٧) ، والبزار في « مسنده » (٦٣٥٥) .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٩٥٤)

(٤) رواه ابن ماجه (٤٠٢٤) ، وقوله : (يجوبها) قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (١/ ٥٢٠) : (بجيم وواو فموحدة ؛ أي : يخرقها ويقطعها ، وكل شيء قطع وسطه فهو مجبوب)

وقيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] أي : مِنَ الآثامِ والذنوبِ بالحُمَّىٰ والأمراضِ ؛ لمَّا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما يُروىٰ عنهُ للحُمَّىٰ : « ٱذْهَبِي إِلَىٰ أَهْلِ قُبَاءَ »[١] .

وقد رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ بدلاً مِنْ (أهلِ قُباءَ) : (الأنصارِ) ففيهِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأىٰ يوماً شخصاً أسودَ ، فقالَ : « مَنْ أَنْتِ ؟ » ، فقالَتْ : أُمُّ مِلْدَمٍ ، آكلُ اللحمَ ، وأشربُ الدمَ ، وحَرِّي مِنْ فيحِ جهنَّمَ ، صورةُ الحُمَّىٰ[٢] ، فقالَ عليهِ السلامُ : « ٱذْهَبِي إِلَى ٱلْأَنْصَارِ ؛ فَإِنَّ لَهُمْ عَلَيْنَا حُقُوقاً » ، فأصبحَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلم يرَ أحداً مِنَ الأنصارِ حضرَ الصلاةَ ، فطلبَهم ، فقيلَ : أخذَتْهمُ الحُمَّىٰ ، فقالَ : « قُومُوا بِنَا نَعُودُهُمْ » ، وقالَ لهمُ : « ٱلْحُمَّىٰ طَهَارَةٌ وَكَفَّارَةٌ » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ حتىٰ يزيدَنا منها[٣] .

وذكرَ مسلمٌ مِنْ حديثِ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دخلَ علىٰ أمِّ السائبِ ـ أو أمِّ المسيَّبِ ـ فقالَ « مَا لَكِ يَا أُمَّ ٱلسَّائِبِ ـ أو يا أمَّ المسيَّبِ ـ تُزَفْزِفِينَ ؟ » ، قالَتِ : الحمَّىٰ ، لا باركَ اللهُ فيها ، قالَ : « لا تَسُبِّي ٱلْحُمَّىٰ ؛ فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ ٱلْكِيرُ خَبَثَ ٱلْحَدِيدِ »[٤] .

وذكرَ البخاريُّ مِنْ حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : إِذَا ٱبْتَلَيْتُ عَبْدِي ٱلْمُؤْمِنَ بِحَبِيبَتَيْهِ ثُمَّ صَبَرَ . عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا ٱلْجَنَّةَ » يريدُ : عينيهِ ، كذا قالَ في آخرِ الحديثِ

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٦/٢٤٦) من حديث سيدنا سلمان رضي الله عنه ، وهناد في « الزهد » (٣٨٩) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٦/١٥٨) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٢) كذا في (أ ، ب ، ز) ، وقوله (صورة الحمىٰ) بدلٌ من (أم ملدم) ، وفي سائر النسخ : (فقالت : أم ملدم صورة الحُمَّىٰ) فقط .

(٣) رواه بنحوه البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/١٥٩) من حديث سيدنا سلمان رضي الله عنه .

(٤) رواه مسلم (٢٥٧٥) ، وقوله : (تزفزفين) معناه : ترتعدين من البرد .

مِنْ قولِ أحدِ الرواةِ[1] ، والحبيبتانِ : هما العينانِ ، وهما الكريمتانِ أيضاً

رُوِيَ أنَّ أنسَ بنَ مالكٍ وأبا ظِلالٍ رضيَ اللهُ عنهما كانا في بيتِ ثابتٍ البنانيِّ[2] ، فقالَ أنسٌ يا أبا ظلالٍ ؛ متىٰ فقدتَ بصرَكَ ؟ قالَ وأنا صبيٌّ لا أعقلُ ، قالَ ألا أحدِّثُكَ حديثاً حدَّثَنيهِ حبيبي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، يرويهِ عن جبريلَ ، ويرويهِ جبريلُ عن ربِّهِ عزَّ وجلَّ ؟ قالَ : يا جبريلُ ؛ ما جزاءُ مَنْ سلبْتُ كريمتيهِ ؟ قالَ سبحانَكَ ، لا علمَ لنا إلا ما علمتَنا ، قالَ : جزاؤُهُ الخلودُ في داري ، والنظرُ إلىٰ وجهي[3]

ومِنْ طريقِ هلالِ بنِ سويدٍ ـ وهو أبو ظلالٍ المذكورُ ـ أنَّهُ سمعَ أنساً رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : مرَّ بنا ابنُ أمِّ مكتومٍ فسلَّمَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَلا أُحَدِّثُكُمْ بِمَا حَدَّثَنِي بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ عَنْ هَـٰذَا وَضُرَبَائِهِ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَبْصَارُهُمْ ؟ » ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حَدَّثَنِي جِبْرِيلُ أَنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : حَقٌّ عَلَيَّ ؛ مَنْ أَخَذْتُ كَرِيمَتَيْهِ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا ٱلْجَنَّةُ »[4]

وفي حديثِ بريدةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَا أُصِيبَ عَبْدٌ بَعْدَ ذَهَابِ دِينِهِ بِأَشَدَّ مِنْ ذَهَابِ بَصَرِهِ ، وَمَا ذَهَبَ بَصَرُ عَبْدٍ فَصَبَرَ إِلا لَقِيَ ٱللهَ وَلا حِسَابَ عَلَيْهِ »[5]

وذكرَ البخاريُّ ومسلمٌ مِنْ حديثِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّ امرأةً سوداءَ أتَتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي أُصرعُ ، وإنِّي أتكشَّفُ ، فادعُ اللهَ لي ، قالَ : « إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ ٱلْجَنَّةُ ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ ٱللهَ أَنْ

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٣) ، وفي « إرشاد الساري » (٣٤٦/٨) أن المفسِّر لقوله : (حبيبتيه) هو سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) أبو ظلال : هو هلال بن سويد القسملي الأزدي البصري الأعمىٰ .

(٣) رواه ابن الأعرابي في « المعجم » (٤٣٨)

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٩٤٩٠) .

(٥) رواه الدينوري المالكي في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٨١) .

يُعافِيَكِ » ، قالَتْ : أصبرُ ، قالَتْ : فإنِّي أتكشَّفُ ، فادعُ اللهَ ألا أتكشَّفَ ، فدعا لها[1]

إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هٰذا البابِ ممَّا لا يُحصىٰ لكثرتِهِ .

وفيها أيضاً يحصلُ لهُ تجديدُ التوبةِ ، وأداءُ الحقوقِ والتبعاتِ والظُّلاماتِ ، وكثرةُ الاستغفارِ ، وحسنُ التَّذكارِ ، وكثرةُ ذكرِ الموتِ ؛ إذْ ذاكَ أبلغُ ما يُذَكَّرُ بهِ ؛ فقد قيلَ : (الحمَّىٰ بريدُ الموتِ)[2] ، وقد قيلَ في قولِهِ تعالىٰ ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٦] أي : يُختبرونَ بها[3]

وفي حديثِ عائشةَ وأنسٍ رضيَ اللهُ عنهما : قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هل يكونُ معَ الشهداءِ يومَ القيامةِ غيرُهم ؟ قالَ : « نَعَمْ ، مَنْ ذَكَرَ ٱلْمَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ عِشْرِينَ مَرَّةً » ، وفي لفظِ الحديثِ الآخرِ « مَنْ يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فَتُحْزِنُهُ »[4]

وقد كانَ السلفُ يستوحشونَ إذا خرجَ عنهم عامٌ لم يُصابوا فيهِ بنقصٍ مِنْ نفسٍ أو مالٍ[5]

ويُقالُ لا يخلو المؤمنُ في كلِّ أربعينَ يوماً أنْ يُراعَ بروْعةٍ ، أو يُصابَ بنكبةٍ ،

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٧٦) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٩٤٠٦) عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٩٦٠) وعبارته فيه : (قيل : بالأمراض والأسقام ، يختبرون بها) .

(٤) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ٩٦٠) ، وروى الطبراني في « المعجم الأوسط » (٧٦٧٦) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشةُ ؛ إنَّ شهداءَ أمتي إذاً لقليلٌ ، مَنْ قالَ في يوم خمساً وعشرينَ مرَّةً : اللهمَّ ؛ باركْ في الموتِ وفيما بعدَ الموتِ ، ثم ماتَ علىٰ فراشِهِ . أعطاهُ اللهُ أجرَ شهيدٍ » ، وعند الديلمي في « الفردوس » (٧٤٢) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه « إنَّ العبدَ ليمرضُ ، فيرقُّ قلبُهُ ، فيذكرُ ذنوبَهُ ، فيقطرُ مِنْ عينيهِ مثلُ الذبابِ مِنَ الذنوبِ ، فيطهرُهُ اللهُ من ذنوبِهِ » .

(٥) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٩٦٠) .

وكانوا يكرهونَ فقْدَ ذلكَ في هـٰذا العددِ مِنْ غيرِ أنْ يُصابوا فيهِ بشيءٍ[1]

وفيها أيضاً يقعُ لهُ خَلَفُ ما يفوتُهُ مِنَ الطاعاتِ ونوافلِ العباداتِ ، فيُكتبُ لهُ في مرضِهِ مثلُ ما كانَ يعملُ مِنْ ذلكَ في صحَّتِهِ ، وذلكَ أبلغُ لهُ في الوصولِ إلىٰ غرضِهِ ؛ لأنَّهُ مِنِ اختيارِ اللهِ تعالىٰ ، وهو خيرٌ لهُ ممَّا اختارَهُ لنفسِهِ .

وفي الخبرِ « يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ لِمَلائِكَتِهِ : ٱكْتُبُوا لِعَبْدِي صَالِحَ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ فِي صِحَّتِهِ ؛ فَإِنَّهُ فِي وَثَاقِي ؛ إِنْ أَطْلَقْتُهُ أَبْدَلْتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ ، وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ ، وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ تَوَفَّيْتُهُ إِلَىٰ رَحْمَتِي »[2]

وفي الصحيحِ مِنْ حديثِ أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا مَرِضَ ٱلْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ . . كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيماً صَحِيحاً »[3] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الألطافِ التي لا نعلمُها

وإنَّما ذكرنا هـٰذهِ المعانيَ ها هنا لأنَّها لائقةٌ بكلامِ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وكأنَّها مفسِّرةٌ لهُ ، وأيضاً : فإنَّ العبدَ محتاجٌ إليها غايةَ الاحتياجِ ؛ لأنَّهُ في حالِ نزولِ البلايا يتسخَّطُ ويجزعُ ، ويضطربُ إيمانُهُ ويتزلزلُ إيقانُهُ ، فيحتاجُ إلىٰ مذكِّرٍ يذكِّرُهُ بأمثالِ هـٰذهِ المعاني ؛ ليحصلَ لهُ بذلكَ مِنَ الرضا وحسنِ الظنِّ باللهِ والمحبةِ لهُ ما يُرجىٰ لهُ بذلكَ إنْ ماتَ مِنْ فورِهِ حسْنُ الخاتمةِ ، وحبُّ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، والأعمالُ بخواتيمِها .

وهـٰذا الغرضُ هو الذي أوجبَ لنا في هـٰذا الفصلِ الإكثارَ مِنَ الحكاياتِ ، وإظهارَ نسبةِ أكثرِ الأحاديثِ فيهِ إلىٰ رواتِها الثقاتِ ؛ ليطمئنَّ أهلُ البلاءِ بذلكَ ، وتُسلكَ إلى اللهِ تعالىٰ واضحاتُ تلكَ المسالكِ ، واللهُ وليُّ التوفيقِ

* * *

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٩٦٠) .

(٢) رواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٥) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، وروىٰ بعضه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٤٠) عن عطاء بن يسار رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٦) .

الحكمة السادسة بعد المئة (*)

لا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ ٱلطُّرُقُ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ ٱلْهَوَىٰ عَلَيْكَ

الطرقُ إلى اللهِ تعالىٰ واضحةٌ لائحةٌ ؛ لأنَّ الحقَّ تعالىٰ هو الذي تولَّىٰ ذلكَ ، وبهِ أنزلَ الكتبَ وأرسلَ الرُّسُلَ ، ونصبَ عليهِ الأدلَّةَ والبراهينَ ، فلا يُخافُ على العبدِ مِنِ التباسِها ، وإنَّما يُخافُ مِنْ غلبةِ الهوىٰ عليهِ حتىٰ يعميَهُ ذلكَ عن رؤيتِها

قالَ أحمدُ بنُ خضرويهِ البلخيُّ : (الطريقُ واضحٌ ، والحقُّ لائحٌ ، والداعي قد أسمعَ ، فما التحيُّرُ بعدَ هـٰذا إلا مِنَ العمىٰ)(١)

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت لطف الله تعالىٰ بخلق أسباب الهداية فضلاً منه من غير وجوب عليه ، وأن له تعالىٰ الحجةَ علىٰ عباده بما اختاروا لأنفسهم من أسباب الهلاك وإن كان سبحانه هو الخالق لها ، وأنه تعالىٰ بعث الأنبياء والرسل للخلق هداية ورحمة .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [صٓ : ٢٦] وقوله عليه الصلاة والسلام : « حبُّكَ الشيءَ يعمي ويصمُّ » ، رواه أبو داود (٥١٣٠) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٠٥) .

الحكمة السابعة بعد المئة (*)

سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ ٱلْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ ٱلْعُبُودِيَّةِ

سرُّ الخصوصيَّةِ هو حقيقةُ المعرفةِ التي اختُصَّ بها أهلُ ولايةِ اللهِ تعالىٰ ؛ بحيثُ لا يبقىٰ معَها وجودٌ لغيرٍ ولا كونٍ ، وذلكَ بما جعلَهُ فيهم مِنَ التهيُّؤِ والقابليَّةِ .

فمِنْ لُطْفِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ أنْ سترَ ذلكَ بما أظهرَهُ مِنَ البشريَّةِ التي مِنْ لوازمِها وجودُ الغيرِ والكونِ ، ولولا هـٰذا السترُ لكانَ سرُّ اللهِ مبتذلاً غيرَ مصونٍ ، كما قالَ في « لطائفِ المننِ » : (ولا بدَّ للشمسِ مِنْ سحابٍ ، وللحسناءِ مِنْ نقابٍ)[1]

ثم إنَّ مِنْ حقيقةِ ظهورِ البشريَّةِ الاتصافَ بصفةِ الافتقارِ والاحتياجِ وغيرِ ذلكَ مِنْ أوصافِ الحدوثِ ، وذلكَ هو حقيقةُ التعبُّدِ والتألُّهِ ، فظهرَ لنا مِنْ ذلكَ لزومُ وجودِ إلـٰهٍ معبودٍ ، وهـٰذهِ هي **عظمةُ الربوبيَّةِ** التي ظهرَتْ لنا مِنْ وراءِ حجابِ العبوديَّةِ ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن لله تعالىٰ خواصَّ من عباده ، أهَّلهم لمعرفته ، فصاروا ينسبون إليه فيقال : أهل الله ، ولو أظهر حقيقتهم لعُبدوا من دونه عند الجاهلين ، فمَنَّ عليهم بالستر بأوصاف عامة البشر ؛ من أكل وشرب ونكاح ومشي في الأسواق ، وإلىٰ أنه تعالىٰ ظهرت للعباد عظمة ربوبيته بما مَنَّ علىٰ صالحي عباده من الانكسار والذلة والتواضع لجلاله

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم : ٣١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أنا عبدُ اللهِ ورسولُهُ » ، رواه البخاري (٤٣٣٣) ، ومسلم (١٠٥٩) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(١) لطائف المنن (ص ٥٣) وزاد : (وهل يكون الكنز إلا مدفوناً ، والسرُّ إلا مصوناً ؟!)

ولولا ذلكَ لكانَ باطناً لا يظهرُ ؛ كما قالَ سيدي أبو الحسنِ الشاذليُّ (العبوديَّةُ جوهرةٌ أظهرَتْها الربوبيَّةُ)(١)

فسبحانَ اللطيفِ الخبيرِ ، ومَنْ هو علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ! والتسبيحُ الذي ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ ها هنا في غايةِ المناسبةِ لما ذكرَهُ مِنَ المعنىٰ

❊

(١) في (د) وحدها : (أظهر بها) ، وعند السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٧٤) : (من عبده بمعنىٰ أن العبودية جوهرة تظهرُها الربوبيةُ . . فقد أصاب)
قال الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٨٠) : (وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه . . طوىٰ عنك شهود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته) .

الحكمة الثامنة بعد المئة (*)

لا تُطالِبْ ربَّكَ بتأخُّرِ مَطْلَبِكَ ، ولَـٰكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ

إذا دعوتَ ربَّكَ ، فسألتَ مطلباً مِنَ المطالبِ ، ولم تظهرْ لكَ الإجابةُ . . فحسِّنْ بهِ ظنَّكَ ، ولا تطالبْهُ بالوفاءِ بذلكَ ؛ فإنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ ، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ ، ولـٰكنْ طالبْ نفسَكَ بتأخُّرِ أدبِكَ ؛ فإنَّها أهلٌ للمطالبةِ

وسوءُ أدبِها مِنْ وجوهٍ :

أحدُها أنَّكَ دعوتَ لتجابَ في دعائِكَ ، فيحصلُ لكَ بذلكَ غرضٌ ، وهو ممَّا يقدحُ في كمالِ عبوديَّتِكَ ، وسيأتي هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (لا يكنْ طلبُكَ سبباً إلى العطاءِ منهُ فيقلَّ فهمُكَ عنهُ ، وليكنْ طلبُكَ لإظهارِ العبوديَّةِ ، وقياماً بأحكامِ الربوبيَّةِ)[1]

والثاني : اعتقادُكَ أنَّهُ لم يستجبْ لكَ إذْ ظهرَ لكَ عدمُ الإجابةِ منهُ ، وليسَ مِنْ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ لا يجب عليه شيء ، وأن وعده سبحانه حق لا يتخلَّف شرعاً ، فإن وقع خلفٌ فلفقدان شرط ، وإلىٰ أن الأدب عنوان التوفيق .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يستجابُ لأحدِكم ما لم يعجلْ ؛ يقولُ : دعوتُ فلم يستجبْ لي » ، رواه البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) انظر (ص ٦٥٧)

شرطِ الإجابةِ أنْ تظهرَ لكَ ، بل لهُ أنْ يخفيَها عنكَ ؛ لما في ذلكَ مِنَ المصالحِ والإجابةُ إليهِ أمرُها ، يجعلُها ما شاءَ ممَّا تعلمُهُ أو تجهلُهُ ، وقد تقدَّمَ هٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ (لا يكنْ تأخيرُ أمدِ العطاءِ معَ الإلحاحِ في الدعاءِ موجباً ليأسِكَ . . .) إلىٰ آخرِهِ[١]

والثالثُ ـ وهو أشدُّها ـ : اعتراضُكَ علىٰ ربِّكَ في حكمِهِ ، ومطالبتُكَ لهُ إذا تأخَّرَتْ إجابةُ دعائِكَ[٢]

* *

ثم ذكرَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ تعالى الحالةَ التي إذا كانَ عليها العبدُ قامَ بحقِّ الأدبِ ، ووصلَ إلىٰ غايةِ الأربِ ، فقالَ :

---

(١) انظر (ص ١٧٩) .

(٢) في (هـ ، ز) : (إذْ) بدل (إذا) .

الحكمة التاسعة بعد المئة (*)

مَتَىٰ جَعَلَكَ فِي ٱلظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ ، وَرَزَقَكَ فِي ٱلْبَاطِنِ ٱلِاسْتِسْلامَ لِقَهْرِهِ . . فَقَدْ أَعْظَمَ ٱلْمِنَّةَ عَلَيْكَ

هـٰذانِ الأمرانِ هما اللذانِ يلزمانِكَ في إقامةِ العبوديَّةِ لربِّكَ لا غيرُ ، فمتىٰ يسَّرَهما اللهُ لكَ ، وأقامَكَ في مراعاةِ أحكامِهِما ، ووفَّقَكَ لذلكَ . . فقد أعظَمَ المنَّةَ عليكَ ، فلماذا تتشوَّفُ ؟! وما الذي تلتمسُ بعدَهما إنْ كنتَ عبداً حقيقيّاً ؟!

قالَ سيدي أبو الحسنِ صحبتُ أخاً لي في اللهِ تعالىٰ في البدايةِ ، واعتزلنا في مغارةٍ عسىٰ أنْ نكونَ مِنْ أولياءِ اللهِ ، وأنْ يفتحَ اللهُ علينا بما فتحَ اللهُ عليهم ، فأقمنا زماناً نقولُ لعلَّ في هـٰذهِ الجمعةِ ، لعلَّ في هـٰذا الشهرِ ، فلم يفتحِ اللهُ علينا ، فنحنُ كذلكَ إذا بشيخٍ علىٰ بابِ المغارةِ يستأذنُ ، فأذنَّا لهُ ، فدخلَ فسلَّمَ ووقفَ ، فقلنا لهُ : مَنْ أنتَ ؟ فقالَ عبدُ الملكِ ، فعلمنا أنَّهُ مِنْ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ، فقلنا لهُ : كيفَ حالُكَ ؟ فقالَ كيفَ حالُكَ ؟! كيفَ حالُكَ ؟! يردِّدُها كالمنكرِ علينا ، ثم قالَ كيفَ حالُ مَنْ يقولُ لنفسِهِ في هـٰذهِ الجمعةِ أكونُ وليّاً ، في هـٰذا الشهرِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ جعل من علامة توفيقه امتثال أوامره في الظاهر ، والانكسار لعظمة ربوبيته في الباطن

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم ١١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٣٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أفلحَ إن صدقَ » ، قاله فيمن أقام أعمال الإيمان والإسلام ، رواه البخاري (٤٦) ، ومسلم (١١) من حديث سيدنا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه

أكونُ وليّاً ؟! فلا ولايةَ ولا فلاحَ ، ولا دنيا ولا آخرةَ ، يا نفسُ ؛ لم لا تعبدي اللهَ تعالىٰ كما أمرَكِ مخلصةً لوجهِهِ ؟!(١) قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦]

ثم انصرفَ عنَّا ، فانتبهنا لغلطِنا ، وتيقَّظْنا مِنْ أينَ دُخِلَ علينا ، وعلمنا أنَّ اللهَ رحمَنا بهِ ، فرجعتُ علىٰ نفسي باللومِ والتوبيخِ ، وقلتُ لها يا نفسُ ؛ مَنْ أنتِ ؟ وما علمُكِ ؟ وما خطرُكِ ؟ أنتِ لا شيءَ ، وتُبنا واستغفرنا اللهَ تعالىٰ ، قالَ ففتحَ اللهُ علينا بجودِهِ وكرمِهِ وفضلِهِ

* *

(١) كذا في جميع النسخ : (تعبدي) ، وهي لغة مشهورة

الحكمة العاشرة بعد المئة (*)

لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ

التخصيصُ ها هنا هو أنْ يُظهِرَ الحقُّ تعالىٰ علىٰ بعضِ عبادِهِ أثرتَهُ وعنايتَهُ ، وتوليةَ لطفِهِ ورعايتِهِ :

فمنهم مَنْ يستمرُّ لهُ ذلكَ حتىٰ يتحقَّقَ بالعرفانِ ، ويتخلَّصَ عن رؤيةِ الأغيارِ والأكوانِ ، وهٰؤلاءِ هم خواصُّ المقرَّبينَ ؛ أهلُ العلمِ باللهِ والحبِّ لهُ .

ومنهم مَنْ يوقفُهُ عن بلوغِ ذروةِ الكمالِ ، ويربِّيهِ في حالِهِ بما يليقُ بهِ مِنْ علومٍ وأعمالٍ ، وهٰؤلاءِ عامَّةُ المقرَّبينَ ، وخاصَّةُ أصحابِ اليمينِ ؛ العبَّادُ الزهَّادُ ، وأهلُ المجاهدةِ والأورادِ

وهٰؤلاءِ وإنْ شاركوا الأولينَ فيما يُتحفُهمُ الحقُّ تعالىٰ مِنْ لطائفِ الكراماتِ ، وفيما يمنحُهم إيَّاهُ مِنَ القيامِ بوظائفِ الطاعاتِ والعباداتِ . . فلم يتخلَّصوا مِنْ رؤيةِ نفوسِهم ، ولم ينفكُّوا عن مراعاةِ حظوظِهم ، بل هم ساكنونَ إلى الأسبابِ ، مغتبطونَ بوجودِ الحجابِ .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الوليَّ لله تعالىٰ لا يزايلُ الخوف ؛ إذ الخوف علامة الإيمان ، وأن العبد مهما جدَّ السير في مهامه المعرفة وخاض في بحارها . . فلن يقف عند حدٍّ ؛ إذ ليس لله تعالىٰ حدٌّ يُنتهىٰ إليه ، وإلىٰ إثبات الكرامات للأولياء والصالحين من عباد الله .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] وقوله عليه الصلاة والسلام : « ربِّ ؛ ألم تعدني ألا تعذبَهم وأنا فيهم ؟! ألم تعدني ألا تعذبَهم وهم يستغفرونَ ؟! » ، رواه أبو داود (١١٩٤) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

وقد يختصُّ الحقُّ تعالىٰ هٰؤلاءِ بإظهارِ الكراماتِ علىٰ أيديهم وبسببِهم ؛ تسكيناً لأنفسِهم ، وتثبيتاً لليقينِ في قلوبِهم ، ويمنعُها الأولينَ ؛ لأنَّهم لا يحتاجونَ إليها ؛ لِمَا هم فيهِ مِنَ الرسوخِ في اليقينِ ، والقوَّةِ والتمكينِ ؛ كما قالَ صاحبُ « عوارفِ المعارفِ » : (وقد يكونُ مَنْ لا يُكاشَفُ بشيءٍ مِنْ معاني القُدَرِ أفضلَ ممَّنْ يُكاشَفُ بها[1] ؛ إذا كاشفَهُ اللهُ تعالىٰ بصِرْفِ المعرفةِ ، فالقدرةُ أثرُ القادرِ ، ومَنْ أُهِّلَ بقربِ القادرِ لا يستغربُ ولا يستكثرُ شيئاً مِنَ القدرةِ ، ويرى القدرةَ تتجلَّىٰ مِنْ سَجْفِ أجزاءِ عالمِ الحكمةِ)[2]

وسُئِلَ الشبليُّ رضيَ اللهُ عنهُ وقيلَ لهُ : إنَّ أبا ترابٍ ذكرَ أنَّهُ جاعَ في الباديةِ ، فرأى الباديةَ كلَّها طعاماً ، فقالَ : عبدٌ رُفِقَ بهِ ، ولو بلغَ إلىٰ محلِّ التحقيقِ لكانَ كمَنْ قالَ : « أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي فَيُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي »[3]

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (واعلمْ : أنَّ الكراماتِ تارةً تظهرُ للوليِّ في نفسِهِ ، وتارةً تظهرُ منهُ لغيرِهِ .

فإنْ ظهرَتْ للوليِّ في نفسِهِ فالمرادُ تعريفُهُ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ وفرديَّتِهِ وأحديَّتِهِ ، وأنَّ قدرتَهُ لا تتوقَّفُ على الأسبابِ ، وأنَّ العوائدَ هو حاكمٌ عليها ، ليسَتْ هي حاكمةً عليهِ ، وإنَّما جعلَ العوائدَ والأسبابَ والوسائطَ حُجُبَ قدرتِهِ ، وسُحُبَ شمسِ أحديَّتِهِ ، فواقفٌ عندَها مخذولٌ ، ونافذٌ منها إليهِ هو بالعنايةِ موصولٌ .

وقالَ الشيخُ أبو الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ : فائدةُ الكرامةِ : تعريفُ اليقينِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بالعلمِ والقدرةِ والإرادةِ والصفاتِ الأزليَّةِ بجمعٍ لا يفترقُ ، وأمرٍ لا ينفقدُ[4] ،

---

(١) القُدَرُ : جمع قدرة ، والمراد هنا : تعلقات القدرة القديمة .

(٢) عوارف المعارف (٢/ ٥٥) .

(٣) الأثر رواه البخاري (١٩٦٥) ، ومسلم (١١٠٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) كذا في النسخ ، وفي (ب ، ج) : (ينتقد) ، وفي مطبوع « اللطائف » : (يتعدد) .

كأنَّها صفةٌ واحدةٌ قائمةٌ بذاتِ الواحدِ ، أيستوي مَنْ تعرَّفَ اللهُ إليهِ بنورِهِ كمَنْ تعرَّفَ إلى اللهِ بعقلِهِ ؟!

ولأجلِ أنَّها تثبيتٌ لمَنْ ظهرَتْ لهُ ؛ ربَّما وجدَها أهلُ البداياتِ في بداياتِهم ، وفقدَها أهلُ النهاياتِ في نهاياتِهم ؛ إذْ ما عليهِ أهلُ النهاياتِ مِنَ الرسوخِ في اليقينِ والقوَّةِ والتمكينِ لا يحتاجونَ معَهُ إلىٰ مثبِّتٍ

وهكذا كانَ السلفُ رضيَ اللهُ عنهم ؛ لم يحوجْهُمُ الحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ إلىٰ وجودِ الكراماتِ الحسيَّةِ ؛ لما أعطاهم مِنَ المعارفِ الغيبيَّةِ والعلومِ الإشهاديَّةِ ، ولا يحتاجُ جبلٌ إلىٰ مِرْساةٍ

فالكرامةُ رافعةٌ لزلزلةِ الشكِّ في المنَّةِ ، ومعرِّفةٌ بفضْلِ اللهِ تعالىٰ فيمَنْ أُظهرَتْ عليهِ ، وشاهدةٌ لهُ بالاستقامةِ معَ اللهِ تعالىٰ

والناسُ في الكراماتِ علىٰ ثلاثةِ أقسامٍ

قومٌ يجعلونَها غايةَ الأمرِ ؛ فإنْ وجدوها عظَّموا مَنْ ظهرَتْ عليهِ ، وإنْ فقدوها لم يتوجَّهوا بالتعظيمِ إليهِ

وقسمٌ قالوا وما هي الكراماتُ ؟! إنَّما هي خُدَعٌ يُخدعُ بها أهلُ الإرادةِ ليقفوا علىٰ حدودِهم ؛ حتىٰ لا يلجوا مقاماً ليسَ هو لهم ، حتىٰ قالَ أبو ترابٍ النخشبيُّ لأبي العباسِ الرقيِّ[1] ما يقولُ أصحابُكَ في هٰذهِ الأمورِ التي تكرَّمَ اللهُ بها علىٰ عبادِهِ ؟ فقلتُ : ما رأيتُ أحداً إلا وهو مؤمنٌ بها

فقالَ أبو ترابٍ : مَنْ لم يؤمنْ بها فقد كفرَ ، إنَّما سألتُكَ عن طريقِ الأحوالِ

فقلتُ ما أعرفُ لهم قولاً ، فقالَ أبو ترابٍ : بلىٰ ، قد زعمَ أصحابُكَ أنَّها

---

(١) كذا في جميع النسخ هنا وفيما سيأتي ، وكذا في الأصل المنقول عنه ، والذي في مطبوع « الرسالة القشيرية » (الشرقي) بدل (الرقي) ، وهو أحمد بن عمرو بن قُرْقُر الحذاء الشرقي ، نسبة إلى الجانب الشرقي من بغداد ، **والرقي** : نسبة إلى الرقة ، بلدة علىٰ طرف الفرات مشهورة .

خُدَعٌ مِنَ الحقِّ ، وليسَ الأمرُ كذلكَ ، إنَّما الخُدَعُ في حالِ السكونِ إليها ، فأمَّا مَنْ لم يفرحْ بها ولم يساكنْها . . فتلكَ مرتبةُ الربَّانيينَ

وكانَ هٰذا مِنْ أبي ترابٍ رضيَ اللهُ عنهُ بعدَ أنْ عطشَ القومُ وهم أصحابُهُ ، فضربَ بيدِهِ الأرضَ فنبعَ الماءُ ، فقالَ فتىً أريدُ أنْ أشربَهُ في قدحٍ ، فضربَ بيدِهِ الأرضَ فناولَهُ قدحاً مِنْ زجاجٍ أبيضَ ، فشربَ وسقانا ، قالَ أبو العباسِ الرقيُّ وما زالَ القدحُ معَنا إلىٰ مكةَ[١]

قالَ الشيخُ أبو الحسنِ : والقولُ الفصلُ في ذلكَ[٢] أَنَّهُ لا ينبغي أنْ تُطلبَ ؛ أدباً معَ اللهِ تعالىٰ ، ومَنْ أُظهرَتْ عليهِ عُظِّمَ ؛ لأنَّها شاهدةٌ لهُ بالاستقامةِ معَ اللهِ تعالىٰ

قالَ والقسمُ الثاني[٣] : وهو أنْ تظهرَ الكرامةُ في الوليِّ لغيرِهِ فالمرادُ بذلكَ : تعريفُ ذلكَ العبدِ الذي شهدَها بصحَّةِ طريقِ هٰذا الوليِّ الذي أُظهرَتْ عليهِ الكرامةُ ؛ إمَّا أنْ يكونَ جاحداً فيرجعَ إلى الاعترافِ ، أو كافراً فيعودَ إلى الإيمانِ ، أو شاكّاً في خصوصيَّةِ هٰذا العبدِ فأُظهرَتْ عليهِ ليعرِّفَكَ اللهُ بما فيهِ مِنْ ودائعِ الإحسانِ) انتهىٰ كلامُهُ[٤]

وقالَ أبو نصرٍ السرَّاجُ : (سألتُ أبا الحسنِ بنَ سالمٍ فقلتُ لهُ ما معنى الكراماتِ وهم قد أُكرموا حتىٰ تركوا الدنيا اختياراً ؟! وكيفَ أُكرموا بأنْ تُجعلَ لهمُ الحجارةُ ذهباً ؟ فما وجهُ ذلكَ ؟

فقالَ : لا يعطيهم ذلكَ لقدْرِها ، ولٰكنْ يعطيهم ذلكَ حتىٰ يحتجُّوا بكونِ ذلكَ علىٰ نفوسِهم عندَ اضطرابِها وجزعِها مِنْ فوتِ الرزقِ الذي قسمَ اللهُ لهم ،

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٧٣٤) .

(٢) وهو القسم الثالث من أقسام الناس في الكرامات

(٣) إذ الأول : أن تظهر للولي في نفسه ، وهٰذا هو الثاني لما افتتح الحديث عنه (ص ٥٠٩) .

(٤) لطائف المنن (ص ٧٢) .

فيقولونَ[1] : الذي يقدرُ على أنْ يُصيِّرَ لكَ الحجارةَ ذهباً كما هو ذا تنظرُ إليهِ . . أليسَ بقادرٍ أنْ يسوقَ إليكَ رزقَكَ مِنْ حيثُ لا تحتسبُهُ ؟! فيحتجُّوا بذلكَ على ضجيجِ نفوسِهم عندَ فوتِ الرزقِ ، ويقطعوا بذلكَ حُجَجَ نفوسِهم ، فيكونُ ذلكَ سبباً لرياضتِها وتأديباً لها)[2]

قالَ أبو نصرٍ : (وقد حكى لنا ابنُ سالمٍ في معنى ذلكَ حكايةً عن سهلِ بنِ عبدِ اللهِ أنَّهُ قالَ : كانَ رجلٌ بالبصرةِ يُقالُ لهُ : إسحاقُ بنُ أحمدَ ، وكانَ مِنْ أبناءِ الدنيا ، فخرجَ عنِ الدنيا ـ أعني عن جميعِ مالِهِ ـ وتابَ ، وصحبَ سهلاً ، فقالَ يوماً لسهلٍ يا أبا محمدٍ ؛ إنَّ نفسي هـٰذهِ ليسَتْ تتركُ الضجيجَ والصراخَ مِنْ خوفِ فوتِ القوتِ والقوامِ ، فقالَ لهُ سهلٌ : خُذْ ذلكَ الحجرَ وسَلْ ربَّكَ أنْ يُصيِّرَهُ لكَ طعاماً تأكلُهُ ، فقالَ لهُ : ومَنْ إمامي في ذلكَ حتى أفعلَ ؟ فقالَ : إمامُكَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ ؛ حيثُ قالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، المعنيُّ في ذلكَ[3] : أنَّ النفسَ لا تطمئنُّ إلا برؤيةِ العينِ ؛ لأنَّ مِنْ جبلَّتِها الشكَّ ، فقالَ إبراهيمُ : ربِّ ؛ أرني كيفَ تطمئنُّ نفسي ؛ فإنِّي موقنٌ بذلكَ ، والنفسُ لا تطمئنُّ إلا برؤيةِ العينِ .

قالَ : فكذلكَ الأولياءُ تظهرُ لهمُ الكراماتُ تأديباً لنفوسِهم ، وتهذيباً لها ، وزيادةً لهم) انتهى كلامُ أبي نصرٍ[4]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ما رأيتُ هـٰذهِ الكراماتِ إلا على أيدي البُلْهِ مِنَ الصدِّيقينَ)[5]

---

(١) كذا في جميع النسخ ، وفي الأصل المنقول عنه : (فيقولوا) بالنصب .

(٢) انظر « اللمع » (ص ٣٩٣) .

(٣) كأنه يبيِّن له وجه الاستشهاد في الآية الكريمة .

(٤) انظر « اللمع » (ص ٣٩٤) .

(٥) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١١٢٤) .

وكانَ رجلٌ يصحبُ سهلَ بنَ عبدِ اللهِ ، فقالَ لهُ يوماً : ربَّما أتوضَّأُ للصلاةِ فيسيلُ الماءُ مِنْ بينِ يديَّ قضبانَ ذهبٍ وفضَّةٍ ، فقالَ سهلٌ : أَمَا علمتَ أنَّ الصبيانَ إذا بَكَوا أُعطوا خَشخاشةً ليشتغلوا بها ؟ ! (١)

وفي حكايةِ جعفرٍ الخُلْديِّ عنِ الجنيدِ قالَ : جاءَني أبو حفصٍ النيسابوريُّ مرَّةً ومعَهُ عبدُ اللهِ الرباطيُّ وجماعةٌ ، وكانَ فيهم رجلٌ أصلعُ قليلُ الكلامِ ، فقالَ يوماً لأبي حفصٍ : قد كانَ فيمَنْ مضىٰ لهمُ الآياتُ الظاهرةُ ـ يعني بها : الكراماتِ ـ وليسَ لكَ شيءٌ مِنْ ذلكَ ، فقالَ لهُ أبو حفصٍ : تعالَ ، فجاءَ بهِ إلىٰ سوقِ الحدَّادينَ إلىٰ كيرٍ عظيمٍ ، فحمَّىٰ فيهِ حديدةً عظيمةً ، فأدخلَ يدَهُ في الكيرِ فأخذَ الحديدةَ المحمَّاةَ فأخرجَها فبردَتْ في يدِهِ ، فقالَ لهُ : يجزئُكَ هـٰذا ؟ ! (٢)

فسُئِلَ بعضُهم عن معنىٰ إظهارِ ذلكَ مِنْ نفسِهِ فقالَ : كانَ مشرفاً علىٰ حالِهِ ، فخشيَ علىٰ حالِهِ أنْ يتغيَّرَ عليهِ إنْ لم يُظهِرْ لهُ ذلكَ ، فخصَّهُ بذلكَ شفقةً عليهِ ، وصيانةً لحالِهِ ، وزيادةً لإيمانِهِ .

بل ربَّما يفرُّ عنها العارفونَ ، ويخافُ منها المحقِّقونَ :

قالَ بعضُ السلفِ : (ألطفُ ما يُخادَعُ بهِ الأولياءُ . . الكراماتُ والمعوناتُ)(٣) .

وذُكِرَ عن أبي حفصٍ أو غيرِهِ أنَّهُ كانَ جالساً وحولَهُ أصحابُهُ ، قالَ : فنزلَ ظَبْيٌ مِنَ الجبلِ فبركَ عندَهم ، قالَ : فبكىٰ أبو حفصٍ ، فسُئِلَ عن بكائِهِ ، فقالَ : كنتم حولي ، فوقعَ في قلبي أنْ لو كانَ لي شاةٌ لذبحتُ لكم ، فلمَّا بركَ هـٰذا الظَّبْيُ عندَنا

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٧١٨)

(٢) أورده السراج في « اللمع » (ص ٤٠٤) ، قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٢٥٧) : (ومن المشهور : أن ابتداء حال أبي حفص النيسابوري الحداد في تركه الحرفة : أنه كان على حانوته ، فقرأ قارئ آية من القرآن ، فورد على قلب أبي حفص وارد تغافل عن إحساسه ، فأدخل يده في النار وأخرج الحديدة المحماة بيده ، فرأىٰ تلميذه ذلك ، فقال : يا أستاذ ؛ ما هـٰذا ؟ ! فنظر أبو حفص إلىٰ ما ظهر عليه ، فترك الحرفة وقام من حانوته)

(٣) أورده السلمي في « عيوب النفس » (ص ٣٧) .

شبَّهْتُ نفسي بفرعونَ حينَ سألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يجريَ لهُ النيلَ ، فأجراهُ معَهُ ، فبكيتُ وسألتُهُ الإقالةَ ممَّا تمنيتُ ، وسيَّبْتُ الظبْيَ[1]

ويُحكىٰ أنَّ بعضَ الأبدالِ قالَ لتلميذٍ مِنْ تلامذةِ الشيخِ أبي مدينَ ما بالُنا لا يعتاصُ علينا شيءٌ وهو يعتاصُ عليهِ أقلُّ الأمورِ معَ أنَّا نتمنَّىٰ مَقامَهُ ولا يتمنَّىٰ مَقامَنا ؟! فبلغَ ذلكَ الشيخَ أبا مدينَ ، فقالَ : قُلْ لهُ : تركنا مرادَنا لمرادِهِ .

وعن بعضِهِم أنَّهُ كانَ يسيرُ في الباديةِ ، فانتهىٰ إلىٰ بئرٍ ، فإذا الماءُ ارتفعَ إلىٰ رأسِ البئرِ ، فقالَ : أنا أعلمُ أنَّكَ قادرٌ علىٰ هـٰذا ، ولـٰكنْ لا أطيقُهُ ، فلو قيضتَ لي بعضَ الأعرابِ ليصفعَني صفعاتٍ ويسقيَني شربةَ ماءٍ . . كانَ أسلمَ لي ، ثم إنِّي أعلمُ أنَّ ذلكَ الرفقَ ليسَ مِنْ جهتِهِ

قالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ (إذا رأيتَ الرجلَ يشيرُ إلى الآياتِ والكراماتِ . . فطريقُهُ طريقُ الأبدالِ ، وإذا رأيتَهُ يشيرُ إلى الآلاءِ والنعماءِ . . فطريقُهُ طريقُ المحبةِ ، وهو أعلىٰ مِنَ الذي قبلَهُ ، وإذا رأيتَهُ يشيرُ إلى الذكرِ ، ويكونُ قلبُهُ معلَّقاً بالذكرِ الذي ذكرَ . . فطريقُهُ طريقُ العارفينَ ، وهو أعلىٰ درجةً مِنْ جميعِ الأحوالِ)[2]

وقالَ أبو يزيدَ : (كنتُ في بدايتي يريني الحقُّ تعالى الآياتِ والكراماتِ فلا ألتفتُ إليها ، فلمَّا رآني كذلكَ جعلَ لي إلىٰ معرفتِهِ سبيلاً)[3]

*

---

(١) أورده السراج في « اللمع » (ص ٤٠٢)

(٢) أورده السراج في « اللمع » (ص ٤٠٣) .

(٣) أورده السراج في « اللمع » (ص ٤٠٠)

الباب الثاني عشر
في الأوراد

الحكمة الحادية والثانية والثالثة عشرة
بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

لا يَسْتَحْقِرُ ٱلْوِرْدَ إلا جَهُولٌ

ٱلْوَارِدُ يُوجَدُ فِي ٱلدَّارِ ٱلآخِرَةِ ، وَٱلْوِرْدُ يَنْطَوِي بِٱنْطِوَاءِ هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ ، وَأَوْلَىٰ مَا يُعْتَنَىٰ بِهِ مَا لا يُخْلَفُ وُجُودُهُ .

ٱلْوِرْدُ هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ ، وَٱلْوَارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ ، وَأَيْنَ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا أَنْتَ طَالِبُهُ مِنْهُ ؟ !(1)

الوردُ : عبارةٌ عمَّا يقعُ بكسْبِ العبدِ مِنْ عبادةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ ، **والواردُ** هو الذي يردُ علىٰ باطنِ العبدِ مِنْ لطائفَ وأنوارٍ ، فينشرحُ بها صدرُهُ ، ويستنيرُ بها قلبُهُ وسرُّهُ .

فالوردُ : ما مِنَ العبدِ للحقِّ تعالىٰ مِنْ معاملةٍ وعبوديَّةٍ ، **والواردُ** : ما مِنَ

(*) ترجع هـٰذه الحكم اعتقاداً : إلىٰ وجوب معرفة الله تعالىٰ وتعظيمه وتمجيده شرعاً ، وإلىٰ أنه سبحانه قضىٰ بأن العمل لا يكون إلا في الدنيا ، وجعل بحكمته الآخرةَ دارَ جزاء ، لمن أحسن ولمن أساء ، وأقلُّ الذكر له سبحانه : ما فرضه علىٰ عباده من معرفته ، ولا حدَّ لأكثره
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾ [آل عمران : ٤١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معَهُ إذا ذكرني ؛ فإنْ ذكرني في نفسِهِ ذكرتُهُ في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ منهم » ، رواه البخاري (٧٤٠٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) كذا في (ج) ، وفي سائر النسخ : (مما هو مطلبك منه) بدل (مما أنت طالبه منه) .

الحقِّ سبحانَهُ للعبدِ مِنْ لطفٍ وكرامةٍ .

والوردُ أحقُّ ما يعتني بهِ العبدُ ويراعيهِ مِنَ الواردِ ؛ لوجهينِ

أحدُهما أنَّ الوردَ مختصٌّ بهذهِ الدارِ ، لا يقعُ إلا فيها ، فهو منقطعٌ بانقطاعِها ، وفانٍ بفنائِها ، فينبغي للعبدِ أنْ يستكثرَ مِنَ الأورادِ قبلَ فواتِها ؛ إذْ لا يمكنُهُ خلفُ ما فاتَ منها

والثاني أنَّ الوردَ هو حقُّ الحقِّ منكَ ، والواردُ هو حظُّكَ منهُ ، وقيامُكَ بحقوقِهِ عليكَ أولىٰ وأليقُ بالعبوديَّةِ مِنْ طلبِ حظوظِكَ ووقوفِكَ معَها

فإذا ثبتَتْ مزيَّةُ الوردِ على الواردِ باعتبارِ العبدِ . . كانَ استحقارُهُ مِنْ نهايةِ الجهلِ ، وكانَ مُستحقِرُهُ جهولاً ، كما قالَ في « لطائفِ المننِ » (**واعلموا** أنَّ اللهَ تعالىٰ أودعَ أنوارَ الملكوتِ في أصنافِ الطاعاتِ ، فأيُّ مَنْ فاتَهُ مِنَ الطاعةِ صنفٌ[1] ، أو أعوزَهُ مِنَ الموافقةِ جنسٌ . . فقدْ فقدَ مِنَ النورِ بمقدارِ ذلكَ ، **فلا تهملوا شيئاً مِنَ الطاعاتِ** ، **ولا تستغنوا عنِ الأورادِ بالوارداتِ** ، ولا ترضَوا لأنفسِكم بما رضيَ بهِ المدَّعونَ مِنْ جَرْيِ الحقائقِ على ألسنتِهم ، وخلوِّ أنوارِها مِنْ قلوبِهم

وإنَّ الحقَّ بحكمتِهِ جعلَ الطاعةَ الجاريةَ على العبادِ مستقرعةً لبابِ الغيبِ ، فمَنْ قامَ بالطاعةِ والمعاملةِ بشرطِ الأدبِ . . لم يحتجبِ الغيبُ عنهُ ، وإنَّما حجابُ الغيوبِ وجودُ العيوبِ ، والتطهُّرُ مِنَ العيبِ يفتحُ لكَ بابَ الغيبِ

ولا تكنْ ممَّنْ يطلبُ اللهَ لنفسِهِ ولا يطالبُ نفسَهُ للهِ ، فذاكَ حالُ الجاهلينَ الذينَ لم يفهموا عنِ اللهِ ، ولا واجهَهمُ المددُ مِنَ اللهِ ، والمؤمنُ ليسَ كذلكَ ، بلِ المؤمنُ مَنْ يطالبُ نفسَهُ لربِّهِ ، ولا يطالبُ ربَّهُ لنفسِهِ ، فإنْ توقَّفَ الوقتُ عليهِ استبطأَ أدبَهُ ، ولا يستبطئُ مطلبَهُ)[2]

---

(١) قوله : (مَنْ) هي هنا نكرة موصوفة بمعنىٰ شخص أو إنسان مثلاً

(٢) لطائف المنن (ص ٢٠٧) .

ثم ذكرَ كلاماً كثيراً ، وفي كلامِهِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ تنبيهٌ علىٰ تأكُّدِ أمرِ الأورادِ وعظمِ موقعِها مِنَ الدينِ ، وأنَّ مراعاتَها مِنْ أحسنِ سماتِ العارفينَ

وقد رُئِيَ الجنيدُ وفي يدِهِ سبحةٌ ، فقيلَ لهُ : أنتَ معَ شرفِكَ تأخذُ بيدكَ سبحةً ؟! فقالَ : نعم ؛ سببٌ وصَّلَنا إلىٰ ما وصَلْنا لا نتركُهُ أبداً[1]

وكانَ يدخلُ كلَّ يومٍ حانوتَهُ ويسبلُ السِّتْرَ ، ويصلي أربعَ مئةِ ركعةٍ ، ثم يعودُ إلىٰ بيتِهِ[2]

ورُئِيَ بعدَ وفاتِهِ في النومِ ، فقيلَ لهُ ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ طاحَتْ تلكَ الإشاراتُ ، وفنيَتْ تلكَ العباراتُ ، وأُبيدَتْ تلكَ الرسومُ ، وغابَتْ تلكَ العلومُ ، وما نفعَنا إلا ركعاتٌ كنَّا نركعُها في السحرِ[3]

وحكىٰ أبو محمدٍ الجُرَيريُّ قالَ : كنتُ عندَ الجنيدِ في حالِ نزعِهِ ـ وكانَ يومَ جمعةٍ ويومَ نيروزٍ[4] ـ وهو يقرأُ القرآنَ ، فختمَ ، فقلتُ في هـٰذه الحالةِ يا أبا القاسمِ ؟! فقالَ : ومَن أولىٰ منِّي بذلكَ وهو ذا تُطوىٰ صحيفتي ؟![5]

وقالَ أبو الحسنِ الدرَّاجُ : ذُكِرَ للجنيدِ أهلُ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، وما يراعونَهُ مِنَ الأورادِ والعباداتِ بعد ما لاطفَهم بهِ مِنَ الكراماتِ ؛ فقالَ الجنيدُ : العبادةُ على العارفينَ أحسنُ مِنَ التيجانِ علىٰ رؤوسِ الملوكِ[6]

وقالَ أبو بكرٍ العطَّارُ : حضرتُ الجنيدَ عندَ الموتِ في جماعةٍ مِنْ أصحابِنا ،

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٧٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ١٥٦)

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٥٣) ، والقشيري في « رسالته » (ص ١٥٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٥٧) ، وفيه : (أبو الحسين) بدل (أبو الحسن) .

(٤) نيروز : أول يوم من السنة الفارسية ، وأول يوم من الصيف (على الجمع بين الربيع والصيف) ، وهو مصروف

(٥) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٢٥)

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٥٧)

قالَ : وكانَ قاعداً يصلِّي ويَثني رجلَهُ إذا أرادَ أنْ يسجدَ ، فلم يزلْ كذلكَ حتىٰ خرجَتِ الروحُ مِنْ رجليهِ ، فثقلَ عليهِ حركتُهما ، فمدَّ رجليهِ ، فرآهُ بعضُ أصدقائِهِ[1] ممَّنْ حضرَهُ ذلكَ الوقتَ وكانَتْ رِجْلا أبي القاسمِ قد تورَّمَتا ، فقالَ : ما هٰذا يا أبا القاسمِ ؟! فقالَ : هٰذهِ نعمُ اللهِ ، اللهُ أكبرُ ، فلمَّا فرغَ مِنْ صلاتِهِ قالَ لهُ أبو محمدٍ الجُرَيريُّ : يا أبا القاسمِ ؛ لوِ اضطجعتَ ، فقالَ : يا أبا محمدٍ ؛ هٰذا وقتُ مِنَّةٍ ، اللهُ أكبرُ ، فلم يزلْ ذلكَ حالَهُ حتىٰ ماتَ رحمَةُ اللهِ عليهِ[2]

وقالَ الحصريُّ : الناسُ يقولونَ : لا يقولُ الحصريُّ بالنوافلِ ، وعليَّ أورادٌ مِنْ حالِ الشبابِ لو تركتُ منها ركعةً لعوتبتُ[3]

وقالَ محمدُ بنُ ثابتٍ البنانيُّ : لمَّا حضرَتْ أبي الوفاةُ جعلتُ أُلَقِّنُهُ الشهادةَ ، فقالَ لي : يا بنيَّ ؛ دعْني ، فإنِّي في وردي السابعِ[4]

قالَ أبو طالبٍ المكيُّ (ومداومةُ الأورادِ مِنْ أخلاقِ المؤمنينَ ، وطريقُ العابدينَ[5] ، وهي مزيدُ الإيمانِ ، وعلامةُ الإيقانِ .

وفي خبرٍ أنَّ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها سُئِلَتْ عن عملِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَتْ : كانَ عملُهُ دِيمةً[6] ، وفي لفظٍ آخرَ : كانَ إذا عملَ عملاً أتقنَهُ وأثبتَهُ)[7]

وفي الخبرِ المشهورِ : « أَحَبُّ ٱلْأَعْمَالِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ »[8]

---

(١) يقال له : البسَّامي ، كما في « الحلية » .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٨١) .

(٣) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٢٢٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٦١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٢) .

(٥) في مطبوع « قوت القلوب » : (وطرائق العابدين) .

(٦) رواه البخاري (٦٤٦٦) ، ومسلم (٧٨٣) .

(٧) رواه أبو داود (١٣٦٨) ، وكلمة (أتقنه) من « قوت القلوب » (١/ ٢٤٦) .

(٨) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٣) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

وجاءَ في الأثرِ كلامٌ تارةً يُروىٰ عنِ الحسنِ بنِ عليٍّ ، وتارةً عنِ البصريِّ ، ومرَّةً عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنهم ، وبعضُهم يحكيهِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ : (مَنِ استوىٰ يوماهُ فهوَ مغبونٌ ، ومَنْ كانَ يومُهُ شرّاً مِنْ أمسِهِ فهو محرومٌ ، ومَنْ لم يكنْ في مزيدٍ فهوَ في نقصانٍ ، ومَنْ كانَ في نقصانٍ فالموتُ خيرٌ لهُ)[1]

وقد يكونُ استحقارُ الوِرْدِ مِنَ المكرِ والاستدراجِ للعبدِ ، ويكونُ مبدأُ ذلكَ أنْ تلوحَ لهُ خيالاتٌ وتظهرَ لهُ صورُ كراماتٍ توجبُ لهُ استحسانَ حالتِهِ واختيارَ بطالتِهِ ، وفي ذلكَ رفْضُ العبوديَّةِ بالكليَّةِ ، وهو أمارةٌ لوجودِ الطردِ والبعدِ والعياذُ باللهِ ، وصاحبُ هٰذا عظيمُ الجهالةِ ، شديدُ العَمايةِ والضلالةِ

وقد قالَ الجنيدُ لرجلٍ ذكرَ المعرفةَ ، فقالَ الرجلُ : أهلُ المعرفةِ باللهِ يصلونَ إلىٰ تركِ الحركاتِ مِنْ بابِ البرِّ والتقربِ إلى اللهِ تعالىٰ ، فقالَ الجنيدُ : إنَّ هٰذا قولُ قومٍ تكلَّموا بإسقاطِ الأعمالِ ، وهٰذهِ عندي عظيمةٌ ، والذي يسرقُ ويزني أحسنُ حالاً مِنَ الذي يقولُ هٰذا ، وإنَّ العارفينَ باللهِ أخذوا الأعمالَ عنِ اللهِ ، وإليهِ رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألفَ عامٍ لم أنقصْ مِنْ أعمالِ البرِّ ذرَّةً إلا أنْ يُحالَ بي دونَها ، وإنَّهُ لأوكدُ في معرفتي ، وأقوىٰ في حالي[2]

قالَ السُّهْرَوَرْدِيُّ في « عوارفِ المعارفِ » : (فأمَّا مَنْ تعوَّقَ بخيالٍ ، أو قنعَ بمحالٍ ، ولم يُحكِمْ أساسَ خلوتِهِ بالإخلاصِ . فيدخلُ الخلوةَ بالزُّورِ[3] ، ويخرجُ بالغرورِ ، فيرفضُ العباداتِ ويستحقرُها ، ويسلبُهُ اللهُ لذَّةَ المعاملةِ ، ويُذهِبُ عن قلبِهِ هيبةَ الشريعةِ ، ويَفْتَضِحُ في الدنيا والآخرةِ .

فيعلمُ الصادقُ : أنَّ المقصودَ مِنَ الخلوةِ التقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بعمارةِ الأوقاتِ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٥) ، وسياق المصنف عند صاحب « القوت » (١/ ٢٤٧)

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٥٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص ١٥٤) .

(٣) الزور ـ بضم الزاي وفتحها ـ : الرأي والعقل ، أو هو الباطل .

وكفِّ الجوارحِ عنِ المكروهاتِ ، فيصلحُ لقومٍ مِنْ أربابِ الخلوةِ مداومةُ الأورادِ وتوزيعُها على الأوقاتِ ، ويصلحُ لقومٍ دوامُ المراقبةِ ، ويصلحُ لقومٍ ملازمةُ ذكرٍ واحدٍ ، ويصلحُ لقومٍ الانتقالُ مِنَ الذكرِ إلى الأورادِ ، ولقومٍ الانتقالُ مِنَ الأورادِ إلى الذكرِ) انتهىٰ ما يتعلَّقُ بغرضِنا مِنْ كلامِ السهرورديِّ[(١)] ، وهو مناسبٌ لما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ

وليسَ مِنْ هٰذا المعنىٰ ما رُوِيَ عن أبي سليمانَ الدارانيِّ وأحمدَ بنِ عاصمٍ الأنطاكيِّ أنَّهما قالا : (إذا صارَتِ المعاملةُ إلى القلوبِ استراحَتِ الجوارحُ)[(٢)] وإنْ كانَ ظاهرُهُ موهماً لهُ ؛ فإنَّ أبا نصرٍ السرَّاجَ فسَّرَهُ بعدَ أنْ حكاهُ عن أبي سليمانَ الدارانيِّ فقالَ : (وهٰذا الذي قالَ أبو سليمانَ **يحتملُ معنيينِ**

أحدُهما أنَّهُ أرادَ بذلكَ استراحةَ الجوارحِ مِنَ المجاهداتِ والمكابداتِ مِنَ الأعمالِ ؛ إذا اشتغلَ بحفظِ قلبِهِ ، ومراعاةِ سرِّهِ مِنَ الخواطرِ المشغِلَةِ والعوائقِ المذمومةِ التي تشغلُ عن ذكرِ اللهِ تعالىٰ قلبَهُ

ويحتملُ أيضاً أنَّهُ أرادَ بذلكَ أنْ يتمكَّنَ مِنَ المجاهداتِ والأعمالِ والعبادةِ ، وتصيرَ وطنَهُ ، ويستلذَّ بها بقلبِهِ[(٣)] ، ويجدَ حلاوتَها ، ويسقطَ عنهُ التعبُ ووجودُ الآلامِ التي كانَ يجدُها قبلَ ذلكَ) انتهىٰ كلامُ أبي نصرٍ[(٤)] ، ومعناهُ صحيحٌ واللهُ أعلمُ ، وبهِ التوفيقُ

---

(١) عوارف المعارف (٢/ ٤٩)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٨١) عن الأنطاكي ، وحكاه السراج في « اللمع » (ص ٦٦) عن أبي سليمان الداراني

(٣) في « اللمع » : (حتىٰ يستلذَّها بقلبه) بدل (ويستلذ بها بقلبه)

(٤) انظر « اللمع » (ص ٦٦)

الحكمة الرابعة عشرة بعد المئة (*)

وُرُودُ ٱلإِمْدَادِ بِحَسَبِ ٱلِاسْتِعْدَادِ ، وَشُرُوقُ ٱلأَنْوَارِ عَلَىٰ حَسَبِ صَفَاءِ ٱلأَسْرَارِ

ورودُ المواردِ الإمداديَّةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ علىٰ قلبِ عبدِهِ بحسَبِ القوَّةِ الاستعداديَّةِ المجعولةِ فيهِ ، وشروقُ الأنوارِ اليقينيَّةِ علىٰ حَسَبِ صفاءِ سرِّهِ مِنْ كدرِ التعلُّقِ بالآثارِ ، والركونِ إلى الأغيارِ .

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت التجليات الإلـٰهية على القلوب والقوالب بقدْرِ الاستعدادات الإمكانية للحوادث ، فقبح الممكن راجع إلىٰ ذاته ؛ إذ التجليات الإلـٰهية المنطبعة فيه تظهر علىٰ حسب صورة وصفاء مرآته ، ثم اعلم : أن تجليات الحق حادثة راجعة إلىٰ صفة القدرة وتعلقاتها ، أو إلىٰ صفة التكوين عند الماتريدية ، وأن الاستعداد قابل للنقصان والازدياد ، وأن ماهية الإمدادات الإلـٰهية من الأسرار التي لا سبيل إلىٰ معرفة كيفيتها وحقيقتها ، كما قيل في التعلقات الحادثة .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء ٢٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اعملوا ؛ فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ » ، رواه البخاري (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه

الحكمة الخامسة عشرة بعد المئة (*)

ٱلْغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ نَظَرَ مَاذَا يَفْعَلُ ، وَٱلْعَاقِلُ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ ٱللهُ بِهِ

أولُ خاطرٍ يردُ على العبدِ هو ميزانُ توحيدِهِ

فالغافلُ إذا أصبحَ أوّلُ خاطرٍ يردُ عليهِ نسبةُ الفعلِ إلىٰ نفسِهِ ؛ فيقولُ : ماذا أفعلُ اليومَ ؟ فهو مشتغلٌ بتدبيرِ نفسِهِ ، مصروفٌ عنِ النظرِ إلىٰ مولاهُ ؛ وذلكَ لوجودِ غفلتِهِ عنهُ ، فهو حقيقٌ بأنْ يكلَهُ اللهُ إلىٰ نفسِهِ ، فيتشتَّتَ عليهِ قلبُهُ ، وينتقضَ عليهِ مرادُهُ .

والعاقلُ أوّلُ خاطرٍ يردُ عليهِ نسبةُ الفعلِ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ فيقولُ : ماذا يفعلُ اللهُ بي؟ فهو ناظرٌ إلى اللهِ تعالىٰ وإلىٰ ما يردُ عليهِ منهُ ؛ وذلكَ لوجودِ عقلِهِ ، ودوامِ يقظتِهِ، فلا جرمَ أنْ يكفيَهُ اللهُ تعالىٰ جميعَ تعلُّقاتِ الآمالِ ، ويفرِّغَهُ مِنْ جميعِ الأشغالِ ، ويرضيَهُ ويقرَّ عينَهُ بما يقيمُهُ فيهِ مِنْ أعمالٍ ، أو يوردُهُ عليهِ مِنْ أحوالٍ ، وهـٰذهِ سعادةٌ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالى المنفرد وحده بجميع الأفعال ، فلا فاعل على الحقيقة سواه ، وأن إرادته القديمة نافذة لا تتخلف ، فمن علم هـٰذا سكن تحت سلطان الإرادة والقدرة الأزليتين سكونَ رضاً وعبودية ، لا سكون خمول وكسل ، ومن جهل هـٰذا وغفل عنه سعىٰ في غير مسعىً ، وأتعب نفسه ولن يكون إلا ما قضى الأزلي في أزله .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام إذا أصبح : « أصبحنا وأصبحَ الملكُ للهِ » ، رواه مسلم (٢٧٢٣) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

عظيمةٌ ، ومِنَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ لِمَنْ وليَهُ مِنْ عبادِهِ جسيمةٌ[(١)] .

قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : (أصبحتُ وما لي سرورٌ إلا في مواقعِ القَدَرِ)[(٢)]

وقالَ أبو عثمانَ : (منذُ أربعينَ سنةً ما أقامَني اللهُ في حالٍ فكرهتُهُ ، ولا نقلَني إلىٰ غيرِهِ فسخطتُهُ)[(٣)]

ومِنْ أملحِ ما رأيتُ في هـٰذا المعنى الذي ذكرَهُ المؤلفُ ، وما يجبُ أنْ يحذوَ علىٰ مثالِهِ كلُّ عالمٍ متصوِّفٍ : ما ذكرَهُ الشيخُ أبو القاسمِ عبدُ الرحمـٰنِ الصَّقَلِّيُّ[(٤)] في كتابِ « صفةِ الأولياءِ ، ومراتبِ أحوالِ الأصفياءِ » بسندِهِ إلىٰ أيوبَ بنِ بشرٍ الطالقانيِّ قالَ[(٥)] : حدَّثَنا رجلٌ مِنْ أصحابِنا قالَ[(٦)] : رأيتُ رجلاً في مرجِ الديباجِ ليسَ معَهُ شيءٌ ، فدنوتُ منهُ فسلمتُ عليهِ ، فردَّ عليَّ السلامَ ، فقلتُ : يرحمُكَ اللهُ ، أينَ تريدُ ؟ قالَ : لا أدري ، قلتُ : أرأيتَ أحداً يريدُ مكاناً لا يدري أينَ يذهبُ ؟! فقالَ : أنا واحدٌ ، فقلتُ : أينَ تنوي ؟ قالَ : إلىٰ مكةَ ، قلتُ : تنوي مكَّةَ ولا تدري أينَ تذهبُ ؟! قالَ : نعم ؛ وذلكَ أنِّي كم مرَّةٍ أردتُ أنْ أذهبَ إلىٰ مكَّةَ فيردُّني إلىٰ طرسوسَ ، وكم مرَّةٍ أردتُ طرسوسَ فيردُّني إلىٰ عبَّادانَ ، فنيَّتي إلىٰ مكةَ ولا أدري .

قلتُ : فمِنْ أينَ المعاشُ ؟ قال لا أدري ، قلتُ : أخبرْني بأسبابِ ذلكَ ، قالَ : مِنْ حيثُ يريدُ ؛ يجيعُني مرَّةً ، ويشبعُني مرَّةً ، ويكرمُني مرَّةً ، ويهينُني مرَّةً ، ومرَّةً يقولُ لي ما على الأرضِ أزهدُ منكَ ، ومرَّةً يقولُ لي أنتَ لصٌّ ، ومرَّةً

---

(١) روى ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله تعالىٰ » (٣٠) عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال : (ما أبالي علىٰ أي حال أصبحت ؛ علىٰ ما أحبُّ ، أو علىٰ ما أكرهُ ؛ لأني لا أدري : الخير فيما أحب ، أو فيما أكره)

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٠٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٤٤) ، وأبو عثمان : هو سعيد بن إسماعيل الحيري .

(٤) هو الإمام عبد الرحمـٰن بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي الصوفي المالكي ، المتوفىٰ في حدود سنة (٣٨٠هـ) ، وانظر « هدية العارفين » (١/ ٥١٤) .

(٥) في (ج ، د) : (بشير) بدل (بشر) ، وفي « تاريخ دمشق » : (أبو بشر الطالقاني)

(٦) هو معروف الكرخي كما في « تاريخ دمشق » .

ينوِّمُني على الفراشِ ، ويطعمُني الطيِّبَ ، ويدهنُ رأسي ، ويكحلُ عيني ، ومرَّةً يطردُني الطردَ العنيفَ ، ولا ينوِّمُني إلا عندَ النواويسِ(١)

قلتُ : يرحمُكَ اللهُ ، مَنْ يفعلُ ذلكَ بكَ ؟ قالَ : اللهُ عزَّ وجلَّ ، قالَ : فألقاني في بحرٍ .

قلتُ : فسِّرْ لي رحمَكَ اللهُ كيفَ هٰذا ؟

قالَ : أنا رجلٌ أسيرُ نهاري ، فأينَما جنَّ بيَ الليلُ بتُّ ، فربَّما يُؤْويني الليلُ إلىٰ قريةٍ ، فإذا نظرَ أهلُها إليَّ قالَ بعضُهم لبعضٍ : هٰذا لصٌّ ، لا تدعونَ هٰذا يأوي الليلةَ في هٰذهِ القريةِ ، فإذا صلَّينا العِشاءَ الآخرةَ يدخلُ المسجدَ رجلٌ فيقولُ : يا نائمُ ، فأقولُ : لبيكَ ، فيقولُ بالعنفِ قُمْ مِنْ ها هنا ، ليسَ لكَ ها هنا موضعٌ ، فأقولُ لهُ : نعم وكرامةً ، فأينَ أبيتُ الليلةَ ، فيقولُ خارجَ القريةِ عندَ النواويسِ ، فأقولُ نعم وكرامةً ، لا يكونُ لي مأوىً إلا عندَ النواويسِ تلكَ الليلةَ

فإذا أصبحتُ سرتُ ، فيُؤْويني الليلُ إلىٰ قريةٍ ، فإذا رآني أهلُها قالَ بعضُهم لبعضٍ قد وردَ عليكمُ الليلةَ رجلٌ زاهدٌ خيِّرٌ فاضلٌ ، فيقولُ هٰذا : عندي يبيتُ ، ويقولُ هٰذا عندي يبيتُ ، فإذا صليتُ العِشاءَ الآخرةَ فيقولُ رجلٌ منهم : قُمْ بنا إلى البيتِ ، فأقولُ : نعم وكرامةً ، فأمضي معَهُ إلى المنزلِ ، فيأتيني بالطعامِ الطيِّبِ ، ويدهنُ رأسي ، ويكحلُ عيني ، ويأتيني بالفراشِ الليِّنِ فينيمُني عليهِ ، ولا يدعُ شيئاً مِنَ البرِّ إلا فعلَهُ بي حتىٰ أُصبحَ ، فهٰذا حالي معَ سيِّدي .

فقلتُ : يرحمُكَ اللهُ ، متىٰ قُدِّرَ لكَ أنْ تدخلَ بغدادَ . . فإنَّ منزلي في موضعِ كذا وكذا .

قالَ : فأنا يوماً قاعدٌ إذا بإنسانٍ يدقُّ البابَ ، فخرجتُ ، فإذا أنا بصاحبي ، فسلَّمتُ عليهِ وأدخلتُهُ البيتَ ، فقلتُ لهُ : أيَّ شيءٍ صنعَ بكَ مولاكَ ؟

قالَ آخرُ ما فعلَ بي ضربَني ضرباً شديداً ، وقالَ لي يا لصُّ ، ثم أراني

---

(١) النواويس : المقابر ، جمع ناوُوس ، وهي في الأصل مقبرة النصارىٰ

ظهرَهُ ، فإذا أثرُ الضربِ عليهِ ، فقلتُ : أيْشِ القصَّةُ ؟ قالَ كانَ أجاعَني جوعاً شديداً ، فلمَّا بلغتُ الأنبارَ جئتُ إلىٰ مَقثأةٍ قد نُبِذَ منها المدوِّدُ والمُزُّ[1] ، فقعدتُ آكلُ منهُ ، فنظرَني صاحبُ المقثأةِ ، فأقبلَ إليَّ بعصاهُ ، فجعلَ يضربُ ظهري ويقولُ : يا لصُّ ، ما أخربَ مَقثأتي غيرُكَ ، منذُ كم أرصدُكَ حتىٰ وقعتُ عليكَ ، قال : وإذْ بفارسٍ قد أقبلَ مسرعاً إليهِ ، فأقلبَ السوطَ في رأسِهِ وقالَ تعمدُ إلىٰ رجلٍ زاهدٍ فتضربُهُ ؟! ويُقالُ لمثلِ هـٰذا يا لصُّ ؟! قالَ فما كانَ أسرعَ بينَ أنْ كنتُ عندَهُ لصّاً إذْ صرتُ زاهداً . . إلا كما حدثتُكَ .

قالَ : فأخذَ بيدي صاحبُ المقثأةِ ، فذهبَ بي إلىٰ منزلِهِ ، فما أبقىٰ مِنَ الكرامةِ شيئاً ، واستحلَّني ، فخرجتُ مِنْ عندِهِ وجئتُ إليكَ[2]

وقد يكونُ مِنْ معنىٰ نظرِهِ إلىٰ ما يفعلُ اللهُ بهِ : أنْ ينظرَ ما يردُ علىٰ قلبِهِ مِنَ الإشارةِ مِنْ قِبَلِهِ ، فيكونَ إقدامُهُ وإحجامُهُ لوجودِ بصيرةٍ وحُسْنِ توفيقٍ ، وهـٰذا ميزانٌ شريفٌ اقتضاهُ دوامُ التجائِهِ وصدقُ افتقارِهِ .

قالَ سيدي أبو مدينَ : (احرصْ أنْ تصبحَ وتمسيَ مفوِّضاً مستسلماً ، لعلَّهُ ينظرُ إليكَ فيرحمَكَ) .

وقالَ بعضُهم : (مَنِ اهتدىٰ إلى الحقِّ لم يهتدِ إلىٰ نفسِهِ ، ومَنِ اهتدىٰ إلىٰ نفسِهِ لم يهتدِ إلى اللهِ) .

فانظرْ إذا استقبلَكَ شغلٌ ؛ فإنْ عادَ قلبُكَ في أوَّلِ وهلةٍ إلىٰ حولِكَ وقوَّتِكَ فأنتَ المنقطعُ عنهُ ، وإنْ عادَ قلبُكَ إلى اللهِ فأنتَ الواصلُ إلى اللهِ ، وكلُّ العالمِ في قبضتِهِ ، وتخصيصُ أهلِ الوصلةِ بأنَّهم في كنفِ إيوائِهِ لا يكلُهم إلىٰ غيرِهِ

واعتبرْ هـٰذا المعنىٰ بعمرةِ الحديبيةِ ؛ وذلكَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا

---

(1) في (ج) : (المرُّ) بدل (المُزُّ) .

(2) روى الخبر بنحوه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٢٤٤) ، وفي الخبر أن صاحب المقثأة قد صحب هـٰذا الرجل الصالح سنةً ، ثم خرجا إلى الحج فماتا بالربذة .

صدَّهُ المشركونَ فيها عن مكَّةَ ، ومنعوهُ مِنْ أنْ يتمَّ بينَ أظهرِهم نُسُكَهُ . . رجعَ في الحالِ عن تلكَ العمرةِ ، ولم يتعرَّضْ لهم بما يحصلُ لهُ بهِ في الظاهرِ عزةٌ أو نصرةٌ ، بعدَما كانَ دعا إليهِ مِنْ بيعةِ الرضوانِ تحتَ الشجرةِ ، وما عزمَ عليهِ مِنْ مناجزةِ مَنْ حادَّهُ مِنَ الكفرةِ ، وحملَ في ذلكَ علىٰ ما أظهرَهُ اللهُ مِنْ آياتِهِ العظامِ ، عندَ بروكِ ناقتِهِ لمَّا أرادَ توجيهَها إلى البيتِ الحرامِ ، وقالَ حينَئذٍ مُظهِراً لما قصدَهُ ، ومقرِّراً ما اعتمدَهُ : « إِنَّمَا حَبَسَهَا حَابِسُ ٱلْفِيلِ ، لا تَدْعُونِي ٱلْيَوْمَ قُرَيْشٌ إِلَىٰ خُطَّةٍ فِيهَا صِلَةُ ٱلرَّحِمِ إلا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا » ، فكانَ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ صالحَهم علىٰ وضعِ الحربِ فيما بينَهم عشرَ سنينَ ؛ لينقلبوا في الأرضِ آمنينَ ، فلمَّا استثبتَ بينَهمُ الصلحُ ، وأنزلَ اللهُ تعالىٰ سورةَ (الفتحِ) . . ظهرَتِ الفوائدُ التي تضمَّنَها ذلكَ التدبيرُ الحسنُ ، وقرَّتْ أعينُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهم بما أبرزَهُ إليهم مِنْ ألطافٍ ومِنَنٍ ، وقد صحَّ بمعنىٰ جميعِ ما قلناهُ الخبرُ ، ونقلَهُ إلينا علماءُ الحديثِ والسيرِ[1]

وليكنْ مِنْ دعاءِ صاحبِ هٰذا المقامِ ومناجاتِهِ ؛ ليتوافقَ عقدُهُ وقولُهُ في جميعِ تصرُّفاتِهِ

اللهمَّ ؛ إنِّي أصبحتُ لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضرّاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ولا أستطيعُ أنْ آخذَ إلا ما أعطيتَني ، ولا أنْ أتقيَ إلا ما وقيتَني ، **اللهمَّ** ؛ وفِّقْني لما تحبُّهُ وترضاهُ مِنَ القولِ والعملِ في طاعتِكَ ؛ إنَّكَ ذو الفضْلِ العظيمِ .

وليقلْ أيضاً ما رأيتُهُ لسيِّدي أبي الحسنِ الشاذليِّ :

اللهمَّ ؛ إنَّ الأمرَ عندَكَ وهو محجوبٌ عنِّي ، ولا أعلمُ أمراً أختارُهُ لنفسي ، فكنْ أنتَ المختارَ لي ، واحملْني في أجملِ الأمورِ عندَكَ ، وأحمدِها عاقبةً في الدينِ والدنيا والآخرةِ ؛ إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ

* * *

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١) من حديث سيدنا المسور بن مخرمة رضي الله عنه .

الحكمة السادسة عشرة بعد المئة (*)

إِنَّمَا ٱسْتَوْحَشَ ٱلْعُبَّادُ وَٱلزُّهَّادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ ٱللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ

العبّادُ والزهّادُ في حَجْبةٍ عن ربِّهم ؛ لنظرِهم لنفوسِهم ، ومراعاةِ حظوظِهم ، فهم يفرُّونَ مِنَ الأشياءِ ويستوحشونَ منها لأنَّها موجودةٌ في نظرِهم ، والزُّهّادُ في المزهودِ شاهدونَ لهُ بالوجودِ ، كما قالَ سيدي أبو الحسنِ : (واللهِ ؛ لقد عظَّمْتَها إذْ زهدتَ فيها)

فهم يخافونَ منها أنْ تعوِّقَ عليهم أغراضَهم وتفوتَهم مقاصدُهم ؛ بميلِهم إليها . وافتتانِهم بها ، ولو كانوا مِنْ أهلِ العلمِ باللهِ ، والمحبةِ للهِ . . لرأَوْهُ ظاهراً في الأشياءِ كلِّها ، ولكانَ لهم في ذلكَ مِنْ قرَّةِ أعينِهم ما يشغلُهم عن رؤيتِهم لنفوسِهم ، فلا يكونُ لهم مِنَ الأشياءِ وحشةٌ ، ولا يخشونَ منها فتنةً ؛ لأنَّها فانيةٌ متلاشيةٌ بهٰذا الاعتبارِ (1)

* *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه ليس في الوجود إلا الله تعالىٰ وأفعاله ، وأن ما سواه سبحانه قام به ، وصار بأمره شاهداً عليه ؛ إذ لا فعل بغير فاعل ، ولهٰذا الشهود مراتب ؛ تبدأ بالتصديق والإيمان ، وتنتهي إلىٰ رؤية العيان .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج : ٣] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ [غافر ٧٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أصدقُ كلمةٍ قالَها الشاعرُ كلمةُ لبيدٍ : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ » ، رواه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(1) قال تعالىٰ حاكياً قول الذي قصَّر في أفعاله ، وقَصَرَ نظره علىٰ مراعاة أحواله : ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا =

الحكمة السابعة عشرة بعد المئة (*)

أَمَرَكَ فِي هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ بِٱلنَّظَرِ فِي مُكَوَّنَاتِهِ ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ ٱلدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ

رؤيةُ العبادِ لربِّهم عزَّ وجلَّ علىٰ حسَبِ تجلِّيهِ لهم ؛ **ففي هـٰذهِ الدارِ** : يرونَهُ ظاهراً في المكوَّناتِ بأنوارِ بصائرِهم لمَّا تجلَّىٰ لهم مِنْ وراءِ حجابِها ، ولذلكَ أمرَهم بالنظرِ فيها ، **وفي الدارِ الآخرةِ** ، يرونَهُ معاينةً بأنوارِ أبصارِهم مِنْ غيرِ حجابٍ ولا مانعٍ ، وهـٰذا غايةُ الظهورِ والكشفِ

* *

= ﴿فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر : ٥٦] ، قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٣/ ٢٨٨) : (يقال هـٰذا في أقوام يرون أمثالهم تقدموا عليهم في أحوالهم ، فيتذكرون ما سلف من تقصيرهم ، ويرون ما وُفِّق إليه أولـٰئك من المراتب ، فيعضون بنواجذ الحسرة علىٰ أنامل الخيبة)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ تجوز رؤيته عقلاً ، وتجب للمؤمنين شرعاً ؛ إذ الرؤية للذات القديمة فعلٌ من أفعاله ، ولذلك تتفاوت ، وله تعالىٰ فعل أي ممكن أو تركه ، وتحقيق الرؤية في تكميل المعرفة اللائقة بالحادث ، فهي فوق معرفة القلب ، وإلىٰ أنه تعالىٰ أمر عباده بالنظر في أكوانه اعتباراً ، وجعل ذلك من السبل العادية في التعرُّف عليه ، ولو شاء خلق معرفته دون نظر لفعل

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس : ١٠١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنكم سترونَ ربَّكم » ، رواه البخاري (٥٥٤) ، ومسلم (٦٣٣) من حديث سيدنا جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

الحكمة الثامنة عشرة بعد المئة (*)

عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لا تَصْبِرُ عَنْهُ ، فَأَشْهَدَكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ

عدمُ الصبرِ عنِ اللهِ تعالىٰ مِنْ وجودِ الاحتظاءِ بمعرفتِهِ ؛ وهو حالٌ شريفٌ يقتضي وجودَ المعيَّةِ الاختصاصيَّةِ ، والمعيَّةُ الاختصاصيَّةُ تقتضي دوامَ المشاهدةِ والحضورِ

والمشاهدةُ الحقيقيَّةُ غيرُ متصوَّرةٍ في هٰذهِ الدارِ[1] ؛ لما هي عليهِ مِنَ الدناءةِ والنقصِ والفناءِ والذهابِ[2] ، فأكرمَ اللهُ تعالىٰ عبدَهُ ـ لعلمِهِ بعدمِ صبرِهِ عنهُ ـ بأنْ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أنه تعالىٰ رحم صفوة عباده المتطلعين إلىٰ لقائه ؛ فكشف لهم عن جميل صفاته التي تنطوي عليها باهرات آياته في موجوداته ، وجليات وخفيات لطائفه في تدابيره ومعاملاته .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام ٧٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « عبدٌ نوَّر اللهُ قلبَهُ » ، وقد تقدم (ص ٥٨٠) .

(١) شرعاً لعموم المؤمنين ، أما عقلاً فجائزة ، وأما شرعاً لعين أعيان الوجود صلى الله عليه وسلم فواقعةٌ على الصحيح المختار

(٢) قال حجة الإسلام الغزالي في « الاقتصاد » (ص ١٨٩ ـ ١٩٠) : (هٰذا الكمال في الكشف غير مبذول في هٰذا العالم ، والنفس في شغل البدن وكدورة صفاته ، فهو بسببه محجوب عنه ، وكما لا يبعد أن يكون الجفن أو الستر أو سواد ما في العين سبباً بحكم اطراد العادة لامتناع الإبصار للمتخيلات . . فلا يبعد أن تكون كدورة النفس وتراكم حجب الأشغال بحكم اطراد العادة مانعاً من إبصار المعلومات .

فإذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، وزكت القلوب بالشراب الطهور ، وصفِّيت بأنواع التصفية والتنقية . . لم يمتنع أن يستعدَّ بسببها لمزيد استكمالٍ وإيضاحٍ في ذات الله تعالىٰ) .

أشهدَهُ ما برزَ منهُ مِنَ الآثارِ والأكوانِ ؛ تسليةً لهُ بالأثرِ عنِ النظرِ ، فحصلَتْ لهُ حينَئذٍ المعيَّةُ الاختصاصيَّةُ اللائقةُ بحالِهِ

حتىٰ إذا أقعدَهُ في مقعدِ الصدْقِ ، وحصلَتْ لهُ عنديَّةُ الحقِّ . . خلعَ عليهِ خِلَعَ التقريبِ والتكريمِ ، وواجهَهُ بوجهِهِ الكريمِ ، فحصلَتْ لهُ حينَئذٍ المعيَّةُ الحقيقيَّةُ ، والمشاهدةُ السرمديَّةُ ، وما ذاكَ على اللهِ بعزيزٍ[1]

* *

(١) في هامش (أ) : (الكلام على الصلاة) يعني : فيما سيأتي

الحكمة التاسعة عشرة والعشرون بعد المئة (*)

لَمَّا عَلِمَ ٱلْحَقُّ مِنْكَ وُجُودَ ٱلْمَلَلِ لَوَّنَ لَكَ ٱلطَّاعَاتِ ، وَعَلِمَ مَا فِيكَ مِنْ وُجُودِ ٱلشَّرَهِ فَحَجَّرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ ٱلأَوْقَاتِ

لِيَكُنْ هَمُّكَ إِقَامَةَ ٱلصَّلاةِ ، لا وُجُودَ ٱلصَّلاةِ ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ(١)

تلوينُ الطاعاتِ لوجودِ المللِ ، وتحجيرُها في الأوقاتِ لوجودِ الشَّرَهِ . . نعمتانِ عظيمتانِ أنعمَ اللهُ بهما على عبدِهِ ؛ فإنَّ المللَ والشَّرَهَ آفتانِ عظيمتانِ ، قاطعتانِ على العبدِ سبيلَ عبوديَّتِهِ

والمللُ تكَرُّهٌ يحصلُ للإنسانِ مِنْ عملٍ يلحقُهُ فيهِ مشقةٌ(٢) ، فيصبرُ عليهِ ويتحمَّلُ التعبَ فيهِ حتى يضجرَ ويسأمَ ، فيتركَ ذلكَ العملَ ويرفضَهُ استثقالاً لهُ ،

(*) ترجع هاتان الحكمتان اعتقاداً : إلى أن الله تعالى له أن يكلِّف عباده بما شاء من أعمال القلوب والجوارح ، وإلى أنه تعالى تفضَّل بالتكاليف لما فيها من خير عائد على العباد ، وهو سبحانه غني عن العالمين ، وإلى أن الصلاة من أعظم التكاليف ، وإقامتها من أعظم ثمرات الإيمان ، وإلى ثبوت صفة الحكمة له تعالى .
ويطلب معنى هذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء ١٠٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أقيموا الركوعَ والسجودَ » ، رواه البخاري (٧٤٢) ، ومسلم (٤٢٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه

(١) كتبت في (ج) : (مقيماً) على إعمال (ما) ، والوقف على لغة لربيعة

(٢) يقال : كرهَ الأمر وتكرَّهَهُ ، كلاهما بمعنى

وهو يَعْرِضُ للمطيع بعدَ إيثارِهِ للشيءِ ومحبَّتِهِ لهُ .

والشَّرَهُ : مجاوزةُ الحدِّ في التسارعِ إلى العملِ والحرصِ عليهِ

والذي يوجبُ وجودَ المللِ : المداومةُ علىٰ نمطٍ واحدٍ مِنَ العباداتِ ، فتسأمُها النفسُ وتستثقلُها ، فإذا لُوِّنَتْ عليها استحْلَتْها واستخفَّتْها ، وقد قالَ بعضُ الشعراءِ[1] [من البسيط]

لا يُصْلِحُ ٱلنَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدَبَّرَةً إِلا ٱلتَّنَقُّلُ مِنْ حَـالٍ إِلَـىٰ حَـالِ

والموجِبُ لوجودِ الشَّرَهِ : صلاحيةُ الأوقاتِ كلِّها لإيقاعِ العباداتِ فيها ، معَ شدَّةِ الحرصِ عليها ، وعندَ وجودِ الشَّرَهِ يقعُ النقصُ والتقصيرُ فيها ، فلذلكَ عيَّنَ لها أوقاتاً تُوقعُ فيها ، وأوقاتاً لا تُوقعُ فيها ؛ وذلكَ هو معنىٰ تحجيرِها في الأوقاتِ

فإنْ كانَ المللُ والشَّرَهُ واقعينِ في الصلاةِ . . لم يكنِ الآتي بها مقيماً لها ؛ لوقوعِ التقصيرِ منهُ فيها ، ولم يُؤمرْ إلا بإقامةِ الصلاةِ ، لا بوجودِ صورةِ الصلاةِ .

قالَ سيدي أبو العباسِ المرسيُّ : (كلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيهِ المصلُّونَ في معرضِ المدحِ فإنَّهُ إنَّما جاءَ لمَنْ أقامَ الصلاةَ ؛ إمَّا بلفظِ الإقامةِ ، أو بمعنىً يرجعُ إليها ، قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة ٣] ، ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [إبراهيم : ٤٠] ، ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الإسراء : ٧٨] ، ﴿ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [الحج : ٣٥] .

ولمَّا ذكرَ المصلِّينَ بالغفلةِ قالَ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون : ٤ـ٥] ، ولم يقلْ : فويلٌ للمقيمينَ الصلاةَ .

فالإقامةُ : أنَّهُ إذا صلَّى المؤمنُ صلاةً فتُقبِّلَتْ منهُ . . خلقَ اللهُ تعالىٰ مِنْ صلاتِهِ صورةً في ملكوتِهِ راكعةً ساجدةً إلىٰ يومِ القيامةِ ، وثوابُ ذلكَ لصاحبِ الصلاةِ)[2]

---

(١) هو أبو العتاهية . انظر « ديوانه » (ص ٣٢١)

(٢) نقله الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٢٦)

وإقامةُ الصلاةِ : حفظُ حدودِها ظاهراً وباطناً

قالَ ابنُ عطاءٍ[1] (إقامةُ الصلاةِ حفظُ حدودِها معَ حفظِ السرِّ معَ اللهِ تعالىٰ لا يختلج بسرِّكَ سواهُ)[2]

وقالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ (هو القيامُ بأركانِها وسننِها ، ثم الغَيبةُ عن شهودِها برؤيةِ مَنْ يُصلِّي لهُ ، فيحفظُ عليهِ أحكامَ الأمرِ فيما يجري عليهِ منهُ ، وهو عن ملاحظتِها محْوٌ ، فنفوسُهم منهم مستقبلةٌ القبلةَ ، وقلوبُهم مستقرَّةٌ في حقائقِ الوصلةِ)[3]

وتمثيلُ المؤلفِ بالصلاةِ دونَ سائرِ العباداتِ حسنٌ ؛ لأنَّ ذلكَ أكثرُ ما يقعُ فيها ، وقد يكونُ ذلكَ استطراداً للكلامِ على الصلاةِ حسبَ ما يقولُهُ بإثرِ هـٰذا

* *

---

(١) الظاهر أنه أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدَمي ، المتوفى سنة (٣٠٩هـ) ، وانظر ترجمته في « الرسالة القشيرية » (ص ١٨٢) .

(٢) أورده الإمام السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٠٤) .

(٣) قاله في « لطائف الإشارات » (١/ ٥٦) ، وقوله : (وهو عن ملاحظتها محو) المحو هنا : الغياب عن شهودها ، وانظر تفسير المحو في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٦٥) .

الحكمة الحادية والعشرون بعد المئة (*)

ٱلصَّلاةُ طُهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ ، مِنْ أَدْنَاسِ ٱلذُّنُوبِ .

كما رُوِيَ في الحديثِ الصحيحِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ قولِهِ : « إِنَّمَا مَثَلُ ٱلصَّلاةِ كَمَثَلِ نَهرٍ عَذْبٍ غَمْرٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ ، يَقْتَحِمُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، فَمَا تَرَوْنَ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟! »(١)

وَٱسْتِفْتَاحٌ لِبَابِ ٱلْغُيُوبِ

لأَنَّ القلوبَ إذا طهرَتْ وتزكَّتْ رُفِعَ عنها الحُجُبُ والأستارُ ، فرأَتْ ما غابَ عنها مِنَ الأسرارِ(٢)

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ يتعبَّد عباده بما شاء من العبادات ، ويطرد عادته بخلق ما شاء ـ عندها لا بها ـ من الخيرات والمبرات ، ومحو ما شاء من الأدناس والسيئات ، وقد مَنَّ علىٰ عبده بالصلاة والمناجاة من غير أهلية منه ، وفي هٰذا غاية الفضل والمنة .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَن لم تنهَهُ صلاتُهُ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ . . لم يزددْ مِنَ اللهِ إلا بُعداً » ، رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١١/ ٥٤) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الصلواتُ المكتوباتُ كفاراتٌ لما بينَهنَّ » ، رواه مسلم (٢٣١) من حديث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ١٧٤) بلاغاً عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٢٠٠) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وهو عند البخاري (٥٢٨) ، ومسلم (٢٨٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ مقارب .

(٢) فإن لم يُفتح للمصلي باب الغيوب فذاك علامة علىٰ فقدان ثمرة الصلاة إن تمَّت أركانها في الظاهر، =

الحكمة الثانية والعشرون بعد المئة (*)

ٱلصَّلاةُ مَحَلُّ ٱلْمُنَاجَاةِ

لأنَّ فيها يكونُ الثناءُ والدعاءُ ، والمناجاةُ : مخاطبةُ الأسرارِ ، عندَ صفاءِ الأذكارِ ، للملكِ الجبَّارِ .

وَمَعْدِنُ ٱلْمُصَافَاةِ

وهي زوالُ الأكدارِ الكونيَّةِ بينَكَ وبينَ ربِّكَ ، حتىٰ يصفوَ قلبُكَ وسرُّكَ ، فيصفوَ لكَ حينَئذٍ شهودُهُ ، ويمحوَ ذاتَكَ وجودُهُ .

= قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ٦٣٠) : (واعلم : أن تخليص الصلاة عن الآفات ، وإخلاصها لوجه الله عز وجل ، وأداءَها بالشروط الباطنة التي ذكرناها ؛ من الخشوع والتعظيم والحياء . . سبب لحصول أنوارٍ في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة ، فأولياء الله المكاشَفون بملكوت السماوات والأرض وأسرار الربوبية . . إنما يكاشفون بها في الصلاة ، لا سيما في السجود ؛ إذ يتقرب العبد من ربه عز وجل بالسجود ، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩]) .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أن معرفة الله تعالىٰ لا حدَّ لها ، وأنه تعالىٰ له تجليات علىٰ قلوب المخلصين من عباده يعلمون أنها الحق من الحق ، فتنشرح صدورهم بإذن ربهم ، وتطمئن بذكر الله سبحانه

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٣-٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مفتاحُ الجنةِ الصلاةُ » ، رواه الترمذي (٤) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ ٱلْأَسْرَارِ

حتىٰ تتكاثرَ عليكَ في الظهورِ

وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ ٱلْأَنْوَارِ .

فيكونُ قلبُكَ نوراً علىٰ نورٍ

وهـٰذهِ العباراتُ الستُّ معانيها متقاربةٌ[1]

ولمَّا كانَتْ هـٰذهِ الأحوالُ التي ذكرَها المؤلفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ فوائدِ الصلاةِ ، وأنَّ المقصودَ منها إنَّما هو تحصيلُها . . كانَ ذكرُ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ لها كالدليلِ علىٰ ما قالَهُ مِنْ أنَّ المأمورَ بهِ إنَّما هو إقامةُ الصلاةِ ، لا وجودُ صورةِ الصلاةِ ، وأنَّ الصلاةَ المعتبرةَ إنَّما هي صلاةُ الخاشعينَ ، لا صلاةُ الغافلينَ ؛ التي لا تنتهضُ لبلوغِ هـٰذهِ المقاصدِ السنيَّةِ ، ولذلكَ كانَتِ الصلاةُ أمَّ العباداتِ ، وأساسَ الخيراتِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه : ١٤] ، فأخبرَ أنَّ الصلاةَ المرادُ منها الذكرُ

وقد رُوِيَ معنىٰ ذلكَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّمَا فُرِضَتِ ٱلصَّلَاةُ ، وَأُمِرَ بِٱلْحَجِّ وَٱلطَّوَافِ ، وَأُشْعِرَتِ ٱلْمَنَاسِكُ . . لِإِقَامَةِ ذِكْرِ ٱللهِ »[2]

---

(١) أراد : الحكمتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بعد المئة .

(٢) رواه أبو داود (١٨٨٨) ، والترمذي (٩٠٢) ولـٰكن دون ذكر الصلاة ، وقد تبع العلامة المصنفُ الإمامَ أبا طالب في « قوت القلوب » (١٢٠٨/٣) ، والغزالي في « إحياء علوم الدين » (٥٥٧/١) ، ثم قال : (فإن لم يكن في قلبك للمذكور ـ الذي هو المقصود والمبتغىٰ ـ عظمةٌ =

ولذلكَ كانَتْ قرَّةَ عينِ حبيبِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، على ما سيأتي الكلامُ عليهِ حيثُ تعرَّضَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ لهُ[1]

وفي بعضِ الأخبارِ : (أنَّ العبدَ إذا قامَ إلى الصلاةِ رفعَ اللهُ الحجابَ بينَهُ وبينَهُ ، وواجهَهُ بوجهِهِ ، وقامَتِ الملائكةُ مِنْ لدنْ منكبيهِ إلى الهواءِ يصلُّونَ بصلاتِهِ ، ويؤمِّنونَ على دعائِهِ ، وإنَّ المصلِّيَ ليُنثرُ عليهِ البرُّ مِنْ عَنانِ السماءِ إلى مفرقِ رأسِهِ ، ويناديهِ منادٍ لو يعلمُ المناجي مَنْ يناجي ما انفتلَ ، وأنَّ أبوابَ السماءِ تُفتحُ للمصلِّي ، وأنَّ اللهَ يباهي ملائكتَهُ بصفوفِ المصلِّينَ)[2]

وفي التوراةِ : (يا بنَ آدمَ ؛ لا تعجِزْ أنْ تقومَ بينَ يديَّ مصلِّياً باكياً ، فأنا اللهُ الذي اقتربْتُ مِنْ قلبِكَ ، وبالغيبِ رأيتَ نوري)[3]

فكانوا يرونَ أنَّ تلكَ الرقَّةَ والبكاءَ ، وتلكَ الفتوحَ التي يجدُها المصلِّي في قلبِهِ . . مِنْ دنوِّ الربِّ مِنَ القلبِ[4]

قالَ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ : (دعا اللهُ تعالى الموحِّدينَ إلى هاذهِ الصلواتِ الخمسِ رحمةً منهُ عليهم ، وهيَّأَ لهم فيها ألوانَ الضيافاتِ لينالَ العبدُ مِنْ كلِّ قولٍ وفعلٍ شيئاً مِنْ عطاياهُ ؛ فالأفعالُ كالأطعمةِ ، والأقوالُ كالأشربةِ ، وهي عرسُ الموحِّدينَ ، هيَّأَها ربُّ العالمينَ لأهلِ رحمتِهِ في كلِّ يومٍ خمسَ مراتٍ ؛ حتى لا يبقى عليهم دنسٌ ولا غبارٌ)[5]

= ولا هيبة . . فما قيمة ذكرك ؟!) ، والمعنى المراد والمقصود مذكور في قوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه : ١٤]

(١) انظر (ص ٩٧٠) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٢١٢)

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٢١٢)

(٤) كذا في « قوت القلوب » (٣/ ١٢١٢)

(٥) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٢١٩) إلى قوله : (عرس الموحدين) .

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ (حُدِّثْتُ أنَّ المؤمنَ[١] إذا توضَّأَ للصلاةِ تباعدَتْ عنهُ الشياطينُ في أقطارِ الأرضينَ ؛ خوفاً منهُ ؛ لأنَّهُ يتأهَّبُ للدخولِ على الملِكِ ، فإذا كبَّرَ حُجِبَ عنهُ إبليسُ ، وضُرِبَ بينَهُ وبينَهُ سرادقٌ لا ينظرُ إليهِ ، وواجهَهُ الجبَّارُ بوجهِهِ ، فإذا قالَ : اللهُ أكبرُ . . اطَّلعَ الملكُ في قلبِهِ ، فإذا ليسَ في قلبِهِ أكبرُ مِنَ اللهِ[٢] ، فيقولُ الملكُ : صدقتَ ؛ اللهُ في قلبِكَ كما تقولُ[٣]

قالَ فيتشعشعُ مِنْ قلبِهِ نورٌ يلحقُ بملكوتِ العرشِ ، فينكشفُ لهُ بذلكَ النورِ ملكوتُ السماواتِ والأرضِ ، ويُكتبُ لهُ حشْوَ ذلكَ النورِ حسناتٌ .

قالَ وإنَّ الغافلَ الجاهلَ إذا قامَ إلى الوضوءِ احتوشَتْهُ الشياطينُ كما يحتوشُ الذبابُ على نقطةِ العسلِ ، فإذا كبَّرَ اطَّلعَ الملكُ على قلبِهِ ، فإذا شيءٌ في قلبِهِ أكبرُ مِنَ اللهِ عندَهُ[٤] ، فيقولُ الملكُ : كذبتَ ، ليسَ اللهُ في قلبِكَ كما تقولُ

قالَ : فيثورُ مِنْ قلبِهِ دخانٌ يلحقُ بعَنانِ السماءِ ، فيكونُ حجاباً لقلبِهِ عنِ الملكوتِ .

قالَ : فيردُّ ذلكَ الحجابُ صلاتَهُ ، وتلتقمُ الشياطينُ قلبَهُ ، ولا يزالُ تنفخُ فيهِ وتنفثُ وتوسوسُ وتزيِّنُ لهُ حتى ينصرفَ مِنْ صلاتِهِ ، لا يعقلُ ما كانَ فيها)[٥]

ومعاني هـٰذهِ الأخبارِ والآثارِ موافقةٌ لمعنى ما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ وأدلَّةٌ عليهِ ؛ فلذلكَ أوردتُها ها هنا ، واللهُ وليُّ التوفيقِ برحمتِهِ .

* * *

---

(١) في « قوت القلوب » : (الموقن) .
(٢) في (أ) : (فإذا كان ليس في قلبه . . .) ، والمثبت موافق للأصل المنقول عنه
(٣) في (أ) : (صدقت ، اللهُ أكبرُ في قلبك كما تقول) ، والمثبت موافق للأصل المنقول عنه .
(٤) في (أ) : (فإن كان شيء في قلبه . . .) ، والمثبت موافق للأصل المنقول عنه .
(٥) انظر « قوت القلوب » (٣/ ١٢١٠) .

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المئة (*)

عَلِمَ وُجُودَ ٱلضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا ، وَعَلِمَ ٱحْتِيَاجَكَ إِلَىٰ فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا

فهٰذا مِنْ فضلِ اللهِ تعالى الذي عوَّدَهُ عبدَهُ ، فتقليلُ أعدادِها بأنْ جعلَ الخمسينَ خمسةً ، وذلكَ تخفيفٌ منهُ عنهُ ؛ لما علمَ مِنْ وجودِ ضعفِهِ ، وتكثيرُ أمدادِها بأنْ جعلَ لخمسةٍ ثوابَ خمسينَ ، وذلكَ فضْلٌ منهُ عليهِ ؛ إذْ كانَ محتاجاً إليهِ ، فلهُ الحمدُ والشكرُ علىٰ ذلكَ

وهٰذهِ المعاني مذكورةٌ في حديثِ الإسراءِ(١)

* *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفة اللطف والرحمة والرأفة على القول بها ، أو هي أسماء لتعلقات القدرة الأزلية التنجيزية بالمؤمن الموفَّق المؤيَّد ، وإلىٰ أنه تعالىٰ يفعل ما يريد ، فيجزي إن شاء على العمل القليل بالعطاء الجزيل ، ويردُّ بعدله ما شاء من الأعمال .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٦١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « فقالَ ـ يعني : الله تعالىٰ في حديث المعراج بعد المراجعة ـ : هي خمسٌ ، وهي خمسونَ » ، رواه البخاري (٣٤٩) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه

(١) رواه البخاري (٣٣٤٢) ، ومسلم (١٦٢) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المئة (*)

مَتَىٰ طَلَبْتَ عِوَضاً عَلَىٰ عَمَلٍ طُولِبْتَ بِوُجُودِ ٱلصِّدْقِ فِيهِ ، وَيَكْفِي ٱلْمُرِيبَ وِجْدَانُ ٱلسَّلامَةِ

تقدَّمَ أنَّ العملَ لأجلِ حصولِ الجزاءِ مدخولٌ ومعلولٌ ، وحكينا هنالكَ مِنَ الآثارِ والحكاياتِ عنِ العارفينَ وأربابِ القلوبِ ما فيهِ مقنعٌ(١)

وقد كرَّرَ المؤلفُ هٰذا المعنىٰ في مواضعَ متفرقةٍ مِنْ هٰذا الكتابِ ، وما ذكرَهُ ها هنا تقبيحٌ لحالِ طالبِ الجزاءِ على العملِ ، ومعنىٰ ما ذكرَهُ : أنَّ العملَ علىٰ هٰذا الوجهِ معرَّضٌ للبطلانِ ؛ لأنَّهُ إذا طالبَ ربَّهُ بالجزاءِ علىٰ عملِهِ طالبَهُ ربُّهُ بوجودِ الصدقِ فيهِ ، والصدقُ الوفاءُ بحقِّهِ في العملِ ، وأنَّىٰ لهُ توفيةُ ذلكَ معَ كونِهِ طالباً للحظِّ مِنْ ربِّهِ ؟! فهو لا محالةَ مُريبٌ ، فيكفيهِ وِجدانُ السلامةِ مِنْ غيرِ مزيدٍ عليها

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن من عوائد الله تعالىٰ في خلقه إن هم توسَّلوا بأعمالهم لقضاء مآربهم . . أن يدقِّق عليهم ؛ لأنهم لم يتحققوا بحقائق أوصافهم ؛ إذ العبدُ لا ملكَ له مع سيده ، وليست خدمته في لقاء ثواب أو دفع عقاب ، ولٰكن الله سبحانه قد سبقت رحمته غضبه ، فغالباً ما ينجو عوام المؤمنين في هٰذا المخطر

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ مِنْ فضلِكَ » ، رواه مسلم (٧١٣) من حديث سيدنا أبي أُسيد الساعدي رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٤٥١) .

قالَ الواسطيُّ (العباداتُ إلىٰ طلبِ العفْوِ عنها أقربُ منها إلىٰ طلبِ الأعواضِ عليها)[1]

وقريبٌ مِنْ هـٰذا قولُ النصراباذيِّ (العباداتُ إلىٰ طلبِ الصفحِ والعفْوِ عن تقصيرِها . . أقربُ منها إلىٰ طلبِ الأعواضِ والجزاءِ عليها)[2]

قالَ خيرٌ النسَّاجُ : (ميراثُ أعمالِكَ ما يليقُ بأفعالِكَ ، فاطلبْ ميراثَ فضلِهِ ؛ فإنَّهُ أتمُّ وأحسنُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨])

＊

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٠٦) بلفظ (مطالعة الأعواض على الطاعات من نسيانِ الفضل)

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٤٨٧) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٦٤)

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المئة (*)

لا تَطْلُبْ عِوَضاً عَلَىٰ عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً ، يَكْفِي مِنَ ٱلْجَزَاءِ لَكَ عَلَى ٱلْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً

المنفردُ بخلْقِ أعمالِ العبادِ واختراعِها هو اللهُ عزَّ وجلَّ ، فكيفَ يطلبُ العبدُ الجزاءَ علىٰ عملٍ لا مدخلَ لهُ فيهِ على الحقيقةِ ؟!

ومعنىٰ كونِ القبولِ جزاءً قد تقدَّمَ[1]

❊

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله تعالىٰ هو الفاعل على الحقيقة ، وأن نسبة الفعل الاختياري للعبد علىٰ سبيل الكسب لا الإيجاد ، فجزاؤه تعالى الحسنَ على الفعل الاختياري هو محض فضل منه سبحانه

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ تقبَّلْ مِنْ محمدٍ وآلِ محمدٍ ومِنْ أمةِ محمدٍ » ، رواه مسلم (١٩٦٧) من حديث الصديقة عائشة رضي الله عنها في خبر الأضحيّة .

(١) انظر (ص ٤٠٧) ، ونقل الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٩١) عن الواسطي قوله : (أقسامٌ قُسِّمت ، ونعوت أجريت ، كيف تستجلب بحركات ، أو تنال بسعاياتٍ ؟!) .

الحكمة السادسة والعشرون بعد المئة (*)

إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ . . خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ

فضْلُ اللهِ تعالىٰ عظيمٌ ؛ فإذا أرادَ أنْ يظهرَهُ عليكَ خلقَ لكَ الطاعةَ ، وحلَّاكَ بها ، ونسبَها إليكَ ، وقالَ لكَ يا عبدي ؛ أنتَ مطيعٌ ومتَّقٍ ومجتهدٌ وعاملٌ ، وسأثيبُكَ على ذلكَ

فإذا شهدَ العبدُ هـٰذا الفضْلَ العظيمَ ، واستولىٰ عليهِ الخجلُ والحياءُ مِنْ سيدِهِ الكريمِ ، وانطلقَ لسانُهُ في هـٰذهِ الحالةِ بالدعاءِ والسؤالِ ، وقالَ يا ربِّ ؛ كما تفضَّلْتَ عليَّ بخلْقِ الطاعةِ لي ، وحلَّيتَني بها ، ووصفتَني بصفاتٍ حميدةٍ أنا خليٌّ عنها في الحقيقةِ ، ووعدتَني معَ ذلكَ جزيلَ الثوابِ ، والنجاةَ مِنَ العقابِ ؛ فتقبَّلْ منِّي عملي ، وأنجزْ لي ما وعدتَني . . كانَ في ذلكَ مصيباً ، وإلا فلا

فحقُّ العبدِ ألا ينسبَ لنفسِهِ شيئاً مِنْ محامدِ الصفاتِ ومحاسنِ الأعمالِ حقيقةً

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً إلى أن كلَّ حُسْنٍ يظهر من المكلف إنما هو محض فضل من الله تعالى ؛ إذ أشرقت عليه شمس القدرة الأزلية ، وإلى ثبوت الكسب الذي نفته الجبرية .
ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل ٥٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يلتقي الخضرُ وإلياسُ عليهما السلامُ كلَّ عامٍ بالموسمِ بمنىً ، فيحلقُ كلُّ واحدٍ منهما رأسَ صاحبِهِ ، فيفترقانِ عن هـٰؤلاءِ الكلماتِ : باسمِ اللهِ ما شاءَ اللهُ لا يسوقُ الخيرَ إلا اللهُ ، ما شاءَ اللهُ لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ ، ما شاءَ اللهُ ما كانَ مِنْ نعمةٍ فمِنَ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ » ، رواه ابن عدي في « الكامل » (٣/ ١٧٥) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

ولا أدباً ؛ إذْ لا أهليّةَ فيهِ لذلكَ ، وأمّا ضدُّ هٰذهِ الصفاتِ والأعمالِ ومساويها[1] . . فمقتضى الأدبِ أنْ يضيفَ ذلكَ إلىٰ نفسِهِ ، وأنْ يعترفَ بأنَّ ذلكَ مِنْ ظلمِهِ وجهلِهِ

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (إذا عملَ العبدُ حسنةً وقالَ : أنتَ يا ربِّ بفضلِكَ استعملتَ ، وأنتَ أعنتَ ، وأنتَ سهَّلتَ . . شكرَ اللهُ تعالىٰ ذلكَ لهُ ، وقالَ يا عبدي ؛ بل أنتَ أطعتَ ، وأنتَ تقرَّبتَ ، وإذا نظرَ إلىٰ نفسِهِ وقالَ أنا عملتُ ، وأنا أطعتُ ، وأنا تقرَّبتُ . . أعرضَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ، وقالَ : يا عبدي ؛ أنا وفَّقتُ ، وأنا أعنتُ ، وأنا سهَّلتُ .

وإذا عملَ سيئةً وقالَ : يا ربِّ ؛ أنتَ قدَّرتَ ، وأنتَ قضيتَ ، وأنتَ حكمتَ . . غضبَ اللهُ جلَّتْ قدرتُهُ عليهِ ، وقالَ لهُ : يا عبدي ؛ بل أنتَ أسأتَ ، وأنتَ جهلتَ ، وأنتَ عصيتَ ، وإذا قالَ : يا ربِّ ؛ أنا ظلمتُ نفسي ، وأنا أسأتُ ، وأنا جهلتُ . . أقبلَ المولىٰ جلَّتْ قدرتُهُ عليهِ ، وقالَ أنا قضيتُ ، وأنا قدَّرتُ ، وقد غفرتُ ، وقد حَلُمْتُ ، وقد سترتُ)[2]

*

---

(١) في (ج) : (مذامُّ) بدل (ضدُّ هذه) .

(٢) أورده بنحوه الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/١٠٣٦) ، وفي هامش (أ) : (بلغ الشيخ أبو بكر) ، وتأمل ـ في بيان هٰذا الأدب ـ في اعتذار سيدنا آدم علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ؛ حينما دعا ضارعاً : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، وفي سوء أدب إبليس حين عصىٰ فقال ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩] .

الحكمة السابعة والعشرون بعد المئة (*)

لا نِهَايَةَ لِمَذَامِّكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ ، وَلا تَفْرُغُ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ .

مَنْ أرجعَهُ الحقُّ إلىٰ نفسِهِ ، ووكلَهُ إلىٰ عقلِهِ وحدسِهِ . . فقد طردَهُ عن بابِهِ ، وأبعدَهُ عن جنابِهِ ، وكانَتْ أحوالُهُ مدخولةً معلولةً ، وأعمالُهُ مستقبحةً مرذولةً

ومَنْ آواهُ إليهِ ، وأظهرَ جودَهُ عليهِ . . فقدِ اصطنعَهُ لنفسِهِ ، ورفعَهُ إلىٰ حضرةِ قدسِهِ ، وكانَتْ أحوالُهُ حسنةً جميلةً ، وأعمالُهُ كلُّها ممدوحةً مقبولةً(١) ، كما قالَ [من الكامل]

لَمَّا نُسِبْتُ إِلَىٰ حِمَاكَ تَعَرَّفَتْ ذَاتِي فَصِرْتُ أَنَا وَإِلا مَنْ أَنَا

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله تعالىٰ له من الكمالات ما لا يحدُّ ، والحادث علىٰ خلاف ذلك ؛ إذ له من النقائص ما لا يحدُّ ، إلا أنه سبحانه تجلَّىٰ علىٰ عباده ، فقلب قوالبهم الصدئة الخسيسة إلىٰ جواهر نفيسة ؛ وذلك بمعرفته تعالىٰ علىٰ قدر أقدارهم ، وإضافتهم إليه حيث نُودوا بـ (يا عبادي)

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين : ٤ـ٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] : « أمَّا الظاهرةُ فما سوَّىٰ من خلقِكَ ، وأمَّا الباطنةُ فما سترَ من عورتِكَ ، ولو أبداها لقلاكَ أهلُكَ فمَنْ سواهم » ، رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤١٨٥) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

(١) روىٰ ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٦٢) عن طلق بن حبيب : (إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولٰكن أصبحوا توابين ، وأمسوا توابين)

الباب الثالث عشر
في المقاصد والمراد

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقاً ، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقاً

التعلُّقُ بأوصافِ الربوبيَّةِ : أنْ تشهدَ وجودَكَ ولوازمَ وجودِكَ ؛ لا شيءَ مِنْ جميعِ ذلكَ لكَ ولا منكَ ، وإنَّما هي عَوارِيُّ عندَكَ ؛ فلا ترىٰ وجودَكَ إلا بوجودِهِ ، ولا بقاءَكَ إلا ببقائِهِ ، ولا عزَّتَكَ إلا بعزَّتِهِ ، ولا قدرتَكَ إلا بقدرتِهِ ، ولا غناكَ إلا بغناهُ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الأوصافِ

ولا يتمُّ لكَ ذلكَ إلا بأنْ تتحقَّقَ **بأوصافِ عبوديَّتِكَ** ؛ مِنْ عدمِكَ وفقرِكَ ، وذُلِّكَ وعجزِكَ

والتعلُّقُ والتحقُّقُ المذكورانِ متلازمانِ ، بل هما شيءٌ واحدٌ ، لا تعدُّدَ فيهما على التحقيقِ

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إفراد القِدَم عن الحَدَث ، وأن للعبد من النقائص ما لله تعالىٰ من الكمالات ، وأن العبد الحقَّ من تحقق بأوصاف العبودية التي لا يمكنه أن ينفك عنها أصلاً

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت : ٥٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص ٣٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ربَّنا ؛ لكَ الحمدُ ملءَ السماواتِ والأرضِ ، وملءَ ما شئتَ مِنْ شيءٍ بعدُ ، أهلَ الثناءِ والمجدِ ، أحقُّ ما قالَ العبدُ ، وكلُّنا لكَ عبدٌ : اللهمَّ ؛ لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منكَ الجدُّ » ، رواه مسلم (٤٧٧) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المئة (*)

مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ؟!

أوردَ هـٰذا كالدليلِ علىٰ ما ذكرَهُ آنفاً مِنْ أنَّهُ لا حظَّ للعبدِ مِنْ صفاتِ مولاهُ إلا التعلُّقُ بها فقطْ ، وأنَّ ادِّعاءَهُ شيئاً منها مِنْ كبائرِ معاصي القلبِ ، ومِنْ مشاركةِ المربوبِ للربِّ .

ومِنْ مقتضى الغيرةِ التي اتَّصفَ بها ، وأعلَمَنا بشأنِها علىٰ لسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حيثُ قالَ : « مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَمِنْ غَيْرَتِهِ أَنَّهُ حَرَّمَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ »(١) . . تحريمُ ذلكَ على العبدِ ، والتسجيلُ عليهِ باستحقاقِ الطردِ والبُعْدِ

ومِنْ أفحشِ الفواحشِ عندَ العارفينَ وجودُ شيءٍ مِنَ الشركِ في قلبِ العبدِ ؛ بادِّعاءِ شيءٍ مِنْ أوصافِ الربوبيَّةِ لنفسِهِ عقداً أو قولاً ؛ لأنَّ ذلكَ منازعةٌ لهُ وتكبرٌ عليهِ .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن أوصاف الحق سبحانه مصونة عن الإدراك فضلاً عن التحلِّي بها ؛ ولهـٰذا منع الشارع من أن يدعيَها عبدٌ لنفسه ، فمن فعل فقد أعظم الفرية ، غير أن له نصيباً من التخلُّق .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات : ٢٤ـ٢٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزاري ، فمَنْ نازعَني واحداً منهما قذفتُهُ في النارِ » ، رواه أبو داود (٤٠٩٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) رواه البخاري (٤٦٣٤) ، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

وفي حديثِ ابنِ عباسٍ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَالَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ٱلْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَٱلْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي ٱلنَّارِ »[1]

ومعنى المنازعة : الدعوىٰ قولاً وعبارةً ، والإضمارُ فعلاً وإشارةً ، ومعنى الغيرةِ في حقِّهِ سبحانَهُ : أنَّهُ لا يرضىٰ بمشاركةِ غيرِهِ لهُ فيما اختصَّ بهِ مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ ، وفيما هو حقٌّ لهُ مِنَ الأعمالِ الدينيَّةِ .

وإذا كانَ الحقُّ تعالىٰ مانعاً لكَ ومحرِّماً عليكَ أنْ تدعيَ ما ليسَ لكَ ممَّا أعطى المخلوقينَ مِنَ الأموالِ ، وسمَّىٰ ذلكَ ظلماً وعدواناً . . فكيفَ يبيحُ لكَ أنْ تدعيَ وصفَهُ وهو ربُّ العالمينَ ، لا شريكَ لهُ لا أنتَ ولا غيرُكَ ؟! فهو إذاً مِنْ أعظمِ الظلمِ وأشدِّ العدوانِ ، عافانا اللهُ مِنْ ذلكَ

قلتُ : وهٰذا المعنى الذي ضمَّنَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ هٰذهِ المسألةَ . . هو الغرضُ الأقصى الذي هو مرمىٰ نظرِ الصوفيَّةِ ، وكلُّ ما صنَّفوهُ ودوَّنوهُ وأمروا بهِ ونهَوْا عنهُ مِنْ أفعالٍ وأقوالٍ وأحوالٍ . . إنَّما هي وسائلُ إلىٰ هٰذا المقصدِ الشريفِ والمقامِ المنيفِ ، وشأنُهم أبداً إنَّما هو العملُ علىٰ موتِ نفوسِهم وإسقاطِ حظوظِها بالكليَّةِ كما قيلَ : (الصوفيُّ دمُهُ هدرٌ ، وملكُهُ مباحٌ)[2]

وليسَ ذلكَ هو المقصودَ لهم بالذاتِ ، وإنَّما غرضُهم مِنْ ذلكَ ما يلزمُ عنهُ مِنِ انفرادِ الربِّ تعالىٰ عندَهم بالوجودِ ولوازمِ الوجودِ انفراداً لا يشاركونَهُ في شيءٍ منهُ ألبتةَ ، كما ذكرناهُ آنفاً ، وهٰذا هو كيمياءُ السعادةِ الذي أعوزَ أكثرَ الناسِ ، ولم يحظَوْا منهُ إلا بالإفلاسِ ؛ إذْ بذلكَ يستحقُّ المرءُ عبوديةَ اللهِ عزَّ وجلَّ التي لا مقامَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٧٥) بلفظه هنا

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٥٨٨) عن سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالىٰ

للعبدِ أشرفُ منهُ[١] ، كما قالَ الشاعرُ[٢] : [من البسيط]

أَلَسْتَ لِي خَلَفاً مِنِّي كَفَىٰ شَرَفاً   فَمَا وَرَاءَكَ لِي قَصْدٌ وَمَطْلُوبُ

ولهٰذا المعنىٰ كانَتْ عندَهم دقائقُ خطراتِ الحظوظِ ، وخفيّاتُ هواجسِ الهوىٰ ، وكلُّ ما يقتضي بقاءَ حظِّ النفسِ وثبوتِها في محبَّةِ المقاماتِ وإيثارِ الألطافِ والكراماتِ . . ذنوباً عظيمةً ، وأخلاقاً لئيمةً ، قادحةً في صدقِ العبوديَّةِ ، والإخلاصِ للربوبيَّةِ ، يتوبونَ مِنْ جميعِ ذلكَ إلىٰ ربِّهم ، ويتعوَّذونَ بهِ مِنْ شرِّهِ[٣] ، ويخافونَ مساكنتَهُ وملاحظتَهُ غايةَ البعدِ، ونهايةَ المكرِ والطردِ ، كما قيلَ [من الطويل]

إِذَا قُلْتُ مَا أَذْنَبْتُ قَالَتْ مُجِيبَةً   وُجُودُكَ ذَنْبٌ لا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبُ

ذُكِرَ أنَّهُ كانَ لبعضِ الملوكِ عبدٌ يقدِّمُهُ علىٰ أشكالِهِ وأقرانِهِ ، فشكا أهلُ إقليمٍ عاملَهم إلى الملكِ ، فقالَ تخيَّروا مَنْ شئتُم أولِّيهِ عليكم ، فاختاروا ذلكَ العبدَ ؛ لما رأوا ميلَ الملكِ إليهِ .

فقالَ الملكُ راجعوهُ ، فإنِ اختارَ الولايةَ ولَّيتُهُ عليكم ، فرغبَ الغلامُ في الولايةِ ، فأمرَ بكتبِ المنشورِ ، وأمرَ باستقبالِهِ إذا وافىٰ محلَّ ولايتِهِ ، والمبالغةِ في إلطافِهِ بأنواعِ الكراماتِ والمبارِّ ، ودسَّ مَنْ يرشُّ عليهِ ماءَ وردٍ فيهِ سمٌّ ، ثم أمرَ مَنْ يقولُ إذا أشرفَ على الموتِ : هٰذا جزاءُ مَنِ اختارَ الولايةَ علىٰ خدمةِ مولاهُ

ففي هٰذا عبرةٌ لأولي الأبصارِ ، وتبصرةٌ لأربابِ الاعتبارِ

وإلىٰ هٰذا المعنى الجليلِ ، المؤدِّي إلىٰ سواءِ السبيلِ . . تشيرُ الحكايةُ المشهورةُ المرويَّةُ عن أبي يزيدَ البسطاميِّ ؛ حدَّثَ يحيى بنُ معاذٍ أنَّهُ رأىٰ أبا يزيدَ في بعضِ مشاهداتِهِ مِنْ بعدِ صلاةِ العشاءِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ ، مستوفزاً علىٰ صدورِ قدميهِ ، رافعاً

---

(١) في (ج ، د ، هـ) : (الذي) بدل (التي)
(٢) أورده القشيري في « لطائف الإشارات » (٢ / ٢٢٧) .
(٣) في (أ ، ب) : (شرِّهم)

أخمصيهما معَ عقبيهِ عنِ الأرضِ ، ضارباً بذَقَنِهِ علىٰ صدرِهِ ، شاخصاً بعينيهِ لا يطرفُ ، قالَ : ثم سجدَ عندَ السحرِ فأطالَ ، ثم قعدَ فقالَ : اللهمَّ ؛ إنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهمُ المشيَ على الماءِ ، والمشيَ في الهواءِ ، فرضُوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ ، وإنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهم طيَّ الأرضِ ، فرضُوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ ، وإنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهم كنوزَ الأرضِ ، فانقلبَتْ لهمُ الأعيانُ ، فرضُوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ ، وإنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهم عندَكَ خطراً ، فرضُوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ ، حتىٰ عدَّ نيفاً وعشرينَ مقاماً مِنْ كراماتِ الأولياءِ

ثم التفتَ فرآني ، فقالَ : يحيىٰ ؟ قلتُ : نعم يا سيدي ، قالَ : منذُ متىٰ أنتَ ها هنا ؟ قلتُ : منذُ حينٍ ، فسكتَ ، فقلتُ : يا سيدي ؛ حدِّثْني بشيءٍ ، قالَ أحدِّثُكَ بشيءٍ يصلحُ لكَ ؛ أدخلَني في الفلكِ الأسفلِ فدوَّرَني في الملكوتِ السفليِّ ، فأراني الأرضينَ وما تحتَها إلى الثرىٰ ، ثم أدخلَني في الفلكِ العلويِّ فطوَّفَ بي في السماواتِ ، وأراني ما فيها مِنَ الجناتِ إلى العرشِ ، ثم أوقفَني بينَ يديهِ فقالَ : سلْني أيَّ شيءٍ رأيتَ حتىٰ أهبَهُ لكَ ، فقلتُ : يا سيدي ؛ ما رأيتُ شيئاً أستحسنُهُ فأسألَكَ إيَّاهُ ، فقالَ : أنتَ عبدي حقّاً ، تعبدُني لأجلي صدقاً ، لأفعلَنَّ بكَ ولأفعلَنَّ ، وذكرَ أشياءَ

قال يحيى بنُ معاذٍ فهالَني ذلكَ ، وامتلأتُ بهِ ، وعجبتُ منهُ ، فقلتُ يا سيدي ؛ لِمَ لَمْ تسألْهُ المعرفةَ بهِ إذْ قالَ لكَ ملكُ الملوكِ : سلْني ما شئتَ ؟ قالَ فصاحَ صيحةً وقالَ : اسكتْ ويلَكَ ! غيرةً عليهِ منِّي ، لا أحبُّ أنْ يعرفَهُ سواهُ[1]

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ بعدَ أنْ حكىٰ هـٰذهِ الحكايةَ : (فهـٰذا حالُ عبدٍ فانٍ عن نفسِهِ مأخوذٌ ؛ إذْ كانَ ربُّهُ عزَّ وجلَّ لهُ موجوداً[2] ، طالَ مقامُهُ في المقاماتِ ، فقصرَتْ عن وصفِهِ الصفاتُ ، وحُقَّ لهُ إذ نظرَ إلى الحُسْنِ الذي حَسُنَتِ المحاسنُ كلُّها عن حُسْنِهِ ، وشانَتِ الزيناتُ جميعُها بعدَ النظرِ إلىٰ زينتِهِ ، وشهدَ الجميلَ الذي

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١١٣٥) .

(٢) كذا في النسخ و« قوت القلوب » أي : حاضراً .

تجمَّلَ الجمالُ والمتجمِّلونَ بجمالِهِ . . ألا يستحسنَ سواهُ

وكيفَ يحبُّ غيرَ ما استحسنَ ، أو يُزيِّنُ في عينِهِ إلا إياهُ ؟! أم كيفَ ينظرُ غيرَ إيَّاهُ ؟! أم كيفَ يطلبُ غيرَ ما أحبَّ ، أو يصيرُ معَ غيرِ ما طلبَ ؟! بل كيفَ يهتمُّ بغيرِ ما طلبَ ؟!(١)

فهٰذا نعتُ عبدٍ مطلوبٍ بمعنىٰ ما طلبَ ، ووصفُ شخصٍ محبوبٍ بمعنىٰ ما أحبَّ ، ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥]) انتهىٰ(٢) .

وفي الإشاراتِ عنِ اللهِ تعالىٰ : يا عبدي ؛ اعزلْ نفسَكَ ينعزلْ معَكَ المُلْكُ والملكوتُ(٣) ، فتلحقُ الدارينِ بالمُلْكِ ، وتلحقُ العلومَ بالملكوتِ ، فتكونُ عندي مِنْ وراءِ ما أبدي ، فلا يستطيعُكَ ما أبدي ؛ لأنَّكَ عندي ، وإذا كنتَ عندي كنتَ عبدي ، وإذا كنتَ عبدي كانَ عليكَ نوري ، فلا يستطيعُكَ ما أبدي وإنْ أرسلتُهُ إليكَ ؛ لأنَّ نوري عليكَ ، وليسَ نوري عليهِ ، فإذا جاءَكَ لم يطقْكَ ، فأوذنُكَ بهِ ، فتأذنُ أنتَ لهُ

والعباراتُ عنهم في هٰذا المعنىٰ خارجةٌ عنِ الحصرِ ، وفيما رسمنا منها الغايةُ ، وإنَّما ذكرنا هٰذهِ المعانيَ وإنْ كانَتْ في الظاهرِ أعلىٰ مِنْ أنْ يتناولَها كلامُ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ؛ لأنَّ مرجعَ أمرِهِ إليها إذا دققنا فيها النظرَ ، وتصرَّفنا فيهِ بوجوهِ العِبَرِ ، فكانَ باطنُهُ هو المقصودَ المعتبرَ ، وكلامُ الصوفيَّةِ كثيراً ما يجري هٰذا المجرىٰ ، واللهُ تعالىٰ يجزيهم عنَّا خيراً ، ويمنُّ علينا بالفهمِ عنهم ، وحسنِ القبولِ منهم ، ويفتحُ أسماعَنا للإصغاءِ إليهم ، ويشرحُ صدورَنا باستحسانِ ما يردُ منهم أو يبدو عنهم ، بمنِّهِ وفضلِهِ

* * *

---

(١) في (ج) : (يهيم) بدل (يهتمُّ)

(٢) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١١٣٥ـ١١٣٦) .

(٣) في (ج) : (عنها) بدل (معك)

الحكمة الثلاثون بعد المئة (*)

كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ ٱلْعَوَائِدُ وَأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ ٱلْعَوَائِدَ ؟!

خرْقُ العوائدِ بانكشافِ عالمِ القدرةِ لا يكرمُ الحقُّ سبحانَهُ فيهِ إلا مَنْ خرقَ عوائدَ نفسِهِ ، وفنيَ عن إرادتِهِ وحظوظِهِ ، فمَنْ لم يصلْ إلىٰ هـٰذا المقامِ لا يطمعُ فيها ، وإنْ ظهرَ لهُ ما صورتُهُ صورةُ الكرامةِ . . فينبغي لهُ أنْ يخافَ عندَ ذلكَ مِنَ الاستدراجِ والمكرِ ؛ بحيثُ لا يحبُّ ذلكَ ولا يطلبُهُ ، فإنْ طلبَهُ وأحبَّهُ فهو دليلٌ علىٰ بقائِهِ معَ إرادتِهِ وحظوظِهِ وعاداتِهِ ، فكيفَ تُخرقُ العوائدُ لمَنْ هـٰذهِ صفتُهُ علىٰ سبيلِ الكرامةِ ؟! وهل هـٰذا إلا محالٌ لا يستقيمُ ؟!

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ : (وجميعُ الأسرارِ مِنَ الغيوبِ التي تُكنُّها الحُجُبُ والأستارُ . . لا يُظهرُ عليها إلا مطلوبٌ[1] ، والمطلوبُ لا يكونُ محجوباً وهو عن نفسِهِ مسلوبٌ ، فمَنْ بقيَتْ عليهِ مِنْ نفسِهِ بقيّةٌ ، ونظرَ إلىٰ حركتِهِ وسكونِهِ بعينِهِ نظرةً

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الأسباب العادية لا أثر لها في إيجاد فعل ما ، وإنما هي جعلية بمحض إرادة الله تعالىٰ ، وأنه سبحانه يخرق العادات إن شاء متىٰ شاء كيفما شاء ؛ لحِكَمٍ لا تحصىٰ ، وأنه تعالىٰ إن خرق عادة لعبده الصالح التقي كان ذلك إكراماً له وتثبيتاً ، ومن عوائده في ذلك : ألا تخرق العادة إلا لمن أدمن العبودية ظاهراً وباطناً لمولاه الحق سبحانه

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « إنَّ مِنْ عبادِ اللهِ مَنْ لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ » ، رواه البخاري (٢٧٠٣) ، ومسلم (١٦٧٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(١) يظهر : يُطلَعُ وينبَّأ ، وتعدِّيه بـ (علىٰ) مثل قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٦] وذلك لتضمينه معنىٰ (يطلع) .

خفيةً . . فسترُها عليهِ رحمةً لهُ[1] ؛ فإنَّهُ لو كُوشفَ بها هلكَ في حيرةِ الهوىٰ ، وغرقَ في بحرِ الدنيا ، ونفسُ حبِّهِ وعينُ طلبِهِ إيَّاها . . هو حجابُهُ عنها واستتارُها عنهُ ، حتىٰ يكونَ كارهاً لظهورِها كراهيتَهُ لظهورِ الخلْقِ علىٰ معصيتِهِ ، وخائفاً منها كخوفِهِ علىٰ نفسِهِ في تظاهرِها عليهِ بهلكتِهِ ، فهناكَ حينَ يُبتلىٰ بها ويُختبرُ ؛ ليظهرَ كيفَ يعملُ)[2]

وكذا الشيخُ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ قالَ : (مَنْ لم يكنْ كارهاً لظهورِ الآياتِ وخوارقِ العاداتِ منهُ كراهيةَ الخلْقِ لظهورِ المعاصي . . فهي في حقِّهِ حجابٌ ، وسترُها عنهُ رحمةٌ)

فإذاً ؛ مَنْ خرقَ عوائدَ نفسِهِ لا يريدُ ظهورَ شيءٍ مِنَ الآياتِ وخوارقِ العاداتِ لهُ ، بل تكونُ نفسُهُ عندَهُ أقلَّ وأحقرَ مِنْ ذلكَ ، فإذا فنيَ عن إرادتِهِ جملةً ، وكانَ لهُ تحقُّقٌ في رؤيةِ نفسِهِ بمعنى الحقارةِ والذلَّةِ . . حصلَتْ لهُ أهليَّةُ ورودِ الألطافِ[3] ، ووجودِ الإسعافِ ، وسلكَ إلىٰ مرتبةِ الصدِّيقيَّةِ المهيعَ الناهجَ ، وضربَ معَ أهلِ الإرادةِ بالقِدْحِ الفالجِ[4]

قالَ الشيخُ أبو العباسِ بنُ العريفِ : أصبحتُ يوماً مهموماً ، فقلتُ للشيخِ أبي القاسمِ بنِ رويبلَ : حدِّثْني بحكايةٍ عسى اللهُ أنْ يفرِّجَ ما بي .

فقالَ نعم ، وُصِفَ لي رجلٌ ببعضِ السواحلِ يُعرفُ بأبي الخيارِ ، فقصدتُهُ فوجدتُهُ علىٰ ساحلِ البحرِ ، فسلَّمْتُ عليهِ وجلستُ ، فلم يتكلَّمْ ولم أكلِّمْهُ ، حتىٰ إذا كانَ وقتُ الصلاةِ أقبلَ نفرٌ مِنْ بعضِ الأوديةِ متفرِّقونَ ، فاجتمعوا إليهِ ، وتقدَّمَهم واحدٌ منهم فصلَّىٰ بهم ، ثم افترقوا ولم يكلِّمْ أحدٌ منهم أحداً ، وجلسَ الشيخُ مكانَهُ وجلستُ عندَهُ ، حتىٰ إذا كانَ وقتُ الصلاةِ أقبلَ النفرُ فصلَّوا ، ثم انصرفوا ، حتىٰ إذا كانَ وقتُ صلاةِ العصرِ

---

(١) يعني : تستر الكرامة عنه لكيلا تكون حجاباً في حقه .

(٢) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١١٢٤) .

(٣) في (أ ، ب) : (جعلت) بدل (حصلت)

(٤) القِدْح : السهم الذي يقارعُ به في الميسر ، والفالج : الذي يفوز المرء به .

اجتمعوا وصلَّوا ، ثم جلسوا بعدَ ذلكَ فتذاكروا في سِيَرِ الصالحينَ ومقاماتِ العارفينَ والأولياءِ إلىٰ قريبِ الاصفرارِ ، ثم تفرَّقوا واجتمعوا للمغربِ ، ثم تفرَّقوا

وجلستُ عندَهم ثلاثةَ أيامٍ وهم علىٰ ذلكَ ، ثم وقعَ في نفسي أنْ أسألَهُ عن مسألةٍ أستفيدُها ، فتقدَّمتُ إليهِ فقلتُ : أيُّها الشيخُ ؛ مسألةٌ أسألُ عنها ، فقالَ : قُلْ ، فنظرَ الجماعةُ إليَّ كالمنكرينَ ، ففزعتُ وقلتُ : أيُّها الشيخُ ؛ متىٰ يعلمُ المريدُ أنَّهُ مريدٌ ؟

قالَ : فأعرضَ عنِّي ولم يجبْني ، فخفتُ أنْ أكونَ قد أغضبتُهُ ، فقمتُ عنهُ ، فلمَّا كانَ في اليومِ الثاني قلتُ لا بدَّ أنْ أسألَهُ عنِ المسألةِ ، وعزمتُ علىٰ ذلكَ ، فتقدَّمتُ إليهِ وقلتُ : أيُّها الشيخُ ؛ متىٰ يعلمُ المريدُ أنَّهُ مريدٌ ؟ فأعرضَ عنِّي كالأولِ ، ولم يجاوبْني ، فقمتُ وعدتُ في الثالثِ ، وسألتُهُ عنِ المسألةِ بعينِها ، فاجتمعَ وقالَ لا تقلْ هٰكذا ، أظنُّكَ تريدُ أنْ تسألَ عن أوَّلِ قدمٍ يضعُهُ المريدُ في الإرادةِ ، فقلتُ نعم ، فقالَ إذا اجتمعَ فيهِ أربعُ خصالٍ أحدُها أنْ تُطوىٰ لهُ الأرضُ وتكونَ عندَهُ كقدمٍ واحدٍ ، وأنْ يمشيَ على الماءِ ، وأنْ يأكلَ مِنَ الكونِ متىٰ أرادَ ، وألا تُرَدَّ لهُ دعوةٌ . . فعندَ ذلكَ يضعُ أوَّلَ قدمِهِ في الإرادةِ ، وأمَّا متىٰ علمَ المريدُ عندَنا أنَّهُ مريدٌ . . سقطَ مِنْ حدِّ الإرادةِ

قالَ الشيخُ أبو العباسِ بنُ العريفِ رضيَ اللهُ عنهُ : فصحتُ صيحةً كادَتْ نفسي تذهبُ معَها ، ثم قلتُ لهُ : آيستَنا مِنَ الإرادةِ يا أبا القاسمِ ، وتعجَّبْتُ مِنْ علوِّ همَّةِ هٰذا الشيخِ . انتهىٰ[1]

واعلمْ : أنَّهُ أوَّلُ ما يُخرقُ لهُ مِنَ العادةِ تسميتُهُ باسمِ مريدٍ معَ كونِهِ مسلوبَ الإرادةِ[2] ، وما أحسنَ ما قالَ الشاعرُ : [من الطويل]

تكُـونُ مُـرِيـداً ثُـمَّ فِيـكَ إِرَادَةٌ إِذَا لَـمْ تُـرِدْ شَيْئـاً فَـأَنْـتَ مُـرِيـدُ

---

(١) أورده الإمام اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ١٨٦)

(٢) يعني : تسمية المريد بهٰذا الاسم هو أول خارق للعادة يكون له ، فقوله : (تسميته) هو خبرٌ لقوله : (أول)

والتحقيقُ في هٰذا : أنَّ مَنْ تمحَّضَتْ إرادتُهُ لعبوديَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بمراعاةِ حقوقِهِ لأجلِ ما وجبَ عليهِ مِنْ ذلكَ ، لا ليتوصَّلَ بهِ إلىٰ نيلِ حظٍّ ما .. هو الذي يُسمَّىٰ مريداً ؛ فلم يُسمَّ بذلكَ إلا لأنَّهُ متصفٌ بالإرادةِ الحقيقيَّةِ المتعلِّقةِ بأشرفِ المطالبِ ، ونهايةِ الآمالِ والمآربِ ؛ وذلكَ أمرٌ وجوديٌّ يصحُّ أنْ يُشتقَّ منهُ اسمٌ لمَنْ قامَ بهِ ذلكَ الأمرُ ، لا أنَّهُ سُمِّيَ بذلكَ لأجلِ ما سُلِبَ عنهُ مِنَ الإرادةِ المجازيَّةِ المتعلِّقةِ بحظوظِهِ ، لٰكنْ لمَّا كانَ سلبُ إحداهما يقتضي وجودَ الأخرىٰ ؛ لاقتضاءِ الواجبِ .. صحَّ لذلكَ الشاعرِ أنْ يُطلِقَ اسمَ الإرادةِ علىٰ مَنْ سُلِبَتْ منهُ ، ويحجزَهُ عمَّنْ وُجِدَتْ فيهِ ؛ رشاقةً وملاحةً وتعميةً(١)

وبهٰذا يتبيَّنُ لكَ صحَّةُ كلامِ أبي يزيدَ واستقامتُهُ ؛ حيثُ قيلَ لهُ : ما تريدُ ؟ قالَ : (أريدُ ألا أريدَ)(٢) ، وأنَّهُ ليسَ بمختلٍّ ولا متناقضٍ كما توهَّمَ بعضُهم

قالَ في « التنويرِ » (واعلمْ : أنَّهُ قد قالَ بعضُهم : « إنَّ أبا يزيدَ لمَّا أرادَ ألا يريدَ فقد أرادَ » ، وهٰذا قولُ مَنْ لا معرفةَ عندَهُ ؛ وذلكَ أنَّ أبا يزيدَ إنَّما أرادَ ألا يريدَ ؛ لأنَّ اللهَ تعالى اختارَ لهُ وللعبادِ أجمعَ عدمَ الإرادةِ معَهُ ، فهو في إرادتِهِ ألا يريدَ موافقٌ لإرادةِ اللهِ لهُ(٣) ؛ ولذلكَ قالَ الشيخُ أبو الحسنِ : « وكلُّ مختاراتِ الشرعِ وترتيباتِهِ هو مختارٌ للهِ ، ليسَ لكَ منهُ شيءٌ ، واسمعْ وأطعْ ، وهٰذا موضعُ الفقهِ الربانيِّ والعلمِ اللدنيِّ ، وهو أرضٌ لتنزُّلِ علمِ الحقيقةِ المأخوذِ عنِ اللهِ تعالىٰ »(٤)

---

(١) وقال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٤٦٥) في بيان ملحظٍ آخر (والمريد علىٰ موجَب الاشتقاق : من له إرادة ، كما أن العالم من له علم ؛ لأنه من الأسماء المشتقة ، ولٰكن المريد في هٰذه الطريقة : من لا إرادة له ، فما لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً ، كما أن من لا إرادة له علىٰ موجب الاشتقاق لا يكون مريداً) .

(٢) في « الرسالة القشيرية » (ص ١٢٨) خبر عنه يفيد هٰذا المعنىٰ ، وبلفظه هنا هو في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ١٢٣) .

(٣) وهٰذه العبارة في (أ ، ب) : (فهو ألا يختاروا معه شيئاً ولا يريدوه ، فهو في إرادته ألا يريد موافق لإرادة الله له) ، والمثبت من سائر النسخ موافق للأصل المنقول عنه .

(٤) في « التنوير » زيادة : (لمن استوىٰ) .

قالَ : فأبانَ الشيخُ بهذا الكلامِ[١] أنَّ كلَّ مختارٍ للشرعِ لا يناقضُ اختيارُهُ مقامَ العبوديَّةِ المبنيَّ علىٰ تركِ الاختيارِ ؛ لئلا ينخدعَ عقلٌ قاصرٌ عن دَرَكِ الحقيقةِ بذلكَ ، فيظنَّ أنَّ الوظائفَ والأورادَ ورواتبَ السننِ إرادتُها يخرجُ بها العبدُ عن صريحِ العبوديَّةِ ؛ لأنَّهُ قدِ اختارَ ، فبيَّنَ الشيخُ رحمَهُ اللهُ أنَّ كلَّ مختاراتِ الشرعِ وترتيباتِهِ ليسَ لكَ منهُ شيءٌ[٢] ، فإنَّما أنتَ مخاطبٌ أنْ تخرجَ عن تدبيرِكَ لنفسِكَ واختيارِكَ لها ، لا عن تدبيرِ اللهِ تعالىٰ ورسولِهِ لكَ ، فافهمْ

قالَ فقد علمتَ أنَّ أبا يزيدَ ما أرادَ ألا يريدَ إلا لأنَّ اللهَ أرادَ منهُ ذلكَ ، فلم تخرِجْهُ هـٰذهِ الإرادةُ عنِ العبوديَّةِ المقتضاةِ منهُ) انتهىٰ[٣]

وقد طالَ بنا الكلامُ في هـٰذا المعنىٰ حتىٰ آلَ إلىٰ بُعْدِ المناسبةِ بينَهُ وبينَ المسألةِ المنبَّهِ عليها مِنَ الكتابِ ، والحديثُ شجونٌ يجرُّ بعضُهُ إلىٰ بعضٍ ، لـٰكنْ لمَّا كانَ مقصدُنا في هـٰذا « التنبيهِ » استغنامَ ذكرِ الفوائدِ في مواضعِها ومظانِّها[٤] ؛ لتقرعَ مسائلُ هـٰذا الفنِّ الغريبِ أسماعَ مَنْ أرادَ اللهُ توفيقَهُ ممَّنْ بينَهُ وبينَهُ بُعْدُ المشرقينِ . . صحَّ منَّا ذلكَ ، وكنَّا سائرينَ فيهِ علىٰ أوضحِ المسالكِ ، وباللهِ التوفيقُ

* *

---

(١) في « التنوير » : (فأفاد) بدل (فأبان)

(٢) في « التنوير » : (منها) بدل (منه)

(٣) التنوير في إسقاط التدبير (ص ١٢٣) ، وكان قد ضرب مثلاً بسوء اختيار العبد لنفسه ببني إسرائيل ؛ وذلك حينما اختاروا مرادهم على مراد الله تعالىٰ لهم ؛ حيث قالوا : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : ٦١]

(٤) في (د) : (اغتنام) بدل (استغنام) .

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المئة (*)

مَا ٱلشَّأْنُ وُجُودَ ٱلطَّلَبِ ، إِنَّمَا ٱلشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ ٱلأَدَبِ

إذا التزمَ العبدُ طلبَ حوائجِهِ وحظوظِهِ مِنْ مولاهُ ، ولم يطلبْ ذلكَ مِنْ غيرِهِ . . فلا يظنَّنَّ أنَّهُ وفَّىٰ بما يجبُ عليهِ مِنْ حقِّ الربوبيَّةِ ؛ فليسَ ذلكَ بالشأنِ المعتبرِ عندَ المحقِّقينَ ، إنَّما الشأنُ : أنْ يتأدَّبَ العبدُ بينَ يدي مولاهُ أدباً حسناً ؛ بأنْ يفوِّضَ أمرَهُ إليهِ ، ويرضىٰ بما قسمَ لهُ ، ولا يطلبَ منهُ ما ليسَ لهُ ، كما سيقولُهُ المؤلفُ بعدَ هٰذا(١) ، ويطلبَ منهُ عبوديَّةً منهُ لهُ ، لا لقصدِ نيلِ حظِّهِ ، فبهٰذينِ الوجهينِ يحسنُ أدبُهُ ، ويصحُّ سؤالُهُ وطلبُهُ ، وذلكَ هو الوفاءُ على التحقيقِ

* *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً إلىٰ أن الدعاء مع ثبوت نفعه مظهرٌ من مظاهر العبودية لله تعالىٰ ، والإجابة إن تحققت فهي فضلٌ منه عز وجل ، وأن الإتيان بالآداب عنوان التوفيق ؛ إذ لا تكون إلا بعد استكمال واستتمام الفرائض والسنن والمندوبات .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الدعاءُ مخُّ العبادةِ » ، رواه الترمذي (٣٣٧١) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقوله عليه الصلاة والسلام في بيان أدب الدعاء « إذا دعا أحدُكم فليعزم المسألةَ ، ولا يقولَنَّ : اللهمَّ ؛ إن شئتَ فأعطني ؛ فإنَّهُ لا مستكرِهَ له » ، رواه البخاري (٦٣٣٨) ، ومسلم (٢٦٧٨) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٦٦٩)

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المئة (*)

مَا طُلِبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ ٱلِاضْطِرَارِ ، وَلا أَسْرَعَ بِٱلْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ ٱلذِّلَّةِ وَٱلِافْتِقَارِ .

اضطرارُ العبدِ هو أخصُّ أوصافِ عبوديَّتِهِ ، ولذلكَ لم يُطلبْ مِنَ العبدِ شيءٌ أجلُّ منهُ

قالَ أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ مَنازِلَ (العبوديَّةُ الرجوعُ في كلِّ شيءٍ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ حدِّ الاضطرارِ)(١)

وفيهِ أيضاً خاصيَّةُ إجابةِ الدعاءِ ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل ٦٢]

والاضطرارُ المطلوبُ منهُ : ألا يتوهَّمَ العبدُ مِنْ نفسِهِ شيئاً مِنَ الحولِ والقوَّةِ ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الممكن وجوده وبقاؤه مستندان إلى القديم تعالىٰ ، فهو في حال افتقار واضطرار على الدوام ، فإن اختار الممكنُ الحادثُ المكلفُ هـٰذا الاضطرار الذي لا ينفك عنه . . فقد عُجِّلت له العطايا والهبات .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ حكاية ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ٢٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر ١٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « دعواتُ المكروب : اللهمَّ ؛ رحمتكَ أرجو ، فلا تكلْني إلىٰ نفسي طرفةَ عينٍ ، وأصلحْ لي شأني كلَّهُ ، لا إلـٰهَ إلا أنتَ » ، رواه أبو داود (٥٠٩٠) من حديث سيدنا أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٦٩)

ولا يرىٰ لنفسِهِ شيئاً مِنَ الأسبابِ يعتمدُ عليهِ أو يستندُ إليهِ ، ويكونَ بمنزلةِ الغريقِ في البحرِ ، والضالِّ في التيهِ القَفْرِ ؛ لا يرىٰ لغياثِهِ إلا مولاهُ ، ولا يرجو لنجاتِهِ مِنْ هلكتِهِ أحداً سواهُ

وقالَ بعضُ العارفينَ (المضطرُّ الذي يقفُ بينَ يدي مولاهُ ، فيرفعُ يديهِ إليهِ بالمسألةِ ، فلا يرىٰ بينَهُ وبينَ اللهِ حسنةً يستحقُّ بها شيئاً ، فيقولُ : هَبْ لي يا مولايَ بلا شيءٍ)[1]

والذلَّةُ والافتقارُ أمرانِ لازمانِ لهُ ، وهما موجبانِ لإسراعِ مواهبِ الحقِّ تعالىٰ إلى العبدِ المتَّصفِ بهما ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، **فذلَّتُهم أوجبَتْ لهم عزَّتَهم ونصرتَهم** ، كما قيلَ[2] : [من الكامل]

وَإِذَا تَـذَلَّلَـتِ ٱلـرِّقَـابُ تَقَـرُّبـاً ... مِنْهَـا إِلَيْـكَ فَعِـزُّهَـا فِـي ذُلِّهَـا

وقيلَ[3] [من الخفيف]

حِينَ أَسْلَمْتَنِي إِلَى ٱلذَّالِ وَٱللَّا ... مِ تَلَقَّيْتَنِـي بِعَيْـنٍ وَزَايِ

قالَ في « لطائفِ المننِ » (والجالبُ للتوفيقِ [وعلامتُهُ][4] . . صِدْقُ الرُّجْعىٰ

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٨٦٥) ، وزاد (فتكون بضاعته عند مولاه الإفلاس ، ويصير حاله في كل الأعمال الإياس)

(٢) البيت ضمن قطعة لأبي إسحاق الصابئ ، كما في « يتيمة الدهر » (٢/ ٣٢٥) ، وحكاه القشيري في « لطائف الإشارات » (١/ ٤٨) ، وعامة الصوفية رضي الله عنهم لا يعنيهم حينما يستشهدون ببيت من الشعر . . مَن قائله ، وفيمن قيل ، ولأي غرض أنشئ ، وإنما البيت مطية لحمل مواجيدهم ، فلا تفزع أن يكون البيت للصابئ أو غيره .

(٣) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٥٩) ، وأراد بالذال واللام : الذُّلَّ ، وبالعين والزاي : العزَّ ، ولا يخفىٰ أن إطلاق الذلِّ عند القوم إنما هو ما كان بين يدي الله تعالىٰ ؛ من المسكنة والانكسار ونحو ذلك من مظاهر العبودية ، فلا يرد في هـٰذا الباب قوله عليه الصلاة والسلام : « لا ينبغي للمؤمنِ أنْ يُذِلَّ نفسَهُ » ، رواه الترمذي (٢٢٥٤) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

(٤) في جميع النسخ (وعلامة) بدل (وعلامته) ، وسقطت الكلمة من (ج) ، والتصحيح من الأصل المنقول عنه

إلى اللهِ في أوَّلِ كلِّ فعلٍ وتركٍ ؛ بتحقيقِ الفقرِ والفاقةِ إليهِ ، والانغماسِ في بحرِ الذلَّةِ والمسكنةِ بينَ يديهِ ، واستصحابِ ذلكَ إلى الفراغِ مِنْ ذلكَ أبداً ، وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران ١٢٣] ، وقالَ سبحانَهُ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة ٦٠] ، فلا تَدخلْ جنَّةَ عملِكَ وعلمِكَ وما أُعطيتَ مِنْ نورٍ وفتحٍ ، فتقولَ كما قالَ مَنْ خُذلَ فأخبرَ اللهُ عنهُ : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ [الكهف ٣٥] ، ولٰكنِ ادخلْها كما بيَّنَ لكَ ، وقُلْ كما رضيَ لكَ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف ٣٩]

وافهمْ ها هنا قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِٱللهِ . كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ ٱلْجَنَّةِ »(١) ، وفي روايةٍ أخرى « كَنْزٌ مِنْ كُنُوزٍ تَحْتَ ٱلْعَرْشِ »(٢) ، فالترجمةُ ظاهرُ الكنزِ ، والمكنوزُ فيها صدقُ التبرِّي مِنَ الحولِ والقوَّةِ ، والرجوعُ إلى حولِ اللهِ وقوتِهِ)(٣)

*

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرى » (٩٧٨٨) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه بلفظه هنا ، ورواه البخاري (٤٢٠٥) ، ومسلم (٢٧٠٤) بنحوه من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٥٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بنحوه

(٣) لطائف المنن (ص ٧٠)

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المئة (*)

لَوْ أَنَّكَ لا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلا بَعْدَ فَنَاءِ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ.. لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَداً ، وَلَـٰكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ غَطَّىٰ وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ وَنَعْتَكَ بِنَعْتِهِ ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، لا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ

الوصولُ إلى اللهِ تعالىٰ لا يكونُ إلا بمحْوِ صفاتِ النفسِ ، وقطعِ علاقاتِ القلبِ ، وشيءٌ مِنْ ذلكَ لا يُتصوَّرُ مِنَ العبدِ مِنْ حيثُ هو ؛ لأنَّ ذلكَ طبعُهُ وجبلَّتُهُ ، ولو لم يكنْ إلا إرادتُهُ وعملُهُ في تحصيلِ هـٰذا الغرضِ بنفسِهِ ، وهما مِنْ جملةِ المساوي والدعاوي المحتاجِ إلىٰ محْوِها

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه (السلبية) له تعالىٰ ، وثبوت صفة الإرادة الأزلية ، وإلىٰ أن تحقيق معرفة القديم سبحانه لا يكون إلا بفناء الحادث عن صفاته ، ولـٰكن لمَّا استحال قلب الأعيان كان الفناء بستر أوصاف الحادث بتجليات الحق القديم سبحانه ، وتجلياته من جملة أفعاله ، فهي حادثة أيضاً ، وتعلقاتها قديمة ، فرجع الأمر إليه سبحانه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « سألتُ ربي مسألةً وددتُ أني لم أسألْهُ ، قلتُ : يا ربِّ ؛ كانَتْ قبلي رسلٌ ، منهم مَنْ سخرتَ لهمُ الرياحَ ، ومنهم مَنْ كانَ يحيي الموتىٰ ، قالَ : ألم أجدْكَ يتيماً فآويتُكَ ؟ ألم أجدْكَ ضالاً فهديتُكَ ؟ ألم أجدْكَ عائلاً فأغنيتُكَ ؟ ألم أشرحْ لكَ صدرَكَ ؟ ووضعتُ عنكَ وزرَكَ ؟! قلتُ : بلىٰ يا ربِّ » ، رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١١/٤٥٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٥٢٦) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

قالَ سيدي أبو العباسِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لن يصلَ الوليُّ إلى اللهِ تعالىٰ حتىٰ تنقطعَ عنهُ شهوةُ الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ)[1] ؛ يعني انقطاعَ أدبٍ ، لا انقطاعَ مللٍ[2]

وقالَ سيدي أبو الحسنِ : (لن يصلَ الوليُّ إلى اللهِ تعالىٰ ومعَهُ شهوةٌ مِنْ شهواتِهِ ، أو تدبيرٌ مِنْ تدبيراتِهِ ، أوِ اختيارٌ مِنِ اختياراتِهِ)[3]

فلو خلَّى اللهُ تعالىٰ عبدَهُ وذلكَ . . لم يصلْ إليهِ أبداً ، ولـٰكنْ إذا أرادَ اللهُ أنْ يُوصلَ عبدَهُ إليهِ . . تولَّىٰ ذلكَ لهُ ؛ بأنْ يظهِرَ لهُ مِنْ صفاتِهِ العليَّةِ ونعوتِهِ القدسيَّةِ ما يُغيِّبُ بذلكَ صفاتِ عبدِهِ ونعوتَهُ عنهُ[4] ، ويكونُ ذلكَ علامةً علىٰ محبَّتِهِ لهُ ، كما أشارَ إليهِ بقولِهِ في الحديثِ الصحيحِ « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ ٱلَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ ٱلَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ ٱلَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ ٱلَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا »[5] ، وعندَ ذلكَ لا يكونُ لهُ إرادةٌ ولا اختيارٌ إلا ما اختارَهُ مولاهُ وأرادَهُ ، فيكونُ حينئذٍ واصلاً إلى اللهِ بما مِنَ اللهِ إليهِ مِنَ الفضلِ والكرمِ ، لا بما مِنَ العبدِ إليهِ مِنَ الاجتهادِ والعملِ

فسبحانَ المتفضِّلِ علىٰ مَنْ شاءَ بما شاءَ

* *

---

(1) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ١٢٥)

(2) كذا فسَّره الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ١٢٦) بعد إيراد القول .

(3) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ١٢٦) مختصراً

(4) وهي حظوظ العبد من أسماء الله تعالى الحسنىٰ ، أو ما يُعرف بالتخلُّق .

(5) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

الباب الرابع عشر
في أحكام العلل في الأعمال

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

لَوْلا جَمِيلُ سَتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلاً لِلْقَبُولِ

العبدُ مبتلىً بنظرِهِ إلىٰ نفسِهِ ، وفرحِهِ بعملِهِ مِنْ حيثُ نسبتُهُ إليهِ ، وشهودِهِ حولَهُ وقوَّتَهُ عليهِ ، وهـٰذا لا محيصَ لهُ عنهُ إلا بما شاءَ ربُّهُ ، وقد يكثفُ حجابُهُ فيرائي بهِ ، ويطلبُ حمدَ الناسِ لهُ ، وهـٰذا كلُّهُ مِنَ الشركِ الخفيِّ القادحِ في الإخلاصِ الحقيقيِّ ، والإخلاصُ شرطٌ في قبولِ الأعمالِ كما تقدَّمَ(١)

قالَ يحيى بنُ معاذٍ : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ؛ جسمٌ معيبٌ ، وقلبٌ معيبٌ ، يريدُ أنْ يُخرِجَ مِنْ مَعِيبينِ عملاً بلا عيبٍ !)

فعملُ العبدِ لمَّا كانَ بهـٰذهِ المثابةِ لم يكنْ فيهِ أهليَّةٌ لوجودِ القبولِ لولا جميلُ

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ أنه تعالىٰ له أن يردَّ ما شاء من صالح أفعال عباده وإن جاؤوا بها علىٰ وجه التمام ، ولـٰكنه فضلاً منه وكرماً وبما وعد فأوجب شرعاً . . قَبِلَ من عباده أعمالهم علىٰ كثرة عللها ، وإلىٰ إثبات صفة الستر على القول بها ، والتحقيق : رجوع الستر لصفتي الإرادة والقدرة .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأحقاف ١٦] ، **وقوله تعالىٰ حكاية** : ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٨] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « إلا أن يتغمدني الله بفضلٍ ورحمةٍ » ، رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) انظر (ص ٤٥٩)

سَترِ اللهِ تعالىٰ وعظيمُ حلمِهِ وبرِّهِ ، فليعتمدِ المريدُ علىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ وكرمِهِ ، لا على اجتهادِهِ وعملِهِ

قالَ الشيخُ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ (إذا طالبَهم بالإخلاصِ تلاشَتْ أعمالُهم ، وإذا تلاشَتْ أعمالُهم زادَ فقرُهم وفاقتُهم ، فتبرَّؤُوا عن كلِّ شيءٍ ، ومِنْ كلِّ شيءٍ لهم ومنهم)

* *

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المئة (*)

أَنْتَ إِلَىٰ حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ . . أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَىٰ حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ

شرفُ العبدِ ورفعةُ قدرِهِ : إنَّما تكونُ بنظرِهِ إلىٰ ربِّهِ عزَّ وجلَّ ، وإقبالِهِ عليهِ ، وسكونِهِ إليهِ ، واعتمادِهِ عليهِ

ودناءَتُهُ وخسَّتُهُ وسقوطُهُ مِنْ عينِ اللهِ تعالىٰ : إنَّما تكونُ بنظرِهِ إلىٰ نفسِهِ ، وإقبالِهِ علىٰ غيرِهِ ، وإسنادِهِ إلىٰ سواهُ

فالعبدُ عندَ عملِهِ بالطاعةِ معرَّضٌ لهٰذهِ الأخطارِ ؛ مِنْ نظرِهِ إلىٰ نفسِهِ ، واستعظامِ عملِهِ ، وعُجْبِهِ بطاعتِهِ ، وسكونِهِ إلىٰ معاملتِهِ ، وليتَهُ يسلمُ فيهِ مِنْ دقائقِ الرياءِ والتصنُّعِ ، بخلافِ المعصيةِ في جميعِ هٰذهِ الأشياءِ ؛ فإنَّها تحملُهُ على الحذرِ والخوفِ مِنْ ربِّهِ ، وتوجبُ لهُ الاستكانةَ والخضوعَ وشدَّةَ الافتقارِ إليهِ ؛ فلذلكَ كانَ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه لا يجب عليه فعل شيء أو تركه ، وإلىٰ أنه لا تعلل أحكامه ، وأن له الحجة علىٰ جميع خلقه لو عذَّبهم ، ولٰكنه تعالىٰ مضىٰ حكمه بنفوذ وعده ، وسبقت رحمته غضبه ، وأن العادةَ وجودُ الصَّلَفِ للعبد بعد أداء العبادة ، وإلىٰ إثبات صفة الحلم على القول بها ، والتحقيق : رجوع الحلم إلىٰ صفة الإرادة والقدرة .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة ٢٥ـ٢٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام معلماً : « واللهِ ؛ ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ما يفعلُ بي » ، رواه البخاري (٣٩٢٩) من حديث سيدتنا أم العلاء الأنصارية رضي الله عنها

العبدُ إلىٰ حِلْمِ اللهِ إذا أطاعَهُ أحوجَ منهُ إلىٰ حلمِهِ إذا عصاهُ

وفي الخبرِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أَوْحَى ٱللهُ إِلَىٰ نَبِيٍّ مِنَ ٱلأَنْبِيَاءِ قُلْ لِعِبَادِي ٱلصِّدِّيقِينَ لا يَغْتَرُّوا ؛ فَإِنِّي إِنْ أُقِمْ عَلَيْهِمْ عَدْلِي وَقِسْطِي أُعَذِّبْهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَقُلْ لِعِبَادِي ٱلْخَطَّائِينَ لا يَيْئَسُوا مِنْ رَحْمَتِي ؛ فَإِنِّي لا يَكْبُرُ عَلَيَّ ذَنْبٌ أَغْفِرُهُ »[1]

ولهٰذا المعنىٰ قالَ أبو يزيدَ رحمةُ اللهِ عليهِ : (توبةُ المعصيةِ واحدةٌ ، وتوبةُ الطاعةِ ألفُ توبةٍ)[2]

*

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٤٨) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه

(٢) في هامش (أ) : (بلغ الشيخ أبو بكر) .

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المئة (*)

ٱلسَّتْرُ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ : سَتْرٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ ، وَسَتْرٌ فِيهَا ، وَٱلْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ ٱلسَّتْرَ مِنَ ٱللهِ فِيهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ ٱلْخَلْقِ ، وَٱلْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ ٱلسَّتْرَ عَنْهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ

العامَّةُ يغلبُ عليهم شهودُ الخلقِ ، والتصنُّعُ لهم ، والتزيُّنُ لهم ، ومحبَّةُ حمدِهم ، وكراهةُ ذمِّهم ، فهم يعملونَ المعصيةَ ويستخفُّونَ بها ، ويطلبونَ السَّترَ مِنَ اللهِ عليهم فيها ؛ أي في حالِ كونِهم عاملينَ بها ؛ لئلا يراهمُ الخلقُ فيسقطوا مِنْ أعينِهم ، وفي أمثالِهم قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء ١٠٨]

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ رضيَ اللهُ عنهُ في هٰذهِ الآيةِ (الغالبُ على

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً إلىٰ أنه تعالىٰ يتنزَّل فيعامل خلقه علىٰ قدر عقولهم ، ويتلطَّف بهم علىٰ حسب أحوالهم معه ، وإلىٰ أن الخلق مع الله تعالىٰ ليسوا سواء ؛ فمنهم العام ، ومنهم الخاص ، ومنهم خاص الخاص ، إلىٰ أن تقف حدودُهم من جانب الرفعة عند سيدهم مولانا ونبينا الإنسان الكامل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وإلىٰ إثبات صفة الستر على القول بها ، وتجليات اسميه تعالى الحيي والستير

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حييٌّ ستِّيرٌ ، يحبُّ الحياءَ والسترَ ، فإذا اغتسلَ أحدُكم فليستترْ » ، رواه أبو داود (٤٠١٢) من حديث سيدنا يعلى بن أمية رضي الله عنه .

قلوبِهم رؤيةُ الخلقِ ، ولا يشعرونَ أنَّ الحقَّ مطلعٌ عليهم ، أولئكَ الذينَ وسمَ اللهُ قلوبَهم بوسمِ الفُرْقةِ)[1]

وروىٰ عديُّ بنُ حاتِمٍ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « يُؤْمَرُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِنَاسٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْجَنَّةِ ، حَتَّىٰ إِذَا دَنَوْا مِنْهَا ، وَنَظَرُوا إِلَيْهَا ، وَٱسْتَنْشَقُوا رِيحَهَا وَمَا أَعَدَّ ٱللهُ لِأَهْلِهَا . . نُودُوا : أَنِ ٱصْرِفُوهُمْ عَنْهَا ، فَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا ، قَالَ : فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَا رَجَعَ ٱلْأَوَّلُونَ بِمِثْلِهَا ، فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا ؛ لَوْ أَدْخَلْتَنَا ٱلنَّارَ قَبْلَ أَنْ تُرِيَنَا مَا أَرَيْتَنَا مِنْ ثَوَابِكَ ، وَمَا أَعْدَدْتَ فِيهَا لِأَوْلِيَائِكَ . . كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا ، قَالَ ذَٰلِكَ أَرَدْتُ بِكُمْ ؛ كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمُونِي بِٱلْعَظَائِمِ ، وَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلنَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ ، تُرَاؤُونَ ٱلنَّاسَ بِخِلَافِ مَا تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ ، هِبْتُمُ ٱلنَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي ، وَأَجْلَلْتُمُ ٱلنَّاسَ وَلَمْ تُجِلُّونِي ، وَتَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرُكُوا لِي ، فَٱلْيَوْمَ أُذِيقُكُمْ أَلِيمَ ٱلْعَذَابِ مَعَ مَا حُرِمْتُمْ مِنَ ٱلثَّوَابِ »[2]

وفي بعضِ الكتبِ : (إنْ لم تعلموا أنِّي أراكم فالخللُ في إيمانِكم ، وإنْ علمتم أنِّي أراكم فلِمَ جعلتُموني أهونَ النَّاظرينَ إليكم ؟!)[3]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر ١٩] : هو الرجلُ تمرُّ بهِ المرأةُ ، فيُري القومَ أنَّهُ يغضُّ بصرَهُ ، فإذا غفلوا نظرَ إليها ، ويريهم أنَّهُ يغضُّ بصرَهُ ويودُّ لو أنَّهُ اطَّلعَ علىٰ عورتِها ويقدرُ عليها .

وقالَ أيضاً في روايةٍ أخرىٰ : هو الرجلُ يكونُ في القومِ فتمرُّ بهمُ المرأةُ ، فيريهم أنَّهُ يغضُّ بصرَهُ عنها ، فإذا رأىٰ مِنَ القومِ غفلةً لحظَ إليها ونظرَ ، فإذا خافَ أنْ يفطنوا غضَّ بصرَهُ ، فقدِ اطَّلعَ اللهُ مِنْ قلبِهِ أنَّهُ يودُّ لو نظرَ إلىٰ عورتِها[4]

---

(١) قاله في « لطائف الإشارات » (١/ ٣٦٠) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/ ٨٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢٤) .

(٣) أورده الإمام القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ١١٩) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٧٥١٣) ، وهناد في « الزهد » (١٤٢٨) .

وهـٰذا كلُّهُ شأنُ المرائينَ الذينَ يستخفُّونَ بنظرِ الجبَّارِ ، ويهابونَ الناسَ أنْ يطَّلعوا عليهم فيما يرتكبونَهُ مِنَ الأوزارِ .

والخاصَّةُ مِنْ أهلِ الإيمانِ واليقينِ برآءُ مِنْ هـٰذا الوصفِ الذميمِ ، لا التفاتَ لهم إلى الخلقِ مدحاً ولا ذمّاً ، وهمَّتُهم مصروفةٌ عنِ النظرِ إليهم ، والاعتمادِ عليهم في نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ ، وحالُهم إنَّما هو القناعةُ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ومراقبةُ نظرِهِ ، فهم يطلبونَ السَّترَ مِنَ اللهِ عنها[1] ؛ في أنْ يغيِّبَها عن نظرِهم ، ولا يُخطرَها بقلوبِهم فتميلَ إليها أنفسُهم ، فيعملونَ بها ، فيقعونَ في مخالفةِ ربِّهم ، والتعرُّضِ لسخطِهِ ، والسقوطِ مِنْ عينِهِ .

وشتَّانَ ما بينَ الحالينِ .

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ أشارَ سيدي أبو الحسنِ في دعائِهِ بقولِهِ : (اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ التوبةَ ودوامَها ، ونعوذُ بكَ مِنَ المعصيةِ وأسبابِها ، وذكِّرْنا بالخوفِ منكَ قبلَ هجومِ خطراتِها ، واحملْنا على النجاةِ منها ومِنَ التفكُّرِ في طرائقِها ، وامحُ مِنْ قلوبِنا حلاوةَ ما اجتنيناهُ منها ، واستبدلْها بالكراهةِ لها ، والطعمِ لما هو بضدِّها)[2]

* *

(١) يعني : عن الأوزار والمعاصي .

(٢) قطعة من حزبه الكبير المعروف بـ(حزب البر) و(الحزب الكبير) .

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المئة (*)

مَنْ أَكْرَمَكَ فَإِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ ، فَٱلْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ ، لَيْسَ ٱلْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ .

العبدُ محلُّ الآفاتِ والعيوبِ ، وسَترُ اللهِ الجميلُ هو الذي يحبِّبُ الناسَ إلى الناسِ ، فإذا أكرمَكَ أحدٌ فلا يذهبَنَّ ذلكَ بكَ إلى أنْ ترى لنفسِكَ وصفاً محموداً تستحقُّ بهِ الإكرامَ ، فتكونَ جاهلاً بنفسِكَ ، ولا يحملنَّكَ أيضاً إكرامُ الخلْقِ لكَ - لوجودِ جهلِهم بحالِكَ - على أنْ تحمدَهم عليهِ دونَ ربِّكَ الذي اضطرَّهم إلى إكرامِكَ ، وسترَ عنهم عيوبَكَ ، وأظهرَ لهم محاسنَكَ ، فتكونَ بذلكَ كافراً بنعمةِ ربِّكَ ، ظالماً بوضعِ الحمدِ في غيرِ موضعِهِ .

* * *

(*) ترجع هاذه الحكمة اعتقاداً : إلى أنه تعالى لا تنفعه طاعتنا ، كما أنه لا تضرُّه معصيتنا ؛ لأنه الغني بإطلاق ، فما أوجب من طاعة ونهى عن معصية . . إلا لحكمة ، والنفع والضرُّ إنما يرجعان للعبد ، وإلى أنه تعالى المنفرد بكل فعل ؛ فحمدُ الحادث للحادث إنما هو حمدُ حادث لقديم ، بل على التحقيق حمدُ قديم لقديم ، فالحمد لله وحده
ويطلب معنى هاذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [القصص : ٧٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يشكرُ اللهَ مَنْ لا يشكرُ الناسَ » ، رواه أبو داود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وهاذا الأثر من باب شكر الوسائط ؛ لعجز العبد عن شكر الله تعالى إلا بنوع من المجاز والتوسع .

الحكمة الثامنة والتاسعة والثلاثون بعد المئة (*)

مَا صَحِبَكَ إلا مَنْ صَحِبَكَ وَهُوَ بِعَيْبِكَ عَلِيمٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلا مَوْلاكَ ٱلْكَرِيمَ .

خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يَطْلُبُكَ لا لِشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ

الصاحبُ على الحقيقةِ هو مَنْ بذلَ إحسانَهُ إليكَ ، وأسبغَ نعمَهُ عليكَ ، ولم يمنعْهُ مِنْ ذلكَ ما يعلمُ مِنْ عيوبِكَ التي يكرهُها منكَ ، وليسَ ذلكَ إلا مولاكَ

وخيرُ صاحبٍ لكَ أيضاً مَنِ اعتنى بكَ ، وآثرَكَ وأرادَكَ مِنْ غيرِ منفعةٍ ينالُها منكَ ، وليسَ ذلكَ أيضاً إلا مولاكَ ، فاتخذْهُ صاحباً ، ودعِ الناسَ جانباً[1]

*

(*) ترجع هاتان الحكمتان اعتقاداً : إلى ثبوت صفة العلم وتعلقاته التنجيزية القديمة ، وأنه تعالى لا يتغير ولا يتبدل ؛ إذ ذاك من صفة الحوادث ، وأنه سبحانه لسعة قدرته وغَنائه عن خلقه . . ينظر لعباده نظر رأفة ورحمة ، لا ينقطع مدده إيجاداً وإبقاءً عن حادث ما ، ولا يخفى عليه صغير ولا حقير ، فكان وحده لثبوت هـٰذه الأوصاف الجدير بالصحبة المجازية

ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة ٤٠] ، وقوله تعالى حكاية : ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ أنتَ الصاحبُ في السفرِ » ، رواه مسلم (١٣٤٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما

(١) روى الخطابي في « العزلة » (ص ١٧) عن خلف بن تميم قال : جئت أطلب إبراهيم بن أدهم في يوم مطير ، فاطلعت فلم أره ، فأعدت النظر ، فإذا هو قاعد تحت السرير وقد فرَّ من الوكف ، فلما نظر إلي قال : [من مجزوء الخفيف]

ارضَ بـــالله صـــاحبـــا ... وذرِ النـــاسَ جـــانبـــا
قلِّـــبِ النـــاسَ كيـــف شئـ ... ـــتَ تجـدْهـم عقـــاربـــا

الحكمة الأربعون بعد المئة (*)

لَوْ أَشْرَقَ نُورُ ٱلْيَقِينِ لَرَأَيْتَ ٱلآخِرَةَ أَقْرَبَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا ، وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ ٱلدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ ٱلْفَنَاءِ عَلَيْهَا(١)

نورُ اليقينِ تتراءىٰ بِهِ حقائقُ الأمورِ علىٰ ما هي عليهِ ، فيُحَقُّ بهِ الحقُّ ، ويُبطَلُ بهِ الباطلُ ، والآخرةُ حقٌّ ، والدنيا باطلٌ

فإذا أشرقَ نورُ اليقينِ في قلبِ العبدِ . . أبصرَ بهِ الآخرةَ ـ التي كانَتْ غائبةً عنهُ ـ حاضرةً لديهِ ، حتىٰ كأنَّها لم تزلْ ، فكانَتْ أقربَ إليهِ مِنْ أنْ يرتحلَ إليها ، فحُقَّ بذلكَ حقُّها عندَهُ ، وأبصرَ الدنيا الحاضرةَ لديهِ قدِ انكسفَ نورُها ، وأسرعَ إليها الفناءُ والذهابُ ، فغابَتْ عن نظرِهِ بعدَ أنْ كانَتْ حاضرةً ، فظهرَ لهُ بطلانُها ، حتىٰ كأنَّها لم تكنْ ، فيوجبُ لهُ هـٰذا النظرُ اليقينيُّ الزهادةَ في الدنيا والتجافيَ عن زهرتِها ، والإقبالَ على الآخرةِ والتهيُّؤَ لحضرتِها

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت عالم الملكوت ؛ وهو وراء عالم المُلك المدرك بالحواس الخمس ، وفيه تتجلىٰ حقائق الأشياء ، وسنة الله تعالىٰ في دخول هـٰذا العالم : أنه لا يكون إلا للقلوب الصافية ، أو ببوارق لطف إلـٰهي إن تعلقت القدرة الأزلية بذلك .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : ٣٨ـ ٣٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠ـ٢١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ : ١٦ـ١٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « كُنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ » ، رواه البخاري (٦٤١٦) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(١) كذا رواية الحكمة عند المصنف في جميع النسخ ، وانفردت (هـ) وحدها في أولها بلفظ : (لو أشرق لك نور اليقين . . .) .

ووجدانُ العبدِ لهذا هو علامةُ انشراحِ صدرِهِ بذلكَ النورِ ، كما قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلنُّورَ إِذَا دَخَلَ ٱلْقَلْبَ ٱنْشَرَحَ لَهُ ٱلصَّدْرُ وَٱنْفَتَحَ » ، قيلَ يا رسولَ اللهِ ؛ هل لذلكَ مِنْ علامةٍ يُعرفُ بها ؟ قالَ : « نَعَمْ ؛ ٱلتَّجَافِي عَنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ ، وَٱلإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ ٱلْخُلُودِ ، وَٱلِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ » ، أو كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(١)] وعندَ ذلكَ تموتُ شهواتُهُ ، وتذهبُ دواعي نفسِهِ ، فلا تأمرُهُ بسوءٍ ، ولا تطالبُهُ بارتكابِ منهيٍّ ، ولا يكونُ لهُ همَّةٌ إلا المسارعةُ إلى الخيراتِ ، والمبادرةُ إلى اغتنامِ الساعاتِ والأوقاتِ ؛ وذلكَ لاستشعارِهِ حلولَ الأجلِ ، وفواتَ صالحِ العَمَلِ .

وإلىٰ هذا المعنى الإشارةُ بحديثَيْ حارثةَ ومعاذٍ رضيَ اللهُ عنهما

رَوىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : بينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يمشي إذِ استقبلَهُ شابٌّ مِنَ الأنصارِ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ ؟ » ، فقالَ أصبحتُ مؤمناً باللهِ حقّاً ، قالَ : « ٱنْظُرْ مَا تَقُولُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً » ، فقالَ يا رسولَ اللهِ ؛ عزفَتْ نفسي عنِ الدنيا ؛ فأسهرْتُ ليلي ، وأظمأْتُ نهاري ، فكأنِّي بعرشِ ربِّي بارزاً ، وكأنِّي أنظرُ إلىٰ أهلِ الجنَّةِ يتزاورونَ فيها ، وكأنِّي أنظرُ إلىٰ أهلِ النارِ يتعاوَوْنَ فيها ، فقالَ : « أَبْصَرْتَ فَٱلْزَمْ ، عَبْدٌ نَوَّرَ ٱللهُ ٱلإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ »

قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ لي بالشهادةِ ، فدعا لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فنُوديَ يوماً في الخيلِ : يا خيلَ اللهِ اركبي ، فكانَ أوَّلَ فارسٍ ركبَ ، وأوَّلَ فارسٍ استُشهدَ ، فبلغَ أمَّهُ ذلكَ ، فجاءَتْ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ أخبرْني عنِ ابني حارثةَ ؛ فإنْ يكُ في الجنَّةِ فلن أبكيَ ولن

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٥٥) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ١٥٥) عن عبد الله بن مسور ـ وهو من ولد سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ـ مرسلاً .

أجزعَ ، وإنْ يكُ غيرَ ذلكَ بكيتُ ما عشتُ في الدنيا ، فقالَ : « يَا أُمَّ حَارِثَةَ ؛ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ ، وَلَـٰكِنَّهَا جَنَّةٌ فِي جِنَانٍ ، وَحَارِثَةُ فِي ٱلْفِرْدَوْسِ ٱلْأَعْلَىٰ » ، فرجعَتْ وهي تضحكُ وتقولُ : بخٍ بخٍ لكَ يا حارثُ[1]

ورَوىٰ أنسٌ أيضاً : أنَّ معاذَ بنَ جبلٍ دخلَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهو يبكي ، فقالَ لهُ : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا مُعَاذُ ؟ » ، قالَ : أصبحتُ باللهِ مؤمناً ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ مِصْدَاقاً ، وَلِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً ، فَمَا مِصْدَاقُ مَا تَقُولُ ؟ » ، قالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ ما أصبحتُ صباحاً قطُّ إلا ظننتُ أنْ لا أُمسي ، وما أمسيتُ مساءً قطُّ إلا ظننتُ أنْ لا أُصبحُ ، ولا خطوتُ خَطوةً قطُّ إلا ظننتُ أنْ لا أُتْبِعُها أخرىٰ ، وكأنِّي أنظرُ إلىٰ كلِّ أمَّةٍ جاثيةً تُدعىٰ إلىٰ كتابِها ، معَها نبيُّها ، وأوثانُها التي كانَتْ تُعبدُ مِنْ دونِ اللهِ ، وكأنِّي أنظرُ إلىٰ عقوبةِ أهلِ النارِ ، وثوابِ أهلِ الجنَّةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عَرَفْتَ فَٱلْزَمْ »[2]

فهـٰذانِ الرجلانِ الفاضلانِ ؛ حارثةُ ومعاذُ بنُ جبلٍ الأنصاريَّانِ رضيَ اللهُ عنهما : لمَّا أشرقَ عليهما أنوارُ اليقينِ ، وتمكَّنَ مِنْ قلوبِهما أيَّ تمكينٍ . . صدرَ منهما ما صدرَ ، كما ذكرناهُ مِنْ فنونِ العِبَرِ ، وشاهدا أمرَ الدارينِ بمنزلةِ رَأْيِ العينِ ، فسلمَتْ أعمالُهما مِنَ العيوبِ والآفاتِ ، وحُفظا مِنَ الهفواتِ والسيئاتِ ، وطهرَتْ منهما الأسرارُ والقلوبُ ، وسارعا في كلِّ أمرٍ محبوبٍ ، وطارَتْ أرواحُهُما اشتياقاً إلىٰ لقاءِ الملكِ الواحدِ الفردِ ، وطابَتْ أنفسُهُما بالموتِ حتىٰ صارَ عندَهما أحلىٰ مِنَ الشَّهْدِ ، حبيبٌ جاءَ علىٰ فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندمَ ، وكذلكَ غيرُهما مِنَ الصحابةِ وكبارِ التابعينَ وأئمَّةِ الدينِ ، رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ[3]

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٠٦) واللفظ له .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤٢) .

(٣) سيورد المصنف أخباراً عن بعض الصحابة وكيف كان لقاؤهم لمولاهم ؛ ليبين أن ما حكاه عن سيدنا حارثة وسيدنا معاذ رضي الله عنهما . . ليس لهما من دون سائر الصحابة الكرام رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين .

وَلَقَدْ أَصَابَ مُعَبِّرٌ عَنْ حَالِهِمْ[1] فَـاسْمَـعْ مَقَـالاً صَـادِقـاً مَقْبُـولا
إِنَّ الأُلَىٰ مَاتُوا عَلَىٰ دِينِ الْهَوَىٰ وَجَدُوا الْمَنِيَّةَ مَنْهَلاً مَعْسُولا[2]

ورویٰ أنسُ بنُ مالكٍ : أنَّ حَرامَ بنَ مِلْحانَ ـ وهو خالُ أنسٍ ـ طُعِنَ يومَ بئرِ معونةَ في رأسِهِ ، فتلقىٰ دمَهُ بكفِّهِ ، ثم نضحَهُ علىٰ رأسِهِ ووجهِهِ وقالَ فُزْتُ وربِّ الكعبةِ[3]

وكانَ جبَّارُ بنُ سلمىٰ فيمَنْ حضرَ بئرَ معونةَ معَ عامرِ بنِ الطفيلِ ، ثم أسلمَ بعدَ ذلكَ ، فكانَ يقولُ ممَّا دعاني إلى الإسلامِ أنِّي طعنتُ رجلاً منهم ، فسمعتُهُ يقولُ : فزتُ واللهِ ، قالَ : قلتُ في نفسي : واللهِ ما فازَ ؛ أليسَ قتلتُهُ ؟! حتىٰ سألتُ بعدَ ذلكَ عن قولِهِ ، فقالوا : الشهادةُ ، فقلتُ : فازَ لعَمْرُ اللهِ[4]

المطعونُ ها هنا واللهُ أعلمُ : هو عامرُ بنُ فُهيرةَ رضيَ اللهُ عنهُ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في شأنِ الأمراءِ الثلاثةِ يومَ مؤتةَ : « أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ ، ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ » ، أظنُّهُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَاللهِ ؛ مَا يَسُرُّنِي أَنَّهُمْ عِنْدَنَا » ، أو قالَ : « مَا يَسُرُّهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا » ، وعيناهُ تذرِفانِ[5]

---

(١) في (أ ، ب) : (أجاب) بدل (أصاب)

(٢) البيتان من الكامل ، وأورد الثاني منهما الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (١/ ٣٣٠) ، وهو لعمرو بن قنان كما في « الموشیٰ » للوشاء (ص ٧١) ، وقد حُكَّتْ كلمة (الهویٰ) في (ج ، هـ) لتصير (الهدیٰ) ، والصواب المثبت ، وروىٰ البخاري (٤٧٨٨) ، ومسلم (١٤٦٤) من قول السيدة عائشة تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أُرىٰ ربَّكَ إلا يسارع في هواكَ) ، فلا يقتصر إطلاق الهویٰ على الشر ، والهویٰ هنا : الحبُّ الممزوج بالوفاء

(٣) رواه البخاري (٤٠٩٢) بلفظه هنا

(٤) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٣/ ٣٥٣) .

(٥) رواه البخاري (٢٧٩٨) .

فللهِ درُّهم ! لقد حازوا مرتبةً شريفةً ، ومنزلةً عاليةً منيفةً ، وتبّاً لأمثالِنا الذينَ عميَتْ بصائرُهم ، وأظلمَتْ سرائرُهم ، فحُجبَتْ عنها شموسُ المعارفِ ، ووقعنا في أوديةِ المهالكِ والمتالفِ ، واغتررنا بهـٰذهِ الدارِ الغرَّارةِ ، الفتَّانةِ السَّحَّارةِ ، فتشبثَتْ بمخالبِنا شباكُها ، وارتبكنا في مصايدِها وأشراكِها ، مِنْ غيرِ شعورٍ منَّا بحالِها ، وتزويرِ مُحالِها ، فكُنَّا في قصدِنا إليها ، وتعويلِنا عليها . . بمنزلةِ الظمآنِ لاحَ لهُ سرابٌ حسبَهُ ماءً ، فلمَّا جاءَهُ لم يجدْ فيهِ هناءً ولا غَناءً .

ثم معَ هـٰذا كلِّهِ ننتسبُ إلى الدينِ ، وندَّعي كمالَ المعرفةِ واليقينِ ، والدخولَ في غمارِ أولياءِ اللهِ المتقينَ ، معَ أنَّ أحدَنا لو خُيِّرَ بينَ حلولِ الحَيْنِ ، والبقاءِ في الدنيا معلَّقاً بأشفارِ العينِ . . لاختارَ البقاءَ فيها على هـٰذهِ الحالِ ، معَ كونِهِ لا يحدِّثُ نفسَهُ في طاعةٍ بازديادٍ ولا عن معصيةٍ بانتقالٍ .

وهـٰذهِ كلُّها أخلاقٌ يهوديَّةٌ ، لا تليقُ بمَنْ ينتسبُ إلى الملَّةِ المحمديَّةِ ؛ قالَ اللهُ تعالى مخبراً عن حالِ اليهودِ ، وكاشفاً لأسرارِهم ، وهاتكاً لأستارِهم : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٩٦] ، فلو لم ينهَ العاقلَ عن محبَّةِ البقاءِ في هـٰذهِ الدارِ ، ويأمرْهُ بإيثارِ دارِ القرارِ ؛ إلا تشبُّهُهُ باليهودِ الناقضينَ للعهودِ ، المتهاونينَ بأوامرِ المعبودِ . . لكانَ ذلكَ أبلغَ ناهٍ وآمرٍ ، فضلاً عمَّا وردَ في ذلكَ مِنْ مواعظَ وزواجرَ .

نزعَ اللهُ عن قلوبِنا حجابَ الغفلةِ والغرورِ ، وحمانا عن مشابهةِ كلِّ ظلومٍ وكفورٍ ، وحبَّبَ إلينا لقاءَهُ ، ورزقَنا ما رزقَ أولياءَهُ وأصفياءَهُ وأحبَّاءَهُ ، بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

الحكمة الحادية والأربعون بعد المئة (*)

مَا حَجَبَكَ عَنِ ٱللهِ وُجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ ؛ إِذْ لا شَيْءَ مَعَهُ ، وَلَـٰكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمُ وُجُودٍ مَعَهُ(1)

تقدَّمَ أنْ لا موجودَ سوى اللهِ تعالىٰ على التحقيقِ ، وأنَّ وجودَ ما سواهُ إنَّما هو وهمٌ مجرَّدٌ(2) ، فلا حاجبَ لكَ عنِ اللهِ تعالىٰ إلا توهُّمُ وجودِ ما سواهُ لا غيرُ ، والتوهُّماتُ باطلةٌ ، فلا حاجبَ لكَ عنِ اللهِ تعالىٰ إذاً

وقدِ استوفى المؤلفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ذكرَ جميعِ أنواعِ الاعتباراتِ في هـٰذا المعنىٰ قبلَ هـٰذا(3)

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (وأشبهُ شيءٍ بوجودِ الكائناتِ إذا نظرتَ إليها بعينِ البصيرةِ . . وجودُ الظِّلالِ ، والظِّلُّ لا موجودٌ باعتبارِ جميعِ مراتبِ الوجودِ ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات الوجود الحق ، وأنه ما في الوجود إلا الله تعالىٰ وأفعاله ، وإنما زادوا في الوجود ذكر الأفعال تلطُّفاً ؛ إذ أفعاله تعالىٰ حادثة ، فليس وجودها كوجوده ، بل وجوده سبحانه يتعالىٰ عن الإدراك ، وإلىٰ أن الممكن بالنظر إلىٰ ذاته لا وجود له عند العقلاء ، وإنما وجوده ثابت بالنسبة إلىٰ مُوجِده ابتداءً ومُمِدِّه بقاءً ، ولـٰكن الوهم يغلب فيظنُّ الظانُّ أن له وجوداً في نفسه ؛ كيف والعرض لا يبقىٰ زمانين ، ولا ثبوت للجوهر إلا بالعرض ؟!
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة : ٨٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أصدقُ كلمةٍ قالَها الشاعرُ كلمةُ لبيدٍ : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ » ، رواه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(1) في (هـ) وحدها : (موجودٍ) بدل (وجودٍ) .

(2) انظر (ص ٢١٩) .

(3) انظر (ص ٢٢٣) .

ولا معدومٌ باعتبارِ جميعِ مراتبِ العدمِ ، وإذا ثبتَتْ ظلِّيَّةُ الآثارِ لم تنسخْ أحديَّةَ المؤثِّرِ ، لأنَّ الشيءَ إنَّما يُشفعُ بمثلِهِ ، ويُضَمُّ إلىٰ شكلِهِ ؛ كذلكَ أيضاً مَنْ شهدَ ظِلِّيَّةَ الآثارِ لم تعوِّقْهُ عنِ اللهِ ؛ فإنَّ ظلالَ الأشجارِ في الأنهارِ ، لا تعوِّقُ السفنَ عنِ التسيارِ .

ومِنْ ها هنا يتبيَّنُ لكَ أيضاً : أنَّ الحجابَ ليسَ أمراً وجودياً بينَكَ وبينَ اللهِ ، ولو كانَ بينَكَ وبينَهُ حجابٌ وجوديٌّ للزمَ أنْ يكونَ أقربَ إليكَ منهُ ، ولا شيءَ أقربُ مِنَ اللهِ[(١)] ، **فرجعَتْ حقيقةُ الحجابِ إلىٰ توهُّمِ الحجابِ** ، فما حجبَكَ عنِ اللهِ وجودُ موجودٍ معَهُ[(٢)] ، وذلكَ كرجلٍ باتَ في مكانٍ وأرادَ البرازَ[(٣)] ، فسمعَ صوتَ الرياحِ مِنْ كوَّةٍ هناكَ ، فظنَّهُ زئيرَ الأسدِ ، فمنعَهُ ذلكَ عنِ البرازِ ، فلمَّا أصبحَ لم يجدْ هناكَ أسداً ، وإنَّما هو ريحٌ انضغطَ في تلكَ الكوَّةِ ، فما حجبَهُ وجودُ أسدٍ ، وإنَّما حجبَهُ توهُّمُ الأسدِ)[(٤)]

* * *

---

(١) قال سبحانه : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [قٓ : ١٦] ، وقد تأوَّلها الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٣/ ٤٥٠) فقال : (حبل الوريد أقرب أجزاء نفسه إلىٰ نفسه ، والمراد من ذلك : العلم والقدرة ، وأنه يسمع قولهم ، ولا يشكل عليه شيء من أمرهم ، وفي هـٰذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، ورَوح وسكون وأنس قلب لقوم)
وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣١١) : أن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما مرَّ بقاصٍّ وقد رفعوا أيديهم ، فقال : قطع الله هـٰذه الأيدي ، ويلكم ! إن الله تعالىٰ أقرب مما ترفعون ، هو أقرب إلىٰ أحدكم من حبل الوريد .

(٢) زاد في « لطائف المنن » : (إذ لا موجود معه ، وإنما حجبك توهم موجود معه) .

(٣) البراز : هو بفتح الباء : الفضاء الواسع ، وبكسرها : الغائط .

(٤) لطائف المنن (ص ١٦١) ، وقد ساق هـٰذا الكلام بعد نقله لقول الإمام الشاذلي : (كان لي صاحب كثيراً ما يأتيني بالتوحيد ، فقلت له : إن أردت التي لا لومَ فيها فليكن الفرق علىٰ لسانك موجوداً ، والجمع في باطنك مشهوداً) ، وقد صدق إذ قال : (لا لوم فيها) ، وفي هامش (أ) : (إلىٰ هنا انتهى السفر الأول بحول الله وقوته) .

الحكمة الثانية والثالثة والأربعون بعد المئة (*)

لَوْلا ظُهُورُهُ فِي ٱلْمُكَوَّنَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ إِبْصَارٍ .

لَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ لاضْمَحَلَّتْ مُكَوَّنَاتُهُ(١)

ظهورُ الحقِّ تعالىٰ مِنْ وراءِ حجابِ المكوَّناتِ . . هو الذي أوجبَ ظهورَها ، ووقوعَ الأبصارِ عليها(٢) ، ولولا وجودُ حِجابيَّتِها لم يقعْ عليها إبصارٌ ولتلاشَتْ ؛ لوجودِ التجلِّي الحقيقيِّ ؛ كما قالَ : (لو ظهرَتْ صفاتُهُ اضمحلَّتْ مكوَّناتُهُ) ، بل لم يكنْ هناكَ بصرٌ ولا إبصارٌ ولا مبصرٌ ، كما في الحديث « حِجَابُهُ ٱلنَّارُ ـ وفي روايةٍ ٱلنُّورُ ـ ، لَوْ كَشَفَ عَنْهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ مَنْ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ »(٣)

(*) ترجع هاتان الحكمتان اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وأن ظهورَ الحق للحادث حادثٌ ؛ لأنه من جملة أفعاله سبحانه ، وبه تعلم أنهم ما أرادوا بالظهور في الحوادث حلولَ القديم في الحادث ، بل خلْقَ إدراكٍ في العين الظاهرة والعين الباطنة (البصيرة) يُسمَّىٰ رؤيةً وعلماً خاصّاً ، وإنما امتنعت حقيقة الظهور ؛ لأنه لا ثبوت للحادث مهما علا مع القديم ؛ فالحوادث مشتركة في رتبة الإمكان الذاتي ، ويستحيل انقلاب أعيانها

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾ [فاطر : ٤١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣]، وقوله تعالىٰ في تجليات صفاته : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لولا أنَّ اللهَ قضىٰ لأهلِ الجنةِ الحياةَ والبقاءَ . . لماتوا فرحاً » ، رواه الترمذي (٣١٥٦) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(١) في (ج) وحدها : (اضمحلت) بدل (لاضمحلت) ، وهو موافق لما سيأتي في الشرح

(٢) ولذا قالوا : الخلْقُ معقول ، والحق مشهود ، وذلك عند أهل الكشف ، والحق معقول ، والخلق مشهود ، وذلك عند عامة أهل الإيمان

(٣) رواه مسلم (١٧٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المئة (*)

أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ ٱلْبَاطِنُ ، وَطَوَىٰ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ ٱلظَّاهِرُ .

مِنْ أسمائِهِ : الظاهرُ والباطنُ

فاسمُهُ الظاهرُ يقتضي بُطونَ كلِّ شيءٍ حتىٰ لا ظاهرَ معَهُ ، فينطوي حينَئذٍ وجودُ كلِّ شيءٍ(١)

واسمُهُ الباطنُ يقتضي ظهورَ كلِّ شيءٍ حتىٰ لا باطنَ معَهُ ، فيظهرُ إذْ ذاكَ وجودُ كلِّ شيءٍ

فالحقُّ تعالىٰ هو الموجودُ بكلِّ اعتبارٍ ، والحمدُ للهِ(٢)

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه (السلبية) وصفات المعاني ، فمولانا جل وعزَّ باطنٌ بصفات التنزيه ، وظاهر بصفات المعاني ، ولا سيما صفاتِ التأثير ، وما وقعت عين عند أهل الحق علىٰ غير مولاها ، وما بكت عين عارف إلا لعلمها بعجزها عن إدراكه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ أنتَ الأولُ فليسَ قبلَكَ شيءٌ ، وأنتَ الآخرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ ، وأنتَ الباطنُ فليسَ دونَكَ شيءٌ » ، رواه مسلم (٢٧١٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) قال حجة الإسلام الغزالي في « المقصد الأسنىٰ » (ص ٢٧٠) : (اعلم : أنه إنما خفي مع ظهوره لشدة ظهوره ، فظهوره سبب بطونه ، ونورُهُ هو حجابُ نورِهِ ، وكلُّ ما جاوز حدَّهُ انعكس إلىٰ ضدِّهِ) .

(٢) قال حجة الإسلام الغزالي في « مشكاة الأنوار » (ص ٥٥) : (الموجود الحق : هو الله تعالىٰ ، كما أن النور الحق هو الله تعالىٰ) ، ثم قال : (من هنا ترقى العارفون من حضيض المجاز إلىٰ يفاع الحقيقة ، واستكملوا معراجهم ، فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالىٰ) .

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المئة (*)

أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي ٱلْمُكَوَّنَاتِ ، وَمَا أَذِنَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَاتِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ ؛ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلِ (ٱنْظُرُوا ٱلسَّمَاوَاتِ) ، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [يونس : ١٠١] فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلإِفْهَامِ ، وَلَمْ يَقُلِ : (ٱنْظُرُوا ٱلسَّمَاوَاتِ) لِئَلا يَدُلَّكَ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلأَجْرَامِ(١)

أمرُ اللهِ تعالىٰ بالنظرِ في المكوَّناتِ ليسَ لذاتِها ؛ لأنَّ في ذلكَ البعدَ عنِ اللهِ تعالىٰ بالنظرِ إلىٰ ما سواهُ ، ولم يُبِحْ هـٰذا ، وإنَّما أمرَهم بذلكَ ليتوصَّلوا بنظرِهم فيها إليهِ ؛ لوجودِ ظهورِهِ فيها

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الفعل دالٌّ علىٰ وجود الفاعل ، وما سوى الله تعالىٰ فعلُهُ ، فهو دالٌّ عليه ، ومن حُجب بالفعل عن الفاعل فهو أعمى البصيرة ؛ إذ لا فعلَ بغير فاعلٍ عقلاً وعادة وشرعاً ، وأن الممكنات في نفسها لا وجود لها ، وإنما وجودها باستنادها للوجود الحق .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يسٓ : ٨١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « تفكَّروا في الخلْقِ ، ولا تفكَّروا في الخالقِ ؛ فإنَّكم لا تقدرونَ قدرَهُ » ، رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٢١٦/١) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

(١) كذا لفظ الحكمة في عامة النسخ ، وفي (ج) بعد قوله : (ولم يقل : انظروا السماوات) وقعت العبارة : (فتحَ لك باب الإفهام ، لئلا يدلَّك علىٰ وجودِ الأجرامِ) ، مع حذف (قل انظروا ماذا في السماوات) الثانية من سياق الحكمة ، ومشىٰ بعض الشرَّاح علىٰ أن (الإفهام) بفتح الهمزة ، وعليه تكون جمع (فَهْم)

والإشارةُ إلىٰ هـٰذا المعنىٰ : هي في قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] ، فالمعنى المقصودُ بـ (في) : وجودُ الظرفيةِ ، ومنها يُستفادُ ، وهو معنىٰ قولِهِ : (فتحَ لكَ بابَ الإفهامِ) ، فلو أسقطَها وقالَ : (انظروا السماواتِ) . . لكانَ منهُ دَلالةً علىٰ وجودِ الأجرامِ ، وهي أغيارٌ لهُ ، وفيها البُعْدُ عنهُ ، فكيفَ يدلُّ علىٰ ذلكَ وهو لم يأذنْ فيهِ ؟!

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (فما نُصبَتِ الكائناتُ لتراها ، ولـٰكن لترىٰ فيها مولاها ، فمرادُ الحقِّ منكَ أنْ تراها بعينِ مَنْ لا يراها ؛ تراها مِنْ حيثُ ظهورُهُ فيها ، ولا تراها مِنْ حيثُ كونيَّتُها)(١)

قالَ : ولنا في هـٰذا المعنىٰ [من الخفيف]

مَـا أُبِينَـتْ لَـكَ ٱلْعَـوَالِـمُ إلا ... لِتَـرَاهَـا بعَيْـنِ مَـنْ لا يَـرَاهَـا
فَٱرْقَ عَنْهَا رُقِيَّ مَنْ لَيْسَ يَرْضَىٰ ... حَـالَـةً دُونَ أَنْ يَـرَىٰ مَـوْلاهَـا(٢)

* * *

(١) لطائف المنن (ص ٥٠) .
(٢) لطائف المنن (ص ٥٠) .

الحكمة السادسة والأربعون بعد المئة (*)

ٱلْأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ ، وَمَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ

الأكوانُ مِنْ ذاتِها العدمُ المحضُ كما تقدَّمَ(١) ، وإنَّما حصلَ لها وصفُ الثبوتِ بإثباتِ اللهِ لها وجعْلِها أكواناً ، فالثبوتُ لها أمرٌ عرضيٌّ ، والحقُّ اللازمُ هو وجودُ أحديَّةِ اللهِ تعالىٰ .

والأحديَّةُ : مبالغةٌ في الوَحدةِ ، ولا تتحقَّقُ إلا إذا كانَتِ الوحدةُ بحيثُ لا يمكنُ أنْ يكونَ أشدُّ ولا أكملُ منها(٢) ، فمِنْ مقتضىٰ حقيقتِها محْوُ الأكوانِ وبطلانُها ؛

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن حقائق الأشياء ثابتة ، إلا أن ثبوتها لا من ذاتها ؛ فالممكن لا بد له من مرجِّح في وجوده وديمومته ، ولا بد أن يكون مرجِّحه ذاتيَّ الوجود ؛ لئلا يلزم الدور أو التسلسل ، ولهٰذا لو نظرنا في وجود الممكن ووجود الواجب.. لعلمنا أنه لا مقارنة بين الوجودين ، فليس مع وجودِ الله تعالىٰ وجودٌ لسواه عقلاً وشرعاً ؛ لأنك تقف عند وجوده في رتبة أحدية لا تقبل التشارك ؛ إذ إليه يرجع الأمر كله ، وإليه مصير كل ممكن ، فمن صحَّح وجودَ الأشياء لا يمكن أن يصحِّحَ وجودَه شيءٌ

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ لكَ الحمدُ ، أنتَ نورُ السماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ ، أنت قيَّامُ السماواتِ والأرضِ ، أنتَ ربُّ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ ، أنتَ الحقُّ ، ووعدُكَ حقٌّ ، وقولُكَ حقٌّ ، ولقاؤكَ حقٌّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، والساعةُ حقٌّ » ، رواه مسلم (٧٦٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) انظر (ص ٢١٩، ٢٢٣) ، وفي (د) وحدها (للأكوان) بدل (الأكوان) ، والأكوان عند المتكلمين أربعة الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، والمراد هنا : كل ما سوى الله تعالىٰ ، أو ما لازم هٰذه الأكوان مع نفي المجردات

(٢) قوله : (كان) هي تامة هنا

بحيثُ لا توجدُ ؛ إذْ لو وُجدَتْ لم تكنْ أحديَّةٌ ، ولكانَ في ذلكَ تعدُّدٌ واثنينيَّةٌ ، كما قيلَ [من مخلع البسيط]

رَبٌّ وَعَبْـــدٌ وَنَفْـــيُ ضِـــدٍّ ... قُلْـــتُ لَـــهُ لَيْـــسَ ذَاكَ عِنْـــدِي
فَقَـــالَ مَـــا عِنْـــدَكُـــمْ فَقُلْنَـــا ... وُجُـــودُ فَقْـــدٍ وَفَقْـــدُ وَجْـــدِ
تَـــوْحِيـــدُ حَـــقٍّ بِتَـــرْكِ حَـــقٍّ ... وَلَيْـــسَ حَـــقٌّ سِـــوَايَ وَحْـــدِي (١)

وأنشدوا : [من البسيط]

سِرٌّ سَرَىٰ مِنْ جَنَابِ ٱلْقُدْسِ أَفْنَانِي ... لَـٰكِنْ بِذَاكَ ٱلْفَنَا عَنِّي قَدَ ٱحْيَانِي
وَرَدَّنِـي لِلْبَقَـا حَتَّـىٰ أُعَبِّـرَ عَـنْ ... جَمَـالِ حَضْـرَتِـهِ لِكُـلِّ هَيْمَـانِ
وَطِـرْتُ فِـي مَلَكُـوتِ مِـنْ عَجَـائِبِـهِ ... لَـمْ أَلْـقَ غَيْـرَ وُجُـودٍ مَـا لَـهُ ثَـانِـي

وأنشدَ المؤلفُ لنفسِهِ في « لطائفِ المننِ » يوصي رجلاً مِنْ إخوانِهِ اسمُهُ حسنٌ ؛ فقالَ : [من الكامل]

حَسَـنٌ بِـأَنْ تَـدَعَ ٱلْـوُجُـودَ بِـأَسْـرِهِ ... حَسَـنٌ فَـلا يَشْغَلْـكَ عَنْـهُ شَـاغِـلُ
وَلَئِـــنْ فَهِمْـــتَ لَتَعْلَمَـــنَّ بِـــأَنَّـــهُ ... لا تَـرْكَ إِلا لِلَّـذِي هُـوَ حَـاصِـلُ
وَمَتَـىٰ شَهِـدْتَ سِـوَاهُ فَـٱعْلَـمْ أَنَّـهُ ... مِـنْ وَهْمِـكَ ٱلأَدْنَـىٰ وَقَلْبُـكَ ذَاهِـلُ
حَسْـبُ ٱلإِلَـٰـهِ شُهُـودُهُ لِـوُجُـودِهِ ... وَٱللهُ يَعْلَـمُ مَـا يَقُـولُ ٱلْقَـائِـلُ
وَلَقَدْ أَشَرْتُ إِلَى ٱلصَّرِيحِ مِنَ ٱلْهُدَىٰ ... دَلَّـــتْ عَلَيْـــهِ إِنْ فَهِمْـــتَ دَلائِـــلُ

---

(١) قوله (رب وعبد ونفي ضد) معناه : كيف يقول المتكلم أنْ لا ضدَّ له تعالىٰ ثم يثبت ما سواه ؛ من نحو عبدٍ وغيره ؟! والجواب : أن ذلك في مقام الفرق ، وهو مقام عامة الخلق ، فنفيهم للضدية يفيد أن الثابت مما سواه ثبوته علىٰ سبيل العرض الذي لا يبقىٰ زمانين .
وقوله : (وجود فقد وفقد وجد) أراد : أنه لا يرىٰ ما سواه تعالىٰ ، بل هو فاقد لذاته أيضاً ، وهـٰذا حال مصطلم في مقام الجمع .
وقوله : (توحيد حق بترك حق) هو علىٰ سبيل الاستفهام الإنكاري ؛ أي : لو كان ما سواه حقّاً لما تُرك ، فلذا جاء بالشطر الثاني للتأكيد .

وَحَدِيثُ كَانَ وَلَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَهُ[1] يَقْضِي بِهِ الآنَ اللَّبِيبُ الْعَاقِلُ
لا غَرْوَ أَنْ لا نِسْبَةَ مَثْبُوتَةٌ[2] لِيُذَمَّ ذُو تَرْكٍ وَيُحْمَدَ فَاعِلُ[3]

* * *

(١) هو ما رواه البخاري (٣١٩١) من حديث سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما ، ولفظه : « كانَ اللهُ ولم يكنْ شيءٌ غيرُهُ » .

(٢) قوله : (مثبوتة) هو اسم مفعول من الثلاثي (ثبت) وهو لازم ؛ فالأصل أن يشتق اسم المفعول من الرباعي (أثبت) فهو مُثْبَتٌ ، أو حذف الجار والمجرور ـ وهو (فيها) ـ وقدَّره

(٣) لطائف المنن (ص ١٤٥)

الباب الخامس عشر
في المدح والذمّ على الأحوال

الحكمة السابعة والأربعون بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

ٱلنَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ ، فَكُنْ أَنْتَ ذَامّاً لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُ مِنْهَا

ذمُّ العبدِ لنفسِهِ واحتقارُها لما يتحقَّقُ مِنْ عيوبِها وآفاتِها . . مطلوبٌ منهُ ؛ لأنَّ ذلكَ يؤدِّيهِ إلى الحذرِ مِنْ غرورِها وشرورِها ، فتصلحُ بذلكَ أعمالُهُ ، وتصدُقُ أحوالُهُ ، وإلا فسدَتْ عليهِ واعتلَّتْ ؛ لدخولِ الآفاتِ عليها

ولا يصدَّنَّهُ عن ذلكَ ثناءُ الناسِ عليهِ ومدحُهم لهُ ؛ لأنَّهُ يعلمُ مِنْ عيوبِ نفسِهِ ما لا يعلمُهُ غيرُهُ ، ثم إنَّهم لمَّا قاموا بحقٍّ ما يجبُ عليهم مِنَ المدحِ لهُ ، وحُسْنِ الظنِّ بهِ . . فينبغي هو أيضاً أنْ يقومَ بحقِّ ما يجبُ عليهِ ؛ مِنِ اتِّهامِ نفسِهِ ، وسوءِ اعتقادِهِ فيها

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الظنَّ إدراكٌ تتنازعه نسبتان ؛ الثبوت وعدمه ، بخلاف العلم المفيدِ لليقين ، فالظن لا يعوَّل عليه ، وإلىٰ أن الوجدانيات من جملة اليقينيات ، بل من أعلاها رتبةً ، ولا يتجاهلُها إلا جاهل أو معاند أو غافل

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس : ٣٦] ، وقوله تعالىٰ حكاية ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف : ٥٣] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف : ٢٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا رأيتم المدَّاحينَ فاحثوا في وجوهِهم الترابَ » ، رواه مسلم (٣٠٠٢) من حديث سيدنا المقداد بن الأسود رضي الله عنه .

قالَ بعضُهم : (مَنْ فرحَ بمدحٍ[1] فقد أمكنَ الشيطانَ أنْ يدخلَ في بطنِهِ)[2]

وقالَ آخرُ (إذا قيلَ لكَ نعمَ الرجلُ أنتَ ، فكانَ أحبَّ إليكَ مِنْ أنْ يُقالَ لكَ : بئسَ الرجلُ أنتَ . . فأنتَ واللهِ بئسَ الرجلُ)[3]

وقيلَ لبعضِ الصحابةِ : لن يزالَ الناسُ بخيرٍ ما أبقاكَ اللهُ فيهم ، فغضبَ وقالَ إنِّي لأحسبُكَ عراقياً[4]

وقالَ بعضُهم لمَّا مُدِحَ (اللهمَّ ؛ إنَّ عبدَكَ تقرَّبَ إليَّ بمقتِكَ ، فأشهدُكَ على مقتِهِ)[5]

وقالَ آخرُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْنا خيراً ممَّا يظنُّونَ ، ولا تؤاخذْنا بما يقولونَ ، واغفرْ لنا ما لا يعلمونَ)[6]

وقالَ الإمامُ الغزاليُّ (إنَّما كرهوا المدحَ خيفةَ أنْ يفرحوا بمدْحِ الخلْقِ وهم ممقوتونَ عندَ الخالقِ ، فكانَ اشتغالُ قلوبِهم بحالِهم عندَ اللهِ تعالىٰ يبغِّضُ إليهم مدْحَ الخلائقِ ؛ لأنَّ الممدوحَ هو المقرَّبُ عندَ اللهِ تعالىٰ ، والمذمومَ على الحقيقةِ هو المبعدُ عنِ اللهِ تعالى ، الملقىٰ في النارِ معَ الأشرارِ .

فهٰذا الممدوحُ إنْ كانَ عندَ اللهِ تعالىٰ مِنْ أهلِ النارِ فما أعظمَ جهلَهُ إذا فرحَ بمدحِ

---

(١) في (ج) وحدها زيادة : (نفسه) ، وهي ليست في الأصل المنقول عنه .

(٢) أورده الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٣٠٩) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٤) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ

(٣) أورده الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٣٠٩) ، وأورده بنحوه أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٤٧٤) عن سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢/ ١٤) ، والصحابي هو سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وإنما ذكر أهل العراق لمجازفتهم في المدح .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٨٩) .

(٦) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٣٤) ، وأن هـٰذا الدعاء توبة من المدح .

غيرِهِ ! وإنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ فلا ينبغي أنْ يفرحَ إلا بفضْلِ اللهِ وثنائِهِ عليهِ ؛ إذْ ليسَ أمرُهُ بيدِ الخلْقِ ، ومهما تحقَّقَ أنَّ الأرزاقَ والآجالَ بيدِ اللهِ تعالىٰ قلَّ التفاتُهُ إلىٰ مدحِ الخلقِ وذمِّهم ، وسقطَ مِنْ قلبِهِ حبُّ المدحِ ، واشتغلَ بما يهمُّهُ مِنْ أمرِ دينِهِ) انتهىٰ كلامُ الغزاليِّ[1]

* * *

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٦/ ٣١١)

الحكمة الثامنة والأربعون بعد المئة (*)

ٱلْمُؤْمِنُ إِذَا مُدِحَ ٱسْتَحْيَا مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ

المؤمنُ الحقيقيُّ : هو الذي لا يشهدُ مِنْ نفسِهِ صفةً محمودةً يستحقُّ بها أنْ يُمدحَ أو يُثنىٰ عليهِ ، وإنَّما يشهدُ ذلكَ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ ، فإذا أثنى الناسُ عليهِ وذكروا محاسنَهُ . . استحيا مِنَ اللهِ تعالى استحياءَ تعظيمٍ وإجلالٍ أنْ يُثنىٰ عليهِ بصفةٍ ليسَتْ منهُ[1] ، فيزدادُ بذلكَ مقتاً لنفسِهِ ، واستحقاراً لها ، ونفوراً عنها ، وتقوىٰ عندَهُ رؤيةُ إحسانِ اللهِ إليهِ ، وشهودُ فضلِهِ في إظهارِ المحاسنِ عليهِ .

وهـٰذا هو الشكرُ الذي بهِ ينالُ المزيدَ ، معَ سلامتِهِ مِنَ السكونِ إلىٰ ثناءِ العبيدِ

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أنه سبحانه أهلٌ أن يُستحيا منه ؛ فهو سبحانه المهيمن العليم السميع البصير الخبير الحفيظ الحسيب الرقيب الشهيد المحصي ، والعبد مع هـٰذه الأسماء بين خوف وحياء .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] ، وقوله تعالىٰ حكاية ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ [إبراهيم : ٣٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تطروني كما أطرَتِ النصارى ابنَ مريمَ ؛ فإنَّما أنا عبدُهُ ، فقولوا : عبدُ اللهِ ورسولُهُ » ، رواه البخاري (٣٤٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه

(١) انظر أنواع الحياء في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٩١) .

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المئة (*)

أَجْهَلُ ٱلنَّاسِ : مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِظَنِّ مَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ .

الاغترارُ بمدحِ الناسِ وثنائِهم غايةٌ في الجهلِ والغباوةِ ؛ وذلكَ مِنْ علاماتِ المقتِ ؛ لأنَّ المغترَّ بذلكَ تركَ يقينَهُ بنفسِهِ لظنِّ غيرِهِ بهِ ، وهو علىٰ كلِّ حالٍ أعلمُ بنفسِهِ .

وقد شبَّهَ الحارثُ المحاسبيُّ الراضيَ بالمدحِ بالباطلِ بمَنْ يُهزأُ بهِ ويُقالُ لهُ : إنَّ العذرةَ التي تخرجُ مِنْ جوفِكَ لها رائحةٌ كرائحةِ المسكِ ، وهو يفرحُ بذلكَ ويرضىٰ بالسخريةِ بهِ[1] .

قلتُ : ولا شكَّ أنَّ الذنوبَ والعيوبَ التي يعلمُها العبدُ مِنْ نفسِهِ أنتنُ وأقذرُ مِنَ العذرةِ التي تخرجُ مِنْ جوفِهِ ، ولا فرقَ بينَ الحالينِ ، إلا أنَّهُ في حالِ المدحِ يعلمُ أنَّ المادحَ لم يشاركْهُ في معرفةِ ذنوبِهِ وعيوبِهِ مشاركةَ ذلكَ المستهزئِ للمستهزَأِ بهِ في معرفةِ حالِ ما يخرجُ مِنْ جوفِهِ ، فهو بجهلِهِ وغباوتِهِ رضيَ بأنْ يكونَ لهُ في قلوبِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة (١٤٢) ، وإلىٰ أن من استبدل الظنَّ باليقين . . ما ترك من الجهل شيئاً .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم : ٢٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ الله كرِهَ لكم ثلاثاً : قيلَ وقالَ ، وإضاعةَ المالِ ، وكثرةَ السؤالِ » ، رواه البخاري (٢٤٠٨) ، ومسلم (٥٩٣) من حديث سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(١) قاله في « النصائح » المطبوع باسم « الوصايا » (ص١٧٣) .

العبيدِ الجاهلينَ بحالِهِ قدرٌ وجاهٌ ، مِنْ غيرِ مبالاتِهِ بسقوطِهِ مِنْ عينِ مولاهُ الذي يعلمُ مِنْ حالِهِ ما لا يعلمُهُ هو ولا غيرُهُ ؛ مِنْ حيثُ رضيَ بالمِدْحةِ وفرحَ بها ، ولم يقابلْ ذلكَ بالإباءِ والكراهةِ ، هـٰذا إذا كانَ المادحُ مِنْ أهلِ العلمِ والدينِ ، وأمَّا إنْ كانَ جاهلاً أو فاسقاً . فلا غباوةَ أعظمُ مِنَ الرضا بمدحِهم والفرحِ بهِ

قالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ : (تزكيةُ الأشرارِ هُجْنةٌ بكَ ، وحبُّهم لكَ عيبٌ عليكَ)[1]

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : إنَّ العامَّةَ يُثنُونَ عليكَ ، فأظهرَ الوحشةَ مِنْ ذلكَ وقالَ : لعلَّهم رأَوْا منِّي شيئاً أعجبَهم ، ولا خيرَ في شيءٍ يسرُّهم ويعجبُهم[2]

ويُروىٰ عن بعضِ الحكماءِ أنَّهُ مدحَهُ بعضُ العوامِّ ، فبكىٰ ، فقالَ لهُ تلميذُهُ : أتبكي وقد مدحَكَ ؟! فقالَ لهُ إنَّهُ لم يمدحْني حتىٰ وافقَ بعضُ خلقي خلقَهُ ؛ فلذلكَ بكيتُ[3]

فانظرْ هـٰذا ، فقد نبَّهَكَ هـٰذا الحكيمُ على العلَّةِ في ذلكَ

* * *

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ١٣٩) ، وزاد : (وهان عليك من احتاج إليك) .

(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (ص ٨٠) ، وروىٰ عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه مدحه رجل في وجهه ، فقال وهو يتهمه : (أنا دون ما قلت ، وفوق ما في نفسك) ، ثم قال (الواجب على العاقل : ألا يغترَّ بكلام العوام وثنائهم ، وألا يثق بعهودهم وإخائهم) .

(٣) أورده بنحوه الراغب الأصبهاني في « الذريعة » (ص١٨٣) ، وأورد القشيري في « رسالته » (ص ٥٨٧) لحمدون القصار قوله : (اصحب الصوفية ؛ فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير ، وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به)

الحكمة الخمسون بعد المئة (*)

إِذَا أَطْلَقَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ . . فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ .

المؤمنُ هو الذي لا يرىٰ نفسَهُ أهلاً لأَنْ يُمدحَ أو يُثنىٰ عليهِ ؛ لأَنَّ موجباتِ ذلكَ ليسَ لهُ منها شيءٌ كما تقدَّمَ(١)

فإذا أطلقَ اللهُ تعالىٰ ألسنةَ الناسِ بالثناءِ عليهِ ولا أهليةَ فيهِ لذلكَ . . فينبغي أنْ يعرفَ الحقَّ لأهلِهِ ، فيستعملَ نفسَهُ بالثناءِ على اللهِ بما هو أهلُهُ ؛ ليكونَ ذلكَ شُكراً لنعمةِ إطلاقِ الألسنةِ بالثناءِ عليهِ مِنْ غيرِ استحقاقٍ لذلكَ ولا ثبوتِ أهليَّةٍ

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ توحيد الأفعال من حيث الكم المنفصل ، فلا فاعل على الحقيقة إلا هو سبحانه ، فما من حميد قول أو فعل إلا وهو راجع لاسمه تعالى الحميد ، فعلى العبد أن يعلم هـٰذا ؛ لكي يُرجع الحق لأهله ، ويردَّ الأمانات إلىٰ أهلها

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ حكاية ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر ٥٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام للأسود بن سريع حينما قال له : يا رسول الله ؛ مدحت اللهَ بمدحة ومدحتك بمدحة ، قال : « هاتِ وابدأ بمدحةِ اللهِ » ، رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٢٤) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ٢٨٧) من حديثه رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٦٠٠) .

الحكمة الحادية والخمسون بعد المئة (*)

ٱلزُّهَّادُ إِذَا مُدِحُوا ٱنْقَبَضُوا ؛ لِشُهُودِهِمُ ٱلثَّنَاءَ مِنَ ٱلْخَلْقِ ، وَٱلْعَارِفُونَ إِذَا مُدِحُوا ٱنبَسَطُوا ؛ لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ

تقدَّمَ أنَّ الزهَّادَ في غَيبةٍ عنِ اللهِ تعالىٰ[1] ، فهم لا يشهدونَ إلا الخلْقَ ، فإذا مُدحوا وأُثنيَ عليهم شهدوا ذلكَ مِنَ الخلْقِ ، فانقبضوا عندَ ذلكَ ؛ لأنَّهم يخافونَ مِنْ فوتِ نصيبِهم مِنْ ربِّهم لأجلِ ما يتوقَّعونَ مِنَ الاغترارِ بذلكَ .

والعارفونَ حاضرونَ معَ ربِّهم ، فهم لا يشاهدونَ معَهُ غيرَهُ ، فإذا مُدحوا شهدوا

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات مقامي الجمع والفرق ، وهما حالتان وجدانيَّتانِ يجدهما العبد ؛ عند غلبة شهود الحقِّ في رتبة الأحدية في الجمع ، وغلبة شهود الحقِّ والخلق معاً في الفرق ، فالجمع : اعتقاد توحيد الأفعال وذوقه كشفاً ، والفرق : اعتقاد ذلك دون حال ، فيكون للأفعال المجازية قدْرٌ ومنزلة عند صاحبه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ حكاية : ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « جزاكِ اللهُ يا عائشةُ عنّي خيراً ، ما سررتِ مني كسروري منكِ » ، وكانت رضي الله عنها قد مدحته بقول أبي كبير الهذلي : (من الكامل)

ومبـرَّأً مـن كـلِّ غُبَّـرِ حيضـةٍ ... وفسـادِ مـرضعـةٍ وداءٍ مغيـلِ
فـإذا نظـرتَ إلـىٰ أسـرَّةِ وجهـهِ ... بـرقَـتْ كبـرقِ العـارضِ المتهلِّـلِ

رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٤٢٢) .

(١) انظر (ص ٥٢٩)

الثناءَ مِنْ ربِّهم ، فانبسطوا لذلكَ ، وكانَ ذلكَ مزيداً في حالِهم ومقامِهم ؛ لغيبتِهم عن أنفسِهم .

كانَ بعضُهم يُمدحُ وهو ساكتٌ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : وما عليَّ مِنْ ذلكَ ولستُ أغلطُ في نفسي ؟! بل لستُ في البينِ ، والمجري والمنشئُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ[1] .

وقيلَ هـٰذا المعنىٰ في الخبرِ المرويِّ « إِذَا مُدِحَ ٱلْمُؤْمِنُ رَبَا ٱلإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ »[2]

قالَ أبو طالبٍ المكيُّ (وفيهِ طريقٌ للعارفينَ ؛ أنْ يعلوَ الإيمانُ العليُّ إلى المولىٰ الأعلىٰ ، فيفرحُ بذلكَ لمولاهُ ، ويضيفُهُ إلىٰ سيدِهِ الذي تولاهُ ، فيردُّ الصنعةَ إلىٰ صانعِها ، ويشهدُ مِنَ الفطرةِ فاطرَها ، فيكونُ ذلكَ مدحاً للصانعِ ووصفاً للفاطرِ ، لا ينظرُ إلىٰ وصفِهِ ، ولا يعجبُ بنفسِهِ) انتهىٰ[3]

قلتُ : وللمؤلفِ قصائدُ في مدحِ شيخِهِ أبي العباسِ المرسيِّ ، وكانَ ينشدُها كثيراً بينَ يديهِ ، ويقعُ ذلكَ منهُ موقعاً عظيماً ، وكانَ يستعيدُ منهُ بعضَها ، ويقولُ لهُ في بعضِها أيَّدَكَ اللهُ بروحِ القدسِ[4] ؛ نحوَ ما كانَ يقولُهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لشاعرِهِ حسانَ بنِ ثابتٍ[5] ، معَ أنَّ حبَّ المدحِ عندَهم مِنَ الرذائلِ التي تشبهُ الفضائلَ

---

(١) قوله (وما علي من ذلك . . .) أراد : طالما أني أعلم حقيقة نفسي . . فالمدح لا يضرني ، فلست في مقام الفرق ، بل في مقام الجمع ، وفي (هـ) : (والمجزي والمثني) بدل (والمجري والمنشئ) .

(٢) كذا في « قوت القلوب » (١/ ٤٧٥) ، ورواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ١٧٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٩٧) من حديث سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما بلفظ « إذا مدح المؤمن في وجهه . . ربا الإيمان في قلبه »

(٣) انظر « قوت القلوب » (١/ ٤٧٥)

(٤) انظر « لطائف المنن » (ص ١٨٥)

(٥) رواه البخاري (٤٥٣) ، ومسلم (٢٤٨٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وبهٰذا النظرِ والشهودِ الجمعيِّ استقامَ لهم مِنْ مدحِهم لأنفسِهم وثنائِهم عليها ما لم يستقمْ لغيرِهم[(١)] ؛ كما وقعَ لجماعةٍ منهم ، وقد رُوِيَ في ذلكَ عن سيدي عبدِ القادرِ الجيلانيِّ[(٢)] ، وسيدي أبي الحسنِ الشاذليِّ[(٣)] ، وسيدي أبي العباسِ المرسيِّ[(٤)] ، وغيرِهم . . غيرُ شيءٍ ، معَ أنَّ ذلكَ معدودٌ عندَهم مِنَ الصدقِ القبيحِ ، وما ذلكَ إلا لما ذكرنا[(٥)] ، ولا يُتأوَّلُ ما وقعَ لهم مِنْ ذلكَ بما تأوَّلَ بهِ علماءُ الظاهرِ مدحَ يوسفَ لنفسِهِ وثناءَهُ عليها بغايةِ الحفظِ والعلمِ ؛ لعدمِ الحاجةِ إليهِ في هٰذا المقامِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ

وعلامةُ الصادقِ في حبِّ المدحِ ، وإنْ كانَ صاحبُ هٰذا المقامِ لا يحتاجُ إلىٰ علامةٍ : ألا يكرهَ ذمَّ الناسِ لهُ مِنْ حيثُ نسبةُ ذلكَ إليهم ؛ لأنَّهم مصرَّفونَ في قبضةِ القدرةِ ؛ فيسمحُ لهم ، ويصفحُ عنهم ، ولا يجدُ في قلبِهِ عليهم ، ولا يصلُ بشيءٍ مِنَ الأذىٰ إليهم ، كما قيلَ [من الرمل]

رُبَّ رَامٍ لِـي بِـأَحْجَـارِ ٱلأَذَىٰ ... لَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنَ ٱلْعَطْفِ عَلَيْهْ
فَعَسَـىٰ يَطَّلِـعُ ٱللهُ عَلَـىٰ ... فَـرَحِ ٱلْقَـوْمِ فَيُـدْنِينِي إِلَيْـهْ[(٦)]

* * *

---

(١) كأنه يريد : أن ما حكوه عن أنفسهم من مِدَحٍ وهم في مقام الجمع . . بقي لهم ، ولم يتحول عنهم ؛ إذ قلَّ أن يدعي امرؤٌ مقاماً إلا وسُلب حاله أو التمكين فيه .

(٢) في نحو قوله (قدمي هٰذه علىٰ رقبة كلِّ وليٍّ) ، وانظر توجيهه في « نشر المحاسن الغالية » (ص ٢٨٩)

(٣) في نحو قوله : (واللهِ ؛ لقد جئت في هٰذا الطريق بما لم يأتِ به أحد) ، وانظر « لطائف المنن » (ص ٧٩) .

(٤) في نحو قوله : (واللهِ ؛ لقد قال لي الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : يا أبا العباس ؛ فيك ما في الأولياء ، وليس في الأولياء ما فيك) ، وانظر « لطائف المنن » (ص ١٨٦) .

(٥) من أنهم قالوا هٰذا في مقام الجمع

(٦) أوردهما الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/٦٠٢) ، وروى البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٧٤٠) عن سهل بن منصور قال رأيت الصبيان يرجمون بُهْلُولاً بالحصىٰ ، قال : =

الحكمة الثانية والخمسون بعد المئة (*)

مَتَىٰ كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطَكَ ٱلْعَطَاءُ ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ ٱلْمَنْعُ . . فَٱسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَىٰ ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِكَ ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ

القبضُ عندَ المنعِ والبسطُ عندَ العطاءِ مِنْ علاماتِ بقاءِ الحظِّ والعملِ علىٰ نيلِهِ ، وهو مناقضٌ للعبوديَّةِ عندَ العارفينَ ، فمَنْ وجدَ ذلكَ فليعرفْ بهِ عدمَ صدقِهِ في عبوديَّتِهِ ، وأنَّهُ طفيليٌّ بينَ أهلِ اللهِ تعالىٰ في ادِّعائِهِ مقاماتِهم وهو لم يُؤهَّلْ لها

والطفيليُّ هو الذي يأتي إلى الولائمِ والضيافاتِ فيدخلُ معَ أهلِها مِنْ غيرِ دعوةٍ ، وهو منسوبٌ إلىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ الكوفةِ مِنْ بني عبدِ اللهِ بنِ غطفانَ كانَ يُقالُ

= فوقعت به حصاة أدمته ، فأنشأ يقول : (من الرمل)

حسبـي اللهُ تـوكلـتُ عليـهْ ... مَـنْ نـواصي الخلْـقِ طُـرّاً بيـديـهْ
ليـسَ للهـاربِ مِـنْ مهـربِـهِ ... أبـداً مِـنْ مهـربٍ إلا إليـهْ
رُبَّ رامٍ لـي بـأحجـارِ الأذىٰ ... لـم أجـدْ بُـدّاً مِـنَ العطـفِ عليـهْ

قلت : تعطف عليهم وهم يرجمونك ؟! فقال : اسكت ، لعل الله يطلع علىٰ غمي وشدة فرح هٰؤلاء ؛ فيهبني لهم ، أو يهبهم لي .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى اعتبار ميزان الشريعة ومِحَكِّ الحقيقة ، وأنه تعالىٰ لم يجعل العطاء أو المنع علامتين على القبول أو الردِّ ، بل هما من جملة الأسباب العادية التي لا أثر لها

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ * كَلَّا ﴾ [الفجر : ١٥-١٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الحمدُ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ » ، رواه أبو داود (٥٠٥٨) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما

لهُ : طفيلُ الأعراسِ ، وطفيلُ العرائسِ ، وكان يأتي الولائمَ مِنْ غيرِ أنْ يُدعىٰ لها[1] ، فشبَّهَ صاحبُ الكتابِ هـٰذا بهِ .

قالَ الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السلميُّ : (أكثرُ الخلْقِ معَ اللهِ تعالىٰ في أحوالِهم وإراداتِهم على الظنونِ ، ما تحقَّقَ منهم إلا القليلُ ؛ ألا تراهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ [يونس : ٣٦] ؟!)

فمَنْ تحقَّقَ في حالِهِ معَ اللهِ تعالىٰ غابَ عن كلِّ ما منهُ أو لهُ مِنَ الأحوالِ والأقوالِ والأفعالِ ؛ نظراً إلىٰ ما إليهِ مِنْ رعايةِ الحقِّ وحياطتِهِ وتولِّيهِ ، وكانَ للحقِّ مِنْ حيثُ الحقُّ لهُ ، لا مِنْ حيثُ هو للحقِّ ، ولـٰكنَّ أكثرَ العبيدِ يشيرونَ إليهِ بالمعرفةِ ، ويُظهِرونَ حالَ المحبَّةِ ، فإذا وردَ عليهم واردُ بلاءٍ أو خلافُ مرادٍ . . رجعَتْ نفوسُهم إلىٰ حدِّ الإشفاقِ عليها والاهتمامِ بها ، ونسوا ما ادَّعوا بهِ وما أشاروا إليهِ ، ولو كانوا للحقِّ مِنْ حيثُ الاستحقاقُ . . لنسوا في جنبِ ما أشاروا إليهِ جميعَ المواردِ[2] ، ساءَ أم سرَّ ؛ لأنَّ مَنْ حصَّلَ في ميدانِ الوصولِ لا تعترضُ عليهِ عارضةُ خلافٍ ، وأذهلَهُ حالُهُ عمَّا سواهُ .

*

---

(١) انظر « التطفيل وحكايات الطفيليين » للخطيب البغدادي (ص ٤٦) .

(٢) في (ج) : (المراد) بدل (الموارد) .

الباب السادس عشر

في أسباب التنصّل من الذّنوب

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلا يَكُنْ سَبَباً يُؤَيِسُكَ مِنْ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ ؛ فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ .

الاستقامةُ على العبوديةِ لا يناقضُها فعلُ الذنبِ على سبيلِ الفلتةِ والهفوةِ إذا جرى القدرُ عليهِ بذلكَ ، **وإنَّما يناقضُها الإصرارُ عليهِ**

فإذا وقعَ مِنَ العبدِ ذنبٌ فينبغي لهُ أنْ يبادرَ إلى التوبةِ منهُ ، ولا ييئسَ بسببِ وقوعِهِ فيهِ مِنَ الاستقامةِ معَ ربِّهِ ، ويرى أنَّهُ طردَهُ وأبعدَهُ رؤيةً توجبُ لهُ القنوطَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالى ، ولا ييئسَ مِنْ رَوْحِ اللهِ ؛ لأنَّهُ قد يكونُ ذلكَ الذنبُ آخرَ ذنبٍ قُدِّرَ عليهِ ، وقد وقعَ وفُرِغَ منهُ

* * *

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلى أن قبول التوبة من فضل الله تعالى على العبد ، ونفوذها شرعاً من باب صدق الوعد ، وإلى أن الذنب تعلقت به قدرة العبد كسباً ، وقدرة الله إيجاداً ، وذلك لِحكَمٍ عديدة ؛ منها : تعريف العبد بباطنه حتى يصلحه ؛ فما نشأ ذنب إلا عن سوء عقد ، وإلى أن باب التوبة للمؤمن مفتوح إلى ساعة نزع الروح

ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر ٥٣] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « ولو يعلمُ الكافرُ ما عندَ اللهِ مِنَ الرحمةِ.. ما قنطَ مِنْ جنتِهِ أحدٌ » ، رواه مسلم (٢٧٥٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المئة (*)

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بَابُ ٱلرَّجَاءِ . . فَٱشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ بَابُ ٱلْحُزْنِ . . فَٱشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ .

الرجاءُ والحزنُ : حالانِ عن مشاهدتينِ

فمَنْ أرادَ أنْ ينفتحَ لهُ بابُ الرجاءِ : فليشهدْ ما مِنَ اللهِ لهُ ؛ مِنَ الكرمِ والفضلِ ، والإسعافِ والألطافِ ، فيغلبُ عليهِ حينئذٍ حالُ الرجاءِ

ومَنْ أرادَ أنْ ينفتحَ لهُ بابُ الحزنِ : فليشهدْ ما منهُ إلى اللهِ تعالى ؛ مِنَ المخالفةِ والعصيانِ ، وسوءِ الأدبِ بينَ يديهِ ، فيغلبُ عليهِ حينَئذٍ حالُ الحزنِ

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الخير من الله تعالىٰ إيجاداً ونسبة ، وأن الشر من العبد نسبة ، ومن الله تعالىٰ إيجاداً وله الحجة علىٰ عبده ، وأنه تعالىٰ له تجليات علىٰ قلوب عباده علىٰ حسب أحوالهم ؛ فمن شهد مِنَنَهُ تعالىٰ تجلَّىٰ عليه بالرجاء ، ومن شهد أعماله المعلولة تجلَّىٰ عليه تعالىٰ بالحزن والحياء .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحىٰ : ٥] ، وأكثر آيات الرجاء مقترنة بالعمل ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ ﴾ [العنكبوت : ٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله يحب كلَّ قلبٍ حزينٍ » ، رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٥) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المئة (*)

رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ ٱلْقَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ ٱلْبَسْطِ ، ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾

تقدَّمَ أنَّ القبضَ يؤثِرُهُ العارفونَ على البسطِ[١] ؛ لما فيهِ مِنْ عدمِ حظِّ النفسِ ، ووجودِ قدرتِهم على الوفاءِ بآدابِهِ دونَ البسطِ ، وقد ينفتحُ لهم فيهِ مِنْ أبوابِ المعارفِ ما لا ينفتحُ لهم في البسطِ

فينبغي للعبدِ أنْ يعرفَ نعمةَ ربِّهِ تعالىٰ عليهِ في ليلِ القبضِ كما يعرفُها في إشراقِ نهارِ البسطِ ؛ كما يعلمُ أنَّ في الليلِ مِنَ المنافعِ ما ليسَ في النهارِ .

فليكلْ علمَ ذلكَ إلىٰ ربِّهِ ، وليحسنْ ظنَّهُ بهِ ؛ فإنَّهُ لا يدري أيُّهما أقربُ لهُ نفعاً ، كما أشارَ إليهِ بالآيةِ الكريمةِ

وتشبيهُ القبضِ بالليلِ ، والبسطِ بالنهارِ . . مجازٌ بديعٌ ، وقد تقدَّمَ نحوُهُ في كلامِ سيدي أبي الحسنِ[٢]

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن أفعال الله تعالىٰ كأحكامه لا تعلل ، وأن لله تعالىٰ ألطافاً للمؤمن خبأها له في كل عطاء وكل ابتلاء ، والله يفعل ما يشاء .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « عجباً لأمرِ المؤمنِ ؛ إنَّ أمرَهُ كلَّهُ خيرٌ » ، رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث سيدنا صهيب رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٤٢٦ ، ٤٢٨) .

(٢) انظر (ص ٤٣٢) .

الحكمة السادسة والخمسون بعد المئة (*)

مَطَالِعُ ٱلأَنْوَارِ : ٱلْقُلُوبُ وَٱلأَسْرَارُ

نجومُ العلمِ ، وأقمارُ المعرفةِ ، وشموسُ التوحيدِ . . مطالعُها وموضعُ شروقِها قلوبُ العارفينَ وأسرارُهم ، وهـٰذهِ هي الأنوارُ الحقيقيّةُ مِنَ المطالعِ الروحانيّةِ ، بخلافِ الأنوارِ الحسيّةِ .

قالَ في « لطائفِ المننِ » : واعلمْ أنَّ اللهَ سبحانَهُ إذا تولَّىٰ وليّاً صانَ قلبَهُ مِنَ الأغيارِ ، وحرسَهُ بدوامِ الأنوارِ ، حتىٰ لقد قالَ بعضُ العارفينَ إذا كانَ اللهُ سبحانَهُ قد حرسَ السماءَ بالكواكبِ والشُّهُبِ كي لا يُسترقَ السمعُ منها . . فقلبُ المؤمنِ أولىٰ بذلكَ ؛ لقولِ اللهِ تعالىٰ فيما يحكيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَمْ يَسَعْنِي أَرْضِي وَلا سَمَائِي ، وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِيَ ٱلْمُؤْمِنِ »[1]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ ربُّ العالمين ؛ عالم الملك ، وعالم الملكوت ، وعالم الجبروت ، وكما أنه تعالىٰ خلق في عالم الملك شموساً وأقماراً تشرق في سماء عالم الملك . . فكذلك خلق مثلها في عالم الملكوت ، وجعل القلوب مرقاة لهـٰذا العالم ، وجعل معرفته سبحانه وتعالىٰ بها ؛ إذ جلَّ ربُّنا أن تناله حواسُّنا ، التي هي من عالم الملك .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « أمَّا القلبُ الأجردُ : فقلبُ المؤمنِ ، سراجُهُ فيهِ نورُهُ » ، رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٧) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(١) كذا في « قوت القلوب » (١/ ٣٣٤) ، روىٰ أحمد في « الزهد » (ص ٨١) عن وهب بن منبه : أن الله عز وجل فتح السماوات لحزقيل ، حتىٰ نظر إلى العرش ـ أو كما قال ـ ، فقال حزقيل : سبحانك ما أعظمك يا رب ! فقال الله : إن السماوات والأرض لم تطق أن تحملني ، وضقن من أن=

فانظرْ رحمَكَ اللهُ هـٰذا الأمرَ الأكبرَ الذي أُعطيَهُ هـٰذا القلبُ حتىٰ صارَ لهـٰذهِ المرتبةِ أهلاً

ولهـٰذا قالَ الشيخُ أبو الحسنِ   لو كُشِفَ عن نورِ المؤمنِ العاصي لطبّقَ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، فما ظنُّكَ بنورِ المؤمنِ المطيعِ ؟!

ولقد سمعتُ شيخنا أبا العباسِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : لو كُشِفَ عن حقيقةِ الوليِّ لعُبِدَ ؛ لأنَّ أوصافَهُ مِنْ أوصافِهِ ، ونعوتَهُ مِنْ نعوتِهِ .

قالَ : ولقد أخبرَني بعضُ المريدينَ قالَ : صلَّيتُ خلفَ شيخي صلاةً ، فشهدتُ ما أبهرَ عقلي ؛ وذلكَ أنِّي شهدتُ بدنَ الشيخِ والأنوارُ قد ملأَتْهُ ، وانبثَّتِ الأنوارُ مِنْ وجودِهِ ، حتىٰ إنِّي لم أستطعِ النظرَ إليهِ ، قالَ   فلو كشفَ الحقُّ تعالىٰ عن مشرقاتِ أنوارِ قلوبِ أوليائِهِ . . لانطوىٰ نورُ الشمسِ والقمرِ مِنْ مشرقاتِ أنوارِ قلوبِهم ، وأينَ نورُ الشمسِ والقمرِ مِنْ أنوارِهم ؟! الشمسُ يطرأُ عليها الكسوفُ والغروبُ ، وأنوارُ قلوبِ أولياءِ اللهِ لا كسوفَ لها ولا غروبَ ؛ لذلكَ قالَ قائلُهم[1]   [من الخفيف]

إِنَّ شَمْسَ ٱلنَّهَارِ تَغْرُبُ بِٱللَّيْـ   ـلِ وَشَمْسُ ٱلْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ[2]

* * *

= تسعني ، وسعني قلبُ المؤمن الوادعِ اللين .

وروى الطبراني في « مسند الشاميين » (٨٤٠) من حديث سيدنا أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه مرفوعاً : « إنَّ للهِ آنيةً مِنْ أهلِ الأرضِ ، آنيةُ ربِّكم قلوبُ عبادِهِ الصالحينَ ، وأحبُّها إليهِ ألينُها وأرقُّها »

ثم اعلم : أن سعة كل شيء بحسب حقيقته وماهيته ، ولما كان القلب من عالم الملكوت ، وليس لعالم الملكوت مكان أو زمان . . كانت سعةَ القلب للرب سعة معرفة ، ومحلَّ تجليات عرفانية ، لا سعة حلول .

(١) انظر (ص ٤٨٠) .

(٢) لطائف المنن (ص ٥٢)

الحكمة السابعة والخمسون بعد المئة (*)

نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي ٱلْقُلُوبِ ، مَدَدُهُ ٱلنُّورُ ٱلْوَارِدُ مِنْ خَزَائِنِ ٱلْغُيُوبِ .

نورُ اليقينِ المستودعُ في القلوبِ يُستمدُّ ويتزايدُ ضياؤُهُ مِنَ النورِ الواردِ مِنْ خزائنِ الغيوبِ ؛ وهو نورُ الأوصافِ الأزليَّةِ ، كما ذكرناهُ عنِ الشيخِ أبي العباسِ المرسيِّ قبلَ هٰذا[(١)] ، وقد تقدَّمَ مِنْ كلامِ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (أنارَ الظواهرَ بأنوارِ آثارِهِ ، وأنارَ السرائرَ بأنوارِ أوصافِهِ)[(٢)] .

* *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أنه تعالىٰ خلق الخطرات كما خلق الحركات ، وتجلت أسماؤه وصفاته في طيات مصنوعاته .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لولا أنتَ ما اهتدينا » ، رواه البخاري (٢٨٣٦) ، ومسلم (١٨٠٣) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

(١) انظر (ص ٦١٥) .

(٢) انظر (ص ٤٨٠) .

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المئة (*)

نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ.

النورُ المدركُ بالحواسِّ يكشفُ لكَ بهِ عن آثارِهِ ؛ وهي الأكوانُ المحدثةُ ، وليسَ لكَ إلىٰ ذلكَ كبيرُ حاجةٍ إلا مِنْ حيثُ تستدلُّ بها على المؤثِّرِ

والنورُ المستودعُ في القلوبِ : يكشفُ لكَ بهِ عن أوصافِهِ الأزليَّةِ حتىٰ تراها عِياناً ، وفي هـٰذا غايةُ بغيتِكَ ، وبهِ شرفُ قدرِكَ ومنزلتِكَ ؛ إذْ بذلكَ تتحقَّقُ بالمعرفةِ ، وترتفعُ بالمشاهدةِ ، ولا تحتاجُ إلىٰ دليلٍ يدلُّكَ

وهـٰذا فرقُ ما بينَ النورينِ ، قالَ في « لطائفِ المننِ » نورُ الشمسِ تشهدُ بهِ الآثارَ ، ونورُ اليقينِ تشهدُ بهِ المؤثِّرَ ، ولنا في هـٰذا المعنىٰ [من الخفيف]

هَـٰذِهِ ٱلشَّمْسُ قَابَلَتْنَا بِنُورٍ ... وَلَشَمْسُ ٱلْيَقِينِ أَبْهَرُ نُورَا
فَرَأَيْنَا بِهَـٰذِهِ ٱلنُّورَ لَـٰكِنَّـا(1) بِهَاتِيكَ قَدْ رَأَيْنَا ٱلْمُنِيرَا(2)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن النور ترجع حقيقته إلىٰ إدراك الموجود ، وعليه : فلكل موجود نور يدرك به ؛ فالآثار الحسية تدركها الحواس بأنوار حسية تليق بها ، والأوصاف الأزلية القديمة تدركها الأسرار بأنوار اليقين الملكوتية ؛ إذ العقل والنقل قاضيان بإجلال الله تعالىٰ عن إدراك الحواس ، بل وتنزيهه عن إدراك البصائر الإدراكَ اللائق به ، فما عرف القديم إلا القديم سبحانه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف : ٥٧] ، وقوله تعالىٰ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر ٦٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور : ٣٥] وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ خلقَهُ في ظلمةٍ ، فألقىٰ عليهم مِنْ نورِهِ ، فمَنْ أصابَهُ مِنْ ذلكَ النورِ اهتدىٰ » ، رواه الترمذي (٢٦٤٢) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

(١) رسمت (لـٰكنَّا) في جميع النسخ : (لـٰكن) بالشطر الأول ، والتصحيح من « اللطائف »

(٢) لطائف المنن (ص ٥٣)

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المئة (*)

رُبَّمَا وَقَفَتِ ٱلْقُلُوبُ مَعَ ٱلأَنْوَارِ ، كَمَا حُجِبَتِ ٱلنُّفُوسُ بِكَثَائِفِ ٱلأَغْيَارِ .

القلوبُ نورانيَّةٌ ؛ فتحتجبُ بوقوفِها معَ لطائفِ الأغيارِ النورانيَّةِ ؛ مِنَ العلومِ والمعارفِ

والنفوسُ ظلمانيَّةٌ ؛ فتحتجبُ بمحبَّتِها لكثائفِ الأغيارِ الظلمانيَّةِ ؛ مِنَ العاداتِ والشهواتِ .

فالقلوبُ محجوبةٌ بالأنوارِ ، كما أنَّ النفوسَ محجوبةٌ بالظلماتِ ، **والحقُّ وراءَ ذلكَ كلِّهِ** .

قالَ أبو الحسنِ الشُّشْتَرِيُّ في قصيدتِهِ النونيَّةِ(١) [من الطويل]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات الحُجُب في عالم الملكوت ؛ كثبوتها في عالم الملك ، وهي قضايا خبرية ، جاء بها الصادق المصدوق المؤيد بالمعجزات ، فوجب تصديقها شرعاً وعقلاً بواسطته بعد التجويز ، فالملتفت لغير الله تعالىٰ أيّاً كان سبب التفاته . . محجوب عن الله سبحانه بما التفت إليه ، وإلىٰ إثبات التغاير بين القلب والنفس ؛ وهو مذهب الحكيم الترمذي والقشيري ، خلافاً لحجة الإسلام الغزالي ، وإلىٰ أن العبد كما يُحجب بالظُّلَم يحجب بالأنوار ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « قال الله تباركَ وتعالىٰ أنا أغنى الشركاءِ عن الشركِ » ، رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) انظر « ديوانه » (ص ٧٢)

تَقَيَّدْتَ لِلأَوْهَامِ لَمَّا تَدَاخَلَتْ[1] عَلَيْكَ وَنُورُ ٱلْعَقْلِ أَوْرَثَكَ ٱلسِّجْنَا
وَهِمْتَ بِأَنْوَارٍ فَهِمْنَا أُصُولَهَا وَمَنْبَعَهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا
وَقَدْ تَحْجُبُ ٱلأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَمَا تُبَعِّدُ مِنْ إِظْلامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنَا[2]

*

(١) في « الديوان » : (بالأوهام) بدل (للأوهام) .
(٢) في « الديوان » : (تقيد) بدل (تبعد) .

الحكمة الستون بعد المئة (*)

سَتَرَ أَنْوَارَ ٱلسَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ ٱلظَّوَاهِرِ ؛ إِجْلالاً لَهَا أَنْ تُبْتَذَلَ بِوُجُودِ ٱلإِظْهَارِ ، وَأَنْ يُنَادَىٰ عَلَيْهَا بِلِسَانِ ٱلِاشْتِهَارِ

أنوارُ السرائرِ إنَّما خفيَتْ عنِ العِيانِ بما سترَها مِنْ كثائفِ الظواهرِ ، معَ أنَّ الظهورَ التامَّ لا ينبغي أنْ يكونَ إلا لها ؛ لأنَّها رفيعةُ القدرِ ، جليلةُ الخطرِ ، فأجلَّها عنِ الابتذالِ لها بوجودِ إظهارِها ، وصانَها مِنْ أنْ يُنادىٰ عليها بلسانِ الاشتهارِ بينَ الأغيارِ ، فيكونَ ذلكَ نوعاً مِنَ الإهانةِ بها

وقد تقدَّمَ مثلُ هـٰذا السَّترِ في قولِهِ (سبحانَ مَنْ سترَ سرَّ الخصوصيةِ بظهورِ البشريَّةِ)(١)

*

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمتان السابقتان ، وإلىٰ أن قدر الحوادث وتفاوتها فيما بينها . . راجعٌ لمحض اختيار الله تعالىٰ ، وقد جعل الحكيم الظواهر ستراً لأنوار السرائر ، ولو ظهرت لشاركت غيرها في الظهور ، وإنما يعظم العظيم بأنه مكنون .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « التقوىٰ ها هنا » وأشار إلىٰ صدره ، رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٥٠٢) ، وفي هامش (أ) : (بلغ الشيخ أبو بكر)

الباب السابع عشر
في أحكام الولاية والعناية

الحكمة الحادية والستون بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱلدَّلِيلَ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ إلا مِنْ حَيْثُ ٱلدَّلِيلُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إلا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ .

لا دليلَ على اللهِ سواهُ ، ولا وصولَ إليهِ بغيرِهِ ، وكذلكَ أولياؤُهُ .

ولمَّا كانَ الوصولُ إلى اللهِ تعالىٰ لا يكونُ إلا بالعنايةِ والخصوصيَّةِ ، ويستحيلُ أنْ يكونَ بطلبٍ وبسببٍ . . كانَ أولياؤُهُ المخصوصونَ بالقُرْبِ مِنهُ كذلكَ ؛ لما خلعَ عليهمُ الخِلَعَ العظيمةَ ، وتولاهم بمِنَنِهِ الجسيمةِ ، واصطفاهم لنفسِهِ ، واختصَّهم بمحبَّتِهِ وأُنْسِهِ ، وطهَّرَ أسرارَهم مِنْ أنجاسِ الأغيارِ ، وصانَ قلوبَهم بما أودعَ فيها مِنَ الأنوارِ والأسرارِ ، فكانوا لذلكَ ضنائنَهُ في عبادِهِ[1] ، وخباياهُ في بلادِهِ ، كما

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات الخصوصية لبعض عباد الله تعالىٰ غير الأنبياء والمرسلين ، وهي الولاية الخاصة ، وأنهم محط نظر الحق سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا مما يجب اعتقاده علىٰ كل مكلف .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : ٦٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢]، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ رجلاً يأتيكم مِنَ اليمنِ يقالُ له : أويسٌ ، لا يدعُ باليمنِ غيرَ أمٍّ لهُ ، قد كانَ بهِ بياضٌ ، فدعا اللهَ فأذهبَهُ عنهُ إلا موضعَ الدينارِ أوِ الدرهمِ ، فمَنْ لقيَهُ منكم فليستغفرْ لكم » ، رواه مسلم (٢٥٤٢) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

(١) روى ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٢)، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/ ٣٨٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٦) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ =

قالَ في بعضِ الإشاراتِ عنهُ سبحانَهُ : (أوليائي تحتَ قِبابي ، لا يعرفُهم أحدٌ غيري)[1]

وهٰذا مِنْ غيرتِهِ عليهم ؛ لأنَّ الحقَّ تعالىٰ أغيرُ علىٰ أوليائِهِ مِنْ أنْ يُظهرَهم إلىٰ مَنْ لا يعرفُهم ، فلم يجعلْ لأحدٍ دليلاً عليهم إلا مِنْ حيثُ الدليلُ عليهِ ، ولم يُوصِلْ إليهم إلا مَنْ أرادَ أنْ يُوصِلَهُ إليهِ ؛ لأنَّهُ يُلبِسُهم لباسَ التلبيسِ بينَ الأنامِ ، ويُظهِرُهم بما يحقِّرُهم في أعينِ الخواصِّ والعوامِّ ، فأنَّىٰ يكونُ لأحدٍ دليلٌ عليهم ، أو وصولٌ بسببٍ إليهم ؟!

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (فأولياءُ اللهِ أهلُ كهفِ الإيواءِ ، فقليلٌ مَنْ يعرفُهم .

قالَ : وقد سمعتُهُ ـ يعني : شيخَهُ أبا العباسِ ـ يقولُ : معرفةُ الوليِّ أصعبُ مِنْ معرفةِ اللهِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ معروفٌ بكمالِهِ وجمالِهِ ، وحتىٰ متىٰ تعرفُ مخلوقاً مثلَكَ يأكلُ كما تأكلُ ، ويشربُ كما تشربُ ؟!)[2]

قالَ فيهِ (وإذا أرادَ اللهُ أنْ يعرِّفَكَ بوليٍّ مِنْ أوليائِهِ . طوىٰ عنكَ وجودَ بشريَّتِهِ ، وأشهدَكَ وجودَ خصوصيَّتِهِ)[3]

وقالَ صاحبُ كتابِ « أنوارِ القلوبِ »[4] : (للهِ سبحانَهُ عبادٌ ضنَّ بهم على العامَّةِ ، وأظهرَهم للخاصَّةِ ، فلا يعرفُهم إلا شَكْلٌ مثلُهم[5] ، أو محبٌّ لهم ، وللهِ

= ضنائنَ مِنْ عبادِهِ ، يغذوهم في رحمتِهِ ، ويحييهم في عافيتِهِ ، إذا توفَّاهم توفَّاهم إلىٰ جنتِهِ ، أولـٰئكَ الذينَ تمرُّ عليهمُ الفتنُ كقطعِ الليلِ المظلمِ وهم منها في عافيةٍ » .

(١) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/٥٧٦) ، وانظر علة خفائهم في كلام سهل بن عبد الله التستري (ص ٦٢٧) في الحكمة الآتية .

(٢) لطائف المنن (ص ١٠٨)

(٣) لطائف المنن (ص ٧١) .

(٤) هو للإمام أبي القاسم عبد الرحمـٰن الصقلي المالكي ، وتقدم ذكره (ص ٥٢٥) ، وطبع هـٰذا الكتاب باسم : « الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار » .

(٥) **الشَّكْل** : الشبيه والموافق بوصفه وطبعه .

تعالىٰ عبادٌ ضنَّ بهم عنِ الخاصَّةِ والعامَّةِ[1] ، وعبادٌ أظهرَهم للخاصَّةِ والعامَّةِ ، ولله عبادٌ يظهرُهم في البدايةِ ، ويسترُهم في النهايةِ ، ولله عبادٌ يسترُهم في البدايةِ ، ويظهرُهم في النهايةِ ، ولله عبادٌ لا يظهِرُ حقيقةَ ما بينَهُ وبينَهم إلى الحفظةِ فمَنْ سواهم ، حتىٰ يلقونَهُ بما أودعَهم منهُ في قلوبِهم ، وهم شهداءُ الملكوتِ الأعلىٰ ، والصفحِ الأيمنِ مِنَ العرشِ ، الذينَ يتولَّى اللهُ قبضَ أرواحِهم بيدِهِ ، فتطيبُ أجسادُهم بهِ ، فلا يعدو عليها الثرىٰ حتىٰ يُبعثوا بها مشرقةً بنورِ البقاءِ المجعولِ فيهم ببقاءِ الأبدِ معَ الباقي الأحدِ عزَّ وجلَّ) انتهىٰ[2]

وقالَ أبو يزيدَ : (أولياءُ اللهِ تعالىٰ عرائسُ ، ولا يرى العرائسَ إلا مَنْ كانَ مَحْرَماً لهم ، وأمَّا غيرُهم فلا ، وهم مخدَّرونَ عندَهُ في حِجالِ الأُنْسِ ، لا يراهم أحدٌ في الدنيا ولا في الآخرةِ)[3]

وقالَ أبو عليٍّ الجوزجانيُّ : (**الوليُّ** : هو الفاني في جلالِهِ ، الباقي في مشاهدتِهِ ، تولَّى اللهُ سبحانَهُ سياستَهُ ، فتوالَتْ عليهِ أنوارُ التولِّي ، لم يكنْ لهُ عن نفسِهِ إخبارٌ ، ولا معَ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ قرارٌ)[4]

وفي الإشاراتِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ (إنَّما سمَّيْتُ الوليَّ وليّاً ؛ لأنَّهُ يليني دونَ ما سواي)[5] ، **فهم منزَّهونَ بتنزيهِ الحقِّ تعالىٰ لهم مِنْ أنْ يُوصَلَ إليهم بغيرِهِ** ، ولذلكَ صدَّرَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ كلامَهُ بالتسبيحِ .

* * *

---

(١) في (أ ، ب) زيادة هنا : (ولله عبادٌ ضنَّ بهم للخاصة والعامة) ، وقوله : (إلا شكل مثلهم) انظر كلمة سهل بن عبد الله الآتية (ص ٥٢٧) في معرفة الأولياء

(٢) انظر « الأنوار في علم الأسرار » (ص ٣٩) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٥٦)

(٤) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٥٥٧) .

(٥) كذا في « المواقف والمخاطبات » للنِّفَّري (ص ١٠٥) ، وزاد : (فهو بيتي الذي فيه أتكلم) ، وهو موقف أدب الأولياء .

الحكمة الثانية والستون بعد المئة (*)

رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَىٰ غَيْبِ مَلَكُوتِهِ ، وَحَجَبَ عَنْكَ ٱلِاسْتِشْرَافَ عَلَىٰ أَسْرَارِ ٱلْعِبَادِ .

مِنْ لطْفِ اللهِ تعالىٰ إخفاءُ أسرارِ الناسِ بعضِهم عن بعضٍ ، **لا سيما سرٌّ يقتضي وجودَ عيبٍ** ، وهو ظاهرُ ما ذكرَهُ المؤلفُ هنا ؛ بدليلِ الكلامِ الذي عقَّبَهُ بهِ[1] ، وقد يظهرُ لبعضِ الناسِ ما سوىٰ ذلكَ مِنَ الأسرارِ الملكوتيَّةِ ، ووجهُ الفرقِ بينَهما ما يذكرُهُ المؤلفُ الآنَ[2] .

ويحتملُ أنْ يريدَ ما هو أعمُّ ممَّا ذكرناهُ ، ويدخلُ في ذلكَ أسرارُ الولايةِ إذا اختصَّ الحقُّ تعالىٰ بها بعضَ عبادِهِ ، ويكونُ في ذلكَ تنبيهٌ على العلَّةِ الموجبةِ لخفاءِ الوليِّ ، حَسَبَ ما ذكرَهُ المؤلفُ في المسألةِ التي فرغنا منها[3] ؛

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ أن من ألطافه تعالى السترَ الظاهرَ والباطن ، وأنه تعالىٰ حكيم عليم ، رؤوف رحيم ، وإلىٰ أن الرؤية الملكوتية لا تتوقف على الأسباب العادية ، وكذا الحسية ، بل هي أثرٌ إدراكي يخلقه الله تعالىٰ بمحض إرادته ؛ فقد يأذن سبحانه برؤية البعيد ، ولا يأذن برؤية القريب .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : ٦٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ يدني المؤمنَ ، فيضعُ عليهِ كنفَهُ ويسترُهُ ، فيقولُ : أتعرفُ ذنبَ كذا ؟ أتعرفُ ذنبَ كذا ؟ فيقولُ : نعم أيْ ربِّ ، حتىٰ إذا قرَّرَهُ بذنوبِهِ ، ورأىٰ في نفسِهِ أنَّهُ هلكَ . قالَ : سترتُها عليكَ في الدنيا ، وأنا أغفرُها لك اليومَ » ، رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(١) يعني : الحكمة الآتية عقب هـٰذه الحكمة (ص ٦٢٩) .

(٢) انظر (ص ٦٢٩) .

(٣) انظر (ص ٢٣) .

حتىٰ يمتنعُ الوصولُ إليهِ بطلبٍ أو بسببٍ

وإخفاءُ ذلكَ أيضاً عن عامَّةِ المؤمنينَ مِنَ النعمِ العظيمةِ ؛ إذْ لو ظهرَتْ أسرارُ الولايةِ علىٰ أحدٍ لأوجبَتْ علىٰ مَنْ ظهرَتْ لهُ حقوقاً لا يقدرُ على القيامِ بما يجبُ منها ؛ فإنْ فرَّطَ في ذلكَ ، وتركَ القيامَ بتلكَ الحقوقِ رأساً . . وقعَ بسببِ ذلكَ في محذوراتٍ لا يقومُ لها شيءٌ

وقد فهمتُ هـٰذا المعنىٰ مِنْ كلامِ سهلِ بنِ عبدِ اللهِ وقد سألَهُ بعضُ تلامذتِهِ كيفَ تعرفُ أولياءَ اللهِ ؟ فقالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ لا يعرِّفُهم إلا لأشكالِهم ، أو مَنْ أرادَ أنْ ينفعَهُ بهم ، ولو أظهرَهم حتىٰ يعرفَهمُ الناسُ لكانوا حجَّةً عليهم ، ومَنْ خالفَهم بعدَ علمِهِ بهم كفرَ ، ومَنْ قعدَ عنهم حَرِجَ ، ولـٰكنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ اختيارَهَ تغطيةَ أمورِهم رحمةً منهُ لخلقِهِ ورأفةً ، ولـٰكنَّ اللهَ قد أخبرَ بكرامتِهم ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٨] ، فأفردَهم بهِ ، ولو أظهرَهم حتىٰ يبرزَهم لكانَ في النظرِ إليهم حجَّةٌ ، وكانَ الاستماعُ لحديثِهم فرضاً . انتهىٰ كلامُ سَهْلٍ

وفهمتُهُ أيضاً مِنَ الكلامِ الذي ذكرَهُ الشيخُ أبو طالبٍ في كتابِ (الشكرِ) ، قالَ فيهِ (ثم بعدَ ذلكَ : مِنْ لطائفِ النِّعَمِ شمولُ سترِهِ لهم بعضِهم مِنْ بعضٍ[1] ، ونشرُهم عندَ العلماءِ والصالحينَ منهم[2] ، ولولا ذلكَ لَمَا نظروا إليهم ، ثم حَجَبَ الصالحينَ عنهم ، ولو ظهرَ عليهم آياتٌ يُعرفونَ بها حتىٰ يكونَ الجاهلونَ علىٰ يقينٍ مِنْ ولايةِ اللهِ تعالىٰ لهم وقربِهِ منهم . . لبطلَ ثوابُ المحسنينَ إليهم ، ولحَرُمَ قبولُ إحسانِهم عليهم ، ولحبطَتْ أعمالُ المسيئينَ إليهم ؛ ففي حجبِ ذلكَ وسترِهِ ما يحملُ العاملينَ لهم في الخيرِ والشرِّ . . على الرجاءِ وحسنِ الظنِّ مِنْ وراءِ حجابِ

---

(١) والعبارة في مطبوعة « قوت القلوب » : (شمول ستره لهم ، وحجب بعضهم من بعض) .

(٢) في مطبوعة « قوت القلوب » و(ج ، د ، هـ) : (وسترهم) بدل (ونشرهم) .

اليقينِ[1] ، وتأخَّرَتْ عقوباتُ المؤذينَ لهم عنِ المعاجلةِ ؛ لما سترَ عليهم مِنْ عظيمِ شأنِهم عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ وجليلِ قدرِهم ، ففي سترِ هـٰذا نعمٌ عظيمةٌ على الصالحينَ في نفوسِهم مِنْ سلامةِ دينِهم وقلَّةِ فتنتِهم ، ونعمٌ جليلةٌ على المنتهكينَ لحرمتِهم المصغِّرينَ لشعائرِ اللهِ تعالىٰ مِنْ أجلِهم ؛ إذْ كانوا أساؤوا إليهم مِنْ وراءِ حجابٍ .

فهـٰذا هو لطْفٌ خفيٌّ مِنْ لطفِ المنعمِ الوهَّابِ ، كما جاءَ في الخبرِ : « مَنْ آذَىٰ لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِٱلْمُحَارَبَةِ ، ثُمَّ أَنَا ٱلثَّائِرُ لِوَلِيِّي »[2] ، فقد يكونُ مَثَلُ ذلكَ[3] : مَنْ آذىٰ نبيّاً وهو لا يعلمُ بنبوَّتِهِ قبلَ أنْ يُخبرَ أنَّهُ رسولُ اللهِ ، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ نبَّأَهُ ، فلا يكونُ وزرُهُ وزرَ مَنِ انتهكَ حرمةَ مَنْ كانَ أُعلمَ أنَّهُ نبيُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لعظيمِ حرمةِ النبيِّ) انتهىٰ ما ذكرَهُ الشيخُ أبو طالبٍ[4] ، والوجهُ الأوَّل أولىٰ في تقريرِ معنىٰ ما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ[5] ، واللهُ سبحانَهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) في (ج) و« قوت القلوب » : (ما عمل العاملون) بدل (ما يحمل العاملين)

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، بلفظ : « مَنْ عادىٰ لي وليّاً فقد آذنْتُهُ بالحربِ » ، وبلفظه هنا رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (١١٥) عن وهب بن منبه مرسلاً من خبر لسيدنا موسىٰ وهارون علىٰ نبينا وعليهما الصلاة والسلام

(٣) في « قوت القلوب » زيادة : (مَثَلُ) بعد اسم الإشارة .

(٤) انظر « قوت القلوب » (٢/ ٥٧١) .

(٥) وهو حمل الإخفاء علىٰ سرٍّ يقتضي وجود عيب ، لا علىٰ إخفاء أسرار الولاية وخصائصها .

الحكمة الثالثة والستون بعد المئة (*)

مَنِ ٱطَّلَعَ عَلَىٰ أَسْرَارِ ٱلْعِبَادِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِٱلرَّحْمَةِ ٱلإِلَـٰهِيَّةِ . . كَانَ ٱطِّلاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ ، وَسَبَباً لِجَرِّ ٱلْوَبَالِ إِلَيْهِ .

المطلعُ على الأسرارِ التي تقتضي وجودَ العيبِ إذا لم يتخلَّقْ صاحبُهُ بالرحمةِ الإلـٰهيَّةِ ؛ فيرحمَ المذنبينَ ، ويحلمَ على الظالمينَ ، ويصفحَ عنِ الجاهلينَ ، ويحسنَ إلى المسيئينَ ، ويرأفَ بعبادِ اللهِ تعالىٰ أجمعينَ . . فإنَّهُ يكونُ ذلكَ الاطلاعُ فتنةً عليهِ ؛ لأنَّ ذلكَ يؤدِّيهِ إلىٰ رؤيةِ نفسِهِ ، واستعظامِ أمرِها ، والعُجْبِ بعملِهِ ، والتكبُّرِ علىٰ غيرِهِ ، وهـٰذا هو أعظمُ الفتنةِ

ويكونُ أيضاً سبباً إلىٰ جرِّ الوبالِ إليهِ ؛ مِنِ ادِّعائِهِ لصفاتِ ربِّهِ ، ومنازعتِهِ لكبريائِهِ وعظمتِهِ ، وهـٰذا هو أعظمُ الوبالِ ، وغايةُ الخزْيِ والنكالِ

وفي بعضِ الأخبارِ المرويَّةِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا نُزِعَتِ ٱلرَّحْمَةُ إِلا مِنْ شَقِيٍّ »(١)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ قد يفتن بعض عباده بالاطلاع علىٰ شيء من أسرار خلقه ؛ فإن كان متخلِّقاً بالأسماء الإلـٰهية الرحمانية . . أشفق عليهم ودعا الله تعالىٰ لهم ، وإلا افتتن ورُدَّ إلىٰ أول السير .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حييٌّ ستِيرٌ ، يحبُّ الحياءَ والسَّترَ » ، رواه أبو داود (٤٠١٢) ، والنسائي (١/ ٢٠٠) من حديث سيدنا يعلى بن أمية رضي الله عنه

(١) رواه أبو داود (٤٩٤٢) ، والترمذي (١٩٢٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ٱلرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ، ٱرْحَمُوا مَنْ فِي ٱلأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ »(١)

وفي الإشاراتِ عنِ اللهِ تعالىٰ : (عبدي ؛ إنِ استخلفتُكَ شققتُ لكَ مِنَ الرحمانيَّةِ شِقّاً ، فكنتَ أرحمَ بالمرءِ مِنْ نفسِهِ)(٢)

وقد أدَّبَ اللهُ خليلَهُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ في بعضِ مواطنِهِ العظيمةِ المقدارِ ، وعلَّمَهُ كيفَ يتخلَّقُ بهٰذا الخُلُقِ الكريمِ عندَ اطلاعِهِ على الأسرارِ ؛ رُوِيَ عن قَسامةَ بنِ زهيرٍ أنَّهُ قالَ : بلغَني أنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ حدَّثَ نفسَهُ أنَّهُ أرحمُ الخلْقِ ، قالَ : فرفعَهُ اللهُ حتىٰ أشرفَ علىٰ أهلِ الأرضِ ، فأبصرَ أعمالَهم وما يعملونَ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ دمِّرْ عليهم ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : أنا أرحمُ بعبادي منكَ يا إبراهيمُ ، اهبطْ ، فلعلَّهم يتوبونَ ويرجعونَ(٣)

وعن عليٍّ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لَمَّا أَرَى ٱللهُ تَعَالَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ وٱلأَرْضِ . . أَشْرَفَ عَلَىٰ رَجُلٍ بِمَعْصِيَةٍ مِنْ مَعَاصِي ٱللهِ تَعَالَىٰ ، فَدَعَا ٱللهَ عَلَيْهِ فَهَلَكَ ، وَكَذَلِكَ عَلَىٰ آخَرَ وَآخَرَ فَهَلَكُوا ، فَأَوْحَى ٱللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ : أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ؛ إِنَّكَ مُسْتَجَابُ ٱلدَّعْوَةِ ، فَلا تَدْعُو عَلَىٰ عِبَادِي ؛ فَإِنَّهُمْ مِنِّي عَلَىٰ ثَلاثِ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ يَتُوبَ ٱلْعَبْدُ مِنْهُمْ إِلَيَّ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ، وَإِمَّا أَنْ أُخْرِجَ مِنْهُ نَسَمَةً تُسَبِّحُ لِي ، وَإِمَّا أَنْ يُبْعَثَ إِلَيَّ ؛ فَإِنْ شِئْتُ عَفَوْتُ عَنْهُ ، وَإِنْ شِئْتُ عَاقَبْتُهُ »(٤)

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١) ، والترمذي (١٩٢٤)

(٢) كذا في « المواقف والمخاطبات » للنفري (ص ٨)

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠٣)

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٢٧٤) ولـٰكن من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، ورواه أيضاً (٦٢٧٣) مرسلاً عن عطاء ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٤٨٠) ، وهناد في « الزهد » (١٤١٠) موقوفاً علىٰ سيدنا سلمان رضي الله عنه .

وقيلَ : إنَّ سببَ أمرِ اللهِ تعالىٰ لهُ بذبْحِ ولدِهِ هو لهـٰذا المعنى الذي ظهرَ منهُ مِنْ غلظتِهِ على العصاةِ ، وقلَّةِ رحمتِهِ لهم ؛ ذُكِرَ في بعضِ التفاسيرِ أنَّهُ عليهِ السلامُ كانَ يُعرجُ بهِ كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ ؛ وهو قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأنعام : ٧٥] ، فعُرِجَ بهِ ذاتَ ليلةٍ ، فاطَّلعَ على مذنبٍ على فاحشةٍ ، فقالَ اللهمَّ ؛ أهلكْهُ ، يأكلُ رزقَكَ ، ويمشي على أرضِكَ ، ويخالفُ أمرَكَ ؟! فأهلكَهُ اللهُ تعالىٰ ، فاطَّلعَ على آخرَ ، فقالَ : اللهمَّ ؛ أهلكْهُ ، فنُودِيَ : كُفَّ عن عبادي ، رويداً رويداً ؛ فإنِّي طالَما رأيتُهم عاصينَ .

فلمَّا أُهبطَ أُرِيَ في المنامِ ما ذكرَهُ اللهُ في كتابِهِ ؛ حيثُ يقولُ : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فلمَّا تشمَّرَ لذلكَ ، وأخذَ السكينَ بيدِهِ . . قالَ : اللهمَّ ؛ هـٰذا ولدي ، وثمرةُ فؤادي ، وأحبُّ الناسِ إليَّ ، فسمعَ قائلاً يقولُ : أما تذكرُ الليلةَ التي سألتَ إهلاكَ عبدي ؟! أوَما تعلمُ أنِّي رحيمٌ بعبادي كما أنتَ شفيقٌ بولدِكَ ؟! فإذا سألتَني إهلاكَ عبدي أسألْكَ ذبحَ ولدِكَ واحداً بواحدٍ ، والبادئُ أظلمُ[1]

❊

(١) حكاه البلوي في كتابه « ألف باء » (١/ ٤٥٠)

الحكمة الرابعة والستون بعد المئة (*)

حَظُّ ٱلنَّفْسِ فِي ٱلْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ ، وَحَظُّهَا فِي ٱلطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ ، وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَىٰ صَعْبٌ عِلَاجُهُ .

النفسُ شأنُها أبداً طلبُ الحظوظِ ، والفرارُ مِنَ الحقوقِ ، فهي لا تسعىٰ إلا في ذلكَ ولو في عملِها بالطاعاتِ ، فضلاً عنِ المعاصي ، ومَنْ حاسبَ نفسَهُ ، وراقبَ خواطرَهُ . . تبيَّنَ لهُ مصداقُ ذلكَ

وقد تجدُ مِنَ النشاطِ واللذَّةِ في نوعٍ مِنَ العبادةِ ما لا تجدُهُ في نوعٍ آخرَ ، وإنْ كانَ هـٰذا النوعُ الآخرُ أتمَّ فضيلةً منهُ ، وما ذاكَ إلا لأنَّ حظَّها فيهِ أكثرُ مِنَ الآخرِ ، **فأهلُ الخبرةِ والبصيرةِ يتَّهمون أنفسَهم إذا أَلِفَتْ باباً مِنْ أبوابِ العباداتِ** ؛ لمعرفتِهم بخدعِها ومكايدِها ، فيشوِّشونَ ذلكَ عليها ، وينتقلونَ منها

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تشريع التوبة والمجاهدة ، وإثبات المعاصي الظاهرة والباطنة ، ووجوب التوبة منها جميعاً مع التشديد في الباطنة ؛ لكونها كلها من الكبائر بخلاف الظاهرة علىٰ قول ، وإلىٰ أنه سبحانه إنما شرع الشرائع ليأتيَ العبد يومَ القيامة بقلب سليم ، قال تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧] .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « فمَنْ كانَتْ هجرتُهُ إلىٰ دنيا يصيبُها ، أوِ امرأةٍ ينكحُها . . فهجرتُهُ إلىٰ ما هاجرَ إليهِ » ، رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم : الرياءُ ، والشهوةُ الخفيَّةُ » ، رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٧/ ٢٨٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٤٠٥) من حديث سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنهما .

وقد حُكِيَ عن أبي محمدٍ المرتعشِ أنَّهُ قالَ : حججتُ كذا وكذا حجةً على التجريدِ ، فبانَ لي أنَّ جميعَ ذلكَ كانَ مشوباً بحظِّي ؛ وذلكَ أنَّ والدتي سألَتْني يوماً أنْ أستقيَ لها جرَّةَ ماءٍ ، فثقُلَ ذلكَ على نفسي ، فعلمتُ أنَّ مطاوعةَ نفسي في الحجَّاتِ كانَتْ بحظٍّ وشَوْبٍ مِنْ نفسي ؛ إذْ لو كانَتْ نفسي فانيةً لم يصعبْ عليها ما هو حقٌّ في الشرعِ[1]

فهٰذا ما يُبيِّنُ أنَّ حظَّ النفوسِ في الطاعةِ موجودٌ ، ولٰكنَّهُ خفيٌّ على العاملِ ، فلذلكَ تعسرُ مداواتُهُ ؛ لأنَّهُ يحتاجُ إلىٰ دقَّةِ فهمٍ ، ونفوذِ إدراكٍ ؛ ليتطلبَ بذلكَ آفاتِ نفسِهِ ، ولطائفَ خُدعِها ، وخفايا حظوظِها ، فيعملَ علىٰ تصفيةِ أعمالِهِ مِنْ ذلكَ ، فلا جرمَ إذْ كانَ ذلكَ متعذِّراً يجبُ عليهِ اتهامُ نفسِهِ ومخالفتُها في كلِّ ما تدعو إليهِ كائناً ما كانَ .

قالَ الشيخُ أبو بكرٍ الخفَّافُ : سمعتُ بعضَ مشايخِنا يقولُ : عن أحمدَ بنِ أرقمَ البلخيِّ قالَ : حدَّثَتْني نفسي بالخروجِ إلىٰ إسبيجابَ للغزوِ[2] ، فقلتُ : سبحانَ اللهِ ! إنَّ اللهَ يقولُ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] ، وهٰذهِ تأمرُني بالخيرِ ؟! لا يكونُ هٰذا أبداً ، ولٰكنَّها استوحشَتْ ، فتريدُ لقاءَ الناسِ لتستروحَ إليهم ، ويتسامعَ الناسُ بها فيستقبلونَها بالمبرَّةِ والتعظيمِ والإكرامِ

فقلتُ لها : لا أسلكُ العمرانَ ، ولا أنزلُ علىٰ معرفةٍ ، فأجابَتْ ، فأسأتُ ظنّاً بها وقلتُ : اللهُ أصدقُ قولاً ، فقلتُ لها : أقاتلُ القومَ حاسراً فتكوني أوَّلَ قتيلٍ[3] ، فأجابَتْ .

وعدَّ أشياءَ ممَّا أرادَها بهِ ، فأجابَتْ إلىٰ كلِّ ذلكَ ، قالَ : فقلتُ : يا ربِّ ؛ نبِّهْني لها ؛ فإنِّي لها متَّهِمٌ ، ولقولِكَ مصدِّقٌ ، فأُلهمتُ كأنَّها تقولُ لي : أنتَ تقتلُني

---

(١) حكاه القشيري في « رسالته » (ص ٣٠٩) .

(٢) إسبيجاب : مدينة من مدن خراسان .

(٣) قوله : (فتكوني) كذا في جميع النسخ المعتمدة ، وهي لغة مشهورة .

كلَّ يومٍ مرَّاتٍ بمخالفتِكَ إيَّايَ ومنْعِ شهواتي ولا يراني أحدٌ ، فإنْ قاتلتَ وقُتلتَ كانَتْ قَتلةً واحدةً ، فنجوتُ منكَ ، ويتسامعُ الناسُ فيُقالُ : استُشهدَ أحمدُ ، فيكونُ شرفاً لي وذكراً في الناسِ

قالَ : فقعدتُ ولم أخرجْ ذلكَ العامَ[1]

فهكذا خدعُ النفسِ وغرورُها ، أعاذَنا اللهُ مِنْ شرِّها ، وسيأتي مِنْ كلامِ المؤلفِ (إذا التبسَ عليكَ أمرانِ فانظرْ أثقلَهُما على النفسِ فاتبعْهُ ؛ فإنَّهُ لا يثقلُ عليها إلا ما كانَ حقّاً)[2]

* * *

---

(١) أورده الإمام الغزالي في « منهاج العابدين » (ص ١٤٤) .

(٢) انظر (ص ٧٤٣) .

الحكمة الخامسة والستون بعد المئة (*)

رُبَّمَا دَخَلَ ٱلرِّيَاءُ عَلَيْكَ ، حَيْثُ لا يَنْظُرُ ٱلْخَلْقُ إِلَيْكَ(١)

رياءُ العبدِ بالعملِ حيثُ يكونُ بمرأىً مِنَ الناسِ ظاهرٌ ، لا يحتاجُ إلىٰ أمارةٍ عليهِ ، ورياؤُهُ بعملِهِ حيثُ لا يراهُ أحدٌ أمرٌ خفيٌّ ، لا يُعرفُ إلا بالأماراتِ والعلاماتِ ، بل هو أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ(٢)

ومِنْ أماراتِهِ أنْ يلتمسَ بقلبِهِ توقيرَ الناسِ لهُ وتعظيمَهُ وتقديمَهُ في المحافلِ والمجالسِ ، ومسارعتَهم إلىٰ قضاءِ حوائجِهِ ، وإذا قصَّرَ أحدُهم في حقِّهِ الذي يستحقُّهُ عندَ نفسِهِ . استبعدَ ذلكَ واستنكرَهُ ، ويجدُ تفرقةً بينَ إكرامِهِ وإكرامِ غيرِهِ ،

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ سعة علم الله تعالىٰ ، وإلى اسميه العظيمين العليم والخبير ، وإلىٰ أن توحيد الله تعالىٰ بالفعل الذي هو صفةٌ للعبد لا يكون إلا بتحقيق الإخلاص .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] ، **وقوله تعالىٰ** ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة ٥] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لَلشركُ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ » ؛ ثم قال لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه « ألا أدلُّكَ علىٰ شيءٍ إذا قُلتَهُ ذهبَ عنكَ قليلُهُ وكثيرُهُ ؟ قُلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أشركَ بكَ وأنا أعلمُ ، وأستغفرُكَ لما لا أعلمُ » ، رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧١٦) من حديث سيدنا معقل بن يسار رضي الله عنه .

(١) كذا نصُّ الحكمة في جميع النسخ

(٢) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٣٤٢/٦) : (ومنهم من إذا سمع هـٰذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأىً من الناس ، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة ؛ حتىٰ إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير ، ويظنُّ أنه يتخلَّص به عن الرياء ، **وقد تضاعف به رياؤه ؛ فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً** ؛ فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ ، لا لخوف من الله وحياء منه) .

وإهانتِهِ وإهانةِ سواهُ ، حتىٰ ربَّما يُظهِرُ بعضُ سخفاءِ العقولِ ذلكَ علىٰ ألسنتِهم ؛ فيتوعَّدونَ مَنْ قصَّرَ في حقِّهم بمعاجلةِ اللهِ لهُ بالعقوبةِ ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يدعُهم حتىٰ ينتصرَ لهم ، ويأخذَ بثأرِهم !

فإذا وجدَ العبدُ هـٰذهِ الأماراتِ في نفسِهِ . . فليعلمْ أنَّهُ مراءٍ بعملِهِ وإنْ أخفاهُ عن أعينِ الناسِ .

وقد رُوِيَ عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للقرَّاءِ يومَ القيامةِ : ألم تكونوا يُرخَّصُ عليكمُ السعرُ ؟! ألم تكونوا تُبادَرونَ بالسلامِ ؟! ألم تكونوا تُقضىٰ لكمُ الحوائجُ ؟! وفي الحديثِ الآخرِ : لا أجرَ لكم ، قدِ استوفيتُم أجورَكم[1]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ روىٰ وهبُ بنُ منبهٍ : أنَّ رجلاً مِنَ العُبَّادِ قالَ لأصحابِهِ[2] : إنَّما فارقنا الأموالَ والأولادَ مخافةَ الطغيانِ ، فنخافُ أنْ يكونَ قد دخلَ علينا في أمرِنا هـٰذا مِنَ الطغيانِ أكثرَ ممَّا دخلَ علىٰ أهلِ الأموالِ في أموالِهم ؛ إنَّ أحدَنا إذا لُقِيَ أحبَّ أنْ يُعظَّمَ لمكانِ دينِهِ ، وإنْ سألَ حاجةً أحبَّ أنْ تُقضىٰ لهُ لمكانِ دينِهِ ، وإنِ اشترىٰ شيئاً أحبَّ أنْ يُرخَّصَ عليهِ لمكانِ دينِهِ

فبلغَ ذلكَ ملكَهم ، فركبَ في مركبِهِ مِنَ الناسِ ، فإذا السهلُ والجبلُ قدِ امتلأَ مِنَ الناسِ ، فقالَ السائحُ ما هـٰذا ؟ قيلَ هـٰذا الملكُ قد أظلَّكَ ، فقالَ للغلامِ : ائتني بطعامٍ، فأتاهُ ببقلٍ وزيتٍ وقلوبِ الشجرِ ، فأقبلَ يحشو شدقَهُ ويأكلُ أكلاً عنيفاً ، فقالَ الملكُ أينَ صاحبُكم ؟ قالوا : هـٰذا ، قالَ : كيفَ أنتَ ؟ قالَ : كالناسِ ـ وفي حديثٍ آخرَ : بخيرٍ ـ فقالَ الملكُ : ما عندَ هـٰذا مِنْ خيرٍ ، فانصرفَ عنهُ .

---

(١) أوردهما الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢١٢) ، ونقلهما الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٣٦٤) .

(٢) في « الرعاية » : (السيَّاح) بدل (العبَّاد) .

فقالَ السائحُ : الحمدُ للهِ الذي صرفَكَ عنِّي وأنتَ لي ذامٌّ[1]

ومِنْ هٰذا النوعِ مِنَ الرياءِ خافَ الكبارُ ، وعدُّوا أنفسَهم بسببِهِ مِنَ الأشرارِ

رُوِيَ عنِ الفضيلِ بنِ عياضٍ أنَّهُ قالَ : (مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ مراءٍ فلينظرْ إليَّ)[2] .

وسمعَ مالكُ بنُ دينارٍ امرأةً وهي تقولُ لهُ : يا مرائي ، فقالَ لها يا هٰذهِ ؛ وجدتِ اسمي الذي أضلَّهُ أهلُ البصرةِ[3]

ودخلَ رجلٌ علىٰ داودَ الطائيِّ ، فقالَ لهُ : ما حاجتُكَ ؟ قالَ : زيارتُكَ ، فقالَ أمَّا أنتَ فقد عملتَ خيراً حينَ زرتَ ، ولٰكنِ انظرْ ماذا ينزلُ بي أنا إذا قيلَ لي مَنْ أنتَ فتُزارَ ؟! أمِنَ الزهَّادِ أنتَ ؟! لا واللهِ ، أمِنَ العُبَّادِ أنتَ ؟! لا واللهِ ، أمِنَ الصالحينَ أنتَ ؟! لا واللهِ ، ثم أقبلَ يوبِّخُ نفسَهُ ويقولُ : كنتَ في الشبيبةِ فاسقاً ، فلمَّا كبرتَ صرتَ مرائياً ، واللهِ ؛ لَلْمرائي شرٌّ مِنَ الفاسقِ[4]

إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا رُوِيَ عنهم في هٰذا المعنىٰ .

ولا يسلمُ مِنَ الرياءِ الجليِّ والخفيِّ إلا العارفونَ الموحِّدونَ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ طهَّرَهم مِنْ دقائقِ الشركِ ، وغيَّبَ عن نظرِهم رؤيةَ الخلْقِ بما أشرقَ علىٰ قلوبِهم مِنْ أنوارِ اليقينِ والمعرفةِ ، فلم يرجوا منهم حصولَ منفعةٍ ، ولم يخافوا مِنْ قِبَلِهم وجودَ مضرَّةٍ ، فأعمالُ هٰؤلاءِ خالصةٌ وإنْ عملوها بينَ أظهرِ الناسِ وبمرأىً منهم

ومَنْ لم يحظَ بهٰذا ، وشاهدَ الخلقَ ، وتوقَّعَ منهم حصولَ المنافعِ ودفعَ المضارِّ . . فهو مراءٍ بعملِهِ وإنْ عبدَ اللهَ تعالىٰ في قُلَّةِ جبلٍ بحيثُ لا يراهُ أحدٌ ولا يسمعُ بهِ .

---

(١) أورده الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢١٢) ، ونقله الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٣٦٤) .

(٢) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٣٣٤)

(٣) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٣٣) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٣٩) .

(٤) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/ ٢٣)

وقد تقدَّمَ مِنْ قولِ يوسفَ بنِ الحسينِ الرازيِّ (أعزُّ شيءٍ في الدنيا الإخلاصُ ، وكم أجتهدُ في إزالةِ الرياءِ عن قلبي ، فكأنَّما ينبتُ علىٰ لونٍ آخرَ)[1]

* * *

---

(١) انظر (ص ١٩٧) .

تتمة : روى الترمذي (٢٣٨٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ الرجل يعمل العملَ فيسرُّهُ ، فإذا اطُّلعَ عليه أعجبه ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لهُ أجرانِ ؛ أجرُ السرِّ ، وأجرُ العلانية » .

قال الإمام الترمذي : (وقد فسَّرَ بعض أهل العلم هـٰذا الحديث فقال : « إذا اطُّلعَ عليه فأعجبه » فإنما معناه : أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنتم شهداءُ اللهِ في الأرضِ » ، فيعجبه ثناءُ الناس عليه لهـٰذا ؛ لما يرجو بثناء الناس عليه ، **فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ؛ ليكرم علىٰ ذلك ويعظَّم عليه . . فهـٰذا رياءٌ** ، وقال بعض أهل العلم : إذا اطُّلع عليه فأعجبه رجاء أن يُعملَ بعمله ، فيكونَ له مثل أجورهم . . فهـٰذا له مذهب أيضاً) .

الحكمة السادسة والستون بعد المئة (*)

ٱسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ ٱلْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ . . دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ .

الخصوصيّةُ ها هنا : ما اختصَّ الحقُّ سبحانَهُ بعضَ عبادِهِ ؛ مِنْ علمٍ نافعٍ ، وعملٍ صالحٍ

وصدْقُ العبوديّةِ فيهِ : أنْ يقنعَ بعلمِ اللهِ تعالىٰ فيهِ بحالِهِ ، ولا يتطلَّعَ إلىٰ أنْ يعرفَ بذلكَ أحدٌ مِنَ الخلقِ .

فيشغلُهُ حينَئذٍ الحياءُ مِنْ ربِّهِ والشكرُ لهُ عنِ الاستشرافِ إلىٰ معرفةِ الخلْقِ بذلكَ ، ويغارُ علىٰ حالِهِ مِنْ رؤيةِ الأغيارِ لهُ

ولهٰذا فُضِّلَ عملُ السرِّ علىٰ عملِ العلانيةِ بسبعينَ ضعفاً ، كما وردَ في الخبرِ عن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكم فليدهنْ رأسَهُ ، ويمسحْ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن من أخلص توحيده لربه ومولاه تعالىٰ ، وتحقق حالاً كما تحقق علماً بأنه لا فعَّال إلا الله ، وأنه عبده علىٰ كل حال . . لن يطيف في قلبه إلا ذكر ربه ، ولن يكون له همٌّ سواه سبحانه .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ حكاية : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « قالَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : أنا أغنى الشركاءِ عنِ الشركِ ، مَنْ عملَ عملاً أشركَ فيهِ معي غيري . . تركتُهُ وشركَهُ » ، تقدم (ص ٦١٨) .

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٤٥١) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

شفتيهِ ، فإذا خرجَ إلى الناسِ رأَوْا أنَّهُ لم يصمْ ، وإذا أعطىٰ فليعطِ بيمينِهِ ، وليخفِها عن شمالِهِ ، وإذا صلَّىٰ أحدُكم فليسدلْ عليهِ سترَ بابِهِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يقسمُ الثناءَ كما يقسمُ الرزقَ)[1]

وقد سُئِلَ حكيمٌ مِنَ الحكماءِ عن علامةِ الصادقِ ، فقالَ : كتمانُ الطاعةِ[2]

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ : (مَنْ أحبَّ أنْ يُعرفَ بشيءٍ مِنَ الخيرِ ويُذكرَ بهِ . . فقد أشركَ في عبادتِهِ ؛ لأنَّ مَنْ عبدَ على المحبةِ لا يحبُّ أنْ يرىٰ خدمتَهُ غيرُ مخدومِهِ)[3]

وقالَ الشيخُ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ : (كلُّ مَنْ لم يقنعْ في أفعالِهِ وأقوالِهِ بسمعِ اللهِ وبصرِهِ . . دخلَ عليهِ الرياءُ لا محالةَ)

وقالَ بعضُهم : (ما أخلصَ أحدٌ قطُّ إلا أحبَّ أنْ يكونَ في جُبٍّ لا يُعرفُ)[4]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : (مَنْ أحبَّ أنْ يطَّلعَ الخلْقُ علىٰ ما بينَهُ وبينَ اللهِ . . فهو غافلٌ)[5]

وقالَ أبو الخيرِ الأقطعُ : (مَنْ أحبَّ أنْ يطَّلعَ الناسُ علىٰ عملِهِ . . فهو مراءٍ ، ومَنْ أحبَّ أنْ يطَّلعَ الناسُ علىٰ حالِهِ . . فهو كذَّابٌ)[6]

وقالَ بعضُهم لمَنِ استوصاهُ : (لا تحبَّ أنْ تُعرفَ ، ولا تحبَّ أنْ تُعرفَ أنَّكَ ممَّنْ لا يحبُّ أنْ يُعرفَ)[7]

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٤٩٨) عن هلال بن يِساف رحمه الله تعالىٰ .
(٢) أورده السراج الطوسي في « اللمع » (ص ٢٨٨) .
(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٠٢)
(٤) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (١٣٩)
(٥) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٢١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢١١) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٧٧) .
(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٦٧) عن جمعٍ من الأبدال .

فعلى العبدِ إخفاءُ حالِهِ جهدَهُ ، وأنْ يبلغَ في كتمانِهِ أقصىٰ ما عندَهُ

قالَ الحسنُ : (أدركتُ أقواماً ما مِنْ أحدٍ منهم يستطيعُ أنْ يُسِرَّ شيئاً مِنْ عملِهِ إلا أسرَّهُ ، وإنْ كانَ الرجلُ ليجلسُ معَ القومِ وإنَّهُ لفقيهٌ وما يُعلمُ بهِ حتىٰ يقومَ ، ولقد أدركتُ أقواماً يأتي أحدَهمُ الزَّورُ فيقومُ فيصلي وما يشعرُ بهِ الزَّورُ[١] ، ولقد أدركتُ أقواماً وما مِنْ عملٍ يقدرونَ أنْ يعملوا للهِ سرّاً فيكونُ علانيةً أبداً ، ولقد أدركتُ أقواماً يجمعُ أحدُهُم القرآنَ وما يعرفُ بهِ جارُهُ ، ولقد أدركتُ أقواماً يجتهدونَ في الدعاءِ وما يسمعُهم أحدٌ)[٢]

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ (أدركتُ رجالاً كانَ الرجلُ يكونُ رأسُهُ معَ رأسِ امرأتِهِ علىٰ وسادةٍ واحدةٍ ، قد بلَّ ما تحتَ خدِّهِ مِنْ دموعِهِ ، لا تشعرُ بهِ امرأتُهُ ، ولقد أدركتُ رجالاً يقومُ أحدُهم في الصفِّ ، فتسيلُ دموعُهُ علىٰ خدَّيهِ لا يشعرُ بهِ الذي إلىٰ جنبِهِ)[٣] ، وفي روايةٍ عنهُ : (إنْ كانَ الرجلُ ليبكي عشرينَ سنةً وامرأتُهُ معَهُ لا تعلمُ)[٤]

فإنْ وقعَ منهُ إعلانٌ وإظهارٌ في وقتٍ ما . . فليشتغلْ حينَئذٍ بمراقبةِ قلبِهِ ، وصونِهِ عن أنْ يعملَ فيهِ الفرحُ باطِّلاعِ الناسِ علىٰ حالِهِ ، ولينكرْ ذلكَ علىٰ نفسِهِ ، وليكرهْهُ ولا يرضَهُ منها ، وليجاهدْ نفسَهُ في ذلكَ أشدَّ المجاهدةِ .

فإنْ خالفَ هـٰذا ، واستشرفَ إلىٰ معرفةِ غيرِ اللهِ بحالِهِ ، وغفلَ عن مجاهدةِ نفسِهِ في حالِ ظهورِ ذلكَ منهُ ولو في لحظةٍ . . خيفَ عليهِ أنْ يعملَ الفرحُ في قلبِهِ ، فيقعَ

---

(١) الزَّوْر : الزائرون ، ويقال أيضاً بوزان رُكَّع ، والمعنىٰ : يأتيه الزوّار ، فيُغيِّبُ عنهم طاعاته ، حتى الصلاة إذا صلاها لا يرونه متلبّساً بها .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٤٧٢) باختصار .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخلاص والنية » (٣٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٥٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٧) ، ولعله حدّث عن نفسه ؛ فإن مثل هـٰذه الأعمال لا يعلم بها إلا صاحبها .

عندَ ذلكَ في الفتنةِ ، فإنْ كانَ ضعيفَ الإرادةِ لم يسلمْ مِنَ الوقوعِ في الرياءِ الجليِّ والخفيِّ ؛ لأنَّ سببَهُ قدِ استثبتَ لهُ ، وإنْ كانَ قويَّ الإرادةِ ، سالكاً سبيلَ المعرفةِ . . لم يسلمْ مِنَ السكونِ والركونِ ، فيفقدُ حينَئذٍ الغيرةَ على الحالِ ، وينحطُّ بذلكَ عن ذروةِ الكمالِ ، ولهـٰذا كانَ إسقاطُ المنزلةِ عندَ الناسِ مِنْ ضروراتِ سالكي هـٰذهِ الطريقِ ؛ كما تقدَّمَ عندَ قولِهِ : (ادفنْ وجودَكَ في أرضِ الخمولِ)[1]

فإنْ تحقَّقَ العبدُ في المعرفةِ ، ومشاهدةِ الوحدانيَّةِ الصِّرْفةِ . . جازَ لهُ الإخبارُ بأعمالِهِ ، والإظهارُ لمحاسنِ أحوالِهِ ؛ بناءً منهُ على نفْيِ الغيرِ ، وأداءً لواجبِ حقِّ الشكرِ

كانَ بعضُ السلفِ يصبحُ فيقولُ صلَّيتُ البارحةَ كذا وكذا ركعةً ، وتلوتُ كذا وكذا سورةً ، فيُقالُ لهُ : أما تخشىٰ مِنَ الرياءِ ؟ فيقولُ : وهل رأيتم مَنْ يرائي بفعلِ غيرِهِ ؟![2]

وكانَ آخرُ يفعلُ مثلَ ذلكَ ، فيُقالُ لهُ : لِمَ لا تكتمُ ذلكَ ؟ فيقولُ : ألم يقلِ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ ١١] ؟! وأنتم تقولونَ : لا تحدِّثْ[3] !

فإنْ قصدَ مَنْ هـٰذا حالُهُ إلىٰ هدايةِ عبادِ اللهِ ، ودعائِهم إلى اللهِ تعالىٰ ، فأظهرَ أحوالَهُ وأعمالَهُ للاقتداءِ بهِ ، والاهتداءِ بهديهِ . . فهو خارجٌ عنِ النمطِ الأوَّلِ كلِّهِ ، وداخلٌ في حكمِ أهلِ المنزعِ الثاني ، وعلانيةُ هـٰذا أفضلُ مِنْ سرِّهِ ؛ لأنَّهُ سلمَ مِنَ الآفاتِ التي تعرَّضَ لها غيرُهُ ، وحصلَتْ منهُ الفوائدُ التي تضمَّنَها إظهارُهُ وجهرُهُ .

---

(١) انظر (ص ١٩٥) .

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٦٠)

(٣) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٦٠) ، وروى البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٦١٣) عن أبي إسحاق السبيعي قال : (يا معشر الشباب ؛ اغتنموا ، قلَّما تمرُّ بي ليلة إلا وأقرأ فيها ألف آية ، وإني لأقرأ « البقرة » في ركعة ، وإني لأصوم الأشهر الحرم ، وثلاثة أيام من كل شهر ، والاثنين والخميس) ، ثم تلا : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ : ١١] .

وقد جاءَ في الخبرِ « ٱلسِّرُّ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْعَلانِيَةِ ، وٱلْعَلانِيَةُ أَفْضَلُ لِمَنْ أَرَادَ ٱلِاقْتِدَاءَ »(١)

وهـٰذا أرجحُ الوجوهِ عندَ العلماءِ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرَّجلِ الذي سألَهُ عن فرحِهِ باطِّلاعِ الناسِ على بعضِ أعمالِهِ : « لَكَ أَجْرَانِ ؛ أَجْرُ ٱلسِّرِّ ، وَأَجْرُ ٱلْعَلانِيَةِ »(٢)

وقد فعلَ ما ذكرناهُ مِنْ إظهارِ الطاعةِ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ ، منعَنا مِنْ ذكرِ وقائعِهم خشيةُ الإطالةِ ، وكانَ ذلكَ منهم لأجلِ هـٰذا الغرضِ

ومقامُ هـٰذا العبدِ مقامُ النصحاءِ لعبادِ اللهِ ، والدعاةِ لهم إلى اللهِ ، فلا جرمَ أنْ كانَ لهُ الدرجاتُ العُلا عندَ اللهِ ؛ لأنَّهُ مِنْ أئمَّةِ المتقينَ للهِ ، وقد أخبرَ اللهُ تعالىٰ بجزائِهم ، وذكرَهُ عقيبَ دعائِهم بذلكَ ؛ فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ۞ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٥ـ٧٦] .

قالَ في « لطائفِ المننِ » (اعلمْ أنَّ مبنىٰ أمرِ الوليِّ على الاكتفاءِ باللهِ ، والقناعةِ بعلمِهِ ، والاغتناءِ بشهودِهِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] ، وقالَ سبحانَهُ : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، وقالَ ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

فمبنىٰ أمرِهم في بدايتِهم على الفرارِ مِنَ الخلْقِ ، والانفرادِ بالملكِ الحقِّ ، وإخفاءِ الأعمالِ ، وكتمِ الأحوالِ ؛ تحقيقاً لفنائِهم ، وتثبيتاً لزهدِهم ، وعملاً على

---

(١) رواه الحكيم الترمذي (١٤١٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٦١٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٤) ، وقد تقدم تعليقاً بتمامه ، مع تعليق الإمام الترمذي عليه (ص ٦٣٨)

سلامةِ قلوبِهم ، وحبّاً في إخلاصِ أعمالِهم لسيِّدِهم ، حتىٰ إذا تمكَّنَ اليقينُ ، وأُيدوا بالرسوخِ والتمكينِ ، وتحقَّقوا بحقيقةِ الفناءِ ، ورُدُّوا إلىٰ وجودِ البقاءِ . . فهناكَ إنْ شاءَ الحقُّ أظهرَهم ، وإنْ شاءَ سترَهم ، وإنْ شاءَ أظهرَهم هادينَ لعبادِهِ إليهِ ، وإنْ شاءَ سترَهم فاقتطعَهم عن كلِّ شيءٍ إليهِ .

وظهورُ الوليِّ ليسَ بإرادتِهِ لنفسِهِ ، لـٰكنْ بإرادةِ اللهِ تعالىٰ لهُ ، بل مطلبُهُ ـ إنْ كانَ لهُ مطلبٌ ـ الخفاءُ لا الجلاءُ ، كما قدمناهُ ، فلمَّا لم يكنِ الظهورُ مطلبَهم ، وأرادَ اللهُ سبحانَهُ إظهارَهم فأظهرَهم . . تولاهم في ذلكَ بتأييدِهِ ، وواردات مزيدِهِ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَا عَبْدَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بْنَ سَمُرَةَ ؛ لا تَطْلُبِ ٱلإِمَارَةَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا »[1]

ومَنْ تحقَّقَ منهم بالعبوديَّةِ للهِ تعالىٰ لم يطلبْ ظهوراً ولا خفاءً ، بل إرادتُهُ وقْفٌ على اختيارِ سيِّدِهِ لهُ .

وقالَ الشيخُ أبو العباسِ : مَنْ أحبَّ الظهورَ فهو عبدُ الظهورِ ، ومَنْ أحبَّ الخفاءَ فهو عبدُ الخفاءِ ، ومَنْ كانَ عبداً للهِ فسواءٌ عليهِ أظهرَهُ أو أخفاهُ) انتهىٰ[2]

* *

---

(١) رواه البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) من حديثه رضي الله عنه .

(٢) لطائف المنن (ص ٦٤) .

الحكمة السابعة والستون بعد المئة (*)

غَيِّبْ نَظَرَ ٱلْخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ ٱللهِ إِلَيْكَ ، وَغِبْ عَنْ إِقْبالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبالِهِ عَلَيْكَ

هـٰذا المعنىٰ هو حقيقةُ صدْقِ عبوديَّةِ العبدِ للهِ ؛ الذي أشارَ إليهِ مِنَ المسألةِ التي قبلَ هـٰذهِ[1] ؛ وهو ألا يكونَ لهُ شعورٌ بما مِنَ الخلقِ إليهِ مِنْ نظرٍ أو إقبالٍ ، ولا تشوفٌ إليهِ ولا طلبٌ لهُ ، وإنَّما يكونُ شعورُهُ وتشوُّفُهُ وطلبُهُ ما مِنَ اللهِ إليهِ ؛ مِنْ نظرِهِ إليهِ ، وإقبالِهِ عليهِ ، فيغيبُ أدنى الحالينِ بأعلاهما

وذلكَ بأنْ يعلمَ أنَّ ما مِنَ الخلْقِ إليهِ أمرٌ وهميٌّ باطلٌ ، ينقادُ إليهِ كلُّ ذي عقلٍ قاصرٍ ، يوجبُ لهُ هـٰذا الانقيادُ أنواعاً مِنَ الكبائرِ والرذائلِ ؛ مِنَ الانحطاطِ في أهواءِ الناسِ ، وتحسينِ مواقعِ نظرِهم منهُ بالتصنُّعِ والتزيُّنِ لهم ، وتربيةِ الجاهِ والحشمةِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الوجود الحق لله تعالىٰ وحده ، إذْ وجودُ ما سواه وجودٌ ظلّي إمكاني حادث ، وليس بين الوجودين إلا الاشتراك اللفظي عند المتكلمين ، وأن القلب إن اشتغل بشيء أعرض عمّا سواه ؛ لأنه كالمرآة لا يظهر فيها إلا ما يقابلها .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب : ٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٦١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا . . فهو في سبيلِ اللهِ » ، رواه البخاري (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « تحفةُ المؤمنِ الموتُ » ، رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٩) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(١) انظر (ص ٦٣٩) .

لديهم ، تكبُّراً وتعظُّماً عليهم ، ومعاشرتِهم بالنفاقِ والدِّهانِ[١] ، وتخالفِ الإسرارِ والإعلانِ .

وهٰذا عذابٌ أليمٌ استعجلَهُ في دنياهُ ؛ إذ يفوتُهُ بذلكَ راحةُ قلبِهِ ، وطيبُ عيشِهِ ، ويسلبُهُ ثوبَ الغنىٰ والعزِّ ، ويلبسُهُ لباسَ الطمعِ والذلِّ ، فتردىٰ بذلكَ همَّتُهُ ، وتقلُّ قيمتُهُ ، ولعذابُ الآخرةِ أكبرُ ، وقد قالَ الشاعرُ[٢] : [من مخلع البسيط]

مَـنْ رَاقَـبَ ٱلنَّـاسَ مَـاتَ غَمّـاً وَفَـازَ بِـٱللَّـذَّةِ ٱلْجَسُـورُ

ورأىٰ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رجلاً مِنَ الفقراءِ بمكَّةَ ، فقالَ لهُ شيئاً ، فقالَ يا أستاذُ ؛ لا أقدرُ علىٰ هٰذا مِنْ أجلِ الناسِ ، فالتفتَ سهلٌ إلىٰ أصحابِهِ وقالَ لا ينالُ العبدُ حقيقةً مِنْ هٰذا الأمرِ حتىٰ يكونَ بأحدِ وصفينِ حتىٰ يُسقطَ الناسَ مِنْ عينِهِ فلا يرىٰ في الدارِ إلا هو وخالقُهُ[٣] ؛ فإنَّ أحداً لا يقدرُ أنْ يضرَّهُ ولا ينفعَهُ ، أو يُسقِطَ نفسَهُ عن قلبِهِ فلا يبالي بأيِّ حالٍ يرونَهُ . انتهىٰ[٤]

ثم مَنْ لهُ بحصولِ ما أرادَهُ منهم وأغراضُهم مختلفةٌ ، وطباعُهم متباينةٌ ؟! فربَّما استحسنَ مِنْ نفسِهِ شيئاً لم يستحسنْهُ غيرُهُ ، وربَّما أرضىٰ شخصاً بما لا يرضىٰ آخرُ ، فهو يعملُ بزعمِهِ فيما ينفعُهُ عندَ الناسِ ، وهو ساعٍ فيما يضرُّهُ عندَهم وعندَ اللهِ تعالىٰ ، معَ مقاساةِ التعبِ والنصبِ في نفسِهِ .

وفي الحكايةِ المذكورةِ عن لقمانَ وابنِهِ تنبيهٌ علىٰ هٰذا المعنىٰ ؛ ذُكِرَ أنَّ لقمانَ دخلَ ذاتَ يومٍ السوقَ وهو راكبٌ حماراً وابنُهُ يسوقُهُ ، فقالَ الناسُ شيخٌ لم يشفقْ

---

(١) الدهان : المداهنة والمصانعة ؛ من (دهنَ الرجل) إذا نافق .

(٢) البيت لسلم الخاسر ، وقد سار وجرىٰ مجرى المثل ، وأصله بيت لبشار بن برد يقول فيه : (من البسيط)

مَنْ راقبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجتِهِ وفازَ بالطيباتِ الفاتكُ اللهجُ

فعدا عليه سلم ، فرشَّقه بما ترىٰ ، حتىٰ قال بشار : سار والله بيت سلم وخمل بيتنا ، وانظر « معجم الأدباء » (٣/ ١٣٨٢)

(٣) قوله : (هو) أقام ضمير الرفع مقام ضمير النصب كما ترىٰ .

(٤) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٩٤) .

علىٰ صبيٍّ ! فأركبَهُ خلفَهُ ، فقالوا : اثنانِ علىٰ حمارٍ ؟! هلا زادَ ثالثاً ! فنزلَ لقمانُ وبقيَ الولدُ ، فقالوا شيخٌ يمشي وصبيٌّ راكبٌ ؟! فنزلَ يمشي معَ والدِهِ وساقا الحمارَ جميعاً ، فقالوا : حمارٌ فارغٌ وهـٰذانِ يسوقانِهِ ؟!

وكانَ غرضُ لقمانَ بهـٰذا أنْ يُرِيَ ابنَهُ شأنَ الناسِ معَ مَنْ يراعي نظرَهم ، وأنَّهُ لا يسلمُ منهم علىٰ أيِّ حالةٍ يكونُ ، **فرضا الناسِ غايةٌ لا تُدركُ** ، **وأحمقُ الناسِ مَنْ طلبَ ما لا يُدركُ** .

فهـٰذا حالُ مَنِ انقادَ إلى الأوهامِ ؛ مِنْ ضعفاءِ العقولِ وسخفاءِ الأحلامِ ، وأمَّا مَنْ كانَ لهُ عقلٌ وافرٌ ، وحلمٌ فاخرٌ . فلا يميلُ إلا إلىٰ ما هو حقٌّ ، ووجودٌ صدقٌ ، وهو ما مِنَ اللهِ إليهِ مِنْ نظرٍ وإقبالٍ ، وجزيلِ عطاءٍ وعظيمِ نوالٍ ؛ فهو يعملُ فيما يؤدِّيهِ إلىٰ هـٰذهِ المطالبِ مِنْ غيرِ اكتراثٍ بذمِّ ذامٍّ أو عيبِ عائبٍ ، ويقولُ بلسانِ حالِهِ [من مخلع البسيط]

إِنَّ ٱلَّـذِي تَكْـرَهُـونَ مِنِّـي ذَاكَ ٱلَّـذِي يَشْتَهِيـهِ قَلْبِـي(١)

ويقولُ أيضاً ما قالَهُ محمدُ بنُ أسلمَ : (ما لي ولهـٰذا الخَلْقِ ؟! كنتُ في صلبِ أبي وحدي ، ثم صرتُ في بطنِ أمِّي وحدي ، ثم دخلتُ الدنيا وحدي ، ثم تُقبضُ روحي وحدي ، فأُدخلُ في قبري وحدي ، ويأتيني منكرٌ ونكيرٌ ، فيسألاني وحدي ، فإنْ صرتُ إلىٰ خيرٍ صرتُ وحدي ، وإنْ صرتُ إلىٰ شرٍّ كنتُ وحدي ، وأُوقفُ بينَ يدي اللهِ وحدي ، ثم يوضعُ عملي وذنوبي في الميزانِ وحدي ، فإنْ بُعثتُ إلى الجنَّةِ بُعثتُ وحدي ، وإنْ بُعثتُ إلى النارِ بُعثتُ وحدي ، فما لي وللناسِ ؟!)(٢)

---

(١) حكاه الإمام الغزالي في « الأربعين » (ص ٤٨٠) ، وأورده البلوي في كتابه « ألف باء » (١/٥٣١)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٤١ـ٢٤٢) ضمن خبر طويل .

وقد سُئِلَ الحارثُ بنُ أسدٍ المحاسبيُّ عن علامةِ الصادقِ ، فقالَ : (الصادقُ : هو الذي لا يبالي لو خرجَ كلُّ قدْرٍ لهُ مِنْ قلوبِ الخلْقِ مِنْ أجلِ صلاحِ قلبِهِ ، ولا يحبُّ أنْ يطَّلعَ الناسُ علىٰ مثاقيلِ الذَّرِّ مِنْ حسنِ عملِهِ ، ولا يكرهُ أنْ يطَّلعَ الناسُ على السيِّئِ مِنْ عملِهِ ؛ فإنَّ كراهتَهُ لذلكَ دليلٌ علىٰ أنَّهُ يحبُّ الزيادةَ عندَهم ، وليسَ هٰذا مِنْ إخلاصِ الصادقينَ)[1]

* * *

(١) قاله في « الرعاية » (ص ٢٢٨) ، ونقله القشيري في « رسالته » (ص ٤٨٦) .

الحكمة الثامنة والستون بعد المئة (*)

مَنْ عَرَفَ ٱلْحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ

فلا يستوحشُ مِنْ شيءٍ ، ويستأنسُ بهِ كلَّ شيءٍ ، كما تقدَّمَ مِنْ نعتِ العارفينَ(١) .

وَمَنْ فَنِيَ بِهِ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ

فلا يكونُ منهُ على الأشياءِ اعتمادٌ ، ولا لهُ إليها استنادٌ .

وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئاً

مِنْ مراداتِهِ وشهواتِهِ .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه ليس في الوجود إلا الله وأفعاله ، وإلىٰ تحقيق مقام المعرفة والفناء والمحبة ، فمن عرف الموجود وافاهُ في كل وجود ، فيفنىٰ به ويغيب عن كلِّ سوىً إن كان ثَمَّ سوىً ، فيرزق حبه فيكون مراده مراده .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٨٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَهُ » ، رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه

(١) انظر (ص ٥٢٩) .

وهٰذهِ الأمورُ التي ذكرَها المؤلفُ هي علاماتُ بلوغِ هٰذهِ المقاماتِ العليَّةِ ، وبها تصحُّ وتكملُ ، فمَنْ لم يجدْها في نفسِهِ فلا ينبغي لهُ أنْ يدعيَ تلكَ المقاماتِ ، وليعملْ علىٰ مجاهدةِ نفسِهِ فيما يصحِّحُها ويكمِّلُها

* *

الحكمة التاسعة والستون بعد المئة (*)

إِنَّمَا حَجَبَ ٱلْحَقَّ عَنْكَ ، شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ .

شدَّةُ القربِ حجابٌ، كما أنَّ شدَّةَ البعدِ حجابٌ؛ لأنَّ شدَّةَ قربِهِ منكَ موجبةٌ لاضمحلالِكَ وذهابِكَ ، والمضمحلُّ الذاهبُ لا مناسبةَ بينَهُ وبينَ الثابتِ الموجودِ[1] ، فكيفَ يراهُ ؟!

قالَ في « لطائفِ المننِ » : فعظيمُ القربِ هو الذي غيَّبَ عنكَ شهودَ القربِ

قالَ الشيخُ أبو الحسنِ : حقيقةُ القربِ أنْ تغيبَ في القربِ عنِ القربِ لعظيمِ القربِ ؛ كمَنْ يَشَمُّ رائحةَ المسْكِ ، فلا يزالُ يدنو ، وكلَّما دنا منها تزايدَ ريحُها ، فلمَّا دخلَ البيتَ الذي هو فيهِ انقطعَتِ الرائحةُ عنهُ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه (السلبية) ، وأنه تعالىٰ أقرب إلينا من أنفسنا ؛ فلا زمان ولا مكان بيننا وبينه ، كما أنه لا حلول ولا اتحاد ، فالحق مشهود والخلقُ معقول عند المحققين ، وعند عامة الخلق : الحق معقول والخلق مشهود .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق : ٥٠] ، وقوله تعالىٰ في الحديث القدسي : « فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به ، وبصرَهُ الذي يبصرُ به ، ويدَهُ التي يبطشُ بها ، ورجلَهُ التي يمشي عليها » ، رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) بمعنىٰ : أن العبد مضمحلٌّ ذاهبٌ في كلِّ آنٍ ، لا أنه يتجدَّد له اضمحلال وذهاب حين وجود قرب الحق تعالىٰ ؛ لأنه سبحانه قريبٌ من عبده في كل حين ، وإنما العبد هو الذي يثبت لنفسه وجوداً وثباتاً عند غفلته عن هـٰذه الحقيقة ؛ إذ وجود العبد إمكاني يستحيل بقاؤه في ذاته

وأنشدَ بعضُ العارفينَ [من البسيط]

كَـمْ ذَا تُمَـوِّهُ بِـالشِّعْبَيْـنِ والْعَلَـمِ والأَمْرُ أَوْضَحُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ
أَرَاكَ تَسْـأَلُ عَـنْ نَجْـدٍ وَأَنْـتَ بِهَـا وَعَـنْ تِهَـامَـةَ هَـٰذَا فِعْـلُ مُتَّهَـمِ[1]

* * *

(١) لطائف المنن (ص ٥١) ، والبيتان لابن سبعين كما في « نفح الطيب » (٢/ ٢٠٣) .

الحكمة السبعون بعد المئة (*)

إِنَّمَا ٱحْتَجَبَ بِشِدَّةِ ظُهُورِهِ(١) ، وَخَفِيَ عَنِ ٱلأَبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ .

هٰذهِ عبارةٌ تداولَها الناسُ ، وضربوا لها مثالاً بالشمسِ ؛ وذلكَ أنَّ الشمسَ نورُها أقوىٰ مِنْ سائرِ الأنوارِ المحسوسةِ ، وقوَّةُ نورِها هي التي حجبَتِ الأبصارَ الضعيفةَ عن إدراكِ كنهِها ، فقد صارَ ظهورُها الذي أوجبَ وجودَ نورِها حجاباً ، وليسَ الحجابُ على الحقيقةِ منها ؛ فإنَّ الظاهرَ لذاتِهِ لا يحجبُ مِنْ ذاتِهِ ؛ وإنَّما الحجابُ عليهِ مِنْ غيرِهِ(٢) .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تجليات اسميه تعالى العظيمين الظاهر والباطن ، وإلىٰ أن الفعل لا يعقل أن يدرك الفاعل ، بل الفاعل هو الموجد والمدرك لفعله ، وما سواه تعالىٰ فهو فعله ، وإلىٰ أن نوره تعالىٰ ليس بحسيٍّ فيطلبَ بالحواس ، بل ملكوتي يرىٰ بعين القلب والبصيرة
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ ، وأنتَ الباطنُ فليسَ دونَكَ شيءٌ » ، رواه مسلم (٢٧١٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) في (ج) : (لشدة) بدل (بشدة) .

(٢) قال حجة الإسلام في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٤٥٠) : (كما أن الخفاش يبصر بالليل ، ولا يبصر بالنهار ؛ لا لخفاء النهار واستتاره ، لٰكن لشدة ظهوره ؛ فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره ، فلا يرىٰ شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره . . فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلٰهية في نهاية الإشراق والاستنارة ، وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتىٰ لم يشذَّ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفىٰ عن البصائر والأبصار بظهوره !) .

والحجابُ ها هنا : ضعفُ البصرِ عن مقاومةِ فيضانِ النورِ ، فالحقُّ تعالى احتجبَ عنِ الخلْقِ بشدَّةِ ظهورِهِ[1] ، وخفيَ عنِ الأبصارِ لعظيمِ نورِهِ ، وأنشدوا في هٰذا المعنىٰ : [من البسيط]

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلا تَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ ... إِلا عَلَىٰ أَكْمَهٍ لا يَعْرِفُ ٱلْقَمَرَا
لَـٰكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً ... وَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِٱلْعِزَّةِ ٱسْتَتَرَا[2]

وأنشدوا أيضاً [من الكامل]

بِٱلنُّورِ يَظْهَرُ مَا تَرَىٰ مِنْ صُورَةٍ ... وَبِهِ وُجُودُ ٱلْكَائِنَاتِ بِلا ٱمْتِرَا
لَـٰكِنَّهُ يَخْفَىٰ لِفَرْطِ ظُهُورِهِ ... حِسّاً وَيُدْرِكُهُ ٱلْبَصِيرُ مِنَ ٱلْوَرَىٰ
فَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ عَقْلِكَ لَمْ تَجِدْ ... شَيْئاً سِوَاهُ عَلَى ٱلذَّوَاتِ مُصَوَّرَا
وَإِذَا طَلَبْتَ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِهِ ... فَبِذَيْلِ جَهْلِكَ لا تَزَالُ مُعَثَّرَا

* * *

---

(١) في (ج) : (لشدة) بدل (بشدة) .
(٢) البيت الأول لذي الرُّمَّة في « ديوانه » (٢/ ١١٦٣) ، وأوردهما في « لطائف المنن » (ص ٥١) .

الباب الثامن عشر
في وجه الطّلب للمطلوب

الحكمة الحادية والسبعون بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

لا يَكُنْ طَلَبُكَ سَبَباً إِلَى ٱلْعَطَاءِ مِنْهُ ، فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ ، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لإِظْهَارِ ٱلْعُبُودِيَّةِ ، وَقِيَاماً بِحُقُوقِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ .

لم يأمرِ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ بالطلبِ لهُ والسؤالِ منهُ إلا ليظهرَ افتقارُهم إليهِ ، ومثولُهم بالتضرُّعِ والخضوعِ بينَ يديهِ(1) ؛ ليكونَ ذلكَ إظهاراً لعبوديَّتِهِ ، وقياماً بحقوقِ ربوبيَّتِهِ ، لا لأنْ يتسبَّبوا بهِ إلىٰ حصولِ ما طلبوهُ ، ونيلِ ما رغبوهُ ، ممَّا لهم فيهِ منفعةٌ وحظٌّ ؛ لأنَّ في ذلكَ وجودَ حظِّ أنفسِهم ، لا قياماً بحقوقِ ربِّهم ، وليسَ ذلكَ مِنْ شأنِ العبيدِ .

هـٰذا هو فهمُ العارفينَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، ويدلُّ علىٰ هـٰذا المعنىٰ ما يذكرُهُ المؤلفُ الآنَ(2) .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن نفع الدعاء ثابت شرعاً ، لا من ذاته ، بل من حيث صدق الوعد الأزلي ، وإلىٰ أن الدعاء طُلب ليكون صورةَ عبادة ، لا لنيل المرادات الفانية ؛ كي لا تكون القدرة القديمة مسخَّرة بالإرادة الحادثة .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الدعاءُ مخُّ العبادةِ » ، رواه الترمذي (٣٣٧١) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(1) يعني : أمرهم بدعائِهِ ليُظهروا افتقارَهم وعبوديتهم ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فأضاف الفعل لهم .

(2) انظر (ص ٦٦٠) .

قالَ أبو نصرٍ السرَّاجُ : (سألتُ بعضَ المشايخِ عنِ الدعاءِ : ما وجهُهُ لأهلِ التسليمِ والتفويضِ ؟

فقالَ : **يدعو اللهَ علىٰ وجهينِ**

أحدُهما : يريدُ[1] بذلكَ تزيينَ الجوارحِ الظاهرةِ بالدعاءِ ؛ لأنَّ الدعاءَ ضربٌ مِنَ الخدمةِ ؛ يريدُ أنْ يزيِّنَ جوارحَهُ بهـٰذهِ الخدمةِ .

والوجهُ الثاني : أنْ يدعوَ ائتماراً لما أمرَ اللهُ تعالىٰ مِنَ الدعاءِ) انتهىٰ[2]

وقد قيلَ : **فائدةُ الدعاءِ** : إظهارُ الفاقةِ بينَ يديهِ ، وإلا فالربُّ يفعلُ ما يشاءُ

ومقتضىٰ هـٰذا ألا ينقطعَ سؤالُهُ ولا رغبتُهُ وإنْ أعطاهُ كلَّ ما طلبَهُ ، وأنالَهُ سُؤْلَهُ وأربَهُ ، وألا يفرِّقَ بينَ العدمِ والوجودِ والمنعِ والعطاءِ فيما يرجعُ إلىٰ إظهارِ الفاقةِ والفقرِ ، فيكونَ عبداً للهِ في الأحوالِ كلِّها ، كما أنَّهُ ربُّهُ في الأحوالِ كلِّها ، وقبيحٌ بالعبدِ أنْ يصرفَ وجهَهُ عن بابِ مولاهُ ؛ ما ينيلُهُ مِنْ شهوتِهِ وهواهُ

قالَ سيدي أبو الحسنِ : (لا يكنْ همُّكَ في دعائِكَ الظفرَ بقضاءِ حاجاتِكَ فتكونَ محجوباً عن ربِّكَ ، وليَكُنْ همُّكَ مناجاةَ مولاكَ)[3]

وقالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ (شرُّ الناسِ مَنْ يبتهلُ إلى اللهِ تعالىٰ عندَ هجومِ البلاءِ بخلوصِ الدعاءِ ، وشدَّةِ التضرعِ والبكاءِ ، فإذا زالَتْ شكايتُهُ ، ورُفعَتْ عنهُ آفتُهُ . ضيَّعَ الوفاءَ ، ونسيَ البلاءَ ، وقابلَ الرِّفْدَ بنقضِ العهدِ ، وأبدلَ العقدَ برفضِ الودِّ، أولـٰئكَ الذينَ أبعدَهمُ اللهُ في سابقِ الحكمِ ، وخرطَهم في سلكِ أهلِ الردِّ)[4]

---

(١) في (ج ، د) : (نريد) بدل (يريد) ، وفي مطبوع « اللمع » : (يزيد) .
(٢) قاله في « اللمع » (ص ٣٣٣) .
(٣) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ٢٠٨) .
(٤) قاله في « لطائف الإشارات » (١/ ٥٩٥)

وقد قيلَ ﴿ بلاءٌ يلجئُكَ إلى الانتصابِ بينَ يدي معبودِكَ . . خيرٌ لكَ مِنْ عطاءٍ ينسيكَ إيَّاهُ ويقصيكَ عنهُ ﴾[1]

* *

(١) أورده الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/ ٨٣)

الحكمة الثانية والسبعون بعد المئة (*)

كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ ٱللاحِقُ ، سَبَباً فِي عَطَائِهِ ٱلسَّابِقِ ؟!

هـٰذا دليلٌ على نفْيِ السببيَّةِ المذكورةِ ؛ لأنَّ ما طلبَهُ العبدُ أمرٌ سابقٌ في الأزلِ تقديرُهُ ، وطلبُهُ أمرٌ لاحقٌ فيما لا يزالُ[1] ، وكيفَ يكونُ اللاحقُ سبباً في وجودِ السابقِ ؟! وهلِ السببُ أبداً إلا متقدِّمٌ على المسبَّبِ ؟!

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الوجود الحادث كله مسبوق بإرادة واحدة أزلية قد تعدَّدت تعلقاتها القديمة ، فما من إرادة حادثة إلا وقد سُبقت بإرادة الله تعالى التي يستحيل تخلُّف مرادها ، وحركة العبد معلولة ، ولو توقفت الإرادة الأزلية عليها لكانت معلولة بها ، وجلَّ الله أن تعلَّل أفعاله أو أحكامه أو أقضيته وتقديراته

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّكَ تقضي ولا يُقضىٰ عليكَ » ، رواه أبو داود (١٤٢٥) من حديث سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما

(١) قوله : (فيما لا يزال) هو في مقابلة (الأزل) ، وما لا يزال : ما له بداية .

الحكمة الثالثة والسبعون بعد المئة (*)

جَلَّ حُكْمُ ٱلأَزَلِ ، أَنْ يَنْضَافَ إِلَى ٱلْعِلَلِ .

هـٰذا دليلٌ آخرُ على ما ذكرَهُ ؛ وهو أنَّ حصولَ ما طلبَهُ الداعي حكمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ في الأزلِ ، فلا يكونُ سببُهُ الدعاءَ والسؤالَ ؛ لأنَّ أحكامَ اللهِ تعالىٰ تجلُّ عن أنْ تضافَ إلىٰ علَّةٍ أو سببٍ مِنْ قِبَلِ أنَّ لهُ الإرادةَ المطلقةَ والمشيئةَ النافذةَ ، فصنعُهُ علَّةٌ لكلِّ شيءٍ ، ولا علَّةَ لصنعِهِ ، كما قالَ العارفونَ المحقِّقونَ

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أن الأحكام الأزلية هي تعلقات الإرادة الواحدة الأزلية ، ومتعلَّقاتها حتماً مقدورة مقضية ، والمعلومُ وإن كان قديماً من حيث العلمُ القديم ، إلا أنه لا يكون علة في تخصيصات الإرادة للحادثات ببعض ما يجوز عليها .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٤٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « فإنَّ اللهَ لا مستكرهَ لهُ » ، رواه البخاري (٧٤٦٤) ، ومسلم (٢٦٧٨) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

الحكمة الرابعة والخامسة والسبعون بعد المئة (*)

عِنَايَتُهُ فِيكَ لا لِشَيْءٍ مِنْكَ ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ ، وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ ؟!

لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلاصُ أَعْمَالٍ وَلا وُجُودُ أَحْوَالٍ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلا مَحْضُ ٱلإِفْضَالِ وَعَظِيمُ ٱلنَّوَالِ .

عنايةُ اللهِ بكَ في الأزلِ حينَ لم تكنْ ، حينَ لا حينَ[1] . . غيرُ معلَّلةٍ بشيءٍ كائنٍ منكَ[2] ؛ مِنْ إخلاصِ أعمالٍ ، أو وجودِ أحوالٍ ، تتوسَّلُ بجميعِ ذلكَ إليهِ ، وأينَ كنتَ إذْ ذاكَ وأنتَ عدمٌ محضٌ ؟! بل لم يكنْ هناكَ إلا محضُ كرمِهِ وإفضالِهِ ، وعظيمُ إحسانِهِ ونوالِهِ ، لا غيرُ قالَ الواسطيُّ (أقسامٌ قُسِمَتْ ، ونعوتٌ أُجريَتْ ، كيفَ تُستجلبُ بحركاتٍ ، أو تُنالُ بسعاياتٍ ؟!)[3]

(*) ترجع هاتان الحكمتان اعتقاداً إلىٰ أن أفعال الله تعالىٰ لا تعلَّل ، وإلىٰ أن الأزلي لا يغيَّر ولا يبدَّل ، فحكم اللواحق العملُ علىٰ ظهور السوابق ، فمن ظنَّ أن طاعته تؤثِّر في تحصيل عطاء ، أو أن معصيته لذاته تؤثر في حصول بلاء . . فهو جاهل بالله تعالىٰ وصفاته .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ » ، رواه البخاري (٧٥٥١) ، ومسلم (٢٦٤٩) من حديث سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما

(١) يعني : عناية الله بك أيها العبد حين لم تكن شيئاً مذكوراً ، وذلك حين لم يكن هناك بعدُ حينٌ ؛ إذ لا زمان في الأزل ؛ لأنه أمرٌ اعتباري .

(٢) أظهر متعلق الجار والمجرور مع وقوعه كوناً مطلقاً عاماً ، وعندها يجب الحذف ، ولعله لاحظ فيه معنىً خاصاً ؛ كمكتسبٍ مثلاً ، فسلخه عن العموم ، فجاز إظهاره

(٣) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٩١) ، وقال بعده : (وسئل الواسطي عن الكفر : =

الحكمة السادسة والسبعون بعد المئة (*)

عَلِمَ أَنَّ ٱلْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَىٰ ظُهُورِ سِرِّ ٱلْعِنَايَةِ ؛ فَقَالَ : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾

وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا ٱلْعَمَلَ ٱعْتِمَاداً عَلَى ٱلأَزَلِ ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

ظهورُ سرِّ العنايةِ التي مقتضاها الرحمةُ هو تخصيصُ المشيئةِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٧٤] ، ولا علَّةَ لهُ مِنَ العبدِ ، والإحسانُ المنسوبُ إليهِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف ٥٦] . . **أمارةٌ وعلامةٌ علىٰ تلكَ العنايةِ ، وليسَ بعلَّةٍ موجبةٍ** ، وإنَّما أسندَ الرحمةَ إليهِ وعلَّقَها بهِ لئلا يتَّكلَ العبادُ على السابقةِ ، ويتركوا العملَ الذي هو مقتضى العبوديَّةِ الواجبةِ للهِ عليهم .

= بالله أو لله ؟ فقال : الكفر والإيمان والدنيا والآخرة من الله وإلى الله وبالله ولله ؛ من الله ابتداءً وإنشاءً ، وإلى الله مرجعاً وانتهاءً ، وبالله بقاءً وفناءً ، ولله ملكاً وخلقاً) .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن ألطافه سبحانه بعباده من محض فضله ؛ إذ لا يجب على الله فعل شيء أو تركه ، وإلىٰ أن لخطاباته تعالى الأزليةِ حِكَماً معتبرةً في أحوال عباده ، وذلك من جملة لطفه ، وأن له في عباده شؤوناً يمضيها ؛ من اصطفاء وتقريب وإبعاد ، لا لعلة منهم .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورىٰ : ١٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « للَّهُ أرحمُ بعبادِهِ مِنْ هـٰذهِ بولدِها » ، رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، وفيه ذكر امرأة من السبي وجدت صبيَّها ، فألصقته ببطنها وأرضعته .

الحكمة السابعة والسبعون بعد المئة (*)

إِلَى ٱلْمَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ

لأنَّ وقوعَ ما لم يشأِ الحقُّ تعالىٰ محالٌ .

وَلا تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَىٰ شَيْءٍ

لاستحالةِ وجودِ النقصِ فيما يجبُ لهُ مِنَ الكمالِ .

وهٰذهِ العباراتُ التي ذكرَها المؤلفُ مِنْ أولِ الفصلِ إلىٰ هنا . . بلغَتِ الغايةَ في الحسنِ ، واستغنَتْ بتردادِها وتكرارِها عنِ البيانِ والشرحِ ، وفيها إشارةٌ إلىٰ أحكامِ الأزلِ ، وفقْدِ الأسبابِ والعللِ ، فيجبُ عليهِ أنْ يبنيَ عليها أعمالَهُ وأحوالَهُ ، فيلزمَ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفة الإرادة الأزلية ، واستحالةِ تعدُّدِها ، أو حدوثِها ، أو أنها لا في محلٍّ ، أو تعليلِها ، أو أن يكون تعالىٰ مُكْرَهاً في فعل ما ، وإلىٰ أنْ لا فعْلَ في الوجود إلا وهو متعلق بها .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقولوا : ما شاءَ اللهُ وشاءَ فلانٌ ، ولٰكنْ قولوا : ما شاءَ اللهُ ثم شاءَ فلانٌ » ، رواه أبو داود (٤٩٨٠) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لم يشأْ لم يكنْ » ، رواه أبو داود (٥٠٧٥) عن بعض بنات النبي صلى الله عليه وسلم

العبوديَّةَ والافتقارَ ، ويدعَ التدبيرَ والاختيارَ لِمَنْ بيدِهِ ذلكَ ، وهٰذا هو أدبُ التوحيدِ[١] ، جعلَنا اللهُ مِنْ أهلِهِ ، بمنِّهِ وفضلِهِ .

قالَ أبو بكرِ بنُ موسى الواسطيُّ : (إنَّ اللهَ لا يقرِّبُ فقيراً لأجلِ فقرِهِ ، ولا يبعدُ غنيّاً لأجلِ غناهُ ، وليسَ للأعراضِ عندَهُ خطرٌ حتىٰ بها يصلُ وبها يقطعُ ، ولو بذلْتَ لهُ الدنيا والآخرةَ ما أوصلَكَ إليهِ بهما ، ولو أخذتَهُما كلَّهُما ما قطعَكَ بهما ، قرَّبَ مَنْ قرَّبَ مِنْ غيرِ علَّةٍ ، وقطعَ مَنْ قطعَ مِنْ غيرِ علَّةٍ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠])[٢]

وقالَ أيضاً : (ما خالفَهُ أحدٌ ولا وافقَهُ ، وكلُّهم مستعملونَ بمشيئتِهِ وقدرتِهِ ، أنَّىٰ يكونُ لهُ الوفاقُ والخلافُ وهو مقلِّبُ الليلِ والنهارِ بما فيهما ، وهو قائمٌ على الأشياءِ وبالأشياءِ في بقائِها وفنائِها ؟! لا يؤنسُهُ وجدٌ ، ولا يوحشُهُ فقدٌ ، بل لا فَقْدَ ولا وجدَ ، إنَّما هي رسومٌ تحتَ الرسومِ)[٣]

* * *

---

(١) في (ج) : (لُباب) بدل (أدب) .
(٢) رواه السلمي في « تفسيره » (٢/ ٥٥) .
(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٥٥) .

الباب التاسع عشر
في ترك الطلب

الحكمة الثامنة والسبعون بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

رُبَّمَا دَلَّهُمُ ٱلأَدَبُ عَلَىٰ تَرْكِ ٱلطَّلَبِ ؛ ٱعْتِمَاداً عَلَىٰ قِسْمَتِهِ ، وٱشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ .

قد يكونُ مِنَ الأدبِ تركُ السؤالِ والطلبِ لمَنْ هو مستغرقٌ في الأذكارِ ، راضٍ بما يجري عليهِ مِنْ تصاريفِ الأقدارِ ، وهو أحدُ مذاهبِ القومِ .

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ : (واختلفَ الناسُ في أيِّ شيءٍ أفضلُ الدعاءُ ، أمِ السكوتُ والرضا ؟

فمنهم مَنْ قالَ الدعاءُ في نفسِهِ عبادةٌ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلدُّعَاءُ مُخُّ ٱلْعِبَادَةِ »[1] ، فالإتيانُ بما هو عبادةٌ أفضلُ مِنْ تركِها ، ثم هو حقُّ الحقِّ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الأسباب الشرعية لا تأثير لها في ذاتها ؛ إذ لا مؤثر إلا الله تعالىٰ ، وإلىٰ أن سريان الحوادث اللاحقة علىٰ حسب تعلقات الإرادة الأزلية السابقة ، وإلىٰ تحري الآداب مع الله تعالىٰ علىٰ حسب الأحوال العارضات .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود : ٤٦] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام وقد قيل له : يا رسول الله ؛ ألا تدعو الله أن يكشف عنك ؟ فقال : « إنَّ أشدَّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ، ثم الذينَ يلونَهم ، ثم الذينَ يلونَهم ، ثم الذينَ يلونَهم » ، رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٥٦٧) من حديث سيدتنا فاطمة بنت اليمان أخت سيدنا حذيفة رضي الله عنهما ، وكان صلى الله عليه وسلم قد نزلت به الحُمَّىٰ .

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

تعالىٰ ، فإنْ لم يُستجبْ للعبدِ ، ولم يصلْ إلىٰ حظِّ نفسهِ . فقد قامَ بحقِّ الربوبيّةِ ؛ لأنَّ الدعاءَ إظهارُ فاقةِ العبوديَّةِ ، وقد قالَ أبو حازمٍ الأعرجُ لَأنْ أُحْرَمَ الدعاءَ أشدُّ عليَّ مِنْ أنْ أُحْرمَ الإجابةَ

وطائفةٌ قالوا : السكوتُ والخمودُ تحتَ جريانِ الحكمِ أتمُّ ، والرضا بما سبقَ مِنِ اختيارِ الحقِّ أولىٰ ، ولهـٰذا قالَ الواسطيُّ : اختيارُ ما جرىٰ لكَ في الأزلِ خيرٌ لكَ مِنْ معارضةِ الوقتِ(١)

وقد قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خبراً عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي ٱلسَّائِلِينَ »(٢)

وقد قالَ قومٌ يجبُ أنْ يكونَ العبدُ صاحبَ دعاءٍ بلسانِهِ ، وصاحبَ رضاً بقلبِهِ ؛ ليأتيَ بالأمرينِ جميعاً)(٣)

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ (والأولىٰ أنْ يُقالَ إنَّ الأوقاتَ مختلفةٌ ؛ ففي بعضِ الأحوالِ الدعاءُ أفضلُ مِنَ السكوتِ ، وهو الأدبُ ، وفي بعضِ الأحوالِ : السكوتُ أفضلُ مِنَ الدعاءِ ، وهو الأدبُ ، وإنَّما يُعرفُ ذلكَ في الوقتِ ؛ لأنَّ علمَ الوقتِ يحصلُ في الوقتِ ؛ فإذا وجدَ بقلبِهِ إشارةً إلى الدعاءِ فالدعاءُ بهِ أولىٰ ، وإذا وجدَ إشارةً إلى السكوتِ فالسكوتُ لهُ أولىٰ

ويصحُّ أنْ يُقالَ : ينبغي ألا يكونَ ساهياً عن شهودِ ربِّهِ تعالىٰ في حالِ دعائِهِ ، ثم يجبُ أنْ يراعيَ حالَهُ ؛ فإن وجدَ مِنَ الدعاءِ زيادةَ بسطٍ في وقتِهِ فالدعاءُ لهُ أولىٰ ، وإنْ عادَ إلىٰ قلبِهِ في وقتِ الدعاءِ شبهُ زجرٍ ومثلُ قبضٍ فالأولىٰ تركُ الدعاءِ في هـٰذا

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٣٤١)

(٢) رواه بلفظه هنا ابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (١٥٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٦٧) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، ورواه الترمذي (٢٩٢٦) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، لـٰكن بلفظ (القرآن) ، بدل (ذكري) بنحوه .

(٣) قاله في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٦٠) .

الوقتِ ، وإنْ لم يجدْ في قلبِهِ لا زيادةَ بسطٍ ولا حصولَ زجرٍ **فالدعاءُ وتركُهُ ها هنا سيّانِ**

وإنْ كانَ الغالبُ عليهِ في هٰذا الوقتِ العلمَ **فالدعاءُ أولىٰ** ؛ لكونِهِ عبادةً ، وإنْ كانَ الغالبُ عليهِ في هٰذا الوقتِ المعرفةَ والحالَ **فالسكوتُ والسكونُ أولىٰ**

ويصحُّ أنْ يُقالَ : ما كانَ للمسلمينَ فيهِ نصيبٌ ، أو للحقِّ سبحانَهُ فيهِ حقٌّ **فالدعاءُ أولىٰ** ، وما كانَ لنفسِكَ فيهِ حظٌّ **فالسكوتُ أتمُّ** .

وفي الخبرِ المرويِّ : « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيَدْعُو ٱللهَ وَهُوَ يُحِبُّهُ ، فَيَقُولُ : يَا جِبْرِيلُ ؛ أَخِّرْ حَاجَةَ عَبْدِي ؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ ، وَإِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيَدْعُو ٱللهَ وَهُوَ يُبْغِضُهُ ، فَيَقُولُ : يَا جِبْرِيلُ ؛ ٱقْضِ لِعَبْدِي حَاجَتَهُ ؛ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ »(١)) ، انتهىٰ كلامُ الإمامِ أبي القاسمِ(٢) ، وهو حسنٌ بديعٌ ، وهو أوفىٰ ممَّا ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ

*

---

(١) رواه الطبراني في « الدعاء » (٨٧) ، و« المعجم الأوسط » (٨٤٣٧) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

(٢) قاله في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٦١)

الحكمة التاسعة والسبعون بعد المئة (*)

إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلإِغْفَالُ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ ٱلإِهْمَالُ.

أوردَ هـٰذا كالدليلِ على ما ذكرَهُ مِنْ أنَّ تركَ الطلبِ قد يكونُ مِنَ الأدبِ ؛ وذلكَ لأنَّ في الطلبِ إشعاراً بتجويزِ الإغفالِ عليهِ ، فيقعُ بذلكَ التذكيرُ لهُ ، وتلويحاً باحتمالِ وجودِ الإهمالِ منهُ ، فيكونُ ذلكَ تنبيهاً لهُ ، وجميعُ ذلكَ محالٌ على الحقِّ ، تعالىٰ عن ذلكَ علوّاً كبيراً ، فلأجلِ هـٰذهِ العِلَلِ كانَ تركُ الطلبِ عندَ هـٰؤلاءِ أدباً .

وقد سُئِلَ الواسطيُّ أنْ يدعوَ ، فقالَ : أخشىٰ إنْ دعوتُ أنْ يُقالَ لي : إنْ سألتَنا ما لكَ عندَنا فقدِ اتهمتَنا ، وإنْ سألتَنا ما ليسَ لكَ عندَنا فقد أسأتَ الثناءَ علينا ، وإنْ رضيتَ أجرينا لكَ مِنَ الأمورِ ما قضينا لكَ في الدهورِ(١)

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ مَنازلَ أنَّهُ قالَ : (ما دعوتُ اللهَ منذُ خمسينَ سنةً ، وما أريدُ أنْ يدعوَ لي أحدٌ ؛ لأنَّهُ ماضٍ عليَّ ما سبقَ)(٢)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ نفي صفات النقص في حقه عز وجل ، وإلىٰ أن ما شرعه تعالىٰ من العبادات والأدعية إنما هو لإظهار صفة العبودية ، لا لتعليل أفعاله تعالىٰ وتوقُّف عطاياه عليها .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم : ٦٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وكان آخر قول سيدنا إبراهيم حين ألقي في النار : « حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ » ، رواه البخاري (٤٥٦٤) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه .

(١) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٥٦٧) .

(٢) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٥٦٧) دون الجملة الأخيرة .

الحكمة الثمانون بعد المئة (*)

وُرُودُ ٱلْفَاقَاتِ أَعْيَادُ ٱلْمُرِيدِينَ

الأعيادُ : عبارةٌ عنِ الأوقاتِ العائدةِ على الناسِ بالمسرَّاتِ والأفراحِ ، وهم مختلفونَ في ذلكَ :

فمنهم : مَنْ مسرَّتُهُ وفرحُهُ بوجودِ حظِّهِ ، ونيلِ شهوتِهِ وغرضِهِ ، وهـٰذا هو حالُ عامَّةِ المسلمينَ .

ومنهم : مَنْ مسرَّتُهُ وفرحُهُ بفقدانِ حظوظِهِ ، وإعوازِ أمانيِّهِ وأغراضِهِ ، وهـٰذا هو حالُ الخاصَّةِ مِنَ المريدينَ ؛ لأنَّ مدارَ أمورِهم إنَّما هو علىٰ مراعاةِ قلوبِهم ، وتصفيةِ أسرارِهم مِنْ كدوراتِ الأغيارِ والآثارِ ، ولا يتأتَّىٰ لهم ذلكَ إلا بوجدانِهم لما يقهرُهم مِنْ ضروبِ الفاقاتِ ، وأنواعِ الحاجاتِ والضروراتِ

فتراهم يؤثرونَ الفقرَ على الغنىٰ ، والشدَّةَ على الرخاءِ ، والذلَّ على العزِّ ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ يجعل ما شاء علامة علىٰ ما شاء ؛ فقد يجعل البلاء علامة على الرضا ، والعطاء علامة على السخط ، وذلك لِحكَمٍ يؤتيها المولىٰ ويعلِّمُها من شاء من عباده .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما مِنْ مسلمٍ يصيبُهُ أذىً ؛ شوكةٌ فما فوقَها . . إلا كفَّرَ اللهُ بها سيئاتِهِ كما تحطُّ الشجرةُ ورقَها » ، رواه البخاري (٥٦٤٨) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

والمرضَ على الصحَّةِ ؛ إذْ يحصلُ لهم بذلكَ رقَّةٌ وحلاوةٌ لا يعرفُ قدرَها إلا هم ؛ لأنَّها مِنْ وجودِهم لقربِ ربِّهم ، ورؤيتِهم لهُ في حالِ فقدانِ حظِّهم ، فكلَّما ازدادوا فاقةً وبلاءً . . زادَهم مولاهم قربةً وولاءً

كانَ بعضُهم يطوفُ حولَ الكعبةِ وهو يقولُ [من مشطور الرجز]

مُـؤْتَـزِرٌ بِشَمْلَتِـي كَمَـا تَـرَىٰ
وَصِبْيَـةٌ[1] بَـاكِيَـةٌ كَمَـا تَـرَىٰ
وٱمْـرَأَتِـي عُـرْيَـانَـةٌ كَمَا تَـرَىٰ
يَا مَنْ يَرَى ٱلَّذِي بِنَا وَلا يُرَىٰ
أَمَا تَرَىٰ مَا حَلَّ بِي أَمَا تَرَىٰ

فسمعَهُ بعضُهم ، فجمعَ لهُ كِسَراً ودفعَها إليهِ ، فقالَ لهُ : إليكَ عنِّي ، لو كانَ معي شيءٌ لَمَا أمكنَني أنْ أقولَ هـٰذا القولَ[2]

قالَ في « التنويرِ » (وفي البلايا والفاقاتِ مِنْ أسرارِ الألطافِ ما لا يفهمُهُ إلا أولو البصائرِ ؛ ألم ترَ أنَّ البلايا تخمدُ النفوسَ وتذهلُها ، وتدهشُها عن طلبِ حظوظِها ، ويقعُ معَ البلايا وجودُ الذلَّةِ ، ومعَ الذلَّةِ تكونُ النصرةُ ، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ؟!)[3]

وقالَ أبو إسحاقَ إبراهيمُ الهرويُّ (مَنْ أرادَ أنْ يبلغَ الشرفَ كلَّ الشرفِ . . فليختَرْ سبعاً على سبعٍ ؛ فإنَّ الصالحينَ اختاروها حتىٰ بلغوا أسنامَ الخيرِ : أنْ يختارَ

---

(١) في (ج) : (وصبيتي) .

(٢) وروى الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٥٩٢) عن الخرّاز قال : كنت في جامع قيروان يوم جمعة ، فرأيت رجلاً يدور في الصف يقول : تصدقوا عليَّ ؛ فقد كنت صوفياً فضعفت ، فرفقته بشيء ، فقال لي : مُرَّ ويلك ؛ ليس من ذاك ، ولم يقبل الرفق

(٣) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٨١)

الفقرَ على الغنىٰ ، والجوعَ على الشبعِ ، والدونَ على المرتفعِ ، والذُّلَّ على العزِّ ، والتواضعَ على الكبرِ ، والحزنَ على الفرحِ ، والموتَ على الحياةِ)[١]

وقد تقدَّمَ عندَ قولِ المؤلفِ (مَنْ ظنَّ انفكاكَ لطفِهِ عن قَدَرِهِ . . فذلكَ لقصورِ نظرِهِ)[٢] . . الشفاءُ في هـٰذا المعنىٰ ، فواجبٌ إذاً أنْ يكونَ ورودُ الفاقاتِ أعيادَ المريدينَ كما قالَ .

فإذا فقدوا ذلكَ بمواتاةِ الأسبابِ استشعروا[٣] وجودَ الحجابِ ، وبُعْدَهم عن مجالِ الاقترابِ ، فحزنوا لذلكَ وتأسَّفوا ، ووَدُّوا لو عادَ عليهمُ الحالُ الأوَّلُ

ومِنْ هـٰذا المعنىٰ : ما حُكِيَ عن خيرٍ النسَّاجِ قالَ : دخلتُ بعضَ المساجدِ ، فإذا فيهِ فقيرٌ ، فلمَّا رآني تعلَّقَ بي وقالَ : أيُّها الشيخُ ؛ تعطَّفْ بي ؛ فإنَّ محنتي عظيمةٌ ، فقلتُ : وما هي ؟ قالَ فقدتُ البلاءَ ، وقُرِنتُ بالعافيةِ ، فنظرتُ فإذا هو قد فُتِحَ عليهِ بشيءٍ مِنَ الدنيا[٤]

وقالَ بعضُهم (إنَّ الفقيرَ الصادقَ ليحترزُ مِنَ الغنىٰ حذراً أنْ يدخلَهُ الغنىٰ فيفسدَ عليهِ فقرَهُ ؛ كما أنَّ الغنيَّ يحترزُ مِنَ الفقرِ حذراً أنْ يدخلَ عليهِ فيفسدَ عليهِ غناهُ)[٥]

وقد تقدَّمَ مِنْ حكاياتِ عطاءٍ السلميِّ ، وفتحٍ الموصليِّ ، والفضيلِ بنِ عياضٍ ، والربيعِ بن خثيمٍ . . ما يوافقُ ما ذكرناهُ[٦]

وأنشدوا في ذكرِ أعيادِ المريدينَ والعارفينَ ـ وقيلَ إنَّها لأبي عليٍّ الروذباريِّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٣)
(٢) انظر (ص ٤٨٨) .
(٣) في (ب) زيادة : (بذلك)
(٤) رواه الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٥٨٣) .
(٥) رواه الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٥٧٤) عن ابن الكريني .
(٦) انظر (ص ٤٧٢ـ ٤٧٣) .

رحمَهُ اللهُ ـ[1] : [من البسيط]

قَالُوا غَدًا ٱلْعِيدُ مَاذَا أَنْتَ لابِسُهُ   فَقُلْتُ خِلْعَةَ سَاقٍ حُبَّهُ جُرَعَا
فَقْرٌ وَصَبْرٌ هُمَا ثَوْبَايَ تَحْتَهُمَا   قَلْبٌ يَرَىٰ إِلْفَهُ ٱلأَعْيَادَ وٱلْجُمَعَا
أَحْرَى ٱلْمَلابِسِ أَنْ تَلْقَى ٱلْحَبِيبَ بِهِ   يَوْمَ ٱلتَّزَاوُرِ فِي ٱلثَّوْبِ ٱلَّذِي خَلَعَا
الدَّهْرُ لِي مَأْتَمٌ إِنْ غِبْتَ يَا أَمَلِي   وٱلْعِيدُ مَا كُنْتَ لِي مَرْأىً وَمُسْتَمَعَا

* * *

(1) رواها الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٥٨١) ، وذكر أنه قيل : إنها لأبي علي الروذباري ، ورواها أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٧٢) للشبلي ، والكلاباذي في « التعرف » (ص ٩٦) للنوري ، وذاك دليل ذيوعها علىٰ ألسنتهم رضي الله عنهم .

الحكمة الحادية والثمانون بعد المئة (*)

رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ ٱلْمَزِيدِ فِي ٱلْفَاقَاتِ ، مَا لا تَجِدُهُ فِي ٱلصَّوْمِ وَٱلصَّلاةِ

ورودُ الفاقاتِ يحصلُ للمريدِ بها مزيدُ كثيرٍ مِنْ صفاءِ القلبِ وطهارةِ السرِّ ، وقد لا يحصلُ لهُ ذلكَ بالصومِ والصلاةِ ؛ لأنَّ الصومَ والصلاةَ قد يكونُ لهُ فيهما شهوةٌ وهوىً كما تقدَّمَ[1] ، وما كانَ هـٰذا سبيلَهُ لا يُؤمَنُ فيهِ مِنْ دخولِ الآفاتِ ، فلا يفيدُهُ تحليةً ولا تزكيةً ، بخلافِ ورودِ الفاقاتِ ؛ فإنَّها مباينةٌ للهوىٰ والشهوةِ علىٰ كلِّ حالٍ .

وقد تقدَّمَ نحوُ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (إذا فتحَ لكَ وجهةً مِنَ التعرُّفِ فلا تبالِ معَها أنْ قلَّ عملُك . . .) إلىٰ آخرِهِ[2]

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن عبرة الصلاح والفساد في المكلَّف راجعةٌ إلى القلب لا إلى القالب ، وما العباداتُ المفروضة إلا لإصلاح القلب ، ولربما بمشيئة الله تعالىٰ يتنوَّرُ الفؤاد بورود الفاقات ما لا يتنوَّرُ بوجود العبادات

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر ١٠] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في جسده وأهله وماله . . حتىٰ يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ وما عليه خطيئةٌ » ، رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٣٩٨) ، والترمذي (٢٣٩٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٦٧٣) .

(٢) انظر (ص ١٨٦) .

الحكمة الثانية والثمانون بعد المئة (*)

ٱلْفَاقَاتُ بُسُطُ ٱلْمَوَاهِبِ

الفاقاتُ تُحضِرُهُ معَ الحقِّ ، وتُجلِسُهُ علىٰ بساطِ الصدْقِ ، وناهيكَ بما يكونُ في تلكَ المحاضرةِ والمجالسةِ مِنَ المواهبِ الربانيَّةِ ، والنفحاتِ الرحمانيَّةِ[1]

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ له عطايا قد طواها في البلايا والرزايا ، وأن ما من الله تعالىٰ للعبد المؤمن لا يكون إلا خيراً ، وأن الأجور هبات ، لا تجب بالطاعات ، وأن البلاء ليس علامة على المنع والطرد ، كما أن العطاء ليس علامة على الرضا والتقريب

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٥١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف ١٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « وما مِنْ مسلمٍ يصيبُهُ أذىً إلا حاتَّتْ عنه خطاياهُ كما تحاتُّ ورقُ الشجرِ » ، رواه البخاري (٥٦٦١) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه

(١) قال الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٩٥٤) : (ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمىٰ . . سأل زيدُ بن ثابت ربَّهُ ـ ويقال أيضاً أُبيُّ بن كعب ـ ألا يزالَ محموماً ، قال : فلم تكن الحمىٰ تفارقه في كل يوم حتىٰ مات ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار

وكذلك لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أذهبَ اللهُ كريمتيهِ لم يرضَ لهُ ثواباً دونَ الجنةِ » ، قال فقد رأيت الأنصار يتمنون العمىٰ) ، ثم قال (فلو لم يكن في ذلك إلا محبة الله ، وشهادته بطهرة العبد بالعلة . . لكان نصيباً موفوراً)

الحكمة الثالثة والثمانون بعد المئة (*)

إنْ أَرَدْتَ وُرُودَ ٱلْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ .. صَحِّحِ ٱلْفَقْرَ وٱلْفَاقَةَ لَدَيْكَ ؛ ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ﴾

هـٰذا مثلُ ما ذكرَهُ الآنَ ، وذكرُهُ الآيةَ عقيبَهُ إشارةٌ بديعةٌ .

وتصحيحُ الفقرِ والفاقةِ : هو التحقُّقُ بأوصافِ العبوديَّةِ المذكورةِ في المسألةِ التي تأتي بإثْرِ هـٰذهِ (١)

وممَّا يتعلَّقُ بظاهرِ الآيةِ التي استشهدَ بها المؤلفُ رحمَهُ اللهُ على طريقةِ القومِ (٢) : ما قالَ بعضُهم : (صدْقُ الفقيرِ : أخذُهُ الصدقةَ ممَّنْ يعطيهِ ، لا ممَّنْ تقبلُ إليهِ على يديهِ ، فالحقُّ تعالى هو المعطي على الحقيقةِ ؛ لأنَّهُ جعلَها لهم ، فإنْ قبلَها مِنَ الحقِّ فهو الصادقُ في فقرِهِ بعلوِّ همَّتِهِ ، ومَنْ قبلَها مِنَ الوسائطِ فهو المترسِّمُ بالفقرِ معَ دناءةِ همَّتِهِ)(٣)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى أن سنة الله في عباده أن يعاملهم على حسب أحوالهم ؛ فمن افتقر إليه أغناه ، ومن استغنى فطغى على سوء فعله جازاه ، ومن أظهر جهله علَّمه ، ومن تعالم أظهر جهله ، ومن تواضع رفعه ، ومن تكبَّر أهلكه وقصمه ، فسبحانه من حكيم عليم !
ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى حكاية : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۞ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا . . . ﴾ الآيات [القصص ٢٤ـ٢٦] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنِ استغنى بلهوٍ أو تجارةٍ استغنى الله عنه ، واللهُ غنيٌّ حميدٌ » ، رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٧٧١٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) انظر (ص ٦٨٠)

(٢) ولا يخفى أصولاً : أن الإشارات لا تمنع من إثبات حقائق العبارات .

(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٧٩) .

الحكمة الرابعة والثمانون بعد المئة] (*)

تَحقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمِدَّكَ بِأَوْصَافِهِ ؛ تَحقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِدَّكَ بِعِزِّهِ ، تَحقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدَّكَ بِقُدْرَتِهِ ، تَحقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدَّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

هٰذا مناسبٌ لما ذكرَهُ مِنَ الفاقاتِ والمواهبِ ، وقد تقدَّمَ التنبيهُ علىٰ هٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (كنْ بأوصافِ ربوبيتِهِ متعلِّقاً ، وبأوصافِ عبوديَّتِكَ متحقِّقاً)(١) .

قالَ سيدي أبو الحسنِ الشاذليُّ بعدَ كلامٍ ذكرَهُ : (وتصحيحُ العبوديَّةِ : ملازمةُ الفقرِ والعجزِ والضعفِ والذلِّ للهِ تعالىٰ ، وأضدادُها أوصافُ الربوبيَّةِ ، فما لكَ ولها ؟! فلازمْ أوصافَكَ ، وتعلَّقْ بأوصافِهِ ، وَقُلْ مِنْ بساطِ الفقرِ الحقيقيِّ : يا غنيُّ ؛ مَنْ للفقيرِ غيرُكَ ؟! ومِنْ بساطِ الضعفِ : يا قويُّ ؛ مَنْ للضعيفِ غيرُكَ ؟!

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالى الحقُّ ، وهو يحبُّ الحقَّ ، فحقُّ الله تعالىٰ في أوصافه : أن تثبت له كلُّ صفة كمال ، وتنزُّهه عن كل صفة نقص ؛ وجوداً وسلباً واعتباراً ، وحقُّ العبد في أوصافه : أنه ممكن حادث ، مفتقر في وجوده وبقائه لمولاه وخالقه ، فله في ذلك تقابلٌ في الأوصاف ؛ لعدم المجانسة والمماثلة والشَّبَهِ بين الحادث والقديم ، وليس ذلك علىٰ سبيل الضدية أو النقيضية الحقيقية ، بل علىٰ سبيل توهم ذلك .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تطروني كما أُطريَ عيسى بن مريمَ ، وقولوا : عبدُ اللهِ ورسولُهُ » ، رواه البخاري (٣٤٤٥) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٥٥١) .

ومِنْ بساطِ العجزِ : يا قادرُ ؛ مَنْ للعاجزِ غيرُكَ ؟! ومِنْ بساطِ الذلِّ : يا عزيزُ ؛ مَنْ للذليلِ غيرُكَ ؟!.. تجدِ الإجابةَ كأنَّها طوعُ يدِكَ ، واستعينوا باللهِ واصبروا ؛ إنَّ اللهَ معَ الصَّابرينَ) انتهىٰ كلامُ سيدي أبي الحسنِ رحمةُ اللهِ عليهِ ، وهو معنىٰ ما ذكرَهُ المؤلفُ ها هنا ، وأكثرُ كلامِ المؤلفِ جارٍ علىٰ منهاجِ كلامِ أبي الحسنِ ، رضيَ اللهُ عنهُما ، ونفعَ بهما

* * *

الباب العشرون

فيما يتعلق بالكرامة من الأدب

الحكمة الخامسة والثمانون بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

رُبَّمَا رُزِقَ ٱلْكَرَامَةَ ، مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ ٱلِاسْتِقَامَةُ

الكرامةُ الحقيقيَّةُ (١): إنَّما هي حصولُ الاستقامةِ ، والوصولُ إلىٰ كمالِها ، ومرجعُها إلىٰ أمرين صحَّةِ الإيمانِ بالله عزَّ وجلَّ ، واتباعِ ما جاءَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ظاهراً وباطناً

فالواجبُ على العبدِ ألا يحرصَ إلا عليها (٢) ، ولا تكونَ لهُ همَّةٌ إلا في الوصولِ إليها

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت الكرامات ، وأنها لا تكون إلا علىٰ أيدي أهل الإيمان ، وليست بالضرورة أن تقع علىٰ أيدي أهل الكمال منهم ، أما وقوع الخارقة علىٰ أيدي عامة المؤمنين . . فتلك هي المعونة لا الكرامة .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] ، وروى ابن أبي الدنيا في « اليقين » (١١) عن بكر بن عبد الله المزني قال : فقدَ الحواريون نبيَّهم عيسىٰ عليهِ السلامُ ، فقيلَ لهم : توجَّهَ نحوَ البحرِ ، فانطلقوا يطلبونَهُ ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشي على الماء ؛ يرفعه الموج مرة ويضعه أخرىٰ ، وعليه كساء مرتد بنصفه ومتزر بنصفه ، حتى انتهىٰ إليهم ، فقال بعضهم : ألا أجيءُ إليكَ يا نبيَّ اللهِ ؟ قال : بلىٰ ، فوضع رجله في الماءِ ، ثم ذهب ليضع الأخرىٰ ، فقال : غرقتُ يا نبي اللهِ ، قال : أرني يدكَ يا قصيرَ الإيمانِ ، لو أن لابن آدمَ مِنَ اليقين قدر شعيرة مشىٰ على الماء

(١) بمعنىٰ : ما يكرم به الله تعالىٰ عباده ، وليس هـٰذا حدّاً للكرامة الشرعية المعروفة عند القوم .

(٢) يعني : الاستقامة .

وأمَّا الكرامةُ بمعنىٰ خرْقِ العادةِ : فلا عبرةَ بها عندَ المحقِّقينَ ؛ إذْ قد يُرزقُ ذلكَ مَنْ لم تكملْ لهُ الاستقامةُ .

قالَ سيدي أبو الحسنِ الشاذليُّ (إنَّهما كرامتانِ جامعتانِ محيطتانِ كرامةُ الإيمانِ بمزيدِ الإيقانِ وشهودِ العيانِ ، وكرامةُ العملِ على الاقتداءِ والمتابعةِ ، ومجانبةِ الدعوىٰ والمخادعةِ ، فمَنْ أُعطيَهما ، ثم جعلَ يشتاقُ إلىٰ غيرِهما . . فهو عبدٌ مفترٍ كذَّابٌ ، أو ذو خطأٍ في العلمِ والعملِ بالصوابِ ، كمَنْ أُكرمَ بشهودِ الملكِ علىٰ نعتِ الرضا ، فجعلَ يشتاقُ إلىٰ سياسةِ الدَّوابِّ وخَلْعِ الرضا

وكلُّ كرامةٍ لا يصحبُها الرضا عنِ اللهِ ومِنَ اللهِ . . فصاحبُها مستدرجٌ مغرورٌ ، وناقصٌ أو هالكٌ مثبورٌ)(١)

وقالَ سيدي أبو العباسِ المرسيُّ : (ليسَ الشأنُ مَنْ تُطوىٰ لهُ الأرضُ فإذا هو بمكَّةَ وغيرِها مِنَ البلدانِ ، إنَّما الشأنُ مَنْ تُطوىٰ عنهُ أوصافُ نفسِهِ فإذا هو عندَ ربِّهِ)(٢)

وذُكِرَ عندَ سهلِ بنِ عبدِ اللهِ الكراماتُ ، فقالَ : وما الآياتُ ؟! وما الكراماتُ ؟! هي شيءٌ تنقضي لوقتِها ، ولٰكنْ أكبرُ الكراماتِ أنْ تُبدِّلَ خُلُقاً مذموماً مِنْ أخلاقِ نفسِكَ بخُلُقٍ محمودٍ(٣)

وقالَ بعضُ المشايخِ (لا تتعجَّبوا ممَّنْ لم يضعْ في جيبهِ شيئاً ، فيدخلُ يدَهُ في جيبِهِ ، فيخرجُ منهُ ما يريدُ ، ولٰكنْ تعجَّبوا ممَّنْ يضعُ في جيبِهِ شيئاً ، فيدخلُ يدَهُ في جيبِهِ ، فلا يجدُهُ ، فلا يتغيَّرُ)(٤)

وقيلَ لأبي محمدٍ المرتعشِ : إنَّ فلاناً يمشي على الماءِ ، فقالَ عندي : مَنْ

---

(١) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ١٢٤) .

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٧١)

(٣) أورده السراج في « اللمع » (ص ٤٠٠)

(٤) أورده السراج في « اللمع » (ص ٤٠٢) .

مكَّنَهُ اللهُ مِنْ مخالفةِ هواهُ . . فهو أعظمُ مِنَ المشْيِ على الماءِ وفي الهواءِ[١]

وقالَ أبو يزيدَ : (لو أنَّ رجلاً بسطَ مصلاهُ على الماءِ ، وتربَّعَ في الهواءِ . . فلا تغترُّوا بهِ حتىٰ تنظروا كيفَ تجدونَهُ في الأمرِ والنهْيِ)[٢]

وقيلَ لهُ : فلانٌ يُقالُ : إنَّهُ يمرُّ في ليلةٍ إلىٰ مكَّةَ ، فقالَ : الشيطانُ يمرُّ في لحظةٍ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ وهو في لعنةِ اللهِ[٣]

وقيلَ لهُ : إنَّ فلاناً يمشي على الماءِ ، فقالَ : الحيتانُ في الماءِ ، والطيرُ في الهواءِ . . أعجبُ مِنْ ذلكَ[٤]

وقالَ الجنيدُ (حجابُ قلوبِ الخاصَّةِ المختصَّةِ بهِ . . رؤيةُ النعمِ ، والتلذُّذُ بالعطاءِ ، والسكونُ إلى الكراماتِ)[٥]

وقد تقدَّمَ مثلُ هـٰذا عندَ قولِهِ : (ليسَ كلُّ مَنْ ثبتَ تخصيصُهُ كمُلَ تخليصُهُ)[٦] .

* *

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٥١) ، والقشيري في « رسالته » (ص ١٩٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ١٢٩) وزادا : (وحفظ الحدود وأداء الشريعة)

(٣) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٧١٨)

(٤) أورده السراج في « اللمع » (ص ٤٠٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٧١٨) .

(٥) أورده السراج في « اللمع » (ص ٤٠٠) .

(٦) انظر (ص ٥٠٨)

الحكمة السادسة والثمانون بعد المئة (*)

مِنْ عَلامَةِ إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ لَكَ فِي ٱلشَّيْءِ.. إِدَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ ٱلنَّتَائِجِ

لا اعتبارَ بما يقومُ فيهِ العبدُ بنفسِهِ مِنْ عملٍ أو حالٍ ، وإنَّما العبرةُ بما يقيمُهُ فيهِ ربُّهُ.

وعلامةُ إقامةِ اللهِ عبدَهُ في الشيءِ : أنْ يديمَهُ عليهِ ، ويحصلَ لهُ ثمرتُهُ ونتيجتُهُ[1]

وينبني على هاذا آدابٌ ومعاملاتٌ ، وقد أشرنا إلىٰ نحوٍ مِنْ هاذا عندَ قولِ المؤلفِ : (إرادتُكَ التجريدَ معَ إقامةِ اللهِ إيَّاكَ في الأسبابِ . . .) إلىٰ آخرِهِ[2]

* * *

(*) ترجع هاذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات الأحوال والمقامات ، وما يلحق بها من بوارق ولوائح ، وحقائق الأشياء كمالها في علم الله ابتداء ، وظهور علامات التمكين انتهاءً ؛ فالعبرة بما هو من الله تعالىٰ ، لا ما هو من الحادث ، ومن عرف هاذا أراح واستراح
ويطلب معنىٰ هاذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٣] ، **وقوله تعالىٰ :** ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف ٨٤] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام :** « مَنْ أصابَ مِنْ شيءٍ فليلزمْهُ » ، رواه ابن ماجه (٢١٤٧) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(١) روى البيهقي في « شعب الإيمان » (١١٨٦) عن نافع قال : كنت أجهز إلى الشام وإلىٰ مصر ، فكان الله يرزق خيراً كثيراً ، فجهزت إلى العراق ، فلم يرجع رأس مالي ، فدخلت علىٰ عائشة ، فقالت : يا بنيَّ ؛ الزمْ تجارتك ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا فُتحَ لأحدِكم رزقٌ من بابٍ . . فليلزمْهُ »

(٢) انظر (ص ١٦٥) .

الحكمة السابعة والثمانون بعد المئة (*)

مَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِهِ أَصْمَتَتْهُ ٱلإِسَاءَةُ ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِ ٱللهِ إِلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ .

مَنْ شاهدَ إحسانَ نفسِهِ ، وعملَهُ بطاعةِ ربِّهِ . . انبسطَ لسانُهُ بالنصيحةِ والموعظةِ لعبادِ اللهِ ، فإنْ وقعَتْ منهُ إساءةٌ ومخالفةٌ انقبضَ عن ذلكَ وصمتَ ؛ لما يعتريهِ مِنَ الخجلِ والحياءِ

وهٰذهِ طريقةُ أهلِ التكليفِ ، الذينَ ينظرونَ إلىٰ ما منهم إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ عملٍ صالحٍ أو طالحٍ

ومَنْ شاهدَ إحسانَ اللهِ إليهِ ، وغابَ عن رؤيةِ إحسانِهِ هو . . انبسطَ لسانُهُ في الحالينِ مِنْ غيرِ فرقٍ ؛ لأنَّ مشاهدتَهُ لوحدانيَّةِ ربِّهِ وقيوميَّتِهِ في الحالينِ أوجبَتْ جرأتَهُ علىٰ ذلكَ ، وقد قيلَ : (جرأةُ الجَنانِ : تُنطِقُ اللسانَ ، وتُطلِقُ العِنانَ)

وهٰذهِ طريقةُ أهلِ التعريفِ ، الذينَ ينظرونَ إلىٰ ما مِنَ اللهِ تعالىٰ إليهم .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات مقام الفرق ، والغَيبة والشهود والحضور ، وإلىٰ أنه تعالىٰ يخلق وارداتِهِ في قلوب عباده علىٰ حسب أحوالهم ومشاهداتهم .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٣٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ألا أخبرُكم عن النفرِ الثلاثةِ ؟! أمّا أحدُهم فأوىٰ إلى اللهِ فآواهُ اللهُ ، وأمّا الآخرُ فاستحيا فاستحيا اللهُ منهُ ، وأمّا الآخرُ فأعرضَ فأعرضَ اللهُ عنهُ » ، رواه البخاري (٦٦) من حديث سيدنا أبي واقد الليثي رضي الله عنه .

قلتُ : وما ذكرتُهُ ها هنا مِنْ لفظتَي التعريفِ والتكليفِ ، وما نبَّهتُ بهِ عليهما مِنَ الكلامِ اللطيفِ . . أشرتُ بهِ إلىٰ مسألةٍ عظيمةٍ مهمَّةٍ ، ينبني عليها آدابٌ وأحكامٌ جمَّةٌ ؛ وهي مسألةُ اختلافِ الناسِ في معاملتِهم لربِّهم ، بحسبِ تباينِهم في مراتبِ قربِهم ؛ مِنْ أحكامِها مسألةُ التعبيرِ التي اقتصرَ المؤلفُ عليها في هـٰذا الفصلِ ، ولم يذكرْ معَها سواها ممَّا ينبني عليهِ الأصلُ

وقد نبَّهَ عليها في « لطائفِ المننِ » ، وأتىٰ فيها بكلامٍ مستوعبٍ حسنٍ ، فرأينا أنْ ننقلَهُ ها هنا بكمالِهِ ؛ ليتبيَّنَ بهِ مقصدُنا في تفصيلِهِ وإجمالِهِ ؛ قالَ فيهِ رضيَ اللهُ عنهُ ، عن شيخِهِ أبي العباس

(الناسُ علىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : عبدٌ هو بشهودِ ما منهُ إلى اللهِ ، وعبدٌ هو بشهودِ ما مِنَ اللهِ إليهِ ، وعبدٌ هو بشهودِ ما مِنَ اللهِ إلى اللهِ .

قالَ : ومعنىٰ كلامِ الشيخِ هـٰذا : أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يكونُ الغالبُ عليهِ شهودَ تقصيرِهِ وإساءتِهِ ، فيقومُ مقامَ المعتذرِ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، وتلازمُهُ الأحزانُ ، وتحالفُهُ الأشجانُ ، ويستولي عليهِ الكمدُ كلَّما بدَتْ منهُ سيئةٌ ، أو كُشِفَ لهُ مِنْ نفسِهِ عن أوصافِ سوءٍ

وعبدٌ آخرُ الغالبُ عليهِ شهودُ ما مِنَ اللهِ إليهِ ؛ مِنَ الفضلِ والإحسانِ والجودِ والامتنانِ ، فهـٰذا تلازمُهُ المسرَّةُ باللهِ ، والفرحُ بنعمةِ اللهِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨]

فالأوَّلُ : هو حالُ العُبَّادِ والزهَّادِ ، والثاني : حالُ أهلِ العنايةِ والودادِ .

الأوَّلُ : شأنُ أهلِ التكليفِ ، والثاني : شأنُ أهلِ التعريفِ .

الأوَّلُ : حالُ أهلِ اليقظةِ ، والثاني : حالُ أهلِ المعرفةِ

فلذلكَ قالَ الشيخُ أبو الحسنِ : العارفُ مَنْ عَرَّقَ شدائدَ الزمانِ في الألطافِ

الجاريةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، وغرَّقَ إساءتَهُ في إحسانِ اللهِ إليهِ[1] ؛ ﴿ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩]

وقالَ رضيَ اللهُ عنهُ : قليلُ العملِ معَ شهودِ المنَّةِ مِنَ اللهِ . خيرٌ مِنْ كثيرِ العملِ معَ رؤيةِ التقصيرِ مِنَ النفسِ .

وقالَ بعضُ أهلِ المعرفةِ لا يخلو شهودُ التقصيرِ مِنَ الشركِ في التقديرِ

وقالَ الشيخُ أبو الحسنِ : قرأتُ ليلةً مِنَ الليالي : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ إلىٰ أنِ انتهيتُ إلىٰ قولِهِ ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [سورة (الناس)] فقيلَ لي شرُّ الوسواسِ وسواسٌ يدخلُ بينَكَ وبينَ حبيبِكَ ، ينسيكَ ألطافَهُ الحسنةَ ، ويذكِّرُكَ أفعالَكَ السيئةَ ، ويقلِّلُ عندَكَ ذاتَ اليمينِ ، ويكثِّرُ عندَكَ ذاتَ الشمالِ ؛ ليعدلَ بكَ عن حسْنِ الظنِّ باللهِ ورسولِهِ إلىٰ سوءِ الظنِّ باللهِ ورسولِهِ

فاحذرْ هٰذا البابَ ؛ فقد أُخِذَ منهُ كثيرٌ مِنَ الزهَّادِ والعُبَّادِ ، وأهلِ الجدِّ والاجتهادِ ، ولذلكَ قلَّ أنْ تجدَ الزاهدَ والعابدَ إلا مكموداً حزيناً ؛ لأنَّهُ علمَ أنَّ اللهَ سبحانَهُ طالبَهُ بالعبوديَّةِ ، وحمَّلَهُ أعباءَها ، وألزمَهُ ما أشفقَتِ السماواتُ والأرضُ والجبالُ مِنْ حملِهِ ؛ قالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب ٧٢]

فعاينَ الزهَّادُ ثقلَ ما حُمِّلوا ، ولم ينفذوا إلىٰ شهودِ لطفِ اللهِ الحاملِ للأثقالِ عن عبادِهِ المتوكِّلينَ عليهِ ؛ فلذلكَ لزمَهمُ الكمدُ ، واستولىٰ عليهمُ الحزنُ .

وأهلُ المعرفةِ باللهِ علموا أنَّهم حُمِّلوا مِنَ التكليفِ أمراً عظيماً ، وعلموا ضعفَهم عن حملِهِ والقيامِ بهِ متىٰ وُكِلُوا إلىٰ نفوسِهم ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ

---

(١) كذا في النسخ المعتمدة ، وضبطت بالشكل في (د) أيضاً ، وفي (هـ) ومطبوع « لطائف المنن » : (عرف) في الموضعين بدل (غرّق)

ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] ، وعلموا أنَّهم إذا رجعوا إلى اللهِ حملَ عنهم ما حمَّلَهم ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق : ٣] ، فرجعوا إليهِ بصدْقِ الرُّجْعىٰ ، فحملَ عنهمُ الأثقالَ ، فساروا إلى اللهِ محمولينَ في محفَّاتِ المِنَنِ[١] ، يُروَّحُ عليهم بنفحاتِ اللطفِ .

والآخرونَ ساروا إلى اللهِ حاملينَ لأثقالِ التكاليفِ ، فتلازمُهمُ المشقَّاتُ ، وتطولُ عليهمُ المسافاتُ ، فإنْ شاءَ أدركَهم بلطفِهِ ، فأخذَ بأيديهم مِنْ شهودِ معاملتِهم إلىٰ شهودِ سابقِ توفيقِهِ لهم ، فطابَتْ لهمُ الأوقاتُ ، وأشرقَتْ عليهمُ العناياتُ .

وأمَّا القسمُ الثالثُ ؛ وهمُ الذينَ أمدَّهمُ اللهُ تعالىٰ بشهودِ ما مِنَ اللهِ إلى اللهِ[٢] هٰؤلاءِ هم أهلُ التوحيدِ ، والداخلونَ في ميادينِ التفريدِ .

وأهلُ القسمِ الأوَّلِ ؛ وهمُ الذينَ غلبَ عليهم شهودُ ما منهم إلى اللهِ : لم يخرجوا عن باطنِ الشركِ ، وإنْ خرجوا عن ظاهرِهِ ؛ لأنَّهم أقبلوا علىٰ نفوسِهم موبِّخينَ لها ، شاهدينَ لتقصيرِهم وإساءتِهم ، فلو لم يشهدوا الفعلَ لها أو منها . . ما توجَّهوا إليها بالتوبيخِ إذا قصَّرَتْ ، فلذلكَ قالَ ذلكَ العارفُ الذي سبقَ قولُهُ : لا يخلو شهودُ التقصيرِ مِنَ الشركِ في التقديرِ[٣]

فإنْ قلتَ : إذا كانَ توبيخُ النفسِ وذمُّها يستلزمُ دقيقةَ الشركِ . . فكيفَ نصنعُ واللهُ تعالىٰ قد ذمَّ النفسَ ، وأمرَنا بتوبيخِها إذا قصَّرَتْ ، ووبَّخَها هو إذا كانَتْ كذلكَ ؟

فالجوابُ أنَّ ذمَّها لأنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَكَ بذمِّها[٤] ، مِنْ غيرِ أنْ تشهدَ لها قدرةً ، أو تضيفَ إليها فعلاً تراها هي الفاعلةَ لهُ

(١) **المحفَّات** : جمع مِحَفَّة ؛ مركب للنساء كالهودج إلا أنه لا يقبَّب .

(٢) في (ج) : (مع) بدل (أمدَّهم) .

(٣) انظر (ص ٦٩١) .

(٤) في مطبوع « لطائف المنن » : (أن ذمَّها لازم ؛ لأن الله أمرك بذمِّها) .

وأمَّا **القسمُ الثاني** ؛ وهمُ الذينَ شهدوا ما مِنَ اللهِ إليهِ : فهو وإنْ كانَ خيراً مِنَ القسمِ الأول . . لكنَّهُ ما سلمَ مِنْ إثباتٍ لنفسِهِ ؛ إذْ رأىٰ نفسَهُ مهداةً إليها هدايا الحقِّ ، فلولا إثباتُهُ لنفسِهِ ما شهدَ ذلكَ

فلأجلِ هٰذينِ المعنيينِ آثرَ أهلُ اللهِ تعالى **القسمَ الثالثَ** ؛ وهو أنْ يكونَ بشهودِ ما مِنَ اللهِ إلى اللهِ ، فافهمْ) انتهىٰ كلامُهُ رحمَهُ اللهُ[1] ، ولأجلِ ما تضمَّنَهُ مِنَ الفوائدِ الجليلةِ ، والمقاصدِ النبيلةِ . . دعانا قربُ المناسبةِ إلىٰ ذكرِهِ علىٰ ما هو عليهِ في هٰذا الموضعِ ، واللهُ الموفِّقُ ، لا ربَّ غيرُهُ

* *

(١) لطائف المنن (ص ١٦٨ـ١٧٠) .
وقد قال الإمام المحاسبي في « آداب النفوس » (ص ١٣٢) : (اجتهد ولا تيئس ، ولا تقل عند ذكر الصالحين : لولا ذنوبي لرجوت طريقة الصالحين ، فيفتِّرَك ذكر ذنوبك عن العمل ، فإن صاحب الحمل الثقيل أولىٰ أن يجتهد في إسقاط ما قد حمل من المُخِفِّ الذي ليس علىٰ ظهره شيء)

الحكمة الثامنة والثمانون بعد المئة (*)

تَسْبِقُ أَنْوَارُ ٱلْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ ، فَحَيْثُ صَارَ ٱلتَّنْوِيرُ وَصَلَ ٱلتَّعْبِيرُ .

الحكماءُ : همُ العارفونَ باللهِ تعالى العالمونَ بهِ ، **والأنوارُ المنسوبةُ إليهم** : هي أنوارُ معرفتِهم ، وهي قوَّةُ يقينِهم بأنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ اللهِ تعالىٰ ، لا شريكَ لهُ فيها

فإذا أرادوا إرشادَ عبادِ اللهِ تعالىٰ ونصيحتَهم بإذنٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ لهم . . سبقَتْ أنوارُ قلوبِهم إلى اللهِ تعالىٰ ؛ باللَّجأِ والافتقارِ إليهِ في أنْ يتولَّىٰ لهم أمرَ قلوبِ عبادِهِ ؛ بأنْ يجعلَ فيها أهليَّةً واستعداداً لقبولِ ما يريدونَ إيرادَهُ عليهم مِنْ كلامِ الحِكمةِ ، فيجيبُهم إلىٰ ذلكَ ، فإذا تكلَّموا بهِ تلقَّتْهُ قلوبُهمُ التي وصلَ إليها آثارُ أنوارِ أسرارِ الحكماءِ كما تتلقَّى الأرضُ الميتةُ وابلَ المطرِ ، فينتفعونَ بذلكَ أتمَّ انتفاعٍ

وقد أوصىٰ لقمانُ الحكيمُ ولدَهُ ، ثم قالَ يا بُنيَّ ؛ ما بلغتَ مِنْ حكمتِكَ ؟

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن السمع والفهْمَ والاعتبار كلُّ ذلك بخلْق الله تعالى ابتداءً من غير واسطة ، إلا أنه سبحانه أجرىٰ عادته بخلق أسباب عادية تقارن ذلك ، فإذا أراد تعالىٰ لقلبٍ اليقظة والفهم شرح صدر المخاطَب لقبول كلام المخاطِب ، ولذلك إذا أراد بعبد خيراً أسمعه كلام خواصه من أهل الحكمة ، وهيَّأ صدره بنور الحكمة المتلقاة من الحكيم لقبول كلامه وفهمه ، وقد يكون هـٰذا بعد ضراعته وابتهاله لمولاه أن يشرح الصدور لقبول الحق .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ حكاية : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران : ١٩٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ اهدِ قومي ؛ فإنهم لا يعلمونَ » ، رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٣٧٥) من حديث عبد الله بن عبيد مرسلاً

قالَ لا أتكلَّفُ ما لا يعنيني ، قالَ : يا بُنَيَّ ؛ إنَّهُ قد بقيَ شيءٌ آخرُ ؛ جالسِ العلماءَ وزاحِمْهم بركبتيكَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يحيي القلوبَ الميتةَ بنورِ الحكمةِ كما يحيي الأرضَ الميتةَ بوابلِ المطرِ(١)

وإنَّما قلنا (الحكماءُ : همُ العارفونَ باللهِ تعالى العالمونَ بهِ) لأنَّهم خائفونَ مِنَ اللهِ تعالىٰ(٢) ، وفي بعضِ الآثارِ : « رَأْسُ ٱلْحِكْمَةِ مَخَافَةُ ٱللهِ »(٣) ، والخوفُ مِنْ ثمراتِ العلمِ باللهِ تعالىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، **والعلمُ الموجبُ للخشيةِ هو العلمُ باللهِ تعالىٰ فقطْ** ، فالحكماءُ همُ العالمونَ باللهِ تعالىٰ وإنْ كانوا ضعفاءَ في سائرِ العلومِ الرسميّةِ(٤) ، كليلةً ألسنتُهم في البيانِ عنها

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٧٤) بلفظه هنا ، ومالك في « الموطأ » (٢/ ١٠٠٢) من قوله : (يا بني ؛ جالس . . .) .

(٢) بنى الشارح قوله على قياس اقتراني من الشكل الأول ؛ كبراه : كل من خاف الله تعالىٰ فهو حكيم ، وصغراه : العارفون بالله يخافون الله تعالىٰ ، ونتيجته : العارفون بالله تعالىٰ حكماء

(٣) رواه الحكيم الترمذي (١١٥٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٣٠) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ [يونس : ٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم ٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [النجم : ٢٩ـ٣٠] ، فهـٰذه آيات مباركة تذمُّ من أخذ بعلوم الدنيا الفانية مع إعراضه عن علوم الآخرة الباقية

[الحكمة التاسعة والثمانون بعد المئة] (*)

كُلُّ كَلامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ ٱلْقَلْبِ ٱلَّذي مِنْهُ بَرَزَ .

اللسانُ ترجمانُ القلبِ ، فإذا صفا مِنَ الأكدارِ ، وتزكَّىٰ مِنَ الأغيارِ ، وأشرقَتْ فيهِ الأنوارُ . كانَتْ ترجمانيَّةُ لسانِهِ علىٰ حسَبِ ذلكَ ، فيتكلَّمُ بالكلامِ النورانيِّ الذي يلجُ آذانَ السامعينَ ، فتنفتحُ بهِ أقفالُ قلوبِهم ، ويستجيبونَ لنداءِ الحقِّ حبيبِهم .

روى الحافظُ أبو نعيمٍ عن سعيدِ بنِ عاصمٍ قالَ كانَ قاصٌّ يجلسُ قريباً مِنْ مسجدِ محمدِ بنِ واسعٍ ، فقالَ يوماً وهو يوبِّخُ جلساءَهُ : ما لي أرى القلبَ لا يخشعُ ؟! وما لي أرىٰ العينَ لا تدمعُ ؟! وما لي أرى الجلودَ لا تقشعرُّ ؟!

فقالَ لهُ محمدُ بنُ واسعٍ يا عبدَ اللهِ ؛ ما أرى القومَ أُتُوا إلا مِنْ قبلِكَ ؛ إنَّ الذكرَ إذا خرجَ مِنَ القلبِ وقعَ على القلبِ(١)

قلتُ : وقد حازَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ قصبَ السبقِ في هـٰذا المعنى الذي

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه أبدع خلق الإنسان ، وأجلىٰ في صنعه بدائع حكمته ، وطوىٰ في خلقه عالمي الملك والملكوت ، وتجلَّىٰ بصفاته الوجودية فيه ؛ من حياة وعلم وإرادة وقدرة وسمع وبصر وكلام ، وجعل القلب أنبلَ ما فيه ، وراعياً لجملة الأعضاء ، فكان ما يظهر عليها بارزاً علىٰ التحقيق عنه ، ومن ذلك كلام اللسان .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٨٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً ؛ إذا صلحَتْ صلحَ الجسدُ كلُّهُ ، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّهُ ؛ ألا وهي القلبُ » ، رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) من حديث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥١) .

ذكرَهُ[1] ، ومَنْ مارسَ كلامَهُ في هٰذا الكتابِ وفي غيرِهِ حصلَ لهُ منهُ التأثيرُ المحمودُ ، فسلَّمَ ما قلناهُ .

وكفىٰ بشهادةِ شيخِهِ أبي العباسِ المرسيِّ رحمَهُ اللهُ علىٰ عظمِ قدرِهِ ودعائِهِ لهُ برهاناً علىٰ ذلكَ ؛ قالَ في « لطائفِ المننِ » : (وكنتُ قلتُ لبعضِ تلامذةِ الشيخِ ـ يعني : أبا العباسِ ـ : أريدُ لو نظرَ إليَّ الشيخُ برعايتِهِ ، وجعلَني في خاطرِهِ ، فقالَ ذلكَ للشيخِ ، فلمَّا دخلتُ على الشيخِ قالَ : لا تطالبوا الشيخَ بأنْ تكونوا في خاطرِهِ ، بل طالبوا أنفسَكم أنْ يكونَ الشيخُ في خاطرِكم ، فعلىٰ مقدارِ ما يكونُ عندَكم تكونوا عندَهُ

ثم قالَ : أيُّ شيءٍ تريدُ أنْ تكونَ ؟ واللهِ ؛ ليكونَنَّ لكَ شأنٌ عظيمٌ ، واللهِ ؛ ليكونَنَّ لكَ كذا وكذا ، لم أثبتْ منهُ إلا قولَهُ : ليكونَنَّ لكَ شأنٌ عظيمٌ

قالَ : فكانَ مِنْ فضلِ اللهِ سبحانَهُ ما لا أنكرُهُ .

قالَ : وأخبرَني سيدي جمالُ الدينِ ولدُ الشيخِ قالَ : قلتُ للشيخِ : هم يريدونَ أنْ يصدِّروا ابنَ عطاءٍ في الفقهِ ، فقالَ الشيخُ : هم يصدِّرونَهُ في الفقهِ ، وأنا أصدِّرُهُ في التصوُّفِ .

قالَ : ودخلتُ عليهِ فقالَ : إذا عُوفيَ الفقيهُ ناصرُ الدينِ يجلسُكَ في موضعِ جدِّكَ ، ويجلسُ الفقيهُ مِنْ ناحيةٍ ، وأنا مِنْ ناحيةٍ ، وتتكلمُ إنْ شاءَ اللهُ في العِلْمينِ ، فكانَ ما أخبرَ بهِ .

قالَ : وسمعتُهُ يقولُ : أريدُ أنْ أستنسخَ كتابَ « التهذيبِ » لولدي جمالِ الدينِ ، فذهبتُ أنا فاستنسختُهُ مِنْ غيرِ أنْ أُعلمَ الشيخَ ، وأتيتُهُ بالجزءِ الأوَّلِ ، فقالَ : ما هٰذا ؟ قلتُ : كتابُ « التهذيبِ » استنسختُهُ لكم ، فأخذَهُ ، فلمَّا نهضَ ليقومَ

---

(١) قوله : (قصب السبق) أصله : أنهم كانوا ينصبون في حلبة السباق قصبة ، فمن سبق اقتلعها وأخذها ؛ ليعلم أنه السابق من غير نزاع .

قالَ : اجعلْ بالَكَ : **الوليُّ لا يتفضَّلُ عليهِ أحدٌ** . تجدْ هـٰذا إنْ شاءَ اللهُ في ميزانِكَ .

فلمَّا أتيتُهُ بالجزءِ الثاني لقيَني بعضُ أصحابِهِ عندَ نزولي مِنْ عندِهِ ، قالَ : قالَ الشيخُ عنكَ : واللهِ ؛ **لأجعلَنَّهُ عيناً مِنْ عيونِ اللهِ يُقتدىٰ بهِ في علمِ الظاهرِ والباطنِ** .

فلمَّا أتيتُهُ بالجزءِ الثالثِ ونزلتُ مِنْ عندِهِ . . لقيَني بعضُ أصحابِهِ ، وقالَ طلعتُ عندَ الشيخِ ، فوجدتُ عندَهُ مجلَّدةً حمراءَ ، فقالَ : هـٰذا الكتابُ استنسخَهُ ليَ ابنُ عطاءِ اللهِ ، واللهِ ؛ **ما أرضىٰ لهُ بجلسةِ جدِّهِ ، ولـٰكنْ بزيادةِ التصوُّفِ** .

قالَ : وأخبرَني بعضُ أصحابِهِ قالَ : قالَ الشيخُ يوماً : إذا جاءَ ابنُ فقيهِ الإسكندريةِ فأعلموني بهِ ، فلمَّا أتيتَ أعلمْنا الشيخَ بذلكَ ، فقالَ : تقدَّمْ ، فقدَّمَكَ بينَ يديهِ ، ثم قالَ : جاءَ جبريلُ عليهِ السلامُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعَهُ ملكُ الجبالِ حينَ كذَّبَتْهُ قريشٌ ، فقالَ لهُ : هـٰذا ملكُ الجبالِ قد أمرَهُ اللهُ أنْ يطيعَ أمرَكَ في قريشٍ ، فسلَّمَ عليهِ ملكُ الجبالِ ، ثم قالَ يا محمدُ ؛ إنْ شئتَ أنْ أُطبقَ عليهمُ الأخشبينِ فعلتُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ، وَلَـٰكِنْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ ٱللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُوَحِّدُ ٱللهَ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً »[1] ، فصبرَ عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجاءَ أنْ يُخرِجَ اللهُ مِنْ أصلابِهم ؛ **لذلكَ صبرنا علىٰ جدِّ هـٰذا الفقيهِ لأجلِ هـٰذا الفقيهِ** .

قالَ وخرجتُ يوماً مِنْ عندِ الفقيهِ المكينِ الأسمرِ ، وخرجَ معي أبو الحسنِ الجريريُّ ، وكانَ مِنْ أصحابِ الشيخِ أبي الحسنِ ، فسلمتُ عليهِ وسلَّمَ عليَّ ببشاشةٍ وإقبالٍ ، فقلتُ لهُ : مِنْ أينَ تعرفُني ؟ قالَ : وكيفَ لا أعرفُكَ ؟! كنتُ يوماً جالساً عندَ الشيخِ أبي العباسِ ، وكنتَ أنتَ عندَهُ ، فلمَّا نزلتَ قلتُ لهُ : يا سيدي ؛ إنَّهُ ليعجبُني هـٰذا الشابُّ ، انقطعَ فلانٌ وفلانٌ عنِ الملازمةِ ، وهـٰذا الشابُّ ملازمٌ ، قالَ : فقالَ الشيخُ يا أبا الحسنِ ؛ **لن يموتَ هـٰذا الشابُّ حتىٰ**

(١) رواه البخاري (٣٢٣١) ، ومسلم (١٧٩٥) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

يكونَ داعياً يدعو إلى اللهِ ، فكانَ ما قالَ الشيخُ)[1]

قالَ : (وكنتُ كثيراً ما يطرأُ عليَّ الوسواسُ في الطهارةِ ، فبلغَ ذلكَ الشيخَ ، فقالَ بلغَني أنَّ بكَ وسواساً في الوضوءِ ! قلتُ : نعم ، قالَ : هٰذهِ الطائفةُ تلعبُ بالشيطانِ ، لا الشيطانُ يلعبُ بها[2]

ثم مكثنا أياماً ودخلتُ عليهِ ، فقالَ ما حالُ ذلكَ الوسواسِ ؟ قلتُ على حالِهِ ، فقالَ : إنْ كنتَ لا تتركُ الوسوسةَ لا تعدْ تأتينا ، فشقَّ ذلكَ عليَّ ، وقطعَ اللهُ الوسواسَ عنِّي .

قالَ وكانَ رحمَهُ اللهُ يلقِّنُ للوسواسِ سبحانَ الملكِ الخلَّاقِ ، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر : ١٦ـ١٧] .

قالَ : وعملتُ قصيدةً أمدحُهُ بها[3] ، فقالَ حينَ أنشدتُ **أيَّدَكَ اللهُ بروحِ القدسِ**

قالَ : ثم عملتُ لهُ قصيدةً أخرىٰ بإشارتِهِ[4] ؛ جواباً لقصيدةٍ مدحَهُ بها إنسانٌ مِنْ

---

(١) لطائف المنن (ص ١٠٢ـ١٠٤) .

(٢) **وأصل هٰذا الكلام** : ما رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢١٩) أنه دخل فقير على الشيخ العارف المتكلم أبي عبد الله بن خفيف ، فقال له : بي وسوسة ، فقال الشيخ : عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان ، والآن الشيطان يسخر بهم !

(٣) مطلعها : (من الرمل)

برزَتْ سلمىٰ بأثناءِ الخيمْ ... فأرَتْنا البدرَ مِنْ تحتِ اللِّمَمْ

انظر « لطائف المنن » (ص ١٨٥) .

(٤) مطلعها : (من الكامل)

قِفْ بالديارِ فقد بدا مغناها ... فلمَنْ تسيرُ وما المرادُ سواها

وأرحْ قلوصَكَ قد بلغْتَ المنحنىٰ ... فلطالَما جهدَتْ ودامَ سُراها

انظر « لطائف المنن » (ص ١٨٦) ، وفي القصيدة بيتٌ كان يعجب العارف بالله أبا العباس المرسي ، وهو قوله

كم مِنْ قلوبٍ قد أُميتَتْ بالهوىٰ ... أحيا بها مِنْ بعدِما أحياها

بلادِ إخميمَ ، فلمَّا قُرِئَتْ عليهِ قالَ صحبَني هـٰذا الفقيهُ وبهِ مرضانِ وقد عافاهُ اللهُ منهما ، ولا بدَّ أنْ يجلسَ ويتحدَّثَ في العِلْمين

يشيرُ الشيخُ : إلىٰ مرضِ الوسواسِ ، قالَ فلقدِ انقطعَ عنِّي ببركةِ الشيخِ ، حتىٰ صرتُ أخافُ أنْ أكونَ لشدَّةِ التوسعةِ التي أجدُها . . قد تساهلْتُ في بعضِ الأمورِ[١] ، والمرضُ الآخرُ كانَ بي ألمٌ برأسي ، فشكوتُ ذلكَ إليهِ ، فدعا لي ، فعافاني اللهُ وشفاني

قالَ : وبتُّ ليلةً مِنَ الليالي مهموماً ، فرأيتُ الشيخَ في المنامِ ، فشكوتُ إليهِ ما أنا فيهِ ، فقالَ : اسكتْ ، واللهِ ؛ لأعلِّمَنَّكَ علماً عظيماً

قالَ : فلمَّا انتبهتُ جئتُ إلى الشيخِ ، فقصصتُ عليهِ الرؤيا ، فقالَ : هـٰذا يكونُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ

قالَ وجاءَ يوماً مِنَ السفرِ ، فخرجنا للقائِهِ ، فلمَّا سلمتُ عليهِ قالَ لي : يا أحمدُ ؛ كانَ اللهُ لكَ ، ولطفَ بكَ ، وسلكَ بكَ سبيلَ أوليائِهِ ، وبهَّاكَ بينَ خلقِهِ .

قالَ : فلقد وجدتُ بركةَ هـٰذا الدعاءِ ، وعلمتُ أنَّهُ لا يمكنُني الانقطاعُ عنِ الخلْقِ ، وأنِّي مرادٌ بهم ؛ لقولِهِ : وبهَّاكَ بينَ خلقِهِ

قالَ وكنتُ أنا لأمرِهِ مِنَ المنكرينَ ، وعليهِ مِنَ المعترضينَ ، لا لشيءٍ سمعتُهُ منهُ ، ولا لشيءٍ صحَّ نقلُهُ عنهُ[٢] ، حتىٰ جرَتْ مقاولةٌ بيني وبينَ بعضِ أصحابِهِ ؛

---

(١) سبحان الله ! وذلك أيضاً جرىٰ لابن عطاء الروذْباري ؛ فقد روى القشيري في « رسالته » (ص ٧١٥) أنه قال : كان فيَّ استقصاء في أمر الطهارة ، فضاق صدري ليلةً لكثرة ما صببت من الماء ولم يسكن قلبي ، فقلت : يا ربِّ ؛ عفوَك عفوَك ، فسمعت هاتفاً يقول : العفو في العلم ، فزال عني ذلك .

قال الإمام القشيري : سمعت منصوراً المغربي يقول : فرأيته يوماً يقعد على الأرض في الصحراء ، وكان عليها آثار الغنم بلا سجادة ، فقلت : أيُّها الشيخ ؛ هـٰذه آثار الغنم ! فقال : اختلف الفقهاء فيه .

(٢) أراد : أن اعتراضه وإنكاره كانا عن صدق ، لا عن عنادٍ ، وتكبُّر وتعالٍ ، وحسدٍ ، وبغضٍ غيرِ =

وذلكَ قبلَ صحبتي إيَّاهُ ، وقلتُ لذلكَ الرجلِ ليسَ إلا أهلُ العلمِ الظاهرِ ، وهـٰؤلاءِ القومُ يدَّعونَ أموراً عظاماً ظاهرُ الشرعِ يأباها

فقالَ ذلكَ الرجلُ بعدَ أنْ صحبتُ الشيخَ تدري ما قالَ ليَ الشيخُ يومَ تخاصمنا ؟ قلتُ لا ، قالَ دخلتُ عليهِ ، فأوَّلُ ما قالَ لي **هـٰؤلاءِ كالحجرِ ، ما أخطأَكَ منهُ . خيرٌ ممَّا أصابَكَ** ، فعلمتُ أنَّ الشيخَ كُوشِفَ بأمرِنا

ولعمري ؛ لقد صحبتُ الشيخَ اثني عشرَ عاماً ، **فما سمعتُ منهُ شيئاً ينكرُهُ ظاهرُ العلمِ** ؛ مِنَ الذي كانَ ينقلُهُ عنهُ مَنْ يقصدُ الأذىٰ .

قالَ : وكانَ سببَ اجتماعي معَهُ أنْ قلتُ في نفسي ، بعدَ أنْ جرَتِ المخاصمةُ بيني وبينَ ذلكَ الرجلِ دعْني أذهبْ فأرىٰ هـٰذا الرجلَ ، **فصاحبُ الحقِّ لهُ أماراتٌ** ، لا يخفىٰ شأنُهُ

قالَ : فأتيتُ إلىٰ مجلسِهِ ، فوجدتُهُ يتكلَّمُ في الأنفاسِ التي أمرَ الشارعُ بها ؛ فقالَ : **الأوَّلُ** : إسلامٌ ، **والثاني** : إيمانٌ ، **والثالثُ** : إحسانٌ

وإنْ شئتَ قلتَ : **الأوَّلُ** : عبادةٌ ، **والثاني** : عبوديَّةٌ ، **والثالثُ** : عبودةٌ

وإنْ شئتَ قلتَ : **الأوَّلُ** : شريعةٌ ، **والثاني** : حقيقةٌ ، **والثالثُ** : تحقُّقٌ .

أو نحوَ هـٰذا ، فما زالَ يقولُ : « وإنْ شئتَ قلتَ » إلىٰ أنْ أبهرَ عقلي ، وعلمتُ أنَّ الرجلَ إنَّما يغترفُ مِنْ فيضِ بحرٍ إلـٰهيٍّ ومددٍ ربَّانيٍّ ، **فأذهبَ اللهُ ما كانَ عندي**

= شرعي ، ودنوّ همة ، وقلّةِ مروءة ، وسوءِ فهم ، وضعفِ يقين ، وجهلٍ بأحكام الدين ، وقصدٍ لطلب دنيا ، وقياسٍ فاسدٍ لغائب على شاهد ، وعدم تقوىٰ وورع ، وخوفِ سقوط الجاه من بعض قلوب المتنفذين ، ومداهنةٍ لأهل بدعة ، وتزلُّفٍ للمتغلبين ، وانطماسِ بصيرة ، ووراءَ ذلك كلِّهِ خذلانٌ أزلي ، نسأل الله العافية من كل ذلك ؛ إذ هـٰذه المذكورات هي أهمُّ ما يدفع للاعتراض على القوم رضي الله عنهم وعنَّا بهم .

ثم ما أكثر هـٰؤلاء الصادقين الشاردين الذين أحوالهم كأحوال المصنف الإمام ابن عطاء في أول أمره ! والمرجوُّ لهم أن يعافيهم الله لمحلِّ صدقهم ، لا عدمنا منه سبحانه بردَ اليقين ، وحبَّ هـٰؤلاء البررة الصادقين

ثم أتيتُ تلكَ الليلةَ إلى المنزلِ ، فلم أجدْ شيئاً منّي يقبلُ الاجتماعَ بالأهلِ على عادتي ، **ووجدتُ معنىً غريباً لا أدري ما هو** ، فانفردتُ في مكانٍ أنظرُ إلى السماءِ وإلى كواكبِها ، وإلى ما خلقَ اللهُ فيها مِنْ عجائبِ قدرتِهِ ، فحملَني ذلكَ على العودِ إليهِ مرَّةً أخرى

فأتيتُ ، فاستُؤذنَ لي ، فلمَّا دخلتُ عليهِ قامَ وتلقَّاني ببشاشةٍ وإقبالٍ ، حتى دَهِشْتُ خجلاً ، واستصغرتُ نفسي أنْ أكونَ أهلاً لذلكَ ، فكانَ أوَّلُ ما قلتُ يا سيدي ؛ أنا واللهِ أحبُّكَ ، فقالَ أحبَّكَ اللهُ كما أحببْتَني .

ثم شكوتُ إليهِ ما أجدُهُ مِنْ همومٍ وأحزانٍ ، فقالَ : **أحوالُ العبدِ أربعةٌ لا خامسَ لها** : النعمةُ ، والبليّةُ ، والطاعةُ ، والمعصيةُ .

فإنْ كنتَ بالنعمةِ فمقتضى الحقِّ منكَ الشكرُ

وإنْ كنتَ بالبليّةِ فمقتضى الحقِّ منكَ الصبرُ

وإنْ كنتَ بالطاعةِ فمقتضى الحقِّ منكَ شهودُ المِنَّةِ

وإنْ كنتَ بالمعصيةِ فمقتضى الحقِّ منكَ وجودُ الاستغفارِ

قالَ : فقمتُ مِنْ عندِهِ كأنَّما كانَتْ تلكَ الهمومُ والأحزانُ ثَوْباً نزعتُهُ

قالَ ثم سألَني بعدَ ذلكَ بمدَّةٍ كيفَ حالُكَ ؟ فقلتُ أفتِّشُ على الهمومِ فلا أجدُها ، فقالَ[1] [من مجزوء الكاملِ]

لَيْلِـــي بِـــوَجْهِـــكَ مُشْـــرِقٌ ... وَظَـلامُـهُ فِـي ٱلنَّـاسِ سَـارِي
اَلنَّـــاسُ فِـــي سَـــدَفِ ٱلظَّـــلا ... مِ وَنَحْـــنُ فِـــي ضَـــوْءِ ٱلنَّهَـــارِ

الزمْ ، فواللهِ ؛ لئنْ لزمتَ لتكونَنَّ مفتياً في المذهبينِ

---

(١) البيتان في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٧٠ ، ٧٧٠) من غير نسبة

يريدُ : مذهبَ أهلِ الشريعةِ أهلِ العلمِ الظاهرِ ، ومذهبَ أهلِ الحقيقةِ أهلِ العلمِ الباطنِ) انتهىٰ ما نقلتُهُ مِنْ « لطائفِ المننِ »[1]

وإنَّما أوردتُ ذلكَ ها هنا علىٰ طولِهِ ؛ **ليُعرفَ بهِ قدرُ المؤلفِ ، وليدفعَ بواضحِ برهانِهِ طعنُ الطاعنِ ، وتعسُّفُ المتعسِّفِ ، ولنتعرَّضَ بذلكَ لنزولِ الرحمةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ علينا ، وموالاةِ مِنَحِهِ وعطاياهُ لدينا** ، وقد قيلَ (عندَ ذكرِ الصالحينَ تنزلُ الرحمةُ)[2] ، معَ ما في ذلكَ مِنْ قربِ المناسبةِ لمعنىٰ ما أوردَهُ المؤلفُ مِنَ الكلامِ الحائزِ بهِ قصبَ السبقِ بينَ مَنْ عاصرَهُ مِنَ الأئمةِ والأعلامِ

وأمَّا شيخُهُ أبو العباسِ ، وشيخُ شيخِهِ أبو الحسنِ . . فحالُهُما أوضحُ مِنْ نارٍ علىٰ علمٍ ، ولقد طُرِّزَتْ بكلامِهِما الكتبُ والدفاترُ ، وزهَتْ بمآثرِهما وعلومِهما الألسنةُ والأقلامُ والصحفُ والمحابرُ ، ولولا خشيةُ الملالةِ ، وكراهةُ الإطالةِ . . لذكرنا مِنْ ذلكَ ما يبهرُ عقولَ السامعينَ والمطالعينَ ، ويُرغِمُ آنافَ الجاحدينَ والمعاندينَ

سَيَكْفِيكَ مِنْ ذَاكَ ٱلْمُسَمَّىٰ إِشَارَةٌ وَدَعْهُ مَصُوناً بِٱلْجَمَالِ مُحَجَّبَا[3]

* *

(1) لطائف المنن (ص ١٠٤ـ١٠٦) ، والنقل بطوله من (ص ١٠٢ـ١٠٦)

(2) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٨٥) من كلام سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ .

(3) البيت من الطويل ، وهو ضمن قصيدة لبهاء الدين زهير كما في « ديوانه » (ص ١١) .

الحكمة التسعون بعد المئة (*)

مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي ٱلتَّعْبِيرِ فُهِمَتْ فِي مَسَامِعِ ٱلْخَلْقِ عِبَارَتُهُ ، وَجُلِّيَتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ

المأذونُ لهُ في التعبيرِ هو الذي يتكلَّمُ للهِ وباللهِ وفي اللهِ ، ولذلكَ كانَ كلامُهُ صواباً

قالَ الجنيدُ رحمَهُ اللهُ : (الصوابُ : كلُّ نطقٍ عن إذنٍ) ، أشارَ بهٰذا واللهُ أعلمُ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨]

فإذا قرعَ أسماعَ السامعينَ كلامُهُ فُهِمَتْ في مسامِعِهم عبارتُهُ ، فلم يفتقروا إلىٰ معاودةٍ ولا تكرارٍ ، وجُلِّيَتْ إليهم إشارتُهُ ، فلم يحتاجوا معَها إلىٰ إطنابٍ ولا إكثارٍ ، بخلافِ غيرِ المأذونِ لهُ في ذلكَ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وأن ليس لسلامة العبارة وصحة المعنىٰ وأحقيته ، وسلامة حاسة السمع وانتفاء موانع الإدراك . . أثرٌ ذاتي في الفهم ، بل هو بخلق الله تعالىٰ ، إلا أنه سبحانه أجرى العادة بخلقه عندها لا بها ، وأنه إن أراد الهداية لعبد أذنَ للمتكلم في التعبير عن أغراضها وأسبابها ، فأدرك السامع ظاهر العبارة وباطن الإشارة .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ ﴾ [الأحقاف : ٣٠ـ ٣١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يا عبدَ اللهِ بنَ قيسٍ » ، قلت : لبيك يا رسولَ الله ، قال : « ألا أدلُّكَ علىٰ كلمةٍ مِنْ كنزٍ مِنْ كنوزِ الجنةِ ؟! » ، قلت : بلىٰ يا رسول الله ، فداك أبي وأمي ، قال : « لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ » رواه البخاري (٤٢٠٥) ، ومسلم (٢٧٠٤) من حديثه رضي الله عنه .

قيلَ لحمدونَ بنِ أحمدَ بنِ عمارةَ القصَّارِ : ما بالُ كلامِ السلفِ أنفعُ مِنْ كلامِنا ؟ قالَ : لأنَّهم تكلَّموا لعزِّ الإسلامِ ، ونجاةِ النفوسِ ، ورضا الرحمـٰنِ ، ونحنُ نتكلَّمُ لعزِّ النفسِ ، وطلبِ الدنيا ، وقبولِ الخلْقِ[1]

* * *

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٣١) . وعند المؤرخ التادلي في « التشوف » (ص ٣٢٠) في ترجمة العارف بالله تعالىٰ أبي مدين شعيب الأنصاري المغربي ، حينما دخل مدينة فاس ، قال : (كنت أجلس إلىٰ حلق الفقهاء والمذكرين ، فلا أثبت علىٰ شيء من كلامهم ، إلىٰ أن جلست إلىٰ شيخ ثبت كلامه في قلبي ، فسألت : من هو ؟ فقيل لي : أبو الحسن ابن حرزهم ، فأخبرته أني لا أحفظ إلا ما سمعته منه خاصة ، فقال لي : هـٰؤلاء يتكلمون بأطراف ألسنتهم ، فلا يجاوز كلامهم الآذان ، وقصدتُ الله بكلامي ، فيخرج من القلب ، ويدخل القلب) .

الحكمة الحادية والتسعون بعد المئة (*)

رُبَّمَا بَرَزَتِ ٱلْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةَ ٱلأَنْوَارِ ، إِذَا لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِيهَا بِٱلإِظْهَارِ

مَنْ لم يستكملِ الأوصافَ المذكورةَ . . لم يُؤذنْ لهُ في إظهارِ شيءٍ مِنَ الحقائقِ الربانيَّةِ ، فإنْ أظهرَها برزَتْ مكسوفةَ الأنوارِ ؛ لما غشيَها مِنْ ظلمةِ رؤيةِ الأغيارِ ، فمجَّتْها آذانُ السامعينَ ، وأنكرَتْها قلوبُهم

وعلامةُ استكمالِ الأوصافِ المذكورةِ أنْ يُفتحَ لهُ بابُ التعبيرِ معَ وجودِ السلامةِ مِنْ آفاتِ المنطقِ

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (مِنْ أجلِّ مواهبِ اللهِ لأوليائِهِ وجودُ العبارةِ

قالَ وسمعتُ شيخَنا أبا العباسِ يقولُ الوليُّ يكونُ مشحوناً بالعلومِ والمعارفِ ، والحقائقُ لديهِ مشهودةٌ ، حتىٰ إذا أُعطيَ العبارةَ كانَ كالإذنِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن إدراك الحقائق راجع لإرادة الله تعالىٰ ، لا لسلامة الآلات ، ولا للحقائق نفسها ، فإن لم يشأ سبحانه ـ لحكمة يعلمها ـ أن تُدرك الحقيقة . . حجب نورها عن العقل فلم يدركها ، وعَقَلَ اللسان عن بيانها فلم يُبِنْها

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، وأوحى الله إلىٰ سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام « يا عيسىٰ ؛ عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظِ الناس ، وإلا فاستحْيِ مني » ، رواه ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف » (٩٧) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ

مِنَ اللهِ تعالىٰ لهُ في الكلامِ)[1]

قالَ : (وسمعتُ شيخَنا أبا العباسِ يقولُ : كلامُ المأذونِ لهُ يخرجُ وعليهِ كسوةٌ وطلاوةٌ ، وكلامُ الذي لم يُؤذنْ لهُ يخرجُ مكسوفَ الأنوارِ ، حتىٰ إنَّ الرجلينِ ليتكلمانِ بالحقيقةِ الواحدةِ ، فتُقبلُ مِنْ أحدِهما ، وتُردُّ على الآخرِ)[2]

* * *

(١) لطائف المنن (ص ٦٣) وزاد : (ويجب أن تفهم أن من أُذن له في التعبير بَهِيَتْ في مسامع الخلق عبارته ، وحليت لديهم إشارته) .

(٢) لطائف المنن (ص ٦٤) .

الحكمة الثانية والتسعون بعد المئة (*)

عِبَارَتُهُمْ(1) إِمَّا لِفَيَضَانِ وَجْدٍ ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ ؛ فَالأَوَّلُ حَالُ ٱلسَّالِكِينَ ، وَٱلثَّانِي حَالُ أَرْبَابِ ٱلْمُكْنَةِ وَٱلْمُتَحَقِّقِينَ(2)

إنَّما يقعُ التعبيرُ منهم عمَّا يُطالِعونَ بهِ مِنَ الأمورِ الغيبيَّةِ والعلومِ الإشهاديَّةِ . . **لأحدِ معنيينِ**

إمَّا حالَ غلبةِ الوجدِ عليهم وفيضانِهِ : وهم معذورونَ في ذلكَ ؛ لوجودِ الغلبةِ ، وهاذا حالُ السالكينَ مِنْ أهلِ البدايةِ .

وإمَّا لقصْدِ هدايةِ مريدٍ : فيلزمُهم ذلكَ ؛ لما فيهِ مِنْ فائدةِ الإرشادِ والهدايةِ ، وهاذا حالُ أهلِ التمكينِ والمتحقِّقينَ مِنْ أهلِ النهايةِ

(*) ترجع هاذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ جعل كلام أهل الطريق : إما ترويحاً وتنفيساً عند غلبة وجد ، أو هدايةً واسترشاداً لمن كُتب له حظ منهم ، ولما كانت الأولىٰ يُراعىٰ فيها حظ النفس ، والثانية يراعىٰ فيها أمر الشرع . . كانت الثانية أكمل من الأولىٰ ، وكانت حالَ الأنبياء وورَّاثهم .
ويطلب معنىٰ هاذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ حكاية : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٠٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ثم قالَ مِنْ شدةِ الفرحِ : اللهمَّ ؛ أنتَ عبدي وأنا ربُّك ، أخطأ مِنْ شدَّةِ الفرحِ » ، رواه مسلم (٢٧٤٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لو دعيتُ إلىٰ كراعٍ لأجبتُ ، ولو أُهديَ إليَّ كراعٌ لقبلتُ » ، رواه البخاري (٥١٧٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(1) في (أ) وحدها : (عباراتهم) بالجمع

(2) في (ب) : (والمحققين)

فإنْ عبَّرَ السالكُ لا عن غلبةِ وجدٍ . . كانَ في ذلكَ نوعٌ مِنَ الدعوىٰ ، وإنْ عبَّرَ المتمكِّنُ عن غيرِ قصدِ هدايةِ مريدٍ . . كانَ في ذلكَ إفشاءُ سرٍّ لم يُؤذنْ لهُ فيهِ ، وأيضاً : فحالُهُ تقتضي وجودَ الصمتِ ، وعدمَ النطقِ ؛ لأنَّهُ في حضرةِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، يتلقَّىٰ ما يردُ علىٰ سمْعِ قلبِهِ مِنْ عجائبِ العلومِ وغرائبِ الفهومِ ، فكيفَ يصدرُ منهُ نطقٌ أو تعبيرٌ علىٰ غيرِ الوجهِ المذكورِ والصمتُ مِنْ آدابِ الحضرةِ ؟! قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه ١٠٨]

* *

الحكمة الثالثة والتسعون بعد المئة (*)

ٱلْعِبَارَةُ قُوتٌ لِعَائِلَةِ ٱلْمُسْتَمِعِينَ ، وَلَيْسَ لَكَ إِلا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ

المستمعونَ موسومونَ بالفقرِ والحاجةِ إلىٰ معنىٰ ما يستمعونَ إليهِ مِنَ المواعظِ والحِكَمِ ، وهو قوتُ قلوبِهم وغذاءُ أرواحِهم ، كما أنَّ المستطعِمينَ والسُّؤَّالَ موسومونَ بالفقرِ والحاجةِ إلىٰ أقواتِ أبدانِهم ، وكما أنَّ أقواتَ هـٰؤلاءِ مختلفةٌ ، فلا يصلحُ لواحدٍ مِنْ هـٰؤلاءِ ما يصلحُ للآخرِ مِنَ الأطعمةِ والأشربةِ ؛ لاختلافِ طبائعِهم وأمزجتِهم . . فكذلكَ أقواتُ هـٰؤلاءِ الآخرينَ مختلفةٌ ، فلا يصلحُ لواحدٍ منهم مِنَ العباراتِ التي تتضمَّنُ وجودَ القوتِ المعنويِّ ما يصلحُ للآخرِ ؛ لاختلافِ مذاهبِهم وتباينِ مطالبِهم

فإذا سمعتَ عبارةً مِنْ عالمٍ أو عارفٍ أو واحدٍ مِنْ أهلِ هـٰذا الطريقِ ، ولم تحظَ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات الأرزاق المعنوية ابتداءً من عند الله تعالىٰ كما ثبتت الأرزاق الحسية ، وعلى العبد إن سأل الله سبحانه الرزق أن يقصد بدعائه كلا النوعين ، ومن جملة الأرزاق المعنوية : تنوُّع الفهوم لعبارة واحدة ، وكل سامع يأكل ما قُسِمَ له في الأزل .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ﴾ [النحل : ٧١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [النصر : ١] ، قال سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما : سألهم عمر عن هـٰذه الآية ، قالوا : فتح المدائن والقصور ، وقال : ما تقول يا بن عباس ؟ قال : أجلٌ ـ أو مثلٌ ـ ضُرِبَ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، نُعيت له نفسُهُ ، رواه البخاري (٤٩٦٩) .

منها بشيءٍ . . فاعلمْ أنَّها لا تصلحُ لقوتِكَ وغذائِكَ ، وهي صالحةٌ لقومٍ آخرينَ[(١)]

وممَّا ينتظمُ في هٰذا السلكِ : أنْ يقرعَ أسماعَ بعضِ الناسِ العبارةُ مِنْ بعضِ الأشخاصِ ، فيفهمَ منها معنىً لم يقصدْهُ المتكلِّمُ ، أو يتأثَّرَ باطنُهُ بذلكَ تأثُّراً عجيباً ، وقد يقعُ ذلكَ لجماعةٍ مِنَ الناسِ ، فيفهمُ كلُّ واحدٍ منهم ما لا يفهمُهُ الآخرُ ، ويحصلُ لهم بذلكَ التأثُّرُ ، معَ أنَّ المتكلِّمَ لم يُرِدْ شيئاً مِنْ ذلكَ ، وربَّما كانَ مضادّاً لهُ[(٢)]

وقد يسمعُ أربابُ القلوبِ مِنَ الجماداتِ ، ويستعدُّونَ بهِ لسنيِّ الحالاتِ

قالَ في « لطائفِ المننِ » (وربَّما فُهِمَ مِنَ اللفظِ غيرُ ما قصدَ واضعُهُ ؛ كما أخبرَنا الشيخُ الإمامُ ، مفتي الأنام ، تقيُّ الدينِ محمدُ بنُ عليٍّ القشيريُّ[(٣)] ؛ قالَ كانَ ببغدادَ فقيهٌ يُقالُ لهُ : الجوزيُّ ، يُقرِّئُ اثني عشرَ علماً ، فخرجَ يوماً قاصداً المدرسةَ ، فسمعَ منشداً يقولُ [من الوافر]

إِذَا ٱلْعِشْرُونَ مِنْ شَعْبَانَ وَلَّتْ ... فَوَاصِلْ شُرْبَ لَيْلِكَ بِٱلنَّهَارِ
وَلا تَشْرَبْ بِأَقْدَاحٍ صِغَارٍ ... فَإِنَّ ٱلْوَقْتَ ضَاقَ عَنِ ٱلصِّغَارِ[(٤)]

---

(١) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ٣٧٠) (لا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرّاً ببعض الخلق ، كما يضرُّ نور الشمس بأبصار الخفافيش ، وكما تضرُّ رياح الورد بالجُعَل) .

(٢) سيأتي التمثيل لذلك قريباً (ص ٧١٢) .

(٣) هو شيخ الإسلام ابن دقيق العيد ، المتوفىٰ سنة (٧٠٢هـ) .

(٤) البيتان لأحمد بن علي المشكهري ، كما في « خريدة القصر » (قسم الشام) (٢/ ٢٤٨) ، ونسبهما اليوسي في « المحاضرات » (ص ٤١٦) لأبي نواس .
قال الحافظ اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ١٩٧) بعد حكاية هٰذا الخبر : (هٰذا الشعر المذكور يفهم منه الموفق : أن عمره قد ولَّىٰ وقارب الفوت ، وضاق عن الاتساع للاشتغال بالاستعداد للموت ، فيبادر بالعزائم الكبار ، إلىٰ مواصلة الأعمال بالليل والنهار ، ويطرب فيها كما يطرب شارب العُقار ، متلذذاً بالخدمة والمنادمة للملك الغفار ، معرضاً عن دار الاغترار ، مشتاقاً إلىٰ دار القرار) .

فخرجَ هائماً علىٰ وجهِهِ حتىٰ أتىٰ مكةَ ، ولم يزلْ بها مجاوراً حتىٰ ماتَ .

قالَ : وقُرِئَ على الشيخِ مكينِ الدينِ الأسمرِ قولُ القائلِ : [من البسيط]

لَوْ كَانَ لِي مُسْعِدٌ بِٱلرَّاحِ يُسْعِدُنِي لَمَا ٱنْتَظَرْتُ لِشُرْبِ ٱلرَّاحِ إِفْطَارَا
اَلرَّاحُ شَيْءٌ شَرِيفٌ أَنْتَ شَارِبُهُ فَٱشْرَبْ وَلَوْ حَمَّلَتْكَ ٱلرَّاحُ أَوْزَارَا
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَىٰ صَهْبَاءَ صَافِيَةٍ خُذِ ٱلْجِنَانَ وَدَعْنِي أَسْكُنِ ٱلنَّارَا

فقالَ إنسانٌ هناكَ : لا يجوزُ قولُهُ هٰذهِ الأبياتَ ! فقالَ الشيخُ مكينُ الدينِ الأسمرُ للقارئِ : اقرأْ ، فهٰذا رجلٌ محجوبٌ)[1]

والشيخُ مكينُ الدينِ هٰذا هو الذي شهدَ لهُ أبو الحسنِ الشاذليُّ بأنَّهُ مِنَ السبعةِ الأبدالِ[2]

قالَ : (ويكفيكَ في هٰذا : أنَّ ثلاثةً سمعوا منادياً ينادي : يا سعتر بَرِّي ، ففهمَ كلٌّ منهم مخاطبةً عنِ اللهِ خُوطبَ بها في سرِّهِ ؛ فسمعَ الواحدُ : اسْعَ ترىٰ بِرِّي[3] ، وسمعَ الآخرُ : الساعةَ ترىٰ بِرِّي ، وسمعَ الآخرُ : ما أوسعَ بِرِّي ! فالمسموعُ واحدٌ ، واختلفَتْ أفهامُ السامعينَ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ [الرعد : ٨][4] ، وقالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة : ٦٠] .

---

(١) لطائف المنن (ص ١٣٧) ، ونُسبت الأبيات لأبي نواس .
قال العلامة اليوسي في « المحاضرات » (ص ٤٢١) مبيِّناً شرف مقاصد السامع من هٰذه الأبيات : (الراح فيها عند السامع هنا : هي الخمرة الربانية القلبية ؛ وهي لطفٌ من الله تعالىٰ ، ونور يرد على القلب ، فاستعاروا له اسم الخمر ؛ للشبه الواقع في اللذة والانفعال ، وهو الصهباء أيضاً) ، ثم بين المراد من البيت الثالث فقال : (أي : خذ جنان الشهوة وراحة النفس ، ودعني أسكنُ نارَ الشوق ، فافهم ، والأوزار : يفهم منها أعباء المحبة والشوق ، وما يتحمله أصحاب ذلك) .

(٢) نص الإمام ابن عطاء الله في « تاج العروس » (ص ٤٣) أنه من السبعة الأبدال .

(٣) كذا بإثبات الألف في (ترىٰ) ، وفي الأصل المنقول عنه : (ترَ) على الجزم .

(٤) قوله : (تسقى) هي قراءة الجمهور ، وقرأ عاصم وابن عامر بالياء . انظر «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٩٤) .

فأمَّا الذي سمعَ : اسعَ ترىٰ بِرِّي : فمريدٌ دُلَّ على النهوضِ إلى اللهِ تعالىٰ بالأعمالِ ، فيستقبلُ الطريقَ بالجدِّ ، وقيلَ لهُ : اسعَ إلينا بصدْقِ المعاملةِ ترىٰ بِرَّنا بوجودِ المواصلةِ

وأمَّا الثاني : فكانَ سالكاً إلى اللهِ تعالىٰ طاولَتْهُ الأوقاتُ ، فخافَ أنْ تفوتَهُ الوُصْلةُ ، فقيلَ لهُ ترويحاً علىٰ قلبِهِ لمَّا أحرقَتْهُ نارُ الشغفِ : الساعةَ ترىٰ بِرِّي .

وأمَّا الآخرُ فعارفٌ كُشِفَ لهُ عن وسعِ الكرمِ ، فخُوطبَ مِنْ حيثُ أُشهدَ ، فسمعَ : ما أوسعَ بِرِّي !)[١]

قالَ : (وقالَ الشيخُ محيي الدينِ بنُ عربيٍّ[٢] رضيَ اللهُ عنهُ : دعانا بعضُ الفقراءِ إلىٰ دعوةٍ بزقاقِ القناديلِ بمصرَ ، فاجتمعَ بها جماعةٌ مِنَ المشايخِ ، فقُدِّمَ الطعامُ ، وعمروا الأوعيةَ ، وهناكَ وعاءُ زجاجٍ قدِ اتُّخذَ للبولِ ولم يُستعملْ ، فقرَّبَ فيهِ ربُّ المنزلِ الطعامَ للجماعةِ[٣] ، وإذا الوعاءُ يقولُ : منذُ أكرمَني اللهُ بأكْلِ هـٰؤلاءِ السادةِ منِّي لا أرضىٰ لنفسي أنْ أكونَ بعدَ ذلكَ محلاً للأذىٰ ، ثم انكسرَ نصفينِ .

قالَ الشيخُ محيِي الدينِ فقلتُ للجَمْعِ سمعتُم ما قالَ الوعاءُ ؟ فقالـوا نعـم ، قالَ : ما سمعتُم ؟ فأعادوا القولَ الذي تقدَّمَ ، قالَ : فقلتُ : قالَ قولاً غيرَ ذلكَ ، قالوا وما هو ؟ قلتُ : قالَ : كذلكَ قلوبُكم ، قد أكرمَها اللهُ بالإيمانِ ، فلا ترضَوا بعدَ ذلكَ أنْ تكونَ محلاً لنجاسةِ المعصيةِ وحبِّ الدنيا ، جعلَنا اللهُ وإيَّاكم مِنْ أولي الفهمِ عنهُ ، والتلقِّي منهُ)[٤]

---

(١) لطائف المنن (ص ١٣٧) ، وانظر « المحاضرات » لليوسي (ص ٤٢٠) .

(٢) في (ج) : (العربي) ، قال العلامة المَقَّري في « نفح الطيب » (٢/ ١٧٥) : (وكان بالمغرب يعرف بابن العربي بالألف واللام ، واصطلح أهل المشرق علىٰ ذكره بغير ألف ولام ؛ فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي) .

(٣) في (هـ) : (فقدَّم) بدل (فقرَّب) ، وفي مطبوع « اللطائف » : (فغرف)

(٤) لطائف المنن (ص ١٣٨) .

قلتُ وهٰذهِ المنازعُ كلُّها ممَّا يُستملحُ ويُستظرفُ ، وتتأثَّرُ بها القلوبُ السليمةُ ، وتنقادُ لها النفوسُ الكريمةُ ، وقد جرَتْ عادةُ أئمَّةِ هٰذا الطريقِ باستعمالِها وإيرادِها في محلِّها ، فلا حرجَ علينا إذاً في ذكرِ بعضِ ذلكَ إذا كانَتْ لهُ مناسبةٌ تامَّةٌ ، ووُجدَتْ فيها فائدةٌ خاصَّةٌ أو عامَّةٌ ، وباللهِ التوفيقُ ، لا ربَّ غيرُهُ .

* *

الحكمة الرابعة والتسعون بعد المئة (*)

رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ ٱلْمَقَامِ مَنِ ٱسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَذَٰلِكَ مُلْتَبِسٌ إِلا عَلَىٰ صَاحِبِ بَصِيرَةٍ .

كما أنَّ الواصلَ إلىٰ مقامٍ مِنْ مقاماتِ اليقينِ يعبِّرُ عنهُ ؛ كذلكَ يعبِّرُ عنهُ مَنِ استشرفَ عليهِ ولم يتحقَّقْ فيهِ بالمنازلةِ والوصولِ .

والتباسُ ذلكَ علىٰ مَنْ ليسَ لهُ بصيرةٌ ظاهرٌ ، وأمَّا ذوو البصيرةِ فلا يخفىٰ عليهم ذلكَ ؛ لأنَّهُ يرىٰ في الكلامِ صورةَ المتكلِّمِ الباطنةَ ، وما هو عليهِ مِنْ كمالٍ ونقصٍ ، وقد قيلَ : (تكلَّموا تُعرفوا)(١)

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ لم يقصر معرفته علىٰ ما ينجي العبدَ عند مولاه يوم القيامة ؛ من الإقرار بالشهادتين وبكل معلوم من الدين بالضرورة ، بل ثَمَّ مقامات عرفانية لكل مؤمن نصيب منها ، إلا أنه لا يتحققها إلا بمجاهدات ، وتوفيقات وإعانات إلـٰهية ، ولعل المؤمن يحدِّث عن مقام ـ كالمحبة والرضا والمعرفة ـ بعبارة تلقَّفها ، أو قناعة عقلية أقرَّها ، أو نفحة ربانية نُفِحَها ، أو بكلمة عابرة نطق بها ، فليس هـٰذا بمتحقِّق ؛ إذ عبارته لا تكون كعبارة المحب الراضي العارف مثلاً ، وبينهما كما بين الفحل والعنين عندما يصف كلٌّ منهما لذة الجماع .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف : ٩١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة : ٦٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « عرفتَ فالزمْ » ، وقد تقدم (ص ٥٨٠) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اتقوا فراسةَ المؤمنِ ؛ فإنَّهُ ينظرُ بنورِ اللهِ » ، رواه الترمذي (٣١٢٧) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

(١) كذا في « قوت القلوب » (١/ ٣٤٠) ، وقد قال (١/ ٣٣١) : (المؤمنون في كمال الإيمان وحقائقه لا يستوون ، وإن استووا في الاسم والمعنىٰ ، وكذلك في تفاوتهم في الآخرة) .

الحكمة الخامسة والتسعون بعد المئة (*)

لا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ وَارِدَاتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ ، وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ ٱلصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ .

الوارداتُ الإلـٰهيّةُ لا ينبغي للسالكِ أنْ يعبِّرَ عنها اختياراً منهُ ، بل يخفيها ويصونُها ، فلا يُطلعُ عليها أحداً إلا شيخاً مرشداً ؛ لأنَّ نفسَهُ تجدُ في ذلكَ لذَّةً وانشراحاً ، فتقوىٰ بهِ صفاتُها ، فيقلُّ بسببِ ذلكَ عملُ الوارداتِ في قلبِهِ مِنَ التأثُّرِ المحمودِ ، ولأجلِ غلبةِ أحكامِ نفسهِ وإيثارِ حظِّهِ . . يمنعُهُ ذلكَ مِنْ وجودِ صدقِهِ معَ ربِّهِ

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ في قولِهِ (استشرافُكَ أنْ يعلمَ الخلقُ بخصوصيَّتِكَ . . دليلٌ علىٰ عدمِ صدقِكَ في عبوديَّتِكَ)[1]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تحقيق التوحيد ، فلا يراعي العبد إلا نظر الحق ، ومن سنته تعالىٰ في خلقه : أن العبد إن حدَّث بما يوردُهُ الحقُّ سبحانه علىٰ قلبه . . برد معناها في نفسه ، وإن هو كتمها ، وفرح بالله لا بها . . جازاه الله بصدقه .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « كفىٰ بالمرءِ إثماً أنْ يحدِّثَ بكلِّ ما سمعَ » ، رواه بلفظه هنا أبو داود (٤٩٩٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) تقدم (ص ٦٣٩) .

الحكمة السادسة والتسعون بعد المئة (*)

لا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى ٱلأَخْذِ مِنَ ٱلْخَلائِقِ إِلا أَنْ تَرَىٰ أَنَّ ٱلْمُعْطِيَ فِيهِمْ مَوْلاكَ ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَٰلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَكَ ٱلْعِلْمُ .

هـٰذهِ قاعدةٌ عظيمةٌ يحتاجُ إليها السالكونَ المتجرِّدونَ ؛ ليبنوا عليها أحوالَهم فيما يصلُ إليهم مِنَ الرِّفْقِ علىٰ أيدي الخلْقِ .

وقد ذكرَها المؤلفُ بعبارةٍ بديعةٍ مجوَّدةٍ موجزةٍ ، جمعَ فيها جملةَ المعاني التي يحتاجُ إليها مَنْ ذكرنا ، فلنبسطْ كلامَهُ في ذلكَ علىٰ حسَبِ عادتِنا معَهُ ، على الوجهِ الذي ذكرناهُ في مقدمةِ هـٰذا « التنبيهِ » ، وهـٰذا قصدُنا في جميعِ ما تكلَّمْنا عليهِ مِنْ مسائلِ كتابِهِ ، ونقولُ علىٰ حسَبِ ذلكَ

أرزاقُ العبادِ المعتادةُ لهم تنقسمُ إلىٰ قسمينِ

أحدُهما : رزقٌ يصلونَ إليهِ بأسبابٍ وأعمالٍ وتصرُّفاتٍ ؛ كالتجاراتِ والصناعاتِ وغيرِهما ، وهـٰذا حالُ أهلِ الأسبابِ .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن لا رازقَ ولا معطيَ إلا اللهُ تعالىٰ ، وما سواه تعالىٰ ـ إن كان ثَمَّ سوىً ـ أسبابٌ عادية ومظاهرُ فانية ، لا يقف تحقُّقُ العطاء علىٰ وجودها ، ولـٰكن يجب اعتبارها ؛ بدليل قانون الشريعة الذي ظهر فيه حكم الرزاق والمعطي من تحليل وتحريم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا سألْتَ فاسألِ اللهَ ، وإذا استعنْتَ فاستعنْ باللهِ » ، رواه الترمذي (٢٥١٦) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

والثاني : رزقٌ يصلُ إليهم على أيدي الخلْقِ مِنْ غيرِ عملٍ ولا سعْيٍ ، وهٰذا حالُ أربابِ التجريدِ(١)

وكلُّ واحدٍ مِنَ القسمينِ لهُ آدابٌ وأحكامٌ تخصُّهُ

فأحكامُ القسمِ الأوَّلِ وآدابُهُ : لم يتعرَّضْ لها المؤلفُ رحمَهُ اللهُ ، وهي المذكورةُ في الفقهِ وغيرِهِ ، فواجبٌ على كلِّ مَنْ دخلَ في شيءٍ مِنَ الأسبابِ تحصيلُ علمِهِ ، وطلبُهُ مِنْ حيثُ هو(٢)

وأحكامُ القسمِ الثاني وآدابُهُ : هي التي تعرَّضَ لها المؤلفُ رحمَهُ اللهُ(٣) ، وأجملَ جميعَ ذلكَ في مراعاةِ شرطينِ ، وجعلَهُما مِنْ شروطِ صحَّةِ الأخذِ

الشرطُ الأوَّلُ ألا يرى العطاءَ إلا مِنْ مولاهُ عزَّ وجلَّ

وهٰذا هو الأصلُ ، وإنَّما اشترطَهُ على الآخذِ لأنَّهُ مقتضى حالِهِ ؛ مِنْ تحقيقِ التوحيدِ ، وتخليصِ التجريدِ ، وبهِ يصحُّ لهُ مقامُ القناعةِ والتوكُّلِ ، ويسقطُ عن قلبِهِ همُّ الرزقِ ، وتزولُ عنهُ علاقاتُ الخلْقِ

---

(١) في (أ) : (أهل) بدل (أرباب)

(٢) قال العلامة القرافي في « الفروق » (٢/ ٥٩٣) في بيان الفرق بين قاعدة : (النسيان في العبادات لا يقدح) وقاعدة : (الجهل يقدح) وكلاهما غير عالم بما أقدم عليه : (اعلم : أن هٰذا الفرق بين هاتين القاعدتين مبني على قاعدةٍ ؛ وهي أن الغزالي حكى الإجماع في « إحياء علوم الدين » ، والشافعي في « رسالته » حكاه أيضاً ؛ في أن المكلف لا يجوز له أن يقدم على فعل حتى يعلم حكْمَ الله فيه ؛ فمن باع وجب عليه أن يتعلم ما عيَّنَهُ الله وشرعه في البيع ، ومن أجَّرَ وجب عليه أن يتعلم ما شرعه الله تعالى في الإجارة. . . ، فمن تعلَّم وعمل بمقتضى ما علم فقد أطاع الله تعالى طاعتين ، ومن لم يعلم ولم يعمل فقد عصى الله معصيتين ، ومن علم ولم يعمل بمقتضى علمه فقد أطاع الله تعالى طاعة ، وعصاه معصية ، ويدلُّ على هٰذه القاعدة أيضاً من جهة القرآن قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾ [هود : ٤٧] ، ومعناه : ما ليس لي بجواز سؤالِهِ علمٌ)

(٣) فالمتجرِّدون هم المقصودون هنا ، وما ذكره كل من الإمام المصنف والعلامة الشارح . . قد عنون له الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٠٢) بـ (ذكر حكم من لا معلوم له من الأسباب) .

وإنْ لم يكنْ على هٰذا الوصفِ كانَ عبداً للناسِ ، مولِّياً قلبَهُ إليهم ، فيكثرُ طمعُهُ فيهم ، ورغبتُهُ فيما في أيديهم ، واستشرافُهُ إليهم ، فيقعُ بسببِ ذلكَ في كبائرِ الذنوبِ مِنْ معاصي القلبِ والجوارحِ ؛ مثلِ المداهنةِ ، والنفاقِ ، والرياءِ ، والتصنُّعِ ، والتلبيسِ ، والغشِّ ، وعدمِ النصيحةِ ، وقلَّةِ الشفقةِ ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ المناقضةِ للعبوديَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ

قالَ يحيى بنُ معاذٍ : (مَنِ استفتحَ بابَ المعاشِ بغيرِ مفاتيحِ الأقدارِ . . وُكِلَ إلى المخلوقينَ)[1]

ولا يكفي في تلكَ الرؤيةِ المذكورةِ أنْ تكونَ عِلْماً وإيماناً فقطْ ، بل لا بدَّ أنْ تكونَ حالاً وذوقاً

دعا بعضُ الناسِ شقيقاً البلخيَّ وكانَ في طبقةٍ مِنْ أصحابِهِ نحوِ خمسينَ رجلاً ، فوضعَ الرجلُ طعاماً واسعاً ، وأنفقَ نفقةً كثيرةً ، فلمَّا قعدوا قالَ لهم شقيقٌ إنَّ هٰذا الرجلَ يقولُ مَنْ لم يرني صنعتُ هٰذا الطعامَ وأنا أقدِّمُهُ إليهِ . فطعامي عليهِ حرامٌ

قالَ : فقاموا كلُّهم وخرجوا ، إلا شابّاً كانَ فيهم نقصَتْ مشاهدتُهُ عنهم

فقالَ صاحبُ المنزلِ لشقيقٍ رحمَكَ اللهُ ، ما أردتَ بهٰذا ؟ قالَ أردتُ أنْ أختبرَ توحيدَ أصحابي ؛ أي كلُّهم لا يرونَهُ فيما صنعَ ، ولا ينظرونَ إليهِ فيما قدَّمَ ، إلا ذلكَ الرجلُ وحدَهُ[2]

وإنَّما اشترطنا في رؤيةِ العطاءِ مِنَ اللهِ تعالى أنْ تكونَ حالاً وذوقاً ؛ لأنَّ ذلكَ هو اللائقُ بحالِ المتجرِّدِ كما ذكرناهُ[3] ؛ لأنَّ التجريدَ حالٌ شريفٌ ، لا يُدخلُ فيهِ

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٠٩) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥١١)

(٣) انظر (ص ٧١٨) .

بالاختيارِ والتعمُّلِ ؛ لأنَّ ذلكَ مِن اتِّباعِ هوى النفسِ ، وطلبِ الحظِّ والراحةِ ، وإنَّما يقيمُ الحقُّ فيهِ مَنْ أرادَهُ بهِ مِنْ أهلِ التقوىٰ والمراقبةِ ، بعدَ كمالِ شُغْلِهِ باللهِ تعالىٰ ، وجِدِّهِ في الهربِ عن كلِّ ما يقطعُ عنِ اللهِ ، **فحينَئذٍ يسلبُهُ الحقُّ تعالىٰ مِنْ تدبيرِهِ واختيارِهِ ، ويكاشفُهُ بوحدانيَّتِهِ في إيرادِهِ وإصدارِهِ** ، ويكونُ تركُهُ للأسبابِ بحكمِ الوقتِ وإشارةِ الحالِ .

كما رُوِيَ أنَّ أبا حفصٍ النيسابوريَّ كانَ حدَّاداً ، وكانَ غلامُهُ يوماً ينفخُ عليهِ الكيرَ ، فأدخلَ يدَهُ في النارِ وأخرجَ الحديدَ مِنَ النارِ ، فغُشِيَ علىٰ غلامِهِ ، وتركَ أبو حفصٍ الحانوتَ ، وأقبلَ علىٰ أمرِهِ(١) .

وكانَ يقولُ رحمَهُ اللهُ : (تركتُ العملَ فرجعتُ إليهِ ، وتركَني العملُ فلم أرجعْ إليهِ)(٢) .

وقالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ : (**لا ينبغي للصوفيِّ أنْ يتعرَّضَ للقعودِ عنِ الكسبِ إلا** أنْ يكونَ رجلاً مغلوباً قد أغنتْهُ الحالُ عنِ المكاسبِ ، وأمَّا مَنْ كانَتِ الحاجاتُ بهِ قائمةً ، ولم يقعْ لهُ عزوفٌ يحولُ بينَهُ وبينَ التكلُّفِ . **فالعملُ أولىٰ بهِ ، والكسبُ بسعْيٍ أحلُّ لهُ وأبلغُ** ؛ لأنَّ القعودَ لا يصلحُ لمَنْ لم يستغنِ عنِ التكلُّفِ)(٣) .

وقالَ الشيخُ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ : (ما دامَتِ الأسبابُ قائمةً في النفسِ فالاكتسابُ أولىٰ)(٤) .

وقالَ بعضُ المنقطعينَ : كنتُ ذا صنعةٍ جليلةٍ ، فأُريدَ منِّي تركُها ، فحاكَ في

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٣٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٥٧) .

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١١٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٩٨) ، وانظر ما تقدم (ص ١٦٩) في معنىٰ ترك العمل له .

(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٦٤) ، ومثال من استغنىٰ عن التكلُّف ، ورضي بأدنىٰ ما يأتيه : أهل الصُّفَّة ، فكان الواحد منهم يجوع أياماً ، وهو شابٌّ قادر على الكسب ، ثم يرضىٰ بعد ذلك بنحو مذقة لبن ، وقد سمُّوا بأضياف الإسلام ، وكانوا لا يبيتون علىٰ معلوم ، ولا يأوون إلىٰ أهل .

(٤) أورده المقريزي في « المقفى الكبير » (٥/ ٧٣) .

صدري : مِنْ أينَ المعاشُ ؟! فهتفَ بي هاتفٌ لا أراهُ : تنقطعُ إليَّ وتتَّهمُني في رزقي ؟! عليَّ أنْ أُخدمَكَ وليّاً مِنْ أوليائي ، أو منافقاً مِنْ أعدائي[1]

وقد اشترطَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في صحَّةِ قبولِ العطاءِ عدمَ الاستشرافِ إلى الناسِ ، ولا يكادُ يحصلُ هٰذا الشرطُ لمَنْ ذكرناهُ مِنْ أهلِ التجريدِ إلا بهٰذهِ الرؤيةِ المذكورةِ[2]

روىٰ زيدُ بنُ خالدٍ الجهنيُّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جَاءَهُ مَعْرُوفٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا ٱسْتِشْرَافِ نَفْسٍ . فَلْيَقْبَلْهُ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ ٱللهُ إِلَيْهِ »[3]

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ وُجِّهَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ هَـٰذَا ٱلرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا إِشْرَافٍ . فَلْيَأْخُذْهُ ، وَلْيُوَسِّعْ فِي رِزْقِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ غِنىً فَلْيَدْفَعْهُ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَحْوَجُ مِنْهُ »[4]

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعطيني العطاءَ ، فأقولُ أعطِهِ يا رسولَ اللهِ مَنْ هو أفقرُ إليهِ منِّي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ ، وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَـٰذَا ٱلْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلا سَائِلٍ . فَخُذْهُ ، وَمَا لا فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ » ، قالَ سالمٌ : (فمِنْ أجلِ ذلكَ كانَ ابنُ عمرَ لا يسألُ أحداً شيئاً ، ولا يردُّ شيئاً أُعطيَهُ)[5]

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٠٣) ، وكذا نقله السهروردي في « عوارف المعارف » (١/ ٢٢٩) ، وعبارته : (علي أن أُخدمك ولياً من أوليائي ، أو أُسخِّرَ لك منافقاً من أعدائي) ، ثم قال : (فصاحب الفتوح يرىٰ حركة النفس بالتشوُّف جنايةً وذنباً)

(٢) تأكيد علىٰ أن العلم وحده لا يكفي ؛ إذ لا بد من الحال .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٤٠٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٦٢)

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٦٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٢٧٦) من حديث سيدنا عائذ بن عمرو المزني رضي الله عنهما .

(٥) رواه البخاري (٧١٦٣) ، ومسلم (١٠٤٥) من حديث سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه رضي الله عنهم .

فالاستشرافُ إلى الناسِ مذمومٌ ، قادحٌ في التوحيدِ ، فلا ينبغي أنْ يأخذَ المريدُ عطاءً علىٰ هـٰذا الوجهِ .

ورُوِيَ أنَّ أحمدَ بنَ حنبلٍ خرجَ يوماً إلىٰ شارعِ بابِ الشامِ ، فاشترىٰ دقيقاً ، ولم يكنْ في الموضعِ مَنْ يحملُهُ ، فوافىٰ أيوبُ الحمَّالُ ، فحملَهُ ، ودفعَ إليهِ أحمدُ أجرتَهُ .

فلمَّا دخلَ الدارَ بعدَ إذنِهِ لهُ . . اتَّفقَ أنَّ أهلَ الدارِ قد خبزوا ما كانَ عندَهم مِنَ الدقيقِ ، وتركوا الخبزَ على السريرِ ينشفُ ، فرآهُ أيوبُ ، وكانَ يصومُ الدهرَ ، فقالَ أحمدُ لابنِهِ صالحٍ : ادفعْ إلىٰ أيوبَ مِنَ الخبزِ ، فدفعَ إليهِ رغيفينِ ، فردَّهما

فقالَ أحمدُ ضعْهما ، ثم صبرَ قليلاً ، ثم قالَ خُذْهما والحقْهُ بهما ، فلحقَهُ ، فأخذَهما ، فرجعَ صالحٌ متعجِّباً ، فقالَ لهُ أحمدُ : عجبتَ مِنْ ردِّهِ وأخذِهِ ؟ قالَ نعم ، قالَ : هـٰذا رجلٌ صالحٌ ، لمَّا رأى الخبزَ استشرفَتْ نفسُهُ إليهِ ، فلمَّا أعطيناهُ معَ الاستشرافِ ردَّهُ ، ثم أيسَ ، فرددناهُ إليهِ بعدَ الإياسِ فقَبِلَ(١)

وأمَّا الاستشرافُ إلى الرزقِ ، معَ قطعِ نظرِهِ عنِ الخلقِ . . فلا يضرُّهُ ذلكَ ؛ لأنَّهُ خُلِقَ ضعيفاً ذا فاقةٍ ، ورزقُهُ معلومٌ ، ولا بدَّ منهُ ، فاستشرافُهُ إلى الرزقِ في الحقيقةِ استشرافٌ إلى الرزاقِ ، ولا ينافي ذلكَ حقيقةَ العبوديَّةِ ، ولـٰكنْ إنْ كَثُرَ منها الاستشرافُ إلى الرزقِ ، وشغلَتْ صاحبَها عن دوامِ المحاضرةِ والمناجاةِ معَ الحقِّ . . فليصرفْها عن ذلكَ صرفاً جميلاً ، ولينهجْ لها مِنَ التعلُّقِ والتوثُّقِ باللهِ تعالىٰ سبيلاً

قالَ الشيخُ أبو محمدٍ عبدُ العزيزِ المهدويُّ : (كنتُ في بدايتي واقفاً بينَ العشاءينِ أصلِّي وأنا فارغٌ بلا سببٍ ، حتىٰ جاءَتْني النَّفسُ فقالَتْ لي السلامُ عليكَ ، قلتُ لها وعليكِ السلامُ ، قالَتْ لي : العَشاءَ ، فأدهَتْني بداهيةٍ ،

---

(١) أورده السهروردي في « عوارف المعارف » (١/ ٢٢٩)

فتوقَّفْتُ ، ثم ألهمَني اللهُ تعالىٰ أنْ قلتُ لها : أتدري لهُ موضعاً ؟ قالَتْ : لا ، قلتُ لها : أتدري أَيْشٍ هو ؟ أو متىٰ هو ؟ قالَتْ لا ، قلتُ لها : أنا ربٌّ أو عبدٌ ؟ قالَتْ : عبدٌ .

قلتُ : فالعبدُ يقدرُ علىٰ شيءٍ ؟! ما هـٰذا الكفرُ والشركُ الذي أتيتِيني بهِ ؟! اهربي إلىٰ خالقِكِ فاطلبي منهُ العَشاءَ ؛ لأنَّهُ خالقُكِ والقادرُ علىٰ كلِّ شيءٍ ، فيعطيَكِ ويجيبَ لكِ ما طلبتِ منهُ ، فتطعمي وتأكلي ، فما لكِ وإيَّايَ ؟! وما هـٰذهِ الحيرةُ ؟!

قالَ : فهربَتْ إلىٰ خالقِها ، فجاءَ عَشاءٌ متمكِّنٌ كثيرٌ ، فأكلنا

قالَ : وكذا يُحتجُّ عليها ، ومِنْ هنا تثبتُ الأقدامُ)

وذكرَ أيضاً مسألةً عظيمةً مفيدةً ؛ تتضمَّنُ كيفَ يكونُ حالُ الفقيرِ بالنسبةِ إلى الرزقِ ، وما تحتاجُ إليهِ بِنْيَتُهُ مِنَ الرِّفْقِ ، وجعلَها مِنْ قواعدِ الفقرِ والإرادةِ ، فرأينا ذكرَها في هـٰذا الموضعِ ، وجعْلَها مِنَ الواجبِ المتعيِّنِ ؛ ليتحقَّقَ في العملِ بها كلُّ مَنْ يقفُ عليها مِنْ مريدٍ متديِّنٍ :

قالَ رضيَ اللهُ عنهُ : (اعلمْ : أنَّ الفقيرَ لا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ جالساً ، أو ماشياً

أمَّا قاعدةُ الجالسِ فإنَّ جلستَهُ موضعُ أَلْيتِهِ ، وهو مكانُهُ ، وزمانَهُ طرفُ سَجَّادتِهِ لا يتعدَّاها[1] ، ولا يكونُ التفاتُهُ إلىٰ وقتٍ ولا إلىٰ سببٍ معلومٍ ؛ لأنَّهُ لا يدري الأوقاتَ ما هي ولا يحدُّها ، ولا يدري متىٰ هي ولا وقتُها ، ويعلمُ أنَّ جميعَ الأشياءِ تطلبُهُ وتحتاجُ إليهِ ؛ لأنَّها خُلقَتْ مِنْ أجلِهِ ، وهو خليفةٌ فيها ، وقد فرغَ مِنْ جميعِها ، فالالتفاتُ والأملُ فيماذا ؟! بل يكونُ هدفاً للأقدارِ ، تجري عليه ولا كسبَ لهُ ولا سببَ في التحصيلِ)

ثم قالَ : (وأمَّا الماشي مِنَ الفقراءِ ، الذي يكونُ في سفرٍ أو غيرِهِ فلا تجاوزُ همَّتُهُ خطوتَهُ .

---

(١) في (أ ، ب) : (وطرف) بدل (طرف)

مثالُهُ : أنْ يكونَ ماشياً ، فيخطرَ لهُ الغيرُ والالتفاتُ إليهِ ؛ مِنْ بلدٍ ، أو شخصٍ ، أو مطعمٍ أو مشربٍ ، فيهلِكَ ويظفرَ بهِ العدوُّ ، وتزلَّ قدمُهُ ، فإنْ تمادىٰ في التعلُّقِ بشيءٍ مِنْ هـٰذهِ القواطعِ والشواغلِ ، ومشىٰ إلىٰ شيءٍ منها وفقدَهُ وماتَ . . ماتَ قاتلَ نفسِهِ .

وذلكَ : أنَّهُ يكونُ في يومٍ صائفٍ ووَهِجٍ ، وقد أصابَهُ العطشُ الشديدُ ، فيعرضُ لهُ خيالُ ماءٍ ، فيجيءُ العدوُّ ، فيروِّجُ عليهِ[1] أنْ أسرعْ تلحقْ ذلكَ الماءَ ، فتشربَ منهُ ، فيزولَ عطشُكَ[2] ، فإنْ مشىٰ راكناً لهـٰذا الخاطرِ ، فيجيءُ الموضعَ ، فيجدُهُ سراباً ، فهناك يظفرُ بهِ ويقولُ لهُ : الآنَ تموتُ ، فيقتلُهُ مِنْ ساعتِهِ ، فيموتُ قاتلَ نفسِهِ إذا كانَ جاهلاً بربِّهِ وآياتِهِ ، ولم يعرفْ دواءَهُ مِنْ دائِهِ ، ولا يعلمُ العلمَ ، ولا يسألُ العلماءَ ؛ لبقائِهِ معَ نفسِهِ .

قالَ : فحكمُهُ إذا جاءَهُ هـٰذا الخاطرُ بالترويجِ مِنَ العدوِّ في سفرِهِ[3] ؛ مِنَ السرعةِ إلى الماءِ ، والركونِ إلى الأغيارِ مِنْ منازلَ أو أشخاصٍ أو غيرِ ذلكَ : أنْ يعترضَ على العدوِّ ويقولَ[4] : إنَّ اللهَ تعالىٰ يمكنُ أنْ يتوفَّاني قبلَ لحوقِهِ ، فبالضرورةِ يطيعُهُ في ذلكَ ويسلِّمُهُ ، ويقولُ لهُ أيضاً قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ مَشَىٰ إِلَىٰ طَمَعٍ فَلْيَمْشِ رُوَيْداً »[5] ، وقالَ « مَنْ تَأَنَّىٰ أَصَابَ أَوْ كَادَ ، وَمَنْ عَجَّلَ أَخْطَأَ أَوْ كَادَ »[6] ، و« ٱلْعَجَلَةُ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ »[7] ، ومِنْ هـٰذا كثيرٌ ،

---

(١) في (ج) : (فيروِّح) بدل (فيروِّج)
(٢) في (ج) : (فيَرْوَىٰ) بدل (فيزول)
(٣) في (ج) : (بالترويح) بدل (بالترويج)
(٤) كذا في (ج) ، وفي سائر النسخ : (يعرض علىٰ) بدل (يعترض علىٰ) ، وفي (ب) : (يعرض عن)
(٥) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (٢٣٢٩) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، وانظر « فيض القدير » (٤/ ٤١٤) .
(٦) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/ ٣١٠) من حديث سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .
(٧) رواه الترمذي (٢٠١٢) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، ولفظه : « الأناةُ من الله ، والعجلةُ من الشيطانِ » .

فلا يشكُّ شاكٌّ أنَّهُ كما يحتجُّ للنفسِ والشيطانِ بهٰذهِ القواعدِ مِنَ العلمِ . . أنَّهم ينقطعونَ ولا حجَّةَ عندَهم ، بعدَ الاستعانةِ باللهِ والتعلُّقِ بهِ .

ثم يقولُ لهُ أيضاً : أتنكرُ أنَّ اللهَ تعالىٰ قادرٌ علىٰ أنْ يطعمَني ويسقيَني ؟! إنْ شاءَ اللهُ ينبعُ لي عيناً الساعةَ قبلَ وصولي لذلكَ الماءِ ، فيقولُ الشيطانُ بالضرورةِ : نعم ، فإذا كانَ هٰذا كذلكَ فاللهُ سبحانَهُ أعلمُ بمصالحي ومنافعي مِنْ كلِّ مخلوقٍ .

فإذا حصلَ هٰذا العلمُ ، ورجعَ يمشي متأنِّياً ، همَّتُهُ معَ خطوتِهِ ، ناظراً لما يردُ عليهِ مِنْ ربِّهِ ، فإنْ وصلَ إلىٰ ما خطرَ لهُ أوَّلاً ، أو رآهُ مِنْ بُعدٍ ولم يجدْ ماءً ، أو لم يجدْ ما تعلَّقَ بهِ خاطرُهُ أوَّلاً مِنْ صاحبٍ أو طعامٍ . . بقيَ علىٰ أصلِهِ ، لا تغيُّرَ عندَهُ ولا تردُّدَ ، **فظفرَ بالعدوِّ وقتلَهُ** ، كما فعلَ أيضاً الشيطانُ بغيرِهِ الشيءَ وضدَّهُ) انتهىٰ ما أردنا ذكرَهُ مِنْ كلامِ هٰذا الإمامِ ، **وهو عندي مِنْ نفيسِ الكلامِ ، المقرِّبِ غايةَ المرامِ** ؛ لما تضمَّنَهُ مِنَ المعاني البديعةِ ، والأنفاسِ الرفيعةِ ؛ لما فيهِ مِنْ تجريدِ التوحيدِ ، والآدابِ المرضيَّةِ معَ العبيدِ ، فهو جديرٌ بأنْ يُكتبَ ويرسمَ ، ويكمَّلَ بهِ الغرضُ الذي تقدَّمَ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ وأحكمُ

الشرطُ الثاني : ألا يأخذَ إلا ما يوافقُ العلمَ :

وهٰذا شرطٌ لازمٌ للمتجرِّدِ أيضاً

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (وينبغي لمَنْ لا معلومَ عندَهُ مِنَ الأسبابِ أنْ يتورَّعَ في أخذِها ، ويتخيَّرَ المعطينَ لها كما يتخيَّرُ أهلُ المكاسبِ في الاكتسابِ ؛ لأنَّ للهِ سبحانَهُ في كلِّ شيءٍ حكماً ، والقعودُ عن المكاسبِ لا يسقطُ أحكامَها ، والقاعدُ عنِ الطلبِ لا يُسقِطُ أحكامَ الطالبِ[1] ، ولأنَّ تركَ العملِ عملٌ يحتاجُ إلىٰ علمٍ .

---

(١) كذا في جميع النسخ ، والعبارة في « قوت القلوب » : (والقاعد عن الطلب لا تسقطُ عنه أحكامُ الطالب) .

ولم تكنْ سيرةُ الفقراءِ الصادقينَ أنْ يأخذوا مِنْ كلِّ أحدٍ ، ولا في كلِّ وقتٍ ، ولا يأخذوا كلَّ ما يُعطونَ ممَّا يزيدُ على كفايتِهم ، إلا أنْ يكونوا ممَّنْ يخرجونَهُ إلى غيرِهم) انتهى[١]

فموافقةُ العلمِ التي ذكرَها المؤلفُ رحمَهُ اللهُ تعالى على قسمينِ : موافقةُ العلمِ الظاهرِ ، وموافقةُ العلمِ الباطنِ .

أمَّا موافقةُ العلمِ الظاهرِ فهو ألا يأخذَ إلا مِنْ يدِ بالغٍ عاقلٍ تقيٍّ ، وقد جاءَ في الحديثِ : « لا تأْكُلْ إلا طَعَامَ تَقِيٍّ ، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ »[٢]

فلا يأخذُ مِنْ يدِ ظالمٍ ولا عاملٍ بالربا ، ولا جاهلٍ بما يحلُّ ويحرمُ مِنْ وجوهِ المكاسبِ ، ولا يأخذُ مِنْ يدِ صبيٍّ ولا عبدٍ غيرِ مأذونٍ لهما ، ولا معتوهٍ .

وأمَّا موافقةُ العلمِ الباطنِ : فألا يأخذَ إلا ما كانَ على وجهِ الرفقِ والمعونةِ ؛ فلا يأخذُ إلا ما هو مفتقرٌ إليهِ في الحالِ ، ولا غنى لهُ عنهُ مِنْ ضرورياتِهِ وحاجاتِهِ مِنْ غيرِ إسرافٍ ولا إقتارٍ

ولا بأسَ أنْ يأخذَ ما يزيدُ على ذلكَ إنْ كانَ في خُلُقِهِ سخاءٌ وبذلٌ وإيثارٌ ، وتخلُّقٌ بمحاسنِ الأخلاقِ ، لا ليتوصَّلَ بهِ إلى حظٍّ عاجلٍ ؛ مِنْ جاهٍ أو رئاسةٍ أو قبولٍ عندَ الناسِ

ولا يأخذُ ما يُعطاهُ على وجه الابتلاءِ والاختبارِ :

أمَّا الابتلاءُ : فبأنْ يأتيَهُ قبلَ وقتِهِ ، أو زائداً على حاجتِهِ ؛ فإنْ أخذَهُ فليخرجْهُ في السرِّ ؛ ليأمنَ بذلكَ مِنْ آفةِ الادِّخارِ[٣]

---

(١) قاله في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٠٩) .

(٢) كذا في « قوت القلوب » (٣/ ١٧٢٦) ، ورواه أبو داود (٤٨٣٢) ، والترمذي (٢٣٩٥) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ : « لا تصاحبْ إلا مؤمناً ، ولا يأكلْ طعامَكَ إلا تقيٌّ » .

(٣) في (أ ، ب) : (فإن أخذه ليخرجَهُ أمنَ بذلك من آفة الادخار) ، وفي (ج ، هـ) : (الإظهار) بدل (الادخار) .

وأمَّا الاختبارُ : فألا يأخذَ شيئاً كانَ قد نوىٰ تركَهُ للهِ تعالىٰ ؛ مِنْ شهوةٍ كانَ مبتلىً بها قد ملكَتْهُ وأسرَتْهُ ، ومنعَتْهُ القيامَ بحقوقِ ربِّهِ ، فليوفِّ بعهدِ اللهِ تعالىٰ ، وليدفعْ ذلكَ عن نفسِهِ إنْ خافَ انحلالَ عزمِهِ وفسادَ نيَّتِهِ ، وإنْ لم يخفْ ذلكَ فليأخذْهُ وليخرجْهُ إلىٰ غيرِهِ ، وهٰذا أشدُّ شيءٍ على النفسِ ، وهو مِنْ أعظمِ درجاتِ الزهدِ .

ولا يأخذُ مِنْ منانٍ ولا فخورٍ ولا مظهرٍ لعطيَّتِهِ ، ولا يأخذُ ممَّنْ يثقلُ علىٰ قلبِهِ قبولُ عطيَّتِهِ ؛ فقد قيلَ : لا تأكلْ إلا طعامَ مَنْ يرىٰ لكَ الفضلَ عليهِ في أكلِهِ ، ولا تأكلْ إلا طعامَ مَنْ يرىٰ أنَّهُ وديعةٌ عندَهُ ، ولا تأكلْ إلا طعامَ زاهدٍ ؛ لأنَّهُ يُسَرُّ بأكلِكَ ، ولا تأكلْ إلا طعامَ مَنْ يراكَ صاحبُهُ أفضلَ مِنَ الطعام

وقد رُوِيَ أنَّهُ أُهديَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سمنٌ وأَقِطٌ وكبشٌ ، فقبلَ السمنَ والأقطَ ، وردَّ الكبشَ(١) ، وكانَ يقبلُ مِنْ بعضِ الناسِ ، ويردُّ علىٰ بعضٍ ، وقالَ : « هَمَمْتُ أَلا أَقْبَلَ إِلا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ »(٢)

قالَ أبو طالبٍ المكيُّ رحمَهُ اللهُ : (وفعلَ هٰذا جماعةٌ مِنَ التابعينَ ؛ جاءَتْ إلىٰ فتحٍ الموصليِّ صُرَّةٌ فيها خمسونَ درهماً ، فقالَ حدَّثَني عطاءٌ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ آتَاهُ ٱللهُ رِزْقاً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ . . فَإِنَّمَا يَرُدُّهُ عَلَى ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ »(٣) ، ثم فتحَ الصُّرَّةَ وأخذَ منها درهماً ، وردَّ سائرَها

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٧١) من حديث سيدنا يعلى بن مرة رضي الله عنهما ؛ وهو أنه أتته صلى الله عليه وسلم امرأةٌ بابنٍ لها قد أصابه لممٌ ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « اخرجْ عدوَّ اللهِ ، أنا رسولُ اللهِ » ، قال : فبَرَأَ ، فأهدَتْ له كبشينِ وشيئاً من أقطٍ وسمن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا يعلىٰ ؛ خُذِ الأقط والسمن ، وخذ أحد الكبشين ، ورُدَّ عليها الآخر » .

(٢) رواه الترمذي (٣٩٤٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وصدر الحديث : « إنَّ فلاناً أهدىٰ إليَّ ناقةً ، فعوضتُهُ منها ستَّ بَكَراتٍ ، فظلَّ ساخطاً ، لقد هممتُ ألا أقبلَ هديةً . . . » الحديث ، والمعنىٰ : إلا من قومٍ في طبائعهم الكرم ، لا ممَّن يهدون طلباً للاستكثار ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر : ٦] .

(٣) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٩٨) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه بلفظ مقارب ، واللفظ هنا في « قوت القلوب » (٣/ ١٥١٠) عن عطاء رحمه الله تعالىٰ مرسلاً

وكانَ الحسنُ يروي هٰذا الحديثَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[١]

وحُدِّثْنا عنهُ : أنَّ رجلاً أهدىٰ إليهِ كيساً فيهِ ألوفٌ ، ورِزْمةً فيها مِنْ ديبقِ خراسانَ[٢] ، فردَّ ذلكَ ، فقالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ في ذلكَ ، فقالَ : مَنْ جلسَ مثلَ مجلسي هٰذا ، وقبلَ مِنَ الناسِ شيئاً مثلَ هٰذا . . لقيَ اللهَ تعالىٰ يومَ القيامةِ وما لهُ عندَ اللهِ مِنْ خلاقٍ

وكانَ الحسنُ يقبلُ مِنْ أصحابِهِ

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ يسألُ أصحابَهُ الدرهمَ والدرهمينِ ، ويعرضُ عليهِ غيرُهمُ المئينَ فلا يأخذُ)[٣]

وكانَ بعضُ العُبَّادِ إذا دفعَ إليهِ بعضُ أهلِ الدنيا الشيءَ يقولُ : ضعْهُ عندَكَ ، واعرضْ علىٰ قلبِكَ حالي : كيفَ أنا عندَكَ بعدَ الأخذِ ؛ أفضلُ أو دونَ ذلكَ ؟ واصدقْني ؛ فإنْ قالَ لهُ أنتَ عندي الآنَ أفضلُ منكَ قبلَ ذلكَ ، أو قالَ لهُ : أنتَ عندي بعدَ الأخذِ مثلُ ما كنتَ قبلَ ذلكَ . . قَبِلَ منهُ ، وإنْ أخبرَهُ بنقصانِهِ في قلبِهِ . . لم يقبلْهُ منهُ[٤]

وكانَ بعضُهم يردُّ علىٰ أكثرِ الناسِ صِلاتِهم ، فعُوتبَ في ذلكَ ، فقالَ : ما أردُّ عليهم إلا إشفاقاً عليهم ونصحاً لهم ؛ يذكرونَ ذلكَ ويحبُّونَ أنْ يُعلمَ بهِ ، فتذهبُ أموالُهم ، وتحبطُ أجورُهم[٥]

---

(١) انظر « مسند أحمد » (٥/ ١٩٥)

(٢) الرِّزْمة ـ بكسر الراء ـ : ما شُدَّ من الثياب في ثوب واحد ، وديبق : قرية من قرى دلتا مصر ، وإليها تنسب الثياب الدبقية الرقيقة ، وبهذا المعنى استعملها هنا ، وفي غير (ج) : (دقيق) غير أن معناه مع لفظة الرِزْمة بعيد .

(٣) قاله في « قوت القلوب » (٣/ ١٥١٠) ، والسياق الآتي عنده مع حذف بعض الأخبار ، ووقوع تقديم وتأخير في بعضها .

(٤) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥١٠) .

(٥) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥١٠)

ويُروىٰ عنِ الأعمشِ أنَّهُ قالَ : جاءَ شابٌّ مِنَ العربِ إلىٰ إبراهيمَ التيميِّ بألفي درهمٍ ، فقالَ لهُ : يا أبا عمرانَ ؛ خُذْ هـٰذهِ الدراهمَ ، واللهِ ؛ ما هي مِنْ ذي سلطانٍ ولا مِنْ كذا ولا مِنْ كذا ، فقالَ لهُ إبراهيمُ : باركَ اللهُ لكَ ، وجزاكَ خيراً

فلمَّا ولَّىٰ قلتُ لهُ : يا أبا عمرانَ ؛ ما منعكَ ألا تأخذَها ؟![1] واللهِ ؛ ما لامرأتِكَ قميصٌ ! فقالَ : صدقتَ يا سليمانُ ، ولـٰكنْ هـٰذا شابٌّ مِنَ العربِ لم يحنكْهُ السنُّ ، ولم تحنكْهُ الآدابُ ، فكرهتُ أنْ يجلسَ في حيِّهِ فيقولَ : أعطيتُ إبراهيمَ ألفي درهمٍ ، فيحبطَ اللهُ أجرَهُ ، وتذهبَ دراهمُهُ .

وممَّنْ ذهبَ إلىٰ هـٰذا : سفيانُ الثوريُّ ؛ كانَ يشترطُ علىٰ بعضِ مَنْ كانَ يأخذُ منهُ ألا يذكرَهُ ؛ إشفاقاً عليهِ ، لا مِنْ أجلِهِ ، بل مِنْ ذهابِ أجرِهِ ؛ لأنَّهُ قيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] قالَ : المنُّ : أنْ يذكرَهُ ، والأذىٰ : أنْ يظهرَهُ[2]

وقالَ الجنيدُ للرجلِ الخراسانيِّ الذي جاءَهُ بالمالِ ، وسألَهُ أنْ يأكلَهُ ، فقالَ الجنيدُ : بل أفرِّقُهُ على الفقراءِ ، فقالَ الرجلُ أنا أعلمُ بالفقراءِ منكَ ، ولم أخترْ هـٰذا ، فقالَ لهُ الجنيدُ : وأنا أؤمِّلُ أنْ أعيشَ حتىٰ آكلَ هـٰذا ؟! فقالَ : إنِّي لم أقلْ لكَ : أنفقْهُ في الخلِّ والبقلِ ، وإنَّما قلتُ لكَ : أنفقْهُ في الطيباتِ وألوانِ الحلاواتِ ، فكلَّما نفدَ أسرعَ كانَ أحبَّ إليَّ ، فقالَ الجنيدُ : ومثلُكَ لا يحلُّ أنْ يُرَدَّ عليهِ ، فقبلَهُ ، فقالَ الرجلُ : ما ببغدادَ أحدٌ أعظمَ مِنَّةً عليَّ منكَ ، فقالَ الجنيدُ : وما ببغدادَ أحدٌ ينبغي أنْ يُقبلَ منهُ شيءٌ إلا مَنْ كانَ مثلَكَ[3]

وكانَ السريُّ السقطيُّ يوصلُ إلىٰ أحمدَ بنِ حنبلٍ الشيءَ فيردُّهُ ، فقالَ مرَّةً :

---

(١) في (ج) : (أن) بدل (ألا) ، علىٰ أن (لا) زائدة للتوكيد .
(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥١١) .
(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥١١) .

يا أحمدُ ؛ احذرْ آفةَ الردِّ ؛ فإنَّها أشدُّ مِنْ آفةِ الأخذِ ، فقالَ لهُ أحمدُ أعدْ عليَّ ما قلتَ ، فأعادَهُ ، فقالَ أحمدُ : ما رددتُ عليكَ إلا وعندي قوتُ شهرٍ ، فاحبسْهُ لي عندَكَ ، فإذا كانَ بعدَ شهرٍ فأنفذْهُ إليَّ[1]

وعلى الجملةِ فلا ينبغي أنْ يأخذَ المريدُ إلا مِنْ يدِ زاهدٍ عارفٍ ، فبذلكَ يسلمُ مِنَ الآفاتِ ، ويُكفىٰ مِنْ جميعِ المُؤْناتِ .

قالَ أبو بكرٍ الزقَّاقُ (منذُ أربعينَ سنةً أصحبُ هٰؤلاءِ ، فما رأيتُ رِفْقاً لأصحابِنا إلا مِنْ بعضِهم لبعضٍ ، وممَّنْ يحبُّهم ، ومَنْ لم يصحبْهُ التقوىٰ والورعُ في هٰذا الأمرِ . . أكلَ الحرامَ النصَّ)[2]

وإنْ أرادَ أنْ يسألَ أمثالَ هٰؤلاءِ فليفعلْ ؛ قالَ أبو طالبٍ المكيُّ (كانَ بشرُ بنُ الحارثِ لا يقبلُ مِنَ الناسِ شيئاً ، وكانَ بعضُهم يقولُ : أحبُّ أنْ أعلمَ مِنْ أينَ يأكلُ ، فقالَ مَنْ يَخْبُرُ أمرَهُ : أنا أعلمُكَ مِنْ أينَ يأكلُ ؛ كانَ لهُ صديقٌ عاقلٌ ؛ يعني نظيرَهُ في العقلِ والدينِ ؛ لأنَّ بعضَهم كانَ لا يقبلُ إلا مِنَ النظراءِ ، ولا يقبلُ مِنَ الأتباعِ ، وهٰذا الصديقُ العاقلُ الذي كانَ يقومُ بكفايتِهِ ، ولم يكنْ يظهرُ أمرَهُ ، ولا يلتقي معَهُ : هو السريُّ بنُ مغلِّسٍ السقطيُّ

قالَ بشرٌ رضيَ اللهُ عنهُ : ما سألتُ أحداً مِنَ الدنيا شيئاً إلا سريّاً السقطيَّ ؛ لأنَّهُ قد صحَّ عندي زهدُهُ في الدنيا ، فهو يفرحُ بخروجِ الشيءِ مِنْ يدِهِ ، ويتبرَّمُ ببقائِهِ عندَهُ ، فأكونُ قد أعنتُهُ علىٰ ما يحبُّ

وكانَ سريٌّ يوجِّهُ إلىٰ أحمدَ بنِ حنبلٍ في حاجاتِهِ ، فيقبلُ منهُ ، وكانَ إذا ذُكِرَ عندَ

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٠٧) .

(٢) رواه الطوسي في « اللمع » (ص ٢٣١) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٦١٢) ، والزقاق : هو أبو بكر أحمد بن نصر الزقاق الكبير ، كان من أقران الجنيد ، وانظر « الرسالة القشيرية » (ص ١٦٧) ، والنصُّ : الخالص .

أحمدَ بنِ حنبلٍ يقولُ : ذلكَ الفتى المعروف بطيبِ الغذاءِ ، إنَّهُ ليعجبُني أمرُهُ)[1]

وإنْ بلغَتْ بهِ الحاجاتُ كلَّ مبلغٍ ، وأشرفَ على الضعفِ ، وتُحقِّقَتِ الضرورةُ ، وسألَ مولاهُ ، فلم يقدرْ لهُ بشيءٍ ، ووقتُهُ يضيقُ عنِ الكسبِ ؛ لشغلِهِ بحالِهِ . **فعندَ ذلكَ يقرعُ بابَ السببِ ، ويسألُ مَنْ دونَ هـٰؤلاءِ ممَّنْ جُهِلَ حالُهُ**[2]

جاءَ في الأثرِ : (مَنْ جاعَ فلم يسألْ ، فماتَ . . دخلَ النارَ)[3]

وقد سألَ الناسَ عندَ الفاقةِ والحاجةِ نبيُّ اللهِ موسىٰ والخضرُ عليهما السلامُ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ [الكهف : ٧٧] .

وكانَ أبو جعفرٍ الحدَّادُ ـ وهو شيخُ الجنيدِ ـ يسألُ مِنْ بابٍ أو بابينِ بينَ العشاءينِ ، ويكونُ ذلكَ معلومَهُ إلىٰ عندِ حاجتِهِ مِنْ يومٍ أو يومينِ ، وكانَ لهُ مقامٌ في الزهدِ والتوكُّلِ[4]

قالَ أبو طالبٍ : (لم يعبْ هـٰذا عليهِ عمومٌ ولا خصوصٌ)[5]

ونُقِلَ عن أبي سعيدٍ الخرَّازِ أنَّهُ كانَ يمدُّ يدَهُ عندَ الفاقةِ ويقولُ : ثَمَّ شيءٌ للهِ ؟[6]

ونُقِلَ عن إبراهيمَ بنِ أدهمَ أنَّهُ كانَ معتكفاً بجامعِ البصرةِ مدَّةً ، وكانَ يفطرُ في كلِّ ثلاثةِ أيامٍ ليلةً ، وليلةَ إفطارِهِ يطلبُ مِنَ الأبوابِ[7]

---

(١) قاله في « قوت القلوب » (٣/ ١٥١٠) .

(٢) الإشارة إلى المتقدم ذكرهم في قوله : (وإن أراد أن يسأل أمثال هـٰؤلاء فليفعل) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٦٦) عن سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ

(٤) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٢٨) ، والسهروردي في « عوارف المعارف » (١/ ٢١٩) ، وفي (ج) : (بعد) بدل (عند) .

(٥) قاله في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٢٨) ، والعبارة في مطبوعه : (ولم يعب هـٰذا عليه أحد من الخصوص) .

(٦) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٢٨) .

(٧) أورده السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/ ٢٢٠) .

وكانَ الثوريُّ يسألُ في البوادي مِنَ الحجازِ إلىٰ صنعاءِ اليمنِ ، قالَ : وكنتُ أذكرُ لهم حديثاً في الضيافةِ ، قالَ : فيُخرِجونَ إليَّ طعاماً ، فأتناولُ حاجتي وأتركُ ما بقيَ[1]

وليجتنبِ المريدُ الأكلَ بالدِّينِ ، وقبولَ إرفاقِ النسوانِ[2]

فإنْ قيلَ كيفَ يردُّ ما يُعطاهُ في الوجوهِ التي حكمتم عليهِ بعدمِ الأخذِ فيها ، وهو إنَّما يأخذُ مِنْ يدِ ربِّهِ كما تقدَّمَ ؟! وهلِ الرادُّ لذلكَ إلا رادٌّ على اللهِ تعالىٰ ؟! فكيفَ يستقيمُ ذلكَ ؟[3]

فالجوابُ أنَّ القيامَ بحقِّ الشريعةِ والطريقةِ لا بدَّ منهُ ، والتوحيدُ لا ينافي ذلكَ ، وقد قيلَ : (الكاملُ : مَنْ لا يُطفئُ نورُ معرفتِهِ نورَ ورعِهِ)[4] ، وكلُّ باطنٍ مِنَ العلمِ يخالفُ ظاهراً مِنَ الحكمِ . . فهو مردودٌ .

ووجهُ صحَّةِ الردِّ للعطاءِ عندَ مشاهدةِ التوحيدِ ظاهرٌ ؛ إذْ لا فرقَ في ذلكَ بينَ يدي المعطي ويدي الآخذِ ، فكما يشهدُ الآخذُ يدَ اللهِ في العطاءِ عندَ يدِ المعطي ، فيأخذُ ما يُعطاهُ عندَ موافقةِ العلمِ ؛ اتِّباعاً لإذنِ اللهِ تعالىٰ وأمرِهِ . . يشهدُ يدَ اللهِ تعالىٰ في المنعِ عندَ يدِ نفسِهِ بالردِّ عندَ مخالفةِ العلمِ ، فلا يأخذُهُ ولا يقبلُهُ اتِّباعاً لنهيِ اللهِ تعالىٰ عن ذلكَ وعدمِ إذنِهِ فيهِ ؛ كما فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الكبشِ الذي أُهديَ إليهِ معَ السمنِ والأَقِطِ[5] ، وكما فعلَهُ فتحٌ الموصليُّ والحسنُ

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/١٥٢٩) .

(٢) الأكل بالدين : أن يُعطىٰ لحسن ديانته ؛ كإظهار فقه أو تصوف ، وإرفاق النسوان : إحسانهنَّ ، وانظر ما تقدم (ص ٣٩٣) .

(٣) ومن ذلك ما أنشده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١١١) : (من الطويل)

حرامٌ علىٰ مَنْ وحَّدَ اللهَ ربَّهُ ... وأفردَهُ أنْ يجتدي أحداً رفدا
ويا صاحبي قفْ لي معَ الحقِّ وقفةً ... أموتُ بها وجداً وأحيا بها وجدا
وقلْ لملوكِ الأرضِ تجهدُ جهدَها ... فذا الملكُ ملكٌ لا يُباعُ ولا يُهدىٰ

(٤) قطعة من كلام مأثور للسري السقطي ، حكاه عنه القشيري في « رسالته » (ص ١١٢) ، والعبارة الآتية بنحوها فيه أيضاً .

(٥) انظر (ص ٧٢٧) .

البصريِّ[1] ، معَ روايتِهِما للحديثِ الذي ذُكِرَ فيهِ أنَّ ردَّ الهديةِ ردٌّ على اللهِ تعالىٰ ، وقد تقدَّمَ ذكرُهُ بلفظِهِ[2] ، فبهـٰذا يندفعُ ذلكَ الخيالُ ، واللهُ تعالى الموفِّقُ لصالحِ الأعمالِ

وإنَّما أطلتُ الكلامَ في هـٰذهِ المسألةِ ؛ لأنَّ الحاجةَ ماسَّةٌ إليها ، وليُعلمَ مِنْ ذلكَ أنَّ جميعَ تفاريعِها ومسائلِها داخلةٌ في كلامِ المؤلفِ علىٰ حكمِ الإيجازِ والاختصارِ ، وكلامُهُ فيها مِنْ بديعِ الكلامِ ومستحسنِهِ .

ولشيخِهِ أبي العباسِ المرسيِّ في معنىٰ ما ذكرَهُ كلامٌ بديعٌ مختصرٌ منتزعٌ مِنْ كلامِ اللهِ تعالىٰ ، نقلَهُ عنهُ في « لطائفِ المننِ » قالَ رضيَ اللهُ عنهُ : (للناسِ أسبابٌ ، وسببُنا نحنُ الإيمانُ والتقوىٰ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦])[3]

وقد جوَّدَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ صياغتَهُ ، وأحسنَ سياقتَهُ في مقصدِ الإرشادِ والهدايةِ .

* *

(١) انظر (ص ٧٢٧ـ ٧٢٩) .

(٢) انظر (ص ٧٢٧) .

(٣) لطائف المنن (ص ١١١) .

الحكمة السابعة والتسعون بعد المئة (*)

رُبَّمَا ٱسْتَحْيَا ٱلْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَىٰ مَوْلاهُ ٱكْتِفَاءً بِمَشِيئَتِهِ ، فَكَيْفَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَىٰ خَلِيقَتِهِ ؟!

تقدَّمَ أنَّ مِنَ الأدبِ تركَ الطلبِ والسؤالِ مِنَ اللهِ اكتفاءً بمشيئتِهِ ، ورضاءً بسابقِ قسمتِهِ ، وأنَّ العارفينَ المحقِّقينَ يستحيونَ مِنَ اللهِ تعالىٰ في ذلكَ[1] ، فكيفَ لا يستحيونَ مِنْ مولاهم عزَّ وجلَّ عندَ سؤالِهم للمخلوقينَ ؟!

وهل أدبُهم في ذلكَ واستحياؤُهم مِنْ ربِّهم إلا واجبٌ عليهم ، فلا يسألونَ منهم شيئاً ، ولا يرفعونَ إليهم حاجةً ؛ **لأنَّهم فقراءُ محتاجونَ ، ومولاهم هو الغنيُّ الحميدُ** ؟!

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (لا تتعدَّ نيَّةُ همَّتِكَ إلىٰ غيرِهِ ، فالكريمُ لا تتخطَّاهُ الآمالُ)[2]

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ أنه سبحانه عالم حكيم قد تولَّىٰ تدبير شؤون خلقه أجمعين ، فلا مدبِّر ولا مؤثِّر أصلاً سواه ، وإلىٰ أنه مريد تامُّ الإرادة ، قد مضىٰ حكمه ، فسؤاله محضُ عبادة ، وأثره ثابت لصدق الوعد الحق ، ولعل العبد إذا كان حالُهُ شهودَ هـٰذه المعاني الاعتقادية الشريفة . . استحيا من الدعاء لعلَّةٍ ، فبالأولوية يستحيي من سؤال المدبَّرين أمثاله المشاركين له في صفتي الحدوث والإمكان .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « إذا سألتَ فاسألِ اللهَ » ، وقد تقدم (ص ٢٨٩)

(١) انظر (ص ٧٣٤)

(٢) انظر (ص ٢٨٩) .

روى الدينوري المالكي في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٠) عن سفيان بن عيينة قال دخل =

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ (ما مِنْ قلبٍ ولا نفسٍ إلا واللهُ مطَّلعٌ عليهِ في ساعاتِ الليلِ والنهارِ ، فأيُّما نفسٍ أو قلبٍ رأىٰ فيهِ حاجةً إلىٰ سواهُ سلَّطَ عليهِ إبليسَ)[1]

وقالَ الأستاذُ أبو عليٍّ الدقاقُ : (مِنْ علاماتِ المعرفةِ ألا تسألَ حوائجَكَ قلَّتْ أو كثُرَتْ إلا مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، مثلُ موسىٰ عليهِ السلامُ ؛ اشتاقَ إلى الرؤيةِ ، فقالَ : ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، واحتاجَ مرَّةً إلىٰ رغيفٍ ، فقالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ [القصص : ٢٤])[2]

وذكرَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ أنَّ بعضَ الفقراءِ كانَ يأتي كلَّ يومٍ ويقفُ بحذاءِ الكعبةِ بعدَما يطوفُ ما شاءَ اللهُ ، ويخرجُ مِنْ جيبِهِ رقعةً ينظرُ فيها ، فلمَّا كانَ بعدَ أيامٍ فعلَ مثلَ ذلكَ ، ثم تباعدَ وماتَ ، فجاءَ بعضُ مَنْ يرمقُهُ ونظرَ في الرقعةِ ، وإذا فيها : ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾[3] [الطور : ٤٨]

قالَ : (فكأنَّ الرجلَ أصابَتْهُ الفاقةُ ، فصبرَ ولم يظهرْ حالَهُ لمخلوقٍ حتىٰ ماتَ)[4]

وقالَ أبو بكرٍ الجوهريُّ رحمَهُ اللهُ : كنتُ بعسقلانَ علىٰ برجٍ أحرسُ ، فمرَّ بي رجلٌ عليهِ جبَّةُ صوفٍ متخرِّقةٌ ، فقمتُ إليهِ مسلِّماً ، وعانقتُهُ وأجلستُهُ ، وجاريتُ معَهُ في فنونٍ مِنَ العلمِ ، وكانَ قدماهُ حافيتينِ ، فقلتُ لهُ : لِمَ لا تسألُ أصحابَنا في

= هشام بن عبد الملك الكعبة ، فإذا بسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، فقال له : يا سالم ؛ سلني حاجةً ، فقال : إني أستحيي من الله تبارك وتعالىٰ أن أسأل في بيت الله غير الله ، فلما خرج خرج في إثره ، فقال له : الآن قد خرجت ؛ فسلني حاجة ، فقال له سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ فقال من حوائج الدنيا ، فقال له سالم : أما والله ؛ ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسأل الدنيا من لا يملكها ؟!

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٠٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٩٤)

(٢) رواه القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ١١٢) .

(٣) حكاه في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٤٣) ، و« شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ١١٦) .

(٤) انظر « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ١١٦)

نعلٍ تقيكَ مِنَ الحفاءِ ؟ فقالَ : يا أخي ؛ لَرَدُّ أمسِ بالحبالِ ، وحبْسُ عينِ الشمْسِ بالعقالِ ، ونقلُ ماءِ البحرِ بالغربالِ . . أهونُ عليَّ مِنْ موقفِ السؤالِ ، وارتجائي مِنَ المخلوقينَ النوالَ .

ثم أخرجَني مِنْ بابِ المدينةِ ، فانتهىٰ بي إلىٰ صخرةٍ منقورةٍ ، فإذا عليها مكتوبٌ :
كُلْ مِنْ كدِّ يمينِكَ ، وعرقِ جبينِكَ ، فإنْ ضعُفَ يقينُكَ ، فاسألِ المولىٰ يعينُكَ(١)

قالَ في « التنويرِ » (واعلمْ رحمَكَ اللهُ : أنَّ رفعَ الهمَّةِ لسالكي طريقِ الآخرةِ عنِ الخلْقِ ، وعدمَ التعرُّضِ لهم . . أزينُ لهم مِنَ الحلْيِ للعروسِ ، وهم أحوجُ إليهِ مِنَ الماءِ لحياةِ النفوسِ ، ومَنْ خُلعَتْ عليهِ خلعةُ المَلِكِ ، فحفظَها وصانَها . . فحريٌّ بأنْ تُدامَ لهُ ، ولا تُسْلبَ عنهُ ، والمُدنِّسُ لخِلَعِ المواهبِ حريٌّ ألا تُتركَ لهُ ، فلا تدنِّسْ أيُّها الأخُ إيمانَكَ بطمعِكَ في المخلوقينَ ، ولا تجعلَنَّ اعتمادَكَ إلا علىٰ ربِّ العالمينَ .

وكُنْ أيُّها الأخُ إبراهيمياً ، فقد قالَ أبوكَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] ، وما سوى اللهِ آفلٌ ؛ إمَّا وجوداً ، وإما إمكاناً ، وقد قالَ سبحانَهُ : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج : ٧٨] أي : اتبعوا ملَّتَهُ ، فواجبٌ على المؤمنِ أنْ يتَّبعَ ملَّةَ إبراهيمَ .

ومِنْ ملَّتِهِ : رفعُ الهمَّةِ عنِ الخلْقِ ؛ فإنَّهُ يومَ زُجَّ بهِ في المنجنيقِ تعرَّضَ لهُ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فقالَ لهُ : ألكَ حاجةٌ ؟ فقالَ : أمَّا إليكَ فلا ، وأمَّا إلى اللهِ فبلىٰ ، قالَ : فاسألْهُ ، قالَ : حسبي مِنْ سؤالي ، علمُهُ بحالي(٢)

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٧٨) .

(٢) روى البخاري (٤٥٦٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٤٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أُلقي إبراهيم في النار قال : حسبي الله ونعم الوكيل ، قال : وكذلك قال محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

فانظرْ كيفَ رفعَ همَّتَهُ عنِ الخلْقِ ، ووجَّهَها إلى الملكِ الحقِّ ، فلم يستغثْ بجبريلَ ، ولا احتالَ على السؤالِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، بل رأىٰ ربَّهُ أقربَ إليهِ مِنْ جبريلَ عليهِ السلامُ ومِنْ سؤالِهِ ، فلذلكَ سلَّمَهُ مِنْ نمروذَ ونكالِهِ ، وأنعمَ عليهِ بنوالِهِ وإفضالِهِ ، وخُصَّ بوجودِ إقبالِهِ .

ومِنْ ملَّةِ إبراهيمَ : معاداةُ كلِّ ما شغلَ عنِ اللهِ ، وصرْفُ الهمَّةِ بالردِّ إلى اللهِ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٧] والغنىٰ إنْ أردتَ الدَّلالةَ عليهِ . . فهو في اليأسِ مِنَ الناسِ .

ولقد قالَ الشيخُ أبو الحسنِ : أيستُ مِنْ نفْعِ نفسي لنفسي ، فكيفَ لا أيئسُ مِنْ نفعِ غيري لنفسي ؟! ورجوتُ اللهَ لغيري ، فكيفَ لا أرجوهُ لنفسي ؟!

وهـٰذا هو الكيمياءُ والإكسيرُ الذي مَنْ حصلَ لهُ حصلَ لهُ غنىً لا فاقةَ فيهِ ، وعزٌّ لا ذلَّ معَهُ ، وإنفاقٌ لا نفادَ لهُ ، وهو كيمياءُ أهلِ الفهمِ عنِ اللهِ تعالىٰ

قالَ الشيخُ أبو الحسنِ : صحبَني إنسانٌ وكانَ ثقيلاً عليَّ ، فبسطتُهُ يوماً فانبسطَ ، فقلتُ : يا ولدي ؛ ما حاجتُكَ ؟ ولِمَ صحبتَني ؟ قالَ : قيلَ لي : إنَّكَ تحسنُ الكيمياءَ ، فصحبتُكَ لأتعلَّمَ منكَ ذلكَ .

فقلتُ : صدقتَ وصدقَ مَنْ حدَّثَكَ ، ولـٰكنْ إخالُكَ لا تقبلُ ، فقالَ : بل أقبلُ ، فقلتُ لهُ : نظرتُ إلى الخلْقِ فوجدتُهم علىٰ قسمينِ : أعداءٍ وأحبَّاءَ ، فنظرتُ إلى الأعداءِ فعلمتُ أنَّهم لا يستطيعونَ أنْ يشوكوني بشوكةٍ لم يردْني اللهُ بها ، فقطعتُ نظري عنهم ، ثم تعلَّقْتُ بالأحباءِ ، فوجدتُهم لا يستطيعونَ أنْ ينفعوني بشيءٍ لم يردْني اللهُ بهِ ، فقطعتُ إياسي منهم ، وتعلَّقْتُ باللهِ تعالىٰ ، فقيلَ لي : إنَّكَ لا تصلُ إلىٰ حقيقةِ هـٰذا الأمرِ حتىٰ تقطعَ يأسَكَ منَّا كما قطعتَهُ مِنْ غيرِنا ؛ أنْ نعطيَكَ غيرَ ما قسمناهُ لكَ في الأزلِ

وقالَ مرَّةً أخرىٰ لمَّا سُئِلَ عنِ الكيمياءِ ، فقالَ : أخرجِ الخلقَ مِنْ قلبِكَ ، واقطعْ

يأسَكَ مِنْ ربِّكَ أنْ يعطيَكَ غيرَ ما قسمَ لكَ)[1]

قالَ : (وليسَ يدلُّ على فهمِ العبدِ كثرةُ عملِهِ ، ولا مداومتُهُ على وردِهِ ، وإنَّما يدلُّ على نورِهِ وفهمِهِ : غناهُ بربِّهِ ، وانحياشُهُ إليهِ بقلبِهِ[2] ، وتحرُّرُهُ مِنْ رقِّ الطمعِ ، وتحلِّيهِ بحليةِ الورعِ ، وبذلكَ تَحْسُنُ الأعمالُ ، وتزكو الأحوالُ ؛ قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧] .

فحسنُ الأعمالِ إنَّما هو بالفهمِ عنِ اللهِ ، والفهمُ هو ما ذكرناهُ ؛ مِنَ الاغتناءِ باللهِ ، والاكتفاءِ بهِ ، والاعتمادِ عليهِ ، ورفعِ الحوائجِ إليهِ ، والدوامِ بينَ يديهِ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ ثمرةِ الفهمِ عنِ اللهِ تعالى) انتهى ما يتعلَّقُ بغرضِنا مِنْ كلامِ صاحبِ « التنويرِ »[3] ، وهو مِنَ الكلامِ النفيسِ الخطيرِ

وأنتَ ـ رحمَكَ اللهُ ـ إذا تأمَّلتَهُ بعينِ بصيرتِكَ ، ناصحاً لربِّكَ في علانيَتِكَ وسريرتِكَ[4] . . علمتَ منهُ أنَّ ما تضمَّنَهُ عظيمُ الموقعِ ، وأنَّهُ مستحسنٌ منَّا إيرادُهُ في هٰذا الموضعِ ؛ إذْ هو منوطٌ بالإيمانِ والتوحيدِ ، محتاجٌ إليهِ كلُّ سالكٍ ومريدٍ ، فمَنْ راعاهُ حقَّ رعايتِهِ ، وصرفَ إلى العملِ بمقتضاهُ عِنانَ عنايتِهِ . . فقد تحقَّقَ بحقائقِ الإيمانِ ، وكانَ مِنْ ولايةِ اللهِ تعالى بمكانٍ ، ومَنْ أهملَهُ وضيَّعَهُ ، وجهلَ قدرَهُ وموضعَهُ . . خِيفَ عليهِ مِنَ الوقوعِ في الشركِ الخفيِّ والجليِّ ، واستحقَّ بذلكَ أنْ يُطردَ عن بابِ مولاهُ العليِّ ، فيقوى طمعُهُ في الخلقِ ، وتضيقُ عليهِ متَّسعاتُ أبوابِ الرزقِ ، كما قالَ بعضُ العارفينَ المكاشَفينَ

---

(١) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٩١) .

(٢) في (ج) : (وانحباسه) بدل (وانحياشه) ، وأصل معنى الانحياش : النفرة من الشيء والفرار منه ، وتعديته بـ(إلى) هنا تقتضي أنه بمعنى قوله سبحانه : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، فكأن معنى السياق : الرجوع إلى الله تعالى في كل حركة وسكنة .

(٣) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٩٤) .

(٤) النصيحة لله تعالى : تعظيم أمره ، والشفقة على خلقه . انظر « مرقاة المفاتيح » (٧/ ٣١١١) .

قيلَ لي في نومٍ كاليقظةِ ، أو يقظةٍ كالنومِ : **لا تبدينَّ فاقةً إلىٰ غيري فأضاعفَها عليكَ** ؛ مكافأةً لسوءِ أدبِكَ ، وخروجِكَ عن حدِّكَ في عبوديَّتِكَ ، إنَّما ابتليتُكَ بالفاقةِ لتفزعَ إليَّ منها ، وتتضرَّعَ بها لديَّ ، وتتوكَّلَ فيها عليَّ ، **سبكتُكَ بالفاقةِ لتصيرَ ذهباً خالصاً** ، **فلا تَزَيَّفَنَّ بعدَ السَّبْكِ** ، وسمتُكَ بالفاقةِ ، وحكمتُ لنفسي بالغنىٰ ؛ فإنْ وصلتَها بي وصلتُكَ بالغنىٰ ، وإنْ وصلتَها بغيري قطعتُ عنكَ موادَّ معونتي ، وحسمتُ أسبابَكَ مِنْ أسبابي ؛ طرداً لكَ عن بابي ، **فمَنْ وكلتُهُ إليَّ مَلَكَ ، ومَنْ وكلتُهُ إليهِ هلكَ** . انتهىٰ(١)

ومنهم مَنْ يأنفُ مِنْ قبولِ الرفقِ علىٰ أيدي الخلْقِ ، وترتفعُ همَّتُهُ عن ذلكَ وإنْ لم يكنْ سؤالٌ ولا طلبٌ

يُحكىٰ عن حمادِ بنِ سلمةَ أنَّهُ قالَ : كانَ في جواري امرأةٌ أرملةٌ لها أيتامٌ ، وكانَتْ ليلةٌ ذاتُ مطرٍ ، فسمعتُ صوتَها تقولُ : يا رفيقُ ؛ ارفقْ .

قالَ فخطرَ ببالي أنَّها أصابَتْها فاقةٌ ، فصبرتُ حتىٰ احتبسَ المطرُ ، فحملتُ معي عشرةَ دنانيرَ ، ودققتُ عليها البابَ ، فقالَتْ : حمادُ بنُ سلمةَ ؟ فقلتُ : نعم ، فقلتُ : كيفَ الحالُ ؟ فقالَتْ بخيرٍ وعافيةٍ ، احتبسَ المطرُ ودفِئَ الصبيانُ ، فقلتُ : خذي هـٰذهِ الدنانيرَ وأصلحي بها بعضَ شأنِكِ .

قالَ فصاحَتْ بنيَّةٌ لها خماسيَّةٌ(٢) : **أتريدُ يا حمَّادُ أنْ تكونَ بينَنا وبينَ معبودِنا ؟!** ثم قالَتْ لأمِّها لمَّا رفعتِ صوتَكِ بإظهارِ السرِّ علمتُ أنَّ اللهَ يُؤدِّبُنا بإظهارِ الرفقِ علىٰ يدِ مخلوقٍ(٣)

وذكرَ الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السلميُّ : عن عبَّاسِ بنِ دهقانَ قالَ كنتُ عندَ

---

(١) قوله : (إليه) يعني : إلىٰ نفسه ، وفي (ب) وحدها : (إلىٰ غيري) بدل (إليه)
(٢) يعني : طولها خمسة أشبار . انظر « المصباح المنير » (خ م س) .
(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٤/ ٥٠)

بشرِ بنِ الحارثِ وهو يتكلَّمُ في الرضا والتسليمِ ، فإذا هو برجلٍ مِنَ المتصوِّفةِ ، فقالَ لهُ : يا أبا نصرٍ ؛ انقبضتَ عن أخذِ البرِّ مِنْ أيدي الخلْقِ لإقامةِ الجاهِ ، فإنْ كنتَ متحقِّقاً بالزهدِ ، منصرفاً عنِ الدنيا . . فخُذْ مِنْ أيديهم ليُمتحىٰ جاهُك عندَهم ، وأخرجْ ما يعطونَكَ إلى الفقراءِ ، وكنْ بعقدِ التوكُّلِ تأخذْ قوتَكَ مِنَ الغيبِ .

فاشتدَّ ذلكَ علىٰ أصحابِ بشرٍ ، فقالَ بشرٌ : اسمعْ أيُّها الرجلُ الجوابَ :

الفقراءُ ثلاثةٌ :

فقيرٌ لا يسألُ ، وإنْ أُعطيَ لا يأخذْ ؛ فذلكَ مِنَ الرُّوحانيينَ ، إذا سألَ اللهَ أعطاهُ ، وإنْ أقسمَ على اللهِ أبرَّ قسمَهُ

وفقيرٌ لا يسألُ ، وإنْ أُعطيَ قَبِلَ ؛ فذلكَ مِنْ أوساطِ القومِ ، عقدُهُ التوكُّلُ والسكونُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فهو ممَّنْ توضعُ لهُ الموائدُ في حضيرةِ القدسِ .

وفقيرٌ حالُهُ الصبرُ ومدافعةُ الوقتِ ، فإذا طرقَتْهُ الحاجةُ خرجَ إلىٰ عبيدِ اللهِ وقلبُهُ إلى اللهِ بالسؤالِ ، فكفارةُ سؤالِهِ صدقُهُ

فقالَ الرجلُ : رضيتُ ، رضيَ اللهُ عنكَ(١)

* *

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٤٧) .

الباب الحادي والعشرون
في أحكام الالتباس

الحكمة الثامنة والتسعون بعد المئة (*)

وقال رضي الله عنه :

إِذَا ٱلْتَبَسَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ فَٱنْظُرْ أَثْقَلَهُمَا عَلَى ٱلنَّفْسِ فَٱتْبَعْهُ ؛ فَإِنَّهُ لا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلا مَا كَانَ حَقّاً

هٰذا ميزانٌ صحيحٌ باعتبارِ غالبِ الأنفسِ ؛ لأنَّها مجبولةٌ على الجهلِ والشَّرَهِ ، فشأنُها أبداً إنَّما هو طلبُ الحظوظِ ، والفرارُ مِنَ الحقوقِ ، كما تقدَّمَ عندَ قولِهِ (حظُّ النفسِ في المعصيةِ ظاهرٌ جليٌّ ، وحظُّها في الطاعةِ باطنٌ خفيٌّ)(1)

فإذا وجدَ المريدُ مِنْ نفسِهِ ميلاً وخفَّةً عندَ بعضِ الأعمالِ دونَ البعضِ . . اتَّهمَها ، وتركَ ما مالَتْ إليهِ وخفَّ عليها ، وعملَ بما استثقلَتْهُ

قالَ بعضُ العارفينَ : (منذُ عشرينَ سنةً ما سكنَ قلبي إلىٰ نفسي ساعةً واحدةً)(2) .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ خلق النفس علىٰ هيئة تطلب فيها شهواتها ، ورغباتها ومراداتها ؛ ابتلاءً منه وتمحيصاً ؛ ليميز بين من يعتمد عليها ومن يرجو منه سبحانه تخليصاً ، فما خالف نفسَهُ إلا مؤمنٌ ، وإلىٰ أنه سبحانه جعل الحقَّ ثقيلاً عليها ؛ لأنها نزَّاعة للهو والباطل ، وجعل ذلك علامة فارقة بين الحق والباطل فيما التبس .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام للذي استأذنه في الجهاد : « أحيٌّ والداكَ ؟ » ، قال نعم ، قال : « ففيهما فجاهدْ » ، رواه البخاري (٣٠٠٤) ، ومسلم (٢٥٤٩) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

(1) انظر (ص ٦٣٢)

(2) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٤٠) ، وزاد : (وما ساكنته طرفة عين)

وسكونُ القلبِ إلى النفسِ : هو اتباعُهُ للأخفِّ عليها دونَ الأثقلِ ، وهو معدودٌ عندَهم مِنْ نفاقِ القلبِ ، ومَنْ بقيَ عليهِ شيءٌ مِنْ دواعي الهوىٰ وإنْ قلَّ . . لا يُؤمنُ عليهِ مثلُ هـٰذا ، فخفَّةُ العملِ على النفسِ إنَّما تكونُ لأجلِ موافقتِهِ هواها ، وهواها لا يميلُ إلا إلى الباطلِ .

فإذا التبسَ عليكَ أمرانِ واجبانِ أو مندوبانِ ، ولم تعلمْ أيُّهما أوجبُ أو أفضلُ لتقدِّمَهُ على الآخرِ . . فانظرْ أثقلَهما علىٰ نفسِكَ فاعملْ بهِ .

وإنَّما قلنا : (باعتبارِ غالبِ الأنفسِ) لأنَّ النفسَ المطمئنةَ لا تُوصفُ بالجهلِ ولا بالشَّرَهِ ؛ فقد يخفُّ عليها العملُ ولا يدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّهُ باطلٌ ، فليكنْ نظرُ العبدِ حينَئذٍ إلىٰ ما هو أكثرُ فائدةً وأعظمُ مزيداً فليقدِّمْهُ علىٰ غيرِهِ .

وقد ذكرَ الشيخُ أبو طالبٍ حكايةً عجيبةً في شَرَهِ النفسِ ، وكونِها لا تميلُ إلا إلى الباطلِ ، قالَ : (حدَّثني بعضُ إخواني عن بعضِ أهلِ هـٰذهِ الطريقةِ قالَ : قدمَ علينا بعضُ الفقراءِ ، فاشترينا مِنْ جارٍ لنا حَمَلاً مشويّاً ودعوناهُ إليهِ في جماعةٍ مِنْ أصحابِنا ، فلمَّا مدَّ يدَهُ أخذَ لقمةً وجعلَها في فيهِ ثم لفظَها ، ثم اعتزلَ وقالَ : كلوا أنتم ؛ فإنَّهُ قد عرضَ لي عارضٌ منعَني مِنَ الأكلِ .

فقلنا : لا نأكلُ إنْ لم تأكلْ ، فقالَ : أنتم أعلمُ ، أمَّا أنا فغيرُ آكلٍ ، ثم انصرفَ .

قالَ : وكرهنا أنْ نأكلَ دونَهُ ، فقلنا : لو دعونا الشوَّاءَ فسألناهُ عن أصلِ هـٰذا الحَمَلِ ، ولعلَّ لهُ سبباً مكروهاً ، فدعوناهُ ، فلم نزلْ نسألُهُ عنهُ حتىٰ أقرَّ أنَّهُ كانَ ميتةً ، وأنَّ نفسَهُ شَرِهَتْ إلىٰ بيعِهِ حرصاً علىٰ ثمنِهِ ، فشواهُ ، ووافقَ أنَّكمُ اشتريتُموهُ ، قالَ : فمزَّقناهُ للكلابِ .

قالَ : ثم إنِّي لقيتُ الرجلَ بعدَ وقتٍ ، فسألتُهُ : لأيِّ معنىً تركتَهُ ؟ وبأيِّ عارضٍ ؟ فقالَ : أخبرُكَ ؛ ما شَرِهَتْ نفسي إلىٰ طعامٍ منذُ عشرينَ سنةً للرياضةِ التي

رضتُها بهِ ، فلمَّا قدِمتُم إليَّ هـٰذا شَرِهَتْ نفسي إليهِ شَرَهاً ما عهدتُهُ قبلُ ، فعلمتُ أنَّ في الطعامِ علَّةً ، فتركتُ أكلَهُ لأجلِ شَرَهِ النفسِ إليهِ)[1]

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (فانظرْ رحمَكَ اللهُ كيفَ اتَّفقا في شَرَهِ النفسِ عن قصَّةٍ واحدةٍ[2] ، ثم اختلفا في التوفيقِ والخذلانِ ؛ فعُصِمَ العالمُ بالورعِ والمحاسبةِ ، وتُرِكَ الجاهلُ معَ شَرَهِ النفسِ بالحرصِ وتركِ المراقبةِ ؛ أعني : البائعَ للحملِ ، وعُصِمَ الآخرونَ للتوفيقِ بحسنِ الأدبِ ؛ وهو قمعُ شَرَهِ النفسِ عنِ الأكلِ بعدَ صاحبِهم ، ثم تُدُورِكَ البائعُ بعدَ وقوعِهِ بصدْقِ المشتري وحسنِ نيَّتِهِ) انتهىٰ[3]

وثَمَّ ميزانٌ آخرُ أصحُّ وأكثرُ تحقيقاً مِنَ الأولِ ؛ وهو أنْ يقدِّرَ نزولَ الموتِ بهِ ، فأيُّ عملٍ سرَّهُ أنْ يكونَ مشغولاً بهِ إذْ ذاكَ . . فهو حقٌّ ، وما عداهُ باطلٌ .

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (والموتُ ميزانٌ على الأفعالِ والأحوالِ ، كما هو ميزانٌ في دائرةِ الرُّتَبِ .

أمَّا الرُّتَبُ : فكما تقدَّمَ ـ يعني : أنَّهُ علامةُ صحَّةِ مرتبةِ الولايةِ ـ[4]

وأمَّا الأفعالُ والأحوالُ : فإذا التبسَ عليكَ أمرٌ لا تدري : هل يرضى اللهُ تركَهُ أو فعلَهُ ، أو حالةٌ أنتَ بها لا تدري : هل قمتَ فيها بحقٍّ أو قمتَ فيها بهوىً . . فأوردِ الموتَ علىٰ ما أنتَ فيهِ مِنْ أفعالٍ وأحوالٍ ، فكلُّ حالةٍ وعملٍ يثبتُ معَ تقديرِ ورودِ الموتِ عليها ولم تنهزمْ . . فهي حقٌّ ، وكلُّ حالةٍ وعملٍ هزمَها الموتُ فهي باطلٌ ؛ إذِ الموتُ حقٌّ ، والحقُّ يهزمُ الباطلَ ويدمغُهُ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء ١٨] ، ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [سبأ : ٤٨] ،

---

(١) حكاها في « قوت القلوب » (١/ ٢٥٠) ، وقوله : (رضتها به) كذا في النسخ .

(٢) كذا في جميع النسخ ، وفي « قوت القلوب » : (عن قصد واحد) .

(٣) قاله في « قوت القلوب » (١/ ٢٥١)

(٤) حيث قال في « لطائف المنن » (ص ٥٧) : (الولي على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه) .

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء ٨١] ، وما كنتَ فيهِ قائماً بحقٍّ لم يهزمْهُ الموتُ ؛ إذْ هو حقٌّ ، والموتُ حقٌّ ، والحقُّ لا يهزمُ الحقَّ

قالَ وقد تجاريتُ الكلامَ أنا وبعضُ مَنْ يشتغلُ بالعلمِ في أنَّهُ ينبغي إخلاصُ النيَّةِ فيهِ ، وألا يشتغلَ فيهِ إلا للهِ ؛ فقلتُ الذي يقرأُ العلمَ للهِ هو الذي إذا قيلَ لهُ : غداً تموتُ . . لا يضعُ الكتابَ مِنْ يدِهِ) انتهىٰ[١]

قلتُ : وهٰذا هو فصلُ الخطابِ ، ونهايةُ الصوابِ ؛ فإنَّ العبدَ في هٰذهِ الحالةِ لا يصدرُ منهُ إلا العملُ الصالحُ الخالصُ مِنْ شوائبِ الرياءِ وممازجةِ حظِّ النفسِ واتباعِ الهوىٰ ، وهٰذا هو المطلوبُ مِنَ العبدِ ، ولا يستتمُّ لهُ ذلكَ إلا بأنْ يتحقَّقَ بما يقدِّرُهُ مِنْ حلولِ الموتِ وحصولِ الفوتِ ، وهٰذا هو معنىٰ قصرِ الأملِ ، الذي هو أصلُ حُسْنِ العملِ ؛ وهو ألا يقدِّرُ لنفسِهِ وقتاً ثانياً يكونُ فيهِ حيّاً ، وعندَ ذلكَ يخلصُ عملُهُ مِنَ الآفاتِ ، ويتطهَّرُ مِنْ أنواعِ الرعوناتِ ؛ لأنَّ توقُّعَ الموتِ في كلِّ نَفَسٍ ولحظةٍ يهدمُ عليهِ جميعَ ذلكَ ، كما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وكلُّ عملٍ استرسلَ فيهِ صاحبُهُ غافلاً عن تقديرِ وقوعِ ذلكَ إنْ لم يكنْ متحقِّقاً بهِ . . لم يسلمْ ممَّا ذكرناهُ

فإذاً ؛ بعيدٌ مِنَ الإخلاصِ مَنْ يأخذُ في علمٍ غيرِ متعيِّنٍ عليهِ الأخذُ منهُ ، لا يجتني ثمرتَهُ إلا في ثاني حالٍ ، ويكونُ في حالِهِ الراهنةِ متمكِّناً مِنْ إيقاعِ طاعةٍ تزيدُ مصلحتُها علىٰ مصلحةِ ما هو آخذٌ فيهِ مِنَ العلمِ ؛ فيفوزُ بثوابِها ، ويتنجَّزُ لهُ حصولُ التقرُّبِ بها ؛ لأنَّ في ذلكَ قوتَ نفسِهِ ووفارةَ حظِّهِ

وآيةُ ذلكَ أنَّهُ قد يعرضُ لهُ في حالِ أخذِهِ فيهِ غرضٌ دنيويٌّ يكونُ احتظاءُ نفسِهِ بهِ أكثرَ[٢] ، فيقدِّمُهُ علىٰ ما كانَ آخذاً فيهِ ، ويتشاغلُ بهِ مِنْ غيرِ مبالاةٍ بما يفوتُهُ مِنْ ذلكَ

---

(١) لطائف المنن (ص ٥٨)

(٢) قوله : (في حال أخذه فيه) يعني : في حال أخذه في علم غير متعين عليه الأخذ فيه

وإنَّما عبَّرنا بلفظِ (الأخذِ) ليدخلَ فيهِ تعلُّمُ المتعلِّمِ وتعليمُ المعلِّمِ ؛ فإنَّ الأمرَ فيهما واحدٌ ، وكلُّ عملٍ لا إخلاصَ فيهِ ليسَ باللهِ ولا للهِ . . مردودٌ على صاحبِهِ ، مضروبٌ بهِ وجهُهُ

وبهـٰذا يتبينُ لكَ غرورُ أكثرِ الخلْقِ في علومِهم وأعمالِهم ، إلا مَنْ رحمَ اللهُ تعالىٰ ، ولهـٰذا يُشاهدُ أكثرُ الناسِ عندَ نزولِ الموتِ بهم يندمونَ على ما أسلفوهُ مِنْ عملٍ ، ويودُّونَ أنْ لو أُنْسِئَ لهم في الأجلِ ، وهيهاتَ هيهاتَ !

فنعوذُ باللهِ مِنَ الغفلةِ في زمانِ المهلةِ ؛ فإنَّها مبدأُ كلِّ عملٍ فاسدٍ ، ومنشأُ وجودِ الغِرَّةِ والجهالةِ لكلِّ عالمٍ عابدٍ .

وما ذكرنا مِنْ معرفةِ اختلافِ درجاتِ المصالحِ ؛ ليُقدَّمَ الفاضلُ منها على المفضولِ . . لا يصحُّ إلا ممَّنْ أيَّدَهُ اللهُ تعالىٰ بنورِ اليقينِ ، وجبلَهُ على النصيحةِ لهُ في الدينِ ، وكانَ لهُ حظٌّ وافرٌ مِنَ الخوفِ والحذرِ ، وموافقةِ مولاهُ في كلِّ وِرْدٍ وصَدَرٍ ، ولا شكَّ أنَّ هـٰذهِ المرتبةَ عزيزةُ المنالِ ، متعذِّرٌ إدراكُها على الأجلَّاءِ مِنَ الرجالِ

وسبيلُ مَنْ لم يصلْ إليها ممَّنْ ذكرناهُ إذا كانَ منصفاً أنْ يستعينَ بنظرِ مَنْ هو أصحُّ منهُ حالاً ، وأصوبُ مقالاً وفَعالاً ، ويفوِّضَ جميعَ أمورِهِ إليهِ ، ويعتمدَ إشارتَهُ في كلِّ ما يشيرُ بهِ عليهِ

وعلامةُ إنصافِهِ : وجودُ اتِّهامِهِ لنفسِهِ ، وعدمُ اعتمادِهِ على عقلِهِ وحَدْسِهِ ، ومَنْ لم يكنْ منصفاً فالكلامُ معَهُ هذيانٌ فاسدٌ ، وضربٌ في حديدٍ باردٍ .

وسيأتي مزيدُ تنبيهٍ على غرورِ الآخذينَ في العلمِ في موضعٍ أليقَ مِنْ هـٰذا[1] ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التوفيقِ

* * *

---

(١) انظر (ص ٨٤١) .

الحكمة التاسعة والتسعون بعد المئة (*)

مِنْ عَلامَةِ ٱتِّبَاعِ ٱلْهَوَىٰ : ٱلْمُسَارَعَةُ إِلَىٰ نَوَافِلِ ٱلْخَيْرَاتِ ، وٱلتَّكَاسُلُ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِٱلْوَاجِبَاتِ .

هـٰذهِ مِنَ الصورِ التي يُتبيَّنُ فيها خفَّةُ الباطلِ وثقلُ الحقِّ على النفسِ ، وما ذكرَهُ هو حالُ أكثرِ الناسِ ، فترى الواحدَ منهم إذا اعتقدَ التوبةَ لا همَّ لهُ إلا في نوافلِ الصيامِ والقيامِ ، وتكرارِ المشْيِ إلىٰ بيتِ اللهِ الحرامِ ، وما أشبهَ هـٰذا مِنَ النوافلِ ، وهو معَ ذلكَ غيرُ متداركٍ لما فرَّطَ فيهِ مِنَ الواجباتِ ، ولا متحلِّلٍ لما لزمَ ذمَّتَهُ مِنَ الظُّلاماتِ والتِّباعاتِ ، وما ذاكَ إلا لأنَّهم لم يشتغلوا برياضةِ نفوسِهمُ التي خدعَتْهم ، ولم يَحْفِلوا بمجاهدةِ أهوائِهمُ التي استرقَّتْهم وملكَتْهم ، **ولو أخذوا في ذلكَ لكانَ لهم فيهِ أعظمُ شغْلٍ ، ولم يجدوا فسحةً لشيءٍ مِنَ الطاعاتِ والتنفُّلِ .**

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ أن التحسين والتقبيح في إثبات ثواب أو عقاب . . إنما يرجعان إلى الخطاب الشرعي ، مع التجويز والتسليم عقلاً ، وإلىٰ أنه تعالىٰ يُتقرَّب إليه بما أخبر رسوله عليه الصلاة والسلام به ، وعلى النحو الذي بيَّنه ورتَّبه ، فمن خالف في ذلك فهو مغرور هالك ، وإلىٰ أنه لا نافلة إلا بعد أداء الفريضة .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، **فالظالم لنفسه** من ترك الفرائض ، **والمقتصد** : من أتىٰ بها وحدها ، **والسابق بالخيرات** : من زاد عليها بالنوافل ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « إنَّ اللهَ قالَ : مَنْ عادىٰ لي وليّاً فقد آذنتُهُ بالحربِ ، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليهِ » ، رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

قالَ بعضُ العلماءِ (مَنْ كانَتِ الفضائلُ أهمَّ إليهِ مِنْ أداءِ الفرائضِ . . فهو مخدوعٌ)[١]

وقالَ محمدُ بنُ أبي الوردِ : (هلاكُ الناسِ في حرفينِ[٢] : اشتغالٌ بنافلةٍ وتضييعُ فريضةٍ ، وعملٌ بالجوارحِ بلا مواطأةِ القلبِ عليهِ ، وإنَّما حُرموا الوصولَ بتضييعِهمُ الأصولَ)[٣] . وقالَ الخوَّاصُ : (انقطعَ الخلْقُ عنِ اللهِ بخصلتينِ :

إحداهما : أنَّهم طلبوا النوافلَ وضيَّعوا الفرائضَ .

والثانيةُ : أنَّهم عملوا أعمالاً بالظاهرِ ، ولم يأخذوا أنفسَهم بالصدْقِ فيها والنصحِ لها ، وأبى اللهُ أنْ يقبلَ مِنْ عاملٍ عملاً إلا بالصدقِ وإصابةِ الحقِّ)[٤]

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ : (فأفضلُ شيءٍ للعبدِ : معرفتُهُ بنفسِهِ ، ووقوفُهُ علىٰ حدِّهِ ، وإحكامُهُ لحالِهِ التي أُقيمَ فيها ، وابتداؤُهُ بالعملِ بما افتُرِضَ عليهِ بعدَ اجتنابِهِ ما نُهِيَ عنهُ ؛ بعلمٍ يدبِّرُهُ في جميعِ ذلكَ[٥] ، وورعٍ يحجزُهُ عنِ الهوىٰ في ذلكَ ، ولا يشتغلُ بطلبِ فضلٍ حتىٰ يفرُغَ مِنْ فرضٍ ؛ لأنَّ الفضلَ لا يصحُّ إلا بعدَ حوزِ السلامةِ ، كما لا يخلصُ الربحُ للتاجرِ إلا بعدَ حصولِ رأسِ المالِ ، فمَنْ تعذَّرَتْ عليهِ السلامةُ كانَ مِنَ الفضلِ أبعدَ ، وإلى الاغترارِ أقربَ) انتهىٰ[٦]

* *

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٢٦٤) .

(٢) الحَرْف هنا : الوجه والطريق ، ومنه : « نزل القرآن علىٰ سبعة أحرف » . انظر « المصباح المنير » (ح ر ف) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣١٦) ، وقوله : (إنما حرموا الوصول بتضييعهم الأصول) حكاه الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٢٦٤) عن سفيان الثوري .

(٤) أورده السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/ ١٣٨) .

(٥) في (أ ، ب ، د) : (يديره) بدل (يدبِّره) .

(٦) قاله في « قوت القلوب » (١/ ٢٦٤) .

الحكمة المئتان (*)

قَيِّدَ ٱلطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ ٱلأَوْقَاتِ كَيْ لا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ ٱلتَّسْوِيفِ ، وَوَسَّعَ عَلَيْكَ ٱلْوَقْتَ كَيْ تَبْقَىٰ لَكَ حِصَّةُ ٱلِاخْتِيَارِ .

أنعمَ اللهُ عليكَ فيما أمرَكَ بهِ مِنَ الطاعاتِ المؤقتةِ بالأوقاتِ بنعمتينِ عظيمتينِ

إحداهما تقييدُها لكَ بأعيانِ الأوقاتِ ؛ لتوقِعَها فيها فتفوزَ بثوابِها ، ولو لم يفعلْ هٰذا لسوَّفْتَ بها ، ولم تعملْ بها حتىٰ تفوتَ ، فيفوتَكَ ثوابُها

والنعمةُ الثانيةُ : توسيعُ أوقاتِكَ عليكَ ؛ ليبقىٰ لكَ نصيبٌ مِنَ الاختيارِ ؛ حتىٰ تأتيَ بالطاعاتِ في حالِ سكونٍ وتمهُّلٍ مِنْ غيرِ حرجٍ ولا ضيقٍ ، فلهُ الحمدُ علىٰ نِعَمِهِ .

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن أحكامه سبحانه وإن لم تعلل مشتملةٌ علىٰ حِكَمٍ عديدة ، تستبصرها القلوب الملهمة الرشيدة ، مثال ذلك : تقييد الطاعات بالأوقات الموسعة ؛ إذ فيه حثٌّ علىٰ إيقاعها وعدم نسيانها ، وفيه تحقيق لصفة الاختيار التي عليها مدار الثواب والعقاب .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٤١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء : ١٠٣] ، وقوله تعالىٰ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون : ٤ـ٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاةُ علىٰ وقتِها » ، رواه البخاري (٥٢٧) ، ومسلم (٨٥) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

الحكمة الحادية بعد المئتين (*)

عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ ٱلْعِبَادِ إِلَىٰ مُعَامَلَتِهِ ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلَاسِلِ ٱلْإِيجَابِ ، « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ بِٱلسَّلَاسِلِ »

لمَّا علمَ اللهُ تعالىٰ قلَّةَ نهوضِ العبادِ إلىٰ معاملتِهِ الواجبةِ لهُ عليهم ؛ مِنْ إقامةِ العبوديَّةِ لمشاهدةِ الربوبيَّةِ ، في حالِ طواعيةٍ منهم ؛ إذْ في ذلك قرَّةُ أعينِهم ، وغايةُ نعيمِهم . . أوجبَ عليهم وجودَ طاعتِهِ علىٰ حالِ كراهيةٍ منهم ؛ لأجلِ ما خوَّفهم بهِ إنْ لم يفعلوا ، فساقَهم بسلاسلِ إيجابِهِ وتحذيرِهِ إليهِ ، واستدرجَهم بذلكَ إلىٰ ما فيهِ نعيمُهم ممَّا لا علمَ لهم بهِ ، وفعلَ بهم ما يُفعلُ بالصبيِّ ؛ ألا تراهُ كيفَ يُؤدَّبُ ويُضربُ على استرسالِهِ علىٰ مقتضىٰ طبعِهِ وجبلَّتِهِ ، ويُلْزَمُ أموراً شاقَّةً عليهِ فيفعلُها

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن تكليف العباد من فضل الله تعالىٰ عليهم ؛ إذ لا يجب على الله سبحانه شيء ، وأنه تعالىٰ كلَّفهم بما يطيقون ، ولو كلَّفهم بما ليس في وسعهم لوجب وله الحجة سبحانه عليهم ، ولٰكن سبق وعده الحق بأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وما أوجبه عليهم لا ينتفع به تعالىٰ ، بل يرجع نفعه إليهم ، فما فرض عبادته عليهم إلا ليسوقهم إلىٰ سعادتهم ، وليس في الإمكان أبدع مما كان

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] أي : النارَ ، فتدخلون الجنة ، وقوله عليه الصلاة والسلام فيما يحكيه عن الله تبارك وتعالىٰ : « يا عبادي ؛ لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم . . ما زادَ ذلكَ في ملكي شيئاً » ، رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

وهو كارهٌ لذلكَ ؟! والغرضُ إنَّما هو حصولُهُ علىٰ منافعِهِ التي هو جاهلٌ بها ، فإذا كَبِرَ وعَقَلَ عرفَ ذلكَ عياناً[1]

وقد عجبَ ربُّكَ مِنْ قومٍ يُساقونَ إلى الجنَّةِ بالسلاسلِ ؛ كما يُفعلُ بأُسارى الكفَّارِ حينَ يُرادُ منهمُ الدخولُ في الإسلامِ ؛ يُقادونَ إلى الجنَّةِ بالسلاسلِ في رقابِهم ، وهٰذا حديثٌ يُروىٰ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هٰكذا : « عَجِبَ ٱللهُ مِنْ أَقْوَامٍ يُقَادُونَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ بِٱلسَّلَاسِلِ »[2]

قلتُ : وتعبيرُ المؤلفِ بالسلاسلِ والسَّوقِ بها ، واستعمالُهُ ذلكَ في التكاليفِ الواجبةِ التي أُلزمَ العبادُ القيامَ بها[3] . . مِنْ بديعِ الاستعاراتِ ؛ كما قالَ الشاعرُ ـ وهو أبو خِراشٍ الهذليُّ ـ[4] [من الطويل]

وَلَيْـسَ كَعَهْـدِ ٱلـدَّارِ يَـا أُمَّ مَـالِـكٍ ... وَلَـٰكِنْ أَحَاطَتْ بِٱلرِّقَابِ ٱلسَّلَاسِلُ[5]

وكذلكَ تمثيلُهُ بالحديثِ المذكورِ فيهِ ذلكَ والإشارةُ إلىٰ مقصودِهِ . . في غايةِ الحسنِ .

قالَ بعضُ العلماءِ : يجوزُ أنْ يكونَ معنى التعجُّبِ المنسوبِ إلى اللهِ تعالىٰ فيهِ . . إظهارَ عجبِ هٰذا الأمرِ لخلقِهِ[6] ؛ لأنَّهُ بديعُ الشأنِ ؛ وهو أنَّ الجنَّةَ التي أخبرَ اللهُ

---

(١) قال العلامة الراغب في « تفصيل النشأتين » (٨١) : (يحتاج الإنسان أن يقاد في بدء أمره إلىٰ مصالحه بضرب من القهر ؛ حتىٰ قال صلى الله عليه وسلم : « يا عجبًا لقومٍ يقادون إلى الجنة بالسلاسل ! » ، فحقُّ الإنسان : أن يجاهد هواه إلىٰ أن يقتحم العقبة ، فيتخلص حينئذٍ من أذاه) .

(٢) رواه البخاري (٣٠١٠) ، وأبو داود (٢٦٧٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) إذ معنى (السلاسل) هنا ما يُلجِئ إلىٰ أسباب دخول الجنة ؛ بدءاً من الإيمان ، إلى النوافل ودقائق الخواطر

(٤) انظر « ديوان الهذليين » (٢/ ١٥٠) .

(٥) يقول : ليس يومنا كأمسِ الدابر ؛ كنَّا نأخذ بثأرنا كما نحبُّ ونهوىٰ ، واليوم جاء الإسلام بأحكامه التي هي كالسلاسل في رقابنا ، فلا يمكننا أن نقتصَّ إلا بقانونه .

(٦) قوله : (فيه) الضمير راجع إلى الحديث المذكور ، أو يكون خبر (يكون) جملة (فيه إظهارُ عجبِ . . .) ، ولٰكن المثبت أولىٰ ، فتكون صفة العجب راجعة إلىٰ إرادته وقدرته ؛ حيث حكم=

تعالىٰ بما فيها مِنَ النعيمِ المقيمِ والعيشِ الدائمِ فيهِ والخلودِ فيهِ ، الذي مِنْ حُكْمِ مَنْ سمعَ بهِ مِنْ ذوي العقولِ : أنْ يسارعَ إليها ، ويبذلَ مجهودَهُ في الوصولِ إليها ، ويتحمَّلَ المكارهَ والمشقَّاتِ لينالَها ، وهـٰؤلاءِ يمتنعونَ من ذلكَ ، ويرغبونَ عنها ، ويزهدونَ فيها ، حتىٰ يُقادونَ إليها بالسلاسلِ كما يُقادُ إلى المكروهِ العظيمِ الذي تنفرُ منهُ الطباعُ ، وتألمُ منهُ الأبدانُ ، وتكرهُهُ النفوسُ

وقد قرأَ جماعةٌ مِنَ القُرَّاءِ : ﴿ بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات : ١٢] بضمِّ التاءِ[١] .

وفي حديثِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَقَدْ عَجِبَ ٱللهُ مِنْ فُلانٍ وَفُلانَةَ » في قصَّةِ الأنصاريِّ الذي قالَ لامرأتِهِ : أكرمي ضيفَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهو حديثٌ صحيحٌ مشهورٌ[٢] ، فالعجبُ منسوبٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، وقد وردَ في الكتابِ والسنةِ ، فهو إذاً مِنَ الصفاتِ السمعيَّةِ[٣]

* *

= بهـٰذا فأمضاه ، قال الإمام الرازي في « تأسيس التقديس » (ص ١٩١) : (واعلم : أن التأويل هو أن التعجب حالة تحصل عند استعظام الأمر ، فإذا عظَّم الله تعالىٰ فعلاً ، إما في كثرة ثوابه ، أو في كثرة عقابه . . جاز إطلاق لفظ التعجُّب عليه ، والله أعلم) ، والتعجب هنا : لإحكام حُكْمه ، فهي صفة فعل ليعجب خلقُهُ .

(١) هي قراءة حمزة والكسائي وغيرهما . انظر « البحر المحيط » (٧/ ٣٤٠) ، و« تأسيس التقديس » (ص ١٩٠) .

(٢) رواه البخاري (٤٨٨٩) ، ومسلم (٢٠٥٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتىٰ رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أصابني الجهد ، فأرسل إلىٰ نسائه ، فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا رجلٌ يُضيِّفُهُ هـٰذهِ الليلةَ يرحمُهُ الله ؟ » ، فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلىٰ أهله ، فقال لامرأته : ضيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدَّخريه شيئاً ، قالت : واللهِ ، ما عندي إلا قوت الصبية ! قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم ، وتعاليْ فأطفئي السراج ، ونطوي بطوننا الليلةَ ، ففعلَتْ ، ثم غدا الرجل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لقد عجبَ اللهُ عزَّ وجلَّ ـ أو ضحكَ ـ من فلانٍ وفلانةَ » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩]

(٣) يعني : ما ثبت بالسمع وحده ، ولم يوجبه العقل ، والإيمان بها واجب ، أو تردُّ إلىٰ إحدى الصفات السبع ، وهـٰذا أيضاً لا يخرجها عن وجوب الإيمان بها .

الحكمة الثانية بعد المئتين (*)

أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إلا دُخُولَ جَنَّتِهِ

هٰذهِ عبارةٌ حسنةٌ موافقةٌ لمعنىٰ ما تقدَّمَ ، **والمقصودُ مِنْ هٰذا كلِّهِ : الإعلامُ** بأنَّ اللهَ تعالىٰ غنيٌّ عن خلقِهِ ، لا تنفعُهُ طاعتُهم ، ولا تضرُّهُ معصيتُهم ، وأنَّ التكاليفَ كلَّها إنَّما أوجبَها عليهم لما يرجعُ إليهم مِنْ مصالحِهم لا غيرُ

قلتُ وما ذكرَهُ المؤلفُ هو حالُ **عامَّةِ الناسِ** الذينَ مِنْ شأنِهمُ التأبِّي وعدمُ الانقيادِ للأوامرِ والنواهي ، ولذلكَ احتاجوا إلى التخويفِ والتحذيرِ ، والموالاةِ للخطرِ والمبالغةِ في النكيرِ

وأمَّا الخاصَّةُ منهم فلم يحتاجوا إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ شرحَ صدورَهم ، ونوَّرَ بصائرَهم ، وكتبَ في قلوبِهمُ الإيمانَ ، وحبَّبَ إليهمُ الطاعةَ وبغَّضَ إليهمُ العصيانَ ، فلم يقتصروا علىٰ ما اقتصرَ عليهِ المذكورونَ مِنْ فعلِ الواجباتِ واجتنابِ المحظوراتِ فقطْ ، بل أضافوا إلىٰ ذلكَ المبادرةَ إلىٰ أعمالِ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه له سبحانه ، وأنه غني عن العالمين ، وأنه تعالىٰ قد خلق الخلق ليربحوا عليه ؛ إذ لا علة لأحكامه ولا لأفعاله جلَّ شأنه .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الأنعام : ١٣٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الجنةُ أقربُ إلىٰ أحدِكم مِنْ شراكِ نعلِهِ ، والنارُ مثلُ ذلكَ » ، رواه البخاري (٦٤٨٨) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

الطاعاتِ ، والمسارعةَ إلىٰ نوافلِ الخيراتِ .

وبالجملةِ : صارَتْ أعمالُهم كلُّها قرباتٍ ؛ وذلكَ لتمامِ حرِّيَّتِهم ، وصحَّةِ عبوديَّتِهم ؛ « نِعْمَ ٱلْعَبْدُ صُهَيْبٌ ؛ لَوْ لَمْ يَخَفِ ٱللهَ لَمْ يَعْصِهِ »[1]

قالَ في « التنويرِ » : (وإنَّما جعلَ سبحانَهُ الإيجابَ على العبادِ علماً منهُ بما هم عليهِ مِنْ وجودِ الضعفِ ، وبما نفوسُهم متَّصفةٌ بهِ مِنْ وجودِ الكسلِ ، فأوجبَ عليهم ما أوجبَ ؛ لأنَّهُ لو خيَّرَهم فيما أوجبَ عليهم لم يكونوا بهِ قائمينَ إلا قليلٌ ، وقليلٌ ما هم[2] ، **فأوجبَ عليهم وجودَ طاعتِهِ ، وفي التحقيقِ ما أوجبَ عليهم إلا دخولَ جنَّتِهِ** ، فساقَهم إلى الجنَّةِ بسلاسلِ الإيجابِ ؛ « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ بِٱلسَّلَاسِلِ »)[3]

قالَ : (**واعلمْ رحمَكَ اللهُ : أنَّا تلمَّحنا الواجباتِ ، فرأينا الحقَّ سبحانَهُ جعلَ في كلِّ ما أوجبَهُ تطوعاً مِنْ جنسِهِ في أيِّ الأنواعِ كانَ ؛ ليكونَ ذلكَ التطوُّعُ مِنْ ذلكَ الجنسِ جابراً لما عساهُ أنْ يقعَ مِنَ الخللِ في قيامِ العبدِ بالواجباتِ** ؛ ولذلكَ جاءَ في الحديثِ : أنَّهُ ينظرُ في مفروضِ صلاةِ العبدِ ؛ فإنْ نقصَ منها شيءٌ كُمِّلَ مِنَ النوافلِ[4]

فافهمْ رحمَكَ اللهُ هٰذا ، ولا تكنْ مقتصراً علىٰ ما فرضَهُ اللهُ عليكَ ، بل ليكنْ

---

(1) انظر « المقاصد الحسنة » (١٢٥٩) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٧٧) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه مرفوعاً : « إن سالماً شديدُ الحبِّ للهِ عزَّ وجلَّ ، لو كانَ لا يخافُ اللهَ عزَّ وجلَّ ما عصاهُ »

(2) يعني : هم قليلٌ ، وزيدت (ما) بين المبتدأ المؤخر والخبر المقدم للإبهام والتعجب .

(3) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٣٠١) ، وتقدم تخريج الحديث (ص ٧٥٢)

(4) رواه أبو داود (٨٦٤) ، والترمذي (٤١٣) ، والنسائي (١/ ٢٣٢) ، وابن ماجه (١٤٢٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه : « إنَّ أوَّلَ ما يُحاسبُ الناسُ بهِ يومَ القيامةِ مِنْ أعمالِهمُ الصلاةُ ، قالَ : يقولُ ربُّنا جلَّ وعزَّ لملائكتِهِ وهو أعلمُ : انظروا في صلاةِ عبدي : أتمَّها أم نقصَها ؟ فإنْ كانَتْ تامَّةً كُتبَتْ لهُ تامَّةً ، وإنْ كانَ انتقصَ منها شيئاً قالَ : انظروا : هل لعبدي مِنْ تطوعٍ ؟ فإنْ كانَ لهُ تطوعٌ قالَ : أتمُّوا لعبدي فريضتَهُ مِنْ تطوُّعِهِ ، ثم تؤخذُ الأعمالُ علىٰ ذاكم »

فيكَ ناهضةُ حبٍّ توجبُ إكبابَكَ على معاملةِ اللهِ فيما لم يوجبْهُ عليكَ .

ولو كانَ العبادُ لا يجدونَ في موازينِهم إلا فعلَ الواجباتِ ، وثوابَ تركِ المحرَّماتِ . . لفاتَهم مِنَ الخيرِ والمنَّةِ ما لا يَحصُرُهُ حاصرٌ ، ولا يحزرُهُ حازرٌ ، فسبحانَ الفاتحِ للعبادِ بابَ المعاملةِ ، والمهيِّئِ لهم أسبابَ المواصلةِ)[1]

قالَ : (واعلمْ : أنَّ الحقَّ سبحانَهُ علمَ أنَّ في عبادِهِ ضعفاءَ وأقوياءَ ، فأوجبَ الواجباتِ ، وبيَّنَ المحرَّماتِ ، **فالضعفاءُ اقتصروا على القيامِ بما أوجبَ والتركِ لما حرَّمَ** ، وليسَ في قلوبِهم مِنْ سلطانِ الحبِّ ووجودِ الشغفِ ما يحملُهم على المعاملةِ مِنْ غيرِ إيجابٍ ، فمثلُهم كمثلِ العبدِ يعلمُ السيدُ منهُ أنَّهُ إنْ لم يخارجْهُ لم يُهْدِ إليهِ شيئاً[2]

فلذلكَ وقَّتَ سبحانَهُ الأورادَ ووظَّفَ وظائفَ العبوديَّةِ ، وعرَّفَ ذلكَ بالطالعِ والغاربِ والزوالِ وصيرورةِ ظلِّ كلِّ شيءٍ مثلَهُ في الصلاةِ ، وبالحولِ في الأموالِ الناميةِ العينِ والماشيةِ ، وبوقتِ حصولِ المنفعةِ في الزرعِ ؛ ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٤١] ، وبعشرِ ذي الحجَّةِ في الحجِّ ، وبشهرِ رمضانَ في الصيامِ ، فوظَّفَ الوظائفَ ووقَّتَها ، وجعلَ للنفوسِ فيها فسحةَ الحظوظِ[3] ، والسعيَ في الأسبابِ

وأهلُ اللهِ   هم أهلُ الفهمِ عنهُ ، جعلوا الأوقاتَ كلَّها وقتاً واحداً ، والعمرَ كلَّهُ نَهْجاً إلى اللهِ قاصداً ، فعلموا : أنَّ الوقتَ كلَّهُ لهُ ، فلم يجعلوا شيئاً منهُ لغيرِهِ ؛ لذلكَ قالَ الشيخُ أبو الحسنِ   عليكَ بوردٍ واحدٍ ؛ وهو إسقاطُ الهوىٰ ، ومحبَّةُ المولىٰ ، أبَتِ المحبَّةُ أنْ تستعملَ محبّاً إلا فيما يوافقُ محبوبَهُ .

---

(١) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٣٠١) .

(٢) يخارجه : يضرب عليه خراجاً معلوماً يؤدِّيه كل يوم ، وما فضل من باقي الكسب فهو للعبد . انظر « تحرير ألفاظ التنبيه » (ص ٢٤٤) .

(٣) في « التنوير » : (وجعل للنفوس فيما سواها فسحة . . .) .

وعلموا أنَّ الأنفاسَ أمانةُ الحقِّ عندَهم وودائعُهُ لديهم ، فعلموا أنَّهم مطالبونَ برعايتِها ، فوجَّهوا هممَهم لذلكَ

وكما أنَّ لهُ الربوبيّةَ الدائمةَ ؛ كذلكَ حقوقُ ربوبيّتِهِ عليكَ دائمةٌ ، فربوبيَّتُهُ غيرُ مؤقَّتةٍ بالأوقاتِ ، وحقوقُ ربوبيّتِهِ عليكَ ينبغي أنْ تكونَ أيضاً كذلكَ[1] ؛ لذلكَ قالَ الشيخُ أبو الحسنِ : إنَّ لكلِ وقتٍ سهماً يقتضيهِ الحقُّ منكَ بحكمِ الربوبيّةِ) انتهى[2]

*

(١) يعني : غير مؤقتة بالأوقات .

(٢) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٣٠١) .

الحكمة الثالثة بعد المئتين (*)

مَنِ ٱسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ ٱللهُ مِنْ شَهْوَتِهِ ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ . . فَقَدِ ٱسْتَعْجَزَ ٱلْقُدْرَةَ ٱلإِلَـٰهِيَّةَ(١) ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

مَنِ استرقَّتْهُ الشهوةُ ، واستولَتْ عليهِ الغفلةُ . . فلا ينبغي لهُ أنْ يستغربَ أنْ ينقذَهُ اللهُ مِنْ أسرِ شهوتِهِ ، وأنْ يخرجَهُ مِنْ وجودِ غفلتِهِ ؛ لما يشاهدُ مِنِ استحكامِ ذلكَ فيهِ ؛ فإنَّ في ذلكَ نسبةَ العجزِ إلى القدرةِ الإلـٰهيَّةِ ، واللهُ تعالىٰ متَّصفٌ بالاقتدارِ علىٰ كلِّ شيءٍ ، وهـٰذا مِنَ الأشياءِ(٢)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات المعاني ، وشمول تعلقات القدرة القديمة بكلِّ ممكن وإن استهولته العقول واستبعدته الأعراف والعادات ، وأن لله تعالىٰ رحماتٍ لا تقاس بأشبار العباد ، وأن اليأس من رحمة الله تعالىٰ كفر ؛ لأن فيه استعجازاً للقدرة الأزلية ، وتحكُّماً على الإرادة القديمة .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر : ٥٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لو يعلمُ الكافرُ ما عندَ اللهِ مِنَ الرحمةِ . . ما قنطَ من جنَّتِهِ أحدٌ » ، رواه مسلم (٢٧٥٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) كذا في (ز) ونسخة هامش (هـ) ، وفي عامة النسخ المعتمدة : (قدرة إلـٰهية) ، وفي (هـ) : (قدرة الإلـٰهية)

(٢) هـٰذا نحو ما روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٩٨) عن عمر بن عبد العزيز أنه دعا فقال : (اللهمَّ ؛ إنْ لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك . . فإن رحمتك أهل أن تبلغني ، رحمتك وسعت كلَّ شيءٍ ، وأنا شيءٌ ، فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين)

وليعلمِ العبدُ أنَّ قلوبَ العبادِ ونواصيَهم بيدِهِ ، فلا يقنطْ ولا ييئَسْ ، وليقصدْ بابَ مولاهُ بالذلَّةِ والانكسارِ والافتقارِ ، فعساهُ يسهِّلُ عليهِ ما استصعبَهُ ، ويظهرُ فيهِ ما استغربَهُ ، وما ذلكَ على اللهِ بعزيزٍ .

وليعتبرْ هـٰذا المعنىٰ بالحكاياتِ التي تُروىٰ عنِ الصالحينَ الذينَ تقدَّمَتْ لهم في بداياتِهمُ الزلاتُ ، ووقعَتْ منهم قبلَ توبتِهمُ الهفواتُ ، فتداركَهمُ اللهُ تعالىٰ بلطفِهِ ، واستنقذَهم بجودِهِ وعطفِهِ ، فأصلحَ أعمالَهم ، وصفَّىٰ أحوالَهم ، وأبدلَ سيئاتِهم حسناتٍ ، ورفعَهم مِنْ أسفلِ سافلينَ إلىٰ أعلى الدرجاتِ ، كلُّ ذلكَ في أقربِ زمانٍ ، وأقصرِ مدَّةٍ وأوانٍ .

والحكاياتُ في هـٰذا المعنىٰ عنِ الشيوخِ ؛ مثلِ سيدي الفضيلِ بن عياضٍ(١) ، وعبدِ اللهِ بنِ المباركِ(٢) ، وأبي عقالِ بنِ علوانَ(٣) ، وغيرِهم رضيَ اللهُ عنهم . . معروفةٌ مشهورةٌ

---

(١) وكان قاطع طريق ، وقد روى الإمام القشيري في « رسالته » (ص ١٠٧) سبب توبته ، فقال : (إنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد : ١٦] ، فقال : يا ربِّ ؛ قد آنَ ، فرجع ، فآواه الليل إلىٰ خَرِبَةٍ ، فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم : نرتحل ، وقال قوم : حتىٰ نصبح ؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل وأمَّنَهم ، وجاور الحرم حتىٰ مات) .

(٢) جاء في « تفسير القرطبي » (٢٥١/١٧) أنه سُئل عن سبب توبته ، فقال : كنت مع إخواني في بستان لنا ، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه ، فأكلنا وشربنا حتى الليل ، فنمنا ، وكنت مولعاً بضرب العود والطنبور ، فقمت في بعض الليل ، فضربت بصوت يقال له : راشين السحر . . . ، إلىٰ أن ذكر أنه سمع العود يقول : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾ الآية ، فقال : بلىٰ والله ، وكسر العود ، والله أعلم .

(٣) كذا في جميع النسخ ، وفي (هـ) وحدها : (علون) ، وقد ذكره الإمام السمعاني في « الأنساب » (٥٣٥/١٠) ، قال : (وأبو عقال بن علوان القيرواني المغربي ، من قدماء مشايخ المغرب) ، وحكى الإمامُ القشيري له خبرين في « رسالته » (ص ٢٤٨)
ولـٰكن في « رياض النفوس » (٥٢٧/١) وقع اسمه : أبو عقال بن غلبون ، وأنه سُئلَ عن اسمه ، فقال : اسمي أدب ، وكنيتي أبو عقال ، وفي « معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان » =

ومِنْ أغربِ ما رأيتُهُ في هٰذا المنزعِ : ما رواهُ عبدُ الصمدِ بنُ معقلٍ ، عن عمِّهِ وهبِ بنِ منبِّهٍ : أنَّ رجلاً قتلَ نفساً ، فجاءَ إلىٰ سائحٍ مِنْ سائحي بني إسرائيلَ ، فسألَهُ عن ذلكَ ، قالَ : فرفعَ لهُ السائحُ مِنَ الأرضِ عُرْجوناً أبيضَ قديماً حائلاً ، ثم قالَ لهُ : إذا اخضرَّ هٰذا العرجونُ قُبلَتْ توبتُكَ ، وأرادَ السائحُ بذلكَ أنْ يُؤْيِسَهُ مِنَ التوبةِ ؛ لعظيمِ ذنبِهِ .

فأخذَ الرجلُ العرجونَ وهو يطمعُ في التوبةِ ويعزمُ عليها ، فتابَ ، وجعلَ يعبدُ اللهَ زماناً ويدعو ، حتى اخضرَّ ذلكَ العرجونُ بإذنِ اللهِ وقدرتِهِ !

وأغربُ مِنْ هٰذا وأعجبُ ما خرَّجَهُ مسلمٌ في « صحيحِهِ » مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَىٰ رَاهِبٍ[1] ، فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : لَا ، فَقَتَلَهُ ، فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَىٰ رَجُلٍ عَالِمٍ ، فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ نَعَمْ ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلتَّوْبَةِ ؟ ٱنْطَلِقْ إِلَىٰ أَرْضِ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فَٱعْبُدِ ٱللهَ

= (٢/ ٢١٤) وقع اسمه أبو عقال غلبون بن الحسن بن غلبون ، وفيه (٢/ ٢١٥) قال : (كان سبب توبته أنه كان مفتوناً بالنساء ، فكان يحضر الأعراس والمآتم بزيِّ النساء ، فحضر يوماً عرساً لبعض ملوك الأغالبة مع جملة من جواريه علىٰ شكل النساء ، فلما جلس بينهن ضاعت درة نفيسة في دار العرس ، فأغلقوا الأبواب ، ووقع التفتيش في النساء واحدة بعد واحدة ، حتىٰ لم يبق في الدار إلا هو وامرأة ، فلما خشي الفضيحة قال : إلهي ؛ لئن سترتني هٰذه المرة ولم تفضحني لأتوبَنَّ ثم لا أعود ، وكان قد تاب قبلها نحو السبعين مرة ثم نكث ، فلما علم الله منه الصدق نادىٰ منادٍ من الدار : خلُّوا عن الحرَّة ، فإنا قد وجدنا الدُّرة .

فخرج من الموضع إلىٰ داره ، وقد حصل في نفسه ما حصل من التوبة النصوح ، فرفض المال والأهل والولد والوطن ، وخرج فاراً بنفسه ، فلحق ببعض حصون إفريقية ، فصحب بها أبا هارون الأندلسي ، وكان أبو هارون الأندلسي زاهداً متبتلاً ، فانتفع بصحبته ، ولازمه حتىٰ مات)

(١) يعني : أن المسؤول ظنَّ هٰذا الراهب عالماً فدلَّ عليه ، أو أنه لم يفرق بين العابد والعالم .

مَعَهُمْ ، وَلا تَرْجِعْ إِلَىٰ أَرْضِكَ ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ .

فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ[1] أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ ، فَإِلَىٰ أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَىٰ . فَهُوَ لَهُ ، فَقَاسُوهُ ، فَوَجَدُوهُ أَدْنَىٰ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ » ، قالَ قتادةُ : قالَ الحسنُ : ذُكرَ لنا أَنَّهُ لمَّا أتاهُ الموتُ ناءَ بصدرِهِ[2] .

وقالَ عيسى بنُ دينارٍ : (كانَ يُقالُ : ما وفَّقَ اللهُ عبداً لعملٍ إلا وهو يريدُ أنْ يقبلَهُ منهُ ، ولا وفَّقَ اللهُ عبداً لنزوعٍ عن ذنبٍ إلا وهو يريدُ أنْ يغفرَهُ لهُ) .

وذكرَ القاضي يونسُ بنُ عبدِ اللهِ المعروفُ بابنِ الصفَّارِ رحمَهُ اللهُ في كتابِ « التسبيبِ والتيسيرِ لصالحِ العملِ » : أنَّهُ أخبرَهُ ثقةٌ مِنْ أهلِ العلمِ قالَ : كانَ رجلٌ مِنْ أهلِ الأدبِ لهُ أصحابٌ يجمعُهُ بهم مجالسُ مكروهةٌ ، فدعَوْهُ ذاتَ يومٍ ، فلم يجبْهم ، فقالوا لهُ : ما يمنعُكَ مِنْ إجابتِنا ؟ فقالَ : دخلتُ البارحةَ في الأربعينَ ، وأنا أستحيي مِنْ سنِّي ، ثم لزمَ الخيرَ والعبادةَ[3] .

قالَ : ورُوِيَ عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ قالَ : وجبَتْ حُجَّةُ اللهِ على ابنِ الأربعينَ[4] .

---

(١) يعني : بلغ نصفها .

(٢) صحيح مسلم (٢٧٦٦) ، ورواه البخاري (٣٤٧٠) ، وناءَ : نهض وتقدَّم ليقرب من الأرض الصالحة .

(٣) أورده ابن المعتز في « البديع » (ص ١٥) ، وكأنه قد ذكر قوله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

(٤) أورده ابن المعتز في « البديع » (ص ١٤) ، وزاد : وأنشد : (من الطويل)

إذا المرءُ وفَّى الأربعينَ ولم يكنْ ... لهُ دونَ ما يأتي حياءٌ ولا سترُ

فدعْهُ ولا تنفسْ عليهِ الذي مضىٰ ... وإنْ مدَّ أسبابَ الحياةِ لهُ العمرُ

وذكرَ فيهِ أيضاً عن مغيثِ بنِ سُمَيٍّ قالَ : كانَ رجلٌ مِنْ بني إسرائيلَ يعملُ بالخطايا ، فبينا هو ذاتَ يومٍ يسيرُ ذكرَ ما سلفَ مِنْ عملِهِ ، فقالَ اللهمَّ ؛ غفرانَكَ ، فماتَ على ذلكَ الحالِ ، فغُفِرَ لهُ[1]

وذكرَ فيهِ أيضاً : عن رجلٍ مِنَ العلماءِ أنَّهُ رأى في منامِهِ شيخاً وجماعةً مِنَ الشعراءِ قد أحدقوا بهِ يسألونَهُ ، قالَ فقلتُ لهُ : أيُّها الشيخُ ؛ أخبِرْنا بأحكمِ بيتٍ قالَتْهُ العربُ ، فأنشدَني [من الطويل]

صَبَا مَا صَبَا حَتَّىٰ عَلا ٱلشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّـا عَـلاهُ قَـالَ لِلْبَـاطِـلِ ٱبْعُـدِ[2]

قالَ فواللهِ ؛ لقد نفعَني اللهُ عزَّ وجلَّ بهٰذا البيتِ ؛ ما ذكرتُهُ عندَ شهوةٍ أو خطيئةٍ إلا ارتدعتُ عنها ، وأرجو ألا يفارقَني الانتفاعُ بهِ ما بقيتُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ

وفي الكتابِ المذكورِ حكاياتٌ مستحسناتٌ في هٰذا المعنىٰ ، فطالعْ ذلكَ فيهِ ، واللهُ المستعانُ ، لا ربَّ غيرُهُ

*

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٦٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٧٠٨) .

(٢) البيت لدريد بن الصمة ضمن قصيدة له انظر « ديوانه » (ص ٦٩) ، قال التبريزي في « شرح ديوان الحماسة » (١/ ٣٣٩) : (« صبا » الأول : من الميل ، والثاني : من الصباء ؛ وهو حداثة السنِّ ، والمعنىٰ : أنه مال إلى اللهو مدَّة صغر سنه ، فلمَّا شاب ترك الملاهي) .

الحكمة الرابعة بعد المئتين (*)

رُبَّمَا وَرَدَتِ ٱلظُّلَمُ عَلَيْكَ ، لِيُعَرِّفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ

الظُّلَمُ : أضدادُ الأنوارِ ، فما مِنْ نورٍ إلا وفي مقابلتِهِ ظلمةٌ ، وكلُّ ظلمةٍ علىٰ قدرِ نورِها ، والشيءُ يُعرفُ بضدِّهِ ؛ كما قيلَ [من الكامل]

وَبِضِـدِّهَـا تَتَبَيَّـنُ ٱلْأَشْيَـاءُ(١)

فما أوردَهُ عليكَ مِنْ ظلماتِ الحَجْبة والغَيْبةِ في ليالي الهجرِ والفُرْقةِ . . فإنَّما ذلكَ ليعرِّفَكَ قدرَ ما مَنَّ بهِ عليكَ مِنْ أنوارِ التجلِّي والحضورِ في نهارِ القُرْبة والوصلةِ ، فجميعُ ذلكَ نِعَمٌ سابغةٌ عليكَ مِنْ غيرِ علمٍ منكَ بذلكَ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن سنة الله سبحانه في خلقه أن جعلهم تتوازعهم الأضداد والنقائض ، والمساويات والمباينات ، وجمع لهم بين عالمي الملك والملكوت ، وساقهم إليه بالرغبوت والرهبوت ، وانفرد وحده عز وجل في جلاله وعزّته ؛ فلا ضدَّ ولا ندَّ له ؛ إذ لا مثلَ له ، وبالأضداد تعرّف العبد علىٰ نعمه ونقمه ، جلَّ من خالق مدبِّر حكيم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام لكعب بن مالك بعد توبته : « أبشرْ بخيرِ يوم مرَّ عليكَ منذُ ولدتكَ أمُّكَ » ، رواه البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه .

(١) عجز بيت للمتنبي ضمن قصيدة له ، صدره :
ونـذيمُهـم وبهـم عـرفنـا فضلـه
والذيم العيب والذمُّ ، وانظر « ديوانه » (ص ١٢٧) ، وقوله : (تتبين) علىٰ ما لم يسمَّ فاعله كما نبَّهَ عليه المعري .

الحكمة الخامسة بعد المئتين (*)

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ ٱلنِّعَمِ بِوُجْدَانِهَا . . عَرَفَهَا بِوُجُودِ فُقْدَانِهَا

أكثرُ الناسِ لا يعرفونَ النِّعَمَ إلا إذا فقدوها ؛ وذلكَ لأجلِ غلبةِ الغفلةِ عليهم حينَ وجودِها عندَهم

قالَ سريٌّ السقطيُّ : (مَنْ لم يعرفْ قدْرَ النِّعَمِ . . سُلبَها مِنْ حيثُ لا يعلمُ)(١)

وقالَ الفضيلُ (عليكم بمداومةِ الشكرِ على النِّعَمِ ، فقلَّ نعمةٌ زالَتْ عن قومٍ فعادَتْ إليهم)(٢)

وقالَ بعضُ البلغاءِ : (إذا كانَتِ النعمةُ وسيمةً . . فاجعلِ الشكرَ لها تميمةً)(٣)

وقالَ آخرُ : (شكرُ النعمةِ ، عصمةٌ مِنْ حلولِ النقمةِ)(٤)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وأنه تعالىٰ له رحمات في المنع ؛ فالغافل قد يذكِّره المنع بما غفل عنه حالةَ الوجدان ، وإلىٰ أنه تعالىٰ ما منع عن علة واحتياج ، بل لحكمة راجعة إلى العباد .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : ٥١] وقوله عليه الصلاة والسلام : « يا عائشةُ ؛ أحسني جوارَ نعمِ اللهِ ؛ فإنَّها قلَّما تزولُ عن أهلِ بيتٍ فكادَتْ أنْ تعودَ إليهم » ، رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٤٥١ ، ٧٨٨٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٢٣٦) من حديثها رضي الله عنها .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٢٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٢٣١) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ٥٧٦) .

(٣) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (١/ ٤٤٥) .

(٤) رواه أبو الحسين الثقفي بسنده عن ابن شبيب أنه كان يقال ذلك ، كذا في « جمهرة الأجزاء الحديثية » (ص ٢٨١) .

وفي معنىٰ هـٰذا قيلَ : (إنَّما يعرفُ قدرَ الماءِ مَنْ بُلِيَ بالعطشِ في الباديةِ ، لا مَنْ كانَ علىٰ شاطئِ الأوديةِ الجاريةِ)

وقيلَ أيضاً : (الولدُ العاقُّ المصرُّ علىٰ تأبِّيهِ ، إنَّما يعرفُ قدْرَ الأبِ يومَ وفاةِ أبيهِ) .

وقيلَ : (نِعَمُ اللهِ مجهولةٌ ، وتُعرفُ إذا فُقِدَتْ)

ومِنْ دعاءِ بعضِ الصالحينَ : (اللهمَّ ؛ عرِّفْنا نعمَكَ بدوامِها ، ولا تعرِّفْها لنا بزوالِها)

قلتُ ولأجلِ غلبةِ الجهلِ بالنِّعَمِ إلا عندَ الفقدِ ، وتضييعِ الشكرِ عليها مِنَ العبدِ . أمرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالنظرِ إلىٰ مَنْ هو أسفلَ منَّا ؛ لئلا نزدريَ نعمةَ اللهِ علينا ، والسعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيرِهِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما روىٰ عنهُ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : « ٱنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْكُمْ »[١]

وروىٰ أيضاً عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي ٱلْمَالِ وَٱلْخَلْقِ . فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ »[٢]

قالَ الشيخُ أبو حامدٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : (وكانَ بعضُ الصوفيَّةِ وظَّفَ علىٰ نفسِهِ كلَّ يومٍ أنْ يحضرَ دارَ المرضىٰ فيشاهدَهم ، ويشاهدَ عللَهم ومحنَهم ، ويحضرَ حبسَ السلطانِ ويشاهدَ أربابَ الجناياتِ ومحنَهم في التعرُّضِ لإقامةِ العقوباتِ ، ويحضرَ المقابرَ فيشاهدَ أصحابَ العزاءِ وتأسُّفَهم علىٰ ما لا ينفعُ معَ اشتغالِ الموتىٰ بما هم فيهِ ، وكانَ يعودُ إلىٰ بيتِهِ ويشتغلُ بالشكرِ طولَ النهارِ علىٰ نعمِ اللهِ عليهِ في تخليصِهِ مِنْ تلكَ البلايا) انتهىٰ[٣]

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٣) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٠) ، ومسلم (٢٩٦٣) .

(٣) قاله في « ميزان العمل » (ص ٢٨٤) .

وكانَ الربيعُ بنُ خثيمٍ حفرَ في دارِهِ قبراً ، وكانَ يضعُ في عنقِهِ غِلّاً وينامُ في لحدِهِ ، ثم يقولُ : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون ٩٩-١٠٠] ، ثم يقومُ ويقولُ يا ربيعُ ؛ قد أُعطيتَ ما سألتَ ، **فاعملْ قبلَ أنْ تسألَ الرجوعَ فلا تُردَّ**[1]

وهٰذا كلُّهُ موافقٌ لأمرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الحديثينِ المذكورينِ[2] ، ولا طريقَ للعبدِ العاقلِ إلىٰ تعرُّفِ النِّعَمِ الموجودةِ لديهِ أبلغُ منهُ ، فإذا عرفَ نِعَمَ اللهِ تعالى اشتغلَ بالشكرِ عليها مِنْ قبلِ أنْ تُزالَ عنهُ ولا يكونَ لهُ سبيلٌ إليها

وقد تقدَّمَ مِنْ كلامِ المؤلفِ : (مَنْ لم يشكرِ النعمَ فقد تعرَّضَ لزوالِها ، ومَنْ شكرَها فقد قيَّدَها بعِقالِها)[3]

* *

(١) رواه البلاذري في « جمل من أنساب الأشراف » (١١ / ٣١١)

(٢) انظر (ص ٧٦٥)

(٣) انظر (ص ٣٦٦)

الحكمة السادسة بعد المئتين (*)

لا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ ٱلنِّعَمِ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ

إذا ترادفَتْ نِعَمُ اللهِ عليكَ فلا ينبغي أنْ تدهشَكَ عنِ القيامِ بشكرِها ؛ مِنْ حيثُ ترىٰ عجزَ نفسِكَ عن توفيةِ ذلكَ ، وأنْ لا قِبَلَ لكَ بهِ فتتركُهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ رفعَ قدرَكَ ، وأعلىٰ أمرَكَ ، وجعلَ القليلَ منكَ كثيراً ، وأشهدَكَ مِنْ حسنِ تولِّيهِ لكَ ونسبةِ أفعالِكَ إليهِ ما يُؤْذِنُ بعظمِ سيادتِكَ ورفعةِ قدرِكَ ، فلِمَ تبخسُ نفسَكَ حقَّها ، وتحطُّها عن قدرِها ، فتراها عاجزةً عنِ الشكرِ ، والقيامِ بمقتضى الأمرِ ، لا علىٰ وجهِ الأدبِ ، والإتيانِ مِنَ الشكرِ بما وجبَ ، كأنَّ الأمرَ في ذلكَ إليها ؟!

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (ما مِنْ نعمةٍ إلا والحمدُ أفضلُ منها ، والنعمةُ التي أُلهِمَ بها الحمدَ أفضلُ مِنَ الأولىٰ ؛ لأنَّ بالشكرِ يستوجبُ المزيدَ)(١)

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن شكر المنعم سبحانه يجب شرعاً لا عقلاً ، وأن الحول والقوة في أداء جميع الأفعال من الله وحده ، وأنه سبحانه خلق الإنسان فكرَّمه وجعل ما خلقه كالمسخَّر له ، فعلى العبد أن يراعي حكمة الله في خلقه .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء ٧٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر ٣٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام حين يرفع مائدته : « الحمدُ للهِ كثيراً طيباً مباركاً فيهِ ، غيرَ مكفيٍّ ولا مودَّعٍ ولا مستغنىً عنهُ ، ربَّنا » ، رواه البخاري (٥٤٥٨) من حديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٠٢) ، ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٠٩٢) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .

وفي أخبارِ داودَ عليهِ السلامُ : إلـٰهي ؛ ابنُ آدمَ ليسَ فيهِ شعرةٌ إلا وتحتَها نعمةٌ وفوقَها نعمةٌ ، فمِنْ أينَ يكافئُكَ ؟![1]

فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داودُ ؛ إنِّي أعطي الكثيرَ ، وأرضىٰ باليسيرِ ، وإنَّ شكرَ ذلكَ أنْ تعلمَ أنَّ ما بكَ مِنْ نعمةٍ منِّي[2].

وكتبَ بعضُ عمَّالِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ إليهِ : إنِّي بأرضٍ قد كثرَتْ فيها النعمُ ، حتىٰ لقد أشفقتُ عليَّ مِنْ قِبَلِ ضعفِ الشكرِ .

فكتبَ إليهِ عمرُ : إنِّي كنتُ أرىٰ أنَّكَ أعلمُ باللهِ ممَّا أنتَ ، إنَّ اللهَ تعالىٰ لم ينعمْ علىٰ عبدٍ نعمةً فحمدَ اللهَ عليها . . إلا كانَ حمدُهُ أفضلَ مِنْ نعمتِهِ[3] ، لو كنتَ لا تعرفُ ذلكَ إلا في كتابِ اللهِ المنزَّلِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ * وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ [الزمر : ٧٣ـ٧٤] ، وأيُّ نعمةٍ أفضلُ مِنْ دخولِ الجنَّةِ ؟![4]

* *

---

(١) في (ج) : (يكافئها) بدل (يكافئك) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٢٠) .

(٣) قال الحافظ المناوي في « التيسير » (٢/٣٤٣) : (لا يلزم منه كون فعل العبد أفضل من فعل الله ؛ لأن فعل العبد مفعول له أيضاً ، ولا بدع في كون مفعولاته أفضل من بعض) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٩٣) .

الحكمة السابعة بعد المئتين (*)

تَمَكُّنُ حَلاوَةِ ٱلْهَوَىٰ مِنَ ٱلْقَلْبِ هُوَ ٱلدَّاءُ ٱلْعُضَالُ .

القلبُ محلُّ الإيمانِ والمعرفةِ واليقينِ ، وهـٰذهِ هي الأدويةُ لأمراضِهِ التي أوجبَها وجودُ الهوىٰ والشهوةِ ، فإذا تمكَّنَ الداءُ مِنَ القلبِ لم يبقَ للدواءِ محلٌّ(١) ، فلذلكَ أعضلَ أمرُهُ ، وتعذَّرَ برؤُهُ .

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى استحالة اجتماع عرضينِ متنافيينِ في محلٍّ واحدٍ ، وإلىٰ أن القلب هو محلُّ معرفة الربِّ ، وأن تخلقه بأخلاق الله تعالىٰ يكون بمحوِ أخلاق النفس ، فإن تمكنت من القلب أخلاقُها ، وأمدَّها العبد بماء شهواتها . . ضربت جذورها فيه وعسُرَ اقتلاعها ، إلا بما سيذكره المصنف بعدُ .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب : ٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « والعاجزُ من أتبعَ نفسَهُ هواها ، وتمنَّىٰ على اللهِ » ، رواه الترمذي (٢٤٥٩) من حديث سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنهما .

(١) إذ القلب كالمرآة ، لا تحلُّ فيها إلا صورةُ ما تقابِلُ من الأشياء ، فمن توجَّه بقلبه نحو مشتهياته فلا بد من انطباعها فيه ، ومنع غيرها منه .

الحكمة الثامنة بعد المئتين (*)

لا يُخْرِجُ ٱلشَّهْوَةَ مِنَ ٱلْقَلْبِ إلا خَوْفٌ مُزْعِجٌ ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ .

الشهوةُ المتمكِّنةُ مِنَ القلبِ لا يخرجُها إلا واردٌ قويٌّ قاهرٌ غالبٌ يردُ عليهِ ؛ وذلكَ إمَّا خوفٌ مزعجٌ ، أو شوقٌ مقلقٌ ، وما عدا هـٰذينِ الأمرينِ لا استقلالَ لهُ بذلكَ[1]

* *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن من الأمراض القلبية أمراضاً لا ترفعها الأسباب العادية ، بل يد القدرة الأزلية ، وليس للعبد في هـٰذا المقام إلا الضراعة والابتهال ، ومن صدق الله تعالىٰ صدقه الله ؛ فأمدَّه بخوف زاجر وشوق باهر ، ثم الأمر من قبل ومن بعد بيده سبحانه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٥٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « يقولونَ : لو رأوك كانوا أشدَّ لك تمجيداً وتحميداً وأكثرَ لك تسبيحاً » ، رواه البخاري (٦٤٠٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) نعم ؛ قد يسبقهما ساعة اعتبار ، كما وقع ذلك لسيدنا عمر رضي الله عنه حينما سمع صدر سورة (طه) ، فقال : (ما ينبغي لمن يقول هـٰذا أن يُعبد معه غيره ، دلوني علىٰ محمد) ، انظر « شرح الزرقاني على المواهب » (٢/ ٧)
واعلم : أن أصل هذه الحكمة من كلام عبد الله بن خبيق الأنطاكي ؛ وذلك فيما رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٤٤) عنه أنه قال : (خلق الله القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن للشهوات ، ولا يمحو الشهواتِ من القلوب إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق) .

الحكمة التاسعة بعد المئتين (*)

كَمَا لا يُحِبُّ ٱلْعَمَلَ ٱلْمُشْتَرَكَ ، كَذَلِكَ لا يُحِبُّ ٱلْقَلْبَ ٱلْمُشْتَرَكَ ، ٱلْعَمَلُ ٱلْمُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُهُ ، وَٱلْقَلْبُ ٱلْمُشْتَرَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْهِ .

العملُ المشتركُ : هو المشوبُ بالرياءِ والتصنُّعِ ، والقلبُ المشتركُ : هو الذي فيهِ محبَّةُ غيرِ اللهِ تعالىٰ والسكونُ إليهِ والاعتمادُ عليهِ .

فالعملُ المشتركُ معتلٌّ بنظرِ صاحبِهِ إلى الناسِ ، والقلبُ المشتركُ معتلٌّ بنظرِ صاحبِهِ إلىٰ نفسِهِ

فالعملُ المشتركُ لا يحبُّهُ ، ولا يقبلُهُ ، ولا يثيبُ عليهِ ؛ لفقدِ الإخلاصِ منهُ ، والقلبُ المشتركُ لا يحبُّهُ ، ولا يُقبِلُ عليهِ ، ولا يرضىٰ عنهُ ؛ لعدمِ وجودِ الصدقِ فيهِ .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن أكبر الكبائر الشرك بالله ، فهو لا يقبل الغفران أصلاً ، وأن الشرك في العمل هو نتيجة الشرك في الاعتقاد الذي محله القلب ، فمن علم أن لا مؤثر في الوجود إلا الله ، وأنه تعالىٰ أوجب عبادته وحرَّم عبادة غيره . . علم أن لا معبود بحق إلا الله عز وجل ، فنفى الشرك عن قلبه ، فانتفىٰ عن جوارحه ، وهٰذا هو القلب السليم .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل ٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « قالَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : أنا أغنى الشركاءِ عنِ الشركِ ، مَنْ عملَ عملاً أشركَ فيهِ معي غيري . . تركتُهُ وشركَهُ » ، رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

فمَنْ صحَّحَ أعمالَهُ بالإخلاصِ ، وأحوالَهُ بالصدقِ . . كانَ محبوباً للهِ تعالىٰ[1] ، مثاباً مرضياً عنهُ ، وإلا فلا

* * *

(١) في « الرسالة القشيرية » (ص ٦٥٨) : (أوحى الله تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليه السلام : إني إذا اطلعت علىٰ قلب عبد ، فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة . . ملأته من حبي)
وروىٰ أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٨٧) عن سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه قال : لو استخلفتُ : أبا عبيدة بن الجراح ، فسألني عنه ربي : ما حملك علىٰ ذلك ؟ لقلت : ربِّ ؛ سمعت نبيك وهو يقول : « إنَّهُ أمينُ هـٰذهِ الأمةِ » ، ولو استخلفت سالماً مولىٰ أبي حذيفة ، فسألني عنه ربي : ما حملك علىٰ ذلك ؟ لقلت : ربِّ ؛ سمعتُ نبيك وهو يقول : « إنه يحبُّ الله حقاً من قلبه »

الباب الثاني والعشرون
في أحكام الأنوار والأنفاس]

الحكمة العاشرة بعد المئتين (*)

وقال رضي الله عنه :

أَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي ٱلْوُصُولِ ، وَأَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي ٱلدُّخُولِ

الأنوارُ الواردةُ على القلوبِ مِنْ خزائنِ الغيوبِ تنقسمُ إلىٰ قسمينِ

أنوارٌ أُذِنَ لها في الوصولِ إلىٰ ظاهرِ القلبِ فقطْ

وأنوارٌ أُذِنَ لها في الدخولِ إلىٰ صميمِ القلبِ وسويدائِهِ

فالأنوارُ الواصلةُ إلىٰ ظاهرِ القلبِ يشاهدُ العبدُ معَها نفسَهُ وربَّهُ ، ودنياهُ وآخرتَهُ ، ويكونُ تارةً معَ نفسِهِ ، وتارةً معَ ربِّهِ ، وطوراً يسعىٰ في العملِ لآخرتِهِ ، وطوراً يعملُ في أمورِ دنياهُ

والأنوارُ الداخلةُ إلىٰ صميمِ القلبِ وسويدائِهِ لا يظهرُ فيها إلا وجودُ اللهِ سبحانَهُ ، فلذلكَ لا يحبُّ سواهُ ، ولا يعبدُ إلا إيَّاهُ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الفهم بخلق الله ابتداءً ، وليس للأسباب العادية تأثير في إيجاده على التحقيق ، وقد يزداد الفهم عن الله تعالىٰ فيستقر في القلب ، فيُطالعُ العبدُ بحكمة الله تعالىٰ في كل ما يتوجَّه قلبُهُ إليه ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ، فيصير دأبه التعويل في كل شيء على الله تعالىٰ ، لا غرض له سواه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه : ٧٣] ، وقوله تعالىٰ ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنبياء ٧٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أو مسلماً » لمن قال له : يا رسول الله ؛ ما لك عن فلان ؟! فوالله ؛ إني لأراه مؤمناً ، رواه البخاري (٢٧) ، ومسلم (١٥٠) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

قالَ بعضُ العارفينَ : (إذا كانَ الإيمانُ في ظاهرِ القلبِ . . كانَ العبدُ محباً للآخرةِ والدنيا ، وكانَ مرَّةً معَ اللهِ ، ومرَّةً معَ نفسِهِ ، فإذا دخلَ الإيمانُ باطنَ القلبِ . . أبغضَ العبدُ دنياهُ ، وهجرَ هواهُ)[1]

وفي لفظٍ آخرَ : (إذا كانَ الإيمانُ في ظاهرِ القلبِ ـ يعني : على الفؤادِ ـ كانَ المؤمنُ يحبُّ اللهَ حباً متوسِّطاً ، فإذا دخلَ الإيمانُ في باطنِ القلبِ وكانَ في سويدائِهِ . . أحبَّهُ الحبَّ البالغَ)[2]

قالَ الشيخُ أبو طالبٍ المكيُّ : (ومحنةُ ذلكَ[3] : أنْ ينظرَ ؛ فإنْ كانَ يؤثِرُ اللهَ تعالىٰ علىٰ جميعِ هواهُ ، وتغلبُ محبَّتُهُ علىٰ هواهُ ، حتىٰ تصيرَ محبَّةُ اللهِ هي محبَّةَ العبدِ مِنْ كلِّ شيءٍ . . فهو محبٌّ للهِ تعالىٰ حقّاً ، كما أنَّهُ مؤمنٌ بهِ حقّاً ، وإنْ رأيتَ قلبَكَ دونَ ذلكَ . . فلكَ مِنَ المحبةِ بقدْرِ ذلكَ)[4]

قالَ بعضُ العلماءِ : (ظاهرُ القلبِ محلُّ الإسلامِ ، وباطنُهُ محلُّ الإيمانِ ، فمِنْ ها هنا تفاوتَ المحبُّونَ في المحبَّةِ ؛ لفضلِ الإيمانِ على الإسلامِ ، وفضلِ الباطنِ على الظاهرِ)[5]

* * *

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٤٣) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٤٥) .

(٣) في مطبوع « القوت » : (وعلامة ذلك) ، وفي (ج ، د) : (وامتحان ذلك) .

(٤) قاله في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٤٥) .

(٥) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٤٦) .

الحكمة الحادية والثانية عشرة بعد المئتين (*)

رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ ٱلأَنْوَارُ ، فَوَجَدَتِ ٱلْقَلْبَ مَحْشُوّاً بِصُوَرِ ٱلآثَارِ ، فَٱرْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ .

فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ ٱلأَغْيَارِ . يَمْلأْهُ بِٱلْمَعَارِفِ وَٱلأَسْرَارِ .

الأنوارُ الإلـٰهيَّةُ قد تردُ على قلبِكَ ، فلا تجدُ فيهِ موضعاً لاستقرارِها ؛ لما غلبَ عليهِ مِنْ رعوناتِ البشريَّةِ ، واستحكمَ فيهِ مِنَ صورِ الآثارِ الكونيَّةِ ، فترتحلُ مِنْ حيث تنزلُ ؛ لأنَّها مقدَّسةٌ مطهَّرةٌ .

فإنْ أردتَ حلولَ الأنوارِ فيهِ ، وتجلِّيَ المعارفِ والأسرارِ لهُ . . ففرِّغْهُ مِنَ الأغيارِ ، وامحُ عنهُ صورَ الآثارِ ؛ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقد تقدَّمَ مِنْ كلامِ المؤلفِ : (كيفَ يشرقُ قلبٌ صورُ الأكوانِ منطبعةٌ في مرآتِهِ)(١)

* * *

(*) ترجع هاتان الحكمتان اعتقاداً : إلى استحالة اجتماع الضدين والنقيضين في محل واحد إلا على البدل ، وإلى أن رحمة الله لا تزال نازلةً ، إلا أن اشتغال العباد بأضداد أسبابها منعها من استقرارها .
ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي : « ومَنْ أتاني يمشي أتيتهُ هرولةً » ، رواه البخاري (٧٤٠٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٢١٣) .

الحكمة الثالثة عشرة بعد المئتين (*)

لا تَسْتَبْطِئْ مِنْهُ ٱلنَّوالَ ، وَلَـٰكِنِ ٱسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ ٱلإِقْبالِ

تقدَّمَ التنبيهُ على هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ (لا تُطالِبْ ربَّكَ بتأخُّرِ مطلبِكَ ، ولـٰكنْ طالبْ نفسَكَ بتأخُّرِ أدبِكَ)(١) ، والعبارتانِ متفقتانِ معنىً ، وإنِ اختلفتا لفظاً(٢)

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة (١٠٨) ، وإلىٰ أن الإيمان بالقضاء والقدر لا ينفي التكليف ، فعلى المكلَّف أن يرجع باللوم علىٰ نفسه ساعة التقصير ، وأن يسعىٰ في مرضاة ربه جهده ، لا أن ينتظر أنداء القضاء والقدر ؛ إذ ليس ذلك إليه ، فلا يعول عليه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر : ٥٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الكيسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ » ، رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنهما .

(١) انظر (ص ٥٠٤)

(٢) والمتقدمة ألصق بمقام الدعاء ، والمتأخرة أعم من حيث كلُّ عطاء .

الحكمة الرابعة عشرة بعد المئتين (*)

حُقُوقٌ فِي ٱلأَوْقَاتِ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ، وَحُقُوقُ ٱلأَوْقَاتِ لا يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ؛ إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلا وَلِلهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ ، وَأَمْرٌ أَكِيدٌ ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ ٱللهِ فِيهِ ؟!

الحقوقُ الكائنةُ في الأوقاتِ : هي وظائفُ العباداتِ الظاهرةِ ؛ مِنْ صلاةٍ وصيامٍ وغيرِهما ، فمَنْ فاتَهُ شيءٌ منها في وقتِهِ المعيَّنِ لهُ . . أمكنَهُ قضاؤُهُ في وقتٍ آخرَ ؛ إذْ قد جُعِلَ لهُ في ذلكَ مجالٌ رحبٌ يستدركُ فيهِ ما يفوتُهُ مِنْ تلكَ الحقوقِ .

والحقوقُ المضافةُ إلى الأوقاتِ هي المعاملاتُ الباطنةُ التي تقتضيها أحوالُ العبدِ وارداتُ قلبِهِ المتلوِّنةُ عليهِ

ووقتُ كلِّ عبدٍ : ما هو عليهِ مِنْ ذلكَ ، فالعبدُ مطالبٌ بحقوقِ جميعِ ذلكَ عندَ ورودِهِ عليهِ ؛ إذْ للهِ تعالىٰ على كلِّ عبدٍ عندَ كلِّ حالٍ يحلُّ بهِ ووارِدٍ يردُ عليهِ . . حقٌّ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله تعالىٰ أن يكلِّف عباده بما شاء من التكاليف ، ولا يجب ذلك عليه كما أنه لا يمتنع منه ، وأن العبد عبدٌ في كل حين ، كما أنه تعالىٰ ربٌّ في كل حين ؛ فلذا وجبَ حقٌّ له سبحانه في كل آنٍ على العبد في إظهار العبودية ؛ من الشكر ، والصبر ، وشهود المنة ، والاستغفار .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « استحيوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ . . . » الحديث ، رواه الترمذي (٢٤٥٨) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه

جديدٌ ، وأمرٌ أكيدٌ ، ولا يسعُهُ إلا أنْ يوفِّيَهُ إذْ ذاكَ ، فإنْ فاتَهُ لم يجدْ مجالاً لقضائِهِ ، ولا يمكنُهُ ذلكَ ، فعلى العبدِ أنْ يكونَ مراقباً لقلبِهِ ؛ حتىٰ يقومَ بمراعاةِ تلكَ الحقوقِ التي لا يمكنُهُ قضاؤُها إنْ فاتَتْ .

قالَ سيدي أبو العباسِ المرسيُّ : (أوقاتُ العبدِ أربعةٌ لا خامسَ لها : النعمةُ ، والبليةُ ، والطاعةُ ، والمعصيةُ ، وللهِ عليكَ في كلِّ وقتٍ منها سهمٌ مِنَ العبوديَّةِ يقتضيهِ الحقُّ منكَ بحكمِ الربوبيَّةِ .

فمَنْ كانَ وقتُهُ الطاعةَ : فسبيلُهُ شهودُ المنَّةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ؛ أنْ هداهُ لها ، ووفَّقَهُ للقيامِ بحقِّها

وإنْ كانَ في المعصيةِ : فسبيلُهُ التوبةُ والإيابُ

ومَنْ كانَ وقتُهُ النعمةَ : فسبيلُهُ الشكرُ ؛ وهو فرحُ القلبِ باللهِ .

ومَنْ كانَ وقتُهُ البليةَ : فسبيلُهُ الرضا بالقضاءِ والصبرُ ؛ والرضا : رضا النفسِ عنِ اللهِ ، والصبرُ مشتقٌّ مِنَ الإصبارِ ؛ وهو الغرضُ للسهامِ[1] ، وكذلكَ الصابرُ ينصبُ نفسَهُ غرضاً لسهامِ القضاءِ ، فإنْ ثبتَ لها فهو صابرٌ

والصبرُ ثباتُ القلبِ بينَ يدي الربِّ ، وفي الحديثِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَٱبْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ ، وَظَلَمَ فَٱسْتَغْفَرَ » ، ثم سكتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالوا ماذا لهُ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ « أُولَـٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ »[2] ؛ أي : لهمُ الأمنُ في الآخرةِ ، وهم مهتدونَ في الدنيا)[3]

* * *

(١) كذا في جميع النسخ والأصل المنقول عنه ، ويقال : أصبره ؛ أي : قتله صبراً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصبر » (٣٣) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٦٦١٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤١١٧) من حديث سيدنا سخبرة الأزدي رضي الله عنه .

(٣) رواه الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٥٦) .

الحكمة الخامسة عشرة بعد المئتين (*)

مَا فَاتَ مِنْ عُمُرِكَ لا عِوَضَ لَهُ ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لا قِيمَةَ لَهُ .

عمرُ العبدِ ميدانٌ لأعمالِهِ الصالحةِ المقرِّبةِ لهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والموجبةِ لهُ جزيلَ الثوابِ في الدارِ الآخرةِ ، وهـٰذهِ هي السعادةُ التي لها يكدحُ العبدُ ويسعىٰ مِنْ أجلِها ، وليسَ لهُ منها إلا ما سعىٰ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] ، فكلُّ جزءٍ يفوتُهُ مِنَ العمرِ خالياً مِنْ عملٍ صالحٍ . يفوتُهُ مِنَ السعادةِ بقدرِهِ ، ولا عوضَ لهُ منهُ .

قالَ الجنيدُ : (الوقتُ إذا فاتَ لا يُستدركُ ، وليسَ شيءٌ أعزَّ مِنَ الوقتِ)(١)

وكلُّ جزءٍ يحصلُ لهُ مِنَ العمرِ غيرُ خالٍ مِنْ ذلكَ يتوصَّلُ بهِ إلىٰ مُلْكٍ كبيرٍ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه قد جعل لكل شيء قدراً ؛ فعمر الإنسان مقدَّر ، وهو فسحة العمل، كما جعل الدار الآخرة دار الجزاء، وهـٰذا حكم قُضي من قبل الحق ، فلا رجوع فيه.
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون : ٩٩-١٠٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور : ٢٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اغتنمْ خمساً قبلَ خمسٍ » وذكر منها : « وحياتَكَ قبلَ موتِكَ » ، رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٧٦٧) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٦١) .

لا يفنىٰ ، ولا قيمةَ لما يُوصِلُ إلىٰ ذلكَ ؛ لأنَّهُ في غايةِ الشرفِ والنفاسةِ ، ولأجلِ هٰذا عظمَتْ مراعاةُ السلفِ الصالحِ لأنفاسِهم ولحظاتِهم ، وبادروا إلى اغتنامِ ساعاتِهم وأوقاتِهم[1] ، ولم يضيِّعوا أعمارَهم في البطالةِ والتقصيرِ ، ولم يقنعوا مِنْ أنفسِهم لمولاهم إلا بالجدِّ والتشميرِ

وقد قالَ أميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (بقيةُ عُمُرِ المؤمنِ ما لها ثمنٌ ؛ يدركُ فيها ما فاتَ ، ويحيي ما أماتَ)[2]

وقد نظمَهُ بعضُ الشعراءِ فقالَ[3] : [من البسيط]

بَقِيَّةُ ٱلْعُمْرِ عِنْدِي مَا لَهَا ثَمَنٌ ... وَإِنْ غَدَا غَيْرَ مَحْسُوبٍ مِنَ ٱلثَّمَنِ
يَسْتَدْرِكُ ٱلْمَرْءُ فِيهَا كُلَّ فَائِتَةٍ ... مِنَ ٱلزَّمَانِ وَيَمْحُو ٱلسُّوءَ بِٱلْحَسَنِ

وقالَ رجلٌ لعامرِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ قيسٍ وهو يريدُ الجمعةَ[4] : قِفْ حتىٰ أكلِّمَكَ ، فقالَ لهُ : لولا أنِّي أبادرُ لوقفتُ عليكَ ، فقالَ لهُ : وما تبادرُ ؟ قالَ : أبادرُ خروجَ روحي[5]

وقالَ الحسنُ البصريُّ (أدركتُ أقواماً كانوا علىٰ ساعاتِهم أشفقَ منكم علىٰ دنانيرِكم ودراهمِكم) ، يقولُ : كما لا يخرجُ أحدُكم ديناراً ولا درهماً إلا فيما يعودُ عليهِ نفعُهُ . فكذلكَ لا يحبُّونَ أنْ تخرجَ ساعةٌ مِنْ أعمارِهم إلا فيما يعودُ عليهم نفعُهُ

---

(١) روىٰ مسلم (١١٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « بادروا بالأعمالِ ، فتناً كقطعِ الليلِ المظلمِ ، يصبحُ الرجلُ مؤمناً ويمسي كافراً ؛ أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيعُ دينَهُ بعرضٍ مِنَ الدنيا »

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٧٩) مختصراً .

(٣) البيتان لأبي الفتح البستي . انظر « ديوانه » (ص ١٨٥) .

(٤) كذا في جميع النسخ ، وإنما هو عامر بن عبد الله بن عبد قيس ، من زهَّاد البصرة ، والرجل المبهم : هو سحيم مولىٰ بني تميم .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٦) بنحوه .

وقالَ السريُّ السقطيُّ : خرجتُ مِنْ بغدادَ أريدُ الرباطَ بعبَّادانَ لأصومَ بها رجباً وشعبانَ ، فاتَّفقَ لي في طريقي عليٌّ الجرجانيُّ ، وكانَ مِنَ الزهَّادِ الكبارِ ، فدنا وقتُ إفطاري وكانَ معي ملحٌ مدقوقٌ وأقراصٌ ، فقالَ : ملحُكَ مدقوقٌ ، ومعَكَ ألوانٌ مِنَ الطعامِ ! لن تفلحَ ، ولن تدخلَ في سَنَنِ المحبِّينَ ، فنظرتُ إلىٰ مزودٍ كانَ معَهُ ، فيه سويقُ الشعيرِ فسفَّ منهُ ، فقلتُ : ما دعاكَ إلىٰ هـٰذا ؟ فقالَ : حَسَبْتُ ما بينَ المضغِ والسفِّ سبعينَ تسبيحةً ، فما مضغتُ الخبزَ منذُ أربعينَ سنةً(١)

وفي الخبرِ « مَا مِنْ سَاعَةٍ تَأْتِي عَلَى ٱلْعَبْدِ لا يَذْكُرُ ٱللهَ فِيهَا إلا كَانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةً »(٢)

ويُقالُ : (إنَّ العبدَ تُعرَضُ عليهِ ساعاتُهُ في اليومِ والليلةِ ، فيراها خزائنَ مصفوفةً ؛ أربعاً وعشرينَ خزانةً ، فيرىٰ في كلِّ خزانةٍ نعيماً ولذَّةً وعطاءً وجزاءً ؛ لما كانَ أودعَ خزائنَهُ مِنْ ساعاتِهِ في الدنيا مِنَ الحسناتِ ، فيسرُّهُ ذلكَ ويغتبطُ بهِ ، فإذا مرَّتْ بهِ في الدنيا ساعةٌ لم يذكرِ اللهَ تعالىٰ فيها . . رآها في الآخرةِ خزائنَ فارغةً ، لا عطاءَ فيها ولا جزاءَ عليها ، فيسوءُهُ ذلكَ ، ويتحسَّرُ كيفَ فاتَهُ ؛ حيثُ لم يدَّخِرْ فيها شيئاً ، فيرىٰ جزاءَهُ مدخوراً ، ثم يُلقىٰ في نفسِهِ الرضا والسكونُ)(٣)

وجاءَ في الخبرِ : أنَّ أهلَ الجنَّةِ بينا هم في نعيمِهم إذْ سطعَ لهم نورٌ مِنْ فوقُ أضاءَتْ منهُ منازلُهم كما تضيءُ الشمسُ لأهلِ الدنيا ، فينظروا إلىٰ رجالٍ مِنْ فوقِهم أهلِ علِّيينَ ، يرونَهم كما ترونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ في أفقِ السماءِ ، قد فُضِّلوا عليهم في الأنوارِ والجمالِ والنعيمِ المقيمِ كما فُضِّلَ القمرُ علىٰ سائرِ النجومِ ، فينظرون إليهم

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١١٠) .

(٢) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٤٦٨) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ٩٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٠٩) من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، ولفظه هنا في « قوت القلوب » (١/ ٣٠١) .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٠٢) .

يطيرونَ علىٰ نُجُبٍ تسرحُ بهم في الهواءِ ، يزورونَ ذا الجلالِ والإكرامِ ، فينادونَ : يا إخوانَنا ؛ ما أنصفتُمونا ؛ كنَّا نصلِّي كما تصلونَ ، ونصومُ كما تصومونَ ، فما هـٰذا الذي فُضِّلتم بهِ علينا ؟

فإذا النداءُ مِنْ قِبَلِ اللهِ تعالىٰ : إنَّهم كانوا يجوعونَ حينَ تشبعونَ ، ويعطشونَ حينَ تَرْوَوْنَ ، ويَعْرَوْنَ حينَ تُكْسَوْنَ ، ويذكرونَ حينَ تكسلونَ[1] ، ويبكونَ حينَ تضحكونَ ، ويقومونَ حينَ تنامونَ ، ويخافونَ حينَ تأمنونَ ؛ فلذلكَ فُضِّلوا عليكم ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧][2]

وقالَ أبو عليٍّ الدقَّاقُ رضيَ اللهُ عنهُ : رُئيَ بعضُهم مجتهداً ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ ومَنْ أولىٰ منِّي بالجهدِ وأنا أطمعُ أنْ ألحقَ الأبرارَ والكبارَ مِنَ السلفِ ؟! قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾[3] [المطففين : ٢٦]

وفي معناهُ أنشدوا [من الخفيف]

ٱلسِّبَاقَ ٱلسِّبَاقَ قَوْلاً وَفِعْلاً حَذِّرِ ٱلنَّفْسَ حَسْرَةَ ٱلْمَسْبُوقِ[4]

* * *

(١) في (ج) : (تسكتون) ، وكلاهما مناسب .
(٢) كذا في « قوت القلوب » (١/٣٠٢) ، ورواه مختصراً ابن المبارك في « الزهد » (٩٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/٢٤٧) عن عون بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ
(٣) رواه القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٢٢٢)
(٤) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٢٢٢) ، و« لطائف الإشارات » (٢/٥٨) .

الحكمة السادسة عشرة بعد المئتين (*)

مَا أَحْبَبْتَ شَيْئاً إلا كُنْتَ لَهُ عَبْداً ، وَهُوَ لا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً .

المحبةُ للشيءِ تقتضي الانقيادَ لهُ ، وشدَّةَ العلاقةِ بهِ ، وألا يبغيَ بهِ بدلاً ؛ كما قيلَ : حبُّكَ الشيءَ يعمي ويصمُّ(1) ، وذلكَ معنى استعبادِهِ للمحبِّ لهُ

فمَنْ أحبَّ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ فقدِ استعبدَهُ ذلكَ الغيرُ كائناً ما كانَ ، واللهُ تعالىٰ لا يحبُّ أنْ تكونَ لغيرِهِ عبداً ، ولا يرضىٰ بذلكَ ؛ تعسَ عبدُ الدينارِ ، تعسَ عبدُ الدرهمِ والخميصةِ والقطيفةِ والزوجةِ(2)

قالَ محمدُ بنُ السمَّاكِ كتبَ إليَّ أخٌ إنِ استطعتَ ألا تكونَ لغيرِ اللهِ عبداً

(*) **ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ أن لا معبود بحق إلا الله عز وجل ، وما سواه من المعبودات اتخذت بالشهوات ، وإلىٰ أن لا عبودية بغير محبة ، ولا محبة بغير ذلٍّ ، ولا يشرُفُ الذلُّ إلا إن كان للعزيز بحقٍّ ؛ إذ هو وحده الذي لا يرضى الذلَّ لعباده

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف : ٥٠] ، **وقوله تعالىٰ** : ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٠] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « تعسَ عبدُ الدينارِ ، وعبدُ الدرهم ، وعبدُ الخميصةِ » ، رواه البخاري (٢٨٨٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(1) انظر (ص ٣٦١) .

(2) إشارة وتضمين لما رواه البخاري (٦٤٣٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وليس فيه ذكر الزوجة ، **والخميصة** : كساء أسود مربع له عَلَمانِ ، **والقطيفة** : كساء مربع غليظ له خمل ووبر

ما وجدتَ مِنَ العبوديَّةِ بُدّاً . . فافعلْ[1]

وقالَ الجنيدُ (إنَّكَ لن تكونَ لهُ على الحقيقةِ عبداً وشيءٌ ممَّا دونَهُ لكَ مُسترِقٌ ، وإنَّكَ لن تصلَ إلىٰ صريحِ الحريَّةِ وعليكَ مِنْ حقيقةِ عبوديَّتِهِ بقيةٌ)[2]

وسُئِلَ عمَّنْ لم يبقَ عليهِ مِنَ الدنيا إلا مقدارُ مصِّ نواةٍ ، فقالَ : المكاتبُ عبدٌ ما بقيَ عليهِ درهمٌ[3]

ومِنَ الحكاياتِ في هـٰذا المعنىٰ : ما ذُكِرَ عن أبي عبدِ اللهِ الرازيِّ نزيلِ نيسابورَ ، قالَ كساني ابنُ الأنباريِّ صوفاً ، ورأيتُ علىٰ رأسِ الشبليِّ قلنسوةً ظريفةً تليقُ بذلكَ الصوفِ ، فتمنيتُ في نفسي أنْ يكونا جميعاً لي

فلمَّا قامَ الشبليُّ مِنْ مجلسِهِ التفتَ إليَّ ، فتبعتُهُ ، وكانَ عادتُهُ إذا أرادَ أنْ أتبعَهُ يلتفتُ إليَّ ، فلمَّا دخلَ دارَهُ دخلتُ ، فقالَ : انزعِ الصوفَ ، فنزعتُهُ ، فلفَّهُ وطرحَ القلنسوةَ عليهِ ، ودعا بنارٍ فأحرقَهُما[4]

ومثلُ هـٰذا ممَّا كانَ ينكرُهُ عليهِ مَنْ لم يعرفْ مقصدَهُ في ذلكَ . . شيءٌ كثيرٌ وردَ عنهُ[5]

---

(١) رواه البستي في « روضة العقلاء » (ص ٨٢)

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٥٨) ، ورواه مختصراً القشيري في « رسالته » (ص ٤٩٦) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٢٩) .

(٤) حكاها القشيري في « رسالته » (ص ٥١٩) .

(٥) والمراد : أن إتلاف المتموَّل لغرض شرعي . . لا يعدُّ إضاعة للمال ، وانظر « الإرشاد والتطريز » (ص ١٠٩)

الحكمة السابعة عشرة بعد المئتين (*)

لا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ ، وَلا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ؛ فَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَـٰذِهِ ، وَنَهَاكَ عَنْ هَـٰذِهِ ؛ لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ .

الحقُّ تعالىٰ غنيٌّ عن أعمالِ العاملينَ ؛ **لأنَّهُ منزَّهٌ عنِ الأعواضِ والأغراضِ** ، فلا تنفعُهُ طاعتُكَ ، ولا تضرُّهُ معصيتُكَ ، وإنَّما أمرَكَ ونهاكَ لما يعودُ عليكَ مِنَ المصالحِ والمنافعِ في الدارينِ لا غيرُ ، **وذلكَ علىٰ سبيلِ التفضُّلِ منهُ مِنْ غيرِ إيجابٍ عليهِ**

وقد تقدَّمَ التنبيهُ علىٰ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ (عجبَ ربُّكَ مِنْ قومٍ يُساقونَ إلى الجنَّةِ بالسلاسلِ)[1]

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (**اعلمْ رحمَكَ اللهُ** : أنَّ اللهَ لم يأمرِ العبادَ بشيءٍ وجوباً أو يقتضيهِ منهم ندباً إلا والمصلحةُ لهم في فعلِ ذلكَ الأمرِ ، ولم يقتضِ منهم تركَ شيءٍ تحريماً أو كراهةً إلا والمصلحةُ لهم في تركِ ما أمرَهم بتركِهِ وجوباً أو ندباً

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه له سبحانه ، وأن ما قضاه من أحكامه هو عينُ الحكمة ، لا مُعلَّلٌ بالحكمة ، وأنه تعالىٰ تفضَّل علىٰ عباده بالتكليف ؛ وشرَّفهم بالعبودية له عز وجل.
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس : ٢٣] ، وقوله تعالىٰ ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي : « يا عبادي ؛ إنَّكم لن تبلغوا ضري فتضرُّوني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . . . ، يا عبادي ؛ إنما هي أعمالُكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إيَّاها ، فمَنْ وجدَ خيراً فليحمدِ اللهَ ، ومَنْ وجدَ غيرَ ذلكَ فلا يلومنَّ إلا نفسَهُ » ، رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٧٥١)

ولسنا نقولُ كما قالَ مَنْ عُدِلَ بهِ عن طريقِ الهدىٰ : إنَّهُ يجبُ على اللهِ رعايةُ مصالحِ عبادِهِ[1] ، بل إنَّما نقولُ : ذلكَ عادةُ الحقِّ وشرعتُهُ المستمرةُ ، فعلَها معَ عبادِهِ علىٰ سبيلِ التفضُّلِ ، فليتَ شعري ؛ إذا قالوا : يجبُ على اللهِ رعايةُ مصالحِ عبادِهِ . فمَنْ هو الموجِبُ عليهِ ؟! ثم إنَّا نظرنا فرأينا كلَّ ما هو واجبٌ أو مندوبٌ إليهِ يستلزمُ الجمعَ على اللهِ ، وكلَّ منهيٍ عنهُ أو مكروهٍ يتضمَّنُ التفرقةَ عنهُ

فإذاً ؛ مطلوبُ اللهِ مِنْ عبادِهِ وجودُ الجمعيَّةِ عليهِ ، لـٰكنِ الطاعاتُ هي أسبابُ الجمعِ ووسائلُهُ ، فلذلكَ أمرَ بها ، والمعصيةُ هي أسبابُ التفرقةِ ووسائلُها ، فلذلكَ نهىٰ عنها)[2]

* *

---

(١) وهم معتزلة بغداد ، وأوجب معتزلة البصرة مراعاة الأصلح في الدين فقط ، ومن الآيات الظاهرة في الردِّ على القائلين بهـٰذا الأصل الفاسد . . قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨] ، وقوله تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] ، قال العلامة السعد في « شرح المقاصد » (٢/١٦٨) (ولعمري ؛ إن مفاسد هـٰذا الأصل أظهر من أن تخفىٰ ، وأكثر من أن تحصىٰ ، ولو وجب على الله الأصلح للعباد لما ضلَّ المعتزلة طريق الرشاد) .

(٢) لطائف المنن (ص ٤٢) .

الحكمة الثامنة عشرة بعد المئتين (*)

لا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ ، وَلا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ .

عِزَّةُ اللهِ تعالىٰ صفةٌ مِنْ صفاتِ ذاتِهِ(1) ، وصفاتُهُ في غايةِ الكمالِ والتمامِ ، وهي منزَّهةٌ عنِ الزيادةِ والنقصانِ وسببيّةِ العللِ(2) .

* *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ تحقيق صفة القيام بالنفس له تعالىٰ ، وأنه غني عن العالمين ، وأنه سبحانه لا يتغيَّر ولا يتبدَّل .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي : « يا عبادي ؛ لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم . . ما زادَ ذلكَ في ملكي شيئاً ، يا عبادي ؛ لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا علىٰ أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ . . ما نقصَ ذلكَ مِنْ ملكي شيئاً » ، رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

(1) قوله : (صفات ذاته) ليس المراد تخصيصها بالمعاني ؛ إذ التحقيق أن صفة العزة على القول بها ترجع إلىٰ صفات السلوب العدمية ، لا للصفات الذاتية الوجودية ، اللهم إلا أن يلاحظ افتقار ما سواه تعالىٰ إليه ، فتثبت صفة الإرادة والقدرة ، وهما من الصفات الذاتية ، قال الحجة الغزالي في « المقصد الأسنىٰ » (ص ١٤٢) : (والكمال في النفاسة وشدة الحاجة : أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء ، حتىٰ في وجوده وبقائه وصفاته ، وليس ذلك على الكمال إلا لله تعالىٰ) .

(2) في (ج) : (وسبقية) بدل (وسببية) .

الباب الثالث والعشرون
في الحقائق والأسرار

الحكمة التاسعة عشرة بعد المئتين (*)

وقال رضي الله عنه :

وُصُولُكَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ وُصُولُكَ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِهِ ، وَإِلا فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ .

الوصولُ إلى اللهِ تعالى الذي يشيرُ إليهِ أهلُ هٰذهِ الطريقةِ : هو الوصولُ إلى العلمِ الحقيقيِّ باللهِ تعالىٰ ، وهٰذا هو غايةُ السالكينَ ، ومنتهىٰ سيرِ السائرينَ ، وأمَّا الوصولُ المفهومُ مِنَ الذواتِ فهو متعالٍ عنهُ .

قالَ الجنيدُ : (متىٰ يتَّصلُ مَنْ لا شبيهَ لهُ ولا نظيرَ بمَنْ لهُ شبيهٌ ونظيرٌ ؟! هيهاتَ ! هٰذا ظنٌّ عجيبٌ ، إلا بما لطفَ اللطيفُ مِنْ حيثُ لا دَرَكَ ولا وَهْمَ ولا إحاطةَ إلا إشارةُ اليقينِ وتحقيقُ الإيمانِ)(١)

قالَ الشيخُ أبو حفصٍ عمرُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ السُّهْرَوَرْدِيُّ صاحبُ كتابِ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفة المخالفة للحوادث من الصفات التنزيهية ، وأنه تعالىٰ لا يحويه مكان ، ولا يجري عليه زمان ، وما يدور علىٰ لسان القوم من ألفاظ : الوصل ، والوصال ، والوصول ، واللقاء ، والمشاهدة ، والحضور ، والرؤية ، والمنازلة.. كلُّ ذلك يحمل علىٰ مقام معرفيٍّ يليق بحال القائل ، وجلَّ القديم عن إدراك الحادث .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « وأعوذُ بكَ منكَ لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ » ، رواه مسلم (٤٨٦) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٩٣) .

« عوارفِ المعارفِ » (واعلمْ أنَّ الاتصالَ والمواصلةَ أشارَ إليهما الشيوخُ ، وكلُّ مَنْ وصلَ إلىٰ صفوِ اليقينِ بطريقِ الذوقِ والوجدانِ . . فهو رتبةٌ في الوصولِ ، ثم يتفاوتونَ :

فمنهم : مَنْ يجدُ اللهَ بطريقِ **الأفعالِ** ؛ وهو رتبةٌ في التجلِّي ، فيفنىٰ فعلُهُ وفعلُ غيرِهِ لوقوفِهِ معَ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، ويخرجُ في هـٰذهِ الحالةِ عنِ التدبيرِ والاختيارِ ، وهـٰذه رتبةٌ في الوصولِ

ومنهم : مَنْ يُوقفُ في مقامِ الهيبةِ والأُنْسِ ممَّا يكاشَفُ قلبُهُ مِنْ مطالعةِ الجمالِ والجلالِ ، وهـٰذا تجلٍّ بطريقِ **الصفاتِ** ، وهو رتبةٌ في الوصولِ

ومنهم : مَنْ يرقىٰ إلىٰ مقامِ الفناءِ ، مشتملاً علىٰ باطنِهِ أنوارُ اليقينِ والمشاهدةِ ، معمىً في شهودِهِ عن وجودِهِ[1] ، وهـٰذا ضربٌ مِنْ تجلِّي **الذاتِ** لخواصِّ المقرَّبينَ ، وهـٰذا رتبةٌ في الوصولِ .

وفوقَ هـٰذا : رتبةُ حقِّ اليقينِ ، ويكونُ مِنْ ذلكَ في الدنيا لمحٌ ؛ وهو سريانُ نورِ المشاهدةِ في كليَّةِ العبدِ حتىٰ تحظىٰ بها روحُهُ وقلبُهُ ونفسُهُ حتىٰ قالبُهُ ، وهـٰذا مِنْ أعلىٰ رُتَبِ الوصولِ

فإذا تحقَّقَتِ الحقائقُ يعلمُ العبدُ معَ هـٰذهِ الأحوالِ الشريفةِ أنَّهُ في أوَّلِ المنزلِ ، فأينَ الوصولُ ؟! هيهاتَ ! منازلُ طريقِ الوصولِ لا تنقطعُ أبدَ الآبادِ في عمرِ الآخرةِ الأبديِّ ، فكيفَ في العمرِ القصيرِ الدنيويِّ ؟!)[2]

* *

---

(١) في مطبوع « عوارف المعارف » : (مغيباً) بدل (معمىً)

(٢) عوارف المعارف (٢/ ٣٠٩)

الحكمة العشرون بعد المئتين (*)

قُرْبُكَ مِنْهُ : أَنْ تَكُونَ شَاهِداً لِقُرْبِهِ ، وَإِلا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودُ قُرْبِهِ ؟!

القربُ الحقيقيُّ قربُ اللهِ منكَ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة ٨٥]

وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

وحظُّكَ مِنْ ذلكَ إنَّما هو مشاهدتُكَ قربَهُ فقطْ ، فتستفيدَ بهٰذهِ المشاهدةِ شدَّةَ المراقبةِ ، وغلبةَ الهيبةِ ، والتأدُّبَ بآدابِ الحضرةِ

وأمَّا أنتَ : فلا يليقُ بكَ إلا وصفُ البعدِ وشهودُهُ مِنْ نفسِكَ ؛ كما يقولُهُ المؤلفُ بعدَ هٰذا : (إلٰهي ؛ ما أقربَكَ منِّي ! وما أبعدَني منكَ !)[1]

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أن غاية العبد من مولاه : أن يعرفه المعرفة اللائقة بالحادث ، وإلا فجلَّ الله عن أن يُعرفَ بالكنه والحقيقة .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ أتقاكم وأعلمكم باللهِ أنا » ، رواه البخاري (٢٠) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها

(١) انظر (ص ٩٩٣)

الحكمة الحادية والعشرون بعد المئتين (*)

اَلْحَقَائِقُ تَرِدُ فِي حَالِ ٱلتَّجَلِّي مُجْمَلَةً ، وَبَعْدَ ٱلْوَعْيِ يَكُونُ ٱلْبَيَانُ ؛ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾

حقائقُ العلومِ اللدنيَّةِ التي يقذفُها الحقُّ سبحانَهُ في أسرارِ العارفينَ ؛ عندَ براءتِهم مِنَ الدعوىٰ ، وتحرُّرِهم مِنْ رقِّ الأشياءِ ، وتعرُّفِهم باللَّجَأِ والافتقارِ لما يفتحُ عليهمُ المولىٰ[٢] . . يكرمُهمُ الحقُّ تعالىٰ بها ؛ تحقيقاً لوعدِهِ لهم ، مِنْ غيرِ تعلُّمٍ ولا دراسةٍ عندَ ورودِها عليهم وتجلِّيها لهم مجملةً ، لا يتبيَّنُ لهم معناها ، ولا يدرونَ جهةَ حقيقتِها

فإذا وَعَوْها وتصرَّفَتْ فيها أذهانُهم بالاعتبارِ والتأمُّلِ . . تبيَّنَ لهم معناها ، وظهرَ لهم موافقتُها لما بأيديهم مِنَ العلومِ العقليَّةِ والنقليَّةِ مِنْ غيرِ مخالفةٍ ، حتىٰ إنَّ بعضَهم ربَّما يجري علىٰ لسانِهِ وبنانِهِ كلامٌ كثيرٌ مِنْ غيرِ أنْ يلقيَ لهُ بالاً ، فإذا فرغَ مِنْ ذكرِهِ أو رسمِهِ . . يتصفَّحُهُ ويتأمَّلُهُ ، فيجدُهُ صحيحاً مستقيماً

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله تعالىٰ تجلِّياتٍ هي من جملة أفعاله ، فلها وصف الحدوث ، ترد علىٰ قلب العبد بعلوم ضرورية غير مكتسبة ، لا يمكن جحدها لمن تجلَّت له ، تكون ابتداءً مجملة ، ثم يمنُّ سبحانه بتفصيلها شيئاً فشيئاً بما يوافق العلم ، ويزيد في الفهم ، ويقرِّب من الرب ، ويطهر القلب .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل أطرقَ ، فإذا ذهبَ قرأهُ كما وعدَهُ اللهُ ، رواه مسلم (٤٤٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

(٢) في (ج) : (وتعرُّضهم) بدل (وتعرفهم) .

وقد أخبرَني بنحوٍ مِنْ ذلكَ مَنْ لهُ قدمُ صدقٍ في هـٰذا الطريقِ عن نفسِهِ .

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ : (وأصحابُ الحقائقِ يجري بحكمِ التصريفِ عليهم شيءٌ لا علمَ لهم بهِ على التفصيلِ ، وبعدَ ذلكَ يُكشفُ لهم وجهُهُ ، وربَّما يجري علىٰ لسانِهم شيءٌ لا يدرونَ وجهَهُ ، ثم بعدَ فراغِهم عنِ النطقِ بهِ يظهرُ لقلوبِهم برهانُ ما قالوهُ مِنْ شواهدِ العلمِ ؛ إذْ تحقيقُ ذلكَ بجريانِ الحالِ في ثاني الوقتِ) انتهىٰ كلامُ الإمامِ أبي القاسمِ[1] ، وهو موافقٌ لما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ ، واللهُ أعلمُ .

وكأنَّهما أشارا بذلكَ إلى المسألةِ المتعارفةِ بينَهم مِنْ موافقةِ الحقيقةِ للشريعةِ ، وقد عبَّروا عن ذلكَ بعباراتٍ ؛ فقد سُئِلَ عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ الأبهريُّ عنِ الحقيقةِ ، فقالَ : الحقيقةُ كلُّها علمٌ ، فسُئِلَ عنِ العلمِ ، فقالَ : العلمُ كلُّه حقيقةٌ[2]

وقالَ الشبليُّ : (الألسنةُ ثلاثةٌ : لسانُ علمٍ ، ولسانُ حقيقةٍ ، ولسانُ حقٍّ ؛ فلسانُ العلمِ : ما تأدَّىٰ إلينا بالوسائطِ ، ولسانُ الحقيقةِ : ما أوصلَهُ اللهُ إلى الأسرارِ بلا واسطةٍ ، ولسانُ الحقِّ : ليسَ إليهِ طريقٌ)[3]

وقالَ رويمٌ : (أصحُّ الحقائقِ : ما قارنَ العلمَ)[4]

وقالَ أبو بكرٍ الدَّقاقُ : كنتُ في تيهِ بني إسرائيلَ ، فوقعَ في قلبي أنَّ علمَ الحقيقةِ بخلافِ علمِ الشريعةِ ، فإذا شخصٌ تحتَ شجرةِ أمِّ غيلانَ صاحَ بي وقالَ : يا أبا بكرٍ ؛ كلُّ حقيقةٍ تخالفُ الشريعةَ فهي كفرٌ[5]

وإشارةُ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ بالآيةِ الكريمةِ التي ذكرَها إلىٰ هـٰذا المعنىٰ بيِّنةٌ .

* *

---

(١) انظر « لطائف الإشارات » (٢/٣٤٨) .

(٢) رواه السراج في « اللمع » (ص ٣٨٧) ، والسلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٩٤) .

(٣) أورده السراج في « اللمع » (ص ٣٨٧) .

(٤) أورده السراج في « اللمع » (ص ٣٨٦) ، وفيه : (أتمُّ الحقائق) .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٧٢٢) .

الحكمة الثانية والعشرون بعد المئتين (*)

مَتَىٰ وَرَدَتِ ٱلْوَارِدَاتُ ٱلإِلَـٰهِيَّةُ إِلَيْكَ .. هَدَمَتِ ٱلْعَوَائِدَ عَلَيْكَ ، ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾

الوارداتُ الإلـٰهيَّةُ على العبدِ تمحو عنهُ جميعَ رعوناتِهِ ، وتهدمُ عليهِ مستمرَّ عاداتِهِ ، ولها سلطنةٌ عظيمةٌ علىٰ ذلكَ .

فإذا وردَتْ علىٰ قلبٍ مشحونٍ بأنواعِ الخبائثِ والرذائلِ .. أزالَتْ ذلكَ بمرَّةٍ ، وأثبتَتْ عوضاً عن ذلكَ أحوالاً عليَّةً وأوصافاً رضيَّةً

أنشدَ سيدي أبو العباسِ المرسيُّ رضيَ اللهُ عنهُ في هـٰذا المعنىٰ[1] [من الكامل]

لَوْ عَايَنَتْ عَيْنَاكَ حِينَ تَزَلْزَلَتْ ... أَرْضُ ٱلنُّفُوسِ وَدُكَّتِ ٱلأَجْبَالُ
لَرَأَيْتَ شَمْسَ ٱلْحَقِّ يَسْطَعُ نُورُهَا ... حِينَ ٱلتَّزَلْزُلِ وَٱلرِّجَالُ رِجَالُ

الأرضُ أرضُ النفسِ ، والجبالُ جبالُ العقلِ ، والشمسُ شمسُ المعرفةِ ، والإشارةُ بالآيةِ إلىٰ هـٰذا المعنىٰ بيِّنةٌ .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن ما يوجده سبحانه لا يتوقف علىٰ ترتُّبات ومقدمات وأسباب ، بل الحادثات كلها في رتبة واحدة ، له سبحانه أن يوجد ما شاء متىٰ شاء على النحو الذي يشاء ، فلا تعجب إذاً إن بدَّل الله عز وجل في لمحةٍ الزنديق صِدِّيقاً ، وصيَّر الطريد وليّاً ، والعدوَّ حبيباً ، والله يفعل ما يشاء
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف ٤٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام في الغلام اليهودي الذي قال له « أسلمْ » ، فأسلم ، قال : « الحمدُ للهِ الذي أنقذَهُ مِنَ النارِ » ، رواه البخاري (١٣٥٦) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(١) انظر « لطائف المنن » (ص ١٨٢) .

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المئتين (*)

ٱلْوَارِدُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ لا يُصَادِمُهُ شَيْءٌ إِلا دَمَغَهُ ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾

الواردُ موسومٌ بسِمَةِ القهرِ والغلبةِ ؛ لورودِهِ مِنْ حضرةِ القهَّارِ الغالبِ علىٰ أمرِهِ ؛ لأجلِ ذلكَ لا يصادمُهُ شيءٌ مِنْ رعوناتِ البشريَّةِ إلا دمغَهُ وأزالَهُ ، وهو أيضاً حقٌّ وردَ علىٰ باطلٍ ، والباطلُ لا ثباتَ لهُ معَ الحقِّ ، والإشارةُ بالآيةِ إلىٰ هٰذا المعنىٰ بيِّنةٌ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن ما أراده سبحانه لا رادَّ له ، فلا أثر لقدرة الحادث وإرادته من حيث الإيجاد ، وأن له تعالىٰ تجليات لأسمائه العلية الحسنىٰ ، منها تجلي اسمه تعالى القهَّار ، وهو يرجع لصفتي الإرادة والقدرة الأزليتين

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد ١٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام وقد فاضت عيناه حزناً علىٰ أحد أحفاده « هٰذهِ رحمةٌ جعلَها اللهُ في قلوبِ عبادِهِ ، وإنَّما يرحمُ اللهُ مِنْ عبادِهِ الرحماءَ » ، رواه البخاري (١٢٨٤) من حديث سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المئتين (*)

كَيْفَ يَحْتَجِبُ ٱلْحَقُّ بِشَيْءٍ وَٱلَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ ، وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ ؟!

قد أشبعَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ الكلامَ على هٰذا المعنىٰ في أوَّلِ الكتابِ ، وأتىٰ فيهِ بالعجبِ العُجابِ ، وقد نبَّهنا عليهِ هناكَ(١)

* * *

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة (١٦) ، وإلىٰ أن الحادث قد طويَتْ فيه دلائل القديم ، وإلىٰ أن تعدد المظاهر لا يدل علىٰ تعدد الظاهر .
ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ » ، وقد تقدم (ص ٢٢٣) .

(١) انظر (ص ٢٢٣) .

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المئتين (*)

لا تَيْئَسَنَّ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَمْ تَجِدْ فِيهِ وُجُودَ ٱلْحُضُورِ ؛ فَرُبَّمَا قَبِلَ مِنَ ٱلْعَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ عَاجِلاً

العملُ الذي لا يجدُ صاحبُهُ حضوراً فيهِ ينبغي لهُ ألا ييئسَ مِنْ قبولِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فقد يقبلُ مِنَ العملِ ما لم تُدركْ ثمرتُهُ عاجلاً ؛ مِنْ وجودِ حضورٍ ، أو حلاوةٍ ، أو غيرِ ذلكَ ، ولو لم يكنْ إلا قصدُهُ التقرُّبَ بهِ ، وسقوطَهُ عن نظرِهِ .

وقد تقدَّمَ التنبيهُ علىٰ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ (لا عملَ أرجىٰ للقبولِ . . .)[1]

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن التحسين والتقبيح من حيث الثواب شرعيان ، وأن قبول العمل أصالة منوط بموافقة العلم والإخلاص ، وما سوىٰ ذلك فتوابع .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة : ٥] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ تصدَّقَ بعَدْلِ تمرةٍ مِنْ كسبٍ طيبٍ ـ ولا يقبلُ اللهُ إلا الطيبَ ـ وإنَّ اللهَ يتقبلُها بيمينِهِ ، ثم يربِّيها لصاحبِهِ كما يربِّي أحدُكم فَلُوَّهُ ، حتىٰ تكونَ مثلَ الجبلِ » ، رواه البخاري (١٤١٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) في (ج) : (للقلوب) بدل (للقبول) ، وانظر (ص ٣٣٦) .

الحكمة السادسة والعشرون بعد المئتين (*)

لا تُزَكِّيَنَّ وَارِداً لا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ ، فَلَيْسَ ٱلْمُرَادُ مِنَ ٱلسَّحَابَةِ ٱلإِمْطَارَ ، وَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ مِنْهَا وُجُودُ ٱلإِثْمَارِ

الواردُ مرادٌ لثمرتِهِ ، لا لوجدانِ حظِّ نفسِكَ فيهِ ، كما أنَّ السحابةَ مرادةٌ لوجدانِ الإثمارِ الذي اقتضاهُ وجودُ الإمطارِ ، لا لمجرَّدِ وجودِ إمطارِها

وثمرةُ الواردِ إنَّما هو تأثُّرُ القلبِ بهِ ، وتبدُّلُ صفاتِهِ المذمومةِ بصفاتٍ محمودةٍ كما تقدَّمَ ، فإنْ لم تعلمْ وجودَها فيكَ فلا تزكيَنَّ الواردَ ، ولا تفرحْ بهِ ؛ فإنَّ في ذلكَ نوعاً مِنَ الاغترارِ ، وانخداعاً بلُبْسةِ الإظهارِ ، فكنْ على حذرٍ منهُ .

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن العبادات الظاهرة فرضها الله تعالىٰ لتحقيق العبودية في العبد ، لا لطلب الجزاء من الله سبحانه ، وإنما الجزاء فضل منه واقع لصدق الوعد الأزلي الحق
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ حكاية : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران : ٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ هـٰذا وأصحابَهُ يقرؤونَ القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهم ، يمرقونَ منهُ كما يمرقُ السهمُ مِنَ الرميَّةِ » ، رواه مسلم (١٠٦٣) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

الحكمة السابعة والعشرون بعد المئتين (*)

لا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ ٱلْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطَتْ أَنْوَارَهَا وَأَوْدَعَتْ أَسْرَارَهَا؛ فَلَكَ فِي ٱللهِ غِنىً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ

أنوارُ الوارداتِ المنبسطةُ على العبدِ هي تكيُّفُ ظاهرِهِ وباطنِهِ بكيفيَّاتِ العبوديَّةِ ، **وأسرارُها المودعةُ فيهِ** : ما لاحَ لهُ مِنْ عظمةِ الربوبيَّةِ

فإذا أفادَكَ الواردُ هٰذهِ الفوائدَ فلا تطلبَنَّ بقاءَهُ في حالِ كونِهِ ، ولا تأسَ على فقدِهِ إذا فقدتَهُ ؛ فإنَّ لكَ في اللهِ غنىً عنهُ وعن غيرِهِ ، وليسَ لكَ غنىً عنِ اللهِ تعالى في شيءٍ مِنَ الأشياءِ ، كما قالَ الشاعرُ : [من البسيط]

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ ... وَلَيْسَ للهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضِ (١)

قالَ الشيخُ أبو العباسِ بنُ عطاءِ اللهِ (إيَّاكَ أنْ تلاحظَ مخلوقاً وأنتَ تجدُ إلى ملاحظةِ الحقِّ سبيلاً)(٢)

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى أن ما سواه تعالى بالنسبة للعبد كالأسباب ليس غير ، ولولا أنه تعالى سبَّبَها لوجب على العبد تركها جملة وتفصيلاً ، وأن وارداتِ الحقِّ سبحانه سبب للمعرفة والقرب ، فلا ينبغي التعلق بها
ويطلب معنى هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام ٧١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام « لبيكَ اللهمَّ لبيكَ ، لبيكَ لا شريكَ لكَ لبيكَ » ، رواه البخاري (١٥٤٩) ، ومسلم (١١٨٤) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما

(١) حكاه العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (٢/ ٦٦٣) عن بعضهم

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٠٤) ، وأبو العباس هنا هو أحمد بن محمد بن سهل بن=

ويدخلُ في هٰذا المعنى الذي ذكرَهُ ابنُ عطاءِ اللهِ جميعُ الأغيارِ والأنوارِ ، والمقاماتِ والأحوالِ ، والدنيا والآخرةِ ، والنعمِ الباطنةِ والظاهرةِ ، فلا تلاحظْ شيئاً مِنْ ذلكَ ولا تركنْ إليهِ ولا تعتمدْ عليهِ ، بقيَ أو ذهبَ ؛ فإنَّ ذلكَ قادحٌ في إخلاصِ التوحيدِ

قالَ في « التنويرِ » (واعلمْ أنَّ البارئَ سبحانَهُ إنَّما يدخِلُكَ في الحالِ لتأخذَ منها ، لا لتأخذَ منكَ ، وإنَّما جاءَتْ تحملُ هديةَ التعريفِ مِنَ اللهِ إليكَ فيها ، فتوجَّهَ إليها باسمِهِ المبدئ ، فأبداها وأبقاها ، حتىٰ إذا أوصلَتْ إليكَ ما كانَ لكَ فيها ، فلمَّا أدَّتِ الأمانةَ توجَّهَ إليها باسمِهِ المعيدِ ، فأرجعَها وتوفَّاها ، فلا تطلبَنَّ بقاءَ رسولٍ بعدَ أنْ بلَّغَ الرسالةَ ، ولا أمينٍ بعدَ أنْ بلَّغَ أمانتَهُ

وإنَّما يَفْتَضِحُ المدَّعونَ بزوالِ الأحوالِ ، وبعزلِهم عن مراتبِ الإنزالِ ، هناكَ يبدو العوارُ ، وتنهتكُ الأستارُ ، فكم مِنْ مدَّعٍ الغنىٰ باللهِ وإنَّما غناهُ بطاعتِهِ أو بنورِهِ أو بفتحِهِ ، وكم مِنْ مدَّعٍ العزَّ باللهِ وإنَّما اعتزازُهُ بمنزلتِهِ وصولتِهِ على الخلْقِ ، معتمداً علىٰ ما ثبتَ عندَهم مِنْ معرفتِهِ

فكنْ عبدَ اللهِ ، لا عبدَ العللِ ، وكما كانَ اللهُ لكَ ربّاً ولا علَّةَ فكنْ عبداً لهُ ولا علَّةَ ؛ لتكونَ لهُ كما كانَ لكَ) انتهىٰ[1]

وقالَ سيدي أبو العباسِ (عبدٌ هو في الحالِ بالحالِ ، وعبدٌ هو في الحالِ بالمحوِّلِ ؛ فالذي هو في الحالِ : بالحالِ عبدُ الحالِ ، والذي هو في الحالِ بالمحوِّلِ : عبدُ المحوِّلِ)[2]

وأمارةُ مَنْ هو في الحالِ بالحالِ أنْ يأسىٰ عليها إذا فقدَها ، ويفرحَ بها إذا

= عطاء الأدَمي . انظر ترجمته في « الرسالة القشيرية » (ص ١٨٢) ، و« الحلية » (١٠/ ٣٠٢) ، ولا يعرف بـ (ابن عطاء الله) ، بل بـ (ابن عطاء) فقط .

(١) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٣١٠) .

(٢) رواه الإمام ابن عطاء الله في « التنوير » (ص ٣٠٨) .

وجدَها ، والذي هو في الحالِ بالمحوِّلِ : لا يفرحُ بها إذا وجدَها ، ولا يحزنُ عليها إذا فقدَها[1]

وفي الإشاراتِ عنِ اللهِ سبحانَهُ (لا تركنَنَّ إلىٰ شيءٍ دونَنا ؛ فإنَّهُ وبالٌ عليكَ ، وقاتلٌ لكَ ، فإنْ ركنتَ إلى العلمِ تتبَّعناهُ عليكَ ، وإنْ أويتَ إلى العملِ رددناهُ عليكَ ، وإنْ وقفتَ بالحالِ وقفناكَ معَهُ ، وإنْ أنِسْتَ بالوجدِ استدرجناكَ فيهِ ، وإنْ لحظتَ إلى الخلْقِ وكلناكَ إليهم ، وإنِ اعتززتَ بالمعرفةِ نكَّرناها عليكَ ، فأيُّ حيلةٍ لكَ ؟! وأيُّ قوَّةٍ معَكَ ؟! فارضنا لكَ ربّاً حتىٰ نرضاكَ لنا عبداً)[2]

* * *

---

(١) انظر « التنوير » (ص ٣٠٨) إذ الشرح للإمام ابن عطاء الله .

(٢) أورده بنحوه ابن القيم في « الفوائد » (ص ٢٦٧) .

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المئتين (*)

تَطَلُّعُكَ إِلَىٰ بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ وُجْدَانِكَ لَهُ ، وَٱسْتِيحَاشُكَ لِفُقْدَانِ مَا سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ وُصْلَتِكَ بِهِ

وجودُ العبدِ لربِّهِ ووصولُهُ إليهِ : هو غايةُ مطالبِهِ ، ومنتهىٰ آمالِهِ ومآربِهِ ، وبهِ يفوزُ بالنعيمِ ، ويحظىٰ بالملكِ العظيمِ ، وعندَ ذلكَ ينسىٰ كلَّ محبوبٍ ، ويَلهىٰ عن كلِّ مفروحٍ بهِ ومرغوبٍ

وهـٰذهِ هي صفةُ أهلِ التفريدِ ، الذينَ استُهتروا في ذكرِ اللهِ المجيدِ[1] ؛ كما رُوِيَ عن أبي عبيدٍ البُسْريِّ قالَ : سألتُ رجلاً باللُّكامِ[2] : ما الذي أجلسَكَ في هـٰذا الموضعِ ؟ فقالَ لي : وما سؤالُكَ عن شيءٍ إنْ طلبتَهُ لم تدركْهُ ، وإنْ لحقتَهُ لم تقعْ عليهِ ؟

قلتُ : أتخبرُني ما هو ؟ قالَ : **علمي بأنَّ مجالسةَ اللهِ تستغرقُ نعيمَ الجنانِ**

ثم قالَ : أوَّاهُ ! قد كنتُ أظنُّ أنَّ نفسي ظفرَتْ ، ومِنَ الخلْقِ هربَتْ ، فإذا أنا

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** إلىٰ بيان عزَّة معرفة الله تعالى المعرفة اللائقة بالحادث ، فضلاً عن تعذُّرِ معرفته سبحانه المعرفة اللائقة به ، وأن معرفة عموم المتكلمين وعلماء الظاهر الذين لم يضربوا بنصيب من علوم القوم . . ليست هي المعرفة الحقيقية ، ودليل ذلك اشتغالهم بغيره عنه ، وأُنسهم بسواه ، وميلهم لما عداه ، يعرف هـٰذا في أحوالهم فضلاً عن أقوالهم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، **وقوله تعالىٰ حكاية** ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد : ٣٠] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام في بيان الإحسان** « أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ » ، رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(١) **استُهتِرَ بكذا فهو مستَهتَرٌ** : ولع بالشيء دون مبالاة بما يقال فيه

(٢) **اللكام** جبل في لبنان .

كذَّابٌ في مقالتي ، لو كنتُ محبّاً للهِ صادقاً ما اطَّلعَ عليَّ أحدٌ .

فقلتُ أما علمتَ أنَّ المحبِّينَ خلفاءُ اللهِ في أرضِهِ ، مستأنسينَ[1] بخلقِهِ يبعثونَهم علىٰ طاعتِهِ ؟! فصاحَ صيحةً وقالَ لي يا مخدوعُ ؛ لو شَمِمْتَ رائحةَ الحبِّ ، وعاينَ قلبُكَ ما وراءَ ذلكَ مِنَ القربِ . . ما احتجْتَ أنْ ترىٰ فوقَ ما رأيتَ

ثم قالَ يا سماءُ ويا أرضُ ؛ اشهدا أنَّهُ ما خطرَ علىٰ قلبي ذكرُ الجنَّةِ والنارِ قطُّ ، إنْ كنتُ صادقاً فأمتني

فواللهِ ، ما سمعتُ لهُ كلاماً بعدَها ، وخفتُ أنْ يسبقَ إليَّ الظنُّ مِنَ الناسِ مِنْ قتلِهِ ، فتركتُهُ ومضيتُ

فبينا أنا علىٰ ذلكَ إذا أنا بجماعةٍ ، فقالوا ما فعلَ الفتىٰ ؟ فكنيتُ عن ذلكَ ، فقالوا ارجعْ فإنَّ اللهَ قد قبضَهُ ، فصلَّيتُ معَهم عليهِ ، فقلتُ لهم مَنْ هـٰذا الرجلُ ؟ ومَنْ أنتم ؟ قالوا ويحَكَ هـٰذا رجلٌ بهِ كانَ يُمطَرُ المطرُ ، قلبُهُ علىٰ قلبِ إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السلامُ ، أما رأيتَهُ يخبرُ عن نفسِهِ أنَّ ذكرَ الجنَّةِ والنارِ ما خطرَ علىٰ قلبِهِ ؟! فهل كانَ أحدٌ هـٰكذا إلا إبراهيمُ الخليلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ؟! فقلتُ : مَنْ أنتم ؟ قالوا : نحنُ السبعةُ المخصوصونَ مِنَ الأبدالِ ، فقلتُ علِّموني شيئاً ، قالوا لا تحبَّ أنْ تُعرفَ ، ولا تحبَّ أنْ تُعرفَ أنَّكَ ممَّنْ لا يحبُّ أنْ يُعرفَ[2]

وفي مثلِ هـٰذا الحالِ أنشدوا[3] : [من البسيط]

كَـانَـتْ لِقَلْبِـيَ أَهْـوَاءٌ مُفَـرَّقَـةٌ فَٱسْتَجْمَعَتْ إِذْ رَأَتْكَ ٱلْعَيْنُ أَهْوَائِي

---

(١) كذا بالنصب في جميع النسخ ، وفي « الحلية » : (مستأنسون)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣١٨) .

(٣) البيتان الأولان ضمن قصيدة أوردها ابن داود الظاهري في « الزهرة » (ص ٩٧) ، وهي بتمامها أوردها حجة الإسلام في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٤٢٠) ، وقال : (وما أرادوا بهـٰذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالىٰ علىٰ لذة الأكل والشرب والنكاح ؛ فإن الجنة معدن تمتُّعِ الحواس ، فأما القلب فلذَّته في لقاء الله تعالىٰ فقط) .

فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى ٱلْوَرَىٰ مُذْ صِرْتَ مَوْلَائِي
تَـرَكْـتُ لِلنَّـاسِ دُنْيَـاهُـمْ وَدِينَهُـمُ ... شُغْـلاً بِـذِكْـرِكَ يَـا دِينِـي وَدُنْيَـائِـي

وقد سُئِلَ أبو سليمانَ الدارانيُّ عن أقربِ ما يتقرَّبُ بهِ العبدُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فقالَ : أقربُ ما يتقرَّبُ بهِ إليهِ : أنْ يطَّلعَ اللهُ على قلبِهِ وهو لا يريدُ مِنَ الدنيا والآخرةِ غيرَهُ[1]

فهٰذهِ هي العلامةُ الصادقةُ والدلالةُ القاطعةُ على التحقُّقِ بهٰذا المقامِ العظيمِ .

فإنْ كانَ لهُ شعورٌ بشيءٍ مِنَ الأغيارِ المحبوبةِ ، فتطلَّعَ إلىٰ بقائِها ، واستوحشَ لفقدِها . فذلكَ دليلٌ علىٰ عدمِ تحقُّقِهِ بذلكَ ، فليعرفْ منزلتَهُ وحدَّهُ ، وليعملْ في تصحيحِ هٰذا المقامِ جهدَهُ .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٥٦) .

الباب الرابع والعشرون
في المنافع والمضار

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المئتين (*)

وقال رضي الله عنه :

ٱلنَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وٱقْتِرَابِهِ ، وٱلْعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ لِوُجُودِ حِجَابِهِ ، فَسَبَبُ ٱلْعَذَابِ وُجُودُ ٱلْحِجَابِ ، وَإِتْمَامُ ٱلنَّعِيمِ بِٱلنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ ٱللهِ ٱلْكَرِيمِ

مظاهرُ النعيمِ المتنوعةُ : هي ما وردَ مِنْ أنواعِ الثوابِ في الدارِ الآخرةِ ؛ مِنَ الحورِ والقصورِ ، والولدانِ والغلمانِ ، والمآكلِ والمشاربِ والملابسِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ المسرّاتِ واللذّاتِ

ومظاهرُ العذابِ المتنوعةُ : هي ما وردَ مِنْ أنواعِ العقابِ فيها ؛ مِنَ الحميمِ

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً** : إلىٰ أن الألم واللذة بخلق الله تعالىٰ ، وليس للأسباب العادية أيُّ أثر فيها ، فلا عجب أن يجعل الله تعالىٰ سعادة المرء في القرب منه سبحانه ، وشقاءَهُ في البعد عنه جلَّ وعلا ، على المعنى المخصوص للقرب والبعد عند القوم وعامة المتكلمين .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ، **وقوله تعالىٰ** : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين : ١٥ـ١٦] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، ومَنْ كرهَ لقاءَ اللهِ كرهَ اللهُ لقاءَهُ » ، رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، **وقوله عليه الصلاة والسلام** : « قالَ لي جبريلُ : يا محمدُ ؛ أحبَّ مَنْ شئتَ فإنَّكَ مفارِقُهُ » ، رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٤٨٤٥) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه

والجحيمِ ، والزقومِ والحيَّاتِ والعقاربِ ، والسلاسلِ والأغلالِ والأنكالِ ، وغيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ الآلامِ والعقوباتِ

وليسَ وجودُ النعيمِ والعذابِ بسببِ وجودِ ذواتِ هٰذهِ الأشياءِ ومباشرتِها للمنعَّمِ والمعذَّبِ ، وإنَّما ذلكَ لما تضمَّنَتْهُ وظهرَ فيها مِنْ وجودِ قربِ اللهِ تعالىٰ وشهودِهِ للمنعَّمِ ، أو وجودِ حجابِهِ وإعراضِهِ عنِ المعذَّبِ ؛ فهٰذانِ الأمرانِ بهما يقعُ النعيمُ والعذابُ على التحقيقِ (١)

* * *

(١) قال إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٨) : (فراقُ المحبوب شديد ؛ ينبغي أن تحبَّ من لا يفارقك ؛ وهو الله تعالىٰ ، ولا تحب ما يفارقك ؛ وهو الدنيا ؛ فإنك إن أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالىٰ ، فيكون قدومك بالموت علىٰ ما تكرهه ، وفراقك لما تحبُّهُ ، وكلُّ من فارق محبوباً فيكون أذاه بقدر حبه وقدر أنسه به ، وأنس الواجد للدنيا بالدنيا أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصاً عليها) .

الحكمة الثلاثون بعد المئتين (*)

مَا تَجِدُهُ ٱلْقُلُوبُ مِنَ ٱلْهُمُومِ وٱلأَحْزَانِ ، فَلِأَجْلِ مَا مُنِعَتْ مِنْ وُجُودِ ٱلْعِيَانِ

وجودُ الهمومِ والأحزانِ الدنيويَّةِ والأخرويَّةِ مِنْ نتائجِ رؤيةِ النفسِ واعتبارِها وبقاءِ حظِّها ، وهو الذي منعَ العبدَ مِنْ وجودِ العِيانِ

فلو قد فَنِيَ عن رؤيةِ نفسِهِ ، وذهبَ عن مراعاةِ حظِّهِ . . لظفرَ بوجودِ العِيانِ ، ولم يكنْ لهُ همٌّ ولا حزنٌ ألبتةَ ، بل يكونُ متَّصلَ الحبورِ ، دائمَ الفرحِ والسرورِ ، كما قالَ تعالىٰ ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ، فالمعيَّةُ المذكورةُ لا يجتمعُ معَها حزنٌ ، وهي ما قلناهُ مِنْ وجودِ العِيانِ(١)

والعِيانُ ـ واللهُ أعلمُ ـ درجةٌ فوقَ درجةِ اليقينِ ، كما قالَ الشاعرُ(٢) : [من الكامل]

كَبُـرَ ٱلْعِيَـانُ عَلَـيَّ حَتَّـىٰ إِنَّـه ... صَارَ ٱلْيَقِينُ مِنَ ٱلْعِيَانِ تَوَهُّمَا

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أن شهود الحق سبحانه حالُ بهجة وسرور ، فلا معنىٰ للحزن فيه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر ٥٦] ، فلو أنه كان شهد الله لم يتحسر ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما ظنُّكَ يا أبا بكرٍ باثنينِ اللهُ ثالثُهما ؟! » ، رواه البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) من حديث الصديق الأكبر رضي الله عنه .

(١) في (أ) وحدها : (وهي ـ كما قلناه ـ من وجود العيان) .

(٢) البيت للمتنبي . انظر « ديوانه » (ص ١٦) ، قال الواحدي شارحاً لهـٰذا البيت في « شرح ديوان المتنبي » (ص ٢٠) : (عظُمَ علي ما أعاينه من الممدوح وحاله ، حتىٰ شككت فيما رأيت ؛ إذ لم أرَ مثله ولم أسمع به حتىٰ صار المعايَن كالمتوهَّم المظنون الذي لا يُرىٰ) .

قالَ الشبليُّ : (مَنْ عرفَ اللهَ لا يكونُ لهُ غمٌّ أبداً)[1]

وقيلَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داودَ عليهِ السلامُ : يا داودُ ؛ إنَّ محبَّتي في خلقي أنْ يكونوا روحانيينَ ، **وللروحانيةِ عَلَمٌ ؛ هو ألا يغتمُّوا وأنا مصباحُ قلوبِهم ، يا داودُ ؛ لا تمزجِ الهمَّ قلبَكَ فينقصَ ميراثُ حلاوةِ الروحانيينَ**[2]

وسيأتي مِنْ كلامِ المؤلفِ أوحى اللهُ إلىٰ داودَ : يا داودُ ؛ بي فافرحْ ، وبذكري فتنعَّمْ[3]

فباستنارةِ القلبِ بنورِ المعرفةِ ، واحتظائِهِ بوجودِ العِيانِ والرؤيةِ . . يخرجُ منهُ الهمُّ ، ويحلُّ [محلَّهُ] الروحانيَّةُ[4] ، **علىٰ أنَّ في وجودِ الهمومِ والأحزانِ لمَنْ لم يبلغْ هٰذا المقامَ إذا لم يقدرْ علىٰ دفعِها عن نفسِهِ . . فوائدَ جزيلةً** ، لا ينبغي أنْ تُستحقرَ ؛ مِنْ قِبَلِ أنَّها موجِبةٌ لخمودِ النفسِ ، وصفاءِ القلبِ ، وزوالِ الأشرِ والبطرِ والفرحِ بالدنيا ، ثم هي كفَّاراتٌ إنْ كانَتْ في الأمورِ الدنيويَّةِ ، ودرجاتٌ إنْ كانَتْ في الأمورِ الأخرويَّةِ

والهمُّ متعلِّقٌ بما يكونُ في المستقبلِ ، **والحزنُ** متعلِّقٌ بما يكونُ في الماضي[5]

*

---

(١) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/ ٤٥٨)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٧٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢١٧) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٥٠٤) ، وانظر (ص ٩٨١) .

(٤) في جميع النسخ : (محل) بدل (محلَّهُ)

(٥) والغمُّ متعلق بما يكون في الآن .

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المئتين (*)

مِنْ تَمَامِ ٱلنِّعْمَةِ عَلَيْكَ : أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ ، وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ

وجدانُ الكفايةِ مِنَ الرزقِ وعدمُ الزيادةِ عليها والنقصانِ منها . . مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى التامَّةِ الكاملةِ على العبدِ؛ لما لهُ في ذلكَ مِنْ حصولِ جميعِ المصالحِ الدينيَّةِ والدنيويَّةِ .

أمَّا مصالحُ الدينِ في عدمِ الزيادةِ على الكفايةِ فظاهرٌ ؛ إذْ لو وجدَها لربَّما أوجبَ لهُ ذلكَ طغياناً ؛ كما قالَ تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ـ٧] ، **فالاستغناءُ** : هو وجودُ الزيادةِ على الكفايةِ ، وهو سببُ الطغيانِ ، **والطغيانُ أصلُ كلِّ معصيةٍ للهِ عزَّ وجلَّ** ، وقصَّةُ ثعلبةَ بنِ حاطبٍ حينَ طلبَ الدعاءَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يرزقَهُ اللهُ مالاً ، وما آلَ إليهِ أمرُهُ . . مشهورةٌ[1]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات صفة اللطف على القول بها ، من غير وجوب عليه سبحانه ، وإثبات صفة الحكمة عند السادة الماتريدية ، وأنه تعالىٰ علم ما يصلح أحوال عباده من غنىً أو فقر ، فعاملهم بما تقتضيه أحوالهم نعمةً وبلاءً ، وجعل من تمام النعمة في هـٰذا الباب أن يكون رزق العبد قوتاً ، والقوت : ما يقوم بالأود ، ويغني عن الحاجة والسؤال .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر ٤٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ اجعلْ رزقَ آلِ محمدٍ قوتاً » ، رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) رواها الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ٢١٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٠٤٨) من حديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، وخلاصتها : أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله=

وقالَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ « خَيْرُ ٱلرِّزْقِ مَا يَكْفِي ، وَخَيْرُ ٱلذِّكْرِ ٱلْخَفِيُّ »(١)

وفي حديثِ أبي الدرداءِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَا طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ إلا بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ ٱلْخَلائِقَ غَيْرَ ٱلثَّقَلَيْنِ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ، مَا قَلَّ وَكَفَىٰ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَىٰ »(٢)

وأمَّا مصالحُ الدنيا في ذلكَ : فسيأتي التنبيهُ عليها في قولِ المؤلفِ (ليقلَّ ما تفرحُ بهِ يقلَّ ما تحزنُ عليهِ)(٣)

وأمَّا مصالحُ الدينِ عندَ وجودِ الكفايةِ وعدمِ النقصانِ منها : فمِنْ أجلِ توصُّلِهِ بذلكَ إلى الاستعانةِ بها على الطاعةِ للهِ تعالىٰ ، ولأجلِ ذلكَ عظمَتِ النعمةُ بها على العبدِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] أي لا تنسَ نصيبَكَ في الآخرةِ أنْ تتوصَّلَ إليهِ بما آتاكَ اللهُ مِنَ الدنيا

وأمَّا مصالحُ الدنيا في ذلكَ : فظاهرٌ لا يحتاجُ إلىٰ تنبيهٍ عليهِ ؛ إذْ بذلكَ يحصلُ لهُ

= أن يدعوَ له بالسعة في الرزق ، فقال له المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم : « قليلٌ تؤدي شكرَهُ خيرٌ مِنْ كثيرٍ لا تطيقُهُ » ، فحلف لئن آتاه الله مالاً ليصدَّقنَّ وليفعلنَّ ، فلما وسَّعَ الله عليه وطُلبَتْ منه الزكاة أبىٰ أن يدفعها ، ونعتها بالجزية ، ونزل فيه قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ . . . ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ [التوبة ٧٥ـ٧٧] ، وقال الحافظ البيهقي عقبه : (في إسناد هـٰذا الحديث نظر ، وهو مشهور فيما بين أهل التفسير) ، إلا أن ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه بدريٌّ ، والبدريون ممن بُشِّرَ بالجنة ، وذلك لا يتخلف لصدق الوعد الحق ، فلعله كما ذكر الحافظ ابن حجر في « الإصابة » (١/٥١٦ـ٥١٧) أنه ثعلبة بن أبي حاطب نقلاً عن ابن مردويه .

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/١٧٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٨٠٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٤٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/١٩٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٢٦) .

(٣) انظر (ص ٨٢٠) .

طيبُ العيشِ ، وراحةُ القلبِ والبدنِ ، وصيانةُ الوجهِ عن ذلِّ المسألةِ عندَ وجودِ الحاجةِ والفاقةِ .

فعلى العبدِ : أنْ يشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ هٰذهِ النعمةِ العظيمةِ ، ويقنعَ بما أباحَ لهُ مِنْ هٰذهِ المنَّةِ الجسيمةِ ، فيستعجلَ بذلكَ راحةَ نفسِهِ ، والاستغناءَ عن بني جنسِهِ ، ويحصلَ لهُ بذلكَ حلاوةُ الزهدِ في الأمورِ العاجلةِ ، وتجافي القلبِ عن زهرتِها ؛ فإنْ طلبَ الزيادةَ مِنَ الدنيا ، ولم يقنعْ بما قُسِمَ لهُ منها .. خيفَ عليهِ مِنِ اقتحامِ المهالكِ ؛ إذْ يجرُّهُ الحرصُ والطمعُ إلىٰ ذلكَ .

قالَ بعضُ العارفينَ : (كلُّ مَنْ لا يعرفُ قدرَ ما زُوِيَ عنهُ مِنَ الدنيا .. ابتُلِيَ بأحدِ وجهينِ : إمَّا بحرصٍ معَ فقرٍ يتقطَّعُ فيهِ حسراتٍ ، أو رغبةٍ في غَناءٍ تنسيهِ شكرَ ما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ) .

وقد ثبتَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لَيْسَ ٱلْغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ ٱلْعَرَضِ ، وَإِنَّمَا ٱلْغِنَىٰ غِنَى ٱلنَّفْسِ »[١] ، وغنى النفسِ عنِ الدنيا : **شرفُ الأولياءِ المختارينَ** ، وعزُّ أهلِ التقوىٰ مِنَ المؤمنينَ المحسنينَ ، ولقد صدقَ الشاعرُ في قولِهِ[٢] : [من الطويل]

غِنَى ٱلنَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ ... فَإِنْ زِدْتَ شَيْئاً عَادَ ذَاكَ ٱلْغِنَىٰ فَقْرَا

يُحكىٰ عن بنانٍ الحمَّالِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : كنتُ طاوياً مطروحاً علىٰ بابِ بني شيبةَ سبعةَ أيامٍ لم أذقْ شيئاً ، فنُوديتُ في سرِّي : إنَّ مَنْ أخذَ مِنَ الدنيا فوقَ ما يكفيهِ أعمى اللهُ عينيْ قلبِهِ[٣] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البيت لسالم بن وابصة الأسدي . انظر « شرح الحماسة » للتبريزي (٢/ ١٦) ، وقال شارحاً لهٰذا البيت : (متىٰ وجدت ما يسدُّ حاجتك فأنت غني النفس ، فإن طلبت زيادة عن كفايتك صرت محتاجاً ، فيرجع غناك فقراً) .

(٣) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (٤٠٨) ولـٰكن عن سمنون ، وهو في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٨٩) عن الطنافسي .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ ذُكِرَ لي أنَّ في خرابِ الأُبُلَّةِ جاريةً مجنونةً تنطقُ بالحكمةِ[١] ، فلم أزلْ أطلبُها حتىٰ وجدتُها في خَرِبَةٍ جالسةً علىٰ حجرٍ وعليها جبَّةُ صوفٍ وهي محلوقةُ الرأسِ ، فلمَّا نظرَتْ إليَّ قالَتْ لي مِنْ غيرِ أنْ أكلِّمَها مرحباً بكَ يا عبدَ الواحدِ ، قلتُ رحَّبَ اللهُ بكِ ، وعجبتُ مِنْ معرفتِها بي ولم ترني قبلَ ذلكَ ، فقالَتْ : ما الذي جاءَ بكَ ها هنا ؟ قلتُ : جئتُ لتعظيني ، قالَتْ : واعجبًا لواعظٍ يُوعظُ !

ثم قالَتْ يا عبدَ الواحدِ ؛ اعلمْ أنَّ العبدَ إذا كانَ في كفايةٍ ، ثم مالَ إلى الدنيا . سلبَهُ اللهُ حلاوةَ الزهدِ ، فيظلُّ حيرانَ والهاً ، فإنْ كانَ لهُ عندَ اللهِ نصيبٌ عاتبَهُ وحياً في سرِّهِ ؛ فقالَ عبدي ؛ أردتُ أنْ أرفعَ قدرَكَ عندَ ملائكتي وحملةِ عرشي[٢] ، وأجعلَكَ دليلاً لأوليائي وأهلِ طاعتي في أرضي ، فمِلْتَ إلىٰ عرضٍ مِنْ أعراضِ الدنيا وتركتَني ؟! قد ورَّثْتُكَ بذلكَ الوَحشةَ بعدَ الأُنْسِ ، والذلَّ بعدَ العزِّ ، والفقرَ بعدَ الغنىٰ ، عبدي ؛ ارجعْ إلىٰ ما كنتَ عليهِ أرجعْ إلىٰ ما كنتَ تعرفُهُ مِنْ نفسِكَ

قالَ : ثم تركَتْني وولَّتْ عنِّي ، فانصرفْتُ وبقلبي حسرةٌ منها[٣]

وفي بعضِ الكتبِ (إنَّ أهونَ ما أصنعُ بالعالمِ إذا مالَ إلى الدنيا . أنْ أسلبَهُ حلاوةَ مناجاتي)[٤]

وذكرَ أبو إبراهيمَ إسحاقُ بنُ إبراهيمَ التُّجِيبيُّ القرطبيُّ المالكيُّ في كتابِ « النصائحِ » لهُ : عنِ أبي عبدِ ربِّهِ الشاميِّ ثم الدمشقيِّ أنَّهُ كانَ مِنْ أكثرِ أهلِ دمشقَ مالاً ، فخرجَ مسافراً ، فأمسىٰ إلىٰ جانبِ نهرٍ ومرعىً ، فنزلَ بهِ ، قالَ فسمعتُ

---

(١) هي ميمونة السوداء كما في « الحلية » ، والأبلة : بلدة علىٰ شاطئ دجلة .

(٢) أردتُ هنا : بمعنىٰ أحببتُ ، أو هي بتاء المخاطب المذكر .

(٣) روى الخبر بطوله وبنحو ما هنا أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٥٨)

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٠) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ .

صوتاً يكثرُ حمدَ اللهِ في ناحيةِ المرجِ ، فاتبعتُهُ ، فوافيتُهُ رجلاً ملفوفاً في حصيرٍ ، فسلمتُ عليهِ ، فقلتُ : مَنْ أنتَ يا عبدَ اللهِ ؟ فقالَ : رجلٌ مِنَ المسلمينَ ، فقلتُ : ما حالُكَ هـٰذهِ ؟ قالَ : حالُ نعمةٍ يجبُ عليَّ حمدُ اللهِ تعالىٰ عليها

قالَ فقلتُ كيفَ وإنَّما أنتَ في حصيرٍ ؟! قالَ وما لي لا أحمدُ اللهَ وقد خلقَني فأحسنَ خلْقي ، وجعلَ منشئي ومولدي في الإسلامِ ، وألبسَني العافيةَ في أركاني ، وسترَ عليَّ ما أكرهُ ذكرَهُ أو نشرَهُ ، **فمَنْ أعظمُ نعمةً ممَّن أمسىٰ في مثلِ ما أنا فيهِ ؟!**

فقلتُ لهُ : إنْ رأيتَ رحمَكَ اللهُ أنْ تقومَ معيَ إلى المنزلِ ؛ فإنَّا نُزُولٌ على النهرِ ها هنا ، قالَ ولِمَ ؟ قلتُ لتصيبَ مِنَ الطعامِ ، ونعطيَكَ ما يغنيك عن لبسِ الحصيرِ ، قالَ : ما لي فيهِ مِنْ حاجةٍ ، فراودتُهُ علىٰ أنْ يتبعَني فأبىٰ ، فانصرفتُ وقد تقاصرَتْ نفسي ومقتُّها ؛ إذْ لم أخلِّفْ رجلاً بدمشقَ يكاثرُني في غنىً ، وأنا ألتمسُ الزيادةَ ، فقلتُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أتوبُ إليكَ مِنْ سوءِ ما أنا فيهِ .

فبتُّ لا يعلمُ أعواني ما أجمعتُ عليهِ ، فلمَّا كانَ بالسحرِ رحلوا كنحوِ رحلتِهم فيما مضىٰ ، وقدَّموا إليَّ دابَّتي ، فصرفتُها إلىٰ دمشقَ ، فقلتُ ما أنا بصادقٍ في التوبةِ إنْ مضيتُ إلىٰ متجري ، فسألَني القومُ ، فأخبرتُهم ، وعاتبوني على المضيِّ فأبيتُ .

فلمَّا قدمَ دمشقَ وضعَ يدَهُ يتصدَّقُ بمالِهِ ، فما زالَ يفرِّقُهُ في سبيلِ الخيراتِ حتى احتُضرَ ، فما وجدوا عندَهُ إلا قدرَ ثمنِ الكفنِ .

زادَ غيرُ أبي إبراهيمَ : وكانَ يقولُ ـ يعني أبا عبدِ ربِّهِ المذكورَ ـ : واللهِ ؛ لو أنَّ نهرَكم ـ يعني نهرَ دمشقَ ـ سالَ ذهباً . ما خرجتُ إليهِ ، ولا أخذتُ شيئاً منهُ ، ولو قيلَ لي : مَنْ مسَّ هـٰذا العمودَ ماتَ . . **لقمتُ إليهِ وعانقتُهُ ؛ شوقاً إلى اللهِ ورسولِهِ**[1] .

* * *

(١) أصل القصة رواها أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٦٠) .

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المئتين (*)

لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ

درءُ المفاسدِ أهمُّ عندَ العقلاءِ مِنْ جلبِ المصالحِ ، فمَنْ زوى اللهُ تعالىٰ عنهُ فضولَ الدنيا ، ورضيَ بذلكَ ، وقنعَ منها باليسيرِ ، ولم يتطلَّعْ إلىٰ زيادةٍ مِنْ مالٍ أو جاهٍ . . فهو كاملُ العقلِ ، حسنُ النظرِ لنفسِهِ ؛ لأنَّهُ دفعَ عن نفسِهِ مفسدةَ وجودِ الحزنِ ، بتركِهِ لما يفيدُ حصولَ مصلحةِ الفرحِ الذي يزولُ عن قربٍ ، واعتاضَ مِنْ ذلكَ الراحةَ الدائمةَ ؛ كما قيلَ(1) [من الطويل]

وَمَنْ سَرَّهُ أَلا يَرَىٰ مَا يَسُوءُهُ ... فَلا يَتَّخِذْ شَيْئاً يَخَافُ لَهُ فَقْدَا
فَإِنَّ صَلاحَ ٱلْمَرْءِ يَرْجِعُ كُلُّهُ ... فَسَاداً إِذَا ٱلإِنْسَانُ جَازَ بِهِ ٱلْحَدَّا

وقيلَ لبعضِهِم : لِمَ لا تغتمُّ ؟ فقالَ : لأنِّي لا أقتني ما يغمُّني فقدُهُ(2)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه جعل من سنته في خلقه أنهم إن استكثروا من الدنيا استكثروا من الهموم والغموم ، وبالعكس ، فمن أراد الراحة خفَّف ؛ فقد فاز المخفُّون .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد : ٢٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ بينَ أيديكم عقبةً كؤوداً ، لا ينجو فيها إلا كلُّ مخفٍّ » ، رواه البزار في « مسنده » (٤١١٨) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه

(1) البيتان في « شرح مقامات الحريري » (٢/١٠٨) لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وكذا الثاني عند الوشاء في « الموشىٰ » (ص ٣٣)

(2) أورده العلامة الراغب في « الذريعة » (ص ٢٣٥) .

فالمفروحُ بِهِ هو المحزونُ عليهِ ؛ إنْ قليلاً فقليلٌ ، وإنْ كثيراً فكثيرٌ ؛ كما قيلَ [من الطويل]

عَلَىٰ قَدْرِ مَا أُولِعْتَ بِٱلشَّيْءِ حُزْنُهُ ... وَيَصْعُبُ نَزْعُ ٱلسَّهْمِ مَهْمَا تَمَكَّنَا

ويُحكىٰ أنَّهُ حُمِلَ إلىٰ بعضِ الملوكِ قَدَحٌ مِنْ فيروزجٍ مرصَّعٍ بالجوهرِ ، لم يُرَ لهُ نظيرٌ ، ففرحَ الملكُ بِهِ فرحاً شديداً ، فقالَ لبعضِ الحكماءِ عندَهُ : كيفَ ترىٰ هٰذا ؟ قالَ : أراهُ مصيبةً وفقراً ، قالَ : وكيفَ ذلكَ ؟! قالَ : إنِ انكسرَ كانَتْ مصيبةً لا جبرَ لها ، وإنْ سُرِقَ صرتَ فقيراً إليهِ ، ولم تجدْ مثلَهُ ، وقد كنتَ قبلَ أنْ يُحملَ إليكَ في أمنٍ مِنَ المصيبةِ والفقرِ

فاتفقَ أنَّهُ انكسرَ القَدَحُ يوماً ، فعظمَتْ مصيبةُ الملكِ فيهِ ، وقالَ صدقَ الحكيمُ ؛ ليتَهُ لم يُحملْ إلينا[1]

وأمثالُ هٰذهِ المصيبةِ أو أعظمُ منها نازلٌ بكلِّ مَنْ لهُ علاقةٌ بشيءٍ مِنْ أسبابِ الدنيا ؛ فإنَّها إنْ لم تُؤخذْ منهُ بغصبٍ أو سرقةٍ أو جائحةٍ نازلةٍ . . فلابدَّ أنْ يُؤخذَ هو عنها بالموتِ الهاذمِ للَّذّاتِ ، المنغِّصِ للشهواتِ ، فإنْ كانَ لهُ ألفُ محبوبٍ مثلاً . . نزلَ بهِ عندَ الموتِ ألفُ مصيبةٍ في وقتٍ واحدٍ ؛ لأنَّهُ كانَ يحبُّها كلَّها ، وقد سُلبَتْ منهُ في كرَّةٍ واحدةٍ ، ولذلكَ كانَ الزهدُ في الدنيا مِنْ قضايا العقلِ[2]

---

(١) أورده حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/٢١٨) .

(٢) ومن الحكمة أن يتدرَّج في نفي محبوباته التي لا تنفعه في آخرته ، ولا يعمد إلىٰ قطعها جملة ؛ فإن ذلك ممتنع عادة ، وليأخذ بوصية إمامنا الغزالي ؛ حيث يقول في « ميزان العمل » (ص ٢٨٧) : (إن النزوع عما وقع الإلْفُ به دفعة واحدة . . عسير ، بل ممتنع ، ولذلك يُرقَّى الصبي إلىٰ تعلم الأدب بالترغيب في اللعب بالصولجان والطيور ، ثم يُكفُّ عن اللعب بالترغيب في الثروة والمال ، والتزين بالثياب الجميلة وغيرها ، ثم يرقَّىٰ بعد ذلك بالترغيب في المحمدة والثناء ، ونيل الكرامة والرئاسة ، ثم يرقَّىٰ بالترغيب في سعادة الدار الآخرة ، وتكون الرئاسة آخرَ ما يخرج من رؤوس الصديقين . . .) إلىٰ أن قال : (وبقطع العلائق تنمحي الغموم) .

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (للعقلِ ألفُ اسمٍ ، ولكلِّ اسمٍ منهُ ألفُ اسمٍ ، وأوّلُ كلِّ اسمٍ منهُ تركُ الدنيا)[١]

وقالَ الحسنُ (كيفَ يُسمَّىٰ عاقلاً وهو يمسي ويصبحُ في الدنيا ومباهاةِ أهلِها في المطاعمِ والمشاربِ والملابسِ والمراكبِ ؟! أولـٰئكَ همُ الخاسرونَ ، وأولـٰئكَ همُ الغافلونَ ، وأولـٰئكَ همُ الجاهلونَ)[٢]

وأنشدوا[٣] : [من الخفيف]

أَيُّهَا ٱلْمَرْءُ إِنَّ دُنْيَاكَ بَحْرٌ   طَافِحٌ مَوْجُهُ فَلا تَأْمَنْهَا
وَسَبِيلُ ٱلنَّجَاةِ فِيهَا مُبِينٌ   وَهْوَ أَخْذُ ٱلْكَفَافِ وَٱلْقُوتِ مِنْهَا

وقالَ أبو عليٍّ الثقفيُّ : (أفٍّ مِنْ أشغالِ الدنيا إذا أقبلَتْ ، وأفٍّ مِنْ حسراتِها إذا أدبرَتْ ، والعاقلُ مَنْ لا يركنُ إلىٰ شيءٍ ؛ إذا أقبلَ كانَ شغلاً ، وإذا أدبرَ كانَ حسرةً)[٤] .

وقد قيلَ[٥] : [من الطويل]

وَمَنْ يَحْمَدِ ٱلدُّنْيَا لِشَيْءٍ يَسُرُّهُ   فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا
إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى ٱلْمَرْءِ حَسْرَةً   وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيراً هُمُومُهَا

---

(١) أورده السهروردي في « عوارف المعارف » (١/ ١٢٣) ، وفي (ج) : (منها) بدل (منه) في الموضعين ، والمثبت موافق للأصل المنقول عنه
قال الإمام المحاسبي في « آداب النفوس » (ص ١٠٠) : (وأنفع ما عالج به المؤمن في أمر دينه : قطع حبِّ الدنيا من قلبه ، فإذا فعل ذلك هان عليه ترك الدنيا ، وسهل عليه طلب الآخرة ، ولا يقدر علىٰ قطعه إلا بأداته ، أما إني لا أقول : أداته الفقر وقلة الشيء ، وكثرة الصيام والصلاة والحج والجهاد ، ولـٰكن أصل أداته : الفكر ، وقصر الأمل ، ومراجعة التوبة والطهارة ، وإخراج العز من القلب ، ولزوم التواضع ، وعمارة القلب بالتقوىٰ ، وإدامة الحزن ، وكثرة الهم بما هو وارد عليه).

(٢) أورده البلوي في كتابه « ألف باء » (١/ ٢٠٧)

(٣) البيتان للفقيه محمد بن عبد الله بن أبي ريمين كما في « يتيمة الدهر » (٢/ ٨٢) .

(٤) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٦٥) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٠٠)

(٥) البيتان رواهما الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧٠/ ١٩٧) لسيدنا علي رضي الله عنه ، ورواهما ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٣) في خبر من غير نسبة

وقيلَ لأبي القاسمِ الجنيدِ متىٰ يكونُ الرجلُ موصوفاً بالعقلِ ؟ فقالَ : إذا كانَ للأمورِ مميِّزاً ، ولها متصفِّحاً ، وعمَّا يوجبُهُ عليهِ العقلُ باحثاً ، يلتمسُ بذلكَ طلبَ الذي هو أولىٰ ليعملَ بهِ ، ويؤثِرَهُ عمَّا سواهُ ، فإذا كانَ كذلكَ فمِنْ صفتِهِ ركوبُ الفضلِ في كلِّ أحوالِهِ بعدَ إحكامِ العملِ بما فرضَ اللهُ عليهِ ، وليسَ مِنْ صفةِ العقلاءِ إغفالُ النظرِ لما هو أحقُّ وأولىٰ ، ولا مِنْ صفتِهِمُ الرضا بالنقصِ والتقصيرِ

فمَنْ كانَتْ هـٰذهِ صفتَهُ ، بعدَ إحكامِ ما يجبُ عليهِ مِنْ عملِهِ . . تركَ التشاغلَ بما يزولُ ، وتركَ العملَ بما يفنىٰ وينقضي ؛ وذلكَ صفةُ كلِّ ما حوَتْ عليهِ الدنيا ، وكذلكَ لا يرضىٰ أنْ يشغلَ نفسَهُ بقليلٍ زائلٍ ، ويسيرٍ حائلٍ ، يصدُّهُ التشاغلُ بهِ والعملُ لهُ عن أمورِ الآخرةِ التي يدومُ نعيمُها ونفعُها ، ويتأبَّدُ سرورُها ، ويتصلُ بقاؤُها ، وذلكَ أنَّ الدينَ يدومُ نفعُهُ ، ويبقىٰ على العاملِ لهُ حظُّهُ ، وما سوىٰ ذلكَ زائلٌ متروكٌ ، مفارَقٌ موروثٌ ، يخافُ معَ تركِهِ سوءَ العاقبةِ فيهِ ، ومحاسبةَ اللهِ عليهِ ، وكذلكَ صفةُ العاقلِ ؛ لتصفُّحِهِ الأمورَ بعقلِهِ ، والأخذِ منها بأوفرِهِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر : ١٨] ، بذلكَ وصفَهمُ اللهُ تعالىٰ

وذوو الألبابِ : هم ذوو العقولِ ، وإنَّما وقعَ الثناءُ عليهم بما وصفَهمُ اللهُ بهِ ؛ للأخذِ بأحسنِ الأمورِ عندَ استماعِها ، وأحسنُ الأمورِ هو أفضلُها ، وأبقاها علىٰ أهلِها نفعاً في العاجلِ والآجلِ ، وإلىٰ ذلكَ ندبَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَنْ عقلَ في كتابِهِ . انتهىٰ كلامُ الجنيدِ[1]

وهو في غايةِ الحسنِ ونهايةِ التحقيقِ ، وفيهِ مناسبةٌ لما كنَّا بصددِهِ مِنَ التنبيهِ علىٰ كلامِ المؤلفِ ، فرأيتُ ذكرَهُ ها هنا لائقاً متأكداً ، واللهُ تعالى الموفِّقُ للعملِ بهِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٧٧)

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المئتين (*)

إِنْ أَرَدْتَ أَلا تُعْزَلَ . . فَلا تَتَوَلَّ وِلايَةً لا تَدُومُ لَكَ .

هـٰذهِ مِنْ أمثلةِ ما تقدَّمَ ؛ لأنَّ الولايةَ مآلُها إلى الحزنِ ؛ بسببِ وقوعِ العزلِ عنها ، ومقتضىٰ نظرِ العقلِ تركُ الولايةِ المفروحِ بها ؛ لئلا يقعَ في العزلِ المحزونِ لهُ .

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أن سنة الله تعالىٰ في خلقه ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه ، فجلَّ ذو الجلال والإكرام

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « حقٌّ على اللهِ ألا يرتفعَ شيءٌ مِنَ الدنيا إلا وضعَهُ » ، رواه البخاري (٢٨٧٢) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه

الحكمة الرابعة والخامسة والثلاثون بعد المئتين (*)

إِنْ رَغَّبَتْكَ ٱلْبِدَايَاتُ زَهَّدَتْكَ ٱلنِّهَايَاتُ .

إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ .

بداياتُ الأمورِ وظواهرُها : ترغِّبُ الجاهلَ فيها ، وتدعوهُ إليها ؛ لأنَّها رائقةُ الحسنِ ، مليحةُ الظاهرِ ، فيغترُّ الجاهلُ بذلكَ ، فيقودُهُ إلىٰ ما فيهِ ضررُهُ وهلاكُهُ .

ونهاياتُ الأمورِ وبواطنُها : تزهِّدُ العاقلَ ، وتنهاهُ عنها ؛ لما أشهدَتْهُ مِنْ سماجتِها ، وقبْحِ باطنِها ، فيعتبرُ العاقلُ بذلكَ ، فيهربُ منها ، ويسلمُ مِنْ شرِّها

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (الأكوانُ ظاهرُها غِرَّةٌ ، وباطنُها عِبْرَةٌ)(١)

قالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : صحبَ رجلٌ بعضَ الرهبانِ سبعةَ أيامٍ ليستفيدَ منهُ شيئاً ، فوجدَهُ مشغولاً عنهُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ والفكرِ ، لا يفترُ ، ثم التفتَ في اليومِ السابعِ ،

(*) ترجع هاتان الحكمتان اعتقاداً : إلىٰ أن البقاء للقديم سبحانه ، وما سواه ظلٌّ زائل وعرض حائل ، فحقيقة الحوادث أنها فانية ، فعلى العبد أن يداخلها بصدق ويخارجها بصدق ؛ فإنه تعالىٰ مِنْ عبدِهِ عندَ إخلاصه وحسنِ ظنه به

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس : ٢٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : ٨٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنكم ستحرصونَ على الإمارةِ ، وستكونُ ندامةً يومَ القيامةِ » ، رواه البخاري (٧١٤٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) انظر (ص ٤٣٧) .

فقالَ : يا هـٰذا ؛ قد علمتُ ما تريدُ ؛ **حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، والزهدُ فيها رأسُ كلِّ خيرٍ ، والتوفيقُ نجاحُ كلِّ برٍّ** ؛ فاحذرْ رأسَ كلِّ خطيئةٍ ، وارغبْ في رأسِ كلِّ خيرٍ ، وتضرَّعْ إلىٰ ربِّكَ أنْ يهبَ لكَ نجاحَ كلِّ برٍّ[1]

قالَ : وكيفَ أعرفُ ذلكَ ؟ قالَ : كانَ جدِّي رجلاً مِنَ الحكماءِ ، قد شبَّهَ الدنيا بسبعةِ أشياءَ : شبَّهَها بالماءِ المِلْحِ يغرُّ ولا يُرْوِي ، ويضرُّ ولا ينفعُ ، وبظلِّ الغمامِ يغرُّ ويخذلُ ، وبالبرقِ الخُلَّبِ يغرُّ ولا ينفعُ ، وبسحابِ الصيفِ يغرُّ ولا ينفعُ ، وبزهرِ الربيعِ يغرُّ بنضرتِهِ ثم يصفرُّ فتراهُ هشيماً ، وبأحلامِ النائمِ يرى السرورَ في منامِهِ ، فإذا استيقظَ لم يجدْ في يدِهِ شيئاً إلا الحسرةَ ، وبالعسلِ المشوبِ بالسمِّ الذُّعافِ يغرُّ ويقتلُ[2] ، فتدبَّرْتُ هـٰذهِ الأحرفَ السبعةَ سبعينَ سنةً ، ثم زدتُ فيها حرفاً واحداً ؛ فشبَّهْتُها بالغُولِ التي تتركُ مَنْ أعرضَ عنها ، وتهلكُ مَنْ أجابَها ، فرأيتُ جدِّي في المنامِ ، فقالَ لي : يا بنيَّ ؛ أنتَ منِّي وأنا منكَ

فقلتُ : فبأيِّ شيءٍ يكونُ الزهدُ في الدنيا ؟ قالَ : باليقينِ ، واليقينُ بالصبرِ ، والصبرُ بالعِبَرِ ، والعِبَرُ بالفكرِ ، ثم وقفَ الراهبُ وقالَ : خُذْها ، ولا أراكَ خلفي إلا متجرِّداً بفعلٍ دونَ قولٍ ، فكانَ ذلكَ آخرَ العهدِ بهِ[3]

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ : (لم تزلِ الدنيا مذمومةً في الأممِ السالفةِ عندَ العقلاءِ منهم ، وطالبوها مهانينَ عندَ الحكماءِ الماضينَ ، وما قامَ داعٍ في أمَّةٍ إلا وقد حذَّرَ متابعيهِ الدنيا وجمْعَها والحبَّ لها[4] ، ألا ترىٰ مؤمنَ آلِ فرعونَ كيفَ قالَ : ﴿ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ [غافر ٣٨ـ٣٩] أي : لن تصلَ إلىٰ سبيلِ الرشادِ وفي قلبِكَ محبةٌ للدنيا وطلبٌ لها)[5]

---

(١) كذا في جميع النسخ ، وفي « سراج الملوك » : (تاج) بدل (نجاح) في الموضعين .
(٢) الذُّعاف : القاتل ، ومثله الزعاف بالزاي .
(٣) أورده الطرطوشي في « سراج الملوك » (ص ٨٨)
(٤) في (ج ، د) : (متابعةَ) بدل (متابعيه) ، والمثبت أليق بالسياق
(٥) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ٢٠٩) .

والحكاياتُ والآثارُ في أحوالِ الدنيا وغرورِها وشرورِها.. أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ[1] ، **ولا شيءَ أبينُ في ذلكَ مِنْ قولِ اللهِ تعالىٰ في وصفها** : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد ٢٠]

*

---

(١) قال العلامة الطرطوشي في « سراج الملوك » (ص ٩٠) : (وكان الصدر الأول يسمُّون الدنيا خنزيرة ، ولو وجدوا اسماً أقبح منه لسمَّوها به ، وكانوا يسمونها أمَّ دَفْر ؛ والدَّفْر : النَّتْن) .

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المئتين (*)

إِنَّمَا جَعَلَ هَـٰذِهِ ٱلدارَ مَحَلّاً لِلأَغْيَارِ ، وَمَعْدِناً لِوُجُودِ ٱلأَكْدَارِ ؛ تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا

ورودُ الأغيارِ والأكدارِ الدنيويَّةِ على العبدِ نِعَمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ؛ لأنَّ ذلكَ ـ لا محالةَ ـ يدعوهُ إلى الزهادةِ في الدنيا والتجافي عنها ، ويصرفُ عنهُ وجودَ الغباوةِ والجهالةِ لأجلِ تمسُّكِهِ بالخيالِ ، وما يستضرُّ بهِ في الحالِ والمآلِ ؛ لأنَّ الموجبَ لرغبتِهِ فيها وحرصِهِ علىٰ نيلِها . . إنَّما هو ما يتوهَّمُهُ فيها مِنَ الحصولِ علىٰ منيتِهِ وبغيتِهِ ؛ بقضاءِ غرضِهِ مِنْ شهوتِهِ ونهمتِهِ ، مِنْ غيرِ منكِّدٍ ولا منغِّصٍ

ولو تُصوِّرَ لهُ حصولُهُ علىٰ هـٰذهِ الأشياءِ علىٰ حسَبِ ما يحبُّهُ ويهواهُ . . كانَ ينبغي لهُ أنْ يرغبَ عنها عوضاً عنِ الرغبةِ فيها إنْ كانَ عاقلاً ؛ لأنَّ مآلَ أمرِها إلى الفناءِ والزوالِ ، والانقضاءِ والارتحالِ ؛ وقد قالوا : (شرٌّ لا يدومُ خيرٌ مِنْ خيرٍ لا يدومُ)(١)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن فعلاً من أفعاله عزَّ وجلَّ لا ينفكُّ عن حكمة ، فما ضيَّقَ سبحانه الدنيا علىٰ أوليائه إلا ليفرُّوا إليه ، ويقبلوا بقلوبهم عليه ، ولو كانت لذتها مستمرة لا تنقطع . . لكره العبد الموت الذي فيه لقاء الله ، ومَنْ كره لقاء الله كره الله لقاءه ، وكان ذلك سبباً لشقائه أبد الآباد .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام وقد أثَّر رمال حصيرٍ في جنبه الشريف : « أوَفي شكٍّ أنتَ يا بنَ الخطاب ؟! أولـٰئكَ قوم عجِّلت لهم طيباتهم في الحياةِ الدنيا » يعني : الروم وفارس ، رواه البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

(١) قاله الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٩/١٢٣) ، وعلَّل ذلك بقوله : (لأن الشرَّ الذي =

وقالَ الشاعرُ[1] : [من الوافر]

أَشَدُّ ٱلْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ ٱنْتِقَالا
أَرَى ٱلدُّنْيَا عَلَىٰ مَنْ كَانَ فِيهَا تَدُورُ فَلا تُدِيمُ عَلَيْهِ حَالا

ثم هي مانعةٌ لهُ مِنْ سعادةِ الآخرةِ ، **والقربِ مِنَ اللهِ تعالى الذي هو غايةُ طَلِبَةِ الطالبينَ ، ونهايةُ رغبةِ الراغبينَ** ، فكيفَ وهو معرَّضٌ فيها لأنواعِ المصائبِ والفجائعِ ، ووقوعِ الأغيارِ والأكدارِ ؟! فما مِنْ أحدٍ فيها إلا وهو في كلِّ حالٍ ووقتٍ غرضٌ لأسهمٍ ثلاثةٍ سهمِ نعمةٍ ، وسهمِ بليَّةٍ ، وسهمِ رزيَّةٍ ، فإذا نزلَ بهِ ذلكَ عادَتِ النعمةُ نقمةً ، وانقلبَتِ الحَبْرةُ عَبْرةً[2] ، وصارَتِ الفرحةُ ترحةً ، وهـٰكذا شأنُ الدنيا أبداً ، فلا يفي مرجوُّها بمَخُوفِها ، ولا يقومُ خيرُها بشرِّها

ولقد صدقَ الشاعرُ في قولِهِ[3] : [من البسيط]

إِنَّ ٱللَّيَالِيَ لَمْ تُحْسِنْ إِلَىٰ أَحَدٍ إِلا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْسَانِ

وقيلَ[4] [من الكامل]

مَا قَامَ خَيْرُكَ يَا زَمَانُ بِشَرِّهِ أَوْلَىٰ بِنَا مَا قَلَّ مِنْكَ وَمَا كَفَىٰ
زَمَنٌ إِذَا أَعْطَىٰ ٱسْتَرَدَّ عَطَاءَهُ وَإِذَا ٱسْتَقَامَ بَدَا لَهُ فَتَحَرَّفَا

وقد كتبَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ إلىٰ سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهما (إنَّما مَثَلُ

= لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً ، وقد انقضى الشر ، والخيرَ الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً ، وقد انقضى الخير) .

(١) البيتان للمتنبي كما في « ديوانه » (ص ١٤٠) ضمن قصيدة ، والبيت الثاني عنده :
كذا الدنيا على مَنْ كانَ قبلي صروفٌ لم يَدُمْنَ عليهِ حالا

(٢) الحبرة : النعمة وسعة العيش ، والعبرة : الدمعة ، ومن سجعات « أساس البلاغة » (ح ب ر) : (كل حَبْرةٍ بعدها عَبْرةٌ) .

(٣) البيت لمحمد بن عبيد الله العروضي ضمن قطعة ، رواه الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٣٧٣) في عزاء الفضل بن مروان .

(٤) البيتان للأمير تميم بن المعز العباسي كما في « زهر الآداب » (٢/ ٤٨٣) .

الدنيا كمثلِ حيَّةٍ ؛ ليِّنٌ مسُّها ، قاتلٌ سمُّها ، فأعرضْ عنها وعمَّا يعجبُكَ منها ؛ لقلَّةِ ما يصحبُكَ منها ، ودعْ عنكَ همومَها ؛ لما تيقَّنْتَ مِنْ فراقِها ، وكُنْ أسرَّ ما تكونُ منها أحذرَ ما تكونُ فيها ؛ فإنَّ صاحبَها كلَّما اطمأنَّ فيها إلىٰ سرورٍ أشخصَ منها إلىٰ مكروهٍ)[1]

وقالَ بعضُ البلغاءِ (دارُ الدنيا كأحلامِ المنامِ ، وسرورُها كظلِّ الغمامِ ، وأحداثُها كصوائبِ السهامِ ، وشهواتُها كشربِ السِّمَامِ[2] ، وفتنتُها كالأمواجِ الطوامِّ)

وقالَ أبو العتاهيةِ[3] : [من المتقارب]

هِـيَ ٱلـدَّارُ دَارُ ٱلأَذَىٰ وٱلقَـذَىٰ ... وَدَارُ ٱلْفَنَـــاءِ وَدَارُ ٱلْغِيَـــرْ[4]
وَلَـــوْ نِلْتَهَـــا بِحَـــذَافِيـــرِهَـــا ... لَمُـتَّ وَلَـمْ تَقْـضِ مِنْهَـا ٱلْـوَطَـرْ
أَيَـا مَـنْ يُـؤَمِّـلُ طُـولَ ٱلْبَقَـا ... وَطُـولُ ٱلْخُلُـودِ عَلَيْـهِ ضَـرَرْ
إِذَا مَـا كَبِـرْتَ وَفَـاتَ ٱلشَّبَـابُ ... فَلا خَيْرَ فِي ٱلْعَيْشِ بَعْدَ ٱلْكِبَرْ

وأنشدَ أبو منصورٍ الثعالبيُّ رحمَهُ اللهُ في ذمِّ الدنيا[5] [من الطويل]

تَنَـحَّ عَـنِ ٱلـدُّنْيَـا فَـلا تَخْطُبَنَّهَـا ... وَلا تَخْطُبَـنْ قَتَّـالَـةً مَـنْ تُنَـاكِـحُ
فَلَيْسَ يَفِي مَرْجُوُّهَا بِمَخُوفِهَا ... وَمَكْـرُوهُهَـا إِمَّـا تَـأَمَّلْـتَ رَاجِـحُ
لَقَدْ قَالَ فِيهَا ٱلْوَاصِفُونَ فَأَكْثَرُوا ... وَعِنْدِي لَهَا وَصْفٌ لَعَمْرِيَ صَالِحُ
سُلافٌ قُصَارَاهَا ذُعَافٌ وَمَرْكَبٌ ... شَهِيٌّ إِذَا ٱسْتَلْذَذْتَهُ فَهْوَ جَامِحُ
وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُؤْنِقُ ٱلنَّاسَ حُسْنُهُ ... وَلَـٰكِـنْ لَـهُ أَسْـرَارُ سُـوءٍ قَبَـائِـحُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٦٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٤٢)
(٢) السِّمام : جمع سمٍّ ، وكذا سموم .
(٣) انظر « ديوانه » (ص ١٦١)
(٤) في (ب) : (العِبَرْ) ، وفي « الديوان » : (الغَرَرْ)
(٥) انظر « ديوانه » (ص ٣٩)

فإذا علمَ العبدُ هٰذا كلَّهُ علمَ يقينٍ ، وتمكَّنَ مِنْ قلبِهِ غايةَ التمكينِ . . لم يُتصوَّرْ منهُ معَ ذلكَ وجودُ رغبةٍ ألبتةَ ؛ لأنَّهُ إذْ ذاكَ يجمعُ بينَ خيبتينِ وخسارتينِ ، ويأتيهِ الموتُ وهو صِفْرُ اليدينِ مِنْ منافعِ الدارينِ ، وذلكَ هو الخسرانُ المبينُ

قالَ أبو هاشمٍ الزاهدُ : (إنَّ اللهَ وسمَ الدنيا بالوحشةِ ؛ ليكونَ أُنْسُ المريدينَ بهِ دونَها ، وليقبلَ المطيعونَ إليهِ بالإعراضِ عنها ، وأهلُ المعرفةِ باللهِ مِنَ الدنيا مستوحشونَ ، وإلى الآخرةِ مشتاقونَ)[1]

وقيلَ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلى الدنيا : تضيَّقي وتشدَّدي علىٰ أوليائي ، وترفَّهي وتوسَّعي علىٰ أعدائي ؛ تضيَّقي علىٰ أوليائي حتىٰ لا يتعوَّقوا بكِ عنِّي ، وتوسَّعي علىٰ أعدائي حتىٰ يشتغلوا بكِ عنِّي ، فلا يتفرَّغوا لذكري)[2]

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٢٥) ، وأبو هاشم الزاهد : من أقران أبي عبد الله البراثي ، قال الحافظ الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٣٩٨) : (بلغني أن سفيان الثوري جلس إليه) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٩٣٤٣) من حديث سيدنا قتادة بن النعمان رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المئتين (*)

عَلِمَ أَنَّكَ لا تَقْبَلُ ٱلنُّصْحَ ٱلْمُجَرَّدَ ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وُجُودَ فِرَاقِهَا .

النصحُ المجرَّدُ لا يقبلُهُ إلا مَنْ لم يستحكمْ فيهِ حبُّ العاجلةِ والأُنْسُ بلذَّاتِها الفانيةِ ، وكانَ كريمَ الطبعِ سهلَ القيادِ .

وأمَّا مَنْ رسخَتْ فيهِ تلكَ الخبائثُ ، وتمكَّنَتْ مِنْ باطنِهِ ، وكانَ لئيمَ الطبعِ صعبَ المَقادةِ . . فلا بدَّ مِنْ قصدِ هدايتِهِ وإرشادِهِ مِنْ زيادةٍ على النصحِ والوعظِ ؛ وهو وجودُ ما يقهرُهُ ويجبرُهُ ، وليسَ ذلكَ إلا ما ذكرناهُ .

فاعرفْ قدْرَ النعمةِ عليكَ بذلكَ ، واعملْ بمقتضاها ، وسلِّمْ لربِّكَ في حكمتِهِ وقدرتِهِ ، وحسِّنْ ظنَّكَ بهِ .

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (مَنْ لم يقبلْ على اللهِ بملاطفاتِ الإحسانِ . . قِيدَ إليهِ بسلاسلِ الامتحانِ)(١)

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه قضىٰ بحكمته علىٰ عبيده بالبلايا والرزايا ؛ لكيلا يركنوا إلى الدنيا فيعسرَ عليهم الخروجُ منها ، فيكون ذلك سبباً ـ والعياذ بالله ـ لكراهة لقائه تعالىٰ ، فيشقى العبد شقاء الأبد ، وإلىٰ أن الحكم العقلي لا يغني عن الخطاب الشرعي والحكمة من الفعل التكويني .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أما ترضىٰ أن تكونَ لهمُ الدنيا ولنا الآخرةُ ؟ »، رواه البخاري (٤٩١٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) انظر (ص ٣٦٥) .

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المئتين (*)

ٱلْعِلْمُ ٱلنَّافِعُ : هُوَ ٱلَّذِي يَنْبَسِطُ فِي ٱلصَّدْرِ شُعَاعُهُ ، وَيُكْشَفُ بِهِ عَنِ ٱلْقَلْبِ قِنَاعُهُ(١)

العلمُ النافعُ : هو العلمُ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأسمائِهِ ، والعلمُ بكيفيَّةِ التعبُّدِ لهُ والتأدُّبِ بينَ يديهِ ، فهٰذا هو العلمُ الذي ينبسطُ في الصدرِ شعاعُهُ ، فيتَّسعُ وينشرحُ للإسلامِ ، ويُكشَفُ عنِ القلبِ قناعُهُ ، فتزولُ عنهُ الشكوكُ والأوهامُ .

وفي حكمةِ داودَ عليهِ السلامُ : (العلمُ في الصدرِ كالمصباحِ في البيتِ)(٢)

قالَ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ : (العلمُ النافعُ هو الذي قد تمكَّنَ في الصدرِ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن العلم الحقيقي ما يورث اليقين في النفس ؛ فإذا شاء سبحانه إيمان عبدٍ أو اصطفاءَه وترقيته . . أورثه من ذاك العلم ، فهشَّت له نفسه ، وإلا والعياذ بالله ضرب عليه سرادق الظنون والأوهام ، أو قيده بسلاسل العناد والكبر ، فأكبَّه في النار ، وبه تعلم أن الهدىٰ هدى الله ، وما للعبد غير الكسب .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يسٓ : ٦٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « العلمُ علمانِ : علمٌ في القلبِ ؛ فذاكَ العلمُ النافعُ ، وعلمٌ على اللسانِ ؛ فذلك حجةُ اللهِ علىٰ خلقِهِ » ، رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٦١) عن الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ مرسلاً ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ علماً نافعاً ، وأعوذُ بكَ مِنْ علمٍ لا ينفعُ » ، رواه ابن حبان في « صحيحه » (٨٢) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

(١) كذا في (ج ، هـ) ، وفي سائر النسخ : (ويكشِفُ عن القلبِ قناعَهُ) .

(٢) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٧٩) .

وتصوَّرَ ؛ وذلكَ أنَّ النورَ إذا أشرقَ في الصدرِ تصوَّرَتِ الأمورُ حَسَنُها وسيِّئُها ، ووقعَ بذلكَ ظلٌّ في الصدرِ ، فهو صورةُ الأمورِ ، فيأتي حسنَها ، ويجتنبُ سيِّئَها ، **فذلكَ العلمُ النافعُ** ؛ مِنْ نورِ القلبِ خرجَتْ تلكَ العلائمُ إلى الصدورِ ؛ وهي علاماتُ الهدىٰ

والعلمُ الذي قد تعلَّمَهُ فذلكَ **علمُ اللسانِ** ؛ إنَّما هو شيءٌ قدِ استُودعَ الحفظَ ، والشهوةُ غالبةٌ عليهِ ، قد أحاطَتْ بهِ ، وأذهبَتْ بظلمتِها ضوءَهُ)[1]

وقالَ أبو محمدٍ عبدُ العزيزِ المهدويُّ : (**العلمُ النافعُ** : هو علمُ الوقتِ ، وصفاءِ القلبِ ، والزهدِ في الدنيا ، وما يقرِّبُ مِنَ الجنَّةِ ، وما يباعدُ مِنَ النارِ ، والخوفِ مِنَ اللهِ والرجاءِ فيهِ ، وآفاتِ النفوسِ وطهارتِها ، وهو النورُ المشارُ إليهِ أنَّهُ نورٌ يقذفُهُ اللهُ في قلبِ مَنْ يشاءُ[2] ، دونَ علمِ اللسانِ والمنقولِ والمعقولِ)

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ : (ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ، وإنَّما هو نورٌ يقذفُهُ اللهُ تعالىٰ في القلوبِ) انتهىٰ[3]

وإنَّما منفعةُ العلمِ : أنْ يقرِّبَ العبدَ مِنْ ربِّهِ ، ويبعدَهُ عن رؤيةِ نفسِهِ ، وذلكَ غايةُ سعادتِهِ ، ومنتهىٰ طَلِبَتِهِ وإرادتِهِ

قالَ الجنيدُ : (**العلمُ** : أنْ تعرفَ ربَّكَ ، ولا تعدوَ قدرَكَ) .

وهـٰذهِ عبارةٌ مختصرةٌ وجيزةٌ ، **جمعَ فيها مقصودَ علمِ الصوفيَّةِ** ؛ **وهي معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، وحسنُ الأدبِ بينَ يديهِ** ، وهـٰذهِ هي العلومُ التي ينبغي للإنسانِ أنْ يستغرقَ فيها عمرَهُ الطويلَ ، ولا يقنعَ منها بكثيرٍ ولا قليلٍ

---

(١) قاله في « نوادر الأصول » (٥/٢٧) عند الحديث (١١٠١) .

(٢) رواه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٣٨٥٣) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣١٩) ، وقد يكون قوله : (انتهىٰ) يعود علىٰ كلام العارف بالله المهدوي

وقالَ سيدي أبو الحسنِ الشاذليُّ : (مَنْ لم يتغلغلْ في هٰذهِ العلومِ ـ يعني : علومَ الصوفيَّةِ ـ ماتَ مُصرّاً على الكبائرِ وهو لا يعلمُ)[١]

وما سوىٰ هٰذهِ العلومِ قد لا يُحتاجُ إليها ، وربَّما أضرَّ بصاحبِهِ مداومتُهُ عليها ، وقدِ استعاذَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الخبرِ المشهورِ عنهُ . . مِنْ علمٍ لا ينفع[٢]

* * *

ثم ذكرَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ عبارةً أخرىٰ في بيانِ العلمِ النافعِ وتعريفِهِ بلازمِهِ ؛ فقالَ

(١) رواه الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٧١) .

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢) من حديث سيدنا زيد بن الأرقم رضي الله عنه .

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المئتين (*)

خَيْرُ عِلْمٍ مَا كَانَتِ ٱلْخَشْيَةُ مَعَهُ(١)

خيرُ العلومِ ما يلزمُ مِنْ وجودِهِ الخشيةُ للهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ أثنىٰ على العلماءِ بذلكَ فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، فكلُّ علمٍ لا خشيةَ معَهُ فلا خيرَ فيهِ ، بل لا يُسمَّىٰ صاحبُهُ عالماً على الحقيقةِ

قالَ الربيعُ بنُ أنسٍ رحمَهُ اللهُ في قولِهِ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، قالَ : مَنْ لم يخشَ اللهَ فليسَ بعالمٍ ؛ ألا ترىٰ أنَّ داودَ عليهِ السلامُ قالَ ذلكَ بأنَّكَ جعلتَ العلمَ خشيتَكَ ، والحكمةَ الإيمانَ بكَ ، فما علمُ مَنْ لمْ يخشَكَ ؟! وما حكمةُ مَنْ لم يؤمنْ بكَ ؟!(٢)

قالَ في « لطائفِ المننِ » (فشاهدُ العلمِ الذي هو مطلوبُ اللهِ : الخشيةُ للهِ ، وشاهدُ الخشيةِ موافقةُ الأمرِ ، أمَّا علمٌ يكونُ معَهُ الرغبةُ في الدنيا ، والتملُّقُ

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه جعل خشيته في قلوب عباده لازمة عن وجود العلم بأفعاله وصفاته ، فبين العلم والخشية ارتباط عادي قد يتخلَّف لأمر يعلمه الله ، فيوجد العلم ولا توجد الخشية ، غير أن هٰذا العلم لا يكون نافعاً للعبد ، بل حجة عليه

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر ٢١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ أتقاكم وأعلمَكم باللهِ أنا » ، رواه البخاري (٢٠) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها

(١) في (هـ) وحدها من النسخ المعتمدة : (العلمِ) بدل (علمٍ)

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٨٤) ، توفي الربيع بن أنس البكري البصري الخراساني في خلافة المنصور ، وانظر « تهذيب الكمال » (٩/ ٦٠) .

لأربابِها ، وصرْفُ الهمَّةِ لاكتسابِها ، والجمعُ والادِّخارُ ، والمباهاةُ والاستكثارُ ، وطولُ الأملِ ونسيانُ الآخرةِ . . فما أبعدَ مَنْ هـٰذا العلمُ علمُهُ أنْ يكونَ مِنْ ورثةِ الأنبياءِ ! وهل ينتقلُ الشيءُ الموروثُ إلى الوارثِ إلا بالصفةِ التي كانَ بها عندَ الموروثِ عنهُ ؟!

ومثلُ مَنْ هـٰذهِ الأوصافُ أوصافُهُ مِنَ العلماءِ كمثلِ الشمعةِ ؛ تضيءُ على غيرِها وهي تحرقُ نفسَها ، جعلَ اللهُ العلمَ الذي علمَهُ مَنْ هـٰذا وصفُهُ حُجَّةً عليهِ ، وسبباً في تكثيرِ العقوبةِ لديهِ)[١]

وكانَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ يقولُ : (لا تقطعوا أمراً مِنْ أمورِ الدينِ والدنيا إلا بمشورةِ العلماءِ . . تحمدوا العاقبةَ عندَ اللهِ تعالىٰ ، قيلَ : يا أبا محمدٍ ؛ مَنِ العلماءُ ؟ قالَ : الذينَ يؤثرونَ الآخرةَ على الدنيا ، ويؤثرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ على أنفسِهم)[٢]

وقد قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ في وصيتِهِ : (وشاورْ في أمرِكَ الذينَ يخشونَ اللهَ تعالىٰ)[٣]

وقالَ الواسطيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أرحمُ الناسِ العلماءُ ؛ لخشيتِهم مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإشفاقِهم ممَّا علَّمَهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ)[٤]

وقالَ في « التنويرِ » في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ : « طَالِبُ ٱلْعِلْمِ تَكَفَّلَ ٱللهُ بِرِزْقِهِ »[٥] : (اعلمْ : أنَّ العلمَ حيثُما تكرَّرَ في الكتابِ العزيزِ أو في السنةِ إنَّما المرادُ بِهِ العلمُ النافعُ الذي تقارنُهُ الخشيةُ ، وتكتنفُهُ المخافةُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، فبيَّنَ أنَّ الخشيةَ تلازمُ العلمَ ، وفُهِمَ مِنْ هـٰذا أنَّ

---

(١) لطائف المنن (ص ٣٥) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٩٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٩٩) ، والخطابي في « العزلة » (ص ٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٦٨) .

(٤) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٦٠) .

(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣٩١) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/ ٣٩٨) من حديث سيدنا زياد بن الحارث الصُّدَائي رضي الله عنه ، وصُدَاء : حي من اليمن .

العلماءَ إنَّما هم أهلُ الخشيةِ ، وكذلكَ قولُهُ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [القصص : ٨٠] ، ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ٧] ، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ ٱلْعِلْمِ »[١] ، وقولُهُ : « ٱلْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ »[٢]

وقولُهُ ها هنا : « طَالِبُ ٱلْعِلْمِ تَكَفَّلَ ٱللهُ بِرِزْقِهِ » إنَّما المرادُ بالعلمِ في هٰذهِ المواطنِ : العلمُ النافعُ ، القاهرُ للهوى القامعُ[٣] ، وذلكَ متعيِّنٌ بالضرورةِ ؛ لأنَّ كلامَ اللهِ تعالىٰ وكلامَ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أجلُّ مِنْ أنْ يُحملَ علىٰ غيرِ هٰذا ، وقد بيَّنَّا ذلكَ في غيرِ هٰذا الكتابِ[٤]

والعلمُ النافعُ هو الذي يُستعانُ بهِ علىٰ طاعةِ اللهِ ، ويُلزِمُكَ المخافةَ مِنَ اللهِ ، والوقوفَ علىٰ حدودِ اللهِ ؛ وهو علمُ المعرفةِ باللهِ ، ويشملُ العلمُ النافعُ العلمَ باللهِ ، والعلمَ بما أمرَ اللهُ بهِ إذا كانَ تعلُّمُهُ للهِ تعالى) انتهىٰ[٥]

وقد تقدَّمَ المعيارُ الصادقُ علىٰ صحَّةِ دعوى التعلُّمِ والتعليمِ للهِ عندَ قولِهِ (إذا التبسَ عليكَ أمرانِ . . .)[٦]

وقالَ الشيخُ أبو عبدِ الرحمـٰنِ السلميُّ (كلُّ علمٍ لا يورثُ صاحبَهُ الخشيةَ والتواضعَ ، والنصيحةَ للخلْقِ والشفقةَ عليهم ، ولا يحملُهُ علىٰ حسْنِ معاملةِ اللهِ ودوامِ مراقبتِهِ ، وطلبِ الحلالِ ، وحفظِ الجوارحِ[٧] ، وأداءِ الأمانةِ ، ومخالفةِ

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه

(٢) هو قطعة من الحديث السابق

(٣) في (ب ، هـ) زيادة دون سائر النسخ : (للنفس) ، وليست في الأصل المنقول عنه .

(٤) كما تقدم النقل عنه من « لطائف المنن » (ص ٣٥) ، وانظر (ص ٨٣٣) .

(٥) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٢٨١)

(٦) انظر (ص ٧٤٣) ، والمعيار : ما يعادَلُ به في الوزن (وحدة الوزن) .

(٧) في (ج) : (الجوار) بدل (الجوارح) .

النفسِ ، ومباينةِ الشهواتِ . . فذلكَ العلمُ الذي لا ينفعُ ، وهو الذي استعاذَ منهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ « أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ »(١) ، ووصفَ اللهُ تعالى العلماءَ بالخشيةِ فقالَ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨](٢)

وقالَ رجلٌ للشعبيِّ : أيُّها العالمُ ؛ فقالَ : اسكتْ ؛ العالمُ مَنْ يخشى اللهَ تعالىٰ(٣)

وقالَ بعضُ السلفِ : مَنِ ازدادَ علماً فليزددْ وجعاً(٤)

وقالَ رجلٌ للجنيدِ : أيُّ العلمِ أنفعُ ؟ قالَ : ما دلَّكَ على اللهِ ، وبعَّدَكَ عن نفسِكَ .

قالَ والعلمُ النافعُ : ما يدلُّ صاحبَهُ على التواضعِ ، ودوامِ المجاهدةِ ، ورعايةِ السرِّ ، ومراقبةِ الظاهرِ ، والخوفِ مِنَ اللهِ ، والإعراضِ عنِ الدنيا وعن طالبيها ، والتقلُّلِ منها ، ومجانبةِ أبوابِ أربابِها ، وتركِ ما فيها علىٰ مَنْ فيها مِنْ أهلِها ، والنصيحةِ للخلْقِ وحسْنِ الخُلُقِ معَهم ، ومجالسةِ الفقراءِ ، وتعظيمِ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ، والإقبالِ علىٰ ما يعنيهِ ؛ فإنَّ العالمَ إذا أحبَّ الدنيا وأهلَها ، وجمعَ منها فوقَ الكفايةِ . . يغفلُ عنِ الآخرةِ وعن طاعةِ اللهِ بقدْرِ ذلكَ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] ، وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ ، أَلا فَآثِرُوا مَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ مَا يَفْنَىٰ »(٥)

---

(١) تقدم (ص ٨٣٥)

(٢) بعض معنىٰ ما هنا ذكره في « عيوب النفس » (ص ١٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣١١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٣) عن سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ ، وفي (أ ، ب) : (خشوعاً) بدل (وجعاً) ، وفي (ج) : (وجلاً) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٤١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٠٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه
ووقع هنا في (هـ) زيادة انفردت بها ؛ وهي : (قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ : يريد : أي يخافني مِنْ خلقي مَنْ علم جبروتي وعزّي وسلطاني ، وقال مسروق : كفىٰ بخشية الله علماً ، وكفىٰ بالاغترار بالله جهلاً ، وقال البغوي في =

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : العالمُ طبيبُ الدينِ ، والدنيا داءُ الدينِ[1] ، فإذا كانَ الطبيبُ يجرُّ الداءَ إلىٰ نفسِهِ . . فمتىٰ يبرئُ غيرَهُ ؟![2]

فإذا وفَّقَ اللهُ العالمَ مِنَ العلماءِ للإقبالِ على اللهِ وعلىٰ أوامرِهِ ، والإعراضِ عنِ الدنيا وما فيها ومَنْ فيها . . فأوَّلُ ما يلزمُهُ : أنْ يعرفَ نِعَمَ اللهِ عليهِ في ذلكَ ، ويقومَ بواجبِ الشكرِ ، ويزيدَ تواضعاً للهِ واجتهاداً ، ويعلمَ أنَّهُ محمولٌ علىٰ ذلكَ ، وأنَّ ذلكَ بتوفيقٍ مِنَ اللهِ ، لا بمجاهدةٍ منهُ ؛ فإنَّ مجاهدتَهُ أيضاً ومعرفتَهُ لنعمِ اللهِ عليه بزيادةِ توفيقِ اللهِ .

فإذا كانَ العالمُ بهٰذا المحلِّ مِنَ الدينِ . . كانَ إماماً يُقتدىٰ بهِ في أحكامِ الظاهرِ وأحوالِ الباطنِ ، يهتدي بنورِهِ كلُّ مَنْ صحبَهُ ، ويستضيءُ بعلمِهِ كلُّ مَنِ اتبعَهُ ، ويكونُ حجَّةَ اللهِ علىٰ عبادِهِ ، وبركةً في بلادِهِ .

ومَنْ قادَهُ علمُهُ إلىٰ طلبِ الدنيا ، وطلبِ العلوِّ فيها ، وطلبِ الرئاسةِ واستتباعِ الخلْقِ . . فهو العلمُ الذي هو غيرُ نافعٍ ، وهو العالمُ المغترُّ ، ولا حسرةَ أعظمُ مِنْ أنْ يهلكَ العالمُ بما يرجو بهِ نجاتَهُ ، ونحنُ نعوذُ باللهِ مِنَ الخذلانِ) انتهىٰ[3]

* * *

ثم عبَّرَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ بعبارةٍ أخرىٰ مِنْ معنىٰ ما تقدَّمَ ؛ فقالَ :

= تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ : يعني : أمر معايشهم ؛ كيف يكتسبون ويتَّجرون ، ومتىٰ يغرسون ويزرعون ، وكيف يبنون ويعيشون ، قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيدرك وزنه ولا يخطئ ، ولا يحسن يصلي ، وهم عن الآخرة هم غافلون ساهون جاهلون ، لا يتفكرون ولا يعملون لها ، قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي : لإقامة الحق ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : لوقت معلوم ، إذا انتهت إليه فنيت ، وهو يوم القيامة ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم : ٨] .

(١) اضطربت هٰذه العبارة في النسخ ، والمثبت أقرب ما يكون لما ثبت روايةً .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٦١) ولٰكن عن سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ ، ولفظه : (العالم طبيب الدين، والدرهم داء الدين، فإذا جذب الطبيب الداء إلىٰ نفسه . . فمتىٰ يداوي غيره ؟!) .

(٣) الظاهر أن النقل بطوله عن الإمام السلمي ، والله أعلم .

الحكمة الأربعون بعد المئتين (*)

ٱلْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ ٱلْخَشْيَةُ فَلَكَ ، وَإِلا فَعَلَيْكَ .

العلمُ الذي تلازمُهُ الخشيةُ . . لكَ ؛ لأنَّكَ تنتفعُ بهِ في دنياكَ وآخرتِكَ ، وليسَ ذلكَ إلا ما ذكرناهُ ، والعلمُ الذي لا خشيةَ فيهِ . . عليكَ ؛ لأنَّكَ تستضرُّ بهِ فيهما

وهـٰذا هو الفرقُ بينَ علماءِ الآخرةِ وعلماءِ الدنيا ؛ مِنْ حيثُ إنَّ علماءَ الآخرةِ موصوفونَ بالخشيةِ والرهبةِ ، وعلماءَ الدنيا موسومونَ بالأمنِ والغِرَّةِ ، وقد بيَّنَ علماؤُنا حالَ الفريقينِ ، وأوضحوا أمرَهم بالنعوتِ والعلاماتِ ، وأطالوا في ذلكَ النَّفَسَ ؛ لما شاهدوا مِنِ انتشارِ الفسادِ في الأرضِ بسببِ جهلِ الناسِ بالعلمِ النافعِ أيُّ شيءٍ هو ، فمَنْ أرادَ الشفاءَ في ذلكَ ، واستيفاءَ الكلامِ عليهِ ، وما في ذلكَ مِنَ الأخبارِ والآثارِ . . فعليهِ بالنظرِ في كتابِ (العلمِ) مِنْ كتابِ « إحياءِ علومِ الدينِ » لأبي حامدٍ الغزاليِّ رضيَ اللهُ عنهُ ، ولبابُ ذلكَ ما ذكرَهُ المؤلفُ ها هنا

وقد قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (كانَ العلماءُ ربيعَ الناسِ ؛ إذا نظرَ إليهمُ المريضُ لم يسرَّهُ أنْ يكونَ صحيحاً ، وإذا نظرَ إليهمُ الفقيرُ لم يودَّ أنْ يكونَ غنياً ، وقد صاروا

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلى أنه تعالى قضى فقرن السعادة بالعلم النافع ، والشقاوة بالعلم الذي يورث الزهو والكبر .
ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، وقوله تعالى حكاية : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما بالُ أقوامٍ يتنزَّهونَ عنِ الشيءِ أصنعُهُ ؟! فواللهِ ؛ إنِّي لأعلمُهم باللهِ ، وأشدُّهم لهُ خشيةً » ، رواه البخاري (٦١٠١) ، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

اليومَ فتنةً على الناسِ)[1] ، قالَ هـٰذا في زمانِهِ الصالحِ ، فكيفَ لو أدركَ زمانَنا هـٰذا ؟! فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ

واعلمْ أنَّهُ قد وردَ في الكتابِ والسنةِ مِنْ فضلِ العلمِ والعلماءِ ما لا يُحصىٰ كثرةً ، ولا يُرجىٰ حصولُ ذلكَ إلا لمَنْ صحَّتْ نيَّتُهُ ، وصحَّةُ نيَّتِهِ في ذلكَ : أنْ يكونَ غرضُهُ فيهِ طلبَ مرضاةِ اللهِ تعالىٰ ، واستعمالَهُ فيما ينفعُ عندَهُ ، وإيثارَهُ الخروجَ عن ظُلْمةِ الجهلِ إلىٰ نورِ العلمِ ، فهـٰذهِ هي النيَّةُ الصحيحةُ التي تُحمدُ عاقبتُها آجلاً ، وتُجنىٰ ثمرتُها في طاعةِ اللهِ عاجلاً

وقد رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُّ يَوْمٍ لا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْماً يُقَرِّبُنِي مِنَ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ . . فَلا بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ »[2]

وقالَ الحسنُ (كانَ الرجلُ إذا طلبَ العلمَ لم يلبثْ أنْ يُرىٰ ذلكَ في تخشُّعِهِ ولباسِهِ وبصرِهِ ولسانِهِ وصلاتِهِ وهديِهِ وزهدِهِ ، وإنْ كانَ الرجلُ ليصيبُ البابَ مِنْ أبوابِ العلمِ ، فيعملُ بهِ ، فيكونُ خيراً لهُ مِنَ الدنيا وما فيها لو كانَتْ لهُ ليضعَها في الآخرةِ ، وليأتيَنَّ على الناسِ زمانٌ يشتبهُ فيهِ الحقُّ والباطلُ ، فإذا كانَ كذلكَ لم ينفعْ إلا دعاءٌ كدعاءِ الغريقِ)[3]

وقالَ سفيانُ الثوريُّ (إنَّما يُتعلَّمُ العلمُ ليُتَّقىٰ بهِ اللهُ ، وإنَّما فُضِّلَ العلمُ علىٰ غيرِهِ لأنَّهُ يُتقى اللهُ بهِ)[4]

---

(١) أورده اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ٩٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٨٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١٩) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩) ، والآجري في « أخلاق العلماء » (ص ٧١) إلىٰ قوله : (في الآخرة) ، وتمامه رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٠٧) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه موقوفاً عليه ، ولفظه : (يأتي عليكم زمان لا ينجو فيه إلا من دعا دعاء الغريق)

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٢) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٥٩)

فإنِ اختلَّ هـٰذا المقصدُ ، وفسدَتْ نيّةُ طالبِهِ ؛ بأنْ يستشعرَ بهِ التوصُّلَ إلىٰ منالٍ دنياويٍّ مِنْ مالٍ أو جاهٍ . . فقد بطلَ أجرُهُ ، وحبطَ عملُهُ ، وخسرَ خسراناً مبيناً ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورىٰ : ٢٠] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما يرويهِ أبو هريرة « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً لا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ ٱللهِ ، لا يَتَعَلَّمُهُ إلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ ٱلدُّنْيَا . لَمْ يَجِدْ عَرْفَ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » يعني : ريحَها[١]

وكانَ الحسنُ يقولُ : (واللهِ ؛ ما طلبَ هـٰذا العلمَ أحدٌ إلا كانَ حظُّهُ منهُ ما أرادَ بهِ)[٢]

وقالَ الحسنُ عقوبةُ العالمِ موتُ القلبِ ، قيلَ لهُ : وما موتُ القلبِ ؟ قالَ : طلبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ[٣]

فإذا انضافَ إلىٰ هـٰذا الغرضِ أنْ يتصدَّىٰ بهِ إلىٰ تولِّي الأعمالِ السلطانيّةِ كائنةً ما كانَتْ ، أو يتوصَّلَ بهِ إلى اكتسابِ مالٍ حرامٍ أو شبهةٍ . . فقد تعرَّضَ لغضبِ اللهِ تعالىٰ وسخطِهِ ، وباءَ بإثمِهِ وآثامِ المقتدينَ بهِ ، وكانَ الجهلُ إذْ ذاكَ خيراً لهُ مِنَ العلمِ وأحمدَ عاقبةً .

وقالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ : روينا عنِ الأوزاعيِّ قالَ : شكتِ النواويسُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ما تجدُ مِنْ نَتْنِ جِيَفِ الكفارِ[٤] ، فأوحى اللهُ إليها : بطونُ علماءِ السوءِ أنتنُ ممَّا أنتم فيهِ[٥]

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٤) ، وفيه : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله . . . »

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥١٤) ، وأحمد في « الزهد » (ص ٢٦٥) .

(٤) **النواويس** : جمع ناووس ؛ مقابر النصارىٰ

(٥) رواه في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٣) .

قالَ ورويْنا عن فضيلِ بنِ عياضٍ وأسدِ بنِ الفراتِ قالا بلغَنا أنَّ الفسقةَ مِنَ العلماءِ ومِنْ حملةِ القرآنِ يُبدأُ بهم يومَ القيامةِ قبلَ عبدةِ الأوثانِ ، قالَ فضيلُ بنُ عياضٍ : لأنَّ مَنْ علمَ ليسَ كمَنْ لم يعلمْ(١)

قلتُ والغالبُ على طلبةِ العلمِ في هـٰذهِ الأعصارِ هـٰذا الوصفُ المذمومُ ؛ لأنَّ حبَّ الدنيا قدِ استولىٰ عليهم واستهواهم ، والحرصَ على التقدُّمِ والترؤُّسِ قد مَلَكَهم فأصمَّهم وأعماهم ، ولذلكَ أماراتٌ وعلاماتٌ لا تحصىٰ ولا تخفىٰ

وفي الحديثِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « يَخْرُجُ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ ٱلدُّنْيَا بِٱلدِّينِ ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ ٱلضَّأْنِ مِنَ ٱللِّينِ ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَىٰ مِنَ ٱلْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ ٱلذِّئَابِ ، يَقُولُ ٱللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَبِي يَغْتَرُّونَ ؟! أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ ؟! فَبِي حَلَفْتُ ؛ لَأَبْعَثَنَّ عَلَىٰ أُولَـٰئِكَ فِتْنَةً تَدَعُ ٱلْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانَ » ، رواهُ عنهُ أبو هريرةَ(٢)

وروىٰ أبو الدرداءِ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « أَنْزَلَ ٱللهُ تَعَالَىٰ فِي بَعْضِ ٱلْكُتُبِ ، أَوْ أَوْحَى ٱللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قُلْ لِلَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ ٱلدِّينِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ ٱلْعَمَلِ ، وَيَطْلُبُونَ ٱلدُّنْيَا بِعَمَلِ ٱلْآخِرَةِ ، وَيَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ ٱلْكِبَاشِ وَقُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِ ٱلذِّئَابِ ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَىٰ مِنَ ٱلْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ ٱلصَّبِرِ إِيَّايَ يُخَادِعُونَ ، وَبِي يَسْتَهْزِئُونَ ؟! لَأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ ٱلْحَلِيمَ فِيهِمْ حَيْرَانَ »(٣)

وفي بعضِ الأخبارِ المرويَّةِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَأْتِي عَلَى

---

(١) رواه في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٤) ، وهو ما رجَّزه ابن رسلان بقوله :

وعالـمٌ بعلمِـهِ لـم يعمـلَـنْ معـذَّبٌ مِـنْ قبـلِ عُبَّـادِ الـوثـنْ

(٢) رواه الترمذي (٢٤٠٤) ، والختل : الخداع والمراوغة ، والمعنىٰ : يطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، و(أم) للإضراب الانتقالي ، فهي منقطعة ؛ إذ الاجتراء على الله تعالىٰ أعظم من الاغترار به ، وانظر « شرح المشكاة » للطيبي (١١/ ٣٣٧٣) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٣٩)

ٱلنَّاسِ زَمَانٌ لا يَبْقَىٰ مِنَ ٱلْقُرْآنِ إلا رَسْمُهُ ، وَلا مِنَ ٱلإِسْلامِ إلا ٱسْمُهُ ، قُلُوبُهُمْ خَرِبَةٌ مِنَ ٱلْهُدَىٰ ، وَمَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ مِنْ أَبْدَانِهِمْ ، شَرُّ مَنْ تُظِلُّ ٱلسَّمَاءُ يَوْمَئِذٍ عُلَمَاؤُهُمْ ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ ٱلْفِتْنَةُ ، وَإِلَيْهِمْ تَعُودُ »(١)

واعلمْ : أنَّ العلمَ النافعَ المتَّفقَ عليهِ فيما سلفَ وخلفَ إنَّما هو العلمُ الذي يؤدِّي صاحبَهُ إلى الخوفِ والخشيةِ ، وملازمةِ التواضعِ والذلَّةِ ، والتخلُّقِ بأخلاقِ الإيمانِ ، وتوافقِ الإسرارِ والإعلانِ ، إلىٰ ما يتبعُ ذلكَ مِنْ بغضِ الدنيا والزهادةِ فيها ، وإيثارِ الآخرةِ عليها ، والموالاةِ في اللهِ والمعاداةِ فيهِ ، والحرصِ على التفطُّنِ للأسبابِ الباعثةِ لهُ على الاستقامةِ ، ولزومِ الأدبِ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، فيراعيها حفظاً وطلباً ، ومعرفةِ الأسبابِ الصادَّةِ لهُ عن ذلكَ ، فيرفضُها رفضاً وهرباً ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الصفاتِ العليَّةِ ، والمناحي السنيَّةِ

فبهٰذا كلِّهِ يحصلُ لهُ فوائدُ العلمِ وثمراتُهُ الدنيويَّةُ والأخرويَّةُ ، فإنْ خلا طالبُ العلمِ عنها أو عن بعضِها ؛ فإنْ كانَ ما يطلبُهُ علماً حقيقيّاً كانَ حجَّةً عليهِ ، وإنْ كانَ رسميّاً كانَ وبالاً واصلاً إليهِ ، والعياذُ باللهِ مِنْ ذلكَ

قالَ في « لطائفِ المننِ » وربَّما غرَّ الغافلَ مِنْ طلبةِ العلمِ قولُ مَنْ قالَ « طلبنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبىٰ أنْ يكونَ إلا للهِ »(٢) ، وليسَ في قولِ هٰذا القائلِ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣٧٨/٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٧٦٣) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٧٦ـ ١٣٧٩) عن معمر بن راشد ، وأوردها الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/ ٣٠١) عن سفيان الثوري ، وفسَّر هٰذه العبارة في « ميزان العمل » (ص ٢٣٠) عن بعض المحققين بقوله : (إن العلم امتنع وأبىٰ فلم يحصل ، وما حصل كان حديثاً ، ولم يكن علماً تحقيقاً) ، وقال أيضاً : (فإن قلت : فكم من طالبِ رديءِ الأخلاق حصَّل العلوم !
فما أبعدك عن فهم العلم الحقيقي الديني الجالب للسعادة ! فما يحصِّله صاحب الأخلاق الرديئة حديثٌ ينظمه بلسانه مرَّة ، وفي قلبه أخرىٰ ، وكلام يردِّدُه ، ولو ظهر نور العلم علىٰ قلبه لحسنَتْ=

ما يستروحُ إليهِ مَنْ طلبَ العلمَ للرئاسةِ والمنافسةِ ، وإنَّما أخبرَ هٰذا القائلُ عن أمرٍ مُنَّ بهِ عليهِ ، وفتنةٍ سلَّمَهُ اللهُ منها ، لا يلزمُ أنْ يُقاسَ عليهِ فيها غيرُهُ ، وذلكَ بمنزلةِ مَنْ بهِ مرضٌ مزمنٌ في المِعَىٰ أعيا علاجُهُ الأطباءَ ، وضاقَ عليهِ خلقُهُ ، فأخذَ خنجراً وضربَ بهِ مَراقَّ بطنِهِ ليقتلَ نفسَهُ[١] ، فصادفَ ذلكَ المِعَىٰ ، فقطعَهُ ، فخرجَ الداءُ منهُ ، **فهٰذا لا يستصوبُ العقلاءُ فعلَهُ وإنْ نجحَتْ عاقبتُهُ** ، وليسَتْ سلامةُ العواقبِ رافعةً للعتبِ عنِ الملقينَ أنفسَهم إلى التهلكةِ

لَيْسَ ٱلْمُخَاطِرُ مَحْمُوداً وَلَوْ سَلِمَا[٢]

وقالَ في موضعٍ آخرَ : (ولا يغرَّنَّكَ أنْ يكونَ بهِ انتفاعٌ للبادي والحاضرِ ؛ فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ لَيُؤَيِّدُ هَٰذَا ٱلدِّينَ بِٱلرَّجُلِ ٱلْفَاجِرِ »[٣] ، ومَثَلُ مَنْ تعلَّمَ العلمَ لاكتسابِ الدنيا ، وتحصيلِ الرفعةِ فيها . . **كمثلِ مَنْ رفعَ العَذِرةَ بملعقةٍ مِنَ الياقوتِ ، فما أشرفَ الوسيلةَ** ! وما أخسَّ المتوسَّلَ إليهِ ! ومَثَلُ مَنْ قطعَ الأوقاتَ في طلبِ العلمِ ، فمكثَ أربعينَ سنةً أو خمسينَ سنةً يتعلَّمُ العلمَ ولا يعملُ بهِ . . **كمثلِ مَنْ قعدَ هٰذهِ المدَّةَ يتطهَّرُ ويجدِّدُ الطهارةَ ، فلم يصلِّ صلاةً واحدةً** ؛ إذْ مقصودُ العلمِ العملُ ، كما أنَّ المقصودَ بالطهارةِ وجودُ الصلاةِ .

ولقد سألَ رجلٌ الحسنَ البصريَّ عن مسألةٍ ، فأفتاهُ فيها ، فقالَ الرجلُ للحسنِ : قد خالفَكَ الفقهاءُ ، فزجرَهُ الحسنُ وقالَ[٤] : ويحكَ ! وهل رأيتَ فقيهاً ؟! إنَّما

= أخلاقه ؛ فإن أقلَّ درجات العلم : أن يعرف أن المعاصي سموم مهلكة مبطلة للحياة الأبدية ؛ فإن منشأها الصفات الردية ، وهل رأيت من عرف السم فتناوله ؟!)

(١) مراقُّ البطن : ما رقَّ منه ولانَ ؛ وذاك أسفل البطن عند الصفاق

(٢) لطائف المنن (ص ٥٩) ، وشطر البيت من البسيط .

(٣) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، قاله صلى الله عليه وسلم في رجل يدَّعي الإسلام ، فقاتل في غزوة خيبر أشد القتال ، فلما اشتدَّت عليه الجراحات قتلَ نفسه ، واسمه : قزمان الظفري .

(٤) في (أ ، ب ، د) : (فزبره) بدل (فزجره) ، ولكل توجيه .

الفقيهُ الذي فقهَ عنِ اللهِ أمرَهُ ونهيَهُ[١]

قالَ : وسمعتُ شيخَنا أبا العباسِ يقولُ الفقيهُ : مَنِ انفقأَ الحجابُ عن عينِ قلبِهِ) انتهى[٢]

والرجلُ الذي سألَ الحسنَ البصريَّ هو فرقدٌ السَّبَخِيُّ ، واللهُ أعلمُ ، وقد رُوِيَ عنهُ في صفةِ الفقهاءِ كلامٌ أتمُّ ممَّا ذكرَهُ صاحبُ كتابِ « لطائفِ المننِ »

قالَ فرقدٌ السَّبَخِيُّ سألتُ الحسنَ عن مسألةٍ ، فأجابَني عنها ، فقلتُ لهُ : إنَّ الفقهاءَ يخالفونَكَ ، فقالَ لي : ثكلَتْكَ أمُّكَ فُرَيْقِدُ ! وهل رأيتَ فقيهاً بعينِكَ ؟! إنَّما الفقيهُ : الزاهدُ في الدنيا ، الراغبُ في الآخرةِ ، البصيرُ بدينِهِ ، المداومُ علىٰ عبادةِ ربِّهِ ، الوَرِعُ الكافُّ نفسَهُ عن أعراضِ المسلمينَ ، العفيفُ عن أموالِهِمْ ، الناصحُ لجماعتِهِمْ ، المجتهدُ في العبادةِ ، المقيمُ علىٰ سنَّةِ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، الذي لا ينبذُ مَنْ هو فوقَهُ ، ولا يسخرُ ممَّنْ هو دونَهُ ، ولا يأخذُ علىٰ علمٍ علَّمَهُ اللهُ لهُ حُطاماً[٣] .

قلتُ وعلى المعلِّمِ أنْ يتفقَّدَ أحوالَ مَنْ يتعلَّمُ منهُ ، فلا يبذلَ علمَهُ إلا لمَنْ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨/٢) (٣٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٤٧)

(٢) لطائف المنن (ص ٣٥ـ٣٦) .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٤٢٦) ، وقال : (جمعنا قوله هـٰذا في ثلاث روايات عنه مختلفة) ، وانظر « إحياء علوم الدين » (١/ ١٢٣) .

فائدة : في أن أول من فتق لسان التصوف على النور القرآني والهدي النبوي . . هو الإمام الحسن البصري : قال الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٤١٦) : (والحسن رحمه الله هو إمامنا في هـٰذا العلم الذي نتكلم به ، أثره نقفو ، وسبيله نتبع ، ومن مشكاته نستضيء ، أخذنا ذلك بإذن الله تعالىٰ إماماً عن إمام إلىٰ أن ينتهي ذلك إليه) .

وقال (١/ ٤١٧) : (وكان الحسن رضي الله عنه أول من أنهج سبيل هـٰذا العلم ، وفتق الألسنة به ، ونطق بمعانيه ، وأظهر أنواره ، وكشف به قناعه ، كان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من إخوانه ، فقيل له : يا أبا سعيد ؛ إنك تتكلم في هـٰذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك ، فممن أخذت هـٰذا ؟ فقال : من حذيفة بن اليمان) .

يتوسَّمُ فيهِ الخيرَ والصلاحَ ؛ إذْ بذلكَ يستقيمُ لهُ النيَّاتُ والمقاصدُ التي ذكرناها ، ولا يبذلَهُ لمَنْ سوىٰ هـٰذا ؛ ممَّنْ علمَ حالَهُ أو جهلَهُ .

قالَ رجلٌ لسفيانَ الثوريِّ لو أنَّكَ نشرتَ ما معَكَ مِنَ العلمِ رجوتُ أنْ ينفعَ اللهُ بهِ بعضَ عبادِهِ ، وتُؤجرَ علىٰ ذلكَ .

فقالَ سفيانُ : واللهِ ؛ لو أعلمُ بالذي يطلبُ هـٰذا العلمَ لا يريدُ بهِ إلا ما عندَ اللهِ . لكنتُ أنا الذي آتيهِ في منزلِهِ ، فأحدثُهُ بما عندي ممَّا أرجو أنْ ينفعَهُ اللهُ بهِ(١)

وقد سُئِلَ بعضُ العلماءِ عن شيءٍ ، فلم يجبْ ، فقالَ لهُ السائلُ أما سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ « مَنْ كَتَمَ عِلْماً نَافِعاً جَاءَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مُلْجَماً بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ »(٢) ؟! فقالَ لهُ : اتركِ اللجامَ واذهبْ ، فإنْ جاءَ مَنْ يستحقُّهُ وكتمتُهُ فليلجمْني بهِ(٣)

وفي قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء : ٥] تنبيهٌ علىٰ أنَّ حفظَ العلمِ ممَّنْ يفسدُهُ ويستضرُّ بهِ أولىٰ(٤) ؛ كما قيلَ(٥) [من الطويل]

وَمَـنْ مَنَـحَ ٱلْجُهَّـالَ عِلْمـاً أَضَـاعَـهُ ... وَمَـنْ مَنَـعَ ٱلْمُسْتَـوْجِبِيـنَ فَقَـدْ ظَلَـمْ

وقد حُكِيَ عن بعضِ الأممِ السالفةِ أنَّهم كانوا يَخْبُرُونَ المتعلِّمَ مدَّةً في أخلاقِهِ(٦) ، فإنْ وجدوا فيهِ خُلُقاً رديئاً منعوهُ التعلُّمَ أشدَّ المنعِ ، وقالوا : إنَّهُ يستعينُ بالعلمِ علىٰ مقتضى الخُلُقِ الرديءِ ، فيصيرُ العلمُ آلةَ شرٍّ في حقِّهِ(٧)

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٩)

(٢) رواه أبو داود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٦٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أورده الراغب في « الذريعة » (ص ١٨١) .

(٤) قاله الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ٢١٤) .

(٥) بيت ذائعٌ للإمام الشافعي ، رواه عنه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٧٢) .

(٦) يخبرون : يمتحنون ويبلون .

(٧) حكاه الإمام الغزالي في « ميزان العمل » (ص ٢٦١)

وقد قالَتِ الحكماءُ : زيادةُ العلمِ في الرجلِ السَّوءِ كزيادةِ الماءِ في أصولِ الحنظلِ ؛ كلَّما ازدادَ رِيّاً ازدادَ مرارةً .

وهٰذا كلُّهُ صحيحٌ مجرَّبٌ ، فينبغي إذاً للعالمِ ألا يهملَهُ ، بل يراعيهِ ويمتثلُهُ ، ولا اعتبارَ بما يتوهَّمُهُ في تعليمِهم مِنْ وجودِ المصالحِ علىٰ تقديرِ حصولِ توفيقِ اللهِ تعالىٰ لهم لأنْ يعملوا ببعضِ ما يتعلَّمونَهُ مِنَ العلمِ الصحيحِ إنْ كانَتْ لهم ولايةُ حكمٍ أو غيرُ ذلكَ ؛ فإنَّ المفاسدَ التي تقعُ بسببِ ذلكَ لهم في خاصَّةِ أنفسِهم ، والمفاسدَ التي تتعدَّىٰ منهم إلىٰ غيرِهم. . أكثرُ ، ودرءُ المفاسدِ أهمُّ عندَ العقلاءِ مِنْ جلبِ المصالحِ

أمَّا المفاسدُ التي تختصُّ بهم فهي تقويةُ صفاتِهمُ الذميمةِ وأخلاقِهمُ اللئيمةِ بما يطلبونَهُ مِنَ العلمِ ؛ لأنَّهم يستشعرونَ بذلكَ التوصُّلَ إلىٰ جميعِ مطالبِهمُ الدنيويَّةِ علىٰ غايةِ الكمالِ والتمامِ ، فإذا استشعروا ذلكَ توجَّهوا بهممِهم إليهِ ، وعكفوا بالجدِّ والاجتهادِ عليهِ ، ولولا هٰذا الاستشعارُ لم يُتصوَّرْ منهم ذلكَ ، فإذا حصَّلوا علىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ ، وظهرَتْ لهم مخايلُ وصولِهم إلىٰ أغراضِهمُ المذكورةِ. . فرحوا بذلكَ واغتبطوا بهِ ، وكلَّما ازدادوا علماً ازدادوا فرحاً واغتباطاً بما هم فيهِ ! وهٰذا الفرحُ والاغتباطُ في غايةِ الذمِّ منهم ؛ لأنَّ ذلكَ متعلِّقٌ بأسبابِ الدنيا ، وهي بمنزلةِ السمِّ القاتلِ الذي يوجبُ موتَ قلوبِهم وقسوتَها ، وبُعْدَها عنِ التأثُّرِ بالمواعظِ والحِكَمِ ؛ كما قيلَ[1] : [من البسيط]

إِذَا قَسَا ٱلْقَلْبُ لَمْ تَنْفَعْهُ مَوْعِظَةٌ ... كَٱلأَرْضِ إِنْ سَبِخَتْ لَمْ يَنْفَعِ ٱلْمَطَرُ

وعندَ ذلكَ تنتعشُ نفوسُهم ، وتقوىٰ صفاتُها ، وتظهرُ آثارُ ذلكَ علىٰ ظواهرِهم ؛ مِنَ التكالبِ على الدنيا ، والركونِ إلىٰ مَنْ هي عندَهُ مِنْ أبنائِها المترفينَ ، وليسَ لهم ما يتوسَّلونَ بهِ إليهم سوىٰ علمِهم ، فيحتالونَ علىٰ تحصيلِ إقبالِهم عليهم وصرفِ

---

(١) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٥٢) عن ابن عائشة ، وسَبِخَت ـ من باب تعب ـ الأرضُ فهي سَبْخَةٌ : صارت مِلْحة .

وجوهِهم إليهم والتنقُّقِ عندَهم بأنواعِ الحيلِ ، ولا يسلمونَ في ذلكَ مِنَ الرياءِ والتصنُّعِ والنفاقِ والدِّهانِ ، ويجرُّهم ذلكَ إلىٰ أنواعٍ مِنَ المحظوراتِ وضروبٍ مِنَ العصيانِ ، معَ ما يحلُّ بهم في ذلكَ مِنَ الذلِّ والهوانِ .

فإذا نالوا ذلكَ أو بعضَهُ حصلَ لهم مقصودُ نفوسِهم ، وتمكَّنوا مِنْ جميعِ حظوظِهم ، فخرجوا مِنَ الحريَّةِ إلى استعبادِ الأغيارِ ، واستبدلوا بالجهلِ النافعِ العلمَ الضارَّ .

وقد قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (لو أنَّ أهلَ العلمِ أكرموا أنفسَهم ، وشحُّوا علىٰ دينِهم ، وأعزُّوا العلمَ وصانوهُ ، وأنزلوهُ حيثُ أنزلَهُ اللهُ . . لخضعَتْ لهم رقابُ الجبابرةِ ، وانقادَ لهمُ الناسُ ، وكانوا لهم تبعاً ، وعزَّ الإسلامُ وأهلُهُ ، ولـٰكنَّهم أذلُّوا نفوسَهم ، ولم يبالوا بما نقصَ مِنْ دينِهم إذا سَلِمَتْ لهم دنياهم ، فبذلوا علمَهم لأبناءِ الدنيا ، ليصيبوا بذلكَ ما في أيدي الناسِ ، فذَلُّوا وهانوا على الناسِ) انتهىٰ[1] .

وللهِ درُّ الشاعرِ حيثُ يقولُ[2] : [من الطويل]

يَقُولُونَ لِي فِيكَ ٱنْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ ٱلذُّلِّ أَحْجَمَا
إِذَا قِيلَ هَـٰذَا مَوْرِدٌ قُلْتُ قَدْ أَرَىٰ ... وَلَـٰكِنَّ نَفْسَ ٱلْحُرِّ تَحْتَمِلُ ٱلظَّمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ ٱلْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدُمَ مَنْ لاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَغْرِسُهُ عِزّاً وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذاً فَٱتِّبَاعُ ٱلْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي ٱلنُّفُوسِ لَعُظِّمَا[3]
وَلَـٰكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِٱلأَطْمَاعِ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا

---

(١) أورده الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٤/ ٣٤) بنحوه .

(٢) الأبيات للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني . انظر « ديوانه » (ص ١٢٧) باختلاف يسير .

(٣) قال الأديب ابن حجة الحموي في « ثمرات الأوراق » (ص ٢٨٤) : (قال شيخ الإسلام تاج الدين عبد الوهاب بن شيخ الإسلام تقي الدين السبكي الشافعي سقى الله عهده : لقد صدق هـٰذا القائل ؛ لو عظَّموا العلم عظَّمهم ، قال : وأنا أقرأ قوله : « لعَظَّما » بفتح العين ؛ فإن العلم إذا عُظِّم تعظَّم وهو في نفسه عظيم ، ولـٰكن أهانوه فهانوا ، ولـٰكن الرواية : فهانَ وعُظِّم بضم العين ، والأحسن ما أشرت إليه) .

قالَ وهبُ بنُ منبهٍ لعطاءٍ الخراسانيِّ : (كانَ العلماءُ قبلَنا قدِ استغنَوْا بعلمِهم عن دنياهم ، وكانوا لا يلتفتونَ إلىٰ دنيا غيرِهم ، وكانَ أهلُ الدنيا يبذلونَ لهم دنياهم رغبةً في علمِهم ، **فأصبحَ أهلُ العلمِ فينا اليومَ يبذلونَ لأهلِ الدنيا علمَهم رغبةً في دنياهم** ، وأصبحَ أهلُ الدنيا قد زهدوا في علمِهم ؛ لما رَأَوْا مِنْ سوءِ موضعِهِ عندَهم)(١)

وقالَ ذو النونِ المصريُّ : (كانَ الرجلُ مِنْ أهلِ العلمِ يزدادُ بعلمِهِ بغضاً للدنيا وتركاً لها ، فاليومَ يزدادُ الرجلُ بعلمِهِ للدنيا حبّاً ، ولها طلباً ، وكانَ الرجلُ ينفقُ مالَهُ علىٰ علمِهِ ، ويكسبُ الرجلُ اليومَ بعلمِهِ مالاً ، وكانَ يُرىٰ علىٰ طالبِ العلمِ زيادةٌ في باطنِهِ وظاهرِهِ ، فاليومَ يُرىٰ علىٰ كثيرٍ مِنْ أهلِ العلمِ فسادٌ في الظاهرِ والباطنِ)(٢)

فانظرْ رحمَكَ اللهُ إلىٰ ما ذكرَهُ هـٰؤلاءِ الفضلاءُ . . تجدْهُ لازماً لطلبةِ هـٰذا الزمانِ ، وليسَ الخبرُ كالعيانِ ، ثم بعدَ وقوعِ هـٰذهِ المفاسدِ بهم ، وتوغُّلِهم بها في سوءِ أدبِهم . . **يتعذَّرُ عليهم سلوكُ طريقِ الحقِّ** ؛ لما استحكمَ في قلوبِهم مِنْ علاماتِ سوءِ الخُلُقِ ؛ فقد قيلَ : (التعمُّقُ في الباطلِ قطعٌ لآمالِ الرجوعِ عنهُ ، فكلَّما كانَ بُعْدُ المسافةِ مِنَ الحقِّ أتمَّ . . كانَ اليأسُ مِنَ الرجعةِ أوجبَ)(٣)

وأعظمُ الوبالِ عليهمُ : اغترارُهم بحالِهم ، واستحسانُهم لسيِّئِ أعمالِهم ، واعتقادُهم أنَّهم سالكونَ سبيلَ النجاةِ في الدارِ الآخرةِ ونيلِ الثوابِ فيها ، وأنَّهم همُ الذينَ حازوا الرُّتَبَ الشريفةَ ، والمناقبَ المنيفةَ ، التي اختُصَّ بنيلِها العلماءُ ، الذينَ هم ورثةُ الأنبياءِ ، وليسَ عندَهم مِنَ المعرفةِ وعلومِ التحقيقِ ما يخرجونَ بهِ مِنْ هـٰذا الغرورِ ؛ لأنَّهم لم يسلكوا طريقَ ذلكَ ، ولم يهتدوا لما هنالكَ

فهـٰذا هو الفسادُ الذي يختصُّ بهم ، ولا يشاركونَ غيرَهم فيهِ

---

(١) رواه الآجري في « أخلاق العلماء » (ص ٩٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٩) .

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٥)

(٣) قاله الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (١/ ٤٤١) .

وأمَّا المفاسدُ التي تتعدَّىٰ إلىٰ غيرِهم : فأظهرُ مِنْ كلِّ ظاهرٍ ، وناهيكَ بمَنْ ملكَتْهُ نفسُهُ أشدَّ ملكٍ ، واستعبدَتْهُ أشدَّ استعبادٍ ، هل يبقىٰ عليهِ شيءٌ مِنَ الشرِّ أو نوعٌ مِنْ أنواعِ الفسادِ إلا ويقعُ فيهِ إذا تمكَّنَ منهُ ؟!

ومِنْ دقيقِ ما يسري عليهم مِنَ الفسادِ مِنْ غيرِ قصدٍ منهم لذلكَ : وقوعُ الاغترارِ للجهلةِ والأغمارِ بمشاهدةِ حالِهم ؛ فإنَّهم يشاهدونَهم قد حازوا مِنْ رُتَبِ الدنيا ما أرادوهُ ، ويتوهَّمونَهم نالوا شرفَ الآخرةِ بما أفادوهُ واستفادوهُ ، فيحملُهم ذلكَ على الاقتداءِ بهم في طلبِ العلمِ إنْ كانوا ممَّنْ فيهِ قابليةٌ لذلكَ ، فيقعوا[1] فيما وقعوا فيهِ مِنَ المهالكِ ، أو يؤديهم ذلكَ إلىٰ محبَّتِهم وموالاتِهم ، واتخاذِهم أرباباً يسمعونَ منهم ، ويطيعونَهم في أوامرِهم ونواهيهم .

ثم يخرجُ بهمُ استحسانُ حالِهم إلى الداءِ الدفينِ ؛ وهو مسارقةُ طباعِهمُ الدنيَّةِ وأخلاقِهمُ الرديَّةِ ؛ فإنَّ نفوسَ العامَّةِ قابلةٌ لذلكَ ومهيَّأةٌ لهُ ؛ بمنزلةِ الصبيِّ الذي ترسخُ فيهِ أخلاقُ آبائِهِ ومنازِعهم ومذاهبِهم ، وعندَ ذلكَ يبطلُ في حقِّهم ما هو مقصودُ بعثةِ الرُّسُلِ ؛ مِنَ التزهيدِ في الدنيا ، والترغيبِ في الآخرةِ ، وحبِّ الفقرِ والمسكنةِ ، وإيثارِ التواضعِ والذلَّةِ ، والتخلُّقِ بأخلاقِ الإيمانِ والإسلامِ ، وشدَّةِ الحذرِ مِنِ ارتكابِ المناهي والآثامِ ، ثم يؤولُ ذلكَ بهم إلى الشركِ الخفيِّ والجليِّ ، ويحيقُ بهمُ المكرُ السيِّئُ والعياذُ باللهِ ، ويكونُ وبالُ جميعِ ذلكَ راجعاً إلى المعلِّمِ ؛ لتيسُّرِ أسبابِ ذلكَ علىٰ يديهِ .

ولقد صدقَ ابنُ المباركِ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ يقولُ[2] [من المتقارب]

وَهَلْ أَفْسَدَ ٱلدِّينَ إلا ٱلْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا
فَبَاعُوا ٱلنُّفُوسَ وَلَمْ يَرْبَحُوا ... وَلَمْ تَغْلُ فِي ٱلْبَيْعِ أَثْمَانُهَا

---

(١) كذا في جميع النسخ المعتمدة ، وهي لغة مشهورة .

(٢) رواها له أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٧٩) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٠٠) .

لَقَـدْ وَقَـعَ ٱلْقَـوْمُ فِـي جِيفَـةٍ يَبِيــنُ لِـذِي ٱلْعَقْـلِ إِنْتَـانُهَـا

ورُوِيَ عن حذيفةَ بنِ اليمانِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ أخذَ حصاةً بيضاءَ فوضعَها في كفِّهِ ، ثم قالَ : إنَّ الدينَ قدِ استضاءَ إضاءةَ هـٰذهِ ، ثم أخذَ كفّاً مِنْ ترابٍ ، فجعلَ يَذُرُّهُ على الحصاةِ حتىٰ واراها ، ثم قالَ : والذي نفسي بيدِهِ ؛ ليجيئَنَّ أقوامٌ يدفنونَ الدينَ هـٰكذا ؛ كما دُفنَتْ هـٰذهِ الحصاةُ ، ولتسلُكُنَّ سبيلَ الذينَ كانوا مِنْ قبلِكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ ، والنعلِ بالنعلِ(١)

قلتُ ومنشأُ وجودِ هـٰذهِ المفاسدِ : خرابُ بواطنِهم وظلمةُ قلوبِهم بسببِ فقدِ اليقينِ منها ، وانكسافِ أنوارِ الإيمانِ فيها ، وإفلاسِهم مِنْ حقائقِ ذلكَ ، وعدمِ احتظائِهم بشيءٍ منهُ ، فصاروا بذلكَ مأسورينَ لأهوائِهم ، منقادينَ لأغراضِهم وآرائِهم ، ففسدَتْ بذلكَ نيّاتُهم ومقاصدُهم ، والأعمالُ بالنيّاتِ :

فإذا كانَتِ النيّاتُ صالحةً : كانَتِ الأعمالُ صالحةً ، وترتَّبَ عليها آثارُ الصلاحِ ، وانعطفَ مِنْ ذلكَ على القلوبِ مزيدُ إشراقٍ ، وحميدُ أخلاقٍ ، يؤذنُ بذلكَ وجودُ القُرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ونيلُ درجةِ الحبِّ منهُ .

وإذا كانَتِ النيّاتُ فاسدةً : كانَتِ الأعمالُ فاسدةً أيضاً ، وترتَّبَ عليها آثارٌ فاسدةٌ ، وانعطفَ مِنْ ذلكَ على القلوبِ زيادةُ ظلمةٍ ، ورداءةُ همّةٍ ؛ تقتضي البُعْدَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وحصولَ المقتِ منهُ

وطلبُ العلمِ عملٌ مِنَ الأعمالِ ، معرَّضٌ للصحّةِ والاعتلالِ .

وليتَ شعري ! هـٰؤلاءِ الذينَ استغرقوا أعمارَهم في طلبِ العلمِ والأثرِ ، وأتعبوا أنفسَهم بالدراسةِ والنظرِ ، وقطعوا أيامَهم ولياليَهم بالجوعِ والسهرِ ، وسمحَتْ نفوسُهم بفراقِ ملذوذاتِها ، والبعدِ عن جميعِ مألوفاتِها . هل بعثَهم على ذلكَ باعثُ الدينِ أو باعثُ الهوىٰ ؟!

---

(١) رواه ابن وضاح القرطبي في « البدع والنهي عنها » (١٥٤) ، والقُذَّة : ريش السهم .

ولا شكَّ أنَّ باعثَ الدينِ غيرُ متصوَّرٍ منهم ، بل هو محالٌ في حقِّهم ؛ لما قدَّمناهُ مِنْ خرابِ البواطنِ ، وظلمةِ القلوبِ ، وكيفَ يُتصوَّرُ ذلكَ منهم وهم لم يعملوا علىٰ تخليصِهم مِنَ التكاليفِ الواجبةِ عليهم في ظواهرِهم وبواطنِهم ، بل لم يعرفوا ذلكَ ألبتةَ ؟!

وإنِ ادَّعوا أنَّهم علىٰ أحوالٍ لا يجبُ عليهم فيها حكمٌ يحتاجونَ إلىٰ تعرُّفِهِ والقيامِ بهِ . . فهم مخدوعونَ ، ومِنْ أينَ لهم ذلكَ والعلمُ بهِ لا يحصلُ ضرورةً ؟! فلا بدَّ لهم مِنِ استفادتِهِ ، ولا عنايةَ لهم بهـٰذا أيضاً

وإنَّما كانَ يتصوَّرُ منهم باعثُ الدينِ لو توفَّرَتْ أغراضُهم كلُّها عليهم ، ووصلوا إلىٰ ما يمكنُهمُ الوصولُ إليهِ مِنْ شهواتِهم ولذَّاتِهم بسببٍ ما مِنْ أسبابِ الدنيا ، ثم يصرفونَ ما فضلَ مِنْ أوقاتِهم عن محاولةِ هـٰذهِ المطالبِ ونيلِها إلىٰ طلبِ العلمِ عوضاً عنِ البطالةِ التي يتبرَّمُ بها صاحبُها ، ويدعوهُ فراغُهُ مِنْ أشغالِ دنياهُ إلىٰ قطعِ ذلكَ الوقتِ بلهوٍ أو لعبٍ ، أوِ ارتكابِ معصيةٍ وذنبٍ ، لا البطالةِ التي تكونُ فيها استراحةٌ لنفسِهِ ، واستجمامٌ لعقلِهِ وحسِّهِ ، ففي هـٰذهِ الحالِ قد يصحُّ باعثُ الدينِ مِنْ أمثالِ هـٰؤلاءِ

وأمَّا الحالُ التي وصفناها فلا يتصوَّرُ عليها باعثٌ إلا الدنيا المجرَّدةُ المجاوزةُ للحدِّ في الذمِّ والمقتِ ؛ بمنزلةِ مَنْ هو حريصٌ على الاتساعِ في الدنيا ، والحصولِ علىٰ غايةِ ملاذِّها ؛ فإنَّهُ يعملُ فيما يوصلُهُ إلىٰ ذلكَ وإنْ كانَ فيهِ هلاكُهُ ، فتراهُ يرتكبُ الأخطارَ ، ويخوضُ لُجَجَ البحارِ ، ويجوبُ البراريَ والقفارَ ، ويهونُ عليهِ في جنبِ ما يؤمِّلُهُ كلُّ مشقَّةٍ تصيبُهُ ، وبليَّةٍ تنزلُ بهِ ، ولو لم يفعلْ هـٰذا لم يحصلْ إلا علىٰ سدِّ الرمقِ ، والاقتصارِ على البُلَغِ والعُلَقِ[1] ، فكذلكَ هـٰؤلاءِ الذينَ كلامُنا فيهم ؛ لو لم يتصوَّروا في خواطرِهمُ الحصولَ علىٰ كليَّاتِ أغراضِهم ، مِنِ اتساعِ مالِهم وجاهِهم

---

(١) البُلَغ والعُلَق : جمع بُلْغة وعُلْقة ؛ كل ما يقيم الأود من العيش

في دنياهم ، ووصولِهم معَ ذلكَ إلىٰ رفيعِ الدرجاتِ في عُقْباهم . . لم يبلغوا ذلكَ المبلغَ في الاجتهادِ ، ولاقتصروا علىٰ بعضِهِ .

وهٰذهِ كلُّها أمورٌ بيِّنةٌ ، لا إشكالَ فيها عندَ مَنْ لهُ أدنىٰ تمييزٍ وفهمٍ .

وليسَ المانعُ لأكثرِ مَنْ ينتسبُ إلى العلمِ مِنَ العملِ بمقتضىٰ ما ذكرنا خفاءَهُ عليهم ، كيفَ وهم يعتقدونَ صحَّتَهُ ، ويسلِّمونَ حاصلَهُ وحقيقتَهُ ، في الأحايينِ عندَما ينجلي عن قلوبِهم بعضُ ظُلُماتِها ، وتتزحزحُ عن عظيمِ غمراتِها ؛ إمَّا بتذكيرِ مذكِّرٍ مِنَ الخلقِ ، أو وعظِ واعظٍ في قلوبِهم مِنْ قبلِ الحقِّ ، ثم يرجعونَ في سائرِ أوقاتِهم إلىٰ مألوفاتِهم ومعتاداتِهم .

وإنَّما المانعُ لهم مِنْ ذلكَ انفرادُ اللهِ تعالىٰ بالمشيئةِ والقدرةِ ، واستئثارُهُ بالخِذْلانِ والنصرةِ ، فإذا أرادَ اللهُ تعالىٰ أنْ يضلَّ عبداً مِنْ عبادِهِ . . لم ينصرْهُ عقلٌ ، ولم ينفعْهُ علمٌ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة : ٤١]

وفي مثلِ هٰذا الموطنِ تبطلُ أحكامُ الأسبابِ ، ويتحققُ أربابُ الحقائقِ العظمةَ والجلالَ والعزَّةَ والكمالَ لربِّ الأربابِ

فليعتبرْ بما ذكرناهُ أربابُ الأبصارِ ، وليسلِّموا أحكامَ الواحدِ القهَّارِ ؛ لعلَّهم بذلكَ يهتدونَ إلىٰ منهجِ التحقيقِ ، حينَ يضلُّ غيرُهم عن سواءِ الطريقِ

مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ(١)

ولْيَقُلِ العبدُ المؤمنُ إذا نظرَ إليهم ، واعتبرَ بما جرىٰ مِنْ سوءِ القضاءِ عليهمُ : **الحمدُ للهِ الذي عافاني ممَّا ابتلاهم بهِ وفضَّلَني عليهم تفضيلاً** ؛ فقد رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « مَنْ رَأَىٰ مُبْتَلَىً ، فَقَالَ ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي

---

(١) عجز بيت من الطويل للمتنبي ضمن قصيدة له في « ديوانه » (ص ٣٢٠) ، وصدره
بِـذا قضـتِ الأيـامُ مـا بيـنَ أهلِهـا

عَافَانِي مِمَّا ٱبْتَلَىٰ بِهِ هَـٰذَا ، وَفَضَّلَنِي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً . . عَافَاهُ ٱللهُ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْبَلَاءِ كَائِناً مَا كَانَ »[١]

فعلى المعلِّمِ الناصحِ لنفسِهِ ، السالمِ في عقلِهِ وحدسِهِ ، العاملِ علىٰ تصحيحِ أعمالِهِ وهمِّهِ ، المشفقِ علىٰ دينِهِ الذي هو منوطٌ بلحمِهِ ودمِهِ[٢] . . أنْ يتأمَّلَ هـٰذهِ المفاسدَ ويقيسَ بها ما توهَّمَهُ مِنَ المصالحِ الناشئةِ عن تعليمِهِ بزعمِهِ ، ويدقِّقَ النظرَ في ذلكَ كما يدقِّقُهُ في أكثرِ المسائلِ التي يحتاجُ إليها ، ولا يُقدِمَ على التعليمِ في هـٰذهِ الأزمنةِ ذواتِ العللِ المزمنةِ حتىٰ يقطعَ بوجوبِ ذلكَ عليهِ مِنْ غيرِ تردُّدٍ ، ولا تجويزِ وقوعِ خطأٍ في نظرِهِ ، ولا سبيلَ لهُ إلىٰ هـٰذا ولا يسعُهُ خلافُ ذلكَ إذا كانَ منصفاً

قالَ بعضُهم : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ حزيناً ، فسألتُهُ عن ذلكَ ، فقالَ وهو بَرِمٌ : ما صرنا إلا متجراً لأبناءِ الدنيا ، قلتُ : وكيفَ ذلكَ ؟ قال : يلزمُنا أحدُهم ، حتىٰ إذا عُرِفَ بنا وحملَ عنَّا . . جُعِلَ عاملاً أو حاجباً أو قهرماناً أو جابياً ، فيقولُ : حدَّثَنا سفيانُ الثوريُّ[٣]

وعليهِ أيضاً : أنْ يحرصَ علىٰ مخالفةِ نفسِهِ فيما تدعوهُ إليهِ مِنَ التعليمِ ، لأنَّ كلَّ ما تستحليهِ النفسُ ويوافقُ غرضَها مصحوبٌ بالآفاتِ والعللِ التي تقدحُ في الإخلاصِ ، وإخلاصُ الأعمالِ شرطٌ في وجودِ القبولِ ، وعندَ ذلكَ يذهبُ عملُهُ باطلاً ، ولا ينالُ بسعيِهِ طائلاً

وقد تقدَّمَ مِنْ كلامِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (كونوا لقبولِ العملِ أشدَّ

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٣١) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، وقال : (وقد رُوي عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال : إذا رأىٰ صاحب بلاء يتعوَّذ ، يقول ذلك في نفسه ، ولا يسمع صاحب البلاء) .

(٢) إشارة إلىٰ ما رواه الخطيب في « الكفاية » (ص ١٢١) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما « يا بنَ عمرَ ؛ دينَكَ دينَكَ ، إنَّما هو لحمُكَ ودمُكَ ، فانظرْ عمَّنْ تأخذُ ، خُذْ عنِ الذينَ استقاموا ، ولا تأخذْ عنِ الذينَ مالوا »

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٧٤) ، والقهرمان مَنْ كان مِنْ أمناء الملك وخاصته ، فارسي معرب .

اهتماماً منكم للعملِ) عندَ قولِهِ : (ما قلَّ عملٌ برزَ مِنْ قلبِ زاهدٍ)[١]

وتقدَّمَ أيضاً الكلامُ على اتِّهامِ النفسِ في دعائِها إلىٰ ما ظاهرُهُ خيرٌ عندَ قولِهِ : (إذا التبسَ عليكَ أمرانِ . . .)[٢]

وليتعلَّمِ الحزمَ في ذلكَ مِنْ بشرِ بنِ الحارثِ الحافي ، كانَ يقولُ : (أنا أشتهي أنْ أُحدِّثَ ، ولو ذهبَ عنِّي شهوةُ الحديثِ لحدثتُ)[٣]

وكانَ سببَ تركِهِ طلبَ الحديثِ : أنَّهُ سمعَ أبا داودَ الطيالسيَّ يحدِّثُ عن شعبةَ أنَّهُ كانَ يقولُ : الإكثارُ مِنَ الحديثِ يصدُّكم عن ذكرِ اللهِ وعنِ الصلاةِ ، فهل أنتم منتهونَ ؟! فلمَّا سمعَهُ قالَ : انتهينا انتهينا ، ثم تركَ الرحلةَ في طلبِ الحديثِ ، وأقبلَ على العبادةِ[٤]

ورُوِيَ أيضاً مثلُ هـٰذا الكلامِ عن مسعرِ بنِ كِدامٍ[٥]

فإذا كانَ الإكثارُ مِنَ الحديثِ بهـٰذِهِ المثابةِ عندَ إمامَيِ المحدثينَ في زمانَيْهما معَ ما فيهِ مِنَ الفوائدِ الأخرويَّةِ . . فما ظنُّكَ بغيرِهِ مِنْ محدثاتِ العلومِ ومبتدعاتِها ؟![٦] .

ولقد ذكرَ الشيخُ الحافظُ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ بإسنادِهِ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ مسلمةَ

---

(١) انظر (ص ٣١٦) .

(٢) انظر (ص ٧٤٣) .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٤٣٣) .

(٤) رواه الدينوري المالكي في « المجالسة وجواهر العلم » (٨١١ ، ٨١٣) ، ولفظه : ما جاءني أحد من بغداد يطلب هـٰذا الأمر ـ يعني : الحديث ـ إلا رجل واحد ؛ وهو بشر بن الحارث ؛ سألني عن حديثين ، وذكرهما ، والأول منهما خبر شعبة .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢١٧) .

(٦) وروى البيهقي في « شعب الإيمان » (١٧٣٤) عن عبد الرحمـٰن بن مهدي يقول : (ما هو عندي إلا عبث كما يعبث الإنسان بالكلاب والحمام) يعني : الحديث ، قال الحافظ البيهقي عقبه : (فهـٰذا فيمن لا يكون مرادُهُ من كتابة الحديث معرفةَ أحكام الله تعالىٰ ، وما فيه من المواعظ ، ثم استعمالَها والاتعاظَ بها ، وإنما يكون قصده من كتابته الاكتسابَ بها ، والمفاخرة بفضلها على أقرانه ، فلا يكون من زاد الآخرة ؛ لأن العلم إنما هو للاستعمال ، وليتقيَ الله وليطيعه به ، لا ليتخذه حِرْفةً يكتسب بها الرفعة في الدنيا) .

القعنبيِّ قالَ دخلتُ علىٰ مالكِ بنِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فوجدتُهُ باكياً ، فسلَّمْتُ عليهِ ، فردَّ عليَّ السلامَ ، ثم سكتَ عنِّي يبكي ، فقلتُ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما الذي أبكاكَ ؟ فقالَ لي يا بنَ قعنبٍ ؛ إنَّا للهِ علىٰ ما فرطَ منِّي ، ليتَني جُلدتُ بكلِّ كلمةٍ تكلَّمتُ بها في هٰذا الأمرِ سوطاً ولم يكنْ فرطَ منِّي ما فرطَ مِنْ هٰذا الرأيِ وهٰذهِ المسائلِ ، وقد كانَ لي سَعَةٌ فيما سبقتُ إليهِ(١)

قالَ هٰذا فيما كانَ آخذاً فيهِ مِنَ المسائلِ المحقَّقةِ المبنيَّةِ علىٰ أصولٍ صحيحةٍ غيرِ ملفَّقةٍ ، فما الظنُّ بما انتشرَ بعدَهُ مِنَ الهذيانِ الذي صارَ بحكمِ العادةِ واقتضاءِ العصبيةِ ، وتمالؤِ الناسِ على الضلالِ ، وتقليدِ الرؤساءِ الجهَّالِ . . ديناً قويماً ، وصراطاً مستقيماً ؟!

وعلىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ العالِمِ والمتعلِّمِ : أنْ يشتغلَ بما هو أهمُّ عليهِ ممَّا هو مأمورٌ بهِ ومسؤولٌ عنهُ ؛ مِنْ مراقبةِ ربِّهِ ، وإصلاحِ نفسِهِ وقلبِهِ ، فلهُ في ذلكَ شغلٌ شاغلٌ عمَّا يفرِّقُ همَّهُ ، ويقسِّي قلبَهُ ، وينسيهِ ذكرَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ

قالَ ابنُ وهبٍ : ذُكِرَ طلبُ العلمِ عندَ مالكِ بنِ أنسٍ ، فقالَ إنَّ طلبَهُ لَحسنٌ إذا صحَّتْ فيهِ النيَّةُ ، ولٰكنِ انظرْ ما يلزمُكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي ، ومِنْ حينِ تمسي إلىٰ حينِ تصبحُ ، فلا تؤثِرَنَّ عليهِ شيئاً(٢)

وكانَ الثوريُّ يقولُ لأهلِ العلمِ الظاهرِ : (طلبُ هٰذا ليسَ مِنْ زادِ الآخرةِ)(٣)

وكانَ يقولُ (ليسَ طلبُ الحديثِ مِنْ عدَّةِ الموتِ ، لٰكنَّهُ تَعِلَّةٌ يتشاغلُ بها الرجالُ)(٤)

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠٨١) .

(٢) رواه أبو عبد الله الدوري في « ما رواه الأكابر عن مالك » (٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣١٩) .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٣٧٨) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٤) ، والتَّعِلَّةُ : ما يتعلَّل به الصبي ليسكتَ .

وكانَ يقولُ : (لولا أنَّ للشيطانِ فيهِ نصيباً ما ازدحمتم عليهِ) يعني : العلمَ[1]

فهٰذهِ نبذةٌ قصدتُ إلىٰ بثِّها في الموضعِ اللائقِ بها مِنْ هٰذا « التنبيهِ » ؛ ليتنبَّهَ بها مَنْ سبقَ لهُ مِنَ اللهِ زوالُ العمىٰ عن بصرِهِ ، ومراجعةُ خوفِهِ وحذرِهِ ؛ مِنَ المعلِّمينَ والمتعلِّمينَ ، وليُتبيَّنَ بها كلامُ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ غايةَ التبيينِ ، وباللهِ الذي لا إلٰهَ سواهُ أستعينُ .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٤)

الحكمة الحادية والأربعون بعد المئتين (*)

مَتَىٰ آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ ٱلنَّاسِ عَلَيْكَ ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِٱلذَّمِّ إِلَيْكَ . . فَٱرْجِعْ إِلَىٰ عِلْمِ ٱللهِ فِيكَ ، فَإِنْ كَانَ لا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ ٱلأَذَىٰ مِنْهُمْ

العبدُ لا ينبغي أنْ يكونَ مطمحُ نظرِهِ إلا إلىٰ مولاهُ ، فلا يفرحُ إلا بإقبالِهِ عليهِ ، ولا يحزنُ إلا لإعراضِهِ عنهُ ، ولا ينظرُ إلى المخلوقينَ في إقبالٍ ولا إعراضٍ ، ولا مدحٍ ولا ذمٍّ ؛ فإنَّهم لا يغنونَ عنهُ مِنَ اللهِ شيئاً

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ في قولِهِ : (غيِّبْ نظرَ الخلقِ إليكَ بنظرِ اللهِ إليكَ ، وغِبْ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه عزَّ وجلَّ يعلم السرَّ وأخفىٰ ، قد أحاط علمه بكلِّ شيء ؛ محالاً وجائزاً وواجباً ، وإلىٰ أن إقبال الناس وإدبارهم من جملة أفعاله الحكيمة ، التي تارة ما تكون للاعتبار ، وتارة تكون للاختبار ، وحَسْبُ الموفَّق الفهمُ عن الله تعالىٰ .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٣ـ٣٧] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ يدني المؤمنَ ، فيضعُ عليهِ كنفَهُ ويسترُهُ ، فيقولُ : أتعرفُ ذنبَ كذا ؟ أتعرفُ ذنبَ كذا ؟ فيقولُ : نعم أيْ ربِّ ، حتَّىٰ إذا قرَّرَهُ بذنوبِهِ ، ورأىٰ في نفسِهِ أنَّهُ هلكَ . . قالَ : سترتُها عليكَ في الدنيا ، وأنا أغفرُها لكَ اليومَ ، فيُعطىٰ كتابَ حسناتِهِ ، وأمَّا الكافرُ والمنافقونَ فيقولُ الأشهادُ : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ١٨] » ، رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما

عن إقبالِهم عليكَ بشهودِ إقبالِهِ عليكَ)[1]

فمتىٰ آلمَهُ عدمُ إقبالِهم عليهِ ، أو توجُّهُهم بالذمِّ إليهِ . . فليرجعْ إلىٰ ما بينَهُ وبينَ ربِّهِ :

فإنْ كانَ قانعاً بعلمِهِ ، راضياً بقَسْمِهِ . . كانَ لهُ في ذلكَ أعظمُ سُلْوانٍ عمَّا يفوتُهُ مِنْ جهةِ المخلوقينَ ، بل لا يجدُ وقعاً في قلبِهِ لما عسىٰ أنْ يكونَ منهم مِنْ إقبالٍ أو إعراضٍ .

وإنْ لم يكنْ راضياً ولا قانعاً . . فمصيبتُهُ بذلكَ أعظمُ مِنْ مصيبتِهِ بأذى الناسِ لهُ ، بل لا مصيبةَ لهُ في أذى الناسِ ألبتةَ عندَ مَنْ عرفَ سرَّ ذلكَ ، علىٰ ما يذكرُهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ الآنَ[2]

قالَ إبراهيمُ التيميُّ لبعضِ أصحابِهِ : ما يقولُ الناسُ فيَّ ؟ فقالَ : يقولونَ : إنَّكَ مراءٍ ، فقالَ : الآنَ طابَ العملُ ، فقالَ بشرٌ[3] : اكتفىٰ واللهِ بعلمِ اللهِ ، فلم يحبَّ أنْ يُدخلَ معَ علمِ اللهِ علمَ غيرِهِ

وقالَ بشرٌ الحافي (سكونُ النفسِ إلىٰ قبولِ المدحِ لها أشدُّ عليها مِنَ المعاصي)[4]

* * *

---

(١) انظر (ص ٦٤٥) .

(٢) انظر (ص ٨٦٢) .

(٣) يعني : حينما بلغه قول إبراهيم التيمي هـٰذا ؛ إذ توفي التيمي سنة (٩٢هـ) ، ومن أقواله رحمه الله تعالىٰ في ميزان عمله : (ما عرضت قولي علىٰ عملي إلا خفت أن أكون مكذَّباً) ، ومرَّت عليه أربعون ليلة ما أكل فيها غير عنبة ، وربما أتىٰ عليه الشهر لا يطعم فيه ولا يشرب شيئاً ، مع اتفاقهم علىٰ جلالته وعلمه ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٦١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٤٤) .

الحكمة الثانية والثالثة والأربعون بعد المئتين (*)

إِنَّمَا أَجْرَى ٱلْأَذَىٰ عَلَيْكَ مِنْهُمْ كَيْ لا تَكُونَ سَاكِناً إِلَيْهِمْ
أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ لا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ .

وجودُ إذايةِ الناسِ للعبدِ نعمةٌ عظيمةٌ عليهِ(١) ، لا سيما ممَّنِ اعتادَ منهُ الملاطفةَ والإكرامَ ، والمبرَّةَ والاحترامَ ؛ لأنَّ ذلكَ يفيدُهُ عدمَ السكونِ إليهم ، وتركَ الاعتمادِ عليهم ، وفقْدَ الأُنسِ بهم ، فتتحقَّقُ بذلكَ عبوديَّتُهُ لربِّه عزَّ وجلَّ

قالَ سيدي أبو الحسنِ الشاذليُّ آذاني إنسانٌ مرَّةً ، فضقتُ ذرعاً بذلكَ ، فنمتُ ، فرأيتُ يُقالُ لي : مِنْ علامةِ الصدِّيقيَّةِ كثرةُ أعدائِها ، ثم لا يبالي بهم(٢)

وقالَ بعضُ العارفينَ (الصيحةُ مِنَ العدوِّ سوطُ اللهِ يضربُ بهِ القلوبَ إذا

(*) ترجع هاتان الحكمتان اعتقاداً : إلىٰ إثبات صفتي الحكمة والغيرة على القول بهما ، والتحقيق رجوعهما إلىٰ صفتي العلم والإرادة عند أئمة الأشاعرة ، وإلىٰ أن ما ظاهره إثبات تعليل الأفعال بشأنه سبحانه مؤوَّل ؛ إذ أفعاله تعالىٰ عين الحكمة ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] ، وقوله تعالىٰ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ـ ١٥٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ كلِّ شيءٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِهِ » ، رواه مسلم (٢٧١٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) في (أ ، ب) : (إذاء) بدل (إذاية) ، والمراد : الأذىٰ

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١١٨) ، وإلىٰ هـٰذا المعنى الإشارةُ في قوله سبحانه : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ [يس : ٦٨] .

ساكَنَتْ غيرَهُ ، لولا ذلكَ لرقدَ القلبُ في ظلِّ العزِّ والجاهِ ، وهو حجابٌ عنِ اللهِ عظيمٌ)[١]

وقالَ سيدي أبو محمدٍ عبدُ السلامِ شيخُ سيدي أبي الحسنِ في دعائِهِ : (اللهمَّ ؛ إنَّ قوماً سألوكَ أنْ تسخِّرَ لهم خلقَكَ ، فسخَّرْتَ لهم خلقَكَ ، فرضوا منكَ بذلكَ ، اللهمَّ ؛ وإنِّي أسألُكَ اعوجاجَ الخلقِ عليَّ ، حتىٰ لا يكونَ ملجئي إلا إليكَ)[٢]

وقالَ أبو الحسنِ الورَّاقُ النيسابوريُّ : (الأُنْسُ بالخلْقِ وَحشةٌ ، والطمأنينةُ إليهم حُمْقٌ ، والسكونُ إليهم عجزٌ ، والاعتمادُ عليهم وَهَنٌ ، والثقةُ بهم ضياعٌ ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً جعلَ أُنْسَهُ بهِ وبذكرِهِ ، وتوكُّلَهُ عليهِ ، وصانَ سرَّهُ عنِ النظرِ إليهم ، وظاهرَهُ عنِ الاعتمادِ عليهم)[٣]

وقد قالوا (الزهَّادُ يُخرجونَ المالَ عنِ الكيسِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالىٰ ، وأهلُ الصفاءِ يُخرجونَ الخَلْقَ والمعارفَ مِنَ القلبِ تحقُّقاً باللهِ)[٤]

قالَ في « لطائفِ المننِ » : (اعلمْ : أنَّ أولياءَ اللهِ تعالىٰ حكمُهم في بداياتِهم أنْ يُسلَّطَ عليهمُ الخلْقُ ؛ ليُطهَّروا مِنَ البقايا ، وتكملَ فيهمُ المزايا ، وكي لا يساكنوا هـٰذا الخلقَ باعتمادٍ ، أو يميلوا إليهم باستنادٍ ، ومَنْ آذاكَ فقد أعتقَكَ مِنْ رقِّ إحسانِهِ ، ومَنْ أحسنَ إليكَ فقد استرقَّكَ بوجودِ امتنانِهِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٥]

---

(١) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١١٨) .

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٨٥) ، وقد سأله الشيخ الإمام أبو الحسن عن دعائه هـٰذا ، فقال له بعدما تبسَّم : يا بنيَّ ؛ عوض ما تقول : سخر لي خلقك ، قل : يا ربِّ ؛ كن لي ، أترىٰ إذا كان لك أيفوتك شيءٌ ؟! فما هـٰذه الجناية ؟!

(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٠١)

(٤) قاله الإمام القشيري في خاتمة « رسالته » (ص ٧٨٩) وبه ختمها

(٥) في « لطائف المنن » هنا زيادة ؛ وهي : (« جبلَتِ القلوبُ علىٰ حبِّ مَنْ أحسنَ إليها » ، وقال صلى الله عليه وسلم) ، وهو حديث رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢١) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

« مَنْ أَسدَىٰ إِلَيْكُم مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ ؛ فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا فَادْعُوا لَهُ »[1] ، كلُّ ذلكَ ليتخلَّصَ القلبُ مِنْ رقِّ إحسانِ الخلْقِ ، وليتعلَّقَ بالملكِ الحقِّ)[2]

قالَ : (وقالَ الشيخُ أبو الحسنِ : اهربْ مِنْ خيرِ الناسِ أكثرَ ممَّا تهربُ مِنْ شرِّهم ؛ فإنَّ خيرَهم يصيبُكَ في قلبِكَ ، وشرَّهم يصيبُكَ في بدنِكَ ، ولَأنْ تُصابَ في بدنِكَ خيرٌ مِنْ أنْ تُصابَ في قلبِكَ ، ولعدوٌّ تصلُ بهِ إلى اللهِ خيرٌ لكَ مِنْ حبيبٍ يقطعُكَ عنِ اللهِ ، وعُدَّ إقبالَهم عليكَ ليلاً ، وإعراضَهم عنكَ نهاراً ، ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا ؟!)[3]

قالَ : (وتسليطُ الخلْقِ علىٰ أولياءِ اللهِ في مبدأِ طريقِهم سنةُ اللهِ في أحبَّائِهِ وأصفيائِهِ ؛ قالَ الشيخُ أبو الحسنِ : اللهمَّ ؛ إنَّ القومَ قد حكمتَ عليهم بالذلِّ حتىٰ عزُّوا ، وحكمتَ عليهم بالفقْدِ حتىٰ وجدوا ، فكلُّ عزٍّ يمنعُ دونَكَ فنسألُكَ بدلَهُ ذلّاً تصحبُهُ لطائفُ رحمتِكَ ، وكلُّ وجدٍ يحجبُ عنكَ فنسألُكَ عوضَهُ فقْداً تصحبُهُ أنوارُ محبَّتِكَ)[4]

قالَ : (وممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ هـٰذهِ سنةُ اللهِ في أحبَّائِهِ وأصفيائِهِ . . قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ . . . ﴾ الآيةَ [البقرة : ٢١٤][5] ، وقولُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ . . . ﴾ الآيةَ [يوسف : ١١٠][6] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) لطائف المنن (ص ١١٦) .

(٣) لطائف المنن (ص ١١٧) .

(٤) لطائف المنن (ص ١١٧) ، وانظر « المفاخر العلية في المآثر الشاذلية » (ص ١٩٥) ، وفي جميع النسخ غير (ب) : (معرفتك) بدل (محبتك) ، والمراد بالوجد : ما تستحليه النفوس وتقف معه .

(٥) وهي بتمامها : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

(٦) وهي بتمامها : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيتينِ [القصص : ٥-٦] (١) ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج : ٣٩] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ الدالَّةِ علىٰ هٰذا المعنى) انتهىٰ (٢)

وكذلكَ مَنِ استحلىٰ حالاً أو ساكنَ مقاماً فمِنْ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ معَ أوليائِهِ تشويشُ ذلكَ عليهم ، وهو مِنْ غيرتِهِ علىٰ قلوبِهم ؛ لئلا تتألَّهَ لغيرِهِ ، ولئلا تتقيَّدَ بسواهُ .

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ : (ومِنَ المقاطعِ المشكلةِ : السكونُ إلى استحلاءِ ما يلاقيكَ بهِ مِنْ فنونِ تقريبِكَ ، وكأنَّهُ في خلالِ ما يناجيكَ يناغيكَ ؛ فإنَّهُ بكلِّ لطيفةٍ يصفُكَ ويطريكَ ، وتحتَها خُدَعٌ خافيةٌ ، ومَنْ أدركَتْهُ السعادةُ كاشفَهُ بشهودِ جلالِهِ وجمالِهِ ، لا بإثباتِهِ في لطيفِ أحوالِهِ ، وما يخصُّهُ بهِ مِنْ إفضالِهِ وإقبالِهِ) (٣)

وأداءُ الطاعاتِ علىٰ وجهِ الاستحلاءِ معدودٌ عندَهم مِنَ الشهوةِ الخفيَّةِ (٤) ، ومِنْ هٰذا المعنىٰ ما ذكرَ سيدي أبو الحسنِ الشاذليُّ لما دخلَ علىٰ شيخِهِ أبي محمدٍ عبدِ السلامِ في أوَّلِ ما لقيَهُ (٥) ، وسألَهُ عن حالِهِ ، فقالَ لهُ : أشكو إلى اللهِ مِنْ بردِ الرضا والتسليمِ ، كما تشكو أنتَ مِنْ حرِّ التدبيرِ والاختيارِ .

فقالَ الشيخُ أبو الحسنِ : أمَّا شكوايَ مِنْ حرِّ التدبيرِ والاختيارِ فقد ذقتُهُ ، وأنا الآنَ فيهِ ، وأمَّا شكواكَ مِنْ بردِ الرضا والتسليمِ فلم أفهمْهُ ! فقالَ : أخافُ أنْ تشغلَني حلاوتُهُما عنِ اللهِ سبحانَهُ (٦)

---

(١) وهما بتمامهما : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾

(٢) لطائف المنن (ص ١١٧) .

(٣) قاله في « لطائف الإشارات » (١/ ٢٢٣)

(٤) انظر قول الإمام الواسطي في ذلك (ص ٣٥١) .

(٥) هو العارف بالله تعالىٰ أبو محمد عبد السلام بن مشيش ـ وقيل : بالباء بدل الميم ـ الحسني الإدريسي ، المتوفىٰ سنة (٦٢٢هـ) شهيداً ، وانظر « المفاخر العلية في المآثر الشاذلية » (ص ١٢) ، و« طبقات الشاذلية الكبرىٰ » (ص ٥٩) .

(٦) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٨٥ ـ ٨٦ ، ١٦٧) ، وقد نبَّهَ العلامة نور الدين اليوسي في « المحاضرات » (ص ٤٠٦) علىٰ خطورة أن يدعي السالك أو العامي هٰذه المقامات عند سماع مثل هٰذه العبارات ، إلىٰ أن قال (ص ٤١١) : (أما ترىٰ إلى =

وقالَ سيدي أبو العباسِ المرسيُّ : (اللطفُ حجابٌ عنِ اللطيفِ)[1] ؛ يعني : السكونَ إليهِ ، والوقوفَ عندَهُ ، وشدَّةَ الفرحِ بهِ .

ولذلكَ قالَ السريُّ السقطيُّ : (لو أنَّ رجلاً دخلَ إلىٰ بستانٍ ، فيهِ مِنْ جميعِ ما خلقَ اللهُ تعالىٰ مِنَ الأشجارِ ، عليها مِنْ جميعِ ما خلقَ اللهُ تعالىٰ مِنَ الأطيارِ ، فخاطبَهُ كلُّ طائرٍ منها بلغتِهِ وقالَ : السلامُ عليكَ يا وليَّ اللهِ ، فسكنَتْ نفسُهُ إلىٰ ذلكَ . . كانَ في يديها أسيراً)[2]

وقالَ بعضُهم : (لا يكونُ الصوفيُّ صوفيّاً حتىٰ لا تقلَّهُ أرضٌ ، ولا تظلَّهُ سماءٌ ، ولا يكونَ لهُ قبولٌ عندَ الخلقِ ، ويكونَ مرجعُهُ في كلِّ أحوالِهِ إلى الحقِّ)[3]

وقيلَ : الفقيرُ مَنْ لا دنيا لهُ ولا آخرةَ ، فإنْ عُرِضَ علىٰ مالكٍ قالَ ليسَ مِنْ رجالي ، وإنْ سُلِّمَ إلىٰ رضوانَ قالَ لا أهتدي إليهِ ، وليسَ مِنْ رجالي[4] ، وإنْ قلتَ : مَنْ هو ؟ وما الذي يُدعىٰ بهِ ؟ قالَ : ليسَ ممَّنْ يُدعىٰ بشيءٍ .

وقالَ محمدُ بنُ حسانَ رضيَ اللهُ عنهُ : بينا أنا أدورُ في جبالِ لبنانَ إذْ خرجَ شابٌّ قد أحرقَتْهُ السَّمومُ والرياحُ ، فلمَّا نظرَ إليَّ ولَّىٰ هارباً ، فتبعتُهُ وقلتُ تعظُني بكلمةٍ ؟ فقالَ : احذرْهُ ؛ فإنَّهُ غيورٌ ، لا يحبُّ أنْ يرىٰ في قلبِ عبدِهِ سواهُ[5]

= قول الشيخ عبد السلام بن مشيش في برد الرضا والتسليم « أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله تعالىٰ » ؟! فنقول : نعم ، ثم لو جُرِّدَ عن تلك الحلاوة لأوشك أن يشتغل بذلك التجريد عن الله تعالىٰ ما دام يلاحظه ؛ فإن كل ما سوى الله حجاب عنه ، ثم هٰكذا في التجرد عن التجرد ، والفناء عن الفناء ، إلىٰ ما لا يتناهىٰ ، حتىٰ يقطع الله تعالىٰ ذلك بموهبته لمن اختصه من عباده) .

(١) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٦٧)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١١٨) .

(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٥١٣)

(٤) أراد بمالك ورضوان : خازني النار والجنة عليهما السلام .

(٥) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٥٠) .

وكتبَ الجنيدُ إلىٰ بعضِ إخوانِهِ : (مَنْ أشارَ إلى اللهِ ، وسكنَ إلىٰ غيرِهِ . . ابتلاهُ اللهُ ، وحجبَ ذكرَهُ عن قلبِهِ وأجراهُ علىٰ لسانِهِ ، فإنِ انتبهَ وانقطعَ ممَّنْ سكنَ إليهِ ، ورجعَ إلىٰ ما أشارَ إليهِ . . كشفَ اللهُ ما بهِ مِنَ المحنِ والبلوىٰ ، وإنْ دامَ علىٰ سكونِهِ نزعَ اللهُ مِنْ قلوبِ الخلْقِ الرحمةَ عليهِ ، وأُلبسَ لباسَ الطمعِ ، فتزدادُ رغبتُهُ منهم معَ فقدانِ الرحمةِ مِنْ قلوبِهم ، فتصيرُ حياتُهُ عجزاً ، وموتُهُ كمداً ، ومعادُهُ أسفاً ، ونحنُ نعوذُ باللهِ مِنَ السكونِ لغيرِهِ)[1]

* * *

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٧٨)

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المئتين (*)

إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ لا يَغْفُلُ عَنْكَ . . فَلا تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتُكَ بِيَدِهِ .

الشيطانُ عدوٌّ سُلِّطَ على الإنسانِ ، ومقتضى ذلكَ : ألا توجدَ منهُ غفلةٌ ولا فترةٌ عنِ التزيينِ والإغواءِ والإضلالِ

قيلَ لبعضِهم : أينامُ إبليسُ ؟ فقالَ : لو نامَ لوجدنا راحةً(١)

فإذا علمتَ أنَّهُ لا يغفلُ عنكَ . . فلا تغفُلْ أنتَ عمَّنْ ناصيتُكَ بيدِهِ ؛ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ ؛ وذلكَ بتحقيقِ عبوديَّتِكَ لهُ ، وتوكُّلِكَ عليهِ ، وافتقارِكَ في كلِّ أحوالِكَ إليهِ ، واستعاذتِكَ بهِ مِنْ شرِّ عدوِّكَ وعدوِّهِ ، فبذلكَ تخرجُ مِنْ سلطنتِهِ ، وتنجو مِنْ غائلتِهِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن حادثاً ما خرج طرفة عين عن قبضة القدرة القديمة ، وإلىٰ ثبوت حكمة الله تعالىٰ في ابتلاء العباد بخلق الشيطان وغوايته وإن كان مردُّ ذلك إليه عزَّ شأنه ، وإلىٰ أنه جلَّ جلاله مع عبده إذا ذكره ، فكيف يخلِّي بينه وبين عدوه إن صدق وأخلص ؟!
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٣] ، والاحتناك : وضع الرسن في حنك الدابة لأجل اقتيادها إلى المحل المطلوب ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام حين دخوله المسجد : « أعوذُ باللهِ العظيمِ ، وبوجهِهِ الكريمِ ، وسلطانِهِ القديمِ ؛ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ » ، رواه أبو داود (٤٦٦) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٥٠٦) ، والمسؤول هو الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٥] ، وقالَ عزَّ وجلَّ ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : ٩٩] .

فمَنْ تحقَّقَ بهٰذهِ الصفاتِ العليَّةِ ؛ مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ ، والعبوديَّةِ لهُ ، والتوكُّلِ عليهِ ، واللَّجأِ والافتقارِ إليهِ ، والاستعاذةِ والاستجارةِ بهِ . . كيفَ يكونُ لعدوِّ اللهِ عليهِ سلطانٌ واللهُ حبيبُهُ ، ووليُّ حفظِهِ ونصرِهِ ؟! ولولا ما أمرَهمُ اللهُ تعالىٰ بالاستعاذةِ منهُ . . ما استعاذوا منهُ ، ومَنْ هو حتىٰ يُستعاذَ باللهِ منهُ ؟!

قالَ سيدي أبو العباسِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] : (فقومٌ فهموا مِنْ هٰذا الخطابِ أنَّهم أُمروا بعداوةِ الشيطانِ ؛ فشغلَهم ذلكَ عن محبَّةِ الحبيبِ ، وقومٌ فهموا مِنْ ذلكَ أنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ ؛ أي : وأنا لكم حبيبٌ ؛ فاشتغلوا بمحبَّتِهِ ، فكفاهم مَنْ دونَهُ)[1]

وقالَ أبو حازمٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ومَنِ الشيطانُ حتىٰ يُهابَ ؟! واللهِ ؛ لقد أُطيعَ فما نفعَ ، ولقد عُصِيَ فما ضرَّ)[2]

وقالَ بعضُهم : (الشيطانُ منديلُ هٰذهِ الدارِ)[3] ؛ يعني يُمسحُ بهِ أقذارُ النِّسَبِ ؛ وهي نسبةُ الشرورِ وأنواعِ الفسادِ والمعاصي إليهِ ؛ أدباً معَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهٰذا سرُّ إيجادِهِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ [الكهف : ٦٣] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [القصص : ١٥] ، وأمَّا أنَّ لهُ حولاً أو قوَّةً يضرُّ بها أو ينفعُ . . فلا

---

(١) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ١٤٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٤٥) .

(٣) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ١٤٢) ، وقال قبله : (وسرُّ الحكمة في إيجاد الشيطان : أن يكون مظهراً ينسب إليه أسباب العصيان ، ووجود الكفران ، والغفلة والنسيان) ، وسياق العلامة الشارح منتزع منه بنحوه .

قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ (ما خلقَ اللهُ خلقاً أهونَ عليهِ مِنْ إبليسَ ، ولولا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أمرَني أنْ أتعوَّذَ منهُ ما تعوَّذْتُ منهُ أبداً)(١)

وقيلَ لبعضِ العارفينَ كيفَ مجاهدتُكَ للشيطانِ ؟ فقالَ وما الشيطانُ ؟! نحنُ قومٌ صرَفْنا هممَنا إليهِ ، فكفانا مَنْ دونَهُ(٢)

وسُئِلَ بعضُهم : بِمَ تدفعُ إبليسَ ؟ فقالَ : لا أدفعُ مَنْ لا أعرفُ

فأمَّا إنْ أهملتَ ذلكَ ، وغفلتَ عنهُ ، ولم تعبأْ بهِ . . غلبَكَ لا محالةَ ؛ لثبوتِ سلطنتِهِ عليكَ ، ووصولِهِ بالوسوسةِ إليكَ

قالَ أهلُ العلمِ إنَّ لكلِّ أحدٍ مِنَ الناسِ وسواساً موكلاً بهِ ، مستبطناً قلبَهُ ، واضعاً رأسَهُ ـ أو قالَ : خرطومَهُ ـ عليهِ ، فإنْ غفلَ الإنسانُ وسوسَ ، وإذا ذكرَ اللهَ خنسَ ؛ أي : تأخَّرَ واستترَ(٣)

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (الشيطانُ قديمٌ ، وأنتَ حديثٌ ، والشيطانُ كسيرٌ ، وأنتَ سليمُ الناحيةِ ، والشيطانُ لا ينساكَ ، وأنتَ لا تزالُ تنساهُ ، ولهُ مِنْ نفسِكَ عليكَ عونٌ)(٤) وقيلَ (صدرُ ابنِ آدمَ مسكنٌ لهُ ، ومجراهُ مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدمِ(٥) ، وأنتَ لا تقاومُهُ إلا بعونِ اللهِ تعالىٰ)(٦)

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ (إنَّ عدوّاً يراكَ ولا تراهُ لشديدُ المؤنةِ ، إلا مَنْ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٧٦) .

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ١٤٠)

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢١٣) بنحوه عن خالد بن معدان ، وروى البيهقي في « شعب الإيمان » (٥٣٦) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً « إنَّ الشيطانَ واضعٌ خطمَهُ في قلبِ ابنِ آدمَ ، فإذا ذكرَ خنسَ ، وإذا نسيَ التقمَ قلبَهُ »

(٤) رواه الثعلبي في « الكشف والبيان » (٤/٢٢٧)

(٥) روى البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٥) من حديث سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما وحديث السيدة صفية رضي الله عنها مرفوعاً : « إنَّ الشيطانَ يجري مِنَ الإنسانِ مجرى الدمِ »

(٦) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (٤/٢٢٧)

عصمَ اللهُ)[1] ، وفيهِ يقولُ القائلُ[2] : [من مشطور الرجز]

وَلا أَرَاهُ حَيْثُمَا يَرَانِي

وَعِنْدَمَا أَنْسَاهُ لا يَنْسَانِي

يَا سَيِّدِي إِنْ لَمْ تُغِثْ سَبَانِي

وقالَ ذو النونِ المصريُّ : (إنْ كانَ هو يراكَ مِنْ حيثُ لا تراهُ . . فإنَّ اللهَ يراهُ مِنْ حيثُ لا يرى اللهَ ، فاستعنْ باللهِ عليهِ)[3]

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ « قَالَ إِبْلِيسُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ : بِعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ ؛ لا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ ٱلأَرْوَاحُ فِيهِمْ ، قَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ : بِعِزَّتِي وَجَلالِي ؛ لا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا ٱسْتَغْفَرُونِي »[4]

* *

---

(١) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (٤/ ٢٢٧) .

(٢) أورد هـٰذا الرجز الثعلبي في « الكشف والبيان » (٤/ ٢٢٧) ، والسياق عنده ، وكذا وقع الرجز ثلاثياً في جميع النسخ المعتمدة وغيرها

(٣) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (٤/ ٢٢٧)

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٩) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٧٨٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٦١)

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المئتين (*)

جَعَلَهُ لَكَ عَدُوّاً لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ ، وَحَرَّكَ عَلَيْكَ ٱلنَّفْسَ لِيُدِيمَ إِقْبَالَكَ عَلَيْهِ .

عداوةُ الشيطانِ لكَ نعمةٌ عظيمةٌ مِنَ اللهِ عليكَ ؛ إذْ مِنْ مقتضاها كما قلناهُ : ألا يغفُلَ عنكَ ، وأنْ يبذلَ جهدَهُ في محاربتِكَ ومقاتلتِكَ بنفسِهِ وبجندِهِ ، وبخيلِهِ ورَجِلِهِ ، ولا طاقةَ لكَ على مقاتلتِهِ بنفسِكَ ؛ لأنَّكَ في غايةِ الضعفِ والعجزِ ، فيضطرُّكَ الحالُ ـ لا محالةَ ـ إلى الاستعانةِ عليهِ بمولاكَ القويِّ المتينِ ، فيوجدُ منكَ حينئذٍ الالتجاءُ إليهِ ، والانتصارُ بهِ ، والتوكُّلُ عليهِ في دفعِهِ عنكَ ، فعداوةُ الشيطانِ هي التي ردَّكَ الحقُّ بها إليهِ ، وجمعَكَ بها عليهِ ، وهـٰذا هو غايةُ المقصودِ .

وكذلكَ حركةُ النفسِ عليكَ بالحملِ على متابعةِ الهوى والشهوةِ بما جعلَ فيها مِنَ الطبعِ والجبلَّةِ . . نعمةٌ عظيمةٌ أيضاً ، وإنْ كانَتْ أعدى الأعداءِ لكَ ، وبواسطتِها يتوصَّلونَ إليكَ ، وبأمرِها يعملونَ فيما يعودُ بالضررِ عليكَ ؛ مِنْ قِبَلِ أنَّكَ لا تقدرُ على مجاهدتِها ، وقمعِ هواكَ الممتزجِ بلحمِكَ ودمِكَ . . إلا بمَنْ هو أقوى منكَ ،

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى ثبوت حكمة الله العلية في خلقه الشيطان والنفس والهوى والدنيا ، دون علة ، أو استجلاب منفعة ، أو دفع مضرة .

ويطلب معنى هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس : ٨٥ـ٨٦] ، وقوله تعالى حكاية : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا ملجأَ ولا منجى منكَ إلا إليكَ » ، رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

وليسَ ذلكَ إلا مولاكَ ، فقد دعاكَ بهٰذا إلىٰ دوامِ الإقبالِ إليهِ ، والعكوفِ بالهمِّ عليهِ .

وكأنَّ المؤلفَ رحمَهُ اللهُ قصدَ في هٰذهِ الكلماتِ إلىٰ ذكْرِ الأعداءِ الأربعةِ المذكورينَ في قولِ الشاعرِ[1] : [من الكامل]

إِنِّـي بُلِيـتُ بِـأَرْبَـعٍ يَـرْمِينَنِـي بِـٱلنَّبْـلِ عَـنْ قَـوْسٍ بِهَـا تَـوْتِيـرُ
إِبْلِيسُ وَٱلدُّنْيَا وَنَفْسِي وَٱلْهَوَىٰ يَا رَبِّ أَنْتَ عَلَى ٱلْخَلاصِ قَدِيرُ

وبيَّنَ في كلامِهِ وجودَ عداوتِهم ، ووجوهَ الاحترازِ منها ، وتمَّمَ ذلكَ ببيانِ أنَّ تلكَ العداوةَ وإنْ عظُمَتْ . . مِنْ أعظمِ الوسائلِ إلىٰ أسنى المطالبِ لمَنْ أُريدَ بذلكَ ووُفِّقَ لهُ ، وأتىٰ بجميعِ ذلكَ في ألفاظٍ بديعةٍ مختصرةٍ وجيزةٍ محرَّرةٍ ، فاعرفْ قدْرَ هٰذا الفصلِ ، واعترفْ لواضعِهِ بكمالِ النُّبْلِ والفَضْلِ

* * *

---

(١) البيتان أوردهما العارف الحاتمي في « الفتوحات » (١/ ٢٧٨) ، قال : وقال الآخر :

إبليسُ والدنيا ونفسي والهوىٰ كيفَ الخلاصُ وكلُّهم أعدائي

الباب الخامس والعشرون
في رفع الهمّة والاستكبار

الحكمة السادسة والأربعون بعد المئتين (*)

وقال رضي الله عنه :

مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعاً فَهُوَ ٱلْمُتَكَبِّرُ حَقّاً ؛ إِذْ لَيْسَ ٱلتَّوَاضُعُ إِلا عَنْ رِفْعَةٍ ، فَمَتَىٰ أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَوَاضُعاً فَأَنْتَ ٱلْمُتَكَبِّرُ .

إثباتُ التواضعِ يقتضي وجودَ الرفعةِ لا محالةَ ؛ إذْ لو كانَتْ معدومةً لكانَ ضدُّها ـ وهو الضَّعَةُ ـ ثابتاً موجوداً ، ولا ينتفي عنِ العبدِ التكبُّرُ إلا بوجودِ الضَّعَةِ ، ووجودُ الضَّعَةِ لا يحتاجُ إلىٰ إثباتٍ مِنَ العبدِ ؛ لأنَّهُ ثابتٌ في نفسِهِ ، فالتواضعُ الذي أثبتَهُ العبدُ لنفسِهِ لا ينفي عنهُ وجودَ التكبُّرِ بالضرورةِ .

وأيضاً : فإنَّ لفظةَ التواضعِ تؤذنُ بذلكَ ؛ فإنَّ التواضعَ تفاعلٌ مِنَ الضَّعَةِ ، وأكثرُ بابِ التفاعلِ موضوعٌ لإظهارِ الصفةِ وليسَتْ كذلكَ ؛ كالتنادمِ والتناكرِ والتفارحِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الممكنات والحادثات مجتمعةٌ في رتبة واحدة لا تقبل التفاوت ، وكلُّها فعلُ الله سبحانه ، والرفعة والضعة على التحقيق لا تتعيَّن إلا بحكم صاحبها عليها ، فهو ما شاء قدَّم ، وما شاء أخَّر ، إلا أن لذلك علامات شرعية جعلية ، مشروطة بخاتمة مغيبة ، فسبحان الحكيم علىٰ ما حكم !

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف : ٣١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج : ٣٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ألا أخبرُكم بأهلِ الجنَّةِ ؟! كلُّ ضعيفٍ متضعِّفٍ ، لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ ، ألا أخبرُكم بأهلِ النارِ ؟! كلُّ عُتُلٍّ جوَّاظٍ مستكبرٍ » ، رواه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) من حديث سيدنا حارثة بن وهب رضي الله عنه

والتماوتِ وغيرِ ذلكَ ، فصيغةُ التواضعِ لا تقتضي حقيقةَ الضَّعَةِ وعدمَ الرفعةِ ، ولا يلزمُ مِنْ وجودِها ذلكَ ، والمطلوبُ مِنَ العبدِ : إنَّما هو أنْ يتَّصفَ بذلكَ حقيقةً لا إظهاراً فقطْ ؛ بأنْ ينتفيَ عنهُ وجودُ الرفعةِ بالكليَّةِ ، وحينَئذٍ يبرأُ العبدُ مِنَ التكبُّرِ ، ولا يكونُ لهُ وجودٌ ألبتةَ .

* * *

الحكمة السابعة والأربعون بعد المئتين (*)

لَيْسَ ٱلْمُتَوَاضِعُ ٱلَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَىٰ أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ ، وَلَـٰكِنِ ٱلْمُتَوَاضِعُ ٱلَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَىٰ أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ .

هـٰذا بيانٌ آخرُ لما ذكرَهُ مِنْ أنَّ العبدَ المتواضعَ حقيقةً لا يُثبِتُ التواضعَ لنفسِهِ ؛ لأنَّهُ يشاهدُ مِنْ ضَعَةِ قدرِهِ وخمولِ ذكرِهِ وذلَّتِهِ ومهانتِهِ . . ما يمنعُهُ مِنْ ذلكَ ، **وهـٰذا هو التواضعُ الحقيقيُّ** ؛ وهو شهودُهُ لذلكَ ووجْدُهُ بهِ ، وظهورُ آثارِهِ علىٰ ظاهرِهِ ، بل شهودُهُ لذلكَ ووجدُهُ بهِ ممَّا يقدحُ في حقيقةِ تواضعِهِ ، كما قالَ الشيخُ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ وجدَ ذَوْقَ ذُلِّهِ في ذُلِّهِ . . فهو متعزِّزٌ ، وفيهِ بقيَّةٌ)[1]

فهـٰذا العبدُ المتَّصفُ بهـٰذهِ الصفةِ لو فعلَ مِنْ أفعالِ المتواضعينَ ما شاءَ . . لم يثبتْ بذلكَ لنفسِهِ تواضعاً ؛ لأنَّهُ يرىٰ نفسَهُ دونَ ما صنعَ مِنْ ذلكَ ؛ لغلبةِ ذلكَ الشهودِ والوجدِ عليهِ ، فإنْ أثبتَهُ لنفسِهِ ، ورأىٰ نفسَهُ فوقَ ما صنعَ ممَّا يقتضي وجودَ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وأنْ ليس للعباد من أفعالهم إلا أكسابُها ، فلا معنىٰ للتبجُّح بها ؛ فإنما الأعمال أعلام الثواب والعقاب .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص ٢٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « نحنُ أحقُّ بالشكِّ مِنْ إبراهيمَ ؛ إذْ قالَ ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، ويرحمُ اللهُ لوطاً ؛ لقد كانَ يأوي إلىٰ ركنٍ شديدٍ ، ولو لبثْتُ في السجنِ طولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعيَ » ، رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) المعنىٰ في « قوت القلوب » (٢/ ١١٤٤) .

صفةِ التواضعِ لهُ بزعمِهِ . . فهو متكبِّرٌ حقيقةً[1]

ولذلكَ قالَ الشبليُّ يوماً في بعضِ كلامِهِ : (ذُلِّي عطَّلَ ذلَّ اليهودِ)[2]

وقالَ : (مَنْ رأىٰ لنفسِهِ قيمةً ، فليسَ لهُ مِنَ التواضعِ نصيبٌ)[3]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (لا يتواضعُ العبدُ للهِ حتىٰ يعرفَ نفسَهُ)[4]

وقالَ أبو يزيدَ : ما دامَ العبدُ يظنُّ أنَّ في الخلْقِ مَنْ هو شرٌّ منهُ . . فهو متكبِّرٌ[5] ، قيلَ فمتىٰ يكونُ متواضعاً ؟ قالَ : إذا لم يرَ لنفسِهِ مقاماً ولا حالاً ، وتواضعُ كلِّ أحدٍ علىٰ قدرِ معرفتِهِ لنفسِهِ وبربِّهِ[6]

قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ (لوِ اجتمعَ الخلْقُ علىٰ أنْ يضعوني كاتِّضاعي عندَ نفسي . . ما قدروا عليهِ)[7]

وقالَ يونسُ بنُ عبيدٍ وقدِ انصرفَ مِنْ عرفاتٍ : لم أشكَّ في الرحمةِ لولا أنِّي كنتُ فيهم[8]

---

(١) قال إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٧/٢٩٩) : (أنت شيء إذْ جعلك خالق الأشياء شيئاً ، وإنما أنت لا شيء إذا كنت ظاناً لنفسك شيئية من ذاتك) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٣٨٥) وقال : (يعني قوله تعالىٰ : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ [آل عمران : ١١٢])

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٣٨٢) ولـٰكن عن الفضيل بن عياض .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٦٢) .

(٥) إلىٰ هنا رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٦)

(٦) أورده بتمامه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٦٣) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٤)
وفي « الرسالة القشيرية » (ص ٣٨٦) : (قيل مشىٰ عبد الله بن محمد بن واسع مشياً لا يحمد ، فقال له أبوه : تدري بكم اشتريتُ أمَّكَ ؟! بثلاث مئة درهم ، وأبوك لا أكثر الله في المسلمين مثله أباً ، وأنت تمشي هـٰذه المشية ؟!) .

(٨) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٤٨٤) ، وروىٰ نحوه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٩٠٣) ولـٰكن عن بكر بن عبد الله المزني .

وقيلَ لمحمدِ بنِ مقاتلٍ : ادعُ اللهَ لنا ، فبكىٰ وقالَ : ليتني لم أكنْ أنا سببَ هلاكِكم[1]

ومِنْ علاماتِ التحقُّقِ بهـٰذا الخلقِ : ألا يغضبَ إذا عِيبَ أو تُنُقِّصَ ، ولا يكرهَ أنْ يُذَمَّ ويُقذفَ بالكبائرِ .

ومِنْ علاماتِ تحقُّقِهِ بِهِ أيضاً أنْ يشتدَّ حرصُهُ علىٰ ألا يكونَ لهُ جاهٌ وقَدْرٌ عندَ الناسِ ، ويلتزمَ الصدقَ في حالِهِ ؛ بألا يرىٰ لنفسِهِ موضعاً في قلوبِهم[2]

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (ادفنْ وجودَكَ في أرضِ الخمولِ ، فما نبتَ ممَّا لم يُدفنْ لا يتمُّ نتاجُهُ)[3]

وحُكِيَ عنِ الحسينِ بنِ الكُرَينيِّ أستاذِ الجنيدِ[4] : أنَّ رجلاً دعاهُ ثلاثَ مراتٍ إلىٰ طعامِهِ ، ثم يردُّهُ فيرجعُ إليهِ بعدَ ذلكَ ، حتىٰ أدخلَهُ دارَهُ في المرَّةِ الرابعةِ ، فسألَهُ عن ذلكَ ، فقالَ : رُضْتُ نفسي على الذُّلِّ عشرينَ سنةً ، حتىٰ صارَتْ بمنزلةِ الكلبِ ، يُطردُ فينطردُ ثم يُدعىٰ فيعودُ ، ويُرمىٰ لهُ عظمٌ فيجيبُ ، ولو رددتَني خمسينَ مرَّةً ، ثم دعوتَني بعدَ ذلكَ . . لأجبتُكَ[5]

---

(١) أورده الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٤٨٤) ، وفيه : أن السائل رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال : إن الله تعالىٰ دفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل

(٢) من ذلك خبر العارف بالله تعالىٰ إبراهيم بن أدهم الآتي (ص ٩١٠) ، وروى الترمذي (١٠١٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ، ويشهد الجنازة ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ، وكان يوم بني قريظة علىٰ حمار مخطوم بحبل من ليف ، عليه إكاف ليف)

(٣) انظر (ص ١٩٥) .

(٤) في (ج ، د) : (أبي الحسين) بدل (الحسين) ، **والكريني** : نسبة إلىٰ كُرين ؛ بتخفيف الراء وتشديدها ؛ قرية من قرىٰ طبس في إيران .

(٥) رواه الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١١٤٥) ، وانظر خبر السالك مع أبي يزيد حينما أمره بحلق لحيته (ص ١٩٩) ، وروى الحافظ أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦٣) عن الإمام الجنيد أنه قال : (لولا أنه يُروىٰ أنه يكون في آخر الزمان : زعيم القوم أرذلهم . . ما تكلمت عليكم) ، وهو شيخ الطائفة رضي الله عنه .

قالَ أبو طالبِ المكيُّ (حُدِّثْتُ عن بعضِ الصوفيَّةِ أنَّهُ وقفَ علىٰ رجلٍ وهو يأكلُ ، فمدَّ يدَهُ وقالَ إنْ كانَ ثَمَّ شيءٌ للهِ تعالىٰ ، فقالَ اجلسْ فكُلْ ، فقالَ : أعطني في كفِّي ، فأعطاهُ في كفِّهِ ، فقعدَ يأكلُ في مكانِهِ ، فسألَهُ عنِ امتناعِهِ مِنَ الجلوسِ معَهُ ، فقالَ : إنَّ حالي معَ اللهِ تعالى الذلُّ ، فكرهتُ أنْ أُفارقَ حالي

قالَ : وكانَ هٰذا ربَّما مدَّ يدَهُ إلى الهرَّاسِ فيجعلُ فيها هريسةً)[١]

ومِنْ أغربِ ما رأيتُ في التواضعِ ما ذكرَهُ صاحبُ « عوارفِ المعارفِ » ، قالَ (رأيتُ شيخَنا ضياءَ الدينِ أبا النجيبِ وكنتُ معَهُ في سفرِهِ إلى الشامِ ، وقد بعثَ بعضُ أبناءِ الدنيا لهُ طعاماً علىٰ رؤوسِ الأسارىٰ مِنَ الإفرنجِ وهم في قيودِهم ، فلمَّا مُدَّتِ السُّفْرةُ والأسارىٰ ينتظرونَ الأوانيَ حتىٰ تفرغَ[٢] . . قالَ للخادمِ أحضرِ الأسارىٰ حتىٰ يقعدوا على السُّفْرةِ معَ الفقراءِ ، فجاءَ بهم وأقعدَهم على السُّفْرةِ صفّاً واحداً ، وقامَ الشيخُ مِنْ سَجَّادتِهِ ومشىٰ إليهم ، وقعدَ بينَهم كالواحدِ منهم ، وأكلَ وأكلوا ، وظهرَ لنا علىٰ وجهِهِ ما نازلَ باطنَهُ ؛ مِنَ التواضعِ للهِ تعالىٰ ، والانكسارِ في نفسِهِ ، وانسلاخِهِ مِنَ التكبُّرِ عليهم بإيمانِهِ وعلمِهِ وعملِهِ)[٣]

وأغربُ مِنْ هٰذا : ما ذكرَهُ صاحبُ كتابِ « بغيةِ الطالبِ ومنيةِ الراغبِ » أبو الحسنِ عليُّ بنُ عتيقِ بنِ مؤمنٍ القرطبيُّ[٤] ، عن أبيهِ : أنَّهُ رأى الشيخَ الفقيهَ أبا محمدٍ عبدَ اللهِ بنَ عبدِ الرحمٰنِ بنِ مفيدٍ ـ وكانَ مِنَ الفقهاءِ العلماءِ ـ يوماً وهو يمشي في يومٍ شاتٍ كثيرِ الطينِ ، فاستقبلَهُ كلبٌ يمشي على الطريقِ التي كانَ عليها ، قالَ

---

(١) قاله في « قوت القلوب » (٢/ ١١٤٥) .

(٢) السفرة : طعام المسافر ، ثم شاع فيما يؤكل عليه .

(٣) عوارف المعارف (٢/ ٦٦)

(٤) انظر « التكملة لكتاب الصلة » لابن الأبَّار (٣/ ٢٢١) ، وفي « ذيلها » (١/ ٢٦٠) : أن اسم الكتاب : « بغية الراغب ومنية الطالب » ، وأنه برنامج بحجم « سنن الترمذي » ، ذكر فيه أحوال شيوخه وأخبارهم ومناقبهم ومراتبهم ، وأنه كثير الإمتاع ومنوّع الفنون ، توفي سنة (٥٩٨هـ) .

فرأيتُهُ قد لصقَ بالحائطِ ، وعملَ للكلبِ طريقاً ، ووقفَ ينتظرُهُ ليجوزَ فحينَئذٍ يمشي هو ، فلمَّا قرُبَ منهُ الكلبُ ، قالَ : فرأيتُهُ قد تركَ مكانَهُ الذي كانَ فيهِ ، ونزلَ أسفلَ ، وتركَ الكلبَ يمشي فوقَهُ !

قالَ : فلمَّا جاوزَهُ الكلبُ وصلتُ إليهِ ، فوجدتُهُ وعليهِ كآبةٌ ، فقلتُ : يا سيدي ؛ إنِّي رأيتُكَ صنعتَ الآنَ شيئاً استغربتُهُ ! كيفَ رميتَ بنفسِكَ في الطينِ وتركتَ الكلبَ يمشي في الموضعِ النقيِّ ؟!

فقالَ لي : بعدَ أنْ عملتُ لهُ طريقاً تحتي تفكَّرْتُ وقلتُ : ترفَّعتُ على الكلبِ ، وجعلتُ نفسي أرفعَ منهُ ، بل هو واللهِ أرفعُ منِّي وأولىٰ بالكرامةِ ؛ لأنِّي عصيتُ اللهَ تعالىٰ ، وأنا كثيرُ الذنوبِ ، والكلبُ لا ذنبَ لهُ ، فنزلتُ لهُ عن موضعي ، وتركتُهُ يمشي عليهِ ، وأنا الآنَ أخافُ المقتَ مِنَ اللهِ ألا يعفوَ عنِّي ؛ لأنِّي رفعتُ نفسي علىٰ مَنْ هو خيرٌ منِّي[1]

❊

---

(١) وهو بحقٍّ خبر عجيب ، ولمولانا بدر الشام العلامة العارف بالله تعالىٰ محمد بدر الدين بن يوسف الحسني البيباني المغربي . . خبرٌ قريب من ذلك ؛ إذ كان رحمه الله تعالىٰ ماراً مع ثلة من تلامذته في طريق ؛ فعرض لهم كلبٌ ، فزجره التلامذة ليمرَّ الشيخ ، فزبرهم الشيخ وقال دعوه ؛ فالطريق بيننا وبينه بالسويّة .

الحكمة الثامنة والأربعون بعد المئتين (*)

ٱلتَّوَاضُعُ ٱلْحَقِيقِيُّ : هُوَ مَا كَانَ نَاشِئاً عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ ، وَتَجَلِّي صِفَتِهِ

شهودُ عظمةِ اللهِ تعالىٰ وتجلِّي صفتِهِ هو الذي يوجبُ للعبدِ وجودَ التواضعِ الذي ذكرناهُ ؛ لأنَّ ذلكَ هو الذي يخمدُ النفسَ ويذيبُها ، ويبطلُ إنيَّتَها[1] ، فما تجلَّى اللهُ تعالىٰ لشيءٍ إلا خضعَ لهُ[2] ، فلا تنقلعُ مِنَ النفسِ شجرةُ الرئاسةِ والكبرِ إلا

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن معرفة الله تعالىٰ بحكيم أفعاله وسنيِّ صفاته . . تملأ قلب العبد إجلالاً وإعظاماً لذاته القديمة عزَّ وجلَّ ، فينكسر في نفسه انكسار عبد قِنٍّ ؛ وجوده وبقاؤه في تعويل علىٰ إرادته وقدرته سبحانه ، وتتَّضع له نفسه حتىٰ يكاد يتلاشىٰ لولا إمساك قدرته تعالىٰ له ، وإنما حقائق الإيمان تتجلىٰ في الخشوع والتواضع ، والمحبة الممزوجة بالخوف والرجاء .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة : ٥٢] ، وقوله تعالىٰ حكاية ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وبمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ ، وأعوذُ بكَ منكَ لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ » ، رواه مسلم (٤٨٦) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها

(١) كذا في (ج ، د) ، على اضطراب في (ج) ، وفي (أ ، ب) : (أَنَفَها) ، وفي (هـ) : (أمانيَّها) ، والكلُّ له توجيه وجيه ، ولـٰكن المثبت هو الأليق بالسياق وكلام القوم ، والله أعلم ، والإنيَّة عندهم : إثبات الاثنينية ، وبقاء حجاب الأنا (الأنانية) .

(٢) إشارة إلىٰ ما رواه النسائي (٣/ ١٤٤)، وابن ماجه (١٢٦٢) من حديث سيدنا قبيصة الهلالي والنعمان ابن بشير رضي الله عنهم مرفوعاً : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا تجلَّىٰ لشيءٍ مِنْ خلقِهِ يخشعُ لهُ »، ومصداقه قوله تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١]، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

بهِ[1] ، لا بما يتكلَّفُهُ العبدُ ، ويتعاطاهُ بنفسِهِ مِنْ أعمالٍ وأحوالٍ .

قالَ الجنيدُ : (التواضعُ عندَ أهلِ التوحيدِ تكبُّرٌ)[2]

وقالَ الشيخُ أبو حامدٍ : (ولعلَّ مرادَهُ أنَّ المتواضعَ يثبتُ نفسَهُ ثم يضعُها ، والموحِّدُ لا يثبتُ نفسَهُ ولا يراها شيئاً حتىٰ يضعَها أو يرفعَها)[3]

وقالَ ذو النونِ : (مَنْ أرادَ التواضعَ فليوجِّهْ نفسَهُ إلىٰ عظمةِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّها تذوبُ وتصغرُ ، ومَنْ نظرَ إلىٰ سلطانِ اللهِ تعالىٰ ذهبَ سلطانُ نفسِهِ ؛ لأنَّ النفوسَ كلَّها حقيرةٌ عندَ هيبتِهِ ، ومِنْ أشرفِ التواضعِ ألا ينظرَ إلىٰ نفسِهِ دونَ اللهِ تعالىٰ)[4]

وفي كتابِ « عوارفِ المعارفِ » : (واعلمْ أنَّ العبدَ لا يبلغُ حقيقةَ التواضعِ إلا عندَ لمعانِ نورِ المشاهدةِ في قلبِهِ ، فعندَ ذلكَ تذوبُ النفسُ ، وفي ذوبانِها صفاؤُها مِنْ غشِّ الكبرِ والعجبِ ، فتلينُ وتنطبعُ للحقِّ وللخلْقِ بمحوِ آثارِها ، وسكونِ وَهَجِها وغبارِها)[5]

* * *

(1) وفي « إحياء علوم الدين » (٦/ ٢٥٩) : (قيل : آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حبُّ الرئاسة) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٨/ ٢٣٢) (نقله القشيري وصاحب « القوت »)

(2) أورده الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٤٨٧) .

(3) قاله في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٤٨٧) عقب القول المذكور .

(4) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٦٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٨٧٩) وزاد : (ومعنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ تواضعَ للهِ رفعَهُ اللهُ » ؛ يقول : من تذلَّلَ بالمسكنة والفقر إلى الله.. رفعه الله ؛ يعني : بالانقطاع إليه) ، لا أن يشتغل بالناس وهو مترفع عليهم .

(5) عوارف المعارف (٢/ ٧٠) .

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المئتين (*)

لا يُخرِجُكَ عَنِ ٱلْوَصْفِ إلا شُهُودُ ٱلْوَصْفِ .

هـٰذهِ عبارةٌ مليحةٌ ، موافقةٌ لمعنىٰ ما تقدَّمَ الآنَ

والوصفُ المذكورُ أوّلاً : وصفُ العبدِ ، والوصفُ المذكورُ ثانياً : وصفُ الربِّ تباركَ وتعالىٰ

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة (١٣٠) ، وإلىٰ أن صفات الحق جلَّ وعزَّ إذا أشرقت أنوارها في قلب العبد . . انماثت أوصافه النفسانية ؛ لأن الضدين لا يجتمعان ، وأنوار الصفات : سريان معرفتها في عقل العبد وقلبه ، وأن لا ثبوت للحادث عند تجلي القديم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف : ٥٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « بل أكونُ عبداً نبيّاً » ، قال سيدنا ابن عباس فما أكلَ بعدَ تلك الكلمة طعاماً متَّكئاً ، رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٦٧١٠) من حديثه رضي الله عنه

الحكمة الخمسون بعد المئتين (*)

ٱلْمُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ ٱلثَّنَاءُ عَلَى ٱللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِراً ، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ ٱللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِراً

شكرُ النفسِ : رؤيةُ نسبةِ الأفعالِ الجميلةِ والأحوالِ الحميدةِ إليها ، وذلكَ ثناءٌ عليها ، وهو مضادٌّ للثناءِ على اللهِ تعالىٰ

وذكرُ حظِّها مِنِ اعتقادِ أنَّ لها حقّاً علىٰ ما تفعلُهُ مِنَ الطاعاتِ ، وهو مضادٌّ للقيامِ بحقوقِ اللهِ تعالىٰ

فالمؤمنُ الحقيقيُّ لا يلتفتُ إلىٰ نفسِهِ في نسبةِ شيءٍ مِنَ المحاسنِ إليها ، وفي طلبِ حظٍّ عليهِ لها ، بل يشغلُهُ الثناءُ على اللهِ تعالىٰ والحرصُ علىٰ توفيةِ حقوقِهِ عن جميعِ ذلكَ .

❊

(*) ترجع هاذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن لا حقَّ للعباد على الله تعالىٰ عقلاً ، وإلىٰ أن في قضاءِ حقوق الله تعالىٰ علىٰ عباده ، والمسابقةِ في طلب خيراته ومبرَّاته . . مشغلةً للعبد عن أن يشتغل بنفسه ويقضي أوطارها ، وما زاد من هنا نقص بقدره من هناك ، لا طمسَ الله أبصارنا ، ونوَّلنا من رضاه مرادنا

ويطلب معنىٰ هاذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح ٧ـ ٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب ٤١ ـ ٤٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام وقد قام الليل حتى انتفخت قدماه ، فقيل له في ذلك ، فقال : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ؟! » ، رواه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) من حديث سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه

الحكمة الحادية والخمسون بعد المئتين (*)

لَيْسَ ٱلْمُحِبُّ ٱلَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضاً ، وَيَطْلُبُ مِنْهُ غَرَضاً(١) ؛ فَإِنَّ ٱلْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ(٢) ، لَيْسَ ٱلْمُحِبُّ مَنْ يُبْذَلُ لَهُ .

المحبةُ تقتضي مِنَ المحبِّ بذلَ كليَّاتِهِ وجزئيَّاتِهِ في مرضاةِ محبوبِهِ ، مِنْ غيرِ طلبِ حظٍّ ينالُهُ منهُ ، فهـٰذا ممَّا يلزمُ وجودَ المحبةِ ، كما قيلَ [من الكامل]

إِنَّ ٱلْمُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ حَبِيبَهُ ... تَلْقَاهُ يَبْذُلُ فِيهِ مَا لا يُبْذَلُ

بل يرىٰ ما فعلَ مِنْ ذلكَ غايةَ الحظِّ ، وموافقةَ رضا محبوبِهِ نهايةَ السعادةِ والبختِ(٣) ، كما قالَ أبو حفصٍ عمرُ بنُ الفارضِ(٤) : [من الكامل]

مَا لِي سِوَىٰ رُوحِي وَبَاذِلُ رُوحِهِ ... فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن لا تقاصَّ بين العبد وربه ، فضلاً عن أن يكون للعبد حق علىٰ مولاه ، وإلىٰ أن المحبة مؤسسة علىٰ إيثار رضا المحبوب ، وقلة الصبر عنه ، ولا يتصور مع هـٰذا عوض أو غرض ؛ إذ لا معاوضة بين المحب ومحبوبه ، بل شكوى التقصير
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ [ص : ٣٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وجدَ طعمَ الإيمانِ : أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممَّا سواهما . . . » الحديث ، رواه البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١) كذا في (ج) ، وفي غيرها : (ولا يطلب) بدل (ويطلب) .

(٢) في (ج ، هـ) زيادة : (لك) .

(٣) البخت : الحظ والجد ، كلمة معربة أو مولدة .

(٤) انظر « ديوانه » (ص١٥١) .

فَلَئِنْ رَضِيتَ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِي ... يَا خَيْبَةَ ٱلْمَسْعَىٰ إِذَا لَمْ تُسْعِفِ

ولذلكَ قيلَ : المحبةُ الإيثارُ ؛ وهو ألا يدعَ لمحبوبِهِ ميسوراً إلا بذلَهُ ، ولا ممكناً إلا استعملَهُ ، ولا يبقيَ لنفسِهِ ولحظِّهِ نَفَساً ولا سِمَةً[1] ، ولا يستثنيَ مِنْ كلِّ ما بذلَهُ لهُ سمسمةً ، وأنشدوا : [من الطويل]

لَئِنْ بَقِيَتْ فِي ٱلْعَيْنِ مِنِّيَ نَظْرَةٌ[2] ... فَإِنِّي إِذاً فِي ٱلْعَاشِقِينَ دَخِيلُ

وقالَ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ : (حقيقةُ المحبَّةِ : أنْ تهبَ كلَّكَ لمَنْ أحببتَهُ ، حتىٰ لا يبقىٰ لكَ منكَ شيءٌ)[3]

وقالَ أبو يعقوبَ السوسيُّ : (حقيقةُ المحبَّةِ : أنْ ينسى العبدُ حظَّهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وينسىٰ حوائجَهُ إليهِ)[4]

وقيلَ لبعضِ المحبِّينَ المحبوبينَ[5] ، وكانَ قد بلغَ المجهودَ في بذلِ مالِهِ ونفسِهِ حتىٰ لم يبقَ منهُ بقيةٌ : ما كانَ سببُ حالِكَ هٰذهِ في المحبةِ ؟ فقالَ : كلمةٌ سمعتُها مِنْ خلْقٍ لخلْقٍ ، عملَتْ فيَّ هٰذا البلاءَ ، قيلَ : وما هي ؟ قالَ : سمعتُ محبّاً خلا بمحبوبِهِ وهو يقولُ : أنا واللهِ أحبُّكَ بقلبي كلِّهِ[6] ، وأنتَ تعرضُ عنِّي بوجهِكَ كلِّهِ ، فقالَ لهُ المحبوبُ : إنْ كنتَ تحبُّني فأيَّ شيءٍ تنفقُ عليَّ ؟ فقالَ : يا سيِّدي ؛ أملِّكُكَ ما أملكُ ، ثم أنفقُ عليكَ روحي حتىٰ أهلِكَ .

فقلتُ : هٰذا خلقٌ لخلْقٍ ، وعبدٌ لعبدٍ ، فكيفَ بخلْقٍ لخالقٍ ، وعبدٍ لمعبودٍ ؟! فكانَ هٰذا سببَهُ[7]

---

(١) السِّمَة : العلامة ، وفي (ج ، د ، هـ) : (سِنَة) بدل (سمة) .

(٢) في (ج) : (قطرةٌ) بدل (نظرة) .

(٣) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٥٣) .

(٤) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٥٥) .

(٥) قوله : (المحبوبين) زيادة من (ب ، هـ) ، وفي « القوت » : (المحبوبين) فقط .

(٦) انظر ما تقدم من خبر سيدنا سالم رضي الله عنه (ص ٧٧٢) .

(٧) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٥٩) .

فهٰذا الذي ذكرناهُ مِنْ لوازمِ المحبَّةِ الحقيقيةِ ، وأمّا رجاءُ العوضِ وطلبُ الغرضِ فهو حالٌ مِنْ مقامِ الرجاءِ ، وليسَ مِنْ مقامِ المحبَّةِ المخصوصةِ في شيءٍ ، قالَ الشاعرُ[1] : [من الكامل]

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ فَانِياً عَنْ حَظِّهِ ... وَعَنِ ٱلْهَوَىٰ وَٱلْأُنْسِ بِٱلْأَحْبَابِ
فَلِأَنَّهُ بَيْنَ ٱلْمَرَاتِبِ وَاقِفٌ ... لِمَنَالِ حَظٍّ أَوْ لِحُسْنِ مَآبِ

وقالَ آخرُ[2] : [من الطويل]

وَمَا أَنَا بِٱلْبَاغِي عَلَى ٱلْحُبِّ رَشْوَةً ... ضَعِيفٌ هَوىً يُرجَىٰ عَلَيْهِ ثَوَابُ

وقالَ أبو محمدٍ رويمٌ : (مَنْ أحبَّ العوضَ بغَّضَ العوضُ إليهِ محبوبَهُ)[3]

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : إنِّي إذا اطَّلعْتُ علىٰ قلبِ عبدٍ ، فلم أجدْ فيهِ حبَّ الدنيا والآخرةِ . . ملأتُهُ مِنْ حُبِّي[4]

وقالَ بعضُ المحبِّينَ : كوشفتُ بأربعينَ حوراءَ ، رأيتُهُنَّ يتساعَيْنَ في الهواءِ ، عليهنَّ ثيابٌ مِنْ ذهبٍ وفضةٍ ، وجوهرٌ يتخشخشُ وينثني معَهنَّ ، فنظرتُ إليهن نظرةً ، فعوقبتُ أربعينَ يوماً

قالَ : ثم كوشفتُ بعدَ ذلكَ بثمانينَ حوراءَ فوقَهنَّ بالحسنِ والجمالِ ، وقيلَ لي : انظرْ إليهنَّ ، قالَ : فسجدتُ وغمَّضْتُ عينيَّ في سجودي لئلا أنظرَ إليهنَّ ،

---

(١) هو أبو علي الروذباري رحمه الله تعالىٰ كما في « اللمع » (ص ٤٣٥) .

(٢) هو المتنبي . انظر « ديوانه » (ص ٤٨١) ، والمعنىٰ وكان قد طلب قبل هٰذا البيت عطاءً ؛ حيث قال :

وفي النفسِ حاجاتٌ وفيكَ فطانةٌ ... سكوتي بيانٌ عندَها وخطابُ

قال : لا أطلب هٰذا العطاء في مقابلة محبتك ، إنما يفعل هٰذا من محبته ضعيفة ، وقوله : (ضعيفٌ) هو خبر مقدم ، وقوله : (هوىً) هو مبتدأ مؤخر ؛ فالهوى الذي يُرجىٰ عليه ثواب ضعيفٌ لا أتصف به

(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٨٤) .

(٤) انظر (ص ٧٧٢)

وقلتُ : أعوذُ بكَ ممَّا سواكَ ، لا حاجةَ لي بهنَّ ، فلم أزلْ أتضرَّعُ إلى اللهِ تعالىٰ حتىٰ صرفَهنَّ عنِّي [١]

وذكرَ الحافظُ أبو نعيمٍ قالَ قالَ ميسرةُ الخادمُ : غزونا في بعضِ الغزواتِ ، فإذا فتىً إلىٰ جانبي [٢] ، وإذا هو مقنَّعٌ في الحديدِ ، فحملَ على الميمنةِ حتىٰ ثناها ، وعلى الميسرةِ حتىٰ ثناها ، وحملَ على القلبِ حتىٰ ثناهُ ، ثم أنشأَ يقولُ : [من مشطور الرجز]

أَحْسِنْ بِمَوْلاكَ سَعِيدُ ظَنَّا
هَـٰذَا ٱلَّذِي كُنْتَ لَهُ تَمَنَّىٰ
تَنَحَّ يَا حُورَ ٱلْجِنَانِ عَنَّا [٣]
مَا لَكِ قَاتَلْنَا وَلا قُتِلْنَا
لَـٰكِنْ إِلَىٰ سَيِّدِكُنَّ ٱشْتَقْنَا
قَدْ عَلِمَ ٱلسِّرَّ وَمَا أَعْلَنَّا

قالَ فحملَ فقاتلَ حتىٰ قتلَ منهم عدداً كثيراً ، ثم رجعَ إلىٰ مصافِّهِ ، فتكالبَ عليهِ العدوُّ ، فإذا هو قد حملَ على الناسِ وأنشأَ يقولُ [من مشطور الرجز]

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو وَرَجَائِي لَمْ يَخِبْ

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١١٤١) ، والغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٧٣) وقال : (أمثال هـٰذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي . . لضاق مجال الإيمان عليه ، بل هـٰذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة ، أدناها الإخلاصُ ، وإخراجُ حظوظ النفس وملاحظةِ الخلق عن جميع الأعمال ظاهراً وباطناً ، ثم مكاتمةُ ذلك عن الخلق بستر الحال ، حتىٰ يبقىٰ متحصناً بحصن الخمول ، فهـٰذه أوائل سلوكهم ، وأقلُّ مقاماتهم ، وهي أعزُّ موجود في الأتقياء من الناس) .

(٢) سمّاه الحافظ أبو نعيم بسعيدٍ الشهيد ، وقال في طالعة ترجمته : (ومنهم سعيدٌ الشهيد ، المقنع في الحديد ، المشتاق إلىٰ رؤية المنعم المجيد) .

(٣) قوله : (تَنَحَّ) الأصل أن يقال : (تَنَحَّيْ) ، أو تقرأ (تَنَحَّ) باعتبار المجموع ، ولـٰكن يشكل التصريح بالتأنيث فيما سيأتي .

أَلا يَضِيعَ ٱلْيَوْمَ كَدِّي وٱلطَّلَبْ
يَا مَنْ مَلا تِلْكَ ٱلْقُصُورَ بِٱللُّعَبْ
لَوْلاكَ مَا طَابَتْ وَلا طَابَ ٱلطَّرَبْ

فحملَ فقاتلَ فقتلَ منهم عدداً ، ثم رجعَ إلىٰ مصافِّهِ ، فتكالبَ عليهِ العدوُّ ، فحملَ الثالثةَ وأنشأَ يقولُ : [من مشطور الرجز]

يَا لُعْبَةَ ٱلْخُلْدِ قِفِي ثُمَّ ٱسْمَعِي
مَا لَكِ قَاتَلْنَا فَكُفِّي وٱرْجِعِي
ثُمَّ ٱرْجِعِي إِلَى ٱلْجِنَانِ وٱسْرِعِي
لا تَطْمَعِي لا تَطْمَعِي لا تَطْمَعِي

فقاتلَ حتىٰ قُتِلَ رحمَهُ اللهُ(١) .

ولأجلِ ما ذكرناهُ مِنِ اقتضاءِ مقامِ المحبَّةِ كليَّةَ البذلِ مِنَ المحبِّ . . لزمَ وقوعُ الابتلاءاتِ والمطالباتِ بهِ ، حتىٰ يحصلَ لهُ توفيةُ حقوقِ هـٰذا المقامِ على التمامِ ، ولهـٰذا قالَ بعضُهم : أوَّلُ ما يقولُ جلَّ وتعالىٰ للعبدِ : اطلبِ العافيةَ والجنَّةَ والأعمالَ وغيرَ ذلكَ ، فإنْ قالَ : لا ، ما أريدُ إلا أنتَ . . قالَ لهُ : مَنْ دخلَ معي في هـٰذا إنَّما يدخلُ بإسقاطِ الحظوظِ ، ورفعِ الحدوثِ ، وثبوتِ القِدَمِ ، وذلكَ يوجبُ لكَ العدمَ .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا رأيتَكَ تحبُّهُ ، ورأيتَهُ يبتليكَ . . فاعلمْ أنَّهُ يريدُ أنْ يصافيَكَ)(٢)

وقالَ بعضُ المريدينَ لأستاذِهِ : قد طُولعتُ بشيءٍ مِنَ المحبَّةِ ، فقالَ : يا بنيَّ ؛

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٦٥) .
(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٤٩) ، ويمكن أن تقرأ ياء (يصافيك) بالسكون على لغة ؛ لأجل مراعاة السجعة .

هلِ ابتلاكَ بمحبوبٍ سواهُ ، فآثرتَهُ عليهِ ؟ فقالَ : لا ، قالَ : فلا تُطمِعْ نفسَكَ في المحبّةِ ؛ فإنَّهُ لا يعطيها أحداً حتىٰ يبلوَهُ[1]

وقالَ بعضُ علمائِنا رضيَ اللهُ عنهُم : كلُّ أهلِ المقاماتِ يرجو أنْ يُعفىٰ عنهم ، ويُسمحَ لهم ، إلا مَنِ ادَّعى المعرفةَ والمحبةَ ؛ فإنَّهم يُطالبونَ بكلِّ شعرةٍ مطالبةً ، وفي كلِّ حركةٍ وسكونٍ ونظرةٍ وخطرةٍ للهِ ، ومعَ اللهِ[2]

قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ وكانَ لهُ مقاماتٌ في المحبةِ رفيعةٌ : قلتُ ذاتَ يومٍ يا ربِّ ؛ إنْ كنتَ أعطيتَ أحداً مِنَ المحبِّينَ لكَ ما تسكنُ بهِ قلوبُهم قبلَ لقائِكَ . . فأعطني ذلكَ ؛ فقد أضرَّ بيَ القلقُ .

قالَ : فرأيتُ في النومِ أنَّهُ أوقفَني بينَ يديهِ فقالَ : يا إبراهيمُ ؛ أما استحييتَ منِّي أنْ تسألَني أنْ أعطيَكَ ما يسكنُ بهِ قلبُكَ قبلَ لقائي ؟! وهل يسكنُ المشتاقُ دونَ لقاءِ حبيبِهِ ؟! وهل يستريحُ المحبُّ إلىٰ غيرِ مشوقِهِ ؟! قالَ : فقلتُ : يا ربِّ ؛ تهتُ في حبِّكَ ، فلم أدرِ ما أقولُ ، فاغفرْ لي ، وعلِّمْني كيفَ أقولُ ، فقالَ : قُلِ : اللهمَّ ؛ رضِّني بقضائِكَ ، وصبِّرْني علىٰ بلائِكَ ، وأوزِعْني شكرَ نعمائِكَ[3]

فللمحبِّينَ دقائقُ خطراتٍ ولطائفُ ملاحظاتٍ ، يظهرُ لهم بذلكَ الشوبُ في صفاءِ حبِّهم ، والبعدُ في مواطنِ قربِهم ، فهم يفرُّون منها ، ويخرجونَ عنها ؛ مخافةَ أنْ يسترقَّ شيءٌ مِنْ ذلكَ قلوبَهم بأدنىٰ ميلٍ أو مساكنةٍ ، فيوجبَ ذلكَ لهمُ السقوطَ عن مقامِهمُ الرفيعِ الذي أُهِّلَ لهم وأُهِّلوا لهُ .

ولذلكَ قالَ أبو محمدٍ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ : (جنايةُ المحبِّ عندَ اللهِ

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٤٩) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٤٧) .

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٨٢) ، ورواه مختصراً السراج في « مصارع العشاق » (١/ ٢٧٨) .

تعالىٰ أشدُّ مِنْ معصيةِ العامَّةِ ؛ وهو أنْ يسكنَ إلىٰ غيرِ اللهِ ، أو يستأنسَ بسواهُ)[1]

قيلَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داودَ عليهِ السلامُ يا داودُ ؛ إنِّي حرَّمْتُ على القلوبِ أنْ يدخلَها حبِّي وحبُّ غيرِي[2]

ويُحكىٰ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لموسىٰ عليهِ السلامُ : نعمَ العبدُ بُرْخُ ، هو لي إلا أنَّ فيهِ عيباً ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما عيبُهُ ؟ قالَ : يعجبُهُ نسيمُ الأسحارِ فيسكنُ إليهِ ، ومَنْ أحبَّني لم يسكنْ إلىٰ شيءٍ[3]

ويُروىٰ : أنَّ عابداً عبدَ اللهَ في غيضةٍ دهراً طويلاً ، فنظرَ إلىٰ طائرٍ قد عشَّشَ في شجرةٍ يأوي إليها ويَصْفِرُ عندَها ، فقالَ لو حوَّلتُ مسجدي إلىٰ تلكَ الشجرةِ ، فكنتُ آنسُ بصوتِ ذلكَ الطائرِ

قالَ ففعلَ ، فأوحى اللهُ إلىٰ نبيِّ ذلكَ الزمانِ : قُلْ لفلانٍ العابدِ : استأنستَ بمخلوقٍ ؟! لأحطَّنَّكَ درجةً لا تنالُها بشيءٍ مِنْ عملِكَ أبداً[4]

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٥٢) ، ويحتمل أن يكون قوله (وهو أن يسكن . . .) من كلام صاحب « القوت »

(٢) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٦١)

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٥٢) ، **وبُرْخ** : اسم سرياني ، وكان أسود ، وهو بضم الباء وسكون الراء وآخره خاء معجمة

(٤) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٥٣) .
وما ألصق المحبةَ بالرحمة ! فمن أحبَّ فبُشرىٰ له الرحمة ، وقد روى الحميدي في « مسنده » (٨٣٩) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٦١٠) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١١/ ٣٦٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية ، فغنموا وفيهم رجل ، فقال لهم : إني لست منهم ؛ عشقت امرأة فلحقتها ، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا ما بدا لكم ، فإذا امرأة طويلة أدماء ، فقال لها : أسلمي حُبيش ، قبل نفاد العيش .

أتذكرُ إذْ طالبتُكم فوجدتُكم ... بحَلْيَةَ أو أدركتُكم بالخوانقِ
ألم يكُ أهلاً أنْ يُنوَّلَ عاشقٌ ... تكلَّفَ إدلاجَ السُّرىٰ والودائقِ

قالت نعم ، فديتك ، فقدموه فضربوا عنقه ، فجاءت المرأة ، فوقفت عليه ، فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت
=

* *

= فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما كانَ فيكم رجلٌ رحيمٌ ؟! »

واعلم : أن الفتى كان في منأىً عن سيوف السرية ؛ إذ كان في عبَّاد الوثن ، وقد روى البيهقي في « دلائل النبوة » (٥/١١٧) أنهم عرضوا عليه الإسلام لينجو ، فأبى ، واختار ما اختار ؛ إذ لا يقبل من عباد الوثن إلا الإسلام ، مع أنه أرشد حبيبته حبيش للإسلام كما رأيت ، وقد اجتهد سيدنا خالد في قتل أبناء بني جذيمة إذ لم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، وقالوا : صبأنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللهمَّ ؛ إنِّي أبرأُ إليكَ ممَّا عملَ خالدُ بنُ الوليدِ » .

الحكمة الثانية والثالثة والخمسون بعد المئتين (*)

لَوْلا مَيَادِينُ ٱلنُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ ٱلسَّائِرِينَ .

لا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىٰ تَطْوِيَهَا رِحْلَتُكَ ، وَلا قَطِيعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىٰ تَمْحُوَهَا وُصْلَتُكَ

السيرُ إلى اللهِ تعالىٰ : هو قطعُ عقباتِ النفسِ ، ومحوُ آثارِها ودواعيها ، وغلبةُ أحكامِ طبيعتِها وجبلَّتِها ؛ حتىٰ تتطهَّرَ مِنْ ذلكَ ، ويحصلَ لها أهليَّةُ القُرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وتصلَ إلىٰ سعادةِ لقائِهِ .

ولولا معاناةُ هـٰذهِ الأشياءِ لم يتحقَّقِ السيرُ والسلوكُ ، كيفَ والحقُّ تعالىٰ أقربُ إلى العبدِ مِنْ نفسِهِ ؟ ! (1)

فالبعدُ الحسيُّ ـ وهو المسافةُ التي تطويها رحلتُهُ ـ ، والبعدُ المعنويُّ ـ وهي

(*) ترجع هاتان الحكمتان اعتقاداً : إلىٰ ثبوت صفات التنزيه (السلوب) له تعالىٰ ، ومن أفراد صفة المخالفة للحوادث : نفيُ الزمان والمكان عنه سبحانه ، وما ورد من ظواهر نصوصٍ من الكتاب والسنة يوحي بهـٰذا . . فمؤوَّل بضرورة العقل والشرع .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه ٨٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : ٩٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه سبحانه : « وإنْ تقرَّبَ إليَّ بشبرٍ تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّبَ إليَّ ذراعاً تقرَّبت إليه باعاً ، وإنْ أتاني يمشي أتيتُهُ هرولةً » ، رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] .

(1) إذ قال سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

خصالٍ مِنَ الموتِ : موتٌ أحمرُ ، وموتٌ أسودُ ، وموتٌ أبيضُ ، وموتٌ أخضرُ ؛ فالموتُ الأبيضُ : **الجوعُ** ، والموتُ الأسودُ : **احتمالُ أذى الناسِ** ، والموتُ الأحمرُ : **مخالفةُ النفسِ** ، والموتُ الأخضرُ : **طرحُ الرقاعِ بعضِها علىٰ بعضٍ**)[1]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (للنفسِ سرٌّ ، ما ظهرَ ذلكَ السرُّ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِهِ إلا علىٰ فرعونَ ، فقالَ أنا ربُّكُمُ الأعلىٰ ، ولها سبعُ حُجُبٍ سماويَّةٍ ، وسبعُ حُجُبٍ أرضيَّةٍ ، فكلَّما يدفنُ العبدُ نفسَهُ أرضاً أرضاً . سما قلبُهُ سماءً سماءً ، فإذا دفنتَ النفسَ تحتَ الثرىٰ وصلتَ بالقلبِ إلى العرشِ)[2] ؛ يعني إذا خالفتَها وفارقتَها[3]

وسبيلُ المريدِ إلى الوصولِ إلىٰ موتِ النفسِ إنَّما يكونُ بتقديمِ الافتقارِ والالتجاءِ والرغبةِ إلىٰ مولاهُ في أنْ يعينَهُ ويقوِّيَهُ علىٰ أمرِ نفسِهِ ، ويسهِّلَ عليهِ طريقَ سلوكِهِ ، **وليستعملْ هـٰذا في كلِّ حالٍ ووقتٍ ، وليجعلْهُ عمدتَهُ فيما هو بسبيلِهِ** ، وقد تقدَّمَ مِنْ كلامِ المؤلفِ : (ما توقَّفَ مطلبٌ أنتَ طالبُهُ بربِّكَ)[4]

وقالَ بعضُ العارفينَ (لا يمكنُ الخروجُ مِنَ النفسِ بالنفسِ ، وإنَّما يكونُ الخروجُ مِنَ النفسِ باللهِ)[5]

ثم يشتغلُ بمراعاةِ حدودِ الشريعةِ والطريقةِ في ظاهرِهِ وباطنِهِ ، والتزامِ آدابِهِما ، **ولكلِّ عبدٍ عملٌ مخصوصٌ يقتضي ـ لا محالةَ ـ حُكْماً مخصوصاً يقومُ بحقِّهِ** ، وذلكَ يختلفُ باختلافِ أحوالِ الناسِ ، فحركاتُ العبدِ وسكناتُهُ هي **أعمالُهُ الظاهرةُ** ، وقصودُهُ وهمَّتُهُ وإرادتُهُ **أعمالُهُ الباطنةُ** ، وكلُّ واحدٍ مِنَ القسمينِ ينبغي أنْ يأخذَ فيهِ بعزائمِ الأمورِ ، ويجتنبَ الرُّخَصَ التي هي مِنْ شأنِ العامَّةِ والجمهورِ ، حسَبَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٧٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص ١٣٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٠٨) .

(٣) يعني : دفن النفس لا يكون باللسان ؛ بأن : تقول : أنا خويدمكم وتراب نعالكم ونحو ذلك ، بل أن تستبدل خلقاً سيئاً منها فتجعل محلَّه خلقاً حسناً ، وبعد ذلك إن قلت أو لم تقل فالأمران سيان

(٤) انظر (ص ٢٥١)

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٨٢) من كلام أبي بكر الطمستاني رحمه الله تعالىٰ

ما تقدَّمَ عندَ قولِهِ : (مِنْ جهلِ المريدِ أنْ يُسيءَ الأدبَ ، فتؤخَّرَ العقوبةُ عنهُ)[1]

فعملُ الظاهرِ : إنْ كانَ واجباً : فليبادرْ إلىٰ فعلِهِ ، ولا يتوانَ عنهُ ، وليقمْ بجميعِ آدابِهِ اللازمةِ لهُ .

ويلتحقُ بذلكَ : ما يكونُ مندوباً إليهِ إذا عُلِمَ في أيِّ رتبةٍ هو ، وإنَّما اشترطنا هٰذا الشرطَ لأنَّ المندوباتِ التي تعترضُهُ يُحتاجُ فيها إلىٰ تقديمِ الأولىٰ فالأولىٰ ، والأهمِّ فالأهمِّ منها ، فإنْ لم يعملْ علىٰ هٰذا ، وقدَّمَ ما ليسَ بأهمَّ . **كانَ متَّبعاً للهوىٰ ، لا لموجَبِ العلمِ .**

وليأخذْ في ذلكَ بالقصدِ مِنْ غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ ، ولا غلوٍّ ولا تقصيرٍ ، وفي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱكْلَفُوا مِنَ ٱلْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ لا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا ، وَإِنَّ أَفْضَلَ ٱلْعَمَلِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ »[2]

وعن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إِنَّ ٱلدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ ٱلدِّينَ أَحَدٌ إِلا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا »[3]

وإنْ كانَ حراماً : فليبادرْ إلىٰ تركِهِ واجتنابِهِ ، وليقطعْ مِنْ نفسِهِ جميعَ أسبابِهِ .

ويلتحقُ بذلكَ : ما يكونُ مكروهاً وإنْ كانَ مباحاً ، **فهٰذا هو محلُّ نظرِ المريدِ ،** فعليهِ أنْ يأخذَ بالعزيمةِ فيهِ ، ويقفَ علىٰ حدودِ الضرورةِ منهُ .

---

(١) انظر (ص ٣٧٢)

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٥) ، وأبو داود (١٣٦٨) ، والنسائي (٢/ ٦٨) ، ومعنىٰ (اكلفوا) : خُذوا وتحمَّلوا .

(٣) رواه البخاري (٣٩) وزاد : « واستعينوا بالغَدْوةِ والروحةِ وشيءٍ مِنَ الدُّلْجةِ »
وقوله : (فسدِّدوا) معناه : الزموا طريق الاقتصار ، (وقاربوا) أي : الأمرَ بالسهولة ، ولا تباعدوه بالكلفة والصعوبة ، (وأبشروا) أي : بالجنة والسلامة ، وبكل نعمة وكرامة ، وانظر « مرقاة المفاتيح » (٣/ ٩٣٤) .

وليكنِ اجتنابُهُ لما يشتدُّ ميلُ النفسِ إليهِ ، ويعظمُ حرصُها عليهِ . . أكثرَ مِنِ اجتنابِهِ لما فُقِدَ منهُ ذلكَ ، ويختلفُ ذلكَ باختلافِ الأشخاصِ ، فربَّ شخصٍ تميلُ نفسُهُ إلىٰ ما لا تميلُ إليهِ نفسُ شخصٍ آخرَ ، فليشتغلِ المريدُ بقطعِ ذلكَ ، وزوالِ علاقتِهِ مِنْ قلبِهِ . . بالرياضةِ والمجاهدةِ ، وليستمرَّ علىٰ ذلكَ حتىٰ يكونَ وقوفُهُ علىٰ ما لا بدَّ لهُ منهُ علىٰ وجهِ الطاعةِ والقربةِ ، لا علىٰ سبيلِ الهوىٰ والشهوةِ .

وممَّا يشتدُّ ميلُ نفوسِ أكثرِ الناسِ إليهِ : ما يكونُ سببُ تناولِهِ واستعمالُهُ مراعاةَ نظرِ الخلْقِ ، والجريَ علىٰ عوائدِهِمُ السيئةِ ومراسِمِهِمُ المذمومةِ ، ومجاهدةُ النفسِ في مثلِ هـٰذا عسرةٌ جداً ، لا سيَّما علىٰ مَنِ ابتُليَ بحبِّ الجاهِ والرئاسةِ ، وقبولِ الخلْقِ في ولايةِ حكمٍ أو نشْرِ علمٍ أو غيرِ ذلكَ ؛ فإنَّها أشدُّ الشهواتِ علاقةً بالقلبِ ، وأضرُّها بالمريدِ .

فيجبُ عليهِ أنْ يعتنيَ بذلكَ ، ويبالغَ في تطهيرِ باطنِهِ وظاهرِهِ منهُ ؛ بما يتعاطاهُ مِنْ أعمالٍ وأحوالٍ ، وقد نبَّهنا علىٰ هـٰذا المعنىٰ في أوَّلِ الكتابِ ؛ عندَ قولِ المؤلفِ : (ادفنْ وجودَكَ في أرضِ الخمولِ ، فما نبتَ ممَّا لم يُدفنْ لا يتمُّ نتاجُهُ)[1]

ويتعيَّنُ على المريدِ في رياضتِهِ ومجاهدتِهِ : أنْ يمنعَ حواسَّهُ ويكفَّ جوارحَهُ عنِ التطلُّعِ والجولانِ في مظانِّ وُجدانِ شهواتِهِ وسيِّئِ عاداتِهِ ، وألا يجامعَها ولا يتَّفقَ معَها ؛ فإنَّ ذلكَ منشأُ كلِّ شرٍّ ، ومنبعُ كلِّ فسادٍ وضرٍّ ، كما قيلَ[2] : [من البسيط]

إِنَّ ٱلسَّلامَةَ مِنْ سَلْمَىٰ وَجَارَتِهَا ... أَلا تَمُـرَّ عَلَـىٰ حَـالٍ بِـوَادِيهَـا

فليراقبْ ربَّهُ ، وليحفظْ جوارحَهُ وقلبَهُ ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يتحرَّكُ مثلاً في طلبِ الخيرِ ، والعملِ مِنْ أعمالِ البرِّ ، فيتَّفقُ أنْ يقعَ بصرُهُ علىٰ شيءٍ لهُ فيهِ هوىً وشهوةٌ ،

---

(١) انظر (ص ١٩٥) .

(٢) انظر « مفيد العلوم ومبيد الغموم » للخوارزمي (ص ٥١١) .

فتميلُ نفسُهُ إليهِ بالشَّرَهِ والمحبَّةِ ، فيتكدَّرُ عليهِ وقتُهُ ، ويُظلِمُ قلبُهُ ، ويختلُّ عليهِ في لحظةٍ ما كابدَ أمرَهُ في سنةٍ مثلاً ، وكذلكَ سائرُ حواسِّهِ

وقد شبَّهَ العلماءُ رضيَ اللهُ عنهمُ النفسَ في مثلِ هٰذا : بدابَّةٍ استعارَها رجلٌ مِنْ ربِّها ومالكِها ليتصرَّفَ بها في حاجاتِهِ ، وكانَتْ دابَّةً جموحةً صعبةَ المرامِ[1] ، فجازَ بها المستعيرُ في بعضِ تصرُّفاتِهِ علىٰ دارِ مولاها ، فنزعَتْ إلىٰ دارِ سيِّدِها ؛ فإنَّهُ ـ لا محالةَ ـ يحتاجُ إلىٰ صرفِ عِنانِها ؛ فإنْ تقاعسَتْ ضربَها بالسوطِ والعصا ؛ حتىٰ يصرفَها بذلكَ عمَّا نزعَتْ إليهِ ، وقد يكونُ عليهِ في ذلكَ تعبٌ ومُؤْنةٌ ، وسببُ ذلكَ إنَّما هو خُطُورُهُ بها علىٰ دارِ مولاها الذي أَلِفَتْهُ واعتادَتْهُ ، ولو لم يمرَّ بها عليهِ لسَلِمَ ، ولم يحتجْ إلىٰ معاناةٍ ولا مكابدةٍ .

فإنْ تغافلَ عنها حتىٰ أدخلَتْ يديها في عتبةِ البابِ واستمكنَتْ منهُ ، ثم أرادَ منعَها مِنَ الدخولِ . . لم تطعْهُ بوجهٍ ، بلِ اقتحمَتْ بهِ بابَ الدارِ كَرْهاً ، وربَّما جرحَتْ رأسَهُ وآلَمَتْهُ ، وسببُ ذلكَ : إنَّما هو تمكينُها مِنَ العملِ بمقتضىٰ طبيعتِها ، وموافقةِ جبلَّتِها

فكذلكَ حالُ النفسِ .

فَـالنَّفْـسُ إِنْ أَعْطَيْتَهَـا هَـوَاهَـا فَـاغِـرَةٌ نَحْـوَ هَـوَاهَـا فَـاهَـا[2]

ولذلكَ كانَتِ الخلوةُ والعزلةُ مِنْ أوجبِ الواجباتِ على المريدِ ؛ فإنَّ نفسَهُ إذْ ذاكَ تكونُ ساكنةً هادئةً ، قد نسيَتْ عوائدَها وفترَتْ دواعيها ، وبدوامِهِ علىٰ ذلكَ يحصلُ لها مِنَ التزكيةِ والتحليةِ والاستقامةِ والطمأنينةِ ما هو المقصودُ بالرياضةِ والمجاهدةِ .

فإنِ اعتراهُ شيءٌ ممَّا ذكرناهُ اختلَّ عليهِ حالُهُ ، واحتاجَ مِنْ أجلِ ذلكَ إلى

---

(١) كذا في جميع النسخ ، والمعنىٰ : يعسر قيادها ويبعدُ رَوْمُهُ ، وقوله : (جموحة) الأصل أن يقال : (جموح) لاستواء صيغة فعول في المذكر والمؤنث ، وعليه تحمل التاء للمبالغة .

(٢) البيت من الرجز ، وانظر « محاضرات الأدباء » للراغب الأصبهاني (١/ ٣١) .

المجاهدةِ الشاقَّةِ والرياضةِ الصعبةِ ، وأنَّىٰ لهُ معَ ذلكَ تلافي ما فاتَهُ ؟!

وقد قالوا : (وقفةُ المريدِ شرٌّ مِنْ فترتِهِ)[1]

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ (الفرقُ بينَ الفترةِ والوقفةِ : أنَّ الفترةَ رجوعٌ عنِ الإرادةِ ، وخروجٌ منها ، والوقفةَ سكونٌ عنِ السيرِ باستحلاءِ حالاتِ الكسلِ ، وكلُّ مريدٍ وقفَ في ابتداءِ إرادتِهِ لا يجيءُ منهُ شيءٌ) انتهىٰ كلامُهُ[2]

فبداياتُ الأمورِ هي التي يجبُ أنْ يراعيَها المريدُ ، واللهُ وليُّ التوفيقِ والتسديدِ .

ولا غنىٰ للمريدِ في هـٰذا القسمِ مِنْ تحصيلِ ما يحتاجُ إليهِ مِنَ العلومِ الشرعيةِ علىٰ ما ينبغي[3] ، وعملُهُ بالباطنِ يرجعُ حاصلُهُ إلىٰ أمرٍ واحدٍ ؛ وهو إخلاصُ التوحيدِ للهِ عزَّ وجلَّ باعتقادِ العبوديَّةِ لهُ ؛ وذلكَ بأنْ يحملَ نفسَهُ على الاستسلامِ لأحكامِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتركِ المنازعةِ والتدبيرِ والاختيارِ بينَ يديهِ ، وهـٰذا المعنىٰ هو الذي ضمَّنَهُ المؤلفُ كتابَهُ « التنويرَ في إسقاطِ التدبيرِ » ، فليستعنِ المريدُ علىٰ ذلكَ بهِ[4]

---

(١) قاله الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٧٧٥)

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٧٧٥) ، وقوله : (لا يجيء منه شيء) يعني : إن بقي علىٰ حاله دون توبة وتجديد عقد واستئناف سير

(٣) قال الإمام العارف بالله تعالىٰ أحمد الرفاعي في « البرهان المؤيد » (ص ٨٧) : (ما اتَّخذ اللهُ وليّاً جاهلاً ، ولو اتخذه لعلَّمه ، الوليُّ لا يكون جاهلاً في فقه دينه ، يعرف كيف يصلي ، كيف يصوم ، كيف يزكِّي ، كيف يحجُّ ، كيف يذكر ، يتقن علمَ المعاملة مع الله ، فمثل هـٰذا الرجل وإن كان أميّاً فهو عالم ، ولا يقول له : جاهلٌ . . إلا من جهل العلمَ المقصود ، ليس العلم علمَ البديعِ والبيان والأدب الذي عناه الشعراءُ والجدلِ والمناظرة ، العلم المختصر علمُ ما أمر الله به ونهىٰ عنه ، والعلم الجامع الأتمُّ : علم التفسير والحديث والفقه ، والفنون اللفظية والقواعد النظرية التي وضعت وسمَّاها واضعوها علوماً . . هي فنون تدخل تحت قول القائل : العلم بالشيء ولا الجهل به) .

(٤) قال الإمام ابن عطاء الله في مقدمة كتابه « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ٦٤) : (من طلب الوصول إلى الله تعالىٰ فحقيق عليه أن يأتي الأمر من بابه ، وأن يتوسل إليه بوجود أسبابه ، وأهمُّ ما ينبغي تركه والخروج عنه والتطهُّر منه . . وجود التدبير ، ومنازعة المقادير ، فصنَّفت هـٰذا الكتاب مبيناً لذلك ، ومظهراً لما هنالك)

ولا يقصدُ برياضتِهِ ومجاهدتِهِ التوصُّلَ إلىٰ شيءٍ مِنَ الكراماتِ ، وخرقِ العوائدِ وأنواعِ الإجاباتِ ؛ فإنَّ ذلكَ فتنةٌ وبليَّةٌ ، قاطعٌ عليهِ طريقَ العبوديَّةِ(١)

قالَ أبو عثمانَ المغربيُّ : (مَنِ اختارَ الخلوةَ على الصحبةِ ينبغي أنْ يكونَ خالياً مِنْ جميعِ الأذكارِ إلا ذكرَ ربِّهِ ، وخالياً مِنْ جميعِ الإراداتِ إلا رضا ربِّهِ ، وخالياً مِنْ مطالبةِ النفسِ مِنْ جميعِ الأسبابِ ، وإنْ لم يكنْ بهـٰذهِ الصفةِ فإنَّ خلوتَهُ توقعُهُ في فتنةٍ أو بليَّةٍ)(٢)

وقالَ الشيخُ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ (مَنْ عملَ ليجدَ أو يرىٰ لم يُفتحْ لهُ بشيءٍ ، حتىٰ يكونَ قصدُهُ تحقيقَ العبوديَّةِ ، والقيامَ بما يجبُ عليهِ مِنْ حقوقِ الربوبيَّةِ)

قالَ صاحبُ كتابِ « عوارفِ المعارفِ » : (مَنْ دخلَ الخلوةَ معتلاً في دخولِهِ . . دخلَ الشيطانُ عليهِ ، وسوَّلَ لهُ أنواعَ الطغيانِ ، وامتلأَ مِنَ الغرورِ والمحالِ ، وظنَّ أنَّهُ حصَّلَ علىٰ حسنِ الحالِ .

قالَ : ودخلَتِ الفتنةُ علىٰ قومٍ دخلوا الخلوةَ بغيرِ شروطِها ، وأقبلوا علىٰ ذكرٍ مِنَ الأذكارِ ، واستجمُّوا نفوسَهم بالعزلةِ عنِ الخلْقِ ، ومنعوا الشواغلَ مِنَ الحواسِّ ؛ كفعلِ الرهابينِ والبراهمةِ والفلاسفةِ .

والوحدةُ في جمعِ الهمِّ لها تأثيرٌ في صفاءِ الباطنِ مطلقاً ؛ فكلُّ ما كانَ مِنْ ذلكَ بحسنِ سياسةِ الشرعِ ، وصدقِ المتابعةِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . أنتجَ تنويرَ القلبِ ، والزهدَ في الدنيا ، وحلاوةَ الذكرِ ، والمعاملةَ للهِ بالإخلاصِ مِنَ الصلاةِ والتلاوةِ وغيرِ ذلكَ

وما كانَ مِنْ ذلكَ مِنْ غيرِ سياسةِ الشرعِ ، ومتابعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهِ عليهِ

---

(١) أما من تمنَّىٰ حسم الكرامة بالكلية . . فهـٰذا أبلهُ جاهلٌ بسلطان المعجزة النبوية ، ولن تزال خوارق العادات من الكرامات الزكيات باقية في أعيان أهل الحق من هـٰذه الأمة حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا يبقىٰ علىٰ ظهرها من يقول : الله الله

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (١٨٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣١٥) .

وسلَّمَ . ينتجُ صفاءً في النفسِ يُستعانُ بهِ على اكتسابِ علومٍ رياضيَّةٍ ، ممَّا يعتني بهِ الفلاسفةُ والدهريونَ ، وكلَّما كثُرَ مِنْ ذلكَ كثُرَ البعدَ مِنَ اللهِ .

ولا يزالُ المقبلُ على ذلكَ يستغويهِ الشيطانُ بما يكتسبُ مِنَ العلومِ الرياضيَّةِ ، أو بما يتراءىٰ لهُ مِنْ صدقِ الخاطرِ وغيرِ ذلكَ حتىٰ يركنَ إليهِ كلَّ الركونِ ، ويظنَّ أنَّهُ قد فازَ بالمقصودِ مِنَ الخلوةِ ، ولا يعلمُ أنَّ هٰذا الفنَّ مِنَ الفائدةِ غيرُ ممنوعٍ مِنَ النصارىٰ والبراهمةِ ، وليسَتْ هي المقصودَ مِنَ الخلوةِ .

يقولُ بعضُهمْ : الحقُّ يطلبُ منكَ الاستقامةَ ، وأنتَ تطلبُ الكرامةَ ؟ ![1]

وقد يُفتحُ على الصادقينَ بشيءٍ مِنْ خرقِ العاداتِ ، وصدقِ الفِراسةِ ، وتبيينِ ما سيحدثُ في المستقبلِ ، وقد لا يُفتحُ عليهم بذلكَ ، ولا يقدحُ في حالِهم عدمُ ذلكَ ، وإنَّما يقدحُ في حالِهمُ الانحرافُ عن حدِّ الاستقامةِ .

وما يُفتحُ مِنْ ذلكَ على الصادقينَ يصيرُ مزيدَ انتفاعِهم[2] ، والداعيَ لهم إلىٰ صدقِ المجاهدةِ والمعاملةِ والزهدِ في الدنيا ، والتخلُّقِ بالأخلاقِ الحميدةِ .

وما يُفتحُ مِنْ ذلكَ علىٰ مَنْ ليسَ تحتَ سياسةِ الشرعِ . . يصيرُ سبباً لمزيدِ بعدِهِ وغرورِهِ وحماقتِهِ ، واستطالتِهِ على الناسِ ، وازدرائِهِ بالخلْقِ ، ولا يزالُ بهِ حتىٰ يخلعَ ربقةَ الإسلامِ مِنْ عنقِهِ ، وينكرَ الحدودَ والأحكامَ ، والحلالَ والحرامَ ، ويظنَّ أنَّ المقصودَ مِنَ العباداتِ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ، [ويتركَ][3] متابعةَ الرسولِ ، ثم يتدرجُ مِنْ ذلكَ إلىٰ تلحُّدٍ وتزندقٍ ، ونعوذُ باللهِ مِنَ الضلالِ .

---

(١) وقد ذكر الإمام السهروردي في « عوارف المعارف » أيضاً (١/ ١٢١) أنه لأبي علي الجوزجاني ؛ حيث نقل عنه قوله : (كن طالب الاستقامة ، لا طالب الكرامة ؛ فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة) .

(٢) كذا في جميع النسخ ، وكذا العبارة في مخطوطات « عوارف المعارف » المعتبرة ، إلا أنه وقع فيها : (إيقانهم) بدل (انتفاعهم) ، وهي أولىٰ ، وفي هامش نسخة منها : (سبباً لمزيد . . .) ، وإنما اعتمد المؤلف ما أثبت أعلاه .

(٣) في جميع النسخ : (وترك) ، والمثبت من مخطوطات « العوارف » .

وقد يلوحُ لأقوامٍ خيالاتٌ يظنُّونَها وقائعَ ، يسمُّونَها بوقائعِ المشايخِ ، مِنْ غيرِ علمٍ بحقيقةِ ذلكَ) انتهىٰ كلامُهُ[1] ، وهو في غايةِ الحسنِ ونهايةِ التحقيقِ .

فمداومةُ العبدِ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الأشياءِ التي ذكرناها مُشاهداً لتوفيقِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وتأييدِهِ لهُ . . يُحصِّلُ لهُ مِنَ اللهِ مزيدَ كثيرٍ ، وعندَ ذلكَ يتطهَّرُ باطنُهُ مِنْ جميعِ الآفاتِ وخبائثِ الصفاتِ ، وتستنيرُ سريرتُهُ بأنوارِ المكاشفاتِ والملاطفاتِ .

وقد عبَّرَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ عن طريقِ موتِ النفسِ بعباراتٍ صحيحةٍ مليحةٍ ؛ فقالَ : (**قتلُ النفسِ في الحقيقةِ** : التبرِّي مِنْ حولِها وقوَّتِها أو شهودِ شيءٍ منها ، وردُّ دواعيها إليها ، وتشويشُ تدبيرِها عليها ، وتسليمُ الأمورِ إلى الحقِّ بجملتِها ، وانسلاخُها مِنْ إرادتِها واختيارِها ، وامتحاءُ آثارِ بشريَّتِها عنها ، فأمَّا بقاءُ الرسومِ والهياكلِ فلا خطرَ لها ولا عبرةَ) انتهىٰ[2]

فهـٰذهِ هي السبيلُ إلىٰ موتِ النفسِ المفضي إلىٰ حضرةِ القدسِ ؛ لكونِها جاريةً علىٰ مقتضى الشريعةِ والحقيقةِ اللتينِ بأنوارِهما يهتدي كلُّ سالكٍ ومريدٍ .

ولا بدَّ للمريدِ في هـٰذهِ الطريقِ مِنْ صحبةِ شيخٍ محقِّقٍ مرشدٍ ، قد فرغَ مِنْ تهذيبِ نفسِهِ ، وتخلَّصَ مِنْ هواهُ ، فليسلِّمْ نفسَهُ إليهِ ، وليلزمْ طاعتَهُ والانقيادَ إليهِ في كلِّ ما يشيرُ بهِ عليهِ ؛ مِنْ غيرِ ارتيابٍ ولا تأويلٍ ولا تردُّدٍ ؛ فقد قالوا : (مَنْ لم يكنْ لهُ شيخٌ فالشيطانُ شيخُهُ)[3]

وقد قالَ أبو عليٍّ الثقفيُّ (لو أنَّ رجلاً جمعَ العلومَ كلَّها ، وصحبَ طوائفَ

---

(1) عوارف المعارف (٢/ ٤٤) ، مع الرجوع لبعض مخطوطاته النفيسة .

(2) قاله في « لطائف الإشارات » (١/ ٩٢)

(3) في « الرسالة القشيرية » (ص ٧٧٣) عن أبي يزيد البسطامي قال : (من لم يكن له أستاذٌ . . فإمامُهُ الشيطان) ، وقال الأستاذ القشيري أيضاً : (سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ، ولـٰكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نَفَساً نَفَساً . . فهو عابدُ هواه ، لا يجد منه نفاذاً)

الناسِ . . لا يبلغُ مبلغَ الرجالِ إلا بالرياضةِ مِنْ شيخٍ أو إمامٍ أو مؤدِّبٍ ناصحٍ ، ومَنْ لم يأخذْ أدبَهُ مِنْ آمرٍ لهُ وناهٍ يريهِ عيوبَ نفسِهِ ورعوناتِ أعمالِهِ . . لا يجوزُ الاقتداءُ بهِ في تصحيحِ المعاملةِ)(١)

وقالَ سيدي أبو مدينَ : (مَنْ لم يأخذِ الأدبَ مِنَ المتأدِّبينَ أفسدَ مَنْ يتبعُهُ)

قالَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ في « لطائفِ المننِ » : (إنَّما يكونُ الاقتداءُ بوليٍّ دلَّكَ اللهُ عليهِ ، وأطلعَكَ على ما أودعَهُ مِنَ الخصوصيَّةِ لديهِ ، فطوىٰ عنكَ شهودَ بشريَّتِهِ في وجودِ خصوصيَّتِهِ ، فألقيتَ إليهِ القيادَ ، فسلكَ بكَ سبيلَ الرشادِ ؛ يعرِّفُكَ رعوناتِ نفسِكَ وكمائنَها ودفائنَها ، ويدلُّكَ على الجمعِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويعلِّمُكَ الفرارَ عمَّا سوى اللهِ ، ويسايرُكَ في طريقِكَ حتىٰ تصلَ إلى اللهِ

يوقفُكَ علىٰ إساءةِ نفسِكَ ، ويعرِّفُكَ بإحسانِ اللهِ إليكَ ، فيفيدُكَ معرفةُ إساءةِ نفسِكَ الهربَ منها ، وعدمَ الركونِ إليها ، ويفيدُكَ العلمُ بإحسانِ اللهِ إليكَ الإقبالَ عليهِ ، والقيامَ بالشكرِ إليهِ ، والدوامَ علىٰ ممرِّ الساعاتِ بينَ يديهِ)(٢)

قالَ : (فإنْ قلتَ : فأينَ مَنْ هـٰذا وصفُهُ ؟! لقد دللتَني علىٰ أغربَ مِنْ عنقاءِ مغربٍ .

فاعلمْ أنَّهُ لا يعوزُكَ وجدانُ الدالِّينَ ، وإنَّما قد يعوزُكَ وجودُ الصدقِ في طلبِهم ، جُدَّ صِدْقاً تجدْ مرشداً ، وتجدُ ذلكَ في آيتينِ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ :

قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : ٦٢] .

وقالَ سبحانَهُ : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد : ٢١]

فلوِ اضطُررتَ إلىٰ مَنْ يوصلُكَ إلى اللهِ اضطرارَ الظمآنِ إلى الماءِ ، والخائفِ إلى الأمْنِ . . لوجدتَ ذلكَ أقربَ إليكَ مِنْ وجودِ ظلِّكَ ، ولوِ اضطُررتَ إلى اللهِ اضطرارَ

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (٣٦٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٠٠) . وروى السلمي أيضاً في « طبقات الصوفية » (ص ١٧٧) عن ابن الجلا : (من بلغَ بنفسه إلىٰ رتبة سقط عنها ، ومن بُلِغَ به ثبت عليها)

(٢) لطائف المنن (ص ٧١) .

الأمِّ لولدِها إذا فقدَتْهُ . . لوجدتَ الحقَّ منكَ قريباً ، ولكَ مجيباً ، ولوجدتَ الوصولَ غيرَ متعذِّرٍ عليكَ ، ولتوجَّهَ الحقُّ بتيسيرِ ذلكَ عليكَ) انتهىٰ[1]

وفي كلامِهِ رحمَهُ اللهُ تنبيهٌ علىٰ أنَّ الشيخَ مِنْ مِنَحِ اللهِ وهداياهُ للعبدِ المريدِ الصادقِ ؛ إذا صدقَ في إرادتِهِ ، وبذلَ في مناصحةِ مولاهُ جهدَ استطاعتِهِ ، لا علىٰ ما قد يتوهَّمُهُ مَنْ لا علمَ عندَهُ ، وعندَ ذلكَ يوفِّقُهُ اللهُ لاستعمالِ الأدبِ معَهُ ؛ لما أشهدَهُ مِنْ عالي مرتبتِهِ ورفيعِ درجتِهِ .

قالَ سيدي أبو مدينَ : (**الشيخُ** : مَنْ شهدَتْ لهُ ذاتُكَ بالتقديمِ ، وسرُّكَ بالتعظيمِ ، **الشيخُ** : مَنْ هذَّبَكَ بأخلاقِهِ ، وأدَّبَكَ بإطراقِهِ ، وأنارَ باطنَكَ بإشراقِهِ ، **الشيخُ** : مَنْ جمعَكَ في حضورِهِ ، وحفظَكَ في مغيبِهِ)

وقالَ المؤلفُ في « لطائفِ المننِ » : (وليسَ شيخُكَ مَنْ سمعتَ منهُ ، إنَّما شيخُكَ مَنْ أخذتَ عنهُ ، وليسَ شيخُكَ مَنْ واجهَتْكَ عبارتُهُ ، إنَّما شيخُكَ الذي سَرَتْ فيكَ إشارتُهُ ، وليسَ شيخُكَ مَنْ دعاكَ إلى البابِ ، إنَّما شيخُكَ مَنْ رفعَ بينَكَ وبينَهُ الحجابَ ، وليسَ شيخُكَ مَنْ واجهَكَ مقالُهُ ، إنَّما شيخُكَ مَنْ نهضَ بكَ حالُهُ .

شيخُكَ الذي أخرجَكَ مِنْ سجنِ الهوىٰ ، ودخلَ بكَ على المولىٰ ، شيخُكَ هو الذي ما زالَ يجلو مرآةَ قلبِكَ ، حتىٰ تجلَّتْ فيهِ أنوارُ ربِّكَ ، نهضَ بكَ إلى اللهِ فنهضتَ إليهِ ، وسارَ بكَ حتىٰ وصلتَ إليهِ ، ولا زالَ محاذياً لكَ حتىٰ ألقاكَ بينَ يديهِ ، فزجَّ بكَ في نورِ الحضرةِ وقالَ : هـٰأنتَ وربُّكَ) انتهىٰ[2]

وآدابُ المريدِ معَ الشيخِ ، والشيخِ معَ المريدِ . . كثيرةٌ ، مذكورةٌ في كتبِ أئمَّةِ الصوفيةِ .

ومِنْ أبلغِ ذلكَ وأوجزِهِ : ما ذكرَهُ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ ؛ قالَ : (شرطُ

---

(١) لطائف المنن (ص ٧١_٧٢)

(٢) لطائف المنن (ص ٢٠٤) .

المريدِ : ألا يتنفَّسَ نَفَساً إلا بإذنِ شيخِهِ ، ومَنْ خالفَ شيخَهُ في نَفَسٍ سرّاً أو جهراً . فسوفَ يرىٰ غبَّهُ مِنْ غيرِ ما يحبُّهُ سريعاً ، ومخالفةُ الشيوخِ فيما يستسرُّونَهُ منهم أشدُّ ممَّا يكابدونَهُ بالجهرِ وأكثرُ[1] ؛ لأنَّ هـٰذا يلتحقُ بالخيانةِ ، ومَنْ خالفَ شيخَهُ لا يَشَمُّ رائحةَ الصدقِ ؛ فإنْ بدرَ منهُ شيءٌ مِنَ ذلكَ فعليهِ بسرعةِ الاعتذارِ ، والإفصاحِ عمَّا حصلَ منهُ مِنَ المخالفةِ والخيانةِ ؛ ليهديَهُ شيخُهُ إلىٰ ما فيهِ كفارةُ جُرْمِهِ ، ويلتزمَ في الغرامةِ ما يحكمُ بهِ عليهِ[2] ، فإذا رجعَ المريدُ إلىٰ شيخِهِ بالصدْقِ وجبَ علىٰ شيخِهِ جبرانُ تقصيرِهِ بهمَّتِهِ ؛ فإنَّ المريدينَ عيالٌ على شيوخِهم ، فُرِضَ عليهم أنْ يُنفقوا مِنْ قوَّةِ أحوالِهم ما يكونُ جبراناً لتقصيرِهم) انتهىٰ[3]

وقالَ الشيخُ العارفُ أبو العباسِ البونيُّ[4] : (وإيَّاكَ أنْ تحقِرَ فعلاً يخطرُ لكَ إلا أنْ تلقيَهُ للشيخِ ، طاعةً كانَ أو معصيةً ، علىٰ أيِّ نوعٍ برزَ لكَ ، ولوِ اختلفَ عليك ألفَ مرَّةٍ في ساعةٍ . . اختلفَ إليهِ ألفَ ساعةٍ في الخاطرِ ؛ ليعلمَكَ الدواءَ الذي تزعجُهُ بهِ ، ويحملَ عنكَ بهمَّتِهِ)

---

(١) في (أ ، ب) : (يشيرون) بدل (يستسرونَهُ) ، وفي (ج) : (يسترونه منه) بدل (يستسرونه منهم) ، والمعنىٰ : أن الشيخ مع مريده له وصايا ؛ منها ما يعمله بالجهر ، ومنها ما يكابده بالسرِّ ؛ كأعمال القلوب في تحسين القصود ، ومراقبة المعبود ، والمخالفةُ إن كانت بالسرِّ فهي خيانة ، وهـٰذا هو المقصود بقوله : (يستسرُّونه منهم) ، فهو عمل السرِّ ، وهو قوله فيما سيأتي من كلام الإمام البوني : (ويحمل عنك بهمَّته) .

(٢) قوله : (ويلتزم) بالنصب عطفاً علىٰ قوله : (بسرعة) ، لا علىٰ قوله : (ليهديه) .

(٣) قاله في « لطائف الإشارات » (٢/ ٦٢٤) ، وقوله : (قوَّة أحوالهم) كذا بالتاء المربوطة في جميع النسخ ، والمراد : همة الشيوخ .

(٤) قال الغزي في « ديوان الإسلام » (١/ ٣٢٧) : (البوني : أحمد بن علي بن يوسف ، الإمام الحبر العارف ، أبو العباس المغربي ، صاحب المصنفات في علم الحرف ، منها : « شمس المعارف الكبرىٰ » و« الوسطىٰ » و« الصغرىٰ » ، و« لطائف الإشارات » ، توفي سنة « ٦٢٢ »)
واعلم : أن علمَ الحرف عند من أنصف هو من العلوم التي إن اشتغل بها المريد ابتداءً باءَ بالخسران المبين ، وإن أتاها حينما يحين أوانُها تبلَّجت له المعاني والحقائق بفكِّ رموز أسرارها ، ثم اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، وإنك أنت علام الغيوب .

قالَ : (ولقد رأيتُ تلميذاً مِنْ أصحابِ شيخِنا الإمامِ تاجِ العارفينِ أبي محمدٍ عبدِ العزيزِ بنِ أبي بكرٍ القرشيِّ المهدويِّ رحمَهُ اللهُ[1] ، وكنتُ جالساً عندَهُ ، فدخلَ عليهِ وفي يدِهِ باقلاةٌ[2] ، فقالَ : يا سيِّدي ؛ إنِّي وجدتُ هـٰذهِ الباقلاةَ ، فما أصنعُ بها ؟ فقالَ لهُ : اتركْها حتىٰ تفطرَ عليها

فقلتُ : يا سيِّدي ؛ حتى الباقلاةُ تُعلمُ بها ؟! فقالَ : يا ولدي ؛ لو خالفَني في لحظةٍ مِنْ خطراتِهِ لم يفلحْ أبداً)

فإذا جُوهدَتِ النفسُ بهـٰذهِ المجاهداتِ ، وقُوتلَتْ بهـٰذهِ المقاتلاتِ[3] . . رجعَتْ عن مألوفاتِها الدنيَّةِ ، وعاداتِها الرديَّةِ ، وزالَ عنها النفورُ والاستكبارُ ، وذلَّتْ لمولاها بالعبوديَّةِ والافتقارِ ، وتزكَّتْ أعمالُها ، وصفَتْ أحوالُها ، وهـٰذهِ هي خاصيَّتُها التي خُلقَتْ لأجلِها ، ومزيتُها التي شَرُفَتْ مِنْ قبلِها

وإنَّما ألفَتْ سوىٰ هـٰذهِ لمرضٍ أصابَها ؛ مِنَ الركونِ إلىٰ هـٰذا العالمِ الأدنىٰ ، والأُنْسِ بالشهواتِ التي تزولُ وتفنىٰ ، حتى امتنعَ عليها ما خُلقَتْ لأجلِهِ مِنْ موجبِ سعادتِها ، وغايةِ شرفِها وإفادتِها .

فلمَّا تعالجَتْ بما ذكرناهُ عادَتْ إلى الصحَّةِ ، وإلىٰ طبعِها الأصليِّ ، فألفَتِ العبوديَّةَ والتزمَتْها ، وصارَتْ بذلكَ مطمئنةً صالحةً لأنْ يُقالَ لها : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧ـ٣٠]

قالَ الشيخُ العارفُ أبو محمدٍ عبدُ العزيزِ المهدويُّ : (النفسُ المطمئنةُ : هي التي تخلَّصَتْ مِنَ السِّوىٰ ، ولم يبقَ بينَها وبينَ السِّوىٰ نسبةٌ ، وكانَتْ مبادئُها في الاكتسابِ الإيمانَ والرضا المكتسبَ ، فلمَّا صَفَتْ وتطهَّرَتْ مِنْ جهةِ المخلوقاتِ ،

---

(١) توفي الإمام المهدوي سنة (٦٢١هـ) ، وهـٰذا نصٌّ عزيز في اجتماع الإمام البوني بالإمام المهدوي .

(٢) الباقلاةُ : واحدة الباقِلاءِ بالتخفيف ، وهي الفول ونحوه ، وفاعل (دخل) ضمير عائد على التلميذ المذكور .

(٣) في (ج) : (وقوبلت بهذه المقابلات) .

وزالَ الحجابُ الذي هو صفةُ الخلْقِ . . سمعَتِ النداءَ مِنْ مكانٍ قريبٍ ، فأجابَتْ لعدمِ الحجابِ ، فخرجَتِ المواهبُ والرضا الوصفيُّ الوهبيُّ ؛ الذي قالَ اللهُ فيهِ ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة : ١١٩] ، فدخلَتْ في رضا اللهِ المطلقِ الموهوبِ ، وفي عبادِهِ وجنَّتِهِ ، لا في جنَّتِها ، بوصفِ كسبِها وأعمالِها) انتهىٰ

وعلامةُ وصولِ المريدِ ، إلىٰ هـٰذا المقامِ الحميدِ أنْ تستويَ عندَهُ الأحوالُ ، ولا يتأثَّرَ باطنُهُ بما يواجَهُ بهِ مِنْ قبيحِ الأفعالِ والأقوالِ ؛ لاستغراقِ قلبِهِ في مطالعةِ حضرةِ الكمالِ

قالَ أبو عثمانَ الحيريُّ : (لا يكملُ الرجلُ حتىٰ يستويَ قلبُهُ في أربعةِ أشياءَ : في المنعِ والعطاءِ ، والعزِّ والذلِّ)[1]

وقالَ محمدُ بنُ خفيفٍ : قدمَ علينا بعضُ أصحابِنا ، فاعتلَّ ، وكانَ بهِ علَّةُ البطنِ ، فكنتُ أخدمُهُ وآخذُ منهُ الطستَ طولَ الليلِ ، فغفوتُ مرَّةً ، فقالَ لي : نمتَ لعنَكَ اللهُ ؟!

فقيلَ لهُ : كيفَ وجدتَ نفسَكَ عندَ قولِهِ لعنَكَ اللهُ ؟ قالَ كقولِهِ رحمَكَ اللهُ[2] .

وحُكِيَ عن إبراهيمَ بنِ أدهمَ أنَّهُ قالَ : ما سُررتُ في الإسلامِ إلا مرَّاتٍ معدوداتٍ :

كنتُ في مركبٍ يوماً ، وكانَ بهِ رجلٌ يحكي الحكاياتِ المضحكةَ ، فيضحكُ منهُ الناسُ ، وكانَ يقولُ رأيتُ وقتاً في معركةِ التركِ عِلْجاً[3] ، فقلتُ هـٰكذا ، وكانَ يأخذُ بلحيتي ويُمِرُّ يدَهُ علىٰ حلقي هـٰكذا ، والناسُ يضحكونَ منهُ ، ولم يكنْ في ذلكَ المركبِ عندَهُ أحدٌ أصغرَ منِّي ولا أحقرَ ، فسررتُ بذلكَ

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٤٤) ، والقشيري في « رسالته » (ص ١٥٧) .

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٤٦٤)

(٣) العلج : القوي الضخم من كفار العجم

ويوماً آخرُ : كنتُ جالساً ، فجاءَ إنسانٌ فصفعَني مِنْ غيرِ سببٍ .

ويوماً آخرُ : جاءَ إنسانٌ وبالَ عليَّ(١)

وكانَ في وقتِ حاتِمٍ الأصمِّ رجلٌ يسيءُ القولَ فيهِ وفي أصحابِهِ ، ويواجهُهم كلَّ يومٍ بالقبيحِ ، فوقعَ عليهِ جذعٌ مِنَ السقفِ في بعضِ الأيامِ في حالِ مواجهةِ القومِ بالسبِّ والشتمِ ، فماتَ ، فقالَ : الحمدُ للهِ ، فقيلَ لهُ : هـٰذا خلافُ ما تأمرُنا بهِ ! فقالَ : ما حمدتُ اللهَ شماتةً بموتِهِ ، بل حمدتُ اللهَ إذْ لم أُسَرَّ بنكبتِهِ .

هـٰذا وأشباهُهُ مِنْ أحوالِهم معلومٌ ضرورةً

وأبلغُ مِنْ ذلكَ : محبةُ الموتِ ، وكراهةُ البقاءِ في الدنيا ؛ شوقاً إلىٰ لقاءِ المولىٰ

قالَ بعضُهم : (حقيقةُ زوالِ الهوىٰ مِنَ القلبِ : حبُّ لقاءِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ نَفَسٍ مِنْ غيرِ اختيارِ حالةٍ يكونُ المرءُ عليها)

فإذا وجدَ المريدُ هـٰذهِ العلاماتِ في نفسِهِ . . فقد خرجَ مِنْ عالمِ جنسِهِ ، ووصلَ إلىٰ حضرةِ قُدْسِهِ ، وكانَ كما قالَ الشاعرُ [من الطويل]

لَـكَ ٱلـدَّهْـرُ طَـوْعٌ وٱلأَنَـامُ عَبِيـدُ   فَعِشْ كُـلُّ يَـوْمٍ مِـنْ زَمَـانِكَ عِيـدُ

وكما قالَ سيدي أبو العباسِ بنُ العريفِ رضيَ اللهُ عنهُ(٢) : [من الطويل]

بَـدَا لَـكَ سِرٌّ طَـالَ عَنْـكَ ٱكْتِتَـامُـهُ   وَلاحَ صَبَـاحٌ كُنْـتَ أَنْـتَ ظَـلامَـهُ

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٣٨٧) .

(٢) كذا نسبتها له في « لطائف المنن » (ص ٩٨) ، وقد أوردها بعد حكاية عن الإمام أبي العباس المرسي ؛ حيث قال : (دخلتُ عليه يوماً ، فوجدته مغموساً في واردٍ وردَ عليه ، فقال : سمعت البارحة يقال لي : السلام عليكم يا عبادي ، ثم قال : قد أسمعه في السنة مرة أو مرتين) ، قال : (وهـٰذا من الحديث الذي قال فيه أبو العباس بن العريف) وذكر الأبيات الأربعة دون الأخير ، وأوردها أيضاً العماد الأصبهاني في « خريدة القصر » (قسم شعراء الشام) (٢/ ٣٠٩) علىٰ أنها للقاضي المرتضىٰ أبي محمد الشهرزوري

فَأَنْتَ حِجَابُ ٱلْقَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ وَلَـوْلاكَ لَـمْ يُطْبَـعْ عَلَيْـهِ خِتَـامُـهُ
فَـإِنْ غِبْـتَ عَنْـهُ حَـلَّ فِيـهِ وَطَنَّبَـتْ عَلَىٰ مَرْكَبِ ٱلْكَشْفِ ٱلْمَصُونِ خِيَامُهُ
وَجَـاءَ حَـدِيـثٌ لا يُمَـلُّ سَمَـاعُـهُ شَهِـيٌّ إِلَيْنَـا نَثْـرُهُ وَنِظَـامُـهُ
إِذَا سَمِعَتْـهُ ٱلنَّفْـسُ طَـابَ نَعِيمُهَـا وَزَالَ عَـنِ ٱلْقَلْـبِ ٱلْمُعَنَّـىٰ غَـرَامُـهُ

وأنشدوا في معناهُ أيضاً : [من السريع]

قُـوْلِـي لِآمَـالِـي أَلا فَـٱبْعُـدِي قَـدْ أَنْجَزَ ٱلْأَحْبَـابُ لِي مَـوْعِـدِي
قَـدْ كُنْـتُ قَبْـلَ ٱلْيَـوْمِ مُسْتَـأْنِسـاً مِنْـكِ بِخِـلٍّ مُشْفِـقٍ مُسْعِـدِ
وَإِنْ نَسِيـمُ ٱلـوَصْلِ مِـنْ نَحْـوِهِـمْ هَـبَّ فَلِـي عِنْـدَكِ ظِـلٌّ نَـدِي
وَحَيْـثُ لاحَـتْ لِـيَ أَعْـلامُهُـمْ فَلَيْـسَ لِـي فَقْـرٌ إِلَـىٰ مُـرْشِـدِ

وإنْ لم يجدْها في نفسِهِ فليستمرَّ علىٰ سلوكِهِ ومجاهداتِهِ ، ولا يغترَّ بما يتراءىٰ لهُ مِنْ سَنِيِّ حالاتِهِ ؛ فإنَّهُ لم يصلْ بعدُ ، ولم يحصلْ لهُ مِنْ هوىٰ نفسهِ فَقْدٌ

وليسَ طريقُ موتِ النفسِ بقطعِ جميعِ الأرفاقِ عنها ، وردِّها إلى الاجتزاءِ بالحشيشِ والنُّخالةِ ، والمبالغةِ في التقشُّفِ والتقلُّلِ ، معَ قطعِ النظرِ عن أحوالِ القلبِ وهِمَمِهِ[1] ، وقصورِهِ وإراداتِهِ ، وتركِ الالتفاتِ إلىٰ ما يُحمدُ منها ويُذمُّ ؛ **فذلكَ كلُّهُ غلوٌّ وبدعةٌ**

وقد غلطَ في ذلكَ طوائفُ مِنَ الناسِ ؛ عملوا عليهِ في رياضاتِهم ومجاهداتِهم ، ولم يقصدوا بذلكَ إخلاصَ العبوديَّةِ لربِّهم ، فأدَّاهم ذلكَ إلى اختلالِ عقولِهم ، وانحلالِ قُوىٰ أبدانِهم ، ولم يحصِّلوا مِنْ أمرِهم علىٰ فائدةٍ ؛ **وذلكَ لجهلِهم بالسنَّةِ ، وما كانَ عليهِ سلفُ الأمَّةِ .**

* * *

(١) في (ج) : (وهمته)

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المئتين (*)

جَعَلَكَ فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ ؛ لِيُعْلِمَكَ جَلالَةَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوَّنَاتِهِ

خلقَ اللهُ تعالى الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ ، وأتمَّ تسويةٍ وتعديلٍ ، وجعلَ بنيتَهُ متضمِّنةً أسرارَ جميعِ الموجوداتِ ؛ علويِّها وسفليِّها ، لطيفِها وكثيفِها ، **فصارَ بذلكَ روحانياً جُثْمانياً ، أرضياً سماوياً** ، ولذلكَ يُقالُ لهُ : **العالمُ الأصغرُ**[1] ، وهـٰذا هو

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات عوالم : المُلْك ، والملكوت ، والجبروت ، وإلىٰ أن المقصود الأعظم من الخلق إنما هو الإنسانُ الكامل ، الذي تحلَّىٰ بالأسماء الحسنىٰ ، فهو الدعوىٰ والبرهان ، وليس الظنُّ كالعِيان .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ١] ، **وقوله تعالىٰ :** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ ـ ٧] ، **وقوله تعالىٰ :** ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] ، **وقوله تعالىٰ** ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام :** « خلقَ اللهُ آدمَ علىٰ صورتِهِ » ، رواه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) قال العارف بالله الإمام أحمد الرفاعي كما في « البرهان المؤيد » (ص ٥٥) : (قال علي أمير المؤمنين عليه السلام : [من المتقارب]

دواؤُكَ منـــكَ ومـــا تبصـــرُ ... وداؤُكَ فيـــكَ ومـــا تشعـــرُ
وتـزعـــمُ أنّـــكَ جِـــرمٌ صغيـــرٌ ... وفيـكَ انطـوى العـالـمُ الأكبـرُ

العالم الأكبر : العقل ، وقد انطوىٰ بك ، ومن العالم المطوي فيك يظهر لك جرمك الذي استصغرته ؛ إذ لولا وصول جرمك إلى الغاية التي تحيط بذلك العالم الأكبر وتليق به . . لما صار محلاً للعالم المذكور) ، وقد يعبر عن العقل بالروح ، فتكون هي السر المشار إليه .

الذي يظهرُ في معنىٰ جعلِهِ في العالمِ المتوسِّطِ بينَ عالمِ المُلْكِ وعالمِ الملكوتِ .

وعالمُ الملكِ : هو عالمُ الشهادةِ ، **وعالمُ الملكوتِ** هو عالمُ الغيبِ ، فلا جرمَ لمَّا كانَ الإنسانُ بهـٰذهِ المثابةِ ؛ مِنْ كونِهِ نخبةَ جميعِ الموجوداتِ الجسمانيَّاتِ والروحانيَّاتِ . . كانَتِ الأكوانُ كلُّها باعتبارِ إحاطتِها بهِ وحفظِها لهُ بمنزلةِ القشرِ والصوانِ الذي يحفظُ الشيءَ ويصونُهُ[1] ، وكانَ هو بمنزلةِ الجوهرةِ النفيسةِ التي تحويها الصدفةُ

والمقصودُ مِنْ هـٰذا أنْ يعرفَ الإنسانُ جلالةَ قدرِهِ ، وفخامةَ أمرِهِ ، فيعلوَ بهمَّتِهِ إلى المراتبِ الساميةِ اللائقةِ بهِ ؛ **وذلكَ بإخلاصِ العبوديَّةِ لربِّهِ عزَّ وجلَّ** ، وقطعِ النظرِ عن كلِّ ما سواهُ ، وينظرُ هـٰذا المعنىٰ إلىٰ ما قالَ الشاعرُ[2] : [من الطويل]

إِذَا كُنْتَ كُرْسِيّاً وَعَرْشاً وَجَنَّةً ... وَنَاراً وَأَفْلاكاً تَدُورُ وَأَحْلاكَا
وَكُنْتَ مِنَ ٱلسِّرِّ ٱلْمَصُونِ سَرِيرَةً ... وَأَدْرَكْتَ هَـٰذَا بِـٱلْحَقِيقَةِ إِدْرَاكَا
فَفِيمَ ٱلتَّأَنِّي فِي ٱلْحَضِيضِ مُثَبَّطاً ... مُقِيماً مَعَ ٱلْأَسْرَىٰ أَمَا حَانَ إِسْرَاكَا

قالَ الشيخُ أبو العباسِ المرسيُّ (الأكوانُ كلُّها عبيدٌ مسخَّرةٌ ، وأنتَ عبدُ الحضرةِ)[3]

وقد وردَ في بعضِ الكتبِ المنزلةِ : (يا بنَ آدمَ ؛ أنا بدُّكَ اللازمُ ، فالزمْ بُدَّكَ)[4] .

---

(١) الصوان ـ بتثليث الصاد ـ : ما يُصان فيه الشيء ويحفظ .

(٢) في (هـ) وحدها : (وينظر في هـٰذا المعنىٰ . . .)
وفي « قوت القلوب » (٢/ ٦٩٦) : (وفي أخبار داود عليه السلام : إني خلقت محمداً لأجلي ، وخلقت آدمَ لأجل محمد ، وخلقت ما خلقت لأجل ولد آدم ؛ فمن اشتغل منهم بما خلقته لأجله حجبته عني ، ومن اشتغل منهم بي سُقْتُ إليه ما خلقته لأجله)

(٣) رواه الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ٢٣٩)، و« لطائف المنن » (ص ١٧٢).

(٤) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ٧٠٠) ، والبُدُّ : النصيب ، وكذا المفرُّ ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، وروىٰ هـٰذا الأثر الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ٢٤٤) وذكر أنه موضوع مرفوعاً .

وفي بعضِ الأخبارِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ : (يا بنَ آدمَ ؛ خلقتُ الأشياءَ كلَّها مِنْ أجلِكَ ، وخلقتُكَ مِنْ أجلي ، فلا تشتغلْ بما هو لكَ عمَّنْ أنتَ لهُ)[1]

وقالَ الواسطيُّ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] : بأنْ سخَّرنا لهمُ الكونَ وما فيهِ ؛ لئلا يكونوا في تسخيرِ شيءٍ ، ويتفرَّغوا إلىٰ عبادةِ ربِّهم[2]

* * *

(١) أورده العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (١/ ٢٩٥) وعزاه للتوراة ، والإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ٢٣٨)

(٢) أورده شطَّاح فارس أبو محمد البقلي في « عرائس البيان في حقائق القرآن » (٢/ ٣٧٢) .
وروى الترمذي (١٣٩٥) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « لَزوالُ الدنيا أهونُ على اللهِ من قتلِ رجلٍ مسلمٍ »

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المئتين (*)

وَسِعَكَ ٱلْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جُثْمَانِيَّتُكَ ، وَلَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحَانِيَّتِكَ .

إنَّما وسعَكَ الكونُ مِنْ حيثُ جثمانيتُكَ ؛ لوجودِ المناسبةِ والمجانسةِ ، ووُسْعُهُ لكَ باعتبارِ ما ذكرناهُ إنَّما هو باكتفائِكَ بهِ ، وقضاءِ أوطارِكَ منهُ ، ووقوفِ أملِكَ في منالِ حاجاتِكَ عليهِ ، ولا خاصيَّةَ لكَ في هـٰذا أيُّها الإنسانُ ؛ لأنَّ مرتبتَكَ أجلُّ مِنْ ذلكَ(1)

وإنَّما لم يسعْكَ مِنْ حيثُ ثبوتُ روحانيَّتِكَ ؛ لعدمِ المناسبةِ ، فلا يسعُكَ حينَئذٍ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن من لازم وجود الإنسان وجود المكان من حيث ثبوت الجسمية له ، ولا جسم بغير مكان ، وإلىٰ إثبات المجرَّدات على القول بها مع استغنائها عن الزمان والمكان ، وإلىٰ أن الإنسان ما أوتي من العلم بنفسه فضلاً عن ربه إلا قليلاً
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [صٓ : ٧٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [صٓ : ٧٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] أي : من حيث الجسمانية ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ للهِ آنيةً مِنْ أهلِ الأرضِ ، وآنيةُ ربِّكم قلوبُ عبادِهِ الصالحينَ » ، رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٨٤٠) من حديث أبي عنبة الخولاني رحمه الله تعالىٰ .

(1) روى الإمام أحمد في « الزهد » (٤٢٣) عن وهب بن منبه يقول : (إن الله عز وجل فتح السماوات لحزقيل حتىٰ نظر إلى العرش ـ أو كما قال ـ ، فقال حزقيل : سبحانك ! ما أعظمَك يا ربِّ ! فقال الله : إن السماوات والأرض لم تطق أن تحملني ، وضِقْنَ من أن تسعني ، وسعني قلب المؤمن الوادع الليِّن) ، وذلك بالمعرفة ؛ إذ هي عمل القلب .

ولا يناسبُكَ إلا التعلُّقُ بالمكوِّنِ ، وهٰذهِ هي خاصِّيَّتُكَ التي بها سموُّكَ وعلوُّكَ ورفعةُ قدرِكَ ، فلِمَ تهملُها وتنحطُّ منها إلىٰ أسفلِ سافلينَ ؟!

قالَ أبو عبدِ اللهِ بنُ الجَلَّا : (مَنْ علَتْ همَّتُهُ على الأكوانِ . . وصلَ إلىٰ مكوِّنِها ، ومَنْ وقفَ بهمَّتِهِ علىٰ شيءٍ سوى الحقِّ . . فاتَهُ الحقُّ ؛ لأنَّهُ أعزُّ مِنْ أنْ يرضىٰ معَهُ بشريكٍ)[1]

وسُئِلَ أحمدُ بنُ خضرويهِ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ : رعايةُ السرِّ عنِ الالتفاتِ إلىٰ شيءٍ سوى اللهِ[2]

* * *

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٧٩) .

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٠٦)

الحكمة السادسة والخمسون بعد المئتين (*)

ٱلْكَائِنُ فِي ٱلْكَوْنِ وَلَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ ٱلْغُيُوبِ . . مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ ، وَمَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ .

مَنْ لازمَ الكونَ وبقيَ معَهُ ، وقصرَ همَّتَهُ عليهِ ، ولم تُفتحْ لهُ ميادينُ الغيوبِ الملكوتيَّةِ ، ولا خلصَ بسرِّهِ إلىٰ فضاءِ مشاهدةِ الوحدانيَّةِ . . فهو مسجونٌ بمحيطاتِهِ ، ومحصورٌ في هيكلِ ذاتِهِ .

وهـٰذهِ هي صفةُ أصحابِ النارِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : ٢٩] ، وليسَ في جهنَّمَ عذابٌ أعظمَ مِنَ السَّجْنِ والحصرِ ، والضيقِ والقهرِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان : ١٣] .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ خلق الأكوان وجعلها عَلَماً علىٰ معرفته ؛ وبذلك سميت العوالم ، وإلىٰ أن سعة قدرته أحاطت بالملكوت الذي جعله سبحانه وراء عالم الشهادة ، وسمَّاه عالم الغيب .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : ٣٨ ـ ٣٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠ ـ ٢١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ ؛ لكَ الحمدُ أنتَ قيِّمُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ لكَ ملكُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ أنتَ نورُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ أنتَ مَلِكُ السماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ الحقُّ ، ووعدُكَ الحقُّ ، ولقاؤُكَ حقٌّ ، وقولُكَ حقٌّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، والنبيونَ حقٌّ ، ومحمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حقٌّ ، والساعةُ حقٌّ » ، رواه البخاري (١١٢٠) ، ومسلم (٧٦٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

وما ذكرناهُ هو حالُ مَنْ يبقىٰ معَ نفسِهِ ، وعملَ علىٰ نيلِ حظِّهِ كائناً مَنْ كانَ .

وفي بعضِ الآثارِ المرويَّةِ عنِ اللهِ تعالىٰ : (**عبدي ؛ اجعلْني مكانَ همِّكَ أكفِكَ كلَّ همٍّ ، ما كنتَ بكَ فأنتَ في محلِّ البعدِ ، وما كنتَ بي فأنتَ في محلِّ القربِ ، فاخترْ لنفسِكَ**)[1]

*

(١) وروى ابن ماجه (٢٥٧) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « مَنْ جعلَ الهمومَ همّاً واحداً ؛ همَّ آخرتِهِ . كفاهُ اللهُ همَّ دنياهُ ، ومَنْ تشعَّبَتْ بهِ الهمومُ في أحوالِ الدنيا . لم يبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِها هلكَ »

الحكمة السابعة والخمسون بعد المئتين (*)

أَنْتَ مَعَ ٱلأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدِ ٱلْمُكَوِّنَ ، فَإِذَا شَهِدْتَهُ كَانَتِ ٱلأَكْوَانُ مَعَكَ .

فرقٌ ما بينَ كونِكَ معَ الأكوانِ ، وكونِ الأكوانِ معَكَ :

فإنَّ كونَكَ معَ الأكوانِ يقتضي تقييدَكَ بها ، وحاجتَكَ إليها ، فأنتَ بذلكَ عبدٌ لها ، ثم هي خاذلتُكَ ومسلمتُكَ أحوجَ ما تكونُ إليها ، وهـٰذهِ حالةٌ خسيسةٌ يقتضيها عدمُ شهودِكَ للمكوِّنِ .

وكونَ الأكوانِ معَكَ يقتضي ملكَكَ لها ، واستغناءَكَ عنها ، فأنتَ حينَئذٍ حرٌّ عنها ، وهي محتاجةٌ إليكَ وخادمةٌ لكَ ، ومتبرِّكةٌ بكَ ؛ حتى الجماداتُ والحيواناتُ[1]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه الظاهر ، وأنه نور السماوات والأرض ، وأن المرء حرٌّ بقدر معرفته بربِّهِ ، والحرُّ بإطلاق : مَنْ لم يشهد إلا الله تعالىٰ تحقيقاً ، وأخذ وأعطىٰ من الأكوان حكمةً وأدباً

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة : ١٠٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام إذا استوىٰ علىٰ بعيره خارجاً إلىٰ سفر بعد أن يكبر ثلاثاً : « سبحانَ الذي سخَّرَ لنا هـٰذا وما كنَّا لهُ مقرنينَ » ، رواه مسلم (١٣٤٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(١) روىٰ أبو داود (١٧٦٥) من حديث سيدنا عبد الله بن قرط رضي الله عنه : أنه قُرِّب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بَدَناتٌ خمسٌ أو ستٌّ ، فطفقن يزدلفنَ إليه بأيتهنَّ يبدأ .

وحديث حنين الجذع له صلى الله عليه وسلم رواه البخاري (٢٠٩٥) من حديث سيدنا جابر =

قالَ الشبليُّ : (ليسَ يخطرُ الكونُ ببالِ مَنْ عرفَ المكوِّنَ) .

وهٰذهِ حالةٌ نفيسةٌ يقتضيها شهودُكَ للمكوِّنِ .

قالَ بعضُ المشايخِ : (أنا أدخلُ السوقَ والأشياءُ مشتاقةٌ إليَّ ، وأنا مِنْ جميعِها حرٌّ)[1]

وعنِ المزيِّنِ الكبيرِ قالَ : كنتُ معَ إبراهيمَ الخوَّاصِ في بعضِ أسفارِهِ ، فإذا عقربٌ تسعىٰ علىٰ فخذِهِ ، فقمتُ لأقتلَها ، فمنعَني وقالَ : دعْها ؛ كلُّ شيءٍ مفتقرٌ إلينا ، ولسنا مفتقرينَ إلىٰ شيءٍ[2]

وقالَ محمدُ بنُ المباركِ الصوريُّ رحمَهُ اللهُ : كنتُ معَ إبراهيمَ بنِ أدهمَ في طريقِ بيتِ المقدسِ ، فنزلنا في وقتِ القائلةِ تحتَ شجرةِ رمَّانٍ ، فصلَّينا ركعاتٍ ، فسمعتُ صوتاً مِنْ أصلِ الرمَّانِ : يا أبا إسحاقَ ؛ أكرمْنا بأنْ تأكلَ منَّا شيئاً ، فطأطأَ إبراهيمُ رأسَهُ ، فقالَ ذلكَ ثلاثَ مرَّاتٍ ، ثم قالَ : يا محمدُ ؛ كُنْ شفيعاً إليهِ ليتناولَ منَّا شيئاً ، فقلتُ : يا أبا إسحاقَ ؛ لقد سمعتَ ، فقامَ وأخذَ منها رمَّانتينِ ، فأكلَ واحدةً ، وناولَني الأخرىٰ فأكلتُها[3]

وفي هٰذهِ الحكايةِ : أنَّ الشجرةَ كانَتْ قصيرةً ، ورمَّانُها حامضاً ، وأنَّها تطعمُ كلَّ عامٍ مرَّةً ، فعَلَتْ وارتفعَتْ ، وحلا رمَّانُها ، وصارَتْ تطعمُ كلَّ عامٍ مرَّتينِ[4]

= رضي الله عنه ، وفي « الروض الأنف » (٥/ ١٦٨) : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له حمار يُقال له : يعفور ، قد طرح نفسه في بئرٍ يومَ مات النبي صلى الله عليه وسلم ، فمات .

(١) رواه الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٦٩) .

(٢) أورده الإمام الطوسي في « اللمع » (ص ٢٥٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٦٠٥) .

(٣) أوردها الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٧٢٣) .

(٤) هو تتمة الخبر السابق عند القشيري في « رسالته » (ص ٧٢٣ـ٧٢٤) ، وبعد ذلك سمَّوها رمانة العابدين ، وكان العابدون يأوون إلىٰ ظلِّها .

وكانَتِ السباعُ تجيءُ إلىٰ سهلِ بنِ عبدِ اللهِ ، فيدخلُهم بيتاً عندَهُ ، ويضيفُهم ويطعمُهمُ اللحمَ[1]

وقالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ كنتُ في الباديةِ ، فسرتُ في وسطِ النهارِ ، فوصلتُ إلىٰ شجرةٍ وبالقربِ منها ماءٌ ، فنزلتُ فإذا أنا بسبعٍ عظيمٍ قد أقبلَ ، فلمَّا قَرُبَ منِّي إذا هو يعرجُ ، فحمحمَ وبرَّكَ بينَ يديَّ ، ووضعَ يدَهُ في حجري ، فنظرتُ فإذا يدُهُ منتفخةٌ فيها قيحٌ ودمٌ ، فأخذتُ خشبةً وشققتُ الموضعَ الذي فيهِ القيحُ ، وشددتُ علىٰ يدِهِ خرقةً ، فمضىٰ ، فإذا أنا بِهِ بعدَ ساعةٍ جاءَ ومعَهُ شبلانِ يبصبصانِ لي ، وحملا إليَّ رغيفاً[2]

وقالَ بعضُهم أشرفتُ علىٰ إبراهيمَ بنِ أدهمَ وهو ببستانٍ يحفظُهُ ، وقد أخذَهُ النومُ ، وإذا حيَّةٌ في فمِها طاقةُ نرجسٍ تروِّحُهُ بها[3]

وذُكِرَ عن أبي إسحاقَ الصعلوكيِّ رحمَهُ اللهُ قالَ : خرجتُ مرَّةً إلى الحجِّ ، فبينا أنا في الباديةِ إذْ تهتُ ، فلمَّا جنَّ عليَّ الليلُ ، وكانَتْ ليلةً قمراءَ . . سمعتُ صوتَ شخصٍ ضعيفٍ يقولُ : يا أبا إسحاقَ ؛ قدِ انتظرتُكَ مِنَ الغداةِ .

قالَ : فدنوتُ منهُ ، فإذا هو شابٌّ نحيفٌ أشرفَ على الموتِ ، وحولَهُ رياحينُ كثيرةٌ ، منها ما عرفتُهُ ، ومنها ما لم أعرفْهُ ، فقلتُ مِنْ أينَ أنتَ ؟ فقالَ مِنْ مدينةِ شميساطَ[4] ، وكنتُ في عزٍّ وثروةٍ ، فطالبَتْني نفسي بالعزلةِ ، فخرجتُ ، وقد

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٧١٣)

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٧٤٣) .

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٧٢٨) .

(٤) في (ج ، هـ) : (شميشاط) ، والذي في « معجم البلدان » (٣/ ٣٦٢) : (شمشاط : بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، وشين مثل الأولىٰ ، وآخره طاء مهملة ؛ مدينة بالروم علىٰ شاطئ الفرات) ، ثم قال : (وهي غير سميساط ؛ هـٰذه بسينين مهملتين ، وتلك بمعجمتين ، وكلتاهما على الفرات)

أشرفتُ على الموتِ ، فسألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يقيِّضَ لي وليّاً مِنْ أوليائِهِ ، فأرجو أنَّكَ هو .

قالَ : فقلتُ ألكَ والدانِ ؟ قالَ : نعم وإخوةٌ وأخواتٌ ، فقلتُ : هلِ اشتقتَ إليهم وإلىٰ ذكرِهم ؟ فقالَ : لا ، إلا اليومَ أردتُ أنْ أَشَمَّ ريحَهم ، فاحتوشَتْني السباعُ والبهائمُ وبكينَ معي ، وحملنَ إليَّ هٰذهِ الرياحينَ .

قالَ : فبينا أنا في تلكَ الحالِ يرقُّ لهُ قلبي إذا بحيَّةٍ أقبلَتْ في فيها طاقةُ نرجسٍ ، فقالَتْ : كُفَّ شرَّكَ عنهُ ؛ فإنَّ اللهَ يغارُ علىٰ أوليائِهِ .

قالَ فغُشِيَ عليَّ ، فما أفقتُ حتىٰ خرجَتْ نفسُهُ ، ثم وقعَ عليَّ سُباتٌ ، فانتبهتُ وأنا على الجادةِ .

قالَ : فدخلتُ مدينةَ شميساطَ بعدَما حججتُ ، فاستقبلَتْني امرأةٌ بيدِها كوزٌ ، فما رأيتُ أشبهَ بالشابِّ منها ، فلمَّا رأَتْني قالَتْ يا أبا إسحاقَ ؛ كيف رأيتَ الشابَّ ؟! فإنِّي أنتظرُكَ منذُ ثلاثٍ ، فذكرتُ لها القصَّةَ إلىٰ أنْ قلتُ : قالَ : أردتُ أنْ أَشَمَّهم ، فصاحَتْ وقالَتْ : آهِ ، بلغَ الشمُّ ، وخرجَتْ نفسُها ، فخرج أترابٌ لها عليهنَّ المرقَّعاتُ والفوطُ ، فتكفَّلْنَ أمرَها ، وتولَّيْنَ شأنَها ، رضيَ اللهُ عنهم[١]

فهكذا حالُ مَنْ يكونُ عظيمَ الهمَّةِ ، شريفَ الإرادةِ والنيَّةِ ، لا يساكنُ أحداً مِنَ المخلوقاتِ ، ولا يوطِّنُ نفسَهُ علىٰ شيءٍ مِنَ المصنوعاتِ ، يتكفَّلُ اللهُ تعالىٰ بأمرِهِ ، ويجعلُ الكونَ خادماً لهُ بأسرِهِ ، رزقَنا اللهُ وإيَّاكم ما رزقَهم ، ووفَّقَنا لما وفَّقَهم ، بجودِهِ وكرمِهِ

*

---

(١) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٦٣ـ٦٤) .

الحكمة الثامنة والتاسعة والخمسون والستون بعد المئتين (*)

لا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ ٱلْخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ ٱلْبَشَرِيَّةِ

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْخُصُوصِيَّةِ كَإِشْرَاقِ شَمْسِ ٱلنَّهَارِ ، ظَهَرَتْ فِي ٱلْأُفُقِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ

تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَىٰ لَيْلِ وُجُودِكَ ، وَتَارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَىٰ حُدُودِكَ ، فَٱلنَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ ، وَلَـٰكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ .

ثبوتُ الخصوصيَّةِ للعبدِ لا يلزمُ منهُ عدمُ وصفِ البشريَّةِ ؛ **لأنَّ الوصفَ البشريَّ أمرٌ ذاتيٌّ لازمٌ للعبدِ** ، والأمورُ الذاتيَّةُ اللازمةُ يستحيلُ عدمُها وانقلابُها ، وإنَّما اللازمُ مِنْ ذلكَ عدمُ غلبةِ أحكامِ ذلكَ الوصفِ على العبدِ فقطْ ؛ لأجلِ الواردِ الغالبِ ، فإنْ قُدِّرَ ذهابُ هـٰذا الواردِ الغالبِ بقيَ وصفُ البشريَّةِ غالباً قاهراً ، وكانَ العبدُ أسيراً في يديهِ .

(*) ترجع هـٰذه الحكم اعتقاداً : إلىٰ أن الذاتيات لا تنفكُّ عن الماهية ؛ لأنها متقوِّمة بها ، ولو انفكَّت للزم انقلاب الأعيان ، وإنما تتخلَّف العرضيَّات ، وإلىٰ أن الولاية وهبٌ واصطفاء ، فهي خاصيَّةٌ عرضية ، ووجودها لا يمنع من ظهور حقائق البشرية .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لو تدومونَ علىٰ ما تكونونَ عندي وفي الذكرِ . . لصافحَتْكمُ الملائكةُ علىٰ فرشِكم وفي طرقِكم ، ولـٰكنْ يا حنظلةُ ساعةً وساعةً » ، رواه مسلم (٢٧٥٠) من حديث سيدنا حنظلة الأسدي رضي الله عنه .

ومثالُ ذلكَ مِنَ المحسوساتِ إشراقُ شمسِ النهارِ على الآفاقِ المظلمةِ لتزيلَ آثارَ ظلمانيتِها ، فتستنيرَ بذلكَ وتشرقَ ، فإذا غابَتِ الشمسُ رجعَتْ إلىٰ حالِها مِنَ الظلمةِ ؛ لأنَّ النورَ ليس بذاتيٍّ لها ، وهو معنىٰ قولِهِ : (وليسَتْ منهُ) .

ومعنى الخصوصيَّةِ المذكورةِ : هي ما يخصُّ الحقُّ تعالىٰ بهِ أولياءَهُ ؛ مِنْ ظهورِ أوصافِهِ العليَّةِ ونعوتِهِ القدسيَّةِ عليهم ؛ ليغطِّيَ بذلكَ أوصافَ نفوسِهمُ الدنيَّةِ الرديَّةِ عنهم ؛ لئلا تظهرَ آثارُ كدوراتِها في صفاءِ أوقاتِهم ، كما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ : (إذا أرادَ أنْ يُوصلَكَ إليهِ سترَ وصفَكَ بوصفِهِ ، وغطَّىٰ نعتَكَ بنعتِهِ)[1]

فإذا أشرقَتْ أنوارُ ذلكَ الواردِ علىٰ ليلِ وجودِهم . . ذهبَتْ بظلماتِ نفوسِهم ، وبقُوا في نهارِ الوُصلةِ والقُربةِ مِنْ غيرِ حولٍ منهم ولا قوَّةٍ ، وهو معنىٰ قولِهِ : (فالنهارُ ليسَ منكَ إليكَ) .

وإنْ غابَتْ عنهم تلكَ الأنوارُ المشرقةُ . . رجعوا إلىٰ أصلِهم ، ولزموا الوقوفَ علىٰ حدِّهم ، وكانوا في ليلِ القطيعةِ والحجبةِ كما كانوا قبلَ ذلكَ

والغرضُ مِنْ هٰذا : الردُّ علىٰ طوائفَ غَلِطَتْ في هٰذا الأمرِ ، وتغالَتْ وزعمَتْ أنَّ القُرْبَ مِنَ اللهِ تعالىٰ والوصولَ إليهِ إنَّما يكونُ بعُدْمِ أوصافِ البشريَّةِ ، وزوالِها بالكليَّةِ ، واتصافِهِ بصفاتِ الربوبيَّةِ بدلاً منها ، وفسَّرَتْ بهٰذا ما عبَّرَ بهِ المشايخُ مِنَ الفناءِ والبقاءِ[2] ، فوقعوا مِنْ ذلكَ في ضلالٍ وتزندقٍ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، والمعنى الصحيحُ مِنْ ذلكَ إنَّما هو ما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ها هنا

* * *

---

(١) انظر (ص ٥٦٦) .

(٢) فلم يفهموا مراد المشايخ من هٰذه الاصطلاحات على التحقيق ، قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٢٥٤) : (أشار القوم بالفناء إلىٰ سقوط الأوصاف المذمومة ، وأشاروا بالبقاء إلىٰ قيام الأوصاف المحمودة)

الحكمة الحادية والستون بعد المئتين (*)

دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَىٰ وُجُودِ أَسْمَائِهِ ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَىٰ ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ ، وَبِوُجُودِ أَوْصَافِهِ عَلَىٰ وُجُودِ ذَاتِهِ ؛ إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ ٱلْوَصْفُ بِنَفْسِهِ ، فَأَرْبَابُ ٱلْجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَىٰ شُهُودِ صِفَاتِهِ ، ثُمَّ يُرْجِعُهُمْ إِلَى ٱلتَّعَلُّقِ بِأَسْمَائِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَىٰ شُهُودِ آثَارِهِ ، وَٱلسَّالِكُونَ عَلَىٰ عَكْسِ هَـٰذَا ، فَنِهَايَةُ ٱلسَّالِكِينَ بِدَايَةُ ٱلْمَجْذُوبِينَ ، وَبِدَايَةُ ٱلسَّالِكِينَ نِهَايَةُ ٱلْمَجْذُوبِينَ ، لَـٰكِنْ لا بِمَعْنىً وَاحِدٍ ، فَرُبَّمَا ٱلْتَقَيَا فِي ٱلطَّرِيقِ ؛ هَـٰذَا فِي تَرَقِّيهِ ، وَهَـٰذَا فِي تَدَلِّيهِ(١)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ثبوت الأسماء والصفات القديمة لذاته سبحانه ، وإلىٰ أن تجليات أسمائه تعالىٰ عُرفت بالتأمل في الأكوان ، والأسماء مشتقة من الصفات ، والصفات قائمة بمحلٍّ هو الذات ، وإلىٰ أن معرفته تعالىٰ إما أن تكون كسبية وطريقها النظر في الأكوان ابتداءً ، أو وهبية بمعرفة المكوِّن ابتداءً ، وكل من عند الله عز وجل

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورىٰ : ١٣] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ للهِ تسعةً وتسعينَ اسماً ، مئةً إلا واحداً ، مَنْ أحصاها دخلَ الجنَّةَ » ، رواه البخاري (٢٧٣٦) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) جاء في هامش (أ) : (تأمل قوله : « نهاية السالكين . . . » إلىٰ آخره .

تأملت ؛ فإذا المجذوب يتعلق أولاً بالذات خصوصية ومنحةً ، ثم يتنزل إلى الصفات ، ثم يتنزل إلى الأسماء ، ثم إلىٰ شهود الآثار ؛ فأوله شهود المؤثر ، وآخره شهود الآثار ، فلهـٰذا ترى =

عبادُ اللهِ المخصوصونَ بالقربِ منهُ والوصولِ إليهِ ينقسمونَ إلىٰ قسمينِ : سالكينَ ومجذوبينَ

فشأنُ السالكينَ الاستدلالُ بالأشياءِ عليهِ ، وهمُ الذينَ يقولونَ : ما رأينا شيئاً إلا رأينا اللهَ بعدَهُ[١]

وشأنُ المجذوبينَ الاستدلالُ بهِ على الأشياءِ ، وهمُ الذينَ يقولونَ ما رأينا شيئاً إلا رأينا اللهَ قبلَهُ .

ولا شكَّ أنَّ الدليلَ أبداً أظهرُ مِنَ المدلولِ .

فأوَّلُ ما ظهرَ للسالكينَ الآثارُ ؛ وهي الأفعالُ ، فاستدلوا بها على الأسماءِ ، وبالأسماءِ على الصفاتِ ، وبالصفاتِ علىٰ وجودِ الذاتِ ، فكانَ حالُهمُ الترقيَ والصعودَ مِنْ أسفلَ إلىٰ أعلىٰ[٢]

وأوَّلُ ما ظهرَ للمجذوبينَ : حقيقةُ كمالِ الذاتِ المقدَّسةِ ، ثم رُدُّوا منها إلىٰ مشاهدةِ الصفاتِ ، ثم رجعوا إلى التعلُّقِ بالأسماءِ ، ثم أُنزلوا إلىٰ شهودِ الآثارِ ، فكانَ حالُهمُ التدليَ والتنزُّلَ مِنْ أعلىٰ إلىٰ أسفلَ[٣]

= المجذوب السالك بهـٰذا التدريج ؛ أوله جنون ، وآخره سكون ، يُنتفعُ به آخراً لا أولاً
وأما قوله : « ونهاية السالكين بداية المجذوبين » ؛ أنهم أولاً يتعلقون بالآثار ، ثم بشهود الأسماء ، ثم بشهود الصفات ، ثم بشهود [الذات] ـ في الأصل (الآثار) ـ ، فلا منافاةَ بين العبارتين) .

(١) ولهـٰذا المعنىٰ أشار العارف بالله سهل التستري ـ كما في « نكت الإرشاد » ـ بقوله : (وهل عثر منه أهل الأرضين والسماوات إلا على الأسماء والصفات ؟!)

(٢) يعني : السالك إذا تأمَّل الكون قال : لهـٰذا الكون حيٌّ عليم مريدٌ قادرٌ أوجده ؛ فأثبت الحياة والعلم والإرادة والقدرة الأزلية ، ثم علم أنها لا تقوم بنفسها ، فأثبت ذات القديم سبحانه الذي قامت به تلك الصفات ، وهـٰذا هو معنى الترقي في الاستدلال ، وهو ما أشار إليه سبحانه حكاية عن سيدنا إبراهيم علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩]

(٣) يعني : المجتبىٰ من قبل الحق تعالىٰ يرى ابتداءً موجوداً أزلياً أحداً ، أبدياً صمداً ، ويذكر نداءَه =

فما بدأَ بهِ السالكونَ مِنْ شهودِ الآثارِ إليهِ انتُهيَ بالمجذوبينَ ، وما ابتُدئَ بهِ المجذوبونَ مِنْ كشفِ حقيقةِ الذاتِ إليهِ انتهى السالكونَ[1] ، لٰكن لا بمعنىً واحدٍ ؛ فإنَّ مرادَ السالكينَ شهودُ الأشياءِ للهِ ، والمرادَ بالمجذوبينَ شهودُ الأشياءِ باللهِ .

فالسالكونَ عاملونَ علىٰ تحقيقِ الفناءِ والمحْوِ ، والمجذوبونَ مسلوكٌ بهم طريقُ البقاءِ والصحْوِ .

ولمَّا كانَ شأنُ الفريقينِ التنزُّلَ في تلكَ المنازلِ المذكورةِ . . لزمَ التقاؤُهما في طريقِ سفرِهما ؛ السالكُ مترقٍّ ، والمجذوبُ متدلٍّ .

* * *

= القديم : ألست بربكم ، ثم تُجلىٰ له كمالات أوصافه الوجودية السنية ، ويتعرَّف علىٰ أسمائه الحسنىٰ فيدعوه بها ، فيشهِدُهُ مولاه حكيمَ صنعه وبديع خلقه ، وهٰذا هو معنى التدلِّي في الاستدلال ، وذاك الاصطفاء هو ما أشار إليه المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم بقوله : « واللهِ ؛ لولا اللهُ ما اهتدينا ، ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا . . . » الحديث ، رواه البخاري (٤١٠٤) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما ، وانظر الحديث عنهم من كلام الإمام ابن عطاء الله الآتي (ص ٩٣٤) ، وذلك قوله : (ومن الناس من فاجأته عناية الله) .
فائدة : قال الإمام زروق في « الطرر والحواشي » (ص ٢٥٥) : (سمعت من بعض الفقراء أنه قال : الجذب لا يكون إلا عن نفس ، والسلوك لا يكون إلا مع وجدان آثار النفس ، والأنبياء منزَّهون عن أوصاف النفوس ، فلا يصح أن يقال : سالكون ولا مجذوبون ، والله أعلم) ، ثم اعلم : أن أسماء الأنبياء توقيفية كأسمائه تعالىٰ ، ومراعاة التأدُّب بالوصف كذلك ، فيقال : مصطفون أخيار ، كما نطق به الكتاب العزيز .

(١) إنما بُنيَ الفعل للمفعول في حق المجذوبين ؛ لكونهم لا إرادة لهم فيما هم فيه ، خلافاً للسالكين الذي يُشتمُّ منهم رائحة الإرادة ، وكذا فيما سيأتي في صياغة اسم المفعول .

الحكمة الثانية والستون بعد المئتين (*)

لا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلأَسْرَارِ إِلا فِي غَيْبِ ٱلْمَلَكُوتِ ، كَمَا لا تَظْهَرُ أَنْوَارُ ٱلسَّمَاءِ إِلا فِي شَهَادَةِ ٱلْمُلْكِ .

أنوارُ القلوبِ والأسرارِ المشرقةُ عليها مِنْ سماءِ التوحيدِ والمعرفةِ . . لا يُعرفُ قَدْرُها إلا في غيبِ الملكوتِ ؛ وهو عالمُ الآخرةِ ، وهناك يحصلُ لهم تمامُ هـٰذهِ الأنوارِ ، فمَنْ آمنَ بالغيبِ كانَ لهُ مِنْ ذلكَ الحظُّ الأوفرُ

كما أنَّ أنوارَ السماءِ المشرقةَ علىٰ ظواهرِ الأجرامِ لا تظهرُ إلا في شهادةِ المُلْكِ ؛ وهو عالمُ الدنيا ؛ وذلكَ لحصولِ المناسبةِ بينَ هـٰذهِ الأشياءِ

* * *

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله عز وجل هو مسبِّبُ الأسباب كلِّها ، ومن ذلك : الأسباب العقلية التي لا تقبل الانفكاك عن مسبَّباتها ، وهو ما يسميه حجة الإسلام الغزالي بالتلازمات الشرطية ، ومن ذلك : أفراد عالم الملكوت مقصورةٌ في الظهور عليه ، كما أن أفراد عالم المُلك لا تظهر إلا فيه ، ولله في خلقه شؤون .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾ [الأعراف : ٤٤] ، وقوله تعالىٰ حكاية : ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم : ٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ولـٰكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ برحمةِ اللهِ ورضوانِهِ وجنَّتِهِ أحبَّ لقاءَ الله ، فأحبَّ اللهُ لقاءَهُ » ، رواه مسلم (٢٦٨٤) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

الحكمة الثالثة والستون بعد المئتين (*)

وُجْدَانُ ثَمَرَاتِ ٱلطَّاعَاتِ عَاجِلاً ، بَشَائِرُ ٱلْعَامِلِينَ بِوُجُودِ ٱلْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلاً

ما يجدُهُ العاملونَ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ في أعمالِهم عاجلاً مِنْ مزيدِ الإيمانِ واليقينِ ، وتنسُّمِ رَوْحِ الأُنْسِ ولذيذِ القُرْبِ ولطيفِ الوَصْلِ . . بشائرُ مِنَ اللهِ عاجلةٌ بوجودِ الجزاءِ عليها في الدارِ الآخرةِ ؛ بأنَّها مقبولةٌ عندَ اللهِ تعالىٰ

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (مَنْ وجدَ ثمرةَ عملِهِ عاجلاً . . فهو دليلٌ على وجودِ القبولِ)[1]

❋ ❋

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه جلَّ شأنه قد تلطَّف بعباده الصالحين ، فعجَّل لهم بعض جزائهم بخلْقِ حلاوة الطاعات في قلوبهم ؛ ليكون ذلك بشرىٰ لهم بقبولها وحسن الجزاء عليها في الآخرة ، والله يفعل ما يشاء ، فالطاعة من الإيمان ، وللإيمان طعم ، ولطعمه حلاوة .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وجدَ حلاوةَ الإيمانِ : أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممَّا سواهما ، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا للهِ ، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفرِ كما يكرهُ أنْ يُقذفَ في النارِ » ، رواه البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه

(١) انظر (ص ٤٠٧) .

الحكمة الرابعة والستون بعد المئتين (*)

كَيْفَ تَطْلُبُ ٱلْعِوَضَ عَلَىٰ عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ ٱلْجَزَاءَ عَلَىٰ صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ ؟!

العملُ الذي يصحُّ طلبُ العوضِ والجزاءِ عليهِ : هو ما عملتَهُ لينتفعَ بهِ غيرُكَ ، ولم يحصلْ لكَ بذلكَ منفعةٌ ، ولم يندفعْ عنكَ بسببِهِ مضرَّةٌ ، **والأعمالُ الدينيَّةُ المطلوبةُ منكَ ظاهراً وباطناً بخلافِ هـٰذا كلِّهِ** ؛ إذْ هي مسلوبةٌ عنكَ ، منسوبٌ إلىٰ ربِّكَ خلقُها واختراعُها ، عائدةٌ ثمرةُ ذلكَ ومنفعتُهُ عليكَ في ظاهرِكَ وباطنِكَ ، **وهو غنيٌّ عنكَ وعنها** ، ولذلكَ عبَّرَ عنها بالتصدُّقِ والإهداءِ ؛ تنبيهاً علىٰ أنَّ ذلكَ لم يكنْ إلا لمنفعتِكَ

فطلبُ العوضِ والجزاءِ إذاً علىٰ عملٍ هـٰذهِ صفتُهُ . . في غايةِ القبحِ ، ولذلكَ صدَّرَ المؤلفُ كلامَهُ بـ (كيفَ) ليعجِّبَكَ مِنْ ذلكَ الوصفِ .

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه وتعالى المنفرد بإطلاق بخلق جميع أفعال العباد ؛ الإرادية والاضطرارية ، الظاهرة والباطنة ، من العزم إلىٰ صدور الفعل ، وليس للعبد من ذلك إلا الكسب في الاختياري منها ، وهو مدبَّر من قبل ومن بعد ، ولله تعالى الحجة البالغة علىٰ جميع خلقه ، نفزع إليه ضارعين بأن يشملنا بجميل عفوه وقديم إحسانه .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ يصنعُ كلَّ صانعٍ وصنعتَهُ » ، رواه البزار في « مسنده » (٢٨٣٧) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (٩٥) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

قالَ الواسطيُّ : (مطالبةُ الأعواضِ على الطاعاتِ مِنْ نسيانِ الفضلِ)[١]

وسُئِلَ أبو العباسِ بنُ عطاءٍ عن أقربِ شيءٍ إلىٰ مقتِ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : رؤيةُ النفسِ وأفعالِها ، وأشدُّ مِنْ ذلكَ مطالبةُ الأعواضِ علىٰ أفعالِها[٢]

واستعمالُ المؤلِّفِ لفظَ (الصدقةِ) في الأعمالِ الظاهرةِ ، ولفظَ (الهديَّةِ) في الصِّدْقِ ـ وعليهِ مدارُ الأعمالِ الباطنةِ ـ إشعارٌ بتبايُنِهما في الشرفِ ؛ كتبايُنِ الصدقةِ والهديَّةِ[٣]

* * *

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٠٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٠٣) ، هنا : هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي ، وانظر « الرسالة القشيرية » (ص ١٨٢) .

(٣) إذ أين العمل مما يصحِّح العملَ ويزكيه ؟! وعند السراج في « اللمع » (ص ٢٨٨) عن ذي النون المصري قال : (الصدقُ سيفُ الله تعالىٰ في أرضه ، ما وُضع علىٰ شيء إلا قطعه) .

الحكمة الخامسة والسادسة والستون بعد المئتين (*)

قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارَهُمْ ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارَهُمْ
ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ قَلْبُهُ ، وَذَاكِرٌ ٱسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِراً

سبقيَّةُ الأذكارِ للأنوارِ هو حالُ المريدينَ السالكينَ ؛ وذلكَ لأنَّ شأنَهمُ المجاهدةُ والمكابدةُ ، فهم يأتونَ بالأذكارِ في حالِ تكلُّفٍ منهم وتعمُّلٍ ؛ ليحصلَ لهم بذلك زوائدُ الأنوارِ ، وإلىٰ هـٰذا المعنى الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٩]

وسبقيَّةُ الأنوارِ للأذكارِ هو حالُ المرادينَ المجذوبينَ ؛ لأنَّهم مقامونَ في السهولةِ والخفَّةِ ، فهم لما وُجِهوا بالأنوارِ حصلَتْ منهمُ الأذكارُ بلا تكلُّفٍ ولا تعمُّلٍ

قالَ في « لطائفِ المننِ » حاكياً عن شيخِهِ أبي العباسِ المرسيِّ ؛ قالَ : (الناسُ علىٰ قسمينِ قومٌ وصلوا بكرامةِ اللهِ إلىٰ طاعةِ اللهِ ، وقومٌ وصلوا بطاعةِ اللهِ إلىٰ كرامةِ اللهِ ؛ قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورىٰ : ١٣])(١)

(*) ترجع هاتان الحكمتان اعتقاداً : إلىٰ أنه سبحانه فاضلَ بين عباده الصالحين ، كما فضل بين الصالحين والطالحين ، وجعل أقدارهم علىٰ قدر هممهم وإلهامهم ، وهو عليم بذات الصدور .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [المدثر : ٥٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « عبدٌ نوَّرَ اللهُ الإيمانَ في قلبِهِ » ، وقد تقدم (ص٣٤٢) .

(١) لطائف المنن (ص ١٤٦ ، ١٥٦) .

قالَ : (ومعنىٰ كلامِ الشيخِ هـٰذا   أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ حرَّكَ اللهُ همَّتَهُ لطلبِ الوصولِ إليهِ ، فسارَ يطوي مهامِهَ نفسِهِ وبيداءَ طبعِهِ ، إلىٰ أنْ وصلَ إلىٰ حضرةِ ربِّهِ ، يصدقُ علىٰ هـٰذا قولُهُ سبحانَهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

ومِنَ الناسِ مَنْ فاجأَتْهُ عنايةُ اللهِ مِنْ غيرِ طلبٍ ولا استعدادٍ ، ويشهدُ لذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٧٤] .

فالأوَّلُ حالُ **السالكينَ** ، والثاني حالُ **المجذوبينَ** ؛ فمَنْ كانَ مبدؤُهُ المعاملةَ **فنهايتُهُ المواصلةُ** ، ومَنْ كانَ مبدؤُهُ المواصلةَ **رُدَّ إلىٰ وجودِ المعاملةِ**

ولا تظنَّنَّ أنَّ المجذوبَ لا طريقَ لهُ ، بلِ لهُ طريقٌ طوَتْها عنايةُ اللهِ تعالىٰ لهُ[1] ، فسلكَها مسرعاً إلى اللهِ تعالىٰ عاجلاً

وكثيراً ما تسمعُ عندَ مراجعاتِ المنتسبينَ للطريقِ   أنَّ السالكَ أتمُّ مِنَ المجذوبِ ؛ لأنَّ السالكَ عرفَ طريقاً بها يُوصلُ إليهِ ، والمجذوبَ ليسَ كذلكَ ، وهـٰذا بناءٌ علىٰ أنَّ المجذوبَ لا طريقَ لهُ !

وليسَ الأمرُ كما زعموا ؛ فإنَّ المجذوبَ طُويَتِ الطريقُ لهُ ، ولم تُطْوَ عنهُ ، ومَنْ طُويَتْ لهُ الطريقُ لم تفُتْهُ ولم تغبْ عنهُ ، وإنَّما فاتَهُ متاعبُها وطولُ أمدِها ، والمجذوبُ كمَنْ طُويَتْ لهُ الطريقُ إلىٰ مكَّةَ ، والسالكُ كالسائرِ إليها علىٰ أكوارِ المطايا) انتهىٰ ما ذكرَهُ في حالِ الجذبِ والسلوكِ[2] ، وهو حسنٌ ، قلَّ أنْ يُوجدَ لغيرِهِ ، فلذلكَ أوردتُهُ ها هنا بكمالِهِ

* * *

---

(١) في (أ) : (به) بدل (له) ، وعليه يكون تعلق الجار بالعناية ، لا بالطي .

(٢) لطائف المنن (ص ١٥٦) .

الحكمة السابعة والستون بعد المئتين (*)

مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ ، إِلا عَنْ بَاطِنِ شُهُودٍ وَفِكْرٍ

أعمالُ الظاهرِ تكونُ تبعاً لما يكونُ في الباطنِ

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ (ما استُودعَ في غيبِ السرائرِ . . ظهرَ في شهادةِ الظواهرِ)[1] ، فالذكرُ الظاهرُ ـ لا محالةَ ـ ثمرةُ باطنِ الشهودِ والفكرِ

* * *

ثم بيَّنَ هـٰذا المعنىٰ بقولِهِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن الله تعالىٰ إذا أراد شيئاً هيَّأ أسبابه ، وأسبابه من جملة مراداته أيضاً ، ولا ترتيب في حقه سبحانه ، بل الترتيب صفة الحوادث ، جلَّ ربُّنا أن يتصف بمثل ذلك ، ثم بُشرىٰ للذاكرين ؛ إذ لو لم يرد ذكرهم لما ألهمهم ما يحركون لشهوده وفكره ألسنتَهم .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] ، وقوله عليه الصلاة والسلام حينما نظر إلى الأفق وقتَ السحر « ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ ـ حتىٰ بلغ ـ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ١٩٤] » ، رواه النسائي (٣/ ٢١٣)

(١) انظر (ص ٢٥٦)

الحكمة الثامنة والستون بعد المئتين (*)

أَشْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنِ ٱسْتَشْهَدَكَ ، فَنَطَقَتْ بِإِلَـٰهِيَّتِهِ ٱلظَّوَاهِرُ ، وَتَحَقَّقَتْ بِأَحَدِيَّتِهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلسَّرَائِرُ .

كاشفَ اللهُ القلوبَ والأسرارَ في غيبِ الغيبِ بحقائقِ وحدانيَّتِهِ وإحاطةِ قيُّوميَّتِهِ ، فلمَّا أشهدَها ذلكَ اضمحلَّتْ وتدكدكَتْ وتلاشَتْ ، فتحقَّقَتْ بذلكَ الأحديَّةُ ، فلمَّا أظهرَها في عالمِ الشهادةِ ملتبسةً بالأجسامِ والهياكلِ . . طلبَ منها الشهادةَ لهُ بالإلـٰهيَّةِ ، فشهدَتْ بلسانِ حالِها ومقالِها ، فكانَتِ الشهادةُ منها لمَّا استُشهدَتْ تبعاً لشهودِها لما أُشْهِدَتْ[1]

فالعبدُ مِنْ حيثُ سرُّهُ وقلبُهُ بوصفِ الجمعِ ، ومِنْ حيثُ ظاهرُهُ وجسمُهُ بنعتِ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ إثبات يوم العهد الأكبر علىٰ بني آدم ، ومنكر هـٰذا اليوم بعد تلاوة الآية وفهم معناها . . كافر ؛ لجحوده المعلوم من الدين بالضرورة حينئذٍ ، وإلىٰ أنه سبحانه الظاهر لا يحجبه شيء ، والمعروف بالقلوب والسرائر لمن لم تعمَ بصائرهم ، وإلىٰ أن العبد مقلَّبٌ بين شهود وغَيْبة .

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « وأنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ » ، رواه البخاري (٦٣٠٦) من حديث سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه .

(١) إذ شهدوا علىٰ أنفسهم بالاسترقاق له تعالىٰ في ذلك العالم ، وبقي الحال علىٰ ما هو عليه ، فمن آمن بما أُشهدَ وشَهِدَ . . فقد وفَّىٰ بالعقد ، وقد قامت الحجة بإرسال الرسل ؛ فذكَّروا من نسيَ ، لا من غاب ؛ إذ لا غائب حينئذٍ ، فمن جحدَ بعد التذكير فهو من الذين نسوا الله فنسيهم ، كان الله لنا غيبةً وحضوراً .

الفَرْقِ ، ولا بدَّ في هٰذا الطريقِ مِنْ وجودِ الجمعِ والفرقِ .

وقد قالوا : (كلُّ جمعٍ بلا تفرقةٍ زندقةٌ ، وكلُّ تفرقةٍ بلا جمعٍ تعطيلٌ)[١]

وقالَ الجنيدُ في معنى الجمعِ والتفرقةِ[٢] : [من مجزوء الرمل]

وَتَحَقَّقْتُكَ فِي سِرِّ ي فَنَاجَاكَ لِسَانِي
فَٱجْتَمَعْنَا لِمعَانٍ وَٱفْتَرَقْنَا لِمَعَانِي
إِنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ ٱلتَّعْـ ـظِيمُ عَنْ لَحْظِ عِيَانِي
فَلَقَدْ صَيَّرَكَ ٱلْوَجْـ ـدُ مِنَ ٱلأَحْشَاءِ دَانِي

وقد ذهبَ الجنيدُ رضيَ اللهُ عنهُ[٣] : إلىٰ أنَّ قربَهُ بالوجْدِ جمعٌ ، وغيبتَهُ في البشريَّةِ تفرقةٌ .

* * *

(١) أورده السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/ ٣١٦) .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٥٣) ، ورواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ١١٥) عن أبي منصور الحلاج .

(٣) يعني : في البيتين الأخيرين من الأبيات السابقة ، وأورده السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/ ٣١٦) .

الحكمة التاسعة والستون بعد المئتين (*)

أَكْرَمَكَ كَرَامَاتٍ ثَلاثاً(١) ؛ جَعَلَكَ ذَاكِراً لَهُ ، وَلَوْلا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ ؛ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ ، فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .

أكرمَ اللهُ عبدَهُ المؤمنَ بثلاثِ كراماتٍ ، جمعَ لهُ فيها كلَّ المفاخرِ والمحامدِ :

أوَّلُها : كونُهُ ذاكراً لهُ ؛ بأنْ أجرىٰ ذكرَهُ علىٰ قلبِهِ ولسانِهِ ، ومِنْ أينَ لهُ ذلكَ ؟! وبأيِّ وسيلةٍ نالَهُ لولا فضلُ اللهِ وكرمُهُ ؟!

وثانيها : كونُهُ مذكوراً بهِ ؛ فيُقالُ : هـٰذا عبدُ اللهِ ووليُّهُ وصفيُّهُ ومختارُهُ ؛ وذلكَ بما أكرمَهُ اللهُ بهِ مِنْ تحقيقِ النسبةِ لديهِ ؛ وهي إثباتُ الخصوصيَّةِ لهُ ، وقد تقدَّمَ معنى الخصوصيَّةِ(٢)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أن صفة الذكر صفةٌ لازمة للإيمان ، وأقله النطق بالشهادتين ، وإلىٰ أن الذاكر وذكره مخلوقان لله تعالىٰ ، وبه تعلم عميم كرمه سبحانه ، وما آمن عبدٌ بالله إلا ونشأت له نسبة مع الله تعالىٰ ؛ إذ يصير عبد الله ، والله تعالىٰ ربه ومعبوده .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النور : ٢١] ، وقوله تعالىٰ ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معَهُ إذا ذكرني ، فإنْ ذكرني في نفسِهِ ذكرتُهُ في نفسي . . . » الحديث ، رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) في (هـ) وحدها : (بكرامات) بدل (كرامات) .

(٢) انظر (ص ٦٣٩ ، ٩٢٤) .

وثالثُها : كونُهُ مذكوراً عندَهُ ؛ وهٰذهِ هيَ غايةُ الإكرامِ ، ومنتهى الفضلِ والإنعامِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، قيلَ معناهُ : ذكرُ اللهِ عبدَهُ أكبرُ مِنْ ذكرِ العبدِ اللهَ(١) .

وفي حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ قالَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ » ، قالَ قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ سمَّاني لكَ ربُّكَ ؟ قالَ : « نَعَمْ » ، فقرأَ عليَّ « ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٨] »(٢)

وفي حديثِ أبي حَبَّةَ البدريِّ قالَ : لمَّا نزلَتْ : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة : ١] إلىٰ آخرِها . . قالَ جبريلُ عليهِ السلامُ : إنَّ ربَّكَ يأمرُكَ أنْ تُقرِئَها أُبيّاً ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأُبيٍّ : « إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ هَٰذِهِ ٱلسُّورَةَ » ، فقالَ أُبيٌّ : أَوَذُكِرتُ ثَمَّ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « نَعَمْ » ، فبكىٰ أُبيٌّ(٣)

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي ؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »(٤)

وعن أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ يشهدانِ بهِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ :

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٩٦) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٥١) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٨) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢/ ٣٢٧) ، وعند البخاري (٤٩٦٠) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه أن الله تعالىٰ أمر النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يقرأ القرآن علىٰ أُبيٍّ رضي الله عنه ، فقرأ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة (البينة) .

(٤) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

« مَا جَلَسَ قَوْمٌ مُسْلِمُونَ مَجْلِساً يَذْكُرُونَ ٱللهَ فِيهِ إِلا حَفَّتْهُمُ ٱلْمَلائِكَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ ٱلرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ ٱللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[1]

قالَ يحيى بنُ معاذٍ : (يا غفولُ ، يا جهولُ ؛ لو سمعتَ صريرَ القلمِ حينَ يجري في اللوحِ المحفوظِ بذكرِكَ . . لمتَّ طرباً)[2]

* * *

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٥٦) .

الحكمة السبعون بعد المئتين (*)

رُبَّ عُمُرٍ ٱتَّسَعَتْ آمَادُهُ ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ ، وَرُبَّ عُمُرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ ، كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ

الأمدادُ الإلـٰهيّةُ التي يُمِدُّ الحقُّ بها عبادَهُ المؤمنينَ زيادةً في إيمانِهم ، وتقويةً لإيقانِهم . . لا أثرَ فيها لطولِ العمرِ ولا قصرِهِ ، فلا تنقصُ بذلكَ ولا تزيدُ بهِ ، ولا تقلُّ ولا تكثرُ ، وإنَّما تردُ عليهم مِنْ خزائنِ الفضلِ والكرمِ بحسَبِ قوّةِ استعدادِهم وكمالِ قابليّتِهم(١)

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ يحاسب عباده علىٰ ما انطوت عليه قلوبهم ؛ من صدق وإخلاص وصفاء سريرة ، وليس القلب من عالم الملك حتىٰ تجري عليه حركات الفلك ، بل هو من عالم الملكوت المنزَّه عن الزمانية والمكانية ، فالتعويل على اليقين الراسخ ، لا علىٰ عمل كسير النواضح

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : ٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٣٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أمّتي أمّةٌ مباركةٌ ، لا يُدرىٰ أوّلُها خيرٌ أم آخرُها » ، رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨٦/٢٦) عن عمرو بن عثمان رحمه الله تعالىٰ مرسلاً

(١) ولعلك عند مطالعة هـٰذه العبارة تناجي مولاك وتقول : يا إلـٰه العالمين ؛ أيُّ فجيعة كبرىٰ هي أن تكون عطايانا منكم علىٰ قدر هممنا واستعداداتنا ؟! بل أيُّ بلوىٰ هي أن نخرج من الدنيا ولم ننوَّل منك ما نوّلته لأوليائك وأصفيائك من معاني قربك وحلاوة معرفتك ومناجاتك ؟! وحقِّك يا مولانا ؛ لئن كان ما منك إلينا مقابلاً بما منَّا إليك وبهياكلنا ونواحي قلوبنا . . لقد فاتنا ما يدعونا للحسرة يوم لا تنفع الحسرة

ولـٰكن القوم أرادوا بمثل هـٰذه العبارة بيان حقيقة أزلية ؛ وهي تفاوت درجات أهل الجنة مع وجود=

ويختلفُ هٰذا باختلافِ تركيبِ خَلْقِهم ومجبولِ فِطَرِهم ، ولا مدخلَ للزمانِ في هٰذا إلا بالعرضِ ، وبهٰذا فُضِّلَتْ هٰذهِ الأمَّةُ علىٰ سائرِ الأممِ علىٰ قصرِ أعمارِها وطولِ أعمارِ غيرِهم .

قالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ قلتُ لأبي سليمانَ الدارانيِّ قد غبطتُ بني إسرائيلَ ، قالَ : بأيِّ شيءٍ ؟ قلتُ بثمانِ مئةِ سنةٍ حتىٰ يصيروا كالشِّنانِ الباليةِ وكالحنايا والأوتارِ(١)

قالَ ما ظننتُ إلا وقد جئتَ بشيءٍ(٢) ، لا واللهِ ؛ ما يريدُ اللهُ منَّا أنْ تَيْبَسَ جلودُنا علىٰ عظامِنا ، ولا يريدُ منَّا إلا صِدْقَ النيَّةِ فيما عندَهُ ، هٰذا إذا صَدَقَ في عشرةِ أيامٍ . . نالَ ما نالَ ذلكَ في عمرِهِ(٣)

* *

= المنَّة ، لا لإمساك عطاء ، حاشاه سبحانه عن ذلك ، بل لكون ما زاد وإن وُهب لن ينفع ، فالطفل الذي تروق له اللُّعب لن يبتهج بالدرر واليواقيت ، أهِّلنا مولانا لما فيه رضاه عنا ، ونحن أرقَّاؤه اضطراراً واختياراً بعفوه وكرمه .

(١) الشِّنان جمع شَنٍّ ؛ وهي الخَلَقُ من كل آنية مصنوعة من جلد ، والحنايا : جمع حَنِيَّةٍ ؛ وهي القوس ، والأوتار : جمع وتر ؛ كالعصب الذي يكون للقوس .

(٢) كذا في جميع النسخ المعتمدة ، وفي « الحلية » : (ما ظننتَ إلا أنكَ قد جئتَ بشيءٍ) ، والمراد : أن غبطتك ليست في محلِّها ؛ إذ ليس تغييرُ الظاهر ممَّا يعوَّل عليه ، بل التعويلُ علىٰ صلاح الباطن ، وإبدال الحسن من الصفات بالسَّيِّئ منها

(٣) أورده أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ٢٦٣)

الحكمة الحادية والسبعون بعد المئتين (*)

مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمُرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ ٱلْعُمُرِ مِنْ مِنَنِ ٱللهِ تَعَالَىٰ مَا لا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ ٱلْعِبَارَةِ ، وَلا تَلْحَقُهُ ٱلإِشَارَةُ

البركةُ في العمرِ أنْ يُرزقَ العبدُ مِنَ الفطنةِ واليقظةِ ما يحملُهُ على اغتنامِ أوقاتِهِ ، وانتهازِ فرصةِ إمكانِهِ خشيةَ فواتِهِ ، فيبادرَ إلى الأعمالِ القلبيَّةِ والبدنيَّةِ ، ويستفرغَ في ذلكَ مجهودَهُ بالكلِّيَّةِ ، وفي أثناءِ ذلكَ يصلُ إليهِ مِنَ المنحِ الإلـٰهيَّةِ ، وتشرقُ عليهِ مِنَ الأنوارِ الربَّانيَّةِ . . ما تعجِزُ العبارةُ عنهُ ، ولا تنتهي الإشارةُ إليهِ

وكلُّ ذلكَ في زمنٍ يسيرٍ ، وعُمُرٍ قصيرٍ ، فيرتفعُ لهُ في شهرٍ مثلاً ما لا يرتفعُ لغيرِهِ في ألفِ شهرٍ ؛ بمنزلةِ ليلةِ القدرِ ؛ العملُ فيها لمَنْ صادفَها خيرٌ مِنَ العملِ في ألفِ شهرٍ

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ ما ترجع إليه الحكمة السابقة ، وإلىٰ أن أعمال العباد لا توجب في ذاتها جزاء ، واتفق أهل السنة والمعتزلة علىٰ أن الجزاء لا يحدَّدُ ؛ فلله تعالىٰ أن يجزي على العمل القليل الأجرَ الجزيل ، والتحقيق أن الجزاء محلُّهُ القلب ؛ بخلق الرضا والسعادة ، وما في الخارج تبعٌ له ، فالعبرة بالرضا ، والرضا بالمحبة ، والمحبة بالمعرفة ، وهـٰذه المقامات الثلاث مما أُجمع علىٰ علوِّها ، واختُلف في ترتيبها ، وكل ذلك محضُ عطاءٍ أزليٍّ تقديراً ، حادثٍ تنجيزاً.
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : ١٦] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « نحنُ آخرُ الأممِ ، وأوَّلُ مَنْ يُحاسبُ ، يُقالُ : أينَ الأمَّةُ الأميَّةُ ونبيُّها ؟ فنحنُ الآخرونَ الأوَّلونَ » ، رواه ابن ماجه (٤٢٩٠) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

قالَ بعضُ العلماءِ : (كلُّ ليلةٍ للعارفِ بمنزلةِ ليلةِ القدرِ)(١)

وكانَ الأستاذُ أبو العباسِ المرسيُّ يقولُ (أوقاتُنا والحمدُ للهِ كلُّها ليلةُ القدرِ)(٢)

فهـٰذا هو البركةُ في العمرِ ، لا تطويلُهُ وزيادةُ مدَّتِهِ ، وقيلَ هـٰذا المعنىٰ في تأويلِ ما رُوِيَ في الخبرِ : « ٱلْبِرُّ يَزِيدُ فِي ٱلْعُمُرِ »(٣)

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/٢٥٣) .
قال الإمام الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٤/٣١٩) : (والمقرَّبون فضلَتْ سريرتُهم علانيتهم ، حتىٰ دقت علانيتهم في جنب سريرتهم ، فلَلحظةٌ من سرائرِهم أعظمُ من أعمال الثقلينِ عمرَ نوحٍ صلوات الله عليه ؛ ولهـٰذا ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه إن الرجل من هـٰذه الأمة يبلغ عمله يوماً واحداً ما يكون أثقل من سبع سماوات وسبع أرضين في الوزن ، وروي عن أبي موسىٰ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه نظر إلىٰ جبل أحد ، فقال : « ربَّ رجلٍ مِنْ أمَّتي يعدلُ الحرفُ الواحدُ مِنْ تسبيحِهِ هـٰذا الجبلَ »)

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٢١)

(٣) رواه الترمذي (٢١٣٩) من حديث سيدنا سلمان رضي الله عنه ، وابن ماجه (٩٠) من حديث سيدنا ثوبان رضي الله عنه ، وما تأوَّله العلامة الشارح ذكره الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/٢٥٣) .

الحكمة الثانية والسبعون بعد المئتين (*)

ٱلْخِذْلانُ كُلُّ ٱلْخِذْلانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ ٱلشَّوَاغِلِ ثُمَّ لا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، أَوْ تَقِلَّ عَوَائِقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إِلَيْهِ

مِنَ الخذلانِ : أنْ تصدَّكَ العوائقُ والشواغلُ عنِ التوجُّهِ إلى اللهِ تعالىٰ والرحيلِ إليهِ ، بلِ الواجبُ عليكَ : أنْ تبادرَ إلىٰ ذلكَ ، وترميَ بالعوائقِ والشواغلِ خلفَ ظهرِكَ ، كما قيلَ (سيروا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ عُرجاً ومكاسيرَ ، ولا تنتظروا الصحَّةَ ؛ فإنَّ انتظارَ الصحَّةِ بطالةٌ)(١) ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة : ٤١] .

(*) ترجع هٰذه الحكمة اعتقاداً : إلى القول بالتوفيق والخذلان ؛ وهما وصفان لازمانِ على البدل لفعل العبد الاختياري ، وإحكام التوفيق في تأييد العبد وهو محاط بأسباب الخذلان ، وإحكام الخذلان في خذل العبد وهو محاط بأسباب التوفيق ، ومن ذلك : أن تتهيَّأَ له أسباب الوصلة بالله تعالىٰ ، ثم لا يرحل إليه سبحانه .

ويطلب معنىٰ هٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٥٧] ، وقوله تعالىٰ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل ١١٢] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اغتنمْ خمساً قبلَ خمسٍ » ، وذكر منها : « وفراغَكَ قبلَ شغلِكَ » رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٦) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) أورده ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٤/٣٠٦) من كلام العارف بالله تعالىٰ أبي عبد الله القرشي ، ونقلها اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ٢٠٥) عن تلميذه أبي الربيع المالقي

بشرطِ العلمِ ، فإذا سلمَ الفكرُ عنِ الشوائبِ وردَ صاحبُهُ على مناهلِ التحقيقِ[١]

ثم فكرُ الزاهدينَ : في فناءِ الدنيا ، وقلَّةِ وفائِها لطلابِها ، فيزدادونَ بالفكرِ زُهْداً فيها

وفكرُ العابدينَ : في جميلِ الثوابِ ، فيزدادونَ نشاطاً عليهِ ورغبةً فيهِ

وفكرُ العارفينَ : في الآلاءِ والنعماءِ ، فيزدادونَ محبَّةً للخالقِ سبحانَهُ)[٢]

وقالَ الجنيدُ (أشرفُ المجالسِ وأعلاها الجلوسُ معَ الفكرةِ في ميدانِ التوحيدِ)[٣]

وفي بعضِ النسخِ (الفكرةُ سراجُ القلبِ في ميادينِ الاعتبارِ)[٤] ، ومعناهُ ظاهرٌ

* *

---

(١) زاد في « لطائف الإشارات » (وإذا حصل الشهود والحضور سما صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر ، فالذكر سرور)

(٢) قاله في « لطائف الإشارات » (١/٣٠٦)

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٩٦)

(٤) كذا في نسخة مكتبة كوبريلي بإستنبول ، ذات الرقم (٧٢٨) (ق١١) ، ونسخة المكتبة المركزية (السيدة زينب) بمصر ، ذات الرقم (٣٦٩٤) (ق١٥)

الحكمة الرابعة والسبعون بعد المئتين (*)

ٱلْفِكْرَةُ سِرَاجُ ٱلْقَلْبِ ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلا إِضَاءَةَ لَهُ .

القلبُ الخالي مِنَ الفكرةِ خالٍ مِنَ النورِ ، مظلمٌ بوجودِ الجهلِ والغرورِ

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (ما نفعَ القلبَ شيءٌ مِثْلُ عزلةٍ ، يدخلُ بها ميدانَ فكرةٍ)[1]

(*) ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً : إلىٰ أنه تعالىٰ أبرز القلب عجيبةً من عجائب مصنوعاته ؛ فتارة يكون أجرد أزهر ، وتارة منكوساً ، وتارة أغلف ، وتارة مصفحاً ، وذلك بحسب أحواله ، والقلب الذي تقع فيه الفكرة بإخلاص نية أجرد أزهر ، فسبحان مالك الملك والملكوت .
ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « فقلبُ المؤمنِ سراجُهُ فيهِ نورُهُ » ، رواه أحمد (٣/ ٧) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

(١) انظر (ص ٢٠٦)

الحكمة الخامسة والسبعون بعد المئتين (*)

ٱلْفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ: فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ ، وَفِكْرَةُ شُهُودٍ وَعِيَانٍ؛ فَٱلأُولَىٰ لِأَرْبَابِ ٱلِاعْتِبَارِ ، وٱلثَّانِيَةُ لِأَرْبَابِ ٱلشُّهُودِ وٱلِاسْتِبْصَارِ .

تقدَّمَ الآنَ أنَّ الفكرةَ سيرُ القلبِ في ميادينِ الأغيارِ ، **وسيرُهُ علىٰ وجهينِ** صعودٌ ، ونزولٌ

فالصعودُ لأربابِ الاعتبارِ ؛ وهي فكرةٌ ناشئةٌ عنِ التصديقِ والإيمانِ ، وهـٰذا للسالكينَ ، وهو حالَ ترقِّيهم ، وهو نعتُ المستدلِّينَ بالآثارِ على المؤثِّرِ

والنزولُ لأربابِ الشهودِ والاستبصارِ ، وفكرتُهم ناشئةٌ عنِ الشهودِ والعِيانِ ، وهـٰذا للمجذوبينَ ، وهو حالَ تدلِّيهم ، وهو وصفُ المستدلِّينَ بالمؤثِّرِ على الآثارِ .

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ ذكرِ المجذوبِ والسالكِ[1]

* *

(*) **ترجع هـٰذه الحكمة اعتقاداً :** إلىٰ وجوب النظر لتحقيق الإيمان ، **وندبه بعد ذلك لجلب الطمأنينة** وتحقيق العيان ، وكلاهما واجبٌ شرعاً لا عقلاً

ويطلب معنىٰ هـٰذه الحكمة من مشكاة قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف ١٨٤ ـ ١٨٥] ، **وقوله تعالىٰ :** ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان : ٤٥] ، **وقوله عليه الصلاة والسلام :** « عرفتَ فالزمْ » ، وقد تقدم (ص ٥٨٢) .

وهي الحكمة الأخيرة من حكم الإمام ابن عطاء الله الإسكندري رحمه الله تعالىٰ ، وقد يختلف العدُّ لجمع الإمام العلامة الشارح بعضَ الحكم إلىٰ بعض ، أو أنه رأىٰ أنها هـٰكذا في الأصل ، والخطب يسير

(١) انظر (ص ٩٢٦)

المكاتبات

المكاتبة الأولى
في صفة السلوك إلى ملك الملوك

وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

هـٰذا كتابٌ تضمَّنَ ذكْرَ حالِ السالكِ مِنْ أوّلِ ابتداءِ سفرِه إلىٰ نهايةِ وصولِهِ وحصولِهِ في مستقرِّهِ ، وذكْرَ آدابِ السلوكِ والوصولِ(١)

وقد أتىٰ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في ذلكَ بعباراتٍ صحيحةٍ فصيحةٍ ، واستعاراتٍ حسنةٍ مليحةٍ ، علىٰ طريقةٍ وعظيَّةٍ ، إذا سمعَها السامعُ طربَ لها قلبُهُ ، وهامَ فيها عقلُهُ ولبُّهُ ، وما ذاكَ إلا لما علقَ بها مِنْ أنوارِ قلبِ المتكلِّمِ ؛ وقد قالَ فيما تقدَّمَ : (كلُّ كلامٍ يبرزُ وعليهِ كسوةُ القلبِ الذي منهُ برزَ)(٢)

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ ٱلْبِدَايَاتِ مَجلاةُ ٱلنِّهَايَاتِ(٣)

---

(١) وللعلامة الشارح رسالة في هـٰذا أيضاً . انظر « الرسائل الصغرىٰ » (الرسالة السادسة عشرة) (ص ٩١) .

(٢) انظر (ص ٦٩٦) .

(٣) في (هـ) وحدها : (مجلات النهايات) بالتاء المبسوطة ، وكتب بعدها : (لأنه اسم مكان من جلا يجلو ، ولو أريد الجمع لكان اللائق مجالي أو متجليات النهايات) ، والمجلاة : اسم مكان لما يتجلّىٰ فيه الشيء .

المَجْلاةُ : محلُّ التجلّي والظهورِ ، فالسالكُ في ابتداءِ سلوكِهِ يتجلّى لهُ أمرُ نهايتِهِ

وَإِنَّ مَنْ كَانَتْ بِٱللهِ بِدَايَتُهُ كَانَتْ إِلَيْهِ نِهَايَتُهُ .

هـٰذا بيانُ ما ذكرَهُ

ومعنىٰ كونِ بدايتِهِ باللهِ : أنْ تكونَ مجاهداتُهُ ومكابداتُهُ وأنواعُ رياضتِهِ . . مصحوبةً بالاستعانةِ باللهِ تعالىٰ ، والاعتمادِ عليهِ ، والانقطاعِ إليهِ ؛ فبذلكَ يصحُّ لهُ وينفذُ في توجُّهِهِ وسلوكِهِ ، كما تقدَّمَ عندَ قولِهِ (ما توقَّفَ مطلبٌ أنتَ طالبُهُ بربِّكَ)[1]

ومعنىٰ كونِ انتهائِهِ إلى اللهِ أنْ ينكشفَ لهُ انفرادُ اللهِ تعالىٰ بالقيُّوميَّةِ ، وتوحُّدُهُ بالديموميَّةِ ، وأنَّهُ هو الأوّلُ والآخرُ ، والظاهرُ والباطنُ . . انكشافاً يظهرُ لهُ بهِ عدميّةَ ذاتِهِ ، وتلاشيهِ وتَدَكْدُكُهُ واضمحلالُهُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

فإذا صحَّتْ تلكَ البدايةُ للمريدِ بما ذكرناهُ . . وصلَ إلى هـٰذهِ النهايةِ ، وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ في قولِهِ (مِنْ علاماتِ النُّجْحِ في النهاياتِ ، الرجوعُ إلى اللهِ في البداياتِ)[2]

وَٱلْمُشْتَغَلُ بِهِ هُوَ ٱلَّذِي أَحْبَبْتَهُ وَسَارَعْتَ إِلَيْهِ ، وَٱلْمُشْتَغَلُ عَنْهُ : هُوَ ٱلْمُؤْثَرُ عَلَيْهِ .

---

(١) انظر (ص ٢٥١) .

(٢) انظر (ص ٢٥٣) .

المشتغلُ بهِ لكَ أيُّها المريدُ السالكُ إنَّما هو عملُكَ على التقرُّبِ مِنْ ربِّكَ ، والتوسُّلِ إليهِ بالطاعةِ والعبوديةِ لهُ ؛ وهو الذي أحببتَهُ وسارعْتَ إلىٰ إجابةِ دعوتِهِ ، فيحقُّ عليكَ ألا تستقلَّ ذلكَ الشغلَ ، بل تكونُ قريرَ عينٍ بهِ .

والمشتغلُ عنهُ : إنَّما هو متابعةُ حظوظِكَ العاجلةِ ، ومراداتِكَ الزائلةِ ؛ وهو الذي يستحقُّ الإيثارَ عليهِ ؛ إذْ هو فانٍ مضمحلٌّ ، لا حقيقةَ لهُ ، فلتطبْ عنهُ نَفْساً ، ولا تُعملْ فيهِ عقلاً ولا حسّاً

وهٰذا الكلامُ تهييجٌ للسالكِ ، وإنعاشٌ لقوَّتِهِ ، وإنهاضٌ لهمَّتِهِ

قالَ الشيخُ أبو القاسمِ عبدُ الرحمٰنِ الصَّقَلِّيُّ رضيَ اللهُ عنهُ(١) سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ إسحاق الغافقيَّ يقولُ ما انتفعتُ إلا بدعاءِ رجلٍ بمكَّةَ ؛ مررتُ إلى المسجدِ الحرامِ بالسَّحَرِ ، فإذا رجلٌ يسفُّ الترابَ ! فقلتُ مجهودٌ أو مجنونٌ ! ثم قلتُ لهُ : يا هٰذا ؛ أتسفُّ الترابَ ؟! قالَ : فقالَ لي أَوَترابٌ هو ؟! ثم ناولَني ، قالَ : فما شككتُ أنَّهُ سويقٌ أو قَنْدٌ(٢) ، أنا أشكُّ أيُّهما !

قالَ : فقلتُ : وليٌّ للهِ ، وجثوتُ على ركبتيَّ وقلتُ ادعُ اللهَ لي ، فقالَ لي عرَّفَكَ اللهُ قدْرَ ما تطلبُ ؛ حتىٰ يهونَ عليكَ ما تتركُ .

> وَإِنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ ٱللهَ يَطْلُبُهُ صَدَقَ ٱلطَّلَبَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ ٱلْأُمُورَ بِيَدِ ٱللهِ ٱنْجَمَعَ بِٱلتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ .

---

(١) قال العلامة محمد مخلوف في « شجرة النور الزكية » (١/١٤٦) : (الشيخ العارف المحقق ، شيخ الطريقة وإمام الحقيقة ، جمع الحديث والفقه وأصوله ، سمع من أبي الحسن بن مسرور الدباغ ، وأبي العرب ، والسبائي ، وله تآليف بديعة في التصوف وفي صفة أولياء الله تعالىٰ وكراماتهم ، توفي قبل أبي محمد بن أبي زيد) يعني : قريباً من سنة (٣٨٠هـ)

(٢) القند : عسل قصب السكر .

العبدُ مطلوبٌ لربِّهِ عزَّ وجلَّ بإقامةِ وظائفِ العبوديَّةِ لهُ ؛ وذلكَ بما اختصَّهُ بهِ مِنَ العقلِ والفهمِ ، وما رزقَهُ مِنَ المعرفةِ والعلمِ ، **وثمرةُ ذلكَ الطلبِ عائدةٌ إلى العبدِ** ؛ فلِمَ لا يصدقُ العبدُ في طلبِهِ واجتهادِهِ إذا أيقنَ بذلكَ ؟!

والأمورُ كلُّها بيدِ اللهِ تعالىٰ ، ومِنْ ذلكَ سعيُهُ وكدحُهُ ، فلِمَ لا يتوكَّلُ عليهِ في ذلكَ ؟! فيجتمعَ همُّهُ ، ويتيسَّرَ أمرُهُ إذا علمَ ذلكَ

فالقسمُ الأوَّلُ قيامٌ بمقتضى الشريعةِ ، **والقسمُ الثاني** : وفاءٌ بحقِّ الحقيقةِ

وَأَنَّهُ لا بُدَّ لِبِنَاءِ هَـٰذَا ٱلْوُجُودِ أَنْ تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ ، وَأَنْ تُسْلَبَ كَرَائِمُهُ .

ذكرَ هـٰذا المعنىٰ تسليةً للعبدِ عمَّا يفوتُهُ في حالِ سلوكِهِ مِنْ حظوظِهِ وشهواتِهِ ؛ لأنَّهُ إذا علمَ أنَّ هـٰذهِ الأشياءَ لا بدَّ أنْ تُزالَ عنهُ أو يُزالَ عنها ولو بعدَ حينٍ ، وكلَّ ما هو آتٍ قريبٌ . . لم يغتبطْ بما يكونُ مآلُ أمرِهِ إلىٰ ذلكَ ، ويكونُ طيِّبَ النفسِ بتركِهِ

وتهديمُ الدعائمِ وسلبُ الكرائمِ مِنَ الاستعاراتِ البديعةِ

فَٱلْعَاقِلُ مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَىٰ أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَفْنَىٰ ، قَدْ أَشْرَقَ نُورُهُ ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ .

فرحُ العبدِ بالأشياءِ الفانيةِ هو موجِبٌ للزيادةِ في همِّهِ وغمِّهِ إذا فقدَها

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (مَنْ فرحَ بغيرِ مفروحٍ بهِ . . استجلبَ حزناً لا انقضاءَ لهُ)[1] .

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (٢/١٠٩)

وقد تقدَّمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (ليقلَّ ما تفرحُ بهِ يقلَّ ما تحزنُ عليهِ)[1]

فالعاقلُ لا يفرحُ بذلكَ ولا يحبُّهُ ، بل يكرهُهُ ويبغضُهُ ، وإنَّما يكونُ فرحُهُ بالأمورِ الباقيةِ التي لا تفنىٰ ، قد أشرقَ نورُ ذلكَ في قلبِهِ ، وظهرَتْ تباشيرُهُ علىٰ وجهِهِ

وإشراقُ النورِ وظهورُ التباشيرِ : نتائجُ تحقُّقِهِ في مقامِ الزهدِ

فَصَدَفَ عَنْ هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ مُغْضِياً ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُوَلِّياً ، فَلَمْ يَتَّخِذْهَا وَطَناً ، وَلا جَعَلَهَا سَكَناً .

فلمَّا كانَ العبدُ علىٰ هـٰذا الوصفِ صدفَ عن هـٰذهِ الدارِ الدنيويَّةِ ؛ أي مالَ عنها مغضياً جفنَهُ عن أقذائِها مِنْ غيرِ مبالاةٍ بذلكَ ، معرضاً عنها بوجهِ قلبِهِ ، قد ولَّاها دبرَهُ مِنْ غيرِ التفاتٍ إليها

وهـٰذا مبالغةٌ في نبذِها واطِّراحِها ، فلم يوطِّنْها بظاهرِهِ علىٰ سبيلِ التمتُّعِ بها والاستئثارِ ، ولم يساكنْها بباطنِهِ علىٰ جهةِ المحبَّةِ لها والإيثارِ ، بل نزَّلَها منزلةَ السِّجنِ والمضيقِ ، ووطَّنَ نفسَهُ فيها علىٰ تحمُّلِ ما يطيقُ وما لا يطيقُ ، وهـٰذهِ علاماتٌ علىٰ تحقُّقِهِ بالزهدِ في الأمورِ الفانيةِ التي هي بغيضةٌ لهُ

فلمَّا وصلَ إلىٰ ذلكَ حصلَ لهُ مِنْ طهارةِ قلبِهِ وصفاءِ لُبِّهِ ما حملَهُ على التعلُّقِ بمولاهُ الباقي الدائمِ ، فجعلَ دنياهُ معبراً يعبرُهُ إليهِ ، كما سيقولُهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ الآنَ .

بَلْ أَنْهَضَ ٱلْهِمَّةَ فِيهَا إِلَى ٱللهِ ، وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِيناً بِهِ فِي ٱلْقُدُومِ عَلَيْهِ .

هـٰذا ابتداءُ سفرِهِ بقلبِهِ إلى الحضرةِ العليَّةِ ، وبدأَ بإنهاضِ الهمَّةِ إلىٰ ربِّهِ

---

(١) انظر (ص ٨٢٠) .

والاستعانةِ بهِ في القدومِ عليهِ ، وهو أساسُ أمرِهِ كما تقدَّمَ

قالَ الشاعرُ[1] [من الطويل]

إِذَا لَـمْ يُعِنْـكَ ٱللهُ فِيمَـا تُـرِيـدُهُ فَلَيْـسَ لِمَخْلُـوقٍ إِلَيْـهِ سَبِيـلُ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يُرْشِدْكَ فِي كُلِّ مَسْلَكٍ ضَلَلْـتَ وَلَـوْ أَنَّ ٱلسِّمَـاكَ دَلِيـلُ

قالَ أبو محمدٍ الجريريُّ (مَنْ توهَّمَ أنَّ عملاً مِنْ أعمالِهِ يوصلُهُ إلىٰ مأمولِهِ الأعلىٰ والأدنىٰ . . فقد ضلَّ عن طريقِهِ ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لَنْ يُنْجِيَ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ » ، فما لا ينجي مِنَ المَخُوفِ كيفَ يوصلُ إلىٰ مأمولٍ ؟! ومَنْ صحَّ اعتمادُهُ علىٰ فضْلِ اللهِ فذلكَ الذي يُرجىٰ لهُ الوصولُ)[2]

فَمَا زَالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لا يَقَرُّ قَرَارُهَا ، دَائِماً تَسْيَارُهَا ، إِلَىٰ أَنْ أَنَاخَتْ بِحَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ ، وَبِسَاطِ ٱلأُنْسِ ؛ مَحَلِّ ٱلْمُفَاتَحَةِ وَٱلْمُوَاجَهَةِ ، وَٱلْمُجَالَسَةِ وَٱلْمُحَادَثَةِ ، وَٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْمُطَالَعَةِ ، فَصَارَتِ ٱلْحَضْرَةُ مُعَشَّشَ قُلُوبِهِمْ ، إِلَيْهَا يَأْوُونَ ، وَفِيهَا يَسْكُنُونَ .

---

(١) البيتان لأبي فراس الحَمْداني . انظر « ديوانه » (٣/٣١٨) ، و« تاريخ دمشق » (١١/٤٢٦) .
وعند العلامة التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » (١/١٧٧) : أن أعرابياً قصد أمير المؤمنين سيدنا علياً كرم الله وجهه ، فقال : إني ممتحنٌ ، فعلمني شيئاً أنتفع به ، فقال : يا أعرابي ؛ إن للمحن أوقاتاً ، ولها غايات ، فاجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله تعالىٰ إياها . . زيادة فيها ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨] ، ولكن استعن بالله واصبر ، وأكثر من الاستغفار ؛ فإن الله عز وجل وعد الصابرين خيراً ، وقال : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح : ١٠ـ١٢] ، فانصرف الرجل ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : (من الطويل)

إذا لـم يكـنْ عـونٌ مِـنَ اللهِ للفتـىٰ فـأوَّلُ مـا يجنـي عليـهِ اجتهـادُهُ

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٦٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٤٨) .

هٰذهِ استعاراتٌ مليحةٌ ، استعملَها في سفرِ القلبِ إلىٰ حضرةِ الربِّ ، وقد تقدَّمَ معنىٰ ذلكَ عندَ قولِهِ : (لولا ميادينُ النفوسِ ما تحقَّقَ سيرُ السائرينَ)[١]

وحضرةُ القدسِ وبساطُ الأُنْسِ هما موضعُ محطِّ الرِّحالِ ، وبلوغِ الأوطارِ والآمالِ ؛ مِنْ قِبَلِ أَنَّ السالكَ تُمحىٰ عنهُ رسومُ بشريَّتِهِ ، وتبطلُ أحكامُ إنِّيَّتِهِ[٢] ، وينكشفُ لهُ إذْ ذاكَ أوصافُ معروفِهِ العليَّةُ كرأيِ العينِ ، ويكونُ سرُّهُ معَ اللهِ بلا أينٍ .

فلمَّا وصلَ إلىٰ هٰذهِ الحضرةِ العليَّةِ ، ونالَ هٰذهِ المنقبةَ السنيَّةَ . . قُوبلَ بأنواعٍ مِنَ الكراماتِ والألطافِ ، وفنونٍ مِنْ تُحَفِ الساداتِ والأشرافِ ؛ **وهي معاني هٰذهِ الألفاظِ الستَّةِ التي ذكرَها المؤلِّفُ**[٣] ، ولا تُعرفُ إلا بالذوقِ ، كذلكَ التفرقةُ بينَ معانيها[٤]

---

(١) انظر (ص ٨٩٦) .

(٢) انظر (ص ٨٨٤) في بيان معنى الإنِّيَّة

(٣) يعني : المفاتحة ، والمواجهة ، والمجالسة ، والمحادثة ، والمشاهدة ، والمطالعة .

(٤) فلا تحسبنَّ أن الوقوف على حدودها اللسانية فيه مقنع لأهل الصدق ، فإن كان لا بد فيها من بيان . . فإليكَها وهي لقلقة لسان :

أما المفاتحة **فمن السالك** طلبُ الفتح لعين القلب حتىٰ تبصر ما وراء المُلْكِ من عجائب الملكوت ، **ومنه تعالىٰ** : تنوير البصيرة وتصفية السريرة لحصول المطلوب ؛ قالوا : أنت تفاتحه بطلب العطاء ، وهو يفاتحك بكشف الغطاء

وأما المواجهة : **فمن السالك** : توجيه مرآة القلب نحو أنوار الملكوت ، **ومنه تعالىٰ** : أن يواجهك بكشف الحجاب ، وفتح الباب ، **فمواجهتك** بالطاعات ، **ومواجهته تعالىٰ** بوصاله ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « قالَ اللهُ تعالىٰ : ومَنْ أتاني يمشي أتيتُهُ هرولةً »

وأما المجالسة : **فمن العبد** : التحلي بالآداب مع الهيبة والحياء ، **ومن الله تعالىٰ** : بالتقريب والاجتباء ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢]

وأما المحادثة : **فمن العبد** : بالمكالمة القلبية ، والمناجاة السرِّيَّة ، والفكرة الاعتبارية ، **ومنه تعالىٰ** : بالهواتف الرحمانية ، وإلقاء العلوم اللدنية .

وأما المشاهدة : **فمن العبد** مشاهدة الربوبية في عالم الملكوت ، **ومنه تعالىٰ** : بكشف حجاب حسِّك ، فيراك عبدَهُ في مُلكه ، « فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ » . =

فحينَئِذٍ : ألقى السائرونَ عصا سيرِهم ، وحَمِدوا عاقبةَ أمرِهم ، وصارَتْ حضرةُ محبوبِهم معشَّشَ قلوبِهم ، ومستوطنَهم في ذهابِهم وإيابِهم ، إلىٰ ظلِّها يأوونَ إذا صَلِيَ غيرُهم بنيرانِ هواهُ ، وهي دارُ المقامةِ فيها يسكنونَ حينَ يُزعجُ سواهم عن متعةِ دنياهُ .

وها هنا حصلَ لهمُ التحقُّقُ بمقامِ الفناءِ والمحْوِ ، وهـٰذا هو انتهاءُ سفرِهم بمعنى الصعودِ والترقِّي .

فَإِذَا نَزَلُوا إِلَىٰ سَمَاءِ ٱلْحُقُوقِ أَوْ أَرْضِ ٱلْحُظُوظِ . . فَبِٱلإِذْنِ وَٱلتَّمْكِينِ ، وَٱلرُّسُوخِ فِي ٱلْيَقِينِ ، فَلَمْ يَنْزِلُوا إِلَى ٱلْحُقُوقِ بِسُوءِ ٱلأَدَبِ وَٱلْغَفْلَةِ ، وَلا إِلَى ٱلْحُظُوظِ بِٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمُتْعَةِ ، بَلْ دَخَلُوا فِي ذَلِكَ بِٱللهِ وَللهِ وَمِنَ ٱللهِ وَإِلَى ٱللهِ .

هـٰذا هو سفرُ التدلِّي والنزولِ ، وبهِ يتحقَّقونَ بمقامِ البقاءِ والصحْوِ .

فإذا نزلوا مِنْ سدرةِ منتهاهم إلىٰ سماءِ الحقوقِ ـ وهي حقوقُ اللهِ عليهم بما أمرَهم بهِ أو نهاهم عنهُ ـ ليقوموا بذلكَ فعلاً أو تركاً ، أو إلىٰ أرضِ الحظوظِ ؛ وهي حظوظُ نفوسِهمُ التي تلابسُهم ويحصلُ لهمُ الارتفاقُ بها . . فإنَّما يكونُ نزولُهم إلىٰ ذلكَ بالإذنِ والتمكينِ ، والرسوخِ في اليقينِ[1]

ومعنىٰ ذلكَ : أنْ يدخلوا في الأشياءِ بمرادِ اللهِ تعالىٰ ، لا بمرادِ أنفسِهم ،

= وأما المطالعة : فمن العبد : بالوقوف علىٰ أسرار وحِكم عوالمه ؛ الملك والملكوت والجبروت ، ومنه تعالىٰ : أن يطالعك مترقِّياً إليه بمحو خبيث صفاتك ، والتحلي والتخلُّق بأسمائه الحسنىٰ . وانظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٦٩) ، و« إيقاظ الهمم » (ص ٥٥٢) ، و« الطرر والحواشي » (ص ٢٦٤) .

(١) وبذلك تعلم : أنهم ما خرجوا عن الحضرة ؛ إذ لا يخرج عنها إلا من عصىٰ ، أو أساء الأدب ، أو حلَّت به غفلة ، فهو نزول بالقالب لا بالقلب ، وانظر « إيقاظ الهمم » (ص ٥٥٤) .

ويجدونَ الإذنَ مِنَ اللهِ تعالىٰ بما يشرقُ في قلوبِهم مِنَ النورِ الذي يجعلُهُ اللهُ عَلَماً علىٰ ذلكَ ، وقد ذكرَهُ سيدي أبو الحسنِ في بعضِ كلامِهِ ؛ قالَ :

(ومعنى الإذنِ في حقِّ الوليِّ نورٌ ينبسطُ على القلبِ ، يخلقُهُ اللهُ تعالىٰ فيهِ وعليهِ ، فيمتدُّ ذلكَ النورُ على الشيءِ الذي يريدُهُ ، فيدركُهُ نوراً معَ نورٍ ، أو ظلمةً تحتَ ذلكَ النورِ ، ينبئُكَ أنْ تأخذَ إنْ شئتَ أو تتركَ ، أو تختارَ أو تدبِّرَ ، أو تعطيَ أو تمنعَ ، أو تقومَ أو تجلسَ ، أو تسافرَ أو تقيمَ ، هـٰذا بابُ المباحِ المأذونِ فيهِ بالتخييرِ

فإذا قارنَهُ القولُ تأكَّدَ الفعلُ المباحُ بمرادِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ قارنَتْهُ نيَّةٌ صحيحةٌ لفعلِ برٍّ . . زالَ عنهُ حكمُ المباحِ ، وصارَ مندوباً .

وإنْ ظهرَتِ الظلمةُ تحتَ النورِ الممتدِّ مِنَ القلبِ . . فلا يخلو أنْ يلوحَ عليهِ لائحُ الغضبِ ؛ بانقباضِ القلبِ ، فاحذرْ ذلكَ وتجنَّبْهُ ؛ فإنَّهُ المحظورُ أو يكادُ ، ولا تقطعْ ذلكَ إلا ببيِّنةٍ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ أو سنَّةٍ أو إجماعٍ أو خلافٍ لمقلَّدٍ قلَّدتَهُ ؛ كمالكٍ والشافعيِّ وغيرِهما مِنَ العلماءِ الراسخينَ ، فاحكمْ إذاً علىٰ أصلٍ صحيحٍ

وإنْ تكنِ الظلمةُ شِبْهَ غيمٍ ، لا يتصدَّعُ معَهُ القلبُ ، ولا يتفرَّغُ بهِ الذهنُ . . فتباعدْ عنهُ ؛ فإنَّهُ يكادُ يكونُ مكروهاً ، ولا تحكمْ بعقلِكَ ورأيِكَ ؛ فقد ضلَّ مِنْ ها هنا خلقٌ كثيرٌ ، ولا تفتِ أحداً وإنِ استفتاكَ ، وأعطِ الورعَ حقَّهُ ، ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ

فإنْ تأدَّبْتَ ها هنا فعن قريبٍ تأتيكَ البيِّنةُ مِنْ ربِّكَ ، والشاهدُ يتلوها منهُ) انتهىٰ كلامُ سيدي أبي الحسنِ

وهو مناسبٌ لما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ ، إلا أنَّ ما فيهِ مِنَ التفصيلِ لم يتعرَّضْ لهُ المؤلفُ ، بل أبقى الأمرَ في ذلكَ مجملاً كما تراهُ .

أو تقديرُهُ : فإذا نزلوا إلى الحقوقِ ، واستُعملوا فيها . . لم ينزلوا إليها بسوءِ أدبٍ ولا غفلةٍ ؛ وهو ألا يشهدوا قيامَهم بها مِنْ أنفسِهم ، أو يطلبوا ثواباً عليها مِنْ ربِّهم ،

وإنْ نزلوا إلى الحظوظِ لم ينزلوا إليها بشهوةٍ غالبةٍ قاهرةٍ لهم ، ولا متعةٍ يقصدونَ إلىٰ نيلِها في دنياهم ، بل دخلوا في ذلكَ باللهِ مستعينينَ ، وللهِ عابدينَ ، ومِنَ اللهِ آخذينَ ، وإلى اللهِ متوسِّلينَ(١) ، قد تولَّى اللهُ تعالىٰ إدخالَهم في الأشياءِ وإخراجَهم منها ، وأوجدَهم ذلكَ ، وعزلَ عنهم ملكيَّةَ نفوسِهم لهم ، فصاروا أحراراً كراماً .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : ٨٦]
لِيَكُونَ نَظَرِي إِلَىٰ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ إِذَا أَدْخَلْتَنِي ، وَٱسْتِسْلَامِي وَٱنْقِيَادِي إِلَيْكَ إِذَا أَخْرَجْتَنِي .

المُدخلُ والمُخرجُ : الإدخالُ والإخراجُ(٢) ، وقد عبَّرَ بهاتينِ العبارتينِ عنِ السفَرينِ المذكورينِ .

فالمدخلُ : هو سفرُ الترقِّي ؛ لأنَّهُ دخولٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ في حالِ فَنائِهِ عن رؤيةِ غيرِهِ

والمخرجُ : هو سفرُ التدلِّي ؛ لأنَّهُ خروجٌ إلى الخليقةِ لفائدةِ الإرشادِ والهدايةِ في حالِ بقائِهِ بربِّهِ

وتحقُّقُهُ في هٰذينِ المقامينِ ـ أعني : مقامَ الفناءِ والبقاءِ ـ هو معنىٰ صِدْقِيَّةِ مُدْخَلِهِ ومُخْرَجِهِ ، وإنَّما طلبَ هٰذا ليحصلَ بهِ ذهابُهُ عن رؤيةِ نفسِهِ في النسبةِ ، والوقوفِ معَ الحظِّ ؛ ففي المدخلِ يشاهدُ حولَ اللهِ وقوَّتَهُ ، فتنتفي عنهُ بذلكَ النسبةُ إلىٰ

---

(١) العمل باللهُ معية ومشاهدة ، وللهُ مراقبة ، ومن الله شهود منَّة ، وإلى الله إخلاص وصدق ، وعلى الله توكل ، وفي الله فناء ، فاقدر لكل تعدية قدرها

(٢) فهما وإن كانا علىٰ صيغة اسم المفعول . . بمعنى المصدر ، فالمعنىٰ إدخال صدق وإخراج صدق ، ومثلهما من الثلاثي قوله تعالىٰ : ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ [القلم : ٦] أي : الفتنة ، ومن الخماسي : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر : ٤] أي : ازدجار .

نفسِهِ ، **وفي المخرجِ** يسلِّمُ لربِّهِ وينقادُ إليهِ ، فتنتفي عنهُ بذلكَ مراعاةُ حظِّهِ .

﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٦] ، يَنْصُرُنِي ، وَيَنْصُرُ بِي ، وَلا يَنْصُرُ عَلَيَّ ؛ يَنْصُرُنِي عَلَىٰ شُهُودِ نَفْسِي ، وَيُفْنِينِي عَنْ دَائِرَةِ حِسِّي

طلبَ مِنَ اللهِ تعالى النصرةَ لهُ ليستقيمَ أمرُهُ ، وطلبَ منهُ النصرةَ بهِ ليكمُلَ حالُهُ

فالنصرةُ لهُ : هي مِلاكُ أربابِ البداياتِ مِنَ السالكينَ[1] ؛ إذْ بذلكَ يتيسَّرُ عليهم قطعُ عقباتِ النفسِ ، ومحْوُ دواعي الهوىٰ والحسِّ

والنصرةُ بهِ : هي مقتضىٰ حالِ أربابِ النهاياتِ مِنَ المحقِّقينَ ؛ لأنَّ بذلكَ تحصلُ لهم مرتبةُ الإمامةِ ، ومقامُ الإرشادِ والهدايةِ .

وكلُّ واحدٍ مِنَ القسمينِ نصرةٌ علىٰ شهودِ النفسِ ، وفناءٌ عن دائرةِ الحسِّ

وأخرجَ **النصرةَ عليهِ** مِنَ السؤالِ والطلبِ ؛ لأنَّ ذلكَ مِنَ الخِذلانِ وعدمِ التوفيقِ ؛ وهو غلبةُ أحكامِ نفسِهِ ، وبقاؤُهُ معَ دائرةِ حسِّهِ .

* * *

(١) **مِلاكُ الأمرِ** قوامه ، فالقلب ملاك الجسد ، وأجاز في « أدب الكاتب » (ص ٥٤٤) كسر الميم وفتحها

المكاتبة الثانية

في إجلاء الحقيقة والشريعة في مقام الشكر

وقال رضي الله عنه مما كتب به إلى بعض إخوانه :

إِنْ كَانَتْ عَيْنُ ٱلْقَلْبِ تَنْظُرُ إِلَىٰ أَنَّ ٱللهَ وَاحِدٌ فِي مِنَّتِهِ . .

فَٱلشَّرِيعَةُ تَقْتَضِي أَنْ لا بُدَّ مِنْ شُكْرِ خَلِيقَتِهِ .

إذا أوصلَ الحقُّ تعالىٰ إليكَ نعمةً علىٰ يدِ إنسانٍ ، سواءٌ كانَتْ دينيّةً أو دنيويّةً . . فعليكَ في ذلكَ وظيفتانِ :

إحداهُما أنْ تشهدَ انفرادَ اللهِ تعالىٰ بذلكَ فلا ترى النعمةَ إلا منهُ وحدَهُ ، وترىٰ مَنْ سواهُ ممَّنْ أجراها علىٰ يديهِ مقهوراً مجبوراً علىٰ ذلكَ ، مسلَّطاً عليهِ الدواعي والبواعثُ حتىٰ لم يجدِ انفكاكاً عنهُ ، وهٰذا هو حقُّ التوحيدِ

والثانيةُ : أنْ تشكرَ مَنْ وصلَتْ إليكَ علىٰ يدِهِ : بأنْ تدعوَ لهُ وتُثنيَ عليهِ ؛ امتثالاً لأمرِ اللهِ تعالىٰ ، وعملاً بما جاءَتْ بهِ الشريعةُ .

قالَ تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] .

وفي حديثِ النعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ ٱلْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلنَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ ٱللهَ »(١)

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/٢٧٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٦٩٨) .

وفي حديثِ أسامةَ بنِ زيدٍ رضيَ اللهُ عنهما قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَشْكَرُ ٱلنَّاسِ للهِ أَشْكَرُهُمْ لِلنَّاسِ »[١]

ولأنَّ اللهَ تعالى اختصَّهُ بأنْ أقامَهُ في ذلكَ وأهَّلَهُ لهُ ، ومِنْ أسمائِهِ الشَّكورُ ؛ فليتخلَّقِ العبدُ بذلكَ ، وهٰذا هو حقُّ الشرعِ

وَإِنَّ ٱلنَّاسَ فِي ذَٰلِكَ عَلَىٰ ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ

غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ فِي غَفْلَتِهِ ، قَوِيَتْ دَائِرَةُ حِسِّهِ ، وَٱنْطَمَسَتْ حَضْرَةُ قُدْسِهِ ، فَنَظَرَ ٱلإِحْسَانَ مِنَ ٱلْمَخْلُوقِينَ ، وَلَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ؛ إِمَّا ٱعْتِقَاداً فَشِرْكُهُ جَلِيٌّ ، وَإِمَّا ٱسْتِنَاداً فَشِرْكُهُ خَفِيٌّ .

هٰذا بيانُ أحوالِ الناسِ بالنسبةِ إلىٰ مشاهدةِ التوحيدِ ، ورؤيةِ الوسائطِ والعبيدِ .

فبدأَ بذكرِ عامَّةِ الناسِ ؛ وهمُ الغافلونَ المنهمكونَ في غفلتِهم ، أصحابُ الظواهرِ والرسومِ ، الذينَ قويَتْ دائرةُ حسِّهم فقيَّدَتْهم ووقفوا معَها ، وانطمسَتْ حضرةُ قُدْسِهم فأبعدَتْهم ولم يحلُّوا بها ، فنظروا الإحسانَ مِنَ المخلوقينَ فتعبَّدوا لهم ، وطمعوا فيهم ، ولم يشهدوهُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، فكفروا نعمتَهُ ، واستوجبوا سخطَهُ ونقمتَهُ .

ثم هم في ذلكَ علىٰ قسمينِ

أحدُهما : أنْ يعتقدوا ذلكَ اعتقاداً بقلوبِهم أنَّهُ منهم ومِنْ قِبَلِهم[٢] ؛ وهٰذا هو

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ١٧١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٦٩٧) .

(٢) أما إن اعتقدوا أنه منهم لٰكن لا من قبلهم ، بل بقوة أودعها الله فيهم . فأهل بدعة وضلال ، وهم أشبه بالقسم الثاني في هٰذه الحال .

الشركُ الجليُّ الذي يخرجُ صاحبَهُ عن دائرةِ الإسلامِ ، ويوقعُهُ في الكفرِ والعياذُ باللهِ

والثاني : أنْ يحصلَ ذلكَ منهمُ استناداً ؛ أيِ اعتماداً على غيرِ اللهِ ، وسكوناً إلىٰ سواهُ ، معَ سلامةِ عَقْدِهم وصدورِهم[1] ، وهـٰذا هو الشركُ الخفيُّ الذي يخرجُ صاحبَهُ مِنْ حقائقِ الإيمانِ ، ويدخلُهُ في أبوابِ النفاقِ ، ونعوذُ باللهِ مِنَ الشركِ جليِّهِ وخفيِّهِ

وَصَاحِبُ حَقِيقَةٍ غَابَ عَنِ ٱلْخَلْقِ بِشُهُودِ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ ، وَفَنِيَ عَنِ ٱلْأَسْبَابِ بِشُهُودِ مُسَبِّبِ ٱلْأَسْبَابِ ، فَهُوَ عَبْدٌ مُوَاجَهٌ بِٱلْحَقِيقَةِ ، ظَاهِرٌ عَلَيْهِ سَنَاهَا ، سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ ، قَدِ ٱسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ مَدَاهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ غَرِيقُ ٱلْأَنْوَارِ ، مَطْمُوسُ ٱلْآثَارِ ، قَدْ غَلَبَ سُكْرُهُ عَلَىٰ صَحْوِهِ ، وَجَمْعُهُ عَلَىٰ فَرْقِهِ ، وَفَنَاؤُهُ عَلَىٰ بَقَائِهِ ، وَغَيْبَتُهُ عَلَىٰ حُضُورِهِ .

هـٰذا هو حالُ الخاصَّةِ مِنْ أربابِ الحقائقِ ؛ وهمُ الذينَ غابوا عنِ الخلقِ بشهودِ الملكِ الحقِّ ، فلم يقعْ لهم شعورٌ بهم ، ولا التفاتٌ إليهم ، وفنُوا عنِ الأسبابِ برؤيةِ مسبِّبِ الأسبابِ ، فلم يرَوا لها فعلاً ولا جعلاً

فهم مواجهونَ بحقيقةِ الحقِّ ، ظاهرٌ عليهم سناؤُها ؛ أي نورُها وضياؤُها ، سالكونَ طريقةَ الحقِّ ، قدِ استولَوا علىٰ مداها ؛ أي وصلوا إلىٰ غايتِها ومنتهاها

إلا أنَّهم غرقوا في بحارِ أنوارِ التوحيدِ ، مطموسٌ عليهم آثارُ الوسائطِ والعبيدِ ؛

---

(١) فإن ذُكِّروا تذكَّروا ، فحمدوا الله تعالىٰ وشكروا ، ولـٰكن سرْعانَ ما ينسون ما أقرُّوا به من حيث الحالُ والمعاملة ، ورحمة الله تعالىٰ واسعة ؛ إذ لو دقَّق عليهم الحساب لهلكوا ، أصلح الله فسادَ قلوبنا ، وحلَّىٰ بأحسن الأحوال ظواهرَنا وبواطننا

أي : مغلقٌ عليهم رؤيةُ ذلكَ والشعورُ بهِ ، قد غلبَ سكرُهم ـ وهو عدمُ إحساسِهم بالأغيارِ ـ على صحوِهم ؛ وهو وجودُ إحساسِهم بها ، وجمعُهم ـ وهو ثبوتُ وجودِ الحقِّ فرداً ـ على فَرْقِهم ؛ وهو ثبوتُ وجودِ الخلْقِ ، وفناؤُهم ـ وهو استهلاكُهم في شهودِ الحقِّ ـ على بقائِهم ؛ وهو شعورُهم بالخلْقِ ، وغيبتُهم ـ وهو ذهابُ أحوالِ الخلقِ عن نظرِهم ـ على حضورِهم معَ الخلْقِ .

ومعاني هاذهِ الألفاظِ ـ كما تراها ـ متقاربةٌ ؛ وهي ألفاظٌ تداولَها الصوفيّةُ المحقِّقونَ فيما بينَهم ، وعبَّروا بها في كتبِهم ، ووضعوها على معانٍ اختصُّوا بها وبفهمِها ؛ ليتعرَّفَ بعضُهم مِنْ بعضٍ ما يتخاطبونَ بهِ ، ولهم ألفاظٌ كثيرةٌ غيرُها ، وكأنَّ المؤلِّفَ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ أرادَ ألا يخلوَ كتابُهُ عن ذكرِ شيءٍ منها

وَأَكْمَلُ مِنْهُ عَبْدٌ شَرِبَ فَٱزْدَادَ صَحْواً ، وَغَابَ فَٱزْدَادَ حُضُوراً ، فَلا جَمْعُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ ، وَلا فَرْقُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ جَمْعِهِ ، وَلا فَنَاؤُهُ يَصُدُّهُ عَنْ بَقَائِهِ ، وَلا بَقَاؤُهُ يَصُدُّهُ عَنْ فَنَائِهِ ، يُعْطِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ ، وَيُوَفِّي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

هاذا هو حالُ خاصَّةِ الخاصَّةِ ، الذينَ حازوا رُتَبَ الأكمليّةِ ؛ وهم قومٌ شربوا كؤوسَ التوحيدِ فازدادَ صحوُهم ، وغابوا عنِ الأغيارِ فازدادَ حضورُهم ، قد ملكوا الأحوالَ ، وتمكَّنوا في مقاماتِ الرجالِ ، فلم يغيِّبْهم محوٌ ولا طيٌّ ، ولم يحجبْهم شيءٌ عن شيءٍ ، بل وفَّوا حقوقَ جميعِ المراتبِ ، وأعطَوْها ما لها مِنْ قسطٍ واجبٍ ، وذلكَ لاتِّساعِ نظرِهم ، ونفوذِ بصرِهم .

وهاذهِ هي صفةُ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ في القصَّةِ التي يذكرُها الآنَ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا ، لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا مِنَ ٱلإِفْكِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ ؛ ٱشْكُرِي رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : وَٱللهِ ؛ لا أَشْكُرُ إِلا ٱللهَ[1] .

دَلَّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَلَى ٱلْمَقَامِ ٱلأَكْمَلِ ؛ مَقَامِ ٱلْبَقَاءِ ٱلْمُقْتَضِي لإِثْبَاتِ ٱلآثَارِ ، وَقَدْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] ، وَقَالَ صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ : « لا يَشْكُرُ ٱللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ ٱلنَّاسَ »[2] ، وَكَانَتْ هِيَ فِي ذَٰلِكَ ٱلْوَقْتِ مُصْطَلَمَةً عَنْ شَاهِدِهَا ، غَائِبَةً عَنِ ٱلآثَارِ ، فَلَمْ تَشْهَدْ إِلا ٱلْوَاحِدَ ٱلْقَهَّارَ .

هـٰذا مثالُ هـٰذينِ القسمينِ ، وقد أشبعَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ الكلامَ فيهِ .

والمعنىٰ في ذلكَ بيِّنٌ لا حاجةَ بنا إلىٰ مزيدِ تنبيهٍ ، إلا قولَهُ : (وكانَتْ هي في ذلكَ الوقتِ مصطلمةً عن شاهِدِها) أي : منقطعةً عن شاهِدِها ؛ وهو حكمُ بشريَّتِها ، مستوفاةً عن إحساسِها بالكليَّةِ .

والاصطلامُ : نعتُ الحيرةِ ، وتجلِّي القهرِ[3] ، وصفةُ الدهشةِ .

---

(١) رواه البخاري (٤٧٥٧) من حديث الصديقة عائشة رضي الله عنها ، ولفظه : (فقال لي أبواي : قومي إليه ، فقلت : لا والله لا أقوم إليه ، ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولـٰكن أحمد الله الذي أنزل براءتي) ، وأكثر الروايات أن القائل لها هي أمها السيدة أم رومان بنت عامر الكنانية رضي الله عنها ، وشكره عليه الصلاة والسلام هو حقُّ البشير ، إلا أن معنى التوحيد كان قد ملأ قلبها رضي الله تعالىٰ عنها كما سيأتي .

(٢) رواه أبو داود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) كذا في (هـ) وحدها ، وفي سائر النسخ : (ومحلُّ) بدل (وتجلي) .

وفي قولِهِ : (وكانَتْ هي في ذلكَ الوقتِ) إشعارٌ بأنَّ ذلكَ لم يكنْ حالاً لازماً لها في جميعِ أوقاتِها ، بل كانَ ذلكَ في وقتٍ مخصوصٍ ، وواقعةٍ مخصوصةٍ ، وذلكَ صحيحٌ ؛ إذْ حالُها رضيَ اللهُ عنها هو حالُ الكمالِ ؛ في حياةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وبعدَ وفاتِهِ ، كنحوِ حالِ أبيها رضيَ اللهُ عنهما ، وذلكَ معلومٌ مِنْ أخبارِها وسِيَرِها .

* * *

المكاتبة الثالثة

في بيان معنى قوله عليه الصلاة والسلام

« وجعلت قرة عيني في الصلاة »

وقال رضي الله عنه لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلاةِ »(١) هَلْ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِ ، أَمْ لِغَيْرِهِ مِنْهُ شِرْبٌ وَنَصِيبٌ ؟

فَأَجَابَ : إِنَّ قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ بِٱلشُّهُودِ عَلَىٰ قَدْرِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِٱلْمَشْهُودِ ، فَٱلرَّسُولُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ لَيْسَ مَعْرِفَةٌ كَمَعْرِفَتِهِ ، فَلَيْسَ قُرَّةُ عَيْنٍ كَقُرَّتِهِ

وَإِنَّمَا قُلْنَا : إِنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي صَلاتِهِ بِشُهُودِهِ جَلالَ مَشْهُودِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَشَارَ إِلَىٰ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (فِي ٱلصَّلاةِ) ، وَلَمْ يَقُلْ : (بِٱلصَّلاةِ) إِذْ هُوَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ لا تَقَرُّ عَيْنُهُ بِغَيْرِ رَبِّهِ ، وَكَيْفَ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَقَامِ وَيَأْمُرُ بِهِ مَنْ سِوَاهُ ؟! لِقَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ٱعْبُدِ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ »(٢) ، وَمُحَالٌ أَنْ يَرَاهُ وَيَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ .

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٦١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ١٧٥) من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠٢) من حديث سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه ، وأيضاً (٦/ ١١٥) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وأصله في « الصحيحين » لـكن لا بلفظ الأمر .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ(١) : قَدْ تَكُونُ قُرَّةُ ٱلْعَيْنِ بِٱلصَّلاةِ ؛ لِأَنَّهَا فَضْلٌ مِنَ ٱللهِ ، وَبَارِزَةٌ مِنْ مِنَّةِ ٱللهِ ، فَكَيْفَ لا يُفْرَحُ بِهَا ؟! وَكَيْفَ لا تَكُونُ قُرَّةُ ٱلْعَيْنِ بِهَا وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس : ٥٨] ؟!

فَٱعْلَمْ : أَنَّ ٱلآيَةَ قَدْ أَوْمَأَتْ بِٱلْجَوَابِ ، لِمَنْ تَدَبَّرَ سِرَّ ٱلْخِطَابِ ؛ إِذْ قَالَ : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ ، وما قالَ : (فَبِذَلِكَ فَٱفْرَحْ يَا مُحَمَّدُ) ، قُلْ لَهُمْ : فَلْيَفْرَحُوا بِٱلإِحْسَانِ وَٱلتَّفَضُّلِ ، وَلْيَكُنْ فَرَحُكَ أَنْتَ بِٱلْمُتَفَضِّلِ ؛ كَمَا قَالَ فِي ٱلآيَةِ ٱلأُخْرَىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام : ٩١] .

الصلاةُ هي أجلُّ ما يتحِفُ اللهُ بهِ عبادَهُ ويُهديهِ إليهم ، وفي الحديثِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَا أُوتِيَ عَبْدٌ فِي ٱلدُّنْيَا خَيْراً مِنْ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فِي رَكْعَتَيْنِ يُصَلِّيهِمَا »(٢)

ففيها يحصلُ لهُ الخلوةُ معَهُ ، والانفرادُ بهِ ، والمجالسةُ لهُ ، والانقطاعُ إليهِ ، وفيها ترتفعُ عن قلوبِهِمُ الحُجُبُ والأستارُ ، وتتجلَّىٰ فيها حقائقُ الأسرارِ ، وتشرقُ فيها شوارقُ الأنوارِ ، وفيها تكونُ المناجاةُ والمصافاةُ كما تقدَّمَ(٣) ، وهي صلةٌ بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ .

---

(١) كذا في (هـ) ، وفي سائر النسخ : (قال له القائل) يعني : السائل نفسه .

(٢) رواه الترمذي (٢٩١١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ١٥١) من حديث سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، وقوله : (يؤذن) هو من الأَذَنِ بمعنى الإصغاء لغة ، وشرعاً بمعنى الإقبال والإحسان ، أو يبقىٰ علىٰ ظاهره من الإذْن ، فيكون بمعنى التوفيق .

(٣) انظر (ص ٥٣٧) .

قالَ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ رحمَهُ اللهُ : (الصلاةُ عمادُ الدينِ ، وأوَّلُ شيءٍ فرضَهُ اللهُ على المسلمينَ ، وفي الصلاةِ إقبالُ اللهِ على العبيدِ ؛ ليقبلوا إليهِ في صورةِ العبيدِ ؛ تذلُّلاً وتسليماً وتبذُّلاً ، وتخضُّعاً وتخشُّعاً ، وترغُّباً وتَمَلُّقاً[1]

فالوقوفُ تذلُّلٌ ، والتكبيرُ تسليمٌ ، والثناءُ والتلاوةُ تبذُّلٌ ، والركوعُ تخضُّعٌ ، والسجودُ تخشُّعٌ ، والجلوسُ ترغُّبٌ ، والتشهُّدُ تملُّقٌ .

فأقبلَ العبيدُ بهـٰذهِ الصورةِ إلى اللهِ ليقبلَ اللهُ عليهم بالترحُّمِ والتعطُّفِ ، والتقبُّلِ والتكرُّمِ والتقرُّبِ ، فليسَ شيءٌ مِنْ أمرِ الدينِ أعظمَ مِنْ هـٰذا

ولهـٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلصَّلَاةُ عِمَادُ ٱلدِّينِ »[2]

وقالَ في حديثٍ آخرَ : « ٱلصَّلَاةُ نُورٌ »[3]

وقالَ : « لا يَزَالُ ٱللهُ مُقْبِلاً عَلَى ٱلْعَبْدِ بِوَجْهِهِ مَا دَامَ فِي صَلَاتِهِ »[4] ، و« إِنَّ ٱللهَ لَيَنْصِبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ وَجْهَهُ مَا دَامَ مُقْبِلاً عَلَيْهِ »[5]) انتهى[6]

ولأجلِ هـٰذهِ الفوائدِ كانَتِ الصلاةُ مفزعَ ذوي الفاقاتِ والضروراتِ مِنْ أربابِ القلوبِ ، فيغيِّبُهم وجودُها عن كلِّ مرغوبٍ ، ويتسلَّوْنَ بها عن كلِّ محبوبٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ . . . ﴾ الآيةَ [طه : ١٣٢] ، فواجبٌ إذاً أنْ تكونَ قرَّةُ عينِ عبادِ اللهِ فيها وبها

وقرَّةُ العينِ : عبارةٌ عنِ الرَّوْحِ والراحةِ وكمالِ النعيمِ واللذةِ التي تحصلُ مِنْ غايةِ الموافقةِ والملاءمةِ ، إلا أنَّها تختلفُ باختلافِ أحوالِ الناسِ في مراتبِهم ومقاماتِهم .

---

(١) التملُّق : التحبُّب والتقرُّب وطلب الزلفىٰ .
(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٢٥٥٠) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .
(٣) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .
(٤) رواه أبو داود (٩٠٩) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه بنحوه .
(٥) رواه الترمذي (٢٨٦٣) من حديث سيدنا الحارث الأشعري رضي الله عنه بنحوه .
(٦) قاله في « نوادر الأصول » (٥/٢٩٨) .

فمَنْ عظُمَتْ منزلتُهُ وعلَتْ مرتبتُهُ . . كانَتْ ملاءمتُهُ وموافقتُهُ في شهودِ التوحيدِ وكمالِ التجريدِ المشارِ إليهِ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ »(١) ؛ إذْ محالٌ أنْ يراهُ ويشهدَ معَهُ سواهُ ، كما قالَ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ .

وفيما رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ في قولِهِ لعروةَ بنِ الزبيرِ : (إنَّا كنَّا نتراءى اللهَ بينَ أعينِنا) ، وكانَ هـٰذا لمَّا خطبَ إليهِ عروةُ بنُ الزبيرِ ابنتَهُ وهو في الطوافِ ، فلم يكلمْهُ ابنُ عمرَ ولم يرجعْ إليهِ بشيءٍ ، ثم اعتذرَ لهُ بعدَ ذلكَ بهـٰذا الكلامِ(٢) .

فصاحبُ هـٰذهِ الحالِ تكونُ قرَّةُ عينِهِ في الصلاةِ لا بها ؛ لما تضمَّنَتْهُ مِنَ التجلِّي التامِّ والشهودِ الحقيقيِّ .

ومَنْ كانَتْ منزلتُهُ دونَ ذلكَ . . كانَتْ ملاءمتُهُ وموافقتُهُ في شهودِ النِّعَمِ ، ووجودِ الفضْلِ والكرمِ ، وكانَتْ قرَّةُ عينِهِ بها لا فيها ؛ لأنَّها فضلٌ مِنَ اللهِ ، وبارزةٌ مِنْ منَّةِ اللهِ ، كما قالَ المؤلِّفُ رحمَهُ اللهُ .

فلا شكَّ أنَّ معنىٰ قرَّةِ العينِ في الوجهِ الأوَّلِ أحقُّ ، وبهِ أنسبُ وأليقُ ؛ لأنَّ صاحبَهُ فانٍ عن نفسِهِ ، باقٍ بربِّهِ ، ومَنْ كانَ علىٰ هـٰذا الوصفِ فهو مِنَ المخلصينَ ، الذينَ لا سلطنةَ عليهم للعدوِّ اللعينِ ، ومَنْ زالَتْ سلطنتُهُ عنهُ في صلاتِهِ . . لم يحتجْ

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) روى الفاكهي في « أخبار مكة » (٣٣٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٠٩) عن عروة بن الزبير قال : خطبتُ إلىٰ عبد الله بن عمر ابنته ونحن في الطواف ، فسكت ولم يجبني بكلمة ، فقلت : لو رضي لأجابني ، والله ؛ لا أراجعه فيها بكلمة أبداً ، فقُدِّر له أن صدر إلى المدينة قبلي ، ثم قدمت فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلَّمتُ عليه (يعني : على ابن عمر) ، وأدَّيت إليه من حقِّه ما هو أهله ، فأتيته ، ورحَّب بي وقال : متىٰ قدمت ؟ فقلت : هـٰذا حينُ قدومي ، فقال : أكنتَ ذكرتَ لي سودة بنت عبد الله ونحن في الطواف نتخايل الله عز وجل بين أعيننا ، وكنت قادراً أن تلقاني في غير ذلك الموطن ؟ فقلت : كان أمراً قُدِّر ، قال : فما رأيك اليوم ؟ قلت : أحرص ما كنت عليه قط ، فدعا ابنيه سالماً وعبد الله فزوجني ، ولفظ (نتراءىٰ) عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٢/ ٣٠٥) .

إلىٰ مدافعتِهِ ومراجعتِهِ ، وكانَتْ صلاتُهُ ملزومةً بالحضورِ والخضوعِ ، والدوامِ والخشوعِ .

وعندَ فقدانِ العبدِ لحديثِ نفسِهِ ووسوسةِ عدوِّهِ يحصلُ لهُ غايةُ النعيمِ واللذَّةِ ، **ويتحقَّقُ في حقِّهِ معنىٰ قرَّةِ العينِ** ، بخلافِ الوجهِ الآخرِ ؛ فإنَّ صاحبَهُ لم يفنَ عن نفسِهِ ، فضلاً عن أنْ يرتقيَ إلىٰ درجةِ البقاءِ بربِّهِ ، فلم ينقطعْ عنهُ حديثُ النفسِ ولا وسواسُ العدوِّ ، فيحتاجُ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ مجاهدةٍ ومدافعةٍ ، فيتشوَّشُ نعيمُهُ ، وتتكدَّرُ لذَّتُهُ ، **فيضعفُ معنىٰ قرَّةِ العينِ في حقِّهِ** .

قالَ الشيخُ العارفُ أبو محمدٍ عبدُ العزيزِ المهدويُّ : (وقرَّةُ العينِ لا تكونُ لصاحبِ المجاهدةِ ، ولا لمَنْ يدفعُ الشيطانَ عنهُ ، **بل هي لمَنِ استراحَ مِنَ المجاهدةِ والدفعِ**)

ولمَّا كانَتْ منزلةُ نبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ أشرفَ المنازلِ ، ومرتبتُهُ في المعرفةِ بهِ أرفعَ المراتبِ ؛ بحيثُ لا يُتصوَّرُ أنْ يشاركَهُ في ذلكَ غيرُهُ ، أو يحلَّ بها سواهُ. . كانَتْ قرَّةُ عينِهِ في صلاتِهِ علىٰ حسَبِ ذلكَ

فمَنْ قالَ : إنَّ ذلكَ خاصٌّ بهِ ؛ لانفرادِهِ بالمرتبةِ العليا والخاصيَّةِ الكبرىٰ . . **فقولُهُ صحيحٌ** ، وعليهِ يدلُّ ظاهرُ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ » ، بعدَ قولِهِ : « إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ ٱلطِّيبُ وَٱلنِّسَاءُ »(١)

ولا شكَّ أنَّ حبَّهُ لهٰذينِ الأمرينِ **ليسَ علىٰ قياسِ حبِّ غيرِهِ لهما** ، وإنَّما ذلكَ لوجودِ الخاصيَّةِ التي اقتضتْ منهُ ذلكَ ؛ ألا ترىٰ أنَّهُ أُبيحَ لهُ ما لم يُبحْ لغيرِهِ مِنْ عددِ الحرائرِ ، وأمنَ لأجلِ ذلكَ مِنْ وقوعِ مفسدةِ التباغضِ والتشاجرِ بسببِ اجتماعِ الضرائرِ ؟!

واستعمالُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الطيبَ وحبُّهُ لهُ إنَّما هو للقائِهِ الملائكةَ التي

---

(١) تقدم (ص ٣٩٢) .

تناجيهِ ، وإلا فهو في ذاتِهِ غنيٌّ عنِ الطيبِ واستعمالِهِ ؛ كما قالَ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مَسِسْتُ حريراً ولا خَزّاً ولا دِيباجاً ألينَ مِنْ كفِّ رسولِ ٱللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا شَمِمْتُ قطُّ مِسْكاً ولا عبيراً أطيبَ مِنْ رائحةِ رسولِ ٱللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)(١)

فإذا كانَ حالُهُ في هٰذينِ الأمرينِ علىٰ ما ذكرناهُ ، معَ أنَّهُ لم يذكرْ فيهما سوىٰ لفظِ (الحبِّ) ، وهما مِنْ لذَّاتِ الدنيا . . فكيفَ يكونُ حالُهُ في الأمرِ الثالثِ ، معَ أنَّهُ عبَّرَ فيهِ بـ (قُرَّةِ العينِ) ؛ وهي غايةُ المحبَّةِ ، وهو مِنْ أعمالِ الآخرةِ ؟!

وقيلَ : معنىٰ قولِهِ : (مِنَ الدنيا) أي : في الدنيا

ومَنْ قالَ : إنَّ لغيرِهِ منهُ شِرْباً ونصيباً على المعنى الذي يليقُ بهٰذا الغيرِ . . فلقولِهِ وجهٌ ، وجوابُ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ محتملٌ لهٰذينِ الوجهينِ ، واللهُ أعلمُ بما أرادَ منهما أو مِنْ غيرِهما

*

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٣) ، ومسلم (٢٣٣٠) ، والعبيرُ : طيب معمول من أخلاط ، وفي غير (ج) : (عنبراً) بدل (عبيراً) ، وهي رواية مسلم ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٦/ ٥٧٧) : (ووقع للبيهقي : « ولا شممت مسكاً ولا عنبراً ولا عبيراً » ، ذكرهما جميعاً) .

المكاتبة الرابعة

في بيان أحوال الناس عند ورود النعم

وقال رضي الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

ٱلنَّاسُ فِي وُرُودِ ٱلْمِنَنِ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ :

فَرِحٌ بِٱلْمِنَنِ لا مِنْ حَيْثُ مُبْدِيهَا وَمُنْشِيهَا ، وَلَـٰكِنْ لِوُجُودِ مُتْعَتِهِ فِيهَا ، فَهَـٰذَا مِنَ الْغَافِلِينَ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام : ٤٤] .

وَفَرِحٌ بِٱلْمِنَنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَهِدَهَا مِنَّةً مِمَّنْ أَرْسَلَهَا ، وَنِعْمَةً مِمَّنْ وَصَلَهَا ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٨] .

وَفَرِحٌ بِٱللهِ ، مَا شَغَلَهُ مِنَ ٱلْمِنَنِ ظَاهِرُ مُتْعَتِهَا ، وَلا بَاطِنُ مِنَّتِهَا ، بَلْ شَغَلَهُ ٱلنَّظَرُ إِلَى ٱللهِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَٱلْجَمْعُ عَلَيْهِ فَلا يَشْهَدُ إِلا إِيَّاهُ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام : ٩١] .

تضمَّنَ هـٰذا الفصلُ بيانَ ما يُحمدُ مِنْ أحوالِ الناسِ وما يُذمُّ عندَ ورودِ النعمِ عليهم، وحصولِ الفرحِ إذْ ذاكَ لهم ، وينبني عليهِ ما يكونُ مِنْ ذلكَ شكراً لها وما لا يكونُ .

وقد قسَمَهمُ المؤلفُ ثلاثةَ أقسامٍ ، وجعلَهم طرفينِ وواسطةً[1] :

قسمٌ في غايةِ الدناءةِ والخسَّةِ ؛ وهمُ الذينَ فرحوا بالنِّعَمِ مِنْ حيثُ فيها قضاءُ أوطارِ نفوسِهم ، ونيلُ أغراضِهم ، والتمتُّعُ بشهواتِهم ولذَّاتِهم ، فأحوالُ هٰؤلاءِ مذمومةٌ جدّاً ، أشبهُ شيءٍ بهمُ الأنعامُ والبهائمُ ، وهٰذهِ أحوالُ أهلِ الطردِ والبعدِ ، والاستدراجِ والمكرِ ، حسَبَ ما أشارَ إليهِ في الآيةِ الكريمةِ التي ذكرَها المؤلفُ في هٰذا القسمِ .

وهٰذهِ الأحوالُ بعيدةٌ مِنَ الشكرِ ، منافيةٌ لهُ .

وقسمٌ في غايةِ الشرفِ والجلالةِ ؛ وهمُ الذينَ فرحوا بالمنعمِ فقطْ ، ولم يلتفتوا إلىٰ ظواهرِ النعمِ لأجلِ أنَّ فيها متعتَهم ولذَّتَهم ، ولا إلىٰ بواطنِها مِنْ كونِها دلائلَ علىٰ عنايةِ اللهِ بهم حيثُ مَنَّ اللهُ بها عليهم ، فأحوالُ هٰؤلاءِ محمودةٌ جدّاً ؛ لأنَّهم غابوا عنِ الأغيارِ العدميَّةِ ، وتحقَّقوا بحقائقِ الوحدانيَّةِ ، كما أشارَ إليهِ في الآيةِ الكريمةِ التي ذكرَها المؤلفُ في هٰذا القسمِ .

وحالُ هٰؤلاءِ هي الشكرُ الحقيقيُّ الخالصُ الخالي مِنَ المزجِ والشوبِ ؛ لأنَّ المشاهِدَ للمنعمِ فانٍ عن حظوظِ نفسِهِ ، فهو يرى الأشياءَ كلَّها نِعَماً ، فلا تفرقةَ عندَهُ بينَ وجودٍ ولا عدمٍ ، ولا عطاءٍ ولا منعٍ ، ولا يُخافُ عليهِ مِنَ التغيُّرِ والانقلابِ لتغيُّرِ الأفعالِ والأسبابِ . . ما يُخافُ علىٰ غيرِهِ ؛ لبقاءِ حظِّهِ .

قالَ أبو محمدٍ الجريريُّ : (مَنْ رأى النعمَ ولم يرَ المنعمَ . . فقد حُجِبَ عنِ الشكرِ ، ومَنْ رأى المنعمَ بغيبةِ النعمِ فقد شكرَ) .

وقالَ الشيخُ أبو محمدٍ عبدُ العزيزِ المهدويُّ : (كلُّ مَنْ لم يشاهدِ المنعمَ في

---

(1) الأول وهو الأخسُّ : الفرح بالنعمة فقط ، والثاني وهو الأوسط : الفرح بالإنعام ، والثالث وهو الأعلى : الفرح بالمنعم وحده ، وإنما جعل الثاني وسطاً لتعلقه بالنعمة والمنعم معاً ، فلم يحصل التجريد والإخلاص بتمامه ، وانظر « إحياء علوم الدين » (٧/ ٢٨١) .

النِّعَمِ . كانَتِ النعمةُ في حقِّهِ استدراجاً ؛ لأنَّهُ يؤدِّيهِ إلىٰ أنْ يسكنَ إليها ، فإذا نُزعتْ منهُ لزمَهُ أنْ يتغيَّرَ عليها)

ومنهم مَنْ حصلَ لهُ نصيبٌ مِنَ الشرفِ والجلالةِ ، وحظٌّ مِنَ الدناءةِ والرذالةِ ؛ وهمُ الذينَ فرحوا بالنعمِ لكونِها منَّةً مِنَ اللهِ تعالىٰ عليهم ، فهم مِنْ حيثُ شهودُهم للمنَّةِ مِنْ ربِّهم شَرُفوا وجلَّتْ أقدارُهم ، وكانَتْ أحوالُهم محمودةً ، وهي شكرٌ منهم لائقٌ بهم ، ومِنْ حيثُ نظرُهم لأنفسِهم وبقاؤُهم معَ حظوظِهم . . كانَ لهم نصيبٌ مِنَ الدناءةِ والخسَّةِ ، فانحطُّوا بهـٰذا الوصفِ عن مراتبِ الأعلَيْنَ ، وارتقَوا بالوصفِ الأوَّلِ عن أحوالِ الأدنَيْنَ ، فخُوطبوا بما خُوطبَ بهِ عامَّةُ المؤمنينَ وأوساطُهم في الآيةِ الكريمةِ التي ذكرهَا المؤلفُ في هـٰذا القسمِ

وقد ضربَ الإمامُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ في كتابِ (الشكرِ)[1] لهـٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ مثلاً فقالَ : (المَلِكُ الذي يريدُ الخروجَ إلىٰ سفرٍ ، فأنعمَ بفرسٍ علىٰ إنسانٍ ؛ يُتصوَّرُ أنْ يفرحَ المنعَمُ عليهِ بالفرسِ بثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنْ يفرحَ بالفرسِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فرسٌ ، وإنَّهُ مالٌ ينتفعُ بهِ ، وإنَّهُ مركوبٌ يوافقُ غرضَهُ ، وإنَّهُ جوادٌ نفيسٌ ، وهـٰذا فرحُ مَنْ لا حظَّ لهُ في المَلِكِ ، بل غرضُهُ الفرسُ فقطْ ، ولو وجدَهُ في صحراءَ فأخذَهُ لكانَ فرحُهُ بهِ مثلَ هـٰذا الفرحِ

الوجهُ الثاني : أنْ يفرحَ بهِ لا مِنْ حيثُ إنَّهُ فرسٌ ، بل مِنْ جهةِ ما يستدلُّ بهِ علىٰ عنايةِ المَلِكِ بهِ وشفقتِهِ عليهِ واهتمامِهِ بجانبِهِ ، حتىٰ لو وجدَ هـٰذا الفرسَ في صحراءَ ، أو أعطاهُ لهُ غيرُ المَلِكِ . . لكانَ لا يفرحُ بهِ أصلاً ؛ لاستغنائِهِ عنِ الفرسِ أصلاً ، ولاستحقارِهِ لهُ بالإضافةِ إلىٰ مطلوبِهِ مِنْ نيلِ المحلِّ في قلبِ المَلِكِ .

الوجهُ الثالثُ : أنْ يفرحَ بهِ ليركبَهُ فيخرجَ في خدمةِ الملكِ ، ويحتملَ مشقَّةَ السفرِ ؛ لينالَ بخدمتِهِ رتبةَ القُربِ منهُ ، ويرتقيَ إلىٰ درجةِ الوزارةِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّهُ

---

(١) من كتب « إحياء علوم الدين » المفتتح (٧/ ٢٧٢) .

ليسَ يقنعُ بأنْ يكونَ محلُّهُ في قلبِ الملكِ محلَّ مَنْ يعطيهِ فرساً ويُعنىٰ بهِ هـٰذا القدرَ مِنَ العنايةِ ، بل هو طالبٌ بألا ينعمَ المَلِكُ بشيءٍ مِنْ مالِهِ علىٰ أحدٍ إلا بواسطتِهِ ، ثم إنَّهُ ليسَ يريدُ مِنَ الوزارةِ الوزارةَ أيضاً ، بل مشاهدةَ المَلِكِ والقُرْبَ منهُ ، حتىٰ لو خُيِّرَ بينَ القُرْبِ دونَ الوزارةِ وبينَ الوزارةِ دونَ القُرْبِ . . لاختارَ القُرْبَ

فهـٰذهِ ثلاثُ درجاتٍ :

فالأولىٰ لا يدخلُ فيها معنى الشكرِ أصلاً ؛ لأنَّ نظرَ صاحبِها مقصورٌ على الفرسِ ، ففرحُهُ بالفرسِ لا بالمعطي ، **وهـٰذهِ حالُ كلِّ مَنْ فرحَ بنعمةٍ مِنْ حيثُ إنَّها لذيذةٌ وموافقةٌ لغرضِهِ** ، فهو بعيدٌ عن معنى الشكرِ

والثانيةُ داخلةٌ في معنى الشكرِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فرحٌ بالمنعمِ ، ولـٰكنْ لا مِنْ حيثُ ذاتُهُ ، بل مِنْ حيثُ معرفةُ عنايتِهِ التي تستحثُّهُ على الإنعامِ في المستقبلِ ، **وهـٰذهِ حالُ الصالحينَ** الذينَ يعبدونَ اللهَ تعالىٰ ويشكرونَهُ خوفاً مِنْ عقابِهِ ورجاءً لثوابِهِ .

وإنَّما الشكرُ التامُّ في **الفرحِ الثالثِ** ؛ وهو أنْ يكونَ فرحُ العبدِ بنعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ حيثُ إنَّهُ يقدرُ بها على التوصُّلِ إلى القُرْبِ منهُ ، والنزولِ في جوارِهِ ، والنظرِ إلىٰ وجهِهِ على الدوامِ ، **فهـٰذهِ هي المرتبةُ العليا**

وأماراتُهُ : ألا يفرحَ مِنَ الدنيا إلا بما هو مزرعةُ الآخرةِ ويعينُهُ عليها ، ويحزنُ بكلِّ نعمةٍ تلهيهِ عن ذكرِ اللهِ تعالىٰ وتصدُّهُ عن سبيلِهِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يريدُ النعمةَ لأنَّها لذيذةٌ ، كما لم يردْ صاحبُ الفرسِ الفرسَ لأنَّهُ جوادٌ ومُهَمْلَجٌ[1] ، بل مِنْ حيثُ إنَّهُ يحملُهُ في صحبةِ المَلِكِ حتىٰ تدومَ مشاهدتُهُ لهُ وقُرْبُهُ منهُ .

ولذلكَ قالَ الشبليُّ رحمَهُ اللهُ : الشكرُ رؤيةُ المنعمِ ، لا رؤيةُ النعمةِ[2]

---

(١) **المهملج** : من الهَمْلجة ؛ حسن سير الدابة في سرعة وخفة ، لفظة فارسية .

(٢) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٤٢٧) .

ولذلكَ قالَ الخوَّاصُ : شكرُ العامَّةِ على المطعمِ والملبسِ ، وشكرُ الخاصَّةِ على وارداتِ القلوبِ[1] .

وهـٰذهِ رتبةٌ لا يدركُها كلُّ مَنِ انحصرَتْ عندَهُ اللذَّاتُ في البطنِ والفرجِ ومدركاتِ الحواسِّ مِنَ الألوانِ والأصواتِ ، وخلا عن لذَّةِ القلبِ ؛ فإنَّ القلبَ لا يلتذُّ في حالِ الصحَّةِ إلا بذكرِ اللهِ ومعرفتِهِ ولقائِهِ ، وإنَّما يلتذُّ بغيرِهِ إذا مرضَ بسوءِ العاداتِ كما يلتذُّ بعضُ الناسِ بأكلِ الطينِ ، وكما يستبشعُ بعضُ المرضى الأشياءَ الحلوةَ ، ويستحلي الأشياءَ المرَّةَ ، حتىٰ قيلَ[2] : [من الوافر]

وَمَـنْ يَـكُ ذَا فَـمٍ مُـرٍّ مَـرِيضٍ يَجِـدْ مُـرّاً بِـهِ ٱلْمَـاءَ ٱلـزُّلالا

فإذاً ؛ هـٰذا شرطُ الفرحِ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ لم يكنْ لهُ إبلٌ فمِعْزىً[3] ، وإنْ لم يكنْ هـٰذا فالدرجةُ الثانيةُ .

أمَّا الأولىٰ فخارجةٌ عن كلِّ حسابٍ ، فكم بينَ مَنْ يريدُ المَلِكَ للفرسِ ، ومَنْ يريدُ الفرسَ للمَلِكِ ، وكم مِنْ فرقٍ بينَ مَنْ يريدُ اللهَ عزَّ وجلَّ لينعمَ عليهِ ، وبينَ مَنْ يريدُ نِعَمَ اللهِ ليصلَ بها إليهِ) انتهىٰ كلامُ الغزاليِّ[4] ، وهو في غايةِ البيانِ والوضوحِ ، وهو كالتفسيرِ لما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ ؛ ولذلكَ أوردتُهُ ها هنا بكمالِهِ .

---

(١) أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٤٢٧) ولـٰكن عن أبي عثمان الحيري .

(٢) البيت للمتنبي ضمن قصيدة له . انظر « ديوانه » (ص ١٤١)

(٣) مثل سائر أصله من قول امرئ القيس كما في « ديوانه » (ص ١٣٦) : (من الوافر)

ألا إنْ لا تكُـنْ إبـلٌ فمِعْـزىً كـأنَّ قـرونَ جِلَّتِهـا العصـيُّ

أراد : إن لم يكن واسع غنىً فلا أقلَّ من كفايةٍ يتبلَّغ بها ، والجلَّة في البيت : جمع جليل ؛ المسنُّ من الغنم .

(٤) قاله في « إحياء علوم الدين » (٧/ ٢٨١ـ٢٨٤)

وَقَدْ أَوْحَى ٱللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ : يَا دَاوُدُ ؛ قُلْ لِلصِّدِّيقِينَ : بِي فَلْيَفْرَحُوا ، وَبِذِكْرِي فَلْيَتَنَعَّمُوا .

بهٰذا تحقَّقَتْ صِدِّيقيَّتُهم ، وعُلِمَ ارتفاعُ رتبتِهم علىٰ مَنْ دونَهم .

قيلَ : إنَّ عتبةَ الغلامَ دخلَ في بعضِ الأيامِ علىٰ رابعةَ العدويَّةِ وعليهِ قميصٌ جديدٌ وهو يتبخترُ في مشيتِهِ ، بخلافِ ما سبقَ مِنْ عادتِهِ ، فقالَتْ لهُ : يا عتبةُ ؛ ما هٰذا التيهُ والعُجْبُ الذي لم أرهُ في شمائلِكَ قبلَ اليومِ ؟! فقالَ يا رابعةُ ؛ ومَنْ أولىٰ بهٰذا التيهِ منِّي وقد أصبحَ لي مولىً ، وأصبحتُ لهُ عبداً ؟![1]

وقالَ بعضُهم : كنتُ مسافراً إلىٰ مكَّةَ ، فبينَما أنا أمشي إذْ رأيتُ شيخاً بيدِهِ مصحفٌ وهو ينظرُ فيهِ ويرقصُ ، فتقدمتُ إليهِ فقلتُ لهُ : يا شيخُ ؛ ما هٰذا الرقصُ ؟! قالَ : دعْني عنكَ ؛ قلتُ في نفسي عبدُ مَنْ أنا ، وكلامَ مَنْ أتلو ، وبيتَ مَنْ أنا قاصدٌ ؟! فاستفزَّني الوجدُ فرقصتُ .

وأنشدوا في هٰذا المعنىٰ [من البسيط]

قَـوْمٌ يُخَـالِجُهُـمْ زَهْـوٌ بِسَيِّـدِهِـمْ وَٱلْعَبْـدُ يَـزْهُـو عَلَـىٰ مِقْـدَارِ مَـوْلاهُ
تَـاهُـوا بِـرُؤْيَتِـهِ عَمَّـا سِـوَاهُ لَـهُ يَا حُسْنَ رُؤْيَتِهِمْ فِي حُسْنِ مَا تَاهُوا

ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بقولِهِ : (وبذكري فليتنعموا) أي : بذكري إيَّاهم في الأزلِ ؛ حيثُ لا وجودَ لهم ، وإلا فإنَّ الذكرَ المنسوبَ إليهم محلُّ الآفاتِ والعللِ ، وهم أجلُّ رتبةً مِنْ أنْ يكونَ نعيمُهم بشيءٍ ملتبسٍ بهم .

---

(١) أوردها العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (١/ ٢٣٣) .

فَٱللهُ تَعَالَىٰ يَجْعَلُ فَرَحَنَا وَإِيَّاكَ بِهِ ، وَبِٱلرِّضَا مِنْهُ ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ ٱلْفَهْمِ عَنْهُ[1] ، وَأَلا يَجْعَلَنَا مِنَ ٱلْغَافِلِينَ ، وَأَنْ يَسْلُكَ بِنَا مَسْلَكَ ٱلْمُتَّقِينَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ

هٰذا دعاءٌ حَسَنٌ موافقٌ لما تقدَّمَ ، وهو بيِّنٌ ، لا يُحتاجُ إلىٰ تنبيهٍ عليهِ ، واللهُ تعالىٰ يحققُ لنا ذلكَ بفضلِهِ[2]

* * *

(١) هٰذه الجملة زيادة من (ب ، د)

(٢) ثَمَّ مكاتبة وحِكَمٌ وقعت زيادة في بعض نسخ « الحكم العطائية » ، انظرها (ص ١٣٨) ، ويكاد يقع الجزم أنها ليست للمؤلف .

المناجاة

المناجاة

وقال رضي الله عنه :

إلٰهي ؛ أَنَا ٱلْفَقِيرُ فِي غِنَايَ ، فَكَيْفَ لا أَكُونُ فَقِيراً فِي فَقْرِي ؟!

إلٰهي ؛ أَنَا ٱلْجَاهِلُ فِي عِلْمِي ، فَكَيْفَ لا أَكُونُ جَهُولاً فِي جَهْلِي ؟!

العبدُ موصوفٌ بصفاتِ النقصِ ، وهي ذاتيَّةٌ لهُ ، والكمالُ العارضُ لهُ والمنسوبُ إليهِ نقصانٌ على التحقيقِ ، ومِنْ ثَمَّ كانَ ما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ ؛ مِنْ كونِهِ فقيراً في غناهُ ، وجاهلاً في علمِهِ . . صحيحاً مستقيماً

وكأنَّهُ رحمَهُ اللهُ قصدَ بهٰذا إلى الاعترافِ بدوامِ الاضطرارِ(١) ، ولزومِ الفاقةِ والافتقارِ ، وأنَّهُ لا استغناءَ لهُ عن مولاهُ عزَّ وجلَّ ، ولا ينفكُّ مِنَ الاحتياجِ إليهِ ، والتعلُّقِ بهِ ، والسؤالِ والطلبِ منهُ في كلِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ ، كما قيلَ [من البسيط]

إِنِّي إِلَيْكَ مَعَ ٱلأَنْفَاسِ مُحْتَاجُ ... لَوْ كَانَ فِي مَفْرَقِي ٱلإِكْلِيلُ وَٱلتَّاجُ

وهٰذا منهُ دليلٌ على تحقُّقِهِ في مقامِ العبوديَّةِ التي اقتضَتْها عظمةُ الربوبيَّةِ .

وتقديمُهُ لهٰذهِ المعاني بينَ يدي دعائِهِ ومناجاتِهِ في غايةِ الحسنِ .

---

(١) في (هـ) وحدها : (قصد بهٰذا الاعترافَ) ، والفعل متعدٍّ بنفسه وبـ (إلى) وباللام ، تقول : قصدته وقصدت إليه وقصدت له .

قالَ سيدي أبو الحسنِ : (ما طلبتُ مِنَ اللهِ شيئاً إلا وقدمتُ إساءتي أمامي)[١] ؛ يريدُ رضيَ اللهُ عنهُ : حتىٰ لا يطلبَ مِنَ اللهِ شيئاً بوصفٍ يستحقُّ بهِ العطاءَ ، بل لا يكونُ طلبُهُ وجودَ فضلِهِ إلا بفضلِهِ

وقالَ أبو عثمانَ في قولِهِ تعالىٰ ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : ٥٥] ، قالَ (التضرُّعُ في الدعاءِ ألا تقدِّمَ إليهِ أفعالَكَ وصلواتِكَ وصيامَكَ وقيامَكَ وقراءتَكَ ، ثم تدعوَ علىٰ أثرِهِ ، إنَّما التضرُّعُ : أنْ تقدِّمَ إليهِ افتقارَكَ وعجزَكَ وضرورتَكَ وفاقتَكَ وقلَّةَ حيلتِكَ ، ثم تدعوَ بلا عُلْقةٍ ولا سببٍ ، فيُرفعَ دعاؤُكَ)[٢]

وقالَ الواسطيُّ : (تضرُّعاً بذُلِّ العبوديةِ وخلعِ الاستطالةِ)[٣]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (ما أظهرَ عبدٌ فقرَهُ إلى اللهِ تعالىٰ في وقتِ الدعاءِ في شيءٍ يحلُّ بهِ . . إلا قالَ اللهُ لملائكتِهِ : لولا أنَّهُ لا يحتملُ كلامي لأجبتُهُ : لبَّيكَ)

إلهي ؛ إنَّ ٱخْتِلافَ تَدْبِيرِكَ ، وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ . . مَنَعَا عِبَادَكَ ٱلْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ ٱلسُّكُونِ إِلَىٰ عَطَاءٍ ، وَٱلْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلاءٍ

تلوينُ الأحكامِ على العبادِ يقتضي ألا يساكنوا حالاً سارَّةً يكونونَ عليها ، ولا ييئسوا في حالٍ ضارَّةٍ تنزلُ بهم مِنْ وجودِ الراحةِ والفرحِ ، وهـٰذا محضُ تعلُّقٍ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وهو نعتُ العارفينَ

---

(١) أورده الإمام ابن عطاء الله في « التنوير في إسقاط التدبير » (ص ٢٦٨) ، والتعليل الآتي من كلام الإمام ابن عطاء الله أيضاً

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٣٠) ، وأبو عثمان : هو سعيد بن إسماعيل الحيري .

(٣) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٣٠)

إلهي ؛ مِنّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي ، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ .

لؤمُ العبدِ الذي رُكِّبَ عليهِ يقتضي منهُ مبارزةَ مولاهُ بالعظائمِ والكبائرِ ، وكرمُ المولى الذي هو متَّصفٌ بهِ يقتضي منهُ التجاوزَ والعفوَ عن عبدِهِ وقبولَ عذرِهِ ، وهـٰذا الكلامُ مِنْ ألطفِ وجوهِ السؤالِ والرغبةِ ، وهو مِنْ آدابِ الدعاءِ

يُحكىٰ : أنَّ رجلاً قالَ لبعضِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ : قُلْ لهُ : كم أخالفُهُ وأعصيهِ وهو لا يعاقبُني ! فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ ذلكَ النبيِّ قُلْ لفلانٍ : لتعلمَ أنِّي أنا أنا ، وأنتَ أنتَ[1]

إلهي ؛ وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِٱللُّطْفِ وَٱلرَّأْفَةِ بِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي ، أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي ؟!

اللطفُ والرأفةُ صفتانِ للهِ عزَّ وجلَّ اتَّصفَ بهما في الأزلِ قبلَ وجودِ ضعفِ العبدِ وفاقتِهِ وحاجتِهِ ، وهما مقتضيانِ لوجودِ آثارِهما فيما لا يزالُ بعدَ وجودِ ذاتِ العبدِ وصفاتِهِ[2] ؛ وهي إسباغُ نعمِهِ عليهِ ، وإيصالُ أفضالِهِ إليهِ ، فكيفَ يُتصوَّرُ إذْ ذاكَ منعُهُ إيَّاهُما ؟!

إلهي ؛ إِنْ ظَهَرَتِ ٱلْمَحَاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ ٱلْمِنَّةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ ظَهَرَتِ ٱلْمَسَاوِي مِنِّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ ٱلْحُجَّةُ عَلَيَّ .

---

(١) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ١٤٣)

(٢) قال عزَّ شأنه وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، وقوله : (لا يزال) هو في مقابلة الأزل ، ويبدأ بافتتاح الوجود الحادث .

ظهورُ المحاسنِ على العبدِ ـ وهي أنواعُ الطاعاتِ والحسناتُ والصفاتُ المحموداتُ ـ فضلٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والمِنَّةُ لهُ عليهِ ؛ لعدمِ استحقاقِهِ لذلكَ

وظهورُ المساوي منهُ ـ وهي ضروبُ المعاصي والسيئاتُ والأوصافُ المذموماتُ ـ عَدْلٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ لهُ أنْ يفعلَ بعبدِهِ ما يشاءُ ، والحجةُ لهُ عليهِ ؛ لأنَّهُ ربٌّ وهو عبدٌ[1]

ومناجاةُ العبدِ لمولاهُ بهٰذا الكلامِ مِنْ أحسنِ المناجاةِ ، وهي مقتضيةٌ لوجودِ إسعافِهِ لهُ ، وموالاةِ ألطافِهِ عليهِ ؛ لما فيها مِنَ الثناءِ على اللهِ تعالىٰ على بساطِ قربِهِ ، وذكرِ صفاتِهِ العليَّةِ والتعلُّقِ بها ، والاعترافِ لهُ بالنعمِ الظاهرةِ والباطنةِ ، ولما فيها أيضاً مِنْ رؤيةِ ضعفِ النفسِ ، والإقرارِ عليها بالنقصِ والقصورِ ، وإنزالِها منزلتَها مِنَ الذلَّةِ والمهانةِ .

وقد قالَ بعضُهم : تعلَّقَ شابٌّ بأستارِ الكعبةِ وقالَ : إلٰهي ؛ لا شريكَ لكَ فيُؤتىٰ ، ولا وزيرَ فيُرشىٰ ، إنْ أطعتُكَ فبفضلِكَ ولكَ الحمدُ ، وإنْ عصيتُكَ فبجهلي ولكَ الحجَّةُ عليَّ ، فبإثباتِ حجَّتِكَ عليَّ ، وانقطاعِ حجَّتي لديكَ . . إلا غفرتَ لي ، فسمعَ هاتفاً يقولُ : الفتىٰ عتيقٌ مِنَ النارِ[2]

---

(١) روىٰ أبو داود (٤٦٩٩) ، وابن ماجه (٧٧) عن سيدنا أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه أنه قال لابن الديلمي ـ وكان قد وقع في نفسه شيء من القدر ـ : (لو أنَّ الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه . . عذَّبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم) .
وروىٰ مسلم (٢٦٥٠) عن أبي الأسود الديلي قال : قال لي عمران بن الحصين : أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومضىٰ عليهم من قدرِ ما سبقَ ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيُّهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شيءٌ قُضي عليهم ومضىٰ عليهم ، قال : فقال : أفلا يكون ظلماً ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعاً شديداً ، وقلت : كلُّ شيءٍ خلْقُ الله وملكُ يده ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فقال لي : يرحمك الله ، إني لم أُرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٥٦٦) .

إلٰهي ؛ كَيفَ تَكِلُني وَقَدْ تَوَكَّلْتَ لِي ؟! وَكَيْفَ أُضامُ وَأَنْتَ ٱلنَّاصِرُ لِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ ٱلْحَفِيُّ بِي ؟!

الوكيلُ والناصرُ والحفيُّ أسماءٌ للهِ عزَّ وجلَّ ، وهي مقتضيةٌ لوجودِ آثارِها ؛ مِنْ وجودِ الكفايةِ والمنعةِ والظَّفرِ بغايةِ المقصودِ والبغيةِ ، فكيفَ يُتصوَّرُ انفكاكُ ذلكَ عنِ العبدِ عندَ وجودِ حاجتِهِ ؟! كما تقدَّمَ في اللطفِ والرأفةِ[1]

والضيمُ في اللغةِ معناهُ : انتقاصُ الحقِّ ، والحفيُّ هو اللطيفُ ، ولطفُهُ بعبدِهِ : علمُهُ بدقائقِ مصالحِهِ ، وخفيَّاتِ مآربِهِ ، وإيصالُ ذلكَ إليهِ برِفْقٍ[2] ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورىٰ ١٩]

هَـٰأَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ

التوسُّلُ : التقرُّبُ ، والوسيلةُ : ما يُتقرَّبُ بهِ ، وأعظمُ وسائلِ العبدِ إلىٰ مولاهُ : هو تحقُّقُهُ بما توجبُهُ عبوديَّتُهُ ؛ وهو فقرُهُ إليهِ في كلِّ حالٍ مِنْ أحوالِهِ ، فلا يرىٰ لنفسِهِ حسنةً يقتضي بها ثواباً ، ولا يدلي بحجَّةٍ يدفعُ بها عن نفسِهِ عقاباً

قالَ أبو يزيدَ قدَّسَ اللهُ سرَّهُ : (نُوديتُ في سرِّي ، فقيلَ لي : خزائنُنا مملوءةٌ مِنَ الخدمةِ ، فإنْ أردتَنا فعليكَ بالذِّلَّةِ والافتقارِ)[3]

وقيلَ لأبي حفصٍ بماذا يقدَمُ الفقيرُ علىٰ ربِّهِ ؟ فقالَ : وما للفقيرِ أنْ

(١) انظر (ص ٩٨٧)

(٢) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ١٩٧) .

(٣) حكاه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٠) .

يقدَمَ بهِ على ربِّهِ سوىٰ فقرِهِ ؟![1]

وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ ؟!

بينَ المتوسَّلِ بهِ والمتوسَّلِ إليهِ نسبةٌ تامَّةٌ ، ووُصْلةٌ حقيقيةٌ ؛ وهي التي اقتضَتْ لهُ وجودَ التوسُّلِ ، ولا نسبةَ ولا وُصْلةَ بينَ الفقرِ الذي هو نعتُ العبدِ وبينَ الربِّ الذي لهُ الغنى الأكبرُ[2]

وأيضاً توسُّلُ العبدِ بفقرِهِ يقتضي شهودَهُ لهُ ، واعتدادَهُ بهِ ، واعتمادَهُ عليهِ ، ورؤيةُ العبدِ لأحوالِهِ وسكونُهُ إليها علَّةٌ فيها ، **والأحوالُ المعلولةُ لا تليقُ بالحضرةِ الإلـٰهيَّةِ** ، ولا تصلُ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ بمعنىٰ أنَّهُ لا يرضاها ولا يقبلُها ؛ **فالفقرُ لا يصحُّ التوسُّلُ بهِ مِنْ هـٰذا الوجهِ أيضاً**

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ يشيرُ ما يُحكىٰ عن سيدي أبي الحسنِ الشاذليِّ ؛ حينَ دخلَ علىٰ شيخِهِ أبي محمدٍ عبدِ السلامِ ، فقالَ لهُ يا أبا الحسنِ ؛ بماذا تلقى اللهَ تعالىٰ ؟ قالَ لهُ : بفقري ، قالَ لهُ الشيخُ : واللهِ ؛ لئنْ لقيتَ اللهَ بفقرِكَ لتلقيَنَّهُ بالصنمِ الأعظمِ ![3]

ولا تصحُّ حقيقةُ الفقرِ إلا بالغَيْبةِ عنِ الفقرِ ، وإلا كنتَ غنياً بفقرِكَ ؛ **فإذاً لا وسيلةَ إلى اللهِ بسواهُ**

---

(١) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٢٣٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٥٧٤)

(٢) في (ب) وحدها : (المطلق) ، وقد كثرت مغايراتها آخر الكتاب كثيراً

(٣) كنَّىٰ بالصنم الأعظم عن الشرك الخفي العظيم ؛ فكأنه قد كان له شأن ، ثم خلعه وافتقر ، وإنما هو فقير إلى الله أصالة .
ومثله في المعنىٰ أيضاً : ما روى الإمام القشيري عن شيخه أبي علي الدقاق رحمه الله تعالىٰ قال : لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان ـ يعني : المغربي ـ : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها ، فقال : أمركم بالمجوسية المحضة ، هلا أمركم بالغيبةِ عنها برؤية منشئها ومجريها ؟!

أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لا يَخفَىٰ عَلَيْكَ ؟!

شكوى الحالِ لا تصحُّ إلا لمَنْ هي غائبةٌ عنهُ وهو غيرُ عالمٍ بها ، واللهُ تعالىٰ لا يخفىٰ عليهِ شيءٌ

وقد قالَ إبراهيمُ الخليلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : حسبي مِنْ سؤالي علمُهُ بحالي (١)

أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ لَكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ .

الترجمةُ بالمقالِ هي التعبيرُ باللسانِ عمَّا في الضميرِ ليقعَ التفهيمُ بذلكَ

---

(١) انظر (ص ٧٣٦) .

وروى الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٢٣٩) ، وابن الجوزي في « الثبات عند الممات » (ص ٤٠) عن حاتم الأصم قال : لقينا الترك ، فكان بيننا جولةٌ ، فرماني تركي بوَهَقٍ ـ حبلٍ له أُنشوطة كالصنارة ـ ، فغلبني عن فرسي ، ونزل عن دابته ، فقعد علىٰ صدري ، وأخذ بلحيتي ، وأخرج من خفِّهِ سكيناً ليذبحني ، فوحقِّ سيدي ؛ ما كان قلبي عنده ولا عند سكينه ، إنما كان قلبي عند سيدي أنظر ماذا ينزل به القضاء منه ، فقلت : سيدي ؛ قضيت أن يذبحني هـٰذا فعلى الرأس والعين ، إنما أنا لك وملكك .

فبينما أنا أخاطب سيدي ، وهو قاعدٌ علىٰ صدري ، آخذٌ بلحيتي ليذبحني . . إذ رماه بعض المسلمين بسهم ، فما أخطأ حلقه ، فسقط عني ، فقمت أنا إليه وأخذت السكين من يده فذبحته ، فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند السيد حتىٰ تروا من عجائب لطفه ما لم ترَوا من الآباء والأمهات .

وقال الشاعر : (من مجزوء الرجز)

إنْ كـانَ سُكَّـانُ الغضـا ... رضـوا بقتلـي فَـرِضـا
واللهِ مـا كنـتُ لمـا ... يهـوى الحبيـبُ مبغضـا
صـرتُ لهـم عبـداً ومـا ... للعبـدِ أنْ يعتـرضـا

ولبعضهم : (من الكامل)

إنْ شئـتَ تقتلُنـي فـأنـتَ مخيَّـرٌ ... مَـنْ ذا يعـارضُ سيـداً فـي عبـدِهِ

للمترجَمِ لهُ ، واللهُ تعالىٰ هو الذي أنطقَ اللسانَ وأطلقَهُ بذلكَ[١]

فالترجمةُ مِنَ اللهِ برزَتْ ، وإليهِ مآلُ أمرِها[٢] ، والعبدُ لا مدخلَ لهُ في ذلكَ ، فكيفَ تُنسبُ إليهِ الترجمةُ ؟!

ونسبةُ ذلكَ إلى اللهِ تعالىٰ دليلٌ علىٰ إحاطةِ علمِهِ بأحوالِ العبيدِ ، فكيفَ يصحُّ في حقِّهِ معنى الترجمةِ ؟!

أَمْ كَيْفَ تَخِيبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ ؟!

الآمالُ الوافدةُ إلى اللهِ تعالىٰ لا يخيِّبُها مِنْ قِبَلِ أنَّها فارَّةٌ إليهِ ، ومتعلِّقةٌ بهِ ، ومنقطعةٌ عمَّا سواهُ ، واللهُ تعالىٰ كريمٌ جوادٌ مُفْضِلٌ منعمٌ[٣] ، فليثقِ العبدُ بذلكَ ، وليكنْ علىٰ يقينٍ منهُ وإنْ لم يسألْ ويطلبْ

أَمْ كَيْفَ لا تَحْسُنُ أَحْوَالِي وَبِكَ قَامَتْ إِلَيْكَ ؟!

مَنْ تحقَّقَ في المعرفةِ رأىٰ أحوالَهُ كلَّها حسنةً ؛ لوجودِ قيامِها باللهِ تعالىٰ ، ورجوعِ أمرِها إليهِ .

وهـٰذهِ كلُّها أنواعٌ مِنَ التعجُّبِ عجَّبَ بها المؤلفُ رحمَهُ اللهُ نفسَهُ مِنْ نفسِهِ ، فيما

---

(١) قال سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

(٢) قال جلَّ وعز : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

(٣) انظر معنىٰ (مفضل) فيما تقدم (ص ٤٠١) ، وانظر شرح قول المصنف : (فالكريم لا تتخطاه الآمال) فيما تقدم (ص ٢٨٩) .

هو بصددِهِ مِنْ سؤالِهِ وطلبِهِ ، بسببِ ترقِّيهِ في المعرفةِ التي أوجبَتْ لهُ رؤيةَ نقصِهِ وقصورِهِ في أحوالِهِ الأُوَلِ .

إِلٰهي ؛ مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي ! وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي !

شهودُ العبدِ لهٰذا المعنىٰ مزيدٌ عظيمٌ يوجبُ لهُ الحياءَ والانكسارَ[١] ، فيُستحسنُ منهُ حينَئذٍ الاعترافُ بالنِّعَمِ فقطْ .

إِلٰهي ؛ مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي ! وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ !

شهودُ المؤلفِ شدَّةَ قُرْبِ اللهِ تعالىٰ منهُ لما رأىٰ مِنْ بعدِ الأشياءِ عنهُ ، ودَفْعِها لهُ إليهِ ، كما سيأتي في قولِهِ : (قد دفعَتْني العوالمُ إليكَ)[٢]

وشهودُهُ لبعدِهِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ حيثُ أُقيمَ في الطلبِ لهُ ، والطلبُ للشيءِ دليلٌ علىٰ فَقْدِ الطالبِ لهُ وبعدِهِ عنهُ

فالمشاهدةُ الأولىٰ أوجبَتْ لهُ ملازمةَ بابِ مولاهُ ، وانقطاعَ طمعِهِ عن كلِّ ما سواهُ .

والمشاهدةُ الثانيةُ أوجبَتْ لهُ التلطُّفَ في سؤالِ التقريبِ ، والاستغناءَ بهِ عن طلبِ القُرْبِ

---

(١) قوله : (مزيد) كذا في جميع النسخ المعتمدة ونسخ الاستئناس ، وهي قرابة خمس عشرة نسخة ، والمزيد : الزيادة ، وكذا الزَّيْدُ ، وفي إحدىٰ نسخ الاستئناس يمكن أن تقرأ : (فريد) بالفاء ، ويبعد قراءتها في الجميع : (من يدٍ) ، وفي نسخة أخرىٰ من نسخ الاستئناس : (مزيدٌ عجيبٌ عظيمٌ) .

(٢) انظر (ص ١٠٢١) .

ومِنْ دعاءِ سيدي أبي العباسِ المرسيِّ (يا قريبُ ؛ أنتَ القريبُ وأنا البعيدُ ، قربُكَ آيسَني مِنْ غيرِك ، وبعدي منكَ ردَّني للطلبِ لكَ ، فكُنْ لي بفضلِكَ حتىٰ تمحوَ طلبي بطلبِكَ ، يا قويُّ يا عزيزُ)[١]

وَمَا أَرْأَفَكَ بِي ! فَمَا ٱلَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ ؟!

الرأفةُ أشدُّ الرحمةِ[٢] ، ولما شاهدَ رأفةَ ربِّهِ بهِ غابَ بهـٰذا الشهودِ عن رؤيةِ نفسِهِ وصفاتِها ، فلذلكَ لم يظهرْ لهُ سببٌ لوجودِ حجابِهِ عنهُ

إِلـٰهي ؛ قَدْ عَلِمْتُ بِٱخْتِلافِ ٱلآثَارِ[٣] ، وَتَنَقُّلاتِ ٱلأَطْوَارِ . .
أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ لا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ

كأنَّ المؤلفَ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ يقولُ اختلافُ الآثارِ عليَّ ، وتنقُّلاتُ الأطوارِ بي ؛ مِنَ الصحةِ والمرضِ ، والغنىٰ والفقرِ ، والعزِّ والذلِّ ، والقبضِ والبسطِ[٤] ،

---

(١) انظر « لطائف المنن » (ص ١٩٥) .

(٢) قال الحافظ الخطابي في « شأن الدعاء » (ص ٩١) مفرِّقاً بين الرحمة والرأفة : (قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ، ولا تكاد الرأفة تكون في الكراهة ؛ فهـٰذا موضع الفرق بينهما) ، فمن داوىٰ سقيمه بالحنظل فهو رحيم ، ومن داواه بالعسل فهو رؤوف ، وأقدار الله المقضية عند العارف عسل كلها ، ولهـٰذا أنشدوا : (من الكامل)

يا عاشقي إنِّي سعدتُ شرابا لو كانَ حتىٰ علقماً أو صابا

فمن ابتلاه مولاه وألهمه الصبر . . فقد رحمه ، ومن عافاه من البلاء وألهمه رشده . . فقد رأف به .

(٣) في (ب) زيادة : (وتقلبات الأدوار) .

(٤) في (ب) زيادة : (والطاعة والعصيان) .

والفقدِ والوجدِ ، وغيرِ ذلكَ مِنْ مختلفاتِ أحوالي التي هي مِنْ شؤونِكَ التي تُنْزِلُها بي ؛ **علمتُ منها إرادتَكَ بي أنْ تتعرَّفَ إليَّ في كلِّ شيءٍ تعرُّفاً خاصّاً في حالةٍ خاصَّةٍ** ؛ حتىٰ أشاهدَ وحدانيتَكَ وعظمتَكَ وجلالَكَ وكمالَكَ ؛ بحيثُ لا يُتصوَّرُ منّي جهلٌ بما أنا قابلٌ لمعرفتِهِ مِنْ جميعِ ذلكَ .

ولو كانَ الأمرُ علىٰ خلافِ هـٰذا ، وألزمتَني حالةً واحدةً أرتضيها لنفسي وأختارُها . . لكانَتْ معرفتي ناقصةً ، ومشاهدتي قاصرةً .

فأنا الآنَ أتقلَّبُ في جنَّةٍ معجَّلةٍ ، أتبوَّأُ منها حيثُ أشاءُ ، فقدِ استغرقَني ما أنا فيهِ مِنْ عظيمِ النوالِ ، وشغلَني ذلكَ عنِ الدعاءِ والسؤالِ ، وطلبِ الكونِ علىٰ ما أرتضيهِ مِنَ الأحوالِ ، فلكَ الحمدُ علىٰ نعمِكَ الباطنةِ والظاهرةِ ، والخفيَّةِ والجليَّةِ .

قالَ بعضُهم[١] في الدنيا جنَّةٌ مَنْ دخلَها لم يشتقْ إلىٰ جنَّةِ الآخرةِ ولا إلىٰ شيءٍ ، ولم يستوحشْ من شيءٍ ، قيلَ : وما هي ؟ قالَ : معرفةُ اللهِ تعالىٰ[٢]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : خرجَ الناسُ مِنَ الدنيا ولم يذوقوا أطيبَ الأشياءِ ، قيلَ وما هو ؟ قالَ : **المعرفةُ** ، ثم قالَ : [من الخفيف]

إِنَّ عِـرْفَـانَ ذِي ٱلْجَـلَالِ لَعِـزٌّ ... وَضِيَـاءٌ وَبَهْجَـةٌ وَسُـرُورُ
وَعَلَـى ٱلْعَـارِفِيـنَ أَيْضـاً بَهَـاءٌ ... وَعَلَيْهِـمْ مِـنَ ٱلْمَحَبَّـةِ نُـورُ
فَهَنِيئـاً لِمَـنْ عَـرَفْـكَ إِلَـٰهِـي ... هُـوَ وَٱللهِ دَهْـرَهُ مَسْـرُورُ[٣]

وقد رُوِيَ أنَّهُ رُئِيَ صورةُ حكيمينِ مِنَ الحكماءِ المتعبِّدينَ في مسجدٍ ، وفي يدِ أحدِهما رقعةٌ فيها مكتوبٌ إذا أحسنتَ كلَّ شيءٍ فلا تظنَّنَّ أنَّكَ أحسنتَ شيئاً حتىٰ

---

(١) هو العارف بالله يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالىٰ
(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٤٢٣)
(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (١/ ٤٢٢)

تعرفَ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وفي يدِ الآخرِ : كنتُ قبلَ أنْ أعرفَ اللهَ أشربُ وأظمأُ ، حتىٰ إذا عرفتُهُ رَوِيتُ بلا شربٍ[١]

قالَ في « التنويرِ » بعدَ كلامٍ ذكرَهُ : (وإنَّما قلنا إنَّ الحالةَ زائلةٌ عنكَ لا محالةَ ، فإنَّ مرادَهُ أنْ ينقِّلَكَ في الأطوارِ ، ويخالفَ عليكَ الآثارَ ؛ ليتعرَّفَ إليكَ في كلِّ حالةٍ خاصَّةٍ بتعرُّفٍ خاصٍّ ، فإنْ أردتَ أنْ يديمَكَ علىٰ حالةٍ واحدةٍ . . فقد أردتَ أنْ يسلكَ بكَ غيرَ الكمالِ .

فكأنَّهُ يقولُ لكَ لا تطلبْ منِّي أنْ أقيمَكَ في حالةٍ واحدةٍ ؛ فإنِّي لا أفعلُ ذلكَ معَكَ ؛ أتريدُ أنْ تبقىٰ ربوبيَّتي معطلةَ الآثارِ ؟! ولـٰكنْ سلْني أنْ أشعرَكَ لطفي حيثُما أردتُكَ وحيثُما أقمتُكَ ؛ حتىٰ تكونَ بي ولي .

قالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] أي : يمنعُ ويعطي ، ويضعُ ويُعلي ، ويقبضُ ويبسطُ ، ويعزُّ ويذلُّ[٢] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ مختلفاتِ الآثارِ ، فكأنَّهُ سبحانَهُ يقولُ لكَ : يا عبدي ؛ لا تأسَ علىٰ شيءٍ ما دمتُ لكَ ، ولا تفرحْ بشيءٍ وأنا لستُ لكَ ، فأنا العوضُ لكَ عمَّا سوايَ ، وما سوايَ لا يغنيكَ عنِّي ، ولا تكنْ ممَّنْ يعبدُني بالعِلَلِ فتكونَ مِنْ عبيدِ الحروفِ[٣] ، بلِ اعبدْني لي ؛ فأنا بكمالِ الغنىٰ موصوفٌ ، وبدوامِ الإفضالِ معروفٌ .

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [الحج : ١١] ؛ لأنَّ الذي طلبَهُ عزلناهُ عنهُ فما دامَ لهُ ، وهو فما طلبَنا حتىٰ نكونَ لهُ

---

(١) أورده الراغب في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ١٧٤) ، وزاد : (أي : أعرفه حق المعرفة ، ولم يقصد بذلك أن يقول ذلك قولاً باللسان اللحمي ، فذلك قليل الغَناء ما لم يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية ، وعلىٰ ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ مخلصاً . . دخلَ الجنَّةَ ») .

(٢) في (ب) زيادة : (ويحيي ويميت)

(٣) إشارة لقوله تعالى الآتي : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ . . . ﴾

وَمَنْ عبدَهُ لما سواهُ فهو عبدُ ما سواهُ ، ومَنْ عبدَ اللهَ لأجلِ جودِهِ ونَعمائِهِ . . فهو عبدُ جودِهِ ونَعمائِهِ ؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً فهو عبدُ ما أحبَّهُ

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّرْهَمِ ، تَعِسَ عَبْدُ ٱلْخَمِيصَةِ ، تَعِسَ وٱنْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلا ٱنْتَقَشَ »[1]

فكنْ عبدَ اللهِ في كلِّ شيءٍ عطاءً ومنعاً ، وعزّاً وذلاً ، وغنىً وفقراً ، وقبضاً وبسطاً ، وفقداً ووجداً ، وشدةً ورخاءً ، وفناءً وبقاءً ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ مختلفاتِ الآثارِ وتنقُّلاتِ الأغيارِ) انتهىٰ كلامُهُ رحمَهُ اللهُ[2]، وقد أحسنَ فيهِ غايةَ الإحسانِ كلِّهِ ، فجزاهُ اللهُ خيراً .

إلٰهي ؛ كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ ، وَكُلَّمَا آيَسَتْنِي أَوْصَافِي أَطْمَعَتْنِي مِنَّتُكَ .

لؤمُ العبدِ ومخالفتُهُ وعصيانُهُ تخرسُ لسانَهُ عنِ السؤالِ والطلبِ ، وكرمُ المولىٰ وفضلُهُ وإحسانُهُ ينطقُهُ بذلكَ ، وأوصافُ العبدِ الذميمةُ التي اقتضتْها طبيعتُهُ وجبلَّتُهُ . . تؤيسُهُ مِنْ حصولِ الاستقامةِ علىٰ طريقِ الحقِّ ، ومِنَنُ اللهِ تعالىٰ التي شملَتِ البَرَّ والفاجرَ . . تطمعُهُ في ذلكَ .

إلٰهي ؛ مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِيَ فَكَيْفَ لا تَكُونُ مَسَاوِيهِ مَسَاوِيَ ؟! وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِيَ فَكَيْفَ لا تَكُونُ دَعَاوِيهِ دَعَاوِيَ ؟!

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) التنوير في إسقاط التدبير (ص ٣٠٨) .

هٰذا مثلُ ما تقدَّمَ مِنْ أنَّ الكمالَ المنسوبَ إلى العبدِ نقصانٌ على التحقيقِ[1] ، فما ظنُّكَ بنقصانِهِ ؟!

إِلٰهي ؛ حُكْمُكَ ٱلنَّافِذُ وَمَشِيئَتُكَ ٱلْقَاهِرَةُ . . لَمْ يَتْرُكَا لِذِي مَقَالٍ مَقَالاً ، وَلا لِذِي حَالٍ حَالاً

شهودُ هٰذا المعنىٰ يوجبُ للعبدِ مقامَ الخوفِ والتحقُّقَ فيهِ .

فإنْ كانَ ذا قولٍ سديدٍ وحالٍ حميدٍ . . لم يقطعْ ببقاءِ ذلكَ ، ولم يغترَّ بما هنالكَ ؛ لنفوذِ حكمِ الحقِّ تعالىٰ وقهرِ مشيئتِهِ[2]

إِلٰهي ؛ كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا وَحَالَةٍ شَيَّدْتُهَا . . هَدَمَ ٱعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ ، بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ

---

(١) انظر (ص ٩٨٥) ، ومن هنا اشتهر عن السادة الصوفية قولهم (إن للنفس من النقائص ما لله تعالىٰ من الكمالات)

(٢) يعني : أن الأصل في العبد ألا يدعيَ لنفسه حالاً ، فضلاً عن أن يكون له في وصفها والحديث عنها مقال ، فإن رأيت عارفاً له لسان محمود وحال رضية . . فهو لا ينفكُّ عن خوف السلب في أقلَّ من لمح البصر ، قال مقلِّبُ القلوب سبحانه : ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، والمراد من هٰذه المناجاة : هدمُ الدعاوىٰ .

وروى البخاري (٣٠٦٠) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً : « اكتبوا لي مَنْ تلفَّظَ بالإسلامِ مِنَ الناسِ » ، قال فكتبنا له ألفاً وخمسَ مئةِ رجلٍ ، فقلنا : نخاف ونحنُ ألفٌ وخمسُ مئةٍ ؟! فلقد رأيتنا ابتُلينا ، حتىٰ إن الرجل ليصلي وحده وهو خائفٌ .

قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٥/ ١٧٥) : (أي : مع كثرة المسلمين ، ولعله أشار إلىٰ ما وقع في خلافة عثمان رضي الله عنه من ولاية بعض أمراء الكوفة ؛ كالوليد بن عقبة ، حيث كان يؤخر الصلاة أو لا يقيمها علىٰ وجهها ، فكان بعض الورعين يصلي وحده سرّاً ، ثم يصلي خشية الفتنة) .

الطاعةُ : صفةُ ظاهرِ العبدِ ، **والحالةُ** : صفةُ باطنِهِ ، **وبناؤُهُ للطاعةِ** : هو إقامتُها على الوجهِ المأمورِ بهِ ؛ مِنَ الوفاءِ بجميعِ أركانِها وشرائطِها وما يتعلَّقُ بها مِنْ حقوقٍ وآدابٍ ، **وتشييدُهُ للحالةِ** : هو تنزيهُها وتطهيرُها وصيانتُها عمَّا يكدِّرُ صفاءَها ويكشفُ ضياءَها

وكأنَّهُ لمَّا فعلَ هـٰذينِ الأمرينِ رأىٰ أنَّهُ تحصَّنَ بحصنٍ حصينٍ ، وأوىٰ إلىٰ ركنٍ متينٍ ، لـٰكن لمَّا شاهدَ عدْلَ اللهِ تعالىٰ هدمَ عليهِ ذلكَ ؛ لأنَّ مقتضاهُ أنْ يفعلَ ما يشاءُ ، ويحكمَ ما يريدُ ، ولا يباليَ بأعمالِ العاملينَ .

فلمَّا شاهدَ فضلَهُ وكرمَهُ أقالَهُ مِنْ ذلكَ ؛ بأنْ جعلَ لهُ مِنَ التعلُّقِ بهِ والاعتمادِ عليهِ بدلاً منهُ وعوضاً عنهُ ، ونعمَ البدلُ والعوضُ ، فسبحانَ المتفضِّلِ المنَّانِ !

إلٰهي ؛ إِنَّكَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدُمِ ٱلطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلاً جَزْماً . . فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةً وَعَزْماً

جعلَ عزمَهُ على الطاعةِ ومحبَّتَهُ لها وإنْ لم يدمْ عليها فعلاً . . إحدىٰ وسائلِهِ؛ **وذلكَ صحيحٌ**[1] ، **وكم مِنْ شخصٍ قد طُرِدَ وأُبعدَ فلم يكنْ عندَهُ عزمٌ ، ولا فعلٌ جزمٌ !**

إلٰهي ؛ كَيْفَ أَعْزِمُ وَأَنْتَ ٱلْقَاهِرُ ؟! وَكَيْفَ لا أَعْزِمُ وَأَنْتَ ٱلآمِرُ ؟!

استبعدَ مِنْ نفسِهِ وقوعَ العزمِ منهُ ، وجعلَ مستندَ ذلكَ شهودَ القهرِ ؛ لأنَّ مَنْ

---

(١) يشهد له ما رواه الدارمي في « سننه » (٢٨١٢) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٤٨) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما مِنْ أحدٍ مِنَ المسلمينَ يُصابُ ببلاءٍ في جسدِهِ إلا أمرَ اللهُ الحفظةَ الذينَ يحفظونَهُ فقالَ : اكتبوا لعبدي في كلِّ يومٍ وليلةٍ مثلَ ما كانَ يعملُ مِنَ الخيرِ ، ما كانَ محبوساً في وِثاقي »

شهدَ قهرَهُ بطلَ عزمُهُ ؛ لأنَّهُ الغالبُ .

واستبعدَ أيضاً عدمَ العزمِ ، وجعلَ مستندَ ذلكَ شهودَ الأمرِ ؛ لأنَّ مَنْ شهدَ أمرَهُ بادرَ إلى امتثالِهِ ، وتحرَّزَ مِنْ إغفالِهِ وإهمالِهِ[1]

إلهي ؛ تَرَدُّدِي فِي ٱلْآثَارِ يُوجِبُ بُعْدَ ٱلْمَزَارِ ، فَٱجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُنِي إِلَيْكَ .

شكا إلىٰ مولاهُ عزَّ وجلَّ طولَ تردُّدِهِ في الآثارِ ؛ وهي الأكوانُ ، وأخبرَ أنَّهُ يوجِبُ لهُ بُعدَ المزارِ ؛ وهو البعدُ عن شهودِ التوحيدِ وكمالِ المعرفةِ ، وقد تقدَّمَ هٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (لا ترحلْ مِنْ كونٍ إلىٰ كونٍ)[2]

ثم سألَهُ وطلبَ منهُ أنْ يختصرَ لهُ طريقَ سلوكِهِ ويقرِّبَهُ عليهِ ، ويجمعَهُ مِنْ مفترقاتِ الآثارِ بخدمةٍ تظهرُ فيها عبوديَّتُهُ ، ويصلُ بها إلىٰ مولاهُ مِنْ غيرِ تردُّدٍ ولا طولٍ .

إلهي ؛ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ؟! أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ ٱلظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ ٱلْمُظْهِرَ لَكَ ؟! مَتَىٰ غِبْتَ حَتَّىٰ تَحْتَاجَ إِلَىٰ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟! وَمَتَىٰ بَعُدْتَ حَتَّىٰ تَكُونَ ٱلْآثَارُ هِيَ ٱلَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ .

---

(١) وهٰذه المناجاة ترجمة لما رواه البخاري (٤٩٤٥) ، ومسلم (٢٦٤٧) عن سيدنا علي رضي الله عنه قال : كنَّا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بقيع الغرقد في جنازة ، فقال : « ما منكم مِنْ أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعدُهُ مِنَ الجنةِ ومقعدُهُ مِنَ النارِ » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ أفلا نتَّكلُ ؟ فقالَ : « اعملوا ؛ فكلٌّ ميسَّرٌ » ، ثم قرأ : « ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٦ـ١٠] » .

(٢) انظر (ص ٣٠١) .

هـٰذا تقبيحٌ لأحوالِ المستدلِّينَ علىٰ ربِّهم ؛ وهم أصحابُ النظرِ والاستدلالِ . . بالنسبةِ إلىٰ أهلِ المقامِ الآخرِ ؛ وهم أربابُ الشهودِ والعيانِ .

قالَ أبو بكرٍ محمدُ بنُ عليٍّ الكَتَّانيُّ : (وجودُ العطاءِ مِنَ الحقِّ شهودُ الخلْقِ بالحقِّ ؛ لأنَّ الحقَّ دليلٌ علىٰ كلِّ شيءٍ ، ولا يكونُ شيءٌ دونَهُ دليلاً عليهِ)[1]

قالَ في « لطائفِ المننِ » (وأربابُ الدليلِ والبرهانِ عمومٌ عندَ أهلِ الشهودِ والعيانِ[2] ، [لأنَّ أهلَ الشهودِ والعيانِ] قدَّسوا الحقَّ في ظهورِهِ أنْ يحتاجَ إلىٰ دليلٍ يدلُّ عليهِ[3] ، وكيفَ يحتاجُ إلى الدليلِ مَنْ نصبَ الدليلَ ؟! وكيفَ يكونُ مُعرَّفاً بهِ وهو المعرِّفُ لهُ ؟!

قالَ الشيخُ أبو الحسنِ : كيفَ يُعرفُ بالمعارفِ مَنْ بهِ عُرفَتِ المعارفُ ؟! أم كيفَ يُعرفُ بشيءٍ مَنْ سبقَ وجودُهُ وجودَ كلِّ شيءٍ ؟!

وقالَ مريدٌ لشيخِهِ : يا أستاذُ ؛ أينَ اللهُ تعالىٰ ؟ فقالَ لهُ : أسحقَكَ اللهُ ، أتطلبُ معَ العينِ أينَ ؟!)[4]

وقد تقدمَ هـٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (شتَّانَ بينَ مَنْ يستدلُّ بهِ ، أو يستدلُّ عليهِ)[5]

إلٰهي ؛ عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيباً .

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٥٨) ، وفيهما : (الحق بالحق) بدل (الخلق بالحق) .

(٢) والعبارة في (ج) : (وأرباب الدليل عوامٌّ عند أهل الشهود والعيان) .

(٣) ما بين المعقوفين زيادة من مطبوع « لطائف المنن » يقتضيها السياق .

(٤) لطائف المنن (ص٥١) ، والخبر الأخير أورده الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٩٥) ، وأنه قيل لصوفي : أين الله ؟ فأجاب بذلك ، ثم روىٰ عن أبي سعيد الخراز قوله : (حقيقة القرب : فقدُ حسِّ الأشياء من القلب ، وهدوُّ الضمير إلى الله تعالىٰ) ، وانظر « لطائف المنن » (ص : ٥١) .

(٥) انظر (ص ٢٥٩) .

الرقيبُ الحفيظُ[١] ، فمَنْ رأى اللهَ رقيباً عليهِ ، يعلمُ جميعَ أحوالِهِ ، ولا يخفىٰ عليهِ منها شيءٌ . . استحيا منهُ ، وهابَهُ أنْ يراهُ علىٰ ما يكرهُهُ منهُ .

وقد قيلَ : (إذا عصيتَ مولاكَ فاعصِهِ بموضعٍ لا يراكَ)[٢]

ومَنْ لم يكنْ علىٰ هـٰذا الوصفِ ، وغفلَ عن نظرِ اللهِ تعالىٰ إليهِ . . **عميَتْ عينُ بصيرتِهِ** ، فبارزَ اللهَ تعالىٰ بأنواعِ القبائحِ والفضائحِ مِنْ غيرِ اكتراثٍ ولا مبالاةٍ .

وقد سُئِلَ بعضُهم : بِمَ يستعينُ الرجلُ علىٰ حفظِ بصرِهِ مِنَ المحظوراتِ ؟ قالَ : **بعلمِهِ بأنَّ رؤيةَ الحقِّ سبحانَهُ لهُ تسبقُ نظرَهُ إلىٰ تلكَ المحظوراتِ**

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : ٦١] .

قالَ الإمامُ أبو القاسمِ القشيريُّ[٣] : (خوَّفَهم بما عرَّفَهم مِنِ اطِّلاعِهِ عليهم في جميعِ أحوالِهم ، ورؤيتِهِ لما يسلفونَهُ مِنْ فنونِ أعمالِهم[٤] ، والعلمُ بأنَّهُ يراهم يوجبُ استحياءَهم منهُ ، وهـٰذا حالُ المراقبةِ ، فالعبدُ إذا علمَ بأنَّ مولاهُ يراهُ . . استحيا منهُ وتركَ متابعةَ هواهُ ، ولا يحومُ حولَ ما نهاهُ)[٥]

وفي حديثِ عبادةَ بنِ الصامتِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَفْضَلُ إِيمَانِ ٱلْمَرْءِ : أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ ٱللهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ »[٦]

---

(١) في (ب) وحدها زيادة : (القريب) .

(٢) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ١٣١) ، وفيه : (رُوي عن الصديق رضوان الله عليه أنه قال : إني لأغتسل في الليلة الظلماء ، فأحني صلبي حياءً من ربي) .

(٣) يعني : في تفسير هـٰذه الآية الكريمة العظيمة .

(٤) قوله : (يسلفونه) كذا في (ب ، ج) ، وفي (أ) : (يستكنُّونه) أي : يضمرونه ، وفي (هـ) : (يلقونه) ، وغير واضحة في (د)

(٥) قاله في « لطائف الإشارات » (٢/ ١٠٤) .

(٦) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٢٧)

وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً

حبُّ اللهِ تعالىٰ لعبدِهِ : هو رحمتُهُ لهُ ، وثناؤُهُ عليهِ ، وإحسانُهُ إليهِ

وحبُّ العبدِ لربِّهِ عزَّ وجلَّ : طاعتُهُ ، وموافقةُ أمرِهِ ، وتعظيمُهُ وهيبتُهُ

والحبُّ المضافُ إلى الكافِ في قولِهِ : (مِنْ حبِّكَ) يحتملُ أنْ يُضافَ إلى الفاعلِ وإلى المفعولِ ، **والظاهرُ كونُهُ مضافاً إلى الفاعلِ** ؛ لأنَّهُ أبلغُ وأمدحُ ، ولأنَّ محبةَ اللهِ لعبدِهِ أصلُ محبَّةِ العبدِ لهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

فمَنْ أعطاهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ الحبِّ المذكورِ نصيباً . . فقد حازَ ربحَ الدارينِ ، وفازَ بقُرَّةِ العينِ ، ومَنْ حرمَهُ ذلكَ فقد خسرَتْ صفقتُهُ ، وبانَ غبنُهُ وخيبتُهُ .

وفي بعضِ الكتبِ المنزلةِ علىٰ بعضِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ : يا عبدي ؛ أنا لكَ محبٌّ ، فبحقِّي عليكَ كُنْ لي محبّاً(١)

ويُحكىٰ عن بعضِهم أنَّهُ قالَ : اشتريتُ جاريةً ، فسمعتُها في شطرِ الليلِ وهي تقولُ : إلٰهي ؛ بحبِّكَ إيَّايَ إلا ما غفرتَ لي ، فقلتُ لها : لا تقولي هٰكذا ، ولٰكنْ قولي : بحبِّي إيَّاكَ ، فقالَتْ : يا سيدي ؛ بمحبَّتِهِ إيَّايَ مَنَّ عليَّ بالإسلامِ ، وأيقظَني لعبادتِهِ وكثيرٌ مِنْ عبادِهِ نيامٌ(٢)

قالَ زيدُ بنُ أسلمَ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليحبُّ العبدَ حتىٰ يبلغَ مِنْ حبِّهِ لهُ أنْ يقولَ لهُ : اصنعْ ما شئتَ ؛ فقد غفرتُ لكَ)(٣)

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦٥٨) .

(٢) انظر « صفة الصفوة » (٤/ ٤٦) ، وهي جارية عبيد الله بن الحسن العنبري قاضي البصرة

(٣) أورده الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/ ١٠٤١) .

إلهي ؛ أَمَرْتَ بِٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلآثَارِ ، فَأَرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكُسْوَةِ ٱلأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ ٱلِاسْتِبْصَارِ ؛ حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا ؛ مَصُونَ ٱلسِّرِّ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهَا ، وَمَرْفُوعَ ٱلْهِمَّةِ عَنِ ٱلِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا ؛ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الآثارُ التي أُمِرَ العبدُ بالرجوعِ إليها بعدَ وصولِهِ إلىٰ صريحِ المعرفةِ وخالصِ التوحيدِ . . هي المكوَّناتُ التي يلزمُهُ إذا تلبَّسَ بها حقٌّ ، ويكونُ لهُ فيها منفعةٌ وحظٌّ .

فسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يَرجعَهُ إليها علىٰ حالةٍ شريفةٍ مضادَّةٍ للحالةِ التي كانَ عليها قبلَ السلوكِ ؛ وهو كونُهُ مكسوّاً بكُسوةِ الأنوارِ ؛ وهي أنوارُ اليقينِ ، ومؤيَّداً بهدايةِ الاستبصارِ ؛ وهو العلمُ الراسخُ المتينُ

فإذا رجعَ العبدُ إلى الآثارِ ، علىٰ هٰذا الأسلوبِ والمعيارِ . . لم تؤثِّرْ فيهِ ، ولم تأخذْ منهُ ؛ لكمالِ حرِّيَّتِهِ عنها ، وكانَ رجوعُهُ إلىٰ مولاهُ في مآلِ أمرِهِ مثلَ دخولِهِ فيها عليهِ في ابتداءِ أمرِ سلوكِهِ ، مصونَ السرِّ عنِ النظرِ إليها بعينِ الاستحسانِ ، مرفوعَ الهمَّةِ عنِ الاعتمادِ عليها في نوالٍ أو إحسانٍ

وقد تقدَّمَ هٰذا المعنىٰ في قولِهِ (فإنْ نزلوا إلىٰ سماءِ الحقوقِ وأرضِ الحظوظِ . . .) إلى آخرِهِ[1]

وقال رضي الله عنه :

إلهي ؛ هَٰذَا ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَهَٰذَا حَالِي لا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ .

---

(١) انظر (ص ٩٦٠)

هـٰذا تطارحٌ منهُ علىٰ مولاهُ ، ومبالغةٌ في بثِّ شكواهُ ، وتلطُّفٌ في سؤالِ رحماهُ ، وبمثلِ هـٰذينِ تُرجىٰ إجابةُ الدعاءِ ، واستحقاقُ جزيلِ العطاءِ

وقد قالوا : (أبوابُ الملوكِ لا تُقرعُ بالأيدي ، بل بنَفَسِ المحتاجِ) .

وقالَ بعضُهم : قلتُ للنَّهرَجُورِيِّ : أجدُ في قلبي قسوةً ، وقد شاورتُ فلاناً ، فأشارَ عليَّ بالصومِ ، فلم يَزُلْ ، وشاورتُ آخرَ ، فأشارَ عليَّ بالسهرِ ، فلم يَزُلْ ، فقالَ النهرجوريُّ : خلَّطا بكَ[1] ، احضرِ الملتزمَ إذا نامَ الناسُ وتضرَّعْ وقُلْ : تحيَّرتُ في أمري ، فخُذْ بيدي ، ففعلَ ، فزالَتِ القسوةُ .

وقالَ الشاعرُ[2] [من الوافر]

وَمَا رُمْتُ ٱلدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ ... حَلَلْتُ مَحَلَّةَ ٱلْعَبْدِ ٱلذَّلِيلِ
وَأَغْضَيْتُ ٱلْجُفُونَ عَلَىٰ قَذَاهَا ... وَصُنْتُ ٱلسِّرَّ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ
وَذُلُّ ٱلْعَبْدِ لِلْمَوْلَىٰ غَنَاءٌ ... وَغَايَتُهُ إِلَى ٱلْعِزِّ ٱلطَّوِيلِ

فذلُّ العبدِ لمولاهُ غايةُ العزِّ والفخرِ

قالَ ذو النونِ المصريُّ : (ما أعزَّ اللهُ عبداً بعزٍّ هو أعزُّ لهُ مِنْ أنْ يدلَّهُ علىٰ ذُلِّ نفسِهِ ، وما أذلَّ اللهُ عبداً بذُلٍّ هو أذلُّ لهُ مِنْ أنْ يحجبَهُ عن ذُلِّ نفسِهِ)[3]

مِنْكَ أَطْلُبُ ٱلْوُصُولَ إِلَيْكَ .

هـٰذهِ صفةُ العارفينَ المحقِّقينَ ؛ لا يسبقُ نظرُهم إلا إلى اللهِ ، ولا يطلبونَ إلا منهُ ، ولا يكونُ مطلبُهم إلا الوصولَ إليهِ لا غيرُ

---

(١) في (أ ، ب) : (خذ طلبك) بدل (خلَّطا بك) ، ولكلٍّ توجيه .

(٢) أورد البيت الأول القشيريُّ في « لطائف الإشارات » (٢/٦٤٩) ، ورواها دون الثالث ابن أبي الدنيا في « حلم معاوية » (ص ١٧) دون نسبة .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٧٤) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣١٠) .

وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ .

لا بغيرِكَ ؛ لأنَّكَ الظاهرُ قبلَ وجودِ كلِّ شيءٍ ظاهرٍ ، بل بظهورِكَ خفيَتِ المظاهرُ .

قيلَ لبعضِ العارفينَ : بِمَ عرفتَ ربَّكَ ؟ فقالَ : عرفتُ ربِّي بربِّي ، ولولا ربِّي ما عرفتُ ربِّي[1]

وقالَ أبو القاسمِ النصراباذيُّ : (الأشياءُ أدلَّةٌ منهُ ، ولا دليلَ عليهِ سواهُ)[2]

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ (لا دليلَ على اللهِ سواهُ ، وإنَّما العلمُ يُطلبُ لآدابِ الخدمةِ)[3]

فَٱهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ .

وهو نورُ الإيمانِ واليقينِ

وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ ٱلْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ .

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٦٤٣) ، والمسؤول هو ذو النون المصري رحمه الله تعالىٰ ، وعبارته هـٰذه ترجمة لما روى البخاري (٤١٠٤) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يومَ الخندق حتىٰ أغمر بطنَهُ ـ أو اغبرَّ بطنُهُ ـ ، يقول : « واللهِ ؛ لولا اللهُ ما اهتدينا ، ولا تصدَّقْنا ولا صلَّينا ، فأنزلَنْ سكينةً علينا ، وثبتِ الأقدامَ إنْ لاقينا ، إنَّ الأُلىٰ قد بغَوْا علينا ، إذا أرادوا فتنةً أبينا » ، ورفع بها صوته : « أبينا أبينا » .

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٤٨٧)

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٦)

حتىٰ أكونَ ممتثلاً لأمرِكَ ، مستسلماً لقهرِكَ

إلهي ؛ عَلِّمْنِي مِنْ عِلْمِكَ ٱلْمَخْزُونِ .

إضافةُ العلمِ إلى اللهِ تعالىٰ ها هنا إضافةُ تشريفٍ ، والعلمُ المخزونُ : هو العلمُ اللدنيُّ الذي اختزنَهُ عندَهُ ، فلم يؤتِهِ إلا المخصوصينَ مِنْ أوليائِهِ[1] ، كما قالَ تعالىٰ في شأنِ الخَضِرِ : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : ٦٥] .

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ « إِنَّ مِنَ ٱلْعِلْمِ كَهَيْئَةِ ٱلْمَكْنُونِ ، لا يَعْلَمُهُ إِلا ٱلْعُلَمَاءُ بِٱللهِ ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لا يُنْكِرُهُ إِلا أَهْلُ ٱلْغِرَّةِ بِٱللهِ »[2]

قالَ بعضُهم هي أسرارُ اللهِ تعالىٰ يبديها إلىٰ أمناءِ أوليائِهِ وساداتِ النبلاءِ ، مِنْ غيرِ سماعٍ ولا دراسةٍ ، وهي مِنَ الأسرارِ التي لم يُطْلِعْ عليها إلا الخواصَّ[3]

وقالَ أبو بكرٍ الواسطيُّ في قولِهِ تعالىٰ ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ٧] : (همُ الذينَ رسخوا بأرواحِهم في غيبِ الغيبِ وفي سرِّ السرِّ ، فعرَّفَهم ما عرَّفَهم ،

---

(١) وهو الذي يعبِّرُ عنه السادةُ الصوفية بالمضنون به علىٰ غير أهله ، وبعلم المكاشفة ، ولهم في إظهاره مذهبان :
الأول : حرمة إظهاره ؛ إذ المفاتحة به لا تزيد السامع إلا إغلاقاً ؛ ولذا جعله تعالىٰ من لدنه دون واسطة ، ويُكتفىٰ منه بالتلويح والإشارة ، وهو مذهب حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .
الثاني : جواز الإظهار ؛ لأنه من جملة العلوم الربانية ؛ إذ هو من العلوم المشار إليها بقوله تعالىٰ : ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [المائدة : ٦٦] ، وأن فتنته للسامع كفتنة الآيات المتشابهات في كتاب الله ، وهو مذهب أبي عبد الرحمٰن السلمي والعارف الحاتمي وغيرهما

(٢) رواه السلمي في « الأربعين في التصوف » (ص ١٣) .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٧٧) عن ذي النون المصري أنه قال : (صدور الأحرار قبور الأسرار) .

وخاضوا بحرَ العلمِ بالفهمِ لطلبِ الزيادةِ ، فانكشفَ لهم مِنْ مذخورِ الخزائنِ والمخزونِ تحتَ كلِّ حرفٍ وآيةٍ مِنَ الفهمِ وعجائبِ النصِّ ، فاستخرجوا الدُّرَرَ والجواهرَ ، ونطقوا بالحكمةِ)[١]

وَصُنِّي بِسِرِّكَ ٱلْمَصُونِ[٢]

الصونُ المطلوبُ : هو صيانتُهُ عن رؤيةِ الأغيارِ ، بما يتجلَّىٰ لقلبِهِ مِنْ سرِّ الأسرارِ .

إلٰهي ؛ حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ ٱلْقُرْبِ .

حقائقُ أهلِ القربِ : هو الفناءُ في التوحيدِ ، والتحقُّقُ بالتجريدِ ، فتبطلُ في حقِّهم رؤيةُ الأسبابِ ، ويزولُ عن مطمحِ نظرِهم كلُّ سِتْرٍ وحجابٍ ، كما قالَ سيدي أبو الحسنِ في (حزبِهِ الكبيرِ) : (واقرُبْ منِّي بقدرتِكَ قُرباً تمحقُ بهِ عنِّي كلَّ حجابٍ محقتَهُ عن إبراهيمَ خليلِكَ ، فلم يحتجْ لجبريلَ رسولِكَ ، ولا لسؤالِهِ منكَ ، وحجبتَهُ بذلكَ عن نارِ عدوِّكَ ، وكيفَ لا يُحجبُ عن مضرَّةِ الأعداءِ مَنْ غيَّبْتَهُ عن منفعةِ الأحبَّاءِ ؟! كلَّا ، إنِّي أسألُكَ أنْ تغيبَني بقُربِكَ منِّي ، حتىٰ لا أرىٰ ولا أُحِسَّ بقُرْبِ شيءٍ ولا ببُعدِهِ عنِّي ، إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ)[٣]

وٱسْلُكْ بِي مَسَالِكَ أَهْلِ ٱلْجَذْبِ

---

(١) أورده السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/ ٣١٥) .

(٢) في (ج) : (وصني بسرِّ اسمِكَ المصون) .

(٣) انظر « المفاخر العليّة » (ص ١٩٩) .

أهلُ الجذبِ : همُ المحبوبونَ ، ومسالكُهم في غايةِ السهولةِ ، لا تعبَ عليهم فيها ولا مشقَّةَ ، بل يجدونَ اللذَّةَ والحلاوةَ في أعمالِهم ، وذلكَ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ أخرجَهم مِنْ أسرِ نفوسِهم ، وتولاهم بكلاءتِهِ ورعايتِهِ ، مِنْ غيرِ مجاهدةٍ منهم ولا مكابدةٍ .

إِلٰهي ؛ أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي ، وَٱخْتِيَارِكَ لِي عَنِ ٱخْتِيَارِي ، وَأَوْقِفْنِي عَلَىٰ مَرَاكِزِ ٱضْطِرَارِي .

المنفردُ بالتدبيرِ والاختيارِ ، والمشيئةِ والاقتدارِ . . هو اللهُ عزَّ وجلَّ ، فمَنْ كانَ لهُ دعوىٰ في شيءٍ مِنْ ذلكَ . . فقد نازعَ اللهَ تعالىٰ في ربوبيَّتِهِ ، وخلعَ عن عنقِهِ ربقةَ عبوديَّتِهِ ، فلذلكَ سألَهُ وطلبَ منهُ أنْ يغنيَهُ بتدبيرِهِ واختيارِهِ ، وأنْ يوقفَهُ علىٰ مراكزِ اضطرارِهِ ؛ ليكونَ متحقِّقاً بصفاتِهِ ، متعلِّقاً بصفاتِ مولاهُ

وقد تقدَّمَ هٰذا المعنىٰ غيرَ مرَّةٍ[1]

والمراكزُ : هي مواضعُ الاستقرارِ والثبوتِ ، وهي استعارةٌ حسنةٌ

إِلٰهي ؛ أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي .

ذلُّ النفسِ الذي طلبَ الإخراجَ منهُ : هو ذلُّها لغيرِ اللهِ تعالىٰ بالطمعِ والحرصِ

وقد تقدَّمَ هٰذا المعنىٰ عندَ قولِهِ : (ما بسقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلا علىٰ بذرِ طمعٍ)[2] .

---

(١) انظر مثلاً (ص ١٨٢)

(٢) انظر (ص ٣٥١) .

وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشِرْكِي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي[1]

الشكُّ والشركُ هما سببا وجودِ الطمعِ والحرصِ الموجِبَيْنِ لوقوعِ الذلِّ والهوانِ وهـٰذهِ الأوصافُ كلُّها مجانبةٌ لحقائقِ الإيمانِ والتوحيدِ عافانا اللهُ منها

والشكُّ ضيقُ الصدرِ عندَ إحساسِ النفسِ بأمرٍ مكروهٍ يصيبُها ، فإذا ضاقَ صدرُهُ بسببِ ذلكَ أظلمَ قلبُهُ ، وأصابَهُ مِنْ أجلِهِ الهمُّ والحزنُ

وطهارتُهُ منهُ : إنَّما تكونُ بوجودِ ضدِّهِ ؛ **وهو اليقينُ** ، فبِهِ يتَّسعُ الصدرُ وينشرحُ ، ويزولُ عنهُ الحرجُ والضيقُ ، وبقدرِ احتظاءِ القلبِ مِنْ نورِ اليقينِ يكونُ انشراحُ الصدرِ واتِّساعُهُ ، وعندَ ذلكَ يجدُ القلبُ الرَّوْحَ والفرحَ باللهِ تعالىٰ وبفضلِهِ .

وفي الحديثِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ ٱلرَّوْحَ وَٱلْفَرَحَ فِي ٱلرِّضَا وَٱلْيَقِينِ ، وَجَعَلَ ٱلْهَمَّ وَٱلْحَزَنَ فِي ٱلسَّخَطِ وَٱلشَّكِّ »[2]

والشركُ : تعلُّقُ القلبِ بالأسبابِ عندَ غفلتِهِ عنِ المسبِّبِ ونسيانِهِ لهُ تعلُّقَ الصيدِ بالشَّرَكِ[3]

ويكونُ مبدأُ ذلكَ هيجانَ الشهوةِ عندَ استيلاءِ ظلمةِ الشكِّ على القلبِ ، فيحلو لهُ حينَئذٍ الهوىٰ ، فيفزعُ إذْ ذاكَ إلى الأسبابِ التي يتوصَّلُ بها إلىٰ بغيتِهِ ؛ إذْ لا يرىٰ غيرَها ، فيرتبكُ مِنْ أجلِ ذلكَ في حبائلِ الشركِ .

---

(١) الرَّمْسُ : الدفنُ ، والقبرُ نفسه إذا كان مستوياً مع وجه الأرض

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/ ٢١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢١) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٣١) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٢٠٣) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) الشَّرَكُ : حبائل الصيد .

وطهارتُهُ منهُ : بضدِّهِ ؛ وهو نورُ التوحيدِ الذي يقذفُهُ الحقُّ تعالىٰ في قلبِهِ ، فتطمئنُّ بذلكَ نفسُهُ ، وتسكنُ عنِ الشَّرَهِ والطيشِ الذي أصابَها

وكلَّما قَوِيَ نورُ التوحيدِ في قلبِهِ . . كانَ خلاصُهُ مِنَ الشِّرْكِ أكثرَ ، فتمتحي منهُ الأسبابُ[1] ، ويثبتُ فيهِ خالصُ التوحيدِ .

فإذا تطهَّرَ العبدُ مِنَ الشكِّ والشركِ . . تولاهُ اللهُ تعالىٰ بالهدايةِ والتسديدِ ، والمعونةِ والتأييدِ

وفي أخبارِ داودَ عليهِ السلامُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ (يا داودُ ؛ هل تدري متىٰ أتولاهم ؟ إذا طهَّروا قلوبَهم مِنَ الشركِ ، ونزعوا مِنْ قلوبِهمُ الشكَّ)[2]

بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَٱنْصُرْنِي ، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلا تَكِلْنِي ، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلا تُخَيِّبْنِي ، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلا تَحْرِمْنِي ، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ فَلا تُبْعِدْنِي ، وَبِبَابِكَ أَقِفُ فَلا تَطْرُدْنِي

تعلَّقَ باللهِ تعالىٰ في كلِّ مطلبٍ مِنْ هـٰذهِ المطالبِ ، وأضربَ عنِ الوسائطِ والأسبابِ ، وذلكَ مِنْ تحقُّقِهِ بالتوحيدِ الذي سألَ مِنْ مولاهُ أنْ يحقِّقَهُ بهِ ؛ بتطهيرِهِ مِنْ أضدادِهِ

ومعاني هـٰذهِ الكلماتِ قريبٌ بعضُها مِنْ بعضٍ .

قالَ أبو الحسنِ عليُّ بنُ هندٍ الفارسيُّ : (اجتهدْ في ألا تفارقَ بابَ سيِّدِكَ بحالٍ ؛ فإنَّهُ ملجأُ الكلِّ ، فمَنْ فارقَ تلكَ السُّدَّةَ لا يرىٰ بعدَها لقدميهِ قراراً ولا مقاماً)[3]

---

(١) تمتحي : يذهب أثرها ، لغة قليلة في (امَّحىٰ يمَّحي)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٤٥)

(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٤٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٦٣)

إلهي ؛ تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي ؟!

رضا اللهِ تعالىٰ صفةٌ مِنْ صفاتِهِ ، وصفاتُهُ قديمةٌ ، ولذلكَ امتنعَ عليها سبقيَّةُ العللِ ، والقديمُ لا يكونُ مسبوقاً بشيءٍ

وإذا كانَتْ صفاتُهُ العليَّةُ منزَّهةً عن أنْ تكونَ لها علَّةٌ منهُ . . فكيفَ تكونُ لها علَّةٌ مِنْ غيرِهِ ؟! فرضا اللهِ تعالىٰ لا علَّةَ لهُ ولا سببَ ، بل رضاهُ وسخطُهُ هما سببُ أعمالِ العاملينَ ، حَسَنِها وسيِّئِها ، رضيَ عن قومٍ فاستعملَهم بأعمالِ أهلِ الرضا ، وسخطَ علىٰ قومٍ فاستعملَهم بأعمالِ أهلِ السخطِ

قالَ أبو بكرٍ الواسطيُّ : (الرضا والسخطُ نعتانِ مِنْ نعوتِ الحقِّ ، يجريانِ على الأبدِ بما جريا في الأزلِ[١] ، يُظهرانِ الرسمينِ على المقبولينَ والمطرودينَ ؛ فقد بانَتْ شواهدُ المقبولينَ بضيائِها عليهم ، كما بانَتْ شواهدُ المطرودينَ بظُلَمِها عليهم ، فأنَّىٰ تنفعُ مِنْ ذلكَ الألوانُ المصفرةُ ، والأكمامُ المقصَّرةُ ، والأقدامُ المنفَّخةُ ؟!)[٢]

أَنْتَ ٱلْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ ٱلنَّفْعُ مِنْكَ ، فَكَيْفَ لا تَكُونُ غَنِيّاً عَنِّي ؟!

الكلامُ في الغنىٰ كالكلامِ في الرضا ، وكأنَّ المؤلفَ رحمَهُ اللهُ قصدَ في مناجاتِهِ

(١) في (ب) : (يجريان علىٰ أيدي العباد من الأبد بما . . .)

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٠٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٤٩) ، وفيهما (الوسمين) بدل (الرسمين) ، والرسم : الأثر أو بقيته ، وكنَّىٰ بالصفرة والتقصير والانتفاخ عن الجدِّ في العمل .

بهٰذهِ الكلماتِ إلى الاسترضاءِ والاستعطافِ ، وطلبِ المسامحةِ والتجاوزِ عن أعمالِهِ المدخولةِ وأحوالِهِ المعلولةِ ، وذلكَ مِنْ أحسنِ المقاصدِ للداعي

إلٰهي ؛ إِنَّ ٱلْقَضَاءَ وَٱلْقَدَرَ غَلَبَنِي ، وَإِنَّ ٱلْهَوَىٰ بِوِثَاقِ ٱلشَّهْوَةِ أَسَرَنِي ، فَكُنْ أَنْتَ ٱلنَّصِيرَ لِي حَتَّىٰ تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّىٰ أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلَبِي .

هٰذا اعتذارٌ واعترافٌ ، واللهُ تعالىٰ أكرمُ مِنْ أنْ يردَّ عُذْرَ مَنِ اعتذرَ إليهِ ، أو يخيِّبَ أملَ مَنِ اعترفَ بذنبِهِ وأقرَّ بهِ لديهِ

يُقالُ : إنَّ العبدَ يبتهلُ إلى اللهِ تعالىٰ في الاعتذارِ ، والحقُّ سبحانَهُ يقولُ لهُ : عبدي ؛ لو لم أقبلْ عذرَكَ لَمَا وفَّقتُكَ للاعتذارِ(١)

وقالَ الكَتانيُّ : (لم يفتحِ اللهُ لسانَ المؤمنِ بالمعذرةِ ، إلا لفتحِ بابِ المغفرةِ) .

فلا جرمَ لمَّا وَثِقَ بذلكَ وقَوِيَ رجاؤُهُ فيهِ . طلبَ منهُ النصرةَ لهُ علىٰ أعدائِهِ ، ولم يقتصرْ علىٰ ذلكَ ، بل أضافَ إليهِ طلبَ النصرةِ بهِ ؛ لتكونَ تلكَ النصرةُ بسببِهِ وعلىٰ يديهِ ، كما قالَ سيدي أبو الحسنِ : (واجعلْنا سببَ الغنىٰ لأوليائِكَ ، وبرزخاً بينَهم وبينَ أعدائِكَ)(٢)

ثم لم يقنعْ بذلكَ حتىٰ طلبَ منهُ أنْ يغنيَهُ بما يستغني بهِ عنِ الطلبِ منهُ ، وهو ما يوليهِ مِنْ فضلِهِ العظيمِ وكرمِهِ الجسيمِ ، وهٰذهِ هي غايةُ السعادةِ ، كما قالَ سيدي أبو الحسنِ : (والسعيدُ حقّاً مَنْ أغنيتَهُ عنِ السؤالِ منكَ)(٣)

---

(١) أورده الطيبي في « شرح المشكاة » (٦/١٨٠٧) .

(٢) قاله في حزبه الشريف المبارك المسمَّىٰ بـ (حزب البَر) و(الحزب الكبير) ، وانظر « المفاخر العلية » (ص ١٩٧) .

(٣) قاله أيضاً في (الحزب الكبير) ، وانظر « المفاخر العلية » (ص ١٩٥) ، ومعنىٰ قوله : (أغنيته=

أَنْتَ ٱلَّذِي أَشْرَقْتَ ٱلأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ .

حتىٰ عرفوكَ ووحَّدوكَ

وَأَنْتَ ٱلَّذِي أَزَلْتَ ٱلأَغْيَارَ مِنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ .

حتىٰ لم يحبُّوا سواكَ ، ولم يلجؤوا إلىٰ غيرِكَ .

أَنْتَ ٱلْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ ٱلْعَوَالِمُ .

سببُ إيحاشِ العوالمِ لهم ما هي عليهِ مِنَ الفاقةِ والافتقارِ ، والحاجةِ والاضطرارِ ، فكلُّ واحدٍ منها جالبٌ لنفسِهِ ، طالبٌ لحظِّهِ مِنْ كمالِ نقصِهِ ووفاءِ بَخْسِهِ ، واللهُ تعالىٰ غنيٌّ حميدٌ ، عزيزٌ مجيدٌ ، وهو معَ ذلكَ لطيفٌ بعبادِهِ ، عطوفٌ عليهم ، متودِّدٌ إليهم ، رؤوفٌ بهم

فلمَّا شاهدوا هـٰذا كلَّهُ مشاهدةَ يقينٍ ومعاينةٍ بإشهادِهِ إيَّاهم . . **لم يتمالكوا أنْ أحبُّوهُ وآووا إليهِ** ، وقصروا همَّهم عليهِ ، وجعلوهُ معتمدَ أُنْسِهم ، وبدلاً عن أبناءِ جنسِهم ، فحصلوا إذْ ذاكَ علىٰ غايةِ النعيمِ ، وفازوا بالحظِّ العظيمِ

قالَ ذو النونِ المصريُّ بينا أنا أسيرُ في بعضِ البوادي إذْ لقيَتْني امرأةٌ ، فقالَتْ

= **عن السؤال منك)** : أعطيته وأمددته حتىٰ قطعت عنه أصل الحاجة إلىٰ غيرك ، وفيه إشارة إلىٰ مقام الجمع

لي : مَنْ أنتَ ؟ فقلتُ : رجلٌ غريبٌ ، فقالَتْ : وهل توجدُ معَ اللهِ أحزانُ الغربةِ؟!(١) .

وكتبَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشخِّيرِ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ (وليكنْ أُنْسُكَ باللهِ وانقطاعُكَ إليهِ ؛ فإنَّ للهِ تعالىٰ عباداً استأنسوا باللهِ ، فكانوا في وحدتِهم أشدَّ استئناساً مِنَ الناسِ في كثرتِهم ، وأوحشَ ما يكونُ الناسُ آنَسَ ما يكونونَ ، وآنسَ ما يكونُ الناسُ أوحشَ ما يكونونَ)(٢)

وَأَنْتَ ٱلَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى ٱسْتَبَانَتْ لَهُمُ ٱلْمَعَالِمُ .

لمَّا تولَّى اللهُ تعالىٰ هدايتَهم إلىٰ طريقِ التوحيدِ والمعرفةِ . . **أبانَ لهم علاماتِ ذلكَ ودلائلَهُ** ، فعندَ نظرِهم في تلكَ العلاماتِ والأدلَّةِ انشرحَتْ صدورُهم بأنوارِ الإيمانِ واليقينِ ، فلم يتداخلْهم شكٌّ ، ولم يخالجْهم ريبٌ .

والمعالمُ : جمعُ مَعْلَمٍ ، وكأنَّهُ رحمَهُ اللهُ عَرَّضَ في هٰذهِ الكلماتِ بالمطلبِ الذي بحصولِهِ لهُ يستغني عنِ الطلبِ ؛ وهو **إشراقُ الأنوارِ في قلبِهِ** ، **وإزالةُ الأغيارِ عن سرِّهِ** ، **وإيناسُهُ لهُ** ، **وهدايتُهُ إيَّاهُ** ، وهٰذهِ الأربعةُ مطالبُ متضمِّنةٌ لأسنى الرغائبِ

مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟! وَمَا ٱلَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟!

قد تقدَّمَ غيرَ ما مرةٍ أنَّ ما سوى اللهِ تعالىٰ عدمٌ وظلمةٌ ، **وأنَّ الوجودَ الحقَّ والنورَ المتحقِّقَ إنَّما هو اللهُ عزَّ وجلَّ** ، فإذا كانَ الأمرُ علىٰ هٰذا صحَّ ما قالَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ ها هنا ، وكانَ حقّاً لا مريةَ فيهِ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٤١)

(٢) أورده السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/ ٣٠٤) .

قالَ أبو عليٍّ الروذْباريُّ : سألَني أبو بكرٍ الزَّقَّاقُ رحمَهُ اللهُ فقالَ لي : يا أبا عليٍّ ؛ لِمَ تركَ الفقراءُ أخذَ البُلْغةِ في وقتِ الحاجةِ ؟ فقلتُ : لأنَّهم مستغنونَ بالمعطي عنِ العطاءِ ، فقالَ : نعم ، ولـٰكنْ وقعَ لي شيءٌ آخرُ ، فقلتُ : هاتِ أفدْني ما وقعَ لكَ ، فقالَ : لأنَّهم قومٌ لا ينفعُهمُ الوجودُ إذِ اللهُ فاقتُهم ، ولا تضرُّهمُ الفاقةُ إذِ اللهُ وجودُهم[1]

وكانَ أبو حمزةَ البغداديُّ يقولُ في مناجاتِهِ : (اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنِّي مِنْ أفقرِ خلقِكَ إليكَ ، فإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ فقري إليكَ بمعنىً هو غيرُكَ .. فلا تسُدَّ فقري)[2]

لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَىٰ عَنْكَ مُتَحَوَّلاً

هـٰذا بيِّنٌ ، وهو مبنيٌّ علىٰ ما تقدَّمَ الآنَ مِنَ الكلامِ .

رُئيَ الشبليُّ في المنامِ بعدَ وفاتِهِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : لم يطالبْني بالبراهينِ على الدعاوىٰ إلا علىٰ شيءٍ واحدٍ ؛ قلتُ يوماً : لا خسارةَ أعظمُ مِنْ خسارةِ الجنَّةِ ودخولِ النارِ ! فقالَ : وأيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خُسْرانِ لقائي ؟![3]

وفي معناهُ أنشدوا[4] : [من الكامل]

---

(١) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٧٤) ، وكذا النص في جميع النسخ المعتمدة ، وهو موافق للأصل المنقول عنه ، وفي « عوارف المعارف » (٢/٢٨٧) : (لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود ؛ إذ لله فاقتهم ، ولا تضرُّهم الفاقة ؛ إذ لله وجودُهم) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٢١) .

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٧٦٠) .

(٤) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٣٤) .

سَهَرُ ٱلْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلٌ   وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعُ

وقالَ بعضُهم[١] : كانَ عندَنا رجلٌ ، فمكثَ عندَنا ثلاثَ عشرةَ سنةً يصلِّي كلَّ يومٍ وليلةٍ ألفَ ركعةٍ حتىٰ أُقعِدَ مِنْ رجليهِ ، فإذا صلَّى العصرَ احتبىٰ واستقبلَ القبلةَ ثم قالَ عجبتُ للخليقةِ كيفَ أرادَتْ بكَ بدلاً ! بل عجبتُ للخليقةِ كيفَ استأنسَتْ بسواكَ ! ثم يسكتُ إلى المغربِ[٢]

كَيْفَ يُرْجَىٰ سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ ٱلإِحْسَانَ ؟! وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ ٱلِامْتِنَانِ ؟!

هـٰذا تعجُّبٌ ممَّنْ كانَ علىٰ هـٰذا الوصفِ ، وهو أعجبُ مِنْ كلِّ عجيبٍ ، والمعنىٰ في ذلكَ بيِّنٌ .

يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلاوَةَ مُؤَانَسَتِهِ ، فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ .

التملُّقُ : هو التلطُّفُ في التودُّدِ ، وترتُّبُهُ علىٰ ذوقِهم لحلاوةِ مؤانستِهِ بيِّنٌ

وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلابِسَ هَيْبَتِهِ ، فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ .

استعزازُهم بعزَّتِهِ : هو رفْعُ همَّتِهم عن تعليقِها بغيرِ اللهِ تعالىٰ تيهاً وتكبُّراً عليها ،

---

(١) هو رياح القيسي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٩٥) .

وثقةً منهم بهِ ؛ وذلكَ لما ألبسَهم مِنْ ملابسِ هيبتِهِ ، حتىٰ لم يهابوا معَهُ غيرَهُ ، ولم تتألَّهْ قلوبُهم إلىٰ سواهُ .

ولذلكَ قالوا (المعرفةُ : حَقْرُ الأقدارِ سوىٰ قدرِهِ ، ومَحْوُ الأذكارِ سوىٰ ذكرِهِ)[١]

قالَ بعضُ المشايخِ : (إذا عُظِّمَ الربُّ في القلبِ صَغُرَ الخلقُ في العينِ)[٢]

وقيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٢٦] قالَ : بأنْ يكونَ لكَ بكَ معكَ بينَ يديكَ[٣]

أَنْتَ ٱلذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ ٱلذَّاكِرِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْبَادِئُ بِٱلإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ ٱلْعَابِدِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْجَوَادُ بِٱلْعَطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلَبِ ٱلطَّالِبِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْوَهَّابُ ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ ٱلْمُسْتَقْرِضِينَ .

الحقُّ تعالىٰ لهُ الأَوَّليَّةُ فيما ذكرَ كما ذكرَ

قالَ أبو يزيدَ : (غلطتُ في ابتداءِ أمري في أربعةِ أشياءَ : توهَّمتُ أنِّي أذكرُهُ ، وأعرفُهُ ، وأحبُّهُ ، وأطلبُهُ ، فلمَّا انتهيتُ رأيتُ ذكرَهُ سبقَ ذكري ، ومعرفتَهُ تقدَّمَتْ معرفتي ، ومحبَّتَهُ أقدمَ مِنْ محبَّتي ، وطلبَهُ لي أوَّلاً حتىٰ طلبتُهُ)[٤]

فإذا كانَتْ لهُ الأَوَّليَّةُ في ذلكَ لم يبقَ للعبدِ وسيلةٌ يتوسَّلُ بها سوىٰ فضلِهِ وكرمِهِ

---

(١) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٦٦) ، والحَقْرُ : الاستصغار .
(٢) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٣٩)
(٣) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ١٢٨)
(٤) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٢/ ١٨٧) وقال : (يريد بالطلب ها هنا : إرادته وقصده إلىٰ رفع محلِّهِ بالتوفيق له) .

وممَّا يوافقُ ما ذكرَهُ المؤلفُ رحمَهُ اللهُ : ما حُكِيَ عنِ الجنيدِ في مناجاتِهِ : (يا ذاكرَ الذاكرينَ بما بهِ ذكروهُ ، ويا بادئَ العارفينَ بما بهِ عرفوهُ ، ويا موفِّقَ العابدينَ لصالحِ ما عملوهُ ؛ مَنْ ذا الذي يشفعُ عندَكَ إلا بإذنِكَ ؟! مَنْ ذا الذي يذكرُكَ إلا بفضلِكَ ؟!)[1]

واقتراضُ الربِّ مِنْ عبدِهِ ما وهبَهُ لهُ . . غايةٌ في ترفيعِهِ لقَدْرِهِ وإبانتِهِ لشرفِهِ ، ووعدُهُ معَ ذلكَ جزيلَ الثوابِ عليهِ . . نهايةٌ في إكرامِهِ وتفضُّلِهِ عليهِ

قالَ بعضُهم (ملَّكَكَ ثم اشترىٰ منكَ ما ملَّكَكَ ؛ ليثبتَ لكَ معَهُ نسبةً ، ثم استقرضَ منكَ ما اشتراهُ ، ثم وعدَكَ عليهِ مِنَ العوضِ أضعافاً ؛ بيَّنَ فيهِ أنَّ نعمَهُ وعطاياهُ بعيدتانِ أنْ تكونا مشوبتينِ بالعللِ)[2]

إلهي ؛ ٱطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّىٰ أَصِلَ إِلَيْكَ ، وَٱجْذُبْنِي بِمِنَّتِكَ حَتَّىٰ أُقْبِلَ عَلَيْكَ

لا سبيلَ للعبدِ إلىٰ وصولِهِ إلى اللهِ تعالىٰ إلا برحمتِهِ ، فلذلكَ طلبَ منهُ أنْ يطلبَهُ بها ، ولا يتأتَّىٰ لهُ الإقبالُ عليهِ إلا بمنَّتِهِ ؛ فلذلكَ طلبَ منهُ أنْ يجذبَهُ إليهِ بها ؛ وذلكَ لتحقُّقِ الأوَّليَّةِ التي ذكرناها قبلُ[3]

إلهي إِنَّ رَجَائِي لا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ ، كَمَا أَنَّ خَوْفِي لا يُزَايِلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ .

---

(١) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٧٩)

(٢) أورده السلمي في « تفسيره » (١/ ٧٤)

(٣) انظر (ص ١٠١٨) .

الخوفُ والرجاءُ : حالانِ يتعاقبانِ على قلبِ العبدِ ، واعتدالُهما واستواؤُهما هو المطلوبُ ، سواءٌ كانَ العبدُ في طاعةٍ أو في معصيةٍ ، وقد مثَّلوا ذلكَ بكِفَّتي الميزانِ وجناحَي الطائرِ

وهٰذا مِنْ أعلى مشاهدِ العارفينَ والأولياءِ ؛ وذلكَ لأنَّ منشأَهما عندَهم إنَّما هو شهودُ الصفاتِ المَخُوفةِ والمرجوَّةِ ، وصفاتُ اللهِ تعالى لا تفاوتَ فيها[1] ، فكذلكَ مشاهدتُها لا تفاوتَ فيها ، فإنْ وقعَ فيها تفاوتٌ . . كانَتْ مشاهدتُهُ ناقصةً وأحوالُهُ معلولةً ، فلذلكَ يُتصوَّرُ وجودُ كمالِ الخوفِ معَ عملِ العبدِ بالطاعةِ ، وغلبةِ الرجاءِ معَ ارتكابِهِ المعصيةَ ، كما وصفَ بهِ المؤلفُ نفسَهُ

قالَ يحيى بنُ معاذٍ (يكادُ رجائي لكَ معَ الذنوبِ يغلبُ رجائي لكَ معَ الأعمالِ ؛ لأنِّي أجدُني في الأعمالِ أعتمدُ على الإخلاصِ ، وكيفَ أحرزُها وأنا بالآفةِ معروفٌ ؟! وأجدُني في الذنوبِ أعتمدُ على عفوِكَ ، وكيفَ لا تغفرُها وأنتَ بالجودِ موصوفٌ ؟!)[2]

وقد تقدَّمَ مِنْ كلامِ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ : (مِنْ علامةِ الاعتمادِ على العملِ ، نقصانُ الرجاءِ عندَ وجودِ الزللِ)[3]

ومِنْ دعاءِ سيدي أبي الحسنِ[4] : (إلٰهي ؛ معصيتُكَ نادتْني بالطاعةِ ،

---

(١) فهي بالنسبة للذات العلية واحدة كذاته سبحانه ، وبالنسبة للعباد عامَّةُ التعلُّق الصُّلُوحي في حق جميع الممكنات ، وإنما يقع التفاوت المذكور عند النظر إلى التعلق التنجيزي والوعد الإلـٰهي ، مع الغفلة عن كون الأعمال لا تأثير لها في ذاتها ، وأن العبرة بالوعد القديم هو بخواتيمها ، فضلاً عن حق الربوبية الذي لا يغفل عنه مع وجود الوعد ؛ ولذا دعا الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم ـ كما روى مسلم (١٧٦٣) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ـ فقال : « اللهمَّ ؛ أنجزْ لي ما وعدتَني ، اللهمَّ ؛ آتِ ما وعدتَني ، اللهمَّ ؛ إنْ تُهلِكْ هٰذهِ العصابةَ مِنْ أهلِ الإسلامِ لا تُعبدْ في الأرضِ » .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٣٦١) .

(٣) انظر (ص ١٦١) .

(٤) هٰذا الدعاء كان ورداً للإمام أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى بعد العشاء الآخرة ، وهو أيضاً =

وطاعتُكَ نادتْني بالمعصيةِ ، ففي أيِّهما أخافُكَ ؟! وفي أيِّهما أرجوكَ ؟! إنْ قلتُ : بالمعصيةِ . . قابلْتَني بفضلِكَ فلم تَدَعْ لي خوفاً ، وإنْ قلتُ بالطاعةِ . . قابلْتَني بعدلِكَ فلم تَدَعْ لي رجاءً ، فليتَ شعري ! كيفَ أرىٰ إحساني معَ إحسانِكَ ؟! أم كيفَ أجهلُ فضلَكَ معَ عصيانِكَ ؟!)[١]

ومِنْ كلامِ سيدي أبي العباسِ رضيَ اللهُ عنهُ : (العامَّةُ إذا خُوِّفوا خافوا ، وإذا رُجُّوا رَجَوا ، والخاصَّةُ متىٰ خُوِّفوا رَجَوا ، ومتىٰ رُجُّوا خافوا)[٢]

قالَ في « لطائفِ المننِ » (ومعنىٰ كلامِ الشيخِ هٰذا : أنَّ العامَّةَ واقفونَ معَ ظواهرِ الأمرِ ، فإذا خُوِّفُوا خافوا ؛ إذْ ليسَ لهم نفوذٌ إلىٰ ما وراءَ العبارةِ بنورِ الفهمِ كما لأهلِ اللهِ ، وأهلَ اللهِ إذا خُوِّفُوا رَجَوا ، عالمينَ أنَّ مِنْ وراءِ خوفِهم وما بهِ خُوِّفُوا أوصافَ المرجوِّ الذي لا ينبغي أنْ يُقنطَ مِنْ رحمتِهِ ، ولا أنْ يُؤْيسَ مِنْ منَّتِهِ ، فاحتالوا علىٰ أوصافِ كرمِهِ ؛ علماً منهم أنَّهُ ما خوَّفَهم إلا ليجمعَهم عليهِ ، وليردَّهم بذلكَ إليهِ

وإذا رُجُّوا يخافون غيبَ مشيئتِهِ الذي هو مِنْ وراءِ رجائِهم ، وخافوا أنْ يكونَ ما أظهرَ مِنَ الرجاءِ اختباراً لعقولِهم : هل تقفُ معَ ظاهرِ الرجاءِ ، أو تنفذُ إلىٰ خوفِ ما بطنَ في مشيئتِهِ ؟ فلذلكَ استثارَ الرجاءُ خوفَهم)[٣]

إلٰهي ؛ قَدْ دَفَعَتْنِي ٱلْعَوَالِمُ إِلَيْكَ .

= مما كان يقرؤه الشيخ أبو العباس المرسي ، وقد وقعت نسبته إليه في أكثر النسخ . انظر « لطائف المنن » (ص ١٩١) .

(١) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٩٥) .

(٢) أورده الإمام ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ١٥٨) .

(٣) لطائف المنن (ص ١٥٨)

إنَّما دفعَتْهُ العوامُّ إليهِ لما تضمَّنَتْهُ مِنَ السماتِ الموحشةِ كما تقدَّمَ[١]

ولقد أحسنَ مَنْ قالَ : (لا وحشةَ معَ اللهِ ، ولا راحةَ معَ غيرِ اللهِ)[٢]

وفي هٰذا المعنىٰ أنشدوا[٣] [من البسيط]

يَا قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ سَلْ عَيْنِي هَلِ ٱكْتَحَلَتْ ... بِمَنْظَرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عَنْ عَيْنِي

وَقَدْ أَوْقَفَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ .

إذِ الكريمُ لا تتخطَّاهُ آمالُ المؤمِّلينَ[٤] ، ولا تتوجَّهُ نحوَ سواهُ طلباتُ الطالبينَ

إِلٰهِي ؛ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي ؟! أَمْ كَيْفَ أُهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلِي ؟!

لمَّا تعلَّقَ باللهِ وتوكَّلَ عليهِ . . استبعدَ أنْ يخيبَ أملُهُ ، أو ينالَهُ هوانٌ يؤودُهُ تحمُّلُهُ .

إِلٰهِي ؛ كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَفِي ٱلذِّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ لا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي ؟!

إِلٰهِي ؛ كَيْفَ لا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ ٱلَّذِي فِي ٱلْفَقْرِ أَقَمْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ ٱلَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي ؟!

---

(١) انظر (ص ١٠١٤)

(٢) أورده القشيري في « شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٦٩) ، وروىٰ أحمد في « الزهد » (٨٤٦) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (لا راحة للمؤمن دون لقاء الله عز وجل) .

(٣) أورده القشيري في « لطائف الإشارات » (١/ ٥٣٢) ، وهو في « سير أعلام النبلاء » (٢٣/ ٣٦٧) لسعد الدين بن حمويه في مدح الباخرزي .

(٤) كما تقدم (ص ٢٨٩) .

تلوُّنُهُ في هٰذهِ الأوصافِ المتضادَّةِ لما يغلبُ عليهِ مِنْ مشاهدةِ ما يوجبُها ، والذلَّةُ المثبتةُ فيها هي ذلَّةُ الخِلْقةِ والعبوديَّةِ ، والنسبةُ التي أشارَ إليها هي سرُّ الخصوصيَّةِ ، والافتقارُ بمعنى الذلَّةِ ، والاستغناءُ مثلُ العزَّةِ .

قالَ بعضُهم[1] : (رأيتُ ذلَّ كلِّ ذي ذُلٍّ ، فزادَ ذُلِّي على ذلِّهم ، ونظرتُ في عزِّ كلِّ ذي عزٍّ ، فزادَ عزِّي على عزِّهم)[2]

وقالَ الشبليُّ : (لقد ذللتُ حتى عزَّ في ذلِّي كلُّ ذي ذلٍّ ، وعززتُ حتى ما تعزَّزَ أحدٌ إلا بي وبمَنْ بهِ تعزَّزْتُ)[3]

أَنْتَ ٱلَّذِي لا إِلَـٰهَ غَيْرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ ٱلَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَرَأَيْتُكَ ظَاهِراً فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ .

هٰذا كلُّهُ قد تقدَّمَ معناهُ ولفظُهُ في كلامِ المؤلفِ على غايةِ الكمالِ والتمامِ

والحاصلُ منهُ : أنَّ الظهورَ التامَّ للهِ تعالى بكلِّ اعتبارٍ

ثم إنَّهُ عبَّرَ هنا عن ذلكَ بعبارةٍ لم يذكرْها فيما تقدَّمَ ؛ وهي قولُهُ :

يَا مَنِ ٱسْتَوَىٰ بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ ، فَصَارَ ٱلْعَرْشُ غَيْباً فِي رَحْمَانِيَّتِهِ كَمَا صَارَتِ ٱلْعَوَالِمُ غَيْباً فِي عَرْشِهِ

---

(١) هو أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري ، من أصحاب الشبلي

(٢) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٤٩٠)

(٣) رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٤٢) .

كأنه أشارَ بهـٰذا إلىٰ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

ورحمانيَّةُ اللهِ : كونُهُ رحماناً[1] ، والرحمـٰنُ اسمٌ للهِ تعالىٰ يقتضي وجودَ كلِّ موجودٍ ، وهو مشتقٌّ مِنَ الرحمةِ

والرحمةُ ها هنا : هي الرحمةُ العامَّةُ التي وسعَتْ كلَّ شيءٍ ، كما وسعَ علمُهُ كلَّ شيءٍ في قولِهِ تعالىٰ مخبراً عن حملةِ العرشِ ؛ إذْ قالوا ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧]

ولذلكَ دخلَ تحتَ مقتضى اسمِهِ الرحمـٰنِ جميعُ أسمائِهِ تعالى الإيجاديَّةِ .

ويُفهمُ مِنْ معنى الاستواءِ القهرُ والغلبةُ ، ومقتضاهما في حقِّ اللهِ تعالىٰ : ألا يكونَ لغيرِهِ وجودٌ معَ وجودِهِ ، ولا ظهورٌ معَ ظهورِهِ ، فلا جرمَ لمَّا كانَ الحقُّ تعالىٰ مستوياً برحمانيَّتِهِ علىٰ عرشِهِ الذي العوالمُ كلُّها في طيِّهِ . . كانَ العرشُ غَيْباً في الرحمانيَّةِ مندرجاً فيها ، والعوالمُ كلُّها غيباً في العرشِ ؛ لأنَّها في طيِّهِ ، فلا ظهورَ إذاً للعرشِ ولا للعوالمِ ، وإنَّما الظهورُ التامُّ للهِ عزَّ وجلَّ

مَحَقْتَ ٱلْآثَارَ بِٱلْآثَارِ .

كما بينَ العوالمِ والعرشِ[2]

---

(١) فهي من المعنوية هنا ، لا من المعاني ، ولـٰكن لا بد من استناد اشتقاقها إلىٰ صفة معنىً هي الرحمة هنا ، وهـٰذا علىٰ مذهب من يجعل الصفات الخبرية من صفات المعاني ، وعلىٰ ذلك عموم السادة الصوفية رضي الله عنهم .

(٢) لأن العوالم كما تقدم كلها في طيِّ العرش ، فكأنه قال : محقت العوالم بالعرش

وَمَحَوْتَ ٱلْأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلاكِ ٱلْأَنْوَارِ

كما بينَ العرشِ والرحمانيَّةِ[1] ، ومحيطاتُ أفلاكِ الأنوارِ : هي أسماءُ اللهِ تعالى الحسنىٰ ، واللهُ أعلمُ

يَا مَنِ ٱحْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ ٱلْأَبْصَارُ

عزَّةُ اللهِ تعالى اقتضَتْ كونَ كلِّ ما سواهُ محجوباً عن رؤيتِهِ للهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّ العزيزَ معناهُ المنيعُ الذي لا يُوصلُ إليهِ ، يُقالُ حصنٌ عزيزٌ ؛ إذا تعذَّرَ الوصولُ إليهِ .

وقيلَ العزيزُ الذي لا يرتقي إليهِ وَهْمٌ طمعاً في تقديرِهِ ، ولا يسمو إلىٰ صمديَّتِهِ فَهْمٌ قصداً إلىٰ تصويرِهِ

وقيلَ العزيزُ مَنْ ضلَّتِ العقولُ في بحارِ تعظيمِهِ ، وحارَتِ الألبابُ دونَ إدراكِ نعتِهِ ، وكلَّتِ الألسنُ عنِ استيفاءِ مدحِ جلالِهِ ووصفِ جمالِهِ

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ »[2]

وذكْرُ السرادقاتِ مضافةً إلىٰ عزِّهِ واحتجابِهِ فيها . . مجازٌ حسنٌ .

---

(١) لأن العرش كما تقدم في طيِّ الرحمانية

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها

يَا مَنْ تَجَلَّىٰ بِكَمَالِ بَهَائِهِ ، فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتَهُ ٱلأَسْرَارُ .

كمالُ بهائِهِ هو محاسنُ صفاتِهِ وأسمائِهِ ، فبظهورِ ذلكَ وتجلِّيهِ بها تحقَّقَتْ عظمتَهُ أسرارُ العارفينَ

كَيْفَ تَخْفَىٰ وَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ ؟! أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ ٱلرَّقِيبُ ٱلْحَاضِرُ ؟!

والله الموفق ، وبه أستعين (١)

هـٰذا كلُّهُ بيِّنٌ لا إشكالَ فيهِ ، وقد تقدَّمَ معناهُ غيرَ ما مرةٍ مِنْ كلامِ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ

* *

(١) بهـٰذا تنتهي المناجاة ، وبها يختم كتاب « الحكم » وما ألحق به للإمام ابن عطاء الله الإسكندري رحمه الله تعالىٰ .

خاتمة

خاتمة

قال مؤلف هـٰذا الكتاب :

وقد نجزَ بحمدِ اللهِ ما أردناهُ ، وبلغنا الغرضَ الذي قصدناهُ ، ولا حولَ لنا في ذلكَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، وبذلكَ يتبيَّنُ ما عندي في مسائلِ الكتابِ ، واللهُ تعالى الهادي إلى الصوابِ

وقد تقدَّمَ في أوَّلِ هـٰذا « التنبيه » : أنِّي لم أقصدْ فيهِ إلا هـٰذا المعنى[1] ، ولم نلتزمْ كونَ ما ذكرناهُ فيهِ صحيحَ المبنى ، حتى نحتاجَ إلى نصْبِ الأدلَّةِ والبراهينِ على ما ادعيناهُ فيهِ ، وإنَّما سُقْنا ذلكَ على سبيلِ حكايةِ مذهبٍ مِنَ المذاهبِ ، وللمحكيِّ لهُ ذلكَ أنْ يصحِّحَهُ أو يبطلَهُ إنْ أحبَّ ، وما وقعَ فيهِ مِنْ نوعِ استدلالٍ على مطلبٍ مِنَ المطالبِ فأنا في ذلكَ متبرِّعٌ ، فإنْ صحَّ ذلكَ الدليلُ فهو المطلوبُ ، وإنْ بطلَ لم يلزمْ مِنْ بطلانِهِ بطلانُ المدلولِ ، وبقيَ المذهبُ قابلاً للتصحيحِ أو الإبطالِ مِنْ غيرِ أنْ يتوجَّهَ عليَّ مطالبةٌ بذلكَ .

والذي حملَني على سلوكِ هـٰذا السبيلِ : ما فيهِ مِنْ وجدانِ السلامةِ لي مِنَ الخطرِ الذي يتعرَّضُ لهُ كلُّ مَنْ يتكلَّمُ على طريقِ التصوفِ ممَّنْ لا تحقُّقَ لهُ فيهِ ، ويدَّعي صحَّةَ ما ينظرُهُ بعقلِهِ وفهمِهِ ، وينسبُ ذلكَ إلى القومِ ، ولعلَّ شيئاً مِنْ ذلكَ لا يصحُّ عنهم ، فيكونُ بذلكَ مفترياً كذَّاباً عليهم

ثم فيهِ مِنْ سوءِ الأدبِ معَهم والتقدُّمِ بينَ أيديهم ما لا يقومُ لهُ شيءٌ ، وعندَ ذلكَ

---

(١) يعني : معنى كلمة (التنبيه) ، فكأنه ينأى رحمه الله تعالى أن يكون كتابه هـٰذا شرحاً حقيقياً لهـٰذه « الحكم » المباركة .

يكونُ الخرسُ والبكمُ ، وذهابُ الحسِّ والحركةِ . . أَولىٰ بهِ وأحمدَ عاقبةً لهُ ؛ لتخلُّصِهِ بذلكَ مِنْ شرِّ لسانِهِ وبنانِهِ .

ثم إنَّ ما قصدناهُ مِنْ ذلكَ لا يمنعُ مِنْ حصولِ الفائدةِ لِمَنْ أرادَهُ اللهُ بها ووفَّقَهُ لها ، فعلى العبدِ أنْ يعملَ علىٰ خلاصِ نفسِهِ ، ولا يلزمُهُ اتِّباعُ مرضاةِ غيرِهِ ؛ فقد قيلَ : (رضا الناسِ غايةٌ لا تُدركُ)[1]

ونحنُ نرغبُ إلىٰ مَنْ وقعَ بيدِهِ هٰذا التأليفُ ، وظهرَ لهُ فيهِ خطأٌ أو تحريفٌ . . أنْ يُصلحَ منهُ ما ألفاهُ مختلّاً ، وأنْ ينتهجَ مِنَ الاعتذارِ عنهُ الطريقةَ المثلىٰ ، **وإنْ ظهرَ لهُ أنْ يضعَ في ذلكَ تأليفاً** ، **يتضمَّنُ تنبيهاً وتعريفاً** . . فذلكَ مِنَ المذاهبِ التي تُرتضىٰ ، وممَّا لم يزلْ مِنْ شأنِ مَنْ قد مضىٰ .

ونحنُ نستغفرُ اللهَ تعالىٰ ممَّا يعلمُهُ منَّا مِنَ التعدِّي والجرأةِ فيما تعرَّضْنا لهُ مِنْ بيانِ كلامِ الأولياءِ ، والراسخينَ مِنَ العلماءِ ، وتقريرِ عباراتِهم وإشاراتِهم مِنْ غيرِ اطِّلاعٍ منَّا علىٰ كُنْهِها ، ولا بصيرةٍ فيها ، **ونستغفرُهُ** أيضاً ممَّا أَقْدَمْنا عليهِ مِنْ إظهارِ ما سترُوهُ ، وإعلانِ ما أسرُّوهُ ، **ونستغفرُهُ** أيضاً ممَّا وقعَ منَّا فيهِ مِنْ ذكرِ أحوالِ الأولياءِ ومقاماتِهم ، وتحريضِنا علىٰ سلوكِ طريقِهِمُ المستقيمِ ؛ معَ إفلاسِنا مِنْ جميعِ ذلكَ ، وعدمِ احتظائِنا بهِ .

ونسألُهُ معَ ذلكَ : ألا يؤاخذَنا بما انطوَتْ عليهِ ضمائرُنا ، وأكنَّتْهُ سرائرُنا ؛ مِنْ أنواعِ القبائحِ والمعايبِ التي يعلمُها منَّا ولا نعلمُها ، أو نعلمُها ولا تسمحُ نفوسُنا بالتنقِّي منها والتنزُّهِ عنها ؛ اغتراراً منَّا بحلمِهِ ، واستهانةً بنظرِهِ وعلمِهِ .

ونرغبُ إليهِ جلَّ وعلا : أنْ يمنَّ علينا بتوبةٍ تمحو عنَّا كلَّ حوبةٍ ، حتىٰ ينقلبَ أعداؤُنا عنَّا خائبينَ خاسئينَ ، داخرينَ صاغرينَ[2] ، لم ينالوا مِنْ تحقيقِ إرادتِهم فينا

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٦) من كلام سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ .

(٢) **داخرين** : خاضعين ذليلين .

مطلباً ، ولم يبلغوا مِنْ عدمِ إسعافِهِ إيَّانا بما طلبناهُ منهُ مأرباً ، وأنْ يشملَ في ذلكَ معَنا كلَّ مَنْ أمَّنَ علىٰ هـٰذا الدعاءِ ممَّنْ سمعَهُ ومَنْ دعا لنا بمثلِهِ مِنْ إخوانِنا المسلمينَ

ونتوسَّلُ إليهِ في بلوغِ هـٰذا الأملِ ، والوصولِ إلى المبتغى الأجلِّ[1] ؛ بمَنْ صُرِفْنا بهِ عن تولِّي كلِّ جحودٍ وكفورٍ ، وأُخْرِجْنا علىٰ يديهِ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ ؛ **سيِّدِنا ومولانا محمدٍ خاتمِ النبيِّينَ** ، وإمامِ المرسلينَ ، وحبيبِ ربِّ العالمينَ ، وصلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ الطيبينَ الطاهرينَ ، وأصحابِهِ البررةِ الأكرمينَ ، وتابعيهم بإحسانٍ إلىٰ يومِ الدينِ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ

* *

---

(١) في (أ ، ب ، هـ) : (مبتغى الأجل) بدل (المبتغى الأجل) .

خواتيم النسخ الخطية

خاتمة النسخة (أ)

علَّقَهُ بيده العبد الضعيف الحقير ، المعترف بالخطأ والتقصير ؛ إبراهيم بن منصور الشافعي ، تاب الله عليه ، ونفعه بما في هـٰذا الكتاب ، وغفر لمن قرأه أو نظر فيه ، ودعا له ولجميع المسلمين ، وذلك في العاشر من شهر ربيع الآخر ، سنة ست وخمسين وثمان مئة .

اللهم ؛ إنا نسألك التوفيق ، وحسن العافية في الدنيا والآخرة ، برحمتك يا أرحم الراحمين[(١)]

خاتمة النسخة (ب)

كان الفراغ من كتابته نهار الخميس ، رابع عشر شهر ذي القعدة الحرام ، سنة ثمان وستين وثمان مئة ، غفر الله تعالىٰ لمؤلفه ولمالكه وكاتبه ، ولمن قرأه وطالع فيه ، ووفقنا وإياكم للعمل بما فيه بمنه وكرمه ، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم[(٢)]

خاتمة النسخة (ج)

تـــمَّ الكتـــابُ تكـــاملَـــتْ نعـــمَ الســـرورُ لصـــاحِبِـــهْ
وعفــــا الإلـٰــــهُ بفضلِـــــهِ وبجـــودِهِ عـــن كـــاتِبِـــهْ

---

(١) جاء في هامشها : (بلغ مقابلة بأصل معتمد ، فصحَّ إن شاء الله تعالىٰ ، في مجالس عديدة ، آخرها ثامن عشرين ربيع الآخر سنة ست وخمسين . . .)

(٢) جاء في هامشها : (آخر شرح « الحكم » المنسوب إلى الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري ، تأليف الشيخ الإمام العالم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي المغربي ، تغمده الله برحمته) .

الفقير محمد بن نجم الدين ، الصالحي شهرة ، والدمشقي نسباً ، والأشعري معتقداً ، والشافعي مذهباً ، عفا الله عنه وعن سائر المسلمين ، آمين

وكان إتمامه صبيحة يوم الجمعة الغراء ، ثالث شهر ربيع الأول ، سنة (٨٧٦هـ)

خاتمة النسخة (د)

تمت هٰذه النسخة المباركة والمنة لله تعالىٰ . . يوم الثلاثاء المبارك ، الثامن من شهر صفر الخير ، **من سنة سبعين وتسع مئة** ، علىٰ يد العبد الفقير الضعيف المنكسر خاطره لقلة العمل والتقوىٰ ؛ علي المدعو نور الدين بن محمد بن عبد الله المنوفي ، نفعه الله تعالىٰ بما فيها ؛ ليكون من أهل العلم والعمل ، وغفر له ولوالديه وللناظرين ، فما كان من نقص فكمِّلوه ، ومن خطأ فأصلحوه ، ورضي الله تعالىٰ عمَّن ذُكر فيها . . .

وإنْ تجـد عيبـاً فسُـدَّ الخلـلا   جـلَّ مَـنْ لا فيـهِ عيـبٌ وعـلا

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المتقين ، عين عيون العناية ، وحرف حروف الهداية ، وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

خاتمة النسخة (هـ)

نجز الكتاب بحمد الله وعونه ، وحسن توفيقه وتأييده ، وذلك في يوم الاثنين المبارك ، لثماني [ليالٍ] بقين من ربيع الأول ، من شهور سنة (١١٠٤) من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها الصلاة والسلام ، علىٰ يد العبد الفقير ، الراجي عفو ربه القدير ؛ علي بن حسن المالكي الأزهري ، غفر الله له ولوالديه . . . .

خاتمة النسخة (و)

وكان الفراغ من نسخه على يد ناسخه لنفسه ولمن شاء الله تعالىٰ من بعده ، الفقير إلىٰ مولاه الرحيم ، المعترف بفعله الذميم ، الفقير إبراهيم بن حسن بن علي ، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين ، والحمد لله رب العالمين ، بتاريخ يوم الأربعاء ، عاشر القعدة من شهر سنة ثلاث وخمسين وألف ، ختمت بخير وشرف

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وشيعته وحزبه ، آمين آمين آمين

* *

فهرس أهم مصادر ومراجع التحقيق

- **إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين**، للإمام الحافظ أبي الفيض محمد بن محمد مرتضىٰ **الزَّبيدي** الحسيني (ت١٢٠٥هـ)، ط١، (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- **إحكام الحكم**، للإمام العارف الفقيه برهان الدين أبي الطيب إبراهيم بن محمود المواهبي **الأقصرائي** (ت٩٠٨هـ)، تحقيق عاصم إبراهيم كيالي، طبع سنة (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **إحكام الدلالة علىٰ تحرير الرسالة**، للإمام قاضي القضاة شيخ الإسلام زين الدين أبي يحيىٰ زكريا بن محمد **الأنصاري** (ت٩٢٦هـ)، ط١، (١٢٩٠هـ، ١٨٧٠م)، المطبعة العامرة، القاهرة، مصر.
- **إحياء علوم الدين**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق ابن العباس **الفاكهي** (ت بعد ٢٧٢ هـ)، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط٢، (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، دار خضر، بيروت، لبنان.
- **الإخلاص والنية**، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق إياد خالد الطباع، ط١، (١٤١٣هـ)، دار البشائر، بيروت، لبنان.
- **أخلاق العلماء**، للإمام المحدث أبي بكر محمد بن الحسين البغدادي **الآجري** (ت٣٦٠هـ)، تحقيق إسماعيل بن محمد الأنصاري، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، السعودية.
- **آداب النفوس**، للإمام العارف الزاهد أبي عبد الله الحارث بن أسد **المحاسبي** (ت٢٤٣هـ)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط٢، (١٤١١هـ - ١٩٩١م)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
- **أدب الإملاء والاستملاء**، للحافظ المؤرخ أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور **السمعاني** المروزي (ت٥٦٢هـ)، تحقيق ماكس فايسفايلر، ط١، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **أدب الدين والدنيا**، للإمام القاضي المفسر أبي الحسن علي بن محمد **الماوردي** (ت٤٥٠هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **أدب الكاتب**، للإمام اللغوي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن **قتيبة** الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- **الأدب المفرد**، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل **البخاري** (ت٢٥٦هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.
- **الأربعين في أصول الدين**، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٩هـ)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- **الأربعين في التصوف**، للإمام العارف أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي السلمي (ت٤١٢هـ)، ط٢، (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الهند.
- **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني (ت٩٢٣هـ)، ط٧، (١٣٢٣هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، مصر.
- **الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله تعالىٰ وتلاوة كتابه العزيز وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين**، للإمام العلامة المحدث عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (ت٧٦٨هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (٢٠٠٧م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **الأسرار العقلية في الكلمات النبوية**، للإمام تقي الدين أبي الفتح مظفر بن عبد الله بن علي المقترح (ت٦١٢هـ)، تحقيق نزار حمادي، ط١، (١٤٣٠هـ)، دار المعارف، بيروت، لبنان.
- **الأسماء والصفات**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق العلامة محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية، القاهرة، مصر.
- **الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ**، للإمام المفسر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق محمد حسن جبل وطارق أحمد محمد، ط١، (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م)، دار الصحابة للتراث، القاهرة، مصر.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، للإمام الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط١، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م)، دار التقوىٰ، دمشق، سورية.
- **الإعجاز والإيجاز**، للإمام اللغوي الأديب أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، تحقيق محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
- **الأعلام**، للأستاذ البحاثة خير الدين بن محمود الزركلي (ت١٣٩٦هـ)، ط١٥، (٢٠٠٢م)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- **إفادة المرتاد بالتعريف بالشيخ ابن عباد**، للإمام الصوفي اللغوي عبد المجيد بن علي الزبادي الإدريسي الحسني (ت١١٦٣هـ)، طبع سنة (٢٠٠٦م)، مطبعة آنفو برانت، فاس، المغرب.
- **الاقتصاد في الاعتقاد**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط٢، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **ألف باء**، للإمام المقرئ أبي الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، ط١، (٢٠٠٩م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **الأمالي**، للإمام الأديب أبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي (ت٣٥٦هـ)، تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي، ط٢، (١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م)، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر.
- **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، للإمام المؤرخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي الحسيني العبيدي تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥)، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، ط١، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق صلاح بن عايض الشلاحي، ط١، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م)، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، السعودية.

- أنس الفقير وعز الحقير، للإمام الرحالة المؤرخ أبي العباس أحمد بن الحسين بن علي ابن قنفذ القسنطيني (ت٨١٠هـ)، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب.
- الأنساب، للإمام الحافظ المؤرخ أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني المروزي (ت٥٦٢هـ)، تحقيق عبد الرحمٰن بن يحيى المعلمي اليماني وزملائه، ط١، (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.
- الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار، للإمام الصوفي أبي القاسم عبد الرحمٰن بن محمد البكري الصقلي المالكي، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط٢، (٢٠١٤م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الأولياء، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط١، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م)، دار الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
- إيقاظ الهمم في شرح الحكم، للإمام العارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، تحقيق محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- أيها الولد، للإمام المتكلم حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط٢، (١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- بحر الفوائد، للإمام أبي بكر محمد بن أبي إسحاق الكلاباذي البخاري (ت٣٨٠هـ)، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، ط١، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- البحر المحيط، للإمام أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط١، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- البدع، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن وضاح المرواني (ت٢٨٦هـ)، تحقيق محمد دهمان، ط١، (١٤١١هـ)، دار الصفا، القاهرة، مصر.
- البديع، للإمام عبد الله بن المعتز العباسي (ت٢٩٦هـ)، ط١، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- البرهان المؤيد، لإمام الطريقة الرفاعية العارف بالله أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني (ت٥٨٧هـ)، تحقيق عبد الغني نكه مي، ط١، (١٤٠٨هـ)، دار الكتاب النفيس، بيروت، لبنان.
- البصائر والذخائر، للإمام الأديب أبي حيان علي بن محمد التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـ)، تحقيق وداد القاضي، ط١، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، دار صادر، بيروت، لبنان.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.
- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، للإمام العارف بالله تاج الدين أبي العباس أحمد بن محمد ابن عطاء الله الإسكندري (ت٧٠٩هـ)، تحقيق قصي بن محمد نورس الحلاق، ط١، (١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م)، دار التقوىٰ، دمشق، سورية.
- تاج العروس من جواهر القاموس، للإمام الشريف الحافظ المحدث المسند اللغوي أبي الفيض محمد بن محمد مرتضىٰ الزَّبيدي الحسيني (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وجماعة من المحققين، ط١، (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م)، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.

- تاريخ بغداد، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا، ط١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، لإمام الدنيا الحافظ ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، ط١، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- تأسيس التقديس، للإمام المتكلم المفسر فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي وأحمد محمد خير الخطيب، ط١، (٢٠١١م)، دار نور الصباح، دمشق، سورية.
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، لإمام الدنيا الحافظ ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ)، ومعه مقدمة العلامة المحقق محمد زاهد الكوثري، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م)، دار التقوىٰ، دمشق، سورية.
- التحبير في التذكير، للأستاذ الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت٤٦٥هـ)، تحقيق عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك، للإمام الحافظ أبي حفص عمر بن أحمد ابن شاهين البغدادي (ت٣٨٥هـ)، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ط١، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م)، دار الكتب العملية، بيروت، لبنان.
- التشوف إلىٰ رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، للإمام اللغوي الأديب أبي يعقوب يوسف بن يحيى ابن الزيات التادلي (ت٦١٧هـ)، تحقيق أحمد التوفيق، ط٢، (١٩٩٧م)، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب.
- التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، ط١، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- التعرف لمذهب أهل التصوف، للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي (ت٣٨٠هـ)، تحقيق أحمد شمس الدين، ط١، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- التعريفات، للعلامة المحقق المدقق أبي الحسن علي بن محمد بن علي السيد الشريف الجرجاني الحسيني (ت٨١٦هـ)، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر.
- تفسير الرازي، المسمى: «التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب»، للإمام المتكلم المفسر فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، ط١، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- تفسير الطبري، المسمىٰ: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط١، (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، للإمام المفسر اللغوي الأديب أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق عبد المجيد عمر نجار، ط١، (١٩٨٨م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول، للإمام الحافظ الفقيه أحمد بن زيني دحلان الحسني (ت١٣٠٤هـ)، طبع سنة (١٣٤٩هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر.
- التكملة لكتاب الصلة، للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الأبار (ت٦٥٨هـ)، تحقيق عبد السلام الهراس، ط١، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

ـ **التمثيل والمحاضرة**، للإمام الأديب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل **الثعالبي** (ت٤٢٩هـ)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، (١٤٠١هـ)، الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر.
ـ **تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم**، للإمام المفسر الصوفي أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمـٰن **ابن برجان** اللخمي الإشبيلي (ت٥٣٦هـ)، ط١، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
ـ **تنبيه الغافلين**، للإمام الفقيه **أبي الليث** نصر بن محمد **السمرقندي** (ت٣٧٣هـ)، تحقيق السيد العربي، ط١، (١٤١٥هـ)، مكتبة الإيمان، القاهرة، مصر.
ـ **التنوير في إسقاط التدبير**، للإمام العارف تاج الدين أبي العباس أحمد بن محمد **ابن عطاء الله الإسكندري** (ت٧٠٩هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي وفراس مدلل، ط١، (١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م)، دار التقوىٰ، دمشق، سورية.
ـ **التهجد وقيام الليل**، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد **ابن أبي الدنيا** القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق مصلح بن جزاء بن فدعوش الحارثي، ط١، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م)، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية.
ـ **تهذيب الأسرار**، للإمام العارف أبي سعد عبد الملك بن محمد بن إبراهيم **الخركوشي** (ت٤٠٧هـ)، تحقيق بسام محمد بارود، طبع سنة (١٩٩٩م)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات.
ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، للإمام الحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف بن عبد الرحمـٰن القضاعي **المزي** (ت٧٤٢هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، ط١، (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
ـ **التواضع والخمول**، لأبي بكر عبد الله بن محمد **ابن أبي الدنيا** القرشي البغدادي، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، ط١، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
ـ **التوبة**، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد **ابن أبي الدنيا** القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
ـ **التيسير بشرح الجامع الصغير**، للإمام الفقيه الحافظ زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين القاهري **المناوي** (ت١٠٣١هـ)، ط٣، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، السعودية.
ـ **التيسير في القراءات السبع**، للإمام المقرئ **أبي عمرو** عثمان بن سعيد **الداني** (ت٤٤٤هـ)، تحقيق أوتو تريزل، ط٢، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
ـ **الثبات عند الممات**، للإمام أبي الفرج عبد الرحمـٰن بن علي المعروف **بابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ)، ط١، (١٤٠٦هـ)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
ـ **جامع بيان العلم وفضله**، للإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله **ابن عبد البر** النمري القرطبي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، ط١، (١٤١٤هـ)، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية.
ـ **الجامع لأحكام القرآن**، للإمام المفسر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر **القرطبي** (ت٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م)، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر.
ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ)، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية.
ـ **الجامع لشعب الإيمان**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ)، تحقيق عبد العلي حامد، ط١، (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م)، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية. الدار السلفية، بومباي، الهند.
ـ **الجامع**، للإمام معمر بن راشد الأزدي (ت١٥٣هـ)، تحقيق حبيب الرحمـٰن الأعظمي، ط٢، (١٤٠٣هـ)، نشر المجلس العلمي بباكستان، توزيع المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

- الجمع بين الصحيحين، للإمام أبي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي (ت٤٨٨هـ)، تحقيق علي البواب، ط٢، (١٤٢٣هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- جمل من أنساب الأشراف، للإمام المؤرخ أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (ت٢٧٩هـ)، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، ط١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- جمهرة الأجزاء الحديثية، لمجموعة من أصحاب الأجزاء الحديثية، تحقيق محمد زياد عمر التكلة، ط١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية.
- حاشية الدسوقي على شرح أم البراهين، للعلامة محمد الدسوقي (ت١٢٣٠هـ)، ط١ (مصورة)، (١٤٤٠هـ)، الناشر مؤسسة محمد السيد محمد محمد مصطفى، ودار ميراث النبوة، القاهرة، مصر.
- حاشية العطار على البدر الطالع شرح جمع الجوامع، للإمام حسن بن محمد بن محمود العطار الشافعي (ت١٢٥٠هـ)، دار الكتب العلمية (طبعة مصورة)، بيروت، لبنان.
- الحاوي للفتاوي، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، طبع سنة (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٠م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (ت نحو٤٠٣هـ)، تحقيق سعيد الأفغاني، طبع سنة (٢٠١٠م)، دار الرسالة، بيروت، لبنان.
- حسن الظن بالله، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق مخلص محمد، ط١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، دار طيبة، الرياض، السعودية.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.
- حقائق التفسير، للإمام العارف أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي (ت٤١٢هـ)، تحقيق سيد عمران، ط١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للإمام الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، ط٥، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧هـ) لدى دار الريان للتراث، القاهرة، مصر. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- خريدة القصر وجريدة العصر، للإمام الأديب الشاعر المؤرخ أبي عبد الله عماد الدين محمد بن نفيس الدين حامد بن محمد الأصبهاني الكاتب (ت٥٩٧هـ)، تحقيق محمد بهجة الأثري وجميل سعيد، طبع سنة (١٣٧٥ه - ١٩٥٥م) لدى مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، ط٢، (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.
- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد الصباغ، نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية.
- الدعاء، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق محمد سعيد بن محمد حسن البخاري، ط١، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ط١، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. دار الريان، القاهرة، مصر.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، للإمام المؤرخ برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن علي ابن فرحون اليعمري (ت٧٩٩هـ)، ط١، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ديوان ابن الفارض، للشاعر الصوفي سلطان العاشقين شرف الدين أبي حفص عمر بن أبي الحسن ابن الفارض الحموي المصري (ت٦٣٢هـ)، طبع سنة (١٩٦٢م)، دار صادر، بيروت، لبنان.
- ديوان أبي العتاهية، للشاعر العباسي الزاهد أبي العتاهية إسماعيل بن القاسم العنزي (ت٢١١هـ)، تحقيق شكري فيصل، طبع سنة (١٣٨٤ ـ ١٩٦٥)، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، سورية.
- ديوان أبي فراس الحمداني، للشاعر الأمير أبي فراس الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الحمداني (ت٣٥٧هـ) تحقيق سامي الدهان، طبع سنة (١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان.
- ديوان أبي مدين، للإمام العارف أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي التلمساني (ت٥٩٤هـ)، تحقيق عبد القادر سعود، وسليمان القرشي، ط١، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- ديوان الإسلام، للإمام المحدث شمس الدين أبي المعالي محمد بن عبد الرحمـٰن ابن الغزي (ت١١٦٧هـ)، تحقيق سيد كسروي حسن، ط١، (١٤١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ديوان البستي، للشاعر الأديب أبي الفتح علي بن الحسين البستي (ت٤٠٠هـ)، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق، طبع سنة (١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م).
- ديوان الجرجاني، للإمام القاضي الأديب أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق إبراهيم صالح، سميح إبراهيم صالح، ط١، (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م)، دار البشائر، دمشق، سوريا.
- ديوان الششتري، للإمام العارف أبي الحسن علي بن عبد الله الششتري الأندلسي المغربي الشاذلي (ت٦٦٨هـ)، تحقيق علي سامي النشار، ط١، (١٩٦٠م)، دار المعارف، مصر.
- ديوان الصاحب بن عباد، للعلامة الأديب أبي القاسم إسماعيل بن عباد القزويني المعروف بالصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ)، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.
- ديوان المتنبي، للشاعر الحكيم أبي الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن المتنبي الكوفي الكندي (ت٣٥٤هـ)، طبع سنة (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- ديوان الهذليين، لمجموعة من الشعراء الهذليين، ترتيب وتعليق محمد محمود الشنقيطي، ط٢، (١٩٩٥م)، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر.
- ديوان اليافي، للشيخ العارف عمر بن محمد اليافي الحسيني (ت١٢٣٣هـ)، ط١، (١٣١١هـ)، المطبعة العلمية، بيروت، لبنان.
- ديوان امرئ القيس، للشاعر الجاهلي الكبير ذي القروح امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (ت٨٠ ق هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، (١٩٨٤م)، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- ديوان بهاء الدين زهير، للأديب بهاء الدين أبي الفضل زهير بن محمد المهلبي (٦٥٦هـ)، طبع سنة (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م)، دار صادر ودار بيروت، بيروت، لبنان.
- ديوان دريد بن الصمة، للشاعر الجاهلي دريد بن الصمة الجشمي (ت٦٣٠م)، تحقيق عمر عبد الرسول، ط١، (١٩٨٥م)، دار المعارف، القاهرة، مصر.

- ديوان ذي الرمة، للشاعر الأموي الفحل ذي الرمة أبي الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس المضري (ت١١٧هـ)، تحقيق أحمد حسن بسبح، ط١، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ديوان عمرو بن معدي كرب، للصحابي أبي ثور عمرو بن معدي كرب الزبيدي (ت٢١هـ)، تحقيق مطاع الطرابيشي، ط٢، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق، سورية.
- الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة، للإمام المفسر اللغوي الأديب أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق أبو اليزيد أبو زيد العجمي، ط١، (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)، دار السلام، القاهرة، مصر.
- ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، للإمام العارف أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي السلمي (ت٤١٢هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي، ط١، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م)، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- ذم الدنيا، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط١، (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
- ذيل مرآة الزمان، للإمام المؤرخ قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد اليونيني (ت٧٢٦هـ)، ط٢، (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للإمام اللغوي النحوي المفسر أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق عبد الأمير مهنا، ط١، (١٤١٢هـ - ١٩٩١م)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.
- الرحلة العياشية، للشيخ الرحالة أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (ت١٠٩٠هـ)، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط١، (٢٠٠٦م)، دار السويدي، أبو ظبي، الإمارات.
- الرسالة القشيرية، للأستاذ الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت٤٦٥هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- رسائل ابن عربي، لسلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي ابن عربي الحاتمي الطائي (ت٦٣٨هـ)، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، ط١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الرضا عن الله بقضائه، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق ضياء الحسن السلفي، ط١، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، الدار السلفية، بومباي، الهند.
- الرعاية لحقوق الله، للإمام العارف أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٤٣هـ)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، للإمام أبي القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت٥٨١هـ)، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، ط١، (١٤٢١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي (ت٣٥٤هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ومحمد عبد الرزاق حمزة، ومحمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط١، (١٤٢٢هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- الزهد الكبير، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق عامر حيدر، ط٣، (١٤١٧هـ)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
- الزهد والرقائق، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك الحنظلي المروزي (ت١٨١هـ)، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، طبع سنة (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، طبعة مصورة عن طبعة المجلس العلمي في الهند، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- الزهد، للإمام الحافظ أبي السري هناد بن السري (ت٢٤٣هـ)، تحقيق عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي، ط١، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م)، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.
- الزهد، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، ط١، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، دار ابن كثير، دمشق، سورية.
- الزهد، للإمام الحافظ أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، ط١، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- زهر الآداب وثمر الألباب، للإمام الأديب الناقد أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري الحصري القيرواني (ت٤٥٣هـ)، تحقيق زكي مبارك ومحمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- سراج الملوك، للإمام الحافظ الفقيه الأديب أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت٥٢٠هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- السلسل العذب والمنهل الأحلىٰ، للعلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحضرمي، تحقيق محمد الفاسي، طبع سنة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م)، وهو جزء ضمن «مجلة معهد المخطوطات العربية» (المجلد العاشر/ الجزء الأول).
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، للمحدث المؤرخ أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الحسني الكتاني (ت ١٣٤٥ هـ)، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، ط١، (١٤٢٥هـ)، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.
- السنة، للإمام المحدث الرحلة أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني (ت٢٨٧هـ)، تحقيق محمد ناصر الألباني، ط١، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- سنن ابن ماجه، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ت٢٧٣هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، (١٣٧٣هـ)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.
- سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- سنن الترمذي، للإمام الحافظ أبي عيسىٰ محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، ط٢، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.
- سنن الدارمي، المسمىٰ: «مسند الدارمي»، للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن الدارمي (ت٢٥٥هـ)، تحقيق حسين سليم أسد، ط١، (١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م)، دار المغني، الرياض، السعودية.
- السنن الكبرىٰ وفي ذيله الجوهر النقي، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، ط١، (١٣٤٤هـ)، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند.
- السنن الكبرىٰ، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، تحقيق حسن شلبي، ط١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- سنن النسائي الصغرى، المسمى: «المجتبىٰ من السنن»، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سورية.

- سير أعلام النبلاء، للإمام للحافظ المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)، بإشراف شعيب الأرنؤوط، ط٣، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- شأن الدعاء، للإمام الحافظ أبي سليمان حمد بن محمد ابن الخطاب المعروف بالخطابي (ت٣٨٨هـ)، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، ط٣، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، للشيخ محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف (ت١٣٦٠هـ)، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط١، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للإمام المؤرخ أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، تحقيق محمود الأرنؤوط، ط١، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، دار ابن كثير، دمشق، سورية. بيروت، لبنان.
- شرح أسماء الله الحسنىٰ، للأستاذ الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت٤٦٥هـ)، تحقيق أحمد عبد المنعم الحلواني، ط٢، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، دار آزال، بيروت، لبنان.
- الشرح الحادي عشر على الحكم العطائية، للإمام أبي العباس شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد زروق البرنسي الفاسي (ت٨٩٩هـ)، تحقيق نزار حمادي، ط١، (٢٠١١م)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح المسمى: «الكاشف عن حقائق السنن»، للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت٧٤٣هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، السعودية.
- شرح المقاصد، للإمام النحرير سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، طبع سنة (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، دار المعارف النعمانية، باكستان.
- شرح المقدمات، للإمام المتكلم المحدث محمد بن يوسف بن عمر السنوسي الحسني (ت٨٩٥هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (١٤٤٠هـ)، دار التقوىٰ، دمشق، سورية.
- شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للإمام محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (ت١١٢٢هـ)، ط١، (١٤١٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- شرح ديوان الحماسة، للأديب أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي (ت٥٠٢هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر.
- شرح ديوان الحماسة، للإمام الأديب أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (ت٤٢١هـ)، تحقيق غريد الشيخ، ط١، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- شرح ديوان المتنبي، للإمام المفسر أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (ت٤٦٨هـ)، نشره فريدريخ ديتريشي، طبع سنة (١٨٤١م)، برلين، ألمانيا.
- شرح شطرنج العارفين المسمىٰ: «أنيس الخائفين وسمير العاكفين في شرح شطرنج العارفين» للعارف بالله محمد بن الهاشمي بن عبد الرحمـٰن الحسني التلمساني ثم الدمشقي (ت١٣٨١هـ)، طبعة خاصة.
- شرح مقامات الحريري، للإمام الأديب أبي عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسي الشريشي (ت٦١٩هـ)، ط٢، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم، للإمام الحافظ القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ)، تحقيق عبده كوشك، ط١، (١٤٣٤هـ - ٢٠٠٣م)، دار الفيحاء، دمشق، سورية. مكتبة الغزالي، دمشق، سورية.

- الشكر، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق بدر البدر، ط٣، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، المكتب الإسلامي، الكويت.
- الشمائل المحمدية، للإمام أبي عيسىٰ محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي (ت٢٧٩هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- الصبر، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، ط١، (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت٣٥٤هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط١، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- صحيح البخاري، المسمى: «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه»، (الطبعة السلطانية اليونينية)، لإمام الحفاظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، عني به محمد زهير بن ناصر الناصر، ط٣، (١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م)، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان. دار المنهاج، جدة، السعودية.
- صحيح مسلم، المسمى: «المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم»، للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، المطبعة العامرة، القاهرة، مصر، وتم اعتماد ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي في تحقيقه لطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- صفة الصفوة، للإمام الحافظ المؤرخ أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعه جي، ط٣، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الصمت وآداب اللسان، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق أبي إسحاق الحويني، ط١، (١٤١٠هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- طبقات الأولياء، للإمام الحافظ سراج الدين أبي حفص عمر بن علي ابن الملقن المصري (ت٨٠٤هـ)، تحقيق نور الدين شريبه، ط١، (١٣٧٢هـ)، نشرة جماعة الأزهر للنشر والتوزيع، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر.
- طبقات الشاذلية الكبرىٰ، المسمىٰ: «جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية»، لأبي علي الحسن بن محمد الكوهن الفاسي المغربي (ت١٣٤٧هـ)، تحقيق مرسي محمد علي، ط٢، (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- طبقات الشافعية الكبرىٰ، للإمام الأصولي قاضي القضاة تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧١هـ)، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، ط٢، (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.
- طبقات الصوفية، للإمام أبي عبد الرحمٰن محمد بن الحسين السلمي النيسابوري (ت٤١٢هـ)، تحقيق نور الدين شريبة، ط١، (١٣٧٢هـ)، نشرة جماعة الأزهر للنشر والتأليف، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر.
- الطبقات الكبرىٰ، للإمام الحافظ المؤرخ أبي عبد الله محمد بن سعد الهاشمي البصري (ت٢٣٠هـ)، تحقيق إحسان عباس، ط١، (١٩٦٨م)، دار صادر، بيروت، لبنان.
- الطرر والحواشي، للإمام أبي العباس شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد زروق البرنسي الفاسي (ت٨٩٩هـ)، تحقيق نزار حمادي، ط١، (١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م)، دار التقوىٰ، دمشق، سورية. دار الإمام ابن عرفة، تونس.

- العبر في خبر من غبر، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط١، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- عدة المريد الصادق، للإمام أبي العباس شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد زروق البرنسي الفاسي (ت٨٩٩هـ)، تحقيق الصادق بن عبد الرحمٰن الغرياني، ط١، (١٤٢٧هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- عرائس البيان في حقائق القرآن، للإمام العارف أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط١، (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- العزلة، للإمام الحافظ أبي سليمان حمد بن محمد ابن الخطاب المعروف بالخطابي (ت٣٨٨هـ)، ط٢، (١٣٩٩هـ)، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر.
- العظمة، للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر أبي الشيخ الأصبهاني (ت٣٦٩هـ)، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، ط١، (١٤٠٨هـ)، دار العاصمة، الرياض، السعودية.
- العقد الفريد، للإمام الأديب الشاعر أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، تحقيق مفيد محمد قميحة وعبد المجيد الترحيني، ط١، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- عقلاء المجانين، للإمام الأديب الواعظ المفسر أبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (ت٤٠٦هـ)، تحقيق عمر الأسعد، ط١، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م)، دار النفائس، بيروت، لبنان.
- عمل اليوم والليلة، للإمام أحمد بن محمد بن إسحاق ابن السني الدينوري (ت٣٦٤هـ)، تحقيق كوثر البرني، ط١، (١٤١٨هـ)، دار الأرقم، بيروت، لبنان.
- عوارف المعارف، للإمام العارف المربي شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد القرشي البكري السهروردي (ت٦٣٢هـ)، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، ط٢، (٢٠١٧م)، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- العواصم من القواصم، للإمام الفقيه القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي (ت٥٤٣هـ)، تحقيق عمار طالبي، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر.
- عيوب النفس، للإمام العارف أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي السلمي (ت٤١٢هـ)، تحقيق مجدي فتحي السيد، ط٢، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م)، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر.
- عيون الأخبار، للإمام اللغوي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، ط٢، (١٩٩٦م)، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر.
- الغرر البهية في شرح منظومة البهجة الوردية، للإمام قاضي القضاة شيخ الإسلام زين الدين أبي يحيىٰ زكريا بن محمد الأنصاري (ت٩٢٦هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، (١٩٩٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، بعناية محب الدين الخطيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م)، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة السلفية لدىٰ مكتبة الغزالي، دمشق، سورية.
- الفتوة، للإمام العارف أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي السلمي (ت٤١٢هـ)، تحقيق إحسان ذنون الثامري ومحمد عبد الله القدحات، ط١، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م)، دار الرازي، عمان، الأردن.
- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، للإمام العارف أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، تحقيق عبد الرحمٰن حسن محمود، دار عالم الفكر، القاهرة، مصر.

- الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر سلطان العارفين محيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي ابن عربي الحاتمي الطائي (ت٦٣٨هـ)، طبعة مصورة لدىٰ دار صادر عن دار الكتب العربية الكبرىٰ بالقاهرة، بيروت، لبنان.
- الفرج بعد الشدة، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق عبيد الله بن عالية، ط٢، (١٤٠٨هـ)، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر.
- الفردوس بمأثور الخطاب، للإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو الديلمي (ت٥٠٩هـ)، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، ط١، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الفروق، المسمىٰ «أنوار البروق في أنواء الفروق»، للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمٰن القرافي (ت٦٨٤هـ)، تحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة، ط١، (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م)، دار السلام، القاهرة، مصر.
- فصوص الحكم، لسلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي ابن عربي الحاتمي الطائي (ت٦٣٨هـ)، تحقيق أبو العلا عفيفي، طبع سنة (١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م) دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- فضائل الصحابة، للإمام الحافظ أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق وصي الله عباس، ط١، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- الفوائد، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، ط١، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م)، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للإمام الفقيه الحافظ زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين القاهري المناوي (ت١٠٣١هـ)، ط١، (١٣٥٦هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر.
- القبور، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق طارق محمد سلكوع العمود، ط١، (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م)، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، السعودية.
- قصر الأمل، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق محمد يوسف، ط٢، (١٤١٧هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد، للإمام أبي طالب محمد بن علي بن عطية المكي (ت٣٨٦هـ)، تحقيق محمود إبراهيم الرضواني، ط١، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م)، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر.
- الكامل في ضعفاء الرجال، للإمام الحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت٣٦٥هـ)، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط١، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للإمام المفسر أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت٤٢٧هـ)، تحقيق أبي محمد بن عاشور، ط١، (١٤٢٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- الكفاية في علم الرواية، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق أبي عبد الله السورقي وإبراهيم المدني، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، السعودية.
- لطائف الإشارات، للأستاذ الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت٤٦٥هـ)، تحقيق إبراهيم البسيوني، ط٣، (٢٠٠٠م)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
- لطائف المنن، للإمام العارف تاج الدين أبي العباس أحمد بن محمد ابن عطاء الله الإسكندري (ت٧٠٩هـ)، تحقيق عبد الحليم محمود، ط٣، (٢٠٠٦م)، دار المعارف، القاهرة، مصر.

- اللمع، للإمام الزاهد أبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي (ت٣٧٨هـ)، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، ط١، (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م)، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر. مكتبة المثنى، بغداد، العراق.
- ما رواه الأكابر عن مالك بن أنس، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن مخلد الدوري البغدادي العطار (ت٣٣١هـ)، تحقيق عواد الخلف، ط١، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان.
- المجالسة وجواهر العلم، للإمام أبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (ت٣٣٣هـ)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، طبع سنة (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للإمام المفسر اللغوي الأديب أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق عمر الطباع، ط١، (١٤٢٠هـ)، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان.
- المحاضرات، للإمام الأديب نور الدين أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي (ت١١٠٢هـ)، تحقيق محمد حجي، محمد الشرقاوي إقبال، ط٢، (١٤٠٢هـ ١٩٨٢م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- المحتضرين، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق محمد خير رمضان، ط١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، للإمام الحافظ عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني (ت٧٦٨هـ)، تحقيق خليل منصور، ط١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- المرض والكفارات، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق عبد الوكيل الندوي، ط١، (١٤١١هـ - ١٩٩١م)، الدار السلفية، بومباي، الهند.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للإمام الفقيه المحدث نور الدين أبي الحسن ملا علي القاري بن سلطان محمد الهروي (ت١٠١٤هـ)، ط١، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن البيِّع الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، ط١، (١٣٤٢هـ)، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند.
- مسند الإمام أحمد، للإمام الحافظ أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، طبع سنة (١٣١٣هـ)، المطبعة الميمنية، القاهرة، مصر.
- مسند البزار، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (ت٢٩٢هـ)، تحقيق محفوظ الرحمٰن زين الله، ط١، (٢٠٠٩م)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية.
- مسند الشاميين، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط١، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- مسند الشهاب، المسمى: «شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية» للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت٤٥٤هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- مسند الموطأ، للإمام أبي القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله بن محمد الجوهري (ت٣٨١هـ)، تحقيق لطفي بن محمد الصغير وطه بن علي بوسريح، ط١، (١٩٩٧م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- مشكاة الأنوار، للإمام المتكلم حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق أبو العلا عفيفي، طبع سنة (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م)، الدار القومية، القاهرة، مصر.

- مصارع العشاق، للإمام المحدث الأديب أبي محمد جعفر بن أحمد السراج القاري (ت٥٠٠هـ)، ط١، (١٩٩٩م)، دار صادر، بيروت، لبنان.
- المصنف، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة العبسي الكوفي (ت٢٣٥هـ)، تحقيق محمد عوامة، ط١، (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م)، دار القبلة، جدة، السعودية. مؤسسة علوم القرآن، دمشق، سورية.
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لأبي زيد عبد الرحمٰن بن محمد الأنصاري الأسيدي الصباغ (ت٦٩٦هـ)، أكمله أبو الفضل أبو القاسم بن عيسىٰ بن ناجي التنوخي (ت٨٣٩هـ)، تحقيق إبراهيم شبوح، ط٢، (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م)، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- معجز أحمد، المسمىٰ: «شرح ديوان أبي الطيب المتنبي»، المنسوب للشاعر الفيلسوف أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري (ت٤٤٩هـ)، ط٢، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م)، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- معجم الأدباء، المسمىٰ: «إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب»، للإمام الأديب المؤرخ الرحالة شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، ط١، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- المعجم الأوسط، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن الحسيني، طبع سنة (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م)، دار الحرمين، القاهرة، مصر.
- معجم البلدان، للإمام الأديب المؤرخ الرحالة شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ)، عني به المستشرق وستنفيلد، ط٢، (١٤١٥ه ـ ١٩٩٥م)، دار صادر، بيروت، لبنان.
- معجم التاريخ «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)»، لعلي الرضا قره بلوط، وأحمد طوران قره بلوط، ط١، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م)، دار العقبة، قيصرىٰ، تركيا.
- المعجم الكبير، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر.
- المعجم، للإمام الحافظ أبي سعيد أحمد بن محمد ابن الأعرابي البصري (ت٣٤٠هـ)، تحقيق عبد المحسن الحسيني، ط١، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م)، دار ابن الجوزي، الرياض، السعودية.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، للإمام النحوي جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، تحقيق صلاح عبد العزيز السيد، ط٢، (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م)، دار السلام، القاهرة، مصر.
- المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، للإمام أحمد بن محمد بن عباد المحلي (ت بعد ١١٥٣هـ)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر.
- مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة، للإمام العارف الأديب أبي العباس أحمد بن محمد ابن العريف الصنهاجي الأندلسي المري (ت٥٣٦هـ)، جمعه: أبو بكر عتيق بن مؤمن (ت٥٤٨هـ)، تحقيق عصمت عبد اللطيف دندش، ط١، (١٩٩٣م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- مفتاح الفضائل والنعم في الكلام علىٰ بعض ما يتعلق بالحكم (الشرح السادس عشر)، للإمام أبي العباس شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد زروق البرنسي الفاسي (ت٨٩٩هـ)، تحقيق محمد إدريس طيب، طبع سنة (١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- المفردات في غريب القرآن، للإمام المفسر اللغوي الأديب أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط٢، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م)، دار القلم، دمشق، سوريا. الدار الشامية، بيروت، بيروت.

- **مفيد العلوم ومبيد الغموم**، للقاضي المتفنن زكريا بن محمد **القزويني** (ت٦٨٢هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمٰن **السخاوي** (ت٩٠٢هـ)، تحقيق محمد عثمان الخشت، ط١، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- **المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ)، بإشراف اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **المقفى الكبير**، للإمام المؤرخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر **المقريزي** (ت٨٤٥هـ)، تحقيق محمد اليعلاوي، ط٢، (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- **مناقب الشافعي**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر الحسيني، ط١، (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م)، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر.
- **المنامات**، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد **ابن أبي الدنيا** القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط١، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
- **المنتخب من كتاب الزهد والرقائق**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ)، تحقيق عامر حسن صبري، ط١، (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.
- **المنقذ من الضلال**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٤هـ)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **منهاج العابدين إلىٰ جنة رب العالمين**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق بوجمعة عبد القادر مكري، ط١، (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **مواقع النجوم**، لسلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي **ابن عربي** الحاتمي الطائي (ت٦٣٨هـ)، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- **المواقف والمخاطبات**، للإمام العارف محمد بن عبد الجبار **النفري** (ت٣٥٤هـ)، تحقيق أرثر يوحنا أربرىٰ، طبع سنة (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **الموشىٰ**، للإمام الأديب أبي الطيب محمد بن أحمد **الوشاء** (ت٣٢٥هـ)، تحقيق كمال مصطفىٰ، ط٢، (١٣٧١هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- **الموطأ**، لإمام دار الهجرة أبي عبد الله **مالك بن أنس** بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت١٧٩هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع سنة (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- **ميزان العمل**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **نشر المحاسن الغالية في فضائل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العلية**، للإمام الفقيه المؤرخ عفيف الدين أبي السعادات أبي محمد عبد الله بن أسعد **اليافعي** المكي (ت٧٦٨هـ)، تحقيق خليل عمران المنصور، طبع سنة (٢٠٠٠م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للإمام الأديب المؤرخ أبي العباس أحمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ)، تحقيق إحسان عباس، ط١، (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م)، دار صادر، بيروت، لبنان.
ـ نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ)، تحقيق توفيق محمد التكلة، ط١، (١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م)، دار النوادر، دمشق، سورية.
ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، للإمام أبي العباس أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التنبكتي (ت١٠٣٦هـ)، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط٢، (٢٠٠٠م)، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا.
ـ هدية العارفين، للعلامة إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابانى البغدادي (ت١٣٩٩هـ)، طبعة مصورة عن منشورة وكالة المعارف الجليلة إستنبول (١٩٥١م) لدىٰ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
ـ الهم والحزن، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق مجدي فتحي السيد، ط١، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م)، دار السلام، القاهرة، مصر.
ـ الوافي بالوفيات، للإمام الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفىٰ، ط١، (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م)، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.
ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، للإمام القاضي المؤرخ أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان الإربلي (ت٦٨١هـ)، تحقيق إحسان عباس، ط١، (١٣٨٨ه ـ ١٩٦٨م) دار صادر، بيروت، لبنان.
ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، للإمام الأديب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، تحقيق مفيد محمد قمحية، ط١، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
ـ اليقين، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ)، تحقيق ياسين محمد السورس، ط١، (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.

* * *

محتوى الكتاب

بين يدي الكتاب	٧
ترجمة الإمام ابن عطاء الله الإسكندري	١١
ترجمة الإمام ابن عباد	٢٦
سطوع شمس « الحكم العطائية » في سماء العرفان	٤٦
« حكم ابن عطاء الله »	٤٨
مكانة « الحكم العطائية » بين كتب الصوفية	٥٠
« حكم ابن عطاء الله » وعلم التوحيد	٥٣
كلمة عن كتاب «التنبيه»	٥٧
نظرة في عنوان الكتاب	٥٧
المكانة العلمية لـ « التنبيه »	٥٨
داعية التأليف	٦٠
مصادر « التنبيه » وملامحه العامة	٦٠
منهج العمل في الكتاب	٦٢
وصف النسخ الخطية	٦٥
صور من المخطوطات المستعان بها	٧١

* * *

متن « الحكم العطائية »	٩١

* * *

« التنبيه » شرح الحكم العطائية	١٥١
ديباجة الكتاب	١٥٣

داعية تأليف الكتاب ١٥٥

الباب الأول

من علامة الاعتماد ١٥٩

[١] ـ من علامة الاعتماد على العمل ١٦١

[٢] ـ إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية ١٦٥

[٣] ـ سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار ١٧١

[٤] ـ أرح نفسك من التدبير ١٧٣

[٥] ـ اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك ١٧٥

[٦] ـ لا يكن تأخير أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك ١٧٩

[٧] ـ لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود ١٨٤

[٨] ـ إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قل عملك ١٨٦

[٩] ـ تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال ١٩٢

[١٠] ـ الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها ١٩٣

[١١] ـ ادفن وجودك في أرض الخمول ١٩٥

[١٢] ـ ما نفع القلب شيء مثل عزلة ٢٠٦

[١٣] ـ كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ٢١٣

[١٤] ـ الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه ٢١٦

[١٥] ـ مما يدلك على وجود قهره سبحانه ٢١٩

[١٦] ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء ٢٢٣

الباب الثاني

في إرادة غير المراد ٢٢٩

[١٧] ـ ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن ٢٣١

[١٨] ـ إحالتك الأعمال على وجود الفراغ ٢٣٤

[١٩] ـ لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ٢٣٦
[٢٠] ـ ما أرادت همة سالك أن تقف ٢٣٨
[٢١] ـ طلبك منه اتهام له ٢٤١
[٢٢] ـ ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه ٢٤٣
[٢٣] ـ لا تترقب فروغ الأغيار ٢٤٤
[٢٤] ـ لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هٰذه الدار ٢٤٦
[٢٥] ـ ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ٢٥١
[٢٦] ـ من علامات النجح في النهايات ٢٥٣
[٢٧] ـ من أشرقت بدايته أشرقت نهايته ٢٥٥
[٢٨] ـ ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر ٢٥٦
[٢٩] ـ شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ٢٥٩
[٣٠] ـ ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ الواصلون إليه ٢٦٣
[٣١] ـ اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه ٢٦٤

الباب الثالث
في النقصان والازدياد ٢٦٧

[٣٢] ـ تشوفك إلىٰ ما بطن فيك من العيوب ٢٦٩
[٣٣] ـ الحق ليس بمحجوب ٢٧٢
[٣٤] ـ اخرج من أوصاف بشريتك ٢٧٣
[٣٥] ـ أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ٢٧٩
من مهمات الدين مطالعة كتب التصوف ٢٨١
[٣٦] ـ شعاع البصيرة يشهدك قربه منك ٢٨٥

الباب الرابع
في التوجه للحق والعباد ٢٨٧

[٣٧] ـ لا تتعد نية همتك إلىٰ غيره ٢٨٩

[٣٨] ـ لا ترفعن إلىٰ غيره حاجة هو موردها عليك ٢٩١
[٣٩] ـ إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه ٢٩٥
[٤٠] ـ العجب كل العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه ٣٠٠
[٤١] ـ لا ترحل من كون إلىٰ كون فتكون كحمار الرحا ٣٠١

الباب الخامس
في الصحبة وما يُستفاد منها ٣٠٥
[٤٢] ـ لا تصحب من لا ينهضك حاله ٣٠٧
[٤٣] ـ ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك ٣١٥
[٤٤] ـ ما قل عمل برز من قلب زاهد ٣١٦
[٤٥] ـ حسن الأعمال من نتائج حسن الأحوال ٣١٩
[٤٦] ـ لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ٣٢١

الباب السادس
في أحكام القلوب ٣٢٧
[٤٧] ـ من علامة موت القلب عدم الحزن علىٰ ما فاتك ٣٢٩
[٤٨] ـ لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله ٣٣١
[٤٩] ـ لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله ٣٣٤
[٥٠] ـ لا عمل أرجىٰ للقبول من عمل يغيب عنك شهوده ٣٣٦
[٥١] ـ إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً ٣٣٩
[٥٢] ـ أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار ٣٤٠
[٥٣] ـ أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك ٣٤١
[٥٤] ـ الأنوار مطايا القلوب والأسرار ٣٤٢
[٥٥] ـ النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس ٣٤٣
[٥٦] ـ النور له الكشف والبصيرة لها الحكم ٣٤٥

[٥٧] ـ لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك ٣٤٦
[٥٨] ـ قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم ٣٤٧

الباب السابع
في الطمع غير المحبوب ٣٤٩

[٥٩] ـ ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع ٣٥١
[٦٠] ـ ما قادك شيء مثل الوهم ٣٥٩
[٦١] ـ أنت حر مما أنت منه آيس وعبد لما أنت فيه طامع ٣٦١
[٦٢] ـ من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه ٣٦٥
[٦٣] ـ من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ٣٦٦
[٦٤] ـ خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه ٣٧٠
[٦٥] ـ من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه ٣٧٢
وجوب صحبة الشيخ الكامل ٣٧٦
أقوالهم في سوء أدب المريد ٣٨١
[٦٦] ـ إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد ٣٩٥
[٦٧] ـ قوم أقامهم الحق لخدمته وقوم اختصهم لمحبته ٣٩٧

الباب الثامن
في الواردات ٣٩٩

[٦٨] ـ قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة ٤٠١
[٦٩] ـ من رأيته مجيباً عن كل ما سئل ٤٠٢
[٧٠] ـ إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين ٤٠٥
[٧١] ـ من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول آجلاً ٤٠٧
[٧٢] ـ إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيماذا يقيمك ٤١١
[٧٣] ـ متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ نعمه ٤١٣

الباب التاسع
في المطالب والتوجهات ٤١٥
[٧٤] ـ خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك ٤١٧
[٧٥] ـ الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامة الاغترار ٤١٩
[٧٦] ـ ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته ٤٢١
[٧٧] ـ الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية ٤٢٣
[٧٨] ـ مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية ٤٢٥
[٧٩] ـ بسطك كي لا يبقيك مع القبض ٤٢٦
[٨٠] ـ العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ٤٢٨
[٨١] ـ البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح ٤٣١
[٨٢] ـ ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك ٤٣٥
[٨٣] ـ متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء ٤٣٦
[٨٤] ـ الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة ٤٣٧
[٨٥] ـ إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى ٤٣٩
[٨٦] ـ الطي الحقيقي أن تطوى مسافة الدنيا عنك ٤٤١
[٨٧] ـ العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان ٤٤٣

الباب العاشر
في جزاء العمل ٤٤٥
[٨٨] ـ جل ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئة ٤٤٧
[٨٩] ـ كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك أهلاً لها ٤٤٨
[٩٠] ـ كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته ٤٤٩
[٩١] ـ من عبده لشيء يرجوه منه ٤٥١
[٩٢] ـ متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره ٤٥٦

[٩٣] ـ إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه ٤٥٨
[٩٤] ـ ربما فتح لك باب الطاعة ٤٥٩
[٩٥] ـ معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ٤٦١
[٩٦] ـ نعمتان ما خرج موجود عنهما ٤٦٥
[٩٧] ـ أنعم عليك أولاً بالإيجاد وثانياً بتوالي الإمداد ٤٦٦
[٩٨] ـ فاقتك لك ذاتية ٤٦٩
[٩٩] ـ خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك ٤٧٢
[١٠٠] ـ متىٰ أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به ٤٧٤
[١٠١] ـ متىٰ أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك ٤٧٦
[١٠٢] ـ العارف لا يزول اضطراره ٤٧٨
[١٠٣] ـ أنار الظواهر بأنوار آثاره ٤٨٠

الباب الحادي عشر
في أحكام البلايا والعلل ٤٨٣

[١٠٤] ـ ليخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك ٤٨٥
[١٠٥] ـ من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره ٤٨٨
وجوهٌ من الألطاف والمنن في البلايا والمحن ٤٩٠
[١٠٦] ـ لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك ٥٠١
[١٠٧] ـ سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ٥٠٢
[١٠٨] ـ لا تطالب ربك بتأخر مطلبك ٥٠٤
[١٠٩] ـ متىٰ جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره ٥٠٦
[١١٠] ـ ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه ٥٠٨

الباب الثاني عشر
في الأوراد ٥١٥

[١١١] ـ لا يستحقر الورد إلا جهول ٥١٧

[١١٢] ـ الوارد يوجد في الدار الآخرة ٥١٧
[١١٣] ـ الورد هو طالبه منك ٥١٧
[١١٤] ـ ورود الإمداد بحسب الاستعداد ٥٢٣
[١١٥] ـ الغافل إذا أصبح نظر ماذا يفعل ٥٢٤
[١١٦] ـ إنما استوحش العباد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله ٥٢٩
[١١٧] ـ أمرك في هـٰذه الدار بالنظر في مكوناته ٥٣٠
[١١٨] ـ علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه ٥٣١
[١١٩] ـ لما علم الحق منك وجود الملل لون لك الطاعات ٥٣٣
[١٢٠] ـ ليكن همك إقامة الصلاة ٥٣٣
[١٢١] ـ الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب ٥٣٦
[١٢٢] ـ الصلاة محل المناجاة ٥٣٧
[١٢٣] ـ علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها ٥٤١
[١٢٤] ـ متىٰ طلبت عوضاً علىٰ عمل طولبت بوجود الصدق فيه ٥٤٢
[١٢٥] ـ لا تطلب عوضاً علىٰ عمل لست له فاعلاً ٥٤٤
[١٢٦] ـ إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك ٥٤٥
[١٢٧] ـ لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك ٥٤٧

الباب الثالث عشر
في المقاصد والمراد ٥٤٩

[١٢٨] ـ كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً ٥٥١
[١٢٩] ـ منعك أن تدعي ما ليس لك مما للمخلوقين ٥٥٢
[١٣٠] ـ كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد ٥٥٧
[١٣١] ـ ما الشأن وجود الطلب إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب ٥٦٢
[١٣٢] ـ ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ٥٦٣
[١٣٣] ـ لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ٥٦٦

الباب الرابع عشر
في أحكام العلل في الأعمال ٥٦٩
[١٣٤] ـ لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول ٥٧١
[١٣٥] ـ أنت إلىٰ حلمه إذا أطعته أحوج منك إلىٰ حلمه إذا عصيته ٥٧٣
[١٣٦] ـ الستر علىٰ قسمين ستر عن المعصية وستر فيها ٥٧٥
[١٣٧] ـ من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ٥٧٨
[١٣٨] ـ ما صحبك إلا من صحبك وهو بعيبك عليم وليس ذلك إلا مولاك الكريم ٥٧٩
[١٣٩] ـ خير من تصحب من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه ٥٧٩
[١٤٠] ـ لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة ٥٨٠
[١٤١] ـ ما حجبك عن الله وجود موجود معه ٥٨٥
[١٤٢] ـ لولا ظهوره في المكونات ما وقع عليها وجود إبصار ٥٨٧
[١٤٣] ـ لو ظهرت صفاته لاضمحلت مكوّناته ٥٨٧
[١٤٤] ـ أظهر كل شيء لأنه الباطن ٥٨٨
[١٤٥] ـ أباح لك أن تنظر ما في المكونات ٥٨٩
[١٤٦] ـ الأكوان ثابتة بإثباته وممحوة بأحدية ذاته ٥٩١

الباب الخامس عشر
في المدح والذم على الأحوال ٥٩٥
[١٤٧] ـ الناس يمدحونك لما يظنونه فيك ٥٩٧
[١٤٨] ـ المؤمن إذا مدح استحيا من الله تعالى ٦٠٠
[١٤٩] ـ أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس ٦٠١
[١٥٠] ـ إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل فأثن عليه بما هو أهله ٦٠٣
[١٥١] ـ الزهاد إذا مدحو انقبضوا ٦٠٤
[١٥٢] ـ متىٰ كنت إذا أعطيت بسطك العطاء ٦٠٧

الباب السادس عشر

في أسباب التنصل من الذنوب ٦٠٩

[١٥٣] ـ إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً يؤيسك من حصول الاستقامة ٦١١

[١٥٤] ـ إذا أردت أن ينفتح لك باب الرجاء ٦١٢

[١٥٥] ـ ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط ٦١٣

[١٥٦] ـ مطالع الأنوار القلوب والأسرار ٦١٤

[١٥٧] ـ نور مستودع في القلوب مدده النور الوارد من خزائن الغيوب ٦١٦

[١٥٨] ـ نور يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف لك به عن أوصافه ٦١٧

[١٥٩] ـ ربما وقفت القلوب مع الأنوار كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار ٦١٨

[١٦٠] ـ ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر ٦٢٠

الباب السابع عشر

في أحكام الولاية والعناية ٦٢١

[١٦١] ـ سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ٦٢٣

[١٦٢] ـ ربما أطلعك على غيب ملكوته ٦٢٦

[١٦٣] ـ من اطلع على أسرار العباد ٦٢٩

[١٦٤] ـ حظ النفس في المعصية ظاهر جلي ٦٣٢

[١٦٥] ـ ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك ٦٣٥

[١٦٦] ـ استشرافك أن يعلم الخلق خصوصيتك ٦٣٩

[١٦٧] ـ غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ٦٤٥

[١٦٨] ـ من عرف الحق شهده في كل شيء ٦٤٩

[١٦٩] ـ إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك ٦٥١

[١٧٠] ـ إنما احتجب بشدة ظهوره وخفي عن الأبصار لعظيم نوره ٦٥٣

الباب الثامن عشر
في وجه الطلب للمطلوب ٦٥٥
[١٧١] ـ لا يكن طلبك سبباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه ٦٥٧
[١٧٢] ـ كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق ٦٦٠
[١٧٣] ـ جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل ٦٦١
[١٧٤] ـ عنايته فيك لا لشيء منك ٦٦٢
[١٧٥] ـ لم يكن في أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال ٦٦٢
[١٧٦] ـ علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية ٦٦٣
[١٧٧] ـ إلى المشيئة يستند كل شيء ٦٦٤

الباب التاسع عشر
في ترك الطلب ٦٦٧
[١٧٨] ـ ربما دلهم الأدب على ترك الطلب ٦٦٩
[١٧٩] ـ إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال ٦٧٢
[١٨٠] ـ ورود الفاقات أعيد المريدين ٦٧٣
[١٨١] ـ ربما وجدت من المزيد في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة ٦٧٧
[١٨٢] ـ الفاقات بسط المواهب ٦٧٨
[١٨٣] ـ إن أردت ورود المواهب عليك ٦٧٩
[١٨٤] ـ تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ٦٨٠

الباب العشرون
فيما يتعلق بالكرامة من الأدب ٦٨٣
[١٨٥] ـ ربما رزق الكرامة من لم تكمل له لاستقامة ٦٨٥
[١٨٦] ـ من علامة إقامة الحق لك في الشيء ٦٨٨
[١٨٧] ـ من عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة ٦٨٩

[١٨٨] ـ تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ٦٩٤
[١٨٩] ـ كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز ٦٩٦
[١٩٠] ـ من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته ٧٠٤
[١٩١] ـ ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار ٧٠٦
[١٩٢] ـ عبارتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد ٧٠٨
[١٩٣] ـ العبارة قوت لعائلة المستمعين ٧١٠
[١٩٤] ـ ربما عبر عن المقام من استشرف عليه ٧١٥
[١٩٥] ـ لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته ٧١٦
[١٩٦] ـ لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق ٧١٧
[١٩٧] ـ ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه ٧٣٤

الباب الحادي والعشرون
في أحكام الالتباس ٧٤١

[١٩٨] ـ إذا التبس عيك أمران ٧٤٣
[١٩٩] ـ من علامة اتباع الهوى ٧٤٨
[٢٠٠] ـ قيد الطاعات بأعيان الأوقات ٧٥٠
[٢٠١] ـ علم قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته ٧٥١
[٢٠٢] ـ أوجب عليك وجود خدمته وما أوجب عليك إلا دخول جنته ٧٥٤
[٢٠٣] ـ من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ٧٥٨
[٢٠٤] ـ ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما من به عليك ٧٦٣
[٢٠٥] ـ من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها ٧٦٤
[٢٠٦] ـ لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ٧٦٧
[٢٠٧] ـ تمكن حلاوة الهوى في القلب هو الداء العضال ٧٦٩
[٢٠٨] ـ لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق ٧٧٠
[٢٠٩] ـ كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك ٧٧١

الباب الثاني والعشرون

في أحكام الأنوار والأنفاس ٧٧٣

[٢١٠] ـ أنوار أذن لها في الوصول وأنوار أذن لها في الدخول ٧٧٥

[٢١١] ـ ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار ٧٧٧

[٢١٢] ـ فرّغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار ٧٧٧

[٢١٣] ـ لا تستبطئ منه النوال ٧٧٨

[٢١٤] ـ حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها ٧٧٩

[٢١٥] ـ ما فات من عمرك لا عوض له ٧٨١

[٢١٦] ـ ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً ٧٨٥

[٢١٧] ـ لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك ٧٨٧

[٢١٨] ـ لا يزيد في عزه إقبال من أقبل ٧٨٩

الباب الثالث والعشرون

في الحقائق والأسرار ٧٩١

[٢١٩] ـ وصولك إلى الله تعالىٰ وصولك إلى العلم به ٧٩٣

[٢٢٠] ـ قربك منه أن تكون شاهداً لقربه ٧٩٥

[٢٢١] ـ الحقائق ترد في حال التجلي مجملة ٧٩٦

[٢٢٢] ـ متىٰ وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد عليك ٧٩٨

[٢٢٣] ـ الوارد يأتي من حضرة قهار ٧٩٩

[٢٢٤] ـ كيف يحتجب الحق بشيء ٨٠٠

[٢٢٥] ـ لا تيئسن من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور ٨٠١

[٢٢٦] ـ لا تزكين وارداً لا تعلم ثمرته ٨٠٢

[٢٢٧] ـ لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها ٨٠٣

[٢٢٨] ـ تطلعك إلىٰ بقاء غيره دليل علىٰ عدم وجدانك له ٨٠٦

الباب الرابع والعشرون
في المنافع والمضار ٨٠٩
[٢٢٩] ـ النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه ٨١١
[٢٣٠] ـ ما تجد القلوب من الهموم والأحزان ٨١٣
[٢٣١] ـ من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ٨١٥
[٢٣٢] ـ ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه ٨٢٠
[٢٣٣] ـ إن أردت ألا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك ٨٢٤
[٢٣٤] ـ إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات ٨٢٥
[٢٣٥] ـ إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن ٨٢٥
[٢٣٦] ـ إنما جعل هـٰذه الدار محلاً للأغيار ٨٢٨
[٢٣٧] ـ علم أنك لا تقبل النصح المجرد ٨٣٢
[٢٣٨] ـ العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه ٨٣٣
[٢٣٩] ـ خير علم ما كانت الخشية معه ٨٣٦
[٢٤٠] ـ العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك ٨٤١
[٢٤١] ـ متىٰ آلمك عدم إقبال الناس عليك ٨٦٠
[٢٤٢] ـ إنما أجرى الأذىٰ عليك منهم كي لا تكون ساكناً إليهم ٨٦٢
[٢٤٣] ـ أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء ٨٦٢
[٢٤٤] ـ إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ٨٦٨
[٢٤٥] ـ جعله لك عدواً ليوشك به إليه ٨٧٢

الباب الخامس والعشرون
في رفع الهمة والاستكبار ٨٧٥
[٢٤٦] ـ من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً ٨٧٧
[٢٤٧] ـ ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأىٰ أنه فوق ما صنع ٨٧٩

[٢٤٨] ـ التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته ٨٨٤
[٢٤٩] ـ لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف ٨٨٦
[٢٥٠] ـ المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً ٨٨٧
[٢٥١] ـ ليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضاً ٨٨٨
[٢٥٢] ـ لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ٨٩٦
[٢٥٣] ـ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ٨٩٦
[٢٥٤] ـ جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ٩١٣
[٢٥٥] ـ وسعك الكون من حيث جثمانيتك ٩١٦
[٢٥٦] ـ الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون ٩١٨
[٢٥٧] ـ أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ٩٢٠
[٢٥٨] ـ لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية ٩٢٤
[٢٥٩] ـ إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ٩٢٤
[٢٦٠] ـ تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك ٩٢٤
[٢٦١] ـ دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ٩٢٦
[٢٦٢] ـ لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت ٩٢٩
[٢٦٣] ـ وجدان ثمرات الطاعات عاجلاً بشائر العاملين ٩٣٠
[٢٦٤] ـ كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك ٩٣١
[٢٦٥] ـ قوم تسبق أنوارهم أذكارهم ٩٣٣
[٢٦٦] ـ ذاكرٌ ذكرَ ليستنير قلبه ٩٣٣
[٢٦٧] ـ ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود وفكر ٩٣٥
[٢٦٨] ـ أشهدك من قبل أن استشهدك فنطقت بإلـٰهيته الظواهر ٩٣٦
[٢٦٩] ـ أكرمك كرامات ثلاثاً ٩٣٨
[٢٧٠] ـ رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده ٩٤١
[٢٧١] ـ من بورك له في عمره ٩٤٣

[٢٧٢] ـ الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه ٩٤٥
[٢٧٣] ـ الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار ٩٤٧
[٢٧٤] ـ الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له ٩٤٩
[٢٧٥] ـ الفكرة فكرتان فكرة إيمان وتصديق وفكرة شهود وعيان ٩٥٠

* * *

المكاتبات ٩٥١
المكاتبة الأولىٰ : في صفة السلوك إلى ملك الملوك ٩٥٣
المكاتبة الثانية : في إجلاء الحقيقة والشريعة في مقام الشكر ٩٦٤
المكاتبة الثالثة في بيان معنىٰ قوله عليه الصلاة والسلام : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » ٩٧٠
المكاتبة الرابعة : في بيان أحوال الناس عند ورود النعم ٩٧٦

* * *

المناجاة ٩٨٣

* * *

خاتمة ١٠٢٧

* * *

خواتيم النسخ الخطية ١٠٣٣
فهرس أهم مصادر ومراجع التحقيق ١٠٣٩
محتوى الكتاب ١٠٥٧

* * *